

تَلْفِيحُ الْأَخْبَارِ وَتَلْقِيحُ الْأَشَارِ

فِي

وَقَائِعُ قِرَانٍ وَبُلْغَارِ
وَمَلُوكِ السَّارِ

تَأَلَّفَتْ

مِنْ م. الرَّمْزِيِّ

قَدَّمَ لَهُ دَعْلَمَةٌ عَلَيْهِ رَضِيَ عَنْهَا سَدَّةٌ

إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ

المجلد الأول

توزيع مكتبة

عَبَّاسِ أَحْمَدِ البَنْكَاءِ

مكة المكرمة

تَلْفِيحُ الْأَخْبَارِ وَتَلْقِيحُ الْأَشَارِ

فِي

وَقَائِعِ قُرْآنِهِ بِلُغَاتِهِ

وَمُلُوكِ أَلْسِنَاتِهِ

تَأَلَّفَتْ

مِنْ مَوْلَانِي

قَدَّمَ لَهُ وَعَلَّمَهُ عَلَيْهِ وَوَضَعَ فِهْرَهُ

إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ

الْحِزْبِ الْأَوَّلِ

مَسْتَوْرَات

مَحْتَرَفَاتِ بَيْنَاتِ

لِنَشْرِكِ كِتَابِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ

بِكُرْتِ - بَيْرُوتِ - لُبْنَانِ



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Libanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكات
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (٩١١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

I S B N 2 - 7 4 5 1 - 3 4 8 3 - 3



9 7 8 2 7 4 5 1 3 4 8 3 7

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا كتاب «تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» لـ «م - م - الرمزي»^(١) وهو كتاب يتحدّث عن تاريخ التتار وتاريخ بلاد القوقاز «قزان».

منذ سنوات ونحن نسمع كثيرًا عن حرب بلاد القوقاز وأزمة الشيشان، وهي حرب تدور رحاها بين الجيش الروسي من جهة وبين أهل المناطق الإسلامية في روسيا ومناطق الاتحاد السوفياتي السابق.

والحقيقة أن حرب بلاد القوقاز وأزمة الشيشان لا تعود في جذورها إلى التسعينات من القرن الماضي حيث بدأت القوّات الروسية باحتلال الشيشان (سنة ١٩٩٤)، بل تعود في جذورها إلى قرون عديدة ماضية، أي منذ أن دخل الإسلام إلى تلك المناطق. وهذا ما يوضّحه المؤلف في كتابه «تلفيق الأخبار».

ومن خلال دراسة لأزمة الشيشان نستطيع أن نفهم أزمة المسلمين عامّة في بلاد الروس.

الجذور التاريخية للأزمة^(٢)

تمتد جذور الأزمة إلى الحقبة التاريخية الممتدة على طول القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث عملت روسيا القيصرية على احتلال منطقة القوقاز وإحاقها بأراضي الإمبراطورية.

(١) لم نستطع أن نجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين أيدينا.

(٢) انظر «مستقبل روسيا الاتحادية» تحليل النزعة الانفصالية في الشيشان، للعميد الركن نزار عبد القادر. مجلة الدفاع الوطني اللبناني، العدد ١٢، نيسان ١٩٩٥.

وقد أبدى سكان المنطقة مقاومة عنيدة ودائمة لعملية الهيمنة والضمّ الروسية، وكانت أقوى عمليات المقاومة، الثورة التي قادها الإمام شامل، الذي يُعتبر بطل الاستقلال في القوقاز، وهي دامت ٣٥ سنة، من العام ١٨٢٥ و١٨٥٩، وانتهت بخسارة الثوار لحرب الاستقلال، وفرار مئات الآلاف من الشيشانيين إلى الإمبراطورية العثمانية، وتهجير الباقين منهم إلى المناطق الجبلية التي لا تصلح للزراعة، وتسليم أراضيهم للقوزاق.

وعلى أثر التطورات الدراماتيكية التي اجتاحت روسيا العام ١٩١٧، تألّف الكونغرس الأول لشمال القوقاز، تبعه، في أيار ١٩١٧، تأليف لجنة مركزية لاتحاد شمال القوقاز المستقلة. وفي أيار ١٩١٨، وبعد استيلاء البلاشفة على السلطة في روسيا، أعلنت دولة شمال القوقاز استقلالها التام وانفصالها عن الاتحاد الروسي. وقد اعترف بهذا الاستقلال كلٌّ من ألمانيا، والنمسا وتركيا، وتبع ذلك توقيع تحالف بين هذه الدول والدولة الجديدة في ٨ حزيران ١٩١٨. ولكن قبل وصول البلاشفة، هاجم الجنرال دانيكين أحد جنرالات القيصر الدولة الجديدة، على رأس جيش من المتطوعين في حركة الروس البيض، فحرق القرى وقتل الثوار المقاومين لأن حركة الاستقلال هذه تمثل في نظره الأخطار نفسها التي تمثّلها البلشفية.

وما كاد دانيكين يقضي على أتباع الحكومة المؤقتة، حتى قامت حركة مقاومة جديدة بقيادة الشيخ أذون حجي الذي حزر جبال الداغستان والشيشان وأوستيا وكابارديا، وأنشأ إمارة شمال القوقاز المستقلة. وقد اعترف البلاشفة في البداية بالإمارة المستقلة، وساعدوا الشيخ حجي على مقاومة دانيكين، ووضعوا بتصرفه الجيش البلشفي الخامس بقيادة الجنرال نقولا جيكالو. ولكن عندما دخلوا المنطقة، ألغوا الإمارة المستقلة، وأعطوا للشيخ أذون حجي لقب مفتي شمال القوقاز. لكن هذا السلام لم يدم طويلاً، ففي آب ١٩٢٠، قامت ثورة ضد البلاشفة بقيادة سعيد بك، حفيد الإمام شامل بطل الاستقلال.

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٢١، إبان ثورة سعيد بك، انعقد في فلديكفهاز مؤتمر لسكان الجبال للبحث في تقرير المصير، فأسرعت موسكو وأرسلت ستالين الذي كان يشغل مركز القوميات، للاجتماع بهم. وقد توصل معهم إلى اتفاق تعترف به موسكو باستقلال «الجمهورية السوفياتية للجبلين»، مع تحقيق الشرطين اللذين وضعها المؤتمرون: قبول موسكو باعتماد الشريعة الإسلامية والعادات كمصدر للتشريع في الدولة، وعدم تدخّلها في شؤون الدولة الداخلية.

وقد ضمت الدولة السوفياتية للجبلين: الشيشان - أنغوشيا - كادبارديا - بالكاريا - كاراتشيا والداغستان. كما سمحت موسكو بتعليق صور الإمام شامل وغيره من القادة في الدور الحكومية بدل صور لينين، وأعيدت إلى هذه الدولة الأراضي الزراعية المسلوخة عنها. وهكذا عاشت منطقة شمال القوقاز بسلام كامل وانسجام كلي مع الإدارة المركزية في موسكو، وترأست إدارتها نخبة شيوعية آمنت بالترابط مع موسكو.

وفي العام ١٩٤١، شكّل السكّان الجبليون وحدات للدفاع عن الجمهورية ضدّ الغزو الألماني، كما تطوّع جميع الرجال في الجيش الأحمر وشاركوا في القتال على مختلف الجبهات حتى ١٩٤٢. لكن سوء التغذية والتموين، دفع بالعديد منهم إلى الهرب من الجبهات، فأوقفت القيادة الروسية في آذار ١٩٤٢ تطويع الشيشان والأنغوش في الجيش الأحمر، لكنها عادت وأجرت ثلاث عمليات تطويع وتعبئة بشرية في المنطقة خلال ١٩٤٢ و١٩٤٣. يومها شهد الجميع بشجاعة هؤلاء المقاتلين.

وما لبثت المؤامرة أن أطلّت برأسها من جديد على المنطقة. ففي شباط ١٩٤٤، وفي يوم الاحتفال بعيد الجيش الأحمر، تجمع الناس في كل القرى والمدن للمشاركة، وفجأة ظهرت شاحنات عسكرية وقرأ الضباط على الناس مرسوماً صادراً عن المجلس الأعلى للسوفيات يقرّر ترحيل كل الشيشانيين والأنغوش بسبب خيانتهم وتعاملهم مع العدو النازي. ولم يُسمح لأية عائلة باصطحاب أية أمتعة تزيد عن ٢٠ كلف. وهكذا جرى ترحيل ما يزيد على ٤٢٥ ألف شيشاني وأنغوشي عن المنطقة إلى الكازاخستان، وحُلّت الجمهورية المستقلة واستُعيض عنها بإنشاء منطقة غورزني، كما جرى استقدام عشرات الألوف من السكان الروس وجرى إسكانهم في المنطقة بهدف منع قيام الدولة المُلغاة من جديد وسدّ الفراغ البشري وإنعاش الزراعة في المنطقة. ولم يستطع مَنْ بقي حيّاً من هؤلاء القوقازيين العودة إلى ديارهم إلا سنة ١٩٥٧ بعد موت ستالين.

الاستقلال والعملية العسكرية الروسية

اليوم يواجه الشيشان رجالاً ونساء، كهولاً وفتياتاً، القوّات الروسية الغازية لقراهم وعاصمتهم بكل أشكال المقاومة ووسائلها. وتنطلق القوّات العسكرية الروسية في عملية عسكرية مُفاجئة مستعملة أكثر من ٤٠ ألف مقاتل عدداً قوّات وزارة الداخلية ووحدات جهاز مكافحة التجسس. وما زالت العملية العسكرية مستمرة منذ أكثر من

ثلاثة أشهر والمشهد المُخيف والمُفجِع يتكرّر صباح كل يوم. المزيد من الدمار والمجازر والجُثث المُلقاة في الشوارع، وعمليات طرد السكان من منازلهم، وانتهاك حقوق الإنسان التي سبق للرئيس الروسي أن تعهّد بحمايتها.

بدأت المشكلة بعدما أعلن دوديايف الاستقلال عقب انتخابه رئيسًا للشيشان. ولم يعترف بهذا الاستقلال سوى رئيس جورجيا السابق غمسا خورديا، بينما رفضت موسكو رفضًا باتًا التعاطي مع دوديايف أو الاعتراف بانتخابه أو بأية صفة رسمية له، وقامت بفرض حصار اقتصادي كامل على الشيشان، فتوقفت عملية ضخ النفط بسبب النقص في صيانة المعدات أو بسبب رحيل الفنيين الروس، كما تعطلت مصفاة النفط عن العمل بسبب فقدان المواد الكيميائية اللازمة لعملية التكرير. هذا الحصار الاقتصادي، أضعف الوضع الحكومي الداخلي. وحصر دوديايف كل السلطات بين يديه، فظهرت فئات مُعارضة له تحتل عدة مناطق من الجمهورية الصغيرة التي تبلغ مساحتها ١٣ ألف كيلو متر مربع. وراحت موسكو تجتمع سرًا بالمجموعات المعارضة لدوديايف وتحثهم على توسيع مناطق نفوذهم ومناوأة الحكم في غروزني، بهدف إثارة النعرات القبلية وتفتيت الشعب وإثارة الحروب الأهلية بين الشيشان أنفسهم.

وقد اتّسمت المواقف السياسية للفصائل الستّ المُناوئة لدوديايف بالغموض وعدم الوضوح، كما سيطرت على العلاقات بين هذه القيادات المختلفة في ما بينها، ومع السلطة في غروزني، أو مع موسكو، خلافات أساسية حول الأهداف السياسية المنوي تحقيقها: الاستقلال، عودة الهيمنة الروسية أو إقامة كيان خاص داخل الاتحاد الروسي. ولكن بالرغم من الاجتماعات السرية مع المسؤولين الروس لحياسة المؤامرات ضدّ السلطة في غروزني، لم يؤيد هؤلاء الزعماء التدخّل العسكري الروسي، باستثناء السيد عمر أفثور خنوف الذي كان ضابطًا سابقًا في وزارة الداخلية الروسية ورئيسًا للمجلس المؤقت لجمهورية الشيشان.

وفي ظل الظروف المُأساوية التي عاشتها الشيشان من جزاء الحصار الاقتصادي والمالي الذي فرضته موسكو، وفي ظل التفتيت السياسي للمجتمع الشيشاني المتمثل بالمعارضة، وأمام عجز الرئيس دوديايف عن معالجة الأزمة السياسية والاجتماعية وإيجاد المعالجة اللازمة للحدّ من الجرائم في العاصمة؛ يبدو مستغربًا جدًا إطلاق موسكو عملياتها العسكرية لإخضاع الشيشان وتفكيك سلطة الاستقلال. إذ يظهر جليًا لكل مُراقب عاقل أنه لو انتظرت موسكو عدة أشهر أخرى لفقد دوديايف ما تبقى له

من تأييد شعبي، وفقدت علمية الاستقلال جاذبيتها وخفّ بريقها وانفكّ عنه عدد كبير من مؤيديها المتحمّسين، مما يسهّل التفتيش عن حلّ بعيداً عن دائرة العنف. لكن التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاؤه للسلوكية العسكرية الروسية، يتركّز حول حاجة موسكو إلى تغطية فشل العملية التي حضرت لها في ٣٦ تشرين الثاني عندما دخلت قوّات المعارضة إلى قلب غروزني مدعومة بثلاثين دبابة وثمانين عسكرياً من الجيش النظامي الروسي، أو بعد إرسالها طائرات مجهولة وطوّافات لضرب مطار غروزني متنكّرة وراء فصيل المعارضة الذي يقوده عميلها عمرافتور خنوف الذي يسيطر على المناطق الواقعة شمالي العاصمة. يومها لم تنظّل هذه الحيلة على القيادات الروسية المُعارضة للعملية العسكرية، فطلبت إجراء تحقيق فوري، متسائلة من أين يمكن أن يحصل فصيل شيشاني على طائرات وطوّافات؟ وقد حاولت موسكو التبرؤ من العمليتين، إلا أن تحقيقاً أجراه مجلس الدوما مع بعض العسكريين الذي أسبروا في غروزني أثبت ضلوع الأجهزة الروسية في العمليات السرية ضدّ جمهورية الشيشان. على أثر ذلك، صرّح دودياف للصحافة التشيكية: «أن الرئيس يلتسين قد أصبح معزولاً تماماً من قِبَل الأجهزة السرية، التي تقدّم له معلومات كاذبة لخلق صورة خاطئة عن العدو».

وبالرغم من التحذيرات المتكررة التي تلقّاها الرئيس يلتسين من قيادات سياسية متصلّبة أو محافظة ومن بعض القادة العسكريين بعدم اللجوء إلى الحسّم العسكري لحلّ قضية الشيشان، فقد ردّ على مُنتقديه بأن «أزمة الشيشان تهدّد سلامة روسيا وتتطلّب حلاً سريعاً». كما أنه أصرّ في رسالة بعث بها إلى مجلس النواب على أنه لم يكن أمامه خيار بديل للعمل العسكري، لأنه يعتبر أن الدخول في مفاوضات لحلّ المشكلة هو تدبير غير دستوري ويشكّل اعترافاً بشرعية انتخاب دودياف وبالتالي اعترافاً غير مباشر بقانونية التدابير التي اتخذها بشأن إعلان الاستقلال.

وقد مارس الرئيس يلتسين الضغط على المعارضة وعلى وسائل الإعلام لتسويق قراراته العسكرية، مقدّماً الحجج بأن التساهل في حسم الوضع في الشيشان، يعني تسهيل عملية تفكيك الاتحاد الروسي.

ولكن يبدو واضحاً من العملية الروسية في الشيشان، أن القيادتين السياسية والعسكرية قد أخطأتا في تقدير الموقفين السياسي والعسكري، وفي فهم طبيعة الصراع وإدراك الخلفية التاريخية له والأخذ بعين الاعتبار المتغيّرات الجديدة في البيئة السياسية والاجتماعية في منطقة القوقاز. فبعد سقوط الاتحاد السوفياتي، شعرت الشعوب

الصغيرة، وخاصة المجموعات الإسلامية التي كانت تشعر بأنها جزء من دولة تعتمد الأُممية شعارًا لها، أنها قد عادت لتواجه الهيمنة والاستغلال والاضطهاد الروسي الذي عانت منه قرونًا طويلة. وقد عزز هذا الشعور لدى شعوب القوقاز، الفوارق الدينية ما بين المسلمين والروم الأرثوذكس، وخاصة أولئك الذين ينتسبون للأصول الروسية. كما نشأت حالة من انعدام الثقة بين هذه الشعوب والنظام الجديد في موسكو، بسبب سياسات الخداع والتآمر التي اعتمدها الإدارة الروسية ضد المسلمين وضد الإثنيات الأخرى في كل من الشيشان وأوستيا الشمالية وأنغوسيا وإقليم كراباخ وأوستيا الجنوبية وأبخازيا وأيضًا في البوسنة (حيث تساعد روسيا صربيا ضد المسلمين). فقد نسيت القيادة الروسية أن هناك جذورًا تاريخية تتحكم بالصراع، وأن شعوب القوقاز ما زالت تنتسب إلى قبائل، وأن النظام الشيوعي لم يستطع إجراء تغييرات أساسية في البنية الاجتماعية القائمة على تقاليد القبيلة والشريعة والتعاليم الإسلامية. ولم تستوعب القيادة الروسية أيضًا نظرية الجنرال فولر أن «في المجتمعات القبلية التقليدية، تصبح كل قبيلة جحفلًا مسلحًا، ويصبح كل مواطن محاربًا. وبما أن كل القبيلة تدخل الحرب، تصير الحرب شاملة»، وهذا ما حدث فعلاً في الشيشان، إذ تحولت كل القبائل وكل المواطنين إلى مقاتلين يخوضون حربًا شاملة ضد القوات الروسية الغازية التي خاضت الحرب دون استعداد ودون إدراك لطبيعة المعركة التي تنتظرها، معتمدة على استعمال كثيف للوحدات المدرعة والآلية المدعومة بإسناد ناري مدمر من قبل الطيران والمدفعية. وهي حققت بعض النجاح في بداية العملية، إذ يبدو أن القيادة الشيشانية لم تفهم عند بدء الحشد النوايا الحقيقية للقيادة الروسية. لكن الهجوم بدأ بالتعثر بعد مرحلته الأولى، وخاصة عند اقترابه من ضواحي مدينة غروزني، ثم توقف عند ضواحي العاصمة بعدما تكبدت القوات الروسية خسائر في المعدات والأرواح تفوق توقعاتها. فقررت في ٤ كانون الثاني وقف إطلاق النار، لكن هذا الوقف لم يشمل سوى غروزني، وكان الهدف منه خداع القيادة الشيشانية بهدف تجميع القوات الروسية للسيطرة على كل المحاور المؤدية إلى غروزني بهدف عزلها ومنع التعزيزات والتموين عنها للانقراض عليها من جديد وإنهاء المقاومة فيها.

في هذه الأثناء، قدّرت السلطات الروسية أن الوضع قد بدأ يتغير بشكل دراماتيكي في العاصمة، وخاصة بعد نفاذ الذخائر. وتوقع نائب رئيس الحكومة، نيقولا إيغوروف والذي يعمل كممثل شخصي للرئيس يلتسين في الشيشان، «دخول القوات الروسية إلى غروزني دون قتال صباح ٥ كانون الثاني، وتسلم الحكومة

الشرعية التي عيّنتها موسكو لحكم الشيشان في اليوم نفسه أو اليوم التالي على أبعاد حدّ. بالطبع، لم يحدث ما توقعه إيغوروف، وعاودت القوّات الروسية محاولات الدخول بالقوّات المدرّعة إلى قلب العاصمة فمُنيت بخسائر فادحة بالمعدّات والأرواح وأُجبرت على التراجع إلى الورا للاحتماء والبحث عن خطة بديلة. وقرّرت القيادة الروسية استقدام قوّات جديدة وتغيير تكتيك الهجوم، فاستقدمت وحدات النخبة من المظليين ومُشاة البحرية؛ وبدل اعتماد الهجوم المدرع الكثيف الذي أثبت فشله، اعتمدت القيادة إدخال الوحدات الخفيفة المدرّبة تدريبًا عاليًا بمجموعات صغيرة تتسلّل داخل الأزقة والأبنية، وتحتمي من نيران المُقاومين الشيشان، وتحقّق تقدّمًا بطيئًا دون خسائر فادحة تُثير المعارضة والرأي العام وبعض القيادات العسكرية. ويبدو أن هذه التكتيك البطيئة لن تسمح للقيادة الروسية بمتابعة عمليات الخداع الإعلامي والسياسي الذي أتعب المعارضة في الداخل والرأي العام العالمي في الخارج. ويبدو، طبقًا لآخر التقارير، أن القيادة الروسية قد قبلت بمعاودة المفاوضات مع الشيشان وأن هناك وقفًا لإطلاق النار قد أُعلن. ولكن تراود المراقبين الشكوك حول صدق نوايا موسكو في البحث عن تسوية بعيدًا عن العنف، إذ تكررت قرارات وقف إطلاق النار دون تطبيق أيّ منها.

وتأكد عدم رغبة موسكو في إيجاد حلّ سياسي للأزمة الشيشانية بتصريح لوزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف الذي كرّر بتاريخ ٢٢/٢/١٩٩٥ رفضه أية مفاوضات لوقف النار، كما قال في ذكرى تأسيس القوّات المسلحة في ٢٣/٢/١٩٩٥ «أن روسيا لن تحلّ مشاكل مثل الأزمة الشيشانية دون جيش قوي». ويُعتبر هذا التصريح إشارة واضحة إلى تدخّل الجيش في الشؤون الداخلية على اعتبار «أن الجيش ضامن وحدة البلد».

وبعد مرور ما يزيد على الشهر على سقوط العاصمة غروزني، اعترفت الحكومة الروسية بأن المقاومة الشيشانية لم تضعف على رغم تفوّق القوّات الروسية بالمعدّات وبقوة النيران وبالرجال. وتجري حتى الآن معارك ضارية في مواقع استراتيجية لا تبعد عن غروزني أكثر من ٢٠ كلم، حيث يحتدم القتال بشكل يُجبر القيادة الروسية على الاستعانة بالطيران تكرارًا. وتفيد آخر التقارير عن قصف مدينة شالي (٢٠ كلم جنوب شرقي غروزني) كما جرى قصف مدن عدة منها أول وستاري أتاغي وغوديرميس وساماشكي، كما تحرك قوّات مدرّعة كبيرة نحو هذه المدن.

واليوم، يمكن تشبيه وضع الشيشان بالأوضاع التي تواجهها قوميات أخرى هبت شعوبها للمطالبة بالاستقلال أو لإيجاد نظام حكم قادر على معالجة الأوضاع المتردية. ولكن تبقى المشكلة الأساسية في أن هذه الشعوب والقوميات تفتقر إلى القدرة التنظيمية والمؤسسات الإدارية اللازمة لتحقيق الشعبية والقومية. ويبقى من الطبيعي في هذه الحالة أن تكون سيادة هذه القوميات المولودة على أراضيها وكذلك الحدود السياسية للدولة، في حالة غموض ومشكوك فيها، كما تبقى جيوشها في حالة ضعف وفوضى، وتتردى الأوضاع الاقتصادية فيها. وهكذا تسببت حدة تأزم الأوضاع على كل الأصعدة في الشيشان، وفي ظل النظام الاستقلالي الجديد، بالإضافة إلى الأوضاع السيئة الموروثة من النظام السوفياتي البائد، في دفع القومية الجديدة إلى المزيد من التطرف والتشبث بالتغيير مهما بلغ الثمن وزادت التضحيات. فالمقاومة، كما قلنا، تزداد عنفاً، والشعور القومي يزداد تفجراً مع ازدياد سوء الأوضاع الاقتصادية والأمنية الناتجة عن الهجوم الروسي على العاصمة وبقية المدن أو عن الحصار الاقتصادي الذي سبق الهجوم العسكري بسنة كاملة.

الشعور القومي في مواجهة التهديد العسكري

يقول تشارلز تيلي «الحرب صنعت الدولة، والدولة تصنع الحروب، ولكنهما معاً قد صنعا القومية». وينطبق هذا القول بدقة على نشوء الدولة في شمال القوقاز، كما سبق وألمحنا في البحث التاريخي عن جذور الأزمة الشيشانية، حيث إن الحرب صنعت الدولة المستقلة، والدولة صنعت حروبها ضد روسيا القيصرية. ونرى من خلال الأزمة الشيشانية الحالية بوضوح أن حرب القوقاز السابقة، ونشوء الوضع الاستقلالي للدولة الجديدة، وتحضير المواجهة الضرورية مع القيادة الروسية بعد أن رفضت إعلان الاستقلال؛ كل هذه الأسباب مجتمعة قد صنعت وقوت الشعور القومي الشيشاني، والذي ينذر بنقل عدوى التفجر القومي إلى شعوب ومناطق أخرى. وثمة علاقة مباشرة وأكيدة ما بين التهديد العسكري، والوعي القومي وزيادة قدرات الدولة أو الأمة على المواجهة. لذلك رأينا، خلال الحرب العالمية الأولى، أن التهديد العسكري قد خلق في كل من فرنسا وألمانيا صحوة قومية أدت إلى تعبئة عامة، وزيادة قدرات الأمة على القتال والمقاومة. بينما رأينا في روسيا أن الدولة العاجزة التي لم تستطع تعبئة طاقات الأمة لمواجهة التهديد العسكري، قد تحطمت في الحرب واستبدلت بدولة جديدة قادرة على مواجهة التهديد العسكري الذي تجدد في الحرب العالمية الثانية.

واليوم، وبعد زوال الاتحاد السوفياتي ومحاولة القيادة الروسية المحافظة على روسيا الاتحادية، ما زالت هذه العلاقة بين التهديد العسكري والصحة القومية وتعبئة الشعب وبناء الدولة، صحيحة وقائمة. لقد ثبت باليقين أن انسلاخ خمسة عشر كياناً عن الاتحاد السوفياتي لبناء دول جديدة، قد شجع الشيشان على إعلان الاستقلال، وسيساهم في تسريع مطالبات أقاليم أخرى داخل روسيا باستقلالها والقتال في سبيل تحقيق هذا الاستقلال. كما يمكن لظاهرة التهديد العسكري والصحة القومية أن تسلك الطريق في الاتجاه المعاكس إذ تقوم أكثرية سكان في بعض الدول المستقلة أو الأقاليم الروسية تنتمي إلى أصول غير روسية، باضطهاد الأقليات الروسية التي تعيش بينها بقصد تهجيرها (عمليات التنظيف العرقي) على غرار ما يجري في يوغوسلافيا السابقة. وتعيش أوروبا خوفاً من إمكانية تعميم النموذج اليوغوسلافي على مناطق أخرى في أوروبا الشرقية، مثل المجر وبلغاريا وتشيكيا، وخاصة على روسيا حيث تعتبر الأوضاع المتفجرة في القوقاز بداية لظاهرة قد تتوسع لتشمل مناطق أخرى. لذلك انعقد في باريس في العشرين من آذار ١٩٩٥ مؤتمر للأمم الأوروبية للبحث عن حلول لمنع نشوب حروب عن طريق تفجير المشاعر الاثنية - القومية.

الشعور القومي في مواجهة الأخطار الاقتصادية

يرتبط انفجار الشعور القومي المغاير والعدواني بشكل قوي بالتغيرات التاريخية أو السريعة في البيئة الاقتصادية للمجتمع: كحالة التصنيع السريع أو الانتقال إلى اقتصاد السوق في مجتمع لا سوق فيه، أو مجتمع يخضع لنظام السوق المنظمة أو المقننة، أو في حالة تمزق السوق المحلية بسبب ربطها بالسوق العالمية حيث تختلف الأسعار بشكل راديكالي. وفي ظل هذا التبدل الجوهري في الأوضاع الاقتصادية، قد تلعب القومية أدواراً سياسية هامة، إذ قد تؤثر قوى السوق في خلق ردات فعل قومية قوية في حال تبين أن هناك فئات اثنية مستفيدة من السوق على حساب فئات اثنية أخرى. وقد تنطبق حالة الشعور القومي في الشيشان على هذا النموذج، إذ سيطر السكان من أصل روسي على صناعة النفط والقسم الأكبر من القطاع الزراعي، اللذين يشكلان القاعدتين الأساسيتين للاقتصاد الشيشاني.

لكن أقسى التعبير عن الشعور القومي في مواجهة الأخطار الاقتصادية، قد يأتي كردة فعل شعبية عامة تطالب بحماية لُقمة عيش الناس وتخفيف آلامهم من قوى الاحتكار والجشع التجاري، في سوق أفلتت من كل رقابة وقانون.

وينطبق هذا الوضع على السوق الروسية حيث لم يبق هناك سوق بل مجموعات من المافيات التي تسيطر على الاقتصاد. لقد واجه الاقتصاد الروسي مصاعب جمّة في ظل الشيوعية، لكنه لم يصل إلى الدرك الحالي: كان من الصعب إيجاد المسكن، فأسمى الأمر اليوم مستحيلًا، وكانت بعض الخدمات نادرة وبعض الحاجات ضئيلة أو غالية الثمن ويكتفي الناس بقبول الحد الأدنى منها، أما اليوم فلم يعد من الممكن لغالبية الشعب الحصول على خدمات الحد الأدنى بسبب جنون الأسعار وضعف المداحيل أو انعدامها بسبب البطالة، يضاف إلى ذلك تدهور قيمة النقد الوطني إذ لم يعد هناك أيّة قيمة شرائية لما يتقاضاه الناس من مرتبات وأجور. وهكذا تزداد ثروة الأغنياء ويموت الشعب من الفقر والجوع، حتى أنه بات يمكن القول أن روسيا تخرج من التاريخ في ظل الأوضاع الحالية. وفي زمن التحوّلات الاقتصادية الكبيرة كما يحدث في روسيا اليوم، سيتجه الشعب نحو التطرّف والإفراط في التعبير عن مشاعره القومية، محمّلًا السلطات المركزية مسؤولية تردي الأحوال، خاصة وأن هذه السلطات غالبًا ما تلجأ إلى ضبط ميزان المدفوعات عن طريق سياسة تخفيض الاقتصاد المحلي، فيتسبّب ذلك بالبطالة الحادّة. والعلاج هذا هو «العلاج بالصدمة»، وهي طريقة يصعب الدفاع عنها وحماتها سياسيًا.

اليوم، يجد يلتسين وحكومته صعوبة في الاستمرار باستعمال علاج الصدمة في الاقتصاد. فقد بدأ الشعب في إيجاد تجمّعات سياسية لمواجهة هذه المعالجة، في حين راحت مناطق عديدة (حيث معظم السكان من الأجناس غير الروسية) تطالب بحماية اقتصادها وثرواتها الطبيعية من العبث والاستغلال الروسي، وقد تصل هذه الحالة إلى المطالبة بالسيطرة على الأوضاع عن طريق إدارة السوق سياسيًا بواسطة الأساليب الفاشية.

كما تألّفت مجموعات ضغط لمعالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية، وهي تصدر بيانات رسمية تطالب بالتراجع عن علاقات روسيا بالغرب، وعدم إقامة أيّ ترابط اقتصادي معه، والمحافظة على الحقوق الروسية الخاصة، والإبقاء على القوة العسكرية اللازمة للدفاع عن المصالح القومية ضدّ تهديدات الغرب.

إن دروس التاريخ تقود إلى التأكيد على العلاقة القائمة على قاعدة النسبة المعكوسة ما بين حدّة المشاعر القومية وفعالية المؤسسات السياسية في إدارة الاقتصاد. كما أن ضعف الفعالية السياسية الروسية والدولية في مساعدة الاقتصاد الروسي المنهار، ستدفع إلى مزيد من التفجّر القومي الذي سيتسبب بمزيد من الحروب في مناطق عديدة.

الاستنتاجات

اتخذت موسكو قرار الحرب في الشيشان انطلاقاً من تقويم سياسي وعسكري يفترق إلى الرؤية الواضحة والواقعية. فلم ترَ، في الأساس، أنه يجب النظر إلى الحرب، وفي جميع الظروف، على أنها وسيلة سياسية وليست شيئاً مستقلاً قائماً بذاته، وأنه من خلال هذه النظرة يمكن تحاشي الوقوع في موقف متعارض مع التاريخ. ويبدو أن القيادات السياسية والعسكرية قد نسيت أعلى الدروس التي تعلمتها من لينين الذي يقول: «يجب أن نحلّل بدقة المعاني التاريخية والسياسية لأية حرب تواجهنا، وأن يكون تحليلنا موضوعياً وتفصيلياً لأقصى الدرجات». لذلك يمكن أن تترتب على الحرب نتائج هامة تؤثر في مستقبل الاتحاد الروسي وفي علاقات الدولة الروسية في الداخل والخارج ويمكن إيجاز بعض هذه النتائج على الشكل الآتي:

١ - ظهور انقسام سياسي شديد في القيادات السياسية والعسكرية الروسية حول قرار الحرب وطريقة إدارة العمليات العسكرية. فقد طالب عدد من المسؤولين ومنهم رئيس لجنة الدفاع البرلمانية بـ «إقالة كل من شارك في اتخاذ القرار وبفتح دعوى جنائية ضدهم». كذلك عارض العملية بعض القادة العسكريين. كما رفض بعض قادة الوحدات والأوامر العسكرية بالاشتراك في الحرب. وهنا تبدو ضرورة إعادة النظر في طريقة صنع القرارات الوطنية في موسكو على الصعيدين السياسي والعسكري، وتوضيح العلاقة ما بين السياسة والحرب، والابتعاد عن اعتماد مفهوم الحرب كبديل للسياسة، وهو منطلق اعتمده الأجهزة السرية فتخطت في قضية مصيرية الرئيس والنظام السياسي.

٢ - دخول روسيا في حرب ثانية في القوقاز ضد جميع شعوبها الجبلية الصغيرة وخاصة الشعوب الإسلامية، وهي حرب طويلة تدمر شعوب القوقاز وموارده وتضعف روسيا. وظهرت بوادر هذا الوضع من خلال تصدّي السكان ومهاجرتهم للقوات الروسية في كل من الداغستان وأنغوشيا وكابارديا وبلكاريا أثناء تقدّمها لمهاجمة الشيشان. وقد ينهي اعتماد العنف العكسري وسياسة الإبادة حالة الاستقلال، لكن ذلك لن يحلّ المشكلة في القوقاز والتي قد تتحوّل إلى نزيف دائم من جرّاء تحوّل المقاومة إلى اعتماد أسلوب حرب العصابات الطويلة.

٣ - ستدفع قضية الشيشان دولاً عديدة واثنيات مختلفة من ضمن الاتحاد الروسي للمطالبة بالاستقلال، وإعادة النظر في وضعها السياسي، وتوسيع إدارة شؤونها

الداخلية، والتحكّم بثرواتها، مما يضعف الاتحاد اقتصاديًا وسياسيًا ودوليًا، علمًا أن الاتحاد يتألف من ٤٩ وحدة سياسية وقّعت على المعاهدة الفدرالية.

إن الدول والمناطق والإقليم المرشحة للمطالبة بالاستقلال بعد الشيشان في حال ازداد ضعف الموقف الروسي، هي بالدرجة الأولى جمهوريات ومقاطعات شمالي القوقاز وخاصة أنغوشيا والداغستان وبلاد التتار والشركس والتشوفاس وتوفا حيث أكثرية السكان من المسلمين. وقد تتبع النزعة الانفصالية بعض الجمهوريات المستقلة في منطقة الفولغا وغيرها في الشمال، التي تطالب بإعادة تأليف في مجلس الجمهوريات بحيث تتساو في القرارات الهامة إذ يكون لها صوت مثل روسيا في المجلس المذكور.

كذلك تطالب مقاطعات في سيبيريا تملك ثروات طبيعية هائلة، مثل مقاطعة ياقوت - ساخا، باستغلال ثرواتها الطبيعية وبالاستقلال عن روسيا، وذلك لأسباب عرقية واقتصادية.

٤ - تكمن أهم المشاكل التي ستواجهها السلطات الروسية في السنوات القادمة، في إمكانية الدفاع عن أرواح ومصالح الأقليات الروسية في الجمهوريات التي تسيطر عليها الأعراق غير الروسية. ويمكن تصوّر تكرار السيناريو نفسه الذي جرى في الشيشان عند بدء الأزمة الانفصالية، حيث ترك السكان من أصل روسي (ثلث سكان الجمهورية) منازلهم ومصالحهم خوفًا من الهجمات الشيشانية عليهم. وسيكون أيضًا من الصعب جدًا تأمين حماية السكان الروس في مقاطعات وجمهوريات حتى ولو شكّلوا فيها اليوم أكثرية مصطنعة بفعل سياسة النقل السكاني التي اعتمدها النظام الشيوعي. فما زال السكان من أصل روسي يعتبرون أنفسهم كمهاجرين، فرضت الظروف الاقتصادية والسياسية انتقالهم إلى حيث هم، وسينشأ من خلال الصراعات العرقية والقومية المرتقبة فرز سكاني يقول إلى قيام جزر سكانية روسية أو جيوب سكانية لاثنيات أخرى تهدّد باستمرار لأجيال قادمة بسبب استحالة حلول عملية لها، كما هو الوضع في الاتحاد اليوغوسلافي السابق.

٥ - ستترك نتائج حرب الشيشان آثارًا عميقة على الجيش الروسي وقياداته، حيث يُنتظر أن تخسر بعض القيادات العليا والميدانية مراكزها، وأن يُعاد النظر في تشكيل واستعمال القوات المسلحة التي صُمّمت في الأصل لخوض حروب تقليدية واسعة بينما يتطلب الوضع الجديد خوض حروب صغيرة ومحدودة تقليدية أو من نوع

حرب العصابات التي سبق للجيش الروسي أن ذاق مرارتها في أفغانستان. وستكون هذه المرة أعنف من التجربة الأخيرة لأنه سيحارب رجال قبائل عُرفوا بشدّة البأس، ومعينين ضدّ الشعب الروسي، وشعارهم في القتال/ مقولة الجنرال فولر «أن شعار الحرب للقبائل البدائية يتلخص في اعتماد أعلى درجات القوة ضدّ الخصم لتدميره أو تدمير الذات».

كما ستدفع كلفة الحرب الباهظة، والمقدّرة بأربعة بلايين دولار، المعارضة الروسية للضغط على القيادتين السياسية والعسكرية لتحميلهما مسؤولية الكارثة الاقتصادية ودعوتهما لإعادة النظر في التكتيك واستعمال وسائل النيران الثقيلة من طيران ومدفعية. وتشكّل هذه النقطة الأخيرة موضوعاً أساسياً تتركز حوله أبعاد نظرية الحرب والسياسة تبعاً لنظريات فيلسوف الحرب كلوزفيتز الذي دعا إلى عدم دخول الحرب، في حال كان ثمن النصر باهظاً، وإن كان النصر أكيداً.

٦ - ستأثر بنتائج حرب القوقاز علاقات روسيا الدولية، فمن جهة أظهرت هذه الحرب كذب الوعود التي قطعها يلتسين للغرب بالسير في طريق الديمقراطية الليبرالية واحترام حقوق الإنسان. صحيح أن يلتسين يضرب المسلمين في القوقاز في وقت يتخوف فيه الغرب من الأصولية الإسلامية ويُبدي مشاعر الريبة والحذر تجاه المسلمين، لكن المجتمع الغربي يكره رؤية القتل من الأطفال والنساء في شوارع المدن. كما أنه من المنتظر أن تزداد علاقات روسيا سوءاً بالعديد من الدول العربية والإسلامية، إذ إن سياسة روسيا في كل من البوسنة والقوقاز قد نُسيء لعلاقاتها مع المسلمين، خاصة وأن تجربة أفغانستان ماثلة في الأذهان وكذلك موقف الدول الإسلامية من التدخل هناك.

لقد أدت الأعمال العسكرية إلى مأزق رهيب، يصعب الخروج منه. فإذا كانت روسيا عازمة على عدم الاعتراف باستقلال الشيشان، فما هو الحلّ البديل للخروج من المأزق؟ التفاوض على كوندراالية مع الشيشان؟ أم الضغط عليهم باعتماد أسلوب الإبادة العسكرية للاستسلام دون قيد أو شرط؟.

إن الخروج من المأزق عن طريق اعتماد الحل الكوندراالي سيكون بمثابة سلوك الطريق الذي سيقود إلى انهيار روسيا، أما الضغط على الشيشان للاستسلام بلا شروط فهو حلّ يجرّ إلى حرب أهلية طويلة، ستوسّع تدريجياً لتشمل كل القوقاز.

٧ - يمكن لبعض الإيديولوجيات السياسية أن تُضعف الصراع الاثني بطرق مختلفة. فالشيوعية تعمل بطريقة التبرؤ والتلاعب الملزم بمبدأ الجنسية الوطنية، ويبدو

أنها قد فشلت، في النهاية، في إلغاء المشاعر القومية للأقليات بعد سبعين سنة من العمل الدؤوب. أما الديمقراطية فإنها تعمل على إضعاف الشعور الإثني عن طريق تأمين حقوق وحرية الأفراد والمجموعات، بحيث تجعل موضوع المطالبة بالحقوق السياسية للمجموعات الإثنية أقل إلحاحًا، فتصبح نزعة الناس للالتفاف حول الطروحات الاثنية ضعيفة، حديثة وناشئة. فقد تعيش معًا مجموعات من اثنيات مختلفة أو من جنسيات مختلفة على مدى سنين عديدة، لكننا نرى أنه في حال حدوث أي خلل ينال من الحقوق الفردية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو اللغوية، أو الدينية؛ تتأرجح مشاعر الأفراد والجماعات، وتظهر مشكلة اثنية. وإذا لم تتحقق وسيلة سلمية للدفاع عن الحقوق المهددة، تنفجر الأوضاع لتشكل أزمة على غرار أزمة الشيشان. كما أنه يمكن أن تنفجر الأزمة عنيفة في حال شعرت مجموعة اثنية أنه لا يمكنها التعبير عن حقوقها وذاتها بسبب ضغوط تمارسها عليها مجموعة أخرى، إلا إذا استعملت العصبية الاثنية كأساس للتنظيم والتحرك.

لقد كانت الاثنية في ما مضى ملجأً أساسيًا للانتساب الثقافي، ولكنها تبدلت لتصبح الملجأ السياسي الأخير للمجموعات التي فقدت الأمل وأصيبت بالإحباط والقهر.

في النتيجة، سيحول ضعف القيادة السياسية الروسية والتناحر السياسي الداخلي بين اليمين والوسط واليسار، بالإضافة إلى المضاعف الاقتصادية، دون تمكن روسيا من إيجاد حلول لمشاكل الأقليات في القوقاز ومناطق أخرى، حيث يُنتظر أن يطول الصراع ولفترة طويلة حاملًا المزيد من المآسي لهذه الشعوب ومزيدًا من تفتت القوة الروسية وعزلتها دوليًا، وخاصة عن الدول المحيطة بها ودول العالم الإسلامي الذي يُنتظر أن يلعب في القرن الواحد والعشرين دورًا مهمًا سياسيًا واقتصاديًا. . . وروسيا هي بحاجة ماسة لنسج أفضل العلاقات مع هذا العالم.

إحصاءات حول بعض الدول الإسلامية في آسيا الوسطى^(١)

تركمانستان

المساحة: ٤٨٨١٠٠ كلم^٢.

الحدود: أوزباكستان - كازاخستان - إيران - أفغانستان - بحر قزوين.

(١) حلقة أبحاث حول آسيا الوسطى. إعداد كلية القيادة والأركان في الجيش اللبناني ص ٥ - ٩.

العاصمة: أشقباد.

عدد السكان: ٤٦٠٠٠٠٠٠ نسمة، النمو ١,٨٥٪.

* تركمان ٧٧٪ - أوزبك ٩٪.

* روس ٢٪ - كازاك ٦,٧٪.

اللغة: التركمانية.

الدين: الإسلام (السنة) ٨٩٪ - أرثوذكس ٩٪ - مختلف ٢٪.

النظام: جمهوري رئاسي: الرئيس سبارميرات نيازوف.

المصادر الطبيعية: بترول - غاز - سلفات - بوتاس - ذهب - بلاتين.

القوات العسكرية: ٤٨٠٠٠ عسكري.

قيرغيزستان

المساحة: ١٩٨٥٠٠ كلم^٢.

الحدود: كازاخستان - أوزباكستان - طاجكستان - الصين.

العاصمة: بيشكك.

السكان: ٤٧٠٠٠٠٠٠ نسمة - نسبة نمو السكان ١,٤٤٪.

العرقيات:

* قيرغيز ٥٢,٤٪.

* روس ١٣٪ - أوزبك ١٨٪.

* أوكران ٣,٥٪.

* مختلف (ألمان - طاجيك - كازاك) ١٣,١٪.

اللغة: قيرغيزية.

الدين: إسلام سنة ٧٥٪ - أرثوذكس ٢٠٪ - مختلف ٥٪.

الحكم: جمهوري رئاسي: الرئيس عسكر عكييف.

المصادر الطبيعية: فحم - بترول - غاز - ذهب - زئبق.

القوات العسكرية: ٥٠٠٠٠ عسكري.

طاجاكستان

المساحة: ١٤٣٠٠٠٠ كلم^٢.

الحدود: أوزباكستان - كيرغيزستان - الصين - أفغانستان - (منطقة جبلية ٩٣٪ فيها سقف العالم بامير).

العاصمة: دوشانبة (سابقاً ستاليناباد).

السكان: ٦٥٠٠٠٠٠٠ نسمة - نسبة نمو السكان ٢,١٢٪.

العرقيات:

* طاجيك ٦٤٪.

* أوزبك ٢٥٪ - روس ٣,٥٪.

* مختلف ٦,٦٪.

اللغة: الطاجيكية (قريبة للفارسية).

الدين: إسلام سنة ٨٠٪ - أرثوذكس - شيعة إسماعيلية ٥٪.

الحكم: جمهوري رئاسي: الرئيس إيمومالي رحمانوف.

يوجد فيها قوات عسكرية روسية من ١٥ إلى ٢٥ ألف جندي.

المصادر الطبيعية: قطن - بترول - فحم - غاز - ذهب - فضة - ألومنيوم.

القوات العسكرية: ٧٢٠٠٠ عسكري.

كازاخستان

المساحة: ٢٧١٧٣٠٠ كلم^٢.

الحدود: الصين - روسيا - تركمانستان - أوزباكستان - كيرغيزستان - (بحر الأرال).

العاصمة: آستانة (سابقاً الماتي).

السكان: ١٧٠٠٠٠٠٠٠ نسمة - نسبة نمو السكان ٠,٣٪.

العرقيات:

* كازاك ٥٣,٤٪.

* روس ٣٠٪ - أوكران ٢,٤٪ - ألمان ١,٤٪ - تاتار ٢,٥٪.

* أوزبك ٣,٧٪ - مختلف ٥٪.

اللغة: الكازاكية (أصل تركي).

الدين: إسلام سنة ٤٧٪ - أرثوذكس ٤٤٪ - مختلف ٩٪.

الحكم: جمهوري رئاسي: الرئيس نور سلطان نزاربييف.

المصادر الطبيعية: فحم - غاز - فضة - نحاس - ذهب - رصاص - زنك - كروم (٦٠٪ من إنتاج العالم) - بترول (خامس دولة في العالم خلال العشر سنوات القادمة) فيها مركز فضائي (بايكانور) ومركز تجارب نووية (سوميبالاتنسك) مُقفل منذ العام ١٩٩٠.

القوات العسكرية: ١٦٣٠٠٠٠ عسكري.

أوزبكستان

المساحة: ٤٤٧٤٠٠ كلم^٢.

الحدود: كازاخستان - تركمانستان - قيرغيزستان - طاجكستان - أفغانستان - (بحر الأرال).

العاصمة: طشقند.

السكان: ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ نسمة - نسبة نمو السكان ١,٦٪.

العريقات:

* أوزبك ٨٠٪.

* روس ٥٪ - تتر ١,٥٪.

* كازاك ٢,٥٪ - طاجيك ٥,٥٪.

* كاركالباك ٣٪ - مختلف ٢,٥٪.

اللغة: الأوزبيك (أصل تركي).

الدين: إسلام سنة ٨٨٪ - أرثوذكس ٩٪ - آخر ٣٪.

الحكم: جمهوري رئاسي: الرئيس إسلام كاريموف.

السلطة: حكم ذاتي كاركالباكي (عاصمتها نولوس).

المصادر الطبيعية: قطن - بترول - فحم - غاز - فضة - نحاس - أورانيوم - (ثالث دولة في القطن - سادس دولة في الغاز).

القوات العسكرية: ٢٧٥٠٠٠٠ عسكري.

كتاب «تلفيق الأخبار» وتلقيح الأخبار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار»

إن هذا الكتاب يوضّح لنا الكثير من الغموض حول أزمة المسلمين في بلاد الروس والقوقاز. وهو بهذا يسدّ ثغرة وفجوة كبيرة في تاريخ تلك البلاد، إذ إن هذا الكتاب من أول الكتب التي تحدّثت وأرّخت للمسلمين في بلاد القوقاز والروس.

أما عملنا في هذا الكتاب فهو:

أولاً: حرصنا بقدر الطاقة على تنقية النصّ من الأخطاء النحوية واللغوية. وكذلك حرصنا على توضيح الكثير من الكلمات المطموسة وغير الواضحة.

ثانياً: وضعنا مقدمة حول أزمة المسلمين في بلاد القوقاز.

ثالثاً: شرحنا في حواشي الكتاب ما في متنه من غريب اللغة أو صعب المُتَنَوَّل منها، وذلك استناداً إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

رابعاً: وضعنا في حواشي الكتاب تعريفاً وافياً - مع ذكر المراجع - بالأعلام المذكورة بالمتن، وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور ولم نجد ضرورة لناقل القول فيه، وإما لم نَهْتَدِ إليه فيما بين أيدينا من المراجع والمصادر، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

خامساً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في شرح المصطلحات التركية أو الفارسية (وهي كثيرة).

سادساً: خرّجنا جميع الأحاديث النبوية والآثار، تخريجاً وافياً وضبطنا نصّ الحديث استناداً إلى كتب الحديث المعتبرة.

سابعاً: خرّجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

ثامناً: بوّينا الكتاب ووضعنا عناوين فرعية مناسبة للنصّ.

ملاحظة: هناك حواشٍ كثيرة وضعها المؤلف نفسه تركناها كما هي. وكلها تنتهي بعبارة: منه عُفِيَ عنه.

وأخيراً نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، والله الكمال وحده، وهو وليّ التوفيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[تمهيد]

الحمد لله العلي الكبير المتعال . الموصوف بأوصاف الكمال . المنعوت بنعوت الجلال والجمال . المتفضل بأنواع وأصناف الأفضال . الحكيم الذي دبر الأمور . وقدر الأيام والشهور . وجعل الظلمات والنور . وأحصى عدد ذرات الرمال وقطرات البحور . وأحاط ما تكنه الضمائر وما تخفي الصدور . وأوجد الخير والشور . يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . لا يسأل عما يفعل وهو شديد المحال . الملك القدير الذي لم يزل ولا يزال ملكًا صمدًا . واحدًا أحدًا . لا شريك له ولا وزير . ولا شبيه له ولا نظير . ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا . أبدع الكائنات على أحسن نمط ولم يطلب من أحد مددًا . أعطى كل شيء خلفه ثم هدى . ولم يظلم أحدًا أبدًا . وهو حميد الفعال . مالك الملك ذي الجلال والإكرام . يعطي الملك من يشاء . وينزعه ممن يشاء . ويعز من يشاء . ويذل من يشاء . وله العظمة والكبرياء . وله القدم والبقاء . ومن سواه محكوم بالفناء والاضمحلال . الرؤوف الرحيم الذي لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . وحاشا رداء كبريائه وإزار عظمته من تطرق غبار التغير والنقص والتبدل والعجز والزوال . والصلاة والسلام على عنوان تواريخ العالم . وديباجة جريدة بني آدم . الذي تشرف أبو البشر من أجله بسجود الأملاك . الحبيب الذي تردى برداء المحبوبة وتوج بتاج لولاك . وشرف بسياحته السبعة الأفلاك . واطلع من أسرار أقاليم عالم الملكوت ما يقصر دونه الإدراك . وهو النبي المكرم . والرسول الأكرم . المبعوث إلى كافة الأمم . بجوامع الكلم . وبدائع الحكم . لإنجائهم من الجهالة والظلم . وإرشادهم إلى السبيل الأعدل الأقوم . وأقطار العالم إذ ذاك مملوءة بأنواع الغواية والضلال . وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا لنصرتهم . ونصروه في هجرته وتركوا الأهل والأوطان في محبته . وبذلوا في نصرتهم الأنفس والأموال . حتى عاد بهم الدين المبين مشيد الأركان . شامخ البناء

على أحسن منوال . وعلى تابعيهم وتابعي تابعيهم باقتفاء سيرتهم . وسلوك طريقتهم . حتى نشروا أنوار الإسلام في أقطار الأرض من الشرق والغرب والجنوب والشمال . فرضي الله عنهم أحسن الرضاء وجزاهم عنا خير الجزاء ما هز أغصان الأشجار هبوب الشمال .

أما بعد فإن علم التاريخ فن جليل الوقع عظيم الشأن . إذ به يعرف أحوال الأزمان وأخبار البلدان . وبه يقاس صنائع الأمم ووقائع الدوران . وبه تعرف المقايسة بين معاملة الدول بحسب العدالة والعدوان . وبه تحصل الموازنة بين أرباب الظلم وأصحاب الإحسان . وبه يتدارك ما يقع في التدابير من سوء الرأي والنقصان . وبه ينتبه النائم ويتعش اليقظان . والله در القائل بأفصح تبيان . شعر :

إن شئت تكثير عقل فيه مصلحة لأجلها دارت الأفلاك أدوارا
فانظر لمعنى المواليد التي اختلفت واقراً تواريخ من في الدهر قد دارا

وبه ينصلح آراء الأمة . وينضبط أمور الدولة . ويحصل لها العرفان . وبه يظهر حسن العدالة وقبح الظلم بين أفراد الإنسان . وبه تنبعث الهمم إلى تحصيل معالي الأمور ويتسلى المهموم من الأحزان . كما قال من مارس هذا الشأن شعر :

طالع تواريخ من في الدهر قد وجدوا تجد هموما تسلى عنك ما تجد
تجد أكابرههم قد جرعوها غصصا من الرزايا بها كم فتت الكبد

وبه يمتاز أرباب الفضل من غيرهم ويعرف من هو أسبق قدماً وأعلى كعباً في العلم والشأن . وبه يوزن فروسية الفرسان وشجاعة الشجعان . إلى غير ذلك من الفوائد التي يعسر تعددها مما لا يخفى على كل لبيب وأديب يقظان . ورحم من قال وأفاد وأوجز وأجاد شعر :

إذا علم الإنسان أخبار من مضى توهمته قد عاش حيناً من الدهر
وأحسبه قد عاش آخر دهره إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر

ولهذا قد أكثر العلماء العظام والفضلاء الفخام من التصنيف والتأليف فيه في جميع القرون والأعصار . بحيث لا يقبل الإحصاء ، والإحصار . منها ما يعم جميع الدول والبلدان والأقطار . ومنها ما يخص دولة من الدول أو ناحية من النواحي أو مصرًا من الأمصار . على وجه لا يخفى شيء من أحوالها والحوادث التي جرت عليها من ابتداء حدودها ومبدأ ظهورها إلى يومنا هذا على أولي الأبصار . وأرباب الاعتبار ، وحيث إن تشوق الإنسان إلى التطلع على أحوال مملكته . وتشوفه إلى التضلع من زلال أخبار بلده . وشغفه بتعرف أبناء أبناء جنسه وأهل جلدته . من حميته الوطنية

ومروته الإنسانية، بل من الأوصاف الفطرية، ما زلت مذ فرقت الشمال من اليمين، والغث من السمين، والنقص من الكمال، والنجم من الهلال، مشتاقاً إلى الاطلاع على سفر من تاريخ يتعلق بأحوال بلغار وقزان وسائر البلاد الشمالية، وما جرى عليها من نواب الدهر والحوادث السماوية، وطالما فتشت في ذلك زبر المتقدمين، وقلبت أوراق صحف المتأخرين. رجاء أن اطلع في حدائقهم على نخلة من ذلك. وعسى أن أصادف في خزائهم نخلة فيما هنالك. حتى تعب مركبي الطليح من الجولان في ذلك الميدان. وتحققت عجزتي من إدراك هذا الشأن. حيث لم أقف منه على أثر، ولم أعثر في ذلك على شيء من الخبر، سوى أن بعض المؤرخين الكبار ذكر بعض أحوالها في وقت من الأوقات على سبيل الاستطراد، وبعض آخر منهم ذكر بعضاً منها بعد سنين كثيرة حسب الاجتهاد، وهذا كما ترى لا يشفي العليل، ولا يروي الغليل، وأما أهل بلغار وقزان، وإن جاء منهم العلماء الأعلام، والفضلاء العظام، في كل قرن وزمان، إلا أنهم لعدم رغبتهم في التأليف والتصنيف وقناعتهم بمطالعة تصانيف الغير وتعليمها خصوصاً في علم التاريخ فإنه لا رغبة لهم فيه أصلاً ولا يباليون به قطعاً استحال أن يقع منهم فيه أثر، أو يكون لهم منه خبر، ولهذا بقيت أحوالهم ووقائعهم برمتها مستورة عن أنفسهم فضلاً عن غيرهم حتى انتهت بهم جهالتهم بهذا الفن الآن إلى حد يزعم أغلبهم أنهم من منذ خلقوا محكومون للدولة الروسية وأنهم تحت إسارتهم هكذا من قديم الأيام وإن طاعتها فرض عليهم أصالة وبالذات، وإن أمرت بما يخالف الشرع الشريف حتى الممات، وأنه لم يجيء منهم أحد من الملوك. ولم يحكم منهم أحد على الغني والصلعوك. وأقبح من هذا جهالتهم بأصلهم ونسبهم، وتضييعهم لمحتدهم وجنسهم، فإنهم لما رأوا شماتة طائفة الروس إياهم بكونهم من التتار. وشاهدوا في كتب المسلمين أن التتار لا تذكر إلا مقرونة باللعن وما يوجب الغار والشنار. أنكروا كونهم من التتار. ورضوا لأنفسهم بإطلاق اسم نوغاي تبعاً في ذلك أقوام ما وراء النهر ولا يدرون أن أسلافهم قد تركوا جميع من في البسيطة في الدهشة والحيرة. وأن الروس كانت تحت حكومتهم كالأرقاء مدة من الأزمنة كثيرة. ولا ينتبهون أن شماتة الروس بذلك إنما هي لإذاعة التتار إياهم أشد النكال ولكون لفظ التتار عندهم كالمرادف للفظ مسلم كما أن لفظ الروس عند أهل قزان كالمرادف لمطلق لفظ النصارى ولا يعلمون أيضاً أن ذكر المسلمين التتار مقرونة باللعن إنما هو لإيذائهم إياهم وتخريبهم بلادهم وفعالهم فيها من الفساد والقبايح ما لا يحصى وقتلهم الخليفة وانقطاع الخلفاء العباسية بسبب ذلك ولا يعرفون أن من فعل هذه كلها إنما هو

شعبة أخرى منهم كانوا ببلاد العراق وأما تثار قزان وسائر البلاد الشمالية فهم بريثون من ذلك كله بل هم معترضون على ذلك من الأول وقد طالب بركة خان منهم ابن عمه هلاكو بدم الخليفة وثاره وقاتله وكسره. ومات هلاكو بعيد ذلك مكمودًا وصدر غير ذلك منهم من المبررات والخيرات والتوادد والمراسلة بالملوك الإسلامية المصرية ما لا يحصى كما ستطلع على كل ذلك إن شاء الله في محله، وهذه كلها منقبة يفتخر بها لا أنها مثلبة يتنفر عنها، وأما إطلاق اسم نوغاي على أنفسهم هربًا من إطلاق اسم التتار ففيه نوع من اليهودية حيث هربوا من الأعلى إلى الأدنى فإن نوغاي طائفة من التتار مشهورة من القديم بالفساد، والبغي والعناد، كما سيجيء إن شاء الله فإذا كان حال أنفسهم هكذا فكيف حال من سواهم في أحوالهم فإنهم أحرى وأولى بأن لا يعرفوا شيئًا من أحوالهم ويجهلون سمت إقليمهم وبلدانهم. وإن أشار الشيخ زكريا القزويني^(١) في غضون كلامه أن للقاضي يعقوب البلغاري تاريخًا في بيان أحوال بلغار إلا أنه موجود الاسم مفقود الجسم كالعنقاء وكذلك رسالة أحمد بن فضلان^(٢) حتى قيل إن جماعة من أهل أوروبا ممن لهم اعتناء بجمع مثل هذا الأمر وضبطه طلبوهما بنشر الإعلانات من جميع الممالك^(٣)، ولم يقفوا على أثر منهما فيما هنالك، والحاصل ما رأيت قومًا تركوا وقائعهم وحوادثهم سدى وأضاعوا مجد أوائلهم مع ظهور كثير من الملوك العظام والعلماء الكرام وفضلاء الأنام والأمور الجسام مثل هؤلاء القوم. حتى كأنهم عند الأكثرين ما خلقوا إلى هذا اليوم. بحيث إذا رأوا في كتاب من الكتب أو سمعوا من أحد اسم قزان وبلغار لا يعرفون أنه في الشرق أو الغرب أو الجنوب أو الشمال فضلًا عن سائر أحواله وهذا من أعجب العجائب، وأغرب الغرائب، وبيننا أنا خائض في بحر الفكرة إذ قرع سمعي أن الفاضل شهاب الدين أفندي المرجاني^(٤) من علماء هذا العصر قد ألف في ذلك تاريخًا سماه

(١) الشيخ زكريا القزويني: لعله زكريا بن محمد بن محمود القاضي، عماد الدين، أبو يحيى الأندلسي الأنصاري القزويني، قاضي واسط، توفي سنة ٦٨٢هـ، من تصانيفه: «آثار البلاد وأخبار العباد» في التاريخ، «عجائب البلدان» «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات». (كشف الظنون ٥/٣٧٣).

(٢) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، توفي في حدود سنة ٣٠٩هـ، له «كتاب الجغرافيا». (كشف الظنون ٥/٥٧).

(٣) قاله الفاضل المرجاني وهذا وإن كان صحيحًا في شأن تاريخ يعقوب بن النعمان ولكنه في شأن رسالة ابن فضلان غير صحيح بلا مرية من مؤلفه عفي عنه.

(٤) هو شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني القزاني الحنفي، ولد سنة =

«مستفاد الأخبار في تاريخ قزان وبلغار»^(١) ففرحت بذلك فرحًا كثيرًا ولما طبع منه القسم الأول الذي منتهاه إلى استيلاء الروسية على قزان وملكت منه نسخة وأجلت نظري في درره وقرره، وأدرت فكري في عجره وبجره، ألفتيه غير كاف بالمقصود، إذ قد فاته كثير مما هو في كتب القوم موجود، بل لم يذكر فيه عشر ما فيها مع مخالفة كثير مما فيه للواقع، إلا أن سعيه في ذلك مشكور، حيث ابتكر شيئًا لم يسبقه إليه من سواه، وقلد بذلك قلادة المنة أعناق أبناء جنسه ورفع به راية فضله وأعلاه، فإن الفضل للمتقدم والله در من قال شعر:

فلو قبل مبكاها بكيت صباية لقلت شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وهو سامحه الله وعامله بلطفه فيما لم يطلع عليه معذور فإن الإحاطة بما في كتب القوم متعسر بل متعذر لعدم تيسر نسخها أولاً خصوصًا في تلك الديار وعدم الفرصة لمطالعة الموجود منها ثانيًا خصوصًا لمن كثرت أشغاله كالمرجاني بالليل والنهار.

ولما رأيت أن الحال على هذا المنوال ونيران الفتنة في تلك البلاد لا تزال يومًا فيومًا في اشتعال. وحرارتها ساعة فساعة في ازدياد. وشرارتها لمحة فلمحة في الانتشار والاستنفاد وأمواج بحار الحوادث في الغلو والتلاطم. وسحاب المصائب في التزايد والتراكم. وكادت تلك الديار لولا أن تداركها الله سبحانه بلطفه أن تكون كبلاد أندلس. وأشرف أن يزول عن ساحتها البهاء والأنس. حيث توجهت الروسية بشراشرها إلى أن لا تترك بها من يقول لا إله إلا الله. فحسبنا الله ونعم الوكيل ولا

= ١٢٢٣ هـ، وتوفي سنة... من تصانيفه: «إعلام أبناء الدهر بأحوال ما وراء النهر»، «البرق الوميض في الرد على البغيض المسمى بالنقيض»، «تذكير المنيب بعدم تزكية أهل الصليب»، «تنبيه أبناء العصر على تنزيه أبناء أبي نصر»، «جوامع الحكم وذرائع النعم» من مقولات علي بن أبي طالب، «حق البيان والتصوير في مسألة حدوث عالم الأمر والتقدير»، «الحق المبين في محاسن أوضاع الدين»، «حق المعرفة وحسن الإدراك مما يلزم في وجوب القسط والإمساك»، «الحكمة البالغة الحنية في شرح العقائد الحنفية»، «طريقة المثلى وعقيدة الحسنى»، «عذب الفرات في حاشية الجلال»، «فرقة الخواقين»، «غلالة الزمان في تاريخ بلغار وقزان»، «الفوائد المهمة»، «كشف الغطاء عن الأبصار بأغلاط تواريخ بلغار وأكاذيبها الصريحة لذوي الاعتبار»، «الميل الأعلى»، «مستفاد الأخبار» في مجلدين، «ناظورة الحق في فرضية العشاء وإن لم يغب الشفق»، «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» (كشف الظنون ٤١٨/٥، ٤١٩).

(١) انظر الحاشية السابقة.

حول ولا قوة إلا بالله. اختلج في خلدي أن أجمع تلك الكلمات التي اطلعت عليها في كتب القوم. رجاء أن ينتبه أفكار أقوام تلك الديار بالاطلاع على كنه الحال ويستيقظوا من طول النوم. وعسى أن تحصل لهم الحمية الوطنية والغيرة الدينية، بالاستيقان أن أوائلهم كيف كانوا. وأنهم الآن أين وقعوا وكيف صاروا. فيرفعون رؤوسهم من حضيض الدناءة والردالة والاحتقار. ويتشبثون بأسباب خلاصهم من ورطة الهوان ومواقع البوار. ويطلبون حرمتهم الدينية كما نالها في هذا الزمان سائر الأحرار في جميع الأقطار. إلا أنه عاقني عن ذلك عوائق. ومنعني من المضي فيما هنالك موانع. من قلة البضاعة. وعدم الاستطاعة. وقصر الباع. في فن الاطلاع. وابتلائي بالغرابة والكربة. مع ما انضم إليها من سوء الحال. وتطاول السفهاء عليّ والجهال. حتى أني عند أهل زماني في المنزلة. أقل من شيء المعتزلة. ومن تيقني بأن أهل تلك الديار. لا يعرفون لفن التاريخ من مقدار. بل يعدونه عبارة عن القصص والحكايات العديمة الاعتبار. ولا يدرون ما وقع في التنزيل من القصص والحكايات والأمثال والمواعظ المختمة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآية ٢١] وأولي الأبصار وهم في الحقيقة جاهلون. بقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت: الآية ٤٣] وعن الحصة من القصة غافلون. حتى أردبهم هذا الزعم الفاسد، والرأي الكاسد، وأوردتهم إلى شر الموارد، وصار سبباً لانحطاطهم إلى حضيض المذلة والنقصان. وعلّة لابتلائهم بالردالة والهوان. وموجباً لرضاهم بخصلة لا يرضى بها سوى الناهق من جنس الحيوان. في هذا الزمان. الذي امتاز فيه كل ملة بكمال حرية الشخصية والجنسية والدينية والملية من غير ظلم وغصب من أحد ولا عدوان. مع أنهم يصرفون أعمارهم في تحصيل ما لا نفع فيه في المبدأ والمعاد. ويضيعون أوقاتهم بالاشتغال بتعليم ما لا يجديهم في الدنيا شيئاً ولا ينجيهم يوم التناد، جازمين بأن هذا هو الكمال الذي يعرض عليه بالنواجذ. وإن ما سواه مما يستحق أن يرمى وينبذ في المنايا فإننا لله وإنا إليه راجعون، هداهم الله سبحانه وإيانا إلى صراط مستقيم، وبصرنا بعيوبنا ورزقنا حسن النظر فيما فيه منافعنا ونجاننا من الفكر العقيم. والرأي السقيم. بجاه النبي الكريم. إنه بنا رؤوف رحيم.

ثم لما مرت برهة من الزمان قوي فيّ هذا العزم بتحريض بعض الإخوان. وترغيب بعض الأعيان. وتشويقه في الشروع في هذا الشأن. وتشجيعه إلى المبارزة في هذا الميدان. وإعانتة ببعض المواد وتكميل النقضان. فلم أجد بداً من التوجه إلى

صوب المرام. ومراجعة كتب القوم العربية والفارسية والتركية لتلفيق الكلام. مع الإعراض عما يتوجه إليّ في ذلك من الحساد والجهلة من الطعن والملام. قائلاً في ذلك مشطراً لكلام بعض فضلاء الأنام شعر:

ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر ومن حسد النعماء يقتله القهر
ولله در من قال، شعر:

وإذا الفتى عرف الرشاد هانت عليه ملامة جهال
فأرسيّت سفينة العزم بساحل جودي المقصد. وقعدت لاقتناص صيد المرام كل مرصد. وشرعت بتوفيق الله سبحانه وعونه في تأليف الكلام وترتيبه. وأخذت في تفصيل الكتاب وتبويبه. شارطاً لنفسي أن لا أتجاوز النقل. وأن لا أقول شيئاً بمجرد الوهم والعقل. شعر:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملئ أو تناهى فأقصرا

فإن مبني التاريخ على النقل لا سبيل فيه إلى العقل إلا إذا تعارض النقلان، وتناقض القولان، فإني حينئذ لا ألو جهداً في التطبيق بينهما حسب الإمكان. فإن ترك المتناقضين سدى ليس من شأن ذوي الشأن، ولعمري إن في بعض مواضع هذا الأمر الذي أنا الآن في صدد بيانه اختلافات كاختلاف آراء أرباب العجب والأنانية، لا يمكن جمعها وتطبيقها، مع أنه في نفسه من قبيل المجهول المطلق لا يتيسر بالسهولة اقتناص أوابده وتقبيدها، وليس عندي من المآخذ والأسباب سوى النزر اليسير. فلا تلمني إن ظفرت في كتب القوم بما أهملته ولم أذكره في هذا السفر الصغير. وأثبتته في مكانه المناسب بعد التحقيق والتحرير. شعر:

إني وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

فها أنا قد قدمت ما يكون عند المنصف عذر المثلى بل لمن هو أكثر مني علماً وأوفر حالاً، وأعزّ شأنًا وأغزر مالاً، وليس المقصود من جمع هذا المجمع الحقير إظهار الفضل، فإن الفضل كما أنه بنفسه مفقود. كذلك سبب إظهاره أيضاً غير موجود. بل قد عرفت من هذا التأليف ما هو المقصود. وربما أنه في أثناء النقل على خطأ بعض الأقوال. لا لإظهار قصور قائله بل لإظهار الصواب من المقال. وربما أكتفي بإثبات ما هو الصواب حسب إدراكي القاصر. وأحيل إدراك خطأ مقابله إلى ذهن من يطالعه من ذوي الرأي السديد والمفاخر. وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وهذا أوان الشروع في المقصود. مستعينًا بعناية مفيض الخير والجدود. وقد
ناسب ترتيب الكتاب إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة.

المقدمة في بيان أصل الترك ومنشئهم وكيفية انتشارهم وبعض مجرياتهم مع
جيرانهم من سائر الأقوام والأمم قبل الإسلام حسب اطلاعي القاصر.

المقصد الأول في أحوال بلغار وبيان أهلها وزمان دخولهم في حمى الإسلام
وما جرى عليهم بعد ذلك من حوادث الأيام، إلى حين خرابها باستيلاء الكفرة اللثام.

المقصد الثاني في ورود التتار إلى هذه الديار، وتشكيلهم فيها دولة مستفحلة
وتغلبهم على دول سائر الأقطار. وتعيين تاريخ خروجهم من دائرة الكفر وانتظامهم في
سلك المسلمين الأخيار. وما يتعلق بهم من الوقائع والأخبار. إلى أن غلب عليهم
الكفار الأشرار. بإرادة الملك الجبار.

المقصد الثالث في تجدد مدينة قران وتشكل حكومة بها مدة من الزمان إلى أن
ظهر بها أعظم الحدثن أعني استيلاء الروس بإرادة الملك المنان خلصها الله سبحانه
من أيديهم فإنه المستعان.

المقصد الرابع فيما جرى عليها من الحوادث والوقائع بعد استيلاء الروسية إلى
هذه الأوان وإلى ما شاء الله سبحانه من الزمان.

الخاتمة في بيان خوانين خان كرمان وقريم وخوانين أوزبك ببخارى وخوازرم
وقزاق.

المقدمة

في بيان أصل الترك ومنشئهم وكيفية انتشارهم
وبعض ماجرياتهم مع جيرانهم من سائر الأقاليم
والأمم الآسيوية والأورواوية قبل الإسلام

القسم الأول: معاملات قدماء
الأتراك مع أهل الصين
والفرس والروم نادراً.
القسم الثاني: أحوال الأقاليم
التركية الذين كانوا جيران
البلغار واستوطنوا في الأوروا
الشرقية وذكر وقائع
مشاهيرهم.

المقدمة في بيان أصل الترك ومنشئهم وكيفية انتشارهم وبعض ماجرياتهم مع جيرانهم من سائر الأقوام والأمم الآسيوية والأوروبية قبل الإسلام على سبيل الإجمال حسب اطلاعي القاصر

لا يخفى على أصحاب المعارف وأرباب الفنون أن علم التاريخ من جملة العلوم الظنية والقطع واليقين فيه نادر جدًا بل لا يستبعد أن قيل إنه مفقود فيه بالكلية فإن الوقائع الحاضرة التي لا شبهة في صحتها ومطابقتها للواقع لما كان نقلتها وضابطوها ومحرروها أحاد ألا تخرج من حيث تفاصيل كفياتها من دائرة الظن إلى ذروة اليقين فإن أخبار الأحاد لا تفيده وإن كانت من حيث الجملة لا شك فيها فإذا كان حال الوقائع الحاضرة هذا فما ظنك في أحوال الحوادث والوقائع التي صارت معروضة للتبدل والتغير بتداول أمم مختلفة الألسن واللغات إياها وتصرفهم فيها بالنقل والترجمة إلى لغات شتى مدة ألوف من السنة مع خلوها عن السند ولكن مجرد احتمال كونها معروضة للتبدل والتغير لا يورث خللاً في التاريخ ولا يسقطه عن مرتبة الاعتبار فضلاً عن أن يحكم بكونه كذباً محضاً كيف وقد أورد كثير من كبار المحققين وفضلاء المدققين كالمسعودي^(١) والطبري^(٢)

(١) المسعودي: هو علي بن الحسين بن علي الهذلي البغدادي، أبو الحسن المسعودي، المؤرخ، نزيل مصر، الأديب، توفي بمصر سنة ٣٤٦ هـ، من مصنفاته: «إثبات الوصية»، «أخبار الأمم من العرب والعجم»، «أخبار الخوارج»، «أخبار الزمان ومن أبياده الحدثنان» في التاريخ، «الأوسط في التاريخ»، «راحة الأرواح في أخبار الملوك والأمم»، «الرسائل والاستذكار لما مر في سالف الأعصار»، «عجائب الدنيا»، «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في التاريخ، «المسالك والممالك»، «الهداية إلى تحقيق الولاية» وغير ذلك (كشف الظنون ٦٧٩/٥، ٦٨٠، الأعلام ٢٧٧/٤).

(٢) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير، أبو جعفر الطبري، البغدادي المولد والوفاة، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ. صاحب التاريخ المشهور، والتفسير المشهور =

وابن الأثير^(١) والذهبي^(٢) وابن كثير^(٣) وابن خلدون^(٤) وغيرهم ممن لا يمكن عددهم

= (جامع البيان)، له من المصنفات: «الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة»، «اختلاف الفقهاء»، «تاريخ الرجال»، «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ومولد الرسل وأبناؤهم»، «جامع البيان في تفسير القرآن»، «تهذيب الآثار»، «كتاب البسيط في اللغة»، «الجامع في القراءات»، «كتاب التبصير في الأصول»، «كتاب الحنيف في الفقه»، «كتاب الزكاة»، «كتاب الشذور»، «كتاب الشروط»، «كتاب الصلاة»، «كتاب الطهارة»، «كتاب العدد والتنزيل»، «كتاب الفضائل»، «كتاب القراءة»، «كتاب المحاضر والسجلات»، «كتاب المسترشد»، «كتاب الوصايا» وغيرها (كشف الظنون ٢٦/٦ - ٢٧).

(١) ابن الأثير الجزري: هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، عز الدين، أبو الحسن الجزري الموصل، المعروف بابن الأثير الفقيه المؤرخ الشافعي، ولد سنة ٥٥٥هـ، وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ، من تصانيفه: «آداب السياسة»، «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، «تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل»، «تحفة العجائب وطرقة الغرائب» في التاريخ، «الجامع الكبير» في علم البيان، «كامل التواريخ» «كتاب الجهاد»، «اللباب في تهذيب الأنساب» وهو تلخيص أنساب السمعاني، وغير ذلك. (كشف الظنون ٧٠٦/٥، الأعلام ٣٣١/٤).

(٢) الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني المصري، الإمام الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي، المحدث المؤرخ، ولد سنة ٦٧٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٨هـ. من مصنفاته: «أخبار أبي مسلم الخراساني»، «أخبار قضاة دمشق»، «الإعلام بالوفيات»، «تاريخ الإسلام»، «التبيان في مناقب عثمان بن عفان»، «التجريد في أسماء الصحابة»، «تذكرة الحفاظ»، «تشبيه الخميس بأهل الخميس»، «تقويم البلدان»، «توقيف أهل التوفيق في مناقب أبي بكر الصديق»، «تهذيب التهذيب» في أسماء الرجال، «الدرة اليتيمة في سيرة ابن تيمية»، «دول الإسلام» في التاريخ، «الروح والأوجال في نبأ المسيح والدجال»، «سيرة الحلاج»، «سير أعلام النبلاء»، «العبر في خبر من غير»، «فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب»، «الكاشف في أسماء الرجال»، «كتاب الكبائر»، «المغني في الضعفاء وبعض الثقات»، «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، «نعم السمر في مناق عمر»، وغير ذلك (كشف الظنون ١٥٤/٦، ١٥٥).

(٣) ابن كثير: هو إسماعيل بن عمر القرشي بن كثير البصري ثم الدمشقي، عماد الدين، أبو الفداء، الحافظ المحدث الشافعي، ولد سنة ٧٠٥هـ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ، من تصانيفه: «الاجتهاد في طلب الجهاد»، «أحكام التنبيه» «البداية والنهاية» في التاريخ، «تفسير القرآن»، «تكملة أسماء الثقة والضعفاء»، «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن»، «شرح الجامع الصحيح للبخاري»، «طبقات العلماء»، «الفصول في سيرة الرسول»، «الواضح النفي في مناقب الإمام محمد بن إدريس»، «رسالة كتبها للأمير منجك لما حاصر الفرنج قلعة إياس»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٢١٥/٥).

(٤) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن خلدون الإشبيلي الحضرمي، القاضي ولي الدين، المؤرخ المالكي، ولد سنة ٧٣٢هـ بتونس، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ له من المصنفات: «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي»، «رحلة»، =

في تواريخهم كثيرًا من الأخبار والحوادث المستبعدة عن العقل غاية البعد يدرك ذلك من يطالعها ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن آباءنا الأتراك الأقدمين الذين نحن الآن في صدد بيان أحوالهم مع كون شجاعتهم وبسالتهم ومهارتهم في فن الحرب وثباتهم ومتانتهم مسلمًا لدى الكل بل مع كونهم تماثيل مجسمة للشجاعة اقتصرنا على محاربة الإنسان ولم يحاربوا غيرهم ولهذا لا تصادف في مجموعتنا هذه حرفًا واحدًا مما ذكر في تواريخ الفرس واليونان حتى في تاريخ الفردوسي^(١) الذي صنف كل بيت من كتابه في مقابلة دينار من محاربة الأجنحة والعفران والسباع والثعبان وضبط شردمة قليلة في مدة يسيرة من الزمان في سفر واحد أكثر المعمورة والربيع المسكون إلى غير ذلك من الخرافات التي كونها منها مسلمة عندهم أيضًا فإن كان فيها ما يستبعده العقل في بادي النظر فهو ما سيذكر في المقصد الثاني من المواد الثلاث أعني بها وقائع أغوزخان وإقامة المغل في موضع إيركنه قون أزيد من أربعمئة سنة من غير أن يشعر بهم أحد من جنس إنسان وولادة ثلاثة بنين من الأنقوا من غير اقترانها بأحد من نوع إنسان وهذه الثلاث أيضًا مما يعد من الأمور العادية بالنسبة إلى ما ذكر في تواريخ الفرس واليونان من الخرافات خصوصًا الأولين منها والثالث له أيضًا نظير في نفس الأمر كما ييسر كل منها في محله ويفصل إن شاء الله تعالى ومع ذلك لا أتوقع أن أحد خمس ديوان بل لا أوصل من أحد تحسينًا ولا ثناء حسنًا فضلًا عن أخذ دينار لكل بيت.

ثم لا يخفى أيضًا أن أجدادنا الأتراك القدماء لما لم يتركوا لنا تواريخ مبينة لأحوالهم ومجرياتهم لا جرم صرنا مجبورين ومضطرين أن نأخذ بيان الوقائع والأحوال التي تذكر هنا من التواريخ التي نقلوها من أعدائهم التي أحاطوا بهم من جوانبهم الأربعة وكانوا في حالة الحرب معهم دائمًا أبدًا أعني بهم الصين والفراس والروم والروس ولا يخفى على أحد أن العدو كيف يحزر مناقب عدوه ويضبط محاسنه وينشرها هيئات وإن كانت وظيفة المؤرخ أن يحزر الوقائع ويضبط الحوادث

= «شرح الرجز لابن الخطيب» في الأصول. «شرح قصيدة ابن عبدون»، «شرح قصيدة البردة»، «طبيعة العمران»، «عنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» في التاريخ. (كشف الظنون ٥/٥٢٩).

(١) الفردوسي: هو الحسن بن إسحاق بن شرف شاه الطوسي، أبو القاسم الفردوسي الشاعر، توفي سنة ٤١٦ هـ، له ديوان شعره منظوم بالفارسي، «شاهنامه» منظوم فارسي في ستين ألف بيت، «يوسف وزليخا». ألفه في بغداد بأمر الخليفة في اثني عشر ألف بيت (كشف الظنون ٥/٢٧٤).

على ما هي عليه من غير تبديل ولا تغيير بملاحظة عداوة طرف وقومية طرف آخر والتزمها كل من يتصدى لجمع التواريخ قولاً إلا أنها تكون وقت الفعل وتحرير الوقائع كشرية نسخت قبل العمل بها ويترنم لسان حال كل واحد منهم بقول الشاعر. شعر:

ورصاص من أحببته ذهب كما ذهب الذي لم نرض عنه رصاص

ويصرف كل منهم جميع قواه بغاية جهده في جعل رصاص قوم يحبه ذهباً وجعل ذهب قوم يبغضه رصاصاً فالتماس حرف يتعلق بمناقب الأتراك من تواريخهم ليس شيئاً سوى أن يكون مظهر القول الشاعر. شعر:

المستجير بعمر وعند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

مصدّقاً لقول شاعر آخر. شعر:

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

بل ليس شيئاً سوى مشابهة عجوز تصدى لحلب ثور بزعم أنه بقرة ولهذا ترى كثيراً من أولاد الترك ممن أخذ القلم بيده وتصدى لتحرير أحوال الترك وأوصافهم لا يذكرونهم إلا بالألفاظ الذم والسب والشتم كالسفك والوحوش والجهل وقلة الإدراك وعدم الدراية تقليداً لهؤلاء المؤرخين المذكورين فمثلهم كمثل صبي يسمع من جيرانه الذين هم يبغضون أباه وأمه سبهما وشتمهما^(١) فيطلق تلك الألفاظ التي يسمعهما من الجيران على أبيه وأمه لعدم علمه بمعناها وسبب إطلاقهم عليهما وليتهم يكتفون بدم المغل والتتار وسبهم لزعمهم بسبب جهلهم بالأنثوغرافيا وعلم الأنساب أنهم ليسوا من الأتراك بل هم من أعدائهم وأعداء المسلمين كافة وأنهم إنما خربوا الديار الإسلامية لعداوتهم للإسلام وأهله لا للانتقام من خوارزمشاه فقط كما شاع هذا الزعم الباطل من لدن خروج التتار إلى يومنا هذا لعدم اطلاع الناس بلمية الأمور وحقيقتها فيكون زعمهم وجهلهم هذا نوع عذر لهم في ذلك ولكنهم لا يكتفون بذلك بل لا يزالون يصيحون بغاية جهدهم بأن الأمر لما دخل بيد الأتراك الوحوش صار كذا وأنه لما آل الحكم إلى

(١) ولعمري إن هذا الفعل الشنيع قد شاع بين المتفرنجين والمتروسين في حق كافة أهل الإسلام تقليداً للإفرنج والروس الذين هم أعداء المسلمين فأضاعوا بذلك رشدهم وضلوا هداهم الله وإيانا سواء الصراط منه عفي عنه.

الأترك عديمي الدراية صار كيت وكيت إلى غير ذلك من ألفاظ الدم والأقوال الدالة على تخريب أساسهم. وليت شعري ما المقصود من تحرير تاريخ مثل ذلك ومن أمر هؤلاء الحمقاء العارين عن الحمية بتأليف تاريخ كهذا فيما هنالك. نعم إن صنعة التاريخ هي ضبط الوقائع والحوادث المستحصلة في اليد كما هي في نفس الأمر من غير تبديل ولا تغيير ومن غير ملاحظة محبة قوم وعداوته كما بيناه آنفاً والمحكمة بميزان العقل في موضعها بغاية الاستقامة والإنصاف بلا ميل إلى طرف ما بالتشهي. ومن لوازم هذا المسلك ومقتضياته إبراز محاسن شخص ومناقب قوم صارت سبباً لإحياء ملة أو ترقى دولة من زاوية الكتمان والحجاب إلى عرصة الوجود والظهور ليقترن به أو بهم فيها الآخرون ويجعلونها أوصافاً لازمة لأنفسهم ومعياراً لأعمالهم وكذلك إظهار معائب شخص ومثالب قوم أمست سبباً لانحطاطهم بل علة مستقلة لانقراضهم واضمحلالهم من بقعة الخفاء ومكمن الستر إلى ميدان العلانية ومواقع الاشتهار ليجتنب عنها العقلاء ذوو الأبصار ولكن لا يلزم من هذا تلوين قوم وملة عظيمة نجية عموماً على العمى بل اللازم إسنادها إلى صاحبها التي صدرت عنه لا غير.

فتبين من هذا البيان أن الصعوبة التي التزمنا ارتكابها ومقاساتها في هذا الجمع والتلفيق غير مقصورة على تقليب أوراق كتب عديدة لتحصيل الوقائع المطلوب تحريرها وضبطها بل أصعب المصاعب في تمييز كون تلك الوقائع من جنس المحاسن أو المساوىء باستعمال العقل والفكر فيه باعتدال الدم ثم إفراغها في قالب مناسب لها من التحسين أو التقييح ولكن الفطن اللقن إذا عرف عادة شخص في إيراد الكلام وأن الكلام الصادر عنه مبني على أي شيء لا يصعب عليه إفراغ أسلوب كلامه في قالب آخر مطابق لنفس الأمر من غير تغيير مضمونه الكلي ومفهومه العام أو توجيهه بنوع من الجواب بعد نقله على ما هو عليه فمن ههنا يظهر مسلك جامع هذه الحروف ومشربه في هذا الجمع والتلفيق فلا يتعجب الناظر إليه ولا يتحير إذا رأى أسلوب إفادته وكيفية أدائه مغايراً لأسلوب المنقول عنه وكيفيته في الأداء قائلاً إنه لأي شيء خالف الأصل المنقول عنه مع عدم جوازه وربما نقل الحوادث على ما هي عليه من غير أن نغير أسلوبها ومن غير أن نتصدى لتوجيهها ونحيل المحاكمة فيها وتوجيهها بموجب قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمّد: الآية ٣٠] على بصائر القراء الكرام وأنظار المطالعين العظام والله الموفق ولنشرع الآن في المقصود مستفيضاً من مفيض الخير والوجود.

[نسب الترك]

لا يخفى على أصحاب البصيرة وناقلي الأخبار والسيرة أنه لا اختلاف بين أهل الإسلام وأهل الكتابين في أن أبناء البشر الموجودين الآن في قطعات الخمس الأرضية أعني آسيا وأوروبا وإفريقيا وأمريكا وأستراليا منتشرون كافتهم من أولاد نوح عليه السلام الثلاثة أعني سام وياث وحام وإن خالفهم فيه أهل الفارس والهند والصين قاطبة قديماً وحديثاً وتبعهم كثير من أهل أوروبا في زماننا هذا إلا أننا نبنى الأمر على ما هو المشهور وللتحقيق^(١) موضع آخر واتصال سلسلة انتساب نوح بأبي البشر آدم عليهما السلام على ما ذكر في سفر التكوين من التوراة وتلقاه العلماء المحققون من أهل الإسلام كالطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم بالقبول وذكره في تواريخهم هكذا نوح بن^(٢) لامك بن متوشالخ بن أخنوخ بن يارد بن مهليل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام. ثم إن عند البعض من القائلين بهذا القول إن نوحاً عليه السلام هو الذي قسم الأرض بين أولاده الثلاثة وعند بعض آخر منهم أن الذي قسمها بينهم هو حفيده أرفخشذ وغضب نوح عليه السلام لولده حام لسبب من الأسباب ودعا عليه وقال ملعون كنعان يعني ولد حام ليكن أولاده عبيداً لأولاد أخويه ودعا لياث قائلاً ليفتح الله لياث ويكثره فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم والحق إن أثر إجابة نوح عليه السلام في حق أولاده الثلاثة على ما هو المشهور ظاهر إلى الآن كالشمس في رابعة النهار وعلى التقادير الثلاثة المار ذكرها فقد وقع في حصة يافث الجهة الشمالية من الأرض وقد ذكر في روضة الصفاء لميرآخوند^(٣) وشجرة الترك لأبي الغازي بهادرخان الخوارزمي الچنكزي أخذاً

(١) وقد ذكر هذه المسألة أحمد مدحت أفندي في رسالته نزاع العلم والدين وأطال بما لا طائل تحته وصنف فيها الشيخ التميمي النابلسي في عصرنا هذا رسالة مستقلة وذكر طرف منها في عدد من أعداد مجلة مكارم الأخلاق ولا شيء في القرآن يدل على ما اشتهر. سوى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ أَبَاؤِنَ﴾ [الصافات: الآية ٧٧] ودلالته إنما هي من جهة القصر وعلى تقدير وجوده لا يتعين كونه حقيقياً وقوله عليه السلام وكان النبي يعني الذين قبله يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة يدل على خلافه يعرف ذلك بالتأمل انظر إلى شرح العيني ٢ ج ص ١٢٠ منه.

(٢) وهذا منقول عن التوراة المطبوعة في بيروت من طرف جمعية أمريكا وفي تواريخ الأعلام المذكورين مخالفة في إملاء بعض تلك الأسماء، فتنبه منه عني عنه.

(٣) هو كتاب «روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» فارسي، لمير خواند المؤرخ محمد بن خواند شاه ابن محمود المتوفى سنة ٩٠٣ هـ (كشف الظنون ١/٩٢٦).

من كثير من تواريخ المحققين الذين ألفوها بغاية التحقيق والتدقيق في عصر سلطنة أولاد چنكزخان في مملكة إيران خصوصًا محمود غازان خان منهم أن يافتًا توجه إلى جهة الموضع الذي وقع في حصته بعد وداع أبيه نوح عليه السلام واستوطن في ساحل نهري جايق واتل وارتحل هناك إلى رحمة الله تعالى بعد أن عاش فيه ٢٥٠ سنة وزاد ميرآخوند كون وفاته مغرورًا وقد ذكر في الكتابين المذكورين نقلًا عن البعض كون يافت نبيا وهذا ليس ببعيد عن النقل ولا مخالفًا للنقل على ما سنذكره بعد.

والترك من ولد يافت لا خلاف فيه عند المحققين ولكنه وقع الاختلاف الكثير بين المؤرخين في عدد أولاد يافت وفي كون الترك من ولده الصليبي وقد ذكر في الكتابين المذكورين أيضًا أن يافتًا خلف ثمانية أولاد وهم الترك وخزر وصقلاب وروس ومنك وچين وكماري وتارخ وذكر في التوراة أن له سبعة أولاد وهم جومر ماجوج ماداي ياوان توباك ماشك تيراس وذكر بعضهم له أحد عشر ولدًا^(١) وقال ابن خلدون إن الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج من أولاد يافت باتفاق النسابين وفيما عداهم خلاف وعلى كل حال إن الأجناس والأقوام القاطنين في الأراضي المحدودة شرقًا ببحر الصين وجنوبًا بممالك الهند والأفغان والفرس والشام والبحر الأبيض وغربًا بالبحر المحيط الغربي وشمالًا بمنتهى المعمورة من الصين واليابان وأهل التيبب وأجناس الأتراك والصقالبة وجميع الإفرنج والروم والأرمن كلهم منشعبون من أولاد يافت في المشهور وكذلك لا خلاف في كون الترك من ولد يافت في المشهور وإنما الاختلاف في أنه هل هو ولده الصليبي أو حفيد ولده فقد ذهب إلى كل واحد من هذه الأقوال ذاهب فالميرآخوند وأبو الغازي ذهبا إلى كونه من أولاده الصليبية تبعًا لمحققي المؤرخين الذين ضبطوا نسب چنكزخان كما مر.

وقال ابن خلدون^(٢) متصلًا بما نقلنا عنه سابقًا أن ليافت بناء على ما ذكر في التوراة سبعة أولاد هم كومر ومأجوج الخ ثم قال وقبائل الترك كلهم من أولاد كومر ولكن من أي أولاده الثلاثة أعني بهم توغرما واشبان وريغات والظاهر أنهم من توغرما

(١) ولكن الظن الغالب أن هذا إنما نشأ من التحريف فإن بعضهم ضبط منك الذي في الرواية الأولى ميغا وبعضهم منسكًا وضبط ما شك الذي في رواية التوراة ناسكًا فخلط إحدى الروايتين بالأخرى كما ذكر بعضهم خرخيز وتوغرغ بعد ذكره قرغز مع أنهما عينه وهنا روايات أخرى غير الروايتين المذكورتين كثيرة فلا نزيل بذكرها لعدم الحاجة إليها. منه عفي عنه.

(٢) انظر تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) ٢٢/٢ وما بعدها. (طبعة دار الكتب العلمية).

وقد نسبهم ابن سعيد إلى ترك ابن عامور بن سويل (هكذا في الأصل المنقول عنه والصواب بتويل) بن يافث والظاهر أن هذا غلط بل صحفوا كומר إلى عاموراه ما ذكره ابن خلدون وقد وقع في مروج الذهب للمسعودي عابور بدل عامور أو كומר حيث قال ولما قسم ارفخشذ بن سام الأرض بين أولاد نوح توجه أولاد عابور بن بتويل إلى جهة الشرق. فالحاصل من هذه الأقوال أن ألفاظ جومر وكومر وكماري وعامور وعابور منحرفة من أصل واحد وعلى قول ابن سعيد يكون الترك حفيد يافث أو حفيد ولده^(١) وفي ظن الفقير أن بتويل هو توبال الذي ذكر في التوراة فحرف إلى بتويل ثم إلى سويل على ما في نسخة ابن خلدون وكومر هو أخوه لا ابنه وبالجملة إن الترك لو كان من أولاد يافث الصليبية فهو المذكور في التوراة بعنوان تيراس وإن كان من أولاد كומר بن يافث فهو توغرما على ما مر عن ابن خلدون أو توجرمه على ما هو مذكور في التوراة المضبوطة بيدنا والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على الاختلاف المذكور وعلى أننا ما حررنا الذي حررناه هنا على العمى والتقليد الصرف من غير تحرير وتحقيق وإلا فنحن نبني الأمر هنا على ما ضبطه كثير من محققي المؤرخين الذين كتبوا ما كتبوه بعدما غربلوه بالغربال الدقيق وغب ما حققوه ودققوه بغاية التحقيق والتدقيق أعني بهم الذين كانوا في عصر أولاد چنكزخان وألفوا تواريخهم بأمرهم وما مر من قولنا إنه لا خلاف في كون الترك من أولاد يافث عند المحققين إشارة إلى هذا فإنه قد اشتهر في جملة الخرافات التي لا تزال تجري فيما بين العجائز وأصرا بهن من العجزة أن الترك من سلالة يأجوج ومأجوج الذين بقوا في داخل السد الذي بناه ذو القرنين الذي ذكرت قصته في القرآن حيث قيل هناك تركوا تركوا فسموا بالترك وكذلك اشتهر عند قوم آخرين أن الترك من نسل قنطوراء جارية إبراهيم عليه السلام^(٢) وهم شراح الأحاديث ابتداء ثم تبعهم فيه مؤلفو كتب اللغة والمؤرخون. فأما الأول فلا شبهة في كونه من أقبح الخرافات كقول بعضهم إن الجراكسة إنما سموا بمالان جدهم

(١) ذكر ابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية ١٥١/١ (طبعة دار الكتب العلمية ٢٠٠١ م)، حديثاً عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام القبط والبربر والسودان».

(٢) ذكر في البداية والنهاية ٢١٤/١ - ٢١٦، أن إبراهيم عليه السلام تزوج فنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة أولاد هم: زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح.

الأعلى هرب مرة ليلاً فقبل سرى كيچة فاشتهر بذلك ثم صار هذا اللفظ علماً غالباً لأعقابهم وكذلك الثاني لا مستند له قط فإن من قال إن الترك منشعب من قنطوراء جارية إبراهيم الخليل عليه السلام فقد قال غلطاً ورام شططاً حيث لا دليل له مع مخالفة الجمهور ولم ينقل عن أحد من المؤرخين أن إبراهيم عليه السلام كانت له جارية تسمى بقنطوراء نعم قالوا إنه تزوج بعد موت سارة امرأة كنعانية تسمى قطورا بقصر بلانون ابنة يقطن قاله ابن قتيبة^(١) وابن الأثير وكثيرون غيرهما وقال المسعودي قنطوراء بنون ومدّ لكنه لم ينسبها وقال أبو الفرج الملقب بأنه تزوج بقنطوراء ابنة ملك الترك ولعل هذا هو الصحيح وبمثل ذلك وجه بعضهم^(٢) قول من قال إن الترك منشعب من قنطوراء جارية إبراهيم عليه السلام حيث قال ويمكن أن تكون الجارية المذكورة من الترك فيقال للترك بتلك المناسبة بني قنطوراء ولكن هذا التوجيه واه جداً كما لا يخفى على المتأمل وأي داع يدعو لارتكاب هذا التكلف فهل ورد في الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أن الترك من بني قنطوراء جارية إبراهيم عليه السلام حتى يرتكب هذا التكلف لتصحيحها ضرورة نعم قد ورد ذكر بني قنطوراء في عدة أحاديث ولكن لم يرد فيها أن قنطوراء هذه هي جارية إبراهيم عليه السلام أو امرأته فهلا يجوز أن تسمى بذلك الاسم عدة أشخاص ومن الأحاديث التي ذكرها بنو قنطوراء حديث الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن مسعود: «اتركوا الترك ما تركوكم فإن أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء»^(٣).

وكذلك حديث الطبراني أيضاً عن معاوية أن بني قنطوراء أول من يسلب أمتي

(١) قول ابن قتيبة امرأة من الكنعانيين تسمى قطورا وزاد ابن الأثير ابنة يقطين وفي النهاية لابن الأثير هي يعني قنطوراء جارية إبراهيم الخليل ولدت له أولاً منهم الترك والصين وقال القاضي المراد بالخوز وكرمان صنفان من الترك وإن لم يشتهر عندنا سماهم الشارع بهما كما نسبهم إلى قنطوراء وهي أمة كانت لإبراهيم عليه السلام. منه عفي عنه.

(٢) وهو علي القاري في شرح المشكاة بعد الاعتراض على قولهم: إن الترك بنو قنطورا جارية إبراهيم بأنهم من أولاد يافت بالاتفاق. منه عفي عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٧٥/١٩، وفي المسند لأحمد بن حنبل ٤٥/٥: عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «لتنزلن طائفة من أمتي أرضاً يقال لها البصرة يكثر فيها عددهم ويكثر بها نخلهم، ثم يجيء بنو قنطوراء عراض الوجوه، صغار العيون حتى ينزلوا على جسر لهم يقال له: دجلة، فيتفرق المسلمون ثلاث فرق فأما فرقة فيأخذون بأذنان الإبل وتلحق بالبادية وهلك، وأما فرقة فتأخذ على أنفسها فكفرت فهذه وتلك سواء، وأما فرقة فيجعلون عيالهم خلف ظهورهم ويقاتلون، فقتلهم شهداء ويفتح الله على بقيتها». وانظر أيضاً أبا داود في كتاب الملاحم باب ١٠، حديث ٤٣٠٦.

ملكهم^(١). ومنها حديث حذيفة يوشك بنو قنطوراء أن يخرجوا أهل العراق من عراقهم كأني بهم خزر العيون خنس الأنوف عراض الوجوه^(٢) ذكره مترجم القاموس ولم يذكر مخرجه ثم قال إن بني قنطوراء على قول أهل التحقيق هم التتار والمغول من الترك وهم على الأوصاف المذكورة واستيلاؤهم على العراق مع هلاكهم من بني چنكز مشهور وهم من نسل الترك بن يافث. ومنها حديث أبي داود عن أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال ينزل أناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة^(٣) عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها ويكون من أمصار المسلمين وإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شط النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون في أذنان البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وهلكوا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء^(٤) قال الشراح المراد بتلك البلدة هي بغداد وذكروا لتسميتها بالبصرة وجوهاً وجبهة والمراد ببني قنطوراء التتار والمغل الذين هم من الترك وقال القاري في شرح المشكاة نقلاً عن الشراح ما حاصله أن قنطوراء هو أبو الترك^(٥) وقالوا إن هذا قد وقع وفق إخباره ﷺ حيث خرب هلاكو حفيد چنكزخان بغداد سنة ٦٥٦ وقاتل الخليفة المستعصم بالله وهذا من معجزاته الدالة على حقيقة رسالته ﷺ^(٦) وفي المدارك في سورة الإسراء نقلاً عن مقاتل عن الضحاك وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً وكذا فرغانة والشاش واسبيجاب وخوارزم.

قلت: وهذا كله قد وقع وهذه الأوصاف كلها أوصاف المغل فبنو قنطوراء هم المغل والتتار خاصة أو الترك كلهم والله أعلم وقد يخطر في خاطر الفاتر وجه وجيه في تسميته ﷺ إياهم ببني قنطوراء وهو أنه يمكن أن يقول النبي ﷺ بنوقان توران بإضافة قان إلى توران فإن قان بالقاف وخان بالخاء المعجمة بمعنى الملك بالتركية وتوران اسم مملكة الترك فيكون المعنى بنو ملك توران فيفهمه السامع قنطوراء لعدم

(١) انظر الطبراني في المعجم الكبير ٣٧٧/١٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٧٥/٤، وابن أبي شيبه في مصنفه ١٥/١٠٧.

(٣) قال السيد أراد به بغداد بقريته ذكر دجلة وقوله يكون من أمصار المسلمين وإنما سماها بصره لقريه كائنه بقريها تسمى بصره أو غير ذلك الخ. منه عفي عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٠، حديث ٤٣٠٦، وأحمد في المسند ٥/٤٥.

(٥) وكذلك قال في فتح الودود شرح سنن أبي داود ورد على من قال إنه اسم جارية إبراهيم عليه السلام. منه عفي عنه.

(٦) وكذا ذكر بعضه في الكشف. منه عفي عنه.

سماعه هذه الكلمة أصلاً مع أن التغيير والتبديل في ألفاظ الأحاديث غير قليل ولو كان لفظاً مألوفاً ومأنوساً فما ظنك بغير اللفظ المأنوس والله سبحانه أعلم بمراد حبيبه بذلك .

وقد اجتهد بعض مؤرخي العثمانية في جعل الترك من نسل قنطوراء جارية إبراهيم عليه السلام وذلك ليكون نسب العثمانية أيدهم الله سبحانه بتأييداته متصلأ بإبراهيم عليه السلام بواسطة تلك الجارية المجهولة فيجتمع لهم بذلك شرف النسب مع شرف الحسب فما أبعد عن طريق الرشد والصواب حيث ارتكب هذه التكاليف الباردة والتعسفات الجارودة ولم يبال بمخالفة الجمهور مع عدم الفائدة فإن نسب الخليل لو نفع لنفع اليهود لما كانوا أذل من كل ذليل مع أنهم ولدتهم بعد الخليل مئون من نبي جليل بعد أن كانت جدتهم سارة رضي الله عنها التي هي حليلة الخليل عليه السلام فإذا لم ينفع هذا النسب الجليل إياهم كيف ينفع اتصال نسب الترك بواسطة تلك الجارية بالخليل هيئات هيئات والعبرة إنما هي بالكمالات والفضائل القائمة بذات الإنسان لا بالأباء والجدود مع خلو الشخص في ذاته عن المعارف والإحسان والعثمانية بتلك الفضائل العديدة والخصائل الحميدة لا يحتاجون إلى الافتخار بكونهم من نسب الجارية المجهولة والله در القائل . شعر:

ولست أبالي حين إدراكي العلا أكان ترأثاً نيل ذلك أم كسبا
وأني فخر للإنسان بشرف الجدود إذا كان في حد ذاته عارياً عن الفضائل
الإنسانية وتعدي الحدود وقد أجاد من قال . شعر:

ولا ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله
وأني يحصل المجد والشرف لمن ضيع مجد آبائه وشرف جدوده بل يحصل منه
لأصوله عار ولنسبه شئ وفي مثل ذلك قال القائل وأجاد فيما أفاد .
شعر:

ولا تفخر بقيس إن قيساً خريتم فوق أعظمه البوالي
وقال الآخر، شعر:

في الناس قوم أضعوا مجد أولهم ما في المكارم والتقوى لهم إرب
وقال الآخر، شعر:

يفاخرون بأبائهم سلفوا نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا

مع أن الحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: الآية ١٣] وقال: ﴿فَإِذَا بُعْثَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠١] والنبي ﷺ يقول^(١): «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى»^(٢). وقال^(٣): «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتكم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبئتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون»^(٤) فإذا كان الأمر كذلك كيف يفتخر المؤمن الموحد بالنسب مع أن العثمانية لو افتخروا بالنسب يكفيهم كون أجدادهم ملوكاً عظاماً من زمن نوح عليه السلام إلى زماننا هذا وإلى قيام الساعة إن شاء الله^(٥). وأغرب من الكل أن بعضهم استنتج من كونهم من نسب تلك الجارية المجهولة كونهم عرباً ظناً منه أن أولاد إبراهيم كلهم عرب انظر إلى نتيجة الجهالة ثم انظر أن مثل هذا الجاهل كيف تصدى لجمع التاريخ واكتفى بعضهم بجعلهم من بني قنطوراء ليدوم ملكهم إلى آخر الأيام لحديث في ذلك روه وهو: «آخر من يملكون من أمتي بنو قنطوراء» ولم أقف على مخرج هذا الحديث إلى الآن فإن ثبت فهو صريح في أن الملك لا ينقل منهم إلى غيرهم^(٦) واستدل عليه أيضاً بقوله ﷺ: «الروم ذات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن أهل صبر أهله لآخر الدهر هم أصحابكم ما دام في العيش خير»^(٧) فإنهم قالوا إن المراد بالروم في هذا الحديث هم العثمانية وبالأصحاب السلاطين والأمراء كما قال المناوي وغيره ولا يخفى ضعفه فإن المراد بالروم هنا جيل مخصوص من الناس معلوم لكل أحد والله سبحانه أعلم.

- (١) رواه البيهقي عن جابر وهو أطول من هذا ونحن أخذنا منه قدر الحاجة. منه عفي عنه.
- (٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٩٨/٦، وأحمد في المسند ٤١١/٥، والهيثمى في مجمع الزوائد ٨٤/٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٤٧٥/٧.
- (٣) رواه البيهقي والطبراني في الأوسط والصغير. منه عفي عنه.
- (٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢٣٠/١، والسيوطي في الدر المنثور ١١/٦، ١٣٨، والهيثمى في مجمع الزوائد ٨٤/٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٦١٩/٣.
- (٥) وأنا راقم الحروف بعد أن طفت أكثر الدنيا وسبرت أحوال أقوام شتى رضيت بكوني من التتار والمغل والباشقرد مع كمال الممنونية. منه عفي عنه.
- (٦) وقد تقدم أول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطوراء وأما هذا الحديث فلا أراه إلا موضوعاً ومصنوعاً والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.
- (٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٩٨/٥.

فإذا تبين بطلان قول من قال إن الترك منشعب من قنطوراء جارية إبراهيم الخليل عليه السلام وثبت أنهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين فأقول إن نوحًا عليه السلام لما قسم الأرض بين أولاده الثلاث عيّن لياث طرف الشمال والشرق فودع أباه وتوجه نحو ذلك الطرف وأعطاه نوح عليه السلام حين وداعه حجرًا منقوش فيه الاسم الأعظم يقال له حجر الطر ويقال له بالتركية بده تاش وكان يافث يستسقي به وقت الحاجة ويستمطر ثم بقي إلى أولاده ويوجد من جنس ذلك الحجر في الأتراك إلى الآن خصوصًا في قزاق المشهورين بقرغز فإنهم يستعملونه وقت الحاجة ويستمطرون به وهو أشهر من أن يقع فيه الاشتباه. قيل إن يافث سار نحو الشرق وأقام بها وقيل بل سار نحو الشمال وأقام فيما بين نهري جايق واتل وهو المناسب بحال ممالك أولاده لكونه وسط ممالكهم قيل إنه عاش ٢٥٠ سنة ثم ارتحل إلى رحمة الله تعالى قال البعض إنه كان نبيًا وخلف ثمانية أولاد أو أحد عشر ولدًا من صلبه فقط كما مر بيانه وأما أحفاده فقد كثروا جدًا. ترك بن يافث^(١) كان أكبر أولاده وأرشدهم وأعقلهم ترك بن يافث وكان يقال له يافث أو غلاني وكان قد جعله ولي عهده من بعده فجلس بعد ارتحاله مكانه ولما وصل في أثناء بعض سيره إلى محل نزيه كثير المياه طيب الهواء في طرف منه جبال شامخة^(٢) وفيه بحيرة صغيرة استطابه واختاره للإقامة فيه وكان يقال له سيلوك ويقال له الآن اسى كول كذا قال أبو الغازي خان في تاريخه وكان الترك ملكًا عاقلًا عادلاً فاضلاً شجاعًا منصفًا عفيفًا وهو أول من اخترع الخيام والأخبية والخركاها^(٣) للسكنى ويقال إن الرسوم والعدادات التي تجري إلى الآن بين قبائل الترك الأصلية أعني بهم القاطنين في تركستان وتاتارستان المشهورة بدشت قپچق وصحراء قرغز وقزاق بعضها يعني مستحسنها مثل قرى الضيف والمرحمة والمواساة والصداقة باق من الترك وعاش الترك على ما ذكر في روضة الصفا ٢٤٠ سنة ثم أجاب داعي الحق رحمه الله تعالى.

(١) ونحن جرينا هنا على الأشهر وقد عرفت الاختلاف في كونه ولده الصلبي أو حفيده أو حفيد ولده فتذكر. منه عفي عنه.

(٢) وهي جبال منشعبة من جبال الاطاغ أو هي نفسها وهذه الأرض هي أصل أرض الترك ومنبعمهم ومنشؤهم ويقال لها التركستان والتارستان الكبير ومملكة توران أيضًا. منه عفي عنه.

(٣) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ١٤٦/٢).

بيان أحوال أولاد الترك وقبائله عمومًا

ولما كثرت أولاد الترك وأحفاده بمرور الزمان انشعبوا على شعوب كثيرة وقبائل شتى وانتشروا في أطراف أراضيهم المخصوصة بهم وجوانبها واشتهر من بينهم في كل عصر بل قرون متطاولة قبائل كثيرة مثل التتار والمغل والقپچق والخزر وبجناك وغيرهم بحيث عد كل واحد منهم قومًا مستقلًا حتى وقعت الشبهة لذلك في كونهم من الترك واحتيج في إثبات ذلك إلى النقل والتأييد وامتازت قبيلة التتار من بين تلك القبائل قديمًا وحديثًا بمزيد الاشتهار حتى استعمل لفظ التتار مراد فاللفظ الترك خصوصًا عند أهل أوروبا حيث إنهم يطلقون لفظ التتار أو مرادفه عند قدامئهم لفظ سبتيا أو اسكوتيا أو ما تشعب منها على كافة قبائل الترك حتى أن في جغرافيا رفاعه بك المعرب من جغرافيا ملطبرن الفرانساوي عد العثماني وقرامان وسائر قبائل الترك من التتار في جدول مخصوص وقال إن هؤلاء الأمم يسمون جميعًا باسم التتار ولهذا اشتهر الإقليم التي هي مهد ظهور تلك القبائل كافة بتركستان وتاتارستان على معنى إقليم الترك والتتار.

ومملكة هؤلاء القبائل التي يقع عليها اسم تركستان وتاتارستان يحد شرقًا بمملكة الصين وجنوبًا بممالك الهند والفرس والروم والبحر الأسود وشمالًا بمنتهى المعمورة وغربًا بأنهر طونه ودينسترو ويستوله بالنظر إلى تصرفهم وجولانهم في غالب الأوقات فإن المملكة المذكورة لم تستمر على حالة واحدة بل اتسعت تارة وتضيقت تارة أخرى حسبما يقتضيه طالع الحرب وينتجه إقبال الهجوم والضرب كما هي حالة ممالك سائر الأمم خصوصًا الجهة الشرقية والغربية منها فإن الأولى كما أنها اتسعت تارة وتضيقت أخرى بمقتضى نتائج معاملاتهم بأهل الصين كذلك الثانية اختلفت سعة وضيقًا حسب معاملاتهم بالأمم الغربية حتى تعدت حدود طونه وبلغت سواحل البحر الأبيض وممالك فرنسا كما ستطلع عليه إن شاء الله البيان وتمكن ماجار وبلغار الذين هم من قبائل الترك في وطنهم الحالي من نتائج ذلك التعدي.

والذين كانوا من هؤلاء القبائل في إقليم ما وراء النهر ومرغانة وكاشغر وتبيت وفي حدود الفرس والروم وأوروبا وإن بنوا البلدان والقصبات والقرى واستوطنوا بها إلا أن أكثرهم كانوا رحالة نزالة خصوصًا الذين كانوا في وسط إقليمهم المخصوص بهم الذين اشتهر في القرون الوسطى بدشت قپچق نسبة إلى قبيلة مشهورة منهم وهو المشهور الآن بيرية قزاق وقرغز وهو نموذج من الجنة أيام الصيف خصوصًا حين كون

الشمس في بروج الجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان وأهلها باقون إلى الآن على تلك الحالة.

وكذلك الذين سكنوا ما بين جبال أورال وولغا المسمى سابقاً بهنغرية كبرى والآن بأرض باشقرد والذين أقاموا في سواحل نهري تن (دون) ودينبير كانوا سابقاً رحالة نزالة إلا أنهم تركوا تلك الحالة منذ أعصر كثيرة إلى حالة الحضارة والإقامة بالبلدان ووصفهم هذا أعني بدواتهم وكونهم رحالة ونزالة هو من جملة أوصافهم المشهورة التي امتازوا بها عن عداهم وصار منشأ احتقارهم عند أهل أوروبا.

نعم إن العدو لا يقصر في إظهار عيوب عدوه مهما أمكن ولا يستنكف من عد محاسنه مساوئ فإن ذلك ديدنه وهذا وظيفته وإنما القصور والعيب فيمن يتلقى ذم العدو عدوه واحتقاره إياه مطلقاً على العمى بالقبول من غير وضعه في ميزان المحاكمة والوجدان فإن اللازم على اللبيب صاحب الدراية المحتاط في أعماله الصادرة عنه أن لا يقدم على التصديق والتكذيب إلا بعد النظر العميق فيما ذم به واحتقر ووزنه بميزان العقل والوجدان والفكر فإذا ينبغي لنا أن ننظر إلى كيفية معيشة هذه الأتراك الرحالة والنزلة وطرزها فهل نجدها مثل كيفية معيشة أهل البدو والساكين في برية العرب وصحارى إفريقيا يشاهده أهل أوروبا وقيسون عليهم قبائل الأتراك في تلك المعيشة التبعة أو نجدها مثل كيفية معيشة أهل أوروبا المقيمين في مساكن باريس وبرلين وغيرهما أو أعلى منها.

ونحن لم نشاهد كيفية معيشة الأتراك القدماء ولم يبق لنا منهم أثر مبين لطرز معيشتهم حتى نقول فيها شيئاً ونحكم به بناء على ذلك ولكن إذا نظرنا إلى كيفية معيشة الأقوام الرحالة والنزلة من الأتراك الموجودين الآن مثل القبائل المشتهرة الآن بقزاق وقرغز نجدها من غير مبالغة أعلى وأفضل من كيفية معيشة أهل أوروبا المقيمين بالمساكن العالية والبيوت الحسنة في باريس وبرلين من جهات شتى يمكن لنا أن نحكم باغتباطها^(١) إياها فصلاً عن أن نحكم بينهما بالمعادلة والمساواة.

(١) فمن شك في صدق هذا الكلام وحمله على المبالغة فعليه بمراجعة ترجمة رحلة تركستان بالتركية أصلها بالإنكليزية لموسيو شيللر الأميركي طبع استانبول ص ٤٩ مع أنه لم يرق فيما بينهم بل مر بأراضيهم إلى طاشكند وعبارته الأخيرة بعد بيان خراكاهات قزاق ووصفه إياها والجلوس بينهم في الصحراء أفضل وأعلى من هذه الجهة من الجلوس في قصور أوروبا وقال رفيقه موسيو ماغمان الأميركي في وصف خراكاه من خراكاهات قزاق وظني أن الراحة والانشراح التي رأيتها في هذا الموضوع لا توجد في أعلى قصور أهل أوروبا وغرفهم الذين هم يدعون =

والشاهد العدل على ذلك أن واحدًا من سكنة تلك البرية إذا أقام في بلدة أورنبورغ أو طرويسكي أو غيرهما مما هو متصل بها زمناً يسيراً فوقوعه ضعيفاً ومريضاً من وخامة الهواء من قبل اللازم في الأكثر والغالب على ما شاهدناه مراراً بعيوننا مع أن تلك البلاد ليست بأدون من باريس وبرلين من جهة الهواء والنزهة الطبيعية وإن لم تكن مثلهما من جهة حسن الأبنية والزينة الصناعية العارضية ومن عرض له المرض الصعب في بلدة مثل بطربورغ وباريس وبرلين من أحسن مدن أوروبا وأنزهها فضلاً عن أورنبورغ وطرويسكي وأمثالها عجز الأطباء عن معالجته ثم أتى تلك البرية لتبديل الهواء وأقام بها مدة وشرب من اللبن والقمر اللذين هما غذاء أهلها دائماً يكتسب الصحة التامة والعافية الكاملة.

وهذا ليس دعوى بلا دليل وكلام جزافي بل هو مشهور لدى الكل وواقع في كل عام.

كيف لا فإنهم يسكنون بيوتاً على هيئة قباب بيض قطر المتوسط منها ثمانية أذرع وسمكها سبعة أو ستة مصنوعة من شبابيك أعواد متينة ظريفة مركب بعضها ببعض بطرز عجيب مغطاة من فوقها بلبد أبيض متين مزين بألوان عديدة بديعة من الحمر وغيره مزين بصناديق مرصص بعضها فوق بعض ثلاث طبقات أو أربعة من الباب إلى الباب مفروش وسطها ببسط وطنافس من القטיפه وفي آخر الصناديق يسار الداخل سرير منقوش بنقش عجيب بديع ومزين بعظام الجمل للنوم لا يوجد مثله في أوروبا وهذه البيوت تقوض في كل خمسة عشر يوماً أو عشرين أو في كل شهر ولا تبقى أزيد من ذلك في الصيف وتنصب في مروج من الأرض بجانب غدير كبير نبتها المزدان بأنواع الأزهار يبلغ حقو الإنسان وصدرة لم يصل إليه قبل رجل إنس ولا جان فأنى يكون فيها وخامة الهوى أو أذية مثل القمل والبرغوث والبق والبعوض والذباب من الهوام والإنسان عاجز عن وصف لذة النوم في تلك البيوت والخركاها^(١) وزد

= المدنية وهذه الخركاها هي أعظم خركاها رأيتها إلى الآن كان قطرها عشرون قدماً تقريباً والبلد الذي غطيت بها من فوقها يرى أبيض كالثلج اه نعم الوصف المطابق للواقع مع أن هذه الخركاها التي رأها هي بين جيحون وسيحون وبين هذا الموضوع والجهة الشمالية فرق كثير من جميع الوجوه وما وقع في بعض موضع رحلة الموسيو ماغمان من وصف خركاها قزاق يكون قطرها خمسة عشر قدماً وارتفاعها ثمانية أقدام إنما هي خركاها الفقراء في جوانب الطريق والصواب ما وصفناها به، ولا ينبك مثل خبير منه عفي عنه.

(١) تقديم التعريف بمصطلح «الخركاها» قبل قليل.

على ذلك الحسن حسن الموسيقى الطبيعي الخلقى الحاصل من أصوات أنواع الطيور الكائنة في الغدير المذكور من البط والأوز والكركي وحبارى وغيرها مما لا يكاد يحصر من الطيور البرية خصوصًا بعيد الصبح إلى طلوع الشمس فلعل غريب الديار يقدر أن يملك نفسه من البكاء في ذلك الوقت إن كان قلبه من الحجر أو الفولاذ فماذا يكون موسيقى أوروبا الصناعي في جنب هذا الموسيقى الطبيعي وأنى يمكن وصف الذوق والصفاء الحاصل من تلك المنظر العجيبة البديعة العديمة النظير الناشئة من لون ماء الغدير اللازوردي والبلوري عند انعكاس الشمس عليه وقت طلوعها ومن أنواع الألوان الحاصل في أطرافه إلى مد البصر من أنواع النباتات والأزهار المتشكلة. بشكل قטיפه منقشة بنقوش غريبة بديعة الصادق عليها قول القائل، شعر:

يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
 تريا نهارًا مشمسًا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر
 إلا أن يكون الواصف سحباني المشرب في فن البيان والوصف.

وإذا انضم إلى ذلك عدم ابتلائهم بالشقاوة والتعاسة اللتين ابتلي بهما الأقوام الأوروبية عمومًا في تحصيل أسباب المعاش من القوت واللباس وأنواع الرياش والتهالك في جمع القناطير المقنطرة والتنافس فيها وارتكاب الانتحار لفوتها واكتفاؤهم في ذلك بما حصل من مواشيهم من اللحم واللبن والأشعار والأوبار وما انضم إليه من الخارج من الشيء اليسير من لحوم الصيد والكر أو مواساة بعضهم بعضًا في معاشهم فبملاحظة هذه السهولة الحاصلة في تحصيل طرق المعاش من جميع الوجوه لا يتردد في الحكم بكون الأتراك سعداء من أهل أوروبا بمراتب كثيرة لا يقادر قدرها يدرك هذا الفرق بسهولة من له أدنى اطلاع على طرق معاش الأوروبيين من جهة المسكن والملبس والمطعم فإنه وإن وجد منهم كثير من أهل السعادة في المعيشة ممن سكن في البلاد الكبار إلا أن سعادة واحد منهم بتلك السعادة لا تحصل إلا بشقاوة ألوف من أهل التعاسة لذلك مع أن القسم الأعظم منهم أعني أهل القرى والأرياف في غاية من ضيق المعيشة من كل الوجوه بخلاف الأتراك فإنه وإن وجد بينهم التفاوت في المعيشة إلا أنه قليل جدًا والأكثر متساوون فيها أو قريب من التساوي والذي يملك منهم ستمائة أو سبعمائة من الخيل وألفًا من الغنم ومائة من الإبل وثلاثين أو أربعين من البقر الذي لا يعد عندهم من المال يعد عندهم من الأغنياء المتوسطين ونسبة هؤلاء إلى الكل تكون بالتقريب ربعًا أو خمسًا والذي عنده أربعون أو خمسون من

الخيول ومائة من الغنم وعشرة من الإبل يعد من الفقراء وربما يوجد عندهم من يملك أربعة آلاف من الخيول وغيرها على هذه النسبة وهذا رأيتُه بعيني وسمعت من كثير ممن أتق بهم وجود من يملك ثمانية آلاف من الخيول وغيرها على هذه النسبة من المواشي في طرف سيبيريا والمعتبر عندهم من المواشي الخيول لأجل القمز الحاصل منها واللحم وهما أكثر غذائهم الأول في الصيف والثاني في الشتاء على أن أغنياءهم يواسون فقراءهم مواساة يستحيل وجود مثلها في غيرهم من الأمم بحيث إذا ذبح واحد منهم شاة يجتمع عنده أهل قريته المركبة من عشرة بيوت أو أكثر أو أقل وأكله وحده من أقبح القبائح بل مما لم يقع ولن يقع قط فهم يمضون أوقاتهم بإضافة بعضهم بعضاً في السير والتفرج والتنزه في تلك المروج الطيبة الهواء والجيدة الماء التي هي نموذجة من الجنة يشترك فيها الأغنياء والفقراء ليس فيهم هم الزراعة والتجارة وما يلزمهما من الجدوبة والخسارة مع حرية فقرائهم من تعاسة عملة أوروبا طول عمرهم .

فمتى لوحظ هذا حق الملاحظة فلا مجال لتفنيد مفند إياي بنسبتي إلى الغفلة من أحوال الدنيا أو إلى المبالغة وإنكار البديهي والتطيف في الكيل والوزن لما يرى فيهم أعني الأتراك من الضعف والضعفة والمسكنة وفي الأروباويين من الطنطنة والدبدبة التي تحير العقول وتدهش النفوس في بادي النظر لا ورب هذه الكعبة المعظمة لست من الجاهلين ولن أكون إن شاء الله ولسنت من المطففين والمنكرين وإنما الأمر كما وصفت من أن طنننتهم الظاهرة ودبدبتهم الموقته لا تحصل لهم إلا بشقاوة ألوف بل ملايين من النفوس فهي كما قال الشاعر، شعر:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

ومع ذلك فهل شق ذلك المفند قلوب المسعودين منهم واطلع على ما فيها. لا والذي حجت قريش بيته. مستقبلين الركن من بطحائها. ما فعل ذلك ولم يطلع على ما هنالك فإنه لو اطلع لعلم يقيناً أن ما عدّه سعيداً فهو أشقى الأشقياء لما في قلبه من الحرص الشديد والجشع الوافر والحسد المهلك والتنافس والرقابة للغير وخوف الخسارة في التجارة وسقوط اعتباره عند التجار الذي هو الموت الأحمر عندهم بل أشد من الموت ولذا أطلع في الجرائد على وقوع انتحار مئات منهم في سنة واحدة مع عدم سماعك انتحار واحد من الأتراك في مئات من السنة فإذا أحطت بذلك فزن حينئذ بميزان عقلك هل طنننتهم تلك الظاهرة من السعادة أو من الشقاوة ومن المفند في هذه المحاكمة .

وهذه الأحوال التي بيناها هي أحوال بقايا الأقوام التركية الموجودين الآن المشرفين إلى التلاشي والاضمحلال بسبب دخولهم تحت سلطة دولة ظالمة بالغة نهاية الظلم وغاية الوحشية وكونهم محكومة عليها محكومة الشياخ للسباع حيث نزع عنهم قسماً أعظم وأعلى وأخصب من أراضيهم ولا تزال تنزعها إلى الآن ثم سلبت عنهم حقوقهم الدينية وحرقتهم المليية والوطنية والشخصية بالكلية وتداخلت في عوائدهم وأخلاقهم القومية بحيث ماتت هممهم وزالت أنشطتهم^(١) وصارت الحياة والممات متساويتين عندهم بل أمست الثانية أرجح من الأولى فأنى يكون لهم القيام بمصالحهم واكتساب طرق معاشهم كما ينبغي فضلاً عن النهوض للتقوي.

وأما الأوروبيون في هذا العصر فهم بعكس ذلك لأنهم الآن في ذروة الحرية في جميع أمورهم ولا ظلم فيهم من طرف أحد ولا مانع لهم عما يريدون فعلة فهم في غاية النشاط في جميع ما تشبثوا فيه أما الأتراك القدماء الذين كلامنا فيهم فلا يصعب استخراج كيفية أحوالهم في معاشهم بالمقايسة على أحوال الأقوام التركية الذين بينا أحوالهم فإن معيشة هؤلاء التعساء إذا كانت على الكيفية التي بيناها مع تلك المضايقة الشديدة الحاصلة لهم من طرف حكومتهم الظالمة فما ظنك بكيفية معاش قدماء الأتراك الذين كانوا يجرون نفوذهم إلى من جاورهم من الأجانب ويخاف الأمم الأقوياء والدول العظام كالصين والفرس والروم بأسهم وسطوتهم وشوكتهم فضلاً عن كونهم مالكين لجميع حقوقهم وعوائدهم الدينية والمالية فهل تقدر أن تقدر قدرها هيئات وربما تقف على شهادة أعدائهم لهم بالتمدن في أثناء البيانات الآتية فلا تنس نصيبك مما ذكرنا حين بلوغك هناك.

بقي لنا أن نبحث عن أحوال الأوروبيين في سالف الزمان الذين تترك شعشة ما هم فيه من الأحوال عيوننا في حيرة وعقولنا في اندهاش وينظرون إلى الأقوام الشرقية عموماً والأتراك خصوصاً بنظر شزر ويحكمون عليهم بالهمجية والوحشية ويتبعهم كثير منا في هذا الحكم كما أسلفنا فهل نجدهم أنهم كانوا على هذه الحالة المظنونة من القديم أو حدثت فيهم هذه الحالة العجيبة في قريب من الزمان وكانوا قبل ذلك في غاية من الهمجية والذل والهوان وليس للاطلاع وإطلاع الناس على ذلك طريق أعلى وأحسن وأصوب من المراجعة إلى قول صدر عن واحد منهم ونقله فقول وبالله التوفيق.

(١) أنشطتهم: كذا بالأصل، ولعلها: أنشطتهم.

قال دراير الأميركاني في رسالته نزاع العلم والدين: كان كافة أطراف أوروبا (يعني قبل ذلك ٤٧٥ سنة كما سيذكر) مستورة بغابة كثيفة وكان يرى بعض القصبات والأديرة في أراضٍ منحطة وسواحل أنهر من مسافة بعيدة وكانت الميازيب والجداول الحاصلة من المواحل الواسعة الكائنة في شطوط الأنهار يمهد طرق الموت وسبيل الهلاك إلى مسافة بعيدة وكانت البيوت في باريس ولندن مبنية من الأخشاب والتراب وسقوفها مغطاة بالحشيش والقصب والتين ولم يكن لها طياق ومناوير قط وكان قليل منها مفروشة بالألواح إلى أن يحدث المنشار الذي تنشر به الأخشاب وكان بسط الفرش والبسط فيها من المجهولات بل كانت تفرش بالتبن فوق التراب بدل البساط والكليم ولم تكن لها مدخنة قط وكان الدخان يخرج من ثقب في السقف مهياً لذلك.

والحاصل كانت الأهالي في مساكنهم المذكورة معروضين لمهالك كثيرة ولم يهتدوا إلى تدبير إسالة الماء النجس وكانت القمامة الحاصلة من الحيوانات والنباتات ترمى من الباب إلى خارجه فقط فيتشكل من ذلك كومة وتل في فناء البيت والأزقة وكان الرجال والنساء والأولاد حتى الحيوانات الأهلية في أكثر الأوقات يبيتون في حجرة واحدة وكانت عدة من الأحوال المغايرة للآداب والأخلاق الحميدة بسبب ذلك الاختلاط والهرج والمرج ظاهرة ومشهودة فيما بين العائلة وكانت فرشهم عبارة عن كيس مملوء بالتبن ومخدتهم كانت عبارة عن كيس آخر صغير مملوء بأشعار الحيوانات وأوبارها وكانت النظافة الشخصية من المجهولات بالكلية وكانت كبار مأموري الحكومة ومثل قسيس^(١) (كانتورباري) من كبار الأعيان مستغرقين القمل وقمل طوماس بكت الذي كان خصماً ألد وأعظم لقرال إنكليز لا يزال يحكي ويسطر في صحائف التواريخ وكان لبس الأشخاص العادية من جلود الحيوانات والذي يأكل اللحم الطري في الأسبوع مرة واحدة كان يعد من السعداء ولم تكن الأزقة مستوية فضلاً عن كونها مفروشة بالأحجار ومنورة بالفوانس وكانت القمامة المتراكمة المكوّمة في النهار والمياه النجسة ترمى في الأزقة وعلى رأس المارين بها في الليل وكانت أبواب البيت من جلد ثور يابس وكانت أقوات الأهالي من الحبوب الكبار كالحمص وربما كانت من لحى الشجر وكان أهالي بعض المواضع لا يدرون الخبز أنه ما هو وكانت الأنجاس المادية لا تمتاز من الأنجاس المعنوية وكانت أهالي القرى لا يجدون شيئاً لستر أبدانهم سوى

(١) بإضافة قسيس إلى كانتورباري. منه عفي عنه.

الحصير وكانوا مقهورين ومجبورين تحت سلطة الكبار وكان الأغنياء يهبون ويغصبون جميع ما في أيدي الفقراء وينقلونهم إلى مسافات بعيدة للاستخدام وترمى بناتهم في محلات الفواحش وربما كن تبعن كالجواري وكان السكر ليلاً ونهاراً عادة مستمرة فيهم وكانت هذه الحالة الشنيعة لا تترك فيهم ذهنًا ولا فكرًا إلى آخر ما ذكر بطوله عربناه من ترجمة مدحت أفندي وقد بين كون هذه الحالة في ١٤٣٠ سنة ميلادية نقلًا عن بيان واحد من القسيسين فتكون قبل هذا ٤٧٥ سنة وهي أوان ضعف دولة التتار الشمالية وقربهم إلى السقوط والاضمحلال وأوان كان فيها الشيخ العلامة أحمد بن عريشاه الدمشقي^(١) الذي وصف أحوال تلك البلاد انظر إلى المقصد الثاني وقابل هذا بهذا تعرف التفاوت بين الحاليين وهذه حالة أهل أوروبا الذين لا يزالون يطعنون في الأتراك بالوحشية ويرمونهم بالهمجية من مدة بعيدة ولا ندري إلى متى امتدت فيهم هذه الحالة والظاهر من كلام درابر المشار إليه في أثناء بيانه أنها امتدت في بعض بلاد أوروبا إلى قريب من عصرنا هذا بل ذلك رؤيته زقاق روما في ١٨٧٠ سنة على سوء حالة بعينه أي حاجة إلى هذا اذهب إلى بلاد الروس وانظر إلى قرى الروسية خصوصًا الذين تخلصوا من رقية أعيانها (بويار) عن قريب ترى أحوالهم أسوأ وأشنع مما ذكره درابر فتعرف بذلك أن ذمهم وتشنيعهم الأقوام التركية حتى في يومنا هذا بقولهم قرغز قوشا قرغز قوشا من أين نشأ وعلى أي غرض مبني؟ والحاصل أن الأحوال المخصوصة بالأتراك وما اشتهروا به في طرز معاشهم أقامتهم في البرايا والصحارى التي مرت أوصافها في البيوت والأخبية التي سبق ذكرها على الكيفية التي أسلفنا بيانها واقتناء المواشي التي بينا أجناسها ومقدارها والاكتفاء بما حصل منها من الألبان واللحوم والأشعار والأوبار والجلود وما انضم إليها من لحوم والصيد وجلودها وما اغتتموها بغزوهم الأقوام المتجاورة ونهبهم وسلبهم إياهم.

(١) أحمد بن عريشاه الدمشقي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل، ثم الرومي، الحنفي، شهاب الدين، أبو محمد المعروف بابن عريشاه، الأديب المؤرخ، ولد سنة ٧٩١ هـ، وتوفي سنة ٨٥٤ هـ، من تصانيفه: «برهان الفارض بقول المعارض» «ترجمان المترجم بمنتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب»، «ترجمة تفسير أبي الليث»، «ترجمة جامع الحكايات»، «جلوة الأمداح الجمالية في حلتى العروض والعربية»، «خطاب الإهاب الناقب وجواب الشهاب الناقب»، «عجائب المقدور في نواب تيمور» في التاريخ، «العقد الفريد في علم التوحيد»، «عنقود النصيحة»، «غرة السير في دول الترك والتتر»، «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» وغير ذلك (كشف الظنون ١٣٠/٥).

[أخلاقهم وعاداتهم]

وأما أخلاقهم وعاداتهم المختصة بهم فحب الحرية والاستقلال وعدم مداخلة أحد في أمورهم وإطاعة ملوكهم فيما يجب فيه طاعته من غير أن يعتقد مالكاً على الإطلاق وأنفسهم مملوكين بالاستحقاق فضلاً عن اعتقاد ذلك في أعيانهم وكبرائهم كما كانت عليه أقوام أوروبا ولقد هذه العادة الشنيعة فيهم رماهم بعض أعدائهم بحبهم المعيشة من غير حاكم وذمهم به وليس الأمر في الواقع كذلك بل كما وصفنا.

وجل ما اشتهروا به من الأوصاف وامتازوا به عن سواهم هي الشجاعة والبسالة والفروسية والمهارة في علم الحرب والطعن والضرب والصبر والتمانة وتحمل المشاق والشدائد والجمع إلى ذلك حب الغرباء وإضافتهم ومرحمة الضعفاء والمساكين وإعانتهم والأخذ بيدهم والاجتناب عن مطلق الظلم وعداوة أهله وإجراء قوانين العدالة والمساواة والإنصاف فيما بينهم ومواساة بعضهم بعضاً ومشاركتهم في أوقات البلية والمصائب والاجتناب عن الغدر والخيانة والتباعد عنهما أشد الاجتناب والتباعد والوفاء بالوعود والعهود والمواثيق وبذل الجهد والسعي والغيرة في ذلك حسب الطاقة البشرية والاقتصاد في معاشهم والاجتناب عن الإسراف فيه والتبسط والسفاهة مطلقاً وملازمة القناعة والبساطة والاكتفاء بالدون والتنفر عن الحرص والجشع والطمع الفارغ ومجازاة اللصوص والسراق وقطاع الطريق وسائر من يتعاطى ما ينافي الأمن والأمان بالشدّة والصرامة^(١) من غير أن يأخذهم فيه رحمة ورأفة ومن غير أن يشفع فيه شفيح وتعظيم الكبار وأرباب الفضائل ذوي الشعار ومرحمة الصغار إلى غير ذلك من الأوصاف الجميلة والخصال الحميدة الممدوحة والمندوب إليه عقلاً وشرعاً.

والذي له اطلاع ووقوف على أحوال الترك وهو متصف بوصف الإنصاف والحقانية لا ينكر اتصاف الأتراك بهذه الأوصاف التي سردناها وتخلقهم بها من القديم

(١) بأن يأخذوا عن سرق فرساً مثلاً تسعة أفراس جزء لما فعله غير الذي سرق ولا يلزم عندهم ثبوت سرقة بل يكفي كونه متهماً ومشهوراً بالسرقه فيأخذون عنه هذا القدر وهو يرجع به إلى السارق الحقيقي فإن السارق يتعرفون الذي سرق فهذا التدبير لا يوجد عندهم سراق قط وهذه المعاملة باقية عندهم إلى الآن وربما ينسبهم الأعداء بسببها إلى الوحشية وليس الأمر كما زعموا نعمت المعاملة لقطع عرق الفساد منه عفي عنه.

وبعض هذه الأخلاق المذكورة وإن كان مفقودًا الآن في قبائل الأتراك المجاورة لسائر الأقاليم والمختلطة بهم بسبب ذلك الاختلاط المجاورة خصوصًا المجاورين لأهل أوروبا الذين هم عارون عنها بالكلية ولكن القبائل البعيدة عن أوروبا والسالمة من الاختلاط بالأجانب والباقية على عنصرهم الأصلي وحقيقتهم التركية مثل القبائل المشهورة باسم قزاق وقرغز الساكنة في أواسط أراضيهم وبريتهم المشهورة بدت قهقح متخلقون بها حسب الإمكان يشاهدها منهم الآن من اختلط بهم وصار ضيفًا فيهم وأقام بينهم مدة من الزمن.

[أحوالهم في محارباتهم]

ذكر نبذة من أحوال الترك وقت المحاربة ننقلها من كتاب فضائل الترك للجاحظ^(١) بالواسطة منتخبًا بمعناه.

قال وهؤلاء يعني الأتراك لما كانوا أصحاب الخيول وأرباب الفروسية يدورون حول العسكر فوق الخيول وسبب مهارتهم في الصولة والدوران والهجوم يحيطون بعدوهم بكمال السرعة مثلما يقلب الكاتب الأوراق ويشتون شملهم ويفرقون جمعهم ويتركونهم كالعهن المنفوش فكما أن الكمناء والطلانع والساقية يكونون منهم كذلك هؤلاء يكونون أصحاب السناجق^(٢) والبيارق والطبول والمفاريز في الأيام المشهورة والمحاربة الشديدة ويكونون في المحاربات طلابًا مطلوبين فإن اجتمعت قوات الفرس والعراقيين والخوارج في شخص واحد لا يعادل ذلك الشخص واحدًا من الأتراك وهم لا يغترون بمجرد جسامة الفرس وإنما يقتنون فرسًا جربوا منه في محاربات عديدة أنه لا يترك فرسًا يتعداه ويسبقه ويبدل في ذلك غاية جهده وكل واحد منهم فارس وسائس وبيطار وحداد وراع وكل منهم مكمل في هذه الصنائع بحيث لا يحتاج فيها إلى غيره فإذا خرجوا إلى المحاربة مع عساكر سائر الأجناس فهم يقطعون مسافة عشرين ميلًا في زمن يقطع فيهم غيرهم عشرة أميال فإنهم يفارقون سائر العساكر

(١) انظر رسائل الجاحظ.

(٢) السنجق باللغة التركية معناه الطعن، والسنجق بالمعنى العرفي هي الأعلام والرايات، سميت الراية بذلك لأنها تكون بأعلى الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازًا، وأول من حُمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أواسطهم والدبابيس تحت ركبهم (انظر صبح الأعشى ١/٤٧٤، ١٤٢/٢).

ويميلون إلى اليمين والشمال وينزلون إلى بطون الأودية ويصعدون إلى قمة الجبال ويصيدون بهذه الكيفية الهاريين من عدوهم ولو كان من مشاهير الأبطال.

فمتى وقع اليأس من الصلح والمسالمة وتقرر الحرب يدافعون عن أنفسهم بتحسين مواقعهم العسكرية بالطبع ويبدلون في ذلك غاية جهدهم من غير أدنى فتور من علو همتهم وصفاء مداركهم لا يخطر بخواطر أعدائهم انتهاز الفرصة عليهم أو التثبت بحيلة ما لإغفالهم.

وقال يزيد بن مزيد^(١) في وصف الأتراك: لا ثقله لأبدان الأتراك على الفرس والأرض ويدرك الترك الشبي الذي يجيء من ورائه حال كون فرساننا لا يرون الذي أمامهم ويعدنا الترك صيداً ونفسه أسداً وفرسه حية فإن ألقى واحد منهم في البئر مربوط اليد يخلص نفسه منها من غير تشبث بحيلة وطبعهم مائل إلى الكفاف يرجحون ما ينالونه بسهولة على كل شيء سواه ويحبون كون قوتهم من الصيد وأموال الغنيمة ويشبتون فوق ظهور خيولهم طالبين أو مطلوبين من غير فرار.

وقال ثمامة بن الأشرس^(٢) حين كنت أسيراً بأيدي الأتراك رأيت منهم لطفاً وإكراماً ورأيت أسبابهم مكملة الترك لا يخاف قط بل يخيف غيره ولا يطمعون في غير مطمع ولا يقعدون عن طلب شيء يريدون تحصيله قبل أن يحصلوه فمتى حصلوه لا يضيعون شيئاً منه قط ويبدلون غاية جهدهم في أمر يقدرون عليه إلى أن ينالوه وكل أمر لا يقدرن عليه لا يضيعون وقتهم ولا يتعبون أنفسهم لتحصيله ولا ينامون إلا إذا غلبهم النوم ومع ذلك لا يكون نومهم ثقيلاً بل خفيفاً جداً بحيث ينامون بالتيقظ والانتباه يعني بالاحتياط دائماً.

وقال ورأيت مرة في بعض محاربة المأمون^(٣) صفوف الخيل في طرفي الطريق

(١) يزيد بن مزيد الشيباني أحد القواد والفرسان عند الخليفة العباسي هارون الرشيد، توفي سنة ١٨٥ هـ. (البداية والنهاية ١٠/١٩٥).

(٢) ثمامة بن أشرس النميري، من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء البلغاء المتقدمين، اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، توفي سنة ٢١٣ هـ (الأعلام ٢/١٠٠، ١٠/٢٠٧).

(٣) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، كنيته أبو العباس، وقيل: أبو جعفر، ولد سنة ١٧٠ هـ. وبويع بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨، وتوفي بأرض الروم سنة ٢١٨، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وقال المسعودي: كانت خلافته إحدى وعشرين سنة. (انظر: العقد الفريد ٥/١١٩، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٤٩ - ٢٦٣، تاريخ بغداد ٧/٣٢٠ - ٣٢١، مروج الذهب ٣/٤١٦ - ٤٥٨، الكامل في التاريخ ٦/٢٨٢ - ٢٨٨، وفيات الأعيان ٢/٥١٩ - ٥٢٣).

في اليمين مائة خيل من الأتراك وفي الشمال مائة من الفرسان المختلطة منتظرين لمجيء المأمون وكان الوقت حارًا وقد قرب نصف النهار واشتدت الحرارة فنزل من الفرسان المختلطة من فرسهم سوى ثلاثة أو أربعة ولم ينزل من الأتراك سوى ثلاثة أو أربعة.

وقال أيضًا لما خرجت من بغداد مرة إلى السفر رأيت فصيلة من الفرسان من أهل خراسان والأعراب وسائر الأجناد قد عجزوا عن إمساك فرس ند منهم فمر بهم فارس من الترك منسوب إلى تلك الفصيلة راكب على فرس هزال ضعيف فلما رأى عجزهم تصدى لإمساك الفرس المذكور فشرعوا في الضحك والسخرية منه ومن فعله قائلين إن الأمر الذي عجز عنه هؤلاء الأسود كيف يقدر هو عليه فلم يمض إلا وقت يسير حتى أمسك الفرس مع قصر قامته وهزال فرسه وسلمه إليهم ومضى لسبيله غير ملتفت إلى دعائهم ولا إلى حسن ثنائهم ومكافأتهم ومن غير مفاخرة في مقابلة احتقارهم به كأنه لم يصدر منه شيء قط.

ذكر السيد محمد البرزنجي^(١) في كتابه الإضاءة^(٢) نقلًا عن قناعة السخاوي أنه قال قال الحاكم^(٣) في مستدركه بإسناده إلى محمد بن يحيى بن أبي بكر الصولي^(٤)

(١) السيد محمد البرزنجي: هو محمد ابن السيد عبد الرسول بن قلندر بن عبد السيد بن عبد الرسول الحسيني البرزنجي الشهرزوري ثم المدني، الشافعي، ولد سنة ١٠٤٠هـ، وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١١٠٣هـ، له أكثر من مائة وعشرين مصنفًا، منها: «الإضاءة في أشراف الساعة» (انظر كشف الظنون ٦/٣٠٢ - ٣٠٤).

(٢) هو كتاب «الإضاءة في أشراف الساعة» انظر الحاشية السابقة.

(٣) الحاكم النيسابوري: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي أبو عبد الله، الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع، ولد سنة ٣٢١ هـ وتوفي سنة ٤٠٥ هـ بنيسابور، من مصنفاته: «أربعين في الحديث»، «إكليل في الحديث»، «أمالي العشيّات»، «تراجم الشيوخ»، «رحلتان إلى الحجاز والعراق»، «السياق في ذيل تاريخ نيسابور»، «فضائل العشرة المبشرة»، «فضائل فاطمة الزهراء»، «فوائد الشيوخ»، «كتاب المبتدأ من اللآلئ الكبرى»، «مدخل إلى علم الصحيح»، «المستدرک علی الصحیحین» في الحديث، «مناقب الإمام الشافعي»، «مناقب الصديق»، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/٥٩).

(٤) هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صولتكين الكاتب، أبو بكر الصولي الشطرنجي البغدادي، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ. له من الكتب: «أخبار أبي تمام»، «أخبار أبي سعيد الجبائي»، «أخبار الشعراء»، «أخبار عمرو بن العلاء»، «أدب الكاتب»، «الأنواع»، «الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم»، «تفضيل السنان»، «سؤال وجواب رمضان لأبي النجم»، «الشامل في علم القرآن»، «شرح الحماسة»، «كتاب رمضان»، «كتاب الشطرنج»، =

التركي الأصل أن الذي مدح الترك بالشجاعة أولاً من الشعراء علي بن عباس الرومي^(١) أنشد هذين البيتين في مدحهم، شعر:

إذا ثبتوا فسد من حديد تخال عيوننا فيه بحار
وإن برزوا فنيران تلظى على الأعداء يضرهما استعار

قلت: وهذان البيتان العديما النظير أيضاً قيل فيهم وظني أنهما قيلا في حق القفجق منهم، شعر:

وفتية من كماء^(٢) الترك ما تركت المرعد كباتهم صوتاً ولا صيتا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسناً وإن قوتلوا صاروا عفاريتا

هذا وإن كانت شجاعة الأتراك وشهامتهم وحزمهم ومئاتهم وبسالتهم وجودهم وسخاوتهم وسائر أوصافهم الحميدة وآثارهم الدالة على علو جنابهم وصفاء مداركهم بسبب كونها في الميدان وغير خافية على أحد من الإنس والجان لا يحتاج في إثباتها إلى مثل هذه النقول ولكن لما كانت الطبائع مختلفة والمدارك متفاوتة على وجه يكذب كثير من الناس حواسهم لغلبة تقليد الغير فيهم ويرجعون مسموعاتهم على مشهوداتهم ويحرمون أنفسهم من الانتفاع بحواسهم ومداركهم التي وهبها لهم واهب العطايا جل شأنه وعظمت قدرته أثبتنا هنا نبذة من المدايح الصادقة التي قيلت في حق الأتراك من طرف من لا يتهم بالتعصب الجنسي لكونهم من غير جنس الأتراك لعل هؤلاء المقلدين يتفجعون بها والله الموفق.

ديانة الأتراك القدماء ومعارفهم

اعلم كما أن علمنا المتعلق بسائر أمورهم قليل جداً ومحدود لعدم تاريخهم المبين لذلك كذلك علمنا المتعلق بديانتهم ومعارفهم في تلك الأزمنة المتطاولة قليل جداً ومحدود ومعدود بالضرورة والقول الحقيقي بالقبول والتحقيق الذي يعتمد عليه في

= «كتاب العبادة»، «كتاب العباس بن الأحنف ومختار شعره»، «كتاب الغرر في الأمالي»، «كتاب الوزراء»، «ما اتفق لفظه واختلف معناه»، «مناقب علي بن الفرات» وغير ذلك (كشف الظنون ٣٨/٦).

(١) هو ابن الرومي الشاعر المعروف، واسمه علي بن العباس بن جريح، أبو الحسن البغدادي، المعروف بابن الرومي مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر العباسي، ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ هـ. له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/٦٧٤).

(٢) الكماء جمع كمي وهو الشجاع كب العدو على الأرض كبا أي ضربه بوجهه منه عفي عنه.

هذا الباب أرباب العقول مفقود من أصله بل كل قول قيل في هذا الخصوص فهو ما صدر عن قائله بالظن والتخمين أو مبني على الغرض الفاسد كما نسبهم البعض إلى الوثنية مطلقاً وبعضهم إلى الوثنية الشامانية وبعضهم إلى البوذية وبعضهم إلى عبادة الشمس والكواكب وسائر الأجرام العلوية وبعضهم إلى عدم الديانة مطلقاً وبعض منهم ينسبون الأتراك القاطنين بما وراء النهر والسيبيريا أعني قبيلة أويغور بعد ظهور النصرانية إلى مذهب النسطورية^(١) منها حتى أن صاحب القول الأخير يدعي تشكل الپسقوپسية (جمعية روحانية دينية من النصارى) منهم في مرو وسمرقند.

أما نسبتهم إلى الوثنية المطلقة فلا شك في بطلانها فإنها ليست بموجودة في واحد من التواريخ المعتبرة التي تضمنت بيان أحوال الترك بل هو قول صدر من قائله من غير روية جزافاً فإنهم لو كانوا وثنيين لنقل عنهم اسم واحد أو اثنين من أوثانهم وكيفية عبادتهم إياه وموضعه ولاشتهر ذلك كما نقل أسماء أوثان سائر الوثنيين كالعرب واليونان والروس وأهل إفريقيا ولم يبين صاحب هذا القول حرفاً واحداً يتعلق بذلك سوى أن يقول كانوا وثنيين.

ودليل من نسبهم إلى مذهب الشامانية والبوذية وجود بعض قبائل الأتراك على المذهبين المذكورين في هذا العصر في بعض مواضع ممالك الصين ولا يخفى على أحد أن وجود بعض القبائل التركية في هذا العصر على المذهبين المذكورين لا يدل على تمذهب كافة الأتراك خصوصاً القدماء منهم بهما فإن كافة الأتراك سوى النزر اليسر منهم متمسكون بالتوحيد منذ قرون متطاولة فليكن الأوائل منهم أيضاً كذلك وهذا الاستدلال أقوى وأظهر من استدلال القائل المذكور بمراتب كثيرة.

وأما النسبة إلى النسطورية فإنها من جهة كونها عبارة عن اعتقاد توحيد الحق ونبوة عيسى عليه السلام دون أن يقول إنه إله أو ابن إله حاشاه من ذلك وإن لم يكن قبول الأتراك إياها بعيداً عن العقل إلا أنها مع عدم عمومها لجميع الأتراك عند القائل بها أيضاً لما لم يوجد أثر من هذا القول في التواريخ المعتبرة ولم تكن شبهة في كذب القول بتشكل الپسقوپسية في مرو وسمرقند لا نتوقف في الحكم ببطلان هذا القول وكونه كذباً وجزافاً واختلاقاً محضاً من طرف النصارى عموماً ومن طرف الروسية خصوصاً لترويج أباطيلهم وتمهيد طريق فاسد لدعوة أهل ما وراء النهر

(١) طائفة من النصارى يوحدون الله تعالى ويقولون بنبوة عيسى عليه السلام.

وقبائل الأتراك والتتار الساكنين بيرية قزاق المشهورين الآن باسم قزاق خصوصاً المقيمين منهم في طرف سيبيريا الذي كان مسكن قبيلة أويغور الذين يدعون كونهم من النسطورية وتشويقيهم وترغيبهم إلى النصرانية وإجبارهم وإكراههم عليها متى وجدوا فرصة قائلين إن آبائكم وأجدادكم كانوا نصارى فلزمكم أن ترجعوا إلى دين آبائكم الأقدمين متشبثين بذيل هذا القول الباطل الذي لا أصل له قط كما أنهم يصرحون بذلك الآن ويرتبون مقدماته ويرفعون موانعه من منع اختلاط القرانين بهم منها كلياً ومنعهم عن تعليمهم إياهم أمورهم الدينية كما ييسط ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

وأما القول بعبادتهم الشمس والكواكب وسائر الأجرام العلوية فإننا لا ننكره بالكلية فإن تعظيم عموم الأتراك الأجرام العلوية والعناصر الأربعة والأرض والمعادن خصوصاً الحديد وما يشابهه مما يعم منفعه في جميع القرون ثابت بالتواتر فبالنظر إلى ذلك لو كان بعض قبائل منهم عبدوا هذه الأشياء كلها أو بعضها في بعض الأعصر لا يستبعد ذلك.

والعبادة لهذه الأشياء وإن كانت مذمومة قبيحة ومستنكرة لكونها عبادة غير الله المستحق للعبادة وحده إلا أنها بالنسبة إلى عبادة الأجرام السفلية كأفراد البشر والحيوانات والجمادات خصوصاً الأحجار والأشجار المنحوتة المنقوشة المصبوغة بأيدي عبادها أقرب إلى العمل بمراتب كثيرة لا يقادر قدرها فهي مما يدل على علو مدارك الأتراك ورجاحة عقولهم.

والحاصل إن قلنا إن عدم كون الأتراك وثنيين من القديم مجمع ومتفق عليه إن لم نكن مبالغاً فيه.

ولهذا نقل درابر الأمريكي عن بعض المولعين بالبحث عن الأديان أنه قال إن اعتقاد الوحدة والكثرة إنما هو من مقتضيات طبيعة الأرض فكل قوم يسكنون في أرض ذات عوارض متشكلة من الجبال والأودية والآكام والتلال كأرض اليونان وحواليها والعرب والسورية يميلون إلى اعتقاد الكثرة وتعدد الآلهة وكل قوم يسكنون في أرض مستوية خالية عن الجبال والغياض كأرض الأتراك والهند فهم مائلون إلى اعتقاد الوحدة وهذا القول وإن كان من جملة الخطايات بل من كفرات فلاسفة هذا العصر لنسبتهم وجود الأشياء إلى الطبائع في الظاهر إلا أنه لا شبهة في صحته ومطابقته لنفس الأمر مثقال ذرة والخطأ إنما هو في التعليل.

والحق إن الترك كما أنهم لم يتنزلوا إلى عبادة الأجرام السفلية بلا شبهة كذلك أنهم لم يعبدوا الأجرام العلوية أيضًا في الحقيقة بل المنقول عنهم اكتفاؤهم بتعظيمها فقط وقصرهم العبادة على المعبود بالحق جل جلاله وتخصيصه بها وتوعيد رب العالمين دائمًا فضلًا عن إثباته سبحانه يعلم ذلك من تفتيش أقوال المحققين المتحررين للصواب المتجنبيين عن الجراف.

واعتناق عشرة آلاف بيوت وثلاثين ألفًا منهم الدين الإسلامي ودخول هذا القدر مرة واحدة فيه بحسن اختيارهم من غير إجبار من أحد ولا إكراه في أوائل انتشار النور الإسلامي في تلك الجهة على ما بين في التواريخ وقول چنكزخان: أنا لا أشك فيه لمن أجابه بأن أول أركان الإسلام توحيد الحق سبحانه حين سأل عنها وقبول أولاده وأحفاده الإسلام ودخولهم فيه بالسهولة مع كونهم حكمًا غالبين أصحاب الاختيار يرشدك إلى أنه أعنى التوحيد كان مركزًا في قلوبهم وملكة فيهم بل هي برهان قاطع لذلك وكذلك إسلام أوغور إن صح نصرانيتهم أدل دليل على مدعانا فإنهم لما رأوا النصرانية النسطورية أفضل مما هم فيه سابقًا من عدم التدين بدين ما قبلوه من غير إنكار ثم إنهم لما رأوا الإسلام أحسن وأحسن كالشمس في رابعة النهار تركوا النصرانية واعتنقوا الدين الإسلامي بحسن اختيارهم بل بكمال البشاشة والفرح والسرور من غير إجبار من طرف أحد ولا إكراه وهذا أعنى التمييز بين حسن الأشياء وقبحها قبول الشيء الحسن من أي جنس كان من غير استنكاف وإن كان مخالفًا لعاداتهم وعادات أسلافهم مختص بهم وهو مفقود في غيرهم رأسًا ألا ترى أن كثيرًا من فلاسفة أوروبا يقرون بحقية الدين الإسلامي ومع ذلك لا يدخلون فيه وذلك إما لترسيخ التثليث في قلوبهم وإما لتعصبهم وإن لم نقل لسفاهتهم وحمقتهم وشقاوتهم وقصة أوغوز الآتي ذكرها تؤيد هذا المدعى.

فإن قيل إنهم عمن أخذوا التوحيد وعلى شريعة أي نبي كانوا؟

قلت قد تقدم القول بنبوة يافث.

وظني بالنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: الآية

٢٤] و﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: الآية ٣٦] وبالنظر إلى كون نبوة

كافة الأنبياء غير نبينا عليهم الصلاة والسلام مختصة بقوم مخصوصين بموجب

قوله ﷺ: «وكانت الأنبياء قبلي يبعثون إلى قومهم خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١)

(١) أخرجه البخاري في التيمم باب ١، والصلاة باب ٥٦، والنسائي في الغسل باب ٢٦، والدارمي =

ينبغي أن يكون الله سبحانه بعث في كل عصر من الأتراك أيضًا أنبياء وإن لم يخصصهم الله سبحانه في واحد من الكتب الإلهية وهذا مع كونه مطابقًا للآيتين المذكورتين ولقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: الآية ٧٨] موافق للعقل أيضًا لكونه من مقتضيات الألفاظ الإلهية الغير المتناهية ومن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] فإن العبادة لا تتصور بدون التعليم الإلهي وذا لا يكون إلا بإرسال الرسل.

ولما قيل لجنكزخان حين سؤاله عن حقيقة الإسلام إن الله سبحانه رسلاً أرسلهم لتبليغ أوامره الإلهية إلى عباده فمن جملة أركان الإسلام تصديق هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال: لا شبهة لي في ذلك فإن الله سبحانه أعطاني قطعة محقرة محدودة من الأرض فأنا لا أهمل رعاياي فيها بل أرسل كل يوم عدة من الرسل أمرهم بما يعود منافعهم إلى الدولة والملة والوطن وبما يكون فيه مصالحهم فكيف يجوز إهماله سبحانه خلق العالم كلهم وهو خلقهم ورزقهم وأفاض عليهم من أنواع أنعامه وإحسانه وكرامته انظر كيف استدل بعقله إلى لزوم إرسال الرسل وقبح الإهمال.

وقد ذهب الإمام الرباني ومولينا مرزا جان جانان قدس سرهما في مكتوباتهما إلى كون الرسل مبعوثين من الهند إلى أهل الهند وحققوا ذلك بمشاهدة الأنوار من قبورهم ونحن نصدقهما في ذلك ونوافقهما لكونه مقتضى النقل والعقل كيف وقد نقل في الخازن في تفسير سورة البروج مثله عن علي كرم الله وجهه حيث قال: ورؤي عن علي قال كان أصحاب الأخدود نبهم حبشي بعث من الحبشة إلى قومه ثم قرأ علي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: الآية ٧٨] الآية الخ فإذا لم يهمل الله سبحانه الهنود والحبشة فكيف يهمل ملة عظيمة شهيرة أجروا في الهند والحبشة وسائر أقطار الدنيا أحكامهم عصورًا كثيرة وقرونًا متطاولة قبل الإسلام وبعده وخدموا الترقى والمدنية أكثر من الكل ألا وهم الأتراك بشهادة الأعداء حاشا ثم حاشا فإن ذلك مناف لحكمته لا يجوز ذلك إلا المتعصبون أعداء الأتراك ومقلدوهم تقليدًا جامدًا.

وذهب صاحب كنه الأخبار وغيره إلى أخذ أوغوزخان الآتي ذكره التوحيد والإسلام عن إبراهيم عليه السلام بالظن والتخمين مبني على عدم ملاحظة بعثة الأنبياء من الأتراك وإلا فلا حاجة إلى هذا التخمين وإن كان صحيحًا في حد ذاته مطابقًا لنفس الأمر فرضًا.

[معارفهم]

وأما معارفهم فاعلم أن معارف كل دولة وملة ومدنيتهم إن كانت مدونة فلا خفاء فيها فإن لم تكن مدونة فإنما تدرك وتستفاد من إجراءاتهم الحكومة وتوسيعهم الممالك ومقدار ترقيتهم وثروتهم ورفاهيتهم فإذا نظرنا إلى إجراء الأتراك حكومتهم في ممالك الصين والهند والفرس وبعض قطعات أوروبا بل وإفريقيا وتشكيلهم السلطنة فيها أوقاتًا كثيرة ومرارًا عديدة وأزمة متطاولة زيادة وعلاوة على إجراء الحكومة في مملكتهم الواسعة الأرجاء الفسيحة الفضاء المختصة بهم من بداية وجودهم إلى زمن قريب من عصرنا هذا ألا نتوقف في الحكم بانسلااب الحس والإدراك وبالسكر من شراب الغرض الفاسد ودردي التعصب الكاسد على من يقول بكونهم عارين عن المعارف وخالين عن التمدن فضلاً عن أن نعتقد ذلك ونخطره ببالننا فإن حس كل صاحب حس وإدراك كل صاحب إدراك يحكم بالبدهة باستحالة نيل كل ملة عارية عن التمدن والمعارف الدولة والسلطنة وامتناع إجراء الحكومة وإراءة السطوة وبث العدالة منها وباضمحلال دولتها وتلاشيها في مدة يسيرة إن كان ذلك على سبيل الصدفة والاتفاق ومقتضى الإقبال الأعمى فإن ذلك هو الواقع في كل زمان وأوان.

غاية ما في الباب أن الأتراك لما كانوا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب كالعرب لم تدون معارفهم كمعارف سائر الأمم المتصفيين بالكتابة كاليونان وغيرهم إنما كانوا يتلقونها بعضهم من بعض مشافهة وتقليدًا للأباء والكبراء كما أن في بداية الإسلام التي هي عصر بلوغ الملة الإسلامية إلى أوج الترقى كان الأمر على هذه الوتيرة قريبًا من هذا العصر ولم يضر ذلك على تمدنهم ولما لم تدون معارفهم ومدنيتهم لم تنتشر إلى الخارج واشتهروا بالخلو عن المعارف والعراء عن التمدن وهذه الشهرة مخالفة لنفس الأمر بالكلية وسببها هو ما ذكرناه آنفًا وتقسيمهم السنين إلى اثني عشر قسمًا وتسميتهم كل واحدة منها باسم واحد من الحيوانات وإثبات خاصية مخصوصة لكل منها وحكمهم على قرانات بعض الكواكب ببعض آخر منها بحكم وخاصية ووقوع الأمر

في الأكثر والأغلب على ما قالوا به وحكموا دليل واضح على هذا المدعى وهذا باق إلى الآن في أقوام قزاقستان وانقطاعه في مملكة قران قريب من هذا الزمان ويدل على كون تلك الشهرة كاذبة ومخالفة لنفس الأمر اشتها الأقسام التركية المقيمين بيرية قزاق المشتهرين بهذا الاسم المستعار بالوحشية والتبربر وعدم المدنية مع تمسكهم بمدينة الأتراك القديمة ومعارفهم واتصافهم بأوصافهم الحسنة التي مر ذكرها فإن المتصف بتلك الأوصاف كيف يكون وحشيًا وإنما يصفهم بذلك من يصفهم لعدم اطلاعه على أوصافهم وعاداتهم وآدابهم أو لعداوته وتعصبه أو لغلطه في تصور معنى المدنية وكأن المدنية عند القائلين بوحشية الطوائف المسماة الآن باسم قزاق المستعار هي التكالب على الدنيا والحرص والتهالك فيها وجمعها مثل قارون من غير إنفاق حبة منها في سبيل الخير والانتحار إذا خسر فيها أدنى خسارة كما هو رأي البعض منهم أو إنكار الصانع وتكذيب الرسل والكتب الإلهية والمروق من الدين وفعل ما تشتهيه النفس الخبيثة الأمارة بالسوء كالبهائم كما هو رأي السفهاء منهم.

لا يقال إن هذه الأوصاف المسرودة وإن كانت موجودة في أقوام أوروبا إلا أن فيهم من ينفق الملايين في سبيل المعارف والمدنية والترقي فضلاً عن إنفاق الألوف. لأننا لا ننكر ذلك في عصرنا هذا وإنما الكلام فيمن كانوا قبل هذا العصر وأهل أوروبا الآن كما أنهم أخذوا أصل التمدن عنا معاشر المسلمين كذلك أخذوا طريق الترقى فيه أيضًا عنا ونحن نرجو إن شاء الله سبقنا إياهم في هذا الخصوص أيضًا في أقرب مدة بإذن الله.

ولا بد لنا أن نذكر هنا قاعدة كلية يعلم بها سبب نسبة أهل أوروبا الأتراك إلى الوحشية والهمجية هي أن عادات قوم وأخلاق ملة وإن كانت مستحسنة في الواقع غاية الاستحسان تعد عند قوم آخرين متصفين بضد عاداتهم ومتخلفين بخلاف أخلاقهم قبيحة ومستكرهة غاية القبح ونهاية الاستكراه ألا ترى أن الاستنجاء الذي هو أصل النظافة وحجاب المرأة الذي هو أساس الآداب الإسلامية كيف يكرههما ويستقبحهما الإفرنج والمتفرنجون والفرامسون الذين هم متصفون بضدها أعني النجاسة والوقاحة بغاية الكراهة والاستقباح وكيف يعيونهما من أربابهما وكيف يبذلون غاية جهدهم في رفعهما وإزالتها إن قدروا على ذلك لا قدر الله.

والحاصل إذا نظر العاقل بنظر الاعتبار يجد الآداب الإسلامية كافتها عند قوم متصفون بأضدادها على هذه الوتيرة وحكم قوم على قوم بالوحشية والهمجية أكثره

ناش من هذه القاعدة وجار عليها فاعرف ذلك تتخلص من ورطة التقليد المهلكة والله يتولى هداك.

وما نقل عن ثمامة بن الأشرس^(١) من أنه لو بعث فيهم يعني الأنبياء وكان بينهم الحكماء لما كانت شبهة في تحصيلهم آداب البصريين وحكمة اليونانيين وصنعة الصينيين مبني على ظن أنه لم يبعث فيهم نبي ولم يكن بينهم حكماء وأدباء وأرباب الصنائع وقد تقدم ذكر مسألة بعثة الأنبياء مستوفى وكذلك ذكر عدم احتياج كل واحد من الترك في صنعة لازمة له إلى غيره نقلاً عن الجاحظ.

وأما مادتي الحكمة والأدبيات فهما أيضًا لا تنقصان فيهم عن حكمة قوم آخرين وأدبياتهم أي قوم كانوا وإنما منشأ نفيهما عنهم ما ذكرناه في باب المعارف والمدنية من عدم التدوين والاكتفاء بالأخذ مشافهة فكما أن معارفهم ومدنيتهم لم تنتشر في الخارج لعدم التدوين فعدوا عارين عنها لذلك كذلك حكمهم وأدبياتهم لم تنتشر في الخارج للعلة المذكورة فعدوا خالين عنها لذلك والشاهد العدل لذلك جريان ألوف من الكلمات الحكمية والأمثال والأشعار الأدبية في قبائل الترك الباقية على أصل العنصر التركي من غير اختلاط بالأجانب كالقبايل المشهورين باسم قزاق وقرغز المستعار واضمم إلى ذلك اشتهاار كثير من الترك في الأدبية العربية في بداية انتشار الأنوار الإسلامية في جهتهم وسبقهم في ذلك العرب الأصلي مثل إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولي الأديب الشاعر^(٢) المتوفى سنة ٢٤٣ هـ وأبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس المذكور الشاعر الأديب النحوي المعروف بالشطرنجي الصولي^(٣) المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وغيرهما ممن كانوا في عصرهما أو جاؤوا بعدهم بحيث لا يعدون ولا يحصون.

دع هذا وافتح عينيك وانظر بنظر الإنصاف والاعتبار أليس صاحب الكشف وسائر المصنفات المشهورة العلامة محمود الزمخشري^(٤) وصاحب المفتاح يوسف

(١) ثمامة بن الأشرس: تقدم التعريف به قبل قليل.

(٢) هو أبو إسحق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صولتكين البغدادي، وهو ابن أخت العباس بن الأحنف، كان شاعرًا أدبيًا، توفي سنة ٢٤٣ هـ، صنف ديوان شعره مشهور. «كتاب الدولة»، «كتاب الرسائل»، «كتاب البطح»، ولعله كتاب الطبخ، «كتاب العصر» (كشف الظنون ٢/٥).

(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٤) الزمخشري: هو العلامة جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد بن عمر =

السكاكي^(١) اللذين قيل في حقهما لولا الكوسج والأعرج لعرج القرآن كما نزل والمطرزي^(٢) صاحب المغرب وغيره تلميذ الزمخشري وكذا ناشر العلوم العربية الشيخ عبد القاهر الجرجاني^(٣) وصدر الأفاضل ورشيد الدين الوطواط^(٤) الذين يستشهد بأشعارهما في العربية من الأتراك.

= الأديب النحوي اللغوي الفقيه الشافعي الشهير بالزمخشري، ولد سنة ٤١٧ هـ، وتوفي بجرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ هـ، من تصانيفه: «أساس البلاغة»، «أمالي»، «جواهر اللغاة»، «ديوان الرسائل»، «ديوان شعر»، «الرائض في الفرائض»، «ربيع الأبرار وفصوص الأخبار» في الأدب والنوادر، «شرح كتاب سيبويه»، «صحيح العربية»، «شقائق النعمان في مناقب النعمان الإمام أبي حنيفة»، «الفاوق في غريب الحديث»، «فصوص الأخبار»، «فصوص النصوص»، «القسطاس في العروض»، «المستقصى في الأمثال»، «معجم الحدود»، «المفصل في النحو»، «المقامات»، «نوابغ الكلم» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/٤٠٢ - ٤٠٣).

(١) يوسف السكاكي: هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي الخوارزمي الحنفي الأديب، الشهير بالسكاكي، ولد سنة ٥٥٥ هـ، وتوفي سنة ٦٢٦ هـ، من تصانيفه: «كتاب الطلسم» فارسي، «مفتاح العلوم» في النحو والأدب والاشتقاق والمعاني والبيان، مشهور وعليه شروح وحواش (كشف الظنون ٦/٥٥٣).

(٢) المطرزي: هو ناصر الدين أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي الخوارزمي، الأديب الحنفي الشهير بالمطرزي، ولد سنة ٥٣٨ هـ، وتوفي سنة ٦١٠ هـ، من تصانيفه: «الإفصاح في شرح المقامات للحريري»، «الإقناع لما حوى تحت القناع»، «تلخيص إصلاح المنطق لابن السكيت»، «المصباح في النحو»، «المغرب في ترتيب المعرب» في اللغة تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب، «مقدمة في المنطق» (كشف الظنون ٦/٤٨٨).

(٣) عبد القاهر الجرجاني: هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أبو بكر الشافعي الأديب النحوي، المتوفى سنة ٤٧٤ هـ. من تصانيفه: «أسرار البلاغة»، «الإيجاز في مختصر الإيضاح» في النحو، «الجرجانية»، «درج الدرر في تفسير الآي والسور»، «دلائل الإعجاز في المعاني والبيان»، «شرح الفاتحة»، «عمدة في التصريف»، «عوامل المائة» في النحو، «مختار الاختيار في فوائد معيار النظائر» في المعاني والبيان والبدیع والقوافي، «المعتضد في شرح إعجاز القرآن للواسطي»، «المغني في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي»، «المقتصد في تلخيص المغني» (كشف الظنون ٥/٦٠٦).

(٤) رشيد الدين الوطواط: هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري، المعروف بالوطواط، رشيد الدين البلخي الأديب، المتوفى بخوارزم سنة ٥٧٨ هـ، من مصنفاته: «أبكار الأبيكار في الرسائل والأشعار»، «تحفة الصديق إلى الصديق من كلام أبي بكر الصديق»، «أنس اللفهان من كلام عثمان بن عفان»، «جواهر القلائد وزواهر الفرائد» في التصوف والأخلاق، «حدائق السحر ودقائق الشعر» فارسي، «حمد وثنا في اللغة» منظومة فارسية، «عرائس الخواطر ونفائس النوادر»، «عمدة البلغاء وعدة الفصحاء»، «غرر الأقوال ودرر الأمثال»، «مطلوب كل طالب»

والمجلدان من ديوان أشعار الخواجه أحمد اليسوي^(١) المتضمنة لأنواع الحكم وصنوف المواعظ والرفائق بلسان الترك وأصل أدبياتهم متداولان إلى الآن بين أترك تركستان وقزان ومنتخبهما مطبوع في استانبول وقزان. وهو من رجال أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع وكذلك لا يزال كثير من قصائد خلفائه كحكيم آنا وسليمان آنا والإيقاني وكثير غيرهم ومقطعاتهم جاريًا إلى الآن في ميدان التداول والاستعمال بين الأقوام المذكورين.

وكذلك صاحب المثنوي الذي هو في طبقة عليا في الفارسية ومشمول على حكم ومنافع دنيوية وأخروية على طرز عجيب بضرب أنواع الأمثال الحكيم المثنوي المعنوي مولانا جلال الدين الرومي^(٢) والأمير خسرو الدهلوي^(٣) المشهور والميرزا عبد القادر الشهير بالميرزا بيدل^(٤) وصاحب الصحاح^(٥) كلهم كانوا من الأتراك فإن

= لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب»، «منية المتكلمين وغنية المتعلمين» وغير ذلك (كشف الظنون ٩٩/٦، ١٠٠).

(١) أحمد اليسوي: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع المتوفرة بين يدي. وفي كشف الظنون ٨٣٧/٥: اليسوي: كامل بن ميرزا أحمد اليسوي بن مالك محمد الناشكندي ثم الكشميري المتوفى بها سنة ١١٣١ هـ، له: «بحر الزمان»، ولعله أحد أحفاد المذكور الخواجه أحمد اليسوي.

(٢) جلال الدين الرومي: هو محمد بن بهاء الدين سلطان العلماء محمد بن الحسين بن أحمد البكري البلخي ثم القونوي، مولانا جلال الدين الرومي، ولد ببلخ سنة ٦٠٤ هـ، وتوفي بقونية سنة ٦٧٢ هـ، من تصانيفه: «أسرار نامه» في التصوف، «كتاب المثنوي» منظوم فارسي مشهور في الحكم والأمثال والحقائق، «لب اللباب» فارسي، «ديوان شعره» فارسي، «المعنوي» منظوم فارسي (كشف الظنون ١٣٠/٦).

(٣) خسرو الدهلوي: هو محمد ابن الأمير سيف الدين محمود أوجين الحسيني، الملقب بخسرو الدهلوي، أبو الحسن الجشتي، أمير الكلام، ولد سنة ٦٥١ هـ، وتوفي سنة ٧٢٥ هـ، قال صاحب خزينة الأصفياء: له تسع وتسعون مصنفاً، نظماً ونثرًا، منها: «إعجاز خسروي»، «أنيس القلوب»، «بحر الأبرار»، «تاريخ دهلي»، «تحفة الصغر» ديوان شعره، «خسرو وشيرين»، «خضرنامه»، «ليلي ومجنون»، «ماء الحياة» منظوم فارسي في الأدب، وغيرها الكثير (كشف الظنون ١٤٦/٦).

(٤) الميرزا بيدل: هو عبد القادر بن ميرزا عبد الله الفتني الهندي الشاعر الصوفي المتخلص ببيدل المتوفى بدلهي سنة ١١٣٣ هـ، له: «جهاز عنصر» في الأدب فارسي، «ديوان شعره» فارسي، «المحيط الأعظم» في التصوف (كشف الظنون ٦٠٣/٥).

(٥) صاحب الصحاح: هو الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الإمام الحافظ، أبو عبد الله البخاري، ولد سنة ١٩٤ هـ، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ. من تصانيفه: «الأدب المفرد»، في الحديث «أسماء الصحابة» «الأسماء والكنى»، «التاريخ الصغير»، «التاريخ

الأمير خسرو من قبيل لاجين والميرزا بيدل من قبيلة ارلاس من تركستان وهذا القدر كاف في إثبات كون الأتراك نجباء ظرفاء شعراء وإلا فتعداد كافتهم غير ممكن فإن لم يكن حدود هؤلاء وأسلافهم الأتراك الأقدمون أصحاب الحكمة وأرباب الأدبية كيف يمكن أن يكون أخلافهم على هذه الكيفية من الأدبيات والحكم فإن البلبل إنما يخرج من عش بلبل لا من عش الغراب والعقوق.

[حكماؤهم]

وأما حكماؤهم فهم أيضًا على وتيرة أرباب معارفهم ومدنيتهم في عدم كتابة تراجم أحوالهم وضبط مراتبهم وتدوين حكمهم وسيذكر ترجمة أحوال الفيلسوف انخرسيس أو أناخريست الاسكييتي التتاري الذي هو معاصر الفيلسوف سولون رئيس سلسلة فلاسفة اليونان في آخر المقصد الأول إن شاء الله تعالى وقد يفهم من ترجمة أحواله صراحة أنه لم يأخذ الفلسفة عن فلاسفة يونان بل كان حين وروده إلى آتنا كاملاً في الفلسفة فإذا لم يأخذ الفلسفة عن فلاسفة يونان يلزم أخذه إياها عن حكماء الأتراك في بلاده والسبب في بقاء ذكر أناخريست و ترجمة أحواله إلى يومنا هذا وعدم بقاء ذكر اسم من أخذ هو الفلسفة عنهم من سائر فلاسفة الأتراك هو قدوم المذكور إلى أثينا واشتهاره فيما بين أهلها وضبطهم أحواله مع أحوال فلاسفة بلادهم وعدم قدوم سائر حكماء الأتراك إلى بلاد يونان وعدم معرفتهم لليونان وعدم اعتناء الأتراك بضبط حوادث بلادهم وتراجم رجالهم ملوكًا كانوا أو أمراء أو حكماء أو شعراء فلو اعتنى الأتراك أيضًا بضبط تراجم رجالهم أو قدم عدة من حكماؤهم إلى بلاد يونان كقدوم أناخريست إليها لرأينا أسامي كثير من فلاسفة الأتراك كأناخريست فيما بين أسامي الفلاسفة المتقدمين في التواريخ المعتمدة المتداولة بلا شبهة ولكن ما العلاج وماذا نصنع لما أهمل قومنا من القديم ضبط أحوال فلاسفتهم وملوكهم وأمرائهم وسائر مشاهير رجالهم وأساميهم صرنا عرضة لتهمة أعدائنا بكوننا قومًا عارين عن المجد والأصالة ومفلسين عن الرجال المشاهير وبكوننا ملة وحشية برابر لا يعبا بهم ولم يكفنا تهمة الأجانب إيانا بذلك حتى أن كثيرًا من المحرومين العاجزين عن تدقيق

= «الكبير»، «تفسير القرآن»، «الجامع الصحيح»، «الجامع الصغير»، «الجامع الكبير»، «خلق أفعال العباد»، «العوالي في الحديث»، «كتاب الأشربة»، «كتاب الرقاق»، «كتاب السنن في الفقه»، «كتاب الضعفاء»، «كتاب الفوائد»، «كتاب القراءة خلف الإمام»، «كتاب الوجدان»، «كتاب الهيئة»، «المسوط في الحديث» وغير ذلك (كشف الظنون ١٦/٦).

تواريخ الأمم منا أيضًا لا يزالون يصدقونهم في هذه التهمة ويضمون آراءهم الكاسدة إلى آرائهم الفاسدة في ذلك حيث يتلقونها بالقبول.

والدليل الذي يثبت مدعانا هذا بلا معارض كون أبي نصر محمد بن طرخان الفارابي^(١) وأبي علي حسين بن علي بن

- (١) الفارابي: هو محمد بن محمود بن أوزلغ بن طرخان الفارابي أبو نصر الحكيم الفيلسوف، ويعرف بالمعلم الثاني، من أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، ولد في فاراب على نهر جيحون وانتقل إلى بغداد فنشأ بها وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ، وكان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، صنف من الكتب: «كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة»، «كتاب اتفاق أرسطو وأفلاطون في الجن»، «كتاب الاجتماعات المدنية»، «كتاب إحصاء الإيقاع»، «كتاب إحصاء العلوم»، «كتاب إحصاء القضايا»، «كتاب أرسطوطاليس»، «كتاب أسباب السعادة»، «كتاب الأشياء التي تحتاج أن تعلم قبل الفلسفة»، «كتاب أصناف الأشياء البسيطة»، «كتاب في أغراض أرسطوطاليس»، «كتاب اكتساب المقدمات»، «كتاب الألفاظ والحروف»، «كتاب الإيقاعات»، «كتاب الباريمينياس»، «كتاب البرهان»، «كتاب التأثيرات العلوية»، «كتاب تعليق إيساغوجي على فرفوريوس»، «كتاب التوسط بين أرسطوطاليس وجالينوس»، «كتاب التوطئة في المنطق»، «كتاب الجدل»، «كتاب في الجزء»، «كتاب جوامع السياسة»، «كتاب جوامع كتاب النواميس لأرسطوطاليس»، «كتاب جوامع لكتب المنطق»، «كتاب الجوهر»، «كتاب الحيز والمقدار»، «كتاب الحيل والناواميس»، «كتاب الخطابة»، «كتاب الدعاوى المنسوبة إلى أرسطوطاليس في الفلسفة»، «كتاب الرد على ابن الراوندي في الجدل»، «كتاب الرد على جالينوس»، «كتاب الرد على الرازي في العلم الإلهي»، «كتاب الرد على يحيى النحوي»، «كتاب الرؤيا»، «كتاب السبب إلى صناعة المنطق»، «كتاب السعادة الموجودة»، «كتاب السماع الطبيعي»، «كتاب السياسات المدنية»، «كتاب شرائط البرهان»، «كتاب شرائط اليقين»، «كتاب شروط القياس»، «كتاب الشعر والقوافي»، «كتاب صناعة الكتابة»، «كتاب العقل الصغير»، «كتاب العقل الكبير»، «كتاب العلم الإلهي»، «كتاب عيون المسائل على رأس أرسطوطاليس»، «كتاب غرض المقولات»، «كتاب الفحص المدني»، «كتاب الفرد»، «كتاب الفصول المسرعة للاجتماعات»، «كتاب الفصول المنتزعة من الأخبار»، «كتاب فلسفة أفلاطون وأرسطو»، «كتاب الفلسفتين»، «كتاب في أن حركة الفلك سرمدية»، «كتاب القوة المتناهية وغير المتناهية»، «القياسات التي تستعمل الموسيقى»، «كتاب القياس الصغير»، «كتاب الكناية»، «كتاب اللغات»، «كتاب مبادئ آراء المدينة الفاضلة»، «كتاب المبادئ الإنسانية»، «المختصر الأوسط في القياس»، «كتاب مختصر جمع الكتب المنطقية»، «كتاب المختصر الصغير في المنطق»، «كتاب المختصر الكبير»، «كتاب المدخل في المنطق»، «كتاب المدخل إلى الهندسة الوهمية»، «كتاب المدينة الفاضلة»، «كتاب ما ينبنى أن يتقدم الفلسفة»، «كتاب المستغلق من كلامه»، «كتاب المغالطين»، «كتاب المقاييس»، «كتاب المقدمات»، «كتاب المواضع المنتزعة من الجدل»، «كتاب الموجودات المتغيرة»، «كتاب الموسيقى الكبير»، =

سينا^(١) وتلميذه بهمانيار^(٢) الذين هم سلاطين حكماء الإسلام ورؤوساً فلاسفتهم من الأتراك وقد ظهر كثير من الحكماء بعدهم أيضاً من الأتراك بحيث يتعسر عددهم ويتعذر إحصاؤهم فإن لم يكف هذا فهل لأحد شبهة في كون الإمام الحافظ الحجة أمير المحدثين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري^(٣) الذي هو رئيس من جمع

= «كتاب النجوم»، «كتاب النواميس»، «كتاب الواحد والوحدة»، «كتاب الوحدة»، «كتاب الهوى»، «رسالة التنبيه على أسباب السعادة»، «رسالة في قود الجيوش»، «رسالة في ماهية النفس»، «شرح الآثار العلوية لأرسطوطاليس»، «شرح إيساغوجي لفرفوروس»، «شرح بارميناس لأرسطوطاليس»، «شرح البرهان لأرسطوطاليس»، «شرح الخطابة لأرسطوطاليس»، «شرح السماء والعالم لأرسطوطاليس»، «شرح السماع الطبيعي لأرسطوطاليس»، «شرح صدر كتاب الأخلاق لأرسطوطاليس»، «شرح العبارة لأرسطوطاليس»، «شرح القياس لأرسطوطاليس»، «شرح لباب العبارة». «شرح المجسطي لبطليموس»، «شرح المستغلق في المصادر»، «شرح المغالطة»، «شرح مقالة النفس لإسكندر»، «شرح المواضع المستغلقة من كتاب قاطيغورياس»، «شرح نبيل السعادات». وغير ذلك من كلام ومقالات في فنون شتى. (كشف الظنون ٣٩/٦ - ٤٠).

(١) ابن سينا: هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، أبو علي الشهير بالرئيس ابن سينا ولد سنة ٣٧٠ هـ، في إحدى قرى بخارى، نشأ وتعلم بها وطاف البلاد وناظر العلماء، وتقلد الوزارة في همدان، وتوفي بهمدان سنة ٤٢٨ هـ، له من الكتب: «الأدوية القلبية»، «الإشارات»، «الإشارات والتنبيهات»، «الأرصاء الكلية»، «الإنصاف»، «بيان ذوات الجهة» «تأويل الرؤيا»، «تدبير الجن والملك»، «تفسير آية النور»، «تفسير سورة سبوح اسم»، «تفسير سورتي المعوذتين»، «جواب الاعتذار فيما نسب إليه من الخطب»، «جواب ست عشرة سؤالات لأبي الريحان»، «الحاصل والمحصل»، «الحواشي على القانون»، «الحكمة العرشية»، «رسالة البر والإثم»، «رسالة الحدود»، «رسالة الطير»، «رسالة العشق»، «كتاب الأوسط الجرجاني»، «كتاب البر والإثم»، «كتاب بعض الحكمة المشرقية»، «كتاب الحدود»، «كتاب الحكمة المشرقية»، «كتاب الخطب التوحيدية» في الإلهيات، «كتاب الشبكة والطير»، «كتاب الشفاء» في الحكمة، «كتاب العلائي»، «كتاب عيون الحكمة»، «كتاب القانون»، «كتاب القولنج»، «كتاب قيام الأرض وسط السماء»، «كتاب لسان العرب»، «كتاب المباحثات»، «كتاب المبدأ والمعاد»، «كتاب المجموع»، «كتاب الملح» في النحو، «كتاب المعاد»، «كتاب الموجز الصغير»، «كتاب الموجز الكبير»، «كتاب النجاة»، «كتاب الهداية»، «شرح كتاب النفس لأرسطوطاليس»، «مختصر إقليدس»، «مفاتيح الخزان» في المنطق، «مناظرات مع أبي علي النيسابوري»، «منار النظر» في المنطق وغير ذلك (كشف الظنون ٣٠٨/٥ - ٣٠٩).

(٢) بهمانيار: هو بهمنيار بن مرزبان العممي الأذربيجاني، كان مجوسياً، ثم أسلم، وهو من أعيان تلامذة الرئيس ابن سينا، توفي سنة ٤٥٨ هـ، من تصانيفه: «كتاب البهجة في المنطق والطبيعي والإلهي»، «كتاب التحصيل»، «كتاب السعادة». (كشف الظنون ٢٤٤/١).

(٣) البخاري: تقدمت ترجمته قبل قليل.

الحكمة النبوية الإيمانية وأميرهم ومرجعهم كما أن المذكورين رؤساء أصحاب الحكمة اليونانية وجامعه الصحيح أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى من الأتراك وكذلك صاحباً سنن الترمذي^(١) ونوادر الأصول^(٢).

فإن كنت في شك مما تلونا عليك من مناقب الأتراك الأقدمين أيها التركي فانظر إلى استعداد هؤلاء الأمجاد الذين ذكرناهم وقابليتهم في استنباط لطائف المعاني واستخراج جواهر المضامين.

ثم أجل نظرك إلى سعيهم واجتهادهم الذي يهد الجبال ويدق الأحجار المتناسب باستعدادهم فاستدل بذلك إلى استعداد أسلافهم وقابليتهم ومساعدتهم واجتهادهم المستورة عنا والمجهولة علينا وفاخر من يفاخر بك بأبائه وأجداده^(٣) من غير أن يضيق نفسك قائلاً، شعر:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

لا تصير في ذلك خجلاً ومنفعلاً قط ولا تنسب إلى الوقاحة فإن المطلعين على الحقائق التاريخية وأحوال الأمم لا يكذبونك في ذلك ولا يفندونك وأما الجهلاء فلا عبرة بهم فإن قولهم وبولهم على حد سواء.

(١) الترمذي: هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، الإمام الحافظ، أبو عيسى الضرير البوغي الشهير بالترمذي، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، من مصنفاته: «الجامع الصحيح» في الحديث أحد الكتب الستة، «الرباعيات» في الحديث، «شمائل النبي ﷺ»، «كتاب التاريخ»، «كتاب العلل في الحديث». (كشف الظنون ١٩/٦٥).

(٢) صاحب نوادر الأصول: هو كتاب «نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول ﷺ»، لأبي عبد الله محمد بن علي بن حسن بن بشير المؤذن، الحكيم الترمذي المتوفى شهيداً سنة ٢٥٥ هـ، وله من المصنفات أيضاً: «إثبات العلل للشرعية»، «ختم الأنبياء»، «ختم الأولياء»، «رياضة النفس»، «شرح الصلاة»، «غرر الأمور»، «غرس الموحدين»، «كتاب الاحتياط»، «كتاب الفروق»، «كتاب المناهي في إثبات العلل»، «منهاج العبادة». (كشف الظنون ١٥/٦، ١٦).

(٣) لكن مع العمل بموجب قول الشاعر. شعر:

يومًا على الأحساب نتكل
تبني ونفعل مثل ما فعلوا

لسنا وإن أحسابنا كرمت
نبنينا كما كانت أوائلنا

وإلا تكن مصداق قول الشاعر:

لقد صدقت ولكن بش ما نسلوا

لئن فخرت بأبَاء ذوي شرف

منه عفي عنه.

والحاصل أن الله سبحانه لما قضى في عمله الأزلي بحكمته الكاملة البالغة بخروج أمر الخلافة من يد قريش الذين هم أهلها بالأصالة لعدم جريهم بموجبها ومقتضاها بعد قرون من زمن السعادة وفق قوله ﷺ: «إن هذا الأمر في قريش ما استقاموا»^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: «هالك أمتي على يدي غلمة من قريش»^(٢) وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن صلحت أمتي فلها نصف يوم» وفي رواية «إن أحسنت»^(٣) بدل صلحت وقوله ﷺ: «أما بعد يا معشر قريش فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما تلحى هذه الجريدة»^(٤) إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية المطابقة لظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي أَفْقَالِيَيْنَ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥٠) [الأنبياء: الآية ١٠٥] أي الصالحون للاستعمار وبث الأمن والعدالة وهو التفسير الموافق للأحوال الحاضرة والمشهود المبصر لأرباب الباصرة اقتضت إرادته السبحانية ضرورة بقاء انتظام سلسلة أمور العالم على أحسن نظام ولزوم حفظ بيضة الإسلام إلى قيام الساعة وساعة القيام تعيين قوم لإشغال محل هذا المنصب المحلول والقيام مقامهم في إجراء أمور الخلافة ووظائف الإمامة فخرجت قرعة الانتخاب والاختيار الإلهية لهذا الأمر الخطير من بين أقوام الدنيا باسم الترك أعني نيابتهم القريش في الخلافة والإمامة فألقى الله سبحانه على لسان نوح عليه السلام دعاء فتح الله لياث وكثر الله يافث وليسكن في مساكن سام فظهر أثر إجابة هذا الدعاء ظهورًا بيّنًا من بين أولاد يافث في الترك فخلقهم الله سبحانه على أحسن استعداد وأكمل قابلية وأتم صلاحية لحفظ الأمن والأمان وإجراء القوانين الإلهية وبث العدالة وتعمير البلاد وترفيه العباد ثم أعلى شأنهم بتوقيع عموم فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وبراءة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣٨] ويبرليغ استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون وفرامان وآخرين منهم لما يلحقوا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٣٩٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٤٢، ١٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، والفتن باب ٣، وأحمد في المسند ٢/٢٨٨، ٣٠٤، ٣٢٤، ٣٢٨، ٥٣٦.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن حجر في فتح الباري ١١/٣٥١.

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه ١٠/١٧٧، والسيوطي في جمع الجوامع ٤٣٥٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٣٧٩٧.

بهم^(١) وأمثال ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشاملة بعموم ألفاظها الذي به العبرة عند العلماء الأتراك لوجود تلك الأوصاف فيهم وإن لم نقل بخصوصها مع أن القول به أيضًا لا يستبعد بالنظر إلى الأحوال الواقعة ولما شرع خلاف ما علق الله بقاء الخلافة ودوامها في قريش وعين ما علق نيابة الأتراك القريش به في الظهور برخاوة الأمين وسفاهته واعتزال المأمون وتشيعه وإذائه وجفائه لعلماء أهل الحق ونصب المتوكل إلى غير ذلك من الأمور الغير اللائقة صار ما وعده الله سبحانه آخذًا في الظهور حيث شرع نفوذ قريش في انتقاص وطفق الأتراك يداخلون في الأمور ويحاولون الأخذ بزمامها وصارت الوقائع تتابع بعضها بعضًا تترى حتى

(١) وكأني بأسارى التقليد والمتعصبين يحملقون على حين يطالعون هذا الموضوع ويفندوني ويجهلونني وينسبونني إلى التحريف قائلين إن هذه الآيات ليست في حق الترك بل في كندة ونخع أو في الأنصار أو في الفرس أو فيهم والروم على ما نقل عن المفسرين فأقول أما المنقول في هذا الباب عن المعصوم فتفسير القوم بالأشعريين أو الفرس وفي إسناده مقال كما بسط القول فيه في الخازن في تفسير سورة الجمعة وعلى تقدير صحته لا ينافيه كون الترك داخلًا في عمومه فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وليس في الحديث أداة الحصر ولهذا قلنا بتوقيع عموم، الخ.

وأما المنقول عن غير المعصوم فمع تعظيمها إياهم واعترافنا بعلو شأنهم وكونهم مشايخنا وأساتذتنا نقول من غير تكبر في مثل هذا الأمر الذي يعرف بالعقل ومشاهدة الأوصاف إنهم رجال ونحن رجال فكما أن دليلهم في هذا الباب إما مشاهدة الأوصاف والأحوال أو الظن والتخمين فكذلك دليلنا أيضًا مشاهدة الأوصاف والأحوال فكما أنهم لما شاهدوا تلك الأوصاف في كندة ونخع الخ قالوا إن المراد بالقوم هم فكذلك نحن لما شاهدنا تلك الأوصاف المذكورة في الآيات في الترك على الوجه الأكمل قلنا إنهم داخلون أيضًا في عمومها فلا منافاة أيضًا بين قولنا وقولهم فلو عاش هؤلاء الكبراء إلى عصر ظهور الأتراك وشاهدوا فيهم تلك الأوصاف لقالوا بما قلنا من غير شبهة وكما أن الإبهام في قوله ﷺ لأعطين الراية غدًا من يجب الله ورسوله الحديث ارتفع بإعطائها عليًا كرم الله وجهه والإبهام الواقع في قوله ﷺ أسرعكن لحوقًا بي أطولكن بدأ ارتفع بموت أم المؤمنين زينب والإبهام الواقع في قوله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر الحديث بمشاهدة لبس التتار نعال الشعر والإبهام الواقع في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٧] الآية بقوله من الفجر إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث كذلك عموم تلك الآيات علم بوجود تلك الأوصاف في الأتراك ومطابقة مضامينها لأوصافهم حدو النقطة بالنقطة والتخصيص يستدعي دليلًا قطعيًا ولا دليل فانعكس الأمر حيث صار المخصص هو المحرف وليبطل المتعصب تلك المطابقة ووجود تلك الأوصاف في الأتراك إن قدر وأنى له ذلك ونعم قال قال الزمخشري في سورة التوبة بعد بيانه القيل والقال والظاهر يعني ظاهر الحال مستغن عن التخصيص.

ظهرت الديالمة ثم الغزنوية والطولونية والإخشيدية والسامانية والسلاجقة والخوافة والخوارزمشاهية والأتابكية والأيوبيه من الأتراك بعضهم إثر بعض إلى أن جاء وعد الحق سبحانه على لسان نبيه ﷺ أعني قوله إن صلحت أو أحسنت أو استقامت أمتي فلها يوم وإلا فنصف يوم بمرور نصف يوم ونيف من زمنه ﷺ^(١) أعني ٦٥٦ سنة فإن المراد باليوم هنا ما قاله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: الآية ٤٧] ووقع الشرط الثاني فترتب عليه جزاؤه فقيض الله لاستلام زمام أمور العامة منهم بالكلية أبناء چنكزخان بموجب قوله ﷺ: «أول ما يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء»^(٢) الحديث يعني بني قان توران يعني بقان توران چنكزخان كما قدمنا والمراد بالأمة في هذه الأحاديث أمته الخاصة النسبية لا أمته العامة الدينية أعني قريشًا على العموم أو بني العباس فقط باتفاق الشراح وإلا يلزم كذب قوله ﷺ^(٣) حاشاه من ذلك ثم دخل الأمر بعد زمان من ذلك بيد آل عثمان أيدهم الله سبحانه بتأييداته الصمدانية وأبقاهم إلى قيام الساعة لتأييد الشريعة المحمدية وتشديد الأحكام المصطفوية ثم تأيد ذلك رسمًا بتنازل المتوكل على الله آخر خلفاء العباسيين بمصر عن الخلافة وتسليمها إلى السلطان سليم خان الأول رحمه الله تعالى فبذلك صحت خلافة العثمانيين رسمًا من ذلك الوقت كما صحت قبل حقيقة فلا يجوز لأحد شرعًا أن ينسبهم إلى التغلب والتسلط وتكفي هذه المنقبة أعني كون الأتراك نوابًا لقريش الذين هم رهط سيد الثقلين في أمر الخلافة والإمامة وتخصصهم به من بين سائر أقوام الدنيا فخرًا وشرقًا لهم لا حاجة لهم بعد ذلك إلى منقبة سواها إلا عند من لا يقنع بالشمس ويميل إلى السها ولا يكتفي بالبحر ويلتمس البير.

تنبيه: لا يتوهمن الأبله عريض القفا أو المتعصب عديم الوفاء من الكلمات التي سردناها في إظهار مناقب الأتراك وإبداء فضائلهم ترجيحنا الأتراك على العرب وتفضيلهم على قريش ولا ينسبنا بذلك إلى الشعوبية فإن قصدنا ليس هذا بل العمل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

(١) كذا في البواقي والجواهر نقلًا عن تقي الدين بن أبي منصور وإن أحسنت فذكر في فتح الودود نقلًا عن السهيلي وإن استقامت رأيته في موضع نسبته الآن. منه.

(٢) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٣) وما قاله بعضهم بعدم أصل الحديث المذكور أعني قوله ﷺ إن صلحت أو أحسنت أو استقامت أمتي الحديث فلعله لاستشكاله ذلك وقد عرفت أنه لا إشكال فيه على هذا التأويل. منه.

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿النِّسَاءُ: الآية ٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿رَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرِثًا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَقِيمَ﴾ [الإسراء: الآية ٣٥] ويقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَلُكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] ويقوله ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بتقوى الله»^(١) والرد على المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون وهم الذين لا يرون للأتراك قيمة ولا يحسبونهم شيئاً بل يلحقونهم بالسباع والبهائم ويريدون بذلك شق عصا الاتفاق وإلقاء التفرقة بين المسلمين بإغفال السذج والبسطاء وإلا فلسنا ممن لا يعرف قوله ﷺ: «أحبوا العرب لثلاث فإني عربي»^(٢) الحديث، وقوله ﷺ: «وفضل الله قريشاً بسبع خصال»^(٣)، وقوله أيضاً: «أعطيت قريش ما لم يعط الناس»^(٤) الحديثين وأمثالهما من الأحاديث النبوية ولنا أيضاً ممن لا يعتقدونها ولا يعمل بها حاشا وكلا بل الذي في قلبه مثقال حبة من محبة النبي ﷺ لا يقصر في محبة رهطه ﷺ وإن لم يرد فيهم حديث واحد منها بل القصد بذلك هو ما ذكرناه من إحقاق الحق ورد أصحاب الأغراض الفاسدة وتنبية الغافلين والسذج وتحذيرهم من الوقوع في شبكة الأعداء مع التصديق والإقرار برجحان من رجحهم الله ورسوله وفضل من فضلائهم ثم إننا نبه هنا قومنا الأتراك الذين بيدهم الأمر الآن على أن يتفكروا في الأحاديث المارة في حق قريش حق التفكر وأن يستيقنوا أن الله الذي سلب الخلافة منهم بسبب العدول عن الحق مع كونهم أحق الناس بها وأصحابها أصالة أحق أن يسلبها منهم بالطريق الأولى وأن يعتبروا بمن مضوا من دول الأتراك الذين عددناهم وغيرهم أيضاً وأن يبذلوا غاية جهدهم في تقييد هذه النعمة العظمى بالشكر عليها حتى لا تزول وهو القيام بحقوقها حق القيام باتباع آثار المنوب عنه ﷺ حسب الجهد والإمكان وأن يلاحظوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: الآية ١١] وهو الأصل الأساس في هذا الباب والله وليّ الهداية والتوفيق.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤١١/٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨٤/٨، والسيوطي في الدر المنثور ٩٨/٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٨٧/٤، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣٦٤/٢، والذهبي في ميزان الاعتدال ٥٧٣٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٣٦/٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤/١٠، والسيوطي في الدر المنثور ٣٩٧/٦.

(٤) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣٣٨٠٥.

[محاربتهم ومعاملاتهم مع الأقوام المتجاورة]

ولنشرع الآن في بيان ماجريات الأتراك ومعاملاتهم مع سائر الأقوام وهي على قسمين؛ قسم معاملات قدماء الأتراك مع من جاورهم من أقوام الصين والفرس والروم أيضًا نادرًا وقسم معاملات الأتراك الذين كانوا مقيمين في القطعة التي تسمى الآن بالروسية الجنوبية أعني ما بين البحر الأسود إلى مملكة بلغار قران بل إلى ما وراءها من جهة الشمال وتسمى أيضًا بأوروبا الشرقية.

القسم الأول

معاملات قدماء الأتراك

مع أهل الصين والفرس والروم نادرًا ولنبين كل واحدة منها على هذا الترتيب

اعلم أن الأتراك لما تكثروا وتشعبوا شعوبًا وقبائل وإن اتفق لهم اجتماع على ملك واحد وتحت راية واحدة في بعض الأحيان إلا أنهم ابتلوا في أكثر الأوقات ببلية النفاق والشقاق وداء التفرقة وفقدان الإنفاق وانفصلت كل قبيلة وقبائل متعددة عن الأخرى وتبعت ملكًا على حدة وادعت كل واحدة منها الاستقلال وحاربت الأخرى وبذلت غاية جهدها في محو الأخرى واستيصالها شأن سائر الأقوام سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولو أنهم كانوا على الاتفاق دائمًا واجتمعت كلماتهم لم تكن شبهة في غلبتهم وانتصارهم على سائر الأقوام المجاورين إياهم وإجرائهم الأحكام على كافة المعمورة أو أكثرها بكمال السطوة وتمام الشوكة كما يعلم ذلك يقينًا من بعض معاملاتهم الآتية البيان كيف تكون فيه شبهة وقد ذكر بعض قدماء المؤرخين من الأجانب الذين كتبوا ما كتبوه في تواريخهم لمجرد بيان ما هو الواقع كما هو من غير مراعاة جانب أحد انهزام الروم القدماء واختفائهم حين محاربتهم الفرس لاستيلاء الخوف والرعب من صولة عساكر الأتراك الذين كانوا في صف الفرس مع عدم مبالاتهم بالفرس وعدم خطور أدنى خوف في خواطرهم من جهتهم مع أنهم يحاربون للمدافعة عن أنفسهم وعيالهم وأموالهم وأوطانهم بكمال التفاني وتمام الاستماتة والأتراك إنما يحاربون في صفهم في مقابلة أجرة يسيرة كانوا يأخذونها عنهم وما ذلك إلا لشدة بأسهم وعدم رجوعهم خوفًا من عدوهم غلبوا أو غلبوا.

وكذلك حكى أحد مؤرخي العصر الخامس الميلادي منهم أن فيروز شاه الفارسي لما عزم على سفر تركستان لغزو الهياطلة من الأتراك شرع عساكر الفرس في التظلم

منه وقالوا إن الملك أراد أن يجردنا من ألبسة الحياة ولعل كلنا محكومون بالإعدام وإعدامنا هنا كلنا أوفق وأصلح من إتلافنا بالإرسال هناك وإيراث العار الأبدي للفرس بذلك وكان الأمر كما قالوا ولم ينج واحد من العسكر المذكور حتى قتل فيروزشاه نفسه أيضًا على ما سيحيى بيانه عن قريب إن شاء الله تعالى.

ومع عدم الاتفاق بين الأتراك وابتلائهم بداء التفرقة والشقاق وفقدان الوفاق أجبروا جيرانهم دولتي الصين والفرس على بناء السد بين مملكتيهما ومملكة الأتراك لصد هجماتهم ومنع غاراتهم المتوالية.

أما الفارس فقد بنوا سدين أحدهما غير مشهور وهو في جهة الشمال الشرقي من بلادهم بين بلخ وسمرقند يقال إنه واقع على الطريق الذاهب من سمرقند إلى بلخ في^(١) جبال بدخشان بقرب شهر سبز وثانيهما واقع في كافكازيا مشهور بالباب وباب الأبواب والباب الحديد وسد ذي القرنين عند العامة وتيمرقبو.

[معاملاتهم مع الصينيين]

وأما الصين فقد بنوا السد المشهور أيضًا عند العوام بسد ذي القرنين وسور الصين الواقع في الشمال الشرقي أيضًا من بلادهم الآخذ من منتهى خليج البحر الأصفر الشهير بخليج پچيلي الممتد إلى جهة الشمال الغربي والغرب المنتهى إلى ولاية خان چو من ممالك الصين قيل إن طوله ألفان وستمائة كيلومتر وارتفاعه ثلاثة عشر مترًا في أكثر مواضعه وفي بعض مواضعه أكثر من ذلك وعرضه سبعة أمتار وفي بعض مواضعه تسعة أمتار حيث يمشي عليه عشرة أنفار رجالاً وستة أشخاص ركبانًا حال كون بعضهم جنب بعض وهو وإن كان أكثر مواضعه خرابًا لطول المدة إلا أن خرابته لا تزال تورث الحيرة والتعجب والاندھاش للسواحين إلى الآن وبناء هذا السد وإن كان ينسب في المشهور إلى چين شهواتغتي الذي هو مؤسس السلالة الرابعة لملوك الصين التي كان مبدأ ظهورها قبل الهجرة سنة ٨٣٦ إلا أن ابتداء بنائه كان قبل ذلك من طرف حاكم ولاية يانغ في شمال ولاية پچيلي ومن طرف حاكم ولاية شينسي في شمال الولاية المذكورة لحماية مملكتيهما من هجمات تبار الشرق

(١) قال عاصم نجيب أفندي في موضع من تاريخ أنه واقع على مسافة تسعين كيلومترًا من جنوب بلدة كش وعرضه من ١٢ إلى ٢٠ مترًا وطوله ثلاثة كيلومترات ويقال له أيضًا تيمر فبو يعني الباب الحديد وكش هو شهر سبز. منه عفي عنه.

وغاراتهم ثم بنى چين شهبوانغتي المذكور مقدارًا من السد في شمال مملكته لحمايتها من هجمات التتار والمغول والمنجوحين كان حاكمًا بولاية شينسي ثم لما استولى على كافة ممالك الصين وأدخلها في حوزة تصرفه بالتمام أوصل بعض تلك الأسدة ببعض حتى جعلها على الحالة الموصوفة.

يروى أن الملك المذكور شرع في بناء السد المزبور قبل الهجرة سنة ٨٣٦ واستخدم فيه قريبًا من مليون عملة على الدوام من غير مبالغة وأتمها في مدة ١٠ سنة وحيث إنه لم يعتن بشأن العملة المذكورين في أمر تعيشهم تلف منهم نفوس كثيرة.

وقيل استخدم فيه أربعة ملايين من العملة وهلك منهم أثناء الاشتغال أربعمائة ألف نسمة يعني عشر المجموع وأقيم في الحدود نصف مليون من العساكر لصد هجمات الترك والتتار وقت البناء وبنى جدران بعض مواضعه حسب الاقتضاء والإيجاب طبقتين وبنى في مواضعه المناسبة ونقاطه المهمة قلاع وأبراج وأبواب للمرور وبعد تمام بنائه وضع في تلك القلاع والأبراج والأبواب مقدار كاف من العساكر المستحفظين.

قيل كانت تلك العساكر بموجب لا يقطع الفولاذ إلا بالفولاذ من الترك والتتار يقال لبقاياهم الآن أونغوت أو أونكوت^(١).

نقل عن بعض السواحين أنه قال إن أبراج الترصد التي ترى في كل خطوة وخرابة الاستحكامات التي كان يقيم بها الحراس تخطرنا وتذكرنا أذوار شجاعة الصين وأزمنة مدافعتهم الأقسام الشمالية.

قلت نعم كانوا فبانوا فلا يرى في تلك الأصقاع والمعارك والميادين الآن سوى قطعان الثعالب وجموع الأرانب مصداق قول القائل، شعر:

وإذا أناخ الليث في عريسهَا غن البعوض وزمر الذبان

سنة الله في جميع الأقسام ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَبِهِ يَكُونُ الْبَدَلُ﴾ [الروم: الآية ٤].

وعلى كل حال لم تجن الصين جنا هذه المتاعب والمصاريف والتلفات ولم تنل منها فائدة مطلوبة قط فإنما لما خلت الحدود من العساكر المستحفظين المذكورين

(١) انظر تاريخ أبي الغازي خان المسمى بشجرة الترك ص ٤٧ من طبع بطربورغ. منه عفي عنه.

بعلة وقوع الاختلال في داخل الصين ب وفاة عين شهوانغتي المذكور بعد ثلاثين أو أربعين سنة من تمام السد اغتتمت الترك هذه الفرصة وداروا من وراء النهر الأصفر^(١) المشهور عند المغول ب صارى موران وشرعوا في الهجوم على ممالك الصين مجدداً.

وحيث إنه ليس بيدنا تاريخ مبين لمعاملة الأتراك مع الصينيين ومحارباتهم إياهم وسائر مناسباتهم بهم لا يمكننا أن نعين هنا مبدأ تلك المعاملات إلا أنه يرى في بعض التواريخ تخمين ظهور أوغوزخان الآتي ذكره الذي هو أقدم مشاهير الخارجين من آسيا تترى وأشهرهم وأعظمهم والمستولي على الصين وعلى أزيد من نصف آسيا وسائر القطعات الأرضية على ما للتواريخ الإسلامية قبل الهجرة ٣٤٠٠ سنة.

وكذلك يرى في بعض التواريخ ظهور القبائل الهونية من الترك وتأسيسهم الحكومة في الجهة الشمالية من بلاد الصين وهجومهم على بلاد الصين دائماً قبل الهجرة بثمانية عشر أو عشرين قرناً حين كانت ملوك بلاد الصين من سلالة چه أو وقالوا إن هذه الحكومة أعني الحكومة الهونية امتدت إلى ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرناً مع كونها معروضة على تقلبات شتى يعني إلى انقراض الدولة الهونية في أوروبا ب وفاة آتيلاخان الهوني الآتي ذكره في القسم الثاني من هذه المقدمة.

يُرَوَى أن الصينيين كانوا يسمون الأتراك في ذلك الوقت باسم هيان يون وهو أول اسم سَمَوْهم به ثم سَمَوْهم بعد زمان باسم چينك هان وفي أعصر سلالة خان من ملوك الصين سَمَوْهم هيونغ نو قيل إنه بمعنى الأسارى العصاة فإن صح يمكن أن يكون البواقي أيضاً ألفاظ الذم يقال إنهم يسمون الآن قبيلة تنكوت باسم (سي فان) يعني الوحوش الغربي ويسمون الأوروبيين (فان قوئي) يعني الوحوش الحمر وتسمية ملوك الصين خواقين الترك بملوك السباع مسطورة في مروج الذهب.

ثم سَمَوْهم قبل الهجرة بسبعة قرون باسم كيان نو وفي الغالب باسم توكيو وهذا اللفظ يحتمل أن يكون محرّفاً من لفظ الترك أو توركيو لعدم تكلمهم بالراء على ما قيل وهو الظاهر.

وفي رواية أن تسمية الصينيين الأتراك باسم هيونغ نو وقعت في زمان لا يضبطه التاريخ ولا يُعَيَّنُه لقدمه جداً وكان ملكهم يُعَنُونون أولاً بعنوان (چنغ لي قوتو) ثم صار

(١) ولعله نهر ليا وهو منه عني عنه.

يُعْتَوْنُونَ بعنوان (شن يو) أو (چن يو) أو (تانزو) بل صوابه وصحيحه (جاك جوك)^(١) بالكاف الفارسية وهذه الكلمة تفسر تارة بتكرى قوتي يعني مبارك الله وعبد العزير وتارة بابن السماء وجليل الشأن قيل فسر السائح الشهير مرقبول الجنوبيزي بالقوة السماوية وذكر قبول منكوبا آن وقبلاي قآن من أحفاد چنكرخان عنوان تكرى قوتي^(٢) لأنفسهما وهو أدري به لأنه كان في خدمة الكتابة عندهما مدة ٢٥ سنة وعلى كل حال يدل اللفظ المذكور على العلوية والقدسية ولا شبهة في كون تكرى قوتي لفظًا تركيًا ولا خفاء في معناه الذي ذكرناه.

وقيل إن زوجة الملك المذكور كان يطلق عليها أيضًا لقب (ين شي) ويذكر ولي عهده بعنوان (هيان وانغ) وكان هؤلاء الملوك ينتخبون من التتار الشرقيين الذين كان اشتهاهم عند الصينيين ببيان بي لأصالتهم ورجحانهم على سائر قبائل الترك وكانت سلسلة مراتب الأمراء وأركان الدولة وسائر القواد والضباط وكافة الأفراد العسكرية مرتبة ومضبوطة بغاية الحكمة والإتقان وجارية على كمال الانتظام وكان مقر حكومة الملك المذكور في جبل أينشان الذي هو شعبة من شعاب آلتاي^(٣) (الأطاغ) وممتدة إلى منابع نهر أيرتش ومعينة لحدود مملكة الهون من جهتهم الغربية وكانت هؤلاء الملوك يعاملون ملوك الصين معاملة الأقران وكانوا يكتبون لهم في مكاتيبهم على هذا الوجه (يرجو جاك جوك ملك الهون الأعظم الذي أجلس على تخت الحكومة من طرف السماء والشمس والقمر من خاقان الصين بكمال الاحترام كذا وكذا) وهذه الحكومة أعني حكومة هيونغ نو حاربوا الصين مدة مديدة واضطروهم إلى المعاهدات الصلحية مرارًا عديدة وكذلك ألجأوهم إلى تأكيد تلك المعاهدات وتقويتها بالمناسبات الصهرية بتزويج بناتهم من جاك جوك وسائر الأمراء الهونية وتعيين مبدأ هذه المناسبة بين هاتيك الدولتين متعذر.

وقد سبق ذكر تاريخ ظهور أوغوزخان تخمينًا فيما مر قريبًا. وانهزام عسكر الصين الذين أرسلوا إلى حرب الهون في عهد سلطنة سلالة شانغ التي هي السلالة

(١) وهذا العنوان باق إلى الآن في ولاية الصين. منه عفي عنه.

(٢) والظاهر أن قبولهما إياه لما سيجيء في بيان نسب چنكرخان فتذكر. منه عفي عنه.

(٣) هكذا هو عند الإفرنج والمفرنجين وإلا فاسمه الأصلي الصحيح الصواب آطاغ يعني الجبل الأبلق لدوام الثلج في بعض مواضعه صيفًا وشتاء وللإفرنج وذويهم في تعيين اشتقاقه ومعناه خبطات وخرافات كثيرة وهم يسمونها برهانًا ويقولون إن فلانًا المحقق برهن له بكذا وليس هو شيء غير الخرافات والأوهام الباطلة وهكذا ديدنهم في كل شيء. منه عفي عنه.

الثالثة من ملوك الصين قبل الهجرة سنة ١٨٨٨ مسطور في التواريخ . وكذلك إطاعة الهون لحكومة الصين في عصر سلطنة ووانق الذي هو مؤسس سلالة چه أو وكذلك هجومهم على بلاد الصين وعلى ولاية شانسي منها خصوصًا بالشدة في عصر سلطنة يو وانق من السلالة المذكورة أيضًا المذكوران في التواريخ وقد تمادى هجومهم وغاراتهم على بلاد الصين قبل الهجرة سنة ١٥٣٢ ودخلوا ولاية خاچه التي كانت تحكم بخت إمارة چي من الصينيين بعد التاريخ المذكور سنة ٢١٣ وأغاروا أيضًا على ولاية پچيلي بعد التاريخ المذكور سنة ٣٥ وهذه المهاجمات والغارات التي صدرت من الأتراك على بلاد الصين بعضها وراء بعض بلا فاصلة لما أعجزت الصينيين وأعوزت حيلتهم أنشئ السد الصيني الذي مر ذكره لمنع مهاجماتهم وإغاراتهم .

وأسامي الأشخاص الذين جلسوا على كرسي السلطنة في أثناء المهاجمات المذكورة في تلك المدة وأوصافهم وأحوالهم غير معلومة .

ولكن الذين بقيت أساميهم منهم محفوظة ومسطورة في التواريخ إلى يومنا هذا خمسة (تومن خان) وخلفه (موتا) أو (بوتا خان) و (بومين خاقان) وأخوه (دوبوخان) وملك تبار جوجان (طولون خان) .

[تومن خان]

أما تومن خان أو جاك جوك وبعبارة أصح خاقان هيونغ نو والأترك الأعظم فقد اختلف في تاريخ ظهوره اختلافًا فاحشًا .

قال عاصم نجيب أفندي في موضح من تاريخه إن ظهوره كان قبل الهجرة بتسعة قرون وإنه كان خاقان هيونغ نو حين هجموا على بلاد الصين من وراء النهر الأصفر بعد وفاة چين شهبانغتي قبل الهجرة سنة ٨٠٠ على ما مر ذكره حتى قال إنه أول خواقين الأتراك الذين بقيت أساميهم محفوظة في التواريخ إلى يومنا هذا على الإطلاق في نفس الأمر بل أول الخواقين الذين بقيت أساميهم مضبوطة ومحفوظة في تواريخ الصين فلا ينافي ما مر من أن أول خواقين الترك وأعظمهم وأشهرهم على الإطلاق هو أوغوزخان ويجوز أن يجلس على مسند الحكومة بعده كثير من الخواقين ذوي الشأن ولا يذكر أساميهم في التواريخ .

قال محمد عاطف أفندي في تاريخ كاشغر أن الأتراك الذين كانوا في حوالي كاشغر كانوا يهاجمون على دواخل بلاد الصين مدة سنة ٧٠ يعني قبل الهجرة بسنة

٧٠ إلى تاريخ الهجرة ويغيرون عليها في تلك المدة دائماً وقد أغار عليها في تلك المدة تومنه خان الذي هو رئيس قبيلة الهون القاطنين بجبال آلتاي (آلا طاغ) عدة مرات واستولى على مواضع كثيرة من كشغر وضبطها.

قال عاصم نجيب أفندي في موضع آخر من تاريخه في ص ٣٢ وص ١١٦ و١١٧ منه أثناء بيان حوادث سنة ٥٤٥ ميلادية يعني حوادث ظهرت قبل الهجرة ٧٠ سنة أن الخاقان الذي استولى على ممالك ما وراء النهر التي كانت موقع جدال بين إيران وتوران يعني الفرس والترك ينبغي أن يكون الشخص الذي كان الصينيون يسمونه (طومن) ويذكر في صحائف (بتومنه) ويعنون عند المغل بعنوان (دوتومن) فقد خالف بذلك قوله السابق ووافق قول محمد عاطف أفندي وأيد هذا بقوله عقبيه إن الخلف الثاني لتومن وسع فتوحاته وشهرة هذا الخان موقان خان^(١) فإن موقان خان إنما كان بعد التاريخ المذكور آنفاً والظاهر أن الصحيح هو هذا ومع ذلك نحن ننقل قول عاصم نجيب أفندي.

قال إن الهون الذين كانوا تحت قيادة تومن خان لما جاوزوا السد استولوا على الولايات التي كانت قبل ذلك تحت تصرفهم مع ولاية أوردو وأجروا سطواتهم إلى بحر الخزر وتوفي تومن خان قبل الميلاد سنة ٢٠٦ وقبل الهجرة سنة ٨٢٨.

[موتاخان]

قال إن موتا أو ماتا خان^(٢) فتح الفتوحات العظيمة مدة ٣٢ سنة يعني من ٢٠٦ إلى ١٧٣ سنة قبل الميلاد ولما جلس (قاوهو أنغ تي) الذي هو مؤسس سلالة خان في مسند الحكومة سار نحو موتاخان مع ثلاثمائة ألف من عسكر هون ودخل ولاية (شينسي) من بلاد الصين وتقدم حتى صار قريباً من بلد (سينغافو) فلم يتجاسر خاقان الصين (قاوتي) على المقابلة بل طلب المصالحة على أن يزوجه إحدى بناته فجرى بعد ذلك بين الترك والصين مراسم الازدواج وحصلت بين هاتين الملتين قرابة

(١) وقد ذكر عاصم أفندي في تاريخه وقائعه مع الصينيين وكتابة حفيده بعض أحواله في حجر وأنا تركت نقله هنا لقصور إفادته ومن أراد الاطلاع عليه فليراجع هناك ولا يساعد التاريخان كون تومنه خان هنا جد چنكزخان الرابع على ما سيجيء فالظاهر أن الخوانين المسمى بهذا الاسم كانوا متعددين أو وقع الخلط والخطب والإسقاط في التاريخ أو بيان نسب چنكزخان والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) قلت الأقرب كونه بوتاخان. منه عفي عنه.

المصاهرة ولكن الصينيين يدعون من كمال كبرهم وتعظيمهم أن هؤلاء البنات لسن بنات الملوك بل كن جواري^(١).

وطرد هيونغ نو قومًا كانوا يسمون (يوشي) من ولايتي خان چه أو وشينسي اللتين كانوا يسكنون بهما من مدة مديدة إلى جهة الغرب منهما وكان ذلك قبل الميلاد بسنة ١٧٥ فاستوطن القوم المذكور بعد ذلك في مملكتي ما وراء النهر وبلخ وفرق هيونغ نو في عين الزمان المذكور شمل تثار الشرق أيضًا فاستوطن قسم منهم بجبال (ووهوآن) الكائن بشمال بكين وسموا باسم الجبال المذكورة وسكن قسم منهم بجبال (سيان بي) فتسموا بالاسم^(٢) المذكور. وفي عين الوقت المذكور كان قوم (ووسون) أو (ووسيون) الذين كانوا خلفاء الهون ومتفقههم يسكنون في الشمال الغربي من مملكة هون بيرية وسهول تسمى بصحراء ففجق وسهول قرغز وقذاق ما بين نهري ايرتس وأورال (جايق) وكان رئيسهم يعنون بعنوان (قون مي)^(٣) وكان يقيم بساحل نهر ايلي وكان الصينيون يسمون إقليم قوم (ووسون) باسم (قون مي قوته) يعني حكومته وإقليمه وكان بين الصين والأقوام الذين يسكنون بما وراء النهر والتتارستان الغربية في الوقت المذكور مناسبة تجارية وسياسية وكانت الهون الذين كانوا بين هاتين الملتين يمانعونهم في المناسبة المذكورة وكانوا يجتهدون في رفعها وإزالتها فأرادت الصين أن يفرقوا قوم (ووسون) من الهون وصاروا يلتمسون لذلك سببًا وحيلة فظفروا بها آخر الأمر وذلك أنهم أرسلوا لتحصيل الغرض المذكور السياح الشهير (چان كيان) الذي هو أول من ساح في الممالك الغربية إلى قوم (يوشي) و (ووسون) فلما اطلع الهون على هذا التدبير من الصين حسبوا السائح المذكور قبل إيفاء وظيفته فبقي في حبسهم عشر سنين يعني بين سنة ١٣٩ و سنة ١٢٩ قبل الميلاد.

وفي مدة ٧٠ سنة قبل الميلاد قام قوم (ووهوآن) على هيونغ نو وخرّبوا قبور كافة ملوكهم الملقبين بجاك جوك ولا سيما قبر موتاخان وطردهم إلى مسافة أزيد من

(١) أظن أن ليس في العالم من يزعم لحوق النقص للبروث الأتراك الذين أعلنوا للعالم أجمع أنهم أسود ضواري حيث اضطروا الصين إلى ارتكاب هذا الكذب والدناءة بسبب عدم نيكهم بنات ملوك الصين وعروض الشرف لهم بسبب نيكهم. منه عفي عنه.

(٢) هؤلاء الذين مر ذكرهم بأن جاك جوك ملك الهون كان ينتخب منهم فيخطر في البال أن هؤلاء الملوك لو كانوا منهم كيف حاربوهم ويدفع بعدم القرابة بين الملوك وأنهم تابعون للملة وحكم الوطن كما هو مشهود الآن. منه عفي عنه.

(٣) يفهم ويستنبط من هنا أصل قومان وأنهم ليسوا قومًا غير الففجق وأنهم كانوا يعرفون عند أهل الصين باسم ووسون ووسيون ولا يبعد كون قونت وقوماندار مأخوذ من منه. منه عفي عنه.

مائة فرسخ من الجهة الغربية من ممالكهم واستولوا على أراضيهم. وقبل الميلاد سنة ٥٤ وإن غلب الصينيون على قوم (ووهوآن) المذكورين بسبب معاونة سيان پي إياهم ولكنهم يعني ووهوآن تداركوا الأمر سريعًا وجمعوا قوة زائدة على الأولى وبقيت حكومتهم إلى سنة ٢٠٧ بعد الميلاد ثم لما صارت الهون الشمالية والجنوبية لدولة الصين على ما سيجيء بيانه صارت قبيلة ووهوآن أيضًا تابعة لدولة الصين وانقرضت حكومتهم.

الهون الشمالية والهون الغربية

انقسمت حكومة هون في حدود سنة ٤٣ ميلادية إلى قسمين شمالية وجنوبية ثم إن الهون الشمالية وإن هجمت على ولايتي شينسي وهامي من ممالك الصين باتفاق من الهونية الجنوبية في سنة ٢٥ إلا أنهم اضطروا إلى التقهقر والرجوع إلى مملكتهم بسبب انهزامهم من الصينيين ولم يبق الأمر بهذا التقهقر فقط بل تعقبهم القائد الصيني المعروف (بجوهيان) وخرب بلادهم ثم انكسروا^(١) ثانيًا في جبل (كيلوشان) وانهزموا هزيمة عظيمة فهرب ملكهم بمن بقي معه إلى جهة الغرب فانقرضت بذلك حكومة هون الشمالية في سنة ٩٣ ميلادية وأطاعت مقدار مائتي ألف نسمة منهم للصين والذين أبوا عن الطاعة جاوزوا جبال آلتاي (الآطاغ) ولحقوا بملكهم وقطعوا مسافة خمسمائة فرسخ^(٢) يعني برية قفجق وصحراء قراق المسماة بوزقير يعني البرية البيضاء وسكنوا في بوزقير أورال يعني أراضي باشقر وأسسوا هناك في غربي آسيا وشرقي أوروبا حكومة جديدة مستقلة مسماة بحكومة الهون الغربية والهونية الكبرى تحت إدارة ملوكهم الملقب بجاك جوك وامتدت حكومتهم إلى مدة مديدة.

قيل إن مؤرخي الصين لا يقدرّون على بيان تفاصيل أحوال هذه الحكومة الجديدة لانقطاع المخالطة والمعاملة بينهم وبينها بسبب بعد المسافة وإنما يذكرونها أثناء بحثهم عنها بمجرد حكومة جاك جوك ويخبرون بكون محل إقامة حاكمها المطلق موضعا بقرب نهر جايق وجبال أورال يسمى يوپان.

(١) ولم يكن الصين وحدها في أحراز هذه الغلبة بل أحرزها بإمداد سائر الأقوام التركية مثل تنكوت وغيرهم حسب قول القائل. ولكل شيء آفة من جنسه. منه عفي عنه.

(٢) هكذا في الأصل المنقول عنه تاريخ عاصم أفندي ولا يخفى ما فيه من المبالغة إلا أن نعتبر الطرفين الأبعدين من الوطنين المهاجر منه والمهاجر إليه. منه عفي عنه.

وهذه الحكومة الجديدة هي التي استولت على أزيد من نصف أوروبا وقلبتها ظهر البطن وأورثت الرعب الشديد الذي لا يمكن وصفه في قلوب أهلها كافة وزلزلوهم زلزلاً شديداً بعد أن أدخلت أكثر قبائل الترك كاللان والايغور وأونوغر وواوغرة وقفجق وسيان بي وسائر الأقوام التركية الذين كانوا يسكنون في تلك الأصقاع وشكلت دولة متحدة قوية الشكيمة وذات الشوكة الزائدة كما سيجيء بيان ذلك كله في القسم الثاني من هذه المقدمة.

وكان أول وظائف هذه الطائفة الهونية بعد وصولهم إلى سواحل نهر وولغا واستقرارهم في أراضي باشقرد التي سميت بالهنغرية الكبرى بهم إدخال الأقوام الذين كانوا يسكنون فيها من مدة مديدة تحت طاعتهم وطردهم من امتنع عن ذلك إلى الجنوب والغرب ومن جملةهم اللان الذين كانت الصين يسمونهم (الاني) وقد ذكرت في المؤلفات اللاتينية محاربتهم الفرس ودخولهم قطعة مديا (آذربيجان) بعد أن جازوا جبال كافكازيا في سنة ٧٨ ميلادية ومحاربتهم الروم أيضاً في عهد سلطنة (مارق أورمل) سنة ١٦٧ وبعد ١٠٠ سنة من التاريخ المذكور يعني في أيام حكومة غوردان الثالث دخلوا الماكدونيا وإلى سائر مقاطعات أوروبا بالتدريج.

الهون الجنوبية

وفي عين الوقت الذي تشكلت حكومة الهون الغربية من أنقاض الهون الشمالية كانت الهون الجنوبية مستولية على ولاية شينسي وقد انقاد لملكهم المسمى (هيولان شي) (٣٤٠٠٠) عائلة من الهون الشمالية ولكن لما طرأ الضعف لتلك الحكومة أيضاً بتقلبات الدهر ومرور الزمان سار إليهم رئيس حكومة واي الصينية التي أدخلت (ووهوآن) تحت طاعتها فاضطر آخر ملوكهم (ووجوسيان) إلى الانقياد إليها بالأخرى بعد مقاومتها مدة مديدة فانقرضت حكومة الهون الجنوبية أيضاً بهذه الكيفية سنة ٢٢١ م واختلط قسم من أهلها بأهالي (خان چه او) و (شينسي) والتجأ قسم منهم بجبال الإطاع والغياض وبطون الأودية. والتحق قسم منهم بالهون الغربية التي مر ذكرها آنفاً.

سيان بي

وفي سنة ٢٢٥ م نزلت سيان بي الذين هم قسم من تثار الشرق إلى آسيا المركزية واستولوا على الإقليم المنسوب إلى هيونغ نو وأسسوا هناك حكومة واسعة تسمى (توبا) و (سوتيو) وامتدت هذه الحكومة بعد قرن يعني في حدود سنة ٣٢٠ من

نهر ايلي إلى نهر أمور ولكن طراً عليها الضعف بعد ذلك وطرردوا من مساكنهم فانمحت حكومتهم واندرست وذلك في حدود سنة ٣٩٠ وبقي^(١) اسم سيان بي إلى عصرنا هذا على صورة سيبر وسيبيريا^(٢) كذا قيل.

تتار جوجان وطولون خان

وفي حدود سنة ٣١٠ م ظهر قوم من الأتراك منسوب إلى سيان بي يذكر في التواريخ باسم (جؤن جؤن) أو (جو جو)^(٣) أو (جواؤجن) أو (جوجاؤون) وبالاختصار تتار جوجان وهاجموا إلى الجهة الغربية بالشدة واستولوا على كافة التتارستان بالتدرج وكان مقر حكومتهم في الشمال الشرقي من بلدة قراقورم وكان يطلق على ملكهم أيضاً لقب جاك جوك فبدل واحد من ملوكهم يسمى طولون هذا العنوان في حدود سنة ٣٠٢ بعنوان (خاقان)^(٤) وكان أصله بلغة الصين (خوحيان) واشتقاق هذه الكلمة وإن لم يكن معلوماً كما ينبغي إلا أنها صارت عنواناً فيما بعد لملوك التتار ثم لملوك كافة الأتراك بالتدرج.

(١) فيكون بقاؤها على الكيفية المذكورة ١٦٥ سنة منه عفي عنه.

(٢) ولم أدر وجه أخذ سيبرا وسيبيريا من سيان بي أوسوتيو وكثير من الناس يزعمون أن سيبير وسيبيريا محرف من سويريا الروسي بمعنى البلاد والجهات الشمالية وهذا الزعم باطل فإن سيبير واير موجودان في تاريخي العمري النويري وليس للروس اسم وذكر في عصرهما واير يطلق على بلاد غرجستان هكذا رأيت في جغرافيا رفاة بك قال ثم إن اسم سيبير لا علاقة بينه وبين كلمة سويريا التي معناها باللسان المسقوبي بلاد الشمال وإن كانا متقاربين في اللفظ جداً. منه عفي عنه.

(٣) ذهب بعض الفضلاء إلى ظن كون ياجوج ومأجوج مأخوذ من هذه الألفاظ والحاصل في الأقوام الشمالية والشرقية أسامي وألقاباً تشبه ياجوج ومأجوج غير تلك الألفاظ أيضاً مثل جاك جوك ومانجو وچين ماچين ولهذا عين العلماء مكانهما في تلك الجهة ولا مانع لهذا الظن شرعاً وعقلاً والأحاديث الواردة في أوصافها لم تبلغ درجة الحسن فضلاً عن الصحة ومع ذلك هي أخبار آحاد وخبر الواحد الصحيح لا يفيد غير الظن فكيف بغير الصحيح والظاهر أنها من وضع بعض الملاحدة للتفسير عن الشريعة بالإدخال فيها ما هو بعيد عن العقل والحس انظر كتاب صفوة الاعتبار للسيد بيرام أفندي وملاحظة ابتداء ظهور اسم الترك بعد انقراض حكومة تتارجوجان ووقت بناء أنوشروان السد المشهور تكاد تسوق الذهن إلى القول بصحة مأخذ قول من قال إن الترك من بقايا ياجوج ومأجوج وتعيين أصله وإن كان فيه خرافات زائدة وزعم بعضهم كون طائفة چچن الكائنين في حدود داغستان من بقايا تتار جوجان ولا بعد في ذلك ولا مانع منه والله سبحانه وتعالى أعلم منه عفي عنه.

(٤) والذي ثبت في المحكوكات القديمة قاغان بالقاف والغين في التواريخ الجنكزية قآن بالقاف والهمزة وخاقان معربهما كما أن خان معرب قان. منه عفي عنه.

وكان الخاقان طولون المذكور خاقاناً عظيم الشأن وصاحب قران وواضع القانون والنظام وكانت حكومة تثار جوجان في عهد سلطنته تمتد من شبه جزيرة قوره إلى حدود الآوروا الشرقية يعني إلى نهري أورال وولغا حتى كانت مملكة باشقرد المسماة ببوزقير الشهيرة بالهنغرية الكبرى التي صارت مسكناً للهون فيما بعد كما تقدم داخلية تحت سيطرتهم وحكومتهم في وقت من الأوقات ولم يكن استيلاء آتيلأ على ممالك آوروا في حدود سنة ٤٣١ على ما يأتي بيانه إلا بمعونة تثارجوجان وانضمامهم إلى الهون.

وأيضاً يصادف اضطراب الهياطلة أو افتاليت (إبدال) أو الهون الأبيض المقيمين بولاية صغد وما وراء النهر عصر هذا الخاقان. وقد ضبط مؤرخو الصين أسامي ملوك تثار جوجان وأحوالهم ووقائعهم من بداية تأسيس حكومتهم إلى زمن انقراضهم.

وكان سبب انقراض هذه الحكومة ظهور قوم آخر من الأتراك يسمون باسم توكيو الذي يظن كونه مأخذ اللفظ الترك أو توركيو يعني عند الإفرنج لعدم اشتهار الأقوام التركية بالتركي قبل ظهور هذا القوم بل بأسامي أخرى كما مر.

وذلك أن القوم المذكورين دخلوا ممالك جوجان تحت رئاسة قائديهم (أوناھوي آي) و(نغان لوچين)^(١) عقب ظهورهم واستولوا عليها وقتلوا أهلها من سنة ٥٥٢ إلى سنة ٥٥٤ قتلاً عامّاً وملكوا الجهة الشمالية من آسيا ومركز ولاية كاشغر ثم استولوا على ما وراء النهر بعد أن عبروا نهر سيحون (سيرديرا) واتفقوا مع كسرى أنوشروان ملك الفرس ومحوها منها حكومة افتاليت (الهياطلة) يعني الهون الأبيض وذلك في سنة ٥٥٧ م وهربت بقية الهياطلة منها مع خاقانهم المسمى (وار) و(خوني)^(٢) والقوم المشهور في التواريخ باسم (وارخوتي) أو (وارخونيت) من أتراك أويغور وسابير هم هؤلاء الهياطلة وافتاليت (إبدال) ولكنهم لما دخلوا آوروا تسموا باسم (آوار) وهذه النقطة من التاريخ وإن كانت مشكوكاً فيها ومظلمة إلا أن كون لفظ آوار اسماً لقوم خلدوا خاطرة حكومة مدهشة قوية في ممالك التثار من آسيا في وقت ما مما لا ينكر.

(١) يحتمل أن يبقى اسم نغاي من هذا. منه عفي عنه.

(٢) هكذا هنا بالنون وفيما سيأتي بالباء ويحتمل أن يبقى إطلاق آخون للعلماء الكبار والأعيان من هذا وربما يقال لهم الآن عند أهل كاشغر خون وتري في المقصد الثاني أثناء بيان المراسلة في ما بين ملوك سراي ومصر إطلاق خون لكبار النساء. منه عفي عنه.

وقد تم هنا بيان الماجريات والحوادث التي جرت بين قدماء الأتراك والصينيين نقلًا عن تاريخ عاصم نجيب أفندي على طريق التلخيص والتنقيح والتصحيح حسب الإمكان وقد أخذ المشار إليه تاريخه على أثر موسيو قاهث وغيره من أهل أوروبا أخذوها عن تواريخ الصين ولكن يلزم أن تتلقى كلها على سبيل الاحتياط وخصوصًا الفقرة الأخيرة منها أعني حوادث انقراض الهياطلة فإنها مشكوك فيها ومظلمة جدًا كما اعترف به نفسه.

أما أولاً فإن حكومة آوار الذين أدهشوا أوروبا لما لزم كونها حكومة مدهشة قوية بممالك التتار بأسيا في وقت ما لزم كون حكومة افتاليت الهياطلة التي هي هي على قوله متصفة بهذه الصفة مع أنه لم يذكر في واحد من التواريخ كونهم هكذا نعم ذكر فيها استيلاءهم على ممالك فارس وأخذهم الخراج منهم في بعض الأحيان كما سيذكر فيما بعد ولعل مراده هو هذا.

وأما ثانيًا فإن المشار إليه قد ذهب في مواضع كثيرة من تاريخه إلى كون قوم افتاليت عبارة عن تركمان ابدال وهو الاحتمال الأقرب نظرًا إلى مشابهة اللفظين وهم مغايرون للأوار يقينًا لأنهم مقيمون في أوطانهم السابقة ولم يدخلوا أوروبا إلا أن نقول إن الذين اشتهروا منهم باسم (آوار) هم الذين خرجوا من ديارهم مع خاقانهم المسمى (وار) ودخلوا أوروبا كما وقع به التصريح وأما الذين بقوا منهم في مملكتهم الأصلية فبقوا على اسمهم الأصلي وجعل (وارخوتي) أو (وارخونيت) عبارة عنهم يؤيد ذلك فإن أحد هذين اللفظين اسم مملكة قندهار^(١) التي في حوالها مساكن تركمان ابدال.

وأما ثالثًا ورابعًا فإن نسبة حكومة الهياطلة إلى قوم توكيو والقول بأنهم أعني الهياطلة هربوا إلى طرف أوروبا مخالف لما ذكره غيره فقد قال محمد عاطف أفندي في تاريخ كاشغر إن أنوشروان الذي خلص مملكة فارس من الاضمحلال اتفق مع تتار جوجان في سنة ٥٥١ يعني قبل الهجرة بسنة ٧١ وأغراهم على أترك الهياطلة (افتاليت) الذين كانوا يحكمون في ما وراء النهر مدة مديدة ويستوفون الخراج من الفرس فأبادوهم واضمحللت الحكومة المذكورة بذلك ولما أيقن ملكهم المسمى بفاغانيس^(٢) الذي كانوا نصبوه خائنًا لأنفسهم بعد قتل ملكهم السابق في

(١) ذكره في هامش تاريخ إسكندر. منه عفي عنه.

(٢) هكذا في الأصل المنقول عنه المطبوع بالآستانة بالفاء والظاهر بل الصواب أنه بالقاف وسينه ملحقة في آخره مثل سين بيطرس ونيقولاوس وصحيحه فاغان يعني خاقان فيكون عنوانًا ولقبًا لا =

ميدان القتال أنه لا قرار له في مملكته هرب إلى كاشغر وأسس هناك حكومة صغيرة اهـ.

فهنا وجه ثالث من المخالفة لما ذكره عاصم أفندي فإنه قال إن توكيو استولوا على مركز كاشغر قبل استيلائهم على ما وراء النهر فإنه لو كان الأمر كما يقول عاصم أفندي كيف يستولي المغلوب على ما في يد الغالب.

والحاصل أن القول بكون أصل آوار قوم هياطلة قول غريب جدًا فإنهم أعني آوار من بقايا الهون الغربية باتفاق جميع المؤرخين ولم يقع لهم ذكر في التواريخ إلا بعد انقراض دولة الهون الغربية كما سيجيء بيانهم في القسم الثاني من هذه المقدمة ويحتمل كونهم أولاً تحت طاعة حكومة تثار جوجان وبعد انقراض تلك الحكومة يدخلون تحت طاعة حكومة الهون الغربية وبعد انقراضها يحصل لهم الاستقلال والشوكة وبعد أن داموا على ذلك مدة مديدة يأوون إلى جبال كامكازيا ويحفظون إلى يومنا هذا عنصرهم الأصلي واسمهم الأوار كما أن تثار جوجان استوطنوا بين داغستان وحاجي طرخان وحفظوا اسمهم حتى إلى يومنا هذا على قول البعض.

وأما الذين أفنوا الهياطلة باتفاق من أنوشروان ملك الفرس هل هم تثار جوجان كما ذهب إليه صاحب تاريخ كاشغر أو هم توكيو كما ذهب إليه عاصم أفندي. الظاهر أنهم توكيو والخطأ في قول صاحب تاريخ كاشغر هذا على تقدير تسليم كون توكيو وتثار جوجان متغايرين كما ذهب إليه عاصم أفندي وأما إذا كانا اسمين لمسمى واحد فيكون الاختلاف بينهما كاختلاف أربعة أشخاص في عنب وانكور واوزم واستافيل ويكون الخطأ في قول عاصم أفندي بإفناء توكيو تثار جوجان والله سبحانه أعلم والذي استنسبنا إثباته هنا من الحوادث المتعلقة بقدماء الأتراك انتخاباً من التاريخ المذكور هو هذا القدر.

[بومين قاغان وخلفه]

وأما بومين قاغان وخلفه فسيذكر أحوالهما في آخر بيان معاملات الأتراك مع الفرس وسيذكر فيه بعض ما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة أيضًا فراجع هناك للاطلاع على بقية مباحثها إلا أن عاصم أفندي قال هناك عند بيان دخول الخاقان بومين ما وراء النهر بقصد بلاد الفرس إن ملك الهياطلة كان عاد من مصيفه إلى بخارى فالتقى

= علم شخص فيتفق بما ذكره عاصم أفندي من عنوان خاقان. منه عفي عنه.

الجيشان يعني جيش الخاقان والهياطلة بقرب نخشب (قرشي) فانهزمت الهياطلة وقتل ملكهم في المعركة اهـ وإثبات هذه الواقعة هناك سبق قلم بلا ريب وإنما محلها هنا يعني أن خاقان توكيو أو خاقان تثار جوجان لما حارب الهياطلة باتفاق من أنوشروان في سنة ٥٥٧ أو سنة ٥٥١ وقعت هذه الواقعة فهربت الهياطلة مع خاقانهم الجديد إما إلى أوروبا وإما إلى كاشغر على اختلاف القولين السابقين في المواضع الثلاث لا عند قصد خاقان بلاد الفرس فإن دولة الهياطلة كانت مضمحلة في الوقت المذكور وكانت قطعة ما وراء النهر بيد الخاقان على القولين.

قال المسعودي في مروج الذهب وفي سنة ٢٦٣ ظهر في مملكة الصين خارجي اسمه ياسر من غير بيت الملك واجتمع عنده كثير من أهل الدعارة وأرباب الفساد فقويت شوكته فشرع يفتح بلاد الصين واحدًا بعد واحد ويقتل ويسعى بأنواع الفساد حتى آل أمره إلى أن حاصر كرسي المملكة المسمى بحزران فتحصن ملك الصين بمن بقي معه من عسكره وهم مائتا ألف فلما عجز عن دفعه بعد مقاومة شديدة ولى الملك منهزمًا منه وانحاز إلى مدينة في أطراف مملكته المتاخمة لبلاد تبيت تسمى بمدينة آمد فاستولى الخارجي على دار الملك وعلى خزائن الملك الباقية من الملوك السالفة وما أعدوه للنواب وشن الغارات في سائر العمارات وافتتح المدن وأكثر الإفساد والتخريب وسفك الدماء إذ أيقن أنه لا قوام له بالملك لكونه من غير أهله فكتب الملك من المدينة التي انحاز إليها إلى ملك الترك ابن خاقان يستنجده ويعلمه ما نزل به ويعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجد إخوانها من الملوك وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته فأنجده ابن خاقان بولده بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل وقد استفحل أمر ياسر فالتقى الفريقان جميعًا فكانت الحرب بينهما سجالاً نحوًا من سنة وتفانى من الفريقين خلق كثير ففقد ياسر فليل إنه قتل وقيل إنه أحرق وأسر ولده والخواص من أصحابه وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه اهـ منتخبًا بمعناه.

ذكر بيان معاملات قدماء الترك ومناسباتهم مع قدماء الفرس

لا يخفى أن هذه الحوادث التي نذكرها الآن منقولة عن التواريخ الإسلامية التي أخذت عن تواريخ الفرس كما أسلفناه ولا يخفى على من له أدنى إلمام بفن التاريخ أن الخرافات التي في تواريخ الفرس لا يوجد مثل ربعها في تواريخ سائر الأمم.

وملوك الفرس منقسمة إلى أربع طبقات أولها طبقة پيشداديان ولا يوجد في التواريخ شيء من معاملات الأتراك مع الفرس في عصرهم. وثانيها طبقة كاويان ويقال لهم أيضًا كيانيان وأولهم الملك أفريدون. وقد ذهب بعض مؤرخي العجم إلى كونه ذا القرنين المذكور في القرآن وملاقاته إبراهيم عليه السلام في مكة المكرمة وذهب بعضهم إلى كونه نوحًا النبي عليه السلام.

قال ابن الأثير^(١) بعد نقله هذين القولين في تاريخه: وإني ذكرته في هذا الموضوع لأن قصته في أولاده الثلاثة شبيهة بقصة نوح على ما سيأتي ولحسن سيرته وهلاك ضحاك على يديه لأنه قيل إن هلاك ضحاك كان على يدي نوح عليه السلام.

والحاصل أن أفريدون على كلام الفرس كان له ثلاثة بنين (سلم) (وتورج) (وايرج)^(٢) فقسم الربع المسكون كله لكونه تحت ملكه على خرافات الفرس بينهم فأعطى الجهة الشمالية لتورج فسميت باسمه توران وتركستان وأهلها الترك نسبة إليه وهو القول الرابع في نسب الأتراك وأعطى ممالك الروم والإفرنج والجهة الغربية لسلم وأعطى أصل مملكة الفرس ودار ملكه وتاجه وتخته لولده الأصغر أيرج فسميت بالنسبة إليه إيران وآريا فلم يرض ابنا أفريدون الأكبران بهذه القسمة وقالوا إن هي إلا قسمة ضيزى^(٣) وإن أبانا لفي ضلال مبين فقاما من مملكتيهما بالاتفاق يقصدان أخاهما الأصغر أيرج وأبوهم حي إلا أنه كان تخلى عن الملك لولده أيرج وقتلا أيرج مع ولديه وحكما في بلاد الفرس مشتركين مدة ثلاثمائة سنة على بعض الأقوال وبعد مضي تلك المدة خرج الملك منوچهر الذي هو ابن أيرج المقتول من صلبه على قول المسعودي وميرآخوند وولد بنته على قول وحفيده بوسائط كثيرة على قول آخر وقصد تورج وسلما وغلبهما وقتلها وخلص تخت الفرس من أيديهما واستقل الملك فانفتح بعد ذلك بين إيران وتوران أعني الفرس والترك باب حرب لا يغلق.

وهذه أيضًا خرافة يسيرة من خرافات الفرس التي لا نهاية لها وقصدهم بذلك دفع عار المحكومية والمغلوبية للأجنبي خصوصًا الترك الذين كانوا يبغضونهم غاية

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/٦٠، ٦٤.

(٢) أصلهما تور واير فلما عزبا ألحق بآخرهما الجيم على ما هو العادة في التعريب كقولهم خيوق في خيوه فقيل تورج وايرج وربما يكتب طوج وهو من تحريف النساخ بلا شبهة. منه عفي عنه.

(٣) القسمة الضيزى: القسمة الجائرة. وضاز ضيزًا: أعوج، وضاز: جار.

البغض ويسمونهم كلابًا بدعوى أن أفراسياب التركي الذي غلب الفرس واستولى على كرسي سلطنتهم وسلب الملك عنهم على تخت إيران ١٢ سنة وكذلك خلفه أرجاسب التركي الذي غلبهم وأخذ عنهم الخراج من ذرية أفريدون الفارسي لا من الأجانب.

نعم إن الفرس لما كانوا مأسوري الغرض الفاسد المذكور ومغلوبيه ثبت لهم نوع عذر ولكن الأغرّب من الكل صنيع المؤرخ الشهير المسعودي فإنه قال حين بين قبائل الأتراك وخواقينهم في أوائل كتابه مروج الذهب إجمالاً ومن هؤلاء الخواقين أفراسياب التركي الغالب على بلاد الفرس ثم قال في أثناء بيانه ملوك الفرس بعد بيان نسب أفراسياب إلى أفريدون تبعاً لهم لعدم اطلاعه على هذه الدسيسة وذاهلاً عن قوله السابق وكان مولد أفراسياب ببلاد الترك ولذلك غلط من غلط من أصحاب الكتب والتصنيفات في التاريخ وغيره فزعم أنه تركي اه على أنه لا معنى لنفي كونه تركياً وتغليط من قال به على هذا القول أيضاً فإن صاحب هذا القول يقول إن الترك من ولد تورج بن أفريدون كما مر وبه أقر المسعودي نفسه حيث قال والترك عند طائفة من الناس من ولد لست بن ديب بن أطوج^(١) (صوابه تورج كما نبهنا) ابن أفرودين.

والحاصل أن الغلط بل التغليط في القول بكون أفراسياب التركي بن التركي أباً عن جد مذ عصر ترك بن يافث وتغليط من قال به بناء على الغرض الفاسد أو الغفلة عنه وصرّف الصواب ومحض الحقيقة بأنه تركي بن تركي بن تركي إلى ترك بن يافث.

وخلاصة القول إنه لا يقبل القول بكون أفراسياب بن تورج بن أفريدون الفارسي بناء على كونه قول المسعودي^(٢) أو العمري أو الغفاري إلا المقلد الصرف

(١) وعبرة ابن الأثير هكذا ثم إن أفراسياب بن فشنج بن رستم بن ترك الذي ينسب إليه الأتراك من ولد طوج (تورج) بن أفريدون اه. منه عفي عنه.

(٢) كيف والمسعودي ينقل تاريخه في هذا الباب ما يناقض بعضه بعضاً فإنه يذكر نسب أفراسياب هنا هكذا أفراسياب بن أطوج بن ياسر بن رامي بن آرسن بن بورك بن ماساسب بن زسست بن نوح بن دوم بن سرور بن أطوج بن أفريدون ثم يذكره بعد ذلك هكذا أفراسياب بن سيمك بن تبت بن ديشهر بن وترك ويقول إن وترك هذا هو جد سام ثم يقول إن وترك هو إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وكأنه نظرا إلى هذه الخلطيات قال بعض مؤرخي عصرنا في حق أفراسياب أنه موهوم ولكن لا يلزم من هذا كونه موهوماً بل هو ابن پشنك التركي بيقين وإن كان نسب ما فوق پشنك غير معلوم فإن عدم العلم لا يدل على عدم المعلوم ولا يستلزم موهوميته ولعله لهذا أيضاً قال رفاعة بك في جغرافياه وكلام بعض المؤلفين الذين لا يوثق بهم يظهر منه =

العاري عن التحقيق الذي لا حظ له من قاعدة انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال فإن كون أفراسياب تركيا بن تركي ليس بأدون في الثبوت والظهور والبداهة من ظهور كون قفا نبك^(١) لامرء القيس عند أربابه ماذا نصنع وما العلاج قد جر الأجانب كثيرا من مشاهير ملوك الأتراك إلى أنفسهم حيث أخذ الفرس الأفراسياب وادعى الحميريون كون خواقين تبيت منهم على ما ذكره المسعودي وغيره وذلك لإهمال الأتراك ضبط أحوال ملوكهم ومشاهير رجالهم في التواريخ ولكن لا بأس فيه فإنه لو لم يكن في هؤلاء الأتراك المحقرين والمذمومين عندهم مزايا ومناقب وكمالات وفضائل مقتضية المجر والنسبة إلى أنفسهم^(٢) لما جروهم ولما نسبوهم إلى أنفسهم وأما الأتراك فيكفيهم رجالهم الأبطال وملوكهم المشاهير الذين كثيرا ما ادهشوا العالم بسطوتهم وزلزلوا أقطار الأرض بشوكتهم في جميع الأحيان واضطروا أعداءهم إلى الاعتراف بذلك لا حاجة لهم إلى طموح أبصارهم ومد أيديهم إلى من سواهم.

ولنرجع الآن إلى ما نحن فيه. فنقول: قد تبين من البيان السابق أن ابتداء معاملة الأتراك مع الفرس ومحاربتهم إياهم إنما كان في عصر أفريدون وتور ولكنني اجعل المبدأ في هذا أحوال أفراسياب بن فشنج التركي ووقائعها وأبينها وأبين أحوال أخلافه واحداً بعد واحد حسب ما اطلعت عليه في التواريخ^(٣) المعتبرة على سبيل التنقيح والإيجاز والتصحيح فمن شاء فليجعلهم أتراكاً ومن شاء فليجعلهم فرساً.

= أن الأسقوتية كانت أسسوا في قديم الزمان المجهول دولة عظيمة ومملكة كبيرة محتوية على بلاد العجم وجميع بلاد آسيا الغربية ولكن إذا سلم أن هذه المملكة سبق لها وجود فإنه لم يبق منها أثر ولم يدل التاريخ إلا على غارة للأسقوتية حصلت قبل ميلاد عيسى عليه السلام سنة ٦٢٤ هـ ومراده بها إما تأسيس أفراسيات أو ما سيذكر في ترجمة أوغور خان في المقصد الثاني وقد قال فيما قبل في مدح اسقوتية أنهم أسسوا في بلاد الهند والعجم الحكومة مرات عديدة وتناقض الأكابر أقوالهم يوجب عدم الاعتماد عليها. منه عفي عنه.

(١) يشير إلى القصيدة التي مطلعها: [الطويل]

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ
بسقط اللوى بين الدخولِ فحوملٍ
والقصيدة في ديوان امرئ القيس ص ٨.

(٢) قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس سره في بعض تصانيفه ينبغي تعظيم المنتسبين إلى الصوفية ولو كذبا لمجتبهم إياهم فإنهم لو لم يجبوهم لما انتسبوا إليهم هـ. منه عفي عنه.

(٣) والتواريخ التي نقلت عنها هنا ثلاثة تاريخ ابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي وروض الصفا لمير آخوند والطبري مندرج في تاريخ ابن الأثير وربما استعنت بغيرها كالمعارف للدينوري وترجمة القاموس التركية. منه عفي عنه.

الوقعة الأولى بين الترك والفرس: قال ابن الأثير^(١) قال هشام بن الكلبي ملك طوج (تورج) وسلم الأرض بعد أخيهما أيرج ثلاثمائة سنة ٣٠٠ ثم ملك منوچهر مائة وعشرين سنة^(٢) ثم وثب به ابن لطوج (تورج) التركي يعني أفراسياب على رأس ثمانين سنة يعني من ابتداء ملكه فنفاه يعني نفى أفراسياب منوچهر عن بلاد العراق اثنتي عشرة سنة ثم أدبل منه منوچهر فنفاه عن بلاد الفرس وعاد إلى ملكه بعد ذلك ثمانيًا وعشرين سنة.

ولكن الأصح أن تملك أفراسياب مملكة الفرس إنما كان بعد موت منوچهر وأما في حياة منوچهر فقد صالحه بعد وقوع محاربة شديدة بينهما وعاد إلى تركستان.

وبيان ذلك أنه لما مضى من سلطنة منوچهر وقتل تورج سنة ٦٠ على رواية الطبري وابن الأثير وسنة ٥٠ على قول ميرآخوند قصد أفراسياب بن فشنج مملكة الفرس بعساكر كثيرة من الأتراك واستقبله منوچهر بمثلها من عساكر الفرس أو أزيد فلما التقى الجمعان وقع بينهما حرب صعب تصديق ما وقع فيه من الأحوال والأحوال موقوف على المعاينة لا غير فانهزمت الفرس واضطر منوچهر إلى التحصن بقلعة شهيرة بحصن طبرستان وآمل غير قابلة للتسخير بالنسبة إلى العصر المذكور فحاصرها أفراسياب مدة مديدة وبذل غاية جهده في فتحها فلم يتيسر حتى سئم عساكره من طول المكث فيه فاضطر إلى عقد المصالحة معه.

فاصطلحا على أن يكون حد ما بين مملكتيهما موقع سهم رجل شجاع شديد النزع من أصحاب منوچهر يسمى أيرش فرمی من ذروة جبل دماوند بطبرستان فوق سهمه بنهر بلخ يسمى جيحون (آمودريا) بعد أن قطع تلك المسافة من طلوع الشمس إلى وقت الزوال فصار النهر المذكور حد ما بين بلاد الترك ولد تورج ومملكة منوچهر ملك الفرس.

قال ابن الأثير^(٣) وهذا من أعجب ما يتداوله الفرس في أكاذيبهم أن رمية سهم تبلغ كله يعني كل هذا القدر من المسافة بعد حركته وطيرانه مدة نصف يوم في الهواء.

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ١/٦٤.

(٢) يعني مع اثنتي عشرة سنة التي حكم فيها أفراسياب كما ترى. منه عفي عنه.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١/١٢٧.

وقد ذكر في تواريخ الطبري وابن الأثير وميرآخوند إغارة الأتراك على أطراف بلاد فارس بعد هذه الواقعة أيضًا وخطبة منوچهر قومه خطبة بليغة يحرضهم فيها على القتال ودفع الأتراك من أطراف بلادهم.

الواقعة الثانية: لما مات منوچهر جلس مكانه ولده على قول ابن الأثير وأما على قول المسعودي^(١) ولد شخص آخر نوذر اغتتم فشنج والد آفراسياب الفرصة لرخاوته في أمر الملك فأرسل ولده آفراسياب إلى مملكة الفرس مع أربعمئة ألف عسكر رجالاً وفرساناً وقد مات في تلك الأثناء بطل إيران سام الذي هو جد رستم المشهور وكان اعتماد الفرس عليه ولما توجه آفراسياب إلى إيران من طريق مازندران استقبله نوذر ملك الفرس بعساكر إيران ومعه من شجعانهم المشاهير قباد وقارن ابنا كاوه^(٢) فلما تقابل الفريقان وقع بينهما حرب شديد وقتل من الطرفين نفوس كثيرة وقتل في أثناء المحاربة قباذيين كاوه على يدي بارمان بطل الترك فلما يئس نوذر من الغلبة وأيقن بالمغلوبة أرسل ولده طوس وكستهم والبطل قارن ليحملوا أهله وعياله إلى كوه البرز ويحرسوهم هناك فهجم آفراسياب على معسكر الفرس اغتنامًا لهذه الفرصة على قول الفرس فقتل منهم مقتلة عظيمة وغلبهم وأسر بقية السيوف منهم أجمعين وفيهم ملكهم نوذر فأراد آفراسياب قتل قواد الفرس وأمراءهم فشجع فيهم أخوه أغريث الذي كان الأتراك يدعون نبوته فأمره آفراسياب بحبسهم في صاري قلعة والقيام بأمر حراستهم وحفظهم ولكن لما قتل زال بن سالم والد رستم المشهور ومهراب الكابلي ثلاثين ألفًا من عساكر آفراسياب الذين كان أرسلهم إلى جهة سجستان مع اثنين من قواده وكان قتلهم بعد المصالحة غدراً وسمعه آفراسياب غضب غضبًا شديدًا وقتل الملك نوذر لأخذ ثأرهم وكانت مدة سلطنته على رواية ثلاث سنين وعلى رواية سبعا وهو المشهور عند الفرس بالملك العديم البخت ولما بقي تخت الفرس شاغراً وخاليًا عن الملك استولى عليه آفراسياب وحكم فيه اثنتي عشرة سنة.

الواقعة الثالثة: ولما مضت ١٢ سنة من استيلاء آفراسياب على ملك إيران سئمت الفرس من حكمه وانتبهت غيرتهم وتحركت حميتهم طفقوا يلتمسون لهم ملكًا من ذرية ملوكهم السابقة وكان منوچهر غضب على ولده طهماسب لأمر ما وطرده من

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢٦٦/١ (الفقرة ٥٤٠) (طبعة منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦ م).
 (٢) وهو مؤسس هذه الطبقة من ملوك الفرس بعد قتله ضحاکا الماري ولهذا قيل لهذه الطبقة كاويان نسبة إليه. منه عفي عنه.

عنده فسار المذكور إلى بلاد الترك والتجأ إلى ملك من ملوكهم يسمى وامن^(١) فزوجه الملك ابنته فولدت له زابا بن طهماسب^(٢) وكان المنجمون قالوا لأبيها إنها تلد ولدًا يقتلك فحبسها فلما ولدته كتمت أمرها وولدها ثم إن طهماسب احتال في إخراج زوجته وولده زاب من محبسهما وذهب بهما إلى بلاد فارس فكأنه مات بعد ذلك وبقي ولده الزاب فنصبته الفرس ملكًا لأنفسهم قال ابن الأثير^(٣): ثم إن زابا فيما ذكر قتل جده وأمن في بعض الحروب وطرد آفراسياب التركي عن مملكة فارس حتى رده إلى بلاده بعد حروب جرت بينهما.

قال مير آخوند إنهم خلصوا أولاً أسارى الفرس من محبس آفراسياب بتدبير من أغريث المذكور ثم قاموا على آفراسياب بإمداد زال بن سام بن نريمان أبي رستم فدام القتال بين الفريقين إلى سبعة أشهر فلما عجزت عساكر الترك عن إطفاء نيران العصيان وأعيتهم الحيلة تركوا مملكة الفرس لأهلها وعادوا إلى بلادهم.

الوقعة الرابعة: لما هلك الزاب بن طهماسب بعد أن تملك ٣٠ سنة وجلس مكانه في كرسي سلطنة الفرس كيقباد من أحفاد نوذر بن منوچهر جمع عساكر كثيرة وقصد بلاد الترك ومعه من مشاهير أبطال الفرس رستم بن زال ومهراب الكابلي وقارن بن كاوه وكشواد فلما قرع ذلك سمع آفراسياب جمع عساكره وشجعان الأتراك واستقبلهم فلما التقى الجمعان وقع بينهما حرب صعب وكان ذلك أول محاربة رستم فتحير آفراسياب على قول الفرس من شجاعة رستم فطلب الصلح من كيقباد على وفق المعاهدة التي حصلت في عهد منوچهر من كون الحد الفاصل بين المملكتين نهر جيحون فعاد الفريقان إلى بلادهم وهذا يدل على أن حركة كيقباد إنما كانت لطرد الأتراك^(٤) ودفعهم من بلادهم لا لاستملاك أراضي الأتراك فلما حصل مقصودهم صالحوا وعادوا.

(١) هذا قول الطبري وابن الأثير تبعًا له وهذه الحادثة مشابهة لحادثة كيكاسوس وولده سياوش وحفيده كيوخسرو مع آفراسياب كما سنذكر بعد ولعله وقع الاشتباه في مأخذ تاريخيهما ولذا لم يقع لها ذكر في روضة الصفا مع كونها أبسط في بيان أحوال الفرس منهما ويحتمل أن تتعدد الحادثة ولم يطلع عليها صاحب روضة الصفا والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) يقال له في التواريخ العربية زو بالواو وبدل الباء ومن غير ألف بعد الزاء ونحن جرينا على الأصل. منه عفي عنه.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١/١٥٨، وفيه: «زو» بدل «زابا».

(٤) وحمل الفردوسي وميرآخوند وأمثالهما ممن يهزون القاووق للفرس ويلحسون صحنوهم هذا الرجوع على مرحمة كيقباد وعلو جنباه. منه عفي عنه.

وقال بعضهم إن آفراسياب لما انهزم من شدة صولة رستم وهرب أدركه رستم وأسرته وبينما هو آت به معسكر الفرس إذ صدرت عنه غفلة فاغتنمها آفراسياب وحل الحبل المربوطة باستعمال صنعة السحر والشعوذة التي كان ماهراً فيها وربطه برقبة واحد من القتلى وهرب فلم يشعر به رستم وجاء يجر المقتول المذكور عند كيقباز وهو يظن أنه آفراسياب ورمى به بين يدي كيقباز وقال من خدم الملك فليخدم هكذا أيها الملك أسرت عدوك الألد آفراسياب وجئتك به أسيراً وليكن أعداؤك مههورين هكذا فلما نظروا إليه فإذا هو واحد من قتلى آحاد الناس فخجل رستم من هذا الصنيع غاية الخجالة فقال له كيقباز لدفع خجالته إن هذا الفتح العظيم حصل اليوم بسبب شجاعتك أسر آفراسياب أو هرب لا بأس به فإنه لا يتجاسر بعد ذلك على المحاربة فطلب آفراسياب الصلح وانعدت المصالحة على ما مر ورجع الطرفان إلى أوطانهم.

وقد ظهر في غضون كلام الطبري وابن الأثير أيضاً تبعاً له كثرة الوقائع بين كيقباز وآفراسياب ومغلوية كيقباز من آفراسياب والتزامه وظيفة حفظ الثغور وحراسة الحدود بنفسه حيث قالوا وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة فكان يعينان كيقباز مقيماً بالقرب من نهر بلخ وهو جيحون لمنع الترك من تطرق شيء من بلاده.

وكذلك قال مير آخوند نقلاً عن تاريخ البيضاوي المسمى بنظام التواريخ ما معناه أن كيقباز كان يقيم دائماً بشط جيحون ويحارب الترك ولم أطلع على تفاصيل هذه المحاربات ولا حاجة لنا بها هنا بل يكفينا هذا القدر للعلم بدرجة الأتراك في القوة والافتدار والشوكة بالنسبة إلى دولة الفرس في العصر المذكور.

الوقعة الخامسة: ولما هلك كيقباز بعد ١٠٠ سنة من تملكه وقيل ١٢٠ سنة جلس مكانه في تخت مملكة الفرس ولده كيكائوس^(١) وكان الأتراك وقتئذ يجاوزون الحدود ويغيرون على ممالك فارس دائماً ولا سيما حين كان كيكائوس يحارب ملك اليمن ذا الأذعار أو شمر فإن آفراسياب اغتنم خلو حدود مملكة إيران من جهة بلاده فأغار عليها ورجع بغنائم كثيرة.

قالوا كان كيكائوس تزوج سودابه بنت آفراسياب التركي وقيل بنت ذي الأذعار وقيل سعدى بنت شمر ملك يمين وكان له ولد من امرأة أخرى يسمى سياوخش ويقال

(١) وقال ابن الأثير تبعاً للطبري كيكائوس بن كينية بن كيقباز وقال لما ملك حمى بلاده وقتل جماعة من عظماء البلاد المجاورة له وكان يسكن بنواحي بلخ. منه عفي عنه.

له بالتخفيف سیاوش وكان تربي عند رستم بن زال^(١) بن سام بن نريمان بن جودك بن كرشاسب أصهبذ^(٢) سجستان وما يليها فعشقت له سواده أو سعدى المذكورة وراودته عن نفسه فأبى فقالت لكيكاوس مثل قول نظيرتها المذكورة في القرآن ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥] الآية حتى أفسدت بينهما وكان أفراسياب أغار في تلك الأثناء على ممالك إيران حتى وصل إلى بلخ فسأل رستم الشديد أن يخاطب أباه في تنفيذه إلى محاربة أفراسياب وأراد بذلك التباعد عن أبيه ليأمن كيد امرأته ففعل ذلك رستم فسيره أبوه وضم إليه جيشًا كثيرًا فلما التقى الجمعان انعقد بينهما الصلح على أن يترك أفراسياب الأسارى والأموال التي كان أخذها ولم يذكرها سبب ذلك الصلح ولا وقوع المحاربة فكتب سیاوخش إلى أبيه يعرفه ما جرى بينه وبين أفراسياب من انعقاد الصلح فلم يحسن ذلك لكيكاوس إما لأن قصده كان قتل سیاوخش في المحاربة أو لعدم أخذ الثأر في أفراسياب كما ينبغي قولان فأنفذ إليه طوس بن نوذر وكتب أن يسلم قيادة الجيش والخزائن وعلمهم المقدس المسمى بدرفش كاويان إلى طوس المذكور ثم يحضر عنده إلى غير ذلك من التكليفات الغير اللائقة فلما علم سیاوخش ما أراده أبوه في حقه سلك سبيل الحزم والاحتياط قائلاً، شعر:

لا تترك الحزم في أمر تحاذره فإن سلمت فما في الحزم من باس

بأن خابر پيران بن ويسه الذي هو أكبر قواد أفراسياب وأعظم وزرائه وصاحب الاختيار وأشهر أبطال الأتراك في المسير إلى بلاد الأتراك فقبله پيران بن ويسه^(٣) وأخذه في ضمانته وكفالاته فسار إليه مع خواص أصحابه فحملة پيران بن ويسه إلى أفراسياب فاستقبله أفراسياب بكمال البشاشة والتعظيم ورحب به وأكرم نزله ومثواه وبعد أن أضافه بضيافة الملوك أياماً عديدة زوجته ابنته وسفافر يد على قول الطبري وابن الأثير وفرنكيس على قول مير آخوند^(٤) وجعله من مقربيه ولكن لم يرق هذا

(١) هكذا ساق نسبه ميرآخوند وقال لثلا يغلطوا في نسبه وقيل رستم بن داستان بن نريمان وقيل غير ذلك والأول أصح. منه عفي عنه.

(٢) الوالي المختار مثل خديو مصر. منه عفي عنه.

(٣) وقع في نسخة ابن الأثير المطبوعة بمصر قيران بن وكسعان وهو تحريف من النسخ بلا شبهة والصبواب ما هنا ويقال له اختصاراً پيران ويسه كما يقال في عادة بعض الأقوام الآن أحمد عبد الله بمعنى أحمد بن عبد الله فتنبه.

(٤) وقع في تواريخ يونان ذكر تزويج أفراسياب ابنته من ملك الفرس بوجه آخر مغاير لما هنا بالكلية اضربنا عن ذكره صفحاً ومن أراد الاطلاع عليه فعليه بتاريخ مراد بك العمومي واسم أفراسياب في تواريخهم أوستياغ واسم كبخسرو كيروس واسم إسفنديار داريوش فاعرفه. منه عفي عنه.

الفعل من آفراسياب في أعين ولديه وأخيه كرسوز ولم يلائمهم فكانوا في مقام الحقد والحسد على سیاوخش دائماً ويذمونه عند آفراسياب ويغرونه عليه حتى غلبوه على رأيه وحرفوه عنه وحصلوا منه الأمر بقتل سیاوخش وقتلوه وكانت زوجته وسفافرید أو فرنكيس بنت آفراسياب حاملاً عنه حين موته فحاولوا إسقاط الجنين من بطنها فلم يقدروا وقيل منهم من ذلك پيران بن ويسه وأخذ الفرنكيس في كفالهته وحجر تربيته فولدت بعد تمام مدة الحمل ولد أسموه بتوصية سیاوخش لمقتول بكیخسرو وهذا هو كیخسرو المشهور بين ملوك الفرس ولقب كسرى مأخوذ منه بتحريف العرب إياه وباق ذكره إلى يومنا هذا.

الوقعة السادسة: ولما بلغ قتل سیاوخش أباه كیکاوس حزن عليه حزناً شديداً ولما انقضت أيام المأتم أرسل جيشاً كثيفاً تحت قيادة رستم وسائر مشاهير قواد الفرس إلى تركستان لأخذ ثأر ولده سیاوخش من آفراسياب ولما مر الجيش المذكور نهر جيحون والتقوا جنود آفراسياب وقع بينهما حرب شديد قتل في أثناءه ولدا آفراسياب وأخوه كرسوز الذين كانوا قتلوا سیاوخش وانهزمت بواقي جيش آفراسياب وتوغل هو في داخل بلاده واجتهد رستم في الظفر بفرنكيس وولدها كیخسرو وبذل غاية مقدرته في ذلك إلا أنه لم يقدر عليه ولم يتيسر له ذلك فإن آفراسياب كان أرسلهما إلى أقصى بلاده فأخذ خزائن آفراسياب ورجع إلى بلاده فأنعم كیکاوس على رستم بأنواع الإنعامات ومنحه رتبة طرخان وأعادته إلى مقره.

وفي بعض الروايات أن كرسوز لم يقتل في هذه الوقعة بل قتل بعدها وإنما قتل فيها شيدة ولد آفراسياب على يد فريزر بن كیکاوس وفي بعضها أن شيدة أيضاً قتل بعد هذه الوقعة على يدي كیخسرو.

وقال المير آخوند إن هنا روايات مختلفة وخرافات بعيدة عن العقل جداً اهـ والحاصل أن المقصد هنا ذكر أصل الحوادث على طريق الاختصار لا استقصاء الروايات المختلفة.

الوقعة السابعة في عصر كیخسرو: قيل إنه لما ولد كیخسرو سلمه پيران ويسه إلى أصحابه وقومه الذين كانوا يسكنون في البادية وأمرهم بحفظه وحراسته وتربيته فأخذوه وعلموه الفروسية والاصطياد والكر والفر على عادة الأتراك فلما كبر كیخسرو وشب أرسل كیکاوس واحداً من شجعان إيران يسمى كيوبن كودرز إلى تركستان ليحيء بكیخسرو إليه بناء على رؤيا رآها وبعد أن طاف المذكور في قفار تركستان سبع

سنين لقي كيخسرو في مروج من الأرض. وعُرف كونه كيخسرو بسيماه فحمله مع والدته فرنكيس إلى بلاد الفرس عقيب خرافات كثيرة تنبوا عنها العقول السليمة ولذا تركنا ذكرها واختصرنا الكلام فطاب وقت كيكائوس لذلك وفوض تاجه وتخته إلى كيخسرو مع وجود ولده الصليبي فريبرز واختار العزلة والخلوة.

ولما جلس كيخسرو تخت سلطنة الفرس جعل جلّ همّته مصروفة إلى أخذ ثأر والده سياوخش والانتقام من قتلته فجمع عظماء مملكة فرس وخطبهم خطبة بليغة مؤثرة وأبان لهم نواياه المتعلقة برفاهيتهم وراحتهم وترقيهم ثم أعلمهم كون والده مقتولاً بيد الأتراك مغدوراً وكون هذا الأمر عازاً وشنازاً له خصوصاً ولكافة الفرس عموماً وبين لهم لزوم أخذ ثأره وانتقامه من الأتراك فتلقاه عموم عظماء الفرس بالقبول وعقدوا على ذلك عقد الاتفاق فأعطى كيخسرو لعمه فريبرز بن كيكائوس وطوس بن نوذر ثلاثين ألفاً من منتخبات جيش إيران وكان لسياوخش ولد آخر ببلاد الترك متولّد من امرأة من بنات بعض أقرباء پيران ويسه يسمى فرود وكان يسكن قلعة من قلاع الترك كان آفراسياب أعطاه إياها فأمر كيخسرو قائده طوس بن نوذر ان يمر على ترك القلعة وأن يدعو أخاه فرود إلى الاتفاق على محاربة آفراسياب فلما نزل طوس بقرق تلك القلعة حسب أمر كيخسرو وسمع فرود بنزوله غضب غضباً شديداً وخرج للقاءه وطرده بشجعان الأتراك فأرسل إليه طوس يعلمه بكيفية الحال فلم يصغ فرود لخرافاته بل هجم عليهم بلا مهلة وحاربهم حتى قتل فلما بلغ هذا الخبر الموحش مسامع كيخسرو استولى عليه الحزن وغضب على طوس فكتب إلى عمّه فريبرز أن يرسل إليه طوساً مقيداً وأن يتوجه بمن معه من عساكر الفرس إلى تركستان ففعل عمّه فريبرز ما أمر به كيخسرو فلما أخبر آفراسياب بقصد فريبرز ببلاده أرسل للقاءه پيران بن ويسه مع جيش الأتراك وسائر الأبطال فلما التقى الجمعان وقع بينهما حرب شديد فانكسر جيش الفرس وانهمز فريبرز أقبح هزيمة ولحق كودرز بن كشواد الذي هو أشهر أبطال جيش إيران وأكبر قوادهم بفريبرز متخلصاً من المعركة بعد أن قتل من أولاده وأقربائه سبعون نفساً في تلك المعركة وخاض بنفسه غمرات الموت ولم يصدق أنه ينجو فرجعت بقية عساكر الفرس إلى أوطانهم بأقبح صور هذا مقطوع يده وهذا مكسور رجله وهذا مجدوع أنفه وهذا ذاهب أذنه وذلك مشجوج رأسه وهذا مجروح وجهه وهذا مفقوء عينه فاستولت غاية الغمّ على كيسخرو بمشاهدة هذه الحالة الشنيعة وحمي غضبه على عمّه فريبرز ولاسيما بعد أن قال كودرز إن سبب الهزيمة كان تقهقره واندحاره عن المعركة.

الوقعة الثامنة: لم يورث وقوع هذه الحادثة المحزنة لعزيمة كيخسرو أدنى فتور بل حشد جيشًا جديدًا من عساكر فرس وسلّم قيادته إلى كودرز وحرّضه على أخذ الثأر والانتقام لأجل أبيه سیاوخش ولأجل أولاد كودرز وأقربائه وعفى عن طوس بن نوذر وضمّه إليه فلما سارا وسمع به آفراسياب جمع من أبطال الأتراك من يرجعون أيام المصاف على ليالي الزفاف وجعلهم تحت قيادة پيران بن ويسه وأرسلهم لاستقبال جيش الفرس ولما انتشب الحرب بين الفريقين وقع الانهزام على جيش الفرس فالتجأوا إلى جبل هناك يُعرّف بجبل تيرتو فأحاطت أبطال الأتراك بالجبل المذكور وطفقوا يقتلون الفرس وجاء في الوقت المذكور على ما في خرافات تواريخ الفرس خاقان الصين وشنكل اليهود يعني ملكهم لإمداد الأتراك فلما رأت الفرس هذه الحالة يسوا من الحياة وبينما هم في هذه الحالى إذ لحقهم رستم بأمر كيخسرو وشرع حالاً في المحاربة وأسر واحداً من أبطال الأتراك المشهورين الذين يعتمد عليهم في المحاربة وأسر خاقان الصين بعد مضي أيام فلما شاهدت الأتراك هذه الحالة الخارقة للعادة استولى عليهم الرعب والخوف وولّوا الأدبار منهزمين قائلين من نجى برأسه اليوم فقد ربح فاستخلص رستم وكودرز ولاية خراسان من يد الأتراك ورجعوا إلى بلاد الفرس عند كيخسرو مظفرين منصورين ولكن لم يحصل بهذا ما هو الغرض الأصلي من تلك المحاربات بل اندفعت به المضرة المترتبة لها أعني استيلاء الأتراك على مقاطعة خراسان ولهذا لم يكن بدأ من محاربة أخرى لتحصيل الغرض الأصلي منها.

الوقعة التاسعة القاضية بغلبة الفرس وقتل آفراسياب: وبعد مضي أيام من الرقعة السابقة أراد كيخسرو أن ينتقم من الأتراك فجمع جيشًا كثيفًا جدًا وقسمه على أربعة أقسام وجعل كل قسم منها تحت قيادة قائد مشهور من قواد الفرس وأمرهم بالهجوم على بلاد آفراسياب من الجوانب الأربعة ومن جملتهم جعل كودرز قائداً لقسم منها وأعطاه علمهم المقدس المسمى بدرفش كاويان الذي كان ملوك الفرس يختصون بحمله وأمره بالهجوم على بلاد آفراسياب من جهة البلخ ووعده بلحوقه به من عقبه فوراً فلما سمعه آفراسياب جمع جيشًا أكثر عددًا من قطرات البحار وحبّات الرمال وجعلهم تحت رياسة پيران بن ويسه وإخوانه وأرسلهم إلى لقاء كودرز فالتقى الفريقان بقرب جبل يعرف بكنابد^(١) فوقع بينهما حرب صعب دام إلى ثلاثة أيام لباليها فهبت

(١) كنباد على وزن جنابت اسم موضع بأرض الترك وقع في جبل بها محاربة بين كودرز قائد=

رياح النصر في الآخر من جهة الفرس فقتل پيران ويسه من يد كودرز وقتل من قواد الأتراك غيره أحد عشر نفرًا فيهم إخوة پيران ويسه وولده وولد آفراسياب كل منهما يسمى روبين قتلها بيژن بن كيو بن كودرز والباقي منهم قتلهم سائر قواد إيران أو أسروهم ولهذا اشتهرت هذه المحاربة في شهرته وغيره من تواريخ الفرس بمحاربة دوازده رخ يعني اثني عشر وجهًا ذكره صاحب البرهان القاطع وغيره وقتل سوى هؤلاء من جيش الترك قريب من مائة ألف نفس وفي ابن الأثير^(١) خمسمائة وستون ألفًا وأسر ثلاثون ألفًا وهذا ما عدا المقتولين عل يد عساكر الفرس الذين دخلوا من جهة كاشغر ومن جهة باب الأبواب وبحيرة أورال وغنموا ما لا يعد ولا يحصى في نفس تلك المعركة وانهزمت البواقي من جيش الترك.

ووصل كيخسرو إلى محل الوقعة مقارنًا لتلك الحالة وشرع في التفرج والنظر إلى المقتولين والمأسورين تحت راية كل قائد من قواده فوقع نظره إلى پيران ويسه مقتولًا مطروحًا تحت راية كودرز فنزل من فرسه بلا اختيار ووضع وجهه على وجهه وبكى بكاءً كثيرًا وأمر بغسله طاهرًا وتكفينه في قماش نفيس ودفنه في محل مناسب لمثله بكمال التعظيم والاحترام ورأى كرسبوز أخا آفراسياب وقاتل أبيه سياوخش تحت راية القائد كيو مقيدًا فنزل من فرسه وقطع رأسه قصاصًا لوالده فلما وصل هذا الخبر الموحش إلى مسامع آفراسياب استولت عليه الغموم وحمى غضبه فأرسل جيشًا كثيرًا تحت قيادة ولده شيده لمحاربة كيخسرو فالتقى الفريقان في صحراء خوارزم ونشب بينهما القتال ودام إلى أربعة أيام بلياليها فقتل في أثنائها شيده على يدي كيخسرو نفسه فقال كيخسرو كان هذا خوارزميًا فسميت الولاية المذكورة لذلك خوارزم فلما سمع آفراسياب ذلك الخبر توجه بنفسه إلى محاربة كيخسرو فوقع بينهما حرب شديد ودام إلى أيام ولما قتل من عسكر آفراسياب مقدار مائة ألف نسمة ولّى الأدبار منهزمًا فتعقبه كيخسرو وحاصره في دار ملكه كك دوز فلما أيس آفراسياب من وصول الإمداد خرج من سرداب^(٢) كان أعده لمثل هذا اليوم وهرب واستولى كيخسرو على البلدة وأخذ

= كيخسرو وبين عسكر تركستان قتل فيه كودرز پيران ويسه وقتل حفيده بيژن بن كيو بن كودرز وابن بنت رستم وقتل ابن أخته اثنين من إخوة پيران ويسه وهذه الحرب من الحروب المشهورة في شهرته يقال له حرب دوازده رخ اه من البرهان القاطع منتخبًا ومعربًا. منه عفي عنه.

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/١٥٨.

(٢) وبجوارا سمرقند غار يقال له غار آفراسياب ولعله هو هذا الذي ذكر هنا والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

أهل بيت آفراسياب تحت حمايته ولم يترك أحداً يتعرض لهم بسوء لكون والدته من بنات آفراسياب.

وأما آفراسياب فإنه لما طاف مدة من الزمان في أطراف مملكته صادفه عساكر إيران في ولاية أذربيجان فحملوه إلى كيخسرو فقبل إن كيخسرو قتله بيده وقيل أمر غيره بقتله وقيل إنه لما رآه رق له فخاف كودرز من عفوه له فبادر إلى قتله فقتله وعلى كل حال لم يقدر آفراسياب الذي لعب بعدة من ملوك الفرس تلك الألعاب أن يخلص نفسه من هذه النوبة من قبضة الفرس وهكذا أحال الدنيا لمن اعتبر فرجع كيخسرو إلى أطراف بلخ مجبور الخاطر مقضي الوطر بقتل جده لأمه بعد استيصال أهل بيته ومملكته لشخص واحد ومع ذلك يدعون كونه نبياً أو ولياً.

لا يخفى أن أوائل سلطنة آفراسياب على ما يستفاد من الوقائع السابقة تصادف أواسط سلطنة منوچهر وكان منوچهر على قول ابن الأثير^(١) تبعاً للطبري في عصر موسى وشعيب عليهما السلام. وقال مير آخوند إن موسى وشعيباً عليهما السلام كانا في أواسط سلطنة منوچهر وكان يوشع عليه السلام في آخر سلطنته باتفاق المؤرخين فعلى هذا يصادف أوائل سلطنة آفراسياب أوائل بعثة موسى عليه السلام وأنه عمّر عمراً طويلاً على ما يستفاد من الوقائع السابقة^(٢). وقد هلك عدة من ملوك الفرس في عصره. أولهم: منوچهر وكانت مدة سلطنته ١٢٠ سنة. والثاني: نوذر ومدة تملكه ٧ سنة أو ٣ سنة، والثالث: الزاب ومدة تملكه ٣٠ سنة. والرابع: كيقباز ومدة سلطنته ١٠٠ سنة أو ١٢٠ سنة وكان المذكور على ما ذكره ابن الأثير^(٣) ومير آخوند تبعاً للطبري في عصر الياص واليسع واشمويل وحزقيل عليهم السلام. والخامس: كيكائوس ومدة سلطنته ١٥٠ سنة. والسادس: كيخسرو ومدة سلطنته على قول الجمهور ٦٠ سنة وعلى ما ذكره في عمدة التواريخ سنة ١٠٠. وعلى ما يفهم من قول مير آخوند أنه لم يعيش بعد قتل آفراسياب إلا قليلاً ولنجعل أوائل سلطنة آفراسياب بعد مضي ٨٠ سنة من سلطنة منوچهر وقتله بعد مضي ٤٠ سنة من سلطنة كيخسرو ونبني سلطنتي نوذر وكيقباز على الأقل ثم نضم إلى ذلك مدة تسلطن آفراسياب بتخت الفرس ١٢ سنة فيكون المجموع ٣٨٠ سنة.

(١) انظر الكامل في التاريخ.

(٢) قال المسعودي وعمره عند كثير من الناس أربعمئة سنة. منه عني عنه.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١/١٢٦، ١٢٧، ١٢٨.

وعلى كل حال فإنه كان أشهر ملوك قدماء الترك بما وراء النهر وأعظمهم شأنًا وكان غالبًا ومنصورًا على أعدائه ومظفرًا في أكثر حروبه ولهذا لا يزال ذكره جاريًا على الألسنة إلى الآن كأنه مضى قبل هذا الوقت بسنين معدودة ومذكور في التواريخ بأنه تسلطن أكثر من ٣٠٠ سنة، ويقرب سمرقند مغارة مشهورة بغار أفراسياب ويروى أن الروسية لما استولوا على سمرقند ظفروا ببعض آثار عتيقة في تلك المغارة ولا أدري أن بلدة ككك دز التي مر ذكرها آنفًا هل كانت هناك أو في محل آخر.

قال في البرهان إنه بفتح الكاف الفارسي الأول وسكون الثاني اسم بلدة في شرقي إقليم الصين وقال إنه بلدة بأرض الترك أهلها في غاية الحسن والجمال وقال ككك اسم بلدة تاشكند اهـ وكونها إياها أقرب إلى العقل والله سبحانه أعلم بالصواب.

سلطنة أرجاسب التركي

اعلم أن أكثر المؤرخين قالوا إنه جلس على كرسي مملكة الترك بعد قتل أفراسياب أخوه أرجاسب وذكر في البرهان القاطع إنه حفيده وعلى قول ابن الأثير^(١) تبعًا للطبري إن الذي تملك بعده أخوه كي سواسف ثم بعده ابنه خزراسف يعني أرجاسب فعلى هذا يكون أرجاسب ابن أخي أفراسياب والله سبحانه أعلم.

وقد تخلى كيوخسرو عن الملك لولد عمه أو عم أبيه أو غير ذلك على اختلاف الأقوال لهراسب ولا يرى له في التواريخ وقائع مع الأتراك وإنما المذكور فيها أنه كان مقيمًا ببلخ يدافع الترك الذين كانوا تقووا في عصره واكتفى كلهم بهذا القدر ولم يتعرض أحد منهم لتفصيل تلك المدافعة وكيفية تعرض الأتراك وبعد مضي ١٢٠ سنة من سلطنته تخلى عنها لولده كشتاسب^(٢) واختار العزلة والانزواء ولما جلس كشتاسب على تخت مملكة الفرس أرسل إلى أرجاسب سفيرًا يطلب منه الهدنة والصلح فتم الصلح بينهما على أن يؤدي كشتاسب لأرجاسب مقدارًا من الخراج وأن يربط فرسًا مختصًا به مسرجًا ومجللاً بباب قصر أرجاسب ليكون دالاً على طاعته إياه.

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/١٢٧.

(٢) وقع في نسخة ابن الأثير المطبوعة بمصر بشتاسب بالباء بدل الكاف وهو غلط مخالف لما في سائر الكتب كافة من أنه بالكاف لا بالباء. منه عفي عنه.

ظهور زرادشت الزنديق وتسببه في بطلان الصلح ووقوع المحاربة بينهما والوقعة الأولى

ولما مضى للصلح المذكور مدة من الزمان ظهر في تلك الأثناء مخترع دين المجوس ومؤسس عبادة النار زرادشت الزنديق^(١) واخترع الدين المذكور وصار يدعو الناس إليه فقبله^(٢) كشتاسب وسائر عظماء الفرس بعد اللتيا والتي وبعد ذلك بين له زرادشت قبح إطاعة أصحاب الدين الحق يعني دين المجوس لأرباب الدين الباطل يعني الأتراك وقبح أداء الخراج لهم وربط الفرس بباب قصر ملكهم إظهارًا للطاعة والانقياد وحرضه على نقض العهد والصلح المذكور وحثه على محاربته ووعده بأن يختار له طالبًا دالاً على انتصاره على أرجاسب فكتب كشتاسب إلى أرجاسب كتاباً يدعو فيه إلى دين المجوس وعبادة النار الذي اختاره فحمي غضب أرجاسب بمطالعة الكتاب المذكور وكتب إليه في جوابه أنه إن لم يرجع من دين المجوس وعبادة النار إلى الدين الحق وعبادة الله المتعال ولم يرسل إليه زرادشت المفسد الزنديق مقيداً أقلب مملكة الفرس ظهرًا لبطن وأخذك أسيرًا وحيث كان مقصد كشتاسب من كتابته نقض الصلح فرح بذلك وصار يستعد للحرب وكتب إلى أرجاسب ثانيًا يوبخه فيه ويشنع عليه وأخذ فرسه المزبوط بباب قصره خفية لزيادة غضبه وحمله على نقض الصلح والبدية بإعلان الحرب بذلك السبب وفاز ببيغته هذه أيضًا فإن أرجاسب جمع جيشه وسار حالاً قاصدًا بلاد الفرس فأرسل كشتاسب ولده أسفنديار بعساكر الفرس لاستقباله ووعده بأن يترك تاجه وتخته له إن انتصر على الأتراك فتقابل الجيشان ووقع

(١) زرادشت: ظهر في زمن كيستاسف السابع من ملوك الفرس، وادعى النبوة، وقال بوحدانية الله تعالى، وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما، وأن الخير والشر والصلاح والفساد إنما حصل من امتزاجهما، وأن الله تعالى هو الذي مزجهما لحكمة رآها في التركيب، وأنها لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة، ثم يخلص الخير في عالمه وينحط الشر إلى عالمه، وحينئذ تكون القيامة. وأتى بكتاب قيل صنفه وقال الشهرستاني: اسمه «زندوستا»، وقال المسعودي في «التنبيه والإشراف»: واسم هذا الكتاب «الإيستا»، وعمل زرادشت لكتاب «الإيستا» شرحًا سماه «الزند» ومعناه عندهم: ترجمة كلام الرب، ثم عمل لكتاب «الزند» شرحًا سماه «بادزنده» (صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ١٣/٢٩٤ - ٢٩٥).

(٢) قال ابن الأثير تبعًا للطبري أن الفرس كانوا قبل ظهور زرادشت واخترعه دين المجوس وقبول كشتاسب وقومه إياه على دين الصابئة وأما أصل زرادشت ومبدأ أمره فسيجيء نبذة منه بعيد ذلك. منه عفي عنه.

بينهما حرب عظيم شديد قتل فيه عدة من أولاد أرجاسب وإخوانه فانهزم أرجاسب ورجع إلى بلاده مكسورًا مهورًا وعاد أسفنديار إلى مملكته مظفرًا منصورًا^(١).

الوقعة الثانية: قالوا وقع الفساد بين كشتاسب وولده أسفنديار بعد الوقعة المار ذكرها آنفًا بسعاية الساعين ووشاية الواشين بينهما فحبس كشتاسب ولده أسفنديار بقلعة كردكوه بناحية رودبار مقيدًا بتهمة طلب السلطنة لنفسه وترك أولاده وخزائنه وسائر أمواله عند والده لهراسب بيلخ وتوجه بنفسه إلى جهة العراق وقيل إلى طرف كرمان وسجستان وسار إلى جبل يقال له طمبدر لدراسة دينه والتنسك هناك فلما سمع أرجاسب هذا الخبر المسر اغتم هذه الفرصة وتوجه نحو بلخ وقتل لهراسب وولدين لكشتاسب والهرابدة وهدم الدواوين وبيوت النيران وأسر بنتين لكشتاسب (به آفرين) و (همابانو) وأخذ خزائنه وكافة أمواله وعلمهم المشهور درفش كاويان وأرسل كل ذلك إلى تركستان وتوجه بنفسه إلى جهة كشتاسب فلما تيقن كشتاسب بعدم قدرته على مقاومته إياه تحصن بقلعة حصينة منيعة وأرسل أخاه جاماسب الذي كان عالم الفرس ووكيل زرادشت إلى أسفنديار ليخرجه من محبسه ويأمره بمحاربة الأتراك ووعده أن يتخلى له عن سلطنته أو أن يعهد إليه بها بعده فخرج أسفنديار من محبسه وجمع ما تشتت من عساكر الفرس وقصد أرجاسب فالتقاها فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى انجلى الغبار عن هزيمة الترك وتولاهم الأدبار واسترد أسفنديار درفش كاويان فرجع به إلى أبيه كشتاسب مظفرًا منصورًا.

الوقعة الثالثة: ولما رجع أسفنديار إلى أبيه كشتاسب بالظفر والنصر لم يزل أبوه يتعلل عليه في تسليم الملك وقال له قد تبين أن حق السلطنة لك وأنت أحق بها ولكن أليس كون أختيك أسيرتين بيد أعدائنا أرجاسب وقومه عارًا عظيمًا وشنارًا قبيحًا كيف يقبل وجدانك أن تلبس التاج وتجلس على سرير السلطنة هنا وهما على

(١) هكذا ذكرت كيفية هذه المحاربة هنا وقد ذكر أثناء بيان مناظرة اسفنديار مع رستم في روضة الصفاء أن هذه المحاربة كانت مع أفراسياب وإن كشتاسب أقام بنفسه في القلب وولده نسطور في الميمنة واسفنديار في الميسرة وإن أفراسياب أقام في القلب مع أولاده وپيران ويسه ومهر زادوندمان الساحر وإخوته في الجناحين وإن زريزًا أخا كشتاسب قتل في أول وهلة فانهزم قلب إيران وميمنتهم ورموا علمهم المقدس درفش كاويان وفروا فأخذه الأتراك فأدركهم اسفنديار وخلص منهم العلم المذكور وأجبرهم إلى الفرار إلى غير ذلك من الخرافات ولا شبهة في كونها من الخرافات والعجب من ميرآخوند كتابته هذين المتناقضين في كتابه مع أن بينهما وريقات يسيرة والله أعلم بسرائر عباده. منه عفي عنه.

تلك الحالة فتتحرك عرق حمية أسفنديار لذلك وشرع يتأهب لكفاح أرجاسب ثالثًا وانتخب من عساكر إيران اثني عشر ألف راجل واثني عشر ألف فارس وأخذ معه أخاه پشوتن وسار إلى تركستان وفي كيفية سيره إلى تركستان خرافات عظيمة للفرس وخلاصتها أنه سأل گركسار التركي الذي كان أسيرًا بيد الفرس عن بعد بلدة رويين دز^(١) التي كانت أخته وأسارى الفرس محبوسين بها وعن طرقها ومسلكها فقال له إن لها من بلخ ثلاثة طرق أحدها فيه مياه وأنهار وخصب وعمارات بعضها متصل ببعض إلا أن مسافته ثلاثة أشهر وفي رواية ستة أشهر والثاني مسافة شهر واحد إلا أن المياه والأقوات قليلة فيه والثالث مسافته أسبوع واحد فقط، لا أن في كل منزل منه مانع وعائق من الثعبان والسباع والساحر والسميرغ^(٢) والثلج الكثير ورمل كثير مسافة ثلاثين فرسخًا لا ماء فيها ولا كلاً فأرسل أسفنديار أخاه پشوتن مع معظم عساكره من الطريق الثاني واختار بنفسه سلوك الطريق الثالث ذي الخطر والموانع مع خواص أصحابه وأخذ معه جواهر ثمينة وأملاً نفيسة ليظهر نفسه تاجرًا

(١) وقد تقدم في ترجمة آفراسياب أن اسم كرسي سلطنته ككك دز وهنا يقولون إن كرسي مملكة ارجاسب رويين دز ويعبرون عن بلد آفراسياب أثناء بيان مناظرة أسفنديار مع رستم بمدينة صفرية ويقولون عن أسفنديار في وصفها هكذا طلعت على قمة جبل عال فرأيت المدينة الصفرية من بعيد ورأيتها كبيرة مستحكمة جدًا فنزلت إلى سفح الجبل مغمومًا فليت ثلاثة أشخاص فسألتهم عن كيفية المدينة فقالوا إن أطرافها متصلة بالجبال ودورتها مائة فرسخ وقد وضع في أبراجها مجانيق ومدافع كثيرة وعين لحفظها وحراستها كثير من الأبطال المحنكين والشجعان المجريين لا يتركون الطيور أن ينزل إلى أبراجها وفي داخلها كثير من السحرة من أقارب آفراسياب اه معربًا من روضة الصفا وهذه المدينة هي التي استولى عليها أسفنديار في طرفه عين والظاهر أن ككك دز ورويين دز عبارتان عن هذه المدينة واسمان لها وقد ذكر المسعودي بلدة صفر في تاريخه وذكر أيضًا خراب بلدة عمان في تركستان والظاهر أن بلدة صفر هي مدينة صفرية وقد تقدم في أوائل بيان آفراسياب ذكر صارى قلعة ذكرها ميرآخوند بهذه العبارة ولا شك أن معناها بالعربية المدنية الصفراء فهي ومدينة الصفر واحدة وإن أصل اسمها بالتركية صارى قلعة وأما بلدة عمان فلم أدر هل هي هي أيضًا أم مغايرة لها والله سبحانه أعلم ومع قول صاحب البرهان القاطع بكون دار ملك آفراسياب ككك دز قال في مادة بلاساغون إنها بلدة بقرب كاشغر وإنها كانت قاعدة ملك آفراسياب في حياته وصارت كذلك دار ملك أولاده إلى عصر كورخان اه وظهوره في ٥٣٦ سنة قال الحموي إنه بلد عظيم في ثغور الترك وراء سيحون قريب من كاشغر الخ وقال ابن الأثير عند بيان وقعة كورخان المذكور وقيل إن بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد ساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الأتراك وهم مسلمون من نسل آفراسياب التركي، الخ. منه عفي عنه.

(٢) طائر معروف الاسم مفقود الجسم عند العجم كالعقواء عند العرب أو هو هو. منه عفي عنه.

فارسياً هارباً من ظلم أسفنديار وشره وواعد أخاه پشوتن إذا وصل المذكور بعد قطع مسافة شهر أن يوقد ناراً عظيمة في البلدة ذات ليلة بعذر من الأعذار فمتى رأوا النار المذكورة يهجمون على البلدة فسلك أسفنديار الطريق الثالث القصير وأزال الموانع من كل منزل ومرحلة وصار يقيم مجلس الشرب والأكل والأنس والفرح والسرور مع أصحابه في كل منزل بعد رفع الموانع منه ولهذا سمي هذا الطريق عند الفرس بهفت خوان^(١) ولما وصل أسفنديار إلى بلدة رويين دز بالكيفية المذكورة ودخلها أعلن نفسه تاجراً فارسياً هارباً من ظلم أسفنديار وشره وأشهر ذلك وأهدى للملك أرجاسب جواهر ثمينة وتقرب إليه بهذه الوسيلة واستكرى منزلاً بقرب قصر الملك أرجاسب ولقي أخته وسائر أسارى الفرس وأعلمهم بكيفية الحال ولما وصل أخوه پشوتن بعد قطع مسافة شهر إلى رويين دز ونزل بقربها وأخبر أسفنديار بذلك استأذن الملك لضيافة الأمراء والوزراء وقواد العساكر والكبراء والأعيان في تلك الليلة وأوقد ناراً عظيمة بهذا العذر فلما شاهدها پشوتن من الخارج تيقن أن الوقت الموعود قد حل فهجم على البلدة بمن معه فوراً فغشيت الناس حيرة ودهشة وصاحوا بأن عدواً قد هجم على البلدة فشرع فرسان الترك يسرعون إلى خارج البلدة ويتوجهون نحو العدو فحلت البلدة من الحماة والمستحفظين فاغتنم أسفنديار هذه الفرصة التي انتهبها فقتل الوزراء والأمراء والأعيان وخلص أسارى الفرس وفعل الذي لا بد من فعله وأغلق أبواب البلد فكل من أراد دخول البلد قتل ومن طرف آخر قتل پشوتن في تلك الأثناء الملك أرجاسب مع عدة من إخوانه وأركان دولته واستولوا على البلد بما فيه فأرسل أسفنديار أخته وتخت آفراسياب المزركش المذهب وخزائن أرجاسب وأمواله حملاً لها على الفيل الأبيض إلى أبيه كشتاسب وشرع هو نفسه مع عسكره في تخريب بلاد الأتراك وقتل أهاليها فلما قضى وطره من القتل والتخريب وشفى صدره فوَّض سلطنة تلك الديار إلى واحد من أولاد أغريث أخي آفراسياب الذي كان محباً للفرس ومحسناً إليهم دائماً ومشهوراً عند الأتراك بالنبوة كما تقدم ذكره وكيفية قتله من يد أخيه آفراسياب ثم توجه أسفنديار من هناك إلى ممالك الصين وبنى هناك عدة من بيوت النيران ثم توجه منها بحرّاً إلى الهند وبعد استيلائه عليها وتسخيره إياها بنى هناك أيضاً عدة من بيوت النيران ونشر فيها المجوسية ثم عاد سالماً غانماً إلى وطنه بلاد الفرس.

(١) انظر إلى البرهان القاطع في مادته. منه عفي عنه.

انظروا إلى مقدار ترهات الفرس وخرافات إيران كيف استأصل شخص واحد بخمسة وعشرين ألفاً من العسكر سلطنة الترك والصين والهند في مدة يسيرة من غير وصول إمداد إليه من ورائه ودار تلك الممالك الشاسعة برًا وبحرًا ثم عاد إلى بلاده سالمًا فمن كان عقله مستعدًا لتصديق أمثال هذه الخرافات فليصدق ولهذا وقع في تواريخهم أن أكثر ملوكهم خصوصًا الطبقة الأولى منهم المسماة بيشداديان ملكوا الدنيا كلها وأجروا فيها أحكامهم .

ثم قال ميرآخوند إن أولاد أغريث وذرياته تسلطنوا في الديار المذكورة بطناً بعد بطن إلى ظهور إسكندر الرومي .

وذكر كارامزين في تاريخه قومًا في شرقي جبال أورال يسمون بأغريبي وحيث إن أغريبي قريب من أغريث جدًا ربما يخطر بالبال كون القوم المذكورين من ذريات أغريث المذكور ويؤيد هذا الاحتمال قرب السميت والجهة والله سبحانه أعلم .

ثم لا يخفى أن إسكندر الرومي المقدوني لما استولى على ممالك إيران عبر نهر جيحون (أمودريا) واستولى على صغد سمرقند أعني قطعة ما وراء النهر وضيع هناك مدة من أوقاته بمحاربة الأقوام التركية القاطنين وراء نهر سيحون (سيردريا) أعني تركستان المشهورين عند قدماء الإفرنج بأسامي أسكيت وأسكيتس الخ كما سيذكر في القسم الثاني من هذه المقدمة وقد تزوج حين إقامته بها بنت أوقسيارتيس حاكم صغد المسماة روقسانة وكانت على ما في تاريخ إسكندر المذكور ثانية ابنة دارا في الحسن والجمال وسلم حكومة تلك الديار حين انسحابه منها إلى طرف الهند إلى أبيها أوقسيارتيس المذكور ولا شبهة إن تزوجه بنت حاكم الصغد قبل تزوجه بنت دارا ليس هو بلا سبب وسببه والله سبحانه أعلم يحتمل أن يكون كون أوقسيارتيس المذكور من أولاد أغريث المذكور إن صحت القصة السالفة الذكر أو كونه من ذريات أفراسياب بناء على شهرة أفراسياب وأرجاسب .

وهذه الوقائع التي ذكرناها في هذه الصحائف الأخيرة المعدودة أعني وقائع الفرس والترك زبدة الوقائع المهمة وخلاصة الحوادث المعنى بها التي تشكلت منها أشهر صحائف تواريخ الفرس القدماء وأنفسها وأهمها خصوصًا شهنامه فردوسي الطوسي^(١)

(١) الفردوسي الطوسي: تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء .

التي ألف بيت منها للسلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي بمقابلة دينار^(١) وكذلك وقائع الفرس والتراك الآتية.

وقد ذكر المؤرخون أن لهراسب كان في عصر سليمان عليه السلام وأنه أمر اصطخر الجني بحمله إليه فهرب لذلك إلى بلخ واختفى فيه منه وإن ولده كشتاسب كان في عصر أرميا عليه السلام وأن زرادشت الزنديق كان من تلامذته^(٢) فطرده من عنده لبعض فساده وخيائته فطاف بلادًا كثيرة وممالك شتى لإلقاء بذر فساده وشقاوته المركز في طبيئته وقاسى في ذلك شدائد عديدة فلم يجد أرضًا مناسبًا له سوى أرض الفرس فبذره وزرعه هناك ونشره بين أهلها.

وفي الحقيقة إذا أجلنا النظر في الوقائع التاريخية والأحوال الجارية قديمًا وحديثًا بالتعمق نجد أرض الفرس معدن أمثال الخبث المذكورة ومنبع فسادات كثيرة قديمًا وحديثًا يعرف ذلك بالتتبع ويظهر من البيانات السابقة عصر الملك أرجاسب التركي ولكن وقع الاختلاف في هذا الباب في تواريخ الفرس القدماء كوقوعه في سائر المواد فإن ابن الأثير رجح كالطبري كون بخت نصر المشهور الذي خرب بيت المقدس وسبى بني إسرائيل من قواد لهراسب وأنه إنما فعل ما فعله بأمره وعودة بني إسرائيل إلى أوطانهم كانت أيضًا بأمره فهذا صريح في أن عصره متأخر من عصر سليمان عليه السلام وأن بهمن بن أسفنديار بن كشتاسب أرسل بخت نصر المذكور إلى بيت المقدس ثانيًا فحرب وقتل وسبى كثيرًا من بني إسرائيل كما فعله في النوبة الأولى وذلك لقتلهم رسوله الذي أرسله إليهم قال ميرآخوند بعد نقل هذا والعلم عند الله ونحن أيضًا نقول مثلما قال.

(١) ونحن بحول الله تعالى نقحنها ولخصناها وأثبتناها هنا مجانًا لا نرجو في مقابلته شيئًا من المكافأة وغاية ما نتوقع في مكافأته أن يقول أمثل علماء بلادنا وأفضل فضلاء وطننا الذي يرجي منه التمييز بين الفاضل والمفضول وتقدير خدمة أهل العلم لواحد ممن يقرأون ويكتبون فقط لا غير لم لا تؤلف أنت كتابًا كما ألف فلان استهزاء بنا كما سمعنا ذلك عند انتشار سائر آثارنا من قبل. منه عفي عنه.

(٢) وقال أبو الفرج الملطي قيل إنه من أذربيجان وقيل من أهل آثور وقيل إنه من تلامذة إيليا النبي اهـ أنه أخذ عبادة النار من تجلي الحق سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام في الشجرة على صورة النار ومجيء النداء منها أني أنا الله إني أنا ربك وعلى كل حال فقد نقل عنه كثير من الأمور الشموزية وصنف كتابًا سماه زند أوستا بالرموز والكنيات بحيث كان لا يطلع على ما فيه إلا خواص أصحابه. منه عفي عنه.

وقال ميرآخوند أيضًا إن كشتاسب لما انقضى أيام التعزية لأسفنديار بعد قتل رستم إياه قصد تركستان بجيش كثيف فوقع بينه وبين الترك حرب شديدة وقتل من الطرفين نفوس كثيرة فصارت الغلبة والنصر أخيرًا في طرف كشتاسب فرجع إلى وطنه مظفرًا منصورًا وبعد كشتاسب تملك في الفرس بهمن بن أسفنديار^(١) سنة ١١٢ سنة وتملك بعده بنته وزوجته هماي ٣٢ سنة وتملك بعدها ولدهما دارا الأكبر ١٢ سنة أو ١٤ سنة وتملك بعده ولده دارا الأصغر إلى غلبة إسكندر الرومي المقدوني ١٤ سنة وفي تلك المدة أعني مدة ١٧٠ سنة لم أطلع في التواريخ التي طالعتها على وقائع الترك مع الفرس والظاهر أن الملوك المذكورين اشتغلوا في تلك المدة بمحاربة الروم ومع ذلك يفهم مما نقل عن تواريخ الإفرنج إغارة الأتراك الموسومين عند قدماء الإفرنج باسكيت واسكيتس وأسكوتيا الخ على مقاطعة أذربيجان في عصر واحد من داريين المذكورين وإيراثهم فيها إضرارًا كليًا وإتلافه كثيرًا من عساكره حين قيامه لأخذ الثأر منهم.

قال رفاة بك في جغرافياه عند بيان اسكوتيا وأوصافهم وإنهم عين التتار فإن اسكوتيا تجرؤوا على سطوة دارا ولم يخشوا له بأسًا وجبهوه وأفادوه اعتبارًا عظيمًا وهم وإن قرعت قعقعة أسلحة الرومانيين آذانهم^(٢) إلا أنهم لم يذوقوا مرارة أحكامهم اهـ.

قال كارامزين لما أغارت الاسكيت على ولاية ميديا (أذربيجان) قام دارا ملك الفرس الأعظم لأخذ الثأر منهم فأتلف كثيرًا من عساكره القوية في هذا السبيل وذكر في تاريخ إسكندر المقدوني أثناء بيان إرادته ادعاء الألوهية أن الفيلسوف فالستنس قال له في تخطئة هذا الرأي السخيف والأمر الشنيع أن الفرس وإن أظهر رضاهم به بناء

(١) قال أبو الفرج الملطي داريوش المادي ملك سنة واحدة وقيل تسع سنين وبه بطلت مملكة النبط الكلدانيين منتقلة إلى الفرس المجوس ثم قال كورش الفارسي ملك ٣١ سنة واستولى على ملك العراق وخراسان وأرمينية والشام وفلسطين وتزوج أخت زوربايل ابن حفيد يوقايم ملك اليهود وفي عصره رجع بنو إسرائيل إلى القدس ثم قال قمباسوس بن كورش ملك ٨ سنة ثم قال داريوش بن كشتاسب ملك ٣٦ سنة ثم عدد إلى دار ابن دارا تسعة من الملوك والمنقول من تواريخ الفرس أن كورش لم يكن مستقلًا وإنما كان في عراق واليا من طرف بهمن بن أسفنديار وقيل كان مستقلًا والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) يعني أنهم وإن سمعوا أصوات أسلحة الروم في عصر اسكندر الماكيدوني لكنهم لم يصيروا محكومين عليهم لما مرت الإشارة آنفًا وسيجيء تفصيله في بيان أحوال اسكيت في القسم الثاني من هذه المقدمة إن شاء الله. منه عفي عنه.

على نفاقهم وسمعتهم ومراءاتهم ومصانعتهم إلا أن طائفة اسكيتس المعروفين بفقر الحال والحرية والاستقلال كيف يرضون به فإن كيروس بن فابوس الذي هو أول ملوك الفرس^(١) وإن عبادة الفرس مثل عبادة الله وكانت هذه العادة القبيحة جارية فيما بينهم وبين أهل العراق العجم من ذلك الوقت على ما هو مذكور في التواريخ إلا أن تأديب طائفة من اسكيتس لدارا مشهور في التواريخ أيضًا اه يعني بذلك إن عادة هذه الطائفة الصادقة هي هذه فكيف يداهنونك ويماشونك مثل الفرس المرائين المداهينين في هذا الأمر.

والحاصل أن نقل الناقلين أمثال هذه المعاملة الصغيرة التي لا قدر لها في جنب الوقائع السابقة عن تواريخ الروم والإفرنج في معرض مدح الأتراك يدل على عدم ذكر تلك الوقائع الجسيمة في تواريخهم وإلا لذكروها بالطريق الأولى حين ذكروا هذه المعاملة الصغيرة وبعض ما سيذكر بعد ذلك من وقائعهم وقد أشرنا إلى إجمال وقائعهم مع اسكندر المقدوني بعد دارا الأصغر وبعد ذلك ظهرت طبقة ثالثة من طبقات ملوك الفرس الأربعة تسمى باشكانية واشتهرت بملوك الطوائف^(٢) وقد وقع الاختلاف في أصل هذه الطبقة وربما يفهم من كلام بعض المتأخرين كونهم من طائفة اسكيت المار ذكرها آنفًا وكذلك وقع الاختلاف في مدة سلطنتهم فقبل خمسمائة سنة^(٣) وقيل أربعمائة وقيل أزيد وقيل أنقص ولم نطلع في التواريخ التي يذكر فيها أحوال الفرس على وقائع الأتراك معهم في تلك المدة وربما يستدل به على كون الطبقة المذكورة من الأتراك فإنه لو لم يكونوا منهم لاغتمت الأتراك فرصة ضعف الفرس وتفرقهم وهجموا على ممالكهم ولو هجموا لذكر بعض مهاجماتهم في بعض التواريخ.

والحاصل أن أحوال هذه الطبقة لا ترى في التواريخ المتصدية لبيان أحوال الفرس سواء كانت شهامة أو غيرها إلا مشوشة ومتشتتة ومناقضة بعضها ببعض.

(١) أول ملوك الفرس هو كيومرث. منه عفي عنه.

(٢) فإن إسكندر لما ملك بلاد الفرس كتب إلى أرسطو يستشيريه فيما يفعل فيهم فكتب إليه ما معناه قسم تحكم فجعل لكل كورة منها ملكًا وأكبرهم اشك فنسبوا إليه وإن ذريته بعض منهم فقط وهذه القاعدة جارية إلى الآن بين دول أوروبا في حق السفهاء الذين يسمون كذبًا مسلمين إنا لله وإنا إليه راجعون. منه عفي عنه.

(٣) قال رفاعة بك في جغرافياه. وفي نحو ٢٢٠ سنة من الميلاد ظهر إنسان من الفرس وسلب الملك من أشكانيان وأسس دولة الساسانية اه فهذا صريح في أن دولة اشكانيان دامت نحو ٥٣١ سنة فإن ظهور إسكندر الرومي على الفرس كان قبل الميلاد ٣١١ سنة. منه عفي عنه.

[ظهور الطبقة الرابعة من ملوك الفرس]

ثم ظهرت بعد هؤلاء الطبقة الرابعة من ملوك الفرس تسمى ساسانية وهي الأخيرة منها والخاتمة لها فبانقراضها انقرضت دولته الفرس بالكلية أولهم أردشير بن بابك وهو الذي أعاد وحدة دولة الفرس التي زالت بعد استيلاء إسكندر المقدوني عليها فنظم أمورها ورتب نظامها ولكن لا ترى له وقائع مع الأتراك في التواريخ المعتمدة إلا أن بعض المؤرخين الذين يهزون القاوق للفرس^(١) وهو منهم ذكر في تاريخه أنه توجه من سجستان إلى جهة جرجان ونيسابور ومرو وبلخ وخوارزم وعاد إلى مملكة فارس بعد تسخيره خوارزم اه فأشار إلى أنه نزع إقليم خوارزم من يد الأتراك ثم قال بعد أسطر لجهالته بمقدار الربع المسكون وحقيقته وماهيته وكيفية الاستيلاء عليه وصعوبته قيل إنه كان أحد الملوك الذين استولوا على جميع الربع المسكون^(٢) وطاف أطراف العالم وبنى بلادًا عظيمة اه وقد صادف نظرنا في بعض التواريخ أن الذي بنى السد الكائن بين سمرقند وبلخ هو هذا ورأيت في بعضها أيضًا أثناء بعض سياحتي سابقًا أن أول من بنى السد الذي في أرمنية كافكازيا هو هذا ثم إنه لما انهض ومحي أثره تحراه أنوشروان وظفر به وجدده كما سيجيء وكله غير بعيد عن العقل.

وكذلك ذكر في بعض التواريخ إغارة الأتراك على حدود الفرس مقتدين بالروم والعرب في أوائل سلطنة شاپور ذي الأكتاف^(٣) من العائلة المذكورة لكونه صغيرًا إلا أنه لا يرى فيه ما فعله بالأتراك مثل ما فعل بالروم والعرب بعد كبره من أخذ الثأر والانتقام والنكاية بهم.

والحاصل لا يرى وقائع الأتراك مع الفرس في عهد هذه العائلة الساسانية في التواريخ إلى عصر بهرام كور بن يزدجرد الأثيم الذي هو الخامس عشر من ملوك العائلة المذكورة.

وأما في عصره فقد قيل إن خاقان الترك قصد بلاد إيران مع مائتين وخمسين ألفًا من عساكر الترك بناء على رخاوة المشار إليه وإهماله في أمر الملك وعبر نهر جيحون

(١) يعني المداهنون لهم ويظهرون المحبة لهم. منه عفي عنه.

(٢) وقد عرفت فيما تقدم أنهم يدعون أن أكثر ملوكهم ملكوا الدنيا بأسرها. منه عفي عنه.

(٣) لقب به لخلعه أكتاف العصاة من العرب. منه عفي عنه.

ووصل إلى مرو وفي رواية إلى الري فلما بلغ عظماء الفرس هذا الخبر إلى بهرام كور وأفهموه لزوم دفع تلك الغائلة لم يصغ إلى كلامهم بل أناب مقامه أخاه نرسي وتوجه هو نفسه إلى جهة أذربيجان بنية التنسك في بيت نار مشهور بها وبنية الاصطياد في براريها وأخذ معه سبعة من أبناء الملوك وثلاثمائة من مشاهير الأبطال فلم تشك الفرس في أنه هرب خوفاً من صولة الأتراك فأرسلوا إلى خاقان الترك سفيراً مع هدايا ثمينة يطلبون منه المهادنة والمصالحة على أن يعطوه الخراج ففرح الخاقان من هذا الحال غاية الفرح واستغرق في العيش والطرب.

وأما بهرام فأخذ من أذربيجان ألف فارس وتوجه بهم وبمن كان معه أولاً نحو خاقان الترك من طريق قصير غير مسلوك فلما قرب من معسكر الخاقان قسم من معه على أربعة أقسام وهجموا على معسكر الخاقان من جوانبه الأربعة في ليلة مظلمة فجأة وهم آمنون مطمئنون لا يخطر ببالهم هجوم العدو لإظهارهم الانقياد والرضاء لأداء الخراج فاستولت عليهم الحيرة والاندھاش ولم يدروا ما جرى عليهم ولم يعرفوا ماذا يصنعون بل لم يكن لأحد منهم هم إلا في الهرب والنجاة بروحه فأمسكوا الخاقان في خيمته وعلى رواية حين فراره وقتلوه فانهزمت عساكره وتفرقوا شذر مذر وتركوا كافة أموالهم وخزائنهم ومهماتهم وخيامهم كما هي لم يأخذوا منها حبة ولم يكن لبهرام هم إلا في تعقبهم فتعقبهم إلى شاطيء جيحون ثم أرسل منه واحداً من قواد عسكره إلى ما وراء النهر^(١) فاستولى عليها فجأة سفراء من طرف خاقان الترك يطلبون منه المصالحة فاصطلحوا إلى حد معلوم وبنى بهرام في المحل المذكور منارة عالية علامة وتذكارةً لغلبته وذهب بعضهم إلى أن السد الذي بين بلخ وسمرقند بناه بهرام كور المذكور ولا يستبعد.

ذكر وقائع أقوام الهياطلة من الأتراك مع فيروز ملك الفرس

لما مات بهرام كور تملك بعده ولده يزدجرد ١٨ سنة ولم أر له ذكر وقائع مع الترك وإن حارب الروم وجعل يزدجرد ولده الأصغر هرمز ولي عهده بعده وجعل

(١) ولما لم أر للزوم في ذكر المحاكمات في هذه الترهات تركتها وأحلتها على أفكار القارئ الكرام وإدراكهم ووجدانهم سلمنا أن الهجوم في الليلة المظلمة بغتة على الغفلة يوجب الانهزام ولكن في كم مدة من الزمان قطعوا مسافة ما بين مدينة مرو أو الري ونهر جيحون التي هي مسافة أيام عديدة وكم نفرًا منهم ذهبوا إلى ما وراء النهر مع القائد المذكور واستولوا عليها ولا شك أن جميع من معه على قولهم ألف وثلاثمائة نفر وهل لم يمت منهم في تلك المعركة والاستحالة إنما هي هنا فليتأمل المنصف العاقل هنا حق التأمل. منه عفي عنه.

ولده الأكبر فيروز حاكمًا وواليًا على ولاية نيمروز فانفعل فيروز من الوضع المذكور ولما مات أبوه يزدجرد وتملك أخوه هرمز ذهب إلى بلاد الهياطلة^(١) وهم قوم من الترك كانوا يسكنون في ولاية طخارستان وبدخشان والتجأ إلى ملكهم خوشنواز^(٢) واستمد به على أخيه هرمز فلما حلفه خوشنواز وتبين صدقه أمدته بثلاثين ألفًا من فرسان الترك على أن يترك له في مقابلة معروفة هذا بلدة طالقان أو ترمذ وكانت سابقًا تحت تصرف الفرس فأجلسوه على تخت مملكة الفرس.

الوقعة الأولى: ولما تملك فيروز ولم يترسخ قدمه في الملك بعد لم يكن له هم إلا في كفران النعمة وإساءة من أحسن إليه وأراد أن ينقض عهده مع ملك الهياطلة خوشنواز ومحاربتة فنصحها عقلاء أصحابه ومنعوه عن ذلك وحذروه وخامة عاقبة الغدر والخيانة وكفران النعمة ولكن كل ذلك لم يؤثر فيه ولم يرعو عن غيه فقصد بلاد الهياطلة بعساكر لا يحصى فلما سمع به خوشنواز صار مغمومًا ومهمومًا فقال له واحد من أصحابه اقطع يدي ورجلي ثم ألقني على ممره وأنا أعرف بعد ذلك ما أفعل به ولكن أحسن إلى عيالي ففعل الملك ما أشار به إليه فاجتاز به فيروز فسأله عن حاله

(١) قال في البرهان القاطع الهياطلة بكسر الطاء اسم بلدة والهيئة بالهاء المثناة يطلق في لغة بخارى على شخص قوي صحيح البدن واسم لولاية ختلان ويطلق على أميرهم هياتلة والختلان كورة في إقليم بدخشان وقال في ترجمة القاموس الهياطل اسم لإقليم ما وراء النهر وقوم مخصوص من الترك وعلى قول من الهند ظهروا في سالف الزمان وكان يقال لهم أيضًا هياطل وهياطلة ثم ذكر قول صاحب البرهان وقال يمكن أن يكون هياتل مخفف هياطل ويكون هياطلة جمع معربة اه وقال المسعودي الهياطلة هم الصغد وهم بين بخارى وسمرقند اه وقال ابن الأثير ومملكة الهياطلة هي طخارستان اه قال في ترجمة القاموس طخارستان بضم الطاء اسم بلدة واقعة في التركستان اه وقد تقدم أثناء بيان وقائع الترك مع الصين أن الهياطلة أتراك ما وراء النهر وربما يقال لهم في التواريخ المأخوذة عن تواريخ الإفرنج افتاليت وقيل إن أصله آب تله بمعنى ساحل النهر فيكون معناه السواحلي ويقال إن افتاليت أصل إبدال تركمان ويمكن أن يكون أصل هياطل آيدار فيبدل الهمزة هاء والدال تاء أو طاء والراء لآما فيكون هياتل أو هياطال فيجمع بعد التعريب على هياطلة على ما قال مترجم القاموس ويمكن أن يكون أصل طخارستان طوارستان بالواو بدل الخاء بمعنى مملكة أرباب المواشي والله سبحانه أعلم وقال الحموي هياطل بالفتح ثم السكون وفتح الطاء المهملة اسم لبلاد ما وراء النهر وهي بخارى وسمرقند وخجند وما بين ذلك وخلالها سمي بهياطل بن عالم بن سام بن نوح الخ. منه عفي عنه.

(٢) وقع في تاريخ ابن الأثير اخشنوار بالراء المهملة تارة والزاي المعجمة أخرى وفي مروج الذهب في موضع احسران وفي آخر احسوان والذي ذكرناه منقول عن روضة الصفا وله معنى معقول كما لا يخفى ولهذا اخترناه. منه عفي عنه.

فقال له إني نصحت خوشنواز وقلت له إنك لا تقدر على قتال فيروز فعليك بطاعته والانقياد له فغضب عليّ وفعل بي هذا الذي تراه وتظلم منه فرق له فيروز ووعده أن ينتقم له من خوشنواز فقال له ذلك الرجل إن خوشنواز ينتظر من الطريق المعهود والأولى أن تسلك طريقاً غير معهود وغير مسلوک هو أقرب وأقصر من الطريق المعهود بمراتب وأن تهجم عليه بغتة لأنه لا يخطر بباله أنك تجيء من هذا الطريق وأنا أكون دليلك عليه ففرح فيروز بذلك فرحاً زائداً وصمم على سلوك الطريق المذكور ولم ينفعه أيضاً منع عقلاء وكلائه عن ذلك وإشارته إلى لزوم سلوك الطريق المعهود فسلكه وكان عبارة عن مفازة لا ماء بها ولا كلاً فصاروا يقطعون مرحلة بعد مرحلة وقد نفذ ما معهم من الماء في أول مرحلة فاستولى العطش عليهم وعلى دوابهم فصار يموت كثير منهم في كل مرحلة حتى هلك أكثرهم ولما علم الرجل المذكور أنهم لا يقدرّون الخلاص أعلمهم بحاله فشاور فيروز بقية أصحابه في التقدم والرجوع فقالوا حذرناك فلم تحذر فليس الآن إلا التقدم على كل حال فتقدموا أمامهم لتيقنهم بعدم بقاء فرد منهم إن رجعوا فوصلوا إلى مقربة من معسكر خوشنواز وهم في مخلب الموت من العطش لا قدرة لهم على الحركة فضلاً عن القتال فأرسلوا إلى الملك خوشنواز رسولاً يعتذرون إليه ويسترحمونه ويطلبون منه العفو والمصالحة وأن يخلي سبيلهم ليعودوا إلى بلادهم فقبل خوشنواز وأركان دولته الذين كان الفرس لا تذكرهم إلا بالكلاب عذرهم وصالحوهم على أن لا يقصدهم هو يعني فيروز نفسه بسوء ولا بإرسال العساكر فيما بعد وحلقوهم على ذلك وكتبوا كتابة الصلح والمعاهدة وخلوا سبيلهم بالإعزاز التام وكمال الاحترام مع أنهم كانوا قادرين على استيصالهم بالكلية وهم كانوا مستحقين لذلك ولم يصدر عنهم شيء سوى التوبيخ والتعيير بالإساءة في مقابلة الإحسان والملامة لنقض العهد والغدر الذي لا يناسب لمن يطلق عليه لفظ الإنسان.

الوقعة الثانية بين فيروز وخوشنواز ونيل فيروز جزاء سوء عمله بالاستحقاق وكونه مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: الآية ٤٣]:

قال رسول الله ﷺ: «لن تستوفي النفس الخبيثة أجلها حتى تسيء إلى من أحسن إليها»^(١) ومصداق هذا القول هو فيروز الفارسي فإنه بعد مرور زمان من الحادثة السابقة أغواه إبليس على الانتقام من الهياطلة في الظاهر وعلى كفران النعمة والغدر

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث.

والمشي إلى مصرعه بقدميه لرؤية جزاء سوء عمله في الحقيقة فجمع جيشًا كثيفًا وعزم على قصد بلاد الهياطلة وقد منعه موبذ موبذان وسائر عقلاء الأعيان في هذه النوبة أيضًا عن هذا الفعل الشنيع وحذروه من وخامة عاقبة الغدر والخيانة ونقض العهد إلا أن كل ذلك لم يؤثر فيه شيئًا وذهب سعيهم فيه أيضًا أدراج الرياح بل أصر على ما قصده ونواه فاستناب والي سجستان المسمى بسوخرا المشهور عند العامة بصوقرا مقامه وسلم إليه ولديه بلاش وكيقباز وسار بنفسه مع عساكر لا يحصيها العد ولا يحيط بها الحد قاصدًا بلاد الهياطلة فلما سمع خوشنواز بقصده شرع في تهيئة أسباب المدافعة فجمع عساكره وحفر خندقًا طويلًا عرضه عشرة أذرع وعمقه عشرون ذراعًا وغطاه من فوقه بأخشاب ضعيفة وتبن وتراب فوقها وعسكر في جانبه الذي يجيء منه فيروز فلما وصل فيروز ذكره بالعهد المؤكد باليمين بينهما وحذره من وخامة الغدر ونقض العهد فلم يصغ إليه بل أصر على عتوه وعناده فرفع خوشنواز صحيفة العهد على رأس الرمح نحو السماء وقال يا رب خذ عبدك فيروز بموجب ما فيها من العهد والصق غدرة بعنقه ثم عبر بعسكره إلى طرف آخر من الخندق من الطريق الذي كان هياه لذلك فظن فيروز هذه الخديعة منه هزيمة لجهله بالمكيدة فبادر إلى طردهم وتعقيبيهم بكافة عساكره مسرعين فوقعوا في الخندق أجمعون وفي رواية أن فوق الخندق لم يكن مستورًا بل مكشوفًا وكان معسكر خوشنواز في طرف آخر منه فبنى فيروز عليه جسرًا فعبروه إلى طرف آخر من فوق الجسر ووضعوا فيه علامة ليعلم بها إذا اقتضى الحال الرجوع ثم جرى ما سبق ذكره من التذكير والتحذير والعناد والدعاء فحذر عقلاء أصحاب فيروز إياه من سوء عاقبة الغدر ثانيًا فلم ينته ولما رأى عسكر فيروز ما فعله خوشنواز من رفع الصحيفة نحو السماء والاستغاثة والتظلم أثر فيهم ذلك الفعل غاية التأثير فانحل عزمهم وزادت رخاوتهم وجبانتهم ولما نشبت المحاربة بين الفريقين وقعت الهزيمة على عسكر الفرس في الحال وولوا الأدبار وتوجهوا نحو الخندق بغاية الاستعجال فضلوا طريق الخندق أو نسوا وجوده بالكلية لاستيلاء الخوف والدهشة عليهم فوقعوا في الخندق بعضهم فوق بعض وهلكوا جميعًا^(١) فاستولى خوشنواز^(٢) على كافة ما في معسكر فيروز من الناطق والصامت وأسر نساءه على

(١) وهذه الواقعة هي التي مرت الإشارة إليها إجمالاً نقلًا عن واحد من مؤرخي الإفرنج أثناء بيان أوصاف الأتراك إجمالاً ووعدنا بذكرها فتذكر. منه عفي عنه.

(٢) قال المسعودي في بيان أحوال فيروز أنه قتل في مرو الروذ ببلاد خراسان على يد باحسران (يعني خوشنواز) ملك الهياطلة اهـ. منه عفي عنه.

رواية ابن الأثير^(١) تبعًا للطبري وبنته التي كانت من عقلاء أهل زمانها على رواية ميرآخوند وفي الحقيقة لا اختلاف بين هاتين الروايتين فإن بنات الفرس المجوس كحمير البخاريين في كونهن ذوات الجهتين^(٢) ثم استولى خوشنواز على بلاد خراسان فلما بلغ هذا الخبر لسوخرا نائب فيروز جمع من عساكر إيران ما قدر على جمعه وأسرع إلى مدافعة خوشنواز وتخليص خراسان من يده.

وقال ابن الأثير^(٣) تبعًا للطبري أنه وقعت بينهما محاربة فانتصر سوخرا على خوشنواز واسترجع منه بلاد خراسان واسترجع الأموال والأسارى التي كان خوشنواز اغتناها من معسكر فيروز.

وقال مير آخوند انعقد بينهما صلح على أن يرد خوشنواز جميع ما أخذه من معسكر فيروز من الأسارى والأموال فردها فرجع الطرفان إلى مقرهما بالمحبة والمودة اهـ وهذا أقرب إلى العقل فإننا لو سلمنا استرجاعه خراسان حربًا ولكن كيف يسترد الأسارى والأموال فإنها ببلاد الهياطلة لم يحملها خوشنواز إلى خراسان البتة ولم يذكر أحد غلبة سوخرا على بلاد الهياطلة ودخوله فيها حتى نقول إنه استردها حينئذ.

ذكر فرار قباد بن فيروز إلى بلاد الترك والتجائه إلى خاقان الترك وجلوسه على سرير سلطنة الفرس بإمداده

وبعد وقعة فيروز وخراسان أجلس عظماء الفرس باتفاق من سوخرا على سرير الملك بلاش بن فيروز فلم يرض به أخوه قباد بن فيروز وهرب إلى بلاد الترك والتجأ إلى خاقانهم وتظلم من صنيع الفرس واستمد به عليهم اقتداء بأبيه فيروز ولما أقام عندهم أربع سنين أعطاه الخاقان عسكريًا كافيًا وأرسله إلى بلاد الفرس وكان وقت ذهابه إلى بلاد الترك لما وصل إلى بلد نيشابور غلبته شهوته البهيمية وزادت غلمته فقرن بواحدة من بنات أحد أعيان تلك البلدة على رسمهم وبات بها ليالي ذوات عدد ثم تركها في بيت أبيها وذهب فحبلت البنت المذكورة

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/٣١٢ - ٣١٤، وفيه: «اخشنوار» بدل «خوشنواز».

(٢) ولا سيما إذا كانت من عقلاء الزمان فإنه كيف يعطيا ح للأجانب ولما لم يتنبه ميرآخوند على هذه النكتة قال والعجب أنه يترك أبناءه في بيته ويحمل ابنته معه إلى المحاربة اهـ. منه عني عنه.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١/٣١٤.

منه وولدت ولدًا ذكرًا ولما وصل قباد إلى نيشابور عائدًا من بلاد الترك استفسر عن مخلفته فجاءه أبوها بها وبولدها وسلمهما إليه ففرح به قباد فرحًا كثيرًا وسماه نوشروان وهو الذي اشتهر في التواريخ بنوشروان العادل وبقي اسمه إلى الآن مذكورًا في ألسنة الناس لعدالته وإصلاحه من مملكة الفرس ما أفسده سلفه وهكذا يكون شأن العدالة والإصلاح يخلدان ثناء حسن صاحبهما في بطون الدفاتر إلى يوم القيامة وكذلك ضدهما يخلدان سوء ذكر صاحبهما وشمته وذمه في بطون الدفاتر إلى يوم القيامة ولما مات بلاش في تلك الأثناء جلس قباد على سرير سلطنة إيران بلا منازع

وفي عصره ظهر شخص في بلدة اصطخر من بلاد إيران يسمى مزدك^(١) وكان زنديقًا فاسد الطبع مفسدًا للناس أظهر الزندقة ونشر الفساد في بلاد الفرس وصدق مذهب زرادشت الزنديق وزاد عليه في الإفساد والزندقة وقال باشتراك كافة الناس في النساء والأموال وكافة الأشياء والأملك^(٢) وعدم اختصاص فرد منهم ورجحانه في شيء منها ولما كان هذا المذهب مناسبًا وملائمًا للأوباش والأرذال غاية المناسبة والملاءمة تبعه أكثر الأرذال الذين هم السواد الأعظم من الناس واتخذوه لأنفسهم مذهبًا ومسلكًا فكثرت أتباعه في مدة يسيرة جدًا حتى أن قباد قبل المذهب المذكور وتمذهب به إما لكونه مغلوب الشهوة وإما بناء على ظهور أنواع الحيل والشعوذة من الزنديق المذكور فبذلك زادت البلة في الطين واستولى الفساد على كافة أرجاء مملكة الفرس وعم الخراب بها في مدة قليلة فإنه لم يبق لأحد زوجة وملك مخصوص به وزد على ذلك تنزل كل شخص مرتبة البهائم بل إلى أسفل وأدون منها لعدم إطاعة أحد لأحد وانقياده له بناء على فساد الأخلاق والعادات لفقدان التربية ببطلان النسب وكون الناس فوضى واستغراق الهرج والمرج جميع أنحاء المملكة فاضطر الأهالي إلى

(١) مزدك: هو رجل مشهور منسوب إلى الزندقة، ظهر في زمن قباد أحد ملوك الفرس من الأكاسرة، وأدعى النبوة ونهى عن المخالفة والمباغضة، وزعم أن ذلك إنما يحصل بسبب النساء والماء، فأمر بالاشتراك والمساواة فيهما، وتبعه قباد على ذلك. وكان يقول: إن النور عالم حساس والظلام جاهل أعمى، والنور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق، وأن امتزاج النور والظلمة كان بالاتفاق والخبط دون القصد والاختيار وكذلك الخلاص، وله اتباع يقال لهم المزدكية، ولم يزل على ذلك حتى قتله شروان بن قباد هو وأتباعه (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي ١٣/٢٩٨ - ٢٩٩).

(٢) وأظن أن مبدأ الاشتراكيين ومأخذ مذهبهم هو هذا. منه عفي عنه.

الهجرة وترك الوطن فقام أصحاب الغرض والناموس من أعيان الأهالي وحبسوا قباد وملكوا مكانه أخاه جاماسب ثم خلع أخته من الحبس بنوع من لطائف الحيل وعلى قول كان ذهاب قباد إلى بلاد الترك بعد خلاصه من هذا الحبس فاسترد ملكه من أخيه جاماسب بإمداد خاقان الترك والله أعلم بحقيقة الحال.

قال ابن الأثير^(١) وفي أيامه خرجت الخزر فأغارت على بلاده فبلغت الدينور فوجه قباد قائدًا من عظماء قواده في اثني عشر ألفًا فوطيء بلااران (اريوان) وفتح ما بين النهر المعروف بالرس (آريس) إلى شروان ثم إن قباد لحق به فبنى باران مدينة البيلقان ومدينة البردعة وهي مدينة الثغر كله غيرهما ثم بنى سد اللان^(٢) فيما بين أرض شروان وباب اللان فبقي الخزر وراء السد وبنى على السد المذكور مدناً كثيرة خربت بعد بناء باب الأبواب.

وفي هذه الأثناء يذكر مؤرخو العرب كالطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم ظهور ملوك الحمير وتبابعة اليمن وخروجهم وغلبتهم ملوك الفرس والروم والترك والصين على ممالكهم وبناء شمر ذي الجناح منهم بلدة سمرقند وتسميتها لذلك شمرقند أو فتحه إياها بنوع من الحيل وكون خواقين إقليم تيبت بل خواقين كافة ممالك الترك من بقاياهم وذرياتهم إلى غير ذلك من الترهاب الباطلة والخرافات العاطلة بالبدهة وذلك لكون التاريخ مضبوطاً في الوقت المذكور ومتقناً غاية الضبط والاتقان وكون كل واحدة من الدول المذكورة أعني الفرس والروم والترك والصين في أوج القوة وذروة الشوكة في العصر المذكور واستحالة العقل غلبة القوم المذكور أعني

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣١٩/١.

(٢) هكذا في المنقول عنه والظاهر من كلام المؤرخين والجغرافيين أنه غير السد المشهور بباب الأبواب الآتي ذكره وقد اشتهر بقلعة اللان قال في مروج الذهب وبين ملك اللان وجبل الفتح قلعة وقلعة على وادٍ عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسفنديار بن كشتاسب ورتب في هذه القلعة رجالاً يمنعون اللان عن الوصول وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة وقد ذكرتها الفرس في أشعارها وما كان لاسفنديار في بنائها الخ وقال أبو الفدا وقلعة اللان التي هي إحدى قلاع العالم تتعمم بالسحاب وهي حيث الطول فح كذا والعرض م م وهي على ذروة الجبل الذي إلى جانب الباب الحديد وفي شمالي السور المبني فيه الأبواب وهي اليوم في مملكة بركة سلطان التتر المسلمين وما في جنوبيه فلاين هلاكو اه وما في الكتاب أعني قوله باب اللان هكذا في المنقول عنه والظاهر أنه باب الأبواب والله سبحانه أعلم بالصواب. منه عفي عنه.

الحمير على واحدة منها بناء على قلة أسباب النقل بل فقدانها في الوقت المذكور وهذا مع قطع النظر عن أحوال الحمير وأهل اليمن فيه وإلا فقد كانوا محكومين فيه للحبشة وخاضعين لأحكامهم لأن هذا الوقت قبيل ولادة النبي ﷺ بسنين يسيرة عندي أن أوقات خروجهم قبل ذلك بقرون كثيرة لا يضبطها التاريخ^(١) وإنما الخطأ في ذكره هنا وبعض المبالغات فيه وإلا فلا دليل يدل على إنكار أصله فيراجع عشاق الخرافات والمقلدون بالتقليد الجامد الذين لا حظ لهم من الحقائق التاريخية تواريخ الطبري وابن الأثير والمسعودي وغيرها ولكن أوصيهم أن يجيلوا نظر الاعتبار فيما ذكره ابن الأثير في تاريخه من عنده بعد نقله الحوادث المذكورة عن الطبري ما أورده ابن خلدون في أوائل مقدمة تاريخه من المحاكمة العقلية المطابقة لنفس الأمر وأرجوهم ذلك.

ولما مات قباد جلس مكانه ولده أنوشروان ولأنوشروان هذا وقائع كثيرة مع الترك في جهة ما وراء النهر ووجهة الخزر والداغستان كما مرت الإشارة إلى بعض وقائعها في جهة ما وراء النهر أثناء بيان وقائع الأتراك مع الصين ولكن الأسف أن تلك الوقائع المنتظمة المطابقة لنفس الأمر لم تذكر منتظمة ومفصلة في التواريخ التي تبين فيها تلك الوقائع كتفاصيل الخرافات التي مر ذكرها بل وقع فيها مشتتة غير منتظمة ومجملة غير مفصلة مع أنها كانت أولى بالانتظام والتفصيل والاعتناء بها.

ومن ذلك ما قاله ميرآخوند أن أنوشروان لما قتل مزدك الملعون وأصلح مملكته شرع في فتح بلاد طخارستان وكابلستان وصغانيان وبلاد الهياطلة فسمع في تلك الأثناء أن خاقان الصين يعني خاقان الترك الذي وقعت في قلبه إرادة فتح البلاد قصد الاستيلاء على الممالك قام من بلاده بهذا القصد واستولى على إقليم فرغانة وما وراء النهر فأرسل ولده هرزم مع عسكر عظيم لاستقباله ولما سمع خاقان بذلك لم يتجاسر على المقابلة بل رجع إلى بلاده من أقصى تركستان اهـ.

(١) وهؤلاء الكبراء أيضاً قائلون بتقدم زمان ظهور ملوك الحمير والتبابعة في مواضع آخر كما يقولون في بناء تبع المدينة وإبقاء أربعمائة من الحكماء فيها لإبلاغ سلامه وكتابه النبي ﷺ وإكسائه الكعبة وكل ذلك قبل ولادته ﷺ بقرون متطاولة لا يضبطها التاريخ وكذلك يشتون لقاء ذي القرنين إبراهيم عليه السلام في مكة المكرمة وهو من التبابعة في القول الصحيح الصواب. منه عفي عنه.

وذكر ابن الأثير^(١) أيضًا تبعًا للطبري ما يشابهه على سبيل الاختصار قال لما قتل أنوشروان مزدك اللعين وأصحابه ورد الأملاك والنساء إلى أصحابها وأصلح البلاد ونظم الأمور ارتجع بلادًا كانت أولاً من مملكة الفرس منها السند وسندوست والرخج وزابلستان وطخارستان وأعظم القتل في النازور وأجلى بقيتهم عن بلاده واجتمع أبخز (لعله آبازه) وبنجر^(٢) وبلنجر واللان على قصد بلاده فقصدوا أرمينية للغارة على أهلها وكان الطريق سهلاً فأمهلهم كسرى حتى توغلوا في البلاد فأرسل إليهم جنودًا فأهلكوهم ما عدا عشرة آلاف رجل أسروا فأسكنهم أذربيجان وكان جده فيروز قد بنى بناحية صول والآن^(٣) بناء يحصن به بلاده وبنى عليه ابنه قباد زيادة فلما ملك كسرى أنوشروان بنى في ناحية صول وجرجان بناء كثيرًا وحصونًا يحصن بها بلاده جميعًا ثم إن سيجبور الذي هو أعظم خواقين الترك استمال الخزر وابعز (آبازه) وبلنجر فأطاعوه وقصد بلاد الفرس وأقبل في عدد كثير وكتب إلى كسرى يطلب منه الإتاوة ويهدده إن لم يفعل فلم يجبه كسرى إلى شيء مما طلب لتحصينه بلاده وإن ثغر أرمينية قد حصنه فصار يكتفي لحمايته بالعدد اليسير فقصد خاقان بلاده فلم يقدر على شيء منها وعاد خائبًا وهذا الخاقان هو الذي قتل وزير ملك الهياطلة وأخذ كثيرًا من بلادهم اهـ.

ثم قال^(٤) بعد ذكره وقائع أنوشروان مع الروم واليمن ثم سار نحو الهياطلة ليأخذ بثأر جده فيروز وكان أنوشروان قد صاهر خاقان قبل ذلك ودخل كسرى بلادهم فقتل ملكهم واستأصل أهل بيته وتجاوز بلخ وما وراء النهر وأنزل جنوده فرغانة ثم عاد إلى المدائن وغزا البرجان ثم رجع.

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/ ٣٣٦ - ٣٣٨.

(٢) هكذا في نسخة ابن الأثير المنقول عنها والظاهر بل الصواب أنه خزر. منه عفي عنه.

(٣) هكذا في نسخة ابن الأثير المنقول عنها قال في القاموس صول اسم رجل واسم موضع اهـ قلت هذا الموضع الذي كان يسمى سابقًا بالوصول هو في جهة جرجان وأما اللان فليس في طرفهم موضع يسمى بصول والظاهر بل الصواب أنهما لفظ واحد وهو سولان بفتح السين والواو حرفوه إلى ما في النسخة وسولان جبل يقرب أردبيل قال في البرهان سولان على وزن همدان جبل في أذربيجان كان يسكن به في سالف الزمان أهل الرياضة وللمجوس في حقه اعتقاد قوي واحترام عظيم حتى أنهم يحلفون به اهـ وسمعت بعض أجبائنا يقول إنه رآه ورأى فوقه آثار قلاع قديمة عجيبة جدًا وإن اسمه صو آلان يعني الجبل الذي يؤخذ منه الماء سمي به لأخذ الناس ماء من عين في سفحه اهـ والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

ذكر مصاهرة كسرى أنوشروان خاقان الترك وبنائه السد بأرمينية المشهور عند العرب بالباب وباب الأبواب^(١) والباب الحديد وعند الأتراك بديمر قيو ودريند وتشبيته في ذلك بلطائف الحيل

قال ابن الأثير^(٢) بعد ذكره ما مر كانت أرمينية وأذربيجان بعضها للروم وبعضها للخزر فبنى قباد سورًا مما يلي بعض تلك الناحية فلما توفي وملك ابنه أنوشروان وقوي أمره وغزا فرغانة وبرجان وفتح جميع ما كان بيد الروم من أرمينية وعمر مدينة أردبيل وعدة حصون كتب إلى ملك الترك يسأله المودعة والاتفاق ويخطب إليه ابنته ورغب في مصاهرته فتزوج كل منهما بابنة الآخر فأما كسرى فإنه أرسل إلى خاقان ملك الترك بنتًا كانت قد تبنتها بعض نساءه^(٣) وذكر أنها ابنته وأرسل ملك الترك إليه ابنته واجتمعوا فأمر أنوشروان جماعة من ثقاته أن يكبسوا طرفًا من عسكر الترك ويحرقوا فيه ففعلوا فلما أصبحوا شكوا له ملك الترك ذلك فأنكر أن يكون له علم به ثم أمر بمثل ذلك بعد ليال فضج التركي فرفق به أنوشروان فاعتذر إليه ثم أمر أنوشروان أن تلقى النار في ناحية من عسكره فيها أكواخ من حشيش فلما أصبح شكوا إلى التركي وقال كفاتني بالتهمة فحلف التركي أنه لا يعلم بشيء من ذلك فقال له أنوشروان إن جندنا قد كرهوا صلحنا لانقطاع العطاء والغارات ولا آمن أن يحدثوا حدثًا يفسد قلوبنا فنعود إلى العداوة والرأي أن يأذن لي في بناء سور يكون بيني وبينك نجعل عليه أبوابًا فلا يدخل إليك إلا من تريده ولا يدخل إلينا إلا من نريده فأجابته إلى ذلك وبنى أنوشروان السور من البحر وألحقه برؤوس الجبال وعمل عليه أبواب الحديد وبنى لكل باب قصرًا من الحجارة وبنى مدينة الباب والأبواب وإنما سميت أبوابًا لأنها بنيت على

(١) قال في معجم البلدان باب الأبواب ويقال له الباب غير مضاف والأبواب وهو الدريند دريند شروان قال الاصطخري وأما باب الأبواب فإنها مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها وقال أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني وباب الأبواب أفواه شعاب في جبل القيق فيها حصون كثيرة منها باب الصول وباب اللان وباب الشيران وباب الأزقة وباب البارقة الخ قلت ومن هذا يعرف وجه تسميته بباب الأبواب ثم قال الحموي بعد بيان كيفية بنائه على الوجه الآتي وينسب إلى الباب والأبواب جماعة منهم زهير بن نعيم البابي وإبراهيم بن جعفر البابي قال عبد الغني كان يفيد بمصر وقد أدركته وأظنهما يعني زهيرًا وإبراهيم ينسبان إلى باب الأبواب وهي مدينة دريند والحسن بن إبراهيم البابي حدث عن حميد الطويل، عن أنس عن النبي ﷺ تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر ثم ذكر جماعة منهم. منه عفي عنه.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٣٧.

(٣) يعني اختلف فيها فقيل: إنها متبناته وقيل بنته الصليبية. منه عفي عنه.

طريق في الجبل وبنى غير هذه من المدن وأسكن بها وبالقصور قومًا سماهم السياسجيين^(١) ووكلمهم بحراستها ورتب ملوكًا على النواحي فمنهم صاحب السيرير وفيلان شاه والكز (لزكي) ومسقط (مساغيت ومساژيت وماساعي) وغيرها فليل لملك الترك إنه خدعك وزوجك غير ابنته وتحصن منك فلا تقدر له على حيلة ولم تزل أرمينية بأيدي الفرس حتى ظهر الإسلام فرفض كثير من السياسجيين حصونهم ومدائنهم حتى خربت واستولى عليها الخزر والروم وجاء الإسلام وهي كذلك اه بأدنى تغيير وتنقيح.

ولما كان السد المذكور آنفًا مما يعتنى بشأنه ويهتم بذكره لم أستحسن أن أهمل ذكره بالكلية بل أحببت أن أنقل خلاصة ما قال فيه كبار المؤرخين فأقول وبالله التوفيق: إن أقوال المؤرخين الكبار مختلفة فيه وقد بالغ فيه بعضهم مبالغة عظيمة جدًا وأورد فيه حكايات ينبو عنها العقل ويستبعدها والحاصل أنها مبنى في منتهى سلسلة جبال الكافكاز من بحر البخزر ومبدؤه من مسافة ميل من البحر وإنما بدأوا من البحر لمنع مرور سفن الوقت المذكور من البحر بنوه فيه بنوع من لطائف الحيل ذكر في بعض التواريخ أن طوله أربعون فرسخًا وارتفاعه نحو السماء يحاذي الذروة الأعلى من جبال كافكازيا ومئاته غير قابل التوصيف وما بين كل بايين ثلاثة أميال وأنقص وأزيد بحسب مقتضى الممر والموضع وكل باب مصنوع من حديد وعلى كل باب وذروة ومحل مناسب قلاع وحصون مستحكمة وقد وضع على كل قلعة وحصن منها حراس يحرسون الحدود والثغور من الأقوام التركية بغاية الاهتمام.

وقد شبه المسعودي^(٢) ترتيبات أنوشروان فيه الملوك والعساكر الحراس بعد بيانه إياها بترتيبات أردشير بن بابك ملوك خراسان لحراسة ثغر الترك من تلك الجهة وقد بين قبل ذلك ترتيباته في أثناء ترجمة أحواله ويومئذ بذلك إلى أنه أعني أردشير هو الذي بنى السد الكائن بين بلخ وسمرقند المار ذكره بمثل هذا الاهتمام وإن لم يصرح بذلك.

وقد رأيت في بعض المجموعة أن أنوشروان أتمه في مدة أربع سنين والحاصل أنه لما أحدث السور المذكور بالكيفية المذكورة صار يحرس الثغر المذكور مئات من

(١) لعل أصله صاقجيين جمع صاقجي لفظ تركي بمعنى الحارس مرادف قراغول (قراقول) بالتركي أيضًا وفي المعجم الانشاستكين. منه عفي عنه.

(٢) انظر مروج الذهب ٢١٠/١ (فقرة رقم ٤٤٤).

العسكر بالسهولة بعد أن كان يعجز عن حفظه مائة ألف من شجعان العساكر ودام هذا الحال إلى أن ظهر الإسلام ودخل المسلمون بلاد الفرس فتفرق الحراس والحماة بعدئذ وتركوا مراكزهم ومواقعهم شاغرة خالية فاستولت عليه الخزر والروم وهدموه وخربوا القلاع والحصون كذا قيل والظاهر أن استيلاءهم عليه كان قبل ذلك فإن الخزر اتفقوا مع الروم في عصر هرقل على حرب فرس وغلبت الروم عليهم بمعاونة الخزر إياهم في الواقعة التي أخبر الله عنها بقوله ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلِيٍّ سَيَقْبِلُونَ﴾ (٣) في بضع سنين ﴿[الروم: الآيتان ٣، ٤] بل قبل ذلك أيضًا وسنلم إلى ذلك بعد إنشاء الله تعالى فعلى هذا لم يحصل للفرس من السد المذكور الفائدة التي توقعوها منه كما لم يحصل للصين من سورهم الفائدة التي تصوروها منه.

والعجب من البيضاوي^(١) غاية العجب أنه مع علو كعبه في التحقيق في جميع الفنون قال في تفسيره في قصة ذي القرنين^(٢) أن السد الذي بناه ذو القرنين حسب ما أخبر الله به في القرآن هو هذا السد الذي بالأرمنية كما أنه ذهب إلى كون ذي القرنين المذكور في القرآن إسكندرًا الرومي المقدوني الوثني فإذا كان حال المحقق البيضاوي هو هذا فماذا يكون حال غيره من العوام والمقلدين الجامدين الذين إذا رأوا سوادًا في بياض اعتقدوا صحته وجزموا بحقيقته من غير تحقيق ولا تدقيق خصوصًا إذا كان قائله مثل البيضاوي من كبار المفسرين المحققين فإن التردد في قوله من أكبر الكبائر عندهم فضلًا عن الجزم بخطئه ولهذا اشتهر هذا السد عند العوام بسد اسكندر ذي القرنين وليت شعري ماذا كتب البيضاوي في تاريخه في هذا الموضوع فإنني لم أطلع عليه وكيف يقول في انهدامه قبل خروج يأجوج ومأجوج ولعله قال كبعضهم بأنه قد وقع

(١) البيضاوي: هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، الإمام ناصر الدين، أبو سعيد القاضي البيضاوي، الفقيه الشافعي، توفي سنة ٦٩١ هـ، وقيل: توفي سنة ٦٩٦ هـ بتبريز، وقيل: سنة ٦٨٥، من تصانيفه: «أنوار التنزيل في أسرار التأويل» في تفسير القرآن، «تحفة الأبرار في شرح المصابيح»، «تذكرة في الفروع»، «رسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها»، «شرح مصابيح السنة للبغوي»، «شرح الفصول لنصير الطوسي»، «غاية القصوى في دراية الفتوى»، «لب الأبواب في علم الإعراب»، «مختصر الكافية في النحو»، «طوالع الأنوار» في علم الكلام، «مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام»، «مصباح الأرواح» في الكلام، «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى»، «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، «نظام التواريخ» فارسي، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/٤٦٢ - ٤٦٣).

(٢) انظر تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ٢/٢١ - ٢٣ (طبعة دار الكتب العلمية)، تفسير سورة الكهف الآيات ٨٣ - ٩٩.

خروج يأجوج ومأجوج ومضى وأن تثار جوجان الذي مر الآن التعبير عنهم في تاريخ ابن الأثير ببرجان هم اليأجوج والمأجوج والله سبحانه أعلم بسرائر عبادته وقد قال بعضهم إن أنوشروان بنى سده على أنقاض سد ذي القرنين وقال بعضهم إنه بناه على أنقاض سد أردشير بن بابك كما قدمناه.

[تعيين ملك الترك الذي صاهره أنوشروان]

بقي الكلام في أن الخاقان الذي صاهره أنوشروان هل هو الخاقان الذي هدده وقصد بلاده أو غيره وإذا كان هو هو فهل كانت المصاهرة بينهما قبل تهديده إياه أو بعده والقول في هذا بالقطع متعسر جدًا فإن ابن الأثير وإن بسط الكلام فيه نوع بسط إلا أنه ذكر الحوادث المذكورة مشوشة غير منقحة بل ولا مرتبة ومنظمة بل فيه بعض التناقض كما عرفته مما نقلناه عنه وتعرف أزيد من ذلك إذا راجعت تاريخه لكن يظهر بتعمق النظر والتأمل في كلامه وبالنظر إلى أحوال أقوام الترك في العصر المذكور أن الذي صاهره هو الذي هدده وقصد بلاده وكلا الأمرين صدرا عن خاقان واحد لا عن اثنين وأن مصاهرتهم كانت متقدمة على تهديده وقصد بلاده. أما الأول فسيجيء بيانه. وأما الثاني فدليله قول ابن الأثير^(١) فيما سبق عند ذكره قصد الخاقان سيجبور بلاده وطلبه الإتاوة منه فلم يجبه كسرى إلى شيء مما طلب لتحصينه بلاده وإن ثغر أرمينية قد حصنه فصار يكتفي لحمايته بالعدد اليسير الخ فإنك قد عرفت أن تحصينه ثغر أرمينية بحيث يكتفي لحمايته بالعدد اليسير إنما كان بعد مصاهرتهم وقوله أيضًا عند ذكر قصده بلاد الهياطلة وقول الدينوري الآتي ذكره وكان أنوشروان قد صاهر الخاقان قبل ذلك الخ فإنه صريح في تقدم وقوع المصاهرة بينهما على قصده بلاد الهياطلة ولا شك أن قصده هذا مقدم على قصد خاقان بلاده بدهاة^(٢) وإنه لم يقع إلا حين دوام المصافات بينهما بل كان الذي أباد الهياطلة وقتل ملكهم هو الخاقان لا أنوشروان كما تقدم نقلًا عن ابن الأثير موافقًا لما مر عن صاحب تاريخ كاشغر وعاصم نجيب أفندي حيث قال وهذا الخاقان هو الذي قتل وزر ملك الهياطلة وأخذ كثيرًا من بلاده فقله بعده ثم سار يعني أنوشروان نحو الهياطلة ودخل بلادهم فقتل ملكهم الخ سبق قلم منه وتناقض في كلامه تبعًا لمبالغات الفرس وإلا فالفرس لم

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) فإن الخاقان الذي يهدده ويطلب منه الأتاوة إذا كان في تلك البلاد كيف يقصدها أنوشروان الذي غاية ما ينقل عنه أنه لم يجبه إلى شيء مما طلب. منه عني عنه.

يدخلوا ما وراء النهر فضلاً عن إنزال جنودهم بفرغانة إلا أن يشتركوا في تلك الحادثة فتنسب إلى أنوشروان تارة وإلى الخاقان أخرى وهو الأقرب إلى التطبيق.

والحاصل أن هذا الاشتباه والإشكال إنما نشأ من سوء ترتيب ابن الأثير في هذا الموضع وإلا فلا اشتباه في نفس الأمر ولا إشكال والظاهر أن سبب^(١) وقوع البرودة والعداوة بينهما بعد المصاهرة هو خدعة أنوشروان للخابان كما تقدم بل لم تكن مصاهرة كسرى إياه من صميم القلب بل لإجراء هذا الأمر الخطير فلما حصل مرامه تركه مصداق قول العرب قضيت حاجتي كسى أم جارتني فلما اطلع الخاقان على ذلك قصد بلاده وهدده ولكنه لم يقدر أن يفعل شيئاً لتحصينه بلاده كما مر.

ثم بقي الكلام في تشخيص هذا الخاقان الذي صاهره كسرى وخافه وتعيينه ومعرفة اسمه وشهرة قومه في العصر المذكور قال المسعودي^(٢) في ترجمة أنوشروان زوجة خاقان ملك الترك بابنته أو ابنة أخيه وقال في ترجمة هرمز بن أنوشروان كانت أمه فاقم بنت خاقان ملك الترك وعلى قول ابنة واحد من ملوك الخزر بقرب باب الأبواب اهـ.

ولم يذكر ميرآخوند في ترجمة أنوشروان حرفاً من هذا الباب وقال في ترجمة ولده هرمز كانت أمه ابنة خاقان الصين يعني الترك وذكر أن خاله ساوه أو شاد ملك الترك قصد بثلاثمائة أو أربعمائة ألف وذكر قصة عجيبة عن قائد فارسي حين ذهب إلى خاقان الترك لخطبة أم هرمز لأنوشروان ويشير في أثناء بيانه إلى عظمة شأن الخاقان المذكور وزيادة شوكته كما أن تعبيره بخاقان الصين يشعر^(٣) بذلك.

(١) وسيذكر عند ذكر أحوال الخاقان المذكور سبب وقوع العداوة بينهما ويعلم من هناك تأخر قصد الخاقان بلاد الفرس عن مصاهرتهم لكونه أعني القصد المذكور في آخر سلطنتيهما كما ستطلع عليه هناك ويدل عليه أيضاً ما مر عن روضة الصفا من دفع هرمز ولد أنوشروان المتولد من بنت الخاقان إياه فإن دفع الولد المتولد من بنته إياه متأخر عن مصاهرتهم بالضرورة. منه عفي عنه.

(٢) انظر مروج الذهب ٣٠٧/١ (فقرة رقم ٦٢١).

(٣) فإن ميرآخوند لما كان فارسي الأصل لا يريد أن يثبت للأتراك الذين لا يجعلون لهم قيمة تلك العظمة والشوكة بل عبر بخاقان الصين ولم يبال بتناقض كلامه بعد ذلك بقوله قصد خاله ساوه ملك الترك الخ فإن أردت أن تعرف مقدار عداوة الفرس للأتراك وحطهم عن ربتهم ومنزلتهم فانظر المرقاة لعلي القاري الهروي الفارسي الأصل في كتاب الفتن في شرحه الأحاديث الواردة في حق الأتراك وتحريفه إياها. منه عفي عنه.

وقال عاصم أفندي نجيب في موضع من تاريخه نقلاً عن مؤرخي اليونان أن البنت التي تزوجها أنوشروان كانت من بنات أترك الهياطلة من أهالي الصغد ونقل كون اسم البنت قاين عن المؤرخ باتقانيان الأرمني مع قوله إن قوم توكيو لما استولوا على تثار جوجان وأفنوهم عبروا نهر سيحون وأبادوا الهياطلة بما وراء النهر متفقين مع أنوشروان كما مر نقلاً عنه ثم قال إن هذه المادة من المواد التي تعسر المسألة في عالم الترك اهـ.

قلت: إنها لا تعسر المسألة في عالم الترك بل تعسرها في عالم التاريخ وتظلمها فيه فإن عدم مصاهرة أنوشروان الهياطلة ثابت بالبداهة من الوقائع السابقة ومن قول ميرآخوند ومن قول نفس عاصم أفندي المار أنفاً فإن عدم حصول الموافقة بين كسرى والهياطلة فضلاً عن المصاهرة ودوام الحرب والعداوة بينهما وإبادته إياهم بالاتفاق مع قوم توكيو والخاقان أو إبادة الخاقان إياهم بإغراء كسرى مصرح بها في البيانات السابقة ومحققة منها فكيف تحصل بينهما المصاهرة وكيف تحصل للهياطلة المنقرضة المضمحلة قوة جمع ثلاثمائة أو أربعمائة ألف عسكر وقصدهم بلاد الفارس بعد عشر سنين أو خمس عشرة سنة من ذلك على ما مر عن ميرآخوند إجمالاً وسيذكر بعد مفصلاً.

وثانياً أن الدينوري صرح في معارفه بأن كسرى صاهر الخاقان وأخذ بثأر جده فيروز من الهياطلة باستعانتهم فلم يبق بذلك شبهة في كون من صاهره غير الهياطلة وإن بينه ابن الأثير^(١) مبهمة على أنه لا حاجة في ذلك إلى الاستدلال بهذه الأمور فإن لزوم كون الخاقان الذي أخبر كسرى على طلب المودعة منه وقسره على عرض المصاهرة واضطره إلى التشبث بلطائف الحيل الذي هو شأن من بلغ نهاية العجز خاقاناً عالي الشأن صاحب اقتدار وشوكة مصداقاً حقاً لقول العرب شراهر ذا ناب من أجلى البديهيّات.

والهياطلة في العصر المذكور ليسوا بهذه المثابة بيقين ويؤيد هذا قول ابن الأثير^(٢) في ترجمة هرمز كانت أمه بنت الخاقان الأكبر وإن لم يحتج إلى التأييد والحاصر لا نطيل الكلام ولنجزم بأن الخاقان الذي صاهره أنوشروان لغرض إبادة الهياطلة وإفنائهم وبناء سد أرمينية إنما هو خاقان عظيم الشأن ذو قوة وسطوة لا

(١) بقوله الخاقان فقط فيحتمل بظاهره كونه خاقان الهياطلة وإن كان بعيداً. منه عفي عنه.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٦٤.

الهياطلة والخطأ إنما هو في نقل عاصم نجيب أفندي أو فيما نقل هو عنه والله أعلم بالصواب.

ومثل هذا الخاقان العظيم الشأن في العصر المذكور على ما يظهر من تحقيق التواريخ وتدقيقها ليس إلا تثار جوجان على قول صاحب تاريخ كاشغر أو خاقان توكيو الذين أبادوا تثار جوجان والهياطلة معاً على قول عاصم نجيب أفندي ولا قائل بالثالث وقول عاصم نجيب أفندي مرجح هنا من وجوه:

أما أولاً: فإنه قد تقدم عن ابن الأثير^(١) أن الخاقان سيجبور هو الذي قتل وزير ملك الهياطلة وأخذ كثيراً من بلادهم ولا شك أن الخاقان الذي أباد الهياطلة هو الخاقان الذي صاهره كسرى لتحصيل الغرض المذكور وبناء سوار أرمينية على ما صرح به ابن الأثير والدينوري وأيضاً لا شبهة عند أرباب البصيرة في كون سيجبور هذا هو ديزابول أو ديصابول الذي هو خاقان توكيو (توركيو) الآتي بيانهم الآن فإنه لا شبهة في كون هذه الألفاظ بعضها منحرفاً من بعض آخر منها^(٢) أو من لفظ آخر مقارب لها بسبب تداول ألسنة أقوام شتى وأقلامهم إياها.

وثانياً: أن ابن الأثير ذكر في موضعين من تاريخه غزو أنوشروان قوم برجان كما مر وعندي أن القوم الذين يذكرهم جغرافيو الإسلام ومؤرخوهم بعنوان برجان هم عين القوم الذين ذكروا في جغرافيا الإفرنج وتواريخهم بعنوان جوجان فعلى هذا يكون كسرى أعان توكيو وحقانهم ديزابول (سيجبور) في إضعاف جوجان وإفنائهم كما أنهم أعانوه في إبادة الهياطلة واستيصالهم فأنى يكون بين خاقان جوجان وبين كسرى مصاهرة.

وثالثاً: إن كون ديزابول (سيجبور) خاقاناً عظيم الشأن ذا شهرة واقتدار وممن كانت له معاملة ومراسلة مع ملوك الصين والفرس والروم في العصر المذكور مستطوره في كافة التواريخ المنقولة المأخوذة عن تواريخ اليونان والإفرنج كما ستذكر ثمة من

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣٣٨/١. وفيه: «سيجبور خاقان».

(٢) فإن سيجا الذي هو نصفه الأول على تعبير ابن الأثير مقارب جد الديرزا أو ديصا الذي هو نصفه الأول على ما نقل عن تواريخ الإفرنج ويوروبول اللذين هما نصفه الأخير على التعبيرين لا فرق بينهما إلا في الراء في أحدهما واللام بدلها في الآخر ولا شك أنهما حرفان متقاربان يستعمل أحدهما مكان الآخر في جميع اللغات فلا بعد في انحراف أحد اللفظين من الآخر أو من انحرافهما من ثالث بسبب تداول ألسنة الصين والفرس والعرب والإفرنج إياه. منه عفي عنه.

ذلك فبناء على ذلك نرجح كون خاقان الذي هابه أنوشروان وصاهره بناء على تهيبه منه هو الخاقان ديزابول (سيجبور) المذكور على الظن الغالب القوي القريب من اليقين جدًا دون الجزم والقطع وأما وقوع الخلف بينهما على ما مر ويذكر فيكون بعد مصاهرتها لأسباب^(١) تقتضيه والله أعلم بحقيقة الأمور.

[بومين قاغان المشهور بديزابول]

ذكر خاقان توكيو (الترك) الأعظم المشهور عند الترك على ما قيل بيومين قاغان^(٢) وعند الصينيين بموقان خان وعند الروم والإفرنج بديزابول وديصابول وفي ابن الأثير سيجبور خاقان^(٣).

كان هذا الخاقان المشار إليه خاقانًا عظيم الشأن وصاحب شوكة عظيمة وسطوة واقتدار في العصر المذكور قد أدخل كثيرًا من الأقوام التركية المتشعبة تحت إدارته وحكومته وجمعهم تحت رايته ونظارته وأحى وحدتهم والفتهم وأعاد بذلك مجدهم وعظمتهم وشوكتهم وراسل دول الصين والفرس والروم وكتبهم وكان قبائل تنار المشهورون باوتوز وتاتار المتصفون بالتعنت والعناد والاستكبار وعدم الانقياد لأحد سواهم الفائقون سائر قبائل الأتراك في القوة وشدة الشكيمة والنجدة والبأس وكذلك قبائل قانقلي وقالاج (آلاج) وأويغور وكافة الممالك المحدودة شرقًا بنهر أمور وبحيرة بايقال وشمالاً بمنتهى المعمورة وجنوبًا بنهر جيحون (آمودريا) وغربًا بنهر ايدل (وولغا) وبحر الخزر والأقوام الساكنة بها كلهم تحت إدارته وحكمه فإن بقي من لم يطعه ولم ينقد له من الأقوام التركية فيهم قبيلة تنكوت (خونخوز) في شرق بايقال وقارلق في الجنوب وافتاليت يعني الهياطلة وقبائل التركمان التابعين للفرس لكونه في جنوبي نهر جيحون وقفقج وبعجناك وأوار وماجار الساكنين في غربي نهر وولغا أعني الأوروبية الشرقية مع أن بعضًا منهم دخلوا تحت إدارته ولو مدة من الزمن كما سيذكر في محله.

- (١) وقد قلنا فيما سبق إن سببه سيذكر عند ذكر أحوال بومين قاغان. منه عفي عنه.
- (٢) وهذا ما وعدنا ذكره في آخر بيان معاملة الأتراك مع الصين وكان عند طائفة باشقرد في زمن قريب من زماننا هذا رتبة عسكرية تسمى يضاول تحريف يضاغل كما أن زراقول أو قراول تحريف قراغل وقد رأينا بعيوننا عم والدتنا حسام الدين يضاول في قرية نوركاي وشخصًا آخر أيضًا في قرية قران فيحتمل أن يبقى هذا اللقب والعنوان من ذلك العصر والله سبحانه أعلم وأما قاغان فقد قدمنا أنه أصل لفظ خاقان وأن خاقان معرب منه أو من قآن. منه عفي عنه.
- (٣) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٣٨.

والحاصل أن أول من يقع له النظر في التواريخ ممن وقع في قلبه توحيد الملة ووحدة الكلمة وجمع الشمل والتشبيث بأسبابه ووفق له أو كاد هو هذا الخاقان الأعظم.

قال بعضهم إن چنكزخان الذي جاء بعده بسنة ٦٧٠ وإن وفق لهذا الأمر يعني جمع شمل كافة الأتراك وتوحيد دولتهم إلا أنه شدد في إجراءاته وتحصيله تشديداً زائداً على القدر اللازم وأما بومين قاغان ففي سياسته وإجراءاته كمال الإنسانية وحفظ الأمن والراحة فضلاً عن سفك الدماء اهـ.

قلت إن چنكزخان وإن اشتهر في العالم بسفك الدماء بغير حق إلا أنه لم يسفك قطرة دم بلا سبب موجب في الحقيقة ووطننا في بومين قاغان أيضاً أنه لم يجعل يده مغلولة إلى عنقه في موضع الشدة والسياسة أليس هو الذي أباد تثار جوجان وقتلهم مدة سنتين قتلاً عاماً وأفنى هياطلة صغد وما وراء النهر بشهادة هذا القائل وكيف يمكن ويتيسر توحيد الدولة وجمع الأقوام المتفرقة تحت إدارة واحدة بإمحاء الإمارات المتعددة واستيصال الحكومات المختلفة المستقلة من غير استعمال الشدة وسفك الدماء هيئات إلا أن تفصيل مجريات بومين قاغان لم ينقل إلينا في التواريخ بخلاف أحوال چنكزخان فإنها لم تحقق ولم تدقق إلى عصرنا هذا كما ينبغي بل أسند إليه كافة القبائح من غير تحقيق وتدقيق وجعلت جميع أفعاله ظلماً بل جعلت حبه قبة ولم يترك من تشبثاته شيء إلا وقد حرر وبسط وصارت كافة فعائله نصب أعيننا بحيث ننظر إليها بعيوننا وجعلت علة كل ذلك عداوته للإسلام دون خيانة خوارزمشاه وهذا السبب لظننا بهذا هذا الظن وبذاك ذاك الظن وإلا فكلا الكعكين من عجيبين واحد.

وقد سلك هذا المسلك من العثمانيين أدام الله دولتهم وزاد شوكتهم إلى قيام الساعة السلطان سليم خان الأول الشهير بياوز عليه الرحمة والغفران وقد خطا في هذا السبيل خطوات غير قليلة بعد أن سفك فيه دماء كثيرة مدة عمره فلو طال مدته لنا له وحازه ولكن من سوء حظ عالم الإسلام لم تطل مدته واخترمته المنية سريعاً ولم يسلك خلفه ولده السلطان سليمان ولا واحد من الذين جاؤوا بعده من أعقابهم وذريته مسلكه فانحلت عرى ما دبره وذهب سعيه واجتهاده أدراج الرياح وليته طال مدته وسفك في هذا السبيل عشرة أمثال الدماء التي سفكها في حياته وأتمه فحينئذ لما ابتلي عالم الإسلام بهذه المذلة والمصائب التي هم مبتلون بها اليوم ولكن الحكم والملك لله ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوَمُ سَوْءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: الآية ١١] [الآية].

هذا ولم يكتف بومين قاغان بذلك بل أحدث مناسبات تجارية وسياسية مع الدول المجاورة إياه مثل الصين والفارس والروم ولم يكن كونه في مثل هذه المناسبة على جهة الشرطي أعني بطريق النيابة والمأمورية من طرف ملك الصين كما زعمه البعض^(١) بل كان على وصف الحاكمية المطلقة والاستقلال التام وعلو الجنب.

قال المؤرخ كارامزين الروسي في حقه بعد أن ذكر قومه بعنوان الترك ولم يذكر أحدًا قبلهم بهذا العنوان بل بأساميمهم الخاصة كخزر وطردهم الأوار الآتي ذكرهم ما معناه أن هؤلاء الترك على شهادة مؤرخي الصين من بقايا هون الشمالية الذين كانوا جيران الصينيين ولما اتحد هؤلاء القوم مع سائر الإمارات والحكومات من جنسهم وقبائلهم استملكوا كافة السيبيريا الجنوبية بقوة السلاح وقد ذكر خانهم وملكهم في تواريخ الروم بعنوان ديصاوول وكان هذا الخان بعد أن أدخل الأقوام الكثيرة تحت طاعته يسكن في جبال آلتاي (الاطاغ) في خركاه^(٢) مفروش بمفاريش ويسط من القطيفة الثمينة ومزين بأثاث من أنواع الحرير وأوان وظروف من ذهب وفضة وكان يحكم كأنه ثاني آتيل^(٣) وكان يقبل سفراء الروم في حضوره وهو جالس على تحت مزين ومرصع غاية التزيين والترصيع وكان يأخذ الهدايا من القيصر يوستينيان وقد غزا الفرس بالاتفاق مع الروم وغلبهم وقد وجدت الروسية أشياء ثمينة جدًا من قبور في السيبيريا الجنوبية في هذه الأوقات القريبة بعد استيلائهم عليها ولا شك أن هذه الأشياء من آثار هؤلاء الأتراك اللثائية (الاطاغية) وهذه الآثار تدل على أنهم لم يكونوا وحشيين متبربرة (يعني كما يزعم أعداؤهم) بل كانوا متمدنة ومترقية^(٤) وقد اتجر هؤلاء مع الصين والفارس واليونان وقد كان قرغز وهون وأوغر وسائر إمارات الترك تحت طاعة يضاوول هذا اهـ.

- (١) زعم بعضهم أن الخاقان المشار إليه كان بمنزلة النائب لحاقان الصين وكانت معاملته هذه بمنزلة معاملة الشرطي والشحنة والبوليس وهو زعم باطل كما يظهر من البيانات الآتية ولعل منشأ المبالغة والافتخار في تواريخ الصين التي هي مأخذ تلك الوقائع. منه عفي عنه.
- (٢) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة، ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ١٤٦/٢).
- (٣) ملك الهونية التي سيجيء ذكرهم وإنما قال ثاني آتيل لأن آتيل كان مقدمًا عليه وإنما أخرجنا ذكره مع كونه أقدم منه لأننا نذكر هنا في القسم الأول الأقوام الآسيوية وفي القسم الثاني الأتراك الأوروبية والهون من جملتهم كما مر. منه عفي عنه.
- (٤) ومليحة شهدت لها ضراتها والحسن ما شهدت به الأعداء منه عفي عنه.

ذكر معاملة الخاقان المذكور مع كسرى وقيصر

قال عاصم نجيب أفندي: إن الخاقان بومين ديزابول جاءه عريضة من واليه المختار المنسوب من طرفه على الهياطلة بمملكة صغد وما وراء النهر الملقب بياغوغ شاد أو شاد پوت أو شاد فقط سنة ٥٦٦م أو قبلها أو بعدها أيام كان يحكم القيصر يوستين في مملكة الروم وأنوشروان على تخت الفرس مضمونه الاسترحام من الخاقان المشار إليه أن يتوسط بينهم وبين كسرى في استحصال مساعدته في بيع الحرير من أهالي أذربيجان أو في المرور من قطعة أذربيجان إلى الروم لبيع الحرير منهم فأجابه الخاقان إلى طلبه هذا وأسعفه بمرامه وإذنه في إخراج قافلة حاملة للحرير وأرفقها سفيرًا من طرفه إلى حكومة الفرس لطلب المساعدة المذكورة يسمى مانياق فلما دخلت القافلة مملكة إيران وأدى السفير المذكور سفارته لحكومة الفرس بين واحد من أهل أذربيجان أو من الأتراك المقيمين في جنوبي نهر جيحون تحت حكومة الفرس يسمى قاتولفوس أو قوتلق لكسرى وخامة عاقبة الأمر المذكور وحسن له أن يشتري الحرير المذكور من طرف الحكومة ويحرق وأن يقتل السفراء بالتسميم ويشاع بأنهم ماتوا من الوباء بسبب وخامة هواء إقليم فارس وعدم موافقته لأمزجتهم فاستحسن كسرى رأيه وأجرى جميع ما أشار به ولكن نجا المانياق المذكور من القتل بمساعدة القدر إياه فعاد إلى بلاده وبين للخاقان المشار إليه جميع ما جرى لهم من طرف كسرى كما شاهده فاستشاط الخاقان غضبًا وكان قد زوج لـخاقان الصين المسمى ووتى من سلالة چه أو ابنته المسماة اسنا وكان يعاشره معاشرة حسنة من سائر الوجوه فلذلك كان جلب محبة الخاقان المشار إليه واكتسب مودته ودفع خوفه من جهته بل صار على يقين بدفع الخاقان المذكور ما كان متوقعًا من هجوم سائر الأقوام على بلاده ومطمئنًا به فضلًا عن هجومه وكان في فكره أن يتفق مع إمارتي الأوار والقفجق اللتين لم تدخلا تحت طاعته وأن يعقد عقد الاتفاق مع الروم الذين هم أعداء خصمه اللذين كان يريد أن يصارعهم يعني الفرس كما نشاهد في عصرنا هذا الآن من اتفاق المثني والمثلث فأرسل إلى حكومة الروم هيئة سفارة^(١) تحت رياسة المانياق المذكور الذي نجا من سوء قصد الفرس فيه لإخراج الفكر المذكور من حيز القوة إلى الفعل فوصلت الهيئة المذكورة إلى القسطنطينية التي يقال لها في العصر المذكور ويزانديا أو بيزانطيا

(١) هذا مخالف لما سيجيء في بيان مضمون سفارة سفير الخاقان إلى القيصر والظاهر بل الصواب أن يدعو إمارتي الأوار والقفجق إلى الطاعة والانقياد. منه عفي عنه.

في سنة ٥٦٨ م وهي السنة الرابعة من تملك القيصر يوستين^(١) فسلم السفير المشار إليه إلى القيصر ما معه من التحريرات المتعلقة بسفارته المحررة بحروف سيتيا وأنواع الهدايا ومقدارًا كثيرًا من الحرير وكانت الكتابة المذكورة يعني الكتابة بحروف سيتيا كانت كتابة قدماء الأتراك وخلصتها كتابة تبارية وقد وجدوا مفتاحها يعني اطلعوا عليها وعرفوا حروفها منذ زمن قريب وصاروا يقرأون الكتابة المحررة بها في محكوكات مغولستان وسيبيريا ومن العجب^(٢) وجود من يقرأ في القسطنطينية وقتئذ كتاب الأتراك المذكورين الذين هم من بقايا الهون القديمة الذي كان يعبر عنهم سابقًا بهيونغ نو المحرر بحروف سيتيا (قدماء التتار) الوارد في المسافة البعيدة ويترجمه وبعد أن قرأ المحررات دعا القيصر السفير المذكور عنده وأظهر له كمال الممنونية وجرت بينهما الأسئلة والأجوبة فبين له السفير في جملة أجوبته كيفية انقسام قبائل الأتراك الذين اتحدوا تحت حكومة الخاقان ديزابول وصاروا ملة ودولة واحدة إلى أربعة أوردو يعني إدارات ودوائر وكون قبيلة واحدة من الترك تحت إدارة حكومات الصين وكون الهياطلة خراجية للخاقان ديزابول على صورة الملة التابعة له واستكاف مقدار عشرين ألفًا من عصاة الأوار ومتمرديهم أن يكونوا تابعين له ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان سبب مأموريته الحقيقي وأدار الكلام في الاتفاق التدافعي والتجاوزي وقال إن حكومة الترك مستعدة لمحاربة كافة أعداء ملة الروم والقيصر قال مناندر إن الترك كانوا أصدقاء الروم بهذه الكيفية اهـ.

ومن جملة المواد التي عرضها السفير المذكور على القيصر أن يجعل أبواب بلاده يعني طرقها مفتوحة لتردد تجار الأتراك ومجيئهم إليها لبيع الحرير الذي كانوا يأخذونه من حكومة الصين في مقابلة مصالحتهم معهم يعني في مقابلة تركهم إياهم على راحتهم من غير أن يتعرضوا عليهم بالهجوم والغارة وفي مقابلة معاونتهم إياهم إذا اقتضاها الحال ومن جملتها أيضًا الاتفاق على تنكيل أشقياء الأوار الذين كانوا مرتكبين جناية كبيرة ورذالة عظيمة وهي شق عصا الاتحاد والاتفاق وإلقاء التفرقة بين الملة باستكافهم من طاعة الخاقان العظيم الشأن واختيار شقاوة البغي والفرار وسلب

(١) في قياصرة الروم يوستين أول ويوستين ثان وبينهما يوستينيان والظاهر بل الصواب أن هذا هو يوستينيان وفقًا لما مر عن كارامزين ولما سيجيء عنه عند ذكر آوار في القسم الثاني من هذه المقدمة. منه عفي عنه.

(٢) منشأ التعجب عدم الاطلاع على اختلاط الروم بسيتيا اختلاطًا كليًا على ما سيجيء عند بيان سيتيا أو الدهول عنه وإلا فلا يتعجب منه قط. منه عفي عنه.

راحة العباد بسبب قطع الطريق وإخافة المارة على الدوام والاتفاق أيضًا على محاربة الفرس الذين ارتكبوا دناءة قتل سفرائهم بالتسميم وسدوا عليهم طريق تجارتهم من طريق البر والجنوب يعني طريق أرمينية وخلاصة الاتفاق على الهجوم على هؤلاء معًا. ولكنهم لم ينالوا من هذه التكاليف والعراض شيئًا ولم يجنوا منها ثمرة فإن الروم لم يفهموها أو لم يريدوا أن يفهموها ولا يبعد أن يكون مرامهم أن يعرفوا حقيقة الخاقان وهويته واقداره وأن تكليفاته هذه جدية أو لا وأنها على أي غرض مبنية.

والحاصل أنهم لم يتجاسروا على الاتفاق مع دولة الترك الذين لم يكونوا يعرفونهم من قبل كما ينبغي على محاربة الفرس والأوار الذين قد ذاقوا مراراتهم مرارًا وعرفوا حقيقتهم مع كونهم محاطين من جهات مختلفة بأعداء شتى وخائفين من كل شيء حتى من ظلالهم والترك كانوا لا يخافون من أحد وكانوا يكلفون الروم بتحمل أعباء الحرب ويطلبون منهم المعاونة. ويحتمل أن يعرضوا عليهم معاونتهم في مقابلة تخصيصات ومبالغ من طرفهم كما كانوا يفعلونه مع الصين.

إرسال الروم إلى الخاقان ديزابول رسولاً من طرفهم

فقد أمر الروم أن يرسلوا من طرفهم هيئة سفارة إلى الخاقان للاطلاع على حقيقة الأمر وكنهه وأرسلوها بعد اللتيا والتي وجعلوها تحت رئاسة واحد منهم يسمى زيمارك ولكن الخاقان الكبير ديزابول كان قد توفي قبل وصول الهيئة المذكورة إليه وتملك مكانه أخوه تكين دويوخان وكان حين وصولهم إليهم عازمًا على سفر الفرس وبعد أن لاقوه بساحل نهريجو حملهم معه إلى بلدة تالاس التي كانت بين نهريجو وسيحون (سيردريا) وكان ورد إليه سفراء الفرس أيضًا فدعاهم إليه في حضور سفراء الروم وأظهر لهم الخشونة والملام والتوبيخ في مقابلة سوء معاملتهم وإنما فعل ذلك في حضور سفراء الروم ليطلعوا على حقيقة الأمر وكنهه فيطمئن قلوبهم بذلك هذا.

وفي رواية^(١) أن سفراء الروم وصلوا إلى مقر سلطنة الخاقان الكبير بومين قاغان المسمى (آق طاغ) الذي هو أحد شعاب جبال آلتاي (الاطاع) في حياته

(١) وهذه الرواية هي الصحيحة والصواب والأولى خطأ بلا مرية أو كان ذلك في النوبة الثانية أو الثالثة أو بعدها أيضًا فإنه قد تقدم عن كارامزين قدوم سفراء الروم للخاقان ديزابول وأخذ الهدايا عن القيصر يوستنيان وصرح في الجلد بأنه قبل سفير يوستنيان زيمارخ بل يدل كلامه على تكرر ذلك بل فيه تصريح بحصول الاتفاق على الفرس وغلته عليهم بمعاونة القيصر ويفهم كون الأمر كذلك من كلام عاصم أفندي نفسه الآتي من مجيء تجار الترك إلى القسطنطينية فإن مجيئهم هناك لا يكون إلا بعد حصول الاتفاق بينهما كما لا يخفى. منه عفي عنه.

ولاقوا فيه الخاقان الكبير نفسه ونالوا منه الإعزاز والاحترام وأظهر لهم الخاقان الكبير غاية الالتفات ونهاية الأطفاف احتيالاً في تحصيل الاتفاق الذي رتبته على الفرس وأعطى رئيسهم زيمارك هدايا عظيمة من جملتها جارية قرغز عديمة النظير في الحسن والملاحة وعاد في تلك الأثناء من مصيفه إلى بلدة تاراس^(١) التي هي في شمالي نهر سيحون وقد جاءه في الوقت المذكور سفراء مخصوصة من طرف دولة الفرس فأقام الخاقان المشار إليه في البلد المذكور مأدبة شائقة وضيافة ملوكية بمثله لائتمة ودعا إليها سفراء الدولتين وأجرى فيها مراسم عقد المعاهدة مع سفراء الروم وأظهر الخشونة والتوبيخ والتهديد لسفراء الفرس لارتكابهم دناءة تسميم سفرائه ولما كان الباعث الحقيقي على هذه المخاصمة الأتراك التابعين لدولة الفرس أرسل إليهم فيلقاً من العسكر في أول الأمر فدخلوا ما وراء النهر^(٢) ولحقهم الخاقان من ورائهم ووصل إلى سمرقند وبينما هو في عزم الدخول إقليم خراسان جاءه الخبر بقبول كسرى أنوشروان شرائط الصلح والتكاليف التي اقترحها الخاقان وتصديقها فراجع من عزمه وترك التعرض وعاد إلى كاشغر فإن مملكة كاشغر وحواليها كانت في الوقت المذكور تحت إدارة الخاقان المزبور وطاعته وكانت هذه الوقائع في حدود سنة ٥٧٠ يعني قبل الهجرة ٥٢ سنة وهي سنة ولادته ﷺ^(٣) أو قبلها بسنة واحدة.

(١) ويقال لها أيضاً تراز ويعرب على طراز قال في البرهان القاطع تراز اسم بلدة في أرض توران وطراز معرب منه اهـ وقال في مادة طراز بلدة في حدود الصين الخ وقال الحموي في المعجم طراز قال أبو سعيد وهي بالفتح ورواه غيره بالكسر قريب من اسبيجاب من ثغور الترك قريب من طرابند وهي مدينة وراء سيحون في أقصى بلاد الشاش مما يلي تركستان الخ وقال في اسبيجاب اسم بلدة كورة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان الخ وقال في البرهان والترك يقولون لها شبران يعني صبران. منه عفي عنه.

(٢) وهذا الدخول ليس لمحاربة الهياطلة فإنه كان مقدماً على هذا الدخول بمقدار ١٣ سنة وكان الخاقان وقتئذ متفقاً مع كسرى فقول عاصم أفندي هنا أن ملك الهياطلة كان رجع من مصيفه إلى بخارى الخ سبق قلم منه وإنما كان هذا في الدخول الأول حين استيصالهم الهياطلة وأما في هذا الدخول فالهياطلة تابعة لهم كما بينا كل ذلك. منه عفي عنه.

(٣) وكان الحق سبحانه ألهم لهؤلاء الملة النجبية بتشريفه ﷺ عالم الوجود فأسرعوا من الجهتين لاستقباله وعرض الخدمة عليه وإعلام أنهم مستعدون لقبول ما جاء به والنيابة في إجراء شريعته ونشرها وحفظها وأنهم هم الذين ينتزعون القسطنطينية من الروم بعد حين وظاهر الخطاب في عرض المعاونة وإن كان للروم ولكنه في الحقيقة له ﷺ ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. منه عفي عنه.

وما مرّ ذكره نقلًا عن ميرآخوند من أن في أثناء فتح أنوشروان الممالك الكذائية بلغه أن خاقان الترك استولى على ممالك فرغانة وما وراء النهر فأرسل ولده هرمز فرجع الخاقان إلى أقصى بلاد تركستان بلا حرب وكذلك ما ذكره ابن الأثير^(١) من أن الخاقان الكبير سيجبور قصد بلاد إيران وكتب إلى أنوشروان يطلب منه الإتاوة ويهدده إن لم يذعن لذلك الخ لعله هذه الواقعة ولكنهما لما لم يراعى الترتيب في ذكر الحوادث وذكرها مشوشة بلا ترتيب لم يفهم من تاريخيهما ترتيب الحوادث فعلم أن عود الخاقان الكبير بلا حرب لم يكن خوفًا من هرمز وعسكر إيران كما قال ميرآخوند ولا لكون بلاد الفرس محصنة كما ذكر ابن الأثير بل لإذعان كسرى لمطاليب خاقان وخفضه جناح الذل له لاستشعاره العجز عن مقاومته خصوصًا لما اطلع على اتفاهه مع الروم وإن كان إرسال ولده هرمز احتياطيًا وتحصين بلاده أيضًا موجودين في نفس الأمر وقد تبين من هذه القصة سبب تبدل صداقتهما عداوة في مدة يسيرة بعد وقوع القرابة الصهرية بينهما وهو تسميم كسرى سفراء الخاقان وارتكابه هذه الدناءة بإغراء بعض أرباب النفاق على أنه لو صح كون غرض كسرى من عقد قرابة المصاهرة بناء السد وأخذ الثأر من الهياطلة واطلاع الخاقان الكبير على كونه خديعة منه على ما مر لا يحتاج في تبدل الصداقة عداوة إلى سبب قط لأنه لا صداقة بينهما على هذا التقدير في الحقيقة بل هو موجب لغاية الغيظ لكونه دناءة وإهانة ولعل إرسال الخاقان الكبير سفراء إلى حكومة الفرس كان لتحقيق هذه القضية ولما زاده بتسميتهم بلة في الطين فضلًا عن تحققها مصداق قول القائل، شعر:

لي صديق جنى علي مرارًا فأكثرا
ثم لما عاتبته غسل البول بالخرى

جرى ما جرى والله سبحانه أعلم ولعل مراد كارامزين بما مر عنه من قوله إن الخاقان ديصاوول غزا الفرس بالاتفاق مع الروم وغلبهم هو هذا أيضًا كأنه يريد بقوله غزاهم وغلبهم أنه أراد غزوهم^(٢) فعاملته الفرس معاملة المغلوبين من الإذعان لجميع مطالبه والله سبحانه أعلم بسرائر عبادته .

(١) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٣٨.

(٢) ولا يبعد أن يدخل في مقدمة جيش الخاقان بلاد خراسان وإن لم يذكر هنا يدل عليه ما ذكره ابن الأثير أثناء كلامه المتشقة حيث قال فلم يلبث كسرى أن أتاه فتينًا من الترك قد غزوا أقصى بلاده فأمر وزراء وعماله أن لا يتعدوا فيما هم بسبيله العدل ولا يعملوا في شيء منها إلا به ففعلوا ما أمروا به فصرف الله ذلك العدو عنهم من غير حرب اه فحينئذ يجتمع الأقوال كلها في مركز واحد والله الموفق . منه عفي عنه .

إرسال الخاقان الكبير سفيرًا إلى الروم مرة ثانية

ثم استأذن سفير الروم زيمارك الخاقان الكبير في العود إلى بلاده فأذنه وأرفقه سفيرًا من طرفه يسمى تاغما وكانت رتبته الطرخانية وضم إليه ابنًا لمانياق المذكور وكان هو أيضًا في رتبة طرخان ولما بلغ هؤلاء مملكة قانقلي وقفجق وكان الخاقان الكبير قد أذن لرؤسائهم إرسال السفير إلى الروم ضم هؤلاء أيضًا إليهم أنفازًا من طرفهم برسم السفارة إلى الروم فبلغ المذكورون مساكن قوم أوغور التابعين للخاقان الكبير ومواطنهم الكائنة بغربي نهر ايدل (وولغا) بعد قطع المسافة البعيدة وعبورهم نهري جايق وايدل فأخبرهم رئيس أوغور بقعود أربعة آلاف من الفرس على الطريق المعروف والجادة المعهودة مختفين في الغابات وحذرهم منهم ودلهم إلى طريق آخر لا خوف فيه وزودهم بما يخف حمله وأعطاهم الماء بالغرب فبلغوا ساحل البحر الأسود من ممالك اللان وركبوا السفن من هناك وخرجوا إلى طرايزوند ووصلوا من هناك إلى القسطنطينية بزا وحيث وقع بيان أحوال السفراء المذكورين بعد ذلك في مأخذنا المنقول عنه بغاية التشويش وسوء الترتيب اضطررنا إلى تركها بلا نقل إلا أنه قال فيه في حق سفراء الروم والقادمين إلى الخاقان الكبير إنه يعني الخاقان الكبير لم يوفق لاستحصال شيء من مطالبه من دولة الروم الخوافة المنحلة النظام اهـ والأنسب بل الصواب كون هذه المقالة في حق سفرائه هؤلاء المذكورين يعني أن الخاقان الكبير وإن أرسل سفراءه هؤلاء إلى الروم لتوثيق عرى الاتحاد والاتفاق بينهم إلا أنه لم يوفق الخ.

وقال وبينما الخاقان الكبير مشغول بالمسائل الغربية حدث هبوب رياح شديدة ونزول أمطار غزيرة ودام هذا الحال إلى عشرة أيام فعده الخاقان مجازاة سماوية أو إنذارًا غيبياً فأطلق سفير خاقان الصين المسمى ووتى من سلالة جه أو وكان محبوسًا عنده منذ سنين وزوجه يعني الخاقان ووتى ابنته المسماة اسنا وجهازها إليه لتجديد عرى الاتفاق ثم مات بعد ذلك قبل الهجرة بسنة ٥٠ يعني في سنة ٥٧٢ م بعد أن حكم على الوجه المشروح ٢٠ سنة اهـ^(١).

لا يخفى أنه قد تقدم أن ابتداء مراسلاته الفرس والروم كان في سنة ٥٦٥ أو قبلها أو بعدها وأنه كان زوج قبل ذلك ابنته اسنا من خاقان الصين ووتى الخ وهنا

(١) هكذا يقول هنا. منه عفي عنه.

يصرح بأنه أي التزويج كان في أثناء المراسلات وفي آخر عمره وبينهما تناقض ظاهر. والظاهر بالنظر إلى قرائن الأحوال أن الأول هو الصحيح والصواب والله سبحانه أعلم.

ثم قال وبعد أن توفي الخاقان المذكور جلس مكانه أخوه الأصغر دوباوتو بوخان ولم يكن هذا الخان في الإدارة وسائر الشؤون مثل أخيه المتوفى الخاقان ديزابول ولهذا انقسمت الإدارات والدوائر الأربع المذكورة سابقاً إلى ثماني إدارات ودوائر وانحطت قوتهم وشوكتهم من مركزها السابق إلى أسفل منه بدرجات كثيرة ولم يبق نفوذهم السابق حتى أن بعض التجار منهم المشغولين بالتجارة في بلاد الروم^(١) لما عادوا إلى بلادهم بعد موت الخاقان ديزابول مع سفير الروم والأنتينوس الآتي بيانه رأوا أمور بلادهم وإدارة حكومتهم أدون من حالتها السابقة بمراتب كثيرة ومع ذلك يقول إن دوباو خان كان يحكم في سنة ٥٧٣ م على كافة القطعات الكائنة بين السد الكبير الصيني وبين نهر دون (تن) يعني على كافة الآسيا الشمالية التي هي الآن بيد الروسية وقسم من أوروبا الشرقية وأنه فتح لمسير التجار وترددهم إلى بلاد الروم طريق برية القفجق ودون ودينير وطونه يعني طريق روم إيلي وبلغارستان ومنع مسيرهم من طريق فرغانة وكافكازيا يعني الطريق السائر من حدود فارس وأنه كان له يعني لدوباو خان مائة ألف من العساكر الفرسان وأن خواقين الصين كانوا ينافسون بعضهم بعضاً لاستحصال الاتفاق الصهري معهم وأن كل واحد منهم كان يصرف ما في خزينته ويتركها خالية لجلية وجلب مودته إليه وإن قيصر الروم أرسل إليه سفيراً من طرفه يسمى والأنتينوس إلا أنه لم يجد منه التفاتاً كسابقه وسلفه.

وقال إن السفير المذكور لما بلغ واحدة من الإدارات والدوائر الثمان التي يسمى حاكمها تركش^(٢) بعد قطع المنازل غضب عليه الحاكم المذكور لإتعايبهم إياهم بلا فائدة وقال أيها الروم إن لكم عشرة أقوال وحيلة واحدة الترك لا تكذب ولا تختاره لأنفسها وإن رئيسكم الذي تلقبونه قرالاً وقيصرًا اتفقا مع بغاتنا وعصاتنا الآوار الذين

(١) وهذا - أعني وجود تجار الأتراك ببلاد الروم - يدل على حصول نوع معاهدة واتفاق بين الترك والروم - أعني في شأن التجارة - وإن لم تحصل في شأن الهجوم والمدافعة وهذا هو الذي عينناه سابقاً. منه عفي عنه.

(٢) وفي الأصل المنقول عنه بعد مرورهم من قطعة قريم وأوزاق ولا شك أنه مخالف لما سيأتي من توبيخ تركش إياهم بتركهم طريق قريم وأوزاق كما لا يخفى ولهذا عدلنا عنه إلى هذا لصلاحته لكليهما. منه عفي عنه.

يقومون علينا ويشقون عصا الاتفاق والاتحاد بسائقة حماقتهم وسوء تدبيرهم وفساد أفكارهم ثم إذا رأوا أسواطنا يكادون يذوبون تحت سنابك خيولنا كالديدان ويودون لو يجدون مدخلاً في الأرض لدخلوا فيه من غاية خوفهم واندھاشهم وحيرتهم فضلاً عن مقابلتهم إيانا باستعمال السلاح والجسارة على سل السيوف فهل يليق بقيصر الروم أن يعقد عقد الاتفاق مع هؤلاء العصاة الأذنياء الأراذل كالدولة المستقلة وما الداعي لكم على أن تتركوا طريق طونة ودينبير ودون الذي فتحناه للمسير وتسلخوا طريق كافكازيا وتمروا من حدود الفرس واتهمهم بذلك الفعل وهددهم بمحاصرة بوسفور (بوغازيكي قلعة وكيرچ من قطعة قريم وكان وقتئذ بيد الروم) والاستيلاء عليه وقد أخرجوا التهديد المذكور من القوة إلى الفعل فإن القائد التركي المسمى بوخانوس (بوفا أوبغا) كان استولى على قطعة قريم وضبط قلعة بوسفور^(١) حين عاد السفير المذكور في سنة ٥٧٥هـ بعد أداء مضمون سفارته فانقطعت المناسبة بين هؤلاء الأتراك والروم من هذا اليوم فإن الروم كانوا يخافون أن يحاربوا الفرس من جهة والأوار الذين كانوا هربوا منهم من جهة أخرى وكانت المحاربة المذكورة أساس مواد المعاهدة المطلوبة كما مر وفي الحقيقة أنهم أعني الروم كانوا يستفيدون من الأوار أكثر من استفادتهم من هؤلاء الأتراك وينتفعون بهم أكثر من انتفاعهم بهم كما سيذكر عند ذكر الإوار في القسم الثاني من هذه المقدمة.

قال كارامزين وهؤلاء الأتراك وإن أورثوا الرعب والدهشة لدولتي الفرس والصين حين إجرائهم الحكومة بساحل نهري ايرتش وأورال وأغاروا على إقليم قريم واستولوا عليها وعلى قلعة بوسفور وحاصروا بلدة خرصون في سنة ٥٨٠هـ^(٢) إلا أنهم تركوا سواحل البحر الأسود لاوار وخرجوا من قطعة أوروبا في مدة يسيرة اهـ.

يقول راقم هذه الحروف: إن سلطنة هؤلاء الأتراك قد دامت أيضاً على قوتها وشوكتها إلى مدة مديدة وقد حاربوا الفرس بعد ذلك أيضاً دفعات كثيرة متفقين مع الروم ولكنهم لم يذكروا بعد ذلك باسم الترك بل باسم الخزر^(٣) الذي أطلق عليهم من طرف العرب بعد ظهور الإسلام ومحاربتهم إياهم لضيق عيونهم كما سيذكر عند ذكر

(١) إلا أنها لم تبق بأيديهم كثيراً من الزمن كما سيجيء نقلاً عن كارامزين. منه عفي عنه.

(٢) وكان كل ذلك بيد الروم. منه عفي عنه.

(٣) ولذلك ذكر بعض المؤرخين أحوال هؤلاء الأتراك ووقائعهم عند ذكر الخزر ونسبها إلى الخزر لكونهم عينهم ونحن نذكر أيضاً بعض أحوالهم ووقائعهم أخذاً عن تاريخ هذا البعض عند ذكر الخزر إن شاء الله تعالى فلا تغفل. منه عفي عنه.

الخزر في القسم الثاني من هذه المقدمة والخزر الذين حاربهم العساكر الإسلامية عابرين الأرمينية وباب الأبواب هم أيضاً من بقايا هؤلاء الأتراك لا غير وإطلاق هذا الاسم عليهم وإن كان مؤخرًا في الواقع من هذه الوقائع المذكورة وقد مر عن ابن الأثير^(١) إطلاق الخزر على الأقوام التركية الموجودين في تلك الأعصر والقرون إلا أنه لما سماهم العرب بالخزر بعد ظهور الإسلام أطلق مؤرخو الإسلام اسم الخزر على أسلافهم أيضاً على سبيل المجاز الأولى لاتحادهم جنسًا فزعم الزاعم أنهم غير هؤلاء الأتراك وليس كذلك وقوم غزا الذين خرجوا إلى ديار الإسلام في القرن الخامس أيضاً من هؤلاء الأتراك وكذلك السلاجقة واتباعهم والحاصل أن الأتراك سمووا أولاً عند الصينيين باسم هيونغ نو ثم توكيو بطرح الرء من توكيو ثم باسم الخزر بعد ظهور الإسلام ثم بالغز تسمية باسم بعض القبيلة إلى غير ذلك من الأسماء بحسب اختلاف الزمان والمكان والمطلق ومع ذلك اشتهر بعض قبائل كبيرة منهم بأسماء مخصوصة كالتتار وقفجق وويغور وآوار وكيراي ونايمان وماجار وبلغار إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر وهذا هو مؤدى فكر الفقير والعلم عند الله تعالى .

ثم قال عاصم نجيب أفندي إن معاملة هؤلاء الأتراك لم تنحصر على ما ذكرنا من مناسبتهم مع الصين في الشرق والروم في الغرب والفرس في الجنوب بل أهم معاملاتهم ما كان مع الأرامنة الذين التجأوا إليهم وانقادوا لهم في سنة ٦١٧^(٢) يعني قبل الهجرة بأربع سنين فإنه يقال إن بعد موت سمياط في التاريخ المذكور اضطرت الطائفة الأرمينية إلى اللجوء إلى خاقان الممالك الشمالية والاحتماء تحت حمايته واللواذ بملاذ عدالته فأمرهم باللحوق بقائده الصيني المسمى چيتوخه اهـ .

ثم هنا ما نقلناه عن تاريخ عاصم نجيب أفندي مع التنقيح والتطبيق حسب الجهد أدرجته هنا مع وقوعه في الأصل المنقول بغاية التشويش والاضطراب

(١) والحاصل أن إطلاق اسم الخزر عليهم في عصر أنوشروان وقبله ليس لكونهم مسميين به في ذلك الوقت بل لكونهم مشهورين به في عصر ابن الأثير مثلاً فأطلق على أسلافهم هذا الاسم وإن لم يكونوا مسميين به وذلك لاتحادهم جنسًا وهذا كما يوجد في تاريخ بعض معاصرنا إطلاق اسم چغطاي على أقوام ما وراء النهر قبل ظهور چغطاي بستة أو سبعة قرون انظر إلى تاريخ كاشغر . منه عفي عنه .

(٢) وهذا يؤيد ما ذكرته آنفاً فإن حكومة الخزر موجودة في التاريخ المذكور بل قبله فعلم أنهم ذكروا تارة بعنوان الخزر وتارة بعنوان الترك ثم اقتصر بعد ذلك على ذكرهم باسم الخزر فقط . منه عفي عنه .

والتناقض والمساهلة في تعيين تواريخ الوقائع والأسامي لعدم قبول وجداني ترك هذه الجواهر النفيسة من غير درجتها في تاريخي الحقير مع كون موضوعه وقائع الأتراك ولعل بعض النجباء الغيور يصلحها بالمراجعة إلى أصول أصلها من تواريخ الإفرنج والصين.

ولننقل الآن أقوال المداهنين للفرس. قال ميرآخوند: لما جلس هرمز على تخت الفرس بعد وفاة والده أنوشروان سلك مسلك العدالة وحسن الإدارة مدة ١٢ سنة وجلب محبة الأهالي لنفسه بهذه المعاملة الحسنة ولكنه غير بعد ذلك مسلكه وشرع في إظهار سوء المعاملة والسير بسيرة سيئة وصار يهين الأعيان الكرام ويحتقر ذوي الحثيات العظام ويهتك أعراضهم فأعرض عنه الأهالي وصاروا يبغضونه ولما سمع من في جوانب مملكة الفرس وحواليها من أعدائهم هذا الخبر اغتموا الفرصة المذكورة وطفقوا يقصدون بلاد الفرس من كل جانب ومن جملتهم الروم فإنهم تعدوا الحدود وبلغوا نصيبين بثمانين ألفاً من عساكرهم وكتبوا إلى هرمز يطلبون منه رد ما أخذه أنوشروان من بلادهم وخرجت الخزر متفقين مع سائر الأقوام التركية الذين في تلك الجهة من باب الأبواب وبلغوا أذربيجان مغيرين ناهبين وقصد ساوه^(١) ولد خاقان الترك السابق ذكره وخال هرمز بعد وفاة أبيه بلاد الفرس بثلاثمائة أو أربعمائة ألف من عساكر الترك وعبر نهر جيحون وبلغ هراة وباذغيس وعسكر هناك وأرسل من هناك إلى هرمز يأمره بإصلاح الطرق وتعمير الجسور ليمر من هناك إلى بلاد الروم فتحير هرمز من سماع هذا الخبر المدهش واندشش وندم على ما سبق منه من الأعمال السيئة وشاور من بقي عنده من عظماء الفرس فيما يفعله فقالوا له إن مطلوب الروم استرداد البلاد التي أخذها منهم أبوك أنوشروان فإذا رددناها إليهم يعودون إلى أوطانهم بلا محاربة ومطلوب الخزر النهب والغارة فمتى سلطنا عليهم أهالي أذربيجان وأرمينية يفرون إلى بلادهم بما حازوه من الغنيمة وعدونا الحقيقي هو الترك وهمتهم مصروفة

(١) وهذه الواقعة المذكورة في جميع التواريخ التي يبين فيها أحوال الترك على اختلاف مشاربهم في الإطناب والإيجاز والمبالغة والإيغال ووقع في تاريخ ابن الأثير بدل ساوه شابه بالشين والباء الموحدة وفي مروج الذهب شايه بالياء بدل الباء ابن شب وفي معارف الدينوري خاقان الترك فقط من غير ذكر اسمه وقد قيل إن الوالي المختار كخدويي مصر كان يلقب عند قدماء الترك بشاد ويغور شاد وشادبوت كما أشرنا إليه سابقاً فإن صح هذا يحتمل أن يكون هذا الخاقان والياً مختاراً من طرف أبيه أو أخيه بما وراء النهر ملقبًا بشاد ويكون سائر الألفاظ غلطاً ومحرفاً منه في الكتابة لقرب بعضها ببعض ثم بعد وفاة أبيه أو أخيه يكون خاقاناً مستقلاً أو نائباً لعمه دبوخان ويذكر بلقبه السابق والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

إلى تسخير بلاد الفرس ومنحصرة فيه فاللازم صرف الاهتمام وبذلك غاية الجهد والمقدرة في دفعهم، فقبل هرمز كلامهم وعمل بموجبه ودفع الروم والخزر على الوجه المشروح ثم شاورهم بعد ذلك في كيفية دفع الترك وبعد اللتيا والتي عين بهرام چوبين والي أذربيجان قائداً للعسكر المرشح لدفع الترك بناء على قصة واحد من عظماء الفرس^(١) الذي كان خطب والده هرمز من خاقان الترك لأنوشروان وجاء بها من بلاد الترك إلى بلاد الفرس فانتخب بهرام اثني عشر ألفاً من عساكر الفرس لمحاربة الترك فقال له هرمز متعجباً كيف يقابل ثلاثمائة ألف من عسكر الترك باثني عشر ألفاً فقال له بهرام إن الغلبة والنصرة ليست بكثرة العسكر بل بالشجاعة والتمانة وقوة القلب وإصابة الرأي ولطائف الحيل وحسن التدبير والخدعة وبين لذلك أمثلة ومصاديق كثيرة سبقت قبل ذلك ففنع هرمز بذلك فتوجه بهرام بهذا المقدار من العسكر نحو معسكر الترك فالتقى الفريقان وانتشب بينهما المحاربة وفي تلك الأثناء رمى بهرام خاقان الترك بسهم فقتله ففرق عساكره فجمع ولده (برموده قاله ابن الأثير^(٢)) شمل عسكره المتفرقة وشرع في المحاربة وبعد اللتيا والتي انهزمت الأتراك ثانياً وتحصن برموده في قلعة هناك. فأخذ بهرام أسيراً وأخذ جميع ما في القلعة المذكورة^(٣) من خزائن

(١) والقصة أن واحداً من أمراء الفرس الحاضرين في ذلك المجمع قال لهرمز لما ذهبت لخطبة أمك لوالدك من خاقان الترك أمر الخاقان بإحضار بناته لانتخب من أريدها فألبست زوجته لبنات بعض السوقة البسة بنات الملوك وألبست بنتها البسة بنات السوقة ضئلاً منها بنتها فعرفت من أصالة جوهرها أنها ابنة الخاقان فاخترتها فأمر الخاقان المنجمين بتعيين طالعتها فقالوا إنها تلد ملك الفرس وفي أيام ملكه يقصد واحد منا بلاد الفرس فيرسل الملك المذكور لدفعه واحداً من أمرائه صفته كذا وكذا فيقبله ويهزم جيشه ويغتنم جميع ما في معسكره فوجدوا بهرام چوبين والي أذربيجان على الصفة المذكورة ولما بين الأمير المذكور ذلك مات في محله وفي ساعته اهـ. منه عفي عنه.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١/٣٦٤، وفيه اسمه: برموده بن شايه.

(٣) قال المسعودي في مروج الذهب كان في القلعة المذكورة خزائن أفراسياب التي أخذها من سياوخش وخزائن أرجاسب التي أخذها من كشتاسب وغير ذلك من خزائن الملوك السالفة اهـ وليت شعري كيف ترك كيخسرو خزائن أبيه سياوخش واسفنديار خزائن أبيه كشتاسب حيث قتلا أفراسياب وأرجاسب وكيف ترك أنوشروان حيث استأصل أهل بيت ملك الهياطلة وإنزال جنوده بفرغانة وكيف بقيت تلك الخزائن تلك المدة المديدة مع تقلبات الدهر وثانياً أن هذا الخاقان على قولهم كافة كان وقت المحاربة في هرات وبادغيس من بلاد الفرس فلاي شيء حمل تلك الخزائن هناك كأنه جاء بها لتسليم الأمانة إلى أهلها أو لعله كان سفيهاً أو مجنوناً أم يقولون إن بهرام چوبين ذهب إلى بلاد الترك بعد قتله الخاقان وهزمه عساكره مع اثني عشر ألفاً من الجيش الذي معه ولا يستبعد تجويز أمثال هذه الخرافات من مؤرخي الفرس ومن تبعهم في النقل =

الأتراك وأموالهم ومهماتهم موحملها على مائتين وخمسين ألف بعير وأرسلها مع برمودة إلى مدائن لهرمز اهـ.

هذا هو كلام لحاسي صحون الفرس الفارغة وخرافاتهم التي رفعت قدر الفرس إلى أعلى عليين وأشهرتهم في العالم بالشجاعة والشهامة وحطت مقدار الترك إلى أسفل السافلين وأشهرتهم بالخساسة والدناءة كان أول كلامهم عدم الخوف من الخزر والروم ولزوم صرف العناية والاهتمام لدفع هؤلاء الترك الذين هم أعداء وهم حقًا وآخره مغلوبية ثلاثمائة أو أربعمائة ألف من هؤلاء الأتراك الذين وجب توجيه العناية والاهتمام نحو دفعهم على يد اثني عشر ألفًا من جيش الفرس في مدة ساعات يسيرة.

نعم إذا هزم بهرام كور بعدة مات من جنود الفرس خاقان الترك الذي كان في معسكره مائتان وخمسون ألفًا من أبطال الأتراك على ما مر بيانه في موضعه كيف يتعجب من هزم بهرام چوبين باثني عشر ألفًا من جيش الفرس أربعمائة ألفًا من شجعان الأتراك وكيف يستبعد منه ذلك ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن الفرس لم يكن فيهم هوس الاستيلاء على الدنيا وفتح البلدان وإلا فمن يشك ويتردد في اقتدارهم على الاستيلاء على جميع الربع المسكون بشجاعتهم هذه وحسن تدبيرهم وأصالة رأيهم وحذاقتهم في الحيل والخدعة على ما ادعوه كما مر بيان استيلاء أسفنديار على ممالك الترك والصين والهند بأربعة وعشرين ألفًا من الجيش ولا يستبعد وجود عراض الأقبية الذين يصدقون أمثال هذه الخرافات في الدنيا. شعر:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث كبار

ونحن لا نكذب أصل القصة ولا انهزام الأتراك وإنما نكذب الوصف والكيفية وقد يفهم من كلام عاصم أفندي عند بيانه أحوال سفير الروم والأنتينوس السابق ذكره وقوع الخاقان دوبو في تهلكة عظيمة في حدود التاريخ المذكور ونجاته منها حيث قال يظن إن السفير والأنتينوس المذكور لم ير ولم يشعر التهلكة التي نجا منها الخاقان

= المجرد من غير تنقيد ولا تحقيق كما قالوا في حق بهرام كور ثم إن مائة وخمسين ألفًا من الإبل من أين وجدت ولو فرضنا لكل عشرة من الإبل قيمًا واحدًا بلغ عددهم خمسة عشر ألفًا فلا يكفي من مع بهرام لذلك ولو فرضنا عدم موت أحد منهم في المحاربة فمع من بقي بهرام ومع من قابل عسكر هرمز في الوقعة الآتية إلى غير ذلك من المحذورات وليس العجب إلا من المسعودي في إثباته تلك الخرافات مع سكوته. منه عفي عنه.

المذكور في التاريخ الذي أدى وظيفة سفارته وهي سنة ٥٧٥ م فإن هذا من قبيل التصريح بالوقعة المذكورة إن لم يكن مرادها بها غيرها فيحتمل أن يقع له انهزام وانكسار وإن لم يقتل ويؤسر مع مخالفة كيفية المحاربة وكمية الجيشين لما ذكره.

والحاصل أن الإنكار متوجه إلى الوصف والكيفية لا إلى الأصل كما في نظائره مما بولغ فيه. والملاحظة في تاريخ وفاة أنوشروان وتملك هرمز^(١) وفي وقوع هذه الوقعة بعد ١٢ سنة من تملكه تقتضي كون الوقعة المذكورة في حدود سنة ٥٨٥ أو بعدها لا قبلها إلا أن النظر إلى تواريخ أخر يقتضي صحة كونها في ٥٧٥ سنة أيضًا على ما مر.

والحاصل لما كانت أقوال المؤرخين متناقضة في وفياتهم وتملكهم لا يمكن تعيين تاريخها حتى أن ما ذكر في خلاصة تاريخ العرب من أن خسرو پرويز أرسل الجيش إلى اليمن لإخراج الحبشة منها في سنة ٥٧٥ م^(٢) يقتضي كون الوقعة المذكورة قبلها فضلاً عن تأخرها منها فإن تملك خسرو پرويز بعد الوقعة المذكورة والله سبحانه أعلم.

ذكر وقوع الخلف بين كسرى هرمز وبهرام چوبين وانجراره إلى فرار بهرام إلى الترك والتجائه إلى الخاقان

وبعد هذه الوقعة فعندما بين كسرى هرمز والقائد المذكور بهرام چوبين لوشاية الوشاة وسعاية الساعين بالفساد وهو في محل المعركة لم يرجع بعد إلى منزله ووقع

(١) فإنه يفهم من التواريخ المنقولة عن تواريخ الإفرنج كون مبدأ ملك أنوشروان في سنة ٥٢٣ م ومدة سلطنته ٤٨ سنة على الصحيح فتكون وفاته على هذا ٥٧١ سنة وأيضاً لا شبهة في كون ولادته ﷺ في عصره وإن لم يصح ما نسب إليه من قوله ولدت في عصر الملك العادل وولادته ﷺ في ٥٧٠ سنة فلا ينبغي أن يكون وفاته قبلها وقد قال ابن الأثير أنه ﷺ ولد في آخر ملكه وقال قبيل ولد بعد أن مضت من ملكه ٣٢ سنة اهـ والأول أصح فإذا ضمنا إلى سنة ٥٧١ وفاة أنوشروان اثني عشرة سنة التي بين مبدأ ملك هرمز وبين سنة الوقعة كانت المجموع ٥٨٣ سنة ويؤيده قول بعضهم أن هزم خسرو پرويز بهرام بمعاونة الروم وقع في سنة ٥٩٠ فإنه يقتضي أن يكون مؤخرًا عن الوقعة المذكورة على الأقل ٥ سنة والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) لكن هذا غلط بلا شبهة فإن خسرو پرويز لم يملك في السنة المذكورة بلا شبهة فإن هذا القائل هو الذي قال إن هزم خسرو بهرام وقع ٥٨٠ سنة والذي أرسل الجيش إلى اليمن لإخراج الحبشة هو أنوشروان فيكون قبل سنة ٥٧١ وفاته قال ابن الأثير بعد قوله السابق أن أنوشروان غزا البرجان وأرسل جنده إلى اليمن فقتلوا الحبشة وملكوا البلاد اهـ. منه عفي عنه.

بينهما اختلاف عظيم حتى انجز الأمر إلى المحاربة وسمل عيني كسرى هرمز وعزله ففرّ وولده خسرو پرويز الذي مزق كتاب رسول الله ﷺ بعد ذلك ومزق الله ملكه بسبب دعائه ﷺ عليه بذلك إلى بلاد الروم والتجأ بالقيصر موريق واستنجده على بهرام چوبين فأنجده بمقدار كافٍ من العسكر والمال فانصر عليه فانحاز بهرام إلى خراسان فخابر خاقان الترك من هناك واستأذنه في المسير إليه فأذنه الخاقان فأخذ أخته المسماة كردية المماثلة له في الشجاعة وخواص أصحابه وذهب معهم إلى بلاد الترك والتجأ بالخاقان فأكرمه الخاقان وأعطاه المناصب العالية لأجل شجاعته ودرايته^(١).

قال المسعودي^(٢) إن للفرس كتابًا على حدة في أحوال بهرام چوبين عمومًا وفي بيان تخليصه ابنة خاقان الترك من الحيوان المسمى بسمع (لعله سيمرغ) خصوصًا وحيله ومكائده التي ظهرت منه في بلاد الترك. اهـ.

وبالأخرى أرسل خسرو لزوجة خاقان الترك هدايا ثمينة والتمس منها أن تحتال في قتل بهرام ففعلته وقتلته وأرسلت رأسه إلى كسرى بإخراجه من الناووس الذي كان الخاقان وضعه فيه فعلقه كسرى أمام قصره فلما اطلع الخاقان على ذلك غضب عليها وطلقها.

يقول جامع هذه الحروف وقد نجز وتم هنا ما رمنا بيانه من أحوال قدماء الترك ومعاملاتهم مع جيرانهم من الصينيين وقدماء الفرس والروم على حسب جهدي الحقيق إجمالاً وأومأنا أثناء البيان إلى أحوال قدماء الفرس إيماء يصلح أن يكون مدخلاً لتاريخ الفرس وكذلك نفعل إن شاء الله في حق الروس أيضًا.

(١) قلت وهذا دليل ساطع وبرهان قاطع على كذب القول السابق أعني القول بقتل بهرام خاقان الترك وأسر ولده فإنه لو صح هذا القول كيف يقبله الخاقان الذي ملك بعده وهو لا شك ابن المقتول أو أخوه أو أحد قرابته على الأقل مع انضمام قبج كفران ولي نعمه والخروج عن طاعة متبوعه إلى جنابته على الخاقان وكيف يعطيه المناصب العالية بل يدل هذا على أن سبب غضب هرمز عليه ليس ما ذكره المؤرخون بل كان بين خاقان وبهرام اتفاق سري على ضرر هرمز وعلى الأقل يدل ذلك على صدور قصور عنه في المحاربة فلو فرضنا أن التفات الخاقان إليه ليس لذلك وفرضنا صدق ما ذكره المؤرخون لدل صنع الخاقان هذا في حقه على وجود ما يعد الآن من كمال المدنية أعني احترام المحارب إذا أسر والتجأ إلى محارب آخر في الأثر في ذلك العصر بل على وجود أعلى منها فإنه لا يعطي الآن الأسارى المناصب قط فضلاً عن العالية منها. منه عفي عنه.

(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣١٨/١ (فقرة رقم ٦٤٤).

قال المؤرخ الشهير المسعودي^(١) في حق كتاب من كتب تواريخ الفرس أنهم يعني الفرس يعظمون هذا الكتاب لكونه متضمنًا لأخبار أسلافهم وسير ملوكهم اهـ.

ويقول هذا العاجز لما كان كتابي هذا متضمنًا لأحوال قدماء الفرس إجمالاً بل لزبدتها وأهمها وأحوال الروسية أيضًا كذلك علاوة على ذكر أسلافنا قدماء الترك وسير ملوكهم ومناقبهم الجليلة وغير ذلك من الأخبار النادرة رجوت أن يوجد في قومنا الذين لا أزال أقاسي الشدائد وأسلب راحتني وأجلب لنفسي التعب والمشقة وإظماء نهاري وأسهر ليالي وأحبس نفسي على الكتابة والتحرير والتفتيش والتنقيب حين تفرج أمثالي في المنتزهات والبساتين في جمعه وتلفيقه وتطبيق الأخبار المتضادة^(٢) لأجلهم واستفادتهم مقدار أصابع يدي اللتين أمسك بإحديهما الورق وبالأخرى القلم واكتب ممن يعظمه ويعرف قدره ويدعو لي بخير فإن تقدير الأثر ومقدار صاحبه إنما يكون على قدر تقدير مندرجات الأثر المذكور وأرباب تقدير مندرجات هذا الكتاب في يومنا هذا من قومنا لا يزيدون هذا القدر والباقون فغاية ما نرجو من خيرهم السلامة من جرح ألسنتهم.

وقد وقع الفراغ هنا من تلفيق القسم الأول من المقدمة وجمعه ولنشره الآن في تلفيق القسم الثاني منها وجمعه.

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣١٨/١ (فقرة رقم ٦٤٤).

(٢) وقد بذلت غاية جهدي في تطبيق النقول المتضادة بعضها ببعض واستخراج تواريخ الوقائع بالاستدلال مع عدم ذكرها في واحد من مأخذي وإن انجز إلى الاطناب والتطويل ليكون أثري الحقيق صالحًا للاستفادة والانتفاع به وهذا القدر شيء كبير كثير لمثلي الذي ينشوي بشحمه من غير معاونة من طرف أحد كما قال القائل شعر:

نفس عصام سودت عصامًا وعلمته الكر والإقداما

والحاصل أنني لا أفتخر بأنني بلغت كنه الأمر بل أقول قد أظهرت رأس الخيط ونتوقع التحقيق والتدقيق المطابقين للواقع من الفضلاء الذين يحصلون الآن في بعض مدارس أوروبا التي هي معادن المعارف بمعاونة أهل الإحسان من قومنا على أن الذين حصلوا المعارف في بخارى التي هي بستان المعارف بمعاونة أهل الثروة ليسوا بمفقودين أيضًا فيرجى منهم زيادة التحقيق. منه عفي عنه.

القسم الثاني من المقدمة في بيان أحوال الأقاليم التركية الذين كانوا جيران قوم بلغار الذين ذكرهم هو المقصد من هذا الجمع والتلفيق واستوطنوا في الأوروپا الشرقية المشهورة الآن بالروسية الجنوبية والصغيرة وذكر وقائع مشاهيرهم على سبيل الإجمال وهو اقتراب من القصد بخطوات كثيرة بل بمسافة وسيدة والأقاليم الذين نذكرهم هنا هم هؤلاء

١ - السيتيا ٢ - السرماتيا ٣ - اللان ٤ - الهون ٥ - الأوار ٦ - الخزر ٧ - البجناك ٨ - القفجق ٩ - الماجار ١٠ - الباشقرد ١١ - البرطاس ولا أهمية لما سواهم بل يذكرون استطرادًا أو يترك ذكرهم رأسًا.

١ - [السيتيا ٢ - والسرماتيا^(١)]

ويقال للسيتيا السيت والاسكيت واسقوتية واسكيف واسكيتس أيضًا ولا شك أن هذه الألفاظ المختلفة الظواهر منحرفة ومنشعبة في الحقيقة من أصل واحد مرادفة عند قدماء الروم والإفرنج للترك والتتار وليسوا قومًا مخصوصين مسميين بهذه الأسماء من الترك والتتار كما يظن في بادئ الأمر. وقد صرح رفاعة بك في كثير من مواضع من جغرافياه بذلك حيث قال إن أسقوتية أمم كثيرة كانوا يسكنون في الأراضي التي بين نهري الطونة والدون (تن) وهم منقسمون إلى قبائل أشهرهم بالقوة والسطوة فرق كانوا يسكنون على شطوط نهر تانيس (تن) تسمى الأسقوتية السلطانية وعلى الشرق منهم الأسقوتية الرحالة النزالة وكانوا يعيشون بمواشيهم في سهل بشمال قريم وإلى الآن لم يزل هذا السهل على حاله لا يخرج به شجر ولا حبوب.

ثم إن أسقوتية على كلام هردوط فرقة من أمة الساقة وهي أمة عظيمة رحالة نزالة على شرق بحر الخزر في آسيا ووصل أسقوتية منها إلى أوروبا بتعديدهم نهر

(١) وإنما ذكرت سرماتيا مع سيتيا لارتباط أحوال أحدهما بأحوال الآخر كما ترى. ولا يذكروهم رفاعة باجه في جغرافياه إلا بعنوان أسقوتية بالتاء والثاء وكارامزين باسكيف واسكيت وفي تاريخ اسكندر باسكيتس وأحمد مدحت أفندي في الكائنات بسيتيا وينبغي أن يعلم أن أسقوتية المذكورة في كلام رفاعة بك غير اسقوجيا الذين في بلاد إنكليز. منه عفي عنه.

أركسيس وهو نهر ذو أربعة مصاب وهو نهر الروس أو نهر اتل، ثم إن هردوط عرف ورسم محال أسقوتية الواسعة وكان الأسقوتيون يحكمون جميع الأراضي التي في شمال بحر نيطنش (يعني البحر الأسود) وبحيرة بالوس (يعني بحر أوزاق) وكانت محدودة من إحدى جهاتها بنهر طونة ومن الجهة الأخرى بنهر تنايس (دون).

ويرى هردوط أن أرضها إحدى الأراضي الكثيرة الأهل وقد تلاقت جنود الإسكندر مع الأسقوتيين في أوروبا وآسيا في آن واحد ومن زمن متريد أطس الأكبر محيي استقلال الأسقوتيين وكان زمان متريد أطس الأكبر آخر استقلال أمة الأسقوتية في أوروبا ومن زمن متريد أطس لم يذكر الأسقوتيون إلا في معرض الاختلاف في أنهم امتزجوا بالفاتحين لبلادهم (يعني هل انقلبوا على المستولين على بلادهم وصاروا إياهم) وهم السرماطة أو أبادوهم بالكلية أو هربوا إلى الشمال الشرقي اهد فقد صرح هنا أن الأسقوتية استولت عليهم السرماطة وكذلك ذكر في موضع آخر أيضاً إن الأسقوتية خلفتهم السرماطة وأنهم دخلوا في طاعتهم.

وقال في موضع آخر وكان من قوة الأسقوتية أن تخرج مائة ألف فارس وقال وإذا لاحظنا وجود أوصاف الأسقوتية في البرمين والفينيين وغيرهم من الأمم الشمالية يمكننا أن نحكم بأن تلك الأمم من بقايا أمة الأسقوتية العظيمة التي تمتد ببلاد أوروبا. وقال ومن شاطيء سيحون (سيرديا) وشاطئي الاتل في الغرب تمتد بلاد أسقوتية شمالاً إلى أرض مجهولة ومن جهة الشرق إلى ما وراء سلسلة جبال إيمايوس يعني بلور وجبال اويغور إلى أن قال فلا نطيل البحث عن تلك القبائل المسماة أسقوتيا آسيا التي يظهر لنا أنها تثار الأعصر الوسطى أو الترك، وقال إن أسقوتية أوروبا هم من الجنس المسمى الآن التتار أو الترك وقال وفي الجنوب الشرقي من الأمم الغنية جهة بحيرة آرال سفح جبال آلتاي الاطاغ كانت تسكن أمة الترك^(١) وعلى البعد من ذلك تسكن أمة الاويغور والظاهر أن كلا من هاتين الأمتين من بقايا أسقوتية آسيا وقال وعلى شرق هذه الأقاليم المتسعة التي كانت الغوت والهون والسرماطة والاسلاوان تتحارب وتكر وتفر ويتبع بعضها بعضاً كان يسكن بواقى أسقوتية أوروبا المعروفين باسم جديد يعني تثار.

وقال في معنى كوه قاف (كافكازيا) أنها مركبة من كلمة فارسية ومن كلمة أسقوتية أي تثارية قديمة وقال في بيان إقليم الهند وملوكها ولما كان سمت ممالك

(١) يريد بهم القوم الذين ذكروا بعنوان توكيو. منه عني عنه.

هذه الملوك موافقاً لسمت البلاد التي سماها بطليموس هند أسقوتيا ولسمت البلاد التي سماها قسماس بلاد الهون أو الهنس الأبيض فلا مانع من أن يقال إن هذه الأقاليم الهندية قد وقع بها هجوم طوائف أترك أو تثار ومغول قبل زمان الإسكندر الأكبر بل وقع منهم الهجوم مراراً عديدة على تلك البلاد الهندية اه ما تعلق غرضنا به .

وهذا القدر كاف في إثبات المقصود أعني أن الأسقوتية عبارة عن الترك والتتار وإلا فهو ذكر كون الأسقوتية عين الترك والتتار في ألف موضع من جغرافياه المترجمة من الفرانساوية إلى العربية فإنه لا فائدة في الإطالة والإطناب بنقل كلها بعد إثبات المدعي بنقل هذا القدر ولكنه بقي واحد منها المتمم للعشرة أعلى وأعلى وأصرح في المقصود نجعل به هذه المقدمة مسكية الختام بذكره في آخرها قبل الشروع في المقصد الأول إن شاء الله تعالى لكثرة مناسسته لهذا المحل فارجع هناك من الآن إن شئت .

والحاصل أن قدماء الترك والتتار كما أنهم ذكروا عند الصينيين بعنوان هيونغ نو كذلك ذكروا عند قدماء الروم واليونان وعند الإفرنج أيضاً تبعاً لهم بعنوان سيتيا وأسقوتية واسكيت الخ وقيل للذين كانوا في آسيا أسقوتية آسيا وللذين كانوا في أوروبا أسقوتية أوروبا بإضافة أسقوتية إلى آسيا وأوروبا والذي حده رفاة بك سابقاً هو مساكن أسقوتية أوروبا وما حده أخيراً هو مواطن أسقوتية آسيا ولكن ينبغي أن يعلم أن هذا التحديد تقريبي وباعتبار بعض الأوقات لأنه لم تبق أمم القرون المذكورة على قرار واحد كما يعلم من وقائعهم وكما ينقل ذلك صراحة عن كارامزين ولننقل الآن أقوال من سواه المتعلقة بأسقوتية .

قال الفاضل الكاتب چلبى^(١) في كتابه المسمى بجهان نما أن تثارستان التي تكتب تاتاريا ويقول لها اليونانيون واللاتينيون سيتيا والعبرانيون مأجوج هي على نهر

(١) الفاضل الكاتب چلبى: هو مصطفى بن عبد الله بن محمد القسطنطيني الرومي، الأديب الفاضل، الحنفي الشهير بكاتب چلبى، وأيضاً بحاجي خليفة، توفي سنة ١٠٦٧ هـ، له من المصنفات: «الإلهام المقدس من الفيض الأقدس»، «تحفة الأخبار في الحكم والأمثال والأشعار»، «تحفة الكبار في أسفار البحار»، «تقويم التواريخ»، «جامع المتون»، «جهان نما» في الجغرافيا تركي، «دستور العمل لإصلاح الخلل»، «رحيم الرجيم بالسين والجيم» في الفتاوى، «رونق السلطنة»، «سلم الوصول إلى طبقات الفحول»، «طرب المجالس»، «فذلكة التواريخ» نسختان عربي وتركي الأول مختصر سماه «أقوال الأخبار في علم التاريخ والأخبار»، «قانون نامه تشریفات»، «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، «لوامع النور في ترجمة أطلس مينور» في الجغرافيا، «ميزان الحق في اختيار الأحق» (كشف الظنون ٦/ ٤٤٠ - ٤٤١).

تن (دون) الفاصل بين آسيا وأوروبا وإنما قيل لها تتاريا لاستيلاء طوائف التتار عليها قبل هذا الوقت بثلاثمائة سنة والمتقدمون قسموا هذه القطعة إلى قسمين ونحن نقسمها إلى ثلاثة أقسام ١- سرقا ٢- سيتيا ٣- سرمتايا. فالسرقا هي مملكة الصين والخطا. والسيتيا هي مملكة چغطاي والسرمتايا هي التتارستان وحدودها من بحر شروان يعني الخزر ونهر تن وبحيرة الخطا يعني بحيرة آرال أو بايقال وهو الظاهر ومن درجة (س) إلى (قك) طولاً ومن درجة (نه) إلى (سز)^(١) عرضاً شمالياً وأكثر محالها برار مستوية وهي الصحراء المعروفة في سائر الكتب بدشت قفجق وأهلها منقسمة إلى قبائل ويقال لكل قبيلة أوردو ولهم قلاع في بعض المواضع وأورد وقزان معتبر فيما بينهم ويتبع لهذا الأوردو ثلاث قبائل وقت الجهاد وهؤلاء ممتازون عن سائر القبائل بالحرب رجالاً ولهم مهارة تامة في الرمي لا يتخلف سهامهم عن الهدف أصلاً ويخرج من هذا الأوردو ثلاثون ألفاً من الغزاة ولهم بلدة على شاطئ نهر اتل تسمى قزان اهـ.

فدلّ أول كلامه على أن مراد اليونانيين وأمثالهم بالسيتيا هو التتار وهو المقصود وإن كان ما بعده يومهم بخلافه وهو في الحقيقة وهم بنفسه والحق ما عليه الجمهور الآن من مرادفة سيتيا ونظائره للترك والتتار. وقوله سرقار هذه الأمة أيضاً معروفة عند الإفرنج وربما يقال لها ساقا كما مر عن رفاة بك عن هر دوط وترافا وساغوا وهذه أيضاً ألفاظ تشعبت عن أصل واحد بالغلط والتحريف والظاهر أنها محرفة من لفظ توركي أو الأتراك فقول الفاضل الجلبلي فالسرقا هي مملكة الصين والخطا خطأ وسبق قلم.

قال ابن بطوطة في رحلته المشهورة عند بيان دخوله القسطنطينية في رفاة ببالون خاتون زوجة السلطان محمد أوزبك خان ابنة قيصر الروم ولما وصلنا إلى الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة نفر من الحراس معهم قائدهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سراكنوا سراكنوا معنا المسلمون اهـ.

قلت لا شك أن لفظ سراكنو هو سراقا وليس في حروف الروم والإفرنج حرف القاف بل فيها الكاف فقط وإنما قالوا سراقا فيما نقلوا عنهم تعريباً والنون في آخره يمكن أن يكون غلطاً في سماعه أو يكون أصل اللفظ المذكور من محرفات الألفاظ المذكورة وتفسيره بالمسلمين لا ينافي كون سراكنو وسراقا وتراكا محرقة من لفظ توركي أو الأتراك بل يؤيده لأن الأتراك لما كانوا مسلمين كان معنى سراكنو الذي هو

(١) (س) بحساب الجمل تساوي ٦٠، و(قك) تساوي ١٢٠، و(نه) تساوي ٥٥، و(سز) تساوي ٦٧.

محرف توركي أو الأتراك عين المسلمين لكونهما كالمرادفين عندهم كما أن لفظ الإفرنج والروس والإنكليز كالمرادف للنصراني عندنا ولفظ التتار وچواس كالمرادف للمسلم عند الروس وچرمش إلى الآن ويقال لروم ايلى أو أرض رومانيا عند الإفرنج داكيا وداكه ولا بعد في القول بكون هذين اللفظين أيضًا محرفًا من ساقه الذي هو محرف من تورك خصوصًا إذا لاحظنا تحريف الصينيين إياه إلى توكيو فيكون تسميته به لاستيلاء الأتراك عليها كما مر ويذكر والله سبحانه أعلم.

قال كارامزين إن اليونان قد ذكروا الأقوام الذين كانوا يقيمون في شمال البحر الأسود يعني في أوروبا الشرقية المسماة الآن بالروسية الجنوبية باثني عشر قرنًا قبل الميلاد مثل البوسفور والخزر^(١) وكيمريان وتاوريد وقد ذكرهم هردوت أيضًا في تاريخه الذي كتبه في سنة ٣٣٥ قبل الميلاد وقد بنوا بساحل نهر دنيبر على أربعين ويرستا من مصبه بلدة تسمى (أولويا) وذلك قبل الميلاد بخمسة قرون أو أكثر وقد دامت هذه البلدة إلى طرو الضعف على الريم وأيضًا كانت بلدة (پانتيكابيه) و (فناغورية) كرسي سلطنة إمارة البوسفور التي كانت مؤسسة من طرف يونان آسيا وكانت بلدة (تنايس) التي تسمى الآن بأوزاق أيضًا لهم وأما بلدة خرصون التي بقرم (ابتداء بنائها مجهول) فقد دامت على استقلالها إلى عصر متريداتس وقد أخبرت سكنة بلدة أولويا لأهل أوطانهم يعني لليونانيين أخبارًا صحيحة في حق أحوال الروسية الجنوبية والكميريان الذين مر ذكرهم من جنس قوم تسميريان الذين في كيرمانيا طردهم الأسكيف أو الأسقولوط الذين كانوا يعيشون سابقًا في ولايتي خرصون ويكاتر ينصلا وفي عصر كير (لعله كيروس) ملك الفرس وهؤلاء الأسكيف كانوا يعيشون أولاً في شرقي بحر الخزر^(٢) فطردهم من هناك المساغيون^(٣) فعبروا نهر وولغا بعد نهبهم

(١) وهؤلاء الأقوام وإن لم يكونوا أسقوتية وسرماتيا إلا أنهم كانوا في القطعة المذكورة مجاورين لهم ولوجود فائدة ما في ذكرهم كما ترى ذكرناهم هنا استطرادًا. منه عفي عنه.

(٢) وهذا عين ما مر عن رفاة بك وما يجيء عنه في آخر المقدمة فتنبه. منه عفي عنه.

(٣) ويقال لهؤلاء القوم مساعي رمساكيت وماساكيت ومسايطه أيضًا والذي ذكره ابن الأثير عند بيان أحوال أنوشروان بقوله مسقط فالمراد به هؤلاء القوم بلا شبهة وهم أيضًا قبيلة من أتراك آسيا وقال بعضهم أنهم عبارة عن اسكيت آسيا وقال كارامزين أن هردوت لما ذكر الأقوام الرحالة النزالة في جهة الشمال من بحر الخزر ذكر بعدهم قوم مساعي الذين غلبوا على كير (كيروس) ملك الفرس وقال إنه كانوا يسكنون في البراري التي يقال لها الآن برية قرغز يعني دشت القفجق وأنهم كانوا يشابهون الأسكيف ويتحلون بالذهب وكانوا لا يستعملون الفضة والحديد وكانت أسلحتهم من الصفر والنحاس اهد وقال في تاريخ اسكندر أن أهالي صغد التجأوا إلى المسائط =

قطعة آسيا واستقروا أخيراً بين نهري إيستر وتنايس (يعني طونه أو دينستر ودون) وقد أتلف ملك الفرس الكبير دارا كثيراً من جيوشه القوية حين أراد الانتقام من هؤلاء الأسكيف لنهبهم وغاراتهم لمقاطعة ميديا (أذربيجان) وكان هؤلاء الأسكيف أو الأسكيت يسمون بأسماء شتى ويعيشون على حالة البداوة رحالة نزالة مثل أمة القرغز وقالمق الآن وكانوا يحبون الحرية والمعيشة على اختيارهم من غير تحكّم أحد عليهم أكثر من كل شيء ولم يكن عندهم معارف وصناعة إلا أنه كانت لهم مهارة تامة في الحرب كانوا يهجمون على العدو دفعة واحدة ويرجعون دفعة واحدة ومع ذلك قبلوا لأنفسهم وفيما بينهم مهاجري اليونان وأخذوا منهم المعيشة المدنية قبل الكل وكان خانهم وملكهم بنى في بلدة أولويا قصرًا عظيمًا ملوكيًا وزينه بأنواع زينة اليونان وقد حدث من اختلاط اليونانيين مع الإسكفيين وازدواج بعضهم ببعض أخلاط من الناس كانوا يسمون كلاييد وكانوا يسكنون في غربي أولويا وكانت الطائفة المسماة آلازون (لعلهم الذين سماهم رفاعة بك الأسقوتية السلطانية) من الأسكيف يقيمون بشاطئي نهر غيبانيس المسمى الآن بوغا والطائفة الزراعون منهم كانوا يسكنون في كل طرف من طرفي نهر دينيبر والجهة الشمالية وهؤلاء الطوائف الثلاث يعني كلاييد والأوزون والزراع كانوا يشتغلون بالزراعة والتجارة وكان بين الطائفة الزراعيين منهم على بعد مسافة أربعة عشر يومًا من مصب نهر دينيبر بساحله في أعاليه مدفن ملوك الأسكيف ومقابرهم وكان يعد موضعًا مقدسًا عندهم وغير قابل التسخير لعدوهم على زعمهم وكان أوردوهم يعني فيلقهم الأول وطائفتهم الأولى التي فيها سلطانهم كانت تتردد في جهة الشرق راحلين نازلين حتى كان ينتهي سيرهم إلى بحر أوزاق ونهر دون وقريم وكان بها يعني بقطعة قريم قوم تاوريد وهم قوم يحتمل كونهم من جنس كيمريان المار ذكرهم وقد كان هؤلاء القوم يذبحون الغرباء من الناس لألهتهم ومعابدهم التي كانت على جبال سيواستابول الآن^(١).

وكان يسكن على جهة الشرق من نهر دون يعني في برية حاجي طرخان قوم كانوا يسمون سرماتيا (جرميش). وعلى قول إيغور الذي كان في حدود سنة ٣٥٠ قبل الميلاد أن الأسكيف وإن اختلطوا بالروم المتمدنة مدة مديدة لم يتركوا الافتخار

= الذين هم طائفة من اسكيتس يعني بعد أن استولى إسكندر على صغد وقال في هامشه إن طائفة مسايطه هم أهالي تركستان الكائين على نهر سيحون (سيرديا) اهـ. منه عفي عنه.
(١) وقد خلفهم الروس الآن في تعظيم تلك الواضع واتخاذها أديرة ومناسدير ومواضع الأصنام والأوثان. منه عفي عنه.

بمعاملة أجدادهم الوحشية وقد فارق^(١) وطنهم الفيلسوف الشهير أناخريست تلميذ الفيلسوف سولون حياته لمحاولته تعليم قوانين آفينا (آثينا) وعاداتهم ومعارفها إياهم وكانوا لا يبالون بأعدائهم اعتماداً على كثرتهم وشجاعتهم وكانوا يشربون دماء أعدائهم المقتولين ويسلخون جلودهم ويدبغونها ثم يصنعون منها ألبسة ويلبسونها ويجعلون قباب رؤوسهم كؤوساً وظروفاً يشربون بها الماء وكانوا يسجدون للسيوف وقد شرعت قواهم في التنزل من عصر فيليبوس أبي إسكندر المقدوني وعلى قول واحد من المؤرخين المتقدمين أن فيليبوس غلب الأسكيف غلبة تامة لا بالقوة والشجاعة بل بالحيلة والخدعة ولكنه لم يجد في نتيجة غلبته وانتصاره عليهم شيئاً من الفضة والذهب في مساكنهم بل لم يجد فيها شيئاً سوى الصبيان والنساء والشيوخ الهرمى.

وقد ضيق متريداتس أوباثور عليهم بعد تملكه السواحل الجنوبية^(٢) للبحر الأسود واستيلائه على مملكة بوسفور وقد انمحت وفنيت قوتهم الأخيرة في غزوة الريم أو روما (الروم) وقوم غوت الذين كانوا يسكنون بفراكية وإن كانوا مغلوبين من إسكندر المقدوني بساحل نهر طونه ولكنهم نزعوا الأراضي التي بين نهري طونه ودينبير من أيدي الأسكيف وغلبوهم عليها في عصر رئيسهم المسمى بريست قبل الميلاد بسنين علاوة على كونهم عدواً مخوفاً للروم وبالأخرى دخلت السرمات (جرميش) الذين كانوا يسكنون بقرب نهر دون أراضي الأسكيف واستولوا عليها، وعلى قول ديودر الصقلي إن السرمات قتلوا الأسكيف قتلاً عاماً وأبادوهم بالكلية أو قلبوهم إلى أنفسهم ومزجوهم بهم بحيث تلاشى وجود الأسكيف وانعدم من العالم بالكلية ولم يبق منهم غير اسمهم المشهور ومع ذلك سمت الروم الذين لهم بضاعة مزجاة^(٣)

(١) ولا تنس نصيبك مما تقدم آنفاً من أنهم أول من أخذوا المدينة من اليونان ولا تنس حصتك أيضاً مما قدمنا أن عادة قوم ترى مستكرهة لقوم آخرين ليسا عليها وإن كانت مستحسنة في حد ذاتها وأما هلاك الفيلسوف أناخريست فلم يكن لمحاولته تعليم مدينة اليونان بل لمحاولته تعليم عبادة الأصنام ووثنية اليونان التي هي مستقبحة في الغاية عند الأسكيف وعند كافة ذوي العقول أمثالهم وسيجيء ترجمة حاله في آخر المقصد الأول إن شاء الله تعالى وتتكشف هناك جلية القضية. منه عفي عنه.

(٢) كذا في ترجمة الأصل والصواب الشمالية كما لا يخفى ولعلها في الأصل كذلك. منه عفي عنه.

(٣) كان أول الكلام أن يونان آسيا قد أخبروا أهل أوطانهم من يونان أوروبا أخباراً صحيحة في حق الأساكفة وآخره المنقول عن ديودر كان بعكس ذلك ووجه اختلاف مشارب المؤرخين =

من العلم والمعرفة الأقسام الذين ليس لهم أي للروم علم بهم لبعدهم عنهم باسم الأسكيف اهد ما ذكره كارامزين .

وقد أشرنا فيما سبق إلى تضييع إسكندر الماكيدوني جملة صالحة من أوقاته وإتلاف كثير من عساكره بمحاربة قوم أسكيتس آسيا وتركستان في إقليم صغد من وراء النهر وسفره إلى طرف الهند من غير أن ينال مقصده ويفوز ببغيته .

والحاصل كما أنه أتلّف كثيرًا من بلوكات ومفارز من عساكره كذلك ذكر في تاريخ إسكندر رجوع أربعين فارسًا وثلاثمائة راجل فقط إلى إسكندر من كامل الأوردو (الفيلق) من عساكره الذين كان أرسلهم لمحاربة طائفة من اسكيتس الذين كانوا يسكنون في شمال نهر سيحون^(١) (سيردريا يعني في تركستان) وقال في التاريخ المذكور أيضًا وكانت طائفة آويا من أسكيتس الذين هم من قبائل التتار القدماء متمكنين في ممالك أوروبا وكانوا مشهورين بمزيد فقر الحال وخصوصًا بالإنصاف والحقانية وكانوا مستقلين بحكم أنفسهم ومطلقى العنان^(٢) لذلك حتى أن الشاعر اليوناني الشهير أميروس ذكرهم في آثاره وأشعاره بالإنصاف والحقانية ومدحهم بالتفوق فيها على عامة البشر وبعد مرور أيام من دخول إسكندر ما وراء النهر جاءه سفراء الطائفة المذكورة وسفراء طائفة أخرى من أكبر وأعظم قبيلة من أسكيتس المقيمين بأوروبا فصرفهم إسكندر بعد أدائهم الرسالة إلى أوطانهم وأرفق لهم عدة

= وأغراضهم والصحيح بالنظر فيما سبق من النقول لا جهالة في تسمية الروم الأقسام البعيدة عنهم بالأسكيف . منه عفي عنه .

(١) وفي الأصل مكتوب بنهر پولتيموس وسيحون مشهور عندهم بأوقسارت كما أن جيحون مشهور بأوقسوس إلا أنه لم يكن هناك نهر موصوف بالأوصاف المذكورة في الأصل غير سيحون حملناه عليه . منه عفي عنه .

(٢) يعني من أن يحكم عليهم أحد فإن الاحتياج إلى حكم الحاكم لدفع ظلم الظالم فإذا لم يوجد الظلم بل وجد أضداده من الحقانية والانصاف والعدالة فقيم يحتاج إلى الحاكم وقد قيل لو أنصف الناس لاستراح القاضي وأنا أقول لو أنصف الناس لما يحتاج إلى القاضي فهذا هو غاية المدح والأوروباويون وإن كانوا مولعين برمي الشرقيين عمومًا والأتراك خصوصًا بالوحشية وعدم المدنية دائمًا إلا أن تواريخهم تكذبهم في ذلك وترد عليهم قولهم ببيان تمدن الأتراك وتفوقهم على عامة البشر في أحسن الأوصاف الحميدة في قرون قديمة جدًا لا يعرف الأوروباويون فيها التمدن قط بل لم يسمعوها فيها لفظه واسمه فمن أراد أن يعرف أحوالهم فيها بل في قرون متأخرة عنها جدًا فلينظر إلى ما قدمنا عن درابر الأمريكي في بيان أحوالهم قبل هذا التاريخ بـ ٤٧٥ سنة يعرف أحوالهم في تلك القرون بالمقايسة عليها . منه عفي عنه .

أنفار من مقربيه سفراء إليهم لعقد روابط الصلح والاتفاق معهم في الظاهر وجواسيس للاطلاع على مسالك بلادهم وأخلاقهم وعاداتهم ومقدار نفوسهم وقواتهم وكيفية قتالهم ومحاربتهم وأسلحتهم في الحقيقة ثم عادت سفراء إسكندر ومعه سفراء أخرى من حاكم أسكيتس فأخبروه أن حاكمهم الأول قد توفي قبل وصولهم إليه وملك مكانه أخوه وكان المقصد من إرسال هؤلاء الرسل الإعلام بالمودة وحمل الهدايا الثمينة لإسكندر والإعلام بأن كلما يكلف به إسكندر تقبله الطوائف الأسكيتية وإظهار الرغبة في إيقاع قرابة المصاهرة بينهم وبين إسكندر بأن يتزوج إسكندر ابنة ملك أسكيتس أو يتزوج كبراء أمرائه بنات كبراء أمراء أسكيتس إن أبى إسكندر عن التزوج وذلك لتأكيد الموالاتة والاتفاق الذي بينهما وأنه يعني حاكم أسكيتس مستعد للحضور عنده إن أراد ذلك فأكرمهم إسكندر وعاملهم بالملائمة والمعاملة المناسبة للوقت والحال وأعادهم إلى أوطانهم قائلاً إن وقته لا يساعده الآن التزوج خصوصاً بواحدة من بنات طائفة أسكيتس اهـ.

قال بعض فضلاء محرري العصر^(١) في القسم المتعلق بأحوال الروسية من تاريخه إن أول قوم علم في الروسية الجنوبية من الأقاليم الشرقية ملة تسمى سرماتيا (جرميش) كان هؤلاء يسكنون في القطعة التي بين بحر البلطيق والبحر الأسود وبحر الخزر وبعدهم عرفت ملة في جهتهم الشرقية من قطعة آسيا تسمى سبتيا وكان يظن^(٢) بناء على المناسبة العظيمة بينهما أنهما ملة واحدة ولكن أخطر التاريخ أخيراً أنهما ملتان لا ملة واحدة ويخبرنا الآن يعني التاريخ بالمعلومات الآتية سبتيا وسرماتيا السبتيا متقدمة على سرماتيا من جهة القدم يعني الوجود ومن جهة الجسامة فإنهم يعني السبتيا قديمة جداً حتى أن التوراة تبحث عنهم حيث قيل فيها إن سبتيا^(٣) ولد

-
- (١) الفاضل الشهير أحمد مدحت أفندي في تاريخه العمومي المسمى بالكائنات. منه عفي عنه.
(٢) قلت وهذا الظن وبيان موضعها على هذا الوجه مختصان بهذا الفاضل وإلا فكونهما ملتين وكون مواضعها بخلاف ذلك معلوم من البيان السابق واللاحق. منه عفي عنه.
(٣) اعلم أن نسب بني البشر مبين في سفر التكوين وأخبار الأيام الأول من التوراة وبعد فيهما المأجوج من أولاد يافث الصلبية ولكن لا ذكر فيهما لسبتيا قط فضلاً عن بيان كونه ولد مأجوج بل لا يذكر فيهما من أولاد يافث غير أولاد جومر وياوان نعم يذكر فيهما سبتا بالياء الموحدة بين السين والتاء من أولاد كوش بن حام بن نوح فيحتمل أن يتوهم هذا الفاضل من هذا وإن كان بعيداً أو يحتمل أن يأخذه عن تفسير التوراة التلمود أو غيره من الإسرائيليات وقد ثبت عن جمع من المؤرخين كون سبتيا من الترك والتتار وقد مر تحقيق كون الترك ولد يافث من صلبه أو كون حفيده أو حفيد ولده وأن يأجوج على تقدير صحة ما يقال إنه توراة أخوه أعني أخو=

المأجوج ومأجوج ولد يافث ويافث ولد نوح وهذا إذا سلّم أنه خبر سماوي وغير محرف فأما أن يسلم ذلك فيمكننا أن نقول بناء على وجود ملل كثيرة في آسيا ليسوا من ذرية نوح بل من ذرية من قبله على بيان التواريخ (يعني تواريخ الصين والهنود والفرس والمأخوذة منها) أن سبتيا من أقدم الملل المنتشرة في أقاصي آسيا ثم منها إلى أوروبا آتية من طرف الهند والصين وأعظمها. كانت الملة المذكورة ممتدة من نهر ويستولا المنصب في بحر البلطيق إلى منتهى حدود آسيا الشرقية بحيث كانت مملكة الروسية الآن بكمالها وتمامها أوروبية وآسيوية داخلية في حدود أراضي هذه الملة وحيث كانت حدود آسيا الشرقية والشمالية غير معلومة في العصر المذكور يمكن تعيين حدود مملكة هذه الملة العظيمة وأوطانهم الجسيمة من شرقي ويستولا وشمالي نهر طونة والبحر الأسود وبحر الخزر ومملكة الصين.

وقد اعتبر بعض أرباب الجغرافيا القديمة حدودهم من نهر أورال دون نهر ويستولا على ما حررنا ويعدونهم بناء على ذلك من الأقوام الآسيوية فقط ولكني^(١) أعتبر الحدود الأولى لقبولي قول من قال إن أول قوم سكن في إقليم الروسية الآن هم السيتيا واعتقادي وجزمي بذلك لثبوت تقدم سيتيا على سمراتيا من جهة الموقع ومن جهة الجسامة فإن سمراتيا إنما افترقوا من سيتيا واستقلوا بأنفسهم مؤخرًا على ما سيظهر من البيان الآتي فإن كانت سمراتيا ممن تجاري سيتيا في القدم فهي واحدة من القبائل التي تشكلت منها سيتيا وانتشرت في أوروبا الروسية الحالية واستوطنت بين نهري ويستولا وأورال وجباله والبحر الأسود وبحري البلطيق والخزر على المنوال المحرر ولكن لم تنتشر في هذه القطعة الوسيعة سمراتيا وحدها بل انتشرت واستوطنت معهم فيها قبائل غيرهم ممن تشكلت منهم مملكة سيتيا ودولتهم كما توجد مثل هؤلاء القبائل المتفرقة في جهة آسيا. وكان انتشار سمراتيا وسائر الأقوام المتجاورة إياهم في

= الترك أو عمه أو عم أبيه فلا معنى لجعل سيتيا من أولاده أو مقدمًا على نوح مخالفًا لنص التوراة إن صحت تورانيته وللجمهور أيضًا وتبعًا للوهم المجرد نعم إن الذين ينكرون صحة ما يقال نقلًا عن التوراة فهم ينكرون كون الصين والهند والفرس من أولاد نوح وليس إنكارهم في سيتيا وقصدنا من نقل كلام هذا الفاضل هنا التنبيه على خطئه لئلا يغتروا به ولوجود فوائد أخرى فيه. منه عفي عنه.

(١) وهذه التخطئة والاستدراك إنما نشأ من عدم التمييز بين سيتيا أوروبا. وبين سيتيا آسيا وإلا فكلا الحدودين صحيحان ومراد من عد سيتيا من أقوام آسيا إنما هو سيتيا آسيا لا سيتيا أوروبا والذي في شرقي سمراتيا إنما هو سيتيا آسيا دون سيتيا أوروبا. منه عفي عنه.

داخل أوروبا الشرقية بناء على فتحها باسم سبتيا واستيلائهم عليها يعني تابعين لهم لا أنهم دخلوها مستقلين وقد شنت سبتيا الغارات غير ذلك على جهة الجنوب والجنوب الغربي حتى بلغت غاراتهم قبل الميلاد بستة وسبعة قرون قطعات أناطولي والشام ومصر أيضًا وحيث كانوا شجعانًا وأبطالاً ومهرة في فن الحرب لم يقدر خسرو ودارا وخصوصًا الإسكندر الرومي على الاستيلاء على ممالكهم مع قصدهم ذلك وصرف غاية القدرة وبذل نهاية المكنة فيما هنالك في أواخر سلطنتهم وطرود الضعف عليهم وانحطاط قواهم^(١)، ولكن بموجب قول الشاعر:

ولكل شيء آفة من جنسه

قام عليهم بعيد ذلك سرماتيا الذين كانوا تحت طاعتهم ورفعوا عليهم لواء العصيان وضموا سائر الأقاليم المتجاورة في ذلك إلى أنفسهم وانتصروا بهذا الطريق على سبتيا فسميت الأراضي المحدودة بالحدود السابقة يعني أوروبا الشرقية كلها بعد تلك الغلبة باسم سرماتيا وبقي اسم سبتيا في جهة الشرق من نهر أورال إلى نهاية الشرق^(٢) حافظًا لحكمه على ما مر ذكره نقلًا عن بعض أرباب جغرافيا القديمة فكما أنا اعتبرنا سبتيا أول مالك لقطعة أوروبا الشرقية وأول أهاليها على الإطلاق كذلك نعتبر سرماتيا ثاني أهاليها وثاني حكومة ودولة بها وقد بقي اسم سرماتيا في أوروبا الشرقية مدة مديدة حتى أنهم بقوا فيها إلى العصر الثالث والرابع من الميلاد ولكنهم صاروا معروضين على هجوم طائفة اسلاوان الكائنة في الجهة الشمالية يعني الغربية من مملكتهم حين تخلصوا من حكومة سبتيا وتحكمهم عليهم وتأسيس الحكومة على اسمهم وتأييدها وكانت المحاربة بينهما سجلاً تنتصر هذه على تلك تارة ويكون الأمر بعكس ذلك تارة أخرى حتى تولد من مخالطة بعضهما ببعض أخلاط من الناس ليسوا سرماتيا صرفًا ولا أسلاونا محضًا مصداق قول القائل:

شبه النعامة لا طير ولا جمل

(١) ولما أخذ هذا الفاضل ما حرره عن تواريخ الإفرنج ولم يذكر فيها من وقائع سبتيا أعني الترك مع الفرس سوى هذا القدر أكتفي أيضًا بإثبات هذا القدر وعده شيئًا كبيرًا مع أنه ليس بشيء في جنب الوقائع المتقدمة فهو معذور فيه لعدم اطلاعه على تواريخ الإسلام وقد عرفت من وقائعهم الكبار التي يتلاشى هذا في جنبها. منه عفي عنه.

(٢) وهذا الكلام صريح في أن سرماتيا إنما غلبوا على سبتيا أوروبا لا على سبتيا آسيا. منه عفي عنه.

وامتدت محاربتهما على الوجه المشروح إلى أن ظهر في أواخر العصر الثالث من الميلاد أمة وحشية من جنس جرمانيا بل أصلهم تسمى غوتا وقوتا وكوتا وزوتا من غربي مملكة سرماتيا فهجمت عليهم وغلبتهم على مملكتهم ولكنهم لم يضمحلوا بالكلية بل بقيت منهم بقايا بين بحر البلطيق وجبال أورال (يعني في أمكنتهم الحالية) وإن كانت بمثابة الخراجية لدولة غوت ثم في أثناء ظهور الهون واستيلائهم على أوروبا غاب اسم سرماتيا بالكلية ودخلت أوروبا الشرقية بتمامها بأيدي الهون اه ما ذكره بعض الفضلاء ببعض اختصار.

ولننقل الآن كلام كارامزين في حق سرماتيا قال إن القوم الذين سماهم هردوت سرماتا أو صاورماتي كان مبدأ اشتهارهم في عصر ميلاد عيسى عليه السلام ومنذ استمكنت الروم أطراف نهر طونه صارت السرماتيا معلومة لهم ويذكر مؤرخوهم أحوالهم منتظمة من هذا الوقت وقد تملكت السرماتيا القطعة التي بين بحر أوزاق ونهر طونه وكانوا منقسمين إلى قبيلتين عظيمتين إحداهما تسمى روقصلان والأخرى يازيغي ولكن الجغرافيين سموا الأراضي التي بين البحر الأسود وأقصى الشمال وممالك جرمانيا من أوروبا الشرقية وآسيا الغربية من غير مناسبة باسم سرماتيا كما أنهم سموها قبل ذلك اسكيفيا وجهة الجنوب من غير تحديد اينونيا وجهة الغرب كيكيتيكا وجهة الشرق هنديا.

والحاصل أن قبيلة روقصلان من سرماتيا استقرت في سواحل البحر الأسود وبحر أوزاق وقبيلة يازيغي منهم تحولت إلى داكيا واستوطنت بين نهري تيس وطونة وشنوا الغارات مدة مديدة على الروم المتمدنة فقبيلة روقصلان انتصر على قوغورت الروم وقبيلة يازيغي أغاروا على ميزيا (بلغاريا الحاضرة) ونهبوها فاضطرت الروم إلى شراء مودتهم بالذهب.

وقد عدّ مؤرخ الروم تاتسيت إحدى هاتين القبيلتين من متفقي قومه الروم والأخرى من متفقي جرمانيا وقد أنتجت محاربة ماركومان نتيجة سيئة في حق سرماتيا حيث أزلت قوتهم وأضعفتهم إلا أنهم أقاموا بعد ذلك بساحل نهر تيسيسكا أوتيسي من الروسية الجنوبية راحلين نازلين على حالة البداوة مدة مديدة وأزعجوا الروم إزعاجاً شديداً بنهبهم وغاراتهم.

ثم قال بعد ذكر هون لا نجد في التواريخ كلمة واحدة في حق روقصلان في الوقت المذكور والظاهر أنهم اختلطوا بالهون وامتزجوا بهم بحيث انقلبوا عليه أو

اختلفوا بقبيلة يازيغي واستقروا في ايليريا من طرف ايمبراطور ماركيان تحت اسم سمراتيا العمومي فاختلطوا بالغوت هناك وانقلبوا عليهم بحيث زال عنهم اسم سمراتيا لأنه لا يوجد حرف واحد في التواريخ متعلق بهم في آخر العصر الخامس من الميلاد اه ما ذكره كارامزين في حق سمراتيا.

فظهر من هذه البيانات والنقول أن الأقوام التركية المسماة بأسامي سيتيا واسكيت وأسكيف وأسكوتيا الخ المتنوعة المتشعبة بالتحريف من أصل واحد قد ظهوروا قبل الميلاد بقرون كثيرة متطاولة بحيث لا يقدر التاريخ على تعيينها وأنهم استوطنوا في آسيا والأوروبا الشرقية في تلك القرون المتطاولة واشتهرت أحوالهم اشتهاً لا يخفى على أحد ثم إنهم انقروضوا بخروج سمراتيا في حدود العصر الأول من الميلاد وعصيانهم عليهم وغلبتهم إياهم وإن سمراتيا كذلك اشتهرت أحوالهم من العصر الميلادي إلى العصر الخامس منه وأنهم انقروضوا في أواسط العصر الخامس منه ولكن لا يلزم من انقراض سلطنة كلتي الطائفتين في التاريخ الذي ذكر وانقطاع ذكرهم في التواريخ بعد ذلك انعدامهم وانمحاؤهم من عالم الوجود بالكلية.

والذي يظهر من البيانات السابقة وقرائن الأحوال الحاضرة أن بعضهم اختلفوا بالأقوام الغالبة والمجاورة وانقلبوا عليهم وبعضهم بقي في زاوية وناحية من ممالكهم حافظين لجنسيتهم وملتهم مع انقراض سلطنتهم وانقطاع ذكرهم في التواريخ شأن الأمم المغلوبة القليلة الأهمية ألا ترى أن طائفة القزاق كما يسمون طائفة الباشقرد ايستاك كذلك يسميهم الروس أيضاً أو طائفة منهم باوستاك إلى يومنا هذا ولا شبهة عند أولي الأبواب في كون لفظ ايستاك وأوستاك من أصل واحد مع ألفاظ اسكيت أو اسكوتيا الخ.

وقد ذهب بعض فضلاء العصر أن طائفة سيتيا إنما سموا به مع كونهم من الترك لقيامهم بحفظ حدود ممالك الترك وحراسة ثغورها وقد يعبر عن حد الشيء وطرفه في اللغة التركية بچيت فسموا لذلك أولاً بچيتلر جمع چيت ثم حُرّف بعد ذلك إلى سيت وسيتيا ثم إلى نظائرها ويؤيده وجود قوم چيتا في عصر تيميرلنك فإنه ذكر في روضة الصفا وغيرها أثناء بيان أحوال محاربهته بقوم چيتا في جهة سيبيريا مراراً عديدة ويقويه أيضاً وجود بلدة الآن وراء بحيرة بايقال مسماة بهذا الاسم ويقويه أيضاً ما ذكره رفاة بك في جغرافياه ومن الأمم المتجاورة لأسقوتية أمة الجية وهي أمة تقرب من جنس الصقالبة وكانت هذه الأمة ساكنة في سالف الزمان في البلاد المسماة الآن بلاد

بلغاراه فعلم من ذلك أنهم كانوا يسمون بأصل اسمهم إلا أن ذكرهم بأسقوتية لما كان غالبًا ظنوا أن أمة الحجية غير أسقوتية وعدوهم قومًا آخر مجاورًا إياهم وليس كذلك وكذلك سمي عين القوم المذكورين أعني القوم المسمى بأسقوتية ونظائره في الوقت المذكور باسم بوزقير لإقامتهم في البرية المسماة بهذا الاسم ومعناه البرية البيضاء وهي ما بين جبال أورال ونهر وولغا وقاما أعني أراضي الباشقرد أو برية القزاق كلها ثم حرف اللفظ المذكور أعني بوزقير إلى باشقير وباشقرد وباشقرد فهذا القول يؤيد ما قلنا على وجه لا يبقى فيه أدنى شبهة فإن طائفة باشقرد على هذا يكون عين سيتيا ولا منافاة بين هذا وبين ما سيذكر من أن الباشقرد من بقايا الهون فإن هون على هذا البيان والبيانات السابقة ليسوا مغايرين لسيتيا بل هما قوم واحد والتعدد إنما هو في الاسم فقط .

وكذلك من ذا الذي يشبهه عليه كون الجرامشة الموجودين الآن في ولايات قزان ونبژني ووانكا وپيرمي من بقايا سرماتيا ولا سيما إذا لوحظ تسمية الروس إياهم سرميتسي أليس هي من قبيل التصريح بكونهم سرماتي أو ليس ما مر ذكره نقلًا عن بعض الفضلاء من تعيين موضع سلطنتهم الأخيرة في مواضع الجرامشة الآن دليلاً وافيًا في ذلك بل نصًا فيه وقوله إن اسمهم غاب في أثناء استيلاء هون لا يدل على انعدام وجودهم بل يدل على بقاءه .

والعجب من كارامزين حيث لم يتنبه على هذه المادة ولم ينبه عليها غيره مع كمال ظهورها ومع كمال اطلاعه على الأقوام الكائنة هناك وإحاطته بهم فإذا كان حال كارامزين هذا فماذا نقول في غيره ممن لا اطلاع لهم عليهم ولا علم لهم بوجود الجرامشة هناك فإنهم معذورون وحقيقة العلم عند الله سبحانه وتعالى .

٣ - [اللان]

اللان^(١): قال كارامزين وقد ظهر مع روقصلان وبازينغي في زمان واحد طائفة (اللان) ولا شك أنهم من جنس السابقين وكان يسكن هؤلاء في الجنوب الشرقي من

(١) قال في ترجمة القاموس اللان بفتح الهمزة اسم مملكة في جهة أرمينية واسم طائفة وكأنها المملكة التي تسمى الآن بطاغستان ودار ملكهم قصبية تسمى قويموق وتبديل الهمزة بالعين من لحن العامة وأبو عبد الله اللاني معلّم الأمراء روى عن البغوي اهـ والظاهر بل الصواب أنه الآن بفتح الهمزة وتشديد اللام وإلا فكيف يقال إنه بفتح الهمزة لأنه لا همزة في كلمة اللان بل هي لأن أدخلت عليه حرف التعريف فعلى هذا ينبغي أن يقال بعد إدخال حرف التعريف إلا لأن كما لا يخفى إلا أنا جربنا على ما وجدناه وطوبناه على غره . منه عفي عنه .

الروسية الجنوبية وهم على قول بعضهم من جنس المساعي الذين كانوا يسكنون بين بحر الخزر والبحر الأسود (يعني في صحراء حاجي طرخان وحدود داغستان) راحلين نازلين كسائر أقوام آسيا وكانوا يغيرون على الأطراف والجوانب وكانت غاراتهم في آسيا تصل إلى أرمينية وميديا وإلى الهند الشمالية يشنون الغارات في أوروبا على أطراف بحر الخزر والبحر الأسود وهم كانوا لا يبالون بالموت في أثناء المحاربة وكان اشتهاهم بذلك.

ويحتمل كون أورصي وصيراق أيضًا من جنس اللان وكثير من المؤرخين يذكرونهم في العصر الميلادي وكان هؤلاء يسكنون بين كافكازيا ونهر دون وكانوا يتفقون تارة مع الروم ويكونون تارة أعداء لهم وقد ضيق هؤلاء على سمراتيا في وقت ما وطردوهم من شرقي الروسية الجنوبية واستولوا على قسم من شبه جزيرة القريم اهـ ما ذكره كارامزين وقد ذكر بعض أحوالهم في القسم الأول من هذه المقدمة وسيذكر بعض منها في أواخر بيان الهون هذا.

وقد ذكر كارامزين أقوامًا كثيرة في القطعة المذكورة من الترك وغيرهم تركنا ذكرهم لعدم مناسبتة هنا ولكنه ذكر في ساحل بحر البلطيق قومًا يسمى وينيد^(١) ويتردد في كونهم من جنس أسلاوان الذين هم أصل الروس وكونهم من أقوام آسيا وأنهم متى جاءوا هناك إن كانوا من أقوام آسيا ثم قال إن ظن قطعة آسيا منشأ ومنبعًا لكافة أقوام العالم يحتمل أن يكون ظنًا صحيحًا فإنه موافق ومطابق على الروايات المقدسة (يعني روايات التوراة) والمشابهة الموجودة في بعض لغات أوروبا بلغات آسيا تؤيد ذلك ومع ذلك لا نقدر على تأييد هذا الاحتمال بدلائل تاريخية قط وحيث كان أسلوب معيشة قوم وينيد^(٢) مغايرًا لطرز معيشة^(٣) أقوام آسيا وقد وجدهم التاريخ في قطعة أوروبا نعدم نحن أيضًا من أهالي أوروبا اهـ.

٤ - [الهون الغربية]

الهون الغربية أو هون أوروبا قد سبق في القسم الأول من هذه المقدمة ذكر معاملة هؤلاء القوم مع الصين قرونًا كثيرة وأن دولتهم الكائنة في حدود الصين قد

(١) كتبه بعض فضلاء عصرنا بالألف بدل الياء الأول وبإسقاط الياء الثانية هكذا (واند) على زنة فاعل ومنشأه زعمهم هذه العلامة الإفرنجية ه علامة الفتحة وليس كذلك بل هي علامة الكسرة المحضة فتبدل وقت الترجمة بالياء علامة للكسرة أو تترك بالكلية فيكتب هكذا وند وأصله هكذا Behejb. منه عفي عنه.

(٢) يعني المعيشة الحضرية. منه عفي عنه. (٣) يعني المعيشة البدوية. منه عفي عنه.

انقرضت أخيرًا بالكلية وأنهم هاجروا بعد ذلك إلى جهة نهر أورال وولغا وأسسوا هناك دولة قوية الشكيمة بعد إدخالهم الأقوام التركية المقيمة هناك تحت طاعتهم وأنها سميت بالهون الغربية وأنها أرعبت أهالي أوروبا وأرهبتهم ودامت إلى عدة أعصر وقد أحلنا ذكر بقية أحوالهم على هذا الموضع فنذكر الآن تلك الأحوال فنقول وقع الاختلاف في تاريخ ورودهم هناك .

قال رفاعة بك إن أمة الهونة تعرف عند الصينيين باسم هيينغ نو وكانت قبل الميلاد بقرنين ساكنة في الشمال الشرقي من بلاد الصين فتكون منازلهم على هذا في البلاد المسماة الآن ببلاد المغل والقلموق وكانت الهونة من جنس هاتين الأمتين وأوصافها التي ذكرها بعض المؤرخين ترشد لذلك .

ومن أسباب خروج بعض الأمم الهونية من بلادهم إلى الغرب وقوع فتن فيما بين بعضهم ببعض وفي سنة ٣٠٠ ميلادية امتدوا إلى بشكير التي سميت الهونية الكبرى أو هنغارية ولما حاربت هذه الأمة أممًا أخرى أسياتية هجموا نحو سنة ٤٠٠ ميلادية على سواحل بحر أوزاق الذي كان يسمى بحيرة بالوس ميوتيدة وتملكوا بلاد اللان وأدخلوهم في أحزابهم وتغلبوا على المملكة الغوتية ببلاد بولونيا (بولشه) ودخلوا إلى بلاد السكندناوة وكان لهم رئيس يقال له أطبلا عطف سلاحه نحو الجنوب فدخل في حكمه الغرب والجرمانيا وبلاد الداكية والغالية ولكن القوى المجتمعة من أمة الإفرنك والوزيغوت والرومانيين أوقفت هذه الأمة المخربة للبلاد في سهل شالون بفرنسا ولكن في السنة التي بعد تلك السنة هدم أطبلا مدينة اكويله (بقربها الآن مدينة تريسته) وكان يمكنه أن يكمل فتوح أوروبا لولا المنية منعه عن إدراك مقصده الأكبر فاختلف نظام مملكته العظيمة بخروج الأمم المغلوبة تحت أيديهم من الطاعة والاختلاف الواقع بين أولاده الثلاثة فتشتت شمل القبائل الهونية وتمزقت وتوجهت نحو جهة بحر أوزاق اهـ .

وذكر كارامزين ما يقرب من كلام رفاعة بك حيث قال إن الهون خرجوا من شمالي ممالك الصين وبلغوا الجنوب الشرقي من الروسية الحاضرة بعد قطعهم المسافة البعيدة والبراري الغير المتناهية وهجموا على ممالك اللان والغوت والروم فقتلوهم وخربوا ديارهم هدمًا وإحراقًا بالنار ونهبوا أموالهم وكان ذلك في حدود سنة ٣٧٧م وقد عجز مؤرخوا العصر المذكور عن بيان كيفية هجومهم وتصويرها وقد استغرق الناس على العموم في بحر الدهشة ولم يكن لأحد طاقة على مقابلتهم حتى أن ملك

الغوت الذي كان اشتهر بالشجاعة مائة سنة لم يتجاسر أن يقابلهم بل نجى نفسه من أسارتهم باختيار الانتحار الخ.

[الغوتية]

ولما كانت الغوت سبباً أصلياً لدخول الهون بممالك أوروبا وقد تقدم بيان محاربتهم السرماتيا ومحوهم إياهم ناسب أن نبحت عنهم هنا بحثاً جزئياً على سبيل الاستطراد.

كانت هؤلاء في الأصل من جنس جرمانيا واشتهروا بأسامي غوت وقوت وكوت وژوت وكان مبدأ ظهورهم وأول اشتهارهم في أواخر العصر الثالث من الميلاد ولما خرجوا من أصل وطنهم جرمانيا توجهوا نحو الشرق والجنوب واستولوا على الجهة الجنوبية من ممالك سمراتيا كاملاً على ما مر بيانه وهجموا على بلاد آسيا أيضاً دفعات كثيرة وخربوا فيها تخريبات عظيمة ولم تكن غاراتهم وهجماتهم منحصرة على آسيا والأوروبا الشرقية بل استولوا على ممالك رومانيا الحاضرة وروم ايلي بل وعلى ممالك يونان إلى البحر الأبيض وخربوا هناك أيضاً تخريبات جسيمة حتى أنهم أرادوا إحراق جميع الكتب الكائنة ببلدة آتينا فقال لهم واحد من بينهم وكان صاحب عقل ودراية لا تحرق الكتب بل نتركها لليونان فإنهم يشتغلون بمطالعتها عن تعلم فن الحرب^(١)

(١) قاتله الله ما أعقله وما أدراه وعموم أهل الإسلام في عصرنا هذا من هذا القبيل حيث إن أعداء الدين استولوا على بلادهم في جميع الأقطار والممالك واستعبدهم ويسمونهم أنواع الهوان والذلة ولم يبق لهم حرية ما في شيء من الأشياء وهم لا يتركون اشتغالهم بما لا يعنيه من أنواع السفسة زاعمين أنها حقائق وكمالات ولا يخطر ببال أحد منهم أن الوطن والحرية والدين أعز من الروح وأجلى الحقائق وأعلى الكمالات وإن تمكين الأعداء من الاستيلاء عليها واختيار السكوت والقفود عن طلب الحيلة في التخلص عن أسارتهم والتشبث في أسبابه مما لا يجوز العقل والشرع ويستبجانه غاية الاستبجاب والاشتغال بهذه السفسة عنه أفتح من كل قبيح وأنه لا بد أول كل شيء من طلب العلاج لهذا الداء المهلك وأنهم لم يغلبونا بالقوة الجسمانية بل بالقوة العقلية والمعارف والمهارة في أنواع الصناعة ومقارنة أفعالهم بأقوالهم وغاية الجد في ذلك وإن لنا أيضاً استعداداً وقابلية لذلك فلنكتسبها ثم لننتشبت بأسباب تخليص الوطن العزيز من أيدي الأعداء ونفرض غبار الذل والهوان عن أنفسنا ولنعد مجد أسلافنا وعز أوائلنا إنا لله وإنا إليه راجعون دع التوبيخ بالاشتغال بالسفسطة وقل لي هل ينفع اكتساب المعارف ومطالعة الجرائد إذا لم يقارن الأفعال الأقوال وهل يدفع تلك الجرائد عنا الأهوال هيئات ونحن إلى رجال فعالين أحوج منهم إلى رجال قوالين وحيث اطلع الإنكليز مثل هذا الغوتي على ذلك ترك المسلمين أستغفر الله بل الذين يدعون الإسلام الذين تحت حكومته هنود أو مصريين وغيرهم على اختيارهم يفعلون ما شاؤوا ويقولون ما يريدون بل يساعدهم على ذلك لتيقنه بعدم نهوض =

وصنعة الجهاد والغزو فيبقون مغلوبين ومحكومين لنا بهذا السبب مدة مديدة فقبلوا نصيحته وتركوها.

وانقسم هؤلاء على قول بعضهم إلى قسمين غربي وشرقي وعلى قول بعضهم إلى ثلاثة أقسام (كه بيت) و (ويزيغوت) و (أوسترغوت) ولكنهم كانوا متحدين بحسب الحكومة والإدارة وأسسوا بالاتحاد والاتفاق دولة عظيمة تسمى بدولة غوت وكانت هؤلاء باتفاق المؤرخين في غاية الوحشية ونهاية الهيمنة بل السبعية وكان استيلاؤهم على جهة الجنوب الشرقي في حدود سنة ٢٧٣ حتى أنهم على قول بعضهم غلبوا على الهون الغربية أيضاً ولكنه سبق قلم بل قول جزاف لم تكن الهون محكومين للغوت قط نعم إن قوم وينيد الذين مر ذكرهم صاروا محكومين لهم وقد كان رئيسهم في العصر الرابع من الميلاد جيرما ناربخ أو جيرما ناريس المار ذكره وقد كان من أشهر ملوك أوروبا وأشجعهم ومن كمال شجاعته وإسرافه في سفك الدماء كان لا يجترئ أحد أن يقابله وقد بلغت مدة تملكه مائة سنة على ما مر بيانه وأبلغ دولة الغوت في مدة حكومته مرتبتها العليا.

وخلاصة الكلام أن في أثناء غلبة أمة غوت هؤلاء على كافة الأقسام المجاورين إياهم وحين لم يبق في الأطراف والجوانب من يقابلهم ويقاومهم استقرت أمة الهون في أطراف جبال أورال ونهره وسواحل نهر ايدل يعني في أراضي باشقرد الحاضرة في أوائل العصر الرابع من الميلاد على ما مر ذكره وشرعوا في ضم أقوام آسيا إلى أنفسهم وإحقاقهم بهم من جهة ومن جهة أخرى كانوا يرمقون ما تصنعه الغوتية الوحوش السفاكة للدماء من أنواع الوحشة والفساد في حق الأقسام المجاورين إياهم وينظرون إلى فعائلهم الشنيعة من نظر شزر وكأن صدورهم تضيق بها. ويحتمل أن يكون بعض الأقسام التركية المحكومين للغوت اشتكوا إليهم عنهم واستمدوا بهم عليهم بملابسة الجنسية والمناسبة القومية.

والحاصل أنه لما مضى مقدار نصف عصر من ابتداء استقرارهم في المواضع المذكورة وضموا في تلك المدة إلى أنفسهم اللان وسائر الأقسام المتجاوزة ولحق بهم

= الأموات قبل يوم القيامة وحيث غفلت الروسية عن هذا صارت يتعرض لمدعي الإسلام ونبيتهم عن سنة الغفلة والله الحمد ولم يتنبه منا لهذه الدقيقة إلا ايلمينسكي عليه من الله ما يستحقه وقصدي من إثبات القصة المذكورة هنا مع الاستغناء عنها هو التنبيه على ما عليه المسلمون الآن من الغفلة العظيمة ومن الله التوفيق والهداية. منه عفي عنه.

من بقي وراءهم من قومهم متشتتين ومتفرقين وعظمت بذلك دولتهم وقويت شوكتهم وبلغت مرتبتها العليا واستيقنوا بانتصارهم على دولة الغوت الجبار القوية الشكيمة الذين لا يتجاسر أحد أن يقابلهم واطمئنوا بها فتحوا باب الحرب عليهم في حدود سنة ٣٧٧م وأعلن بينهما الحرب بسبب لم نطلع عليه وكذلك لا ندري من أي طرف كان إعلان الحرب ووقع تلاقي الفريقين وكان رئيس الغوتية جيرماناريس الشجاع الشهير الذي سبق ذكره مرارًا وكان ملك الهون وخاقانهم في الوقت المذكور بالأمر أو بالامير وحيث إن جيرماناريس ألف الغلبة والانتصار مدة مائة سنة ولم يقابله أحد ولم يصير مغلوبًا قط ولو مرة واحدة حمى غضبه من صنع هؤلاء القوم الحقير الذليل الآسيوي على زعم الأوروبيين وشرع في سوف العساكر بالحدة والشدة.

وأما الخاقان المشار إليه فكان يعد الغوت لا شيئًا محضًا وكان ملازمًا لوقاره وسكينته وكان يتعجب من حدة جيرماناريس وطيشه واضطرابه ويستهزئ به وكانت مهارة الهون في أمر الحرب على وجه كانت حدة الغوت وشدتهم في جنبها لا شيئًا محضًا لعدم نتيجتها ولهذا قال كارامزين أن مؤرخي العصر المذكور عجزوا عن بيان مهارتهم في الحرب وتصوير كلفتها وقد انضم اليهم في تلك الأثناء سمراتيا (الجرامشة) الباقين في طرف الشمال فهاجموا عليهم من الجهتين الهون من الجنوب والسرمتيا من الشمال وضيقوا عليهم بهذه الكيفية أشدّ تضيق ولما آيس جيرماناريس بعد صرف الجهد البليغ مدة مديدة على الوجه المشروح من تخليص نفسه من أسر الهون فضلًا عن توقع الغلبة والانتصار عليهم انتحر في حدود سنة ٣٨٦ وبعد ذلك تقهفرت الغوت إلى أوطانهم ورجعت تلك الأراضي أعني أوروبا الشرقية التي كانت ملكًا أصليًا للترك من عصر أسكوتيا وسيتيا وسمراتيا إلى ملك الهون التركية ودخلت في أيديهم بحكم كل شيء يرجع إلى أصله وبذلك انقرضت الغوت الشرقية بالكلية ولكن الغوت الغربية التجأت إلى الروم واستقروا في فراكية وبقيت دولتهم هناك.

قال كارامزين وملك الغوت وينيشار الذي تملك بعد جيرماناريس وإن كان في الظاهر تابعًا لدولة الهون ولكنه كان لا يخلو عن الهجوم على سائر الأقوام المتجاورة يعني الشمالية وإدخالهم تحت طاعته وقد هجم على قوم آندا الذين هم من جنس وينيد الماز ذكرهم وأسلاوان وكان يظن كونهم من أجداد الروسية وأصلهم وكانوا يقيمون في الجهة الشمالية من البحر الأسود وقتل رئيسهم المسمى بوكس مع سبعين نفرًا من أعيانهم قتلاً وحشيًا فاشتكى هؤلاء يعني قوم آند بالأخرى منه إلى خاقان الهون بالأمر ولاذوا به فادبه الخاقان وأنقذ قوم آند من أسارة الغوت.

ثم قال لا شبهة في دخول قوم آند ووينيد تحت طاعة دولة الهون فإن هؤلاء الأبطال يعني أمة الهون قد أدخلوا كافة الأراضي الكائنة بين نهر وولغا ونهر رين الذي بين فرنسا وغيرومانيا ومن ماكيدونيا إلى جزائر بحر البلطيق تحت تصرفهم وأجروا أحكامهم ونفذوها على كافة الأقوام الكائنة بها اهـ.

[الخاقان الكبير آتيلا]

والحاصل أنني لم أطلع على تاريخ وفاة خاقانهم بالامير المار ذكره إلا أنه يذكر في التواريخ بعده من خواقينهم الخاقان الشهير في الآفاق آتيلا^(١) وإنما يرى ذكره في التواريخ من حدود سنة ٤٣٢ ولا أدري هل بقي الخاقان بالامير إلى التاريخ المذكور أو كان وفاته وتسلمن آتيلا قبله أو تخلل بينهما خاقان آخر لم يجر له ذكر في التواريخ والله سبحانه أعلم. إلا أن التاريخ يخبرنا أنه أعني آتيلا كان يحكم في حدود سنة ٤٣٢ مشتركاً مع أخيه بلدا ثم أعدم أخاه المذكور بعد عشر سنين واستقل بالحكومة.

وعلى كل حال أنه هجم في حدود ٤٤١ سنة على بابونيا وخرواتستان وداقيه التي كانت بيد الغوت وانتصر عليهم وانتزعها منهم ثم عطف سلاحه بعد ذلك نحو حكومة الروم وبيزانطيا وانتصر عليهم أيضاً واضطر قيصر الروم في ذلك الوقت (تيثودور) أو (ته اودوس) إلى أداء الجزية والخراج لنفسه وهو القيصر الذي انبعث أصحاب الكهف في عصره عن رقدهم عند المسيحيين المسطور في تواريخ العرب بتدوس وفي الحقيقة هو تاوؤسيوس^(٢) الصغير ابن ارقاؤيوس بن تاوؤسيوس الكبير فصارت سلطنة الروم خراجية لهم بتلك الكيفية.

وبعد مرور أربع سنين من هذا قطع القيصر المذكور ما التزم أداءه من الخراج لما رأى من أن بقاء سلطنة الروم خراجية لقوم هون رحالة نزالة وحشية على زعمهم الباطل مناف لشأن سلطنتهم ومغاير لعظمة دبدبتهم فشن الخاقان المشار إليه الغارات على دواخل بلاد الروم وكاد أن يقلب سلطنتهم ظهر البطن فبادر القيصر إلى تقديم الخضوع وخفض جناح الذل ثانياً وإظهار الندم والاعتذار وأسرع إلى قبول جميع

(١) ضبط آتيلا في بعض كتب الإفرنج بتشديد التاء المكسورة وتخفيف اللام. وفي أكثرها بالعكس وهو الصحيح. منه عفي عنه.

(٢) وفي تاريخ ابن الأثير أن انبعثهم كان في عصر تاوؤسيوس الكبير والذي اخترته نقلته عن تاريخ أبي الفرج الملطي المسيحي القسيس الطيب. منه عفي عنه.

مطالبه وأدائها من غير توان فحفظ ملكه بهذه الكيفية من الزوال واغتنمها بعد أن امتنع عنها.

لا يقال لعل هذا العجز والخضوع إنما نشأ من ضعف الروم وفقدان قوتهم واقتدارهم في الوقت المذكور لا من كثرة شوكة الهون ووفرة قوتهم واقتدارهم كما قيل في المثل: «الجدار القصير كل أحد يقدر أن ينط عليه» لأننا نقول إن الروم كانت وقتئذ في نهاية القوة وغاية الشوكة حتى أن القيصر المشار إليه حارب الفرس الذين كانوا إذ ذاك على غاية من القوة والاقتدار وفي الذروة العليا من الشوكة وكان ملكهم وقتئذ بهرام كور المار ذكره وإنما كانت غلبة الهون وانتصارهم عليهم لتفوقهم في القوة والشجاعة ومهارتهم في فن الحرب بلا شبهة.

ولما ربط آتيليا سلطنة الروم بالجزية ثانياً على سبيل الجد وجه وجهة همته نحو بلاد أوروبا^(١) فتوجه بمعسكر مركب من خمسمائة ألف من العساكر الجرار نحو بلاد جيرمانيا في سنة (٤٥١) م وفتح كافة بلاد ألمانيا واسكندناوة واستولى عليها بالتام ومد حدود مملكته إلى نهر الرين على ما تقدم بل لم يوقفه نهر الرين أيضاً حيث عبره وتعداه ودخل مقاطعة من ممالك فرنسا كان يقال لها وقتئذ مقاطعة غول أو غاليا وتقدم إلى قبالة بلدة أورليان ولما بلغها استقبله هناك ثلاثة أوردو من دول ثلاث أوردو الرومانيين الكائنة تحت قيادة الجنرال (أوتيسوس) وأوردو فرنسا الكائنة تحت قيادة الجنرال (مروه) وأوردو الويزيغوت الكائنة تحت رئاسة الجنرال (تاودوريق) متفقين وبعد أن حاربوه مدة اضطره إلى الرجعة وعقبوه حين رجعت فوقعت بينه وبينهم محاربة دموية في موضع يسمى شالون من ولاية شامپانيا ثانياً فتلّف فيها ما يقارب الربع من جيوشه الموجودة فتقهقر من هناك وتوجه نحو ممالك ايطاليا واستولى عليها^(٢) وبلغ قبالة بلدة رومية (روما) وحين قصد أن يدخلها خرج إليه البابا (سن ليون) وأقنعه بنصائحه بل بحيله وخداعه ودسائسه وشيطنته وصرفه عن دخولها فخرّب حينئذ بلدة أكويله التي كانت بقرب تريسته ولم يتقدم منها بل عاد إلى بانونيا (مملكة

(١) هذا على ما ذهب إليه البعض وقد قال مراد بك في تاريخه العمومي إن القيصر مارچينانوس الذي هو خلف القيصر تاؤذسيوس هو الذي قطع الجزية وقال لمحصل الخراج إن ذهبي لأحبائي وليس لأعدائي سوى السيف ولما تيقن آتيليا أن الاستيلاء على القسطنطينية غير ممكن أعرض عنها وتوجه نحو فرنسا والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) يعني في السنة الثانية كما مر لا في سفره هذا. منه عفي عنه.

ماجار الحاضرة) بعد أن أخذ الجزية من ملك ايتاليا (والنتين الثالث) وبينما هو في الاستعداد بجمع الجيوش لتكميل فتوح أوروبا والانتقام من أعدائه مات فجأة من كثرة العيش والطرب عقيب ضيافة عظيمة^(١) وكان ذلك في سنة ٤٥٣ فبقيت فتوحاته المنوية في حيز القوة فقط ولم تخرج إلى الفعل قالوا لو تأخر أجله قليلاً لأتمها بلا شبهة اهـ من رسالة بعض فضلاء العصر وهو تفصيل ما مر عن رفاة بك^(٢) إجمالاً فعلى هذا يكون مقر سلطته ومدفنه في بانونيا (ماجارستان).

ولكن ذكر كارامزين أن إقامته كانت بداكه في الخيام والخركاهات^(٣) وأنه كان يجري السلطنة والأحكام فيها وقال إنه لم يكن له رغبة في الزينة والزخارف والفضة والذهب وإنما كان جل همته في إلقاء الدهشة والرعب في العالم والافتخار بكونه غضب الله وبعدم نبت النبات في موضع إصابته قوائم فرسه. وبوفاة هذا الفاتح البطل في سنة ٤٥٤ انتهت قوة دولة الهون وتصرفهم إلى نهايتها اهـ.

قلت هو مشهور بين الإفرنج بالافتخار بكونه سفاكاً ومخرباً وكون ما أصابه حوافر فرسه بلقماً والافتخار بكونه غضب الله والله سبحانه أعلم بصحة ما قيل فيه وعنه إلا أنهم محقون في تلقيبه بغضب الله كيف لا يلقبون شخصاً بغضب الله فعل بهم تلك الفعائل وهو مطابق لنفس الأمر أيضاً فإن الله سبحانه إنما سلطه عليهم بسبب كفرهم وسائر فحشائهم. ولكن ننظر بنظر الإنصاف إلى ما فعله الغوت قبلهم ورئيسهم غيرماناريس ألم يصدر عنهم مثل ما صدر عن الهون من السفك والتخريب والظن على ما مر بيانه نقلاً عن تواريخ الإفرنج أنه صدر عنهم أزيد وأقبح وأشنع مما صدر عن الهون ولنترك المعارضة بما صدر في عصر الوحشة والجهالة ولنجل أنظارنا فيما يصدر عن إفرنج عصرنا هذا الذي يفتخرون بكونه عصر تمدن وترق ويدعون كونهم في غاية الترقى ونهاية التمدن وينظرون إلى من سواهم بنظر الوحشة والتبربر هل نجدهم يفتنعون بما في أيديهم من الممالك أو نجدهم متصفين بكمال الحرص وتمام الجشع بحيث لا يشبعهم شيء ما وجدوا مطمئناً للاستيلاء على ممالك الضعفاء وكيف يصنعون يقوم يدافعون عن أوطانهم التي هي أعز من أرواحهم حين استيلائهم هل

(١) قبل قتلته مخطوبته الجرمانية غيلة أثناء زواجها ووضع في ثلاثة توأبيت من ذهب وفضة وحديد ودفن في مجرى نهر. منه عفي عنه.

(٢) إلا أنه قال إن هدمه لأكويلة كان في السنة الثانية من سنة دخوله فرنسا والله سبحانه أعلم بالصواب. منه عفي عنه.

(٣) الخركاه: تقدم التعريف بها قبل قليل.

يرفقون بهم أو يعاملونهم معاملة الوحوش والسباع الضواري وماذا يعاملونهم بعد الاستيلاء هل يبثون فيها العدالة والمساواة أو يستنزفون دماء أهاليها هيهات ألفت هيهات أين لهم القناعة وأين فيهم الإنصاف والرفق وأين فيهم بث العدالة والمساواة بل لا يتركون شيئاً من الوحشة والفظاعة والفضاحة والشناعة في حق من قاموا للمدافعة عن أوطانهم العزيزة حين يمدون إليها أيديهم المنحوسة المشؤومة للاستيلاء عليها وانتزاعها عن أيديهم بلا سبب موجب وباعث مقتض إياه سوى الحرص المحض والجشع الصرف وبعبارة أخرى أصبح سوى محبة سفك الدماء بغير حق وإجراء الوحشة والفساد فمن أراد أن يعرف صدق هذا الكلام فليُنظر إلى ما كتبه بعض الأوروبيين فيما أجرته الروسية من المعاملات الوحشية في حق مسلمين روم إيلي أثناء محاربتها الأخيرة الدولة العلية العثمانية أيدها الله سبحانه ونصرها ولينظر إلى ما حرره المستر ماغمان الأميركي^(١) فيما أجرته الروسية أيضاً من المعاملات السباعية في حق التراكمه حين استيلائها على ديار خوارزم وخيوه وقد حررها عن مشاهدة بعينه لا بالسمع وكلاهما ممن يدعون النصرانية وإخوة الروسية لا يتصور منهما الغلو والمبالغة فيها فضلاً عن الكذب والافتراء وما فعله القائد الإنكليزي كشتنير في حق أحمد محمد المتمهد السوداني حين استيلائه على خرطوم من إخراج جسده من قبره وإحراقه بالنار لعله لم يزل في الخواطر بعد مع أنه لم يصدر عنه شيء مما يوجب عشر عشر تلك الوحشة سوى المدافعة عن وطنه وحمايته وتخليص أبناء جنسه من أيدي الظلمة المخربين للديار والشريعة أعداء الإنسانية بناء على ما كتبه إبراهيم فوزي باشا في تاريخه.

والإنكليز من الملل التي يدعون تسلّم ذروة التمدن والإنسانية والترقي والتفرد فيه في عصرنا هذا مع أنه لم ينقل في تاريخ من تواريخ الإفرنج التي ذكر فيها أحوال أتيليا الذي مضى قبل هذا التاريخ بخمسة عشر قرناً وغيره من خواقين الترك الذين جاؤوا قبله أو بعده إن واحداً منهم فعل مثل هذا الفعل الشنيع الفظيع وحارب الأموات وانتقم منهم حاشا وكلا ثم حاشا وكلا ومع هذه كلها ترمى الأتراك خصوصاً والأقوام الشرقية عموماً بالوحشة والتبربر وعدم التمدن ومغايرة الإنسانية وتمدح الأوروبيون بل يفتخرون بكمال التمدن والإنسانية.

(١) حرره في رحلته التي جمعها لبيان ما شاهده بعينه في سفره المذكور تسمى سياحتنامه خيوه ترجمت بالتركية وطبعت في إستانبول كما ترجمت إلى لغات أخرى. منه عفي عنه.

وما ذلك إلا أن ما فعله آتيلًا وسائر الأقوام الشرقية في حق بني آدم أعني الأوروبيين فهم مستحقون للرمي بما ذكر وما فعله الأوروبيون في عصرنا هذا الذي يسمونه عصر التمدن كذبًا ومينًا ليس في حق بني البشر بل في حق الوحوش والحشرات في زعمهم أعني بهم أقوام آسيا وإفريقيا وأستراليا فإنهم ليسوا عندهم من بني البشر خصوصًا الموحدين الذين لا يقولون بألوهية عيسى ابن مريم عليهما السلام ولا بألوهية مخلوق آخر بل يقولون ربنا الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفورًا أحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ويبرؤون عيسى ووالدته عليهما السلام عما رماهما به اليهود ويقومون بما يليق بهما من التعظيم والتكريم ويصدقون بجميع الكتب والرسل ولهذا كلما يفعله الأوروبيون في حقهم فهو عين التمدن ومحض الصواب وهم مستحقون به لكامل التمدح والافتخار^(١) وجزيل الثواب والله در القائل شعر:

ورصاص من أحببته ذهب كما ذهب الذي لم نرض عنه رصاص

وسؤال الإنصاف لهؤلاء المتعصبين من الله وأن يرى عبثًا في الظاهر ولكن ماذا نقول غيره فنقول رزقهم الله سبحانه الإنصاف والحقانية كما رزقهما لطائفه اسكيتس الذين مضوا قبل ذلك بألوف من السنة بشهادة تواريخهم.

هذا، وقد ظن بعضهم أن لفظ آتيلًا مأخوذ عن أتزيل وآتسل الذي هو لفظ ماجاري بمعنى الفولاذ وليس ببعيد فإن أسامي قدماء الأتراك كان أكثرها تيمر وتاش وفولاذ وهو جار إلى الآن في ديار قران. وربما يفهم من كلام بعضهم أنه كلام إفرنجي بمعنى غضب الله نبزه به الإفرنج لا أنه اسمه الأصلي والله سبحانه أعلم.

والحاصل أن الخاقان آتيلًا هو أول خواقين عرفهم الأوروبيون من خواقين تاتارستان وتركستان التي كانت روضة الفاتحين النقالة الرحالة النزلة التي كان يظهر منها الليوث الفاتحون وينتقلون إلى أماكن بعيدة وقتًا بعد وقت ويخرج منها الأسود الغالبون وينتشرون إلى مواضع عديدة حينًا بعد حين وثانيهم بالنسبة إلى أوغوزخان الذي هو مجهول عند الإفرنج. والشوكة والعظمة اللتان حصلتا لدولة هون المعظمة

(١) ولسنا نحن معاصر المسلمين فقط نقول هذا بل يقوله المنصفون منهم أيضًا وإن قلوا قال كارامزين بعد بيان غدر ولاديمر مانوماخ بالقفقج على ما سيجيء عند ذكر بيانهم أن القفقج لما كانوا أعداء النصرانية كان الغدر بهم ونقض عهدهم وسائر المعاملات السيئة في حقهم جائزة عند الروس بل تقريبًا إلى الله تعالى اهـ. منه عفي عنه.

في حياته مما لا يرى في كثير من الدول ولكن ما العلاج لما مضى من بداية تأسيسها وتشكلها مدة عصر ونصف عصر انقضت دفعة واحدة بوفاته في التاريخ المذكور وعدم دراية أولاده وسوء تدبيرهم وإدارتهم وصارت كسفينة غرقت وذهبت إلى قعر البحر فإن كل واحد من أولاده الذين خلفهم ادعى لنفسه الخاقانية فتدافعوا وتنازعوا وتخاصموا بدل أن ينصبوا واحداً منهم ويقوم سائرهم في مقام الإطاعة والانقياد له ويديروا الأمر ويجروا الأحكام بالاتفاق والاتحاد فخرجت سائر الأقوام الذين كانوا يطيعونهم وينقادون لهم خوفاً من السيف من تحت تصرفهم وطاعتهم واحداً بعد واحد في أثناء منازعتهم ومخاصماتهم وأسسوا حكومات مستقلة مثل (كه بيت) و (غوت) و (أوار) وانقسمت بقية الهون أيضاً بين أولاده فبقي واحد منهم يسمى (دينكي چك) بن آتيل في أرض ماجارستان المسماة هنغرية مع من تبعه حافظاً لحكومة هنغرية (وينغرية) مدة مديدة وتوجه ولده الآخر (ايرناق) بمن تبعه من الهون إلى أصل وطنهم الذي كانوا خرجوا منه أخيراً أعني به ما بين أورال و وولغا وانتشرت منهم بعض القبائل فيما بين نهري طونه ودون يعني بسواحل البحر الأسود واستقروا هناك تحت إدارة خانهم المسمى (هوينغار) وتشكلت منهم أيضاً حكومة عظيمة تسمى بحكومة (الخزر)^(١) وتشكلت أيضاً غير ما ذكر حكومات صغار كثيرة منها حكومات (سيداريت) و (قوتريغور) و (أوتريغور) وغير ذلك من الحكومات التي تشكلت في طرف كافكازيا.

والحاصل تشتت شمل القبائل الهونية الكبرى وتمزقت دولتهم العظمى في طرفة عين بشؤم النزاع والاختلاف هكذا يقول بعض الفضلاء ويعد هونغري وهوينغار حكومتين وفيه اشتباه والظاهر بل الصواب أنهما حكومة واحدة^(٢) وألفاظ هونغري وهوينغار وهنيغار وانغوزة وهنو غارة وانگروس ألفاظ متنوعة منحرفة عن أصل واحد مثل سيتيا واسكوتيا الخ وبقيت الآن منحصرة على لفظ (وينغرية) وهي الماجار ولفظ هونكار وخونكار اللذان يطلقان الآن بين العثمانة على السلطان مأخوذ منهن.

(١) والحاصل ظهر بعد انقراض دولة لهون بلا تأخير من أنقاضهم دولة أسلاوان واواروا وغره أعني الماجار وخزر وبلغار وابتدأ ذكرهم من هذا التاريخ في تواريخ الإفرنج. منه عفي عنه.

(٢) نعم لا ينكر تشكل حكومة خزر من أنقاض دولة الهون وإنما الإنكار على كون ملكهم هوينغار. منه عفي عنه.

قال كارامزين لما طردت الهون من مقاطعة بانونيا (ماجارستان) من طرف غينيد النمسي أقاموا مدة بين نهري دينيستر وطونه (يعني مملكة رومانيا الحاضرة) مدة وكانت المملكة المذكورة وقتئذ سميت هونينوار اه فهذا الذي أوقع بعض الفضلاء في الوهم والقول بكونهما حكومتين وليس كذلك بل سميت المملكة المذكورة هونينوارا وهوينغار لإقامة الهنغرية بها بعد هجرتهم من بلادها.

قال رفاعة بك بعد ذكره ما نقلنا عنه سابقاً ومنها يعني من الهون المتشتمة من بقيت على الهونية مستقلة مثل (اوطرغورية) التي هربت داخل بلادكوه قاف (كافكازيا) وكقبيله (سابرية) ومنهم من صار دخيلاً للغير الغالب ولا مانع من كون الروسية أصلها الأول أخلاطاً من الهونة وجنس الصقالبة. وقال أيضاً وأمة الأوغرة التي تسمى هنغرية وأنغورة وهونغارة وأنوغندورة ويسمى فيما بينهم باسم الماچار الذي هو اسم أحد قبائلهم الأصلية كانوا موجودين إلى آخر ما سيذكر في بيان الماچار.

وقال كارامزين وفي تلك الأثناء تعدت اللان جبال پرينا واستوطنوا في ممالك إسبانيا وبورتوغاليا اه فيفهم من هذا أن أصل أسبانيا وبورتوغاليا هو اللان والله سبحانه أعلم وقد ذكر في أواخر القسم الأول من هذه المقدمة دخول اللان قطعة ماكيدونيا وسائر مواضع أوروبا ولكن لم تنقطع اللان عن أوطانهم الأصلية بالكلية وقد ذكر اللان في التواريخ^(١) الإسلامية أثناء بيان حوادث العصر السابع والثامن من الهجرة وذكر حملهم أسراء القفجق إلى مصر والشام وبيعهم هناك أثناء خروج التتار واستيلائهم على ديار القفجق وظهور ملوك الأتراك المشهورين بالموالي من هؤلاء الأسراء القفجقية واشترط الملك الناصر السلطان محمد بن قلاوون المصري القفجقي الأصل في معاهدته قيصر الروم عدم تعرضه لتجار اللان المترددين إلى ديار الشام ومصر وعدم ممانعته إياهم وربما يكتب العين بدال الهمزة فيقال إعلان وهو لحن العامة كذا في ترجمة القاموس.

(١) قال المسعودي ودار مملكة اللان يقال له معص وتفسير ذلك الدمائه وله قصور ومنتزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى إليها وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الإسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية وكانوا قبل ذلك جاهلية فلما كان بعد العشرين والثلاثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية وطردهوا من كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين وقد كان أنفذهم إليهم ملك الروم اه. منه عفي عنه.

٥ - الأوار

وقد ذكرت نبذة من أحوالهم في القسم الأول من هذه المقدمة

والحاصل أنهم كانوا في وقت من الأوقات دولة قوية الشكيمة المالكة على القوة والشوكة الخارقة للعادة من بين القبائل التركية المقيمين بالتاتارستان الكبيرة على ما في التواريخ ولكن لم نطلع فيها على أن مملكتهم في أي زاوية كانت من زوايا التاتارستان الكبيرة الواسعة الأرجاء الفسيحة الفضاء وفي أي عصر كانت دولتهم وكم سنة كانت مدة سلطنتهم وكيف كانت أحوالهم ومجرياتهم فهي مجهولة بالنسبة إلينا.

وقد مر في القسم الأول بيان كون أصلهم من هياطلة وافتاليت الذين هم من الأقسام التركية المقيمين بما وراء النهر وإبادة توكيو سلطنتهم وهربهم مع خاقانهم المسمى (وار) إلى جهة أوروبا واشتبارهم مدة بأويغور وسابر وتسميهم بأوار عند دخولهم أوروبا واشتبارهم بعد ذلك هناك بهذا اللقب نقلاً عن بعض الفضلاء والإنكار على هذا القول من وجوه.

ومع ذلك قد مر ما يدل على كون الأوار مطرودين من طرف توكيو صريحاً عند ذكر توييخ واحد من رؤساء الترك سفير الروم والانتينوس بل من أقوال سفراء توكيو لقيصر وقد صرح بذلك كارامزين تصريحاً لا يبقى معه فيه أدنى شبهة^(١) حيث قال لما أفسدت أسلاون في أوروبا يعني الشرقية بالنهب والغارة والتخريب وسفك الدماء مدة ثلاثين سنة ظهر من آسيا قوم جديد وفتحوا لأنفسهم طريقاً بالمحاربة إلى سواحل البحر الأسود ولم يكن العالم كله في العصر المذكور على قرار واحد من جهة القوة والغلبة بل كان على تبدل وتغير دائماً (يعني لكثرة المهاجمة والمهاجرة) وكان القوم المذكورون الذين ظهروا من جهة آسيا هم قوم (أوار) وقد اشتبهوا في التاتارستان الكبيرة بالقوة والشوكة ولكن غلبهم الترك على أراضيهم في العصر السادس من الميلاد واضطروهم إلى ترك أوطانهم والهجرة منها اه ومراده بالترك هم الذين مر ذكرهم بعنوان توكيو أعني قوم بومين قاغان والخابان ديزابول وتومنه فان كارامزين قال بعد ذلك وهؤلاء الأتراك على شهادة مؤرخي الصين إلى آخر ما ذكرنا نقلاً عنه في بيان

(١) والحاصل أن كون الأوار مطرودين من طرف توكيو المار ذكرهم مما لا شبهة فيه وإنما الإنكار على القول بكونهم من أهل ما وراء النهر. منه عفي عنه.

أحوال الخاقان ديزابول وقومه فعلى هذا لا شبهة في كون الأوار ملة ودولة ذات شوكة وقوة عظيمة شهيرة في وقت من الأوقات بقطعة آسيا وكونهم مطرودين في الآخر من جهة توكيو (الترك) وإنما الشبهة في كون وطنهم قطعة ما وراء النهر على ما ذهب إليه عاصم أفندي النجيب ولعل الباعث على تقوله هذا القول عدم ذكر ملة ودولة قوية بأسيا تسمى بأوار فلما رأى هنا أنهم كانوا كذلك ولم يجد لهم مصداقاً سوى الهياطلة بما وراء النهر قال إنهم هم والله أعلم بسرائر عباده.

ولكن المفهوم من قول كارامزين السابق أنهم كانوا حين قيام دولتهم بأسيا وقوتهم وشوكتهم تسمون بأوار وقد صرح بذلك بعد حيث قال في شأن هؤلاء الأوار الذين نحن الآن في صدد بيان أحوالهم أن قوم أوغر الذين كانوا سابقاً تحت طاعة أوار ثم طردوا بعد ذلك من جهة الترك سموا أنفسهم بعد عبورهم نهر وولغا إلى جهته الغربية باسم أوار الذين كانوا اشتهروا وقتاً ما بالقوة والشوكة اهـ.

وقد أثبت عاصم نجيب أفندي نفسه في موضع من هامش تاريخه ما معناه أثبت تنوفيلات الذي كتب التاريخ قبل الهجرة بستين وبين أحوال الترك بياناً واضحاً كون أوار طونه أواراً كاذباً وأن رئيسهم ادعى لنفسه عنوان الخاغان (الخاقان) وسمى قومه بأوار زوراً وميناً ليثبت لنفسه وقومه أهمية عظيمة فيبيع خدمته للروم بهذا السبب بئس غال اهـ فهذا أيضاً صريح في كون دولة الأوار مشتهرة من القديم باسم أوار وإلا فمن أين يلزم الأهمية^(١) وبيع خدمتهم غالباً بمجرد تلقيه بخاقان وتسمى قومه بأوار والهياطلة وإن كانت دولة قوية إلا أن تسميهم باسم أوار لم ير في واحد من التواريخ فضلاً عن أن يكون لهم بذلك اشتهار ولذلك اضطر عاصم أفندي أن يقول إنهم اشتهروا باسم أوار بعد دخولهم أوروبا ولكنه لم يتنبه على لزوم التناقض بين قوله والحاصل أن كونهم دولة قوية في آسيا مذكور في التواريخ وأما مساكنهم وعصر دولتهم وسائر أحوالهم غير مذكورة فيها فلنترك المجهول ولنكتب المعلوم قال رفاة بك وأمة الأوار الأقرب أنها أورسية فإنها ظهرت أولاً تحت حكومة أمة السابرية التي هي من أمم كوه قاف (قفقازيا) ثم سارت إلى نهر طونة وسلبت إقليم سراقه سنة ٤٧٤^(٢) ثم شيدت سنة ٥٦٦ مملكة في إقليم داكه وپانونيا وحين كانت بها خربت

(١) لأن الانتحال إنما يكون لشيء له أهمية واشتهار فتحصل له أي للمنتحل أهمية وقيمة بسببه. منه عني عنه.

(٢) وهذا أيضاً دليل مستقل صريح في عدم أصل أوار الهياطلة فإن دولة الهياطلة قائمة على قوتها=

جميع ألمانيا الجنوبية ثم إن خشونتهم واختلاطهم بقبايل من بقايا هونية بأرض هونيوار وفي أعلى ماجار صار سبباً لتسميتهم هون أوارة ولكن قال البيوزنطيون إنهم ليسوا إلا أوغرة^(١) فلا نجزم بأحد الطرفين ثم إن هون أوارة ويقال لهم أيضاً سلطنة الخاقان كانت تمتد من بحر البنادقة إلى البحر الأسود وكان داخلاً فيها جزء عظيم من مجرى نهر طونة ويستوله وقد امتدت غاراتهم إلى تورنجه واجتمعت في معسكرهم الحصين رنجيه أموال عشرين إقليمياً ولكن لم تمكث هذه الأمة النهاية على سطوتها وشدة بأسها زمنًا طويلاً بل ضعفت بالحروب مع البلغار ثم سقطت بقوة كارلوس مانوس سنة ٧٩٦ وكان مبدأ سلطنتهم سنة ٥٦٦ هـ.

والحاصل اختلفت أقوال المؤرخين في شأن الأوار هؤلاء بحيث لا يمكن استنتاج الحقيقة منها وحاول بعضهم استنتاج حقيقتهم من اشتقاق لفظ أوار فقال يمكن أن يكون منحرفاً من لفظ يوقاري ويوغاري بمعنى الفوق والعلو سموا بذلك لمجيئهم من الممالك العليا والفوقانية يعني أراض باشقرد وأعلي نهر وولغا ثم يحرف إلى أوار خصوصاً في استعمال الروم واليونان إياه ويمكن أن يكون فعلاً مضارعاً من أومق بمعنى السقوط والميلان سموا به لميلانهم من أوطانهم الأصلية إلى جهة أخرى ويمكن أن يكون كل واحد من ألفاظ آوار وأوغر وأوغرة منحرفاً في الأصل من لفظ اويغور الذي هو اسم لقبيلة عظيمة قديمة شهيرة من الترك أو منحرفاً من لفظ أوغري بمعنى اللص والسارق وقطاع الطريق سموا به لوجود قطع الطريق فيهم كما مر بيانه مراراً والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

وعلى كل حال إنهم أعني أوار قبيلة شهيرة من الترك كانت لهم سلطنة قوية في وقت ما ولا فائدة معتد بها في الاشتغال ببيان مأخذ اسمها واشتقاقها وهذا القدر كاف لتنبية أرباب الذوق ولكن ينبغي أن يعلم أن أقوام أوار هؤلاء وأوغر وأوغرة وماجار وخزر ظهوروا في نظر التواريخ بعد انقراض دولة هون المعظمة في عصر واحد وفي إقليم واحد أو في أقاليم وولايات متعددة قريبة بعضها من بعض ومتصلة بعضها ببعض

= وشوكتها في التاريخ المذكور وإنما انقرضت في سنة ٥٥٧ على ما تقدم ذكره. منه عفي عنه.
 (١) وقد مر قريباً نقلاً عن رفاة بك أن أمة أوغره هي الهنغرية المسماة بماجار فعلى هذا يلزم كون أوار عين ماجار وتنطبق عليهم صفاتهم أيضاً حيث قال في حق ماجار وكانت تخرج منهم قبائلهم السفاكة للدماء تارة يحمل على ألمانيا وتارة على إيطاليا ثم قال ولهذا الاشتباه قد التبسوا يعني الماجار بالأوارة كما التبست الأوارة بالهون الخ. منه عفي عنه.

يجمعها اسم أوروبا الشرقية العام وقد تشكلت كلها أو أكثرها من أنقاض دولة الهون المعظمة وقد كانت فيما بينهم محاربات كثيرة كما أنها كانت بين كل واحد منهم وبين أقوام آخر من الأجانب وخلاصة القول فيهم ومجملة أنهم من جنس وأصل واحد وتمييز كل منهم عن الآخر لم يتيسر إلى الآن لجمعية كثيرة من جمعيات العلوم مع بذل غاية جهدهم ونهاية قواهم في هذا الباب مدة عدة أعصر فضلاً عن مثلى الدرويش الراجل في قطع مسافات المعارف الخالي اليد عن الآلات والأدوات والمأخذ المنبوذ في ميدان الانفراد عن الأنصار والأعوان.

وبناء على عسر التمييز بينهم نسب كارامزين إلى اوغره وبلغار عين الحوادث التي نسبها رفاة بك إلى آوار في عين التاريخ المذكور أعني سلب إقليم سراقه في سنة ٤٧٣ حيث قال ظهر عقيب انقراض دولة الهون قوم أوغرة وبلغار الذين هم من جنس الهون وهاجروا من مساكنهم الأصلية التي كانت بسواحل نهري أورال وولغا وتوجهوا نحو الجنوب واستملكوا^(١) سواحل بحر أوزاق والبحر الأسود ومن سنة ٣٧٤ ميلادي شرعوا في نهب ميزيا (بلغاريا الحاضرة) وفراكيه (روم ايلي) حتى نهبوا أطراف قسطنطينية اهد.

وقال الفاضل المرجاني أيضاً بناء على هذا الاشتباه وعدم التمييز في بيان أحوال البلغار من غير ذكر تاريخ الواقعة أن زبيرخان من خوانين بلغار قام من سواحل نهر اتل (وولغا) بجيش كثيف وضم إلى نفسه طائفة اسلاوان وكثيرين غيرها^(٢) من الطوائف المجاورة وتوجه قاصداً بلاد الروم وعبر نهر طونة إلى جهة روم ايلي فشن عليها الغارات وعم من بها من الأقوام قتلاً وأسراً ونهباً ولم يزل

(١) والظاهر أن الصواب ما ذكره كارامزين والذي ذكره رفاة بك خطأ لا محالة لأنه ذكر أن مبدأ سلطنة آوار كان سنة ٥٢٢ فإذا كان الأمر كذلك كيف يقدر أن على سلب إقليم سراقه قبل سلطنتهم بتسعين سنة فإن صح يلزم الخطأ في تعيين مبدأ سلطنتهم أو يكون مراده به مبدأ ازدياد شوكتهم وقوتهم لا أصل سلطنتهم والله سبحانه أعلم. منه عني عنه.

(٢) مراد الفاضل المرجاني بزبير خان هو قوم السابرية التي مر ذكرهم مراراً وقد تقدم عن رفاة بك أنّها أن آوار كانوا أولاً تحت طاعة السابرية فظنه اسم شخص ثم عرفه أو حرقه إلى زبير وله جسارة عظيمة على مثال ذلك وإلا فوجود لفظ زبير الذي هو لفظ عربي في العصر المذكور عندهم أعز وأشد امتناعاً من وجود الحوت في رأس الجبل بل من وجود الحظ والإقبال عند الفضلاء فخالف المرجاني رفاة بك في نسبته هذه الحادثة إلى آوار وكارامزين في نسبته إياها إلى اسلاوان ثم خالفه في عد بيان خان الذي هو خان الأوار من خوانين بلغار بعد ذلك. منه عني عنه.

يسير نحو القسطنطينية حتى بقيت بينه وبينها مسافة ثلاثين ميلاً فنزل هناك فاستولى الخوف الشديد والرعب الذي ليس عليه مزيد على القيصر يوستينيان واضطر إلى دفن خزائنه وأمواله الثمينة الغالية تحت القلعة حتى خلص دار ملكه من استيلائهم عليها بغاية الصعوبة والمشقة اهـ.

وكارامزين نسب هذه الواقعة لأسلاوان وذكر كون قوم أوغر وبلغار معهم حيث قال بعد ذكره اسلاوان مستتبعاً للبلغار واوغر وهذه الوحوش يعني أسلاوان وبلغار واوغر تقدموا إلى مدينة القسطنطينية فاضطر القيصر يوستينيان وأركان دولته فضلاً عن عوام بلده إلى القيام بأبراج قلعة البلد وسوره مسلحين منتظرين لمدافعتهم إن هجموا إلى المدينة فلم يتجاسر على مدافعتهم من قواد الروم غير ويلييسار فدفعهم ببذل الخزائن وتفريقها أكثر من المدافعة بالقوة اهـ.

وقال كارامزين في بيان أحوال هؤلاء الأوار الذين نحن الآن في صدد بيان أحوالهم أن هؤلاء الأوار المجمعولين لما ظهروا عرضوا الاتفاق على الروم فصارت الروم ينظرون إليهم نظراً مشوباً بالتعجب والخوف فإن مناظرهم من جهة الهيئة والألبسة كانت تذكرهم وتخطرهم الهون المهيبة المدهشة الذين كانوا قد مضوا قبل ذلك بسنين يسيرة لأنه لم يكن بينهم وبين الهون فرق قط إلا في خصلة واحدة وهي أن الهون كانوا يحلقون شعر رؤوسهم بخلاف هؤلاء الأوار فإنهم كانوا لا يحلقونه بل كانوا يبقونه على حاله ويجعلونه صفائر متعددة ويزينونها بأنواع الزينة فقال كبير سفرائهم ورئيسهم للقيصر يوستينيان أن الأوار قوم شجعان لا يخافون أحداً ولم يغلبوا من أحد قط يخطبون مودة يوستينيان ويطلبون منه الإعانة ويلتمسون منه أرضاً مناسبة لإقامتهم فلم يرد يوستينيان شيئاً من مطالبهم وهؤلاء القوم وإن هربوا من آسيا إلا أنهم بعد دخولهم أوروبا صاروا ذا قوة عظيمة وشوكة قوية حتى أطاعتهم أوغر وبلغار ولم يقدر قوم آند^(١) أيضاً على مخالفتهم وقد هزم خانهم الشجيع بيان جيشهم وقتل سفير الكيناز المشهور ميزا مير ونهب مملكته وأسر أهاليها واستولى على موراويا وبوهيميا في مدة يسيرة وكان يسكن بها قوم چنخ (چه) وسائر أقوام أسلاوان وانتصر على قرال إفرنج أيضاً وكان قوم (لونغوبارد) و (غيبيد)^(٢) يحاربان بعضهم بعضاً حين عودته إلى

(١) قد مر ذكرهم عند بيان الهون ومر أيضاً أنهم من جنس واحد مع وينيد وآسلاوان وأنه يظن كونهم من أصل الروس. منه عفي عنه.

(٢) قد تقدم من أنهم جنس نمسة. منه عفي عنه.

سواحل طونة فالتزم بيان خان طرف قوم لونغوبارد وشتت شمل حكومة غيبيد واستملك كثيرًا من أراضي قطعة روم ايلي فوهبت له لونغوبارد قطعة پانونيا بحسن رضاهم واستعدوا بأنفسهم لغزو ايتاليا.

وكانت الأراضي الكائنة بين نهري وولغا وايلبه^(١) من مستملكات آوار في سنة ٥٦٨ وقد أدخلوا مملكة دالماسيا أيضًا تحت تصرفهم في العصر السابع من الميلاد ولكن يستثنى منها سواحل البحر وحكومة^(٢) الترك (توكيو) وسلطنة الخاقان ديزابول التي تجري أحكامها بين نهري ايرتش وأورال وإن كانوا أربعوا الصين والفراس وأرهبوهم وأوصلوا غزواتهم إلى نفس القريم في سنة ٥٨٠ واستملكوا البوسفور وحاصروا خرصون ووسعوا ممالكهم جدًا إلا أنهم خرجوا من قطعة أوروبا سريعًا وتركوا سواحل البحر الأسود لتصرف آوار.

وكانت أمة آند وأهالي بوهيميا وموراويا من چخ وغيرهم من جنس أسلاوان كلهم تحت حكومة بيان خان وفي خدمته في تلك الأثناء ولكن كانت طائفة أسلاوان الذين في أطراف طونة على استقلالهم وقد أغار هؤلاء الطائفة الأسلاوانية في سنة ٥٨١ بجيش كثيف على فراكيه وأطراف روم ايلي وجوانبها حتى تقدموا إلى أراضي يونان وكان قيصر الروم تيوري مشغولاً في ذلك الوقت بمحاربة فارس^(٣) وغزوتهم فلم يقدر لذلك على مدافعتهم فأرسل إلى بيان خان طلب منه مساعدته بمدافعتهم وقصر أيديهم عن الهجوم فسارع بيان خان إلى أداء خدمته المطلوبة ومساعدته فاشتهر لذلك بمودة قيصر تيوري وكان لا يحب هذه الطائفة الأسلاوانية من القديم لكبرهم ونخوتهم وبعبارة أخرى صادقة لحماقتهم وكان من نخوتهم وحماقتهم أن بيان خان لما أدخل قوم آند تحت تصرفه دعاهم إلى طاعته وتبعيته فقال رئيسهم (لاورتياس) وغيره أيضًا من الذي يسلب منا حريتنا واستقلالنا ومن يقدر على ذلك لأننا تعودنا أخذ المملكة عن الغير فكيف نسلم مملكتنا إلى الغير وما دام السيف والحرب موجودين في العالم يكون الأمر كذلك أيضًا في المستقبل وقتلوا سفير الخان وكان بيان خان مغتاظًا عليهم لذلك وغضبًا غاية الغضب وكان في صدد الانتقام وأخذ الثأر منهم

(١) نهر يجري من مملكة ألمانيا نحو الجنوب ويصب في بحر آدریاتق. منه عفي عنه.

(٢) وقد مر ذكر هذه الجملة عند بيان هذه الحكومة. منه عفي عنه.

(٣) والظاهر من قرائن الأحوال أن هذه كانت أيام هرمز بن أنوشروان حين قصدت الروم بلاده بشمانين ألفًا وتقدموا إلى نصيبين كما مرت الإشارة إليه. مني عفي عنه.

وإرادة تعريف حقيقة الترك وماهيتهم وقدرتهم وغيرتهم إياهم بهذا الوجه فلما صدرت هذه الإشارة عن القيصر في تلك الأثناء تيقن أن وقت الانتقام وأخذ الثأر من أسلاوان قد حل وقد انضم إلى مصلحة أخذ الانتقام منهم وتعريف حدهم بيان حقيقة الترك وغيرتهم وقوتهم ومصالحتان أخرايان أحديهما جلب محبة قيصر وتطبيب خاطره والأخرى الاستيلاء على الأموال والخزائن التي كانت الأسلاوان قد جمعها مدة خمسين سنة من نهب الأطراف والجوانب ولا سيما من نهب مملكة الروم فحمل عليهم بستين ألفاً من فرسان آوار وشتت جمعيتهم في مدة يسيرة وخرّب بلادهم وقراهم وديارهم وكان أسعدهم حالاً من نجا برأسه ملتجئاً إلى الغابات الكثيفة فاستولى بيان خان على كافة داكيا حتى اضطرت أسلاوان إلى إعطاء العسكر لبيان خان وصاروا يريقون دماءهم ودماء غيرهم^(١) ويفارقون أرواحهم وحياتهم لنفع أعداء لهم الذين استولوا على ديارهم وأموالهم وكان القتل والهلاك في أول الأمر أوقات المحاربة لازماً عليهم.

ثم انتقض الصلح بعد ذلك بين القيصر وبيان خان فقصده بيان خان وحاصر القسطنطينية في سنة ٦٢٦ م مصادفة سنة ٤ هـ فلو لم تبد الخيانة نوايا الخان للروم لم تكن أدنى شبهة في استيلائه على القسطنطينية والأسلاوان وإن بذلوا غاية جهدهم وطاقتهم وأظهروا نهاية الشجاعة وقتل أكثرهم بهذا الوجه لمنفعة آوار ولم ينج منهم إلا القليل إلا أن هؤلاء القليل أيضاً نالوا من الخان المعاملة السيئة وسوء الجزاء^(٢) بدل المرحمة والإحسان وحسن الجزاء.

ثم بين كارامزين بعد ذلك عصيان أقوام أسلاوان الكائنين في بوهيميا على آوار وإعادة استقلالهم بقوة السلاح وطردهم طائفة من أسلاوان قوم آوار من ايللرية بالاتفاق

(١) يعني كالمسلمين في عصرنا هذا أستغفر الله أخطأت كالمدعين للإسلام المستغفرين في بحر الحماقة والدناءة المقتولين تحت راية أعدائهم الذين انتزعوا منهم ديارهم وسلبوهم جميع حقوقهم المدنية والشخصية والدينية إنا لله وإنا إليه راجعون. منه عفي عنه.

(٢) انظر أيها القارئ كيف يتعصب كارامزين لإخوانه أسلاوان على الأتراك ويسكت عن معاملة الروس المسلمين الذين تحت حكومتها كيف تسوقهم إلى محاربة إخوانهم الجنسية والدينية ثم لا تعطيم الحرية الدينية فضلاً عن المدنية والشخصية ويعاملهم معاملة البهائم ونحن لا نشك أن سوء جزاء بيان خان في حق أسلاوان إنما هو بسبب تلك الخيانة التي ذكرها فإنها صدرت عنهم بلا مرية فاستحقوا بذلك سوء الجزاء وكذلك نسب نقض العهد إلى بيان خان وهذا أيضاً فرية بلا مرية بل الظاهر أن القيصر لما فرغ من شغله مع فارس عامله مطابقاً لقول القائل قضيت حاجتي كس أما جارتني. منه عفي عنه.

مع الروم وخروج طائفة چنخ وسائر طوائف أسلاوان من طاعة آوار في العصر السابع من الميلاد لطرو الضعف على دولتهم وبقاء أسلاوان طونة فقط تابعة لهم وخروج بلغار الذين كانوا إحدى القبائل التي كانت تشكلت منهم دولة آوار وأحد أركانها من طاعة آوار في سنة ٦٣٥ باجتهد خانهم قوارات خان وسعيه وغيرته وذهاب ولد قوارات خان الرابع بعد وفاته إلى الأوار الذين كانوا في مملكة ماجار فيشعر بذلك بوجود حكومة آوار في الوقت المذكور في ماجارستان وبعد ذلك لم أر شيئاً في التواريخ مما يتعلق بأحوال آوار مصداق قول القائل وليس وراء عبادان قرية فما أدري إلى ما صار أمرهم ولكن في قطعة طاغستان الآن مقدار يسير من بقايا آوار يسمون إلى الآن بهذا الاسم مشهورون بالقوة والشجاعة وشدة البأس والشهامة وهم أتباع الشيخ شامل عليه الرحمة والغفران وروح الله روحه ونور ضريحه .

٦ - [الخزر ووجه تسميتهم به وأصله]

ثم يظهر بعد ذلك في ميدان التاريخ قوم خزر ويعرفهم أهل أوروبا من ذلك الوقت^(١) وإن كانوا موجودين في العالم قبل ذلك بأزمنة كثيرة ومشهورين باسم آخر. الخزر لا شبهة في كون الخزر من الترك وإنما التردد والتوقف في أنهم متى سموا بهذا الاسم وما سبب تسميتهم به وقد ذكرنا فيما سبق أن ابتداء ذكرهم في التواريخ باسم الخزر على ما علمنا في عصر كسرى أنوشروان أعني في أواسط العصر السادس من الميلاد التي هي أو أن انقراض دولة الهون المعظمة .

ولكن قال كارامزين إن هؤلاء يعني الخزر من جنس واحد مع الترك وكانوا يسكنون من القديم في غربي بحر الخزر وسمي هذا البحر عند جغرافي الشرق ببحر الخزر بالنسبة والإضافة إليهم وكانوا معلومين لمؤرخي الأرمن في العصر الثالث من الميلاد ولكن عرفهم الأوروبيون في العصر الرابع الميلادي مع الهون وعينوا مساكنهم بين بحر الخزر والبحر الأسود يعني في صحراء حاجي طرخان وأطرافه اهـ .

ووجه تسميتهم بالخزر على ما يظهر هو صغر عيونهم وضيقتها^(٢) سموهم به

(١) يعني أن مبدأ كونهم معلومين لأهل أوروبا إنما هو بعيد انقراض دولة الهون واشتجار دولة آوار. منه عفي عنه .

(٢) والاعتراض عليه بأن هذا الوصف موجود في جميع طوائف الأتراك وقبائلها فلم خص من بينهم طائفة الخزر دون غيرهم كالاعتراض بأن وصف قرار المانتعات موجود في جميع الظروف فلم خصت القارورة من بينها بهذا الاسم دون غيرها واندفاعه بل عدم وروده ظاهر لأربابه وذلك أن =

العرب في بداية ظهور أنوار الإسلام وابتداء انتشارها إلى الآفاق وبلوغ فتوحات جيش الموحدين إلى تلك الأصقاع لصغر عيونهم وضيقتها لكون لفظ الخزر موضوعاً لذلك المعنى وهذا بناء على ظاهر الأحوال ولا ينافيه إطلاق هذا اللفظ على من كان منهم في العصر السادس أو الثالث الميلادي فإن هذا الإطلاق إنما كان من طرف المؤرخين الذين جاؤوا بعد تسميتهم باسم الخزر لعلة مذكورة بأن ذكروا أسلافهم أيضًا بهذا الاسم حين ذكروهم لكونهم من جنس واحد وإنما ينافيه لو ثبت إطلاق مؤرخي العصر السادس أو الثالث الميلادي إياه عليهم وهو غير معلوم لنا ولا منافاة على هذا التقدير أيضًا فإن هؤلاء الخزر لما كانوا معلومين لعرب الحيرة والأنبار الذين كانوا من تبعة الفرس وعرب الشام الذين كانوا تابعين للروم بجميع أوصافهم لإغارتهم على ولايتي أرمينية وأذربيجان التابعتين تارة للفرس وتارة للروم دائمًا بل على ولاية عراق العجم أحياناً ووقوع الأسرى منهم بيد الفرس والعرب المذكورين في بعض الأحيان لا بعد في تسمية هؤلاء العرب إياهم بهذا الاسم في العصر المذكور فإننا لا نجزم بوقوع هذه التسمية بعد الفتوحات الإسلامية وإنما نقول به بناء على ظاهر الأحوال والمقصود الأصلي استظهار وقوع هذه التسمية من طرف العرب للعللة المذكورة في أي عصر كان وترجيحه على سائر الاحتمالات.

وعلى كل حال كانت حكومة الخزر من بين سائر حكومات الترك حكومة ذات قوة وشوكة وقوية الشكيمة وباقية أزمنة طويلة وصاحبة اشتهاار وكانت تشن الغارات على بلاد الفرس دائماً حتى أعجزتهم تعرضاتهم وغاراتهم فاضطروا إلى بناء الحصون الحصينة والقلاع المتينة في ولايتي أذربيجان وأرمينية خصوصاً بقرب أردبيل ولما لم تندفع غاراتهم بذلك اضطر كسرى أنوشروان إلى بناء سد أرمينية المسمى بالباب الحديد والباب وباب الأبواب متشعباً في ذلك بذيل لطائف الحيل على ما مر بيانه وقد كان بينهم وبين الروم في أكثر الأوقات مناسبة ودادية ودامت محاربتهم الروسية من ابتداء ظهور الروس إلى انقراض دولة الخزر بأيديهم كما سيجيء تفصيله.

وكانت قياصرة الروم بناء على قول بعض فضلاء العصر نقلاً عن تواريخ الإفرنج والروم يخاطبون مودتهم ويستجلبونهم إلى أنفسهم بأنواع التلطيفات ويبدلون في ذلك غاية جهدهم ومقدرتهم حتى نقل أن بعض القياصرة أهدى لبعض خواقين الخزر ألبسة

= وجه التسمية إنما هو لترجيح هذا الاسم من بين سائر الأسماء لا لوجوب إطلاقه على كل ما وجد ذلك الوجه فيه. منه عفي عنه.

مخصوصة بالقياصرة بحيث لا يجوز استعمالها لغيرهم بوجه من الوجوه وقال إن يوستينيان الثاني لما خلع التجأ إلى خاقان الخزر وإن القيصر قوبرونيم تزوج ملكة من الخزر فصارت امبراطورة الروم والشرق حسب أصولهم وسمي الولد الذي ولد منها باسم خازا أو (لازار) وغلب قيصر الروم هرقل الفرس وانتصر عليهم في سنة ٦٢٦ م مصادفة سنة ٤ هـ بمعاونة الخزر إياهم وهي الغلبة التي أخبر بها القرآن العظيم الشأن بوقوعها قبل وقوعها بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيظِهِمْ سَبِقِلُونَ﴾ (١) فِي يَضِيع سِينِينَ ﴿[الروم: الآيتان ٣، ٤] وانتصروا عليهم بعد ذلك أيضًا مرارًا بإعانة الخزر إياهم وكانت قياصرة الروم يلبسون في بعض أعيادهم ألبسة الخزر استمالة لقلوبهم وكانوا يتخذون حرسهم من الخزر وبهذه المناسبة السياسية والصهرية الممتدة بين هاتين الدولتين مدة العصرين دخل بعض من الخزر في دين النصرانية ومع ذلك لما التجأ بعض اليهود الذين ضيق عليهم القياصرة واضطهدوهم إلى أترك الخزر الذين هم أعني كافة الأتراك مشهورون في العالم أجمع بحماية الضعفاء وإكرام الغرباء واطلع هؤلاء أعني الخزر بواسطتهم على حقيقة اليهودية ووجدوها أحسن وأصح وأصوب من النصرانية بمراتب كثيرة وقد كان من عادات الأتراك من القديم طلب الحقيقة دائمًا وقبولها متى وأين وجدوها من غير تعصب ولا استنكاف دخل كثير منهم في اليهودية ولهذا كان كثير من ملوك الخزر على اليهودية حتى في أوائل ظهور أنوار الإسلام على ما سينقل عن سواحي المسلمين وجغرافيتهم ومؤرخيتهم ويهود القرايم الذين هم أحسن كافة اليهود الموجودين الآن في العالم وأفضلهم من جهة الإنسانية والصدقة وحسن المعاملة على الإطلاق لا شبهة في كونهم من بقايا يهود الخزر.

[محاربة عساكر الإسلام معهم]

ولما أراد أمراء عساكر الإسلام مجاوزة باب الأبواب ومحاربة الخزر في عصر خلافة عمر رضي الله عنه بأمره بعد فتحهم ولايتي أذربيجان وأرمينية قال لهم شهريار حاكم باب الأبواب إنا راضون عنهم إن تركونا في أوطاننا مستريحين من غير أن يتعرضوا لنا فلم يصغ الأمراء إليه ولم يتفكروا في قوله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم»^(١) أو لم يتذكروه أو لم يبلغ وقتئذ إليهم أو تأولوه وقالوا إنا لا نرضى إن لم

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ٨، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧٦/٩، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢٤/٧، ٣٧٥/١٩، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢٣١/١، وابن الشجري في الأمالي ٢٦٦/٢، ٢٧٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠٤/٥، ٣١٢/٧، وابن حجر في لسان الميزان ١٠٨٦/٤.

نحاربهم في وسط ديارهم فتعدوا الباب الحديد أعني السد الذي بناه أنوشروان وقصدوا الخزر في سنة ٢١ تحت رئاسة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي^(١) وشرعوا في محاربتهم وانتصروا عليهم وتقدموا إلى مدينة البيضاء التي هي على مائة فرسخ من بلدة بلنجر^(٢) التي هي وراء الباب الحديد على ما في التواريخ وسيجيء بيان كل واحد منها وكان قد شاع بين الخزر أن هؤلاء الموحدين لا يموتون ولا يؤثر فيهم السلاح ولهذا كانوا يتحاشون من مقابلتهم ومقاومتهم ولما أفضت الخلافة إلى سيدنا عثمان رضي الله عنه اجتمعت الخزر في سنة ٣٢ واخفوا في غابة ورمى واحد منهم واحدًا من المسلمين بنشاب فقتله فتيقنوا بعد ذلك أنهم يموتون ويؤثر فيهم السلاح فحملوا عليهم بغتة حملة رجل واحد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واستشهد رئيسهم عبد الرحمن بن ربيعة^(٣) وكثير غيره من رؤسائهم بقرب بلنجر وطردهوا بواقهم إلى أن أدخلوهم من الباب الحديد ومع ذلك لم يصدر من هؤلاء الأتراك الخزر الذين يرميهم كذبة الأوروبيين في عصرنا بالوحشية وعدم التمدن أدنى شيء مما صدر عن الجنرال كشتنير الذي هو أفضل رجال ملة تدعى تسنم سنام التمدن وتذري ذروة الإنسانية في عصرنا هذا الذي بلغ فيه الأوروبيون غاية التمدن ونهاية الترقى على زعمهم الباطل ودعواهم الكاذبة من إهانة الأموات كعجوز طفقت تضرب الذئب الميت انتقامًا منه ومما لا يزال يصدر عن فرنسا في حق أهل فاس بل دفنوا كلهم بغاية الاحترام مثل ما فعل يابونيا ذاك النجم الشرقي بقتلى الروس في هذه المحاربة الأخيرة وأخذوا جسد رئيسهم عبد الرحمن بن ربيعة ووضعوه في تابوت بكمال الاحترام وصاروا يستسقون به المطر لما شاهدوا في مستشهدهم من الأنوار الساطعة وفي ذلك يقول أبو جمانة الباهلي مفتخرًا به وبقتية بن مسلم الباهلي شعر^(٤):

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بأقصى الصين يا لك من قبر
فذاك الذي في الصين عمت فتوحه وهذا الذي يسقى به سبل القطر

- (١) انظر الخبر في البداية والنهاية ١١٩/٧ - ١٢٠.
(٢) قال الحموي في معجم البلدان والبيضاء أيضًا مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب وقال مثل ذلك في بلنجر ثم ذكر الوقائع الآتية. منه عفي عنه.
(٣) انظر خبر مقتل عبد الرحمن بن ربيعة في البداية والنهاية ١٥٥/٧، والكامل في التاريخ ٢/٤٣٠.

(٤) وهذا الذي بالترك يسقى به القطر هكذا في بعض النسخ وهو وإن كان بحسب المعنى ظاهرًا جليًا إلا أن عيبه اللفظي لا يخفى على أربابه إلا أن يكون روى البيت الأول أيضًا مضمومًا. منه عفي عنه.

ولكن لا يكون إقدام الأصحاب الكرام على شيء خصوصاً سيدنا عمر رضي الله عنه من غير وجه مع ورود النهي عنه^(١) والآن بيدي ورقة من رسالة بيّن فيها فضائل الأبواب مترجمة من الفارسية إلى التركية يذكر صاحبها بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً فضيلة باب الأبواب ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ ذات يوم عن فضائل الأعمال فقال رسول الله ﷺ: «إن الجهاد في السد الأعظم (يعني باب الأبواب) أفضل من عبادة جميع العباد: فقال عمر رضي الله عنه ما السد الأعظم يا رسول الله فقال: «إنها جزيرة عظيمة بين الروم والعجم وإن عدوها طائفة صغار العيون هداهم الله تعالى» فقال عمر هل هو السد الذي دون يأجوج ومأجوج؟ قال: «بل هو بني للعجم ويكون فتحه على أيدي بني أمية وشهداء الجيش الذي فتحوه أفضل جميع الشهداء في الآخرة»^(٢) اهـ وهذا الأثر وإن لم يكن موجوداً في كتب الأحاديث ولكن لا يحكم ببطلان جميع مضمونه بل يحتمل أن يكون بعض منها صحيحاً واردة وإن لم يذكر في الكتب الأحاديث المتداولة الآن فإن جمع الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ لم يذكر فيها بل ضاع كثير منها فيمكن أن يكون هذا من ذلك ولو باعتبار بعض مضمونه فلو لم يصدر عن رسول الله ﷺ من مثل هذه الإشارة لما خالف عمر رضي الله عنه قوله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم»^(٣).

ويؤيده ما رواه صلة بن زفر^(٤) عن حذيفة بن يمان^(٥) رضي الله عنه أنه قال

(١) قال في معجم البلدان بعد أن ذكر قصة عبد الرحمن بن ربيعة ووجدت في موضع آخر أن أبا موسى الأشعري لما فرغ من غزو أصفهان في أيام عمر بن الخطاب في سنة تسع عشرة أنفذ سراقه بن عمرو وكان يدعى ذو النون إلى الباب وجعل في مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة وكان ذو النون أيضاً سار في عسكره إلى الباب ففتحه بعد حروب جرت وقال سراقه بن عمرو في ذلك شعر:

ومن يك سائلاً عني فإني بأرض لا يواتيه القرار
بباب الترك ذي الأبواب دار لها في كل ناحية مغار

الخ. منه عفي عنه.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الصحاح والسنن والأحاديث التي بين يدي.

(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٤) صلة بن زفر العبسي، أبو العلاء، توفي بالكوفة في زمن مصعب بن الزبير، وكان ثقة وله أحاديث (الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٢٦/٦).

(٥) حذيفة بن يمان العبسي، أبو عبد الله، هاجر إلى النبي ﷺ، ممن شهد أحدًا، توفي بعد قتل عثمان بن عفان بأربعين ليلة. (انظر كتاب الثقات ٨٠/٣، الطبقات الكبرى ٥٩/٦، ٩٤، ٧/٢٣٠، البداية والنهاية ٢٠٩/٧، الكامل في التاريخ ١٨٧/٣).

حضرت فتح بلنجر فبينما نحن نسير مع حذيفة فقال لي: يا صلة قلت: لبيك قال: كيف أنت إذا سار المسلمون إلى بيضاء خرد ومعهم الفالنجار^(١) حتى ينقضوها حجراً حجراً؟ قلت: إن ذلك لكائن؟ قال: نعم والذي نفسي بيده ما كذبت ولا كذبت في الجوامع الكبير برمز ابن عساكر ولا شك أن حذيفة رضي الله عنه سمعه من رسول الله ﷺ فإن هذا مما لا سبيل إليه للرأي وقد ورد عن رسول الله ﷺ في الصحاح: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا حوزا وكرمان من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين وجوههم المجان المطرقة نعالهم الشعر»^(٢) وفي بعض الرواية «عراض الوجوه» بدل «حمر الوجوه» ولما كانت هذه الأوصاف أو صاف الترك بلا شبهة ولم يكن في الترك طائفة تسمى حوزا وكرمان عجز الشراح عن معرفة المراد بهما وقالوا إن المراد بهما صنفان من الترك وإن لم نعرفهما وقال البيضاوي ولعل المراد بهما ما في عصرنا مما لا يزال يجري بين التتار والمسلمين اهـ.

يقول جامع هذه الحروف لعل الصادر عنه ﷺ خزر وقومان أو كيمريان وحيث كانا غير معروفين عند الرواة وحوز وكرمان معروفان من العجم ظنوهما أنهما كذلك وزادوا جملة من الأعاجم لإيضاح ما ظنوه وتأييده وقومان عبارة عن قفجق على ما سيجيء عند بيانهم وكيمريان كانوا طائفة من الناس بقطعة قريم على ما مر قريباً نقلاً عن كارامزين ويؤيد هذا الواقعة الآتية^(٣) والله أعلم بالصواب وهي هذه. وفي سنة ١٠٤ هـ^(٤) دخل جيش المسلمين بلاد الخزر من أرمينية تحت رياسة ثبيت النهراي^(٥)

(١) هكذا في الأصل ولم أعرف إعرابه ولا معناه. منه عفي عنه.

(٢) رُوِيَ الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩٥، ٩٦، والمناقب باب ٢٥، ومسلم في الفتن حديث ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، وأبو داود في الملاحم باب ٨، ٩، والنسائي في الجهاد باب ٤٢، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣، ٣٦، وأحمد في المسند ٤/١، ٧، ٢٣٩/٢، ٢٧١، ٣٠٠، ٣١٩، ٣٣٨، ٤٧٥، ٤٩٣، ٥٣٠، ٣١/٥، ٦٩، ٧٠، ٢٧١.

(٣) وجه التأييد اتفاق قفجق الذين هم عين قومان مع الخزر ومحاربتهم المؤمنين. منه عفي عنه.

(٤) ومن الواقعة السابقة إلى هذه الواقعة أعني في مدة سنة ٧٢ لا ترى في التواريخ وقعة أخرى بينهما. منه عفي عنه.

(٥) انظر البداية والنهاية ٩/٢٤٢ - ٢٤٣؛ وفيه: في هذه السنة غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان، أرض الترك، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذاربيهم في الماء، وسبى منهم خلقاً كثيراً، وفتح عامة الحصون التي تلي بلنجر، وأجلى عامة أهلها، والتقى هو والخاقان الملك فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان، وتبعهم المسلمون =

فجمع الخزر من قفجق وسائر طوائف الترك جمعاً عظيماً والتقى الجمعان في موضع يقال له مرج الحجارة فوق بينهما قتال شديد ودارت^(١) الدائرة على المسلمين واستشهد منهم خلق كثير واغتنمت الخزر جميع ما في معسكر المسلمين وبلغ المنهزمون الشام فوبخهم يزيد بن عبد الملك فقال له ثبيت ما جبت يا أمير المؤمنين ولم أخف من لقاء العدو وقد لاصق الخيل الخيل والإنسان الإنسان وحاربت حتى انكسر رمحي وانقطع سيفي ولكن الله فعّال لما يريد.

[تعداد إجمال وقائعهم مع أهل الإسلام]

وقعة الجراح بن عبد الله الحكمي^(٢) وبعد الموقعة المذكورة نصب يزيد بن عبد الملك جراح بن عبد الله الحكمي والياً على أرمينية وأمره بمحاربة الخزر وقد تجرأت الخزر بعد الوقعة الأولى واحتشدوا لدخول بلاد الإسلام فسار الأمير المذكور إلى الخزر وأخذ منهم أولاً قلعة الحصين ثم قلعة برغو ثم فتح بلدة بلنجر في ربيع الأول من العام المذكور بعد قتال شديد عنوة فأصاب من غنيمة بلنجر لكل فارس ثلاثمائة دينار ثم رد الجراح أولاد حاكم بلنجر وأمواله والبلدة أيضاً إليه وجعله جاسوساً وعيناً للمسلمين ثم حاصر قلعة ويندر بعكسر المسلمين وصالحهم في مقابلة مقدار من الأموال فاجتمع في تلك الأثناء الطوائف والقبائل من الأطراف والجوانب وأخذوا الطريق على المسلمين فأخبر والي بلنجر الجراح بذلك فعاد الجراح في الحال إلى قرية ملي وأراد أن يشتو فيها لقرب الشتاء وكتب إلى يزيد بن عبد الملك يعلم بالحال ويستنجده فوعده يزيد بالإمداد ولكنه مات قبل الإنجاز.

وفي سنة ١٠٦^(٣) غزا الجراح اللان وفتح بعض القلاع فيما وراء بلنجر وأخذ غنائم كثيرة وضرب الجزية على اللان وفي سنة ١٠٧^(٤) عزل هشام بن عبد الملك

= فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، قتل فيها خلق كثير لا يحصون. وانظر الكامل في التاريخ ٤/٣٦٠، ٣٦١.

(١) وقد حرر الفاضل المرجاني هذه الوقعة على طرز آخر وأنا نقلتها عن تاريخ ابن الأثير ولعل الفاضل المرجاني أخذها عن موضع آخر والله أعلم بسرائر عبادته وكذلك جميع وقائعهم الآتية مع المسلمين نقلتها عن تاريخ ابن الأثير بالمعنى. منه عفي عنه.

(٢) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٤/٣٧٢ - ٣٧٣، والبداية والنهاية ٧/٢٤٧.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٤/٣٧٨، والبداية والنهاية ٧/٢٥٧.

الأمير جراحًا ونصب مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك واليًا على أرمينية فاستعمل مسلمة حارث بن عمرو الطائي ففتح الحارث قصبه وبعض قرى من خزر وفي سنة ١٠٨^(١) حاصر ابن خاقان الخزر بعض البلاد بأرمينية فهزمه الحارث مرارًا وفي سنة ١٠٩^(٢) غزا مسلمة الخزر من طرف أذربيجان وعاد بسبايا كثيرة وغنائم وفيرة سالمًا وفي سنة ١١١^(٣) عزل هشام أخاه مسلمة وولى مكانه الجراح بن عبد الله الحكمي بأرمينية ثانيًا فدخل الجراح بلاد الخزر من جهة التفليس وفتح مدينتهم البيضاء وعاد سالمًا إلا أن الخزر جمعوا جمعًا كثيرًا وقصدوا بلاد الإسلام والتقى الجمعان بصحراء أربيل في سنة ١١٢^(٤) وختمت هذه الوقعة بشهادة الأمير جراح ومن معه وانهمز المسلمون وتقدم الخزر إلى قرب موصل بالنيابذة والسلب والتخريب والغارة فولى هشام بعد ذلك سعيد الخرخشي بأرمينية وأمدّه بالعساكر متتاليًا فخلص سعيد أسارى المسلمين وأموالهم من أيدي عساكر الخزر الذين كانوا تحت قيادة ابن خاقان الخزر بعد وقائع عديدة يشتمل بعضها على قصة عجيبة واغتنم فوق ذلك أموالاً كثيرة من الخزر ودفنهم.

وفي سنة ١١٣^(٥) أغار مسلمة بن عبد الملك على بلاد الخزر وتقدم إلى ما وراء جبال بلنجر وقتل ابن الخاقان وأخذ منهم أموالاً عظيمة فجمع الخزر جمعًا عظيمًا وساروا نحوه فجعل مسلمة المرحلتين مرحلة واحدة ورمى نفسه إلى داخل باب الأبواب بغاية الصعوبة وفي سنة ١١٤^(٦) نصب هشام مروان بن محمد بن مروان واليًا على أرمينية بموجب طلبه وأمدّه بمائة وعشرين ألفًا من عسكر الموحدين فتمكن بذلك من ضبط كافة من في داخل باب الأبواب من أهل طاغستان وغيرهم بعد مجريات كثيرة وضرب عليهم الجزية ولكن الذي يفهم من التواريخ أنه لم يقدر على شيء في شأن الخزر سوى طرده إياهم إلى ما وراء باب الأبواب وتخريبه بعض قلاعهم واغتنام أموال طفيفة وأخذ أسارى قليلة منهم إلا أنه ذكر فيها أنه دخل أرض الخزر.

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣٧٩/٤، والبداية والنهاية ٢٧٠/٧.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٣٨١/٤، والبداية والنهاية ٢٧٣/٧.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣٩٠/٤ - ٣٩٣، والبداية والنهاية ٣١٦/٧.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٣٩٣/٤ - ٤٠٣، والبداية والنهاية ٣١٦/٧ - ٣١٧.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٤٠٣/٤ - ٤٠٦، والبداية والنهاية ٣١٧/٧.

(٦) انظر الكامل في التاريخ ٤٠٦/٤ - ٤٠٩، والبداية والنهاية ٣١٩/٧.

في سنة ١١٩^(١) وتعدى مدينة بلنجر وسمندر وبلغ مدينة^(٢) البيضاء فهرب الخاقان منها .

وفي خلافة منصور الدوانيقي^(٣) خرجت الخزر في سنة ١٤٥^(٤) من باب الأبواب إلى بلاد الإسلام وقتلوا في أرمينية خلقًا كثيرًا وفي سنة ١٤٧^(٥) أغار استرخان الخزري مع جماعة من الأتراك على ناحية أرمينية وأسر كثيرًا من المسلمين ومن أهل الذمة ودخل التفليس وقتل من قواد المسلمين حرب بن عبد الله وكثيرًا غيره من المسلمين .

وفي خلافة هارون الرشيد^(٦) تزوج فضل بن يحيى البرمكي بابنة خاقان الخزر وحملت إليه في سنة ١٨٢ ولما وصلت إلى بردعة ماتت فجأة فرجع من معها إلى الخاقان وقالوا له إنها قتلت غيلة أي خفية فقصد الخاقان بلاد الإسلام في السنة الثانية للانتقام وتعدى باب الأبواب بعسكر خزر ففعلوا في بلاد الإسلام من الإفساد ما لم يسمع مثله قبله في تاريخ ما قط وأسروا من المسلمين ومن أهل الذمة أزيد من مائة ألف إنسان وأقاموا هناك سبعين يومًا فأرسل الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد فأصلحوا ما أفسده سعيد بن مسلم^(٧) والي أرمينية وأخرجوا الخزر من بلاد الإسلام^(٨) هذا آخر ما وقفنا عليه من وقائع الخزر مع المسلمين .

(١) انظر الكامل في التاريخ ٤/٤٢٣ - ٤٣٤، والبداية والنهاية ٧/٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) ولما قتل الوليد بن يزيد في سنة ١١٦ عاد إلى الشام وملك بعد اللتيا والتي وقتل في سنة ١٣٢ من طرف بني العباس وكان يلقب بالحمار لثباته في الحرب فلو دام على ولايته لأتم فتحه وبموته انتقل الملك إلى بني العباس . منه عفي عنه .

(٣) منصور الدوانيقي: هو الخليفة أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، بويع له بالخلافة بعد أخيه أبي العباس السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦هـ، وتوفي سنة ١٥٨هـ (البداية والنهاية ٨/١٢٦ - ١٣٣) .

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٤/١٤٧ - ١٧٧، والبداية والنهاية ٨/٨٦ - ٨٩ .

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٤/١٨٠ - ١٨٥، والبداية والنهاية ٨/١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) هارون الرشيد: هو هارون الرشيد ابن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أشهر خلفاء بني العباس بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه موسى الهادي، في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، توفي سنة ١٩٣هـ (البداية والنهاية ٨/٢٢٥ - ٢٣٤) .

(٧) وهذا إشارة إلى ما قال بعضهم أن سبب هذه الحادثة هو قتل سعيد بن مسلم والي أرمينية المنجم السلمي واستمداد ولد المنجم المقتول بخاقان الخزر ولا يبعد أن يكون سببها كلا الأمرين . منه عفي عنه .

(٨) انظر الكامل في التاريخ ٥/٣١٩ - ٣٢١، والبداية والنهاية ٨/١٩٢ .

[النتيجة الحاصلة]

والنتيجة الحاصلة من هذه البيانات أن المسلمين حاربوا الخزر من وقت خلافة عمر رضي الله عنه إلى هذا التاريخ الأخير أعني سنة ١٨٣ والمجموع مدة ١٦٢ سنة وكانت الحروب بينها سجلاً لا يرى فيها إلحاق ممالكهم بممالك الإسلام بل ولا مدينة واحدة ولا قسبة واحدة ولا قرية واحدة كما ترى ولم تحصل من تلك الحروب أدنى فائدة سوى سفك الدماء والإفساد وارتكاب أنواع الفضائح من الجانبين بل المفهوم منها أن تضرر المسلمين وخسارتهم أزيد من تضرر الخزر وخسارتهم بمراتب وهذا نتيجة استعمال العنف والغلظة والشدة في موضع اللطف واللين والرفق وثمره مختلفة قوله ﷺ السابق^(١) وأنهم لما رأوا هجوم المسلمين على بلادهم وقتلهم وسلبهم ونهبهم وأسرههم ثم عودهم إلى بلادهم بما حصلوه في أيديهم من غير تقيد بضبط بلادهم وإجراء أحكامهم هناك دائماً وشاهدوا هذا الحال منهم مكرراً اعتقدوا أن جل قصدهم بل كله هو هذه لا مقصد لهم سواها وهم صادقون في هذا الاعتقاد فنفروا منهم ومن الاستسلام إليهم والانقياد لهم واتباعهم وعادوهم وأبغضوهم واضطروا إلى مقابلتهم ومقاومتهم ومجازاتهم ومدافعتهم عن أوطانهم وأنفسهم وأولادهم وأعراضهم وأموالهم فإن المحاربة والهجوم والنهب والسلب صنعتهم الأصلية وميراثهم الحقيقي لم يريدوا أن يكون حظهم منها أنقص من حظ من سواهم بل أرادوا التفوق فيها على الكل فلو أنهم^(٢) أرسلوا إليهم العلماء والصلحاء والوعاظ وعرفوهم حقيقة الحق الإسلامي وكنهه وماهيته وحسنه وحقيقته ودعوهم إليه باللطف والرفق لما آل الأمر إلى هذه الفضائح ولقبِلوه بحسن اختيارهم وصاروا لهم أعواناً وإخواناً وأنصاراً وأخذاناً يشهد لذلك طبائع كافة طوائف الأتراك من انقيادهم للحق من غير تعنت وعناد متى ظهر ترشدك إلى هذا إن كافة من أسلم من طوائف الأتراك أسلموا باختيارهم بدلالة بعض السواحين فقط كما ستطلع على هذا عند بيان إسلام خزر وطائفة بجاناك وباشقرد وبلغار وسائر أقوام دشت قفجق وكافة قبائل الأتراك.

(١) يشير إلى قول رسول الله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم» تقدم تخريج الحديث.

(٢) وهذا ليس اعتراضاً بفعل عمر رضي الله عنه بل بفعل بني أمية وبني العباس فإن بين فعل عمر رضي الله وبين فعلهما فرق كثير فإن المطلوب في عصر عمر رضي الله عنه هو الدعوة فقط وقد وجدت وأما ما وراءها من إرسال العلماء والوعاظ فلم يكن في الإمكان لوجود كمال المنافرة بين الفريقين وأما عصر بني أمية وبني العباس فقد حصلت فيه بين الفريقين مناسبة واختلاط بحيث كان في الإمكان إرسال العلماء والوعاظ. منه عفي عنه.

ولكن ماذا نصنع سبق السيف العذل وقد أضر المسلمون بالإسلام إضرارًا كثيرًا بإهمالهم هذا الأمر وسوء التدبير من القديم الحكم لله سبحانه وتعالى ولو شاء الله ما فعلوه.

[إسحق بن كنداج الخزري]

ألا ترى أنهم كيف خدموا الإسلام بعد الاهتداء والدخول فيه وصاروا من أصدق^(١) خدامه وأخلصهم تصديقًا لقوله ﷺ: «تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢) ومن تجرد عن لباس التعصب والاعتساف وتزين بحلل الصداقة والإنصاف يصادف نظره كثيرًا منهم في صحائف التواريخ ومن جملتهم من الخزر إسحق بن كنداج الخزري^(٣) كان في عصر المعتمد على الله العباسي وقد شغل بيان الخدمات والوقائع التي صدرت عنه في الإسلام كثيرًا من صحائف التواريخ وقد فوّض الخليفة المعتمد إمارة قطعة إفريقيا من باب الشماسية إلى نهاية إفريقيا إليه بعد أن عزل عنها أحمد بن طولون التركي في سنة ٢٦٩ وولاه الشرطة الخاصة وقلّده السيفين لذلك وقد مدحه الشاعر المشهور أبو البختری بقصيدة بليغة يذكر فيها هذه التولية ومن جملتها هذه الأبيات أشعار:

إن تثن إسحق ابن كنداجيق بي ^(٤)	أرض فكل الصيد في جوف الفرا
من معدن الشرف الذي افرنده	في وجه وضاح الأصائل ازهرا
وأرومة في الملك خاقانية	تعتم أفنانًا وتكرم عنصرا
أخلق بذى السيفين أو صدق به	أن يعمل السيفين حتى يحسرا
ما زيد أنملة على استحقاقه	فيقل صبر منافس أو يضجرا
ما قلّد السيفين إلا نجدة	في الحرب توجب أن يقلد آخرا

(١) ومن أنكر خدمة الأتراك للإسلام فهو أدون رتبة من البهائم غير قابل للخطاب. منه عفي عنه.
(٢) رُوِيَ الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٩، والمناقب باب ١، ٢٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٩٩، وأحمد في المسند ٢/٢٥٧، ٢٦٠، ٣٩١، ٤٣٨، ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٢٥، ٥٣٩، ٣٦٧/٣.
(٣) انظر أخباره في الكامل في التاريخ ٦/٤٠، ٣٠٧، ٣٣٠، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٦٧، والبداية والنهاية ١١/٤٧، ٤٨، ٥٣، ٥٦، ٧٠.
(٤) وفي معجم البلدان للحموي أن يرم إسحق ابن كنداجيق في أمل الخ. منه عفي عنه.

قد ألبس التاج المعود رأسه في الحالتين مملكًا ومؤمرا
لا تنكر الخرزات ألف ذؤابة تحتل في الخزر الذوائب والذرى
شرف تزيد بالعراق على الذي عهدوه بالبيضاء^(١) أو ببلنجر

وقد مدحه أيضًا بقصائد أخرى جيمية ونونية ومات الأمير إسحق في التاريخ الذي مات فيه الموفق بالله أعني سنة ٢٧٨ وولى مكانه ولده الأمير محمد بن إسحق وله أيضًا ذكر جميل في التواريخ ويرى فيها أيضًا ذكر نيزك وخطارمش مقارنًا بذكره ولا شك في كونهما من الترك ويحتمل كونهما من الخزر والله سبحانه أعلم ولنذكر الآن ما ذكره قدماء سواحي المسلمين في حق الخزر من المعلومات.

[أقوال المؤرخين المسلمين في الخزر]

قال الشيخ أبو علي أحمد بن عمر بن دسته أو داسة في فصل الخزر من كتابه المسمى بالأعلاق النفيسة الفصل الأول في الخزر: بين البجاناكية والخزر مسيرة عشرة أيام في مفاوز ومشاجر وليس بينها وبين الخرز طريق مسلوكة ومناهج مقصودة إنما سيرهم في مثل هذه المشاجر والغياض حتى يوافوا بلاد الخزر.

وبلاد الخزر بلاد عريضة يصل بإحدى جنباتها جبل عظيم (جبل قفقاز) وهو الجبل الذي ينزل في أقصاه طولاس وأوغر ويمتد إلى بلاد تفليس. ولهم ملك يقال له ايشا والملك الأعظم إنما هو خاقان خزر وليس له من طاعة الخزر إلا الاسم ومقدرة الأمر على ايشا إذ كان في قيادة الجيوش بالموضع الذي لا يبالي معه بأحد فوّه. ورئيسهم الأعظم على دين اليهود وكذلك ايشا ومن يميل ميله من القواد والعظماء والبقية منهم على دين يشبه دين الأتراك. ومدينتهم^(٢) سارغشن وبها مدينة أخرى يقال لها هب نلع أو حسلع (لعلها قتلغ أو قشلق) ومقام أهلها في الشتاء في هاتين المدينتين فإذا كان أيام الربيع خرجوا إلى الصحارى فلم يزلوا بها إلى إقبال الشتاء وفي هاتين المدينتين خلق من المسلمين لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب يعني المكاتب وقد وظف ملكهم ايشا على أهل القوة واليسار منهم فرسانًا على قدر أموالهم واتساع أحوالهم في المعاش وهم يغزون البجاناكية في كل سنة وايشا هذا يتولى

(١) وفي بعض النسخ في خمليج بدل بالبيضاء ووقع في معجم البلدان للحموي هكذا في مادة بلنجر وأما في مادة بيضا فقد ذكره كما هنا ثم قال ويروى عهدوه في خمليج. منه عفي عنه.

(٢) وسيجيء عن أبي عبيد البكري أنها أرعيش ولولا ذلك لجزمت بأنها صاري قشلاق ويؤيده ما سيجيء نقلًا عن كارامزين بأنه كانت لهم قلعة تسمى صاري قلعة. منه عفي عنه.

الخراج بنفسه ويخرج في مغازيه، بعساكره ولهم جمال ظاهر وإذا خرجوا في وجه من الوجوه خرجوا بأسلحة تامة محلات وأعلام وطرادات وجواشن^(١) محكمة وركوبه في عشرة ألف فارس ممن هو مرتبط به قد أجرى عليهم وفيهم من قد وظف على الأغنياء وإذا خرج لوجه من الوجوه هيء بين يديه مثل شمسة على صفة الدف يحتمله فارس يسير به أمامه فهو يسير وعسكره خلفه يبصرون ضوء تلك الشمسة فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها في معسكره ثم اختار إيشا منها ما أحب وأخذ لنفسه وأطلق لهم باقي الغنيمة ليقتسموها بينهم اه بحروفه.

وقال ابن خرداذبه^(٢) في كتابه فتوح البلدان^(٣): الخزر اسم لهذا الجنس من البشر وأما البلدة يعني بلدتهم فهو مصر يسمى باتل ووجه تسميته به إنما هو من جهة الأخذ من اسم النهر الذي يجري منه ويصب في بحر الخزر وقراه ليست بكثيرة وملكه ليس بمتسع أيضًا وهو مصر واقع بين الخزر والسرير والروس والغزيرة.

وقال في موضع آخر منه الخزر كورة^(٤) خلف بحيرة الخزر واسعة كثيرة الغنم والعسل والبهود وفي آخرها سد الياجوج ومأجوج (سد أرمينية أو الصين على زعمه) وفي تخومها بلاد الروم ولهم نهران يصبان في البحيرة المذكورة ومدنيتهم العظمى على هذين النهرين وفي حدودها من جهة الجرجان جبال منغشلاق وقصبتها مدينة اتل ومن مدنها بلغار وسمند^(٥) وسوار فعند خمليج وبلنجر وبيضاء اه.

(١) الجواشن: جمع جوشن، وهو مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد، أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من الشبك (صبح الأعشى ٥٤٧/٣).

(٢) ابن خرداذبه: هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة أبو القاسم، تولى البريد بناحية الجبل، ونام المعتمد على الله العباسي، توفي في حدود سنة ٣٠٠ هـ، له من المصنفات: «أدب السماع»، «جمهرة أنساب الفرس والنوافل»، «كتاب الأنواء»، «كتاب البطيخ»، «كتاب الشراب»، «كتاب اللهو والملاهي»، «كتاب المسالك والممالك»، «كتاب الندماء والجلساء»، (كشف الظنون ٥/٦٤٥).

(٣) لعله كتاب «المسالك والممالك» المذكور في الحاشية السابقة.

(٤) نسب الفاضل المرجاني هذا القول إلى ابن داسة وقد طالعت من كتابه نسختين فلم أره فيهما بل هو قول ابن خرداذبه. منه غفي عنه.

(٥) سمند يذكر بسكون الدال وبضمها مشبعًا وبالرأي الساكنة بعد الدال سمندر هكذا ولم يذكره في القاموس وإنما قال فيه سمند وبلدة بإقليم الروم والله سبحانه أعلم وفي معجم البلدان سمندر بالراء بعد الدال هكذا ذكره عند ذكر باب الأبواب وقال ومن أتى مدينة الخزر إلى باب الأبواب اثني عشر يومًا ومن سمندل إلى باب الأبواب. أربعة أيام ولم يذكر المسافة بين بلنجر وباب =

وقال الشيخ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي القرطبي^(١) في كتابه المسمى بالممالك والمسالك^(٢): ويلى الباب والأبواب مملكة الخزر وكان موضع مملكتهم مدينة يقال لها سمندو هي على ثمانية أيام من الباب وملكهم الآن بمدينة اتل وبينها وبين الأولى سبعة أيام وفيها من كل ملة وإنما انتقل ملكهم إليها لأن سمندو افتتحت في أول الإسلام ثم رجعت إليهم ودين الخزر اليهودية تهود ملكهم زمن الرشيد فبقوا على ذلك وكان سبب ذلك إكراه ملك الروم من كان في مملكته من اليهود على النصرانية فتهارب قوم من اليهود إلى بلاد الخزر فتهودوا وأكثر جيوش الخزر مسلمون وهم ناقلة من خوارزم لحرب وقع في بلادهم في صدر الإسلام أجلاهم إلى الخزر وظهر منهم في الحرب بأس وشدة فأقاموا على الإكرام والإحسان وإظهار الإسلام ووزير الملك منهم وإذا كان للملك حروب مع المسلمين وقف المسلمون من جنده حوزة لا يقاتلون وصومعة المسلمين في جامعهم الأعظم تشرف على دار الملك وتصل بهذه الملكة مملكة برغر إلى آخر ما يجيء في المقصد الأول في بيان بلغار.

وقال في موضع آخر من الكتاب المذكور وتسير من بلاد البجاناكية إلى بلاد الخزر عشرة أيام في مشاجر ومفاوز على غير طريقة مسلوكة وبلاد الخزر بلاد عريضة، ويتصل بها من إحدى جنباتها جبل عظيم يمتد إلى تفليس وتفليس أول حد الأرمنية.

والخزر اسم الإقليم ومدينتهم العظمى قطعتان على الشرقي والغربي من نهر اتل وهاتان المدينتان تسمى إحداهما بإرعيش والأخرى ختلغ (قتلغ أو قشلق) والغربية أكبرهما ويحيط بالمدينتين السور ولهما أربعة أبواب ولهم حمامات وأسواق ومساجد وأئمة ومؤذنون وجملة الخزر مسلمون والنصارى وفيهم عبدة الأوثان وأقل الفرق منهم

= الأبواب وبين بيضاء وباب الأبواب وهكذا ذكر سمندر مرة وقال مرة إنها ثمانية أيام من والله أعلم. منه عفي عنه.

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن مصعب، الحافظ أبو عبيد البكري، من أهل شلطيخ الأندلسي، سكن قرطبة، كان محدثاً أديباً، توفي سنة ٤٨٧ هـ، من تصانيفه: «أعلام النبوة»، «شرح النوادر لأبي علي القالي»، «شفاء عليل العربية»، «فضل المقال في شرح الأمثال»، «اللاكي على كتاب الأمالي»، «المسالك والممالك»، «معجم ما استعجم» وغير ذلك (كشف الظنون ٤٥٣/٥).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

اليهود وملكهم على دين اليهودية ولسان الخزر غير لسان الترك والفرس وهي لغة لا يشاركها لغة من اللغات وللملك سبعة حكام من اليهود والنصارى والمسلمين وعبدة الأوثان اه بحروفه .

وقال الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم الغرناطي^(١) في كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب: بلنجر مدينة ببلاد الخزر وفي موضع منه بلنجر مدينة بدر بند خلف باب الأبواب وفي موضع آخر منه فأما بلنجر فداخل أرض الخزر والخزر كلهم يهود وإنما تهودوا من قريب قال ابن زيد البلخي والخزر مدينة تسمى سمندر فيما بين أتل وباب الأبواب بها بساتين كثيرة ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير والغالب على ثمارهم الأعناب وفيها خلق كثير من المسلمين ولهم فيها مساجد وبنيتهم من خشب قد نسجت وسطوحهم مسنمة وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر وبينهم وبين حد السرير فرسخان وبينهم وبين السرير هدنة وقال المقدسي وسمندر بلد كبير عند البحيرة بين نهر الخزر وباب الأبواب دورهم خيم الغالب عليها النصارى قوم أوطيا (لعله غوتية). يحبون الغريب إلا أنهم لصوص وهي أرحب من خزر لهم بساتين وكروم كثيرة بنيانهم خشب منسوجة بالقضبان وسطوحهم مسنمة وبها مساجد كثيرة وسمعت أن المأمون غزاهم من الجرجانية ودعاهم إلى الإسلام والآن استولى الماء على هذه الأراضي حتى لم يبق لها أثر بنيان وكانت سرير مملكة ملك تلك الناحية اه ما ذكره الغرناطي بحروفه .

وقد نقل الفاضل المرجاني أمثال هذه النقول في حق الخزر عن أبي إسحق الاصطخري والشيخ شمس الدين الدمشقي والمقصد هو إظهار اعتناء كبراء المتقدمين واهتمامهم بضبط أحوال هؤلاء الأمم وتقييدها وتحريها مع أنهم ليسوا منهم وجعل المنقول عنهم مدار الاستنتاج نتيجة ما في حقهم وإنما نقل عن الاصطخري زيادة على ما حررناه أن ملكهم يلقب بلك وباك وإن طول المدينة الغربية فرسخ وإن أبنيتهم غير مرتفعة معمولة من اللبد وبعضها من الطين وبها أزيد من ثمانية آلاف من المسلمين ونحو من ثلاثين مسجدًا وأن قصر الملك من الآجر لا يؤذن لغيره بالبناء من الآجر وأربعة من أبواب البلد تقع على تل والبواقي على البر ولا شبهة في اندفاع التناقضات التي ترى بين بعض تلك النقول ببعض بحملها على اختلاف الأزمان والأدوار .

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي .

ولكن القول بمغايرة لغتهم للغة الترك ناشيء من عدم الوقوف على أنواع لسان الترك ألا ترى أن الذي ليس له وقوف على غير اللغة العثمانية من أنواع اللغة التركية في عصرنا هذا لا شبهة في حكمه على لغة قرغز وقزاق بكونها غير تركية بل لا يشك في حكمه بذلك على لغة چغتاي وقزان أيضًا لكونها مغايرة للغة العثمانية التي يعتقد أنها التركية فقط دون غيرها مع أنها نوع واحد من أنواع اللغات التركية والحاصل أنه لا شبهة في كون الخزر من الأقوام التركية وكون لغتهم نوعًا من أنواع اللغات التركية.

قال المسعودي في مروج الذهب^(١) دخلت الروس بحر الخزر مستأذنا ملك الخزر بعد الثلاثمائة سنة من الهجرة بخمسائة مركب في كل مركب مائة نفر وانتشروا إلى بلاد الجبل والديلم وما والاها فقتلوا وخرّبوا وسبوا وغنموا وأقاموا على ذلك شهرًا حتى سئموا فرجعوا ولما وصلوا إلى بلاد الخزر وحملوا إلى ملك الخزر ما وعدوه به وعلم بذلك عسكر ملك الخزر المسمى باللارشية أو الإريسية وهم مسلمون أرادوا قتال الروس لاستخلاص أسارى المسلمين وأموالهم من أيديهم ولم يمكن الملك أن يمنعهم فأعلم بذلك الروس فخرجوا من مراكزهم واقتتلوا ثلاثة أيام قتالًا شديدًا فنصر الله المسلمين وانهزم بقية الروس وعد من قتلهم ثلاثون ألفًا وكان المسلمون خمسة عشر ألفًا وفيهم أيضًا نصارى فركب المنهزمون منهم مراكزهم وعبروا إلى جانب برطاس وتركوا مراكزهم وتعلقوا بالبر فمنهم من قتله برطاس. ومنهم من وقع إلى بلاد البلغ^(٢) المسلمين فقتلوه عن آخرهم اه باختصار.

وقال أيضًا في كتابه المذكور وبإحدى أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها حيدان وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر وذلك

(١) انظر مروج الذهب.

(٢) قال المسعودي إن هذه الحادثة مستفاضة في تلك البلاد التي وقعت هي فيها وتاريخها أيضًا معلوم عندهم وكان بعد الثلاثمائة من الهجرة إلا أنه لا يحضر لي الآن وقال كارامزين حين نقلها عن المسعودي إنها كانت سنة ٩١٢ م وهي مصادفة سنة ٣٠٠ هـ والظاهر أن المترجم ظن أن المسعودي قال في سنة ٣٠٠ وقد ذكرها الطبري وابن الأثير على وجه آخر حيث قال إن الروس هجموا على بردعة وأفسدوا فيها إفسادًا كبيرًا في سنة ٣٢٢ هـ والظاهر أن الحادثة واحدة والغلط في تعيين موضعها إلا أنهما لم يذكرنا قتال عسكر الخزر المسلمين والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

أنها افتتحت في بدء الزمان افتتحها سلمان بن ربيعة الباهلي رضي الله عنه فانقل الملك عنها إلى مدينة اتل وبينهما وبين الأولى سبعة أيام واتل التي يسكنها ملك الخزر في ذلك الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك يتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغر وتصب في بحر مانطش (يعني بحر أوزاق وهو خطأ بل يصب إلى بحر الخزر) وهذه المدينة جانبان وفي وسط النهر جزيرة فيها دار الملك وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم وذلك أن ملك الروم نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم وهوارميوس ملك الروم فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره.

وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس منهم الصقالبة والروس وهم في أحد جانبي هذه المدينة يحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى والغالب في هذا البلد المسلمون لأنهم جند الملك وهم يعرفون في هذا البلد باللارشية وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جذب ووباء فانقلوا إلى ملك الخزر وهم ذوو بأس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه وأقاموا في بلدة على شروط بينهم أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم والوزير في وقتنا هذا منهم وهو أحمد بن كوبة وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكر منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ويحاربون معه سائر الناس من الكفار يركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم رامحة أيضًا على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح ولهم قضاة مسلمون ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة اثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمون بحكم التوراة واثنان لمن بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند من برور يعني الأجانب غير ملك الخزر وكل مسلم من تلك الديار يعرف

بأسماء هؤلاء القوم اللارشية والروس والصقالبة التي ذكرنا أنهم جاهلية من جند الملك وعبيده وفي بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارشية في طرف بلدة لعدله وأمنه ولهم مسجد جامع والمنارة تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة.

قال وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به الخاقان وذلك أن للخزر ملكًا يقال له خاقان رسمه أن يكون في يدي ملك آخر هو وغيره فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ولا الخروج من مسكنه معه حرمة لا يأمر ولا ينهى ولا يدير من أمر المملكة شيئًا ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته ومعه في حيزه فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم أو فاجأهم أمر من الأمور نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر فقالوا له قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه وقد تشاءنا منه فاقتله أو سلّمه إلينا نقتله فربما سلمه إليهم فقتلوه وربما تولى هو قتله وربما رق له فدافع عنه لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه هذا رسم الخزر في هذا الوقت فلست أدري في قديم الزمان كان ذلك أم حدث وإنما ينسب خاقان هذا لأهل بيت وأعيانهم أرى أن الملك كان فيهم قديمًا والله أعلم.

وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها يقال له برطاس عليه أمم من الترك حاضرة داخلية في جملة ممالك الخزر وعمائرهم متصلة بين ملك الخزر والبلغر يرد هذا النهر (يعني النهر الذي قال في أول كلامه أنه يرد من أعالي بلاد الترك وسماه الآن بنهر برطاس^(١)) وهو نهر ايدل و وولغا لا غير) من حد بلاد البلغار والسفن تختلف فيه من البلغر والخزر اهـ.

وقال الحموي^(٢) في معجم البلدان خزر بالتحريك وآخره راء وهو انقلاب في

(١) فإن سواح المسلمين المتقدمين يسمون نهر ايدل في حذاء بلاد برطاس بنهر برطاس نسبة إليهم وإلا فليس هناك نهر يسمى ببرطاس فإن كان فالأولى به نهر صور ولكن إرادته هنا بعيدة جدًا. منه عفي عنه.

(٢) ياقوت الحموي: هو شهاب الدين أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس، الحموي المولد، البغدادي الدار، الأديب المؤرخ، ولد سنة ٥٧٥ هـ، وتوفي بحلب سنة ٦٢٦ هـ، له من التصانيف: «أخبار المتنبي»، «إرشاد الألباء إلى معرفة الأديب»، «تحفة الألباء في أخبار الأديب»، «كتاب الدول»، «المبدأ والمآل» في التاريخ، «مجموع كلام أبي علي الفارسي»، =

الحدقة نحو اللحاظ وهو أقبح الحول وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سد ذي القرنين ويقولون هو مسمى بالخزر بن يافث بن نوح وقال في كتاب العين^(١) الخزر جبل خزر العيون وقال دعبل بن علي^(٢) يمدح آل علي رضي الله عنهم:

وليس حي من الأحياء يعرفه من ذي يمان لا بكر ولا مضر
ألا وهم شركاء في دمائهم كما يشارك إنسان على خزر
قتل وأسر وتخريق ومنهبة فعل الغزاة بأهل الروم والخزر

وقال أحمد بن فضلان^(٣) رسول المقتدر إلى الصقالبة في رسالة له ذكر فيها ما شاهده بتلك البلاد فقال: الخزر اسم إقليم من قصبه تسمى اتل وائل اسم النهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار وائل مدينة والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة ولا جبل والمدينة قطعتان قطعة على غربي هذا النهر المسمى اتل وهي أكبرها وقطعة على شرقيه والملك يسكن الغربي منها ويسمى الملك بلسانهم بلك ويسمى أيضًا باك وهذه القطعة الغربية مقدارها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيء يسير مبني من طين ولهم أسواق وحمامات وفيها خلق كثير من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ولهم نحو ثلاثين مسجدًا وقصر الملك بعيد عن شط النهر وقصره من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره ولا يمكن الملك أن يبني بالآجر غيره ولهذا السور أبواب أربعة أحدها يلي النهر والآخر يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة وملكهم يهودي ويقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبدة الأوثان وأقل الفرق هناك

= «المشترك وضعًا والمختلف صقعًا»، «معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان»، «المقتطف في النسب». (كشف الظنون ٥١٣/٦).

(١) كتاب العين: في اللغة، للخليل بن أحمد الفراهيدي، النحوي المتوفى سنة ١٧٥ هـ (انظر كشف الظنون ١٤٤١/٢).

(٢) دعبل بن علي: قيل اسمه الحسن، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: محمد بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الرحمن اللؤلؤي، أبو علي الخزاعي الشاعر الشيعي، ولد سنة ١٤٨ هـ، وتوفي سنة ٢٤٦ هـ، له: «ديوان شعره»، «طبقات الشعراء»، «كتاب الواحدة في مثالب العرب ومناقبها». (كشف الظنون ٣٦٣/٥).

(٣) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، توفي في حدود سنة ٣٠٩ هـ، له «كتاب الجغرافيا». (كشف الظنون ٥٧/٥).

اليهود على أن الملك منهم وأكثرهم المسلمون والنصارى إلا أن الملك وخاصته يهود والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم وأحكام مصرهم على رسوم مخالفة للمسلمين واليهود والنصارى وجريدة جيش الملك اثنا عشر ألف رجل فإذا مات رجل منهم أقيم مقامه (غيره) فلا ينقص العدة أبدًا وليست له جراية دائرة إلا شيء يسير نزر يصل إليهم في مدة بعيدة إذا كان لهم حرب أو ضربهم أمر عظيم يجمعون له وأما أبواب أموال صلاة الخزر فمن الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر وله وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك وللملك تسعة من الحكام^(١) من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنما يصل إليه هؤلاء الحكام وبين هؤلاء الحكام وبين الملك يوم القضاء سفير يراسلونه فيما يجري من الأمور ينهون إليه ويرد عليهم أمره ويمضونه وليس بهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف إلى المزارع نحوًا من عشرين فرسخًا فيزرعون ويجمعونه إذا أدرك بعضه إلى النهر وبعضه إلى الصحارى فيحملونه على العجل والغالب على قوتهم الأرز والسمك وما عدا ذلك مما يوجد عندهم يحمل إليهم من الروس وبلغار وكوثابه والنصف الشرقي من مدينة الخزر فيه معظم التجار والمسلمون والمتاجر ولسان الخزر غير لسان الترك^(٢) والفارسية ولا يشاركه لسان فريق من الأمم والخزر لا يشبهون الأتراك وهم سود الشعور وهم صنفان صنف يسمون قراخزر^(٣) وهم سمر يضربون لشدة السمر إلى السواد كأنهم صنف من الهند وصنف بيض ظاهره الجمال والحسن والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض فأما اليهود منهم والنصارى فإنهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضًا مثل المسلمين وبلاد الخزر لا يجلب منها شيء إلى البلاد وكل ما يرتفع منه إنما هو مجلوب إليه مثل الرقيق والعسل والشمع والخز والأوبار.

وأما ملك الخزر واسمه خاقان فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهًا ويقال له الخاقان الكبير ويقال لخليفته خاقان به وهو الذي يقود الجيش ويسوسها

(١) هكذا في المنقول عنه وقد مر عن المسعودي أنهم سبعة فتذكر. منه عفي عنه.

(٢) قدمناه ما فيه فتذكر. منه عفي عنه.

(٣) لعلهم الآن الذين يسمونهم قراآعاج منه عفي عنه.

ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تدعن الملوك الذين يصاقبونه ويدخل في يوم إلى خاقان الأكبر متواضعًا يظهر الإخبات والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافيًا بيده حطب فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقوع جلس مع الملك على سريره عن يمينه ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ويخلف هذا أيضًا رجل يقال له جاوشيفر ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبني له دار كبيرة فيها عشرون بيتًا ويحفر له في كل بيت منها قبر وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه وتطرح النورة فوق ذلك وتحت الدار والنهر نهر كبير يجري^(١) ويجعلون القبر فوق النهر يقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت ويسمى قبره الجنة ويقولون قد دخل الجنة وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب ورسم ملك الخزر أن يكون له خمسة وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذ طوعًا وكرهًا وله من الجواري والسراري لفراشه ستون ما منهن إلا فائقة الجمال وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد ولها قبة مغطاة بالساج وحول كل قبة مضرب ولكل واحدة منهن خادم يحجبها فإذا أراد أن يطمأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين الموكب ميل فلا يراه أحد من رعيته إلا خزرًا لوجهه ساجدًا له لا يرفع رأسه حتى يجوزه ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يومًا واحدًا قتلت الرعية وخاصته وقالوا هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم لغيرهم وهم ينظرون وكذلك درابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهما وربما علقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليه ساسة.

(١) كذا في المنقول عنه ولا يفهم معناه جيدًا. منه عفي عنه.

ولملك الخزر مدينة عظيمة^(١) على نهر اتل وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز وهو مسلم وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يصلون فيه الصلوات ويحضرونه في أيام الجمع وفيه منارة عالية وعدة مؤذنين فلما اتصل بملك الخزر في سنة عشر وثلاثمائة أن المسلمين هدموا الكنيسة في دار البابونج أمر بالمنارة فهدمت وقتل المؤذنين وقال لولا أنني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلا قدمت لهدمت المسجد والخزر وملكهم كلهم يهود (كذا) وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج ومأجوج هم الخزر انتهى من معجم البلدان بحروفه.

قلت إن كان يأجوج ومأجوج هم الخزر فيكون أنوشروان الذي بنى السد دونهم هو ذو القرنين وأنا أتعجب من هذه الاختلافات الواقعة بين كلام هؤلاء الكبراء المحققين أعني المسعودي وابن فضلان ولهذا أثبت كلام كل منهما بجانب الآخر بل أتعجب من التناقض الواقع بين كلامي ابن فضلان أعني قوله وللملك تسعة من الحكام الخ وقوله وعلى المسلمين رجل الخ إلا أن يكون ولملك الخزر مدينة عظيمة من كلام غير ابن فضلان ويكون في العبارة سقطه فيكون المنافاة بين كلام ابن فضلان وغيره لا بين كلامه والله سبحانه أعلم.

قال أبو الفداء^(٢) في تقويم البلدان قال: في اللباب بلنجر مدينة بدر بنت خزران وهي داخل الباب والأبواب قيل نسبت إلى بلنجر بن يافث وقال في كتاب الأطوال وبلنجر هي اتل مدينة الخزر.

(١) ولا أدري أن هذه المدينة هي الأولى أو غيرها فإن كانت هي الأولى فمع لزوم التكرار بين ما ذكر سابقاً وبين ما ذكر هنا تغاير أو لعل فيه سقط ونقل عن الغير يؤيده التاريخ الآتي. منه عني عنه.

(٢) أبو الفداء: هو إسماعيل بن علي بن المظفر تقي الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد أبو الفداء الأيوبي الشافعي صاحب حماة، ولد سنة ٦٧٢ هـ، وتوفي سنة ٧٣٢ هـ، من تصانيفه: «الأحكام الصغرى» في الحديث، «تقويم البلدان»، «كتاب الكناش»، «كتاب الموازين»، «كشف الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب»، «المختصر في أخبار البشر»، «نظم الحاوي الصغير» في الفروع، «نوادير العلم». (كشف الظنون ٥/٢١٤).

وقال أبو الفداء في موضع آخر من كتابه المذكور قبل هذا بورقتين: بلنجر مدينة خزرية هي منسوبة إلى الخزر الذي أفناهم الروس وقد يسمى هذا البحر ببحر الخزرية نسبة إليها حيث الطول (عا) والعرض (مه له)^(١) هي على نهر يصب في البحر من شمالها.

وقال أيضًا في موضع آخر من كتابه المذكور: وفي شرقي وشمالي نقجوان مدينة الباب قاعدة سلطنة الباب وهي ثلاث قطع على نهر اتل الكبير عند مصبه في بحر طبرستان فالقطعة الجنوبية كانت للمسلمين والقطعة الشمالية لليهود والنصارى والمجوس والقطعة التي في الجزيرة كانت لخاقان الخزر وكان يهوديًا ثم خربها الروسية وأزالوا سلطنة الخزر منها وعمرت بعد ذلك بالمسلمين فخربها التتار وموضعها حيث الطول (عه) والعرض (مه)^(٢) اهـ.

قلت لا شك أن هذه المدينة هي مدينة اتل كما ذكرها غيره بهذه الكيفية وتسميته إياها بمدينة الباب إما سبق قلم وإما من تغيير النسخ وإما بناء على تسميتها بهذا الاسم أيضًا وهو احتمال بعيد والذي ذكره في أطول هذه البلاد وعرضها لا يخلو من التسامح والتساهل كما لا يخفى على أربابها والله سبحانه أعلم.

[وقائع الخزر مع الروس]

ولما فرغنا من النقل عن سواحي المسلمين وانجر الكلام أن الخزر أفناهم الروس وخرب بلادهم ناسب أن نذكر هنا نبذة من وقائعهم مع الروس.

قال كارامزين بعد قوله السابق في حق الخزر إن العرب وإن أسسوا حكومة قوية في وقت ما إلا أن الخزر هزمت جيش بعض الخلفاء من العرب فعدم اقتدار طوائف أسلاوان المنتشرة إلى الأطراف والجوانب على مقابلة مثل هذا العدو القوي ومدافعتة بديهي وقد وسعت الخزر ممالكهم وحكومتهم في أواخر العصر السابع والثامن من الميلاد يعني في أواسط العصر الأول والثاني من الهجرة إلى نهري دينبير وأوقه وكانت أهالي كيف من صويرى وراديمجي وواتبجي تحت طاعة الخزر قال نيسطور^(٣) كانت أهالي كيف يعطون للخزر من كل بيت سيفًا وكانوا مع ذلك يعطونهم من كل بيت دلقًا على سبيل الجزية والخراج وحيث كانت خزائهم ملاءة بالذهب والفضة وسائر الأشياء

(١) (عا) تساوي في حساب الجمل ٧١، و(مه له) تساوي ٨٠.

(٢) (عه) تساوي ٧٥، و(مه) تساوي ٤٥.

(٣) أول مؤرخ من الروس وهذا كله من قول كارامزين وهو الذي ينقل عنه هذا الكلام وغيره. منه عفي عنه.

الشمينة التي كانوا يأخذونها من الروم وسائر أقوام آسيا، كانوا يقنعون بأخذ هذه الأشياء الطفيفة الحقيمة من أسلاوان الفقراء بالضرورة ويطن أن الخزر لم يضيقوا على أسلاوان تضييقًا شديدًا فإن نيسطور لم يكتب من مثل هذا التضييق شيئًا في حق الخزر مع أنه يعني نيسطور عظم الأذية والجفاء التي أصابت طائفة أسلاوان من طرف آوار وكبرها جدًا وهذه الحالات تثبت كلها كون الخزر مدنيين وكان ملك الخزر يسكن من القديم في مدينة بالانغير^(١) أو مدينة اتل وكانت المدينة المذكورة غنية جدًا وكثيرة الأهالي وكان موقعها في مصب نهر اتل من بحر الخزر ولكن انتقل أخيرًا إلى إقليم توريد التي كانت معروفة بكثرة التجارة واختار السكنى بها.

ومع كون قوم هون وسائر أقوام آسيا ميالين إلى التخريب بنت الخزر بساحل نهر دون قلعة تسمى بسرقل^(٢) (صاري قلعة) بجلب مهرة المعمارين من قيصر الروم فيوفيلر وحموا ممالكهم من هجوم سائر الأقوام الوحشية بهذا التدبير ويحتمل أن تكون الخرابة المسماة قاخانوغور وديشجه بقرب خارقف والخرابة المسماة بخازارسكي بقرب وورونز من خرابات سائر مدن الخزر التي لم نطلع عليها.

وكانت الخزر أولاً وثنيين ثم تهودوا في العصر الثامن الميلادي إلا أنهم لم يلبثوا على اليهودية إلا قليلاً حتى تنصروا في سنة ٨٥٨ م^(٣) قال وهل يظن أنه خطر ببال الخزر الذين بلغوا من القوة والشوكة إلى حيث لم يزالوا يغيرون على بلاد الفرس وينهبونها ويخيفون أعظم خلفاء العرب ويجرون سيطرتهم ونفوذهم على قياصرة الروم انقراضهم وانمحاءهم وهلاكهم واستيصالهم من طرف طائفة أسلاوان الذين كانوا من أقل عبيدهم^(٤) وكان ازدياد قوة أسلاوان في طرف الجنوب نتيجة تبعيتهم للشمال يعني

(١) وهي مدينة بلنجر بالعربي وأصل هذا اللفظ بالتركي أما يبلغي يارا وبالانني يارا وما أشبههما إلا أن تعيين موضعها في مصب نهر اتل غلط بلا شبهة كما هو معلوم مما تقدم إلا أن يراد القرب والحذاء. منه عفي عنه.

(٢) وقد تقدم في بيان وقائع أفراسياب أنه قد كانت لهم أيضًا قلعة تسمى بهذا الاسم ولا يبعد كون المدينة البيضاء عبارة عنها يؤيده كونها مسماة عند الروسية ببلي ويژه كما سيجيء. منه عفي عنه.

(٣) وهذا مخالف لما مر سابقًا ومخالف للواقع بل كان تنصرهم سابقًا على تهودهم نعم يمكن أن يتنصر بعضهم منهم بعد ذلك أيضًا إلا أن عادة النصارى أن يكبروا ويعمموا مثل ذلك الأمر ما استطاعوا. منه عفي عنه.

(٤) نعم الأمر كذلك وهل خطر ببال التتار أو الروس حين كانت الروس تحت سيطرة التتار أن الروس يستأصلهم ويحكم عليهم ويسوم بقاياهم أنواع الذل والهوان كلا فعرقتنا أن حال الدنيا =

لأسلاوان الشمال واتحادهم بهم فإن الخزر كانوا لم يستملكوا الجهة الغربية من نهر أوفه وكان أسلاوان نوووغورود وكريوج وايلمين وميريه مستقلين بحكم أنفسهم.

وفي سنة ٨٦٢ م طلب هؤلاء الأسلاوان وجود سائر الأقوام الوحشية المشتتة هناك الإخوان الثلاثة (روريك) و(سينيوس) و(ترووار) من قبيلة روس من قوم واراغ من جنس سكندناوة المقيمين وراء بحر البلطقي يعني مملكة أسوج نروج ودعوهم إلى بلادهم ليملكهم أمرهم فجاء هؤلاء الإخوان الثلاثة بمن معهم من الأتباع والخدم والحشم فجعلوهم ملوكًا لأنفسهم وملكوهم أمورهم العامة فسميت تلك الأقوام الوحشية بعد ذلك كلهم وكذلك كل من لحقهم باسم الروس لكون ملوكهم المذكورين من قبيلة الروس.

[مبدأ ظهور الروسية]

فمبدأ الروسية التي يعرف كل أحد حالها الآن من التاريخ المذكور على الوجه المشروح وبعد ذلك شرعت تلك الأقوام الوحشية التي توحدت تحت اسم الروس في الانتشار والانبثاق إلى الأطراف والجوانب كتمدد الحية المتلطفة خصوصًا إلى جهة الجنوب وطفقت تمد أيدي التعدي والاستيلاء إليها وكان أول من صار معروضًا على تعرضهم وتعديهم هم الخزر وذلك أنهم صاروا يخابرون الأسلاوان الذين كانوا في الجنوب تحت طاعة الخزر بملاسة الجنسية وسار من قوم واراغ المذكور بعد مدة يسيرة من التاريخ المذكور اثنان نحو الجنوب أحدهما يسمى (اصكولد) والآخر (دير) وانتزعا بلدة كيف من أيدي الخزر فلم يزل القتال والحرب والضرب والسلب بين الخزر والروس إلى انقراض الخزر من أيديهم.

ولما مات روريك الذي هو أول ملوك الروسية وملك مكانه ولده اوليغ واستولى على كافة الأراضي التي بين نوووغورد وكيف وأخرج قوم راديمجي الذين كانوا تحت طاعة الخزر بالمحاربة من تحت طاعتهم انقادت له طائفة راديمجي الذين كانوا في شواطئ نهر صور بحسن اختيارهم وفي سنة ٨٨٥م أخرج اوليغ ولايتي ويتبسكي وجيرنيغوف من أيدي الخزر فإن خاقان الخزر لما كان مستغرقًا في المعيشة المدنية والزينة الشرقية^(١) التي كانت استولت على الممالك الإسلامية في العصر المذكور أخذًا

= انقلاب وإنها دارة كالدولاب. منه عفي عنه.

(١) وأخصر العبارة وأصدقها التعبير عنها بالسفاهة والحماقة والإسراف والإهمال التي صارت سببًا لانقراض دول كثيرة وسقوطها من شامخ العز وذرورة الشوكة إلى حضيض الذل والضعف وإلا =

عنهم من جهة وطال اختلاطهم بالروم وأهل خرصون واغترروا بكثرة تجارة توريد (قريم) وغناه وألفوا التنعم والتلذذ والراحة من جهة أخرى كان طراً الضعف والرخاوة على شجاعتهم الأصلية وتوجهت قوتهم وشوكتهم نحو التنزل والانحطاط.

ثم ذكر كارامزين ما نقلناه عن المسعودي من اتفاق الروس مع الخزر للدخول والهجوم على بلاد الإسلام نقلاً عن المسعودي وقال إن ذلك كان في سنة ٩١٢ م في عصر الكيناز اوليغ بن روريك^(١).

ثم قال إن إسواتصلاو كيناز الروس الرابع أخرج طائفة واتيحي من تحت طاعة الخزر بالمحاربة ثم استولى على قلعتهم المسماة سرقل (صاري قلعة) المار ذكرها بعد المحاربة الشديدة مع جيش الخزر الذين كانوا تحت قيادة خاقانهم واسم تلك القلعة بالروسية بيلي ويژه.

ويظن أن الروسية استملكت أيضاً ولاية تامو^(٢) طرخان وباسم آخر فناغوريا وممالكهم التي كانت في شرقي بحر أوزاق في العصر المذكور فإن هاتيك الممالك كانت كلها محسوبة من ممالك ولاديمير الذي كان كيناز الروسية بعد إسواتصلاو وكان ظل حكومة الخزر باقياً في توريد (قريم) فقط وكان كيناز الروسية الخامس ولاديمير الأول أعطى هذه الولايات ولده مسيتسلاو وبعد هلاك ولاديمير وجلس يارصلاو على مسند كينازية الروسية في سنة ١٠١٩ م طلب قيصر الروم من مسيتسلاو محو حكومة الخزر واستيصالها من قطعة قريم بالكلية وحين كانت دولة الخزر ذات قوة وشوكة التجأت الروم إليها ولاذت بها وخطبت مودتها ولو كانوا وثنيين ولما زالت قوتهم وشوكتهم تبرأوا منهم واستحبوا محوهم واستيصالهم مع أنهم كانوا في ذلك الوقت نصارى وصاروا أعوانهم في الدين فخرج قائد الروم بجيشهم إلى أرض قريم وانضموا إلى عسكر مسيتسلاو وهجموا على الخزر وأسروا خاقانهم المسمى غيورغي تسولا واستولت الروم على قريم واقنعوا مسيتسلاو بالذهب أو بالخدعة.

فبعد هذه الواقعة انقطعت حكومة الخزر من أوروبا بالكلية ولكنها دامت في آسيا بساحل بحر الخزر إلى العصر الثاني عشر من الميلاد وقد كتب «ليويت راووي» من

= فكل دولة تبلي بهجوم أعدائه ولا تنقرض. منه عفي عنه.

(١) وقد بينا هناك كونه غلظاً ناشئاً من قول المسعودي بعد الثلاثمائة من الهجرة. منه عفي عنه.

(٢) في مضيق بوسفور من سواحل بحر أوزاق ويقال لقبصبتها الآن بلدة كيرج. منه عفي عنه.

يهود أوروبا مدائح خاقان الخزر لإخوانه الدينية في سنة ١١٣٠ م يعني مصادفة سنة ٥٣٥ هـ أو التي بعدها.

فهذه حكومة الخزر العظيمة التي حكمت وقتًا ما على الأراضي الكائنة بين مصب نهر وولغا والبحر الأسود ونهري ينيير واوقه وأجروا فيها أحكامهم وسطوتهم نزلت إلى هذه الحالة بسبب هجوم (اصكولد) و (دير) و (اوليغ) و (ولاديمير) و (مستيسلاو) من جهة وهجوم تركمان بجاناك و قفجق و چركس الذين هم من جنسهم من جهة أخرى هجومًا متواليًا هكذا يقول كارامزين.

قلت إذا نظرنا من جهة الأسباب نقول وقعت إلى هذه الحالة من الإهمال وسوء التدبير وسوء الإدارة والانغماس في الترفه والتنعم والسفاهة كما مر بيانه آنفًا عن كارامزين نفسه وكما نشاهده إلى الآن ثم انقضوا بعد ذلك في وقت يسير من عالم الوجود بالكلية ولم يبق منهم شيء سوى اسمهم المشهور والظن الغالب أن انقراضهم بالكلية إنما كان عند خروج التتار كثيرهم وليس معنى انقراضهم بالكلية انعدام كل فرد منهم وهلاكه بحيث لم يبق منهم أحد فإن هذه الحال في هذه الأمة العظيمة محال بل المعنى انقلابهم وصيرورتهم إلى ملة غالبية بحيث لا يبقى بينهما فرق ويأخذ المغلوب اسم الغالب وصفته وشكله وعادته كما أن كارامزين ذكر انضمام أهالي سرقل (صاري قلعة) منهم إلى الروسية في عصر ولاديمير مانوماخ وبناءهم قلعة بهذا الاسم في أعالي نهر أوستره تذكرًا لقلعتهم السابقة ولا يبعد أن يكون أهالي حاجي طرخان من بقاياهم أو أخلاطًا منهم ومن غيرهم بل هو الظاهر الأقرب إلى الصواب ويؤيده اشتراكهم لطائفة قرايم وأهل قريم عمومًا في السيماء واللهجة وهل يشك أحد في كون قزاق دون بل أهالي الروسية الجنوبية عمومًا أخلاطًا...^(١) سائر الأقوام التركية الذين سكنوا هناك بالتعاقب...^(١).

٧ - [الباجناك أو البوشنق]

الباجناك أو بوشنق وربما يكتب بغير ألف...^(١) الباء والتاء في تواريخ الروسية يقال لهم بچينيغ وهؤلاء أيضًا قبيلة شهيرة من الأقوام التركية والقبائل التتارية الذين وردوا إلى القطعة المذكورة من آسيا وأسسوا هناك حكومة مستقلة مثل الخزر والقفجق والأوار وغيرهم ودامت حكومتهم هناك مدة مديدة وحاربوا

(١) بياض بالأصل مقدار أربع كلمات.

في تلك المدة من جاورهم هناك من سائر الأقوام من قبائل الترك والأجانب ولا سيما الروسية.

قال بعض فضلاء العصر إما من عنده وإما استنباطاً من أقوال بعض محرري الإفرنج أن أصل هؤلاء من ذرية بچين قان خان من خوانين المغول المذكور في شجرة الترك^(١) لأبي الغازي خان ويؤيده وقوع هذا الاسم في تواريخ الروس بپچينغ كما ذكرنا ويكون ما سواه من الألفاظ معرباً ومحرفاً منه ويرى مساكنهم على بيان بعض جغرافي المسلمين في شرقي بحر الخزر ومملكة الخزر وعلى قول بعضهم ترى في غربي مملكة الخزر ولكن الكارامزين يعين موضعهم في الروسية الجنوبية بلا التباس كما سيأتي بيان كل ذلك فإن لم يكن ما ذكره بعض جغرافي المسلمين من تعيين مساكنهم في شرقي بحر الخزر غلطاً يحمل على أنهم كانوا أولاً هناك ثم جاؤوا بعد ذلك الموضوع الذي عينه كارامزين ويصرح ابن الفقيه^(٢) بذلك على ما سيأتي وهو الظاهر من أحوال الأقوام الشرقية في تلك القرون من المهاجرة والمهاجرة دائماً ويؤيده تعبير كارامزين عنهم بتركمان.

قال أبو عبيد البكري الأندلسي^(٣) في كتابه الممالك والمسالك: وأما البجاناكية فالطريق إليهم من الجرجانية تسير اثني عشر فرسخاً إلى جبل يقال له جبل خوارزم وهم أي البجاناكية قوم سيارة يتبعون مواقع القطر والكلأ وطول أرضهم مسيرة ثلاثين يوماً في مثلها وفي شمالهم بلاد القفجق وفي الجنوب بلاد الخزر وفي الشرق بلاد الغزية أي القرغز وفي المغرب بلاد الصقلب وهذه الأمم جميعاً دون البجاناكية وهم يغزونهم ولهم فروة ودواب وسوائم وأثاث من ذهب وفضة وسلاح ولهم مناطق محلات وأعلام وبوقات بدل الطبول وبلاد البجاناكية سهول كلها لا جبل فيها ولا معقل لهم فيحلون إليه وحدث جماعة ممن أسروا بالقسطنطينية من المسلمين أن البجاناكية كانوا على دين المجوسية فوقع عندهم بعد أربعمائة من الهجرة أسير من

(١) انظر إلى شجرة الترك ص ٥٥ وص ٦٠ طبع بيطربورغ وذكر عند ذكر أحفاد أغوزخان بچه بن كوك خان بن أغوزخان وقال إن معناه هو الساعي. منه عفي عنه.

(٢) ابن الفقيه: هو أحمد بن محمد بن إسحاق، المعروف بابن الفقيه الهمداني المؤرخ، توفي سنة ٣٤٠ هـ، له من المصنفات: «ذكر الشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفخمين»، «كتاب البلدان» نحو ألف ورقة (من معجم البلدان) (كشف الظنون ٦٢/٥).

(٣) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن مصعب، الحافظ، أبو عبيد البكري، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ، تقدمت ترجمته قبل قليل.

المسلمين فقيه عالم عرض على طائفة منهم الإسلام فأسلموا وصحت نياتهم وانتشرت دعوة الإسلام فيهم وأنكر عليهم ذلك سائرهم ممن لم يسلموا فآل أمرهم إلى الحرب فنصر الله المسلمين عليهم وكانوا في نحو اثني عشر ألفاً والكفار في أضعاف عددهم فقتلوهم وأسلم باقيهم فجميعهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وهم يسمون اليوم من وقع عندهم ممن استرقه صاحب القسطنطينية أو غيرهم الخوالص ويخبرونهم في البقاء عندهم على أن يجعلوه كأحدهم ويتزوج عندهم من شاء منهم وبين أن يلحقوه بماء منه اهـ ما ذكره البكري ووفاته على ما في كشف الظنون ٣٨٧.

قال بعضهم إن البجانك قوم في شمال الإقليم السادس بقرب الصقالبة وشواربهم ولحاهم طويلة ولهم كثرة وقوة ومنعة.

وقال في ترجمة عجائب المخلوقات إن البجانك لهم أغنام كثيرة سمينه جداً بحيث تجر إليها في الأرض ويكثر عندهم نزول الثلج وقد نزل بهم رسول المقتدر بالله إلى البلغار ثم ذكر بعد ذلك قصة من الخرافات.

وقال ابن الفقيه^(١) في كتاب البلدان وقد انقطع طائفة من الأتراك عن بلادهم فصاروا فيما بين الخزر والروم يقال لهم البجاناكية وليس موضعهم بديار لهم على قديم الأيام وإنما اتابوا بها فغلبوا عليها اهـ.

قال كارامزين في خلال بيان تملك إيغور بن روريك الذي هو الثالث من كينازات الروسية إن إيغور بن روريك وإن تمكن من الجلوس في كرسي الحكومة وأدب أسلاوان دريولان العصاة في سنة ٩١٢ م ولكن ظهر بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنين يعني في سنة ٩١٣ م مصادفة سنة ٣٠٢ هـ أو بعدهما قوم في حدود الروسية يسمى بچينينغ وقد ذكروا في تواريخ الروس والروم والماجار من العصر العاشر إلى العصر الثاني عشر من الميلاد بالشهرة وقبل أن نضعهم في تياترو التاريخ^(٢) لزمنا أن نبحث عن أصلهم وفصلهم.

يجري من شرقي الأراضي التي تسمى الآن بمملكة الروس أنهاراً يرتش وطوبل وأورال وولغا وقد خرج من الولايات والكورة الكائنة بين تلك الأنهر وسواحلها أقوام كثيرة جسورة مدهشة إلى الغاية بعضهم عقيب بعض عصرًا بعد عصر وحينًا بعد حين

(١) ابن الفقيه: هو أحمد بن محمد بن إسحق، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ. تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٢) تياترو التاريخ: أي مسرح التاريخ.

إلى قرون عديدة مديدة وقد أخافوا أقوام أوروبا وأزعجهم بهجماتهم المدهشة المتوالية دائماً وهؤلاء الأقسام الكثيرة يحتمل أن يكون بعضهم مخالفاً لبعض آخر من جهة اللغة ولكنهم كلهم متفقون ومتحدون من جهة الطبيعة والهيئة والصورة والمعيشة وكانت عاداتهم على العموم اقتناء المواشي والارتحال من مرعى إلى مرعى والاصطياد وهؤلاء الأقسام هم الهون وأوغر^(١) وبلغار وآوار والترك وقد انقرض كلهم وغابوا في أوروبا يعني انقلبوا إلى أقوام آخر من أهل أوروبا غير أوغر والترك منهم قوم (اوز) (اوغر) وپچينغ الذين هم قبيلة واحدة مع التراكمه من هؤلاء الأقسام أيضاً وكان قوم اوز^(٢) يسكن سابقاً بين نهري وولغا ودون وكان قوم پچينغ مجاورين لهم فضيق عليهم قوم اوز وطردوهم من سهول سراطا و (صاري طاغ أو صاري اطاو) فتوجه پچينغ بعد ذلك نحو الغرب واستملكوا ولاية لبيدية التي كانت اوغر استملكوها أولاً وبعد أن أقاموا هناك سنين غزوا قوم اوغر (ماجار) في بيسرايا (مولداويا ولاخيا) واضطروهم إلى تركها والانسحاب إلى بانونيا (ماجارستان الحاضرة) واستولوا على الأراضي الكائنة بين نهري دون وآلوتة الذي هو شعبة من نهر طونة وانقسموا إلى ثمانى ولايات مستقلة كانت أربعة منها في شرقي نهر دينبير بين الروس والخزر وأربعة أخرى منها كانت في غربيه بولايتي مولداويا وترانسيلوانيا مجاورين لطائفة أسلاوان الكائنين على نهر بوغا بقرب غاليتسيا التابعين لحكومة كيف الروسية وكان مطلوبهم وبغيتهم الخاصة أراض ذات عشب ومروج لمواشيهم والمملكة الغنية لأخذ الغنائم منها بالغزو والحرب وكانوا مشهورين بجودة خيولهم وسرعة سيرها وحدة حواسها وكانوا يحيطون بأعدائهم باستعمال الرماح والسهم في طرفه عين وكانوا يخفون من عيون أعدائهم في لمحة أيضاً إذا ضويق عليهم وكانوا يعبرون النهر الكبير العميق فوق خيولهم سابحة وتارة كانوا يستعملون جلود الحيوان الكبير (الطولوم والقربة) مكان السفينة وكانت ألبستهم ألبسة الفرس ويحتمل أنهم قصدوا بلدة كيف أيضاً إلا أنهم كانوا يتحاشون ويجتنبون عن محاربة عسكر قوي

(١) أوغر عبارة عن ماجار وبلغار فعطف بلغار عليه من قبيل عطف الخاص على العام ولذلك لم يعدهم من الأقسام الباقية مع أنهم منهم وذلك لدخولهم في أوغر وكذلك من الباقية ففجق وبيجاناك فإن بجاناك هم البوشنق لا غير كما سيأتي. منه عفي عنه.

(٢) وقد بقي إطلاق لفظ أوزي على دينبير عند العثمانة إلى الآن نسبة إلى قوم أوز هؤلاء وقول بعضهم أن اوز اسم لمطلق النهر عند قدماء الترك ثم أطلق على هؤلاء القوم أخذاً عنه لاختصاصهم به غلط محض بل الأمر بالعكس والذي هو اسم لمطلق النهر هو أوزون بالنون بعد الزاي المفتوحة وهذا الإطلاق باق إلى الآن عند أهل قزان وقزاق. منه عفي عنه.

فلهذا توجهوا نحو مولداويا وبيسرابيا اللذين كان يسكن فيهما أوغر وبلغار الذين هم من جنسهم ومن أوطانهم وقد أورث، هؤلاء هناك دهشة عظيمة وكانوا يخدمون الأجانب بالأجرة ليتغلب بعضهم على بعض وقد استأصل الأقبام الذين كانوا هناك بعضهم بعضًا بمعاونة هؤلاء إياهم وقد بذل لهم الروم خزائن جمّة من الذهب ليقتلوا قوم أوغر وبلغار والروس.

قلت الفولاذ إنما يقطع بالفولاذ فلو لم يحارب هؤلاء بعضهم بعضًا بل اتفقوا على محاربة الأجانب فهل يبقى حينئذ لأحد شبهة في تقليبهم ممالك أوروبا ظهرًا إفناء البطن كما كان في عصر آتيللا كلا ولم تحدث فيهم هذه العادة السيئة في العصر المذكور فقط بل كانت موجودة حين محاربتهم الصين والفارس أيضًا شنشنة أعرفها من أحزم. وعساكر الترك الذين اشتهروا في بداية أمر الخلفاء العباسية بالأترك العبيد لم يكونوا عبيدًا حقيقة بل كانوا من العساكر المستأجرين وهذه العادة السيئة أعني إفناء بعضهم بعضًا باقية إلى يومنا هذا في الأقبام الشرقية عمومًا وفيمن يدعون منهم الإسلام خصوصًا لا حاجة إلى بيانهم تراهم في كل كورة أجلت فيها نظرك مصداق قول القائل شعر:

حولي بكل مكان منهم خلق تخطى إذا جئت في استفهامهم بمن

إنا لله وإنا إليه راجعون رزقنا الله سبحانه الإدراك والبصيرة.

ثم قال كارامزين في شأن الخوالص الذين مر ذكرهم قريبًا نقلًا عن البكري كان قوم في جهة الخزر من بلغار قران يسمون خوالص وكانوا متحدين ببلغار قران جنسًا ودينًا وكان بحر الخزر يسمى وقتئذ ببحر الخوالص أو الخوالين^(١) نسبة إليهم اهـ.

قال المسعودي^(٢) أثناء بيانه الأقبام الذين في أطراف باب الأبواب وجبال كافكازيا وأثناء تعداده القبائل التركية المتصلة بالخزر يلي بلاد الخزر فيما بينهم وبين المغرب أمم ترك ترجع إلى أب واحد وبدء أنسابهم حضر وبدو ذو منعة وبأس شديد لكل أمة منها ملك مسافة مملكته أيام متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطنش (بحر الأوزاق والأسود) وتتصل عماراتها بمدينة رومية وبما يلي بلاد الأندلس مستظهرة على

(١) وحيث إن سمت قصبه خوالين التابعة لولاية سراطا وموافق لسمت الأقبام المذكورين على بيان كارامزين لا بعد في أن نقول إن اسمها باق من ذلك الوقت ومن القوم المذكورين وإن بعدت عن بحر الخزر والله سبحانه أعلم منه عفي عنه.

(٢) انظر مروج الذهب ٢٠٩/١ - ٢١٩.

سائر ما هنالك من الأمم وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة وكذلك مع صاحب اللان وديارهم تتصل ببلاد الخزر فالجيل الواحد منهم يقال له يحيى ثم تليها أمة ثانية يقال لها جمرود (والظاهر أنها مجرود) ثم تليها أمة ثالثة يقال لها البوكرده ثم تليها أمة يقال لها بجنك وهي أشد هذه الأمم الأربعة وملوكهم بدو وكان لهم حروب من الروم بعد العشرين والثلاثمائة أو فيها وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها وليدر^(١) فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والشجر إياهم ومن في هذه المدينة وكان بين هؤلاء الأجناس حروب بخلاف وقع بينهم على رأس رجل تاجر مسلم من أرض أردبيل كان نازلاً على أرض بعضهم فاستضافه ناس من الجيل الآخر فاختلفت الكلمة وأغار من في وليدر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف فسبوا كثيرًا من الذرية وساقوا كثيرًا من الأموال ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم فاجتمعت كلمتهم وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء وعمد القوم جميعًا نحو مدينة وليدر فساروا إليها في نحو ستين ألف فارس وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع ولو كان ذلك لكانوا في نحو مائة ألف فارس فلما نمى خبرهم إلى أرميوس ملك الروم سير عليهم اثني عشر ألف فارس من المنتصرة على الخيول بالرمح في زي العرب وأضاف إليهم خمسين ألفًا من الروم فوصلوا إلى مدينة وليدر في ثمانية أيام وعسكروا وراءها ونازلوا القوم وقد كانت الترك قتلت من أهل وليدر خلقًا من الناس وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد.

ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المنتصرة والروم بعثوا إلى بلادهم، فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار. فلما تصاف القوم وبرزت المنتصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قبل الترك من التجار المسلمين فدعوههم إلى ملة الإسلام وإنهم إن دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام فأبوا ذلك وتوافق الفريقان في ذلك الوقت فكانت النصرة للروم على الترك، لأنهم كانوا في الكثرة

(١) ولم أدر اسم هذه المدينة الأصلي وللروم هناك مدينة خرصون وبوسفور وأولويا كما تقدم. منه عفي عنه.

أضعاف الترك وباتوا على مصافهم. وتشاور ملوك الترك الأربعة فقال لهم ملك بجناك قلدوني التدبير في غداة غد فانعموا له بذلك فلما أصبح جعل في جناح الميمنة كراديس^(١) كثيرة كل كردوس منها ألف وكذلك في جناح الميسرة فلما تصاف القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى موضع من خرج من جناح الميمنة (هكذا في الأصل والصواب الميسرة ومن في الميسرة إلى موضع من خرج من جناح الميمنة) واتصل الرمي واتصلت الكراديس كالرحاء والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة والكراديس تعمل عليها في ألف ألف وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدىء فيرمى في جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهي إلى القلب وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى في جناح ميمنة الروم وينتهي إلى الميسرة فيرمى وينتهي إلى القلب فيرمى فيكون ملتقى الكراديس في القلب دائراً على ما وصفنا فلما نظرت الروم والمنتصرة إلى ما لحقهم من تشويش صفوفهم وتواتر الرمي عليهم حملوا على القوم مشوشين في مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم الكراديس فرشقتهم الترك كلها رشقاً واحداً فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم وعقبهم الترك بعد الرشق بالحملة على صفوفهم غير مشوشين ما كانوا عليه من التعبية وركضت الكراديس من اليمين والشمال وأخذ القوم السيف واسود الأفق وكثر صياح الخيل فقتل من الروم والمنتصرة نحو من ستين ألفاً حتى كان يصعد إلى سور المدينة على جثثهم فافتتحت المدينة وأقام السيف يعمل فيها أياماً وسبى أهلها وخرج عنها الترك بعد ثلاث يؤمون القسطنطينية ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلاً وأسراً وسبياً حتى نزلوا على سور القسطنطينية فأقاموا عليها نحواً من أربعين يوماً يبيعون المرأة والصبي منهم بالخرقة والثوب من الديداج والحرير وبذلوا السيف فلم يبقوا على أحد منهم وربما قتلوا النساء والولدان وشنوا الغارات في تلك الديار فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة ورومية ونحو بلاد الأندلس والإفرنجة والجلالفة (دانيمارقه) اهـ.

بيان معاملة البجاناك مع الروس ومحارباتهم إياهم

قال كارامزين بعد قوله السابق في بجاناك واضطرت الروسية أيضاً إلى طلب موادة هؤلاء البجاناك فإن اختلاطها بالروم وتجارتها معهم من غير خوف ومعيشتهم

(١) كراديس: جمع كردوس وكردوسة، والكردوسة: طائفة عظيمة من الخيل أو الجيش. وكردوس القائد الخيل أو الجيش: جعله كراديس.

في نفس مملكتهم بالاطمئنان والراحة كانت مربوطة بمواددتهم فإن كلا من مصبي دينير وطونة اللذين هما بابا القسطنطينية وعتبتها كان بأيديهم ومع ذلك كان فيهم كمال الاقتدار على سلب راحة الروسية واطمئنانهم بالإغارة عليها من طرفي نهر دينير ونهبها وتخريبها وفضلاً عن ذلك كان تقوى حكام الكيف باتفاقهم ومعاونتهم سهلاً جداً.

وهذا التدبير الاضطرابي السيء المبني على الغرض المذكور دام مدة أزيد من ٢٠٠ سنة متلبساً بصور مختلفة وبعد أن عاهدوا ايغور كيناز الروسية تركوا الروسية على راحتهم مدة خمس سنين قال نيسطور إن أول محاربتهم الروسية كانت في سنة ٩٢٠ ولكنه لم يخبر عن نتيجة هذه المحاربة. وفي أثناء محاربة اسواتصلاو بن ايغور بلغار طونة في سنة ٩٦٧ حين حكومته بالروسية هجمت البجانك على الكيف فاضطر اسواتصلاو بعد سماعه ذلك إلى الرجوع. وفي أثناء عودته مغلوباً من يد تصميميخي (دمستق) قيصر الروم حين هجومه على البلغار ثانياً في سنة ٩٧٢م يعني مصادفة سنة ٣٦٢هـ قتله البجانك وقطعوا رأسه وجعل خانهم قوراقبة رأسه طاسة وظرفاً لشرب الماء والشراب فيها.

وفي عصر ولاديمير هجموا على ولاية كيف ورجعوا عنها منهزمين لقصة خرافية نقلها كارامزين عن نيسطور مع التردد في صحتها. ثم هجموا بعد ذلك على الروسية وغلبوهم ونجا ولاديمير برأسه بعد أن عاين الموت مخفياً تحت الجسر. ثم هجموا بعد ذلك عليها حين كان ولاديمير بنو وغورد ونقل هنا أيضاً حكاية خرافية عن نيسطور في بيان سبب نجاة أهل الكيف منهم ولا يصدقها. ثم هجموا عليها في سنة ١٠١٥ م وكان ولاديمير مريضاً بمرض الموت فأرسل لمقابلتهم ولده المحبوب بوريس فهلك ولاديمير في تلك الأثناء وجلس مكانه في كرسي حكومة الروس اسواتوبولك فأمر بقتل ابن عمه بوريس فقتلوه بساحل نهر آوته حين عودته عن محاربة بجانك. ولما قصد يارصلاو بن ولاديمير الذي كان عصى أباه في حياته أسواتوبولك ابن أخيه ياروبولك وسار إليه بعساكر نووورد دعا اسواتوبولك البجانك إلى الاتفاق معه ولكن انهزم أسواتوبولك عن يارصلاو قبل وصول البجانك لإمداده وكان ذلك في سنة ١٠١٦ م.

ولما استمد أسواتوبولك بالنمسا والماجار في سنة ١٠١٨ م على يارصلاو دعا البجانك ثانياً إلى الاتفاق معه فهرب يارصلاو. ولما هجم يارصلاو إلى كيف ثانياً في

سنة ١٠١٩ هرب منها أسواتوبولك إلى بجانك وهجم معهم إلى كيف ولكنهم انهزموا فهرب أسواتوبولك إلى بوهيا وهلك هناك.

ولما هجمت البجانك إلى كيف في حدود سنة ١٠٣٠ جاء يارصلاو بعسكر نووغورد وواراغ فوقعت بين الفريقين محاربة شديدة انتهت بانهزام بجانك وقد غرق أكثرهم في نهر دينبير ولم ينج منهم إلا القليل فتخلصت الروسية بعد ذلك من مهاجمتهم الشديدة إلى الأبد فبنى يارصلاو في موضع المعركة ومحل غلبة الروس كنيسة عظيمة من الحجر تذكارة لتلك الغلبة الظاهرة ووسع بلدة كيف إلى الموضع المذكور وبنى في أطرافها سورًا من حجر وسمى بابها الكبير بباب الذهب وسمى الكنيسة المذكورة بآياصوفيا وميتر پولسكي تشبيهاً لبلدة كيف بالقسطنطينية.

ولما تملك ياروبولك بن ولاديمير مانوماخ وعصاه بعض الطوائف من الروسية أرسل إليهم في سنة ١١٣٩ م مصادفة سنة ٥٣٤ هـ فرسان البجانك وفي سنة ١١٦١ م مصادفة سنة ٥٥٧ هـ جاؤوا لإعانة الكينازر وصيتسلاو حاكم الروسية.

وهذا آخر ما ذكره كارامزين من أحوالهم ولا أدري كيف صار أحوالهم بعد ذلك وأنا لا أشك في كون قوم بوشنق الموجودين الآن من بقاياهم وإن ظن أن تسميتهم ببوشنق إنما هي بالأخذ من لفظ باشنيا بمعنى المنارة لوجودها في تلك المملكة أو بالأخذ من اسم نهر هناك فإن ذلك مما لا دليل عليه وقرب الاسم والموضع بل اتحادهما أدل دليل على ما قلنا بل كثير من الأقوام الذين يعدون الآن هناك من أسلاوان من بقايا الأقوام التركية الذين قطنوا هناك ثم انقروا والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

٨ - القفجق

أصله التركية بالباء الفارسية بدل الفاء ولما عَرَبَ أبدلت فاء وربما نكتبه على أصله ولا حرج وقد حرف إلى ألفاظ آخر أيضًا سوى ذلك وهم أعني القفجق قبائل كثيرة شهيرة من بين الأقوام التركية وقديمة جدًا باقية من عصر أوغوزخان على قول أبي الغازي خان الآتي ذكره ولهم معاملات ومحاربات كثيرة مع الروسية أكثر من معاملات من سواهم من الأقوام التركية حتى تكررت بينهما المصاهرة وبذلك صارت لحمة الروسية من التركية مع الاشتباه في سداها وقد تسلطن أنفار منهم في الديار المصرية والشامية بعد أن استجلبوا هناك أرقاء مملوكين بالألطف والتوفيق والتأييدات الإلهية وصدرت عنهم في خدمة الدين الإسلامي وحماية حوزته وحفظ

بيضته هممات عالية وغيورات سنية ومساع مشكورة ومواقف محمودة في صحائف التواريخ مسطورة وإلى يوم القيامة على الألسنة جارية مذكورة.

أولهم ركن الدنيا والدين الملك الظاهر بيبرس والملوك القلاونية بعده وهم المشهورون في التواريخ بملوك الأتراك والموالي وبقاياهم موجودة إلى الآن في برية القزاق المنسوبة إليهم سابقًا خصوصًا في أطراف طرويسكي وأوركانج وخوقند ويعدهم كارامزين من قوم قومان المشاهير ومتحدًا بهم ويطلق عليهم في تاريخه تارة لفظ القفجق وتارة لفظ القومان وتارة يعبر عنهم بكلا اللفظين ونهر قوبان الذي يجري من شرقي بحر أوزاق ويصب فيه يمكن أن يكون وجه تسميته به نسبتبه إليه غاية ما في الباب يكون باؤه مقلوبًا من الميم وكذلك كون نهر قاما منسوبًا إليهم يرى في بعض التحريرات الكائنة في هذا الصدد.

قال أبو الغازي خان في بيان مبدأ ظهورهم ووجه تسميتهم بالاسم المذكور مات واحد من مقربي أوغوزخان في بعض مغازيه وبقيت زوجته حاملًا ولما حان وضع حملها لم تجد بيتًا تضع فيه حملها وكانت الهواء باردة فدخلت جوف شجرة مجوفة ووضعت فيه حملها ولما بلغ ذلك مسامع أوغوزخان سمى الولد المذكور بقفجق لتسمية قدماء الأتراك الشجرة المجوفة به^(١) وضمه إلى نفسه ورباه مع أولاده ولما عصت الروس واولاخ وماجار وباشقرد اوغوزخان وخرجوا عن طاعته وبغوا عليه وقد كبر الولد المذكور في ذلك الوق أرسله بعسكر كثير لمحاربتهم وتربيتهم وردهم إلى الطاعة نحو سمت نهري ايدل وتون (دون) فسار إليهم وردهم إلى الطاعة وتسلمن هناك مدة ثلاثمائة سنة وقبائل قفجق كلهم من نسله وذريته ولم يكن في سواحل نهر دون وايدل وجايق قوم من الأقوام سوى قفجق من لدن عصر أوغوزخان إلى عصر چنكرخان فتصرفوها مدة ثلاثمائة سنة (وفي نسخة أربعة آلاف سنة وهذا هو الحق إن صححت هذه القصة وثبت قدم أوغوزخان وسيجيء ذكره في المقصد الثاني) من غير مشاركة أحد لهم فيها ولأجل هذا سميت تلك الأراضي بدشت قفجق يعني برية قفجق نسبة إليهم اهـ.

والحاصل أنه لما كانت لهم وقتًا ما في البرية التي تسمى الآن بيرية قزاق وقرغز سلطنة وشوكة ومزيد اشتهار عند جيرانهم الفرس بالنسبة إلى اشتهار من سواهم من

(١) وإلى الآن يقال للشيء الأجوف اللين عند أهل القزان قوبشاق وكوبشك ولا شك أن لفظ كاشاك عند العثمانيين محرف منه. منه عني عنه.

الأقوام التركية القاطنين هناك سميت البرية المذكورة عموماً بالنسبة والإضافة إليهم بدشت قفجق الكائن بمعنى برية القفجق وصار هذا الاسم علماً غالباً لها لكثرة تعبير الفرس عنها به ولما وقعت تلك البرية برمتها على حصة جوجي وولده باتو بعد خروج التتار وتقسيم چنكزخان الربع المسكون بين أولاده الأربعة وأسسوا كرسي سلطنتهم بلدة سراي بناحية من تلك البرية من جهة ومحوا سلطنتهم من ديار قريم باستيلائهم عليها وضموهم وقلبوهم إلى أنفسهم بحيث لم يبق بين الفريقين فرق ما من جهة أخرى سميت سلطنة جوجي وباتو وأولادهما بسلطنة قفجق أيضاً كما سميت بسلطنة التتار وغيرهما، كما سيأتي في موضعه، وسلطنتهم التي أسسوها أخيراً بعد أن صاروا معروضين لتقلبات كثيرة مملكة قريم وسواحل نهري دون ودينبير وقد صدرت عنهم هناك معاملات ومحاربات ومصالحات ومصاهرات مع الروسية بملاسة الجوار وامتدت تلك الأمور إلى ظهور التتار واستيلائهم على أراضيهم وامحاء سلطنتهم بالكلية.

وكان كرسي سلطنتهم حين كانت سلطنتهم بقريم بلدة سوداق التي بقيت بقيتها إلى الآن بساحل البحر الأسود بين يالنا وكفه وفي التركستان بسفح جبل مسمى بقراطاغ هناك من جهته الشمالية داخل ولاية يتي صو المسماة الآن بالروسية سيميرجينسكي قرية تسمى أيضاً سوداق يحتمل أن تكون هي أيضاً باقية منهم وذهب بعض فضلاء عصرنا إلى أن صوغداق كان عند قدماء الترك اسماً لقبيلة أو رتبة ومنصب وذهب إلى كون أصل صغد سمرقند أيضاً هو هذا الصوغداق وليس بعيد سواء كان رأيه أو أخذه عن غيره.

[معاملات قفجق مع الروس]

ولنبين الآن معاملاتهم مع الروسية نقلاً عن كارامزين.

وقال كارامزين: قفجق أو قومان بالوتيست يعني بالروسية دخل هؤلاء القوم في سنة ١٠٥٥ م مصادفة سنة ٤٤٧ هـ ولاية پريصلاول وكان رئيسهم وقتئذ شخصاً يسمى پالوت (صوابه پولاط سموهم الروس بالنسبة إليه بالوتسيا وكثيراً ما يذكرونهم بذلك كما ستطلع عليه أثناء البيان) فصالح المذكور كيناز الروسية وصبو ولود وكان هؤلاء من جنس البجاناك والظن أنهم من جنس قرغز الموجود الآن أيضاً وكانوا يسكنون سابقاً في براري آسيا وبقرب بحر الخزر على حالة البداوة الرحلة والنزول ولما دخلوا هناك يعني ولاية پريصلاول شرعوا في تضييق قوم اوز (اوغوز) الذين هم من بقايا قوم

ذكروا في التواريخ بعنوان الترك (يعني قوم الخاقان ديزابول المار ذكره واتباعه) واضطروهم إلى الانسحاب إلى سواحل نهر طونه فمات كثير منهم هناك من الوباء وانضم بقيتهم إلى اليونان والروم وامتزجوا بهم وطردهوا البجانك أيضًا من مساكنهم واستملكوا سواحل البحر الأسود إلى مولداويا وأخافوا كافة الحكومات في جوارهم مثل الروم وغيرهم وادهشوهم وأخلاق هؤلاء تبين في تواريخ الروس باردة حيث إن سفك الدماء عندهم كان بمثابة اللعب فضلاً عن النهب والغارة وكانت إقامتهم في الأخبية والخيام وكانوا يأكلون اللحم النيئ ويشربون شرابًا حاصلًا من لبن الرماك (يعني القمزم).

ولا شك أن المصالحة بمثل هؤلاء القوم لا تبقى مدة كثيرة ولهذا إنهم لم يصبوا بعد وقوع المصالحة بينهم وبين الروس إلى مجيء أوان الربيع الذي ينتعش فيه الحشرات بل أغاروا على الروسية في سنة ١٠٦١ م تحت قيادة رئيسهم سيقال وانصبوا عليها انصباب المطر وانتصروا على وصيولود وأخذوا غنائم كثيرة ورجعوا إلى نهر دون وهجموا أيضًا في سنة ١٠٦٤ م مجددًا وانتصروا على كيناز الروسية ايزاصلوا وإخوته واضطروهم إلى الفرار وبعد ذلك غلبوا مرة من الروسية ثم أغاروا عليهم ونهبوهم في ساحل نهر ديصنه.

وفي سنة ١٠٧٧ استمد أوليغ الكيناز الروسي بالقفجق على الكيناز ايزاصلوا فقتل واستولى على جيرنينغوف. وفي التالية لها صالحوا الكيناز وصيولود في پريصلاول وقتلوا الكيناز رومان أخا الكيناز أوليغ وأرسلوه يعني الكيناز أوليغ إلى الروم وبعد ذلك بقليل انتصر الكيناز وصيولود على الأتراك المقيمين في أطراف پريصلاول وطردهم القفجق من أطراف نهر ديصنه وحرول.

وفي سنة ١٠٩٢ هجمت القفجق على الروسية من جانبي نهر دون ونهبوا وخربوا وأحرقوا بالنار واستولوا على بلدة پيصوحين بساحل نهر صوبو وعلى بلدة پيروولوك بساحل نهر بورصقلي ولما مات وصيولود كيناز الروسية في سنة ١٠٩٣ وجلس مكانه الكيناز اسواتوپولك أرسلت القفجق إليه سفيرًا يطلبون منه المهادنة فحبس أسواتوپولك سفيرهم بناء على ضعف رأيه فشرعت القفجق في الإغارة على ولاية كيف ونهبها وإحراقها بالنار انتقامًا فاضطر اسواتوپولك إلى طلب الصلح منهم ولكن القفجق لما كانوا مطلعين على طبائع الروس الغدارة لم يصغوا إلى طلبه واستمروا على ما هم فيه من النهب والغارة والتخريب وبعد ذلك اتفق حكام الروس كلهم على مدافعتهم وقد كان قبل ذلك من مدة مديدة بينهم شقاق ونفاق، ولما

قابلوهم انكسروا أقبح انكسار وولوا الأدبار وهلك من نجا منهم من القتل بسيوف القفجق مع رئيسهم روصيتصلاو مغروقين في نهر اوستوغنو ونجى الكيناز ولاديمير مانوماخ من طرف واحد من عسكره بعد أن عاين الموت بعينه فاستولت القفجق على بلدة تورجيسك فخربوها وأسروا أهلها وكانت معمورة بقوم من الترك^(١) تركوا معيشة البداوة واختاروا الحضارة تابعين للروسية ثم توجهت القفجق بعد ذلك نحو الكيف فخرج أسواتوبولك للقائهم فوقع القتال بين الفريقين بقرب كيف فقتل من معه من العساكر عن آخرهم فرجع إلى الكيف بنفرين من العسكر وتحصن فيها ولما آيس من تخليص مملكته من القومان بالقوة تشبث لذلك بسبب آخر وهو أنه تزوج ابنة طهراو طغرل خان القفجقي وهذا الازدواج وإن كان معفوًا لكونه في سبيل تخليص المملكة عن التخريب لكنه لم يترتب عليه فائدة ما فإن الكيناز أوليغ اتفق معهم وهجم بإمدادهم على الروسية وحاصر بلدة چيرنيغوف واضطر الكيناز ولاديمير إلى الخروج منها مع أهله وعياله والمجيء إلى پريصلاول.

وبعد ذلك صالح قائدان من قواد قومان المسميان آتيليا وكيان في سنة ١٠٩٥ م الكيناز ولاديمير مانوماخ وأخذ لولده أسواتصلاو رهناً للأمنية وكان كيتان يقيم بقرب البلد بلا خوف وآتيلار كان يقيم في بلدة راتبار من ولاية پريصلاول ضيفًا ومسافرة فأشار مقربوا ولاديمير الوحوش وأركان دولته العارون عن المدنية والإنسانية إليه بنقض العهد المقدس ومخالف قاعدة إكرام الضيوف التي هي ليس بأقل من التقديس عند الأتراك من العهد وحسنوا له الفتك بكيتان وآتيلار وبمن معهما من القفجق قاطبة غيلة واتفقوا على ذلك فخرجوا في نصف الليل من البلد مع الأتراك التابعين لهم مسلحين وحملوا على كيتان ومن معه على الغفلة وهم في أعز النوم وألذه ليس عندهم خبر عن شيء قط وقتلوهم عن آخرهم كالوحوش الضارية وأخذوا أسواتصلاو وسلموه إلى أبيه ولاديمير، وكان آتيلار يأكل الغذاء في صباح الليلة المذكورة وليس له خبر عما جرى فرماه أوليغ بن راتيبور بسهم من ثقب كان أعد لذلك الأمر فقتله ثم قتلوا كافة من معه من وجوه القفجق وأعيانهم وأعلنوا بالارتكاب على مثل هذا الغدر الشنيع ماهية الروس وحققتهم للعالم إن كان هنالك من لم يعلم ذلك وكانت الوقعة المذكورة في ٢٣ شباط^(٢) (فبرال) سنة ١٠٩٥ المذكورة يعني بعيد المصالحة والمعاهدة.

(١) وكونها كذلك مغلوبة من اسمها. منه عفي عنه.

(٢) يصادف ذلك أواسط صفر من ٤٨٩ سنة هـ. منه عفي عنه.

ولما تيقن أسواتوبولك وولاديمير مانوماخ أن القفجق ينتقمون منهم ويأخذون بثأرهم كما ينبغي بلا شبهة أغاروا على بلاد القفجق مجدداً واغتموا مقداراً من الخيل والألبسة وعادوا إلا أن القفجق أحرقوا قلعة للروس بساحل نهر أوصي تسمى يورق فجاء أهلها مع قسيسيهم بلدة كيف.

وبعد ذلك طلب أسواتوبولك وولاديمير مانوماخ من أوليغ كينازجير نيغوف أن يقتل ولد آتيلار الصغير الذي كان بقي بيده حين قتله أو يسلمه إليها فرد الكيناز أوليغ طلبهما لكونه خيانة بلا فائدة ولم يعطهما عسكريا المحاربة قومان فهجما على جيرنيغوف وانتصرا على أوليغ فخرج من جيرنيغوف وذهب إلى استاري دوب فذهبا هناك وحاصراه فيها فهجمت القفجق في تلك الأثناء على الروسية متفرقين إلى فرق فرقة منهم توجهت إلى بريستوف وأحرقت هناك قصر الكيناز وفرقة أحرقت قلعة بقرب پريصلاول. وحاصر طهراوطغرل خان الذي هو صهر أسواتوبولك مع عسكر القفجق بلدة پريصلاول التي هي كرسي سلطنة ولاديمير مانوماخ وموضع الغدر الباعث على هذه الفظائع فجاءها أسواتوبولك وولاديمير خفية وحملوا على معسكر طهرخان بغته وقتلوه مع ولده وكبراء القفجق وكانت هذه الواقعة في ١٩ حزيران (يونيه) من ١٠٩٥ السنة المذكورة.

وبينما كان حكام الروس يقيمون الفرح والسرور لأجل هذه الغلبة بل الغدر والخيانة هجم خان آخر من قفجق يسمى بوناق على كيف وكاد أن يستولي عليها ونهب الدير (المناستر) المسمى پچوارسكي ثم أحرقه وقتل الرهابين وانصرف بغنائم كثيرة.

[ذكر قوم بيريندي واستمداد الروس بقفجق

على ماجار وانتصارهم]

ذكر كارامزين في العصر والموضع المذكورين قوماً من الترك وسماهم بيريندي وظني أنهم من القوم المذكورين أولاً باسم اوزوترك. وبيريندي لفظ تركي معناه صار مغلوباً فيحتمل أن يذكروا بهذا الاسم بعد أن صاروا مغلوبين وتابعين للروس وذكر هنا أيضاً عدم اتفاق حكام الروسية ووقوع الخلف والمنافسة والرقابة بينهم وإن كينازهم الأعظم أسواتوبولك دعا الماجار وجلبهم إلى الروسية على أولاد روسيتصلاو وإن الكيناز داويد دعا بوناق خان القفجقي على أسواتوبولك وإن الانتصار كان في هذا الطرف بسبب تدبير بوناق خان وشجاعة رفيقه آلتون أوباوان الماجار انهزموا أقبح

انهزام وغرق أكثرهم حين فرارهم في نهرصان وتعقبهم بوناق خان مسافة يومين وإن فيلق الماچار بلغ أربعين ألفاً وإن قرانهم نجا بروحه بغاية الصعوبة وإن الماچار يدعون في تواريخهم أن بوناق خان حمل عليهم بغتة وهم نائمون وإن هذه الواقعة وقعت في سنة ١٠٩٩ م مصادفة سنة ٣٩٣ هـ.

وبعد ذلك انهزم داويد مرة أخرى من الكيناز استواتوپولك فأعانه البطل المشهور بوناق خان وهزم جيش استواتوپولك ولما انعقد عقد المصالحة بين أكثر حكام الروس في سنة ١١٠٠ بعد حدوث مجريات بينهم وقعت القومان في توهم هجوم الروسية على بلادهم بالاتفاق فصالحوهم عن اسم جميع خوانينهم في بلدة صاقوتوي وأخذوا الرهائن من الطرفين للاعتماد والوثوق ولكن الروسية نقضوا عهدهم في السنة الثانية بتحريض ولاديمير مانوماخ ونزلوا من نهر دينبير بالسفن ومن طرفيه من البر أيضاً إلى مصبه ثم تركوا سفنهم هناك وتوجهوا بعسكر كثيف نحو الشرق وبعد أن ساروا أربعة أيام متصلاً وصلوا إلى حراسهم المتقدمة الذين كانوا تحت قيادة آلتون أوبه المار ذكره آنفاً فحملوا عليهم بغتة وهم عنهم غافلون فهزموهم ثم هجموا كذلك بغتة على بواقينهم ووضعوا فيهم السيف واضطروا من بقي منهم إلى الفرار فقتل في هذه المعركة من كبار خوانين القفچق وشيوخهم (اورص) (واوبه) وتسعة عشر خاناً غيرهما ولم يتيسر مثل هذا الظفر والغلبة قبل هذا للروسية قط، وقد وقع في أسرهم واحد من خوانين القفچق يسمى بيلدوز فعرض عليهم أن يبيعوا له روحه وحياته بما شاؤوا من الذهب والفضة وترجى منهم ذلك ولكن لما كانت المرحلة والإنسانية منافية لمدينة الروس الجارية من بداية خلقتهم إلى يومنا هذا لم يقبله مانوماخ بل أمر بقتله وكان في الأسارى عدة من الترك والبجاناك الذين كانوا في خدمة القومان فأقامت الروس لهذه الغلبة أفراحاً عظيمة.

وفي سنة ١١٠٧ م ساق بوناق خان مواشي الروس من أطراف پريصلاول ودخلت القومان تحت رياسة قائدهم الهرم شارومن موضعاً يسمى لونب فهجمت الروس عليهم بالاتفاق على الغفلة بساحل نهر صولي واضطروهم إلى الفرار وأخذوا كثيراً منهم أسيراً ومع هذه الانتصارات لم تحصل الأمنية والأطمئنان للروسية بوجه من الوجوه فاضطر الكيناز أوليغ ومانوماخ إلى مصاهرتهم بخطبة بنات خوانينهم لأولادهم وتزوجهن منهم وقعت هذه الواقعة في ١٢ كانون الثاني من سنة ١١٠٨ م مصادفة سنة ٥٠١ هـ.

ولكن هذه المصاهرة لم تنتج أيضًا فائدة مطلوبة منها فإن الروس هجموا على بلاد القفجق في سنة ١١٠٩ وما بعدها واستولوا على قلاعهم ومشتاهم بساحل نهر دون ولم يكتفوا بذلك بل اتفق حكام الروس كلهم على القومان واستيصالهم لنفع أوطانهم بتحريض ولاديمير مانوماخ إياهم على ذلك وأكدوا اتفاقهم هذا بالأيمان المغلظة في الكنائس وتوجهوا في شباط سنة ١١١١ م نحو الجنوب فاستقبلهم أهالي بلدة أوجينيف الكائنة بساحل نهر دون بهدايا وأظهروا لهم الانقياد والاستسلام فلم يتعرضوا لهم وأحرقوا بلدة أخرى تسمى صوغروف وبقيت هاتان البلدتان إلى خروج التتار وكانت القومان انتزعهما من الخزر وأقاموا فيهما وفي ٢٣ مارت انتصروا على القفجق وعبدوا لذلك مع بلاغو وشنيه ولكن تجمعت القفجق وأحاطوا بهم من كل جانب بعد يومين وضيقوا عليهم وبعد قليل من الكر والفر تفرقت القفجق^(١) وعادت الروس إلى أوطانهم بغنائم كثيرة ولم يخطر ببالهم انتزاع المملكة المشهورة بأسامي بوسفور وفناغوريا وتاماتارخان التي كانت الروس انتزعتها من الخزر ثم انتزعتها القفجق من الروس سابقًا فتنوسيت تلك المملكة التي كانت قبل كورة مستقلة يحكم بها حاكم مستقل من الروس ومحي اسمها من الألسن بالكلية هكذا يقول كارامزين هنا ويظهر أسفه وحرقة قلبه لهذا القصور ويقبح فعل حكام الروس هذا مع أنه مضى عليه قرون كثيرة وصارت المملكة المذكورة من جملة ممالك الروس أو كادت أن تكون حين كتب ذلك نعم إن وظيفة المؤرخ ليس النقل المجرد بل أهم وظيفته المحاكمة والتنقيد.

ثم قال: وكان لكيناز داويد بن ايغور الذي نال الإعانة من القومان مرارًا عديدة مشتركًا لسائر حكام الروس في هذه الواقعة ثم ذكر موت الكيناز سواتوبولك بعدها بسنتين وذكر نبذة من مثالبه ومعايبه وصعود ولاديمير مانوماخ على كرسي الكينازية العظمى وإغارة ولده الثالث ياروبولك على القفجق الساكنين بأطراف نهر دون واستملاكه منهم البلاد الثلاثة المسماة ببالين وچيشلوي وصوغروف وأخذه أسرى كثيرًا منهم ومن قوم ياصه وإن ولاديمير مانوماخ طرد في الوقت المذكور أقوام بيريندي وبيجاناك وترك من الروسية وإن كثيرًا منهم بقوا في أطراف دينيبر واختاروا خدمة الروسية وتبعيتها وسموا عندهم چورني كلابوك أو چركس.

(١) ونقل كارامزين هنا عن نيسطور أن رؤوس القفجق كانت تطير بأيدي لا ترى أصحابها يعني الملائكة على زعمه الكاذب. منه عفي عنه.

ثم ذكر بعد ذلك موت ولاديمير مانوماخ في سنة ١١٢٥ م ووصاياه لأولاده ومقدارًا من مفاخره ومعايبه ومن جملتها أنه قال صالحت القومان والقفجق تسع عشرة مرة وأسرت من خوانينهم أزيد من مائة خان وأطلقت سراحهم وأغرقت أزيد من مائتين منهم في الماء مجازاة وعقوبة.

ثم قال: إن ولاديمير مانوماخ وإن ارتكب ظلمًا عظيمًا في حق القفجق من نقض العهد والغدر بهم إلا أن هذا مأول عند الروس ومعفو وذلك لأن القفجق لما كانوا أعداء النصرانية وأعداء الله وتعرضوا على الكنائس صار إهلاكهم عند الروس بل عند جميع عالم النصرانية بأي وجه كان فرضًا لازمًا عليهم وتقربًا إلى الله فضلًا من كونه مباحًا فأين القبح حينئذ وأين الظلم والوحشة.

ثم قال: ولما سمعت القومان هلاك ولاديمير مانوماخ قصدوا الهجوم على الروسية متفقين بالأترك الذين كانوا يقيمون في أطراف بيرياصلاول على حالة البداوة ولما استخبر ياروبولك كيناز بيرياصلاول بذلك جلب الأتراك إلى داخل البلد وهزم القومان وفي سنة ١١٣٧ طرد كيناز الروسية الأعظم مسيتسلاو القومان إلى ما وراء نهر وولغا فضلًا عن نهر دون وفي سنة ١١٣٩ لما آلت الكينازية العظمى إلى وصبولود بن أوليغ ذهب مع الكيناز أندري بن مانوماخ إلى بلدة مالوتين لمصالححة خوانين أترك قومان وقد وقع في ذلك العصر بين الروس أنفسهم اختلال كثير وكان القفجق والبجاناك مشتركين لهم في جميع تلك الاغتشاشات ولم يقصر هؤلاء وكذلك بيريندي وچورني كلابوك أو چركس وسائر قبائل الأتراك في قتل بعضهم بعضًا منضمين إلى الروس ومشاركين إياهم في جميع وقائعهم.

ولما آلت الكينازية إلى غيورغي دولغي روكا (طويل اليد) ابن ولاديمير مانوماخ في سنة ١١٥٥ م ذهب إلى موضع يقال له كانيف^(١) مرتين وصالح خوانين القفجق على ما هو عادة حكام الروسية عند صعودهم على كرسي الكينازية في ذلك الوقت ولكن خالف هذا عادات سائر حكام الروس في نقض العهد والغدر بل كان وافيًا بعهده مراعيًا لجانب القفجق إلى أن مات حتى أن القفجق لما أغاروا مرة على أطراف دينيبر فقتل بعضهم من طرف بيريندي وأسر البعض طلب الكيناز غيورغي من قوم بيريندي إطلاقهم إلا أن بيريندي أبوا ذلك ولم يطلقوهم.

(١) بساحل دينيبر أسفل من كيف. منه عني عنه.

وفي سنة ١١٥٩ جاء عشرون ألفاً من فرسان القفجق إلى الروسية لإعانة الكيناز ايزاصلاو بن داويد ولكن لما هرب الكيناز المذكور لخيانة أتراك بيريندي عادت القفجق أيضاً بالضرورة إلى أوطانهم وغرق كثير منهم في نهر أوصي وبعد ذلك هجموا على الكيف مرة وعلى چيرنيغوف مرة إلا أنهم اندفعوا من طرف الأهالي وأتراك بيريندي ولما دعاهم الكيناز ايزاصلاو بن داويد مرة أخرى لإعانتته عادوا إلى بلادهم بعشرة آلاف من أسارى الروس سوى الذين قتلوهم منهم.

وفي سنة ١١٦١ دعاهم الكيناز ايزاصلاو مرة ثالثة واستولى على الكيف بإعانتهم ولكن لما هرب ايزاصلاو عنها لأراجيف أشيعت في حقه وقتل في مهربه من طرف المخالفين انهزمت القومان أيضاً بالضرورة ودامت إغارات القفجق ومهاجمتهم على الروسية بلا انقطاع في هذه السنين ولهذا اتفقت حكام الروس قاطبة على مدافعتهم ونزلوا على طول نهر دينيبر ووقفوا في موضع يقال له كانييف ثم عادوا من غير أن يتجاسروا على الهجوم عليهم ولكن أغار منهم كينازان في فصل الشتاء ونهباً دائرتين منهم واغتنما كثيراً من الذهب والفضة.

وفي سنة ١١٦٨ اتفقت حكام الروس أيضاً قاطبة على حرب القفجق وساروا تسعة أيام متصلة من المفازة ولما سمع الذين في ساحل نهر دينيبر من القفجق هذا الخبر هربوا إلا أن الروس لحقوا بهم في ساحل نهر اوريله وهزمهم وخلصوا منهم أسارى الروس واثنوا راجعين بغنائم كثيرة ثم جاؤوا بعد ذلك متفقين إلى كانييف ثانياً إلا أنه تبدل وفاقهم هناك شقاقاً فعادوا خائبين.

وفي سنة ١١٦٩ لما نقل الكيناز أندري البوغولبي بن غيورغي طويل اليد ابن ولاديمير كرتسي كينازية الروسية من كيف إلى ولاديمير وتوهم الكيناز غليب حاكم كيف من تكاثر القفجق في أطراف دينيبر ومهاجرتهم هناك أرسلوا إليه رسولاً وقالوا لا تخف وليطمئن خاطرك فإن قصدنا ليس إخافتك ولا نريد أن نخاف من أحد وإنما نريد المعيشة بالراحة بمواددة الطرفين ومصافاتهما فأراد غليب أن يحمي ولده الصغير الذي كان يحكم في پيرياصلاول من سوء قصدهم في حقه بتطبيب خواطرهم بإرسال الهدايا إليهم. وبينما هو مشغول بهذا الأمر هجمت فرقة منهم كانت بساحل نهر قور على قرية ذات كنيسة متعلقة بكنيسة ديساتينوي بكيف ونهبوها ثم أحرقوها بالنار فتوجه نحوهم الكيناز ميخايل أخو الكيناز غليب بن غيورغي واستصحب معه ألفاً وخمسمائة من أتراك بيريندي سوى عسكر الروس فلما لحقوا بهم ونشب القتال بين الفريقين

ظهرت علائم الظفر في طرف القفجق بعد أن قتلوا منهم حامل لوائهم فأراد ميخايل أن يهرب فأمسكت أتراك بيريندي بزمام فرسه ولم يتركه يهرب وهجموا على القفجق ثانياً وهزمهم وألجأهم إلى الفرار وأخذوا منهم ألفاً وخمسمائة أسير.

وبعد ذلك انهزم واصلكو بن ياروبولك من القفجق في وقعة وضويق عليه في بلدة ميخايلف بقرب كيف وبعد ذلك هجم القفجق على ولاية كيف عابرين نهر بوغا وأخذوا مقداراً من الأسارى إلا أن الروس لحقوا بهم وخلصوا أربعمائة من أسارى الروس وأخذوا فوق ذلك من القفجق مقداراً من الأسارى وقتلوهم وانتصر ايغور بن أسواتصلاو بقرب الوغ طاغ اوروچيشه على اثنين من خوانين قفجق أحدهما كباك والآخر كونچاك وأسرها.

ولما غزا الكيناز وصيولود بلغار أعانته القفجق. وفي سنة ١١٨٤م مصادفة سنة ٥٨٠ هـ اتفق جميع حكام الروسية الجنوبية على حرب القفجق فعبروا نهر دينبير وهجموا عليهم وهربوهم في ساحل نهر اوغلا اواوريله وأسروا منهم سبعة آلاف نفس وفيهم أربعمائة وسبعة عشر خاناً من خوانينهم الصغار يعني شيوخ القبائل ورؤسائهم واغتموا كثيراً من خيول آسيا وأسلحة وكذلك انهزم كونچك خان الشهرير السفاك بقرب خزول وكان معه قوس كبير^(١) كان يحمله خمسون رجلاً وكان يرمي بنفسه من غير مباشرة أحد وكان معه أيضاً مسلم من الخزر كان يرمي ناراً خالصة^(٢) فلم ينفعاهم شيئاً بل أسرهم أهل الكيف بأسلحتهم جميعاً وجاءوا بهم إلى الكيناز أسواتصلاو ولكن الروس لم يستفيدوا شيئاً من تلك الأسلحة لعدم علمهم بكيفية استعماله.

ولما سمع حكام الروس الشمالية الكيناز ايغور وأخوه وصيولود هذا الخبر تحركت عروق غيرتهما فخرجوا قاصدين قفجق بجيش عظيم طامعين في الظفر الظاهر والغنيمة الباردة وجازوا شعاب نهر دونوساروا نحو نهر صولي فلما اطلعت القفجق على حقيقة الحال جمعوا في القفجق وغيرهم من الأقوام التركية الذين في أطرافهم وجوانبهم ما استطاعوا على جمعه واستقبلوا الروس فلما بدىء القتال غلبهم الروس وانتصروا عليهم وطردهم وشرعوا في الانبساط وإظهار الفرح والسرور في خيام

(١) ولعله كان معمولاً ومصنوعاً على صنعة الميخانيكي أعني الماكينة. منه عني عنه.

(٢) قال كارامزين لعله النار القريمي أو البارود ولا أدري ما مراده بالنار القريمي. منه عني عنه.

القفجق وأخبيتهم فأشار عقلاء أصحاب ايغور إليه بالعود والانصراف ولما رأوا من كثرة القفجق إلا أنه لما كان سكراناً من شراب الكبر والغرور والنخوة الفارغة وزادته الغلبة سكرًا على سكره قال: إن أهل الكيف انتصروا على القفجق في أرض الروس ولم يضعوا أقدامهم في أرض القفجق أما نحن فنتنصر عليهم في وسط أرضهم ونفعل بهم كذا وكذا ونقتل أمثال هذه الوحوش والبرابرة ونستأصلهم ونضع الخراج والجزية على بواقيهم ونكتسب بذلك شهرة أبدية. إلى غير ذلك من الجزافات ورد بها نصيحة العقلاء وتهياً للهجوم ثانيًا، وقد تجمعت القفجق المنهزمون ثانيًا، وكانوا في صدد الانتقام وأخذ الثأر من الروس فأبعدوهم عن الماء على كل حال وحالوا دونه وحاربوهم مدة ثلاثة أيام برمي النبال من بعد من غير أن يقتربوا منهم وكان جمعهم يزيد وقتًا فوقتًا وأحاطوا بالروس من كل جانب ولما بلغ اضطراب الروس إلى الماء غايته فتحوا الطريق إلى الماء بعد جهد جهيد إلا أن القفجق لما كانوا أقوىاء مستريحين ومتكاثرين لم يتزلزلوا قط بل ضيقوا عليهم خط المحاصرة وشددوا عليهم وحملوا عليهم كالأسود الحوارد فقتلوا قسمًا منهم وأسروا البواقي مع الكيناز ايغور وصيولود، وكانت هذه الواقعة بساحل نهر يقال له سابقًا قبالي ويقال له الآن عند الروسية كاغالي.

فأرسل القفجق بواسطة التجار خبرًا إلى أهل الكيف قائلين إنا قادرون الآن على مبادلة الأسارى ولما سمعت حكام الكيف هذا الخبر بكوا وأجروا الدموع من عيونهم ثم إن أسواتصلاو كيناز كيف جمع سائر حكام الروس وعساكرهم بقرب كانيف لتخليص أسارى الروس ولكنه لما سمع تباعد القفجق حين سمعوا بجمعه العساكر خاف أن يصيبه أيضًا ما أصاب بالكيناز ايغور من البلية ورجع إلى مقره بخفي حنين ولما انعكس هذا الخبر إلى القفجق زادت جسارتهم وجددوا هجومهم على الروسية واستولوا منها على بلاد كثيرة وحاصروا بلده بيرياصلاول فجرح الكيناز ولاديمير بن غليب ثلاث جرحات وتخلص من الموت بغاية الصعوبة بعد أن عاينه وانهمت عسكر الروس واستولت القفجق على بلدة ريم (رومن) وأخذوا منها أسارى وغنائم كثيرة وأخلوا كثيرًا من القرى في أطراف بوتيقال أيضًا من السكان ثم انشوا راجعين إلى أوطانهم بغنائم وفيرة وأسارى كثيرة منصورين ومظفرين.

إلا أنه اندملت جروح الروس وتسلوا بعودة الكيناز ايغور إلى الروسية بالتخلص من الأسارى وذلك أن كونجك خان المشهور في تواريخ الروسية بالسفك الذي هو خان هؤلاء القفجق الأتراك الذين يرميهم الروسية خصوصًا والإفرنج عمومًا بالوحشية

والتبرير وعدم المدنية من القديم أعطى الكيناز ايغور الذي هو خصم روحه وقاصد لأملاكه واستيصاله بأزا وخادمًا خاصًا وساعده للركوب والصيد وذلك لكون كافة الأتراك مجبولين على الإغضاء عن مساوىء أعدائهم بعد الانتصار عليهم ومعتادين مكارم الأخلاق وإكرام الضيوف والغرباء على خلاف ما يفتره كذبة الإفرنج ومفتريهم عليهم وخصوصًا الروس فاستفاد المذكور من ابتلاء القفجق بشرب القمز ومن ظلام الليل فأغفل الخادم وهرب فوصل إلى بلدة دونيس من الروسية بعد أحد عشر يومًا وقد بقي ولده ولاديمير في الإسارة فزوجه كونجك جان السفاك الوحشي على قول كارامزين ابنته والله سبحانه أعلم.

ثم عاد إلى الروسية بعد سنتين وجاء أباه.

قال إن الروسية يكتبون هذه الوقعة بأنواع التخيلات بحيث تؤثر في القراء وبعد ذلك لم يقع شيء يستحق الذكر إلى سبع سنين سوى بعض محاربات طفيفة تارة ومصالحات أخرى إلا أن القفجق كانوا يخيفون الروسية ويزعجونهم دائمًا إلى أن وفق الكيناز الشاب روستيصلاف لإراحة الروسية وبث الأمن والأمان فيها بدفع صولة القفجق وهجومهم عنهم بواسطة أترك بيريندي.

قال كارامزين هنا: إن أترك بيريندي هؤلاء مع كونهم حماة وحراسًا صادقين للكيف صدرت عنهم الخيانة أيضًا في بعض الأحيان وذلك أن رئيسهم المسمى كونشودي (لعل كون طوغدي) لما أغضبه الكيناز اسواتصلاو بسبب من الأسباب ذهب إلى القفجق وأزعج الروسية مدة مديدة بإغارته على ولاية دينبير فاضطر الكيناز روريك إلى إعطاء هذا البطل الفارس بلدة ويژين بساحل نهر أوصى لتخليص الروسية من إزعاجه بإغارته المتوالية والكيناز وصيولود وإن استخدم القفجق باستجارهم لتأمين حدود الروسية وحمايتها إلا أنهم كانوا يزعجون الروسية بإغارتهم على الروسية الجنوبية من أصلاتودسكي اوقراينسكي الحاضرة إلى ولاية سراطاو (صاري طاغ أو أطاو) دائمًا وخصوصًا حدود رزان فاضطر الكيناز المشار إليه إلى إخافتهم بجمع جيش عظيم وسار مع ولده الشاب قسطنطين إلى البراري وأحرق قرى القفجق ومشتاهم فانسحب القفجق بعد ذلك من سواحل نهر دون إلى سواحل البحر الأسود.

ولما هجمت القفجق في سنة ١٢٠٢ م مصادفة سنة ٥٩٩ هـ على القسطنطينية من جهة روم ايلي استمد قيصر الروم ألكسي قومانيين بالكيناز رومان غاليتسكي الذي

كان استولى على الكيف قبيل ذلك والتمس منه تخليص إخوانه النصرارى من شر القفجق فأغار رومان على بلاد قفجق ونهبها وخلص كثيرًا من أسارى الروس وأخرج القفجق من القسطنطينية وألجأهم إلى تخلية روم ايلي بالكلية ثم عاد إلى غاليتسيه وبعد ذلك جلب الكيناز روريك بن أولغ الذي أخرج الكيناز رومان من الكيف القفجق إلى طرفه بقوة الفضة والذهب ودعاهم إلى الاتفاق معه على رومان الذي هو خصمه وخصمهم فاغتنم القفجق ذلك وهجموا على الكيف واستولوا عليها في الحال ووضعوا السيف في أهلها وشرعوا في قتلهم بلا أمان لأخذ الثأر والانتقام ونهبوها ونهبوا الكنيسة ديستابنوي وكنيسة صوفيا وسائر الكنائس والأديرة وقتلوا الشيوخ الذين لا يصلحون للخدمة وأسروا الشبان الذين يصلحون للخدمة حتى الرهابين والقسيسين وقيدوهم وساقوهم كقطيع البهائم إلى بلادهم إلا أن التجار الأجانب تحصنوا في الكنيسة الحجرية وخلصوا أنفسهم بإعطائهم مقدارًا من المال فلم يتعرضوا لهم ولم يبق في الروسية من لم يجر الدموع من عينيه ممن سمع هذه الحادثة وكان وقوعها في ١ الكانون الأول من سنة ١٢٠٤ م مصادفة سنة ٦٠٠ هـ.

وبعد ذلك اتفق الكيناز روريك ورومان على غزو القفجق والإغارة عليهم وأخذوا منهم بعض الأسارى والحيوانات وفي خلال مقاتلة الروس بعضهم بعضًا في سنة ١٢١٨ م مصادفة سنة ٦١٥ هـ تداخلت القفجق في تلك المقاتلات أيضًا وحين سار الكيناز مستتلاو إلى محاربة ماجار وبالاك (بولشه ولاخيا وبولونيا ولهستان) ومدافعتهم أرفق القفجق وأخذهم معه ولما انهزم عسكر الروس في أول وهلة حملوا ثانيًا مع عسكر القفجق وانتصروا على أعدائهم انتصارًا تامًا واضطروهم إلى الفرار وحين تعقبهم الروس بمقتضى غلبتهم اشتغل القفجق أيضًا بأخذ الأسارى وجمع الغنائم وإمساك خيول الماجار التي هي وظيفتهم وفائدتهم من الحرب.

قال وقد طرأ الضعف على القفجق في عصر أسواتوبولك الثاني وهجومهم إلى ولاية دينيپر وإن دام واستمر في العصر الحادي والثاني عشر من الميلاد إلا أنه لم يكن شديدًا ومدهشًا كأول. وهم يعني القفجق وإن استملكوا مملكة تاماتارقان يعني ولاية بوسفور وسواحل بحر أوزاق ولكن لم يضر ذلك في التجارة فإن التجار كانوا يسافرون من غير خوف ولا انزعاج في عين الوقت الذي كانت الروس يحاربونهم في أرضهم وكانوا لا يتعرضون للتجار قط^(١) ولهذا كانت أبواب التجارة مفتوحة دائمًا بلا

(١) انظروا أيها القراء واعتبروا في قول كارامزين هذا وزنوه بما يفتريه الروس خصوصًا =

انقطاع وكان البحر الأسود وبحر الخزر ونهري وولغا ودينبير جادات عظيمة مفتوحة للتجارة دائماً هكذا يقول كارامزين نعم هيهات تكتم المشاعل في الظلام.

[ظهور التتار]

ثم بعد ذلك يتبدى ظهور التتار وخروجهم وقد وصلت الفرقة المغربية منهم إلى أرض القفجق في سنة ٦٢٠هـ بعد أن تعدوا ولايتي أذربيجان وداغستان وهجموا عليهم أعني القفجق وأسروا يوري خان بن كونچك خان حين هرب وقتلوه وفرّ دانيال خان بن كباك خان وغيره إلى جهة بحر أوزاق بل إلى داخل الروسية وإلى كيف وكان بينهم قوتان خان الشهير أيضاً وهؤلاء الفارون هم الذين تسببوا لوقوع الروسية في المصائب التي أصيبوا بها في أوائل خروج التتار وورطوهم في تلك الورطة^(١).

[وقائع التتار الخاصة بالقفجق]

وأما وقائع التتار الخاصة بالقفجق: وهي أن باتوخان لما استولى على شمالي الروسية وأسس سلطنة مسماة بجوجي الوسي يعني حصّة جوجي وقسمه الذي خصه به أبوه چنكزخان ومملكة باتو وآلتون أوردو على ما سيجيء ذكره سار في حدود سنة ٦٣٦هـ إلى جهة بحر أوزاق لحرب القفجق والروسية الجنوبية فاستقبلهم خانهم الشهير الشجاع قوتان خان المار ذكره آنفاً بعسكر القفجق فالتقى الفريقان في سهول حاجي طرخان وبعد المقابلة والمقاتلة انهزمت القفجق فسار قوتان خان إلى مملكة ماجار مستصحباً أهله وعياله وأربعين ألفاً من قوم قفجق فأسكنهم قرال ماجار في

= والآوروباويون عموماً على الأتراك من الوحشة وعدم المدنية وهذا الذي ذكره كارامزين هنا الآن هل هو موجود الآن في القرن العشرين الميلادي الذي يدعى كونه عصر غاية التمدن في الممل الذين يدعون كونهم في ذروة التمدن تركت هذا إلى إنصاف القراء وكذلك يرى في التواريخ أن طرق التجارة وسفر التجار لم تنسد ولم تنقطع قط أثناء محاربة السلطان صلاح الدين بن أيوب أهل الصليب ومع هذا كله لا يزال الآوروباويون يرمون الأتراك خصوصاً والشرقيين عموماً بالوحشة وعدم المدنية أعطاهم الله سبحانه الإنصاف. منه عفي عنه.

(١) وخلصتها أن هؤلاء الفارين حرضوا الروسية على قتال التتار ولا سيما قوتان خان فإنه كان أباً زوجة مسيتصلاو غاليتسكي فاتفتت حكام الروسية بعد اللتيا والتي على محاربة التتار وخرجوا للقائهم وقتلوا في الطريق عشرة أنفار من سفراء التتار ولأقومهم بساحل نهر قالك المشهور الآن بقاليتسكي بقرب ماريوبول من ولاية يكاتيرينسلاو وحاربوهم وانهزموا عنهم بعد أن قتل أكثر أمرائهم وعساكرهم فطردتهم التتار إلى نهر دينبير وقتلوا ونهبوا وخرّبوا ثم رجعوا. منه عفي عنه.

ساحل نهر طونه فانقلبوا بمرور الزمان إلى غيرهم من الأمم المجاورين لهم وانقرضت دولتهم وسلطنتهم من أصل مملكتهم إلى الآن باستيلاء التتار عليها وامتزجت بقاياهم هناك بالتتار امتزاج الماء باللبن وانقلبوا إليهم انقلابًا ارتفع التمييز بينهما وصارا جنسًا واحدًا واشتركا بعد ذلك في الملك والسلطنة حتى قيل لدولة هؤلاء التتار الشمالية المستولية عليهم سلطنة القفجق ودولة القفجق أيضًا كما سيجيء وتشرّفوا بالدخول في دين الإسلام معهم فعوضهم الله سبحانه عن دولتهم الفاتئة دولة أبدية وكذلك الذين أسروا في تلك المحاربات وبيعوا في أقطار الأرض من الله عليهم بالتشرف بالدخول في دين الإسلام ونيل مرتبة السلطنة ودرجة الملوكية في الديار الشامية والمصرية أولهم ركن الدنيا والدين الملك الظاهر بيبرس الصالحى البندقدار^(١) وبعده الملك المنصور قلاوون وأولاده وقد صدر عنهم في حفظ بيضة الإسلام وحماية حماه وقت غاية ضعفه آثار وأي آثار ومساع يمدحها أولو الألباب والأبصار فلولا أصيبوا بتلك المصائب بخروج التتار واستيلائهم على تلك الديار لم تكن شبهة في تنصرهم قاطبة في تلك الأعصار وخلودهم بذلك في دركات النار واستحقاقهم غضب الجبار وقهر القهار على ما يستفاد من كلام كارامزين^(٢).

[أقوال المؤرخين المسلمين في قفجق الماچار]

قال الشيخ يوسف بن تنكري بيردي التركي^(٣) الأصل المصري المولد في كتابه

(١) قال العلامة محمد بن شاکر الکتبی فی ذیل تاریخ ابن خلکان نقلًا عن عز الدین بن محمد عن الأمير بدر الدین أنه قال إن مولد الملك السلطان الظاهر بيبرس بأرض القفجق سنة خمس وعشرين وستمائة تقريبًا وكانت العبارة قد أغارت على بلاد القفجق فأسروا جماعة وكنت أنا والظاهر فيمن أسر فبيع فيمن بيع الخ ومن أراد الحقائق فعليه بتواريخ ألفت في الدولة التركية كالتحفة الملوكية وأخبار الترك وغيرها. منه عفي عنه.

(٢) حيث قال إن القفجق كانوا يرجعون عادات الروس في معائشهم على عاداتهم ويتنصرون بغاية السهولة وما مر الآن من تسميهم باسم يوري ودانيال اللذين هما من أسامي الروس يدل على ذلك وكان قرتان خان المذكور صهر مستيسلا وكيناز غاليتسيه ولا شبهة في انجرار أمثال هذه السياسة الصهرية إلى أمثال تلك المفاصد كما قيل شعر:

عدوي البليد إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

منه عفي عنه.

(٣) يوسف بن تنكري بيردي التركي: هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأتابكي تغري بردي (والصحيح تنكري ويردي، ويردي لفظ تركي بمعنى عطاء الله) البشقاوي القاهري، نائب الشام، يعرف بابن تغري بردي، الأديب المؤرخ، ولد سنة ٨١٣ هـ، وتوفي سنة ٨٧٤ هـ، من تصانيفه: «البشارة في تكميل الإشارة للذهبي»، «حلية الصفات في الأسماء والصناعات» في=

النجوم الزاهرة: التتار لما عزموا على قصد بلادهم (يعني بلاد القفجق) في سنة ٦٣٩^(١) وبلغهم ذلك كاتبوا أنس خان ملك أولاخ أن يعبروا بحر سوداق (البحر الأسود) إليه ليجيرهم من التتار فأجابهم إلى ذلك وأنزلهم واديًا بين جبلين وكان عبورهم إليه في سنة ٦٣٠ فلما اطمأن بهم المقام غدر بهم وشنّ الغارة عليهم فقتل منهم وسبي اهـ.

وقال النويري^(٢) وابن خلدون^(٣) في بيان سبب جلب القفجق إلى الديار المصرية والشامية: وأما السبب الموجب للاستيلاء عليهم (يعني القفجق) وبيعهم في الأمصار فهو أنه لما ظهر چنكزخان واستولى على البلاد الشرقية والشامية وبث عساكره في البلاد وانتهوا إلى بلاد القفجق واللان وأوقعوا بهم على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة چنكزخانية فبيعت ذراري الترك والقفجق وجلبتها التجار إلى الأمصار ثم رجعت عنهم هذه الطائفة التي نذبهم چنكزخان إليهم في سنة ٦١٦ هـ وهم التتار المغربة وعادوا إلى ملكهم چنكزخان واستقرت طوائف الأتراك بأماكنهم من البلاد الشمالية وهم أصحاب عمود لا يسكنون دارًا ولا يستوطنون جدارًا بل يصفون في أرض ويشتون بأخرى وهم قبائل كثيرة فمن قبائلهم ما أورده الأمير ركن الدين بيبرس

= الأدب، «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، «ذيل على تاريخ المقرئ المسمى بالسلوك»، «الدليل الشافي على المنهل الصافي» في تراجم الأعيان، «السكر الفاضح والعطر الفائح»، «الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة»، «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» في التاريخ والتراجم من سنة ٥٥٦ هـ إلى زمانه، «مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة» في التاريخ، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، «نزهة الزاي» في التاريخ. (كشف الظنون ٥٦٠/٦).

(١) هكذا فإن لم يحمل على تعدد الوقعة فلا شك في كونه غلطًا والصواب ما سيأتي عن النويري وابن خلدون نقلًا عن تاريخ الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري. منه عفي عنه.

(٢) هناك مؤرخان يلقبان بالنويري: الأول: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري القرشي، شهاب الدين النويري الكندي، المصري المؤرخ، توفي سنة ٧٣٣ هـ (ولعله هو المقصود). صنف: «التاريخ الكبير» في ثلاثين مجلدًا، «التوضيح على التنقيح»، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (كشف الظنون ١٠٨/٥).

والثاني: محمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد النويري، كمال الدين أبو القاسم القاهري المالكي، ولد سنة ٨٠١ هـ، وتوفي سنة ٨٥٧ هـ، من مصنفاته: «تاريخ الخلفاء»، «بغية الراغب شرح مختصر ابن الحاجب»، «شرح الجامع الصحيح للبخاري»، وغيره (كشف الظنون ١٩٦/٦).

(٣) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن خلدون الإشبيلي الحضرمي، ولي الدين المؤرخ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. تقدمت ترجمته.

الدوادار المنصوري . . . (١) في تاريخه قبيلة طقصابويتا وبرج أوغلي والبرلي وقنغو (أوقنغر أوغلي) وانج أوغلي ودروت وقلابا أوغلي وجزنان وقرا بركلي وكتن قال ولم يزالوا مستقرين في مواطنهم قاطنين بأماكنهم إلى سنة ٦٣٦ فاتفق أن شخصاً من قبيلة دروت يسمى منغوش بن كتان^(٢) خرج متصيداً فصادفه شخص من قبيلة طقصبا اسمه آق كبك وكانت بينهما منافسة قديمة فأخذه أسيراً ثم قتله وأبطأ خبر منغوش عن أبيه وأهله فأرسلوا شخصاً اسمه جامغر أو جلنغر لكشف خبره فعاد إليهم وأخبرهم بقتله فجمع أبوه أهله وقبيلته وسار إلى آق كبك فلما بلغه مسيرهم نحوه جمع أهل قبيلته وتأهب لقتالهم فالتقوا واقتتلوا فكان الظفر لقبيلة دروت وجرح آق كبك وتفرق جمعه فعند ذلك أرسل أخاه انصر إلى دوشي خان بن چنكزخان (صوابه إلى باتوخان بن دوشي خان) وكان اوكداي وهو الملك يومئذ بكرسي چنكزخان قد ندبه إلى البلاد الشمالية مستصرخاً به وشكا إليه ما حل بقومه من قبيلة دروت القفجقية وأعلمه أنه إن قصدهم لم يجددوهم من يمانع فسار عليهم في عساكره وأوقع بهم وأتى على أكثرهم قتلاً وأسراً وسبباً فاشتراهم عند ذلك تجار اللان وغيرهم ونقلوهم إلى البلدان والأمصار وأخرجوهم إلى بلاد مصر والشام وباعوهم من السلاطين الأيوبية فلما انقرضت سلطنة الأيوبية انتقل الملك إليهم فملوك الأتراك الذين قاموا بحمل أعباء السلطنة بعد الأيوبية من هؤلاء القفجق وقد أنعم الله سبحانه عليهم بنعمة الإيمان والإسلام وخلعة الملك والسلطنة وإجراء الحكم على البلدان في مقابلة مفارقتهم عن أوطانهم وأسارتهم اهـ.

وقال ابن فضل الله العمري^(٣) عند بيان دولة التتار الشمالية وطوائف الأتراك فيها: وأتراك هذه البلاد من خيار الترك أجناساً لوفائهم وشجاعتهم وتجنّبهم الغدر مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم ومنهم معظم جيش مصر لأن سلاطينها

(١) بياض بالأصل.

(٢) ولا شك في كونه قوتان خان السابق ذكره آنفاً. منه عفي عنه.

(٣) ابن فضل الله العمري: هو أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل الله بن يحيى بن عثمان، القاضي شهاب الدين العمري القدسي الأصل، الدمشقي المولد والمنشأ، كاتب السر بالديار المصرية، ولد سنة ٧٠٠ هـ، وتوفي سنة ٧٤٩ هـ، له من التصانيف: «تذكرة الخاطر»، «التعريف بالمصطلح الشريف»، «حسن الوفاء لمشاهير الخلفاء»، «الدعوة المستجابة»، «دعوة الباكي ويقظة الشاكي»، «ذهبية العصر»، «سفرة السافر ويقظة المسافر»، «صباية المشتاق في المدائح النبوية عليه السلام والتحية»، «فواصل السمر في فضائل آل عمر»، «مسالك الأبصار في أخبار ملوك الأمصار» في التاريخ، «نفحة الروض» وغير ذلك. (كشف الظنون ١١٠/٥).

وأمرأها منهم منذ رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل^(١) في مشتري ممالك القفقق ثم انتقل الملك إليهم ومالت إلى الجنسية ورغبت في الاستكثار منهم حتى أصبحت مصر بهم أهلة المعالم محمية الجوانب منهم أقمار مواكبها وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها وحمد الإسلام موافقهم في حماية الدين وجهادهم أقاربهم وأهل جنسهم في الله لا يميل بهم حبه ولا يأخذهم في الله لومة لائم وكفى بالنصرة الأولى نوبة عين جالوت^(٢)... وهذا من معجزته صلى الله حيث قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من عاداهم إلى يوم القيامة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»^(٣) وهم الجند الغربي وهذه الطائفة هي الطائفة التي عناها النبي ﷺ في قوله وأرادهم بها فتماسك بهذه المرة رمق الإسلام وبقيت بقية الدين ولولاها لانصدع شعب الأمة ووهى عمود الملة الخ.

قلت وأصرح من ذلك وأدل على المقصود قوله ﷺ: «إذا بلغت الملاحم بعث الله جيشًا من الموالي أكرم العرب»^(٤) فرسانًا وأجودهم سلاحًا يؤيد الله بهم الدين»^(٥) فإنهم كانوا مشهورين بملوك الأتراك والموالي وهم الذين انتصروا على جيش هلاكو مع عجز كافة الملوك عنها.

وقال الشيخ بدر الدين العيني^(٦): لما شاء الله انقراض الدولة الأيوبية سبق في

(١) توفي سنة ٦٧٤ هـ. انظر أخباره في البداية والنهاية ١٣/١٤٨ - ٢٨٠، والكامل في التاريخ ١٠/٣٣، ٣٤٠، ٣٤١.

(٢) وقعة عين جالوت: كانت في العشر الأخير من رمضان سنة ٦٥٨ هـ. وفيها انتصر الملك المظفر قطز صاحب مصر على التتار (انظر البداية والنهاية ١٣/٢٢١ - ٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٨، ومسلم في الإمارة حديث ١٧٠، ١٧٤، وأحمد في المسند ١٠١/٤.

(٤) وإضافة الأكرم إلى العرب كإضافة يوسف في قولك يوسف أحسن إخوته فلا يلزم كون الموالي من جنس العرب كما لا يلزم كون يوسف من جنس الإخوة على أن هذا مخرج على عادة العرب من إطلاق العرب على جميع أجناس البشر في محاورتهم يقولون فعل العرب كذا ترك العرب كذا بمعنى فعل، الناس وترك الناس كذا ويقولون كيف عربكم يعنون أهلكم وقول بعضهم أن المراد بهم السادات مبني على التعصب فإن الموالي لا يطلق من القديم إلا على غير العرب. منه عفي عنه.

(٥) الحديث لم أجده في كتب الصحاح والسنن.

(٦) العيني: هو بدر الدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف بن محمود، أبو محمد العيني ثم المصري، الفقيه الحنفي، تولى قضاء القضاة والاحتساب، المعروف بالعيني نسبة إلى مولده في بلدة عينتاب، ولد سنة ٧٦٢ هـ، وتوفي =

علمه الأزلي أن صلاح هذه الأمة بتولية أولي النجدة والبأس وأن الترك من بينهم أصلح الأجناس وإن في هدايتهم إلى الإيمان صلاحًا خاصًا لهم وعمامًا لجميع الناس فأخرج طائفة منهم من الظلمات إلى النور وحباهم بأنواع العطايا بالبهجة والسرور وقبض الله تجارًا أخرجوهم إلى الآفاق في أيام استيلاء التتار على البلاد الشرقية وعلى أتراك القفجق فجاءت منهم طائفة إلى البلاد الشامية والديار المصرية في آخر الدولة الأيوبية اهـ.

وقال الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي الشهير بشيخ الربوة^(١) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: وأما القفجق فمساكنهم في غياض وجبال من ما وراء دريند شروان مما يلي بحر الروس ولهم عليه مدينة اسمها سوداق والبحر ينسب إليها (فيقال بحر سوداق) ومنها يمتارون لأن التجار تقصدها لبيع ما يجلبونه إليهم من الثياب وغيرها ولشراء الجوارى والممالك والفتندز والبرطاسي وأقام الله من هذه الطائفة بمصر والشام شعر:

قومًا إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنًا وإن قوتلوا صاروا عفاريتا

= بالقاهرة سنة ٨٥٥ هـ، له من المصنفات: «البنية في شرح الهداية للمرغيناني»، «تاريخ الأكاسرة»، «تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر»، «حاشية على شرح ابن المصنف للألفية»، «الحاوي شرح قصيدة الساوي» في العروض، «درر البحار الزاهرة في نظم البحار الزاهرة لحسام الرهاوي»، «الدرر الفاخرة في شرح البحار الزاهرة»، «رمز الحقائق في شرح كنز الدقائق»، «زين المجالس»، «سير الأنبياء»، «سيرة الملك الأشرف»، «سيرة الملك الظاهر طغرل»، «سيرة الملك المؤيد»، «شرح سيرة مغلطي»، «شرح الشافية لابن الحاجب»، «شرح عروض ابن الحاجب»، «شرح قطعة من سنن أبي داود»، «طبقات الحنفية»، «طبقات الشعراء»، «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، «العلم الهيب في شرح الكلم الطيب لابن تيمية»، «عمدة القارىء في شرح الجامع الصحيح للبخاري»، «فرائد العوائد في اختصار شرح الشواهد للألفية»، «كشف اللثام في شرح سيرة ابن هشام»، «المسائل البدرية المنتخب من فتاوى الظهيرية»، «المستجمع في شرح المجمع لابن الساعاتي»، «مشارح الصدور» في الخطب والموعظ، «مغاني الأخبار في رجال معاني الآثار»، «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية»، «ملاح الأرواح في شرح المراح»، «منحة السلوك شرح تحفة الملوك» في الفروع، «ميزان النصوص» في علم العروض، «نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار»، «شرح معاني الآثار»، «نهاية البيان» شرح آخر على الهداية للمرغيناني، «الوسيط مختصر المحيط». (كشف الظنون ٦/٤٢٠ - ٤٢١).

(١) شيخ الربوة: هو محمد بن أبي طالب الأنصاري، شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي الصوفي، المعروف بشيخ الربوة، ولد سنة ٦٥٤ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من الكتب: «السياسة في علم الفراسة»، «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» من كتب الجغرافيا، «نهاية الكياسة» (كشف الظنون ٦/١٤٥).

والقفجق طوائف كلهم ترك وهم برلو إلى آخر ما نقلنا عن النويري آنفاً ثم قال وهؤلاء قد صاروا خوارزمية^(١) وفيهم طوائف أصغر مما ذكرنا وهم طغ وبشقورط وقمنكو وبزانكي وبجنا (لعله بجناك) وقرابوكلو (أوبوركلو^(٢) اوتوكلو) وأوزوچرطن وغير ذلك من أفخاذ يطول ذكرها اهـ.

فقد عد الباشقرد والبنجناك أيضاً من القفجق ولا غرو في ذلك فإن فيما بين الباشقرد طائفة من القفجق أيضاً إلى الآن في أطراف قصبه أورشكي وكذلك منهم في برية قذاق المنسوبة إليهم سابقاً بدشت القفجق قبائل كثيرة في شرقي قصبه طرويسكي من ساحل نهر أوي إلى ساحل نهري ايت وطويل بل إلى مسافة بعيدة في شرقيهما.

والحاصل أن الأراضي التي طولها ثلاثمائة ويرستا في عرض مثلها مسكونة ومملوءة بقبائل قفجق فقط وعدا ذلك منهم قبائل كثيرة في ديار خوارزم وأطراف خوقند كما قدمنا حتى أن الذين في أطراف خوقند منهم كان لهم نفوذ تام وشوكة كاملة في هذه السنين الأخيرة وقد حاز منهم شخص أعرج يسمى مسلمان قل چولاق رتبة هفته باشية على اصطلاح تلك الديار أيام إمارة شبر علي وأخيه مله خان وابنه خدايار خان الذي هو آخر خوانين خوقند وكان له نفوذ تام على هؤلاء الخوانين وكان الحل والعقد كله بيده وكذلك حاز الرتبة المذكورة ولده عبد الرحمن هفته باشي أيام خانية خدايار خان وعارضه في بعض أموره وخالفه ونازعه حتى آلت تلك المعارضة والمخالفة والمنازعة إلى قصد عبد الرحمن هفته باشي إياه أعني خدايار خان وخروجه من خوقند ومجيئه إلى طاشكند بجمع خزائنه وتسليمها إلى والي طاشكند قافمان برمتها واستيلاء الروس على خوقند وكافة ممالك فرغانة ومحو سلطنتها وسحو خدايار خان وأولاده وعبد الرحمن هفته باشي أيضاً في تلك الأثناء إنا لله وإنا إليه راجعون وكان ذلك في سنة ١٢٩٣.

ومنشأ ذلك كله سوء الإدارة والجهالة والغفلة عن أحوال الزمان وكيد الأعداء رزقنا الله سبحانه وجميع المسلمين الاستبصار والاعتبار آمين.

(١) هكذا في الأصل ولعل معناه أنهم خرجوا من أوطانهم وارتحلوا إلى طرف خوارزم والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) فعلى هذا لا يبعد كونهم قرأ قالباق. منه عفي عنه.

٩ - [الماجار]

وربما يقال لهم في آثار المتقدمين مجر ومجفر ومجفرد وقد مر ذكر كونهم من بقايا قوم هون في آخر بيانهم وهؤلاء مشهورون عند الإفرنج من أمة الأوغرة. قال رفاعة بك وأمة الأوغرة التي تسمى أيضًا هنغرية وأنغورة وهنوغارة وأبو غدورة ولكن يسمون فيما بينهم الماجار باسم قبائلهم الأصلية كانوا موجودين في القرن الخامس يعني الميلادي جهة منابع نهر اتل بإقليم مكث إلى القرن الثالث عشر يسمى هنغريا الكبرى (يعني أراضي باشقرد الحاضرة بما فيها بلدة بلغار) ثم قربوا في القرن السابع والثامن والتاسع من شطوط نهري دون وامزاق ومما يؤيد إقامتهم بهذه النواحي ما يوجد من آثار مدينة مسماة ماجار بالصحاري في الجنوب الغربي من حاجي طرخان ثم انتهى أمرهم إلى أن تغلبوا إلى الأراضي الواسعة التي تسمى الآن باسمهم (يعني الماجار وهنغرية ووينغيرية) وكانت تخرج منهم قبائلهم السفاكة للدماء تارة ليحمل على ألمانيا وتارة على إيطاليا وقد التيسوا بالأوارة كما التبست الأوارة بالهون ولكن كيف يتصور أن الماجار أرباب القدود الرمحية شم الأنوف أن يكونوا من ذرية مغل أو الهون ذوي الخلقة الشوهاء ولسان الماجار الذي له مناسبة بلسان الترك وغيره من الألسن الشرقية يشبه في حروفه الأصلية باللسان الفنية وهذا يدل على أن أصل ماجار إنما هو خليط ترك أو تثار مع الفنية وعلى قول كارپين روبروقس^(١) أن البشكير سلف الماجار أو من جنسهم ولغتهم كلغتهم اهـ.

وهذا القول يناقض قوله السابق أعني قوله ولكن كيف يتصور أن الماجار الخ وحيث سلمنا خروجهم من منابع نهر اتل وأراضي باشقرد لا بد من تسليم كون أصلهم وجنسهم هو الباشقرد بالضرورة فإن في كلامه أيضًا تصريحًا بتسمية أراضي باشقرد هنغرية كبرى إلى القرن الثالث عشر يعني إلى خروج التثار ومراده بمانع نهر اتل منابع آق ايدل وما يصب إليه من سائر الأنهر وقد بين كارامزين هذا بيانًا صريحًا ظاهرًا، حيث قال وبيننا الكيناز اوليغ مقيم في أطراف نهري دينستر وبوغا مضطرًا

(١) قلت وسيجيء في المقصد الثاني ذكر كارپين روبروقس هذا وإنه من مراسيل بابا إلى خوانين التثار لدعوتهم إلى النصرانية وذهب كارامزين بعد ذكره هذا وذكر تسميته الأراضي الكائنة بين نهر وولغا وجبال أورال وأراضي باشقرد تركوا لغتهم الأصلية وأخذوا لغة التثار بعد استيلائهم على ديارهم وعندني أن العكس أولى أعني الذهاب إلى ترك ماجار لغتهم الأصلية وأخذهم لغتهم الحاضرة لدلالة قرائن كثيرة عليه أعني على كون لغة الماجار تركية. منه عفي عنه.

(يعني في أواخر العصر التاسع الميلادي) جاء الأوغر مع خيامهم وحاصروا بلدة كيف وهؤلاء الأوغر هم الماجار أو القوم المسمى الآن وبنغرية وهؤلاء الماجار أو الأوغر كانوا يسكنون سابقاً بقرب جبال أورال ثم سكنوا في القرن التاسع بنواحي ليبيدي في شرقي كيف وقلعة ليبيدن الكائنة بولاية خارقف تخطرنا هذا الاسم وتذكرناه ولما ضيق بچينينغ على هؤلاء الأوغر عبر بعضهم نهر دون وذهب إلى حدود مملكة فارس يعني صحراء حاجي طرخان وتوجه بعضهم إلى جهة الغرب والموضع الذي أقاموا فيه بقرب كيف كان يسمى في عصر نيسطور أوغرسكا ولا أدري هل أجازهم أوليغ بحسن اختياره أو جازوا وتعدوا بالمحاربة والقوة والغلبة وعلى كل حال أنهم عبروا نهر دينيپر واستملكوا مملكة مولد داويا وبيسرابيا ولوشينسكي اهـ ولا تنس ما ذكرنا في حقهم في آخر قصة هون نقلاً عن كارامزين ولا تحوجني إلى التكرار وراجع هناك.

قال بعض فضلاء العصر: إن الأوغر هم الماجار وذهب بعض المؤرخين إلى كونهم من أويغور مستدلاً بتسميتهم باونغر وأونغاريا اللذين هما مأخوذان من أون اويغور إلا أن الماجار ينكرون كونهم من اويغور ويحاولون في هذه الأزمنة الأخيرة إثبات كونهم من جنس بلغاريا اهـ.

والحاصل أن المؤرخين متحدون في القول بكون أصل الماجار والبلغار والأوار والخزر والباشقرد وجنسهم متحداً^(١) ولذلك يطلق لفظ أوغر عند الإفرنج على بلغار طونه كما يطلق على الماجار ويحتمل أن يكون إطلاق هذا اللفظ عليهم لأمر عارضي لا من جهة اتنوغرافيا وذلك الأمر خروجهم من أصل وطنهم السابق الذكر للسرقة وقطع الطريق فإن لفظ أوغري^(٢) عند غير العثماني من الأقوام التركية يطلق على اللصوص والسراق وقطاع الطريق وهذه الأوصاف كانت موجودة في الماجار سابقاً كما مر وباقية إلى الآن بكما لها في بلغار طونة والله سبحانه أعلم.

(١) قد مر ذلك نقلاً عن كارامزين عند ذكر البجانك وقال رفاعة بك بعد بيان ماجار وأوار وبلغار وأوغر وإذا تأملنا في أوصاف هؤلاء الأقوام ومنازلهم وأزمنة خروجهم يمكننا أن نحكم بكونهم من جنس واحد وإن لم نحكم بكونهم ملة واحد من جميع الوجوه اهـ وهو كلام صدق لا غبار عليه. منه عفي عنه.

(٢) ويحتمل أن يكون محرفاً من لفظ يوغاري (يوقاري) بمعنى الفوق والأعلى يسمون أولاً بذلك لخروجهم من أعالي نهر ايدل أعني أراضي باشقرد وبلغار ثم يحرف إلى يوغر وأوغر ونظائرهما والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

وذكر ابن بطوطة^(١) في رحلته المشهورة المسماة بتحفة النظار دخوله مدينة ماجار التي سبق ذكرها عن رفاة بك في عصر سلطنة السلطان محمد أوزبك خان عليه الرحمة والغفران أعني في أواسط العصر الثامن الهجري حيث قال وسافرت إلى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفاواكه الكثيرة نزلنا منها بزواية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه. وصلينا بها صلاة الجمعة إلى آخر ما ذكره في رحلته المذكورة ص ٢٠٠ ج ١ طبع مصر وكان دخوله إليها بعد ارتحاله من مدينة أوزاق وقبل وصوله إلى بش داغ (بيتي غوريا) حين سفره من قريم^(٢) إلى سراي.

وقال الجنابي^(٣) عند ذكره محاربة تيمرلنك وتوقتامش خان في سنة ٧٩٨ هـ لما بلغ تيمرلنك رجوع توقتامش خان سار إليه ونازله إلى أن غلبه على ملكه ففر إلى بلغار وتغلغل تيمر في بلاده حتى وصل إلى روس وچركس وماجار فمن ذلك العصر انتقل جيل ماجار من طرف الشرق إلى طرف الغرب واستوطنوا في نواحي نهر طونة اهـ.

فعلم من هذا أن بلدة ماجار المذكورة خربت في التاريخ المذكور مع سائر البلاد التي خربها تيمرلنك فيه وهاجر أهلها إلى وينغرية وبلاد ماجار عند إخوانهم الذين كانوا يسكنون فيها من القديم.

(١) ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، شمس الدين، أبو عبد الله المغربي المعروف بابن بطوطة، ولد سنة ٧٠٣ هـ، وتوفي سنة ٧٧٩ هـ، له من التصانيف: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» في الرحلة. وغيره (كشف الظنون ١٦٩/٦).

(٢) ولذلك قال في القاموس ماجر على وزن هاجر بلدة بين صرايه وأوزاق اهـ لكن حرفه النسخ بزيادة نقطة فوق الصاد فوقع مترجمه في الغلط فاعرفه. منه عفي عنه.

(٣) الجنابي: لعله السيد مصطفي بن السيد حسين بن السيد علي البرسوي الرومي الحنفي المؤرخ، المعروف بالجنابي، القاضي بحلب، المتوفى سنة ٩٩٩ هـ، له من التصانيف: «البحر الزخار والعلم التيار» في التاريخ، «جواهر الغرائب»، «الحضيرة الخضرة والحديقة النضرة» في التاريخ، «رسالة في بناء جامع آيا صوفيا وقلعة قسطنطينية»، «السبع السيار»، «العلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر» في التاريخ، «فرست نامه» تركي، «نهاية المرام وبحر جواهر الكلام» في التاريخ، عربي ثم ترجمه بالتركية وسماه «كلشن تواريخ». (كشف الظنون ٤٣٦/٦ - ٤٣٧).

والحاصل أن الذي يفهم من الأقوال السابقة واللاحقة أن الماچار بقوا هناك من دولة هون ثم لحقهم بواقيتهم من أطراف جبال أورال وسواحل وولغا تدريجًا تدريجًا بمرور الزمان وإلا لا يمكن التطبيق بين تلك الأقوال كما لا يخفى والله سبحانه أعلم.

وقال بعض فضلاء عصرنا إن الماچار جاءت إلى أطراف نهري طونه وتيس تحت قيادة قائدهم آرپاد بدعوة قرال ألمانيا آرنولف إياهم وبعد محو دولة موراويا سكنوا بصحراء تيس وحيث كانوا وقت مجيئهم من آسيا على حالة البداوة من الرحلة والنزول والنهب والغارة بقوا على تلك الحالة في وطنهم الجديد أيضًا مدة مديدة وأزعجوا بذلك أوروبا الغربية إزعاجًا شديدًا الخ.

ولننقل الآن كلام بعض سواحي المسلمين وجغرافيتهم في حقهم قال أبو علي أحمد بن داسة في كتابة الأعلاق النفيسة الفصل الرابع ذكر المجغرية وبين بلاد البجاناكية وبين بلاد اسكل من البلكارية أول حد من حدود المجغرية جنس من الترك ويركب رئيسهم في مقدار عشرين ألف فارس ويسمى الرئيس كنده^(١) وهذا الاسم شعار ملكهم يعني عنوانه ولقبه لأن اسم الرجل المتملك عليهم جله وكل المجغرية يصغون إلى ما يأمرهم به رئيسهم المسمى جله من محاربة وممانعة وغيرها ولهم قباب يسيرون مع الكلاً والحصب وبلادهم واسعة وحد منها يتصل ببحر الروم ينصب إلى ذلك البحر نهران أحدهما أكبر من جيحون ومساكنهم بين هذين النهرين فإذا كان أيام الشتاء قصد كل من كان أقرب منهم من أحد النهرين ذلك النهر وأقام هناك تلك الشتوة يصطادون منه السمك ومقامهم في الشتاء هناك أوفق لهم وبلاد المجغرية ذات شجر ومياه وأرضهم ندية ولهم مزارع كثيرة ولهم الغلبة على جميع من يليهم من الصقالبة ويلزومونهم المؤن الغليظة وهم في أيديهم مثل الأسرى والمجغرية عبدة النيران ويغيرون على السقالبة فيسيرون بالسبايا مع الساحل حتى يأتوا بهم مرقى بلاد الروم ويقال له كرخ ويقال إن الخزر فيما تقدم كانت قد خندقت^(٢) على نفسها اتقاء المجغرية وغيرهم من الأمم المتاخمة لبلادهم فإذا سارت المجغرية بالسبايا إلى كرخ خرجت إليها الروم فسوقوا هناك ودفعوا إليهم المماليك وأخذوا الديباج الرومي والزليات وسائر متاع الروم اهـ.

(١) ولعله بضم الكاف ولعله أصل لفظ القونت. منه عفي عنه.

(٢) وقد مر ذلك نقلًا عن كارامزين في بيان الخزر. منه عفي عنه.

١٠ - الباشقرت

وربما يتلفظ بالغبين المعجمة أو الجيم بدل القاف وبالميم والغبين وتاؤه تبدل في العربية في جميع لغاته دالاً فيقال باشقرد وبشغرد وبشجرد ومجگرد وأما الروس والمتروس والإفرنج والمتفرنج فيقولون باشكير وعلى كل حال فهم أمة عظيمة من الأقوام التركية ومسكنهم الآن بين نهر وولغا وجبال أورال وفي شرقها والمشهور أنهم كانوا ممتدين قبل هذا التاريخ بمائتي سنة إلى نهري ايلك وقويدابل إلى مسافة في شرقهما من صحراء قذاق حال كونهم رحالة نزالة ثم طردتهم القذاق إلى مساكنهم الحاضرة وقد صرح بعض السواح المتقدمين من المسلمين كونهم في طاعة بلغار في مساكنهم الحاضرة ويعين بعض منهم مساكنهم في حدود الإفرنج.

كما قال الملك المؤيد أبو الفداء^(١) في تاريخه: ومن النصارى أيضاً باشقرد وهم أمة كثيرة ما بين بلاد الأمان وبلاد إفرنجة وملكهم. غالبهم نصارى وفيهم أيضاً مسلمون وهم شرسوا الأخلاق اهـ. وقال في كتابه تقويم البلدان: بلاد الباشقرد في الإقليم السابع وهم ترك جاوروا الألمانين على عهد متواتق وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني نصرهم بشرائع الإسلام وأكثر عمائرهم في نهر دوما لعله طونه وعلى جنوبه قاعدتهم اهـ.

قال القزويني^(٢) في عجائب المخلوقات: باشغرت جبل عظيم من الترك بين القسطنطينية وبلغار حكى أحمد بن فضلان^(٣) رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة (يعني البلغار) لما أسلم فقال عند ذكر باشغرت وقعنا في بلاد قوم من الترك فوجدناهم شر الأتراك وأنذرهم وأشدهم إقداماً على القتل ووجدتهم يقولون للصيف^(٤)

(١) أبو الفداء: هو إسماعيل بن علي بن المظفر تقي الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد أبو الفداء الأيوبي، صاحب حماه، المتوفى سنة ٧٣٢هـ، تقدمت ترجمته.

(٢) القزويني: هو زكريا بن محمد بن محمود، القاضي عماد الدين أبو يحيى الأندلسي الأنصاري القزويني، قاضي واسط، توفي سنة ٦٨٢هـ، من تصانيفه: «آثار البلاد وأخبار العباد» في التاريخ، «عجائب البلدان»، «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات». (كشف الظنون ٥/٣٧٣).

(٣) أحمد بن فضلان: تقدمت ترجمته.

(٤) قلت كأنهم كانوا على مذهب أفلاطون فإنه يقول بوجود رب لكل نوع يقال له رب الأنواع وللصوفية أيضاً مقالة في ذلك وتحقيقات ليس هذا محل إيرادها نظراً لمكتوبات وكذلك قدماء اليونان كانوا يقولون بوجود إله على حدة للبر والبحر والحرب والصلح والتجارة إلى غير ذلك من الأمور إلا أنهم كانوا يصورون تماثلاً لكل واحد منها ويعبدونه. منه عني عنه.

رب وللشئاء رب وللمطر رب وللريح رب وللنار رب وللدواب رب وللماء رب وللليل رب وللنهار رب وللحياة رب وللמות رب وللأرض رب وللسماء رب وهو أكبرهم إلا أنه يجتمع مع هؤلاء بالاتفاق ويرضى كل بعمل شريكه اهـ.

ونقل أيضًا عن السفير المشار إليه أنه قال رأيت قومًا يعبدون الكراكي^(١) إلا أنه لم يقل إنهم من الباشقرد.

ثم قال القزويني: قال لي فقيه من أن أهل باشقرد أن أهل باشقرد أمة عظيمة والغالب عليهم النصارى وفيهم جمع من المسلمين على مذهب الإمام أبي حنيفة ويؤدون الجزية إلى النصارى كما تؤدي النصارى هنا إلى المسلمين ولهم ملك في عسكر عظيم وأهل باشقرد في خركاهات ليس عندهم حصون وكان كل حلة من الحلل إقطاعًا لمتقدم صاحب شوكة وكان كثيرًا ما تقع بينهم خصومات بسبب الإقطاعات فرأى ملك باشقرد أن يسترد منهم الإقطاعات ويجري لهم الجامكيات^(٢) من الخزانة دفعًا لخصوماتهم ففعل فلما قصدهم التتار تجهز ملك باشقرد لالتقاءهم فقال المتقدمون لسنا نقاتل حتى ترد إلينا إقطاعاتنا فقال الملك لست أرد إليكم على هذا الوجه وأنتم إن قاتلت فلأنفسكم وأولادكم فتفرق ذلك الجمع الكثير ودهمهم سيف التتار بلا مانع وتركوهم حصيدًا خامدين اهـ.

قلت بالنظر إلى أول كلامه وإلى قوله يؤدون الجزية إلى النصارى ليس هؤلاء الباشقرد الذين في أطراف أورال بل طائفة الباشقرد الذين في حدود الإفرنج والذي حكاه ابن فضلان إنما هو في شأن باشقرد أورال بلا شبهة.

قال الحموي^(٣) في معجم البلدان باشقرد بسكون الشين والغين معجمة وبعضهم يقول باشقرد بالجيم وبعضهم يقول باشقرد بالقاف بلاد بين القسطنطينية وبلغار

(١) وتماهه فقلت إن هذا من أعجب الأشياء وسألت عن سبب عبادتهم الكراكي فقالوا كنا نحارب قومًا من أعدائنا فهزمونا فصاحت الكراكي وراءهم فحسبوا كميًا منا فانهزموا ورجع الكرة لنا غلبهم فنعبدها لأنها هزمت أعداءنا اهـ فهذا يدل على أنهم قوم لا ينسون المعروف ولو صدر من غير ذي المعقول بلا اختيار وقصد وروية فكيف إذا كان من ذوي العقول قصدًا واختيارًا. منه عفي عنه.

(٢) الجامكيات: جمع جامكية، من الفارسية: جامة، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح الجزية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٥٩).

(٣) هو ياقوت الحموي: تقدمت ترجمته.

وكان المقتدر بالله قد أرسل أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى أمير المؤمنين ثم مولى محمد بن سليمان إلى ملك الصقالبة وكان قد أسلم هو وأهل بلاده ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الإسلامية فحكى جميع ما شاهد منذ خرج من بغداد إلى أن عاد وكان انفصاله في صفر سنة تسع وثلاثمائة فقال عند ذكر الباشغرد وقعنا في بلاد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد فحذرناهم أشد الحذر وذلك لأنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل يلقي الرجل الرجل فيفرز هامته ويأخذها ويتركه ويحلقون لحاهم ويأكلون القمل يتتبع الواحد منهم قرطقه (قميصه) فيقرض القمل بأسنانه ولقد كان معنا منهم رجل قد أسلم وكان يخدمنا فرأيته يوماً وقد أخذ قملة من ثوبه فقصعها بظفره ثم لحسها وقال لما رأيته: جيدة وكل واحد منهم قد نحت خشبة على قدر الإحليل ويعلقها عليه فإذا أراد سفرًا أو لقاء عدو قبلها وسجد لها وقال يا رب افعل بي كذا وكذا فقلت للترجمان سل بعضهم ما حاجتهم في هذا ولم جعله ربه فقال لأنني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسني موجدًا غيره ومنهم من يزعم اثني عشر ربًا للشتاء رب وللصيف رب وللمطر رب وللريح رب وللشجر رب وللناس رب وللدواب رب وللماء رب وللليل رب وللنهار رب وللموت رب وللحياة رب وللأرض رب والرب الذي في السماء أكبرهم^(١) إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق ويرضى كل واحد منهم ما يعمل شريكه تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا قال ورأينا منهم^(٢) طائفة تعبد الحيات وطائفة تعبد السمك وطائفة تعبد الكراكي فعرفوني أنهم كانوا يحاربون قومًا من أعدائهم فهزموهم وإن الكراكي صاحت من ورائهم فانهزموا بعد ما هزموا فعبدوا الكراكي لذلك وقالوا هذه ربنا لأنها هزمت أعداءنا فعبدوها لذلك هذا ما حكاه عن هؤلاء وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقردية شقر الشعور والوجوه جدًا يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فسألت رجلًا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم فقال أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ونحن مسلمون رعية لملكهم من طرف بلاده نحو ثلاثين قرية كل واحدة تكاد أن تكون بليدة إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورًا خوفًا من أن نعصى عليه ونحن في وسط بلاد النصرانية فشماليها بلاد الصقالبة وقبليها بلاد البابا يعني رومية . . . وفي غربينا الأندلس

(١) قلت قد مر ما يتعلق به . منه عني عنه .

(٢) قلت نقل الفزويني هذا وما بعده عن ابن فضلان مبهمًا بأن قال ورأيت قومًا فيجوز أن يكون هؤلاء قومًا آخرين غير باشقرد والله سبحانه أعلم . منه عني عنه .

وفي شرقينا بلاد الروم القسطنطينية وأعمالها قال ولساننا لسان الفرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونغزوا معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر فقال سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلفوا في تعريفنا وما نحن عليه من الضلال وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح صدرنا للإيمان ونحن نقدم إلى هذه البلاد وتنفقه فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم فسألته لم تحلقون لحاكم كما يفعل الفرنج؟ فقال: يحلقها منا المتجندون ويلبسون لبسة الفرنج أما غيرهم فلا قلت: فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم؟ فقال: من ههنا إلى القسطنطينية نحو شهرين ونصف ومن القسطنطينية نحو شهرين ونصف إلى بلادنا وأما الاصطخري قد ذكر في كتابه من باشجرد إلى بلغار خمسة وعشرون مرحلة ومن باشجرد إلى البجناك وهم صنف من الأتراك عشرة أيام انتهى من معجم البلدان بحروفه.

يقول جامع هذه الحروف لا أحد يجهل في هذا الوقت موقع بلاد الباشقرد وموقع بلاد وينغرية (ماجار) والمسافة بينهما وسمتهما ولا كون الباشقرد ساكنين مقيمين في مساكنهم الحاضرة من الزمان القديم اللهم إلا أن يكون من أفسد دماغه في مدارس بخارى أو فروعاته بتصور كون الماهية مجعولة أو غير مجعولة وأنها تتركب من الأمور المتساوية أولاً وأن العالم بأي حدوث حادث وإن الوجود زائد على الذات أولاً وأن الجنس كيف يمتاز عن المادة والفصل عن الصورة التي غير ذلك من السفسطة التي لا مصداق لها في الخارج وتصورها يفسد الدماغ ويورث الكلال في الذهن.

وقد عيّن هؤلاء الكبراء أعني أبا الفداء والقزويني والحموي مساكن باشقرد في وينغرية وماجارستان فإن صدر هذا عن واحد منهم لقلنا إنه سبق قلم أو وقع غلطاً من قلم الناسخ ولا يمكننا أن نقول لعلهم كانوا تحت حكومة الماچار قبل مهاجرة الماچار من أرض باشقرد إلى مساكنهم الحاضرة فإن كلام أبي الفدا والحموي وأول كلام القزويني أيضاً يستأصل عرق هذا الاحتمال فالمعرفة والدراية والتحقيق والتدقيق والمهارة في التصرف في الكلام على أصوله إنما هي في توجيه مثل هذا الكلام المتناقض المغلق والافتقار والمكنة إنما تظهر في مثل هذا وذلك إنما يمكن بأن يثبت صدور هذا الكلام عن هؤلاء الأعلام ووقوعه عنهم غلطاً وسهواً أو كونه سهواً عن

قلم النساخ وإن هؤلاء القوم الذين ذكروهم بعنوان الباشقرد ليسوا بباشقرد بل هم القوم الفلاني مستنداً إلى دليل ما ولو كان ضعيفاً أو بأن يقال نعم إنهم من الباشقرد كما قال هؤلاء الفضلاء وإن الباشقرد كانوا أولاً في مملكة وينغرية وماجارستان وألستهم كانت عين ألسنة الماچار ولونهم كان أشقر مثل لون الماچار وجنسهم لا فرق بينهم قط إلا أنهم هاجروا من مساكنهم المذكورة أعني وينغرية بعد عصر هؤلاء الفضلاء في الزمان الفلاني واستوطنوا في أوطانهم الحاضرة أعني ما بين أورال واولغا وتركوا لغة ماچار وتعلموا لغتهم الحاضرة وانسلبوا عن الشقرة وتلونوا بلونهم الحاضر كذلك مستنداً إلى دليل ما ولو ضعيفاً أو بأن يقال إنهم غير باشقرد أورال وأنهم تحولوا بعد ذلك عن وينغرية إلى المملكة الفلانية ثم اشتهروا هناك بالاسم الفلاني وهم الآن القوم الفلاني أو أنهم اضمحلوا بالكلية ولم يبق منهم أثر مستنداً إلى قول أو دليل ما ولو ضعيفاً ومحتملاً فاختر أي شق شئت من هذه الشقوق الثلاثة وأثبتته إن قدرت.

[إطلاق لفظ كانطون]

حتى أن الفاضل المرجاني^(١) لم يتعرض لهذا قط ولم يبد فيه شيئاً من الاحتمالات مع أن من عادته أن يذكر في مثل هذه المسألة احتمالات لا يسبق إليها وهم واهم قط بل قال بعد أن ذكر شيئاً مما نقلناه عن ابن داسة في حق المجغرية هذا يقتضي كون المجغرية طائفة من الباشقرد وينبغي أن يكون إطلاق لفظ كانطون على حكام باشقرد مأخوذاً من لفظ كنده المذكور ثم أورد بعده حكاية من الخرافات لا تعلق لها بما نحن فيه قط وكون لفظ كانطون مأخوذاً من لفظ كنده وإن كان جائزاً إلا أن عين لفظ كانطون لما كان بمعنى الناحية في لغة فرنسا أو أسويجيرة كان القول بأن إطلاق لفظ كانطون على حكام باشقرد لكونهم حكام الناحية أولى وأقرب إلى الصواب من الذهاب إلى الاحتمال الذي أبداه كما يقال الآن لحكام الناحية بالروسية زيمسكي لكونه بمعنى حاكم الناحية.

وهذا شيء ساقنا إليه الاستطراد ولنرجع إلى ما نحن فيه ثم قال نقلاً عن أبي حامد الأندلسي أن الباشقرد في طاعة البلغار وقال أيضاً نقلاً عن أبي إسحاق الاصطخري من باشجرد إلى بلغار خمس وعشرون مرحلة وإلى البجانك الذين هم

(١) المرجاني: هو شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني القراني الحنفي، ولد سنة ١٢٢٣ هـ، وتوفي... تقدمت ترجمته.

صنف من الترك عشر مراحل وباشجرد صنفان صنف في آخر غزية (قرغز) ووراء بلغار وهم زهاء مائتي ألف نفس وموضعهم محكمة وهم في طاعة البلغار وصنف متاخم لحدود بجاناك اه وإن خفف الإشكال المذكور من وجه ولكنه لا يدفعه بالكلية أما تخفيفه فإنه يؤيدان الذي نقل عن أبي الفداء والقزويني والحموي صحيح لا سهو فيه ولا غلط ولا مخالفة لكون مساكن باشقرد في أراضيهم الحاضرة من القديم لكون الباشقرد الذين ذكروا غير الباشقرد الذين في أطراف أورال بل هم صنف آخر منهم كانوا في حدود الإفرنج ومملكة الماچار ولا إشكال في ذلك لما تقدم مرارًا من أن الماچار والباشقرد من جنس واحد.

وأما عدم دفعه الإشكال بالكلية فإنه لا يظهر منه أنه إلى أي شيء آل أمرهم وأنهم أين ذهبوا وهذا هو أصل الإشكال مع قطع النظر عن كونهم باشقرد أو غيرهم فإن التعبير عنهم بباشقرد يمكن أن يكون سبق قلم وغلط النساخ لقرب الألفاظ والأسامي بعضها من بعض فكأنه لم يذهب الإشكال قط.

ولا يمكن الجواب عنه أنهم تركوا الإسلام بعد القرون المذكورة ودخلوا في النصرانية فإن ذلك مع كونه بعيدًا عن العقل بمراحل لم يتعلق به النقل أيضًا قط فإنه لو وقع مثل هذا الأمر العظيم لذكر في واحد من التواريخ خصوصًا من طرف جمعية ميسيونير نصارى الذين إذا ظفروا في مدة سنين بإدخال واحد عن السكارى ومدمن الخمر أو من سائر الفساق في دين النصارى ولو ظاهرًا بصرف مبالغ جسيمة من الأموال يشيعون ويشهرون في جميع العالم أنهم أدخلوا ألوفًا في دين النصارى وإن لم يظفروا به يشيعون ذلك كذبًا وافتراء كما لا يخفى عادتهم الشيطانية هذه على أحد فإن وقع مثل ذلك في وقت ما لأشهبوا أن العالم صاروا بأجمعهم نصارى.

ومثل ذلك في كونه مستبعدًا عند العقل ومحالًا عاديًا القول بفنائهم ومحوهم بالكلية فلم يبق إذاً من الاحتمالات المذكورة إلا القول بتحولهم وهجرتهم من ديارهم إلى ديار أخرى من بلاد الإسلام. وعدم هجرتهم إلى بلاد الدولة العلية العثمانية من قبيل البديهي لعدم ذكرها في واحد من التواريخ العثمانية مع كثرتها وانتظامها ولا نقدر أن نقول إنهم المسلمون الموجودون الآن في مملكة لهستان (بولونيا بالاك) فإن كارامزين يصرح بكونهم من التتار الباقين من توقتامش خان كما سيأتي عند ذكر أحواله ويكفينا دليلًا على ذلك شهرتهم بذلك واشتهارهم عند أهل القريم والعثمانية بتتار لبقة فأى مناسبة لهم بالقوم الذين نحن الآن بصدد بيان أحوالهم.

فحينئذ فلا مانع من أن نقول إنهم طائفة ميشر الكائنين في ولايات طنبو وبنزا وسراطاو ونيژني والباعث على الذهاب إلى هذا الاحتمال ثلاثة:

أحدها: ظهور أن طائفة ميشر ليسوا من التتار الذين وردوا إلى تلك الديار عند خروج جنكزخان ظهورًا بيّنًا^(١) لوجود الاختلاف بين هاتين الطائفتين من جهة العادات واللهجة واللغة ولإطلاق لفظ ميشر في مقابلة التتار في جمع المحاورات حتى إنه يقول الميشر للتتار في معرض السب والتنقيص يا تتار وكذلك يقول التتار للميشر يا ميشار.

وثانيها: القرب بين لفظ ميشر وماجار وباشقرد خصوصًا لفظ مچر الذي هو أحد فروع لفظ ماجار ومجغر على ما تقدم من ابن داسة وكذلك لفظ بشجرد الذي هو أحد فروع لفظ باشقرد فلا بعد في كون هذه الألفاظ محرقة عن أصل واحد مثل اسكيت واسكوتيا وسيتيا الخ وهنغرية وهنغارية الخ نحو ما تقدم ومثل ألفاظ بغداد بغذاذ بعد أن بغدين مغدان وبرطاس وبرداس وفرداس ومرداز وموردوا على ما سيجيء ذكره وأمثال ذلك مما لا يعد ولا يحصى، ألا ترى أن الروس والإفرنج يقولون للفارس برسيه وپرسیان وپارت وللعثماني أوتوماني ولنيبون يابونيا إلى غير ذلك من التحريفات حتى في الألفاظ المتداولة فكما أنه لا يلزم كون هؤلاء مغايرين لأنفسهم لمغايرة هذه الألفاظ المحرقة كذلك فيما نحن فيه لم لا يجوز أن يكون ألفاظ ميشر مچر مجغر بشجرد الخ منحرفة من أصل واحد ولم لا يجوز أن يكون إطلاق لفظ باشقرد وبشجرد على قوم ميشر وماجار من الفضلاء المذكورين لشهرة الأولى وعدم شهرة الثانية في عصرهم أو لكون الأولى أصلًا والثانية محرقة عنها.

وثالثها: كون بلاد القرم المذكورين الذين نحن الآن بصدد بيانهم قريبة ومجاورة وملاصقة لتلك الولايات حتى أنه يمكن أن نقول على ما مر بيانه من ابن داسة وعلى قول كارامزين في بيان الماچار أنها عينها فيكونون وثنيين وعبدة النار في عصر ابن داسة ثم يتشرفون بالدخول في دين الإسلام بالسبب الذي ذكره الحموي والقزويني بعد

(١) وأدل دليل على ذلك هو وجود طائفة ميشر في تلك القطعة في ابتداء ظهور الروسية على ما ذكره كارامزين نقلًا عن نيسطور الذي هو أول مؤرخي الروسية حيث قال عند تعداد الأتوام الموجودين فيهما عند ظهور الروسية وتعيين مساكنهم إن قوم ميشر وموردوا كانوا في الجنوب الشرقي من قوم ميرا اهد انظر كيف جعل هذين القومين متجاورين في ذلك الوقت كما أنهما كذلك اليوم. منه عفي عنه.

انسحابهم إلى جهة الغرب قليلاً على ما ذكره كارامزين وبعد ورود التتار إلى تلك الديار واستيلائهم على سائر الأقطار وتشرفهم بالدخول في دين الإسلام في عصر بركة خان عليه الرحمة والغفران وانقلاب تلك الديار دار إسلام جاوا إلى أقرب ناحية منها من مساكنهم أعني بها ولايات طنبو وپنزا وسرطاو ونيزني التي يمكن أن يقال إنها مساكنهم الأصلية على ما مر من ابن داسة وكارامزين ثم يبدل اسمهم السابق أعني مجغر أو مچر أو باشقرد أو بشجرد على قول بعضهم إلى ميشر كما بدل في حق هنغرية إلى ماجار وتبدل لسانهم الأصلي إلى لسان الترك والتتار الذي هو اللسان الرسمي في تلك الديار في العصر المذكور ولسان العامة والأمة الغالبة ولو معنى في دائم الأوقات ويؤيد هذا وجود كثير من ألفاظ الروس في لسانهم فإن هذا يدل على أن لسان الترك ليس لسانهم الأصلي ويجوز أن يكون لسانهم الأصلي تركياً فيبقى المسلمون منهم على أصل اللسان التركي^(١) ويكون وجود كلمات الروس في لسانهم ناشئاً عن كثرة اختلاطهم بالروس وتبدل لسان من تنصر منهم إلى لغة ماجار الآن كما تبدلت أخلاقهم وعاداتهم الأصلية التركية إلى عادات النصرارى وأعلاقهم كالفرة من اعتقاد المخلوق المتغير الحادث إلهاً ولو كان أعظم المخلوقات وغاية الاجتناب والتباعد عنه حيث تبدلت إلى قبول اعتقاد كون أضعف مخلوق مغلوب من أذل خلق الله مقهور مهان ذليل في أيديهم على اعتقادهم لا على اعتقادنا معاشر المسلمين إلهاً وهذا هو الحق فإن لسان الماجار تركي في الأصل بلا شبهة وقد حاول بعضهم على إثبات ذلك بوجود كلمات تركية في لسان الماجار إلى الآن وقد مر مثل ذلك عن رفاعه بك وأدل دليل عليه كون أدعيتهم في كنائسهم إلى القرن الرابع عشر الميلادي تركية على ما ذكره المير آلاي رتيخ الروسي في بعض آثاره الأنتوغرافية وهاك نصه .

والحاصل إذا نظرنا إلى ما ذكره غير واحد من المؤرخين والجغرافيين والأنتوغرافيين من القول باتحاد جنس ماجار والباشقرد وتأمنا في قرب ألفاظ ماجار ومجغر ومچر وبشجرد وميشر بعضها من بعض ونظرنا مع ذلك إلى كثرة وجود طائفة ميشر فيما بين باشقرد الآن في ولايات صمار واورنبور واوفا لا يستبعد ما بيناه بل نجد مناسبة تامة بين هذه الطوائف من القديم ويكون ما ذكره الفاضل المرجاني أيضاً من قوله وهذا يقتضي كون المجغرية طائفة من الباشقرد صحيحاً وواقعاً في حاق موضعه .

(١) ولكن يأتي عن هذا ما تقدم عن الحموي من كون لسانهم لسان الفرنج . منه عفي عنه .

وأما مادة مخالفة الأشكال والسيما والألوان التي أوردتها رفاة بك اعتراضاً كما مر فليس الأمر كما زعم فإننا نرى ونشاهد بعيوننا أن أربع إخوة أشقاء مثلاً إذا ذهب كل واحد منهم إلى مملكة مختلفة السمات والجهات وتوطنوا بها واختلطوا بأهاليها المختلفة الأشكال والألوان والألسن والأطوار والأخلاق والعادات يأخذ أولاد كل منهم المتولدون في تلك الممالك عادات أهالي المملكة التي ولدوا فيها وأخلاقهم وأطواقهم ولغاتهم وألوانهم وأشكالهم ولو في الجملة ويكون بحيث إذا اجتمعوا في محل واحد لا يصدق كون أصلهم من ولاية واحدة وأمة واحدة فضلاً عن تصديق كونهم أولاد إخوة أشقاء فكيف يكون حال أولاد هؤلاء الأولاد وهلم جرا دع هذا بل انظر إلى الاختلاف الموجود بين هؤلاء الإخوة المذكورة في تلك الأشياء فإنك ترى فيما بينهم تفاوتاً عظيماً ويظهر هذا التفاوت ظهوراً بيناً زائداً فيمن يقيم فيما بين القذاق والجهة الشمالية على أنا نقول إن هذا القائل لم ير من المغل والتار إلا رعاة الإبل والغنم فحكم بقبح الصورة في كلهم ولم ير ما ذكره العلامة ابن عربشاه الدمشقي^(١) في وصف التار بقوله: رجالهم بدور ونساؤهم شمس ولم ير ما ذكره غير واحد في بعض أفراد المغل بأنه كان حسن الصورة جداً لم ير مثله قط كما سيجيء ذكره في ولد توقطاغو خان ايلبصار وأوزبك خان عليه الرحمة وما ذكره غير واحد في أهالي طراز وچكل من بلاد الترك من أنهم في غاية الحسن والجمال وما مر ذكره عن ابن فضل الله العمري^(٢) من حسن شمائل الأتراك واعتدال قدودهم وظرافتهم ولم يتأمل في التفاوت الفاحش بين أهالي إستانبول وأهالي أناطولي بل بين أهل القرى وأهل البلاد في كل مملكة في الأشياء المذكورة مع اتحاد جنسهم وأصلهم.

هذا هو تحليل هذه المسألة الصعبة بالنسبة إلى كيمياء ذهن هذا العاجز ومن رام الزيادة فمجال الكلام واسع خصوصاً لمن حصل الفنون والمعارف من معدنها من بلاد التمدن والمعارف الجديدة ويوشك أن يدرك نوابغ في مدارس قزان وأورنبور أيضاً يحققون أمثال هذه المسألة تحقيقاً شافياً بحيث نستفيد من ثمرات تحقيقاتهم العالية فإنني لا أدعي أن هذا هو الحق والصواب الذي لا يقبل النقض والإبطال بل الغرض

(١) ابن عربشاه: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل، ثم الرومي، الحنفي، شهاب الدين، أبو محمد المعروف بابن عربشاه، الأديب المؤرخ، المتوفى سنة ٨٥٤هـ، تقدمت ترجمته.

(٢) ابن فضل الله العمري: تقدمت ترجمته.

عرض ما أدى إليه ذهني الكليل وخاطري الفاتر على أنظار الأذكياء أرباب المعارف وأصحاب الفنون لينظروا فيه ويتصرفوا بالنقض والإبرام والرد والقبول والتسديد والتعديل حتى يظهر لين الحق والصواب من بين فرث الغلط ودم الشطط ويكون شرابًا سائغًا للشاربين فإن تكميل الصناعة إنما يكون بتلاحق الأفكار خصوصًا في مثل هذه المسألة المبتكرة التي لم يتكلم فيها أحد وحقيقة العلم عند الله سبحانه وتعالى.

قال في المستطرف^(١) نقلًا عن الشيخ أبي عبد الله الغرناطي دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألفًا ومائتي مثقال وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعًا وطول عضد أحدهم ثمانية أذرع وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام اهـ.

هذا ونبين أحوال الباشقرد الحاضرة في المقصد الرابع إن شاء الله تعالى.

١١ - البرجان

يذكرهم السواح المتقدمون من المسلمين ويجعلونهم طائفة من الأتراك ويعينون مساكنهم في حدود الإفرنج مثل ماجار وباشقرد قال الملك المؤيد أبو الفدا^(٢) في تاريخه: ومن النصارى البرجان وهم أمة كبيرة بل أمم كثيرة طاغية فشا فيهم التثليث وبلادهم في نهاية الشمال^(٣) وأحوالهم غير معلومة لنا لبعدها المسافة وشراسة أخلاقهم اهـ.

وقال القزويني^(٤): البرجان متوغلة في الشمال ينتهي قصر الليل هناك إلى أربع ساعات وأهل تلك الديار على المجوسية والجاهلية يحاربون الصقالبة وهم كالإفرنج في أكثر أمورهم ولهم حذافة في الصناعة ومراكب البحر اهـ.

(١) المستطرف: هو كتاب «المستطرف في كل فن مستطرف» للأبشيبي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور المصري الشافعي المعروف بالخطيب الأبشيبي المتوفى سنة ٨٥٠ هـ (كشف الظنون ١٩٦/٦).

(٢) أبو الفداء الأيوبي: تقدمت ترجمته.

(٣) وقال ابن فضل الله العمري ويلي خوارزم أرض مدورة وتسمى هذه الأرض المدورة منغشلاغ طولها خمسة أشهر وعرضها كذلك وكلها صحراء وسكانها أمم كثيرة من البرجان اهـ. منه عفي عنه.

(٤) القزويني: تقدمت ترجمته.

قال أبو عبيد البكري^(١) فأما برجان فهم بعض ولد توبال بن يافث وهم على المجوسية ومملكتهم واسعة وهم يحاربون الروم والصقلب والخزر والترك وأشدهم عليهم الروم لقربهم منهم وإنما بين قسطنطينة وحد ملكهم خمسة عشر يومًا ومملكة برجان عشرون يومًا في ثلاثين يومًا وهم لا يركبون الدواب إلا عند الحروب وإذا صالحهم الروم أدوا إلى الروم الخراج جواري وغلما نًا من سبي الصقلب اهـ.

وقال الحموي في معجم البلدان برجان بالجيم بلد من نواحي الخزر قال المنجمون هو في الإقليم السادس وطوله أربعون درجة (كذا) وعرضه خمسة وأربعون درجة وكان المسلمون غزوه في أيام عثمان رضي الله عنه فقال أبو نخيل التميمي. شعر:

بدينا بجيلا ن فلزل عرشهم كتائب ترجى في الملاحم فرسانا
وعدنا لا شبان بمثل عداتهم فعادوا حوالي بين روم وبرجانا
اهـ.

يقول جامع هذه الحروف بقي منهم في عصرنا هذا شرذمة قليلة في أطراف قسبة أورسكي يقال لهم باشقرد برجان بالإضافة ومن سواهم قد تفرقوا شذر مذر وانقلبوا إلى أمم شتى فلم يبق منهم أثر ولم يعدهم المتقدمون من الباشقرد بل ذكروهم على حدة في مقاتلهم لا أن هؤلاء الطائفة الباقية منهم يعدون أنفسهم من باشقرد يدعون العصبية في الأرض وقد مر ذكر غزو أنوشروان إياهم نقلًا عن ابن الأثير^(٢) وقد قدمنا هناك احتمال كونهم تتار جوجان المنقول ذكرهم عن تواريخ الإفرنج ويؤيده عدم ذكرهم فيها قط بعنوان برجان مع كونهم أمة عظيمة بشهادة مؤرخ المسلمين وقد ذكر ابن الأثير غزو قياصرة الروم أيضًا إياهم في العصر الثالث الهجري فعلى هذا يحتمل كونهم من البجانك وبالنظر إلى الاحتمالين يحتمل كون أصل البجانك تتار جوجان والله سبحانه أعلم.

١٢ - البرطاس

قال أبو عبيد البكري: وأما بلاد فرداس فهي ما بين الخزر وبنغار بينهما وبين بلاد الخزر خمسة عشر يومًا وهم حرب لبلغار وبجاناكية دينهم شبيه بدين الغزية ولهم أرض واسعة سهلة ومشاجر كثيرة وأرضهم مسيرة شهر ونصف في مثلها وينتهي

(١) أبو عبيد البكري: تقدمت ترجمته. (٢) ابن الأثير الجزري: تقدمت ترجمته.

عددهم (لعله عسكرهم) عشرة آلاف فارس وأكثر أشجارهم الخنج وبلاد بلكان متاخمة لبلاد برداس بينهما مسيرة ثلاثة أيام إلى آخر ما سيأتي في بيان بلغار.

وقال أبو الفداء في تقويم البلدان مدينة برطاس قاعدة هذا الجنس من الأتراك حيث الطول (عو) والعرض (نب)^(١) ولبرطاس مجالات كثيرة على نهر اتل الذي في شريقهم وجنوبهم اهـ ولا أدري أن هذه المدينة كانت موجودة في عصر أبي الفداء أو كتبها بناء على بيان المتقدمين وسيجي بيانها.

وقال بعضهم إن برطاس منفرشة على ساحل نهر يسمى بنهر برطاس. هو يصب إلى نهر ايل اهـ.

وقال المسعودي^(٢) وبرطاس أمة من الترك على ما ذكرنا على هذا النهر المعروف بهم ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب أسود والحرر التي تعرف بالبرطاسية يبلغ الجلد منها مائة دينار وأكثر ذلك من السود والحرر أخفض ثمنًا منها وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم وتتنافس في لبسه وهو أعلى عندهم من السمور والعبك وما شاكل ذلك وتتخذ الملوك منه القلائس والخفاف ويتعذر في الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود اهـ.

قال أبو علي أحمد بن داسة الفصل الثاني ذكر برداس. البرداس. وبلاد برداس بين الخزر وبين بلكار وبينهما وبين الخزر مسيرة خمسة عشر يومًا وهم في طاعة ملك الخزر يخرج منها عشرة آلاف فارس وليس لهم رئيس يضبطهم وينفذ حكمه فيهم وفي كل محلة منهم شيخ أو اثنان يتحاكمون إليه فيما يقع بينهم إلا أنهم في الأصل على بلغار وبنجناكية ولهم جلد وشهامة ودينهم شبيه بدين الغزية ولهم رواء ومنظر وأجسام فإذا كان من أحدهم على الآخر إقدام أو ظلم أو إصابة بجراحة أو طعن لم يكن بينهم اتفاق واجتماع على صلح ما لم يأخذ المجروح بثأره وإذا أدركت الجارية منهم تركت طاعة أبيها واختارت لنفسها من أرادت من الرجال إلى أن يجيء أباهَا خاطب فيخطبها فيزوجها منه إن أراده ولهم جمال وبقر وعسل كثير وأكثر أموالهم الدلق وهم صنفان صنف منهم يحرق الميت والصنف الآخر وهم في سهل من الأرض وأكثر أشجارهم الخلنج ولهم مزارع وأكثر أموالهم العسل والدلق والوبر وسعة أرضهم مقادر سبعة عشر يومًا طولاً وعرضًا اهـ بحروفه.

(١) (عو) تساوي في حساب الجمل ٧٦، و(نب) تساوي ٥٢.

(٢) انظر مروج الذهب ١/٢١٥ (فقرة رقم ٤٥٤).

قلت وهذا القول مقارن للصواب في مسافة أراضيهم.

وقال الحموي في معجم البلدان برطاس بالضم اسم لأمة لهم ولاية واسعة تعرف بهم وينسب إليهم الفراء البرطاسي وهم متاخمون للخزر وليس بينهما أمة أخرى وهم قوم مفترشون على وادي اتل وبرطاس اسم للناحية والمدينة وهم مسلمون ولهم مسجد جامع وبالقرب منها مدينة تسمى سوار فيها أيضًا مسجد جامع ولأهل برطاس لسان مفرد ليس بتركي ولا بخزري ولا ببلغاري قال الاصطخري من كان يخاطب بها إن مقدار الناس من المدينتين نحو عشرة آلاف رجل لهم أبنية خشب يأوون إليها في الشتاء وأما في الصيف فإنهم يفترشون في الخركاهات^(١) قال المخاطب وإن الليل عندهم لا يتهاى أن يسار فيه في الصيف أكثر من فرسخ ومن اتل مدينة الخزر إلى برطاس مسيرة عشرين يومًا ومن أول مملكة برطاس إلى آخرها نحو خمسة عشر يومًا انتهى بحروفه.

تنبيه: ذكر الفاضل المرجاني^(٢) أحوال البلغار والبرطاس التي نقلها عن ابن داسة مختلطًا بعضها ببعض وملتبسة حيث ينسب إلى البرطاس ما يأتي في بيان بلغار نقلًا عن ابن داسة من قولهم إنهم يأخذون العشر إذا وردت إليهم سفن المسلمين للتجارة الخ مع أن ابن داسة ذكر أحوال كل منهما في فصل على حدة من غير خلط أحوال بعض منها بأحوال الآخر ذكر أحوال البرطاس في الفصل الثاني وأحوال البلغار في الفصل الثالث كما ذكر الخزر في الفصل الأول وكذلك نقل الفاضل المرجاني عن أبي عبد الله الغرناطي مثلما نقلنا الآن عن الياقوت الحموي من كون البرطاس مسلمين ووجود مساجد لهم ولم أر هذا في تحفة الألباب لأبي عبد الله الغرناطي مع تفتيشي إياها بالدقة وكذلك قول الحموي وفي قره مدينة تسمى سواء يوقعني في توهم أن الأمر اشتبه على الحموي فأثبت أحوال بلغار لبرطاس فإن غيره كلهم جعلوا مدينة سوار بقرب بلغار ومن مدنها لا بقرب برطاس ومدنها نعم في مجموعتي سطر واحد عربي العبارة لم يذكر مأخذه وهو هذا البرطاس ولاية واسعة في مملكة خزر وأهلها مسلمون ولغتهم مغايرة لجميع اللغات اهـ.

(١) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ١٤٦/٢).

(٢) المرجاني: تقدمت ترجمته.

وقال في ترجمة عجائب المخلوقات البرطاس قوم في حدود خزر إذا ملكوا شخصاً على أنفسهم يأخذون بتليبيه ويجرونه إلى أن يكاد يموت ويقولونه كم مدة تريد أن تمتلك فإن عين مدة ولم يمت فيها يقتلونه وبعض البرطاس مسلمون اهـ.

والفاضل المرجاني أسند العادة المذكورة إلى الخزر نقلاً عن ابن الأثير ونقل عنه إسلامهم أعني إسلام الخزر أيضاً في سنة ٢٥٤ بسبب ما ولم أرهما في تاريخ ابن الأثير مع كثرة تبعية إياه نعم ذهب ابن الأثير في موضع من تاريخه كون الخزر كرجياً ولعله بسبب المقاربة في الاسم والموضع وعلى كل حال كيف يقول بإسلاميتهم في السنة ٢٥٤ المذكورة بعد حكمه بكونهم كرجياً محققاً نصرانيتهم فهذا يدل على أنه نقله عن غيره فحرّفه النساخ.

وبعد أن ذكر الفاضل المرجاني ما ذكره السواح والمؤرخون في حق البرطاس ذكر عدم علمه بهم وذكر وجود قريتين في ملحقات قصبة تتوش تسميان الوغ برطاس وكوچك برطاس ولم يذكر فيهم غير ذلك.

يقول جامع هذه الحروف سيجيء في بيان بلغار ذكر كون بلغار وبرطاس ابني كماري بن يافث وكون قوم بلغار وبرطاس من نسلهما وذريتهما نقلاً عن روضة الصفا وأما مصداق برطاس الآن وقومه فطائفة موردوا فإن البرطاس كما يقال لهم في العربي فرداس وبرداز يقال لهم الآن عند أهل ولايات سراطا ووينزا من المسلمين مرداز فكما يقول أهل القزان وقت السب ياچرمش چواش كذلك يقول أهل الولايات المذكورة وقت السب ياموقش مرداز ومع قطع النظر عن ذلك يكفي دليلاً على كونهم من بقايا برطاس وفرداس وبرداس إطلاق لفظ موردوا عليهم عند الروس فإنه يدل على كون الألفاظ المذكورة منحرفة عن أصل واحد وموضعهم الحالي برهان آخر مستقل لكونهم من بقاياهم ولا يبعد أن يتشرف بالدخول في الإسلام ويتوطن في موضع قريب من بلغار أعني به جوار قصبة تتوش كما نقل عن البعض فتكون تلك القريتان منسويتين إليهم وقد سمعت عدة من الثقات وجود أثر مدينة خربة بقرب إحدىهما تسمى خربة مدينة برطاس ووجود أثر مسجد خراب وبعض آثار قديمة مشاهد متبركة فيها ومجيء بعض الناس لزيارتها كما يذهبون لزيارة خرابة بلغار ويحتمل أن يكون أصل مملكتهم في قديم الزمان هناك ثم تحولوا إلى مواضعهم الحاضرة بسبب انقلابات الأحوال والزمان ولكن بالنظر إلى ما مر عن المؤرخين من قولهم وبلادهم على مسافة خمسة عشر يوماً يرى أنه لم يقع تغير كثير

في الجنوب الشرقي من بلادهم فإنهم ممتدون إلى الآن على طول نهر صور من ولايتي سراطاو وبنزا إلى ولايتي نيژني وريزان.

وأما الجهة الشمالية من بلادهم فلعله وقع فيها نوع من التغير وهم وإن كانوا تابعين للحزر تارة وللبلغار أخرى على ما يظهر من أقوال السواح إلا أنهم حازوا الاستقلالية أيضًا في بعض الأحيان وقد ذكر كارامزين هجوم الروسية عليهم وحدوث وقعة بينهما في حدود سنة ١١٠٦ م مصادفة سنة ٥٠٠ هـ وهجوم البرطاس على الروسية في السنة ١١٠٧ م الثانية للانتقام منهم وعودهم إلى بلادهم بأسارى كثيرة وغنائم وفيرة وقال إن هؤلاء الموردوا كانوا يسكنون من القديم في ولايتي طنبرو ونيژني مجاورين لبلغار قزان ومتصلين بهم وكذلك يفهم من قول كارامزين حصول الاستقلال لهم أثناء الاختلال الأول الطارئ على دولة التتار ووقائع الأمير مهاي مع الروسية على ما يأتي بيانها في محلها وقد صرح بنصبهم حاكمًا مستقلًا على أنفسهم أيام حصول الضعف الكلي لدولة التتار ونفسها الأخير كما قال الشاعر. شعر:

وإذا أناخ الليث في عريستها غن البعوض وزمر الذبان

وأما الآن فهم مقيمون في الولايات المذكورة تابعون للروسية يتدينون في الظاهر بالنصرانية وهم أنجس خلق الله وأبجهم وشرهم عادات وأخلاق.

بقي الكلام في أنه إذا صح القول بتشرف بعضهم بشرف الإيمان والإسلام أين ذهب هؤلاء فإنه لا يوجد الآن في المسلمين من يسمى برطاسًا وموردوا ولا في موردوا من هو مسلم.

قلت على تقدير صحة القول المذكور لا شك أن إسلامهم تابع لإسلام بلغار فكما أن طائفة چواش وچرمش وآر وسائر الوثنيين هناك إذا أسلموا يتركون عادات قومهم وأخلاقهم ولغاتهم ويأخذون عادات من صاروا سببًا لإسلاميتهم أعني أهل بلغار وتتار وأخلاقهم ولغاتهم وينقلبون إليهم انقلابًا كليًا بحيث لا يذكرون بعد ذلك بأسماء أجناسهم الأصلية بل يعدون من أهل بلغار وتتار كما هو واقع إلى عصرنا هذا كذلك قوم برطاس (موردوا) تركوا بعد الإسلام عاداتهم وأخلاقهم ولغاتهم الأصلية وأخذوا عادات أهل بلغار الذين هم متبوعهم ومقتدى بهم في إسلاميتهم وأخلاقهم ولغاتهم وانقلبوا إليهم بالكلية وعدوا منهم فلم يذكروا بعد ذلك باسم جنسهم الأصلي ولما استولت التتار على تلك الديار وانقرضت دولة البلغار سميت كافة المسلمين في تلك الأقطار باسم التتار وكذلك يسمون إن شاء الله إلى قيام الساعة التي يكون الحكم

فيها لله الواحد القهار وأما بالنظر إلى الحقيقة فليست تلك الأقوام بلغازًا صرفًا ولا تآزًا محضًا بل هم مخلوطون من أقوام شتى ومعجونون من عقاير متفرقة كما سيجيء بيانه في بيان بلغار في المقصد الأول وبيان أهل قزان في المقصد الثالث إن شاء الله تعالى .

١٣ - [الصقالبة]

الصقالبة^(١) وقد عين السواح المتقدمون مواضعهم في جهة الغرب من مواضع جميع الأقوام المذكورين فعلى هذا يلزم كونهم عبارة عن جميع الأقوام الداخلين تحت اسم أسلاوان من الروس وجه (چيخ) وله (ولاخياپالاک املاق) يعني لهستان وبولونيا وبوهيميا وغيرهم وهم وإن ذكروا الروس في مقابلتهم ولكن حقيقة الأمر المطابقة للواقع هو هذا الذي ذكرنا أعني كون الروس داخلًا فيهم وما ذكره المتقدمون إنما نشاء من عدم اطلاعهم على حقيقة الحال ومع ذلك بين أسلاوان الروس وسائر أقوام أسلاوان فرق ولذلك بين كارامزين أسلاوان الروس على حدة بعد بيانه سائر أسلاوان وذهب إلى احتمال كون أصلهم إنقراض عساكر الغوت الكائنين تحت رئاسة كيرماناريس وعساكر هون الكائنين تحت حكومة آتيلما المار ذكرهما كما سيجيء تحقيقه في المقصد الرابع إن شاء الله تعالى .

والحاصل أن أقوام أسلاوان وآوار وبلغار ومآجار إنما ظهوروا في وقت واحد بعد انقراض دولة الهون وقد سبق ذكر إزعاجهم دولة الروم مدة مديدة أثناء بيان أحوال الآوار إجمالاً .

واستظهر مترجم القاموس كون لفظ الصقالبة مأخوذًا من لفظ ثغاليائي^(٢) اليوناني

(١) قال ابن داسة إن بينهم وبين بلاد البجاناكية مسيرة عشرة أيام تسير إليها في مفاوز وأرضين غير مسلوكة وعيون مياه وأشجار ملتفة وبلادهم سهلة ومشاجر وهم نزول فيها والعسل عندهم كثير وهم يرعون الخنازير مثل الغنم ويحرقون أمواتهم بالنار ورئيسهم يسمى سوبنج ومسكنه في وسط بلاد الصقالبة ورئيس الرؤساء يسمونه سويت الخ . وقال القزويني في آثار البلاد أرض صقلاب في غربي الإقليم السادس والسابع وهي أرض متاخمة لبلاد الخزر (يعني في وقت ما) في أعالي جبال الروم وهم قوم كثيرون صهب الشعور حمر الألوان ذوو صولة شديدة اهـ منه عفي عنه .

(٢) كذا ذكر عند ذكر الصقالبة ووقع في مادة بلغر عند قول صاحب القاموس مدينة الصقالبة فثالية بتقديم الفاء على الثاء والصواب هو الأول وقال إن ديارهم بين بلغار وبين القسطنطينية وهي مبنية في كتب الجغرافيا بديار جه وله وانكروس وافلاق وبغدان داخلان فيها . منه عفي عنه .

ولكنه لم يذكر معناهما ما هو ويرد عليه أن الصقالبة في استعمالهم هو جمع صقلاب وعلى قوله لا يكون جمعاً بل منقولاً ومعرباً كما هو، وكثيراً ما يطلق المتقدمون الصقالبة على جميع الأقوام الكائنين وأرباب الأبواب أعني شمال قفقاذا كما مر عن القزويني من جعله أحمد بن فضلان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة مع أنه رسوله إلى ملك البلغار.

وقال أيضاً في كتابه المذكور عند بيان الصقالبة أرض الصقلاب في غربي الإقليم السادس والسابع وهي أرض متاخمة لأرض الخزر في أعالي جبال الروم^(١) وهم قوم كثيرون صهب الشعور حمر الألوان ذوو صولة شديدة حكى أحمد بن فضلان لما أرسله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة وقد أسلم حمل إليه الخلع وذكر من الصقالبة أموراً عجيبة اهـ ما هو المقصود.

انظر كيف عبر عن بلغار وولغا وقزان بالصقلاب وكذلك ذكر صاحب القاموس عند بيان بلغر أنها مدينة الصقالبة كما سيجيء ووجه ذكرنا الصقالبة هنا مع عدم كونهم من الأقوام التركية في الظاهر والمشهور هو هذا أعني إطلاق الصقالبة على الأقوام التركية الكائنة في تلك القطعة كما بينا وكثرة وقوعها وذكرها في كتب المسلمين ووقوع ذكرها أثناء بيان بلغار في قول القائل هم قوم متولدون بين الترك والصقالبة فذكرناها ههنا لثلاث نحتاج إلى ذكرها هناك ولهذا لم نذكر الصقالبة والبرجان في الإجمال.

فإذا علم من البيانات السابقة استملاك الأقوام التركية والقبائل التتارية القطعة المذكورة قبل ظهور الروسية بقرون كثيرة لا يعين التاريخ مبدأها وتداولهم إياها وتوطنهم بها واحدة بعد واحدة إلى عدة قرون بعد ظهور الروسية أيضاً يظهر يقيناً كون الأراضي المحدودة بالبحر الأسود جنوباً وبنهر طونه وويستوله وواقه غرباً إلى منتهى المعمورة من جهة الشمال ملكاً صريحاً للأتراك فضلاً عن الأراضي المسماة الآن بالروسية الجنوبية. وتتضح هذه المسألة كمال الانتضاح إذا حصل الوقوف والاطلاع على موقع الروس وحالهم عند بداية ظهورهم وقد مر بيانه إجمالاً عند ذكر الخزر وسيذكر تفصيله في الجملة في أول المقصد الرابع إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر أسامي أقوام أخرى في القطعة المذكورة غير ما ذكرناه في كثير من مصنفات القوم كقوم زيران وميرا وراديمچي وواتيچي ومورمسي وليو ويوغرا وواه

(١) لعله الروس ولكن في الأصل المنقول عنه هكذا. منه عفي عنه.

بلانديا وغير ذلك وقد انقلب كل هؤلاء إلى الروس ويذكر كل منهم اليوم بعنوان الروس.

وإذا علم ذلك وما ذكرناه سابقًا من انقلاب أكثر تلك الأقوام الذين بيناهم بعد انقراض دولتهم إلى الروس لا يتوقف أحد في الحكم بأن تكاثر الروس إلى هذا الحد وبلوغه إلى تلك الملايين التي يعرفها كل أحد ليس من جهة التناسل والتوالد فقط بل بانضمام هؤلاء الأقوام المذكورين وانقلابهم إليهم وفق قوله تعالى: ﴿يَنْمَعَشِرَ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَمْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] الآية وخصوصًا بعد انقراض دولتي تتر سراي وقزان. وغير ما ذكر في الروسية أقوام آخر مثل چواش وچرمش (سرماتيا) وآر وأهل فنلانديا يقال لهم الفن والأمة الفنية كما تقدم ذكره المجرد أثناء النقول عن رفاة بك خصوصًا عند ذكر ماجار وكذلك البرطاس (موردوا) يعد من الفنية أيضًا وهؤلاء الأقوام يعدون عند المؤرخين والأنتوغرافيين من الأتراك وليس إطلاق اسم الفن والفنية عليهم من جهة الأنتوغرافيا فإنهم وإن كانوا مشتركين في جنس واحد وهو جنس الترك إلا أنهم ليسوا قبيلة واحدة منها بل قبائل شتى أما چرمش وبرطاس فقد بيناهما وأما چواش فالظن الغالب أنهم أصل قوم بلغار كما سنبينه في المقصد الأول إن شاء الله.

١٤ - [قوم آر]

وأما آر فالظن أنهم من قوم آريا كما يدل عليه اسمهم وهم قوم وردوا من طرف الشرق إلى أوروبا وانتشروا فيها وظن بعض الأنتوغرافيين أن إيران وآريا كلاهما واحد وأما أهل فنلانديا فهم أيضًا من الأقوام الشرقية عند المؤرخين والأنتوغرافيين وإنما أطلق الفن والفنية على هؤلاء الأقوام لأمر خارج عارضي قال المير آلاي ريتيخ الروسي في بعض آثاره الأنتوغرافية أن لفظ الفن كلمة أسوجية أو إنكليزية بمعنى البدوي^(١) والصحراوي سموا بذلك لكونهم من أهل البادية في الأصل وكان يسكن في أراضي ولاية قزان قبل ظهور البلغار طائفتان من الفن أحدهما زيران والآخر موردوا وكانوا يسكنون في الأخبية ويكتفون بلحوم الصيد وكان آلاتهم العظام المحددة الخ ويؤيده ما ذكره رفاة بك من أن الأقوام التركية

(١) وهذا يشابه قول كارامزين في وجه تسمية پالاک بولونيا أنهم إنما سموا بها، لإقامتهم في أرض سهلة فإن پولون بمعنى الأرض السهلة اهـ وهي أعني الأرض السهلة تسمى إلى الآن عندنا بولونا لكن بشرط كونها شاطئ الأنهر وذات أعشاب. منه عفي عنه.

الواردين من آسيا إلى أوروبا كانت الإفرنج يسمونهم همكسوية بمعنى الرحالة النزلة والله سبحانه أعلم.

قال كارامزين بعد تعداد الأقوام المذكورة نقدر أن نعددهم من جنس واحد وأن نسميهم عمومًا باسم الفن ونقل عن كثير من المؤرخين توطن الأمة الفنية في شمالي أوروبا من البحر المتجمد وأقصى شمال أوروبا إلى سيبيريا إلى أورال وولغا وتوطن أسوج ونروج (شويتسيه ونرويتسيه) معه وقال كما إننا لا ندري أنهم متى جاؤوا إلى تلك الأراضي التي تسمى بالروسية كذلك لا ندري في شمالي روسيه وشرقيها قوماً أقدم منهم زماناً اهـ.

والذي يتعجب منه ويستغرب في هذا المقام أنحاء تلك الأقوام كلهم وفناؤهم وغيابهم في الغرب بعد أن ظهوروا من الشرق وجاؤه كالنيرين وسائر الكواكب وكان الحق سبحانه وتعالى أودع في الغرب الخاصية المذكورة بالنسبة إلى جميع الأشياء وأغرب عن ذلك انعكاس الأمر منذ قرون عديدة أعني مهاجمة أهل الغرب إلى الشرق ولنتنظر فيهم ما وقع لأهل الشرق في الغرب من الانحاء والفناء والعقاب وكان طلوع الشمس من مغربها كناية عن هذا وعن ظهور المعارف والفنون بعد غيوبتها فيه والله سبحانه أعلم بأسرار مكوناته وما أودع في مخلوقاته ومصنوعاته من مكوناته.

[محاسن التتار والترك]

وقد ناسب هنا أن نذكر ما وعدنا ذكره عند بيان سبتيا نقلاً عن رفاة بك . قال في معرض الرد على من يزعم عدم الشجاعة في أقوام آسيا حين رأى انقيادهم الآن للأجانب انقياد الشاة للراعي بعد بيان طويل في أوصافهم وفتحهم الأقاليم وشجاعتهم وهؤلاء الفاتحون هم التتار والأفغان والمغل والمنجو وغيرهم وكل هؤلاء الأمم مشهورون عند عامة المتأخرين باسم التتار وعند المتقدمين بأسقوتية آسيا إلى أن قال وعندهم قري الضيف والإغضاء عن مساوئ الأعداء وحسن معاملتهم وعدم خيانة حلفائهم وأصدقائهم وينضم إلى هذه الخصال حب الحرب والسلب ومعيشة الرحالة النزلة وهذا ما كان عليه أسقوتية وهو إلى الآن وصف التتار فإن أسقوتية تجرأوا على سطوة دارا ولم يخشوا له بأساً وجبهوه وأفادوا له اعتباراً عظيماً وهم وإن قرعت أسلحة الرومانيين أذانهم إلا أنهم لم يذوقوا مرارة أحكامهم وقد تغلبوا على آسيا وأوروبا الشرقية ما ينيف على عشرين مرة وأسسوا ممالك في بلاد العجم والهند والصين والموسكو فإن سلطنة تيمرلنك وچنكرخان قد اشتملتا على نصف الدنيا

القديمة وكانت بلاد التتار كالبستان العظيم النقائل تنتقل لأمم منها شيئاً فشيئاً إلى غيرها فكأنها قد نفذ الآن ما فيها وصارت خاوية على عروشها فلم يبق من التتار الأحرار المستقلين بحكم أنفسهم إلا من ندر ولكنهم سادات بلاد الصين اهـ.

فمن نظر فيما ذكرنا بإمعان النظر وتأمل حق التأمل لا أخاله يرتاب فيما ادعينا من أن أصل كافة تلك الأقوام المذكورة هو الترك والتتار وما أحسن هاتين الفقرتين من كلام رفاة بك وما أصدقهما أعني قوله وكانت بلاد التتار الخ فإن كافة الملوك الإسلامية سوى بني أمية والخلفاء العباسية ونزر يسير من غيرهم خرجوا من تلك البلاد ومن الجنس المذكور أعني الترك والتتار وانتشروا في الآفاق والأقطار وصدر عنهم في نشر نور الإسلام وبث العدالة آثار أي آثار وهذا مع قطع النظر عما صدر عن أوائلهم وأسلافهم في الجاهلية من السطوة والغلبة والانتصار ومن تخلى عن لباس التعصب والاعتساف وتحلى بثياب قبول الحق وحلية الإنصاف وطالع تواريخ الغابرين والأسلاف وأجال نظره في أحوال الخواقين الإسلاميين ثم السامانيين ثم الديالمة ثم الغزنويين والإخشديين والطولونيين ثم السلجوقيين والأتابكيين ثم الخوارزمشاهيين والغوريين والأيوبيين والملوك الأتراك^(١) والچراكسة بالديار المصرية والشامية وأواخر

(١) قلت لا خلاف في كون المعدودين من الترك بين المؤرخين إلا في السامانيين والديالمة والأيوبيين والغوريين فأما السامانيون فالأكثر على أنهم من ذرية أكاسرة الفرس ولا دليل يدل على خلافه فليكن الأمر كذلك ولكن لما كانوا في بلاد الترك لا بأس بعدهم منهم مجازاً وكذلك الديالمة والغوريون وأما الأيوبيون فالأكثر كذلك على أنهم من الأكراد حتى استقر الأمر الآن على ذلك ولم يبق فيه خلاف أصلاً مع أنه لا دليل على ذلك سوى كونهم من بلاد الأكراد ومن المحل المختص بهم وكونهم شافعيين ولا يخفى على المتأمل المتبصر أن واحداً من هذه الوجوه لا ينهض دليلاً على كونهم من الأكراد مع قيام أدلة قوية دالة على كونهم من الترك. منها ما قاله القاضي السعيد ابن سعد الملك في مدح الملك الناصر السلطان صلاح الدين بن أيوب شعر:

بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصלב

ومنها ما ذكره ابن خلكان في تاريخه في ترجمة أبي الفرج عبد الله بن أسعد المنعوت بالمهذب نقلاً عن العماد الكاتب الأصفهاني حيث قال ثم قال (يعني الأصفهاني) بعد ذلك ولما وصل السلطان صلاح الدين رحمه الله إلى حمص وخيم بظاهاها خرج إلينا أبو الفرج المذكور فقدمته إلى السلطان وقلت له هذا الذي يقول في قصيدته الكافية التي في ابن رزيك شعر:

أمدح الترك أبغي الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا

قال فأعطاه السلطان وقال حتى لا تقول إنه متروك اهـ. ومنها ما ذكره في الروضتين نقلاً عن ابن أبي طي حيث قال قال (يعني ابن أبي طي) وحكي أن الشريف الجليسي وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان بعد القبض =

الچنكزيين بالعراق وما وراء النهر والبلاد الشامية بل الصينية أيضًا ثم السلاطين العثمانية أيدهم الله تعالى وقوى شوكتهم لا يرتاب أصلًا في صدق الفقرة الأولى بل يبادر إلى التصديق في أول وهلة بلا تردد في ذلك ويدرك صدق قول القائل فيما هنالك شعر^(١):

بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
وكذلك قول القائل شعر^(٢):

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي
جيش من الترك ترك الحرب عندهم عار وراحتهم ضرب من الضرب
ولله در القائل لا فض فوه شعر:

وفتية من من كماء الترك ما تركت للرعء كباتهم صوتًا ولا صيتا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنا وإن قوتلوا صاروا عفاريتا

إلى غير ذلك مما فيل فيهم وأنا أسمعك مدائحهم آنا فإننا بحوله تعالى رغما على من ينكر ذلك.

= على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم قال نعم طلبني العاضد يوما وجماعة من الندماء فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيتكم وقلانس مثل قلانسكم وفي أواسطهم مناطق كمناطقكم فقلنا له يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط فقال هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرنا اهـ ودلالة هذه الوجوه على كونهم من الأتراك أما الأولان فظاهران لا يدافعان فإنه لو لم يكن تركيا كيف يقول مادحه بدولة الترك ولا يقول بدولة الكرد وكيف يعطي لمن قال والشعر ما زال عند الترك متروكا ويقول حتى لا يقول إنه متروك وهذا ظاهر جلي لا خفاء فيه وأما الثالث وإن كان فيه احتمال أن يقال فيهم هذا القول من العاضد بسبب عسكر السلطان صلاح الدين فإنهم كلهم أو جلهم كانوا أتراكا إلا أن الظاهر نسبة هذا القول إليهم بواسطة ذات السلطان والرئيس ويؤيده حكاية الحاكم هذا القول لأخي السلطان فإنه يدل دلالة واضحة على أنه إنما حكاه لكونه تركيا كما لا يخفى ولهذا حصل لي ظن غالب بأنهم من الترك وإن لم أجزم به لمكان الخلاف محمد مراد. منه عفي عنه.

(١) للقاضي السعيد بن سنا الملك يمدح به السلطان صلاح الدين بن أيوب. منه عفي عنه.

(٢) للقاضي محمود بن شهاب الدين من قصيدة يمدح بها الملك أشرف خليل ابن المنصور قلاوون. منه عفي عنه.

ومن نظر أيضًا إلى أحوال التتار الحاضرة بل أحوال جميع قبائل الأتراك الذين تحت حكومة الروسية من الظلم والحقارة والذلة والهوان وضرب الجزية عليهم وأخذ العسكر منهم وإجبارهم إياهم على لبس لباسهم والتزي بزيتهم وأكل ذبائحهم ولحوم خنازيرهم وتعرضها مع ذلك لأموارهم الدينية وسلب اختيارهم وحقوقهم فيها وحقوقهم الشخصية والمدنية عنهم وشاهد سكوت هؤلاء الأقوام وإذعانهم وانقيادهم لأمثال هذه المذلة التي لا يرضاها سوى الأنعام كما قال الشاعر شعر:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الاذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشح فلا يرثي له أحد

وعدم قيامهم بطلب حقوقهم البشرية والمدنية والوطنية والشخصية وحرمتهم الدينية فضلاً عن طلب شرفهم الزائل ومجدهم الضائع مع كثرتهم بهذه الكثرة وشجاعتهم ومهارتهم في الحرب يجزم قطعاً بصدق فقرته الأخيرة أيضًا بلا ارتياب أعني قوله فكأنها نفذ الآن ما فيها ويترنم بقول القائل:

نعم الجدد ولكن بئس ما نسلوا

ويقول القائل:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها وكأنها وكأنهم ما كانوا

فإنه لو لم ينفد ما فيها بل بقي من تلك الأسود بقايا وفي الزوايا خبايا لما رضوا بأمثال تلك الرذالة في مثل هذا الزمان الذي نال فيه كل شخص كمال حريته الدينية واسترد كل قوم اتحادهم واستقلالاتهم الملوية فإن أهل الداغستان والقريم وقزان وتركستان وما وراء النهر وخوارزم لو قاموا كلهم مرة واحدة على سبيل الاتفاق ورفضوا الشقاق والنفاق لأمكنهم استرداد حريتهم الدينية وحقوقهم الملوية والمدنية ولا احتياج لهم في ذلك إلا إلى الحماية الوطنية والغيرة الدينية ولعل سبب إنكارهم كونهم من ذرية التتار أشد الإنكار هو استحياؤهم من الانتساب إلى تلك اللبوث نعم إنهم محقون في ذلك فإنهم ليسوا من ذرية تلك اللبوث وأغرب من الكل إعانتهم الأعداء في استئصال بقاياهم إنا لله وإنا إليه راجعون. وليت شعري هل يرينا الدهر الخؤون محب الأراذل ومريقيهم من بقايا هؤلاء الأسود الحوارد واللبوث الأبطال واحداً ذا حمية وغيرة وشجاعة وشهامة خلفاً صدقاً لأسلافه يرفع عقيرته في تلك العرصة قائلاً: سأطلب حقي بالقنا والقنابل. فيتبعه ملايين من أشبال الأسود الضواري ويشمرون عن ساعد الجد وساق السعي والاجتهاد في إعادة مجد أجدادهم الأقدمين وإحياء شرف

آبائهم الأولين ويبدلون دون ذلك أرواحهم قائلين شعر:

إننا لنأمل ما كانت أوائلنا من قبل تأمله إن ساعد القدر
فإما ينالون بغيتهم وأمنيتهم وإما يموتون كرامًا أو نموت محترقين بنيران الأسف
والكدر قائلين شعر:

أليس عظيمًا أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق المعول
فإن نحن لم نملك دفاعًا لحادث تلم به الأيام فالموت أجمل

آه يا رب آه وقد أشيع في وقت ما أن عبد الرحمن خان أمير أفغانستان سابقًا
عليه الرحمة والغفران قال في مجلس مركب من أركان دولته حين جرى ذكر انحطاط
الملة الإسلامية وضياع مجدهم السابق وإنه هل يمكن لهم الترقى والتنبه وإعادة
شوكتهم وسطوتهم كما في السابق أم لا إن هذا الأمر يعني التنبه والسعي والغيرة
والحمية وإعادة المجد الضائع أن يقع إنما يقع من أهل تركستان وقد كتبه بعض
فضلاء عصرنا في أثره فإن صح ذلك فلعله قاله استنباطًا واستدلالًا من أحوال أسلافهم
الأقدمين كما إن قول القائل شعر:

تركستانده اكسك اولمز قهرمان هر قولاً چنده ياتور بر آرسلان

إنما صدر عنهم نظرًا إلى حالاتهم السابقة بل صدر عنه في القرون الماضية وإلا
فليس فيها قهرمان ولا أسد ولا نمر ولا كركدان بل فيها أرانب وبرايع وثعالب فقط
والعجب أن هؤلاء الأسود الغابرين ولدوا من فساد الزمان كلهم أرانب وبرايع وثعالب
فحسب كما أن قروود أوروبا وأرانبها ولدت كلها أسودًا وليوثًا لله الأمر من قبل ومن
بعد شعر:

أغربت حين دعوت إلا أنه لا يبلغ الأموات صوت دعائها

غيره:

وأسمعت النداء من كان حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا وإذا أراد الله شيئًا هيا له الأسباب.

١٥ - [أهل طاغستان]

بقي من الأقوام الموجودين الآن من الأتراك تحت حكومة الروسية أهل
طاغستان وقزاق وقرغز. فأما أهل طاغستان بما فيهم من الجراكسة وقمق وچچن

ولزكي وغيرهم فهم من بقايا الأقوام التركية الواردين من جهة الشرق إلى أوروبا فإنهم كلما انهزموا من أهل أوروبا كانوا يلتجئون إلى تلك الجبال الشاهقة والأراضي ذات العوارض الصعبة ذكره بعض فضلاء عصرنا نقلًا عن كتب أهل التحقيق من الإفرنج.

فأما أوار وچچن فقد مر نبذة مما يتعلق بهم إجمالاً وأما قمق فقد قيل إنهم من بقايا قبيلة قنقلي الآتي ذكرها عند ذكر أوغوز خان في المقصد الثاني.

١٦ - [قرغز]

وأما قرغز فهي في الأصل قبيلة كبيرة من قبائل الترك من بقايا ذرية أوغوزخان أو ذرية بعض مقربيه وأمرائه وكان غز مخفف أوغوز^(١) وقد خرجوا إلى الديار الإسلامية في أوائل العصر الخامس الهجري وجرت لهم فيها وقائع كثيرة واشتهروا باسم غز وغزية وقوم أوز الماز ذكرهم الظاهر أنهم أيضًا منهم وقر في لغة الترك بمعنى البرية فمعنى قرغزي بمعنى غز البرية بإضافة غز إلى قر والبرية في كليهما فإن المضاف إليه يقدم في التركية فيكون اسمًا مخصوصًا لمن سكن في البرية من غز وعلى كل حال فمساكنهم الآن في جبال آلاطاغ الشهير عند الروس والمتروس والإفرنج المتفرنج بالأتاي محرفًا منه سمي به لدوام الثلج في كثير من ذراه المرتفعة شتاء و صيفًا فيرى من بعيد في الصيف أبقع وأبلق ومعنى آلا بالتركية الأبقع والأبلق وقد عجز الإفرنج عن معرفة مأخذ اشتقاقه ووجد تسميته به وهذا هو حقيقته خذوها مجانًا وهم كلهم مسلمون ليس فيهم من يتمذهب بمذهب آخر قط إلا أن الجهل فاش وسائد فيهم.

١٧ - [القزاق]

وأما القزاق فليسوا قبيلة واحدة من قبائل الترك والتتار بل هم أصل الترك والتتار ومنشؤهم ومنبعهم وليسوا بقرغز كما هو الشائع المشهور الآن عند الروس والإفرنج وذويهم بل هم قبائل لا تعد ولا تحصى من الأتراك والتتار بقوا على صرافة التركية ومحاضرة التتارية من غير أن يختلط أنسابهم بأنساب قوم آخر قط بخلاف سائر الأتراك والتتار الذين خرجوا من تلك الديار فإنهم لم يبقوا على تلك الصرافة والمحاضرة بل امتزجوا بأقوام كثيرة وصاروا في الحقيقة أخرى ومساكنهم المسماة الآن ببرية قزاق بالإضافة إليهم هي المشهورة بالتركستان والتتارستان. الكبير لكونها أصل منشأ قبائل

(١) وهم أصحاب السلاجقة. منه عفي عنه.

الترك والتتار ومنبعهم ومهدهم وكانت وقتاً ما شهرة بدشت قفجق وأرضها كما مر عند بيان أحوالهم وقبائل الأتراك الساكنة فيها الداخلة تحت اسم قزاق ممتازة بعضها عن بعض من القديم بعض منها مذكور في شجرة الترك لأبي غازي خان مثل نايمان وكيرابت وقونكرات وكثير منها غير مذكور فيها مثل آغون وجباس وطاما وطابن وغيرهم وعدم ذكره أيام يحتمل أن يكون لعدم علمه بهم ويحتمل أن يكون لدخول بعضهم في التتار وبعضهم في اويغور وبعضهم في الآج وهكذا وإن نوسي إطلاق هذه الأسماء إليهم الآن وترك لأن كل واحد منهم ينقسم إلى شعوب شتى فإن التتار كان يقال لهم سابقاً أوتوز تثار يعني التتار الثلاثين والأويغور كان يقال لهم اون اويغور يعني الأويغور العشرة والآج يقال له إلى الآن آلتى الآج يعني الآج الستة وهكذا البواقي وهؤلاء القبائل المسماة الآن باسم قزاق هم الذين عنيهم في أول المقدمة عند بيان أحوال الأتراك الحاضرة لقياس أحوال قدماء الأتراك عليهم وكذلك مراد رفاة بك بقوله المار آنفاً وهو إلى الآن وصف التتار هؤلاء القبائل فإن الأوصاف المذكورة ليس كلها موجوداً في تثار قزان وقریم فإنهم باختلاط أنسابهم بغيرهم لم يبق فيهم أوصاف التتار الأصلية على كمالها وهم أعني تثار قزان وقریم شردمة قليلة من التتار ومعظمهم الذين كانوا تابعين لدولة سراي بقوا هناك في أوطانهم الأصلية من البرية المذكورة بقي تثار كوك اوردو في أطراف نهري وجايق^(١) والأنهر الستة وتثار آق اوردو وفي أطراف قضالي (قاضي على) وآق مسجد وبليدة تركستان وأطراف نهر سيروچو وصاري صوويتى صو وكذلك أراد رفاة بك بقوله وكانت بلاد التتار الخ برية قزاق هذه لظهور تلك الأمم وخروجهم منها كما بينا.

وليس إطلاق اسم القزاق على هؤلاء القبائل من جهة الأنتوغرافيا أعني النسب بأن يكونوا ذرية شخص يسمى بقزاق فاشتهروا به كسائر قبائل العرب والترك مثل قريش وتميم وقونكرات ونايمان كما هو ظن الجهلاء والعوام وإنما أطلق عليهم هذا الاسم بعد انقراض دولة التتار وتفرق كلماتهم بسبب أمر خارج عارض وهو أن في أواخر دولة التتار ووقت طرو الضعف عليها واوان تفرق كلمتهم كان كثير من ذرية چنكزخان وأولاد الخوانين يخرجون من طاعة السلطان ولا ينقادون له ويبغون عليه ويودعون الاستقلال لأنفسهم وكان كل من يفعل ذلك يتباعد عن مركز السلطنة ويتوغل في تلك البرية ويذهب إلى أماكن بعيدة صعبة منها مع اتباعه هرباً من صولة

(١) جايق: كذا في الأصل. مصححه.

الخان وبطشه به وكان يقال لهم قحاق بمعنى الفار والهارب ثم حرف اللفظ المذكور وقيل قزاق فلما كثر فيهم من يفعل ذلك كثر إطلاق هذا الاسم عليهم حتى صار كالعلم الغالب لجميع تلك القبائل وإن لم يوجد الوصف المذكور في كثير منهم من قبيل إطلاق اسم البعض على الكل وهذا الوجه ليس مما يستبعد ويستتكر كيف وله نظير يشهد صحته وهو أن تسمية قزاق دون ليس إلا من هذه الجهة فإنهم مجتمعون من قبائل شتى على وجه الهرب والفرار على ما قيل وهو الظاهر.

وقد ذكر الفاضل المرجاني هذا الوجه في تاريخه فأنكره بعض من القزاق زعم أنه ذمهم وشأنهم بذلك وليس الأمر كما زعم هنالك.

أما أولاً فلأن إطلاق هذا الاسم عليهم بواسطة اتصاف شردمة قليلة منهم بالوصف المذكور كما بينا.

وأما ثانياً فلأن الفاضل المرجاني ليس هو أول قائل به ومبتكر إياه بل يوجد إطلاق هذا اللفظ في قدماء الترك فإنك إذا فتشت التواريخ المبينة لأحوال قدماء الترك ترى فيها كثيراً ما يقولون خرج فلان قزاقاً مع اتباعه وصارت القبيلة الفلانية قزاقاً انظر تاريخ الترك لعاصم نجيب أفندي وتاريخ الحاج عبد الغفار أفندي القريمي المؤلف قبله بمئتي سنة فالإنكار في ذلك على المرجاني من عدم التبع نعم إنه تسبب له لعدم عزوه إلى غيره فظنوا أنه من مخترعاته وليس كذلك كما بينا.

ومن عجيب الاتفاق في هذا المحل أن خارجياً من عرب الجاهلية كان يسمى حازوقاً قال في القاموس حازوق على وزن فاعول اسم خارجي عبرت عنه بنته أو أخته في مرثيته بحزاق للضرورة حيث قالت شعر^(١):

أقلب طرفي في الفوارس لا أرى حزاقاً وعيني كالحجارة من الفطر

وليست هي أمه كما وهم الجوهري اهـ. ولا يبعد أن ينتشر خبر هذا الخارجي في الآفاق ويشتهر أمره واسمه بين جميع الأجناس من العرب والترك فيتصل خبره

(١) قال الشارح الزبيدي هذا رواية ابن الأعرابي وفي رواية عنه:
تبصرت فتیان الیمامة هل أرى

وفي رواية الكلبي:

تبصرت أظعان الحجاز فلا أرى

ونسبة المص هذا القول للجوهري خطأ فإنه قال امرأته ومثله نص ابن سيده. منه عفي عنه.

بسكان بادية الأتراك بواسطة أتراك أذربيجان الذين لهم اتصال بالعرب فيطلقون هذا الاسم على كل من يوجد فيه وصف البغي والخروج فيغلب على كافة سكان تلك، البادية بالتدرج كما ذكرنا في الوجه الأول ويؤيده قول كارامزين حيث قال في غضون ذكر قول ياصه وقاصوغ إن ولايتهم كانت تسمى في القرن العاشر الميلادي قاصاخية وكانت فيما بين جبال قفقاز ومصب نهر اتل وقوم أوصيتنيست يسمون الجراكسة قاصاخا اه فهذا كالصريح في دخول هذا اللقب إلى تركستان من طريق طاغستان وأذربيجان ويمكن أن يكون وجه تلقيبهم به مهارتهم في الفروسية فكأنهم من شدة تمكنهم فوق ظهور الخيل شبهوا بالوتد الذي معناه بالتركي قازق كما قال الإمام البوصيري^(١) رحمه الله تعالى شعر:

كأنهم في ظهور الخيل بنت ربا من شدة الحزم لا من شدة الحزم

ويؤيد هذا الوجه تسمية خيالة الروس قزاق والله سبحانه أعلم. وعلى كل حال ليس إطلاقه عليهم من جهة الأتوغرافيا يقيناً وربما يقول بعضهم إنهم كلهم من أولاد آلآج ولا يدرون أن آلآج من هو وربما يوقعهم بعض الشياطين السواح المسميين باسم خواجه الخارجين من تركستان وخوارزم وبخارى وفرغانة في الغلط بأن يقولوا لهم إن المراد بالآج المذكور هو أنس بن مالك^(٢) الصحابي رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ وأنهم من ذريته ويروجون هذا الباطل بدعائه ﷺ في حقه بكثرة نسله بالتماس أمه أم سليم وإن روه بجهة أخرى تحريفاً ولا يدرون المساكين أن آلآج قبيلة كبيرة من الترك انشعبت منها شعوب كثيرة وهم بعض القزاق وليسوا كلهم وسيجيء ذكرهم عند ذكر أوغوز خان إن شاء الله تعالى.

وهم أعني القبائل المسميين الآن بقزاق كلهم مسلمون ليس فيهم فرد واحد غير مسلم كما يشيعه شياطين الروس أعني الميسونير ترويجاً لأباطيلهم ونواياهم الفاسدة

(١) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي شرف الدين أبو عبد الله الدلامي ثم البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ، من تصانيفه: «ذخر المعاد في معارضة بانة سعاد»، «القصيد الهمزية في المدائح النبوية» المسماة بأمر القرى، «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» المشهورة بقصيدة البردة. «الكلمة الطبية والديمة الصبية» (كشف الظنون ٦/١٣٨).

(٢) أنس بن مالك: أبو ثمامة أو أبو حمزة، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً، ولد بالمدينة سنة ١٠ قبل الهجرة، وتوفي بالبصرة سنة ٩٣ هـ (الأعلام ٢٤/٢ - ٢٥).

وإسلامهم وإن لم يكونوا قبل إسلام بلغار لكنه لا يكون بعده كما نبينه عند بيان بلغار وعالم النصرارى عمومًا والروسية خصوصًا يدعون تنصر بعض القبائل منهم وقبوله مذهب النسطورية من النصرارى إلا أنهم لا يتفقون في تعيين ذلك البعض فتارة يقولون إنه كيرايت وتارة يقولون إنه نايمان وتارة يقولون إنه أويغور ويجعلون ذلك مستندًا ودليلاً على جر القزاق إلى النصرانية عيادًا بالله من ذلك ولا يفوتون في هذا الباب دققة بل يبذلون فيه غاية جهدهم خصوصًا في طرف سيبيريا التي هي مساكن القبائل المذكورة وأبعد الأماكن من ممالك سائر الدول خصوصًا من الممالك الإسلامية فيجرون فيها مقاصدهم الفاسدة كيف شاؤوا بلا معارض يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره. ولئن سلم قبولهم مذهب النسطورية قبل الإسلام هل يكون فيه دليل على إجبار هؤلاء الذين تركوه منذ ألف سنة ودخلوا في الإسلام لتيقنهم ببطلان ذلك وحقية هذا على النصرانية كلا إنه لحكم قراقوش وربما نذكر هذا في المقصد الرابع إن شاء الله تعالى ولنختتم المقدمة الآن بهذا القدر ونشرع في المقصد الأول.

المقصد الأول

ذكر أحوال مدينة بلغار وبيان
أهلها ووقت دخولهم في حِمى
الإسلام وما جرى عليهم بعد
ذلك إلى حين خرابها باستيلاء
الكفرة عليها.

المقصد الأول في ذكر أحوال مدينة بلغار وبيان أهلها ووقت دخولهم في حمى الإسلام وما جرى عليهم بعد ذلك من حوادث الأيام إلى حين خرابها باستيلاء الكفرة اللثام نذكرها حسب ما وقفنا عليه في كتب المتقدمين وزبر المتأخرين

اعلم أن لفظ بلغار كما أنه كان علمًا لبلدة مخصوصة كذلك كان يطلق على سكنة تلك البلدة ونواحيها وما يجري فيه حكمها كما يجري الإطلاق الأخير في سائر أسامي البلدان الكبار مثل بخارى، وخوقند والروم كما قال بعض السياحين بلغار اسم الجيل والأمة واسم الناحية والمملكة واسم المدينة فلذلك ترى من تصدى لبيان أحوالها يطلق تارة لفظ بلغار ويريد به بلدة مخصوصة، ويطلقه أخرى ويريد به مملكة وناحية، ويطلقه ويريد به قومًا مخصوصين كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى فاحفظه. وضبطه بضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وبعده ألف والراء المهملة هذا هو الصحيح وإن قال في القاموس إنه على وزن قرطق يعني بغير ألف والعامية تقوله بلغار يعني بالألف لكن صاحب البيت أدري بما فيه ويقاله أيضًا برغار وبرغر بالراء بدل اللام على الوجهين وبلار أيضًا بفتح اللام وحذف الغين حتى قال البعض إنه هو الأصل فيه والبقية محرفة منه ويقال له أيضًا بلكان بالكاف بلكاف الفارسية بدل الغين والنون بدل الراء كما سيجيء كل ذلك إن شاء الله ولكن الأول هو الصواب والمشهور وعلى الألسنة مذكور وفي الكتب مسطور فإذا عرفت ذلك فاعلم أن عادة المتأخرين من المؤرخين خصوصًا في تاريخ مكة غير معلومة قد جرت بالبحث أولاً عن أحوال أرض البلدة أو الكورة أو الناحية المقصود بالبيان وبيان سمتها وموقعها وطولها وعرضها ويسمى هذا عندهم جغرافيا ثم يثبته ببيان أهلها وسكانها وبيان أحوالهم وعاداتهم وطرق معاشهم ودياناتهم ويسمى عندهم أثنوغرافيا بالتاء أو الثاء ولا علينا أيضًا أن نقفني آثارهم في ذلك لكونه أنفع وأفيد فيما هنالك مع قوله:

إن التشبه بالكرام فلاح

فنقول إن الأرض التي بها قوم بلغار ومدنتهم وما جرت فيه أحكامهم وكثر فيه جولانهم أعني ما يطلق عليه مملكة بلغار فهي وراء جبال قفقازيا متوغلة في الشمال وهي غير بلغار طونه الآن وإن كانتا في الأصل متحدتين ولا يتعلق غرضنا ببيان بلغار طونا إلا استطرادًا كما سيجيء فيمكن لنا أن نحددها بحسب حكمهم في غالب الأوقات والأحوال شرقًا بجبال أورال ونهره المسمى عندنا معاشر المسلمين بنهر جايق وغربًا بملتقى نهري أوقا وولغا الذي فيه الآن نيژني نووغورود وما يحاذيه من طرفي الجنوب والشمال وجنوبًا بولايات سراطاو وبنزا وطامبوف وطولاً وشمالاً إلى آخر المعمورة أعني البحر المتجمد الشمالي فإن السياحين والجغرافيين الذين وردوا إلى بلغار حين كانت معمورة لم يذكروا وراء بلغار سوى أرض الظلمة ويعنون بها بلاد سمويد وولاية آخانكيل وذلك لعدم طلوع الشمس فيها في بعض أيام كل سنة وكثرة الأمطار والثلوج والمشاجر التي تغطي وجه السماء ذات البروج فعلى هذا يكون بعض بلاد برداس داخلًا فيها ولكن لا بأس بذلك فإن هذا التحديد تقريبي لا تحقيقي فإن تلك المملكة قد اتسعت أحيانًا جدًا حتى استوعبت جميع الأراضي المذكورة إلى أقاصي طونه وجبال بلقان وأطراف قسطنطينية كما سيجيء وقد تضايقت جدًا بحسب التقلبات والتطورات حتى اضمحلت بالكلية أو كادت وعرض عليها اسم آخر أحيانًا كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى .

ونحن إنما حددنا ما تناول فيه جولانهم واشتهر باسم بلغار وامتد فيه دورانهم وجولانهم أما الحد الشرقي فأرجوه أن يكون قريبًا من التحقيق فإن المفهوم من كلام أكثر السواح إن قوم باشقرد كانوا في حكومة بلغار ويؤيده انتساب القوم المذكورين إلى بلغار قديمًا وحديثًا وإن كان كلام بعض السواح يوهم خلافه وأما الحد الغربي فأرجوا أن يكون أيضًا قريبًا من التحقيق وسيجيء في كلام كارامزين مؤرخ الروسية ما يدل عليه والحد الشمالي أيضًا لا يبعد من التحقيق وإنما الكلام في الحد الجنوبي والأمر فيه سهل وقد بينا فيه عذرنا .

وأما نفس بلدة بلغار فقد كانت في قديم الأيام من المدن القديمة البناء مشهورة معمورة مقصودة بالتجارة من جميع الجهات وكما أنها كانت من المدن المتقدمة بحسب البناء والحدوث كانت من المدن المتقدمة بحسب تمدن أهلها وتقدمهم في المعارف بالنسبة إلى أكثر بلاد أوروبا وأقدم البلاد إسلامًا من قطعة أوروبا بعد بقعة أندلس كما سيرد إن شاء الله وأما الآن فهي خربة ما بقي منها شيء سوى بعض أثارها مثل منارة بعض جوامعها وبعض الأبنية وأثار سورها وأطلالها

الدارسة كما قال القائل شعر^(١):

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
وسيجيء بعض أوصافها ووقت خرابها في آخر هذه المقدمة إن شاء الله
تعالى .

وأما موقعها من القطعة المذكورة فإنها كانت في أواسط الإقليم السابع بحسب تقسيم القدماء للربع المسكون من الكرة الأرضية وفي نهاية قطعة أوروبا الشرقية وأواخر المنطقة المعتدلة الشمالية باعتبار تقسيم المتأخرين واقعة في جهة الشرق الشمالي من نهر ادل المشهور الآن عند الروسية ومن يشاكلها بنهر وولغا على بعد نصف فرسخ منه بعيد ملتقى قطعتيه الكبيرتين أعني وولغا وقاما وباسم آخر جولمان حيث العرض الشمالي خمس وخمسون درجة إلا شيئًا يسيرًا والطول الشرقي ست وستون درجة وخمسون دقيقة على ما يظهر من خرائط الروسية كافة وهم^(٢) يعدون الطول من ساحل المحيط الغربي تبعًا لليونانيين القدماء فيكون الطول من جزائر الخالدات ستًا وسبعين وفي رسائل كثير من المتأخرين الذين تصدوا لبيان أطول البلدان وعرضها إن طول بلغار (فه)^(٣) وهو أقرب إلى الصواب بالنظر إلى سمت قبلتها .

وقال الملك المؤيد أبو الفداء في تقويم البلدان: إن مدينة بلار يقال لها بالعربي بلغار هي بلدة في نهاية العمارة الشمالية وهي قريبة من شط اتل من البر الشمالي الشرقي وهي وسراي في بر واحد وبينهما فوق عشرين مرحلة وهي في وطأة من الأرض والجبال عنها أقل من يوم وبها ثلاث حمامات وأهلها مسلمون حنفية ولا يكون بها شيء من الفواكه وحكى لي بعض أهلها أن في أول فصل الصيف لا تغيب الشفق عنها ويكون ليها في غاية القصر وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يبتدىء عدم غيبوبة الشفق في أول الصيف وعرضها أكثر من ذلك فصح ما تقدم على كل تقدير اهـ قلت مراده بما تقدم ما في الجدول من التقويم المذكور من أن عرض بلغار (ن هـ)^(٤) أو (مط ل)^(٥) يعني خمسون درجة وخمس دقائق أو تسعة وأربعون درجة وثلاثون دقيقة وطولها (ف)^(٦) أو

(١) الرجز لجران العود في ديوانه ص ٩٧، وخزانة الأدب ١٥/١٠ - ١٨، وشرح أبيات سيبويه ١٤٠/٢ .

(٢) هذا متقدموهم وأما المتأخرون منهم فيعدونه من بطربورغ. منه عفي عنه .

(٣) (فه) بحساب الجمل تساوي ٨٥. (٤) (ن هـ) تساوي ٥٥.

(٥) (م ط ل) تساوي ٧٩. (٦) (ف) تساوي ٨٠.

(ع)^(١) يعني ثمانون أو سبعون درجة أما بيانه في الطول فليس ببعيد من التحقيق بالكلية باعتبار المبدئين أعني جزائر الخالدات وساحل المحيط الغربي وأما قوله في العرض فالظاهر أن الهاء في الأصل متصلة بالنون هكذا (نه) يعني خمس وخمسون درجة فيكون مطابقاً للواقع ويرتفع الاختلاف ويؤيد ذلك أنه قال في عرض سراي الأصح أن عرضه أربع وخمسون درجة مع قوله إن مسافة ما بين سراي وبلغار فوق عشرين مرحلة فإنه يعرف يقيناً أن بلغار في شمالي سراي فكيف يقول ح أن عرض بلغار (ن هـ) والله سبحانه وتعالى أعلم وسلم إلى بيان ذلك بعد إن شاء الله .

واختلف فيمن بناها وأنها متى بنيت قال في روضة الصفا إنها بناها بلغار بن كماري بن يافث بن نوح عليه السلام وأن أهلها من ذريته فسميت البلدة والمملكة وذريته باسمه وقيل بنيت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعصرين وقيل بناها ذو القرنين حين خرج من الظلمة ومات بها قاله في كتاب تركي وسيجيء نقله وقيل غير ذلك وحيث لم يوجد التاريخ في ذلك لا يمكن التكلم بالظن والحسبان فيما هنالك ولا فائدة في سلوك ما لا يعرف من المسالك .

وأما أحوالها الأتوغرافية أعني أحوال أهلها فقد اختلف فيهم أيضاً مثل الاختلاف المتقدم فقيل إنهم من الترك وقيل بل قوم متولدون بين الصقالبة والترك وقد مر آنفاً نقلاً عن روضة الصفا أنهم من ذرية بلغار بن كماري بن يافث فيكونون من ذرية ابن أخي الترك إن قلنا إن الترك ولد يافث من صلبه على ما هو الصحيح ومن ذرية أخي الترك إن قلنا إنه ابن كומר بن يافث على ما ذهب إليه البعض كما سيجيء بناء على كون كماري وكומר شخصاً واحداً .

قال فيها أي في روضة الصفا: إن كماري بن يافث كان رجلاً متعيشاً محباً للصيد وكان يركب دائماً وكان له ميل تام إلى المنتزهات فأنتهى سيره مرة في أثناء اصطياده إلى حدود بلغار فأراها أرضاً طيبة الهواء وصحراء منتزهة فاستوطن بها وكان له ابنان أحدهما بلغار والآخر برطاس فاختار كل منهما محلاً لنفسه وعمر فيه العمائر باسمه وصار كل منهما يصطاد الثعلب والسمور والسنجاب وصنعوا من جلودها ألبسة حسنة اهـ .

وقال أبو الغازي بهادر خان في تاريخه أن يافث بن نوح عليه السلام استوطن بحدود ادل وجايق ومات بها ثم ارتحل ولد الترك طرف الشرق اهـ فعلى هذا يكون بلاد بلغار أصل وطن يافث جد الأتراك وغيرهم .

ولنذكر هنا ما ذكره الجغرافيون والسياحون من المسلمين وغيرهم في حقهم من المعلومات قال أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري القرطبي الأندلسي بعد بيانه مملكة الخزر: ويتصل بهذه (يعني مملكة خزر) مملكة البرغر (يعني البلغار) وملكها الآن مسلم أسلم بعد العشرة وثلاثمائة برؤيا رآها وذلك أيام المقتدر وكان هذا الملك يغزو القسطنطينية في نحو خمسين ألف فارس ويشن الغارات إلى بلاد رومه والجلالقة والإفرنج ومنه إلى قسطنطينية نحو من شهرين وهم أمة شداد لا تطاق والفارس منهم يقاتل أمة من الروم ولا يمتنعون منهم إلا بالجدران والليل عند البرغر في غاية القصر سائر السنة يزعم أحدهم أنه لا يقدر أن يطبخ قدره حتى يصبح ويتصل بهؤلاء الروس اه قوله سائر السنة الخ لا يخفى ما فيه .

وقال المسعودي في مروج الذهب^(١) ومدينة البلغر على ساحل بحر مانطش وأرى أنهم في الإقليم السابع وهم نوع من الترك والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم إليهم إلا أن ذلك من بوادي غيرهم من الترك (يعني الأقوام القزاقية) والقوافل مخفرة منهم وملك البلغر في وقتنا هذا وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مسلم أسلم في أيام المقتدر وذلك بعد العشر والثلاثمائة وذلك لرؤيا رآها وقد كان له ولد حج وورد مدينة السلام يعني البغداد وحمل معه المقتدر لواء وبنودًا ولهم جامع وهذا الملك غزا القسطنطينية في نحو خمسين ألف فارس فصاعدًا فشن الغارات حولها إلى بلاد رومية والأندلس وأرض بركان والجلالقة والإفرنجة ومنهم إلى القسطنطينية في خليج آخر من البحر الرومي لا منفذ له إلى غيره وانتهوا إلى بلاد حرفيدية وأتاهم في البحر جماعة من البلغر ينجدونهم وأخبروهم أن ملكهم بالقرب وهذا يدل على ما وصفنا من أن البلغر تتصل سراياها إلى ساحل بحر الروم وكان نفر منهم ركب في مراكب الطرسوسين فأتوا بهم إلى بلاد طرسوس والبلغر أمة منيعة عظيمة شديدة البأس يتقاد إليها من جاورها والفارس ممن قد أسلم مع ذلك يقاتل المائة والمائتين من الكفار ولا يمنع أهل القسطنطينية منهم في ذلك الوقت إلا سورها وكذلك من في هذا الصقع لا يعتصم منهم إلا بالحصون والجدران والليل في بلاد البلغار في نهاية من القصر في بعض السنة ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع أن يفرغ من طبخ قدره حتى يأتي الصباح انتهى .

(١) انظر مروج الذهب ١/١٤١.

قلت مراده ببحر مانطش هو بحر أزاز فقله إن البلغر على ساحل بحر مانطش خطأ بل بينهما مسافة بعيدة وقد خطأه ياقوت الحموي في معجم البلدان ولكن وقع في نسخته^(١) لفظ برغر بدل بلغر ولذا قال بعد أن ذكر جميع ما ذكره المسعودي قلت إن جميع هذه الصفة هي صفة بلغار وما أظنها إلا واحداً وأنهما لغتان فيه وليس فيه ما أنكرته إلا قوله إن البرغر على ساحل بحر مانطش وما أظن بينه وبين ساحل بحر مانطش إلا مسافة بعيدة انتهى ما ذكره الحموي .

قلت قد تقدم منا أن بلغار يقال له أيضاً برغر وبرغار وقد مر إطلاق برغر في كلام أبي عبيد البكري أيضاً وقال منجم باشي^(٢) في تاريخه بلغار وهؤلاء أيضاً من أولاد يافث ويقال لهم أيضاً برغر وبرغار منسوبون إلى الصقع الذي يسكنون فيه .

وقال شمس الدين الدمشقي^(٣) وأما البلغر فمنسوبون إلى الصقع وهم مسلمون أسلموا أيام المقتدر وبعث ملكهم إلى المقتدر يطلب منه فقيهاً يعرفه قواعد الإسلام فأجابه إلى ذلك ثم وصل جماعة من البلغر إلى بغداد يريدون الحج فأقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة وما استعانوا به وسألهم سائل من أي الأمم أنتم وما البلغر فقالوا قوم متولدون بين الترك والصقالبة وقال في موضع آخر: وعد صاعد الأندلسي فيهم أي في الترك الخزر والبلغار اهـ .

تنبيه: قال ابن الأثير في الكامل^(٤) في أثناء ذكره حوادث سنة ثلاث وثلاثين وأربع مائة وفيها وصل جماعة من البلغار إلى بغداد يريدون الحج فأقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة فسئل بعضهم من أي الأمم هم وما البلغار فقال هم قوم تولدوا بين الترك والصقالبة وبلدهم أقصى الترك وكانوا كفاراً فأسلموا عن قريب وهم على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه اهـ .

(١) أعني نسخة مروج الذهب الذي بيد الحموي . منه عفي عنه .

(٢) منجم باشي: هو أحمد بن لطف الله المتخلص بعاشقي السلانيكي الصديقي المولوي، كان رئيس المنجمين ومصاحباً للسلطان محمد الرابع العثماني، تولى مشيخة زاوية المولوي الكائنة بمكة المكرمة، توفي بمكة سنة ١١١٣ هـ . من تصانيفه: «جامع الدول» في التاريخ، «ديوان شعره» تركي، «شرح كتاب الأخلاق للفاضل عضد»، «صحائف الأخبار» في التاريخ عربي، «وسيلة الوصول إلى معرفة الحمل والمحمول»، «فيض الحرم» في آداب المطالعة . (كشف الظنون ١٦٧/٥) .

(٣) شمس الدين الدمشقي: لعله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الدمشقي، شمس الدين الصالحي الحنفي، مدرس البروقية بمصر، توفي سنة ٩٤٢ هـ . (كشف الظنون ٢٣٦/٦) .

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢٥١/٨ .

قلت هذا الكلام إما مبني على اشتباه عام ورود البلغاريين إلى بغداد على ابن الأثير أو على تعدد ورودهم إليها مرة في العام الذي ذكره المسعودي أعني بعد الثلاثمائة وإن لم يذكر التاريخ ومرة العام الذي ذكره ابن الأثير فإن المسعودي قال إن ذلك في زمن المقتدر ولا شك أن موت المقتدر سنة ٣٢٠ فبين ما ذكره المسعودي وما ذكره ابن الأثير أزيد من مائة سنة وأما ما ذكره شمس الدين الدمشقي فيحتمل كلا منها لأنه ما ذكر التاريخ ولكن سياق كلامه حيث ذكر ورودهم إلى بغداد بشم عقيب ذكر إسلامهم يوافق كلام المسعودي وإن ألفاظه وعباراته مطابقة لألفاظ ابن الأثير وعباراته والله سبحانه أعلم وعلمه أتقن وأحكم.

وقال في رسالة الانتساب وأرض البلغار بلاد الأتراك الإسلامية أسلموا في الدولة العباسية في خلافة المأمون والواثق وأسلم مرة في خلافة القائم بأمر الله ثلاثون ألف خركاه اهـ.

قلت الظاهر من كلام ابن الأثير أن هؤلاء الذين أسلموا في عهد القائم كانوا من أهل دشت القبيجق فإنه قال في حوادث سنة ٤٣٥ أسلم عشرة آلاف خركاه من كفار الترك وكانوا يصيفون بنواحي بلغار ويشتون بنواحي بلاساغون اهـ والخليفة وقتئذ هو القائم بأمر الله.

وقال أبو علي أحمد بن عمر بن دسته وقيل داسته في كتابه المسمى بالأعلاق النفيسة الفصل الثالث في ذكر بلكار أو بلكار متاخمة لبلاد برداس وهم نزول على حافة النهر الذي يصب في بحر الخزر المسمى اتل وهو بين الخزر والصقالبة وملكهم يسمى المش وهو ينتحل الإسلام وأرضوهم غياض ومشاجر ملتفة وهم حلول فيها وهم ثلاثة أصناف صنف منهم يسمى برصولا والصنف الآخر أسغل والثالث بلكار ومعاشهم كلهم في مكان واحد والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروسية إليهم يصيرون بتجاراتهم وكذلك كل من كان منهم على حافتي ذلك النهر يختلفون بتجاراتهم إليهم كالسمور والقاقم والسنجاب وغيره ٤ وهم قوم لهم زرع وحرثة يزرعون كل الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك وأكثرهم ينتحلون دين الإسلام وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة والكافر منهم يسجد لكل من لقي من محبيه ٥ وبين مرداس وبين هؤلاء البلغارية مسيرة ثلاثة أيام يغزونهم ويغيرون عليهم ويسبونهم ولهم دواب ودروع وسلاح شاك ٦ وهم مؤدون إلى ملكهم الدواب وغير ذلك وإذا تزوج الرجل

منهم^(١) أخذ الملك منهم دابة دابة وإذا جاءتهم سفن المسلمين للتجارة أخذوا منهم العشر ٧ وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين وأكثر أموالهم الدلق وليست لهم أموال صامئة وإنما دراهمهم الدلق^(٢) يتروج الدلق الواحد فيهم بدرهمين ونصف وإنما يحمل الدراهم المدورة البيض من نواحي الإسلام يتعاونها منهم اهـ وقال الشيخ زكريا بن محمد بن محمود القزويني^(٣) في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات^(٤) بلغار مدينة على ساحل بحر مانطش.

قال أبو حامد الأندلسي هي مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط وحولها من أمم الترك ما لا يعد ولا يحصى وبين بلغار وقسطنطينية مسيرة شهرين وبين ملوكهم قتال يأتي ملك بلغار بجنود كثيرة ويشن الغارات على بلاد قسطنطينية^(٥) والمدينة لا تمتنع منهم إلا بالأسوار حكى أبو حامد الأندلسي أن رجلاً صالحاً دخل بلغار وكان ملكها وزوجته مريضين مأيوسين من الحياة فقال لهما إن عالجتكما تدخلان في ديني قالا نعم فعالجهما فدخلوا في دين الإسلام وأسلم أهل تلك البلاد معهما فسمع بذلك ملك الخزر فغزاهم بجنود عظيمة فقال ذلك الرجل الصالح: ولا تخافوا واحملوا عليهم وقولوا الله أكبر ففعلوا ذلك وهزموا ملك الخزر ثم بعد ذلك صالحهم ملك الخزر وقال إني رأيت في عسكركم رجالاً كباراً على خيل شهب يقتلون أصحابي فقال الرجل الصالح أولئك جند الله وكان اسم ذلك الرجل بلار فعرّبوه وقالوا بلغار.

(١) ولعل مراده بذلك أن أخذ العوائد الميرية مختص بالمتزوجين. منه عفي عنه.

(٢) الدلق يقال له بلغة أهل قزان تين والمراد جلده وهو حيوان مثل الفأرة البرية ولهذا يقال بين أهل قزان إلى الآن للكايك الروسي تين. منه عفي عنه.

(٣) القزويني: تقدمت ترجمته.

(٤) له كتابان كلاهما مشهوران بهذا الاسم إلا أن أحدهما يختص باسم آثار البلدان أو آثار البلاد وهو مطبوع وهذا منقول عنه وإنما بنينا الأمر على المشهور في التسمية. منه عفي عنه.

(٥) قلت وهذا ما مر عن المسعودي والبكري كله صريح في أن بلغار قزان هجموا على قسطنطينية مراراً ولا ذكر له في كتب الإفرنج وإنما المهاجم عليها في كتبهم بلغار طونه بعد استيطانهم هناك في حدود سنة ٤٧٦ م إلا أن نقول إن علاقتهم لم تنقطع من هناك بالكلية في عصرهم وأظن أن مصدر هذا القول هو المسعودي فقط والباقيون نقلوا كلامه من غير تحقيق فلا يبعد أن يشبهه البلغار أن للمسعودي وسنلم إلى ذلك فيما بعد أيضاً إن شاء الله تعالى. منه عفي عنه.

هكذا ذكر القاضي البلغاري في تاريخ بلغار وكان من أصحاب إمام الحرمين ومملك بلغار في ذلك البرد الشديد يغزو الكفار ويسبي نساءهم وذرائعهم وأهل بلغار أصبر الناس على البرد وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القنذز والسنجاب^(١).

وحكى أبو حامد الأندلسي أنه رأى بأرض بلغار شخصاً من نسل العاديين الذين آمنوا بهود عليه السلام وهربوا إلى جانب الشمال كان طوله أكثر من سبعة أذرع كان الرجل الطويل إلى حقوه وكان قوياً يأخذ ساق الفرس ويكسرهما ولا يقدر غيره أن يكسره بالفأس وكان في خدمة ملك بلغار وهو قربه واتخذ له درعاً على قدره وبيضة كبيرة كأنها مرجل كبير ويأخذه معه في الحروب على عجلة لأن الجمل لا يحمله ويمشي إلى الحرب على عجلة كيلا يتعب من المشي ويقاقل راجلاً بخشبة في يده طويلة لا يقدر الرجل الواحد على حملها وكانت في يده كالعصا في يد أجدنا والأتراك يهابونه إذا رأوه مقبلاً إليهم انهزموا ومع ذلك كان لطيفاً مصلحاً عفيفاً.

قلت قد نقل هذه الحكاية في المستطرف عن أبي عبد الله بنوع اختلاف مع أن الحكاية واحدة فأحببت أن أثبتها هنا وقد كنت رأيت الحكاية المذكورة في تحفة الألباب التي هي لأبي عبد الله المذكور كما في المستطرف وهي الآن ليست عندي.

قال في المستطرف قال يعني أبا عبد الله بعد ذكره ما رآه في بلاد بشقرد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يسمى دنقي أو دبغي كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضائه كما يقطع باقة البقل وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله وكان خيراً متواضعاً كان إذا لقيني يسلم عليّ ويرحب بي ويكرمني وكان رأسي لا يصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة وكانت له أخت علي طوله ورأيتها مرات في بلغار وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل إنها ضمته إليها فانكسرت أضلعه فمات من ساعته اهـ فانظر إلى تفاوت ما بين النقلين.

(١) هذا وإن صح في حق الكفار منهم لكنه غير صحيح في حق مسلميهم فإنه حرام. منه عفي عنه.

قلت ويشبه هذه الحكاية ما حكاه القزويني أيضًا عن ابن فضلان ونصه حكى أحمد بن فضلان رسول المقتدر من خلفاء بني العباس إلى بلغار^(١) قال لما دخلت بلغار سمعت أن عندهم رجالاً عظيمًا في الخلقة فسألت الملك عنه فقال نعم ما كان من بلادنا ولكن من خبره أن قومًا خرجوا إلى نهر اتل وكان قد مد وطغى ثم أتوا وقالوا أيها الملك إنه قد طغا على وجه الماء رجل كأنه أمة بالقرب منا فإن كان ذلك فلا مقام لنا فركبت معهم حتى صرت إلى النهر فإذا برجل طوله اثنا عشر ذراعًا ورأسه كأكبر ما يكون من القدور وأنفه نصف ذراع وعيناه عظيمتان وكل إصبع أطول من شبر فأخذنا نكلمه وهو لا يزيد على النظر إلينا فحملته إلى مكاني وكتبت إلى ويسو^(٢) كتابًا

(١) وسياق الحموي في هذه الحكاية هكذا قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن راشد بن حماد رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة وهم أهل بلغار بلغني أن فيهم رجالاً عظيم الخلق جدًا فلما صرت إلى الملك سأته عنه فقال نعم قد كان في بلدنا ومات ولم يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضًا وكان من خبره أن قومًا من التجار خرجوا إلى نهر اتل وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون وكان هذا النهر قد مد وطغى ماؤه فلم أشعر إلا وقد وافاني جماعة وقالوا أيها الملك قد طغا على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار وليس لنا غير التحويل فركبت معهم حتى صرت إلى النهر وإذا برجل طوله اثنا عشر ذراعًا بذراعي وإذا رأسه كأكبر ما يكون من القدور وأنفه أكثر من شبر وعيناه عظيمتان وأصابعه كل واحدة شبر فراعني أمره وداخلني ما داخل القوم من الفزع فأقبلنا نكلمه وهو لا يتكلم ولا يزيد على النظر إلينا فحملته إلى مكاني وكتبت إلى أهل ديسور (ويسو) وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه فعرفوني إن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج وهم منا على ثلاثة أشهر يحول بيننا وبينهم البحر وإنهم قوم كالبهائم عراة حفاة ينكح بعضهم بعضًا يخرج الله تعالى لهم في كل يوم سمكة من البحر فيجيء الواحد بمدية فيجتز منها بقدر كفايته وكفاية عياله فإن أخذ فوق ذلك اشتكى بطنه هو وعياله وربما مات وماتوا بأسرهم فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت وعادت إلى البحر وهم على ذلك وبيننا وبينهم البحر وجبال محيطة فإذا أراد الله إخراجهم يقطع السمك وينضب البحر وانفتح السد الذي بيننا وبينهم قال وأقام الرجل عندي مدة ثم علقته به علة في نحره فمات بها وخرجت فرأيت عظامه فكانت هائلة جدًا قال الحموي هذا وأمثاله هو الذي قدمت البراءة منه ولم أضمن صحته وقصة ابن فضلان وإنفاد المقتدر إياه إلى بلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس به عدة نسخ ثم ذكر كيفية نهر اتل ذكره في مادة اتل. منه عفي عنه.

(٢) قلت ويسو جزيرة في بحر يابونيا في آخر المعمورة من طرف الشمال المذكورة في جغرافية رفاعة بك وهذا ليس بذلك بل هذا في شمالي بلغار قال الحموي إنه بكسر الواو بيننا وبين بلغار ثلاثة أشهر يقصر عندهم الليل حتى لا يرون الظلمة ثم يعود في فصل آخر حتى لا يرون الضوء اه فدل أنه في جهة أرخانكيل قال القزويني وحكي يعني أبو حامد من الأمور العجيبة أن أهل ويسو ويورا إذا دخلوا بلاد بلغار ولو في وسط الصيف برد الهواء ويصير كالشتاء ويفسد زروعهم وهذا مشهور عندهم لا يحلون أحدًا منهم يدخل بلغار اه. منه عفي عنه.

وبيننا وبينهم إلى ثلاثة شهر أستخبرهم عن أمره فعرفوني أن هذا الرجل من يأجوج وقالوا إن البحر يحول بيننا وبينهم فأقام بين أظهرنا مدة ثم اعتل ومات اهـ.

وقال في تواريخ البلاد والعباد الذي ألف في عهد السلطان محمد چليبي بن يلدرم بايزيد وهو بلسان تركي ما معربه بلغار ولاية عظيمة وبها ثلاث من المدن الكبار وهي بلغار وسوار واسغل وبلغار هذه محاطة من الجوانب الأربع بالكفار وقد حفظها الله سبحانه في وسطهم وملك البلغار من أولاد الإسكندر قيل إن الإسكندر^(١) لما خرج من الظلمة أقام في بلغار إلى أن توفي بها وأهل بلغار أرباب الديانة وأصحاب المهابة والشهامة وسيرتهم حسنة طيبة والواجب على كافة أهل الإسلام أن يمدوهم بالدعاء حتى ينصروا على الكفار اهـ.

وقال في مجمع الأنساب ما معربه البلغار واقعة بين المغرب والشمال وقريبة من القطب الشمالي ولهم مدينتان يقال لإحداها سوار وللأخرى بلغار وبينهما مسيرة يومين وبينها نهر وبساحل ذلك النهر مشاجر كثيرة وهم كلهم مسلمون يحاربون الكفار دائماً وفي غابتهم يكثروا وجود الثعلب والسنجاب والقندز اهـ.

وقال أبو عبد الله الغرناطي البلغار ذات الجانبين بيوتهم من الخشب وهي على ساحل نهر اتل وجامعهم في السوق والسوار أيضاً على ساحل ذلك النهر وبيوتهم من اللبد ولهم مزارع والخير بها واسع.

وقال أيضاً ولسان الخزر والبلغار واحدة ولكن لسان البرطاس والروس مغايرة وبلغار اسم مدينة وبها المسجد الجامع وأهلها مسلمون وبقرها أيضاً مدينة يقال لها سوار وبها أيضاً مسجد جامع ويكون بهما عشرة آلاف بيت وأبنيتهم من الخشب ومن مدينة الاتل (وكانت مدينة بموضع حاجي طرخان) إلى بلغار نحو مسيرة شهر من البر ويصعد من النهر في مقدار شهرين وينزل من بلغار إلى مدينة الاتل في مقدار عشرين يوماً.

وقال أبو عبيد البكري وبلاد بلكان متاخمة لبلاد فرداس بينهما مسيرة ثلاثة أيام ومنازلهم على شاطئ نهر اتل وهم بين فرداس وصقلاب وهم قليلوا العدد نحو خمسمائة أهل بيت وملكهم يسمى المس وهو منتحل للإسلام والخزر تتاجرهم وتبايعهم وكذلك الروس اهـ.

(١) قلت أراد به ذا القرنين بناء على الغلط المشهور بين الناس من أن ذا القرنين هو الإسكندر وهو غلط صريح وخطأ محض وإن قال به الجم الغفير والجمع الكثير. منه عفي عنه.

قلت قد تقدم عنه في أول الفصل في وصف بلغار ما يخالف ذلك وقد ذكر البلغار بلفظ برغر وهنا بلفظ بلكان ولا ريب أنهما واحد ولكن قوله قليلو العدد غير صحيح مخالف لما ذكره هو وغيره كما لا يخفى ولعل ذلك صدر عنه على سبيل الدهول أو في العبارة سقطت والله سبحانه أعلم.

وقال أبو حامد الأندلسي لباس البلغار والخزر والبجانك قراطق^(١) تامة ولباس الروس قصير والبشجرد في طاعة البلغار والتجارة في بلغار في السمور والسنجاب والفاقم والفنك والثعلب والأرب والشمع والنشاب والعسل والبندق والرقيق والغنم والبقر وغراء السمك وأسنان السمك والكهربا والكيمنت والسيوف والدروع والخلنج اهـ.

وقال في خريدة العجائب أرض البلغار وهي أرض واسعة ينتهي قصر النهار عند البلغار والروس في الشتاء إلى ثلاث ساعات ونصف ساعة^(٢).

قال الجواليقي^(٣) شهدت ذلك عندهم فكان طول النهار عندهم مقدار ما أصلي أربع صلوات كل صلاة في عقب الأخرى مع الأذان وركعات قلائل والإقامة والتسبيح وعماراتها متصلة بعمارات الروم وهم أمم عظيمة ومدنتهم تسمى بلغار وهي مدينة عظيمة يخرج واصفها إلى حد التكذيب اهـ.

ثم قال مع ذلك في محل آخر وبلغار مدينة صغيرة ليس لها أعمال كثيرة وكانت مشهورة لأنها كانت ميناء وفرضة لهذه الممالك فاكسحتها الروس واتل وسمندر سنة ٣٥٨ فأضعفتها اهـ.

قلت عزا الفاضل المرجاني^(٤) ذكر هذه الغزوة الروسية إلى ابن الأثير وابن

(١) قراطق جمع قرطق بضم وسكون وفتح معرب كورته وهي القميص وهي أعني كورته مستعملة في التركية إلى الآن. منه عفي عنه.

(٢) علم من ذلك أن ساعتهم كانت أطول من ساعة عصرنا هذا أو طالت الأيام الآن بالنسبة إلى ذلك العصر وإلا فأقصر الأيام هناك ست ساعات ونصف ساعة. منه عفي عنه.

(٣) الجواليقي: لعله أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن الخضر بن محمد البغدادي اللغوي الشهير بالجواليقي ولد سنة ٤٦٦ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٣٩ هـ، صنف من الكتب: «تكملة درة الغواص في أوهام الناس للحريري»، «شرح أدب الكاتب لابن قتيبة»، «فيما يلحن فيه العامة»، «كتاب العروض» صنفه للمقتضي بالله العباسي، «مختصر في النحو»، «معرب» ويسمى أيضًا «المعربات» (كشف الظنون ٦/٤٨٣).

(٤) الفاضل المرجاني: تقدمت ترجمته.

حوقل^(١) ونحن راجعنا الكامل لابن الأثير مرارًا كثيرة فلم نر فيه ذكر هذه الواقعة في العام المذكور وإنما ذكر فيه حرب الروس مع بلغار طونة صرح بذلك على ما سنقول عنه فعزوها إلى ابن الأثير وهم وأما كتاب ابن حوقل فليس عندنا حتى نحكم عليه بشيء وأما صاحب الخريدة فلم أدر من أين أخذها فإننا لا نرى للروس في العام المذكور مع البلغار الذي نحن نبينها الآن حربًا أصلًا والله سبحانه أعلم.

قلت قد تقدم ذكر بلغار واسغل وسوار فأما بلغار فقد بينها نقلًا بيانًا مقنعًا وهي وإن كانت الآن خربة إلا أن موضعها معلوم لدى الكل ومعروف ومشهور وبعض آثارها باقية إلى الآن وأما الأخریان فليس لهما الآن وجود ولا بقية آثار فإن صح إثبات الشيء في مثل ذلك بالرائي لقلت إن سوار هي صمارا وكانت في مقابلتها من الجهة الأخرى من نهر ايدل وهذا أولى من القول بكونها سنبر فإن لفظ سوار أقرب إلى لفظ صمار^(٢) وإن كان موقع سنبر أقرب إلى بلغار ولم يتكلم الفاضل المرجاني في حق اسغل أو أسكل بشيء فإن جاز القول في مثل هذا بالظن والتخمين لقلت هنا أيضًا إن قوم ايجكين الموجودين الآن في أطراف قصبه چيلابي من بقايا أهالي أسغل أو أسكل فإنه قد تقدم من ابن داسته تقسيمه قوم بلغار إلى ثلاثة أقسام وجعله الأسغل صنف منها فعلى هذا يجوز أن يكون أحدهما محرفًا من الآخر فإن كون هؤلاء من باشقرد في طاعة بلغار يؤدي هذا وكون حد بلغار إلى مساكنهم بل إلى ما وراءها من منتهى المعمورة كما تقدم في بيان حدود بلغار.

ولكن إذا تأملنا في قول ابن داسته المار عند بيان الماچار من أن بين البجاناكية وبين بلاد اسكل من بلغار أول حدود المجغرية يدل على كون بلاد اسكل أو قوم اسكل في جهة الجنوب الغربي من بلغار دلالة صريحة لكون البجاناكية والمجغرية بالنسبة إلى بلغار كذلك كما مر عند بيانهما فعلى هذا ما المانع من القول بكون قصبه

(١) ابن حوقل: هو محمد بن علي بن حوقل البغدادي ثم الموصلية، أبو القاسم المؤرخ المعروف بابن حوقل، سافر إلى الأندلس وتوفي بها سنة ٣٥٠هـ، من تصانيفه: «المسالك والممالك» في التاريخ والجغرافيا (كشف الظنون ٤٣/٦).

(٢) قلت قد تقدم في كلام ابن داسته أن طائفة من قوم بلغار يقال لهم برصولا ولم يذكر هو سوار الذي ذكره غيره فجاز أن يكون هذا الصنف منهم في موضع صمار وأن يكون اسم الموضع المذكور سوار فيحرف بعد ذلك إلى صمار ثم يتحول الصنف المذكور من هناك إلى جهة الشرق قليلاً فيسمى الموضع الذي نزلوا فيه باسمهم فيقال بورصلان والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

سويل التابعة لولاية القزان الكائنة في جهتها الجنوبية الغربية في عين الموضع الذي ذكره ابن داسته وسط طائفة چواش وما المانع أيضًا من القول يكون طائفه چواش من الصنف المسمى باسكل من البلغارية .

ويؤيد هذا الاحتمال كون اسم القصبه المذكورة عند التتار وچواش چويل بالجيم المعقودة الفارسية فإنه يرشدنا إلى كون لفظ چواش مأخوذًا من چواش مسماة سابقًا بچو فقط كما يسمى بعض طوائف أسلاوان بچه وله فيكون من چويل وكون أحدهما محرّفًا من الآخر بل الأقرب إلى الصواب كون طائفة أصل چويل چوايلي يعني ولاية چو كما يقال قاريلي ياكغليلي بول ايلي بورناق ايلي على عين المعنى المذكور ثم يقال بأدنى تخفيف چويل ثم يعرب من طرف سواحي العرب فيقال اسغل أو اسكل ثم يغير اسم الطائفة أيضًا بمرور الزمان بسبب من الأسباب إلى چواش وليس هذا القول مبنيا على مجرد الظن والتخمين وصادرا عن اتباع الوهم المحض بل هو مؤيد بدلائل وقرائن سوى الذي ذكرناه وإن لم نقل مثبت بالبراهين .

أما أولاً فكون بلغار متصله ببرطاس في هذه القرون الأخيرة بل في القرون الوسطى أعني في العصر الذي بنى فيه بلدة قزان كما سيذكر عند بيان بنائها والظاهر بقاء كل في موضعه السابق فيكون المتصل ببرطاس من بلغار طائفة چواش المسماة بلادهم في القرون الأولى بچوايلي المعرب من طرف سواحي الغرب باسكل .

وأما ثانيًا فعدم ذكر واحد من السواح المذكورين طائفة چواش مع ذكر كل منهم جميع الطوائف والأقوام المقيمين في تلك القطعة حتى الروس الذين هم متوغلون في جهة الشمال والغرب وأبعد عن بلغار من چواش بعدًا فاحشًا فلو لم تكن طائفة چواش صنفًا من البلغار لذكروهم كما ذكروا غيرهم .

وأما ثالثًا فوجود المشابهة التامة من جهة الشكل والسيما والألبسة بين طائفة چواش وبين بلغار طونه الذين أخذوا اسم النصرانية في الظاهر وبقوا في ذروة الجاهلية والوثنية والوحشة في الحقيقة وتلك المشابهة لبقاء كل من الطائفتين المذكورتين على عنصرهما الأصلية من غير اختلاط بقوم آخر بخلاف سائر أصناف بلغار قزان الذين أسلموا فإنهم لما اختلطوا بأقوام آخر زالت المشابهة بينهم وبين چواش .

وأما رابعًا فبقاء بعض بلغار قزان على الكفر والجاهلية على ما يفهم من بعض النقول السابقة ولا شك أن المراد بذلك البعض إن صح القول المذكور هم بعض طائفة چواش لا غير .

وأما خامساً فقول طائفة چرمش (سرماتيا) إلى الآن لمن يدخل في دين الإسلام إنه صار سواسا (يعني چواشا) على ما ذكره الفاضل المرجاني فهذا يدل على كون چواش مرادفًا عندهم لمسلم وهو يدل على أن أول طائفة أسلمت هناك هي طائفة چواش يعني بعضهم فلا ينافي ما ذكر في الوجه الرابع وهو يدل على اتحاد أصل بلغار وچواش فإن أول طائفة أسلمت هناك هي طائفة بلغار بالاتفاق غاية ما في الباب أن فيه دلالة على أن قوم بلغار كانوا كلهم معروفين عند الجرامشة باسم چواش الذين هم بعض منهم كما أن أهل قزان كلهم معروفون إلى الآن عند أهل ما وراء النهر باسم نوغاي لوجود شردمة قليلة من طائفة نوغاي فيما بينهم.

وأما سادسًا فوجود كثيرة من قرى چواش في وسط ممالك بلغار المسلمين فيما بين قراهم فإنه لا شك أن تلك القرى باقية في مواضعها الأصلية لا إنها آتية من الخارج بعد إسلام أهل تلك الممالك وهو الظاهر.

[لغة أهل بلغار]

وأما مادة مغايرة اللسان فلا تدل على مغايرة جنس بلغار وچواش فإنه لا دليل لنا على كون أصل لسان بلغار تركيًا فيحتمل أن يكون أصل لغتهم لغة چواش ثم يتركون لغتهم الأصلية بعد الإسلام ويأخذون لغة إخوانهم الترك الذين هم جيرانهم لكونهم أصحاب الشوكة العظمى وأرباب السطوة الكبرى ومقتدًا بهم في إسلاميتهم وخصوصًا إذا كان من دلهم على الإسلام منهم واستيلائهم على ديارهم مرارًا كثيرة على ما يظهر من البيانات السابقة وإراءة السطوة وإجراء الأحكام فيها واختلاطهم بها كما تركوا سائر عاداتهم الجاهلية وأخذوا التمدن وتذروا ذروته كما يشاهد ذلك فيمن يسلم من جواش وچرمش وآر وسائر الكفرة على العموم في عصرنا هذا ويدل على ذلك دلالة صريحة بتعديل بلغار لغتهم الأصلية إلى لغة أسلاوان وعاداتهم القديمة إلى عادات أقبح منها بمراتب بعد تنصرهم وتحولهم بذلك من زاوية من جهنم إلى زاوية أخرى منها أشد منها وأفظع ويدل عليه أيضًا معرفة جميع طائفة چواش لغة الترك بخلاف چرمش وموردوا فإنه لا يعرف التركية منهم إلا من كان اختلط بهم.

وعلى كل حال فيكون لغة بلغار في القرون الوسطى والأخيرة تركية محققة لا شبهة فيه وقد أثبت الفاضل المرجاني بما كتب على أحجار القبور في أوائل العصر الثامن الهجري وبعض مصنفاتهم في العصر المذكور بالتركية وأطال في ذلك ونحن تركناه لعدم الاحتياج إليه هنالك بل كون لغتهم تركية في القرون الأولى فضلًا عن

الوسطى والأخيرة كالمصرح في أقوال السواحين التي تقدم ذكرها والذي له دخل فيما نحن فيه دلالة العبارة التي نقلها من أحجار القبور على كون لغتهم محرفة من لغة چواش لكونها غليظة جدًا وقريبة من لغة چواش ولتنقل هنا واحدة منها للاستشهاد.

قال مكتوب على حجر قبر في قرية باي تيراك هذه العبارة الحكم الله العلي الكبير يونس أول حاجي بلوى رحمه الله رحمة واسعة وفات بلکوی تاریخ جيات جور جيرم حتى جال سور آيخ جيرم بش كوان ات يعني للحاج بلوى رحمه الله رحمة واسعة كان تاريخ وفاته سنة سبع وعشرين وسبعمائة في الخامس والعشرين من شهر ثور.

ونقل مثل ذلك عن مقابر طاش بلکي من مضافات قسبة اسپاس التي هي مركز مملكة بلغار وقال وكذلك يوجد في كثير من المقابر في أطراف قزان عبارات مخلوطة بالتتارية والچواشية وفي بعضها چواشية صرفة وفي بعضها چرمشية محضة وهذا كله يؤيد ما ذكرناه عند التأمل وكلامه في آخر هذه النقول ناظر إلى ما أبديناه من الاحتمال أعني كون أهل بلغار أخلاطاً مركبة من الترك وچواش وچرمش وآر وإن لم يتجاسر على الحكم بذلك صريحاً.

ومما يدل على ما ذكرنا من تحول لغة أهل بلغار من لغة چواش إلى لغة الترك وجود التفاوت الفاحش بين تلك العبارات السابقة وبين العبارات التي كتبت بعد ذلك سنة ١٧٠ على ما نقله الفاضل المرجاني أيضاً وهي هذه تاريخ سكریزوز توقسان يتي شعبان آينك اون بشنچي ايردي كم توكل مولا سيد أحمد يكرمي أوج ياشنده شول دار دنيادين دار بقاغه رحلت ايلدي حق تعالى رحمت قلسون اه انظر إلى هذا التفاوت الفاحش بين تلك العبارات في تلك المدة وكان الأولى بالنسبة إلى الأخرى لم تخرج من عبارات چواش إلى عبارات الترك.

هذا، وقد ساقنا الدلائل والقرائن التي أسلفنا ذكرها فكر هذا الفقير وذهنه في حق بلغار وچواش بعد التأمل الكثير والتفكير الوفير والوزن بأنواع الميزان والمقياس والضرب بالأخماس في الأسداد إلى هذه النقطة وقد عرضتها على محك أنظار القارئ الكرام المنصفين ولا أدعي أن كل ما كتبه صواب لا يحتمل خطأ قط فإن ظهر صوابها بعد التفكير فيها بما لها وما عليها بالإنصاف فيها وإن ظهر خطأها فلا بأس فيها فإنه لا مؤنة فيها على أحد غيري فإننا بيتنا قريباً أن تكميل الصناعة إنما يكون بتلاحق الأفكار خصوصاً في مثل هذه المسئلة التي هي من قبيل المجهول المطلق

على أنها ليست من مبتكراتي من جميع الوجوه بل تصريح وتأييد وتقوية لما ذكره الفاضل المرجاني في ص ٢٣ وص ٣١ من تاريخه إيماء وتلويحاً وزيادة عليه وهذا أيضاً من نتائج تلاحق الأفكار ولعل من جاء بعدنا يكشف القناع عن وجه الحقيقة والله الموفق.

[مدينة سقسين]

استطرد: بقي من البلاد التي ذكرها السواح المتقدمون مقارناً لذكر بلغار دائماً بحيث لم تذكر بلغار إلا ذكرت هي معها وقد انقطع الآن ذكرها فضلاً عن وجودها مدينة سقسين كما قال في روضة الصفا در سنة ٧٠٣ توقاي (توقتاغو) ونوقاي (نوغي) در حدود سقسين وبلغار مقاتلة هولناك كرده الخ وقال خوارزمشاه آتسز حين حاصره السلطان سنجر في جملة أبيات شعر:

بخوارزم آيد بسقسين روم خدای جهانرا ملك تنك نيست

وأمثال ذلك كثيرة في كلامهم لا تكاد تحصر وقد عجز البعض عن تعيينها حتى قال مترجم البرهان القاطع ولاية غير معلومة ولكن صحح الآن كونها ولاية سقسونية في مملكة الروم (يعني أوروبا) يخرج منها طبق لطيف معروف بطبق سقسونية اه قلت والله در القائل شعر:

سارت مغربة وسرت مشرقاً شتان بين مشرق ومغرب

فإن سقسين هذه غير سقسونية التي في أوروبا وغير سقسون إنكليز وهما غير المذكورتان في كتب سواح الإسلام.

قال الملك المؤيد أبو الفداء في تقويم البلدان وفي شمالي هذه الناحية مجرى نهر طنابرس الكبير وعليه مدينة سقسين وبها الآن ولد بركة ملك التتر المسلمين وفيها مدارس ومساجد وشرقي ذلك بنحو بضع وعشر درجة منبع نهر طنابرس الذي يصب في بحيرة طوما اه بقي الكلام في معرفة نهر طنابرس وبحيرة طوما ولا يجوز أن يكون نهر دون المشهور عند المتقدمين بتنايس فإن المفهوم من كلام غيره الآتي كون سقسين في شرقي بلغار أو في جنوبها الشرقي ولم يذكرها الحموي في معجمه فلو ذكرها لاسترحنا من التعب.

وقال في تاريخ العباد والبلاد المار ذكره المترجم من آثار البلاد للقزويني ما عبره: سقسين بلدة عظيمة ليست في التركستان بلدة أعظم منه ودورها ستة فراسخ

وبقربها أيضًا بلاد مثل سقركند ويوزكند وبجكند وهذه الولاية معمورة وخوفها من الخيل (كذا في الأصل) وقفجق وليس فيها ماء سوى شعبة وترعة من نهر اتل وبساحلها بيوت سود (يعني الأخبية التركية من اللبد) وهم يسكنون فيها ودينهم دين المسلمين ولكنهم لا يصلون الصلاة طول السنة إلا في شهري شعبان ورمضان اه متخبا.

وسيجيء في كلام كارامزين قوله ولما سمع قوم سقسين ومرابطو بلغار في ساحل نهر جايق تحشد التتار وحركتهم هربوا إلى بلغار الخ وهذا القولان يدلان صراحة على كون سقسين في شرقي بلغار ولعل مراد أبي الفدا بنهر طنابرس هو نهر جايق أو صقمار والله سبحانه أعلم وزيادة التحقيق محولة على أذكيا الشبان أرباب المعارف.

وقال في كشف الظنون^(١) عند ذكر بهجة الأنوار أنها للشيخ سليمان بن داود السواري الخ فقد أفادنا أن سقسين هي عين سوار ذكر عند المتقدمين بسوار وعند المتأخرين بسقسين فهذا أيضًا يدل على أنها بشرقي بلغار قال الفاضل رفاة بك: ومن هؤلاء الناس الذين كادوا أن يكونوا مجهولين لليونانيين والرومانيين حتى روم بوزانطيا خرجت أسراب متبربرة عرفت باسم بلغار وآوار وخزر وماجار وغير ذلك ولم تتفق الفضلاء إلى الآن على أصول هؤلاء الأقوام والظاهر أنهم مختلطون من قبائل الفنية والأتراك وقال: وأمة البلغار على كلام البوزنطيين فرع من أمة الأوغرة ولكن يظهر منهم أن شبههم بالأتراك أتم من شبههم بهذه الأمة ولا شك أنهم (بلغار) استفادوا اسمهم من اسم النهر الذي كانوا في أول أمرهم يسكنون عليه لأن أقليمهم الأولى المسماة البلغارية الكبرى كان يتصل به نهر الاتل (المسمى أيضًا وولغا فأراد أنهم استفادوا اسم بلغار من وولغا وهذا وهم منه) ويظهر بقرب قزان بقية من آثار دار ملكهم ثم سكنوا (يعني طائفة منهم) على نهر قوبان ثم على نهر طونه وهناك تغلبوا في نحو سنة ٥٠٠ ميلادية على أسلاوون الصريين المستوطنين بأسفل نهر طونه ثم تغلب عليهم الأواراة ثم خرجوا من أسرههم سنة ٦٣٥ ميلادية فدخلت تحت طاعتهم في ذلك الزمان أمة القوطرغورة التي هي بقية من الهونة استوطنت جهة بحيرة نيوتيده المسماة الآن بحر أزاق وبلغارية طونة التي هي قطعة من تلك السلطنة العظيمة مكثت مدة طويلة تخشى سطوتها سلطنة بوزنطيا (القسطنطينية).

(١) انظر كشف الظنون ١/٢٥٧.

وقال: ومن الأمم المتجاورة لأسقوتية أمة الجية^(١) (سيتيا) وهي أمة تقرب من جنس الصقالبة وكانت هذه الأمة ساكنة في سالف الزمان في البلاد المسماة الآن بلاد بلغار ثم بعد ذلك عدت نهر إيستر (يعني طونه). وقال وعلى شاطئ نهر وولغا المذكور في الكتب العربية نهر اثل جعلت العرب مقام أمة الخزر وهي تتارية ومنها نصارى ووثنى ومحمدي وعلى حدود الخزر أمة البلغار وأكثر الجغرافيين يتكلمون عليها فتارة يجعلونها بلغار وتارة بلار ويجعلون قاعدتها على نهر اثل وأنقاضها الباقية على ثمانين ويرسة من سنبر إلى الآن تدل على عظم شأنها في سالف الزمان وبعض المشاركة يرى أنها أبعد مدن الدنيا شمالاً.

وقال: وأمة الخزر يسميها البوزنطيون بأوغرة أبيض ظهرت أولاً بين بحري الخزر وأزاق ثم لما تخلصت من كونهم مأسورين تحت حكومة الهونية وبلغار مدة يسيرة امتد حكمها إلى نهر تبيسة وبقيت مدن القرن السابع والثامن أرجح الأمم في تلك الجهة وبقيت اسمها إلى القرن ١٢ من الميلاد.

وقال في بيان أواره ولكن لم تمكث هذه الأمة النهاية على سطوتها وشدة بأسها زمناً طويلاً بل ضعفت بالحروب مع البلغار ثم سقطت بقوة كارلوس مانوس سنة ٧٩٦ وكان مبدأ سلطنتهم سنة ٥٦٦ هـ ما انتخباه من كلام رفاعة بك.

وقال كارامزين بعد بيان سرماطة وقد ظهر في تلك الأثناء قوم يسمون أوغر وبلغار ولم يكن المغاربة يعرفونهم قبل وهم على قول اليونانيين من جنس الهون فخرجوا من أوطانهم التي كانت في قرب وولغا وأورال واستملكوا ما بين البحر الأسود وأزاق وإقليم قريم وشرعوا من سنة ٤٧٤ ميلادية في نهب إقليم ميزه (أي البلغارية الحاضرة) وفراكيه حتى وصلوا إلى أطراف القسطنطينية ثم ذكر ظهور أسلاوون في تلك المدة خلافاً لما تقدم وهجومهم معاً إلى القسطنطينية في عهد القيصر يوسطنيان سنة ٥٢٧ وسائر معاملاتهم معهم ثم ذكر ظهور أمة أواره من طرف الشرق وغلبتهم على البلغار ومعاملاتهم مع القيصر في حدود سنة ٥٦٨ ثم قال إن ملك بلغار (قوارات خان) خرج في سنة ٦٣٠ ميلادية مصادفة سنة ٩ هجرية من طاعة حكومة أوار وتبعيتهم وقسم قوته على تسعة أقسام كبيرة وملكوا الداكية وپانونية مدة كثيرة وحاربوا في إقليمي كارنيتيه وبوهميه مع باواريا وأسلاوون محاربات عظيمة

(١) زعم أن الجية غير لاسقوتية وهذا وهم فإن الجية هي الأسقوتية كما حققناه. منه عفي عنه.

وحكم (قوارات خان) في قرب بحر أزاق مع المودة والموافقة بالروم ولكن خالف أولاده وصيته الحكمية وقسموا مملكتهم فيما بينهم فبقي كبيرهم (وات باي) في قرب دون وعبر ثانيهم (قاتراق) إلى طرف آخر من النهر لمذكور وذهب رابعهم إلى حكومة أوار في بانونيه (هنغرية) وذهب خامسهم إلى إيطاليا وثالثهم المسمى اسباروخ أقام أولاً بين نهري طونه ودينستر ثم غزا في سنة ٦٧٩ أسلاوون المقيمين بميزية وأسس هناك حكومة بلغارية قوية (وهي البلغارية الحاضرة).

قلت هذا صريح في أن تفرق بلغار طونه من بلغار قزان كان في التاريخ المذكور وهو المصادف سنة ٦٠هـ وهذا مخالف لما مر من المسعودي إلا أن نقول إنهم اتحدوا بعد ذلك أيضاً والله أعلم فليحرر^(١) وعلى كل حال فقد افتقرت أمة البلغار على فرقتين إما في أول خروجهم من أصل وطنهم على ما يومئ إليه أول كلام كارامزين أو في التاريخ المذكور آنفاً أو بعده ويقال لمن بقي في أصل مملكتهم البلغارية الكبرى ولهؤلاء المهاجرين إلى جهة طونة البلغارية الصغرى وربما يقال للأولى البلغارية الداخلة وللثانية البلغارية الخارجة وربما يقال للأولى البلغار البيض لتمددهم بقبول الإيمان والإسلام وللثانية البلغار السود لتسودهم بسود الجهل والكفر وربما يقال للأولى بلغار وولغا واتل وقزان وللثانية بلغار طونة وربما يقع الناس في الغلط بعدم التمييز بينهما فيخلط وقائع هذه بوقائع تلك حتى إن ابن فضل الله العمري^(٢) مع علو كعبه في جغرافيا وطول باعه في علم التاريخ وانفراده في عصره بمعرفة الممالك وامتيازته بتخطيط ما فيها من المسالك قال ولقد كان في السرب والبلغار من قديم دار إسلام وإيمان ذكر هذا المسعودي في مروج الذهب وأما الآن فقد تبدلت بإيمانها كفرة وتداولها طائفة من عباد الصلبان اهـ.

انظر كيف اشتبه عليه الأمر ولم يدر أن ما ذكره المسعودي وغيره هذه البلغار وإنها باقية على ما هي عليه من التمسك بعروة الإيمان وحبل الإسلام لم يغيرها عما كانت عليه اجتهاد الكفرة اللثام وتبقى كذلك إن شاء الله إلى آخر الأيام بموجب وعده سبحانه يريدون ليظفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ولم يتفطن

(١) ولكن هذا مجرد احتمال وأقوال كافة الإفرنج في هذا الباب دالة على تفرقهم في التاريخ المذكور وعدم اتحادهم بعد ذلك فعلى هذا يحمل قول المسعودي على اشتباه إحدى طائفتي البلغار بالأخرى كما ذكرناه قبل والله أعلم بالصواب. منه عفي عنه.

(٢) ابن فضل الله العمري: تقدمت ترجمته.

لما وصف المسعودي به البلغار من عدم غيوبة الشفق فيها ولم يتنبه أن هذا الوصف لبلغار اتل لا لبلغار طونة ولم يتأمل فيما ذكره غير واحد أن بين بلغار وقسطنطينية مسافة شهرين أو لم يعرف أن هذا الوصف أيضًا هو وصف بلغار قزان لا بلغار طونة ومنشأ الغلط هو الاشتراك في الاسم وعدم التأمل في الأوصاف والموضع وإنما ذكرت هذا هنا لئلا يقع المطالع في الغلط.

قال ابن الأثير في الكامل^(١) بعد ذكره ما جرى بين الواسيلي الثاني قيصر الروم وبين البلغار في حدود سنة ٣٠٠ وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة فإن هؤلاء أقرب إلى الروم من المسلمين بنحو شهرين وكلاهما يسمى بلغارًا اهـ فعلى هذا يخطر بالبال أن ما ذكره المسعودي سابقًا ومن تبعه من غزو بلغار القسطنطينية في التاريخ المذكور هناك لا يكون غزو بلغار اتل بل غزو بلغار طونه فقط وكأنه لم يكن له علم بكون بلغار طائفتين وإن التي غزت القسطنطينية هي بلغار طونه لا بلغار اتل والله سبحانه أعلم.

ولما افترق بلغار طونه من بلغار قزان تحولوا من حالة المجوسية إلى النصرانية فصاروا بذلك كمن غسل البول بالخرى وانتقلوا بذلك من طبقة من جهنم إلى طبقة أخرى أقبح منها ولا أدري في أي زمان كان ذلك التنصر فعلى قول الفاضل الشهاب القزاني كان ذلك في سنة ١٨٣ هجرية وكان اسم ملكهم في ذلك الوقت باغار فتسمى بعد التنصر ميخايل وقال بعض مؤرخي عصرنا كان ذلك في حدود ٣٥٠ على يد ياني زيمسكس الأول^(٢) (أظنها شمسية) ولم ينفع الروم تنصرهم أصلًا بل كانوا يحاربونهم دائمًا وقد كانوا ينصرونهم قيل ذلك حتى استعان بهم اليون حين حاصر مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية ولما تنصر بلغار طونة تركوا ألسنتهم وعاداتهم الأصلية وأخذوا السنة أصلًا وعاداتهم بسبب كثرة اختلاطهم معهم فهم يعدون إلى الآن من أسلاوان بحسب العادات واللسان لا بحسب الجنس ونحن لا نبين في هذا الكتاب أحوالهم بل أحوال بلغار قزان كما ذكرنا قبل قال كارامزين بعد بيان هجوم بلغار طونة إلى قسطنطينية وأسرهم امبراطور لاتين في سنة ١٢٠٥م مصادفة سنة ٦٠٢هـ وبلغار اتل لم يكونوا مائلين إلى الغزاة قلت قد مر أول كلام كارامزين مقارنة بلغار بأوغر وأكثر الجغرافيين لم يجدوا مصداقًا للفظ أوغر وهو لفظ تركي معناه اللص والسارق

(١) انظر الكامل في التاريخ ٥٦/٨ - ٥٧.

(٢) وهو المشهور في تواريخ الإسلام بدمستق. منه عفي عنه.

ولعل هؤلاء الذين خرجوا من أصل بلاد بلغار كانوا لصوصهم وقطاع الطريق خرجوا للنهب والغارة وطبيعة بلغار طونة تدل على ذلك^(١) وبقي في أصل بلاد بلغار أرباب التمدن والاستقامة والخيار كما يدل على ذلك طباعهم في جميع الأزمان وربما أطلق لفظ أوغر وأوغرة على ماجار حتى قال كرامزين لما هلكت الوينغرية في دينستر سنة ١٢٣٣ ميلادية بقي منه مثل في غاليتسيا وهو لعب دينستر باوغر لعباً مدهشاً اه فعلم من ذلك أن هذا الاسم كان يطلق على ماجار حتى السنة المذكورة وظني أنه محرف من لفظ ايغور لا غير والله أعلم .

ثم رأيت في تاريخ عاصم نجيب أفندي أنه قال: إن بعض المؤرخين وإن بين أن ألفاظ أونغر وأونغاريا وأنكروس منحرفة من لفظ أون وأويغور لكن المجار ينكرون في هذه الأعصر كونهم من أويغور ويدعون أنهم من جنس بلغار والله أعلم .

نعود إلى كلام كارامزين قال: وبلغار قزان كانوا يرسلون الميرة إلى مملكة سوزدل ويشبعون أهلها وكانوا يوصلون بصنائع الممالك الإسلامية المتمدنة ومصنوعاتهم إلى الروسية وربما يوجد على بعد ٩٠ ويرة من قزان و ٩ من وولغا الكتابة الأرمنية الباقية من القرن الثاني عشر من الميلاد السادس من الهجري وهذا يدل على أن الأرمن المشهورين بالتجارة كانوا يبادلون هناك بعضاً بصنائع الشرق بجلود الروسية وفروتهم والسختيان العالي المشهور بالبلغار في جميع الأقطار باق ومستعمل ومقبول عند الكل إلى الآن واسمه يدل على أنه من مخترعاتهم وأعلى السختيان يستعمل في الروسية إلى الآن ببلاد قزان وكذلك يوجد في خرابة بلغار الكتابة العربية من سنة ١٢٢٢ إلى سنة ١٣٤١ ميلادية وتلك الكتابة مكتوبة على قبور أهل شروان وشماخي ويوجد الفلاحون بقرب خرابة بلغار في بعض الأوقات حلبي النساء من الذهب وربما يوجد فيه دراهم العرب وربما يوجد دراهم غير مكتوبة بل فيها نقط ولا

(١) ومن الآفة العظيمة قول بعض مشاهير أدباء عصرنا بعد بيان إسلام بلغار اتل ولكن البلغار تركوا وطنهم الأصلي في ذلك الوقت ثابتين على ديانتهم الأصلية يعني الوثنية وهاجروا إلى شبه جزيرة بلقان فلا أدري أن المسلمين في أصل مملكة بلغار هل هم فئة من قوم بلغار بقوا هناك أو قوم من التتار الذين أخرجوهم من هناك لا يدري ذلك اه وخطاؤه من وجوه ظاهر فإن خروج بلغار من هناك ليس بعد إسلامهم كما عرفت ولا شبهة في كون المسلمين في تلك الديار من قوم بلغار عند أحد وكونه آفة أن المقلدين ربما يصدقونه أو يقعون في الشبهة لشهرة القائل والله الهادي للصواب ولعمري إن في أثر هذا القائل خبط كثير لا يحصى في مثل هذه المسائل لا يخفى على أربابه . منه عفي عنه .

شك أنها دراهم الأميين فتدل أمثال هذه الحالات الخطيرة على أن البلغار المذكورة كانت سابقًا على غاية المعمورية اهـ.

قلت: كلام كارامزين هذا وإن كان مصداق قول القائل شعر:

إذا أنت فضلت امرأةً ذا نباهة على ناقص كان المديح من النقص
ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف أعلى من العصي

فإن تمدن بلغار ومعموريته أعرف وأشهر من أن يستدل عليه بمثل هذه الترهات إلا أنه كان قال القائل شعر:

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

وقال أيضًا كان يعيش على شطوط وولغا وإتل قوم بلغار من مدة مديدة ولعلمهم ارتحلوا هناك من سواحل دون (تن) هربًا من طاعة خوانين خزر الذين كانوا تقووا في العصر السابع الميلادي وهم قد تمدنوا بمرور الأيام والدهور وشرعوا في التجارة وكانوا يتاجرون الروسية بواسطة الأنهر الكبيرة والفارس وسائر الممالك الآسيوية الغنية بواسطة بحر الخزر اهـ الآن ما ذكره كارامزين من الكلام المتعلق ببلغار في هذا المحل منتخبًا وسنذكر باقيه في محل إن شاء الله.

وحيث ذكرنا هذا القدر من كلام الجغرافيين والمؤرخين مما يتعلق ببلغار وسائر الأقوام القاطنة بتلك الديار والواردة عليها والمارة بها إجمالاً عن لنا أن نفضل أحوالهم بعض التفصيل حسب الاطلاع اهـ.

ذكر إسلام بلغار وما جرى عليهم بعد ذلك من الحوادث والوقائع والحروب مع الكفار الأشرار

قد ذكرنا سابقًا زمان دخولهم في حمى الإسلام وسببه فلنذكر الآن أحوالهم بعد تشرفهم بشرافة الإيمان. اعلم أنهم لما تشرفوا بشرف الإيمان لسبق العناية الإلهية وتعلق إرادته السنوية بسعادتهم وعرسوا الشجرة الطيبة الإسلامية في وسط بستان مملكتهم ورفعوا ألوية الهداية وأعلام الشريعة المحمدية بجميع همتهم وزينوا بذلك كرسي سلطنتهم وكان ذلك في التاريخ المذكور هناك أعني بعد الثلاثمائة أيام المقتر باله أو قبله بقليل أو كثير أقوال والظن الغالب هو الأول والله أعلم. تيقنوا أن هذه الشجرة الطيبة لا بقاء لها ولا دوام بغير السقي والتربة وسقيها إنما يكون بماء الفضل والعرفان والعلم والإيقان والفقه والوجدان الجاري من نهري السنة والقرآن وهم بمعزل

عن هذا لكونهم قريبي العهد بالإسلام والإيمان ولبعدهم عن بلاد الإسلام خصوصاً دار الخلافة مدينة السلام أرسل ملكهم ألماس خان بن سلكي خان رسولاً إلى معدن الفضل والعلم بغداد مدينة السلام ليباع الخليفة مقتدر بالله العباسي وليظهر متابعتة له وطاعته إياه ويلتمس منه الفقهاء والعلماء والمهندسين والمعمار والصناعيين ليوقفوهم على شعائر الإسلام ويعلموهم أحكام الشريعة ومعالم الدين وليبينوا لهم سمت القبلة على الوجه اليقين ويستأذنه في بناء السور في أطراف بلده ليتحصن به من الملوك المخالفين له في الدين لما جرت به العادة من معادة الكفرة اللثام لمن دخل في حمى الإسلام وقد مر محاربة الخزر إياهم لدخولهم في الإسلام والإيمان وإن لم يكن له مدخل في تلك البلدان فأجاب له المقتدر بالله بملتمسه وسؤله وتفضل عليه بإسعافه فيما رامه وأمله وأرسل إليه رسوله وأصحابه الفقهاء والعلماء والمهندسين وسائر أهل الصناعة المتبحرين وكان الرسول المعين له سوسن الراسبي^(١) والبدر الخرمي وضم إليهم أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي الكاتب^(٢) وأمره بأن يكتب جميع ما يشاهده ويعاينه في الطريق وفي بلاد بلغار وما يجاورها من سائر البلاد عن العجائب والغرائب وأجناس الأمم وعوائد القبائل وألستهم ودياناتهم وتعبداتهم وكيفية أراضيهم ومسكنهم ومنازلهم وكيفية معاشهم ومقدار أطول الليالي والأيام وقصرها وغير ذلك من وقت خروجه من بغداد إلى أن يدخلها راجعاً ففعل ما أمر به وألف في ذلك رسالة وهذه الرسالة مشهورة برسالة ابن فضلان وهي عزيزة الوجود لا تكاد توجد بل ادعى الفاضل المرجاني أنها مفقودة بالكلية مثل تاريخ البلغار لقاضي البلغار يعقوب بن نعمان وقال إن الأوروبيين طلبوها بنشر الإعلانات مراراً من جميع الدنيا فلم يظفروا بهما ولكن قوله هذا في تاريخ البلغار وإن كان صحيحاً ولكن في رسالة ابن فضلان يشبه أن لا يكون غير صحيح لأن بعض مؤرخي الروسية^(٣) صرح بنقله عنها والظاهر أنه إنما نقل ما نقل بلا واسطة إلا أن نقول أن الموجود عند

(١) سوسن الراسبي هكذا رأيت في نسخة معجم البلدان للحموي في مواضع منها بالواو بعد السين وقد ضبطه الفاضل المرجاني بالهاء بدل الواو. منه عفي عنه.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٤٦٤/٦.

(٣) وهو الميرالأي ريتيخ الروسي صرح بنقله عنها وعن شرحها للمحرر فرن وصرح بوجودها في دار الفنون بقزان وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان في مادة إتل في حق ابن فضلان ورسالته وقصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر إياه إلى بلغار معروفة مشهورة بأيدي الناس منها عدة نسخ اهد فأين ذهب تلك النسخ كلها كيف وقد أكثر الناس النقل عنها فتجوز انعدامها بالكلية من قبيل تجويز المحال والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

الروسية إنما هو ترجمتها لا عينها والله سبحانه أعلم، وأني لم أرها بعينها وإنما ظفرت ببعض النقول منها كما ذكرنا بعضها فيما مر نقلًا عن القزويني وياقوت الحموي وها أنا أنقل هنا أيضًا عما نقله الحموي عنها في معجم البلدان بعبارة .

قال: بلغار بالضم والغين المعجمة مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال شديدة البرد لا يكاد يقلع الثلج عن أرضهم صيفًا ولا شتاء وفلما يرى أهلها أرضًا ناشفة وبنائهم بالخشب وحده بأن يركبوا عودًا فوق عود أو يسمروها بأوتاد من خشب أيضًا محكمة والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجس^(١) وبين إتل مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ويصعد إليها في نهر إتل نحو شهرين وفي الحدود نحو عشرين يومًا ومن بلغار إلى باشجرد خمسة وعشرون مرحلة وقد كان ملك بلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله وأرسلوا إلى بغداد رسولاً يعرفون المقتدر بذلك ويسألونه إنفاذ من يعلمهم الصلاة والشرائع لكن لم أقف على السبب في إسلامهم قرأت رسالة عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها. قال فيها: ولما وصل كتاب المس بن سلكي بلطوار^(٢) (بلكوار) ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيها أن يبعث إليه من يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له مسجدًا وينصب له منبرًا ليقم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له أجيب إلى ذلك وكان السفير له نذير الخرمي (بدر الخرمي مستفاد) فبدأت أنا بقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه والأشراف والفقهاء والمعلمين وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي^(٣) (الراسبي مستفاد) مولى نذير (بدر) الخرمي قال فرحلنا من مدينة السلام لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة ثم ذكر ما مر له في الطريق إلى خوارزم ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه ثم قال: ولما كنا من ملك الصقالبة

(١) من الانجساب. منه عفي عنه.

(٢) في النسخة التي نقلنا عنها هكذا بالطاء بعد اللام وكذلك في قاموس الإعلام في مادة بلغار ونسختي مكتوبة في إستانبول وطني أن صاحب قاموس الأعلام أيضًا أخذه من معجم البلدان وإن لم يصرح بذلك فالظاهر أن مأخذ كلا نسختي معجم البلدان واحد وإلا فالظاهر أنه بالكاف بعد اللام هكذا بلكوار كما في مستفاد الفاضل المرجاني. منه عفي عنه.

(٣) هكذا في النسخة التي نقلت عنه وبينه وبين قوله وكان لسفير له نذير الخرمي منافاة كما لا يخفى ولم أقدر على حله فليحرق. منه عفي عنه.

وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس وساروا معنا فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه فلما رأنا نزل وخر ساجداً لله شكرًا وكان في كفه دراهم فنثرها علينا ونصب لنا قبابًا فنزلناها وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة خوارزم سبعين يومًا فأقمنا إلى يوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصه ليسمعوا قراءة الكتاب فلما كان يوم الخميس نشرنا المطرزين الذين كانوا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجهة إليه وألبسناه السواد وعممناه وأخرجت كتاب الخليفة وقرأته وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائم أيضًا وكان بديئًا ونثر أصحابه علينا الدراهم وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه ثم خلعنا على امرأته وكانت جالسة على جانبه وهذا سنتهم ودأبهم ثم وجه إلينا فحضرنا قبته وعنده الملوك عن يمينه وأمرنا أن نجلس على يساره وأولاده جلوس بين يديه وهو وحده على سرير مغشى بالدباج الرومي فدعا بالطعام فقدمت إليه المائدة عليها لحم مشوي فابتدأ الملك وأخذ سكينًا وقطع لقمة فأكلها وثانية وثالثة ودفعتها إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءت مائدة صغيرة فجعلت بين يديه وكذلك رسمهم لا يمد أحد يده إلى أكل حتى يناوله الملك فإذا تناولها جاءت مائدة ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قدم إلى كل واحد من الذين بين يديه مائدة وأكل كل واحد منا من مائدة لا يشركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئًا، ولما فرغ من الأكل حمل كل واحد منا ما بقي على مائدته إلى منزله فلما فرغنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه السجو فشرب وشربنا وقد كان يخطب له قبل قدومنا اللهم أصلح الملك بلطوار (بلكوار) ملك بلغار فقلت له: إن الله هو الملك ولا يجوز أن يخاطب بهذا أحدًا سيما على المنابر وهذا مولاك أمير المؤمنين قد وصى لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب اللهم واصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين فقال: كيف يجوز أن يقال قلت: يذكر اسمك واسم أبيك فقال: إن أبي كان كافرًا وأنا أيضًا ما أحب أن يذكر اسمي إذا كان الذي سماني به كافرًا ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين قلت: جعفر بن عبد الله قال: فيجوز أن نسمي باسمه قلت: نعم، فقال: قد جعلت اسمي جعفرًا واسم أبي عبد الله ويقدم إلى الخاطب بذلك وكان يخطب اللهم واصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين.

قال ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة منها كذا^(١) ومنها قصر الليل^(٢) جدًا ومنها طول النهار جدًا وذلك في أول الصيف وعكسه في الشتاء قال: وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم: ويسو الليل عندهم أقل من ساعة قال: ورأيتهم يتبركون (يتفألون) بعواء الكلب جدًا ويقولون في سنة خصب وبركة وسلامة ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى أن الغصن من الشجرة ليلتف عليه عشرة منها وأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم ولهم تفاح أخضر شديد الحموضة جدًا يأكله الجوارى فيسمن وليس في بلدهم أكثر من شجر البندق ورأيت منه غياضًا يكون أربعين فرسخًا ورأيت لهم شجرًا^(٣) لا أدري ما هو مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص دقاق إلا أنه مجتمع يعمدون إلى موضع من ساق هذه الشجرة يعرفونه فيثقبونه ويجعلون تحته إناء يجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الإنسان منه أسكره وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الخيل على أن الحنطة والشعيرة كثير في بلادهم وكل من زرع شيئًا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور وإذا أمر سرية على بعض البلدان بالغارة كان له معهم حصة وليس عندهم شيء من الأدهان غير دهن السمك فإنهم يقيمونه مقام الزيت والشيرج فهم كانوا لذلك رفضًا^(٤) كذا وكلهم يلبس القفالنس وإذا

(١) كناية عن حكاية خرافية تركتها لذلك وكنت عنها بذلك وهي أنه قال من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقد احمر احمرارًا شديدًا وسمعت في الجو أصواتًا عالية وهمهمة فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه وإذا فيه أمثال الناس والدواب وإذا في أيدي الأشباح التي فيه قسي ورمح وسيوف أتبينها وأتخيلها وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها رجالًا أيضًا وسلاحًا ودوابًا فأقبلت هذه القطعة على هذه كما تحمل الكتبية على الكتبية ففزعنا من هذه وأقبلنا على التضرع. والدعاء وأهل البلد يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا قال وكنا ننظر إلى القطعة تحمل إلى القطعة فيختلطان جميعًا ساعة ثم يفترقان فما زال الأمر كذلك إلى قطعة من الليل ثم غابت فسالنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية وأنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة اه. وقد نقلها في ترجمة عجائب المخلوقات عنه على أنه رآها في بلاد بجاناك والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) تركنا تفصيله لكونه معلومًا لأربابه ولمخالفة الواقع. منه عفي عنه.

(٣) قلت: إن شجر الخلنج بهذه الكيفية يخرج منه إذا ثقب في أوائل الربيع شراب لذيد ولكن شجر الخلنج معروف وكثير في تلك الديار بحيث لا يمكن خفاؤه لمثل أحمد بن فضلان المدقق عن أصل كل شيء كما قال الفاضل المرجاني وأيضًا لا أظن أنه يسكر وليس هناك شجر غيره على الوصف المذكور والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٤) كذا في النسخة المنقولة عنها وترجمه الفاضل المرجاني بالرائحة الكريهة ولم أره في كتب اللغة =

ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت إبطه ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلسون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس وكل من جلس بين يديه فإنما يجلس باركًا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهر حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك .

والصواعق في بلادهم كثيرة جدًا وإذا وقعت الصاعقة في دار أحدهم لم يقربوها بل يتركونها حتى يتلفها الزمان ويقولون هذا موضع مغضوب عليه وإذا رأوا رجلاً له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا: هذا حقه أن يخدم ربنا فيأخذونه ويجعلون في حلقه حبلاً ويعلقونه في شجرة حتى يتقطع وإذا كانوا يسيرون في طريق وأراد أحدهم البول فبال وسلاحه عليه انتهوه وأخذوا سلاحه وجميع ما معه ومن حط عنه سلاحه وجعله ناحية لم يتعرضوا له وهذه سنتهم وينزل الرجال والنساء النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يتستر بعضهم من بعض ولا يزنون بوجه ولا سبب ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سلك وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبتة إلى فخذه وكذلك يفعلون بالمرأة ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة قال: ولقد اجتهدت أن تستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى إلى ذلك ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني ولهم أخبار اقتصرنا على هذا اهـ من معجم البلدان بعبارة .

إلا أنني تركت بعد قوله: ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها حكاية خرافية وكنيت عنها بقولي منها كذا وهي مع كونها خرافية نقلها في ترجمة عجائب المخلوقات عن أحمد بن فضلان على أنه رآها في بلاد بجاناك لا في بلاد بلغار^(١) كما أشرنا إلى ذلك عند ذكر بجاناك وكذلك أخذ القلنسوة من الرأس عند مرور الملك وتعليق العاقل على الخشبة نسبها في الترجمة المذكورة إلى قوم آخر بجنب بلغار وهاك تعريب عبارتها وفي وراء بلغار قوم من الكفار إذا رأوا ملكهم يأخذون قلانسهم من رؤوسهم وإذا كان فيهم رجل عاقل ذكي يربطون الحبل برقبته ويعلقونه على شجرة ويقولون إنه يصلح لخدمة ربنا فيموت هناك اهـ . وهذا هو الصواب فإن أهل بلغار لما

= ولعله في نسخته بلفظ آخر . منه عفي عنه .

(١) وتعريبها أنه قال رأيت فيها يعني في بلاد بجاناك إذا غربت الشمس يحمر الأفق ويسمع عقبه أصوات مخرفة مهولة وتظهر بعد ذلك غيوم سود ويظهر فيها فرسان بأيديهم السيوف فيقابل بعضهم بعضاً ويقتلان مقدار ساعة ثم يفرقان فسألت القوم المذكور عن هذه الحالة قالوا سمعنا أباءنا يقولون: إنها عسكر الجن ولا ندري غير ذلك اهـ انظروا إلى تفاوت ما بين التعبيرين . منه عفي عنه .

أسلموا كيف يفعلون ما يغير الشريعة ولا سيما أن الإسلام فيهم غض طري والظاهر أن هذا القوم هم الجواش والقصور في نقل الحموي وظني أن اختلاط النساء بالرجال وقت الاغتسال هو عادة الجواش الذين بقوا على الجاهلية فإن الحالة المذكورة لا تناسب المسلمين خصوصاً عند كون الإسلام عندهم أعز وألذ من كل شيء والله سبحانه أعلم بالصواب.

وهذا القدر هو الذي أطلعنا عليه من أحوال هؤلاء الرسل ولم نطلع وراء ذلك على شيء من أحوالهم وعددهم وأصنافهم وأسماهم وأنهم ماذا صنعوا هناك وكم بقي منهم هناك وكم رجعوا ولكننا نعرف يقيناً بموجب طلب الملك أنهم بينوا سمت قبلتهم ووضعوا محاربيهم على وجه تقتضيه مواقعهم بعد تحقيق طول بلادهم وعرضها حسبما تقتضيه القواعد الفلكية قيل إنهم وجدوا سمت قبلتهم مائلة من نقطة الجنوب إلى طرف الغرب بنحو أربع عشر درجة مع أن هذا القائل يقول: إن طول مكة عزى^(١) وطول بلغار سز^(٢) فهذا يقتضي بحسب القاعدة أن يكون سمت قبلتهم نحو الشرق من نقطة الجنوب لأن بلغار يكون على هذا غريباً بالنسبة إلى مكة كما لا يخفى لكن التحقيق ما ذكرناه سابقاً من أن طوله فه^(٣) فيكون شرقياً بالنسبة إلى مكة بمقدار (ز د ن ق)^(٤) فيتوجه نحو الغرب قليلاً ولهذا استدرك هذا القائل قوله السابق في هامش رسالته بقوله: ينبغي أن يكون طول قزان أكثر مما ذكر في الكتاب بنحو عشرين درجة إلا أنه لم يعز هذا إلى أحد بل قاله بالظن والتخمين كما هو ديدنه غالباً والذي ألجأه إلى ذلك هو عدم رؤيته طول بلغار في غير خرائط الروسية ولما رأى طول بلغار فيهما مثل ما ذكر ارتكب ما ارتكب ولم يدر أن كون طول مكة ما ذكر إنما هو عند من يجعل مبدأ الطول الجزائر الخالدات وكون طول بلغار في خرائط الروسية ما ذكر إنما هو لاعتبارهم مبدأ الطول من ساحل البحر المحيط الغربي والتفاوت بين الساحلي والجزائري مقدار عشر درجات كما هو مذكور في محله فيكون ما قلنا قريباً من ذلك والله الموفق ثم إن قوله طول قزان لا يوقعك في الالتباس فإن مسافة ما بين بلغار وقزان قريبة خصوصاً بحسب الطول فإن قزان في شمالي بلغار والتفاوت بينهما في الطول جزئي جداً.

(١) عزى: لعله يشير بهذا اللفظ إلى الطول بحساب الجمل. وعزى بحساب الجمل تساوي ٨٧.

(٢) سز: بحساب الجمل تساوي ٦٧. (٣) فه: بحساب الجمل تساوي ٨٥.

(٤) ز د ن ق: بحساب الجمل تساوي ١٦١.

وهذا الذي ذكرنا من سمت القبلة إنما يتمشى في نفس بلغار والبلاد المسامطة له في الطول وما حوله من الأمكنة القريبة منه وأما البلاد الغربية منه فينبغي فيها حين التوجه إلى القبلة أن ينحرف من نقطة الجنوب نحو الشرق قليلاً وكلما يبعد عن بلغار يزيد الانحراف خصوصاً في مثل بلدة خان كرمان وكاستورا وما وسقوا وپتربورغ وما في تلك الأصقاع فإن طول خان كرمان وكاستورا ما (نح به)^(١) وطول موسقوا (نديه)^(٢) وطول پتربورغ (مح)^(٣) وأما البلاد الشرقية من بلغار فينحرف فيها وقت الاستقبال من نقطة الجنوب نحو الغرب بعكس الأولى خصوصاً في مثل بلاد أورنبورغ وطرويسكي وقزليار وما في أطرافها من البلدان فإن طول أورنبورغ أكثر من طول قزان وطول طرويسكي أكثر من طول أورنبورغ وطول قزليار أكثر من طول طرويسكي .

وهذا الذي ذكرنا من الأطول مبنى على ما في خرائط الروسية تقريباً وقد عرفت أنهم يعدون من الساحل فإذا زدنا على ذلك درجات ما بين الساحل والجزائر يزيد في كل على ما ذكر عشر درجات تقريباً والله سبحانه أعلم وإنما أطينا في ذلك لكونه أمراً مهماً جداً خصوصاً في أثناء الأسفار وربما نشاهد محاريب بلاد متباعدة بينها تفاوت فاحش في الطول على سمت واحد في القبلة .

بيان وقت العشاء في تلك البلاد في أوائل الصيف

قد مر التصريح فيما سبق من كثير من السواح بأن الشفق لا يغيب هناك في أوائل الصيف مقدار أربعين يوماً ولكن لم يذكر أحد منهم منتهى قصره على وجه التحقيق ولم يتفق كلماتهم في ذلك بل تكلم فيه كل بالظن والتخمين . وقد مر عن كثير تحديده بعدم التمكن من طبخ القدر إلى الصباح وهذا كما ترى لا يجدي شيئاً مع أنه غير صحيح في نفسه فإن الأمر ليس كذلك كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى بل هو قول قالوه مبالغته وقال ابن فضلان ما زبدته: دخلت خيمة واحد من أصحابي بعد ما صليت المغرب وجلسنا ننتظر العشاء فلما قعدنا مقدار نصف ساعة أذن المؤذن فخرجت لأصلي العشاء فإذا هو أذان للفجر فقلت له: أين العشاء فقال نحن نصلي العشاء مع المغرب اهـ .

وهذا القول أبلغ من الأول وأبعد .

(٢) نديه: بحساب الجمل تساوي ٦٩ .

(١) نح به: بحساب الجمل تساوي ٧٣ .

(٣) مح: بحساب الجمل تساوي ٤٨ .

وقال ابن بطوطة في رحلته المشهورة: ووصلتها يعني البلغار في رمضان فلما صلينا المغرب أظفرتنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا الشفع والتراويح والوتر وطلع الفجر أثر ذلك اهـ، وهذا أقرب إلى الصواب. وقال ابن فضل الله العمري قال الأربلي ومن مشاهير مدنها يعني مملكة أوزبك البلاد الشمالية البلغار وأقصر ليلها أربع ساعات ونصف قال حسن الرومي ثم سألت مسعودًا الوقت بالبلغار عن هذا فقال جربناها بالآلات الرصدية فوجدناها أربع ساعات ونصف تحريراً اهـ. وهذا أيضًا أقرب إلى الصواب وأعدل الأقوال حال من المبالغة ولكن قوله أربع ساعات ونصف الظاهر أن هذا من أول غروب الشمس إلى تبين طلوع الفجر وتبينه إنما يكون بالآلات الرصدية كما قال: فإنه لما لم يغب الشفق فيه لا يتحقق مبدأ الفجر الذي به يمتاز الليل من النهار شرعًا إلا بالآلات ومقدار ما بين غروب الشمس وطلوعها في أغلب بلاد بلغار وقزان وقت قصر الليالي ست ساعات ونصف وما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس في مثل تلك البلاد وتلك الأوقات يكون مقدار ساعتين غالبًا لكون مدار الشمس وقتئذٍ فيها أقرب من الأفق جدًا فيكون ما ذكره صحيحًا^(١) وهذا حين كون الشمس في نهاية الانقلاب الصيفي ووصولها إلى مدار سرطان وحينئذٍ لا يغيب الشفق هناك مقدار أربعين يومًا كما قيل وأقل وأكثر بالنسبة إلى كون البلد جنوبيًا أو شماليًا من بلغار فنشأ من هذا الاختلاف بين العلماء في أن صلاة العشاء هل تجب على سكنة تلك البلاد أم لا وهذه المسألة معركة آراء العلماء قديمًا وحديثًا وقلما يكون مصنف في الفقه لا يذكر هذه المسألة في كتابه وقد أفردها الكثيرون بالتأليف فمن قائل بالوجوب ومن قائل بوجوب القضاء دون الأداء قال الشيخ العلامة أبو الرجاء نجم الدين مختار بن محمود بن محمد الزاهدي الغزميني^(٢) صاحب القنية وغيرها في المجتبى شرح مختصر القدوري نقلًا عن أستاذه القاضي فخر الدين بدیع بن

(١) فإن مدار الشمس كلما كان أقرب من الأفق تكون مسافة الشمس التي تقطعها بين طلوع الفجر وطلوع الشمس أزيد وأكثر. منه عفي عنه.

(٢) الزاهدي الغزميني: هو نجم الدين أبو الرجاء مختار بن محمود بن محمد الغزميني الخوارزمي الفقيه الحنفي المعروف بالزاهدي المتوفى سنة ٦٥٨ هـ، له من الكتب: «جامع في الحيض»، «حاوي مسائل الواقعات والمنية وما تركه في تدوينه من مسائل القنية وزاد فيه من الفتاوى لتتميم الغنية»، «رسالة الناصرية»، «زاد الأئمة في فضائل خصيصة الأمة»، «شرح مختصر القدوري»، «الصفوة في الأصول»، «فرائض الزاهدي»، «فضل التراويح»، «قنية الفتاوى»، «قنية المنية لتتميم الغنية لأستاذه بدیع»، «كتاب الفضائل»، «مجتنى في الأصول»، (كشف الظنون ٤٢٣/٦).

منصور القزبني^(١) بلغنا أنه وردت الفتوى عن بلاد يطلع الفجر فيها قبل غيوبة الشفق في أقصر ليالي السنة على شمس الأئمة الحلواني^(٢) فتى بقضاء العشاء ثم وردت بخوارزم على الشيخ الكبير سيف السنة البقالي فأفتى بعدم الوجوب فبلغ جوابه الحلواني فأرسل إليه من يسأله بعامته بجامع خوارزم ما تقول فيمن أسقط من الصلوات الخمس واحدة هل يكفر فسأله وأحس به الشيخ فقال ما تقول فيمن قطع يده من المرفقين أو رجلاه مع الكعبين كم فرض وضوئه فقال ثلاث لغوات محل الرابع قال كذلك الصلاة الخامسة فبلغ الحلواني جوابه فاستحسنه ووافق فيه انتهى وفي المحيط ورد فتوى^(٣) في زمن الصدر الكبير برهان الأئمة وكان فيها أنا لا نجد وقت العشاء في بلدنا فإن الشمس كما تغرب يطلع الفجر من الجانب الآخر هل علينا صلاة العشاء فكتب في الجواب أنه ليس عليكم صلاة العشاء وهكذا كان يفتي ظهير الدين المرغيناني^(٤) اهـ ومثله في الخلاصة والكافي والكنز وغيرها وبه عمل الكسلان وذهب الأكثرون إلى الوجوب وحققه الكمال بن الهمام^(٥) وما رد به الحلبي على المحقق مردود عليه كما في حاشية الدر المختار للعلامة ابن عابدين^(٦)

(١) بضم القاف وفتح الزاي وسكون الباء الموحدة وآخرها نون. منه عفي عنه.

(٢) شمس الأئمة الحلواني: هو عبد العزيز بن أحمد بن نصر بن صالح البخاري، شمس الأئمة أبو محمد الحلواني، الفقيه الحنفي، توفي سنة ٤٥٦ هـ، له من التصانيف: «البيسط في علم الشروط»، «شرح أدب القاضي لأبي يوسف»، «شرح جامع الكبير للشيباني»، «شرح الحيل الشرعية للخصاف»، «شرح سير الكبير للشيباني»، «الفتاوى»، «كتاب الكسب»، «كتاب النفقات»، «كتاب النوادر»، «مبسوط في الفروع»، «واقعات» في الفروع. (كشف الظنون ٥/ ٥٧٧ - ٥٧٨).

(٣) في بعض النسخ من بلغار. منه عفي عنه.

(٤) ظهير الدي المرغيناني: هو علي بن عبد العزيز بن عبد الرزاق المرغيناني، ظهير الدين الكبير الحنفي، المتوفى سنة ٥٠٦ هـ، له من المصنفات: «أقضية الرسول ﷺ»، «كتاب الأفضية»، «فوائد في الفروع» لولده ظهير الدين الحسن، «مناقب الإمام الأعظم». (كشف الظنون ٥/ ٦٩٤ - ٦٩٥).

(٥) الكمال بن الهمام: هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسي ثم السكندري، كمال الدين الحنفي، المعروف بابن الهمام، ولد سنة ٧٩٠ هـ، وتوفي سنة ٨٦١ هـ، من مصنفاته: «تحرير الأصول»، «زاد الفقير» في الفروع، «شرح بديع النظام لابن الساعاتي» في الفروع، «شرح حديث كلمتان خفيفتان»، «فتح القدير للعاجز الفقير» من شروح الهداية للمرغيناني في الفروع، «فواتح الأفكار في شرح لمعات الأنوار»، «مقدمة التشريح»، «المسيرة في العقائد المنجية في الآخرة»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ٢٠١).

(٦) ابن عابدين: هناك ابن عابدين الأب: وهو السيد محمد أمين عابدين بن السيد عمر عابدين بن =

وللفاضل المرجاني^(١) رسالة مستقلة فيها تسمى ناطورة الحق حقق فيها الوجوب بما لا مزيد عليه^(٢) وإن كان أكثرها مأخوذاً من رسالة المنلا عبد الناصر القورصاوي وغيرها ولمولانا المرحوم العلامة عبد الله سراج رحمه الله تعالى مفتي بلد الله الحرام رسالة فيها أيضاً حقق فيها الوجوب الذي هو الحق والصواب وذكر في أولها أنه قدم رجلان من بلاد بلغار وعليهما أثر السكينة والوقار الخ. كيف لا تجب وهل يظن أن واحدة من الصلوات الخمس التي فرضهن الله سبحانه بدل خمسين صلاة وقال هن خمس صلوات الخ، تسقط بسبب فقدان سببها الجعلي مع قيام سببها الحقيقي كلاً^(٣) وإنما ذكرنا هذه المسألة هنا مع كونها خارجة من غرض الكتاب لكونها مما اهتم به العلماء قديماً وحديثاً وليعلم الناظر إلى هذه المجموعة المحقرة أن تلك البلاد التي لا يغيب الشفق فيها وكثر ذكرها في كتب الفقه هي هذه البلاد التي نحن الآن بصدد بيان أحوالها فإنه كثيراً ما يمر نظر الإنسان بهذه المسألة في كتب الفقه ولا يدري سمت تلك البلاد فينبعث له شوق إلى معرفتها وربما يتوهم المتوهم أن المسألة فرضية لا متحققة فإن الفقهاء كثيراً ما يذكرون في كتبهم ما لا تحقق له ولا وجود.

تنبيه لتتيمم الفائدة المتعلقة بتلك المسألة

قال العلامة ابن عابدين في حاشية الدر بعد ذكر هذه المسألة لم نر أحدًا تعرض لبيان الفجر في هذه الصورة وإنما الواقع في كلامهم تسميته بالفجر لأن الفجر عندهم

= عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم الدمشقي الحنفي. المفتي العلامة الشهير بابن عابدين، ولد سنة ١١٩٨ هـ، وتوفي سنة ١٢٥٢ هـ. له من التصانيف: «رد المحتار على الدر المختار» في الفقه (كشف الظنون ٦/٣٦٧ - ٣٦٨).

وابن عابدين الابن: وهو السيد علاء الدين محمد بن محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الدمشقي الحنفي الشهير كوالده بابن عابدين، المتوفى بالشام سنة ١٣٠٦ هـ. له: «قرة عيون الأخبار لتكملة رد المحتار على الدر المختار» لوالده. (كشف الظنون ٦/٣٨٨).

(١) المرجاني: هو شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني القراني الحنفي. تقدمت ترجمته.

(٢) وللشيخ عبد العلي البيركوي رسالة لطيفة في وجوبه أيضاً. منه عفي عنه.

(٣) وما ذكروه من القياس على محل الوضوء وإن كان يرى في بادية النظر صحيحاً إلا أنه بالنظر إلى ما في الاستفتاء من قولهم تطلع الشمس كما تغرب فحينئذ لا يتحقق الوقت وأما بالنظر إلى نفس الأمر فليس بصحيح فإن الشمس لا تطلع هناك كما تغرب بل بينهما ست ساعات ونصف كما عرفت فحينئذ هل يبقى شبهة في تحقق الوقت فالقياس الصحيح حينئذ أن يقول فيمن لا مرفق له أو لا كعب له كما لا يخفى. منه عفي عنه.

اسم للبياض المنتشر في الأفق يعني من طرف الشرق بلا اشتراط سبقه بالظلام اهـ ملخصاً.

قلت: قال البرجندي^(١) في حاشية شرح الجغميني إذا زاد عرض البلد على ثمانية وأربعين درجة ونصف درجة يتداخل زمان الصبح والشفق حين كون الشمس في الانقلاب الصيفي لكن الظاهر إذا كانت الشمس في النصف الغربي من دائر نصف النهار كان من حساب الشفق وإذا كان في النصف الشرقي كان من حساب الصبح اهـ ملخصاً.

قلت: وبهذا تبين أن صلاة الفجر تكون أداء لوجود وقتها على هذا التقدير يقيناً وهو ظاهر ولذا لم يتعرضوا لها وبه علم أيضاً حكم الصوم وأنه يجوز الأكل قبل نصف الليل لا بعده أعني بعد أن بلغت الساعة الإفرنجية اثنتي عشرة ساعة فإن الساعة الإفرنجية إنما تكون اثنتي عشرة إذا بلغت الشمس دائرة نصف النهار ليلاً ونهاراً.

هذا ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدد بيانه فأقول: إن وقائع بلغار قديماً وحديثاً وإن كانت كثيرة ولكنها لما لم تكن مضبوطة ومحفوظة ومحركة في التواريخ تعذر الاطلاع على تفاصيلها والأخبار عنها منتظمة ومرتبة ولكن المعلوم من كلام السواح على ما مر أنهم لم يخلوا من المحاربة والمقاتلة مع الأقوام المجاورة إياهم قبل الإسلام وبعده كما مر بعض وقائعهم على سبيل الإجمال إلا أن أكثر محاربتهم بعد الإسلام كانت مع الروسية فإن مبدأ إسلامهم صادف أول ظهور الروسية وانتشارهم من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي فاستمر الحرب بينهم من ذلك الوقت إلى أن انقرضت البلغارية بالكلية وذلك في حدود سنة ٨٣٣ على ما سيجيء وكان الحرب بينهم سجالاتاً يغلب هذا على ذلك مرة وذلك على هذا أخرى وربما كان يحصل بينهم المصالحة مدة من الزمان ومأخذي في ذلك أثر الفاضل الشهاب المرجاني وكارامزين والعهدة عليها.

(١) البرجندي: هو عبد العلي بن محمد بن حسين البرجندي الحنفي المتوفى سنة ٩٣٢ هـ، له: «حاشية على شرح ملخص الجغميني لقاضي زاده»، «شرح التذكرة النصيرية» في علم الهيئة، «شرح زبدة الأصول»، «شرح الرسالة العضدية في المناظرة»، «شرح الفوائد البهائية في الحساب»، «شرح المجسطي»، «شرح المنار للنسفي» في الأصول، «شرح النقابة مختصر الوقاية». (كشف الظنون ٥/٥٨٦).

[أمراء بلغار ومحارباتهم]

قال الفاضل المرجاني لما توفي أمير البلغار الأمير جعفر بن عبد الله الذي هو أول من أسلم منهم جلس مكانه على كرسي السلطنة ولي عهده ولده الأمير أحمد (ولعله ولده الذي تقدم نقلاً عن المسعودي أنه حج وقدم بغداد وحمل المقتدر معه بنوداً وطبولاً) ولما توفي المذكور قام مقامه ولي عهده ولده الأمير طالب وقال يوجد بعض المسكوكات المضروبة باسمه في بلغار سنة ٣٣٨.

قلت: فعلى هذا يكون مدة الأمير أحمد قليلة جداً فإن المفهوم من كلام المسعودي فيما مر بقاء الأمير جعفر إلى سنة ٣٣٢ كما يعلم بالمراجعة إليه فلما توفي الأمير طالب جلس بعده على سرير السلطنة ولده وولي عهده الأمير مؤمن وفي عصره اتفقت الروسية مع قپچق وسائر الأقوام المتجاورة وهجموا على بلغار سنة ٣٥٨ وخرّبوا البلاد وقتلوا العباد وأكثروا من الإفساد وحصل للبلغار في تلك المحاربة انكسار عظيم كذا ذكره الفاضل الشهاب نقلاً عن ابن الأثير وابن حوقل أما ابن حوقل فليس عندي تأليفه وأما ابن الأثير فلم أجده في تاريخه ولكن المذكور في تواريخ الروسية وغيرهم أن تلك الواقعة كانت مع بلغار طونة في عهد أسواتصلاو ملك الروسية وقتل المذكور في عاقبة تلك الواقعة على أيدي بجاناك في ساحل دينبير كما مر هذا أثناء بيان بجاناكية.

قال كارامزين بعد ذكره ما مر عنه من ذكر بلغار فطمع ولاديمر في الاستيلاء على تلك المملكة أي البلغار واستملاكها فنزلت عساكر الروس إليها بالسفن من نهر وولغا (إتل) وجاء متفقوه أو أجراؤه من الترك من ساحل النهر المذكور وغلبت الروسية عليها لكن قال واحد من عقلاء أمرائها لولاديمر إن في أرجل هؤلاء چراميق (چزمه) فهم لا يطيعوننا بالسهولة فالأجدر والأليق بنا أن نلتمس أرباب چاباطا (شيء ينسج من لحا الشجر ويلبس في الرجل كالمداس) فقبل ولاديمر هذا الكلام منه ولم يتعرض لهم بسوء بل عاهدهم على أن يعيشوا معه بالموافقة والمصالحة ورجع ولم يذكر كارامزين تاريخ هذه الواقعة ولكنه ذكرها بين سنة ٩٨٠ وسنة ٩٨٨ ميلادية ولعلها في سنة ٣٧٢ هجرية كما قال الفاضل الشهاب أو بعدها والله أعلم.

وقال كارامزين حين ذكر وقائع يارصلا ووسيتصلا ووقوع القحط بأرض سوزدل من الروسية استعان الخلق يعني الروسية في ذلك الوقت بالبلغار الذين كانت مملكتهم

ذات سعة ورخاء وجاءوا منها بميرة كثيرة من نهر وولغا وأظن هذا في حدود سنة ١٠٢٣ وسنة ٤١٤ هـ.

وقال وفي تلك الأثناء أي أثناء تنظيم وسيوولود مملكته أخذ بلغار إتل قلعة مورم وكان هؤلاء البلغار يشتغلون بالتجارة والزراعة وليست لهم مهارة في الحرب وكانوا يميزون شرقي الروسية ويشبعونهم في سني القحط والغلاء ولعل استيلاؤهم على مورم إنما كان بسبب خيانة أهلها إياهم ولهذا لم تمكث مورم في أيديهم إلا مدة يسيرة ولم يذكر تاريخه والظاهر أنه كان في سنة ١٠٨٨ وسنة ٤٨١ هـ. وقال لما كان غيورغي أخو مسيتسلاو واليًا في سوزدل نزل على ساحل شهر وولغا إلى بلغار قزان وغزاهم وغلب عليهم وغنم ورجع والظاهر أن ذلك في حدود سنة ١١٢٠ وسنة ٥١٤.

وقال وفي حدود سنة ١١٦٠ وسنة ٥٥٦ هـ اتفق أندري بوغولويسكي حاكم سوزدل مع والي مورم يوري بن يار صلاو على حرب بلغار قزان وأغاروا عليها وهزموا عسكر بلغار فهرب أميرهم وأخذت الروس أعلامهم وأحرقوا بعض بلادهم واستولوا على قلعة إبراهيم وكانت على ساحل نهر قاما ثم رجعوا إلى أوطانهم مسرورين وجعلوا هذا اليوم عيد يعظم في كنائسهم ولا يزال إلى يومنا هذا كذلك في أغسطس الرومي تذكارةً لغلبتهم المذكورة وينبغي إدراك قوة بلغار وأهميتها عند الروسية من ذلك.

وقال وفي حدود سنة ١١٧١ وسنة ٥٦٧ هـ غزا أندري أيضًا بلغار قزان إما للانتقام لأمر ما أو ليغنم الأموال من الممالك الغنية والبلاد الرخية فجاء ولده مسيتسلاو مصب نهر أوقا واجتمع هناك معه عساكر مورم ووزان ثم جاؤوا من هناك إلى ساحل نهر قاما ولم يكن معه عسكر كثير فنهبوا هناك سبعة من قرى بلغار وقصبة صغيرة وقتلوا أهلها وسبوا الذراري والنساء فأشار إلى مسيتسلا وأحد قواد عساكره بالرجوع فتعقبهم ستة آلاف من عساكر بلغار فانهزمت الروسية وكاد البلغاريون يلحقون بالمذكور بقرب حدود المملكتين على مسافة عشرين ویرستا من مصب نهر أوقا هـ. وهذا صريح في أن حد مملكة بلغار من طرف الغرب أعني الروسية هو مصب نهر أوقا كما بينا فليتنبه.

قال المرجاني وفي سنة ٥٧٩ هـ أغار البلغاريون على قلعتي مورم ووزان من بلاد الروسية هـ. وقال كارامزين بعد بيان هلاك أندري المذكور ومدحه بغزو بلغار

أن وصيوولد حاكم الروس بعد أندري اقتدى في هذا الأمر وأراد غزو بلغار التي كانت ممتازة بصنائعها وتجاريتها في ذلك الوقت وقصد استملاكها وأرسل لأجل هذا إلى بقايا حكام الروس في سائر النواحي يدعوهم إلى الاشتراك في هذا الأمر وقد كان غزو قوم يخالف دينهم دين الروس حسنًا في ذلك الوقت لأي غرض كان فاشترك في هذا الغزو حاكم رزان ومورم واصمولينسكي وأرسل أصواتسلاو ولده ولاديمر إلى الحاكم الأكبر المذكور فرحًا مستبشرًا بأن هذا الغزو يكون سببًا لعظمة الروس وزيادة قوته وشوكته فجاء عساكر هؤلاء المتفقيين إلى ولاية قزان من نهر وولغا فتركوا سفنهم المنحوسة في مصب نهر سويل (زوه) ومشوا من الساحل فأرأوا هناك عساكر خيالة فظنوهم عدوًا فاستعدوا للقتال فبين أنهم ليسوا عدوًا بل كانوا عسكر القيقق جاؤوا للاشتراك في هذا الغزو وللخدمة للروس فحاصروا معهم البلدة العظيمة التي جاءها عساكر الروس (لعلها بلدة بلغار نفسها) ففي تلك الأثناء هجم ولد شاب لوصيوولود مع عسكره على عساكر بلغار الذين كانوا مختفين في قلعة أمام البلدة ولم يملك نفسه من الإقدام وكان سائر كبراء الروس في خيمة حاكمهم الأكبر متشاورين فتقدم المذكور إلى باب البلدة فأصاب هناك سهم صدره فحملوه إلى خيمة أبيه وهو في حالة النزاع فأنجى هذه الحادثة البلغار من الروس فإن الحاكم المذكور لما رأى ولده المحبوب الشجيع على تلك الحالة لم يقدر أن يغزو ويقاتل بالجد والمجد (والحقيقة استولى عليه الخوف والرعب وإلا فمشاهدة هذه الحالة يستلزم بذل غاية الجهد والطاقة في القتال للانتقام كما لا يخفى) فصالحهم بعد إقامته هناك عشرة أيام وركبوا سفنهم المنحوسة ورجعوا إلى مقرهم وقد تمكن عسكر ببلي أوزير من حفظ سفنهم من بعض أقوام بلغار الذين كانوا قصدوا تخريبها وإغراقها ومات الولد المجروح المذكور آنفًا في تلك الأثناء فرجع الحاكم المذكور أبوه بحسرة عظيمة إلى بلده وأرسل خيالته إلى بلدة ولاديمر من ممالك موردوا.

وقال وفي سنة ١١٨٦ دو سنة ٥٨٢ هـ أرسل وصيوولود أيضًا جيشًا لغزو بلغار فعادوا بالغنائم والأسارى اهـ ولم يبين سببه وتفصيله ولعله للانتقام لما سبق أو على سبيل قطع الطريق يدل عليه قوله بعد ذلك من أن وصيوولود وإن استراح مدة عن تعب الحرب إلا أن عسكره كانوا يغيرون على البلغار وينهبونها اهـ. وقال: إن قوم بلغار كانوا يتاجرون من القديم قوم جود وفن المقيمين في ولاية وولغد أو أرخانجيل فاستولوا على بلدة أوستوغ المسماة أولاغليدين خوفًا من دخول تلك

الأراضي في تصرف الأجانب وهي بلدة في مصب نهر يوغ من نهر صوخان (نهر كبير في ولاية وولغا ويجري إلى الشمال) وكان القوم المذكورين مستقلين بحكمهم وإدارتهم واجتهدوا أيضًا في الاستيلاء على شواطئ نهر أونز (نهر يصب في وولغا في ولاية كوستراما) ليتدبروا إقدامهم هناك ولتتمكنوا غاية التمكن ولكنهم انهزموا وشاهدوا عسكر الروس في بلادهم في مدة قريبة وذلك أن غيورغي حاكم الروس أرسل أخاه أصواتصلاو وأبناء وحكام مورم على غزو بلغار فنزلوا بجيش كثيف من نهر وولغا ووصلوا إلى أسفل من مصب نهر قاما فخرجوا إلى البر وتركو طائفة من جيوشهم لحفظ مراكبهم المنحوسة وسار بقية الجيش حتى قاربوا بلدة أشيل وكان لها سور من شجر البلوط فقدمت مقدمة جيشهم بالفؤوس والنيران ومن ورائهم الرماة وأصحاب الرماح فكسروا السور وأحرقوه بالنار لكن هبت الريح من أمامهم فبقوا في جوف النار والدخان وحصل لهم الضعف والرخاوة إلا أن كبيرهم حرصهم على القتال وشجعهم فهجموا من طرف آخر وأوقدوا النيران في السور ثانيًا ففوت النار بشدة الريح واحتترقت البلدة بالتمام وشرع الأهالي في الهروب والفرار إلا أن أكثرهم هلك بين النار وسيف العدو ونجى أمير البلغار بطائفة من الخيالة واستلم البواقي للموت وصاروا يقتلون أولادهم وأزواجهم وأنفسهم ولم يستأنوا أحدًا أبدًا واحترق أيضًا كثير من الروس الذين دخلوا البلدة وسط النار للنهب والغارة ونالوا جزاء حرصهم ولما لم يشاهد قائد جيش الروس سوى الرماد المجتمع رجع بما في أيديه من الأسارى وهجم البلغاريون عليهم من كل طرف للانتقام فركبت الروس مراكبهم المنحوسة وهربوا وبقي البلغاريون متفرجين من الساحل ونهبت الروس عدة قرى في مصب نهر قاما ورجعوا فطاب وقت غيورغي من هذا الظفر العظيم وحصل له غاية الفرح حتى استقبل أخاه وجيشه إلى مسافة كثيرة من البلد وأثنى عليهم ثناء وافرًا وأنحفهم بأنواع التحف والهدايا وأضافهم إلى ثلاثة أيام فجاء وفود البلغار إلى بلدة ولاديمر في الشتاء وطلبوا منه الصلح ولكنه لما استشعر قوة الروس أبى من الصلح واستعد للسفر ثانيًا ولكن البلغاريين تمكنوا من إبطال هذا الرأي وإتمام الصلح بهدايا كثيرة وذهب وفود الروس أيضًا إلى بلغار لتأكيد هذا الصلح باليمين على الشريعة الإسلامية فبنى غيورغي بعد ذلك بلدة نيژنو وغورد في ملتقى نهري وولغا وأوقا قلت: لعل هذا بملاحظة صد هجمات البلغاريين على الروسية وقطع طرق تجارتهم مع الأقوام الفنية والله أعلم ولعل هذه الحادثة في حدود سنة ١٢١٨

وفي سنة ٦٢٠ هـ ورد جيش چنكزخان إلى البلغار أول مرة مارين من طريق دريند وشروان على ما سيذكر في المقالة الأولى بالتفصيل إن شاء الله وانهزموا من البلغاريين ورجع بقيتهم إلى ملكهم چنكزخان ببخارا.

قال ابن الأثير^(١) في بيان هذه الفرقة من عسكر چنكزخان التي يقال لها التتار المغربة بعد ما ذكر ما فعلوه باللان والقيچق والروس ٦٢٠ لما فعل التتار بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل قيل كانوا (أي الناجون) أربعة آلاف فساروا إلى سقسين عائدين إلى ملكهم چنكزخان وخلت أرض قفقاق منهم فعاد من سلم منهم إلى بلادهم واتصلت الطرق بينهم وبين بلاد الإسلام وصارت الأمتعة من البرطاسي والسنبج والقدنرز ترد منهم على عاداتها بعد أن انقطعت منذ دخلها هؤلاء التتار اهـ. بأدنى اختصار.

قال كارامزين: إن البلغاريين طلبوا مسالمة غيورغي بن وصيولود وصالحوا معه وتبادلوا الأسارى من الطرفين وأكدوا العهد بالإيمان بعد أن كان بينهم وبين الروسية وحشة مدة ست سنين ولكن لم يمنعهم هذا الصلح من قتل تاجر روسي يسمى أبرام قتلوه لعدم تعبه بمحمد نبيهم ﷺ وقد شهد على هذه الواقعة تاجر روسيون سوى المقتول وقد حمل جثة المقتول إلى ولاديمر بغاية الإكرام واستقبلها الكناز^(٢) وامرأته والروحانيون وسائر الأكابر اهـ وهذه الواقعة تصادف حدود سنة ٦٣٢ هـ ولكن قولهم قتلوه لعدم تعبه بمحمد فرية بلا مرية متى كلف المسلمون أحدًا بالتعبد بمحمد ﷺ فلم كلفوه هو في ذلك الوقت دون سائر التجار من الروسيين ولعله صدر منه إساءة أدب في حق النبي ﷺ أو غير ذلك من الخيانة الموجبة لقتله فقتلوه لذلك وقومنا إلى الآن يقتلون من يسيء الأدب في حق النبي ﷺ متى وجدوا الفرصة.

(١) انظر الكامل في التاريخ ٤١٧/١٠.

(٢) واستقبال الكناز وسائر أكابر الروس إياه يدل على ذلك فإن أعظم القربات التي يستحق صاحبها التعظيم والتكريم عندهم هو إساءة الأدب في حقه ﷺ وإهانته وتنقيصه كان النبي ﷺ ناك أمهم حاشاه من ذلك. منه عفي عنه.

واكتفى كارامزين بذكر هذا القدر ولم يذكر انتقام الروس من البلغاريين والظاهر أنه فاجأتهم التتار فلم يجدوا فرصة للانتقام كما قيل: وقد حيل بين العير والنزوان لأنه ذكر هجوم التتار إلى ممالكهم ثانيًا متصلًا بذكر هذه الواقعة.

ذكر ورود التتار إلى تلك الديار ولحوق حكومة البلغار بسلطنة التتار وانضمامها إليها

قال كارامزين: إن الروس لم تسمع شيئًا من أخبار التتار بعد محاربة قالقا^(١) مدة ست سنين وظنوا أنهم انقضوا من العالم بالكلية كأقوام هون وأوار ولكن لما مات چنكزخان وجلس أوكتاي مسند القأانية واستولى على ممالك الصين أعطى ابن أخيه باتوخان ثلاثمائة ألف من العساكر الجرار وضم إليه ولده كيوك وسائر أحفاد چنكزخان للاستيلاء على شمال بحر الخزر وجهته الغربية بالتمام فكان لهذا الخبر تأثير في ممالك الروسية أيضًا فلما سمع قوم سقسين ومرابطو بلغار في ساحل نهر جايق تحشد التتار وحركتهم هربوا إلى بلغار وأخبروهم بقدوم التتار في سنة ١٢٢٩^(٢) فجاء باتو خان بعد ثلاث سنين إلى ساحل نهر وولغا واستقر غير بعيد عن البلدة العظمى ليشتوفيه وفي سنة ١٢٣٧ م مصادفة سنة ٦٥٣ هـ أحرق كرسي سلطنة بلغار وحوله رماد أو أمر بقتل أهله في أوائل فصل الخريف ولم يقرع هذا الخبر مسامع الروس حتى دخلت التتار إلى ممالكهم من بين غابات كثيفة وتقدموا نحو ولاية رزان من طرف الجنوب إلى آخر ما سيجيء في المقصد الثاني.

هكذا ذكر كارامزين هنا ويفهم من كلامه في موضع آخر أيضًا عين مضمون هذا الكلام ولكن قال الفاضل المرجاني: إن أمير البلغار في الوقت المذكور المسمى الهام خان لما استيقن عجزه عن مقاومة التتار استقبلهم في أعالي نهر جايق وبذل لهم الطاعة وصالحهم على أن يضرب السكة باسمهم ويعطيهم العسكر وقت الحاجة والله سبحانه أعلم بأن أيًا من هذين الكلامين أصح.

(١) محاربة وقعت بين التتار المغربة التي أرسلها چنكزخان لتعقيب خوارزمشاه فجازوا آذربيجان ودريند شروان وحاربوا القفجق وكسروهم ففر القفجق إلى كيف فحرضوا الروسية على قتالهم فخرجوا وقتلوا وانكسروا كما مر في المقدمة عند بيان القفجق فتذكر. منه عفي عنه.

(٢) هكذا في الأصل المنقول عنه وليس بصحيح بل هذا عام قريبتاي أي الاجتماع أو عام رجوعهم من سفر الخطا والصين. منه عفي عنه.

ولكن لا يطمئن القلب إلى قول كارامزين إن التتار أحرقوا بلدة بلغار بالنار فإن ذلك لا يرى في واحد من التواريخ ولا يسمع من أفواه الناس أيضًا ولعل مراده بالبلدة العظمى وكرسي سلطنة بلغار هي بلدة سقسن فإنها تذكر في التواريخ إلى الوقت المذكور وبعده لا تذكر قط وهذا يدل على أنها خربت في الوقت المذكور وعلى كل حال صارت مملكة بلغار جزءًا من مملكة التتار من التاريخ المذكور ولكن بقي لهم الاستقلال في إدارة أمورهم الداخلية ونصب الخوانين من أنفسهم كما في السابق على ما قيل ولما سقطت قوة جارتهم المحاربة إياهم الدولة الروسية بعد ذلك بدخولهم تحت طاعة التتار مثلهم وانقسامهم إلى أقسام شتى استراحت البلغار مدة مديدة من تعب الحرب ولكن أورثت هذه الحالة للبلغار فتورًا ورخاوة وللروس قوة ونشاطًا ولهذا جددت الروس هجومها على البلغار حين وقع الاختلال والاختلاف بين خوانين التتار أول مرة بعد موت بردي بك خان كما سيذكر . وانتهى هجومهم هذا بانقراض حكومة بلغار وإخراب مدينة بلغار على يد الروسية كما سيذكر مفصلاً ولم يقع بين حكومة بلغار ومتبوعها دولة التتار اختلاف قط منذ دخل البلغار تحت طاعتهم إلى انقراض الحكومتين وما ذكره الفاضل المرجاني من زحف منغو تيمرخان إلى بلغار فهو وهم منه بل كان زحفه إلى بلغار طونه وقسطنطينية كما يذكر في ترجمته إن شاء الله لا إلى بلغار قران .

قال كارامزين أثناء بيانه الاغتشاش الأول الواقع في دولة التتار بعد موت بردي بك خان وادعى أحد من أمراء التتار يسمى بولك تيمر الخانية واستولى على بلغار وقال أيضًا أثناء بيانه حوادث سنة ١٣٦١م مصادفة سنة ٧٦٣ هـ: إن أهالي سوزدل من مملكة الروس أغاروا على بلغار ولما جلس خضر خان على مسند الخانية التتارية في العام المذكور جاءه كيناز الروس الأعظم وأخوه أندري حاكم نيژني وقسطنطين الرصطوفي وبايعوه وتعهدوا له بتسليم أشقياء الروس الذين أغاروا على بلغار إلى سفير الخان المقيم بكاسترما فوفوا بعهدهم وسلموا الأشقياء إلى السفير المذكور ثم حملوا أموال الجزية التي كانوا يؤدونها إلى الخوانين إلى سراي فصادف وصولهم هناك مقتل خضر خان وتضرجه بدمه .

ثم قال بعد تعداده من ادعى الخانية أثناء الاختلال المذكور والحاصل كان بعض حكام الروس يذهب إلى سراي وبعضهم إلى بلغار عند مرید أو مراد خان ثم أطاع الكل لمماي ثم قال: ولما مات مرید خان في بلغار جلس مكانه عزيز خان ثم جمع ممائي بين خانية عزيز خان وخانية سراي وجعل شخصًا يسمى مامانت سلطان رئيسًا للكل اهـ .

فعلم من هذا أن هؤلاء المذكورين تسلطوا ببلغار ولو يسيرًا إلا أننا لم نقف على شيء من أحوالهم سوى ما ذكر.

ثم قال: إن باتوخان كان قد استولى على بلغار وتسلطن بها بولك تيمر كما مر ثم استولى عليها حسن خان فطرده ديمتري حاكم سوزدل من بلغار باتفاق من ممائي فتصبوا مكانه خانًا آخر ولم يذكر اسمه ولعله مريد خان وبعد موته تسلطن بها عزيز خان وكان طرد حسن خان على ما في تاريخ كارامزين مصادفًا سنة ٧٧٢ هـ. ثم قال: إن ممائي نصب ديمتري بن قسطنطين حاكم سوزدل كينازًا أعظم لكافة حكام الروس مكان إيوان بعد موته فسار ديمتردونسكي ولد إيوان المذكور إلى بلغار عند بولك خان لطلب منصب أبيه وعمره إذ ذاك سبع سنين فأعطاه بولك خان منشورًا بتصديق رياسته على كافة حكام الروسية فغضب عليه ممائي لذلك وبعد أن جمع ممائي بين خانية بلغار وسراي أراد أن ينتقم منه ولكنه عاقه عن ذلك ظهور الوباء في أوردو فأخره إلى وقت آخر وكان ديمتري خبيرًا بذلك ومستعدًا لمقابلته ومقاومته إذا حاربه لأن الروسية كان قد حصل لها تلك القوة لاتحاد الحكومات الصغار الروسية بالحكومة الموسقوفية حتى صارت ترى في عيون التتار أيضًا كالحكومة المستقلة وصارت لا تطيع مماري ولا تؤديه الجزية التي كانت تؤديها أولاً اغترارًا بذلك الاقتدار.

قلت: لم يكن اغتراره بذلك الاقتدار فقط بل كان جل اغتراره بوقوع الاختلال والاختلاف القوي بين التتار ووطنه حلول وقت إخراج رقابهم من رقية التتار الذي كانوا يترصدونه منذ صاروا محكومين عليهم.

قال: فبعد ذلك أظهر له العداوة والعصيان وأراد أن يستولي على ممالك بلغار وقزان زعمًا منه أنه تحصل له قوة عظيمة في مقابلة ممائي بالاستيلاء على هاتين البلديتين المعمورتين الغنيتين ففي خلال سنة ١٣٧٦م مصادفة سنة ٧٧٨ هـ أرسل واحدًا من أمرائه الكبار يسمى ديمتري بن ميخائل الوالينسكي بعساكر الروس نحو قزان فلما سمع ذلك من بأطراف قزان من التتار خرجوا للقائهم واستصحبوا معهم إبلًا بقصد إخافة خيول الروس بها فوقعت بين الفريقين محاربة شديدة فانهزمت التتار (يعني لقلتهم وعدم استعدادهم) وأسرت الروس اثنين من أمرائهم يسمى أحدهما حسنا والثاني السلطان محمودًا وأحرقت سفيتتين لهم ثم أطلقهما القائد المذكور بعد أن أخذ منها العهد والميثاق (بصلح الروس) واستلم منهما خمسة آلاف روبلة (يعني الفدا) وأدخل القزان وبلغار في طاعة ديمتري ابن إيوان حاكم الروس ونصب بها عاشرًا من طرف الروس ورجع إلى بلاده اهـ.

قلت: وكان البلغاريين كانوا نائمين ما كان يخطر ببالهم أن الروس تفعل هذه الأفاعيل زاعمين أن الزمان يدوم لهم وكانوا يتعجبون من جسارة الروسية وبيرونها مثل اللعب ولم يدروا أن مسالمتهم وعدم محاربتهم إياهم أيام شوكة دولة التتار إنما كانت لضرورة العجز عن مقاومتهم وهم كانوا ينتهزون الفرصة ويستعدون للوثبة من غير إمهال متى وجدوا الفرصة كما قال الشاعر شعر:

إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يومًا غرة وثبا

فصار ما صار وكان البلغاريون مصداق قول القائل شعر:

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

والظاهر أن حسنا المذكور هنا هو الحسن الذي استولى على بلغار سابقاً وطرد منها بأمر ممي كما ذكر سابقاً ولعله جاء بعد ذلك إلى قزان وسكن هناك وإياك أن تظن استقلال قزان في ذلك الوقت^(١) فإنها إنما صارت مستقلة بعد خمسة وستين سنة من تلك الواقعة كما ستعرفه في محله إن شاء الله والظاهر أيضاً أن الحجر الذي ذكره الفاضل المرجاني في تاريخه ونقل منه بعض الكلمات من جملته هذا مرقد السلطان الأكبر الأكرم غوث السلاطين...^(٢) حسن بك بن محمود الخ. وقال: إنه خارج باب دار الأسقف الكائنة في كولباشي بقزان فوق الردم هناك هو الحجر الموضوع لقبر هذا الحسن المذكور هنا والله أعلم.

وقال أثناء بيان وقائع سنة ١٣٩٩ م مصادفة سنة ٨٠٢ هـ في عين الوقت الذي كان توقتاميش خان التجأ بحاكم ليتوا ويطوفت بعد مغلوبيته من تيمر قوتلق خان واستمد به لمحاربة تيمر قوتلق لإرجاع ملكه بعد وقعة تيمرلنك الأخيرة استمد ويطوفت بالروسية لمحاربة التتار أعني تيمر قوتلق فأبت الروسية وكان البلغاريون أغاروا قبيل ذلك على نواحي نيژني نوووغورد من بلاد الروس ما معناه^(٣) إن الكناز واسيلي بن ديمتري وإن أبت أن يحارب التتار مع ليتوا (لهستان) إلا أنه لم يخف أن يسلب سيفه لمحاربة التتار بل كان في قصد الانتقام منهم لنهبهم نيژني نوووغورد فأرسل أخاه يوري بعسكر قوية نحو بلغار قزان فاستولى يوري المذكور على أكبر مدن

(١) إلا أن لها وجوداً في ذلك الوقت كما يعلم ذلك بالمراجعة إلى بيان تشكل دولة قزان. منه عفي عنه.

(٢) مقول القول لقال.

(٣) بياض في الأصل.

البلغاريين وأشهرها وأعمارها وأعناها مثل ژوقوتين وقزان وكبير منجك ونهبها وخربها وبقي هناك مدة ثلاثة أشهر يخرب وينهب ثم رجع إلى موسقوا بغنائم كثيرة خارجة عن الحساب فلقبوا الكيناز واسيلي بن ديميتري بعد ذلك بفتح بلغار ولم تقع لروسية محاربة قبل ذلك في مثل هذه المسافة البعيدة من أراضي التتار ومع ذلك لم يحل بعد وقت تخليص الروسية أنفسهم من رقية التتار بإجراء محاربة حقيقة اهـ.

قلت: قد اعترف هذا المؤرخ نفسه بأن هذه المحاربة لم تكن محاربة حقيقة بل كانت من قبيل غارات اللصوص لتشفي الصدور مع الخوف الشديد من هجمات التتار وإنما صدر هذا القدر أيضًا لأجل الاختلال الشديد بين التتار وهو الاختلال الذي قضى عليهم بالتشتت والتفرق.

وقال في أثناء بيان وقائع سنة ١٤٣٠ م مصادفة سنة ٨٣٤ هـ: إن الكيناز واسيلي الثالث ابن الواسيلي الثاني أرسل عساكر الروس تحت قيادة أحد أمرائه وهو فيودر بن داويد إلى بلغار وولغا وقما فرجعوا بغنائم وأسارى كثيرة اهـ.

قلت: وكانت هذه الواقعة حين وقوع الاختلاف بين ألوغ محمد خان وبين بعض أقاربه بسراي كما سيجيء ذكره وكانت جسارتهم هذه استفادة من هذا الاختلاف وهذه الواقعة هي آخر وقائع بلغار فيما اطلعنا عليه ولا ذكر لها في التواريخ بعد ذلك ولذا قال بعضهم إنه خربها الروسية في هذه النوبة بالكلية ولعل هذا القول أقرب إلى الصحة والصواب.

والمشهور عند العوام أنه خربها تيمرلنك وليس بصحيح فإن آخر طروقه على تلك الديار إنما كان في سنة ٧٩٨ على ما سيذكر في محله إن شاء الله تعالى وهاتان الوقعتان الأخيرتان بعد تلك السنة كما عرفت مع أنه لم يذكره أحد ممن تصدى بيان وقائع تيمرلنك لا هو نفسه ولا غيره مع بيانهم سائر المدن التي خربها في سفرته الأخيرة ومع بيان المير آخوند وصوله إلى موضع لا يغيب فيه الشفق.

والحق إنه لم يتجاوز حدود سراي في واحدة من وقائعه في تلك الديار ولم يضع قدمه المشؤومة المنحوسة في بلاد بلغار وذكر كارامزين رجوعه في سفره الأخير من حدود سراطاو وإنما انتشر ما اشتهر بين العوام من تخريبه إيها من خرافات أخصام الدين المسلمي الذي هو أجرأ مخترعي الخرافات وأشجع مختلقي الجزافات. وقال بعضهم إنه...^(١) خربها الروس حين استيلائهم على قزان وهذا أيضًا ليس

(١) بياض في الأصل.

ببعيد عن صوب الصواب لجواز أن يبقى فيها بقايا بعض العمران من التخریب الأول ويمكن فيها بعض الناس خصوصاً الضعفاء منهم والمساكن وإن تفرق أكثر أهلها فيخربون تلك البقايا بعد استيلائهم على قزان ومع ذلك ذكر لي بعض الثقة من أصحابنا نقلاً عن رحلة بعض سواح الإنكليز بقاء نحو سبعين أثرًا من الآثار الباقية من أبنية بلدة بلغار حين قدم إليها بطر الأول مجدد دولة الروسية الشهير ثم هدم تلك الآثار الباقية بعد ذلك بسنين الأسقف لوقا القناشي الروسي المعاند المتعصب الذي ذاق المسلمون من يده أذى واضطهادًا كثيرًا على ما سيذكر في المقصد الرابع فلم يبق فيها سوى بعض الآثار الناقصة والظاهر أن القرية الروسية الموجودة الآن هناك إنما حدثت في وقعة لوقا المذكورة ومن الآثار الباقية هناك الآن أثر الخندق المحيط بالبلد وله مبدآن من ساحل الإتل القديم على ما هو المشهور بين الناس شرقي وغربي ومسافة الساحل المذكور بينهما أزيد من ويرست روسي وهو ممتد إلى جهة الجنوب على مسافة ويرستين تقريبًا ويذهب هناك طريق يقال له طريق نوغاي وفي منتهاه آثار خرابة وبناء خراب في خارج الخندق يقال له بالروسية غوروديشه بمعنى البليدة يقال إن دورة الخندق ثمانية ويرست روسية يعني فرسخ واحد وبين القرية والبليدة المذكورتين مزارع وحقول ولا شك أنها موضع البلد سابقًا ولذلك شاع بين الناس وجدان دفائن وظهورها وقت الحرث وكراب الأرض ومنها موضع بناء كبير في وسط القرية المذكورة طوله من الجنوب إلى الشمال ١١١ قدمًا وعرضه من الشرق إلى الغرب ٩٨ قدمًا وقد سقط جدرانها الأربعة بحيث لم يبق منها إلا مقدار قامه من الخارج وفي زواياها الأربع بقايا جدران المنائر الأربع يكون سمك ما بقي من كل منها مقدار عشرة أذرع وبين كل منارتين منها أثر جدارين مبنيين من خارج لإحكام البناء وفي كل واحد من الجدار الشرقي والغربي موضعي الباب أو المنور أعني الطاقة وفي داخلها آثار السواري والعمد وبعض آثار الحجر المتصلة بالجدار وفي الجدار الشمال موضع الباب الكبير وفي يمين الداخل منه أثر منارة كبيرة يقال إنها كانت موجودة قبل هذا الوقت بخمسين أو ستين سنة أعني في حدود سنة (١٢٧٠) هـ أخبر واحد من القرية المذكورة أنها كانت موجودة في صغره وكان يرى مدينة قزان من رأسه وغلظ الجدار ذراعان الأربع ذراع وفي جانبه الشرقي قبة وكانت حين زرت خرابة بلغار في سنة ١٣٢٥ مقللة وكان مفتاحه بيد القسيس فأرسلت إليه لطلب المفتاح فلم يصادفه الرسول في البيت إلا أن زوجته أرسلته مع ولده ففتح فإذا فيها أصنام وصور فسألته عن أصل القبة المذكورة فقال سيركوا إيكونيك نيقولاي بلغارسكي يعني كنيسته

المقرب نيقولاوي البلغاري وقال كان فيه حجر طويل مكتوب طوله ثلاثة أذرع قد حملوه إلى قزان وأودعوه في دار الفنون فيها فالظاهر أنها أعني القبة المذكورة مقبرة الخوانين وفي الجانب الشمالي من الخرابة المذكورة قبة كبيرة قطرها من الداخل ٢٨ قدمًا.

والمشهور بين المسلمين هناك أنها محبس إلا أن ولد القسيس وواحد غيره من الروس قالوا لي إنها مخزن الخوانين ومنها قبة ثالثة في الجهة الجنوبية من الخرابة المذكورة قاعدتها من الخارج ٣٦ قدمًا وخمنا سمكه ما بين ١٨ و ٣٠ ذراعًا وهي مشهورة عند الروس بالحمام أو القصر الأسود وعند المسلمين بالمدرسة وفيها الرؤوس وسائر عظام الموتى والأحجار المكتوبة وسائر الآثار الخارجة من موضع بلغار كتب في واحد من تلك الأحجار هكذا تاريخ جيات جوز جيرم جيات جال آت يعني كان التاريخ سنة ٧٢٧. وفي بعضها كتب لفظ شيخ الإسلام بخط جيد وفي بعضها بلغار لبغ بلمش بخط جيد وفي شرقي هذه القبة منارة مشهورة بالمنارة الصغيرة طلعتنا على رأسها من باطنها وعدد درجاتها بعد الدخول من باب المنارة ٤٨ درجة وقد غطوا رأسها بالألواح في هذه السنين الأخيرة وفي قريبا من جهة الغرب قبور شهيرة عند أهالي تلك الديار بقبور الصحابة الذين أسلم أهل البلغار على أيديهم في زعمهم وقد عرفت تاريخ إسلام أهل البلغار فيما قبل ولا يبعد أن تكون قبور الذين أسلم أهل البلغار على أيديهم في التاريخ المذكور وفي جهة الشمال من القبور المذكورة بقية بناء يقال إنه بناء بني على قبر شخص اسمه خواجه بيلام^(١) وهذه هي الآثار الباقية الآن وكل واحد منها محيط بأعواد شبه الشبايبك من طرف جمعية الآثار العتيقة وهذه صور تلك الآثار ورسومها مكتوب تحت كل منها اسمها وعندني سوى ما ذكر رسم بناء آخر مكتوب تحته بالروسية بأنه محكمة أو قصر أبيض موضعه في جهة الجنوب الغربي من القرية المذكورة وهو خراب الآن وفي منتهى رأس الخندق من الشمال الغربي عين ماء راكدة جيدة الماء جدًا وأهل القرية يستقون كلهم.

[موضع بلدة بلغار]

تنبيه: وهذا الذي بيناه من كون بلدة بلغار في الموضع الذي بيناه هو المشهور بين الناس قاطبة قديمًا وحديثًا ولم يكن فيه اختلاف قط وقد حدث الآن قول آخر

(١) ويمكن أن يكون أصله بيلار فيحرفونه إلى بيلام لأنه قدم في بعض النقول السابقة أن اسم الشخص الذي أسلم ملك البلغار وأهلها على يده بيلار. منه عفي عنه.

وهو كون بلدة بلغار في موضع شهير ببيلاز وهو في منابع نهر چرمشن في الجهة الشرقية من البلغار المشهورة وبينهما مسافة ٩٠ ويرست روسي أعني أحد عشر فرسخًا وربع فرسخ ولعل دليل من قال به ما وقع في كلام ابن فضلان نقلًا عن ملك بلغار أن بين بلغار وإتل مسافة يوم واحد ومسافة ما بين البلغار المشهورة وإتل ليست كذلك بل هي مقدار أربعة أو خمسة ويرست روسي من الإتل الموجود الآن وأما إذا صح ما اشتهر بين كافة الناس من جريان الإتل من تحت بلدة بلغار في سالف الأيام فلا مسافة بينهما قط وهو أعني جريان الإتل من تحت البلدة المذكورة صحيح لا مجال للإنكار عليه فإن مثل تلك البلدة العظيمة كيف تبنى على موضع لا ماء فيه ووضع الموضع المذكور أعني موضع الإتل على ما هو المشهور شاهد عدل وناطق بلسان حاله على كونه مجرى الماء في وقت من الأوقات إلا أن نقول بجريان شعبة من نهر چولمان (قاما) منه ومراد الملك بمسافة اليوم مسافة بعض اليوم ومثل هذا شائع في الكلام ولعل هذا هو الصواب وإلا فلا وجه للعدول عما اشتهر بين الجمهور مدة قرون متطاولة متشبهًا بأذيال أدلة ضعيفة ومع ذلك فلا شك كون بيلاز أيضًا من مدن بلاد بلغار ذا أهمية ويستخرج منها إلى الآن آثار قديمة وقد كشفوا إلى الآن مواضع مقدار أربعين مدينة من مدن بلغار ولا أظن أنها تقف إلى هذا الحد فقط وقد عرفت ما في كلام ابن فضلان من وجود عدة ملوك في تلك النواحي وأظن أن ابن فضلان ذكر في رسالته مواضع مملكة هؤلاء الملوك ومواضع بلادهم وأساميها وعدد نفوسها ولو تخمينًا كما فعله غيره من السواح وإلا فلا أهمية لرسالته وقد ذكر الميرالأي رتيخ الروسي في كتابه أخذه من الرسالة المذكورة مع شرحه للمحرر فرن ووجودهما في خزنة الكتب بكلية قران فعلى أصحاب الغيرة من الشبان الذين يحسنون اللغة والكتابة الروسييتين بمراجعتهما وترجمتهما ولعلنا نستفيد أيضًا من موائد فوائدهم ومن الله التوفيق والهداية.

والحاصل أنها أعني بلدة بلغار خربة على كل حال مذ خمسة قرون وفي زاوية من موضعها على القول المشهور قرية روسية وقد يجيء الزوار لزيارتها ومشاهدة آثارها الباقية من أقطار شتى وخصوصًا مسلمي تلك الديار للتبرك بمشاهدها والأسف على أنه ليس فيها بيت مسلم يأوي إليه الزوار وإنما ينزلون منازل أهل تلك القرية الروسية وربما يوجد فيها بعض المسلمين المقيمين في منازل القرية المذكورة بالإجارة فينزل الزوار منازلهم فهم يقومون بخدمتهم وما يحتاجون إليهم من المسكن والمأكل والمشرب مع أنه لو قصد واحد أو أشخاص من أصحاب الهمة وأرباب الحمية والغيرة

لبني بيت للزوار وجدار جيد حول المسجد الخراب هناك حماية لموضعه من الاستردال والاستهانة والتنجس بتحصيل الإذن في ذلك من طرف الحكومة وقد كتبت في ذلك لبعض ذوي الهمة فلم يحصل منه نتيجة هذا وقد ذكر الفاضل المرجاني أسامي عدة أشخاص زعم أنهم كانوا من ملوك بلغار وقد أضربنا عن ذكرهم صفحاً لعدم استناده على مأخذ معلوم وعدم فائدة في ذكر شيء موهوم وقد ذكر الفاضل المشار إليه أبياتاً بالتركية للشيخ محمود أفندي الداغستاني المتوفى بحاجطرخان في مدح بلغار نشبها هنا للتبرك بأثره رحمه الله تعالى .

وهي هذه أبيات :

شهر بلغاره كول شويله اولبدر مشتاق	بلغار كورينور كوزمره يقين يراق
شهر بلغاره كول قيلمه برابر اصلا	مصر وشام ويمنى شهر خراسان عراق
مكه طوفينه ديزر هر سنه حجاج نظام	مكه بلغارى هرآن طوف ايلمك ايدر مراق
خضرا ولو جهله بركشته او لوب بلغاره	طشى ظلمت ايچى نور آب حياتى براق
ديمه بلغاركه او سر خدادر الحق	نور تجلى ده يسانبميدر طوق اوزره طاق

والحق إن هذه الأبيات صدرت عنه رحمه الله تعالى بطريق الذوق والحقيقة لا على سبيل صدورها على مذاق الشعراء يعرفه من له ذوق عن مشارب أهل الحقيقة وقد تمثلت بهذه الأشعار لبعض الشعراء حين زرت بلغار ١٣٢٥ سنة .

أشعار :

إن كنت مثلى للأحبة فاقد	أو في فؤادك لدعة وغرام
قف في ديار الطاعنين ونادها	يا دار ما صنعت بك الأيام
يا دار أين الساكنون وأين ذيا	ك البهاء وذلك الاعظام
يا دار أين زمان ربك مونقا	وشعارك الإجلال والإكرام
يا دار مذ افلت نجومك عمنا	والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ولفقدم	فقد الهدى وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الأعادي ساكتا	بعد الأحبة لأسقاك غمام
يا سادتي أما الفؤاد فشيقي	قلق وأما أدمغي فسجام
والدار مذ عدت جمال وجوهكم	لم يبق في ذاك المقام مقام
لا حظ فيها للعيون وليس للأ	قدام في عرصاتها الإقدام

فصل في ذكر مَنْ أطلعنا على بعض أحوالهم وأساميهم من علماء بلغار

اعلم أن من تأمل في أحوال أهل بلغار وتمدنتهم وتقدمهم في المدنية بشهادة أعدائهم على ما وقفت عليه أثناء بيان مجرياتهم لا يرتاب في وجود كثير من العلماء والفضلاء فيهم في جميع القرون السالفة، ولكن من سوء حظنا لم نظفر منهم على شيء من الآثار، ولم يصادف نظرنا شيئاً منهم من الأخبار، فلا يمكننا الوقوف على أحوال هؤلاء الأخبار إلا ما ندر منهم في أثناء تراجم أحوال علماء سائر الأمصار. ومن العجب أن أهالي تلك الديار مع وجود كبار العلماء فيهم لم يكن لهم من القديم رغبة في التأليف والتصنيف وإبقاء الآثار حتى يخلد ذكرهم في بطون الصحائف على مرور الأعصار، كما خلد ذكر غيرهم من علماء الأمصار والفضلاء الأخيار والصلحاء الأبرار. وحيث كانت تلك القطعة في نهاية المعمورة والمسكونة من قطعات الأرض ومنقطعة عن سائر بلاد الإسلام بالكلية لم تكن مطروقة للعلماء المعتمنين بكتابة الآثار والفضلاء المهتمين بجميع الأخبار من كل الديار وتحرير التواريخ وتراجم أحوال الأخيار، فلم يكن لهم اختلاط بهم ولا اطلاع على أحوالهم حتى يدرجوا أساميهم وذكرهم في تواريخهم وتراجمهم؛ ولذلك بقيت أحوالهم محتجبة بحجب الخفاء بل اندفنت فضائلهم وأساميهم معهم في القبور بل صاروا هباء بحيث لا مطمع في الوصول إلى شيء من خبرهم أو الحصول على نبذة بين أثرهم، وكأنهم من القديم كانوا تابعين لأهل ما وراء النهر في جميع شؤونهم وكانوا يكتسبون العلم والفضائل فيها ويكتفون بقراءة الكتب المصنفة هناك ومطالعتها من غير أن يصنفوا شيئاً في فن من الفنون. كما أن أهل تلك الديار معتادون بهذه العادة إلى الآن وإن لم يبق في ما وراء النهر شيء من علومها وفضائلها وكمالاتها القديمة، وقد بلغ عكوفهم على آثار الغير مبلغاً تراهم يسخرون ويستهزئون بمن تصدى منهم للجمع والتأليف وإن كان شيئاً يسيراً زعماً منهم أن أمر التأليف محرم على جنسهم بل مستحيل منهم، ومع ذلك ربما يوجد في كتب العلماء بعض النقول عن علمائهم أو ذكر من له تصنيف في فن من الفنون من المتقدمين منهم والمتأخرين.

[يعقوب بن نعمان قاضي بلغار]

قال العلامة السيد مرتضى الزبيدي^(١) في كتابه تاج العروس شرح القاموس في

(١) الزبيدي: هو السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، أبو الفيض الزبيدي اليمني ثم =

مادة البلغار وقد نسب إليه جماعة من المتأخرين اهـ. وقد سبق في كتابنا هذا أيضًا ذكر يعقوب بن النعمان قاضي بلغار مرارًا وإن له تاريخًا في أحوال بلغار وأنه مفقود الآن وأن أبا عبد الله الغرناطي لقيه في بلغار سنة ٥٣٠ ونقل عنه بعض الأخبار وأن أبا حامد الأندلسي نقل عن تاريخه وعده من أصحاب إمام الحرمين أرخ المرجاني وفاته تارة سنة ٣٥٠ وتارة سنة ٥٥٩ وقد ذكر الفاضل المرجاني في تاريخه عدة أشخاص منهم وأنا أذكر هنا من ذكرهم المرجاني ومن ظفرنا بذكره من غيرهم سواء كان في الأصل منهم أو من غيرهم ولكنه أقام فيما بينهم ولا اعتماد لنا في ذلك إلا على الظن والتخمين في أكثرهم وإن كانوا في حد أنفسهم قليلين.

[أنخرسيس الفيلسوف]

فأول من ظفرنا بذكره في التواريخ الفيلسوف أنخرسيس أو أناخريست التتاري ولا أتيقن أنه منهم أو ممن في حواليتهم ولكن لا شبهة في كونه من الترك والتتار المقيمين في تلك القطعة المذكورة^(١) أعني بها القطعة المسماة الآن بالروسية الجنوبية التي جرت بها أحكام البلغاريين في بعض الأوقات مع ما مر من بيان تسمية تلك القطعة إلى منتهى المعمورة الشمالية كلها باسكيتيا فيمكن أن يكون منهم وعلى كل حال لا يجوز ترك ذكره هنا وإهماله وهو الذي وعدنا بذكره هنا أثناء بيان حكماء الأتراك وبيان قوم أسكيت وسيتيا الخ، الذين هم قدماء الترك والتتار حين نقلنا ما قاله كارامزين في حق أسكيت وذكره بعنوان أناخريست فتنبه وأنا أنقل ترجمة أحواله هنا من تاريخ الفلاسفة المترجم من الفرنسية إلى العربية من طرف الفاضل السيد عبد الله أفندي المصري المطبوعة في مطبعة الجوائب بالآستانة بعبارة حرفيًا من غير تغير حرف^(٢) منها.

قال فيه: جاء هذا الفيلسوف في مدينة أثينا^(٣) في الأولمبياد السابع والأربعين

= المصري، الحنفي الفقيه اللغوي الصوفي الشهير بالمرتضى، ولد سنة ١١٤٥ هـ، وتوفي سنة ١٢٠٥ هـ. له العشرات من المصنفات منها: «تاج العروس من جواهر القاموس» . . . (كشف الظنون ٦/٣٤٧ - ٣٤٨).

(١) فإن قدماء الأتراك والتتار المختلطين بقدماء اليونانيين هم المقيمون منهم في تلك القطعة وقد صرح كارامزين بكونه من أسكيت أوروبا. منه عفي عنه.

(٢) ولو كان خطأ من جهة العربية. منه عفي عنه.

(٣) لعب مخصوص باليونانيين بين اللعيبين منه مدة أربع سنوات وقيل إنه دور مدة أربع سنين فيكون مبدأه قبل قدومه إلى أثينا سنة ١٨٨. منه عفي عنه.

وقتل بعد أن رجع إلى بلده بمدة قليلة من الزمن ويقال إنه ظهر في عصر جماعة كثيرة من أعظم الفلاسفة المتقدمين وكان أنخرسيس تتاري^(١) الأصل وكان محترماً بين الحكماء غاية الاحترام وكان أخوه يسمى قديداس ملك بلاد التتار وكان أبوه يسمى أغنوروس وكانت أمه يونانية فلذلك كان جامعاً بين اللغتين وكان فصيحاً ذا نشاط في كل شيء يعانیه ويتعلق به وكان يلبس في أغلب أوقاته ثياباً عريضة طويلة مرتفعة الأثمان جداً وكان غذاؤه خصوص اللبن واللبن فقط وكان سريعاً في خطبه مع اختصار دقيقاً في ألفاظه وعباراته ولأجل كونه لا يسأم من مطلق شيء يزاوله ويعانیه كان كلما تعلق بأمر من الأمور أتمه وأكمله وكانت سليقته البلاغة والسرعة في الكلام وكانت عباراته تستعمل كالأمثال فكان إذا ماثلته أحد في النطق بمثلها يقال إن فلاناً يتكلم بعبارة تتارية وقد رفض أنخرسيس سكنى بلاد التتار وعزم على السكنى بمدينته أثينا فحضر في تلك المدينة فذهب إلى بيت سولون^(٢) (أول فلاسفة اليونان فعلم أن التتار كانت لهم أيضاً فلاسفة في عين ذلك الوقت وإن لم ينقل إلينا آثار غير صاحب الترجمة وأخبارهم) وقرع الباب فجاءه شخص يفتح له الباب فقال له: أخبر سولون بأن من في الباب أتى بقصد زيارته والسكنى عنده مدة من الزمن فأرسل سولون يقول: إن الإنسان لا يمكنه قبول الضيوف إلا ببلده أو بمحل يكون له فيه التصرف فلما سمع أنخرسيس ذلك دخل في البيت وقال: يا سولون أنت في بلدك وفي بيتك الخاص بك فحينئذ عليك أن تقبل الضيوف فخذ في أسباب الصحة معي فتعجب من فصاحته وحصل له غاية السرور من ضيافته وعقد معه الصحة واستمر على الصحة والمودة إلى آخر عمرهما.

(١) وإنما قال إنه تتاري الأصل ولا شك أنه في الأصل المترجم عنه منسوب إلى أسكوتيا كما ذكر كارامزين لما مر مراراً أن أسكوتيا ونظائره مرادف عند اليونانيين والإفرنج للتتار وأنهم قدماء التتار. منه عفي عنه.

علم من ذلك أنه لم يترك عادة قومه وأهله في اللبس والأكل ويقال لتلك العادة ملية عكس ما نشاهده الآن من سفهاء بلادنا من تغيير زيهم وعاداتهم وقيافتهم بمجرد قدمهم إلى مملكة الأجانب لأخذ العلوم وكسب المعارف فلا يأخذون شيئاً سوى تغيير الزي وتبديل القيافة ويزعمون أنهم لم يتركوا شيئاً من المعارف إلا حازوها ولكن الفيلسوف المذكور أخطأ في شيء كان ينبغي له أن لا يخطأ في وهو أخذه اعتقاد اليونان الباطل من عبادة الصنم وتركه اعتقاد قومه الذي هو التصديق بالله الواحد القهار. منه عفي عنه.

(٢) فيكون في القرن السابع قبل الميلاد فإن ولادة سولون على ما في تاريخ الفلاسفة سنة أربعين وستمائة قبل الميلاد والظاهر من قرائن أحوالهما أنهما متقاربان في السن والعمر فدل ذلك على وجود الفلاسفة من الترك والتتار في العصر المذكور بل قبله كما لا يخفى. منه عفي عنه.

وكان أنخرسيس يحب نظم الأشعار فلذلك نظم جميع قوانين بلاد التتار^(١) وضم لذلك منظومة في علم الحرب وكان كثيرًا ما يقول شجرة الكرم ينشأ عنها ثلاثة أشياء السكر والحط والندم. وكان يتعجب كثيرًا من مجالس أثينا العمومية وذلك أن الحكماء هم الذين يفيدون الأحكام ولا يجريها إلا الحمقى. وكان يعجب أيضًا من الحكم بالعقاب على من حصل منه سب لأحد ولو أقل قليل ولا يلتفتون لمن يحصل منه أعظم من ذلك كأصحاب الألعاب من سبهم الأعيان وغيرهم من ألعابهم بل يحترمونهم ويكرمونهم. وكان يتعجب أيضًا من اليونان في موافقتهم حيث يشربون في ابتداء الأكل بالكاسات المتوسطة بين الصغر والكبر وفي آخر الأكل يشربون الكاسات الكبيرة مع إحساسهم بمبادئ السكر. وكان لا يمكنه أن يتحمل المزح ونحوه مما شأنه أن يكثر صدوره في الولائم. وسأله ذات يوم كيف العمل في منع الإنسان من شرب النبيذ فقال لهم: لم يوجد في ذلك طريقة أحسن من أن يجعل أمام ذلك الإنسان شخص سكران فيذهب عنده ويختلي معه ويتأمل في أحواله. وسأله أيضًا ذات يوم هل في بلادك آلات موسيقى فرد عليهم تبكيًا لهم وقال: بل ولا العنب وكان يسمى تدليك المصارعين بالزيت حين إرادتهم اللعب تجهيز الجنون العظيم. وقد تأمل ذات يوم ثخن ألواح سفينة فتأوه بأعلى صوته وقال: إن المسافرين في السفينة ليس بينهم وبين الموت إلا مقدار أربعة أصابع. وسأله أيضًا عن أمن السفن فأجاب بأنها هي التي تأتي إلى البر سالمة. وكان دائمًا يكرر ويقول يجب على كل إنسان أن يمتلك لسانه وبطنه وكان عند نومه يضع يده اليمنى على فيه وهذا منه إشارة عظيمة إلى أن ينبغي للإنسان أن يهتم الاهتمام الكلي ويحرص على حفظ لسانه وصونه.

وجاءه رجل من أثينا وعيَّره بكونه من التتار فقال له إن بلدتي قد فضحتني^(٢)

(١) قلت: يا ليتها نقلت إلينا حتى نفتخر بها ولعلها موجودة عند الأوروبائين. منه عفي عنه.

(٢) قلت: وحق العبارة أن يقول: إن كان بلدي فضحتني فأنت قد فضحت بلدك وهذا كما قال

الشاعر:

يفاخرون بأباء لهم سلفوا نعم الجدود ولكن بشس ما ولدوا

وقال آخر:

ولست أبالي بعد أن إدراكي العلا أكان ترأثًا نيل ذلك أم كسبا

وقال آخر:

وما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

والأشعار في ذلك كثيرة وفي ذلك كفاية. منه عفي عنه.

وأنت قد فضحت بلدك. وسئل ذات يوم هل في الرجال قبيح وحسن فأجاب بأن فيهم اللسان وكان يقول الصديق الواحد الموفي بحق الصحبة والصدافة أولى وأحسن من أصحاب متعددين لا يجتمعون على الإنسان إلا في حال الثروة والغنى. وكان حين يسأل هل الأحياء أكثر أم الأموات يقول في الجواب: من أي قبيل تعدون من فوق البحر. وكان يقول: اتخذ الناس الأسواق لأجل غش بعضهم بعضًا فيها. وكان ذات يوم مازًا من زقاق فسخر به رجل بعقله تخدير فرمقه بطرفه وقال بهدو يا هذا الشاب إنك الآن لا تتحمل التبيد وأنت شاب فسيمر بك تحمل الماء وأنت شيخ هرم^(١). وطالما شبه القوانين بنسج العنكبوت، وكان يلوم سولون على دعواه أن كتابة القوانين تمنع شهوات الناس^(٢). ومن مخترعاته طريقة عمل أواني الفخار بالدولاب. وذهب أنخرسيس ذات يوم إلى كاهنة صنم هيكل الشمس ليستخبرها هل يوجد حكيم أعظم منه فقالت له: نعم وهو ميزون الشانيسي فتعجب أنخرسيس من كونه لم يكن سمع به قط وذهب يبحث عنه في قرية كان هاجر إليها فوجده يصلح محراثه فقال: يا ميزون لم يبق لحرث الأرض وقت فقال ميزون: قد عكست بل وهناك وقت لإصلاح المحراث المكسور وميزون هذا قد عده أفلاطون من جملة الحكماء وكان منفردًا دائمًا عن الناس ومضى عمره على ذلك لا يجتمع مع أحد لأنه كان يكره الناس بالطبع ورثي ذات يوم أبعد في مكان العزلة وهو يكثر في الضحك جدًا فقرب منه إنسان وسأله ما سبب هذا الضحك الكثير مع عدم وجود أحد عندك فقال له: هذا هو سبب ضحكي. وكان أكريسوييس^(٣) قد سمع بصيت أنخرسيس كثيرًا فأرسل يعرض عليه هدية دراهم وترجاه أن يحضر إليه بسارديس فأجابه أنخرسيس بقوله: يا سلطان اللديين أتيت ببلاد اليونان لتعلم اللغة والأخلاق وعوائد البلاد ولست محتاجًا لذهب ولا لفضة وسيدخل عليّ سرور^(٤) كبير حين

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه والسياق يقتضي أن يقول لا تتحمل الماء إلخ كما لا يخفى. منه عفي عنه.

(٢) وهذا صادق في ملامته فإن كتابة القوانين لا تمنع الناس من العي كما نشاهده الآن في بعض الدول وإنما يمنعهم أجراؤها من غير مراعات الخواطر كما في الدول المتقدمة. منه عفي عنه.

(٣) كان وقتئذ ملك قوم لديانس وكان كرسي سلطنته بمدينة ساردس. منه عفي عنه.

(٤) نعم لكان يحصل لك فوق ما تخليت لولا تعلمك وثنية يونان والحاصل ينبغي لكل من يتحمل مشاق الغربة وشدائد السفر لتحصيل الفضائل والكمالات أن يغتنم الفرصة وأن يكون إقبال قومه إليه ونفعه إياهم بما اكتسبه من الفضائل نصب عينيه ومن مقتضياته الاجتناب عن الرذائل وسفاه الأمور وكل ما يكرهه قومه كتعاطي شرب الدخان في عصرنا هذا وتغيير الزي والقيافة وإلا =

أرجع إلى بلاد التتار أمهر مما كنت عليه وقت خروجه منها وسأحضر عندك لأجل زيارتك لأنني أتمنى أن أكون من أصحابك^(١) وبعد أن مكث مدة طويلة ببلاد يونان عزم على الرجوع إلى بلاده فلما مر بسيره بمدينة قربيك رأى أهلها في إشهار العيد العظيم لأم الآلهة فنذر^(٢) أنخرسيس لهذه الآلهة على نفسه قربانًا وعيدًا مثل قربانهم وعيدهم وأن يرتبهما لها ببلده في كل سنة أن وصل إلى بلاده سالمًا، فلما وصل إلى بلاده أراد أن يغير عوائدهم القديمة وأن يجري فيها قوانين اليونان^(٣) فلم يعجبهم ذلك أصلاً، ودخل ذات يوم في غابة سراً ببلدة (هوله) ليوفي ما عليه من النذر الذي التزمه خفية من غير أن يطلع عليه أحد فأخذ يعمل المولد لها وهو ماسك بيده طبله قدام القربان الذي نذره لآلهة اليونان كما يعملون فاطلع عليه شخص من أهل بلاد التتار فذهب إلى الملك وأخبره بذلك فحضر الملك في هذه الغابة ورأى أخاه أنخرسيس على تلك الحالة فضربه بسهم فغاص فيه فلما قرب خروج روحه صرخ وقال بأعلى صوته: قد تركت في الراحة ببلاد اليونان التي كنت قد ذهبت إليها لأتعلم اللغة والأخلاق وعوائد^(٤) بلاد ميلادي. ثم إنهم جعلوا له عدة جملة صور بعد وفاته لتبقى سيرته من التاريخ المذكور^(٥) بحروفه فإن كان فيه شيء من جهة العربية فهو عائد إلى المترجم لا إليّ.

- = فيلتيقن كونه مثل الفيلسوف أنخرسيس هذا والمقصود من مطالعة التواريخ والتراجم الاعتبار وإصلاح الأخلاق والله الموفق. منه عفي عنه.
- (١) ولا شك أن تمنيه هذا إنما هو لكونه صاحب الفضائل وإلا لما يلتفت إلى أرباب الفضائل كحمير عصرنا هذا. منه عفي عنه.
- (٢) بش ما رأى وبش ما نذر وبش ما عزم يا ليت لم يره قط ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا فهذا أدل دليل على أنه لا يكفي العقل والدراية والفلسفة بمعرفة الله تعالى وإلا لعرفه هذا الفيلسوف وإضرابه حق معرفته. منه عفي عنه.
- (٣) وهذا الذي نقم عليهم كارامزين فتذكر. منه عفي عنه.
- (٤) هكذا في الأصل المنقول عنه ولا يخفى ما فيه من النقصان ولعل الواو زائدة فيكون عوائد مفعول تركت ولا يستقيم تركت على المبنى للمفعول لعدم استقامة المعنى فإن عوائد لا يستقيم عطفه على ما قبله كما لا يخفى. منه عفي عنه.
- (٥) تشبيه: قال رفاعة بك في رحلته البارضية عند بيان ما قرأه من الفنون والكتب ثم كتاب رحلة انخرسيس الأصغر إلى بلاد اليونان اه فهذا يدل على أن انخرسيس اثنان أكبر وأصغر ولا أدري أن صاحب الترجمة هل هو الأكبر أو الأصغر وأن الرحلة المذكورة لأيهما ومعرفة ذاك مفوضة إلى همة أذكيا الشبان من أرباب التحصيل. منه عفي عنه.

قلت: وهذا الذي عاب كارامزين قوم أسكيف به بأن قال كما مر حتى أن وطنيهم الفيلسوف أناخريست الذي هو من تلامذة الفيلسوف سولون فارق حياته وأتلف روحه لقيامه بتعليمهم قوانين ومعارف أئينا اهـ.

قلت: وإذا تأملت من أول ترجمة هذا الفيلسوف إلى آخرها يرشدك إلى ما عليه قوم أسكيف أي التتار القدماء من صحة الاعتقاد وطهارة الأخلاق وعدم الركون إلى سفاسف الأمور كشرب النبيذ وما يترتب عليه من المفاسد فكيف يقبلون ما يدعوهم إليه من أخلاق اليونان القبيحة وعوائدهم السيئة خصوصاً عبادة الأوثان الذي لم يصدر عنهم قط من أول ما ظهروا إلى عرصة الوجود إلى أن تنوروا بأنوار الإسلام وتولوا أموره وما يصدر من بعض الأوروبيين ومن تبعهم منا من غير تحقيق من أنهم كانوا قبل الإسلام يعبدون الأصنام وبعض منهم صاروا نصارى نسطورية لا أصل له قط وإنما هو من إشاعتهم الكاذبة لترويج دينهم الباطل وليجبروا الأقوام الشرقية إلى اعتناق النصرانية مستدلين بأنهم كانوا نصارى قبل ذلك وقد بدأ الروس بإجراء ذلك في قرغز متمسكين بأذيال هذه الحيلة منذ مدة مديدة ولكن لم ينفعهم ذلك يريدون ليظفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون^(١) وأنت قد علمت أن قتله لم يكن لمحاولته تعليم قوانين اليونان بل لتعظيم الآلهة الباطلة وهم مصييون في ذلك لا يتوجه إليهم اللوم قط بل وهو مدار المدح العظيم والثواب الجزيل من الله الكريم وقد مر ما له تعلق بهذا البحث وسيجيء أيضاً ولا أسأم من تكراره لتحقيق الحق وإبطال الباطل لا للتعصب.

[الخواجة أحمد البرغري]

ومنهم الإمام الخواجة أحمد البرغري ذكره الفاضل المرجاني وقال: وربما يقال الشيخ أحمد البرغري وهو أستاذ السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي وقال في الكشف الكبير شرح أصول البزدوي قال الشيخ الإمام البرغري وفي موضع قال الإمام البرغري وفي محل وفي الطريقة البرغرية وفي موضع آخر قال الإمام البرغري في طريقته وفي فوائد الجواهر نقلاً عن الفنية وفي الجامع البرغري إلخ. وفي بعض الكتب ذكر في فوائد البرغري كذا وكذا فهذه العبارات تدل بأسرها على جلالة شأنه

(١) نعم إننا لا ننكر ترسخ أخلاقهم وعوائدهم في طبائعهم واستحسانهم ذلك ودعوتهم من اكتسب العلوم والفضائل في أقطار العالم سنين عديدة إلى التقليد بكريم حضرت وصلاح حضرت إلى الآن إلا أن أمثال هذا موجودة في جميع الأقوام ولذا قيل ترك العادة محال. منه عفي عنه.

وعظم قدره ولكن لا يجزم بأن المراد بالبرغري الواقع في هذه العبارات كلها شخص بل يمكن أن يكون أشخاص بهذه المثابة والنسبة ونقل الفاضل المرجاني بيتين فارسيتين في مدح الخواجه البلغار يقال لهما رباعيًا ودويت هكذا. رباعي:

خواجه بلغاركه أو وافق أسرار بود
هركه شد بنده أوبر همه سالار بود
بشته وكوه وچنكل كروطن أوست چه باك
لعل راقيمت زانكه بكوهسار بود

ولكن لا يدري هل المراد به هو الخواجه أحمد المذكور أو غيره والظاهر أنه هو لأن المدح بمثل هذا لا يكون إلا لمثله والله سبحانه أعلم وأما النسبة إلى برغر فقد تقدم أنه يقال لبلغار برغر وبرغار فلا تغفل.

[أبو العلاء حامد البلغاري]

ومنهم القاضي أبو العلاء حامد بن إدريس البلغاري ذكره الفاضل المرجاني أيضًا وقال: إنه كان موجودًا في حدود سنة ٦٠٠ ذكره تلميذه سليمان بن داود السقسيني الآتي ذكره في كتابه الذي سيذكر في ترجمته.

[سليمان بن داود السقسيني]

ومنهم الشيخ سليمان بن داود السقسيني وهو تلميذ القاضي حامد أبي العلاء المذكور آنفًا وله كتاب في الوعظ سماه زهرة الرياض ونزهة القلوب المراض كذا ذكره الفاضل المرجاني في تاريخه وقال في كشف الظنون زهرة الرياض في الموعظة الشيخ الإمام تاج الإسلام سليمان بن داود السبتي كذا ذكره الواعظ^(١) من تحفة الصلوات ترجمه من كتابه الفارسي المسمى بهجة الأنوار ونزهة القلوب المراض وألحق به فوائد كثيرة ورتبه على سبعة وستين مجلسًا وهو من الكتب المشهورة في الموعظة لكنه ليس بمعتبر^(٢) اه بحروفه ولا يخفى ما فيه من الخبط في النسبة ومثل ذلك كثير في كشف الظنون جله أو كله وقع من الطابع فله ثلاثة كتب بهجة الأنوار وزهرة الرياض ونزهة القلوب المراض والمرجاني جعل الأخيرين كتابًا واحدًا.

(١) مراده بالواعظ الشيخ حسين بن علي الكاشفي الواعظ كما ذكره في كشف الظنون عند ذكره تحفة الصلوات وقوله من تحفة الخ. صوابه في تحفة كما لا يخفى. منه عفي عنه.

(٢) انظر كشف الظنون ٩٦٢/٢، وفيه: «الستيسي» بدل: «السقسيني».

وقال في كشف الظنون بهجة الأنوار من حقيقة الأسرار فارسي في الموعظة للشيخ سليمان بن داود السواري ثم عربه مع إلحاقات وسماه نزهة القلوب المراض ثم زاد عليه وسماه زهرة الرياض^(١).

وقال فيه: نزهة القلوب المراض للشيخ الإمام سليمان بن داود المتوفى سنة (بياض) نقله من كتابه الفارسي المسمى بهجة الأنوار وهو على سبعين مجلساً أوله الحمد لله خالق البرية الخ^(٢). ففي قوله: ترجمه من كتابه المسمى بهجة الأنوار ونزهة القلوب المراض سابقاً لا بد فيه سقطه كما لا يخفى وفي كون زهرة الرياض زائدة على نزهة القلوب المراض أيضاً تردد فإن الأولى مرتبة على (٦٧) باباً والثانية على (٧٠) فكيف تكون هي زائدة على الثانية فليحذر^(٣) ولم يذكر له تاريخاً فعلى قول المرجاني يكون من علماء القرن السادس.

وقد رأيت في مكة أوراقاً متفرقة من كتابه زهرة الرياض بخط قديم بدأ كل مجلس بحديث يرويه بسند شيخه القاضي حامد المذكور كما ذكره المرجاني في تاريخه ونقل عنه عدة أحاديث ولتنقل نحن أيضاً واحداً منها.

قال في ابتداء المجلس الأول حدثنا الشيخ الإمام الأجل الأستاذ فخر الأئمة غياث الأمة شمس الشريعة قانع البدعة محيي السنة زين المذكورين تاج المفسرين أبو العلاء حامد بن إدريس القاضي البلغاري قدس الله روحه وعمر بالرحمة والراحة ضريحه قال: حدثنا الشيخ الإمام الأجل سيف الحق حسام الدين أبو المعين ميمون بن محمد بن معتمد المكحولي النسفي رحمهم الله أجمعين بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة»^(٤) الحديث. وذكر في سند الحديث الذي ذكره في ابتداء المجلس العاشر بعد شيخه أبا بكر محمد بن عبد الله السرخستاني وفي الثاني عشر إبراهيم بن إسماعيل بن محمد الحسن الحسيني الخ. قال المرجاني: إن أبا معين المكحولي

(١) انظر كشف الظنون ٢٥٧/١، وفيه: «بهجة الأنوار من خفية الأسرار».

(٢) انظر كشف الظنون ١٩٤٥/٢.

(٣) إلا أن نقول إن مراده بالإلحاق الإلحاق على ما في الأبواب مع تنقيص الأبواب أو نحمل الأمر على العكس ومثله كثير فيه وقوله السواري أفادنا العلم أن مدينة سقسين هي عين مدينة السوار والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٤) أخرجه مسلم في القدر حديث ٤، وأحمد في المسند ٣٧٤/١.

النسفي توفي بنسف (٥٠٨) سنة^(١) وأبا بكر محمد بن عبد الله السرخكتي توفي سنة (٥١٨)^(٢) وزاد في طبقات تيمية بسمرقند فيكون صاحب الترجمة في أواخر القرن السادس وشيخه في أواسطه والله أعلم وقد علم من ترجمتها أن علوم الدين خصوصاً الأحاديث النبوية كانت مستعملة في ديارنا وكان لها رواج فيها ولأهلها اعتناء بها في تلك القرون السالفة كما أنها كانت كذلك في ما وراء النهر التي هي مرجع أهل ديارنا في العلوم من القديم فإنها أعني بلاد ما وراء النهر كانت رياض علوم الدين قبل استيلاء الجنكزية عليها ثم بعد استيلائهم صارت تتقلص عنها شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت إلى حالتها الآن من الاكتفاء بقراءة الديباجة من كتب السفسطة من غير اشتغال بمبحث واحد من كتب الفقه فضلاً عن كتب التفسير والحديث والأخلاق يضيع واحد منهم أربعين وخمسين سنة من عمره في تقرير الترهات السوفسطائية فقط سواء كان في بلادنا أو في بلاد ما وراء النهر ثم يذكر بعد موته بالتقديس فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون وأكثرهم جاهلون متعصبون وليتهم إذ عدلوا عن تحصيل علوم الدين اشتغلوا بالفنون النافعة في الدنيا والمعارف المفيدة كأهل أوروبا بدل اشتغالهم بما لا يعينهم في الدنيا والآخرة نسأل الله تعالى سبحانه أن يوقظنا من رقدة الغفلة ويبصرنا بعيوننا التي عمت الملة آمين.

[إبراهيم بن خضر البلغاري]

ومنهم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن خضر البلغاري، قال المرجاني كتب في آخر كتاب أصول الحسامي تم الكتاب بتوفيق الله تعالى وقت الظهر في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول ٧٥١ سنة إحدى وخمسين وسبعمائة على يد العبد الضعيف الراجي رحمة ربه اللطيف إبراهيم بن خضر البلغاري المدعو بين أصحابه ببرهان رزقه الله علمًا نافعًا وعملاً كاملاً.

(١) ومثله في كشف الظنون عند ذكر التبصرة. منه عفي عنه.

(٢) ومثله في كشف الظنون مع بيان كون وفاته بسمرقند وفقاً لما في طبقات التميمي. منه عفي عنه.

[صدر الدين بن علاء الدين البلغاري]

ومنهم الشيخ أبو محمد صدر الدين بن علاء الدين البلغاري، قال الفاضل المرجاني: وجد في آخر نسخة من كتاب أصول البزدوي للشيخ إبراهيم ابن الشيخ إبراهيم خواجه تلميذ صاحب الترجمة إجازة مكتوبة له من طرف شيخه المذكور قال في آخرها: وأنا الداعي لكافة المسلمين أبو محمد صدر الدين بن علاء الدين البلغاري بصره الله عيوب نفسه وجعل يومه خيرًا من أمسه وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شوال يوم الأحد سنة ست وستين وسبعمائة.

[إبراهيم بن يوسف البلغاري]

ومنهم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن يوسف البلغاري، ذكره الفاضل المرجاني أيضًا وقال عد في كشف الظنون^(١) شرح آداب الصحائف من تأليفه وقال فيه أي في الكشف أيضًا: فصول النسفي في علم الجدل شرحها برهان الدين البلغاري أوله الحمد لواجب أبدع بقدرته الخ. وهل هما لشخص واحد أم لشخصين. قلت: قال في الكشف في بيان آداب البحث وشرح برهان الدين إبراهيم بن يوسف البلغاري وهو شرح بقال أقول وله الحمد ذي الأنعام الخ.

[الشيخ محمد البلغاري]

ومنهم الشيخ محمد البلغاري، ذكره صاحب كشف الظنون^(٢) حيث قال: خزينة العلماء وزينة الفقهاء للشيخ محمد البلغاري وهو مختصر في الموعظة أوله الحمد لله الذي لم يلد له والد الخ، أورد فيه من الأحاديث والآثار والحكم اهـ. وذكر هناك في حرف الميم مفردات البلغاري ولم يذكر غير ذلك ولا ندرى في أي عصر كان صاحب خزينة العلماء ومفردات البلغاري هل كانا من المتقدمين أعني حين وجود سلطنة البلغار أم كانا من المتأخرين أعني بعد انقراض سلطنة البلغار فإن كثيرًا من أهل قران حتى الآن ينتسبون إليها ويقولون فلان البلغاري كما مر نقلًا عن تاج العروس وإنما أثبتناهما هنا نظرًا لظاهر النسبة وسيجيء من ذكرهم الزبيدي ممن كانوا في عصره في محله إن شاء الله تعالى.

(١) انظر كشف الظنون ٤٠/١.

(٢) انظر كشف الظنون ١٨٣/٦، وذكر فيه أنه توفي سنة ٨٢١ هـ.

باشقرد ناصر الدين الناصري

سمع من ابن إعلان جزء البطاقة وحدث به وكان أصله من ممالك الناصر بن العزيز^(١) ثم تنقل في الخدم وتأمر وكان من أكابر الفضلاء والأمراء كثير العقل والفضل وله نظم ونثر ذكر عنه أنه قال: بقيت عشرين سنة لا أتكلم بالتركي حرصاً على اتقان اللسان العربي وكان قد سجن عقب كسرة الحمص فلما أفرج عنه أعطي إقطاعاً به في طرابلس فتوجه إليها فلما وصل إلى دمشق مرض من يوم وصوله فأقام عشرة أيام ومات بدمشق في الثالث عشر من صفر سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وقد أثنى عليه البرزالي^(٢) والذهبي^(٣) وذكراه في معجميهما وكان ينظم الشعر فيقع له منه ما يستحسن وقال ابن الزملاكي^(٤): كان ينظم بالطبع لا يتعاطى قواعد الشعر وكان جم المحاسن معمور الوقت بالفكر في علم أو عبادة أو نظر وله اهتمام بطريق أولى المعارف وعنده عنهم فوائد ولطائف مع صدق اللهجة والكرم والعفة والسكون ومحبة المذاكرة اهـ. من الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني. قلت: نعم المدح وحبذا الشهادة من هؤلاء الأعلام رحمهم الملك العلام وأسكنهم في دار السلام.

[علم الدين سنجر الباشقردى]

قال الفاكهي^(٥) في تاريخ مكة أثناء بيان حوادث سنة ثلاث وثمانين وستمائة:

(١) آخر ملوك التركية الأيوبية بمصر. منه عفي عنه.

(٢) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ، علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ، من مصنفاته: «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ. (كشف الظنون ٥/٨٣٠).

(٣) الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الترمكاني المصري، الإمام الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي، المحدث المؤرخ، ولد سنة ٦٧٣ هـ، وتوفي سنة ٧٤٨ هـ، تقدمت ترجمته الوافية.

(٤) ابن الزملاكي: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين أبو المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملاكي ولد سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من التصانيف: «البرهان في إعجاز القرآن»، «تحقيق الأولى من أهل الرفيق الأعلى»، «الدرة المضية في الرد على ابن تيمية»، «دلائل الإعجاز»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب»، «المنهاج في تعلقات الإيلاج» في علم الباء، «وفيات الأعيان» في التاريخ والتراجم. (كشف الظنون ٦/١٤٦).

(٥) لم أجد في كشف الظنون من ألف في تاريخ مكة ويلقب بالفاكهي سوى محمد بن إسحق بن عباس الفاكهي، أبو عبد الله المكي الأخباري المتوفى في حدود سنة ٢٨٥ هـ، صنف «تاريخ»

كان بين أبي نمي صاحب مكة وأمير الحاج المصري علم الدين الباشقردي كلام أفضى إلى أن أغلق أبو نمي أبواب مكة ولم يمكن أحدًا من دخولها إلخ. وقال في أثناء بيان حوادث سنة تسع وثمانين وستمائة بعد ذكر فتنة في الحرم والذي حج بالناس مصر الأمير علم سنجر الباشقردي.

[حسن بن عمر البلغاري]

ومنهم القطب الكبير الخواجه حسن صلاح الدين بن عمر البلغاري، كان شيخًا كبيرًا في وقته ذا حالات عليّة ومناقب سنية لقي مشايخ كثيرة واختص من بينهم بالشيخ سعد الدين الحموي المتوفى سنة ٦٠٥ وهو مريد الشيخ نجم الدين الكبيري قدس الله سره وقد قال في الرشححات إن مولده في نخچوان قصبه من بلاد آذربيجان أسره القفجق وهو ابن ثلاثة وعشرين سنة وأقام بينهم سبع سنين وتشرف بجذبة قوية في سن ثلاثين فاختر السياحة ولقي المشايخ الكبار وسكن بلغار تسع سنين وبيخاري ثلاث سنين وبكرمان سبع سنين وسنة بمراغة تبريز وتوفي بتبريز وعمره ثلاث وتسعون وذلك ليلة الاثنين الثانية والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ودفن بسرخاب تبريز انتهى. وزعم بعض الناس أنه ولد بقرية في الشمال الغربي من بلدة بلغار تعرف الآن بحسن شيخ وقد ذكر الفاضل المرجاني أن سبب تركه هذه الديار أعني بلغار أن أعداءه اتهموه بفعل شنيع استحق به الرمي من المنارة فهرب إلى بخارا والعهدة في ذلك على الراوي ولا يبعد هذا الأمر من أهل بلغار بالنظر إلى عاداتهم الجارية الآن والله سبحانه أعلم.

وفي مدة إقامته ببخاري دخل خلق كثير من كبراء هذه الديار أعني ما وراء النهر في قيد إرادته منهم الشيخ عمر الباغستاني جد ناصر الشريعة الخواجه عبيد الله أحرار قدس سرهما كما ذكر في الرشححات وممن دخل في سلك إرادته صدر الشريعة شارح الوقاية قال في تعديل العلوم له ولقد حكى لي من لا يتهم بالكذب وهو شيخنا صلاح الحق والدين حسن البلغاري قدس الله روحه حكاية عجيبة عن وجدانه روحه الله في بعض الأحوال الواقعة فذكرت في المتن ما حكى وإن كانت الحكاية لا تليق بهذا

= مكة المكرمة وأخبارها في الجاهلية والإسلام». وليس هو المقصود هنا. لأن المؤلف يتحدث عن كتاب يتناول تاريخ مكة في سنة ٦٨٣ هـ. (كشف الظنون ٦/٢٠).

وهناك محمد بن أحمد بن علي المكي الفاكهي، أبو السعادات الفقيه الحنفي المتوفى بالهند سنة ٩٩٢ هـ. له: «نور الأبصار مختصر الأنوار لجمال الحضرمي» (كشف الظنون ٦/٢٥٧).

الكتاب رجاء أن ينتفع طالب الحق الذي لا يعاند ولا يستهزئ بأقوال الصادقين . وقال في موضع آخر من كتابه المذكور وقد يكون^(١) أنوار الوضوء والطاعات وقد بدا لبعض أصحابنا من مريدي الشيخ حسن البلغاري قدس الله سره نور الوضوء كهيئة النارنج يسعى بين يديه . وقال في آخره : ولنختم الكلام بدعاء كان شيخنا صلاح الحق والدين حسن البلغاري قدس سره يواظب عليه وهو اللهم زين ظواهرنا بخدمتك وبوطننا بمعرفتك وقلوبنا بمحبتك وأسرارنا بمشاهدتك وأرواحنا بمعابنتك يا أرحم الراحمين . قد مر أن الروح في مقام المحبة يسمى قلبًا وفي المشاهدة سرًا وفي تجلي الذات روحًا والحمد لله رب العالمين اهـ . فهذا قد عرفت الاختلاف في كونه من أهالي بلغار الأصلية أو الوارد إليها من خارج .

هذا ما اطلعت عليه من علماء أهل بلغار الأصلية وأما الواردون إليه من الخارج .

[أحمد بن فضلان]

فأولهم وأعظمهم الشيخ أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي^(٢) مولى أمير المؤمنين ثم مولى محمد بن سليمان كذا ذكره الحموي^(٣) في معجم البلدان وقد مر ذكره وبعض النقول عن رسالته بالواسطة فهو أقدم العلماء الواردين إلى بلاد بلغار من الخارج في الظاهر وإن جاز قدوم غيره هناك قبله كمن صار سببًا لإسلام أهل بلغار وملكها وإن لم نطلع على حقيقته وقد اعترض الحموي على مواضع كثيرة من رسائله لا في الأخبار السماعية فقط بل في أخباره العيانية كمالغته في وصف الجليد انعقد فوق نهر جيحون وسمكه وقد ادعى فقدان رسالته في عصرنا هذا كما مر وقد ذكر المحرر الميرالأي ريتخ الروسي في ديباجة كتاب له حرره في تحقيق الآثار العتيقة أنه أخذ من الرسالة المذكورة مع شرحها للمحرر فرن وأنهما موجودان في دار الفنون (أونيورستيت) بقزان إلا أن نقول: إنهما ترجمتهما الروسية والمفقود عينها ذكر فيها كما تقدم عن معجم الحموي أن خروجهم من بغداد كان في إحدى عشرة ليلة خلت من صفر ٣٠٩ سنة ووصولهم إلى بلغار مارين من بخارى وخوارزم وحاجي طرخان إلى بلغار في اثنتي عشرة ليلة خلت من محرم سنة ٣١٠ ولم أدر متى رحل من بلغار ومتى توفي والله سبحانه أعلم .

(١) اسم يكون ضمير مستتر فيه راجع إلى نور قبله ذكر في الكتاب المذكور . منه عفي عنه .

(٢) تقدمت ترجمته . (٣) ياقوت الحموي: تقدمت ترجمته .

[أبو عبد الله الغرناطي]

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن سليمان الغرناطي^(١) صاحب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب وقد نقل عنه أشياء في أحوال باشقرد وبلغار وذكر ملاقاته قاضي بلغار يعقوب بن نعمان في سنة ٥٣٠ أرخ في الكشف وفاته بأنه كان في نيف وستين وخمسائة وقد طالعت كتابه المذكور في الآستانة في كتب خانة بايزيد الجديدة.

[محمد بن عبد الرحمن الأندلسي]

ومنهم الشيخ أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الأندلسي صاحب كتاب المغرب في عجائب المخلوقات وقد مر عنه أيضًا بعض النقول بالواسطة وقد قيل: إنه دخل أيضًا في بلغار سنة ٥٢٩ وصحب القاضي يعقوب بن نعمان المذكور ودخوله البلغار يستفاد من أقواله. ذكر في الكشف دخوله البغداد مرتين مرة له سنة ٥١٦ ومرة في سنة ٥٥٥ ولم يرقم فوق سنة وفاته والله سبحانه أعلم.

ومن جملة ما له تعلق بذكر بلغار وملوكه وعلمائه ما نقل عن الحكيم السنابي الشهير حيث قيل نظرًا:

زبهر كاری كشتم سوی بازار	سنایی گفته روزی من بغزنی
ندا آمد برود وکانه بکذار	دری مسجد کشوده بازیدم
بزیرسر نهاده کفش ودستار	جوان نوقدی ما نند سروی
که پارچه نان خشک ونیم آنار	بدیدم پیش اوکاسه شکسته
بیوسیدم ورخشرا چون پیدر وار	سر شرا چون بزانو بر کرفتم
بکفتا اصل من از شهر بلغار	بکفتم أي جوان اصلت کجایی
بکفتا نسل من شهزاده بلغار	بکفتم أي جوان نسلت کجایی
بکفتا چند سیبی نزد من آر	بکفتم أي جوان رغبت جه داری
خریدم چند سیبی بهر آن یار	دویدم من سبک چت سوی بازار
ندا آمد جوانرا مرده پندار	بدل کفتم جوانرا زنده بینم
تن پر حسرة ورویش بدیوار	رسیدم کین جوان روحش پریده

(١) لم أجد له ترجمة.

زدم جاك كريبانم بدا من
بتجهيز . . .^(۱) بکویان
بآخر صرف کردم چند دینار
کفن دوخته واندام پاک شستم
بکردم راست تابوتش زشمشاد
بمحکم کور چون صندوق کردم
جوانر اچون بخاک اندر سپردم
جوان کفتاکه آی پیر خردمند
اکر روزي رسی درشهر بلغار
ولي ازمر دنم چیزی نکویی
بران ما درکه من باناز پرورد
چو خواهر بشنود غمناک کردد
بکرید مادر مسکین من زار
کسی پرسد که نام أوجه باشد
خدا وندا سنایی را بیا مرز

منادی کرده أم در شهر و بازار
ندا کردند نالان شهر و بازار
کفن رد آوریدم بهر آن یار
بمشک و عنبر و کافور تاتار
روان کردم بکورستان کل زار
بیفشاندم کل بسیار بسیار
بخواندم من کلام الله بسیار
نصیحت میکنم درکوش خود دار
سلام مار سانی جمله یکبار
بزنهار و بزنهار و بزنهار
پدرهم برده باشد رنج بسیار
بکرده در زمین بیکس و بی یار
برادر بشنو دمرك از برادر
بکو لطیف محمد نیک کردار
بحق أحمد و محمود مختار

اه. من مجموعة عمدة العارفين الشيخ زين الله النقشبندی الخالدي كتبها له أحد تلامذة الملا عبد الرحيم الأوتوزایمانی حين سفره الشيخ المشار إليه إلى منفاه سنة ۱۸۷۳ والقصيدة تحتمل أن تكون للحكيم السنائي نفسه أو لغيره أخذاً عن قوله وهذا الذي عناه حسن صديق خان البهوپالي في بعض رسائله بقوله: ولم يخرج من بلغار إلا محمد لطيف والشيخ حسن البلغاري والملا شهاب الدين المرجاني وإن كان قوله هذا كقول مادح كافور الأخشيدي بقوله: ولم يكمل من السودان إلا ثلاثة الحكيم لقمان وبلال الحبشي ومولينا الكافور اه. وكان وفاة الحكيم السنائي في حدود سنة ۵۲۵ ومن جملة ما قيل في أهل بلغار وحسنهم أبيات فارسية:

همه جور من از بلغار بانست
کنه بلغار یانرا نیزهم نیست
خدایا این بلا وفتنه ازتست
که ما دامم همی باید کشیدن
بکویم توبتوانی شنیدن
ولکن کسنمی یارد حجیدن

(۱) بیاض في الأصل.

همي آرند تر كانراز بلغار زبهر پردهء مردم دريدن
لب وندنان آن خوبان چون ماه برين خوبى نيبابد آفريدن

اهـ. ذكرها في النفحات في ترجمة عين القضاة الهمداني وبيان شطحياته ولم ينسبها إلى أحد وكان المذكور في أوائل القرن الخامس فعلم من هذا أن أهل بلغار كانوا يعدون في الوقت المذكور من الترك وأنهم كانوا متصفين بغاية الحسن وأنهم كانوا يجلبون إلى الأطراف والجوانب ويبيعون وبلغني أن للشيخ سعدى الشيرازي^(١) الشهير أبياتاً في مدح نساء بلغار وحسنهن ولكنني لم أرها في كتبه المتداولة.

(١) سعدى الشيرازي: هو شرف الدين مصلح بن عبد الله الشهير بسعدى الشيرازي، الأديب الفاضل الصوفي المتوفى سنة ٦٩١ هـ، صنف من الكتب: «بوستاز» منظوم فارسي في الأخلاق، «كلستان» فارسي نثرًا ونظمًا في الأدب، «كليات» في ديوان شعر ورسائنه نظمًا ونثرًا فارسي (كشف الظنون ٦/٤٦٢).

المقصد الثاني

ظهور التتار واستيلاؤهم على
ديار بلغار وقبچق والروس
وتأسيسهم دولة قبچق وتتار
وآلتون أوردو، وبيان أولياتهم
من الترك بن يافث إلى آخر
خوانين سراي، وسبب
خروجهم من ديارهم
وانتشارهم إلى سائر الأقطار.

المقصد الثاني في ظهور التتار^(١) واستيلائهم على هذه الديار أعني ديار بلغار وقبچق والروس وسائر الأقاليم المقيمين في تلك الأصقاع حتى اللان والماجار وتأسيسهم هناك دولة عظيمة ذات شوكة واقتدار تسمى بدولة قبچق وتتار وآلتون أوردو وبيان أولياتهم من الترك بن يافث إلى آخر خوانين سراي وسبب خروجهم من ديارهم وانتشارهم إلى سائر الأقطار

اعلم أن التتار جيل من الترك بل هم أصل الترك وقد تقدم منا أنه مرادف للترك عند الإفرنج حتى أنهم يعدون كافة قبائل الأتراك مع ما فيهم من العثمانيّة وقرامان وتركماني من التتار وقد أسلفنا أيضًا أنهم كانوا مشهورين عند قدماء الروم واليونان والإفرنج باسم سبتيا وأسكوتيا وأسكيت وأسكيتس وأسكيف وقد تقدم أيضًا بيان نسب الترك وماجريات مستوفى والآن نبين هنا من خلفه من أولاده في إدارة الملك وضبط الأمور نازلًا إلى تتارخان ثم إلى آخر خوانين سراي واعتمادنا في هذا النقل على التواريخ المأخوذة عن التواريخ المؤلفة في عصر الملك غازان خان لبيان نسب چنكزخان^(٢) وماجريات أوليائه وأسلافه وأحواله وأحوال أولاده خصوصًا على روضة

(١) وكان مساكن التتار بسواحل نهر أمور اليمنى وجنوبي ابرقوتسكي من جبال الأطاغ إلى نهر سنغارى شرقًا وإلى مملكة تيبّت جنوبًا أعني الأراضي التي يقال لها الآن مغلستان منغوليا ولهذا اشتهر المسك بمسك التتار بالإضافة إليهم لكونه في أرضهم ومملكته كما أنه يخرج الآن من هناك ويقال لهم في سابق الزمان أوتوز تتار كأنهم كانوا ثلاثين قبيلة وقد مر بيان بعض أحوالهم في المقدمة عند بيان معاملات الأتراك مع الصين وأن ملوك هيونغ نو كانوا ينتخبون من سبان بي الذين هم تتار الشرق وكذلك مريان تتار جوجان فراجع هناك إن شئت. منه عفي عنه.

(٢) ومن أغرب الأشياء وأعجب العجائب ما ذكره بعض فضلاء عصرنا أن المؤرخين والمحررين الرسميين مزجوا نسب چنكز بأنساب المغل الجديدة وأنساب الترك القديمة بناء على الأسباب السياسية في العصر الجنكزخاني ذكر ذلك في موضعين من تاريخه في جزئيه الأول والثاني ووجه غرابته أن أنساب الترك القديمة من الذي بينها قبل هؤلاء المؤرخين والمحررين حتى يقال أنهم مزجوا نسب چنكزخان بهما وهذا القول لما يصح فيمن جاء بعد المغل والتتار ثم يلحق نسبه بهما وأما فلا قيل قال واحد من بني مروان لخالد بن يزيد بن معاوية مرة لست في العير ولا في النفير فقال له الخالد جدي أبو سفيان: كان في العير وجدي عتبة بن شيبه كان في =

الصفاء لمير آخوند وشجرة الترك لأبي الغازي خان كما اعتمدنا عليهما في بيان أحوال يافث وولده الترك لا أتعداهما في النقل إلى غيرهما فالعبرة في الصحة والسقم عليهما بل على مأخذهما ولا أقول إن جميع ما فيهما صحيح لا شبهة فيه بل أنبه القراء على ما قدمنا من أن الأمور التاريخية ظنية وأنها مع ذلك ليست ساقطة عن الاعتبار بل يطالعها المطالع على احتمال الخطأ والصواب فيما لم يعلم دليل أحدهما فهذا الذي آذاه إليه سعينا فمن رام التحقيق والزيادة فبابهما مفتوح شعر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزیه أرشد

[خوانين الترك]

فأقول وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق والذي خلفه الترك في الملك وضبط الأمور من بين أولاده: توتك بن الترك: ولما أجاب الترك داعي الحق جلس مكانه ولده الأرشد وولي عهده الأمجد توتك وكان عاقلاً منصفاً مدبراً اخترع كثيراً من الرسومات الجارية إلى الآن منها الملح فإنه خرج يوماً يصيد وشوى غزالاً فبينما هو يأكل منه إذ وقع لقمة من يده على الأرض وكان مملحة فلما رفعها وأكلها استطابها فصار بعد ذلك يلقي الملح في الطعام وكان توتك معاصر الكيومرث أول ملوك الفرس وعاش ٢٤٠ سنة^(١). أملنجه بن توتك^(٢): ولما مات توتك جلس مكانه بعده ولده أملنجه وعاش مدة كثيرة، فلما بلغ سن الشيخوخة ترك السلطنة واختار العزلة وتدارك زاد الآخرة وفوض أمر السلطنة إلى ولده الأرشد ذيب باتوي فجلس على سرير السلطنة وبث العدل والأمان في أولاد الترك وكان عاقلاً عادلاً منصفاً شهماً. ولما أجاب داعي الحق جلس مكانه ولده كيوك خان ولما بلغ عمره النهاية وتوجه نحو الوطن الذي توجه إليه أباه وجدوده استقر مكانه على سرير السلطنة ولده الأمجد الأرشد أنجه خان المشهور وكان ملكاً شهماً شجاعاً عالي الهمة وافر المعدلة ولهذا كثرت النعم في عصره في بني الترك وبلغت ثروتهم الغاية وانتهى تمولهم إلى النهاية وكانوا من عهد نوح عليه السلام إلى وقته على طريق الهداية فلما كثرت النعم ظهر

= النفير إن قلت: جيالات غنيمات فقد صدقت اهـ. كذلك نقول النسب الذي بينوه لچنکزخان فلا غبار عليه وإن قلت: وجيالات غنيمات فقد صدقت. منه عفي عنه.

(١) قاله أبو الغازي وبعضهم لا يذكرون توتك في عداد الملوك والأكثر على ما ذكرنا. منه عفي عنه.

(٢) ويقال إيلجه. منه عفي عنه.

سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾ [العلق: الآيتان ٦، ٧] فأثروا الضلالة والغواية على الرشد والهداية واتبعوا عدو الله وكفروا بأنعم الله وكان ألتجه خان هذا في أواخر أيام سلطنة هوشنك ملك الفرس. ولما مضت من سلطنته مدة ولدت زوجته له ولدين توأمين في بطن واحد فسمي أحدهما تتار والآخر مغل. ولما أسن وكبر ولداه المذكوران قسم مملكته على قسمين وفوض أحدهما إلى تتار والآخر إلى مغل ووصاهما بالتوادد والتعاون والاتحاد وتوجه نحو الآخرة فاشتغل كل منهما بضبط مملكته وربطها.

تتار خان ابن ألتجه خان: فلما توفي أبوه اشتغل بضبط مملكته وترتيب أمور سلطنته سنين ومضى عمره على غاية من المصافاة والموالة مع أخيه مغل وكذلك أولاده مع أولاد مغل إلى عهد بايدو خان بن أوردو خان بن آتسيز خان بن آتلي خان بن يلنجه خان بن بوقا خان بن تتار خان وكذلك كانت معاملة مغل خان معه ومعاملة أولاده مع أولاده إلى عصر تيكز خان السابع من ملوك مغل فلما أفضت السلطنة إلى بايدو وتيكز خان وقع النزاع والاختلاق بينهما وطفق يزيد وينمو يوماً فيوماً إلى أن تملك من التتار سوينچ خان بن بايدو ومن المغل إيل خان بن تيكز فصار منهما ما سيذكر إن شاء الله^(١).

مغل خان: ولما اشتغل بضبط مملكته التي عينها له أبوه وقضى وطره من السلطنة وارتحل من هذه الدار إلى دار القرار جلس مكانه ولده الأسن الأكبر قراخان وفي عصره انتشر الكفر بين طائفة مغل على وجه لو أحس الأب من ولده الذي هو جزء كبده أدنى مساهلة في أحكامهم الباطلة وعاداتهم العاطلة كان يقتله^(٢) بلا مهلة ويكرم قاتله.

ذكر أغوزخان بن قراخان الذي هو بمنزلة جمشيد الفرس وإسكندر الروم واليونان في بني الترك

وولد لقراخان من زوجته ولد ذكر في غاية الحسن والجمال ولما ولد لم يقبل ثدي أمه إلى ثلاثة أيام وكان يقول لأمه في المنام ما دمت لم تسلمي ولم توحدي الله

(١) ترك بيان أحوال خوانين التتار المذكورين مع أن المقصود بيان أحوالهم عدم ذلك البيان في التاريخ لكونها مؤلفة لخوانين مغل لكنهما كشيء واحد. منه عفي عنه.

(٢) قلت: فما أشبه تعصبهم وثباتهم في الكفر بتعصب الروسية وثباتهم فيه الآن. منه عفي عنه.

لا أقبل ثديك أبداً ولا أرضع لبنك سرمداً ولما كان إسلامها بحسب الظاهر غير ممكن لما مر من تشديدهم على من يخالف رسومهم كائناً من كان أسلمت بحسب الباطن ووحدت الحق سبحانه وتعالى بقلبها وأخفت إيمانها من غيرها فقبل ثديها ولما تمت من وقت ولادته سنة كاملة وجاء وقت التسمية على عاداتهم الباطلة جمع أبوه أمراءه وأعيان مملكته وعمل وليمة كبيرة وجاءوا بالطفل في المجلس وبينما هم يتشاورون في اختيار الاسم إذ قال الطفل المليح بلسان فصيح اسمي آغوزخان فاشتهر من ذلك الوقت بهذا الاسم ولما كبر ظهر فيه آثار الرشد والهداية وألهمه الحق سبحانه طريق التوحيد والإيمان بسابقة العناية ولكن كان لا يبيده ومن أبيه وحميمه يخفيه إلى أن شاع ذلك بين الناس وذاع فجرى عليه من طرف أبيه وقومه محن شديدة وفتن كثيرة وكم مرة قصدوا هلاكه وكم مرة وقع بينه وبين أبيه مقابلة ومحاربة .

ولكن لما تعلق إرادة الحق سبحانه بهداية هؤلاء القوم وقاه الله تعالى سبحانه سيئات ما مكروا ومن ضرر ما قصدوا فكان هو الغالب بإذن الله على الكل إلى أن هلك أبوه في واحدة من تلك المعارك التي نصبوا له فيها أنواع مصائد المهالك فلما استقر على سرير السلطنة بعد موت أبيه الضال واستقل بالأمر وصفا له الوقت والحال أجبر قومه على الدخول في حمى التوحيد وما زال يعاملهم بالتضييق والتشديد فامتنع أعمامه وأخواله من ذلك أشد الامتناع وصاروا يجمعون لحره الجموع ويفرون به الرعاع من كل بقاع فنشأ الحرب بينهم من ذلك اليوم ولم يمس عينه سنة ولا نوم وامتد إلى ثلاث وسبعين سنة وهو في ازدياد في كل سنة واستمد أعداؤه بملوك الأقوام المتجاورة كالصين والتتار والخطأ فجاءوا يهرعون إليهم ويقاربون الخطأ ولكن كانت الغلبة والنصرة في الأخير له ولأتباعه عليهم كيف لا وقد قال الله سبحانه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] ﴿وَالْمَقِيبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨، القصص: الآية ٨٣] فانهزموا من بين يديه شر هزيمة وهربوا ﴿حُمُرٌ مُّنتَفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿٥١﴾ [المدثر: الآيتان ٥٠، ٥١] فاستولى آغوز خان على ممالك التتار وضمهم إلى نفسه لكونهم من جنسه. ثم سار نحو الخطأ فاستولى على بلادهم حيث ارتكبوا القبح والخطأ ثم استولى على جميع ممالك الصين وأسر منهم البنات والبنين ولم يلتفت إلى ما صدر عنهم من البكاء والأنين حيث توافقوا مع عدوه المبين ولما اطمئن خاطره من جهة الشرق والشمال ولم يبق في تلك الجهة مخالف له في حال من الأحوال وجه وجهة خاطره نحو الجنوب وسار بجيش لا يكتنه كنهه نحو ما وراء النهر وتلك الشعوب فاستولى على

تاشكند وسيرام وكذلك على فرغانة وسمرقند وبخارا وبلخ وبلاد غور وكابل وغزنين .

ولما بلغ كشمير قابله ملكه يغما خان بعساكر كثيرة مستمدين بجبال شامخة وامتد بينهما المحاربة إلى سنة كاملة ثم انجلى الحرب على قتل يغما ملك كشمير فاستولى آغوز خان على كشمير وعلى جميع البلاد التي كانت تحت حكمته ثم انثنى راجعاً إلى بلده بعد أن نصب فيها حكاماً من طرفه وترك عسكراً كافياً لحفظ تلك البلاد وهؤلاء العساكر وذراريهم هم الذين يقول لهم الإفرنج والله سبحانه أعلم أسقوتية هند كما مر وعاد آغوز خان إلى وطنه من طريق بدخشان وسمرقند بعد أن نصب في البلاد التي استولى عليها نواباً من طرفه . وبعد أن استراح في وطنه سنة نهض وتوجه نحو بلاد الفرس لقتالهم فقاتلهم مدة تسعة أشهر وغلبهم على بعض بلادهم فصالحه الفرس على أن يكون نهر جيحون المشهور الآن بنهر أمور حدًا فاصلاً بين بلاد إيران وتوران وأن يكون بلاد الهياطلة التي كانت أولاً معدودة من بلاد إيران محسوبة من جملة بلاد توران قيل كان ذلك في الفترة التي بين كيومرث وهوشنك وقيل الصحيح الصواب أن ذلك كان في زمان الضحاك .

ثم توجه بعد ذلك نحو الغرب فاستولى هناك على الأمم الكائنة في سواحل بحر الخزر والبحر الأسود وبعض بلاد الروم واليونان والإفرنج والآوروا الشرقية والشمالية بل على أكثر أوروبا وترك هناك بعض عساكره لحفظ البلاد فسامهم اليونان أسقوتية أوروبا وترك قبائل الجراكسة وأمم الداغستان والكرج في بلادهم المخصوصة بهم الآن من جبال قفقازيا وأطرافها من الأراضي التي بين البحر الأسود وبحر الخزر ثم توجه منه نحو بلاد أناطولي ومنها إلى الشام وإلى مصر وبعد أن ضبط تلك البلاد وربطها ورتب أمورها وشحنها بالرجال بادر إلى التوجه نحو وطنه فلما عاد إلى مسقط رأسه أولم وليمة عظيمة قيل ذبح فيها تسعمائة خيل وتسعين ألفاً من الغنم وبينما هو في إرادة السفر نحو الشرق والجنوب ليتم فتح بلاد الهند إذ اخترمته المنية فحالت بينها وبين تلك الأمانة^(١) .

(١) قال بعض مؤرخي عصرنا أن مدة حكومة آغوز خان كانت ١١٦ سنة ويقدر زمان ظهوره سنة ٣٤٠٠ قبل الهجرة وقد اتخذ بلدة ياس الواقعة في تركستان مقرًا لحكومته أخيرًا وقد كانت البلدة المذكورة مقر حكومة الخوانين أوزبك وقتًا ما اهد. ولعلها قصبه تركستان فإن أصل اسمها يسي ولهذا يقال لمولانا أحمد يسويا نسبة إليها ولعل مراده بخوانين أوزبك خوانين آق أوردا فإن مقر حكومتهم كانت تلك النواحي كلها كما سيجيء وقال صاحب كنه الأخبار يحتمل أن يكون آغوز =

وقد أسلفنا أن آغوز خان هو أكبر خوانين الترك وأشهرهم وأنبيلهم ولهذا اخترع في ضبط البلاد وربط أمور العباد سوّمًا حسنة وقوانين مستحسنة بالنسبة إلى تلك الأزمنة التي هي بمعزل عن أمثال تلك السياسة من سائر أرباب الرياسة وفرق بني الأتراك شعوبًا وقبائل أشهرهم إيغور وقبچق وقنقلي وخالج^(١) وقارلق وعين لكل منها ناحية مخصوصة.

قال في تاريخ منجم باشي أن قبيلة عمق من قبائل چركس هي قبيلة قنقلي حرف لفظ قنقلي إلى عمق وعين لقبيلة قبچق البرية الواسعة بين بلاد بلغر والروس وبين جبال الأطاغ فانتشروا فيها وامتدوا إلى شواطئ نهر جايق وإتل وإلى ساحل البحر الأسود الشمالي من أرض قريم فسميت تلك البرية الواسعة من حينئذ باسم دشت القبچق بالإضافة إليهم واشتهرت بذلك الاسم واشتهارها الآن ببرية قراق وقرغز وكان لهم في ساحل البحر الأسود مدينة تسمى سوداق كانت قاعدة ملكهم مدة مديدة وبقيتها موجودة إلى الآن بقرب يالته، كما مر بيانه في المقدمة، وبقيت الرسوم التي اخترعها آغوز خان فيما بين قبائل الأتراك مدة مديدة من جملتها آل تمغا حتى بقي إلى عصر مراد بك بن أورخان غازي بن عثمان غازي جد السلاطين العثمانية أيدهم الله تعالى، فإنه لما ظهر بفتح روم إيلي أول مرة وغلب على حشرات تلك الناحية وصالحه ملك الصرب وكتبوا كتاب الصلح أعلمه مراد بك بآل تمغا ثم اتخذوا بعد ذلك الطغرا كما هو مسطور في التواريخ العثمانية وبعضها باقية إلى الآن وهو شكل الهلال الذي هو تمغا الدولة العلية إلى الآن فإن هذا الشكل باق من آغوز خان أو ممن قبله وليس بمستحدث كما زعم، وسيجيء أنه كان في علياء قصر ملوك التتار بسراي شكل هلال من ذهب وزنه قنطاران بقنطار مصر، وكان يقال للعلم الذي كان فيه ذلك الشكل ماهجه توغ يعني علم هلال كما هو مشحون به كتب التواريخ الجنكزية والتيمرية وكان له من منكوخته ستة بنين على هذا الترتيب كون خان أي خان يولدز خان كوك خان طاغ خان نيكز خان سمي الثلاثة الأول بزوق والثلاثة الآخر أوج

= خان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام وأن يلاقيه ويؤمن به اهـ. وكأنه استنبط هذا من كونه مؤمنًا فزعم أن إيمانه بواسطته ودلالته وقد عرفت أثناء بيان ديانة الأتراك أن لا حاجة إليه مع كونه ممكنًا في نفسه ولا يبعد أن يكون قنطوراء التي تزوجها إبراهيم عليه السلام ابنته إن صح قول أبي الفرج الملقبي من أنه ابنة ملك الترك والله سبحانه أعلم. منه عني عنه.

(١) خالج أصله التركي آلاج وأصله قال آج كما ذكره أبو الغازي خان في تاريخه وآلاج مشهورة ببلاد قراق يقال لها آلتى آلاج. منه عني عنه.

أوق وعين السلطنة للثلاثة الأول ولذرياتهم وقيادة الجيش وترتيب أمور الحرب والرسالة للثلاثة الآخر، وفي تسميتهم بهذين الاسمين قصة عجيبة تركناها مخافة الإطناب.

وكان لكل واحد من هؤلاء الأولاد الست أربعة بنين من أزواجهم وأولاد آخر من الجوارى والسراري كثيرة من جملتهم قرغز جد الجيل المسماة بهذا الاسم ثم انتسب لكل واحد من أولاده وأحفاده قبيلة من نسلهم باقية إلى الآن منتشرة في برية قزاق يطول الكتاب بذكرهم^(١).

تنبيه: اعلم أن جمعاً من النسابين والمؤرخين رفعوا نسب السلاطين العثمانية أيدهم الله تعالى إلى آغوز خان هذا وإلى قائي خان ولكن وقع بينهم الاختلاف في أن أيهما أقدم آغوز خان أو قائي خان ذهب إلى كل منهما ذاهب ولكن الصحيح والصواب أن آغوز خان أقدم وقائي خان إنما هو بعض أحفاد آغوز خان كما حققه صاحب كنه الأخبار وقد علمت نسب آغوز خان إلى يافث ولم يذكر فيه قائي خان فتعين أن يكون مؤخرًا منه وأن يكون بعض أحفاده الذين استوطنوا بما وراء النهر وخراسان.

قال أبو الغازي إن أبناء آغوزخان قدموا إلى ما وراء النهر وخراسان مع طائفة تركمان فهذا يدل على أنهم قدموا إلى تلك الديار في ذلك الوقت فتلك الديار ملكهم الموروث أبًا عن جد من قديم الأيام.

[وجه تسمية التركمان]

استطرد: اختلف في وجه تسمية التركمان تركمانًا قال أبو الفداء سموا بذلك لأن كل من أسلم من أتراك خراسان وما وراء النهر في الصدر الأول كان يقال له صار ترجمانًا لكونه ترجمانًا بين العرب الفاتحين بسبب اختلاطه معهم وتعلمه اللسان منهم وبين من لم يسلم من الأتراك حتى صار ذلك علمًا لهم أي لمن أسلم منهم ثم قيل بالتحريف تركمان.

وقال في روضة الصفا لما قدم الأتراك إلى تلك الديار واختلطوا بأقوامها وامتزجوا سكانها خرج أولادهم عن صرافة لون الأتراك وإشكالهم بمقتضى طبيعة

(١) ومن أراد أن يطلع عليها فعليه بمطالعة شجرة الترك لأبي الغازي خان. منه عفي عنه.

الإقليم بل بإرادة الملك الكريم فقيل لهم يعني بسبب الاشتباه الحاصل ترك مانند يعني يشبهون الترك فغلب عليهم ذلك وقيل تركمان بالاختصار اهـ.

قلت: لو أمكن القول بالرأي في مثل هذا لقلت إنهم إنما سموا بذلك لقولهم «ترك من» في جواب من أنت فإن هذا أقرب من ذينك الوجهين (هذا) قيل كانت مدة سلطنة آغوز خان سنة ١١٦ . كون خان بن آغوز خان: ولما أجاب آغوز خان داعي الحق قام مقامه ولده الأكبر الأرشد كون خان وسلك مسلكه في إجراء المعدلة والإحسان وكان لأبيه وزير عاقل مدبر يسمى أرقل خواجه ابن رئيس قبيلة إيغور فاتخذه كون خان وزيراً لنفسه ومعيناً وظهيراً في تنفيذ أمره وإحكام أسه فانتظم بتدبيره أمور ممالكه أحسن انتظام ونام في ظل عدالته سائر الأنام ولما مضى سلطنته مدة سبعين عاماً أجاب داعي الله وتوجه نحو الدار التي حسنت مستقرًا ومقامًا ثم قام مقامه في كرسي السلطنة أخوه آي خان وسلك مسلك آبائه الكرام في بث العدل والأمان فيما بين الأنام ثم تولى بعده يولدز خان.

قال أبو الغازي لم أقف على أنه ولد من هو ولم أجزم به^(١) وإنما هو أحد أحفاد آغوز خان وليس هو ولد آغوز خان من صلبه يعني المار عند تعداد أولاده ثم تولى بعده ولده تيكز خان ثم ولده منكلي خان وقدم أبو الغازي منكلي خان على تيكز خان وقال: إنه عاش عمرًا طويلًا فلما أسن جدًا اختار العزلة وفوض أمر السلطنة إلى ولده إيل خان والأول ذكره في روضة الصفا وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وكان ملك طائفة التتار في عصر إيل خان سونج خان بن بايدو خان كما مر وقدمنا أيضًا أنه وقع الخلف والنزاع بين طائفتي التتار والمغل في عصر بايدو خان من ملوك التتار وتيكزخان من ملوك مغل وزاد هذا الخلف والنزاع في عصر سونج خان وإيل خان حتى انجر إلى المحاربة والمقاتلة واستيصال المغل وانقضاء دولتهم إلى مدة مديدة وذلك أن سونج خان ملك التتار اتفق مع تور بن أفريدون^(٢) ملك التركستان الجنوبية وما وراء النهر وقيل اتفق مع القرغز على قتال مغل فالتقى الفريقان في حدود مملكة مغل فنشب بينهما القتال وامتدت أيامه مدة مديدة ثم انجلى الحرب عن قتل إيل خان واستيصال عساكره فاستولت الفرقة الغالبة على جميع ممالك مغل فنهبوا أموالهم

(١) ولا أدري لأي شيء قال ذلك أبو الغازي والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) وهذا بناء على ما مر أن أفريدون قسم الأرض بين أولاده الثلاثة وقد عرفت ما فيه وقد عرفت أيضًا أني ناقل محض هنا فتذكر منه عفي عنه.

وأسروا نساءهم وأولادهم حتى لم يبق نفر واحد من المغل على الحرية بل صار كلهم أرقاء مملوكين .

قلت : الظاهر أن هذه الواقعة كانت بعد تفرق طائفة المغل فرقاً كثيرة واختلاف كلمتهم وانحياز من انحاز منهم أي ما وراء النهر وهم التراكمة وبعض أولاد آغوز خان كما مرت الإشارة إليه سابقاً بل هذا متعين والله سبحانه أعلم .

وكان في جملة من أسروا من المغل ولد لإيل خان يسمى قيان وولد لأخي إيلخان يسمى نكوز وكانا تربين وكانا قد تزوجا في العام المذكور فاتفقا على الفرار فأخذوا زوجيتهما وهربا والتجأ إلى شعب جبال راسيات ودخلا شعباً فيهما بين تلك الجبال الشامخات ليس له إلا طريق واحد صعب جداً بحيث لا يمكن سلوكه إلا واحداً بعد واحد وهو أعني الشعب واسع جداً فيه مياه غزيرة ومروج كثيرة وأشجار ملتفة يقال لذلك الشعب أركنه قون فأقاموا هناك آمنين وتناسلوا وكثروا وصاروا بحيث لا يسعهم هذا الشعب بطول المدة قيل إنهم أقاموا هناك أربعمائة عام وقيل سبعمائة سنة وهم لا يطؤون في تلك المدة أرضاً غير هذا الشعب سوى أنهم كانوا يسمعون من آبائهم وجدودهم أن خارج هذا الشعب ممالك واسعة وأن أسلافهم كانوا أولاً هناك وإنما دخلوا هذا الشعب لسبب من الأسباب فعملوا الحيلة في الخروج منه إذ طمحت نفوسهم إلى أوطانهم القديمة والممالك الفسيحة المشتملة للمياه الجارية والهواء الصحيحة فعمدوا إلى مكان من الجبل فيه معدن الحديد والنحاس بحيث يؤثر فيه النار ويمكن فتح الممر منه فجمعوا من الحطب والفحم ما لا يحصى وأحدثوا الكير من جلد الحيوانات وأوقدوا النار وصاروا ينفخون بالكير من جميع الجوانب حتى ذاب ما فيها من الحديد والنحاس وانفتح الممر^(١) فخرجوا من مضيق إلى محل فسيح وانتشروا كالجراد إلى مكان سحيق وكان ملكهم إذ ذاك شخص يسمى برته چينه من قبيلة قورلاس من نسل قيان المذكور ولم يكن في ذلك الوقت فيما بين قبائل الأتراك قبيلة أعظم شوكة وأشهر تسلطاً وأشد بأساً من قبيلة التتار وكان سائر القبائل يهابونهم ويدعونون لهم . فلما خرج المغل من تلك المضيق بتلك الكثرة إلى الفضاء الواسع منها يضيق كرهوهم وقاموا بدفعهم فنشب بينهم القتال وامتد هذا الجدل إلى أن انتصر مغل على التتار وكسروا شوكتهم وبنوا سد الممانعة أمام ذلك البحر التيار واستردوا منهم ما كانوا أخذوه وانتزعه من أسلافهم

(١) يعني من سد يأجوج ومأجوج ولعله في الليلة التي أخبر النبي ﷺ به . منه عني عنه .

ما كان لهم من الديار واشتهرت شوكتهم بين قبائل الأتراك فانقادوا لهم بالاختيار وبالاضطرار.

ولما بلغت نوبة السلطنة منهم إلى يولدز خان بن منكلي خان بن تيمر تاش خان من نسل قيان المذكور وهو الملك الحادي عشر من ملوك مغل بعد برته چينه وكان له ابنان من صلبه فماتا وخلف أحدهما ولدًا يسمى دبون بيان وترك الآخر بنتًا تسمى الآن قوا^(١) زوج البنت المذكورة من الولد المذكور ولما مات يولدز خان جلس حفيده دبون بيان مكانه على دست السلطنة ومات وسنه دون الثلاثين سنة وخلف ولدين أكبرهما^(٢) ابن سبع فلما مات دبون بيان خطب زوجته آلان قوا كثير من كبراء قومها أولاد الملوك فلم ترض بزواج أحد وقالت: لا أقبل الزوج أبدًا بل أحفظ ملكي إلى أن يكبر ولدي. ومضى على ذلك سنون، وبينما هي نائمة في خركاها ذات ليلة مع طائفة من النساء إذ ظهر من سقف الخركاه نور ساطع وظهر من بينه صورة شخص أبيض مائل إلى الصفرة مليح العينين فلما رآته أرادت أن توقظ من في حوالية من النساء ولكن لم تقدر أن تنطق بحرف ولم تظهر صوتها وأرادت أن تقوم فلم تقدر على القيام أيضًا ولم يقدر أن يحرك أعضاؤها فجاء عندها وضاجعها وقيل بل رأت النور فقط ودخل النور المذكور فمها وقيل جيها فحبلت منه وولدت ثلاثة أولاد ذكور^(٣) أحدهم بوزنجرخان وهو الذي صار ملكًا من بين أولاد آلان قوا وإليه ينتهي نسب چنكرخان وجميع خوانين التتار والمغل ويقال لذرية هؤلاء الأولاد الثلاثة نيرون بمعنى الأصيل وعالي النسب لتولدهم من النور وإلى الآن يقال في رسم القزاق لذرية چنكرخان آق سويك يعني العظم الأبيض ومفاده الأصيل وقد بذل صاحب روضة الصفا في تأييد حقيقة هذه القصة العجيبة جهده بإيراد الشواهد من الآيات القرآنية مثل خلق آدم عليه السلام من التراب وعيسى عليه السلام من غير أب فلولا ذكره إياه

-
- (١) نقل عاصم نجيب أفندي عن تاريخ رشيدي كون الأنقوا من ذرية قورلاس كأنه يستشكله ولا إشكال فيه فإن قورلاس هذا جد بعيد لبرته چينه كما مر آنفًا. منه عفي عنه.
- (٢) واسمه بلكداي وأصغرهما ابن ست واسمه بكجداي وقيل بلكنوت وبركنوت اهـ من شجرة الترك ولم أر بيان أحوالهما في واحد من التواريخ. منه عفي عنه.
- (٣) يعني في ثلاثة بطون أكبرهم بوقون قتغين وأوسطهم بوسقين جالچي وأصغرهم بودنجر قيل بالدال وقيل بالزاء ولكن صرح في شيباني نامه بكونهم في بطن واحد ووقع فيما نقل عنه بوقون بالياء وسالجوت بدل جالچي وقد استنبط بعضهم كون السلاجقة من نسل سالجوت هذا لأنه وقع في بعض المواضع سالچينج والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

وتأييده^(١) وذكر غيره من فضلاء المؤرخين لما أوردتها في كتابي هذا لكونها في الظاهر مما يستبعد وينسب إلى الخرافات ولكن لا استحالة في الحقيقة بالنظر إلى قدرة الله تعالى الباهرة.

وكان ظهور هذه الحادثة العجيبة في أواخر دولة بني أمية وسعي أبي مسلم الخراسان^(٢) لبني العباس.

[چنكزخان]

ولما بلغ بوزنجرخان سن الرشد جلس على كرسي سلطنة مغل وتلقب بلقب قآن على معنى خان خانان وملك الملوك وشهنشاه فلما مات قام مقامه ولده بوقا خان ثم بعده ولده دوتومين خان ثم ولده قيود خان ثم ولده بايسنقر ثم ولده تومنه خان ثم ولده قبل خان ثم ولده قوبله خان ثم أخوه بارتان بهادر ثم ولده يسوكي بهادر خان^(٣) وهو والد چنكزخان المشهور ابن يسوكي بهادر خان وهو أكبر أولاد بيسوكا وكان له أربعة بنين غيره وكان ولادة چنكزخان سنة ٥٤٩ في عشر ذي القعدة والطلع في الميزان والسبعة السيارة كلها مجتمعة في البرج المذكور سنة الخنزير على حساب الأتراك وحين ولد كان كفه ملآن من الدم فأخبر أهل الخبرة بأنه يكون سفاكًا ويملك أكثر ربع المسكون ويقهر أعداءه ويكون مظفرًا في الحروب وسماه أبوه تموچين^(٤)

(١) والحاصل أن هذه القصة وإن كانت في الظاهر خرافية إلا أن نقلتها كثيرة وقد ذكرت في تواريخ الصينيين بوجه آخر وأيدها البوذيون بتشبيها بقصة تولد رئيسهم بوذا من بنت باكرة على زعمهم وقد استوفى الكلام فيها عاصم نجيب أفندي في تاريخ ترك فراجع. منه عفي عنه.
(٢) وقال عاصم نجيب أفندي أنها كانت في العصر العاشر الميلادي وفي أوائل الهجري والله سبحانه أعلم قلت: ولما قيص الله سبحانه من يمهّد الملك لبني العباس هيأ في ذلك الحين من يهدم ملكهم بعد حين وهذا والله من عجائب الاتفاق ومصداق قول من قال من أهل الدراية بالاستحقاق شعر:

سرور الدهر مقرون بحزن فكن منه على وجل شديد
ففي يمناه كأس من لجين وفي يسراه قيد من حديد

(٣) واختلف في ضبط هذا اللفظ الأكثر على ما أثبتناه في الكتاب والثاني بالميم قبل الياء وفتح الكاف والثالث بالياء بدل الميم وفتح الكاف والرابع بيائين وفتح الكاف والصحيح هو الأول. منه عفي عنه.

(٤) لما كان لفظ تموچين من تيمرجي بمعنى الحداد زعم بعضهم أنه تيمرجي وكان أصله حدادًا ولهذا يسمى به وهم زعم باطل وقد ذكر في بعض التواريخ بعض أحوال أجداد چنكزخان المذكورين ونحن تركنا ذكرها لعدم مساعدة مجموعتنا هذه إياه وقد قيل إن قبل خان أعطاه =

باسم خان التتار الذي كان هلك في العام المذكور ولما بلغ عمر تموجين ثلاثة عشر مات أبوه بيسوكا بهادر وذلك سنة ٥٦٢ وفي تلك الأيام مات أيضًا سوغن چچن الذي كان مدبر أموره وعضد ملكه وعماد مملكته فاستضعف قبائل مغل تموجين ففترقوا من عنده شذر مذر ولم يبق لديه غير ما قل وندر فحدث بينهم الفتن والجداول وامتدت في تلك الناحية الحروب والقنال وتقلب بتمورچين الأحوال وجرعه الدهر أنواع الغصص والأهوال وصار أسيرًا مقيدًا محبوبًا مرات كثيرة وحيث إن الحق سبحانه أراد أن يظهر صفة قهره وجلاله للعالم بواسطته وأن يسفك دماء ألوف ألوف نفس بسيف سياسته ويقهر كثيرًا من الملوك والسلاطين الذين كانوا يقولون أنا لا غيري بشدة بأسه وصولته وغير ذلك من الأمور من الخير والشرور بسببه ساعده القدر ونجى من كيد من كاد ومكر من مكر وغلب على الكل أخيرًا وكسرهم^(١) وقهر وجمع كافة طوائف التتار وقبائل المغل إليه وأوقفهم لديه وأدخلهم تحت إطاغته وعرفهم بلياقته للرياسة وكفايته ولما غلب على أونك خان من قبيلة كرايت الذي كان في ذلك الوقت أكبر خوانين تركستان لقب نفسه على سبيل التمدح والافتخار بچنكزخان قيل لقبه به واحد من

= ملك الصين ألبسة فاخرة وتاجًا وسيفًا مذهبًا بعد صدور ما ينافي الأدب منه حين لعبت أم الخبائث بعقله في مجلس العشرة ثم تبدلت صداقتهما عداوة بسبب مقتضى إياه فابتدىء بينهما الحرب في حدود سنة ٥٢٩ هـ ودامت إلى مدة ووقائع يسوكي بهادر أكثر من الكل وقد ذكر طرف منها في تاريخ أبي الغازي وشيباني نامه وفي تاريخ عاصم أفندي أكثر مما فيهما فراجعه منه عفي عنه .

(١) والحاصل أن عمر چنكزخان قد مضى من أوله إلى آخره في المحاربة وأول من حاربهم تاجوت ومن تبعهم من قبائل الترك والتتار وذلك حين قصدوه لاستضعافهم إياه فانتصر عليهم ثم أونك خان من قبيلة كيرايت وولده سنكون حين قصدها بسبب إغراء جاموقه چچن إياهما عليه فانتصر عليهما أخيرًا ولم يكن وقتئذ أقوى منهما فاستقل بعده ثم تيانك خان من قبيلة نايمان فإنه لما رأى زيادة قوة چنكزخان وقتله أونك خان اتفق مع آاقوش تيكن الأونكوتي وقصدها فانتصر عليهما بعد وقائع عديدة ثم قبيلتا مركيت وتنقوت فإنهما كانا انضما إلى نايمان حين محاربتها إياه فانتصر عليهما ثم قصد بويرق خان النايماني وقتله ثم أطاعه طائفة قرغز وأويغور ثم حارب الخطا وقراخطا وچورچوت وكان له وقائع كثيرة مع ألتان خان الخطائي حربًا وصلحًا إلى أن مات ألتان خان بالتسمم ثم قتل كورچلو بن تيانك خان النايماني فبعد ذلك لم يبق له من يخالفه من الترك والتتار والمغل والخطا ووقع الأمر بعد ذلك بينه وبين خوارزمشاه والحاصل إذا لمعنا النظر في ماجريات چنكزخان نراه مدفوعًا ومجبورًا ومضطربًا إلى المدافعة والمحاربة وبعضهم حمل وقائعه على هوس الاستيلاء على العالم وجمع الأتراك تحت راية واحدة وهذا الفكر وإن وقع له في آخر عمره إلا أن الظاهر أنه لم يكن فيه الفكر المذكور في أوائل أمره والله سبحانه أعلم . منه عفي عنه .

رعاياه وكان يدعي الكهانة وعلم الغيب وقال له: إني أمرت أن ألقبك بچنكرخان ومعناه شهنشاه وملك الملوك وكان ذلك سنة ٥٩٩ الموافقة لسنة الخنزير وقد بلغ من العمر ٤٩ سنة وهذا العام هو مبدأ استقلاله ثم غلب بعد ذلك على ممالك خطا وقد كان خوارزم شاه أضعفهم وكسر شوكتهم وغلب أيضًا على ممالك الصين حتى لم يبق من ينازعه في الملك أو يخالف أمره في ذلك الصقع واستولت هيئته على القلوب وانتشرت صيت تسلطه وشدة بأسه إلى الآفاق والشعوب وكان فراغه من إخضاع الممالك وتصفية الأمور بتلك الحروب سنة ٦١١ موافقًا لسنة الخنزير أيضًا.

ذكر سبب خروجه إلى بلاد الإسلام وتخريبه البلاد وقته العباد بالقتل العام من أهل الكفر والإسلام

لا يخفى أن الحق سبحانه مع كونه فعالاً لما يريد لا يسأل عما يفعل جعل إجراء أحكامه وإظهار قدرته في عالم الأسباب مربوطاً بشيء من الأسباب الظاهرة ومنوطاً بصدور أمر من طرف العباد ليكون ذلك حجة وليجعله حجاً على وجه قدرته وستر السر حكيمته ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقَوْمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: الآية ١١] وقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ١٦] ومن أمعن النظر في تواريخ الأمم لا يجد دولة من الدول المنقرضة إلا يجد سبباً أو أسباباً لانقراضها من جهة أهلها وأربابها وأركانها مثل كفران النعم وارتكاب الظلم والفسق والفجور والتهاون بأحكام الشريعة واحتقار شعائر الله تعالى التي أمر الله سبحانه بتعظيمها مثل إهانة العلم وأهله وأهل الله تعالى وإضاعة الحقوق والأمانات لصرف المناصب الدينية والملية عن أهلها إلى غيره والإهمال والغفلة عن أحوال الرعايا وغير ذلك مما لا يكاد يحصر وأشدّه ظلم البرايا وإهمال أحوال الرعايا والمنازعة والشقاق وترك التعاون والوفاق كما ورد وإذا ظلم المسلمون بعضهم بعضاً فالدولة للكفر وقيل الملك يدوم بالكفر ولا يدوم بالظلم وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وقال: ﴿وَلَا تَسْرَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِعَايَتُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] أي قيمتكم وبهاؤكم ومهابتكم من قلوب الكفار والظلم أنواع أشدها وأقبحها وأسرعها تأثيراً في زوال الملك إهانة أهل الله وأهل العلم كيف لا وقد قال الله سبحانه: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(١) وفي رواية:

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في الفتن باب ١٦.

«فقد آذنته بالمحاربة»^(١) ومن حاربتة صرعتة وهذا وعيد ليس فوكة وعيد ولا يمكن عليه المزيد.

فإذا أحطت بذلك فاعلم أن العلماء والمؤرخين ذكروا لخروجه أسباباً بعضها ظاهر وبعضها خفي فها أنا أذكر ما وقفت عليه في كتب أهل الكمال على سبيل الإجمال بعون الله المتعال.

قال مولانا العارف الجامي^(٢) قدس سره السامي في كتابه نفحات الأنس في ترجمة الشيخ مجد الدين البغدادي مريد الشيخ نجم الدين البكري قدس سرهما أن ترکان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه^(٣) كانت تحضر مجلس وعظ الشيخ مجد الدين البغدادي وكان ذلك لا يلائم طبع بعض أرباب الغرض وكانوا ينتهزون الفرصة لتبليغ ذلك خوارزمشاه في طرز آخر بإفراغه في قالب التهمة والافتراء فلما استولى يوماً من الأيام سلطنة الصهباء على كرسي عقله وشعوره لما أنه كان اعتاده في أواخر سلطنته اغتتموا ذلك وقالوا له: إن أمك قد زوجت نفسها من الشيخ مجد الدين البغدادي على مذهب الإمام أبي حنيفة يعني من غير ولي فطار عقله من سماع هذا الكلام وقال بلا توقف ارموه في البحر لما أنه أتى بما يشيننا بين الأنام فرموه حالاً في جيحون فغرق في رحمة الله تعالى فلما بلغ خبره الشيخ نجم الدين الكبري قدس سره قال فرزند مجد الدين رادر أب أندنا ختندومرد ثم خر ساجداً لله تعالى وبقي في السجدة زماناً طويلاً فلما رفع رأسه قال: الحمد لله فسأل بعض الحاضرين عن سبب سجده وقوله بعد ذلك: الحمد لله فقال: طلبت من الحق سبحانه دية ولدي مجد الدين فأعطانيه فحمدته لذلك، فقيل: وما ديته قال: ملك خوارزمشاه فبلغوا ذلك خوارزمشاه وقد أفاق في ذلك الوقت وصحا وذكره بما جرى وقت نشوته من القسوة فدهش من استماع هذا الخبر ولم يدر بأي شيء يزيل عن

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الرقاق باب ٣٨.

(٢) الجامي: هو عبد الرحمن بن نظام الدين أحمد الغلامي، نور الدين الجامي، شيخ الإسلام الهروي، الأديب الصوفي، ولد سنة ٨١٧ هـ، وتوفي سنة ٨٩٨ هـ، له من الكتب: «أشعة اللمعات في شرح لمعات العراقي»، «تاريخ هراة»، «تفسير القرآن»، «ديوان شعره»، «رسالة في سلسلة النقشبندية»، «سلسلة الذهب في ذم الروافض»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «مناسك الحج»، «مناقب الشيخ جلال الدين الرومي»، «نفحات الأنس من حضرات القدس» في طبقات المشايخ، وغير ذلك الكثير (كشف الظنون ٥/٥٣٤).

(٣) والظاهر أنها ليست بأمة حقيقة بل كانت زوجة أبيه فقيل لها إنها أمه مجازاً. منه عفي عنه.

خاطر الشيخ الكدر ثم ملاً طشتت بالعسجد ووضع السيف القاطع والكفن فوقه ثم وضع الطشتت فوق رأسه حاسراً وحضر حضور الشيخ بالتذلل والانكسار حافياً بالمسجد ووقف في صف النعال وقال للشيخ بالتضرع والابتهاال: أخطأت يا سيدي إن كنت تطلب الدية فهذا هو الذهب وإن كنت تطلب القصاص فهذا هو السيف وهذا الكفن وهذا الرأس وما لي من هذا الباب مذهب فقال الشيخ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ديته جميع الملك ويذهب فيه رأسك ورؤوس كثير من الأكابر والأعيان ونحن أيضاً على أثرك فرجع خوارزمشاه خائباً مكسور البال وتيقن بحلول البلاء وتقلب الأحوال فلم يلبث بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج چنكزخان وجرى ما جرى .

وَحُكِّيَ أَيضًا أَنَّ مَوْلَانَا بَهَاءَ الدِّينِ الْبَلْخِي^(١) وَالِدَ مَوْلَانَا جَلَالِ الدِّينِ الرَّومِي^(٢) صَاحِبِ الْمَثْنَوِي كَانَ ابْنَ أُخْتِ خَوَارِزْمِشَاهِ وَكَانَ مَرِيدُوهُ وَأَتْبَاعُهُ لَا يَحْصُونَ كَثْرَةً وَكَانَ الْعَلَامَةُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي^(٣) يَحْسُدُهُ عَلَى ذَلِكَ عَلَى مَا هُوَ الْعَادَةُ الْمُسْتَمْرَةُ بَيْنَ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ وَعُلَمَاءِ الظَّاهِرِ . فَقَالَ يَوْمًا لَخَوَارِزْمِشَاهِ إِنَّ فِيكَ اسْمَ السُّلْطَنَةِ فَقَطْ وَإِنَّكَ حَارِسُ الْخَزِينَةِ وَأَمَّا السُّلْطَنَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فَلِبَهَاءِ الدِّينِ فَلَوْ أَرَادَ بَهَاءُ الدِّينِ أَنْ يَنْتَزِعَ الْمَلِكَ عَنْكَ لَانْتَزَعَهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ خَوَارِزْمِشَاهُ كَثِيرَ التَّوَهُّمِ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ هَذَا الْكَلَامَ أَثَّرَ فِيهِ وَقَوِيَ تَوْهَمُهُ فَأَرْسَلَ قَاصِدًا إِلَى مَوْلَانَا بَهَاءِ الدِّينِ يَقُولُ لَهُ: لِيَتَفَضَّلْ مَوْلَانَا عَلَيْنَا بِاسْتِلامِ الْمَلِكِ مِنَّا وَالْجُلُوسِ مَكَانِنَا فَفَهَمَ مَوْلَانَا الْمَقْصُودَ وَقَالَ: مَرْحَبًا مَا مَيْرُومَ لِيَكُنْ بِجَايِ مَادِيكَرَانَ مِي آيندُو خَوَارِزْمِشَاهِ رَاهِمِ دَرِنَجَانِكْذَرَنْدِ يَعْنِي نَحْنُ نَذْهَبُ وَلَكِنْ يَجِيءُ مَكَانِنَا قَوْمٌ آخَرُونَ وَلَا يَتْرَكُونَ خَوَارِزْمِشَاهَ أَيضًا هُنَا فَمَخْرَجَ مَعَ أَهْلِهِ

(١) بهاء الدين البلخي: هو الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن أحمد بن محمود بن مودود الخوارزمي النهري، نزيل قونية، المعروف بسلطان العلماء، كان فاضلاً صوفياً، وهو والد جلال الدين الرومي، توفي بقونية سنة ٦١٨ هـ، من تصانيفه: «الأسرار الروحية»، «مشرق الشمسين» في التصوف والأخلاق، «المعارف الولدي في أسرار الأحدي» فارسي. (كشف الظنون ٦/١١٠).

(٢) جلال الدين الرومي: هو محمد بن بهاء الدين سلطان العلماء محمد بن الحسين بن أحمد البكري البلخي ثم القونوي، مولانا جلال الدين الرومي، ولد ببلخ سنة ٦٠٤ هـ، وتوفي بقونية سنة ٦٧٢ هـ. تقدمت ترجمته الروافية.

(٣) فخر الدين الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الرازي، فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه، ولد بالري سنة ٥٤٣ هـ، وتوفي بهراة سنة ٦٠٦ هـ. له العشرات من المصنفات (انظر كشف الظنون ٦/١٠٧).

وعياله ومتعلقاته وأتباعه إلى الروم واستوطن بقونية وأكرمه سلطانها علاء الدين السلجوقي غاية الإكرام وأشار مولانا جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي إلى هذا الحال حيث قال شعر:

هيج قومي راخدا رسوانکرد تادل صاحب دلي نايد بدرد

يعني أن الحق سبحانه لا يفضح أحدًا ولا يهتك ستره حتى يتأذى قلب صاحب القلب وهذان من الأسباب الخفية التي هي كالمبادئ للأسباب الظاهرة وهي كالمرتبة عليها.

فمنها ما ذكره في روضة الصفا حيث قال: إن خوارزمشاه لما أظهر المخالفة للخليفة الناصر لدين الله وحاربه وأراد خلعه أرسل الناصر^(١) إلى چنكز خان يحرضه على الخروج على خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك إشغال خوارزمشاه عن نفسه وكسر شوكته وكلما منعه العقلاء عن ذلك وخوفوه بوخامة عاقبته لم يفد شيئًا ولم يسمع كلام أحد فكان بذلك كالباحث بظلفه عن حتفه ومظهرًا لقول القائل من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه حيث صار سببًا لخراب مملكته وانقطاع الخلافة من ذريته.

أورد في روضة الصفا بعد ذكره هذا حكاية مناسبة لذلك وهي أن ثلاثة من الزهاد والعباد كانوا يمشون على طريق فوصلوا إلى محل فيه عظام بالية فقال كل منهم ليت شعري عظام أي حيوان هذه فاتفقوا على أن يدعو الله سبحانه ليحييها فاجتمعت العظام بدعاء واحد منهم وكسيت لحمًا وعروفاً بدعاء الثاني منهم ونفخت الروح فيها بدعاء الثالث وقامت أسدًا قويًا عظيم الهيكل مهيب الشكل فأهلك كلاً منهم ومزقهم تمزيقًا وأكلهم^(٢) اه، وكلام الخليفة وإن كان له تأثير في قلب چنكزخان ووسوس الشيطان في صدره بنزع الملك من خوارزمشاه ولكن لما كان بينه وبين خوارزمشاه معاهدة ومصالحة لم يسمح نفسه أن ينقض العهد واستقبحة ولم يقبل قول الخليفة أصلاً ولم يلتفت إليه قطعاً إلى أن وقع من غاير خان في حق چنكزخان من الغدر

(١) قال المؤرخون في كيفية إرساله أنه أمر بحلق شعر رأس شخص ثم كتب على رأسه بالنيل رسالته إلى چنكزخان وجعل الشخص المذكور في زي درويش فأرسله وذلك خوفاً من وقوع

كتابه بيد الخوارزم شاهيين فإن الطريق إنما هو من بلادهم. منه عفي عنه.

(٢) وقد صار فعل الناصر المدني مثل ذلك بعينه فأى معنى في لعن چنكزخان بعد ذلك أليس المستحق للعن هؤلاء المسببون. منه عفي عنه.

الذي لا يليق بمن فيه إسلامية بل لا يصدر ممن له أدنى إنسانية وهو الثاني من الأسباب الظاهرة وهو أقرب الأسباب.

وبيانه أن چنكزخان لما فرغ من استخلاص جميع ممالك التركستان بحروب كثيرة في مدة مديدة ولم يبق هناك من ينازعه من الرجال وصفا له الوقت والحال واجتمع عنده كثير من الأموال أراد أن يستريح من متاعب الحروب وأن يقضي بقية عمره باللهو واللعب وأن يعمر البلدان ويرفه الرعايا ببث العدل بينهم والأمان وبذل الإنعام والإحسان وجلب التجار من سائر الأقطار وكان قد سئم من الحروب المتتابعة في الأزمنة المتطاولة وكان يهرب عنه بأقصى جهده ويميل إلى جانب الصلح مهما أمكنه ولو ببذل موجوده خصوصاً مع خوارزمشاه فإن بلاده كانت أقرب إليه من سائر البلاد وهيته قد تمكنت في قلوب العباد وعساكره قد ملأت السهل والوهاد وهو مع ذلك يحب المسلمين ويعظم شعائر الدين فأرسل في حدود سنة ٦١٢ رسلاً إلى خوارزمشاه يطلب منه المعاهدة والمهادنة والمواددة والمخادنة وتردد التجار والزوار من الجانبين وأرسل إليه هدايا عالية وتحفًا سامية وهم أعني السفراء محمود يلواج الخوارزمي وعلي خواجه البخاري ويوسف الأنزاري فلما تمثلوا بين يديه وبلغوا الرسالة إليه وقدموا الهدايا المرسله وعرضوها عليه قبل ملتسمه بعد اللتيا والتي بتدبير محمود يلواج ومهارته في معرفة أساليب الكلام وإيراده إياه على وجه يقبله جميع الأنام فرجعوا إلى چنكزخان مقضيي المرام وحكوا له جميع ما شاهدوه وسمعوه وقبوله المعاهدة والمواددة فاستبشر به چنكزخان غاية الاستبشار وصمم أن لا ينقض العهد أبدًا ما لم ينقضه خوارزمشاه ولو أحرق بالنار ولهذا كان لا يصغي إلى كلام الخليفة أصلاً كما مر آنفاً.

ومر على ذلك مدة ثلاث سنين والتجار والزوار مترددون في أثناء تلك المدة فيما بين هاتيك الديار آمين مطمئنين إلى أن بدل خوارزمشاه نعمة الله كفرًا وأحل قومه دار البوار وتسبب لخراب الديار حيث ارتكب ما لا يرتكبه أحسن الكفار وذلك أن جماعة عظيمة من تجار بلاد چنكزخان قدموا سنة ٦١٥ إلى أترار وهي بلده بشجر ممالك خوارزمشاه من طرف ممالك چنكزخان بساحل نهر سيحون الشهير بسير دريا وبها وال من طرف خوارزمشاه كان أولاً يسمى اينالچق وله قرابة لخوارزمشاه ثم لقبه بغاير خان ومنع من تسميته باسمه الأول فلما ورد هؤلاء التجار إلى أترار وهم زهاء أربعمائة نفس ومعهم أموال جسيمة نفيسة وكان بعضهم يعرف غاير خان أولاً فخطبه باسمه الأول لعدم علمه بالمنع عنه غضب غاير خان لذلك وانضم إلى ذلك تسويلاته

النفسانية له من الطمع في أموالهم هنالك فأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه وهو حينئذ بالعراق قد رجع من حرب الخليفة بنية الرجوع إليه في الربيع الآتي يخبره أن جواسيس چنكز خان قد قدموا على هذه الديار في زي التجار فماذا تقول في أمرهم وماذا تستحسنه فيهم من الآراء والأفكار، وحيث إن زوال ملكه كان قريباً أمره بلا تردد ولا تفكر بقبضهم وقتلهم جميعاً فاغتنم الوالي الخائن ذلك لأنه كان أقصى مرامه فيما هنالك فقتلهم عن آخرهم وأخذ أموالهم كلها فلم ينج منهم غير واحد فرجع هذا الناجي إلى چنكز خان وأخبره بالحالة الواقعة فأرسل چنكز خان قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره بصورة الحال ويطلب منه غاير خان الغادر ليقصص منه فقتل خوارزمشاه القاصد أيضاً وذلك لما أراد الله زوال ملكه ولنعم ما قيل شعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

فلما سمع چنكز خان قتل سفيره أيضاً فوق تلك الحادثة استشاط غضباً وتيقن أن خوارزمشاه لم يترك مجالاً للصالح فصمم على قصده وحره فخرج أولاً إلى فضاء وصعد فوق تل مرتفع هناك وكشف رأسه ووضع خده على التراب وتضرع إلى الله تعالى وطلب منه سبحانه النصرة واعتذر بأنه مضطر ومجبور في تلك الحركة لكونه هو المجني عليه مراراً ولكون أخذ ثأر رعاياه واجباً على ذمته ودام على ذلك ثلاثة أيام حتى سمع صوت هاتف دال على نصرته وغلبته وهذا كان دائماً فنزل من التل وأمر بإحضار العساكر متيقناً بالفوز والظفر وأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره بقصده فوقع بينهما ما هو مسطور في كتب التواريخ^(١) إجمالاً وتفصيلاً فلا نطيل بذكره هذا المختصر وهذا هو أولية التتار ومغل ومنشأهم وأصلهم وفصلهم وإنما اشتهروا بالتتار مع أن الملوك حين اشتهارهم وغلبتهم من المغل لكثرتهم واشتهارهم أولاً قبل غلبة المغل.

(١) والله در ياقوت الحموي حيث أنشد من لسان خوارزمشاه سامحه الله تعالى أشعار:

قتلت صنديد الرجال ولم أذر	عدوا ولم أترك على حسد خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع	وشردتهم غربا وبددتهم شرقا
فلما لمست النجم عزاً ومنعة	وصارت رقاب الناس لي جمع أرقا
أتاني سهام الغيب أحمد جمرتي	فها أنا ذا في خفرتي مفرد أملقا
ولم يغن عني ما صنعت ولم أجد	لدى قابض الأرواح من أحد رفقا
وافسدت دنياي ودينني جهالة	فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى

تنبيه مهم: قال أبو الفرج الملطي^(١) في تاريخه مختصر الدول بعد ما ذكر صعود چنكزخان فوق التل ودعائه ثلاثة أيام ما نصه: وفي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد وبيده عكازة وهو قائم على بابه يقول له: لا تخف افعل ما شئت فإنك مؤيد فانتبه مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح وعاد إلى منزله وحكى حلمه لزوجته وهي ابنة أونك خان فقالت له: هذا زيّ أسقف كان يتردد إلى أبي ويدعو له ومجيئه إليك دليل انتقال السعادة إليك فسأل چنكزخان من في خدمته من نصارى الايغور هل ههنا أحد من الأساقفة فقبل له عن (ماردنحا)^(٢) فلما طلبه ودخل عليه بالبيرون الأسود قال هذا زيّ من رأيت في منامي لكن شخصه ليس ذلك فقال الأسقف يكون الخان قد رأى ببعض قدسينا ومن ذلك الوقت صار چنكزخان يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم انتهى بحروفه.

وقال قبل ذلك في بيان أولية چنكزخان وفيها (يعني سنة ٦٩٩) وهي سنة ألف وخمسمائة وأربع عشرة للأسكندر كان ابتداء دولة المغل وذلك أن في هذا الزمان كان المستولي على قبائل الترك: المشاركة أونك خان وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كرايت وهي طائفة تدين بدين النصرانية اهـ. ما هو المقصود بحروفه أيضاً.

[الرّد على أبي الفرج الملطي]

قلت لا شك في كذب قوله في الفصلين وكذبه غني عن البيان غير محتاج إلى الاستدلال عليه ولكن لما كان المذكور من المشاهير وقوله مقبولاً عند البعض من الأكابر والأصاغر خصوصاً عند طائفة النصارى لكونه نصرانياً خصوصاً في مثل هذا الأمر الذي يتوهم فيه حصول أدنى رواج لدينهم فإنهم يقبلونه في أول وهلة من غير أن ينظروا إلى صحته وعدمها لا بأس ببيان بعض ما فيه لعل ينتفع به طالب الحق السالم من التعصب والتعسف. فأقول وبالله التوفيق ويده أزمة التحقيق: أما كذب قوله

(١) أبو الفرج الملطي: هو غريغوريوس بن حكيم، أبو الفرج الملطي المؤرخ، المعروف بابن العبري، رئيس أساقفة اليعقوبية في بر الشام، كان أديباً طبيباً، ولد سنة ٦٣٤ هـ، وتوفي سنة ٦٨٥ هـ، من تصانيفه: «تاريخ الدول الكبير» بلسان السريانية، «تفسير إيساغوجي» في المنطق، «شرح القانون لابن سينا» في الطب، «مختصر تاريخ الدول» عربي. (كشف الظنون ٨١٢/٥).

(٢) اسم شخص من مخترعات طائفة النصارى ومن منحوت أوهامهم. منه غني عنه.

الأول: أعني ادعاءه ظهور الأسقف لچنكز خان في منامه فيبانه أن الأمور التاريخية موقوفة على النقل لا سبيل إليه للعقل فلا شك أن أبا الفرج إنما نقل تاريخه من غيره والتواريخ التي ذكرت فيها أحوال مغل وچنكز خان وأولاده كثيرة جدًا حتى أن التواريخ المؤلفة لأجلهم فقط ينوف على مجلدات كثيرة ولم يذكر أحد منهم ما ذكره أبو الفرج فلو كان صحيحًا مطابقًا للواقع لذكره في تواريخهم أو ذكره بعضهم وحيث لم يوجد في واحد منها بان كذبه وأنه من مخترعاتهم .

وثانيًا: قوله حكاه لزوجته وهي ابنة أونك خان غلط فإن الذين اعتنوا بضبط أحوال چنكزخان لم يذكروا في تعداد أزواجه ابنة أونك خان وإنما ذكروا له خمسة أزواج مشهورة كبار صاحبات الاعتبار وليست واحدة منهن ابنة أونك خان^(١) والبقية من أزواجه ليس لهن اعتبار بل هن مثل الجوارى بل أحسن منهن في رسم المغل وإنما فائدتهن التمتع بهن فبعيد أن يشاورهن مثل چنكز خان ويرجع إلى قولهن سيما في مثل هذه الأمور الكبار .

وثالثًا: إن قوله الأول يشعر بأن أونك خان من قبيلة إيغور وأنهم نصارى وقوله الثاني صريح في أنه من قبيلة كيراييت وأنهم نصارى فبينهما تناقض ظاهر والحق إن أونك خان من قبيلة كيراييت وأنه كان ملكهم ولكن قوله إنهم كانوا يدينون بدين النصرانية كذب محض لا أصل له ولا حقيقة بل هو مخترعات النصارى بل الحق والصواب أن قبائل المغل وأكثر قبائل التتار بل أكثر قبائل الترك الكائنين في تلك الناحية كانوا في ذلك الوقت غير متدينين بدين من الأديان سيما النصرانية فإنهم كانوا لا يعرفونها قطعًا لعدم اختلاطهم بهم لعدم الاتصال بين ممالكهم، وقد اغتر بأقوال هؤلاء الدجالين الكذابين بعض مؤرخي الإسلام من المتأخرين وقالوا بوجود النصرانية فيهم ولم يدروا أن جل بضاعتهم هو نشر الأباطيل لترويج النصرانية ولتكليف الضعفاء وإجبارهم على التنصر تمسكًا بأنهم كانوا أولاً من النصارى فلو استحكمت النصرانية فيهم على حد ما ادعوه لانتشرت النصرانية بين التتار حين بعث البابا بعوثًا متعددة في أوائل ظهور التتار لأجل الغرض المذكور كما

(١) أما زوجته الأولى التي تزوجها في شبابه وهي أم أولاده وصاحبة البيت ومالكته التي يقال لها في اصطلاح قدماء الأتراك وعن القزاق إلى الآن باي بيچه فهي بورته فوجين ابنة داي سچن رئيس قبيلة قونكرات والثانية كنجو ابنة الثان خان الخطائي والثانية كوي سو زوجة تايانك خان التايماي والرابعة والخامسة ميسولون ويسوكان كلاهما ابنتا واحد من قبيلة التتار هكذا ذكره في شيباني نامه وشجرة الترك . منه عفي عنه .

سيجيء ولكن لم ينقل عنهم أحد أن البعث المذكور أنتج في الغرض المذكور أدنى نتيجة فتنه.

وأما الإسلام فإنهم كانوا يعرفونه ويعرفون أهله ويعظمونهم وكان في بلاده نفوس كثيرة من المسلمين وكان التجار المقتولون في اترار ظلماً كلهم مسلمين كما قدمنا وكان المغل والتتار بحيث لو وجد في ذلك الوقت من يدلهم على الإسلام ويرشدهم إلى الإيمان بحسن الإرشاد وأظهروا محاسنه فعلاً وقولاً لأسلموا عن آخرهم وآمنوا بأسرهم وإنما بقوا على الكفر مدة لعدم من يدلهم ويرشدهم إلى طريق الحق ويجلبهم إليه بإظهار مزاياه بل كان يصدر من رؤساء أهل الإسلام ما ينفرهم عن الإسلام وأهله كما مر من معاملة خوارزمشاه معهم فضلاً عن إظهار محاسنه ولهذا أسلموا عن آخرهم لما استولوا على بلاد المسلمين وغلبوهم على ممالكهم على خلاف العادة فإن العادة أن يقلد المغلوب الغالب في جميع شؤونه كما هو مشهود إلى الآن وذلك لارتفاع المانع ولاطلاعهم على محاسن الإسلام ولقد اختلف في إيمان چنكزخان كما سنذكره عن قريب إن شاء الله وأما حبه وحب أولاده الإسلام وأهله وتقديمهم وترجيحهم إياهم سائر الملل فمما لا يرتاب فيه من له أدنى إمام بتواريخهم فقلوه فمن ذلك الوقت صار يميل إلى الخ كذب صريح ومصنوع صرف.

وقوله في أونك خان وهو المسمى ملك يوحنا فمما يقضي منه غاية العجب فإن هذا الملك يوحنا في تلك الناحية من عجيب مخترعات طائفة النصارى من أهل أوروبا ولهم فيه آراء مختلفة وأقوال مختلفة وحكايات مزخرفة وقصص متناقضة فتارة يجعلونه في تلك الناحية وتارة يثبتونه في بلاد الهند وتارة يملكونه ممالك الحبشة وتارة يجعلونه في زمن چنكز خان وتارة يجعلونه في زمن أولاده وأحفاده فصاروا بذلك مضحكة لأهل ملتهم الذين تخلصوا من ربة تقليد القسيسين الرهابين وصرخوا أنظارهم إلى كشف الحقائق على الوجه اليقين فضلاً عن غيرهم كما أفصح عن ذلك رفاة بك في الجلد الأول من ترجمته لجغرافيا ملطبرون الفرانساوي من شاء فليراجعه.

ولنرجع الآن إلى بيان أحوال چنكز خان فنقول: إنه فرغ من الاستيلاء على ممالك خوارزمشاه وفعل فيها ما فعل مدة سبع سنين عزم على الرجوع إلى بلاده واجتاز في رجوعه ببخارى فقال لصدر جهان أعني القاضي القضاة وشيخ الإسلام أرسل إلى من له معرفة تامة بشريعتكم فأرسل إليه القاضي أشرف وواحدًا من الوعاظ

فسألهما عن الإسلام وحقيقته فذكرا له الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج فاستحسن الجميع وصدق إلا أنه قال في الحج كما ذكر له بيت الله أن جميع الدنيا بيت الله وبيته لا يختص بمكان دون مكان ولكن لما كانت تلك البلاد قحلة أمر الله الأغنياء بالذهاب هناك ويتصدقوا على الفقراء القاطنين بها لطفًا منه تعالى بهم. ولما رجعا من عنده إلى صدر جهان حكم القاضي شرف بإسلامه وحكم الواعظ بكفره قائلاً بأنه أنكر الحج الذي هو أحد أركان الإسلام. وأنت خبير بأنه لو صحت هذه الحكاية لا شك في إيمانه لأنه لم ينكر الحج وإنما بين بزعمه حكمة فرضيته وتشريعه تعالى إياه لعباده وهو ليس بإنكار والله أعلم بسرائر عبادته. وكان المغل والتتار في ذلك الوقت غير متدينين بدين من الأديان ولم يكونوا يعبدون الأوثان والأصنام ولكن كانوا يعرفون الله سبحانه بالفطرة ويوحدونه ويتقربون إليه تعالى بمقتضى الظنون والأوهام وبعض تلك الأمور الوهمية باقية إلى الآن في بلاد قزاق. وما قيل في بعض التواريخ أنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس والأصنام غير صحيح سيما القول بعبادة الأصنام والأوثان فإن عقول الأتراك أعلى من أن يعبدوا شيئًا صنعوه بأيديهم حتى اضطر بعضهم إلى القول بأن التوحيد فيهم من مقتضى طبيعة أراضهم وإن كان هذا القول خطايا في حد ذاته كما مر كل ذلك مستوفى.

واختلف أيضًا في مقدار عسكر چنكز خان حين استيلائه على تلك البلدان فمن مفرط ومقل ومن مفرط مكثر والصحيح أن عسكره لم ينقص من مائة ألف مع كمال الانتظام الذي لم يكن في غيره من الدول في ذلك الوقت بل كانوا أشد انتظامًا من عساكر دول هذا الزمان مع انتخابه الضباط والقواد من الشجعان أهل التجربة والتدبير بعد طول الامتحان وشدة حكمهم فيمن يصدر منه أدنى مساهلة في إجراء مأموريته. والحاصل إن جميع أسباب الظفر الظاهرية كانت موجودة فيه حتى أنه سئل صدر جهان ببخارى حين رجوعه أن خوارزمشاه هل كان يأخذ العوائد الميرية من العلماء فلما أجابه بنعم قال كيف يرجو النصر والظفر بهذه المعاملة فإن النصر موقوفة على الدعاء والدعاء يقتضي النشاط وفراغ البال بل الإحسان والإنعام. ثم أمر نوابه بأن لا يأخذوا العوائد الميرية من العلماء بل من كافة أهل العلم والتمس منهم الدعاء وسار إلى بلده.

[وصية چنكزخان لأولاده]

ولما استقر بوطنه الأصلي جمع أولاده وإخوانه وأقربائه وأعيان مملكته وأركان دولته فوصاهم بوصايا كثيرة وأمرهم بالاتحاد والاتفاق وحذرهم من المخالفة والمنازعة

والنفاق والشقاق ولا سيما عن مخالفة قانونه ونظامه الذي اخترعه من قبل نفسه في ضبط الأمور يقال له يسا أو يسق وأخرج سهمًا من كنانته وأمر بكسره فكسر ثم اثنين فكسرا ثم الثلاثة ثم الأربعة كذلك ثم أعطى كفاً واحداً منها فلم يقدروا على كسره ثم قال هذا مثلكم إن اختلفتم وانفردتم يكسرکم العدو واحداً بعد واحد حتى يستأصلکم وإن اجتمعتم فلا يقدر أن يكسرکم بل أنتم تغلبون ووصاهم أيضاً بأن يقدموا أرباب الشجاعة والنجدة وأن يولوهم على العساكر وأن يقلدوا المناصب أهلها وأربابها وأكد عليهم في ذلك ووصاهم بوصايا كثيرة غير ذلك.

وكان له من أزواجه وجواريه كثير من الأولاد الذكور والأناث حتى قيل: إن عددهم بلغ الأربعين ولكن كان المعبر عنده والمستحق للملك بعده على رسم التتار والمغل أربعة بنين من أكبر أزواجه بورنه قوجين ويقال لأكبر الأزواج في رسمهم باي بيچه يعني صاحبة البيت ويكون المستحق للميراث أولادها فقط دون غير وهذا الرسم باق إلى الآن في بعض قبائل قزان وأكبر هؤلاء الأربعة الأولاد جوجي^(١) ثم چغطاي ثم تولي ثم أوكداي فقسم ممالكة بين هؤلاء الأربعة فشدت قيقق بأسرها وبلاد الداغستاني وخوارزم وبلغار وسقسين والروس وما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر المحيط الغربي من طرف الغرب لولده الأكبر جوجي خان - وبلاد إيغور والترستان وما وراء النهر بأسرها لولده الثاني چغطاي - وخراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولي خان وهو أبو منكو قآن وهلاكو وبلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة من طرف الشرق لولده الرابع أوكداي قآن. وجعله ولي عهده من بعده ونصبه قآنًا على الكل ومعنى القآن ملك الملوك وهو بمنزلة الخليفة عند المسلمين ودونه القان ودونه الخان كذا قال البعض والظن الغالب أن القآن محرف خاقان أو الخاقان معرب قآن والقان مع الخان كذلك وأمر الباقيين بمتابعته وكذا كل من يصير قآنًا من ذريته يجب على الباقيين إطاعته واتباعه ومن خالفه يجب على الباقيين محاربتة ومقاتلته حتى يفيء إلى يساق چنكز خان وامتد هذا الأمر مدة ولاية أوكداي قآن ومنكو قآن وبعد أن تولى قپلاي قآن خالفه^(٢) برکه خان ونبذ قانون چنكز خان وراء ظهره فلم يجر على وفقه

(١) ويقال له في العربية طوشي ودوشي. منه عفي عنه.

(٢) أي ابتداء فلا يرد ما سيحيى من المناوشة بين كيوك قآن وباتو خان فإن المخالفة هناك من طرف كيوك قآن لا من طرف باتو كما سيذكر إن شاء الله. منه عفي عنه.

من ذلك الوقت، ثم تابعه في ذلك بعده أخلافه وذلك لتشرفهم بشرافة الإيمان والإسلام. ثم تتابعت المخالفة بينهم في جميع الشعوب لانصباعهم بصيغ الإيمان والإسلام بمشية الله وهدايته.

فلما فرغ چنكز خان من وصاياه أجاب داعي الحق على رغم منه وذلك سنة ٦٢٤ لأربع ليلة مضت من رمضان في سنة الخنزير بحساب الأتراك وكانت مدة عمره سنة ٧٣ ومدة سلطته بالاستقلال ٢٠ سنة.

أوكداي قآن: ولما مضى من موت چنكز خان سنتان اجتمع أولاده وأحفاده وإخوانه وسائر أعيان بلاده وأمراء مملكته في قراقورم وأجلسوا أوكداي قآن على سرير القآنية بموجب وصية چنكز خان فاستمر على القآنية^(١) إلى أن مات سنة ٦٤٣ وكان ملكًا عادلاً شهماً محباً للمسلمين وكان مثل آبائه عارياً عن حلية الدين وقد أطنب المير آخوند في تعداد محاسنه فلا حاجة بنا إلى ذكرها.

كيوك قآن: جلس بعد سنة من موت أبيه أوكداي على كرسي القآنية بوصية منه وتنصر مع شزيمة من بطانته بدلالة أتاكه قداق خان ولم تطل مدته بل مات بعد سنة من جلوسه وسيجيء واقعته مع باتو خان ابن عمه جوجي خان في ترجمة باتو خان إن شاء الله. وبموته سلبت القآنية من ذرية أوكداي وانتقلت إلى ذرية تولي خان ثم انتقل حكومة ما وراء النهر من أولاد چغطاي إلى أولاد أوكداي بمرور الزمان وتداولتها عدة خوانين منها وآخر من مات منهم هناك السلطان محمود خان ابن سيورغتمش خان وهو الذي أسر السلطان الغازي يلدرم بايزيد خان في وقعة تيمرلنك بأنقرة ومات هناك في العام المذكور أعني سنة ٨٠٥ قيل قتله تيمر والله أعلم.

ولم اطلع على أول من أسلم منهم إلا أن قيدوا بن قاشين بن أوكداي كان يوالي المسلمين كثيرًا خصوصًا بركة خان وبواسطته لم تنقطع مراسلته مع الملك الظاهر بيبرس وسائر ملوك مصر بعده إلى أن توفي سنة ٧٠٩ وقيل سنة ٧٠٢ وهو الأصح وكان المذكور عضد بركة خان ومن بعده من ملوك سراي في محاربتهم بني هلاكو وتنكيلهم إياهم.

(١) وفي أيام سلطنة أوكداي ومن بعده من أولاد چنكزخان مثل منگو قآن وقبلاي قآن انتشر الإسلام في ممالك الصين قاطبة ودامت قطعة الصين في تصرفهم إلى سنة ٧٦٩ والجوامع الموجودة الآن في بيكين وغيرها من دواخل الصين إنما بنيت في عمرهم وطائفة دونكان من الذين أسلموا من أهل الصين في تلك المدة. منه عفي عنه.

قال في روضة الصفا إنه كان يحب العلماء ويباحث الحكماء وكان لا يشرب القمز ولا الشراب وكان ذا ذهن نقاد وطبع وقاد وكان يقوم قبل طلوع الفجر ويقعد مطرقاً رأسه متفكراً على هيئة المراقبة وأسند مولانا زين الدين الذي كان ملازماً له هذا الرباعي إليه رباعي:

اندره حق كه بنده وشاه يكيست محبوب ومقر بان دركاه يكيست
بت خانه شد أم دوش پنی رادیده أم انكشت بر آو ردكه الله يكيست

وهذا من كلام أهل الإشارة فضلاً عن عوام المسلمين فهو مسلم إن شاء الله.

چغطاي بن چنكز خان: وهو ثاني أولاده كما مر وجلس على مسند الخانية بموجب وصية أبيه بما وراء النهر وكان أشد أولاد چنكز خان في رعاية يسقه وتسلطن من ذريته بما وراء النهر ثمانية عشر نفرًا وكان آخرهم قبول سلطان كان الأمير حسين بن الأمير قزغن ولاء السلطنة فقتله تيمرلك مع الأمير المذكور سنة ٧٦٠ وولى مكانه سيورغتمش المار ذكره آفًا وقد تسلطن كثير من أولاد چغطاي بممالك الخطا والكاشغر ومغل واشتهروا هناك بخوانين مغل حتى بقوا إلى قريب من زماننا وأظن أن عقبه موجود إلى الآن هناك والله أعلم. وهذا چغطاي هو الذي اشتهر باسمه سكان ما وراء النهر وقيل لهم چغطاي وبقي هذا الاسم فيهم إلى الآن وأول من أسلم من أولاده مبارکشاه بن قراهلاكو بن موتوركن بن چغطاي ثم بعده براق خان ولكن لم يسلم معهما جميع أولاد چغطاي ثم لما أسلم طرماشيرين خان أسلم جميعهم ولم يبق منهم بل من جميع طوائف المغل والتتار الذين بما وراء النهر أحد على الكفر وكان طرماشيرين خان في أوائل العصر الثامن وقد ذكره ابن بطوطة في رحلته وحكي من أحواله الغرائب بسماعه ورؤيته، ثم لما أسلم توغلق تيمر خان ببلاد كاشغر ومغل أسلم معه ١٦٠,٠٠٠ نفر من المغل.

تولي خان بن چنكز خان: وهو الثالث من أولاده وهو الذي عين له چنكز خان ممالك عراق وفارس وخراسان وما والاها كما مر لكنه مات قبل أن يتولاها ثم تسلطن من ذريته بتلك الممالك^(١) ٩ أنفار أولهم هلاكو الذي فعل ما فعل من تخريب بغداد وقتل الخليفة والاستيلاء على سائر بلاد المسلمين حتى مات كافرًا زنديقًا باتفاق

(١) وإنما قلنا بتلك الممالك فإنه قد جلس منهم على مسند القانبة ببلاد المغل عدة أنفار. منه عفي عنه.

المؤرخين سنة ٦٦٣ في ربيع الأول وقيل الآخر وصار إلى أسفل السافلين وآخرهم السلطان السعيد أبو سعيد خان عليه الرحمة توفي سنة ٧٣٦ وبموته انقطع ذرية تولي خان في ممالك عراق وتفرق ملكهم شذر مذر وجاء الله سبحانه بقوم آخرين .

وأما في بلاد الصين فقد بقوا فيها إلى سنة ٩٦٧ ثم انقضوا وأول من أسلم من ذرية تولي نكودار أوغلان بن هلاكو ولما أسلم تسمى أحمد وسبب إسلامه إن طائفة من الرفاعية ويقال لهم الأحمدية نسبة إلى سيدي السيد أحمد الرفاعي قدس سره أظهروا الكرامات عند هلاكو^(١) فتنزل عن شدته بالمسلمين ولكنه ما أسلم كما ظن بل سلم إليهم ولده الصغير نكودار وأعطى في تربيته لهم الاختيار فأسلم الولد على أيديهم وتسمى أحمد لكونه أسلم على أيدي الأحمدية ولكن ما أسلم معه منهم إلا القليل ولذلك قتلوه سريعاً بعد تملكه ثم لما أسلم الملك محمود غازان خان أسلم جميعهم طوعاً وكرهاً وكان إسلامه وتملكه سنة ٦٩٤ بدلالة الحاج نوروز بك من أمراء المغل على يد الشيخ إبراهيم الحموي بمقام فيروزكوه في شعبان وأسلم معه سبعون ألفاً من أكابر مغل وصناديد التتار وقيل أربعمئة ألف نفس ولا منافاة بينهما فإن الأول محمول على العساكر والأمراء الأكابر والثاني محمول على العامة وبإسلامه استوعبت أنوار الإسلام جميع طوائف التتار وانتشرت إلى جميع الأقطار وكان للملك المذكور مكارم ووقائع مشهورة وفي كتب التواريخ مكتوبة ومسطورة^(٢) رحمه الله تعالى .

[جوجي خان بن چنكزخان]

جوجي خان بن چنكزخان وهو الذي نبين تفاصيل أحوال أولاده بتوفيق الله سبحانه وعونه تعالى في هذه الوريقات لكونهم ملوك البلاد التي نحن الآن بصدد بيانها أعني بلاد بلغار وقزان وقریم وغيرها .

(١) وهم الشيخ أبو يعقوب ومحمد خواجه الدربندي وغيرهما حضروا عند هلاكو ودخلوا النار وشربوا السم والنحاس المذاب فلما عاين هلاكو خان خاف الأولياء وعظم الإسلام كذا في تاريخ القراماني نقلاً عن البيضاوي . منه عفي عنه .

(٢) قيل إنه رأى سيدنا علي كرم الله وجهه في المنام مراراً وأنه كان يبأحث ومولانا هبة الله التركستاني العلوم العربية والبيان وكان يغلبه عليها في أكثر الأوقات كان في وقته بمملكته كثير من العلماء الكبراء وكان يكرمهم غاية الإكرام والأولياء العظماء وينعم عليهم نهاية الإنعام . منه عفي عنه .

فأقول أن جوجي خان هذا هو أكبر أولاد چنكزخان ويقال له في العربية دوشي وربما يقال له طوشي وكانت وظيفته المقررة له من قبل أبيه الصيد الذي هو أحسن وظائف الملوك عندهم وقد تقدم أن چنكزخان عين له البلاد الغربية أعني ممالك بلغار والروس والچركس وخوارزم والقفقق وما والاها وكان بينه وبين أخويه چغطاي وأوكداي ضغينة وبرودة دائماً ولما استولوا على خوارزم سنة ٦١٧ توجه بمن معه نحو دشت القفقق قيل بأمير أبيه وقيل بلا أمره وأقام هناك مشغلاً بالصيد واللهو والطرب فارغاً من الحرب والنهب والقتل والسلب وإنما فتح بعض البلاد المجاورة بتلك الممالك صلحاً وبعضاً آخر عنوة^(١).

ولما توجه چنكزخان نحو وطنه الأصلي بعد أن استولى على ممالك خوارزمشاه على ما مر أرسل إلى جوجي يعلمه بتوجهه ويأمره بالحضور لديه وأن يسوق وحوش الدشت إليه فركب مع عسكره وساق الوحوش وصيد الدشت نحوه فاصطادوا منها ما لا يحصى وأهدى له كثيراً من تحف الدشت وطرائفه من جملتها مائة ألف خيل ربعها دهم وربعها كميت وربعها سود وربعها بلق وأظهر لإخوانه محبة كثيرة واستمال قلوبهم وأظهر له چنكزخان عنايات كثيرة ثم أرسله إلى مملكته المخصوصة به بعد أن نصحه بنصائح كثيرة تتعلق بأمور المملكة وضبط البلاد ومعاملة الرعايا والأعداء وأرباب الوداد ولما رجع إلى مستقره لم يلبث إلا قليلاً حتى جاءته منيته وقادته نحو العالم الأخرى رغماً على أنفه وكان ذلك سنة ٦٢٤ قبل موت أبيه چنكزخان بستة أشهر.

كان جوجي عادلاً كثير المرحمة غير متكلف في ملبسه ومسكنه ومأكله ومشربه وسائر معاملاته على ما عليه ملوك تلك البلاد من البداوة والسذاجة وكان في الديانة مثل آبائه وجدوده وخلف سبعة بنين^(٢) على هذا الترتيب أوردنا باتوشوبان واشتهر

(١) وما قيل إن في تلك الأثناء يأتيه كبراء الروس وحكامهم واحداً بعد واحد يحرضونه على قتال الروس ولكن كان جوجي خان يحمله على المكيدة ثم لما تحقق صدقهم هاجم على بلادهم كذب وخرافات لا أصل له وإنما اخترعه لحط التتار عن رتبهم في الشجاعة بحمل انتصارهم على الروس على نفاق الروس وإمداد بعضهم إياهم على الروس. منه عفي عنه.

(٢) قال ابن خلدون ولما أسر التتار بنات خوارزمشاه تزوجهن التتار وتزوج دوشي خان بن چنكزخان بإحداهن وقال في موضع آخر ومنها رسالة أخت السلطان يعني جلال الدين خوارزم شاه كانت عند دوشي خان أخذها من العيال الذين جاؤوا معه وأولدها وكانت تكاتب أخاها بالأخبار اهـ. منه عفي عنه.

بشيان وكذلك أولاده اشتهروا بالشيبانية بركة جمتاي بالثناء وقيل بالباء الفارسية المعقودة بركجارتوقايتمر وبقيت مملكة جوجي خان التي يقال لها الوس جوجي يعني حصته ونصيبه بيد أولاده مدة مديدة بخلاف سائر أولاد چنكزخان وآخر ما انقطع وزال الملك عنهم ببلاد القريم سنة ١٢٩٨ وبلاد قزاق سنة ١٢٦٥ وتسلطن منهم في تلك المدة أشخاص عديدة كثيرة في ممالك متعددة كما ستقف على تفاصيل وقائع بعضهم إن شاء الله تعالى ثم استولى^(١) منهم ملوك كثيرة إلى بلاد ما وراء النهر وانتزعوها من يد أولاد تيمرلنك وظهر منهم هناك وقائع كثيرة وآثار جلييلة وخيرات كثيرة ذكر كل ذلك تفصيلاً يستدعي كتاباً على حدة ولهذا أضربنا عن تفصيلها صفحاً هنا بل اكتفينا بذكرها في الخاتمة إجمالاً ولعله يكون لنا إلمام به بمشيئة الله تعالى في محل آخر.

وأول من أسلم من هذه الشعبة بل من أولاد چنكز على الإطلاق بركة خان ابن جوجي . . .^(٢) إخوانه في ترجمته إن شاء الله تعالى . . .^(٣) مع أبيه چنكزخان بطرز آخر تركنا ذكرها لعدم اعتمادنا عليها ولعدم الفائدة في إيرادها.

[باتوخان بن جوجي خان]

الملك باتوخان بن جوجي خان الملقب بالصائن هو ثاني أولاد جوجي كما عرفته عند تعدادهم إجمالاً.

قيل: لما توفي أبوه جوجي خان في السنة المذكورة أرسل إليه جده چنكزخان يستدعيه هو وأخاه الأكبر الأسن أوردا لديه فلما قدما إليه وامثلا بين يديه عزاهما وطيب خاطرهما وأعطى لباتو خركاهاً أزرق ولأخيه أوردا خركاهاً أبيض وهذا الخركاه تسمى عندهم أوردا^(٤) فاشتهر عقب باتوا بكوك^(٥) أوردا وعقب أخيه أوردا

(١) من أولاد شويان ولهذا اشتهروا بالشيبانية نسبة إليه وبالأوزبكية نسبة إلى أوزبك خان الآتي ذكره وبقي هذه النسبة بما وراء النهر إلى الآن. منه عفي عنه.

(٢) بياض بالأصل مقدار ٧ كلمات. (٣) بياض بالأصل مقدار ٤ كلمات.

(٤) وهذا هو معناها الحقيقي ثم قيل لمعسكر كبير يكون فيه السلطان أو نائبه بالخركاه المذكور أوردو ثم توسع وقيل لكل معسكر كبير أوردو ثم حرفها بعض المستعربين وقال عرضي وأورط وهذا مما يوقع في الاشتباه وقيل لبنت صغير في مقابلة الأوردا أوتاغ وأوتاغ بالغين والقاف ثم قيل بالتخفيف أوطه وهو مستعمل الآن بين الأتراك ويقال في عربية أوضه. منه عفي عنه.

(٥) فإن كوك معناه أزرق وآق معناه أبيض. منه عفي عنه.

بآق أوردا وفوض إمرة الميمنة لكوك أوردا وإمرة الميسرة لآق أوردا^(١) ولإمرة الميمنة مزية على إمرة الميسرة ويقال للمجموع آتون أوردا واختار چنكزخان لخانيه دشت القفچق مكان جوجي خان ولده الثاني باتوخان ونصبه خانا فيها وأجلسه على كرسيها لرزانتة ورجحان عقله وكثرة فضله وغزارة قابليته واستعداده ولقبه بصائن خان يعني الملك الجيد ولقب أخاه أوردا بأقین خان يعني الملك المغير ثم أرسلهما إلى بلادهما وأرسل معهما أخاه أوتچيکين لإجلاس باتو مكان أبيه جوجي وأمر بامضاء ما كان جوجي نواه في آخر عمره من غزو بلاد الروس فأول ما جلس باتو على التخت شرع في تدارك أسباب السفر وإحضار آلات النصر والظفر، فبينما هو مشغول بذلك إذ جاءه نعي جده چنكزخان في العام المذكور ففسخ عزمته بالضرورة وتوجه نحو بلاد چنكزخان للتعزيزة ولمصالح أخرى تتعلق بالملك وخلف مكانه أخاه الأصغر توقايتيمر وأخذ بقية إخوته الخمسة معه، والصحيح أنه سار في هذه النوبة وحده أو مع بعض إخوته وأما مسيره مع إخوته الخمسة فإنما هو بعد سنتين لقربيلتاي المشهور أعني الاجتماع لإجلاس أوكداي قآن على سرير القآنآية على الرسم وذلك في سنة ٦٢٧ واجتمع فيها جميع أولاد چنكزخان وأحفاده وإخوانه وأمراء الكبار كما مر وأجلسوا أوكداي قآن على سرير القآنآية على الرسم المعهود بينهم ولما انقضى أيام سرورهم وقضوا وطهرهم من اللهو والطرب توجهوا بهيئتهم الاجتماعية نحو الخطا والصين لمحاربة بعض الملوك هناك لما بلغهم من عصيانه ومخالفته إياهم بعد موت چنكزخان فلما عادوا من السفر المذكور بعد الظفر والفوز بالمطلوب أراد أوكداي قآن أن يتم ما نواه أخوه جوجي خان من غزو بلاد الروس والماجار وما والاها من بلاد الكفار الأشرار فأعطى لباتو ثلاثين ألفاً^(٢) من العساكر الجرار سوى ما لباتو من العساكر الخاصة به وأرسله إلى بلاده وضم إليه ولده كيوك قآن وولد تولي منكو قآن وولد چغطاي بايدار وجعل الكل تحت رياسة باتو.

(١) وكان مركز آق أوردو في طرف الشرق من سراي ويساحل نهر سيحون (سير) مثل بلاد صغناق وصبران وهو أسبيجاب وجند وأترار وطراز وطرابند وغيرها المفهوم من كلام موسيوشيار الأميريكي أن صغناق بعد بليدة قاضي علي إلى جهة الشرق منها ثم صبران المشهور بأسبيجاب. منه عفي عنه.

(٢) وقد تقدم في المقصد الأول أنه أعطاه ثلاثمائة ألفاً من العسكر وهي مبالغة بلا شبهة فإن العقل لا يجوز القيام بمصاريف هذا القدر في ذلك الوقت. منه عفي عنه.

ولما وصلوا إلى بلاد باتو من الدشت وانقضت مدة الضيافة وأيام الفرح والسرور أمر باتو بإحضار العساكر وتهيئة الأسباب ولما تم الأمر نهض باتو في حركة وقصد أولاً بقية بلاد الدشت وكان ذلك في حدود سنة ٦٣٣ واستولى عليها بتمامها وتقدم إلى حدود بلغار ولما قاربوا منابع نهر جائق من جبال أورال هرب قوم سقسين ومرابطو بلغار إلى بلد بلغار وأخبروهم بحركة التتار ولكن أقام باتو، على قول كارامزين، بعد ذلك ثلاث سنين ثم هجم على بلغار وأحرقها وأمر بقتل أهلها.

وأما على قول الفاضل المرجاني إنه استقبلهم هناك أمير بلغار الهام خان وصالحهم ودخل تحت طاعتهم لما تيقن من عدم مقاومته إياهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥] فتخلص بنفسه وخلص مملكته من ورطة هذه المهلكة فأعطوه جميع البلاد والأماكن التي كانت تحت حكومته وقبضة تصرفه على أن يضرب السكة باسمهم وأن تكون مملكة بلغار جزءاً من ممالكهم وأميرها منسوباً إليهم ومختاراً في الإدارة الداخلية على ما هو عادتهم لمن يلقي إليهم القيادة وترك اللجاج والعباد وكان ذلك في حدود سنة ١٢٣٧ ميلادية مصادفة سنة ٦٣٥ هـ.

ثم أمر باتو أمير بلغار على ما قيل أن يكون معه بعساكره في قتال الروس وأن يعينه في ذلك السفر فلم ير بدأ من امثاله لأن ذلك أعني إعانتته وقت الحاجة كان من شروط مصالحتهم فجمع عساكره وانضم إليه بجموعه على ما هو المشهور بين الناس ثم نهضوا قاصدين بلاد الروس وما والاها ذلك في حدود سنة ٦٣٥ في أوائل الخريف وكانت الروسية إذ ذاك منقسمة على إمارات متعددة وحكومات مستبدة عديدة منها پولوتسكي غالتسيا والينسكي چيرنيكوف اسمولينسكي سوزدل نووگورد وغير ذلك من إمارات الصغار ولم يكن بينهم اتفاق بل هم في شقاق ونفاق كحال المسلمين اليوم حتى قيل إن يارسلو بن وسيولود كان مع باتو يحرض التتار على قتال الروس ويهون عليهم أمرهم ويدلهم على الممار والمسالك فإن أخاه يغور^(١) كان حاكماً بمملكة سوزدل وهو غير راض به وينازعه على الحكومة فلما سمع توجه التتار إلى الروسية وقصدهم بلادهم أتاهم ليصطنع لهم المعروف فينال بذلك مقصده إلى آخر ما قيل، ولكن هذا وما قيل إن بعض حكامهم كان يحرض جوجي خان على قصد

(١) وهو الذي يعبر عنه بعد ذلك بغيورغي فتذكر. منه عني عنه.

بلادهم فرية بلا مرية صدرت عمن قصد ستر شوكة التتار وقوتهم وضعف الروس وجبانتهم والأصح في ذلك ما ذكره كارامزين وأنا أذكر مقالته هنا نقلًا عن ترجمة حسن عطا أفندي القاضي سابقًا والمرزا أسفنديار أفندي نووين زاده الصاري طاغي المستاقي تولدًا والأستانبولي توطنا.

قال كارامزين: لما خرب التتار مملكة بلغار دخلوا بلاد الروس بلا توقف من بين الغابات الكثيفة وقصدوا ولاية رزان وغيرها من البلاد الواقعة في شرقي الروس وشمالها ومن أمهات بلادها وكرسي سلطنتها وقلب مملكتها من طرف الجنوب الشرقي وأرسلوا إلى حكام الروس أميرين وامرأة ساحرة للسفارة فلقبهم ولاية رزان يوري وأوليف ورامان اينغورويج وكذلك أهالي مورم وپرونسكي في قرب نهر ورونيژ وأرادوا أن يعرفوا مقصد باتوخان ولم يكن مقصد التتار في هذه النوبة الصلح والتوادد بل كان جل قصدهم إطاعة الروسية ودخولهم تحت حكومة التتار ولذا قال لهم السفراء: إن أردتم الصلح فأعطونا عشر كافة أملاككم فأجابهم الحكام المذكورون بأنه إذا لم يبق أحد من الروس حيًا تأخذون جميع أملاكهم ثم أمروا السفراء بالتباعد عنهم فأتى السفراء المذكورون بلدة ولاديمير عند غيورغي بتلك السفارة وقد أرسل ولاية رزان أيضًا إلى حاكمهم الأكبر يخبرونه بقصد التتار ويحرضونه على المقاومة والمدافعة عن الوطن والدين ويستعينونه ويستمدون به ولكن ما أجابهم الحاكم المذكور بشيء اغترارًا بنفسه واعتمادًا على شوكته وقوته ظنًا منه أنه يقاوم التتار بنفسه فجعل ولاية رزان قربانًا وضحية للتتار وأهلها طعمًا لسيفهم البتار فإن يوري لما أيس من الإعانة التقى بعساكره القليلة عساكر باتوخان في الصحراء ولكن اضمحلت عساكره بالكلية في أقرب مدة وانفرشوا في الأرض مع كافة أمرائهم منهم حاكم پرونسكي وقولومينسكي ومورمسكي ولم ينج منهم أحد سوى أوليف اينغورويج، فإنه صار أسيرًا، فتوجه باتوخان بعساكره المهيبه نحو كرسي سلطنة يوري واستولوا في طريقهم على بلاد پرونسكي وبيلي غوردوايژ يستلاويتسا وهدموها وقتلوا أهلها وهجموا على رزان وأحاطوا بها وحاصروها وقتلوا فيها مدة خمسة أيام متوالية. وفي اليوم السادس من الحصار أحرقوا بعض مواضع السور ودخلوا البلدة بالسالام بالاستفادة من الدخان وقتلوا أهلها قتلاً ذريعًا وخبربونا وقد هلك الكيناز(يوري) وزوجته وأمه وسائر الأعيان والرؤساء من الأهالي حتى الرهايين بحيث لم يبق أحد للبقاء والرتا والحزن وصاروا مصداق ما قيل شعر:

سل الديار فهل يبكي بها أحد أم الديار بكت من حال أهلها

وكان ذلك في ٢١ ديكابر السنة المذكورة وقد قام واحد من البويار (الأعيان) للانتقام من التتار بألف وسبعمائة رجل فصار نصيبهم من سيوف التتار اللحوق بالهالكين وكذلك قام الكيناز وسيوولود بن غيورغي للانتقام من التتار وصد هجماتهم واتفق مع الكيناز رومان إينغورويج الذي هو ابن أخي كيناز رزان يوري والتقى مع باتوخان في قرب قولومنو وانتشب القتال بين العسكرين فقتل من مشاهير قواد عسكر الروس يرمي غليپويج والكيناز رومان المذكور وأكثر العساكر بسيوف التتار. وأما الكيناز وسيوولود فقد هرب إلى ولاديمير عند أبيه وأحرق باتوخان بلدة موسكوا في ذلك الوقت وأسر الكيناز ولاديمير بن غيورغي وقتل قائد جيشهم فيليب وكافة العساكر والأهالي، فاستولى الخوف والدهشة على غيورغي الكيناز الأكبر فخرج من بلدة ولاديمير وفوض أمر محافظتها والمدافعة عنها على ولديه وسيوولود المذكور سابقًا ومسييتسلاو وذهب مع ثلاثة من ابن أخيه إلى ولاية يارسلاو وأقام مع عسكر قليل بساحل نهر سيت الذي يصب على نهر مولوغا وشرع في جمع العساكر وانتظر إلى مجيء إخوانه خصوصًا أخاه يارسلاو والذي كان يعد من العقلاء المتيقظين بغاية الانتظار، فظهر التتار تحت قلعة ولاديمير في الثاني من فبرال (فبرير) سنة ١٢٣٨ مصادفة سنة ٦٣٥ هـ. كما مر فراهم أهالي البلدة وتعجبوا من كثرتهم وخفة حركاتهم واستولى عليهم الخوف العظيم فشجع وسيوولود ومسييتسلاو والقائد بطراوصلا ويوكويج الأهالي ورغبوهم في القتال، فجاء قواد عساكر باتوخان مع الخيالة (الفرسان) الباب الذهب وسألوا الروس أن الكيناز الأكبر هل هو هنا أو توجه إلى جهة أخرى فرماهم الأهالي بالنشاب وقابلهم التتار بمثل ذلك وصاحوا عليهم أن لا ترموا وأروهم الكيناز ولاديمير الذي أسر بموسكوا وقالوا: هل تعرفون كينازكم فأروه الأهالي وأخواه وأسألو الدموع من عيونهم ولكن تجالدوا وكنتموا ما بهم من التتار ولم يصغوا إليهم قطعًا فتباعد التتار عن الباب وداروا حول المدينة مرة يلتمسون موضعًا صالحًا للهجوم.

ثم نصبوا خيامهم قبالة الباب الذهب وعسكروا بها وفي عين تلك الأثناء أراد وسيوولود ومسييتسلاو الهجوم على التتار ولكن القائد پطر لما كان عاقلًا مدبرًا مجربًا للأمور لم يتركهما على مرأهما واغترارهما وظن أن الكيناز الأكبر غيورغي يجيء بالعساكر للمدافعة وتخليص البلدة والوطن فأرسل باتوخان فرقة من عساكره بلا تأخير إلى بلدة سوزدل فاستولوا عليها بلا مدافعة ولا ممانعة في أول الهجوم وقتلوا أهلها سوى الشبان من الرهبان والراهبات وسكنة الدير الذين أسروهم ورأى أهالي ولاديمير

في السادس من فبرال أن التتار يتهيؤون للهجوم ويحضرون الآلات والأدوات لهدم القلعة والصعود فيها وأحاط الأهالي أيضاً القلعة بالأخشاب وإن كان في الإمكان طلب الصلح من باتوخان إلا أن نخوتهم الفاسدة وغرورهم وكبرهم في غير موضع لم يتركهم على ذلك وساقهم إلى الهلاك وفي السابع من فبرال هجم ليوث التتار إلى البلدة من جميع الجوانب ودخلوا البلدة الجديدة أولاً من الباب الذهب و (النخاس) و (أصواتي ايرينه) و (نهر كلازمه) و باب (وولغا) فهرب وسيوولود ومسيستلاو بأهلها وخواصهما إلى قلعة بيجورني أو القلعة العليا، والتجاء زوجة غيورغي آغافيه وبنته وكنه وسائر أولاده وكثير من الأعيان إلى الكنيسة فأحرق التتار الكنيسة فمات بعض من التجأ إليها حرقاً وهلك بعضهم من سيوف التتار واغتنم التتار جميع الأشياء النفيسة الموجودة في الكنيسة وقتلوا أكثر الأهالي وأسروا الأقل منهم وهلك هؤلاء الأقل أيضاً في معسكر التتار من البرد.

ولما رأى الكيناز وسيوولود وأخوه مسيستلاو أن لا مناص من الهلاك إلا بالهرب بخرق صفوف التتار فألقوا أنفسهم بهذا الفكر إلى معسكر التتار فصاروا طمعة لسيوفهم البتار وذاقوا مرارة نخوتهم في غير موضعها.

وبعد الفراغ من أمر ولاديمير افترق عساكر التتار على فرقتين توجهت فرقة منهما إلى البلاد الكائنة على ساحل وولغا يعني نحو الشمال مثل كاستراما وغالميجينه والأخرى نحو راصتوف ويارسلاو يعني نحو الغرب فلم يصادفوا في ممرهم مدافعة ومقاتلة تذكر في موضع من المواضع واستولوا في فبرال على أربعة عشر بلداً سوى بلدي أصلا بود وپوغاستف وأخلوا بلاد پرياصلاول أو يوريف وديمتريني من السكان بالكلية بقتل أهلها وأسرههم. وكان الكيناز غيورغي مقيماً بساحل نهر سيت إلى ذلك الوقت مسيلاً دموع عينيه من سماع قتل أولاده وأهله وخراب وطنه وهلاك رعاياه سائلاً صبر أيوب^(١) ومع ذلك التزم الجلادة وأظهر الصلابة واستعد للقتال والمدافعة إلى النفس الأخير وقلد قيادة عسكره لشخص من خواصه البويار يارصلاو ماخالكويج. وفي تلك الأثناء أتاه فرقة من طليعته المركبة من ثلاثة آلاف وأخبروه بأن عساكر التتار قد توجهوا نحونا قاصدين إيانا فركب الكيناز غيورغي وأخوه أصواتصلاو ورتبا عساكرهما وانتشبت القتال بين الفريقين فلم يمض إلى مقدار سويعة حتى انهزمت الروس شر هزيمة وولوا الأدبار بحيث لا يلوي أحد لأحد وهلك الكيناز غيورغي

(١) كذا في الأصل المنقول عنه منه عفي عنه.

أيضًا تحت سنابك خيول التتار في ساحل نهر سيت وكان ذلك في ٤ مارت وأسروا سيلكوى (لعله من إخوان غيورغي أو أولادهم) ولكن لما أظهر النخوة في غير موضعه قتلوه ورموه في غابة شرينسكي .

وبعد ذلك توجه باتوخان بعسكره نحو نووغورد واستولوا في ممرهم على بلدتي وولوك لامسكي وتوير وهلك هناك ولد يار سلاو ثم حاصروا بلده تورزيك ودافع عنها أهلها مدة أسبوعين رجاء أن يعينهم وينصرهم أهل نووغورد ولكن من الذي يفكر في مثل هذا الوقت غير نفسه ولم يكن قولهم إلا أن قالوا نهلك وهلك الوطن ولم يدروا ماذا يفعلون ولم يخطر ببال أحد منهم أن يلتمسوا أسباب خلاصهم من هذه الورطة من اتفاق العموم، ولو كان ذلك لكان سابقًا، فاستولت التتار على بلدة تورزيك أيضًا وقتلوا أهلها قتلاً عامًا لإغضابهم إياهم بطول المدافعة وعدم التسليم ثم توجهت التتار نحو نووغورد من طريق سيلينغرمسكي (غدير كبير في منبع وولغا) ولم يتركوا في ممرهم بلدة ولا قرية إلا خربوها وجعلوها يابًا ولما لم يبق إلى نووغورد إلا مسافة مائة ویرستا انثنى باتوخان راجعًا إلى بلاده . قيل : لكثرة الغابات والمواحل (قلت يعلم من قصده بلاد الروس في موسم الشتاء أنه هرب من مؤونة ترتيب الجسر والمعابر مع كثرة الأنهار والمواحل هناك ولما كان آخر مارت ينقطع الطرق هناك مدة عشرين يومًا وأكثر مع تعب عسكره ونقصانه بطول السفر وكثرة المحاربة ورجع لذلك وذلك من إقبال أهل نووغورد) وإلا لكان باتوخان مستغرقًا في الغنائم لأنه لم يكن في ذلك الوقت في الروسية بلدة تساوي نووغورد في الغنى والثروة وكثرة التجارة بسبب الأمن والأمان الدائم فصادف مروره في رجوعه إلى بلدة كوزيلسكي من ولاية كالوغا وهذه البلدة وإن لم تكن من أمهات بلاد الروس الشهيرة إلا أنه كان له حاكم شاب مغرور منوب إلى حكام چيرنيغوف يسمى واسيلي . ولما نزل بها التتار استشار خواص ذلك الحاكم وسائر أعيان البلدة فيما يفعلونه من المحاربة والمسالمة، فكانت نتيجة مشاورتهم إن قالوا: إن حاكمنا وإن كان شابًا غير مجرب للأموار ولكن من حيث كوننا من معتبري الروس ومشاهيرهم يلزمنا الموت في سبيل المدافعة عن الوطن فيخلد ذكرنا الجميل في صحائف التواريخ في الدنيا والأجر الجزيل في العقبى وقرروا الأمر على ذلك واستعدوا للقتال والمدافعة . فأقام التتار حول البلدة سبعة أسابيع ولما رأوا أن أهل البلدة لا يسلمون القلعة بلا قتال شرعوا في هدم السور وهدموه في أسرع مدة ودخلوا البلدة عنوة وقابلهم الروس بالمدافعة وقاتلوهم كافة بما تيسر لهم من الآلات حتى بالسكاكين وخربوا كثيرًا من أدوات التتار التي كانوا يخربون بها القلعة

وقتلوا أربعة آلاف من التتار وقاوموهم أشد المقاومة حتى لم يبق منهم أحد واضمحلوا بالكلية وأباد التتار ما بقي من الروس في البلدة وخربوها وسووها بالتراب وسماها البلدة العاتية وصار هذا الاسم فخرًا لهما في التواريخ (هكذا يقول الروس) وغاب الكيناز واسيلي في أثناء المحاربة قيل: إنه مات غريقًا في دماء القتلى.

وبذلك أتم باتوخان فتوحاته في شرقي روسيا وشمالها التي كانت بها جلّ قواتها وأمها بلادها وحاكمها الأكبر فأراد الاستراحة قليلًا من التعب وتوجه نحو نهر دون حيث كان يقيم بها قوم بالويتسه (يعني قبچق كما مر) وقد مر في المقدمة بيان وقائعهم بهم فراجع هناك، وأدخل باتوخان كافة الأقوام الموجودة بين نهر دون (تن) وولغا تحت حكومته ثم ظفر^(١) ثانيًا في حدود الروس واستولى على بلدة مورم وغاروخوف وغيرهما عنوة وكانت تلك البلاد لموردوا (برطاس) وكانت وفقًا لكنيسة ولاديمير، ولما رأى أهالي تلك الجهة التي هي تابعة للحاكم الأكبر الروسي تلك الحالة استولت عليهم غاية الخوف وهربوا إلى جهات شتى تاركين أملاكهم وأموالهم يلتمسون المنجى والمخلص من الهلاك وكان عساكر باتوخان تتقدم شيئًا فشيئًا ولكنهم توجهوا في هذه النوبة نحو الجنوب فأهدموا هناك بلدة برييا صلاف وكانت كنيسة ميخايل وحدها تساوي في الثروة والغنى وكثرة الفضة والذهب لكافة البلاد التي استولى عليها قبل ذلك فقتل رئيس روحانيهم الملقب بسقويس (الأسقف) وأكثر الأهالي وكان فيلق آخر من عسكر باتوخان محاصرًا لبلدة چيرنيغوف فخرج المشهرون بالقوة والشجاعة والبسالة في ذلك الوقت للقاء التتار وكانوا في إدارة الكيناز مسيتسلاو بن غليب أخي الكيناز ميخايل فقاوموهم أشد المقاومة ودافعوا مدافعة الأيس من الحياة ولكن لم يقدروا أن يزعزعوا التتار عن مراكزهم وأن يردوهم عن مرامهم فصاروا مغلوبين وانهزموا شر هزيمة وأحرق التتار البلدة وسووها بالتراب وذلك في سنة ١٢٣٩ مصادفة ٦٣٧ سنة هـ.

ولما حصل التعب لعسكر باتو من المحاربة المتوالية قفلوا راجعين إلى ساحل نهر دون (تن) للاستراحة وأطلقوا أثناء رجوعهم الأسقف پارفيرو من الاسارة وكان مرامهم بذلك أن يستجلبوا قلوب الروحانيين إليهم باصطناع المعروف حتى يحبوهم فيعضون الروس وينصحونهم بترك المحاربة وإطاعة التتار بدون المقاتلة وأنجى الكيناز مسيتسلاو نفسه من الأسر وهرب إلى ماجار.

(١) في أوائل الربيع. سنة ٦٣٨ م. منه عفي عنه.

مجيء التتار إلى كيف واستيلاؤهم عليها

وفي سنة ١٢٤٠ مصادفة سنة ٦٣٨ هـ قصد باتوخان جنوب الروسية وكانت من بلادها المشهورة بلدة كيف لكونها من أحسن مدنها موقعاً وعمارة وأكثرها ثروة وتجارة وعلى كل حال لم يكن له بد من إخضاع الروس وإدخالهم تحت طاعتهم بالكلية فأرسل ابن عمه منكوخان بن تولي للاستيلاء عليها فجاءها منكو وعسكر في طرف آخر من نهر دينبير فلما رآها أعجبه منظرها البهي على ما يقول مورخو الروس فأرسل منكوخان إلى أهل كيف يدعوهم إلى الطاعة وترك المحاربة وقد أدهش الروس ما فعله التتار المغربة^(١) في عهد چنكرخان بهم في ساحل نهر فالقا الذي يقال له الآن فاليتسكي بقرب ماريوبول من ولاية يكاترينسلاو وما فعله باتوخان بهم في رزان وولاديمير ونهر سيت وبيبل وچيرنيغوف وغيرها وتحققت لديهم بتلك الوقائع حقيقة التتار وقوتهم في المحاربة وكان لهم فيها أبين عبر ولكن عدم التدبير والنخوة يعمي البصائر ويسد طرق الفكر فاغترروا بأنفسهم واستولت عليهم الأناية والعجب والغرور وسولت لهم أنفسهم أنهم أحسن أبناء الروس وأشجعهم وأكثرهم حمية وبسالة وليسوا كغيرهم جنباء خوافين فقرررو الأمر فيما بينهم على المدافعة ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الرسل وكتبوا بدمهم المعاهدة بينهم للمدافعة إلى أن يموتوا عن آخرهم هذا هو مدنية الروس.

فلما رأى حاكمهم الكيناز ميخايل بن وسيولود هذا الحال أحس بشر عظيم وتيقن أن التتار يفعلون بهم كل شر في مقابلة هذه الوحشية إن غلبوا فخاف على نفسه وهرب إلى ماجار ولما رأى روستسلاف بن مسيتسلاو أن تحت كيف بقي خاليًا أراد أن يملكها ولكن دانيل المشهور الذي كان حاكمًا بغالتسيا دخل بلدة كيف بغتة وأسر الكيناز روستسلاف ولكنه رأى في نفسه العجز عن مقاومة التتار فأناج البويار ديميتري مناب نفسه على بلدة كيف وتوجه بنفسه نحو ماجار للاستعانة والاستمداد من حاكم ماجار على التتار. ولما سمع باتوخان قتل رسله امتلاً غضبًا فجاء بعسكره الجرار

(١) وقد مر بيان خلاصته في هامش المقدمة عند ذكر القفجق وحاصله أن كافة حكام الروس خرجوا من كيف لطلب التتار ومحاربتهم بتحريض الفارين من خوانين قفجق من صولة التتار خصوصًا قوتان خان منهم فالتقوا التتار بساحل نهر فالقا بقرب ماريو پول من ولاية يكاترينسلا والمشهور الآن بنهر فاليتسكي فقتلوا هناك إلا القليل منهم فتعقب التتار المنهزمين منهم إلى نهر دينبير وأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً وأسراً هذا في عصر چنكرخان في أول خروجهم كما مر بيانه في المقدمة والمقصد الأول عند ذكر بلغار فتذكر. منه عفي عنه.

وعبر نهر دينبير وأحاط بلدة كيف من كل جانب يقال إن أهل البلدة كانوا يسمع بعضهم كلام بعض بالصعوبة وذلك من كثرة صهيل الخيل ورغاء الإبل وصرير بكرات العربية وصياح التتار، فشرع ديميتري نائب الكيناز دانييل في ترتيب عسكره بغاية الدقة والتيقظ فجاءوا بأسير من التتار لديه في تلك الأثناء فسألوه عن أحوال التتار وكمية عساكرهم؛ فقال: إن العسكر لا تعد ولا تحصى ولا يدري حسابهم غير الله والعسكر في إدارة باتوخان نفسه وفيهم من الشجعان المشاهير كيوك بن الخاقان أو كداي منكو ابن تولي وبايدار بن چغطاي أحفاد چنكزخان والشجيع سويدياي بهادر الذي سخر بلغار قران واستولى على سوزدل وغيرهم من مشاهير القواد فكادت مرارة ديميتري تنشق من سماع هذا الخبر ولكنه لم ير بدأً من اللقاء لأن الأهالي لم يتركوا مجالاً للصالح بقتل السفراء ولا شك أنهم قتلوا الأسير المذكور أيضًا فإن المتجاسر على قتل السفير كيف يترك الأسير فابتدىء الحرب من باب اللاط وجاء التتار بأدوات هدم القلعة إلى هذا الباب وبدؤوا بضرب الباب واستمروا على ذلك ليلاً ونهارًا حتى هدموه ودخلوا البلد منه وهجموا على أهل البلدة وجعل الأهالي أيضًا صدورهم متاريس فوقع الحرب الذي لم يسمع مثله، فلا تسل عن انكسار السيوف والسنان والخناجر وغير ذلك من الأسلحة، وصارت القتلى كالطود^(١) العظيم وسالت الدماء كالسيل المنهمر بالقتلى وصارت الحالة أنموذجة من القيامة، ودامت هكذا إلى المغرب فجرح ديميتري أخيرًا فانهزمت الروس والتجأوا إلى كنيسة ديساتينوى مستصحبين معهم ما قدروا عليه من الأشياء النفيسة الغالية واستجاروا هناك بقبر ولاديمير الذي هو أول من دخل في النصرانية من ملوك الروس، فلم يخلصهم قبر ولاديمير من بأس التتار بل هدموا الكنيسة بالكلية وسوها بالأرض وقتلوا من بها وأسروا حاكمهم ديميتري وجاؤوا به عند باتوخان فلم يتعرض له باتوخان بسوء بل عفى عنه مع جريمته تلك مع أن الروس يرمونهم بالوحشية وعدم الإنسانية وقبل ديميتري عفوهم بكمال التعظيم لعلمه بأن وجوده ينفع الروس، هذا قول كارامزين، فأظهر التتار الفرح والسرور لغلبتهم وقد صارت بلدة كيف خرابًا يبابًا مساوية بالأرض في مدة يومين وثلاثة بعد إن كانت أم بلاد الروس وأبهج مدنهم واشتهرت بالثروة والمدنية ذاك الاشتهار وبقيت على تلك الحالة مدة أربعة وخمسة قرون ولم يبق من عظمتها السابقة أثر ولا من مزاراتها الشهيرة خبر حتى أن الزوار والسواح يأتونها إلى الآن^(٢) برجاء فارغ ويغرون أنفسهم

(٢) هذا قول كارامزين أيضًا. منه عفى عنه.

(١) الطود: الجبل.

بأمامني فاسدة فإنه لا يدري أحد أين مقبرة أولغة (أول من تنصرت من الروس على الإطلاق) وأين مدفن ولاديمير وقد انمحي أعلى وأعلى وأحسن ما عند الروس من الآثار في تلك الواقعة ولم يبق باتوخان منها شيئاً حتى كسروا الأصنام والأوثان وأخذوا ما فيها من الفضة والذهب الجواهر الثمينة ونهبوا الديرات وخربوها وهرب من نجى بنفسه من سيوف التتار سواء كان راهباً أو قسيساً إلى الغابات وأنسوا هناك بالوحوش.

وبعد أن فرغ باتوخان من أمر كيف وسمع أن حكام الروسية الجنوبية هربوا إلى ماجار وجه عنان عزمته نحو ولايات غاليتسيا وولاديمير وحاصر في ممره بلدة لاديتزين واستولى عليها بعد معالجة يسيرة وأجرى فيها ما أجرى في غيرها وكذلك استولى على كامينتسا وولاديمير وغيرهما والحاصل لم يبق شيء من إمارات الروسية سالمًا سوى نووورد وإنما سلمت هي بحسن تدبير الكناز الكساندر النيفي. وكان ديميتري المذكور نائب كيف في إسارة التتار في تلك الأثناء أيضًا وقد كاد يموت من الحزن والأسف من رؤية خراب ممالك الروس يومًا فيومًا هكذا، فقال يومًا لباتوخان: إن الروسية فقيرة لا يساوي ما تغتنم منهم عشر تعبك ومشقتك وإن النمسا والماجار في غاية الغنى والثروة فإن استوليت على بلادهم يحصل لك فائدة عظيمة وأيضًا إن حاكمهم عدو لك وقد استعداد لحربك والحزم أن تمحوا مثل هذا العدو القوي قبل أن تجتمع جميع قواه وتحذر من غائلته فأثر لباتوخان كلام ديميتري فوجه بجميع عساكره نحو ماجار ونمسا خارجًا من الروسية هكذا تمكن ديميتري بكياسته وتدبيره من تخليص الروسية ووطنه من مخالف أعدائه حين إيسارته بأيديهم.

هذا قول كارامزين يتبجح بأنه أغرى باتوخان وغره وليس كما زعم بل كان قصد باتوخان حين علم أن حاكم ماجار ما زال يقبل ويعيد كل من يلوذ به من بطش التتار الانتقام منه وأن يعرفه حده ولذلك توجه نحوه وأما الروسية فقد علمت أنها لم يبق فيها أحد يقاوم التتار فإن البعض من حكامهم قد قتل في المحاربة والبعض قد هرب والباقي ليس فيه قدرة المقاومة بل أحد سلاحه الهرب متى سمع توجه التتار نحوه.

والحاصل لم يبق لأحد فكر أمور المملكة بل كان فكر كل شخص في تخليص نفسه وكان الأحياء منهم يحسدون الأموات. ولما علم باتوخان أن الروسية قد صارت جزءًا من مملكته ولا أحد ينازعه فيها وأنه لا معنى في مقاتلة المغلوبين ومحوهم بالكلية بعد إسقاط قوة المقاومة وأن الغرض قد حصل وهو إخضاعهم لسلطته، توجه

نحو لهستان فاستولى عليها بالتمام ودخل بلاد ماجار واستولى على بعضها واستولى على إقليم بيسرايبا وبغدان وأفلاق وبولغار طونه وفعّلوا فيها ما فعلوا بالروسية من القتل والتخريب والنهب والغارة، حتى تقدموا إلى خرواتستان بلاد بوسنه وآرناوود ووصلوا إلى تخوم ممالك نمسا وألمانيا فحينئذ وقع أوروبا في غاية الخوف والدهشة بل غشيتهم الحيرة والرعدة وصاروا يرسل بعضهم بعضًا يحذره من وقوع الطامة الكبرى والمصيبة العظمى من قبل هؤلاء التتار وأشدّهم في ذلك فردريك إمبراطور ألمانيا الذي صالح الملك الكامل محمد ناصر الدين الأيوبي وأخذ منه القدس بالصلح فإنه صرف وجهه عنايته من طرف القدس إلى جهة حفظ بلاده وصار يكتب النصارى بلا انقطاع ولا فتور يحرضهم على التآلف والاتحاد والتعاقد وإن يكونوا على قلب رجل واحد وشدة الاحتراس من التتار.

والحاصل قد دخل النصارى من الخوف والفرع والجزع من التتار ما لم يدخلهم قط قبل وبالجملة أنهم قد نسوا ما هم عليه من التحزب للصليب مذمتين سنة ولم يخطر القدس ببالهم لما آيسو من المدافعة عن أوطانهم وبلادهم حتى أن في أقاليم أوروبا البعيدة جدًا منع أهل إقليمي فريزيا والغوتيا سنة ١٢٣٨ م مصادفة سنة ٦٣٦ هـ. من أن يذهبوا لصيد السمك إلى ساحل إنكلترة وصاروا يرسلون الرسل للوعظ بالوقوف والإقامة في أوطانهم وعدم مفارقتها خوفًا من هجومهم ذكر ذلك رفاة بك في جغرافياه ولذا قال كارامزين: إن أوروبا وإن لم تدخل في حكم التتار ظاهرًا وصورة ولكنها كانت داخله فيه معنى فإنه لم يكن لأحد منهم مجال للحركة في مخالفتهم ومحاربتهم وكان يمكن لباتو أن يستولي عليها بإشارة واحدة في أقرب مدة ولكنهم أوقفوا الحرب ورجعوا من المحل المذكور ولم يجاوزوه إلى ما وراءه وقد تعجب الكل من رجوعهم قبل إتمام فتوحاتهم بلا سبب ظاهر مع قدرتهم على ذلك ثم تبين أن رجوعه إنما هو لموت أوكداي قآن وهو الذي عاقه عن إتمام فتوحاتهم في أوروبا ورجوعهم عنها اهـ.

قلت: يمكن أن يكون سبب رجوعهم هو هذا الذي ذكره كارامزين ويمكن أن يكون غيره كالحوق التعب الشديد والمشقة الكثيرة وطول مدة أسفارهم وأيام مقاتلتهم فإنهم بقوا في تلك المحاربات سنين كثيرة فيجوز أن يكون رجوعهم للاستراحة ثم يلحق بها موت أوكداي ثم يترتب عليه وقوع الخلف بين باتو والقآن كيوك على ما سيذكر وهذا الخلف وإن ارتفع بموت كيوك واستقرار القآن منكو على سرير القآنية ولكنه لم يتشبت بأسباب فتح أوروبا بعد ذلك إما لكبر باتو وتركه الاشتغال بأمور

المملكة الداخلية فضلاً عن الخارجية في أواخر عمره وتفويضها لولده صرتق وإخوانه أو لأمر آخر الله أعلم به .

ومع ذلك قد وقع بينهم وبين عساكر ألمانيا حرب شديد في موراويا ولكن لا أدري هل كانت تلك الحرب في ذلك السفر أو بعده وقد جعله ابن خلدون في زمن بركة خان حيث قال في أثناء سرد وقائعه: ثم بعث بركة أيام سلطانه أخاه باتو (صوابه بايدو) إلى ناحية الغرب للجهد وقاتل ملك ألمان من الإفرنج فانهزم ورجع ومات أسفًا اهـ. وهذا خطأ بلا مريه فإن ذلك الحرب كان على عهد فردريك الثاني ايمپراطور ألمانيا على ما ذكره غيره فإن الامپراطور المذكور لما سمع توجه التتار نحو بلاده أرسل لمدافعتهم قوة كلية من عساكر شواليا تحت قيادة ولديه فالتقى العسكران في موراويا واقتتلوا قتالاً شديداً فانجلى الغبار عن انهزام التتار وكان رئيسهم بايدو .

هكذا وقع في عدة تواريخ وقالوا: إنه أخو بركة والظاهر أنه بايدار بن چغطاي المار ذكره في أول قصة باتوخان أرسله باتوخان بفرقة من العسكر لقصده بلاد ألمانيا التي انتهت فتوحاتهم إليها فلما انكسروا رجعوا ولم يعودوا إليها ثانيًا ومات بايدار هذا بعد رجوعه منكسرًا مكمودًا ومقهورًا فإذا تحقق أن هذه المحاربة كانت في عهد فردريك الثاني تبين أنها لم تكن في أيام سلطنة بركة خان فإن الامپراطور المذكور لم يعش إلى أيام سلطنته بل مات في أواخر سلطنة باتو في حدود سنة ٦٠١ والله سبحانه أعلم .

بناء بلدة سراي

ولما فرغ باتوخان من حرب الروس وغيرهم والاستيلاء على بلادهم وأذعنوا له بالانقياد وأقروا له بأداء الجزية وترك العناد رجع إلى مقر سلطنته بكمال الأبهة مستغرفًا في مراكز مهمة فبدأ ببناء مدينة سراي بالجانب الشرقي من نهر اتل بساحل شعبة منه يقال له آق توبه أي التل الأبيض فوق مدينة حاجي طرخان ليجعلها مقر سلطنته وكرسي مملكته وكان ذلك في حدود سنة ٦٤٠ وأتمها أخوه بركة بعده فصارت دار ملكهم إلى أن انقرضت دولتهم وسيجيء ذكر تمام أوصافها عند ذكر الملك بركة خان إن شاء الله تعالى .

[شروع باتوخان في تنظيم الملك]

ثم شرع باتوخان في تنظيم الملك وتنسيق الأمور وتعمير البلاد وترفيه الرعية وتأمين الطرق وإراحة العباد وبدأ بدعوة حكام الروس إلى تأكيد الانقياد والطاعة

وتجديد البيعة فأول من جاءه منهم ولبى دعوته وبابعه يارسلاو بن وسيوولد فإنه لما لم ير بدأ من إظهار عبوديته بحضور باتوخان أتاه على كره منه مع استشعار الخوف مع جميع من عظماء الروس فبايعه وعاهده على الأمانة والإطاعة وأرسل ولد قنسلطانتين إلى القآن الكبير أوكداي ثم تابعه في الحضور عند باتو والبيعة له سائر حكام الروس مثل ولاديمير وقسطنطين المذكور وبوريس بن واسيلي وواسيلي بن وسيوولود المتكبر ولم يمنعه كبره ونخوته من الحضور عند باتوخان وإظهار عبوديته له فأتوا عنده وباعوه وأخذوا منه منشورًا وبراءة تصديقًا لكونهم حكامًا على مراكزهم، ومن جملة من أتاه أيضًا دانييل بن رمان حاكم غاليتسيا وكان المذكور ذا عقل ورأي وكان باتو يحبه لذلك ويقربه إليه فأقره على إمارته ونصب في كل كورة وناحية من الروسية حاكمًا منهم يعنون بكيناز بمعنى الأميروبك وجعل يارسلاو المذكور رئيسًا لكل وكان يلقب بالكيناز الأعظم وجعل مقر إدارته بلدة كيف وأعطى أخاه ميخايل بلدة جيرنيغوف وكان كينازهم الأعظم يسكن قبل ذلك في ولاديمير ولعل جعل كيف مقر الإمارة الكيناز الأعظم مبنى لأمر سياسي وهو كون الكيناز الأعظم تحت نظرهم وكون حركاته وسكناته معلومًا لديهم فإن بلدة كيف أقرب إليهم من بلدة ولاديمير والوصول إليها أسهل من الوصول إلى ولاديمير مع كون الجانب الجنوبي منها تحت إدارة نواب باتوخان من أمراء التتار ولكن أخلاف باتوخان لم يتنبهوا لهذه السياسة حيث رضوا بجعل بلدة موسكوا مقرًا لإدارة الكيناز الأعظم فترتب على ذلك تقوي الروس تدريجًا ثم تسلطهم عليهم في الآخر بالكلية.

وقد قلنا سابقًا إن قسطنطين بن يارسلاو ذهب إلى القآن الكبير فرجع بعد سنتين وقد صادف وصوله هناك ضيافة عظيمة ووليمة كبيرة للقآن وذلك فرحًا لتلك الفتوحات ولكن لم يكن بد من أن يذهب الكيناز الأعظم يارسلاو بنفسه لدى القآن لإظهار عبوديته فسار إلى القآن مع جمع من كبراء الروس وقطعوا الفيافي والبراري إلى أن وصلوا بجهد جهيد إلى مقر القآن بساحل نهر أمور ولكن القآن أوكداي كان قد مات في ذلك الوقت وكانت زوجته توراكينا قائمة برؤية لوازم السلطنة ومهام الأمور وكان أركان الدولة مستعدين بتهيئة لوازم الجلوس وترتيب أسباب إجلاس كيوك بن أوكداي على تخت القآنية وتوجيهه فأمر يارسلاو أيضًا بالتأخر والانتظار للجلوس فأجرى الإجلاس المذكور سنة ٦٤٤ بعظمة وحشمة وأبهة لم تر عين الزمان قبله مثلها وقد حضر فيه عالم عظيم من جميع أقطار الأرض غير أولاد چنكزخان وأقاربه وأمراءه ووزرائه وقواد العساكر، فمن بغداد من طرف الخليفة الشيخ فخر الدين

قاضي القضاة، ومن الشام أخو الملك الناصر الأيوبي صاحب حلب، ومن طرف سلطان قونية ركن الدين، ومن الأرمن الكندسطل أخو التكفور حاتم، ومن كرجستان الداودان الكبير والصغير، ومن وراء النهر والتركستان الأمير مسعود بك يلواج، ومن خراسان الأمير آرغون آغا ومعه أكابر العراق واللور وأذربيجان وشروان، ومن طرف الخطا الأمير محمود يلواج ومن طرف علاء الدين صاحب الألموت محتشمو قهستان، ومن طرف بابا النصرانوكنت الرابع وإمبراطور فرانساربان كاربين من رهبنة فرنسيس وسيجيء ذكره ومن الروس يارسلو المذكور. وحضر الكل بهدايا لائقة بالقآن وقد عجز قلم المؤرخين قاطبة عن وصف هذا المجمع ولكن لم يحضره من أبناء چنكزخان باتوخان فقط لأنه كان غير راض بقاآنية كيوك على ما قال صاحب روضة الصفا بل أرسل أخاه بركة مع سائر إخوته وتعلل بوجع في رجله ولما قفل يارسلو راجعًا مات في الطريق فولى باتوخان مكانه ولده قنسلطانين المذكور.

فتشكلت هناك اعتبارًا من سنة ٦٣٠ أربعين وستمائة من تلك الشعبة من التتار أعني من أولاد جوجي خان دولة مستفحلة ومملكة واسعة عظيمة جدًا بحيث كانت أكثر بلاد الروس الآن وبلاد له وجه وأفلاق وبغدان وأردل والداغستان بأسرها وأذربيجان وبلاد قريم ودشت القفجق وخوارزم وسغناق وإنزار أعني التركستان إلى منتهى المعمورة من جهة الشمال داخله في تلك المملكة وكانت من جهة الجنوب محدودة بنهر طونة والبحر الأسود وبما وراء بلاد أذربيجان وبحر الخزر وشرقًا ببلاد ما وراء النهر وما وراء تركستان وغربًا ببلاد الروس الأوروبية وشمالًا بمنتهى المعمور.

وقد قال الذهبي والعمري والمفضل وغيرهم من محققي المؤرخين والمعتمنين بضبط أحوال الممالك والمسالك أن مسافة تلك البلاد طولاً من الجنوب إلى الشمال ثمانمائة فرسخ وذلك مسافة ستة أشهر وعرضًا من الشرق إلى الغرب ستمائة فرسخ ذلك مسافة أربعة أشهر وبالجملة إن أكثر بلاد الروسية الآن كانت داخله في تلك المملكة مع زيادة من طرف الجنوب.

وكانت هذه المملكة بأسرها تسمى بجوجي الوسي يعني حصه جوجي ومملكة باتو وبرية بركة ومملكة بركة ومملكة دشت القفجق والمملكة الشمالية والبلاد الشمالية ومملكة أوزبك وآلتون أوردو يعني الأوردو الذهب ومملكة التتار مطلقًا وغير ذلك من الأسامي المختلفة ملوك الدشت وملوك القفجق وملوك الشمال وملوك البلاد الشمالية من القاب ملوك تلك الديار. وهذه الأسامي كلها كانت شاملة لما حوته تلك المملكة

وما جرى فيها أحكامهم من البلاد كلها وإن كانت بلاد الدشت جزءاً منها في الحقيقة وإنما اشتهرت تلك المملكة بمملكة الدشت ومملكة القفجق ودولة القفجق مع انقراض القفجق واطمحلالهم بالكلية لكون دار ملكهم وكرسي سلطنتهم بلدة سراي في أرض دشت القفجق المشهورة من القديم بهذا الاسم، كما قدمناه في بيان أحوال القفجق، ولكون تلك الدشت أعني البرية مصيفهم ومقرًا ومجالاً لمعظم عساكرهم مع أنهم لم يتقرضوا بالكلية بل انقضت دولتهم فقط.

قال النويري^(١) في وصف هذه المملكة: وهذه المملكة متسعة الجوانب طولاً وعرضاً كثيرة الصحراء قليلة المدن وبها عالم كثير لا يدخل تحت الحد. وهذه المملكة قديماً هي بلاد القفجق فلما فاضت عليها التتار صارت القفجق لهم رعايا ثم خالطوهم وناسبوهم وغلبت طبيعة الأرض على الجبلية والأصل فصار الكل كالقفجق جنساً واحداً لكون المغل بأرض قفجق ومصاهرتهم لهم ولكون بلادهم في أرضهم وهكذا طول المكث في كل أرض وبلد يجر النحائز إليها ويحول الغرائز إلى طباعها وأترك هذه البلاد إلى آخر ما نقلنا عنه عند بيان أحوال القفجق.

وقال ابن عربشاه^(٢) في وصف دشت قفجق وأهلها وكانت دشت القفجق والبركة بلاداً بالتتار خاصة بأنواع المواشي وقبائل الأتراك غاصة محفوظة الأطراف معمورة الأكناف فسيحة الأرجاء صحيحة الماء والهواء حشمها رحالة وجنودها نبالة أفصح الأتراك لهجة وأزكاهم مهجمة وأجملهم جهة وأكملهم بهجة نساؤهم شמוש ورجالهم بدور وملوكهم رؤوس وأغنياؤهم صدور لا زور فيهم ولا تدليس ولا مكر بينهم ولا تلبس ولا رواج فيهم لمتاع إبليس، دأبهم الترحال على العجل مع أمان لا يدانيه وجل الخ. وأما إضافتها إلى بركة فلكونها أول من أسلم منهم وأسس الموالة بملك الإسلام وخليفة المسلمين واشتهاره بذلك بين أهل الإسلام كما ستفق عليه في ترجمته وأما إضافتها إلى أوزبك فلكونه أشهر ملوكها وأشدهم سطوة وأكثرهم حرباً وضرباً واختلاطاً بالملوك المصرية على ما يجيء إن شاء الله تعالى. وكان أكثر مجالاتهم في الدشت وولايات صاري طاغ وپينزا وطنبو وساريچين وأطراف نهر دون

(١) النويري: تقدمت ترجمته.

(٢) ابن عربشاه: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل، ثم الرومي، الحنفي، شهاب الدين أبو محمد المعروف بابن عربشاه، الأديب المؤرخ، ولد سنة ٧٩١ هـ، وتوفي سنة ٨٥٤ هـ. تقدمت ترجمته الوافية.

(تن) وبلاد قريم وحاجي طرخان وكانوا يحكمون في تلك البلاد بالذات أعني بواسطة الولاة والنواب المنصوبين من أمراء التتار، وأما ما سواها من البلدان كبلاد الروسية والتوانية وبلاد له وجه وأولاخ وغيرها فكانوا ينصبون فيها حكامًا من أهل تلك البلاد حسب ما يتفق عليه الأهالي فإن اختلفوا كان فيه الاختيار للخان وكانوا يأخذون منهم خراجًا معينًا في كل سنة وربما كانوا يأخذون منهم العساكر وقت الحاجة ولم يبق في الروسية ناحية لم يطأها أقدام التتار ولم يبايعهم حاكمها إلا نووغورد، وقد قدمنا أن باتوخان رجع عنه بعد أن لم يبق بينه وبينها إلا مائة ويرستا روسية، فقد قيل إنه رجع عنه لأجل صعوبة الطريق من الوحل والطين والمياه كذا قال كارامزين في موضع من تاريخه وقال في محل آخر إن ذلك كان بتدبير حاكمها الكساندر النيفي ولكنه لم يذكر ماذا كان هذا التدبير عنه وعلى كل حال لم يحضر الكساندر المذكور عند باتوخان وكان يحرض الروس على العصيان والخروج على التتار ويدعوهم إلى الاتفاق والاتحاد ولكن لم ينتج ذلك شيئًا وقد اطلع باتوخان على هذا الفكر منه فأرسل إليه يهدده إن لم يحضر لديه على العادة وقال: أنت الكساندر كيناز نووغورد أما تعلم أن الله سبحانه سخر لي هؤلاء الأقوام كلهم وجعلهم مطيعين لي أتتمني أنت فقط أن تكون مستقلًا فإن أردت أن تعيش حاكمًا بالأمن والراحة فعليك أن تجيء عندي وتمثل لدي وتقر لي بالطاعة والانقياد بلا توقف، فلم ير بدأ من تقديم الطاعة والبيعة والانقياد ولو في الظاهر، فقدم إلى مدينة سراي مع أخيه أندري وبعض بطاريقته وبايع باتوخان وعاهده بالطاعة والانقياد، فأرسلهما باتوخان إلى القآن الكبير فذهبا هناك ووصلا إليه بعد مقاساة أنواع التعب والمشقة واستشعار صنوف الخوف والدهشة ثم رجعا إلى الروسية سنة ١٢٤٩ ميلادية مصادفة سنة ٦٤٧ هـ. وقد أعطاه القآن جنوب الروسية وكانت أولاً تحت إدارة عمال باتوخان وكذلك أعطاه بلدة كيف ونصب أخاه أندري حاكمًا بولاديمر فاشتكى عمهما سوه توسلا منها لباتوخان ولكنه لم يلتفت إلى شكايته ولم ينقض حكم القآن بل أعطاهما منشورًا متضمنًا للإذن بالتصرف فيما ولاهما القآن.

فدام الكساندر المذكور على الطاعة إلى أن مات ولم يصدر منه ما يغير الطاعة في الظاهر وإن كان في الباطن محروق الفؤاد من أجل تبعيته للتتار وكان مجيئه من بلاد التتار عيدًا كبيرًا للروسية لأنه كان مستندهم ومعتمدهم وقد قدم إلى أوردا مرارًا كثيرة وقدم للخان هدايا وفيرة من الذهب والفضة واستمال قلوب الخان والأمراء وخلص الروسية بهذا التدبير من تعرض التتار وعين ولده واسيلي في نيژني نووغورد

هذا ما قاله كارامزين في حقه ولعل هذا هو ما أراده كارامزين من تدبيره وأما سائر حكام الروس فلم يخطر ببال أحد منهم فكر الخروج من طاعة التتار وإعادة الاستقلال بل داموا على الشقاق والنفاق وحل عرى الاتحاد وشق عصا الاتفاق وكان يأتي كل منهم مدينة سراي ويشكو من الآخر إلى باتوخان ومن بعده من خوانين التتار فيعزل الخان من يرى المصلحة في عزله وينصب مكانه من يرى المصلحة في نصبه ويشن عليهم الغارات إذا بغوا وخالفوا أمره وتمردوا، ولكن لم يقع ذلك أعني شن الغارات إلا مرة واحدة في عهد أوزبك خان كما ستقف عليه في محله إن شاء الله، وأما في سائر تلك المدة المديدة فكانوا مستريحين مطمئنين آمنين لا يتعرض لهم أحد من التتار فإن تعرض لهم أحد منهم أحدًا كانوا يعاقبونه أشد العقاب كما ستقف عليه أيضًا ولكن إذا صدر ما يغير الطاعة وما يشعر بنقض العهد فإنهم كانوا يعاقبونه بما يقتضيه جرمه من الضرب والحبس والقتل، وقد قدمنا أن باتوخان أعطى بارسلاو بلدة كيف وأعطى ميخايل بلدة چيرنيغوف فكلفه باتوخان بالحضور عنده بمدينة سراي بعد موت بارسلاو، فلما أتاها أمره أمراء التتار بالمرور من النار على عادتهم الجارية في الأجنب وكلفوه أيضًا بغير ذلك فلم يفعله زعمًا منه أن هذه الأفعال منافية للنصرانية فهده باتوخان إن لم يفعل فأبى فأمر بقتله فقتلوه، وهكذا كانوا يفعلون بمن لم يأتهم بأمرهم، وأما إذا لم يصدر منهم شكاية من بعضهم أو مخالفة لأمرهم فلم يكونوا يتعرضون لهم قط بل كان كلا الفريقين مستريحين ولكن حكام الروس كانوا فيما بينهم في الشقاق والنفاق والشكاية إلى الخوانين دائمًا فكان فضلهم هذا أعظم خدمة وأقوى آلة في تسخير بلادهم وضبطهم واستمرارهم مدة مديدة تحت حكومتهم وسيادتهم.

ودام هذا الحال بلا تغير وتبدل مدة مائة وثمان وثلاثين سنة أعني من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٧٧٨ ثم وقع الاختلاف بين ملوك التتار وحدث الاختلال في ضبط البلاد والأقطار بموت بردي بك خان فاغتنمت الروسية تلك الفرصة وأبرزوا ما أسروه مدة مديدة من الخروج من رقية التتار ورفعوا ألوية العصيان وحاربوا المرزا ممائي وكان قد استقل بخطة قريم في أثناء تلك الاختلال وغلبوا عليه وكسروه وهزموه. ثم لما عاد توتقماميش خان أعادهم إلى الطاعة في سنة ٧٨٣ واستمروا على ذلك طوعًا وكرهًا مدة مائة سنة أخرى تقريبًا ثم انقلبت الأحوال وانعكست الآمال ووقع بين ملوك التتار الاختلال وادعى أمير كل ناحية لنفسه الاستقلال وحدثت بينهم الجدل والقتال، فلا جرم اغتنم الروسية ذلك الاختلال وأعادت لبلادهم وحكومته الاستقلال الحكم لله

الملك المتعال كما يجيء تفصيل ذلك . وكانت مدة دوامهم تحت حكومة التتار مائتان وأربعون سنة تقريبًا، ولكن التتار لم يداخلوا في شيء من أمورهم الداخلية قط بل كانوا يقنعون منهم ببذل الطاعة وأداء الجزية . وكانت الروسية كلما مات لهم الكيناز يلزم من هو مترشح للجلوس مكانه أن يذهب إلى حضور الخان وأخذ المنشور منه للحكومة فكان كل من له مناسبة بالحاكم الميت منهم بالبنة أو الأخوة أو القرابة يأتي مدينة سراي فيتوسل هذا في تمشية أمره إلى الخان بولد الخان وذاك بالوزير وهذا بشيخ الإسلام أو بواحد من قرناء الخان فكل من يتعلق بإرادة الخان بكونه كينازًا كان يختاره للكينازية ويعطيه المنشور بذلك ويرجع الباقون قائدين فرسه، ويضم الخان إليه واحدًا من أمرائه مع طائفة من العسكر ومعه فرامان الخان فإذا وصل إلى مقر حكومتهم كان يدخل أكبر كنائسهم بفرسه فيجتمع لديه أعيانهم وأمراؤهم وكبراؤهم، فيستدبر الأمير المذكور بفرسه أكبر أصنامهم ويقرأ عليهم فرامان الخان المتضمن لتولية من ولاء الخان ويأمر الباقين بإطاعته ثم يرجع إلى الأوردة . ومتى أتاهم الآتي من طرف الخان لمصلحة ما كان الكيناز يستقبله ماشيًا من مسافة بعيدة وإذا انصرف كان يشيعه كذلك إلى مسافة بعيدة .

وكان من جملة ما ضربوا عليهم من الجزية على ما قيل مقدارًا معينًا من العبيد والجوار كانوا يسلمونها كل سنة وكان محصل الخان ومستوفي الخراج يذهب كل عام في وقت معين إلى بلدة موسكوا لاستيفاء الخراج المضروب عليهم واستلام هؤلاء العبيد والجوار فيريهم الكيناز ويصفهم في ميدان واسع فينتخب المأمور منهم العدد المعين مما يعجبه ويترك الباقي، وهذا الميدان موجود إلى الآن في بلدة موسكوا يقال له بالروسية ديتسكي پول يعني ميدان الأولاد يقال إن أهل بلدة مسوكوا يذهبون بأولادهم هناك ويذكرونهم بما فعل التتار بهم ليزيد غيظهم وعداوتهم وغلظتهم عليهم وعلى سائر المسلمين ويحذرونهم من مخالفة أولي الأمر منهم ويوصونهم بالحمية الوطنية لئلا يبتلوا بمثل تلك البلية ثانيًا، ومع ذلك كان كبراء الروسية وأمراؤهم يعطون بناتهم باختيارهم للخان أو أحد أولاده أو أمرائه يتوصلون بذلك لاختطاف أخبارهم والوقوف على أسرارهم الخفية وربما كانوا يريدون بذلك الإضلال والإغواء بواسطة البنات والبنات عند الروسية هن أعظم الأسباب والآلات في ذلك إلى هذه الأزمان والأوقات . هذا ومع ذلك الاستيلاء والغلبة لم تتعرض للتتار لأموهم الداخلية قط دينية كانت أو ملكية بأدنى تعرض بل تركوهم في ذلك أحرارًا مستقلين بحكم أنفسهم يجرون أحكامهم الدينية والملكية

كيف شاؤوا، بل إذا حصل لهم عائق ومضايقة في أمورهم الدينية كانوا يشكون إلى الخان ويرفعونه إليه ويعرضونه عليه فيدفع عنهم العوائق ويزيل عنهم الموانع ويخلصهم من المضايق كما فعلوا في مادة كنائسهم من الشكاية من طائفة باسقاق في عصر أوزبك خان، كما سيجيء صورة فرمانه في هذا الخصوص في ترجمته، وهذا عكس ما يفعله الروسية في حقهم وحق جميع طوائف المسلمين الذين هم تحت تصرفهم مذ استولوا عليهم إلى يومنا هذا من إجراء المعاملات الشديدة وتضييقهم بالمضايقات العديدة وإبداء الموانع الشنيعة عن التمسك بأحكام الشريعة وغضبهم منهم أمورهم الدينية بعد أن سلبوا منهم الحكومة والقوة بالكلية ونظمهم إياهم في سلك العسكرية واستخدامهم إياهم في الخدمات الردية وأخذ الخراج والحزبة منهم وإذاقتهم أنواع الأذية بحيث قد أضاق الخناق وبلغت الروح التراق حسبما نشرحه إن شاء الله في المقصد الرابع الذي هو نتيجة هذا الكتاب ولب هذا الخطاب لله در من قال شعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

ومن العجب أنهم مع ذلك يعدون التتار من الأقوام الوحشية ويعدون أنفسهم من أرباب المدنية هيهات هيهات شتان ما بين الهيئات والهيئات والله در من أفاد في مثل هذا وأجاد شعر:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

وأعجب من هذا ادعاؤهم المضاهاة بأهل أوروبا في التمدن والإنسانية كيف يدعون ذلك مع وجود الفرق الظاهر فيما هنالك أنسوا معاملتهم بالموسويين أعني اليهود ولم يمض لها سنتان بل هم متلبسون بها إلى الآن أم أغضوا عن معاملتهم بالمسلمين وهم متلبسون بها الآن حيث يلجئونهم إلى ترك الأوطان وهجر الإخوان والتشتت في سائر البلدان بأنواع التضييق والعدوان وحالة أهل أوروبا هي بث العدل والأمان وترفيه الرعايا وتعمير البلدان فشتان ما بين المأمون والطحان شعر:

يا بارق بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

نعم إنهم يضاھون في فعلهم هذا بأسبانيا بل يتأسونهم فيه ولم يدروا أن صدور هذا الفعل من إسبانيا إنما كانت فيما سلف من العصور حيث كانت أهل أوروبا في تلك الأزمان من التمدن والإنسانية في غاية من النفور فتأسى من يدعي كمال التمدن بمن كان في مرتبة الحيوان من كمال الجهل وغاية النقصان ولا يتفكرون أن إسبانيا قد

جلبت لنفسها الهلاك والبوار بفعلها هذا^(١) وليس كلاً منا فيما صدر وقت الاستيلاء فإنه مستثنى لكونه ضرورياً وجبرياً ومشترکاً بين الكل. بل ما صدر من الروسية حين الاستيلاء أفضح وأبجح من الكل فإنه كان من عادات التتار الدعوة أولاً إلى الطاعة فإن قبلوها كانوا لا يتعرضون لهم بسوء قط يعرف ذلك من سير تواريخ وقائعهم وقد فعلوا ذلك بالروسية ولكنهم ما قبلوها بل قابلوهم بسوء مثل السب والشتيم وقتل سفرائهم على ما ذكره مؤرخو الروسية وما كتموه من قبائحهم أكثر وإنما الكلام فيما صدر بعد الاستيلاء وقبول الطاعة ونهاية الانقياد وحصول المواثيق والمعاهدات من الطرفين بعدم العصيان والمخالفة وعدم التعرض للدين والسياسة وترك المناقشة ومرور دهور كثيرة على ذلك بحيث لم يصدر من التتار أدنى مخالفة بل كانوا في المحاربة فليزن المنصف معاملتهما بميزان عقله خالياً عن الاعتساف ومتلبساً بالإنصاف يدرك كنه الأمر وحقيقته والله الهادي إلى سبيل الرشاد وكانت الروسية أدركت خطأ التتار في سلوكهم هذا المسلك.

وهذا الذي بيّناه سابقنا إليه الاستطراد فلنرجع الآن ما كنا بصدده ونقول: إن باتوخان لما اطمئن خاطره من جهة ضبط البلاد وتنسيق أمور المملكة وترفيه العباد خص بعض إخوانه الذي صدر منه في خلال المحاربة شجاعة وإقدام بإعطاء بعض الأراضي والولايات من مملكته من جملتهم أعطى أخاه الأكبر أوردا إمرة ناحية تشتمل على عشرة آلاف بيوت وأقطع لأخيه شيبان ولاية يشتمل على خمسة عشر ألف بيت وأقطع أيضاً مملكة كورل وغير ذلك من الولايات.

قلت: قد ذكر المؤرخون أن چنكزخان كان أعطى حفيده أورده ابن جوجي ولاية غزنين وباميان وبقيت تلك الولاية في يد ذريته مدة مديدة والله أعلم.

قلت: وهذه المملكة أعني مملكة باتو وإن كانت في وصية چنكزخان مرتبب بحكومة القآن ومحكومة عليه كسائر ممالك أولاد چنكزخان إلا أن ملوكها لم يدعنوا للقاء ولم يتقادوا له من أول أمرهم ولم يقفوا مع يسق چنكزخان كوقوف غيرهم خصوصاً بعد موت باتو وتشرف بركة خان بشرف الإسلام فكانت تلك المملكة مملكة مستقلة بحكم نفسها بل كانت لها تفوق وتسلط وتحكم على غيرها حتى على حكومة القآن كما ستقف عليه في أثناء الكلام على ملوكها إن شاء الله تعالى.

(١) أجل نظرک الآن إلى الجرائد ترى فيها ما جنى إسبانيا بتضييقها بمسلمي جزائر فيليبين. منه عفي

وقوع الخلف بين كيوك قآن وبين باتوخان وقصد كل واحد منهما صاحبه

ومصدق هذا القيل والقال ومصدق هذا المقال ما وقع بين باتو وكيوك قآن من المناقشة والجدال وبيانه على الإجمال أن أوكداي قآن كان حين ولوه القانانية شرطهم أن يكون القانانية بعده في ذريته وقبله الباكون فلما مات تعين ولده الأكبر كيوك وبموجب الشرط المذكور للقانانية وكان المذكور حين موت أبيه أوكداي قآن غائباً عند باتوخان مشتغلاً بفتح بلاد الروس على بعض الأقوال وعند ناحية من مملكتهم على بعض آخر منها وهو الصحيح والصواب فتصرف في الملك إلى حين حضوره أمه توراكيينا زوجة أوكداي، فلما حضر اجتمع أولاد چنكرخان وأحفاده لديه لإجلاسه على سرير القانانية على حسب أصولهم واجتمع في ذلك المجمع خلق لا يحصرون من جميع أقطار الأرض آسيا وأوروبا، وقد عجز المؤرخون عن بيان هذا المجمع واتفقوا على أنه لم يقع مثله على ما مر بيانه آنفاً، ولم يحضر باتو في ذلك الاجتماع إما لبعده المسافة وإما لشيء آخر بل أرسل بدل أخاه بركة مع واحد آخر مع إخوته فلم يلائم هذا الفعل من باتو لكيوك قآن ثم إن كيوك قآن كان قد تنصر بإضلال أتاكبه قداق خان وكان نصرانياً وكان في بلاد المغل من القسيسين والرهابين والمطارنة ما لا يحصى، كما سنذكر نبذة من أحوالهم، فاغتنمت هؤلاء الشياطين ذلك وأظهروا وساويس كثيرة في إذلال الإسلام والمسلمين وإهانة الدين المبين وهموا باستئصال شائفة المسلمين ولكن كان بين بلاد أوروبا مملكة كيوك قآن حائل كبير وهو ممالك باتو وكان المذكور يحب المسلمين، كما قدمنا، فالتجأ إليه المسلمون واستغاثوا به وأغرى القسيسون أيضاً كيوك قآن بباتوخان وحسنوا له ورفعوا من البين واشتيلاه على بلاده فعزل باتو كيوك قآن من القانانية وجاهره بالمعصية فاستشعر كيوك قآن بذلك فعزم على قصده وأرسل فرقة من العساكر صحبة الچيكتاي نوبن إلى طرف آذربيجان وأران وكان بها وقتئذ عمال باتوخان وأمرهم بالقبض على عماله وإرسالهم إليه مقيدين والاستيلاء على أطراف بلاده، ولما سمع نواب باتو بذلك وليس عندهم خبر من أصل القضية بل هو أمر فجائي وأمر القآن واجب الإذعان عندهم، أرسلوا إلى باتو يعلمونه بذلك ويستشرونه فيما هنالك ولكن وصل الچيكتاي قبل عود جواب باتو إليهم فقبض عليهم وهم مستسلمون إليه، لما قدمنا آنفاً، وقيدهم وأراد حملهم أي كيوك قآن ففي تلك الساعة بعينها عاد جواب باتو إلى نوابه بالقبض على الچيكتاي ومن معه وقيدهم وحملهم إليه .

فقامت شيعة أولئك النواب المقيدين وفكوا قيودهم وأمسكوا الجيكتاي ومن معه وقيدوهم وحملوهم إلى حضرة باتو فساق الجيكتاي بالماء الحار فلما بلغ ذلك كيوك قآن عز عليه وعظم ذلك لديه فجمع ستمائة ألف فارس وقصد باتو وجمع باتو أيضًا عساكره وقصده فلما تقاربا بحيث لم يبق بينهما إلا مسافة عشرة أيام أو ثماني مرحلة مات كيوك قآن فجأة، ذكر ذلك المؤرخ ابن فضل الله العمري^(١)، ويفهم أيضًا من عبارة روضة الصفا.

وأما مؤرخو الإفرنج والروس فإنهم يقولون: إن قصد كيوك كان الاستيلاء على أوروبا وليس بصحيح لأنه لو كان كذلك لكان ذلك باتفاق من باتوخان وكما لا يخفى. وقال أبو الفرج: إن ذلك كان لتبديل الهواء وتفريج الهم الحاصل من موت أمه توراكيينا وليس بالصواب وعلى كل حال فقد كفى الله المؤمنين القتال ونجى المسلمين من شره وشر هؤلاء القسيسين وكلاء الدجال. وكان ذلك في تاسع ربيع الآخر سنة ٦٣٧ أو بعدها، وكانت مدة استقلاله قليلة جدًا قيل سنة وقيل أزيد، فلما مات اضطرب من كانوا معه من العساكر والأمراء ثم اتفقوا على مكاتبة باتو فكتبوا إليه بإعلام موت كيوك وعرضوا عليه بأنه أحق بالجلوس على كرسي القانانية لكونه أسن أولاد چنكزخان وأكثرهم قوة وشوكة وأقدمهم رأيًا. وقال أبو الفرج: لما مات كيوك اتفق جميع من معه على تولية باتو لكونه أكبر أولاد چنكزخان وأعقلهم وقدم إليه أوغلان خانمش زوجة كيوك لهذه الغاية ورجعت بعد ليلة اه فقال: لا حاجة لي بذلك ثم عين للقانانية منكو بن تولي أخا هلاكو.

قال في روضة الصفا: إن باتو لما كان ممتازًا من سائر أولاد چنكزخان بمزيد الشوكة والأبهة التامة أرسل إلى أولاد چنكزخان وسائر الأمراء يأمرهم بالحضور لديه بدشت قفجق لإجلاس منكو على تخت القانانية فتمرد بعضهم وامتنعوا عن الذهاب هناك وترك ديار چنكزخان وتوقف أولاد كيوك في محلهم منتظرين إلى عاقبة الأمر فأرسلت سورتونسي بيكه ولدها منكو لعيادة عمه باتو فأعجبه هذا الصنيع وشاهد فيه آثار القابلية للقانانية فاتفق مع من كانوا عنده من أولاد چنكزخان والأمراء الكبار على إجلاسه لكرسي القانانية وتم هذا الأمر فأرسله إلى كرسي مملكتهم كلوران مع إخوانه

(١) ابن فضل الله العمري: هو أحمد بن محيي الدين بن فضل الله بن يحيى بن عثمان، القاضي شهاب الدين العمري المقدسي الأصل، الدمشقي المولد والمنشأ، كاتب السر بالديار المصرية، ولد سنة ٧٠٠ هـ، وتوفي سنة ٧٤٩ هـ. تقدمت ترجمته الوافية.

قبلاي وهلاكو وارتق بوقا وضم إليه أخاه بركة بمائة ألف فارس لإجلاسه على التخت ولكن وقع التوقف في إجلاسه إلى سنتين بسبب عدم رضاء أولاد أوكتاي قآن بذلك فأرسل باتو إلى أخيه برکه بإجلاسه رغماً للمعاندين وأمره بإعدامهم إن خالفوا فرجع المعاندون عن عنادهم سوى نفر يسير منهم فتم هذا الأمر ورجع بركة مع من معه إلى مملكته.

وقد سبق منا الوعد بذكر بعض أحوال القسيسين المنتشرين بممالك المغل والتتار فلا جرم نذكر هنا نبذة من ذلك على سبيل الإيجاز.

[اختلاف المسلمين والنصارى في أمر الدين]

أما سبب انتشارهم فلا يخفى أن المسلمين والنصارى في أمر نشر الدين على طرفي النقيض وذلك أمر مجرب جار من قديم الأزمان فإن المسلمين عادتهم التقاعد والتقاعد في أمر الدعوة وهداية العباد لنشر الدين وكأنهم غير مأمورين بذلك بل منهيون عما هنالك مع أنه ورد في ذلك أحاديث كثيرة، بخلاف النصارى فإن لهم اهتماماً تاماً في نشر أباطيهم ودعاء الناس إلى تضليلهم فإن دين النصرانية ما انتشر في أوروبا وسائر البلاد إلا بكمال الاعتناء منهم وغاية الاجتهاد وكذلك لهم من القديم إلى الآن اهتمام تام في دعوة ملوكهم ودلالة فرقهم وشعوبهم إلى الاتفاق والاتحاد ولا يخفى ما صدر عنهم وما يصدر إلى الآن من الاهتمام في ذلك على من له أدنى إمام بالتواريخ خصوصاً على قصد المسلمين حتى هيجوا أهل الصليب قاطبة وحملوهم على محاربة المسلمين كافة حتى أنتج ذلك وقائع الأندلس واستيلائهم إلى البلاد الساحلية من بر الشام حتى ملكوا القدس منهم وبقي في أيديهم مائة سنة حتى قبض الله سبحانه لحربهم وردهم الملوك الآتابكية والأيوبية فبنوا أمام تقدمهم سدًا لمانعة بل استردوا منهم أكثر ما ملكوه وامتدت مدة المحاربة بين الفريقين إلى أكثر من مائتي سنة وهم مع ذلك لا يسأمون من القتال ولا يضحج باباهم من التحريض في ذلك والإضلال وبينما هم في أثناء ذلك وقد عاينوا ضعفهم أمام المسلمين هنالك إذ ظهر من طرف الشرق طوفان المغل وزوبعة التتار وخربت أكثر ممالك الإسلام في تلك الأقطار واستأصلت شائفة الخوارزم شاهيين الذين لم يكن أحد من الملوك مثلهم في القوة والمنعة في تلك الأعصار وعلموا أن ألواح مداركهم خالية عن نقوش الأديان وأراضي قلوبهم قابلة لزراعية بذر النصرانية واليهودية والإيمان وإن في تنصرهم للنصارى غاية الفائدة وللمسلمين نهاية الخسران فإنهم إن تنصروا تقوم هؤلاء من

الشرق وهؤلاء من العرب فيتلاشى الإسلام فيما بين هاتين الزويتين بالكلية عيادًا بالله تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

فبادر الباب إلى سوق القسيسين إلى بلاد التتار أفواجًا أفواجًا رجاء أن يتم لهم ما قصدوه فيظفروا بالمنى وإن لم يتم لهم ما أملوه فلا أقل من أن يردوهم عن قصد بلادهم فإنهم كانوا غير آمنين من ذلك بل منزعجين منهم غاية الانزعاج ومتوقعين هجومهم في كل لحظة كما قدمنا.

قال رفاعة بك في المجلد الأول من ترجمة جغرافيا ملطبرون: إن البابا الذي هو خليفة النصراني أمر القسيسين والرهابين أن يجتازوا الأنهار المتجمدة والجبال القاحلة ليستميلوا قلوب متوحشي ملوك الصحارى لأجل أن ترجع صواعق الإسلام وغاراته القهقري حيث كانت تهدد دين النصرانية. فكان هؤلاء السفراء القسيسون يتجشمون المشاق ويجوبون المفاوز وما هو أخطر منها وأشق مما هو مسكون بأجناس القبائل المتوحشة وكان دينهم الذي تضعضع وآل إلى الخراب والبطلان نجم يهتدون به في اقتحام هذه العقبات ويتسلون به ولما كانوا مشغوفين بنصرة هذا الدين وإعلاء الكلمة بين هؤلاء المتبربرين كانوا يجتازون بلا سلاح أراضي عشرين أمة متوشحة حتى يظلوا آمنين مطمئني القلوب بجانب كرسي المغل المضرس بأنواع السلاح وشدة الظلم الذي كانت برزت منه أوامر التخريب والفتك بأهل شطوط نهري هونغو ويستوله في آن واحد، ولم يكن مثل هذه الأسفار مقصورة على أفراد القسيسين بل كانت بابات رومه تبعث إلى تلك البلاد فرقًا فرقًا من المتدينين ليعظوا أهلها حمية لدين النصرانية.

قال: فمنهم الراهب أسقلين أرسله البابا إلى خانات المغل سنة ١٢٤٠ يعني الميلادية المصادفة سنة ٦٤٣ هجرية وكانوا يعني المغل قبل ذلك يسيرون خربوا بلاد له وسيليزيا والمجادة ويحكمون ببلاد الروس بغاية القهر والجبر فتوجه نحو العراق ورجع بخفي حنين وكانت مدة سفره نحو شهرين ثم في سنة ١٢٤٦ بعث البابا إلى الخان باتو الذي كان متسلطنًا ببلاد القفقق شخصًا يقال له ژان بلانوقرپين ولقبه في الديانة أخ صغير من أهل رتبة ماري فرنسيس وبعث معه أناسًا آخر فاجتاز ببلاد بوهمية يعني چه وبلاد سيليزيا وبلاد له وصادف أمم المغل في مدينة قانو^(١) على ساحل نهر دينبير

(١) لعلها كانيف أسفل من كيف. منه عفي عنه.

ثم ببلاذ قامانية حتى وصل إلى معسكر باتوخان^(١) فرجع مثل الأول صفر اليمين ولم يحصل على طائل وبقي في سفره مدة ستة أشهر.

(١) ولننقل هنا ما كتبه كارامزين نقلاً عن رحلة كاربين المذكور وقد وصل كاربين هذا إلى قراقورم وصادف تنويج كيوك قآن وإجلاسه تخت القآنية قال: إن أوروبا كانت على خوف عظيم من التتار دائماً فإن باتو خان كان على نية الاستيلاء على أوروبا دائماً فأرسل البابا ريم إينو كينتي الرابع واحداً من رهبان فرانسوا يقال له پلان كاربين إلى القآن كيوك إظهاراً للمحبة وليأخذ منه الأمان نامه أعني براءة الأمان فقال المذكور خرجنا من إيطاليا وأتيت الروسية سنة ١٢٤٦ حاملاً لمكتوب بابا إلى كيوك قآن كتبه استجلاباً لمحبهه وليربط دين الروسية بكنيسة لاتين ولما وصلنا إلى مازويا لقينا هناك واسيلكا من كيناز الروسية فقال بيأناً لعوائد التتار وأخلاقهم: إن سفركم إلى القآن صفر اليمين بمصلحة بل لا بد من الهدايا الثمينة وإلا فلا يقبلكم القآن فاشترينا هدايا ثمينة من الفرو والسمور والألبسة المذهبة فأرسلنا إلى بلده كيف ولم يقبل تكليف بابا في ربط دين الروس بكنيسة لاتين وقال: إن أخي دانيل في أوردو القآن الكبير ولا أقدر أن أقول شيئاً من غير مراجعته فأتينا بلدة كيف وقد صارت خراباً وأهلها مجتمعون حولها عراة قد أضناهم الجوع ينظرون إلينا كأنهم خرجوا من القبور والذي يراهم لا يملك نفسه من الحزن وكان حدود التتار تبتدىء من تاوريد (قريم) ولما وصلنا إلى الحدود وتركنا خيولنا هناك لانعدام ما تأكله واشترينا خيول التتار لأنها كانت تأكل من تحت الثلج وأتينا تاوريد فأحاطت التتار بنا وسئلوا عن مقصدنا وعن مجيئنا وذهابنا فأجبناهم بأننا رسل بابا الذي هو كبير جميع النصرى أرسلنا إلى القآن الكبير وقال أي ضرر وصل إليه منا حتى أخذ أراضينا جبراً وقهراً من پولشه (له) وما جار وأنني أحب الصلح لا أحاربه وأتمنى أن يقبل القآن ديننا حتى يخلص نفسه وأهله من جزاء الآخرة فلم يردوا علينا شيئاً بل أخذوا بعض هدايانا وقتعوا به وأرسلونا إلى أميرهم مع بعض منهم وكان اسم أميرهم قورمشاه (لعله خرمشاه) ومعه ستون ألفاً من العسكر يحافظون الحدود الغربي من مملكتهم فأرسلنا الأمير المذكور بعد الاستجواب إلى باتو خان فجاوزنا أراضى پالاويتسه ونهر دينبير ودون وولغا ووصلنا إلى نهر يايق وكانت تلك الأراضى كلها مصيف التتار وأما في الشتاء فكانوا يشتون قريباً من البحر الأسود وقد بنى باتو خان قصوراً في ساحل نهر وولغا وكان تحت يده ستمائة ألف من العسكر مائة وستون ألفاً منهم من التتار والباقي من النصرى وسائر الأجناس المختلفة فجاؤوا بنا عند باتو خان وقد قرب عيد الصليب فمرت التتار بنا من بين النارين وزعماً منهم أن النار تبطل السحر والأفكار الفاسدة وجاؤوا بنا خيمة باتو خان وأمرونا بالسجود مراراً حين مشاهدتنا الخيمة فدخلنا الخيمة بغاية التعظيم وقد جلس باتو خان على التخت بالعظمة فأجلسونا إلى طرف اليسار وقامت الأمراء والوزراء وعائلة الخان حوله على إقدامهم وكانت أزواجه وأولاده قاعدين على الكراسى فأعطيناه مكتوب البابا إينو كينتي بغاية التعظيم وقد حرر باللاتيني والإسلاواني والتتاري (هذا محل دقة) فقرأه باتو خان (هكذا) بالالتفات والدقة وكان يشرب القمز آناً قآنًا بكاسات الفضة والذهب وتعزف الموسيقى على الدوام وكان باتو خان مائلاً إلى الحمرة عظيم الجثة مائلاً إلى التيسم ملتفتاً مع نهاية العظمة شجيعاً وقت المحاربة إلى الغاية وصاحب دراية وتجربة وشدة وصاحب خدعة ولما قرأ المكتوب بالتمام أمرنا بالذهاب إلى القآن الكبير فشرعنا في قطع الفيافي بالشدة وصلنا في أسبوع=

ثم سفر غليوم روبرقيس وذلك أنه شاع بين الفرنساوية مكتوب مفتعل يتضمن دخول خان المغل في دين النصرانية ولغطت النصرارى بذلك حمل ذلك سنت لوزير ملك فرنسا على أن يبعث لهذا الأمر مريدًا قاصرًا من رتبة سنت فرنسيس وهو

= عيد عروج عيسى عه م إلى بيسير مين (يعني خوارزم وخيو) وتلك الأقوام وإن كانوا قبل ذلك ذي شوكة قوية وسلطنة عظيمة إلا أنه أفناهم التتار فصارت بقاياهم تبعة لهم وكانت تلك الولاية في حدود بخارا وكانت في إدارة شيبان أخي باتو خان ولم نزل نقطع الطريق من الفيافي والجبال والسهل والوعر حتى وصلنا إلى حذاء بحيرة بايقال فبقيت في يسارنا ثم وصلنا في آخر بوليه إلى بلاد مغول وهم التتار الأصلي وقد مات القآن أوكداي ولم يجلس ولده كيوك على تخت القانئية وكانت الأمور بيد والدته توراكيينا فأرسلنا كيوك إلى والدته وكانت في قصر عظيم له باب كبير وفي الباب عساكر كثيرة بأيديهم سيوف مجردة فجاؤا بنا عند توراكيينا بعد أن أمرونا بالسجدة للسرائي (القصر) وكانت الوزراء والأمراء والعساكر في غاية الاشتغال بتهيئة لوازم جلوس كيوك قآن على دست القانئية فأمرونا بالتأخر والانتظار فبقينا هناك شهرًا ثم نقلونا إلى الأوردو الذهب وفيه جمع عظيم من جميع وجه الأرض وبعد تكلفات كثيرة أجلسوا كيوك على دست القانئية في ٢٤ أغسطس وألبسوه التاج وبعد عبادات كثيرة على عادتهم ثم توجه الوزراء والعساكر وكافة الأهالي إلى كيوك ودعوا له ثم صاحوا نحن كلنا نطلب منك أن تكون قآن وأمرًا فقال لهم كيوك: فهل تطيعون أمري وتحاربون عدوي إذا أمرتكم بها فأجابوه بأننا قبلناه ثم قال كيوك متوجهًا إلى الأهالي: وأنا أيضًا قبلت القانئية فألبسه الوزراء التاج ثم أمسكوا من يده وأنزله من التخت وأجلسوه على لبد وقالوا له: إن عدلت ورحمت الأهالي يكون معينك وإن ظلمت نسلب اللبد الذي أنت جالس فيه فضلًا عن غيره فعليك بالعدالة ثم قام كلهم ورفعوه بأيديهم وجعلوه قانئا لأنفسهم وسلموا له الخزينة التي بقيت من أبيه ثم أولموا وليمة عظيمة وأطعموا الأهالي اللحم والقمز أيامًا كثيرة وكان كيوك وقتئذٍ ابن أربعين أو خمس وأربعين سنة وكان على غاية من العظمة وعاقلاً ذا دراية وأصالة ولكن كان عبوسًا ومتفكرًا وقال مقربوه من عبده النصرارى أنه مائل إلى النصرانية وسيتنصر قريبًا فإنه يأذن لقسيس النصرارى أن يعبدوا حول خيمة (قلت فقد فعل ذلك كما ذكرنا) ويعرف كيوك عدة من اللغات إلا أنه يتكلم بالمغولي وله ترجمان من كل لسان وفي حضوره كتبة السر ولكن ليس فيه كتابة أصلًا بل يرى جميع الأمور شفاهًا اهـ ما نقله كارامزين من كاربين وقد اختصره المترجم غاية الاختصار وقد علم من سكوت كاربين عن بيان أحوال توراكيينا أن ما أشاعته النصرارى قاطبة أنها تنصرت لا أصل له بل هو من مخترعاتهم المعتادة وإلا لذكره وتبجح به ثم قال كارامزين: وكان أول حكم كيوك خان في مجلس وزرائه بعد التتويج الأمر بجمع العساكر للاستيلاء على كافة أوروبا وأرسل إلى بابا إينوكتي بأمره بالمجيء لديه مع جميع حكام وامبراطور أوروبا وإن يطيعوه وإلا فيحكم عليهم السيف إجراء لوصية جنكزخان بعدم إبقاء حاكم على وجه الأرض سواهم ففي أثناء جمع العساكر لسفر أوروبا مات فجأة وجلس مكانه منسكو قآن اهـ، وهذا هو رأي كارامزين فإن صح دل ذلك على كذب ما أشاعته النصرارى أيضًا في حقه من التنصر وأما ميله إليهم فلا شك فيه لأنه مكتوب في روضة الصفا وغيره كما ذكرنا في الأصل. منه عفي عنه.

روبرقيس وأورويس بروق ومعه المرید برطلمي القريموني فسافر هذا القسيس سنة ١٢٥٣ يعني الميلادية المصادفة سنة ٦٥١ هجرية وسلك الطريق الذي سلكه سلفه وبعد التي واللتيا وصل إلى قراقوم التي هي كرسي سلطنة المغل ورجع بخفي حنين .

ومنهم مرق پول الجنويزي صاحب الرحلة المشهورة أرسله البابا سنة ١٢٧١ ميلادية مصادفة سنة ٦٧٠ هجرية بعد أن قلده رتبة البابوية وكان في عهد قبلاي قآن وبقي في سفره مدة سنة ٢٥ واستخدم في ديوان القآن وكذلك أبوه نيقولاي بولس ثم رجع وقد منح الرحلة المشهورة .

ومنهم أيضًا: أندره لوقيمل وقد سافر سنة ١٢٣٥ ليشهر دين النصرانية بين قبائل المغل والتتار وغير ذلك أيضًا مما لا يكاد يحصر ولم يزالوا بعد ذلك عدة قرون يسافرون إلى تلك البلاد وينتشرون في الآفاق مثل الجراد ويبدلون أقصى جهدهم في نشر أباطيلهم بين العباد .

قال: وسياحة هؤلاء القسيسين والرهايين قد خدمت علم الجغرافيا خدمة كثيرة حيث كشفوا من أحوال الممالك ما لم يكدر يستكشف مدة مديدة وإن كان الباعث على اقتحامهم الأخطار إنما هو شيء أجنبي عن العلم انتهى ما في جغرافيا رفاعة بك منتخبًا .

قلت: المفهوم من كلامه أنهم لم يظفروا من مقصودهم الذي سافروا لأجله بأدنى شيء مع كثرة اجتهادهم في ذلك وإقبالهم بشرائهم على ما هنالك وقد صرح بأن ما شاع بين النصراري من دخول خان المغل في دين النصرانية من الأكاذيب وليس كذلك بل له أصل على ما عرفت من تنصر كيوك قآن وما جرى بسبب ذلك على المسلمين من المحن^(١) وما آل إليه أمر كيوك وقد اشتهر ذلك في جميع الأقطار ألا ترى إلى تبجح أبي الفرج الملطي^(٢) في تاريخه حيث قال: وكان بمقام أتابكية لكيوك

(١) وقد ذكر في روضة الصفا أن بعض الملاعين منهم تمكن من حمل كيوك قآن على إصدار الأمر والفرمان بخصي كافة المسلمين الذين تحت حكمه وحملت تلك الفرمانات على عربات شتى ففي تلك الأثناء ظهر من الغيب سبع فحمل على ذلك اللعين واقتلع خصيته وقتله فحاق به مكره السيء ونجا المسلمون منه حيث أن القآن رجع عن هذا الفكر العقيم لما رأى ما آل إليه أمره ذلك اللعين اه مختصرًا. منه عفي عنه .

(٢) أبو الفرج الملطي: هو غريغوريوس بن حكيم، أبو الفرج الملطي المؤرخ، المعروف بابن العبري، رئيس أساقفة يعقوبية في بر الشام، كان أدبياً طيباً، ولد سنة ٦٣٤ هـ، وتوفي سنة ٦٨٥ هـ، تقدمت ترجمته الوافية قبل قليل .

خان أمير كبير اسمه قداق خان وكان معمدًا مؤمنًا بالمسيح وشاركه في ذلك أمير آخر اسمه جينقاي، فهذان أحسنا النظر إلى النصرارى وحسنا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهابين فصارت الدولة مسيحية وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريران والأرمن والتزم الخاص والعام من المغل وغيرهم ممن هو بينهم أن يقولوا في السلام برخمر وهو لفظ مركب سرياني معناه بارك مالكي انتهى بحروفه .

قلت: وقد أطفأ الله هذه النائرة سريعًا بهمة حضرة باتوخان كما مر، وهذا قداق خان وصاحبه اللذان أضلا كيوك قآن ما تنصرا إلا بإغواء هؤلاء السياحين فهذا من جملة نتائج تحملهم المشاق وركوبهم متون الأسفار واقتحامهم الأخطار وارتكابهم أكل لحوم الخيل وشرب ألبانها مع أنها محرمان في أديانهم حيث لا يوجد في تلك البلاد في أغلب الأوقات غيرهما وهذا هو عادة النصرارى من سالف الأزمان إلى هذه الأوان يبذلون جهدهم في نشر أباطيلهم ولو بارتكاب المحرم ولا يسأمون ولا يضجرون رجاء أن يفوزوا بشيء من الصيد. ولكن لما وعد الله سبحانه بإظهار دينه في كتابه المنزل على حبيبه المرسل لا يتروج أباطيلهم ولا يؤثر في أحد تضاليلهم ولو أثر في شردمة قليلة بعد سنين كثيرة لا يكون له دوام وهذا أمر مجرب يعلمه من يتأمل في أحوالهم فمثلم كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا لصيد الذباب فإذا وقع فيه واحد أو اثنان بعد جهد بليغ يأمر صاحب الدار واحدًا من غلمانها أو جواره بكنس البيت وتطهيره من بيوت العناكب فيهلك العنكبوت ويخرب بيته ويذهب صيده، فهذا مثالم، ألا ترى إلى ما وقع لهم من أعظم المصائب في بلاد باپونيا سنة ١٥٩٠ م مصادفة سنة ٩٩٩ هـ. فإنه هلك فيها وقتل عشرون ألف نصراني وذهبت كنيستهم الجديدة هباء منثورًا وقتل منهم فيها سنة ١٦٣٨ م مصادفة سنة ١٠٤٨ هـ. سبعة وثلاثين ألفًا بعد أن جزموا بأن باپونيا قد قبلت النصرانية ودخلوا فيها بالكلية فصار سعيهم مدة ٥٠ سنة هباء منثورًا، فإن ابتداء دعوتهم إياهم كان في حدود سنة ١٥٤٩ م مصادفة سنة ٩٥٦ هـ. بعد ضعف دولة التتار في البلاد الشمالية وصار دين النصرارى من ذلك الوقت أبغض الأديان على باپونيا والمصائب التي أصابتهم من دولة الصين حيث قتلت دعائهم ومن أجاب دعوتهم شر قتلة ما مضى لها خمس أو ست سنوات وما ذهبت مرارتها من قلوبهم بل هي ممتدة إلى الآن وواقعة زمانًا بعد زمان ومع ذلك لا يسأمون منه ولا يضجرون فهذا هو دأبهم دائمًا. وأما أهل الإسلام فهم بضد هؤلاء في كمال الاستغناء عن أمثال هذه الأمور ألا ترى إلى من أسلموا في إنكلترا وأمريكا ينادون المسلمين بأعلى

صوتهم يطلبون منهم العلماء لا غير فلا أحد يجيب نداهم ويلبي دعوتهم بل ألف بعض أرباب القصور رسالة في تكفيرهم إنا لله وإنا إليه راجعون. فلو اتفق وقوع مثل ذلك للنصارى لامتلاً الآفاق بقسيسهم ورهبانهم هذا وقد ساقنا الاستطراد على ذلك حتى كدنا نخرج من المقصود ولكن الشيء بالشيء يذكر وإلحاق النظر بالنظير مما لا يستنكر.

قلت: وهؤلاء القسيسون والرهبان الذين وردوا إلى بلاد التتار لنشر النصرانية كان كل واحد منهم يخترع في ناحية الشمال ملكاً نصرانياً يسمى بالملك يوحنا^(١) ويذكر منه عجائب وغرائب مع اختلاف أزمتهم. وكان القائل بذلك أيضاً أبو الفرج الملطي وجعله أونك خان من قبيلة كيراييت كما ذكرنا. وقد كان موت أونك خان على يد چنكرخان سنة ٥٩٩ هجرية، وهؤلاء القسيسون كان أسفارهم بعد ذلك بسنين كثيرة كما بينا، فكيف يصدق قولهم بأنهم رأوه ولقوه اللهم أن نقول: إن أونك خان لما كان عندهم من الأولياء لا يستبعد حياته بعد موته أو أن يظهر لهم بعض قديساته للترحيب بهم واستمالة قلوبهم حيث إن كلاً بذلك حقيق لمجيئهم في سبيل المسيح من مكان سحيق وليس صدور أمثال هذه الخرافات منهم بعجيب، وإنما العجب صدورها من مثل أبي الفرج الملطي مع اطلاعه على العلوم والفنون ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور فإذا ارتكب أبو الفرج الذي هو أمثلهم طريقة مثل هذه الخرافات ماذا نقول في حق غيرهم.

وكذب هؤلاء القسيسين في حكاياتهم الملك يوحنا غني عن البيان ويكفي في ذلك تناقض أقوالهم وعدم ذكر المؤرخين من أهل الإسلام إياه مع شدة توغلهم في أخبار تلك الناحية أعدل شاهد على كذب قولهم وإنه مخترع بلا مرية.

لا يقال: إن عدم ذكر مؤرخي الإسلام إياه إنما يكون لعدم اطلاعهم عليه لأننا نقول إن هذا ممنوع فإن الإسلاميين لهم يد طولى في الاطلاع على أحوال بلاد الأتراك من قديم الأيام والنصارى كانوا أولاً يستمدون في الاطلاع على أحوال تلك البلاد من كتب الإسلاميين مثل كتاب ابن حوقل والإصطخري وأبي يزيد البلخي وابن خرداذبه وابن داسته وغيرهم ويعترفون بقصور باعهم في ذلك، حتى أن بطلميوس لم يكن له علم بتلك البلاد صرح بذلك في جغرافيا رفاعة بك وإنما حصل لهم العلم

(١) ذكره أيضاً في الجلد الأول من ترجمة جغرافيا ملطرن الفرانساوي. منه عفي عنه.

بأحوال تلك البلاد بعد انتشار تلك القسيسين فيها، كما مر ذلك صريحًا في قول رفاعة بك، فالقول بأن النصارى يمكن لهم أن يعلموا ما لا يعلمه الإسلاميون بعيد عن جادة الصواب صادر عن من ليس له اطلاع في هذا الباب خصوصًا بعد ظهور التتار فإن أكثر وزرائهم وكتابهم وإن لم نقل كلهم حتى وزراء القآن كانوا من المسلمين وانتشروا معهم في جميع بلدانهم ونشروا أنوار الإسلام في أقطار ممالكهم وضبطوا أحوالهم التاريخية والأنتوغرافية فكيف يتوهم أنهم لم يطلعوا على ذلك مع اطلاع النصارى هيئات لا يخطر ذلك ببال أحد اللهم إلا إن كان متفرنجًا كلما يسمع ضرورة الإفرنج يقول له يرحمك الله فلم يبق إلا كذب النصارى في حكاية تلك الأحوال على ما هو عادتهم المستمرة في أمثال ذلك لترويح أعراضهم الفاسدة هذا.

[بلدة أكك]

تنبيه: قال أبو الفدا في تقويم البلدان (الأكك): وهي بليدة على جانب الأتل من الجانب الغربي وهي بين سراي وبين بلغار وهي منتصف الطريق بينهما وهي على كل واحدة منهما على نحو خمسة عشر مرحلة وإلى الأكك ينتهي أوردو ملك التتار ببلاد بركة ولا يتجاوزها اهـ.

وقال بعض أرباب الجغرافيا وأنتوغرافيا من الروسية: بعد أن نقل عنه هذا الكلام أن في أعمال سراطاو وبقرها قرية للروسية تسمى أديك وكذلك الجبل المستطيل بقربها يسمى بهذا الاسم وكثيرًا ما توجد بها آثار قديمة مثل الخاتم والسكة المضروبة وكسرات الفخار الصيني تدل على أنها من بلاد التتار القديمة ثم استشكل كلام أبي الفدا بأنه لو كان مراده باكك هو هذه القرية فقوله وإلى الأكك ينتهي أوردو ملك التتار غير صحيح لأن هذه القرية في وسط مملكتهم لا في آخرها اهـ.

قلت: يحتمل أن يكون مراده أن هذه البليدة هي منتهى أوردو ملك التتار بالذات يعني منتهى أعمال مدينة سراي ومضافاتها التي كان تسمى بالأردو وما وراءها متعلق بولاية بلغار من جملة أعمالها ومضافاتها وإن كانت من جملة ممالك التتار فإنه قد تقدم أنهم أبقوا البلغار وما والاها في يد أميرها على أنها من جملة ممالكهم وأهلها من جملة رعاياهم فلا محذور في كلامه على ذلك ويحتمل أن يشتبه على أبي الفدا موقع أكك هذه التي ذكرها فإن ابن بطوطة قد ذكر بليدة أكك عند ذكر سفره من حاجي طرخان إلى قسطنطينية وقال: إنها على عشرة مراحل من سراي وأنها منتهى

أعمال سراي وبعدها بيوم واحد يرى جبال الروسية فيمكن أن يكون مراد أبي الفدا هو هذه البلدة بل اليقين أنه هي هذه فيكون قوله: إنها على جانب الأتل وأنها بين سراي وبلغار مبنياً على الاشتباه فإن هذه الأكك التي ذكرها ابن بطوطة ليست على ساحل الأتل ولا بين بلغار وسراي والله سبحانه أعلم.

[وفاة باتوخان]

توفي الملك الصاين باتوخان سنة ٦٥٣ وقيل بعدها بسنة وقيل سنة ٦٥٠ والأول أصح فيكون مدة سلطنته قريباً من ثلاثين سنة فإنه تملك بعد موت أبيه سنة ٦٢٤ كما مر وباقي الأقوال مبني على الاشتباه والله أعلم.

قال كارامزين نقلاً عن كارپين سفير البابا: كان باتوخان جسيماً وجهه مائلة إلى الحمرة ملتفتاً مع عظمة مائلاً إلى التبسم شجيعاً في المحاربة ذا دراية وشدة مجرباً للأمر ذا خدعة ودهاء اهـ.

وقال في روضة الصفا: ولما مات جوجي جلس باتو مكانه واستخلص بقايا قفچق واللان واللاص (لزكي) والروس وبلغار وغير ذلك وجلس على تخت الحكومة بحدود أدل وبنى بها بلدة يقال لها سراي وكان حكمه جارياً على كافة أولاد چنكزخان ولم يكن هو متقلداً لدين ومذهب ولم يعلم شيئاً غير عبادة الله وحده وليس لما يعطيه ويهبه حساب ولا لجوده وإحسانه إحصاء وكتاب. وكان ملوك الأطراف وغيرهم ممن قطنوا في الآفاق يتوسلون بخدمته بأنواع الهدايا والتقاديم وكان يفرق الأموال قبل وضعها في الخزنة إلى المسلمين والمغل وسائر حضار المجلس وكان لا يلتفت إلى القليل والكثير، وكان التجار يحملون إليه الأمتعة والأقمشة من أقطار الأرض ويبيعونها منه بأضعاف قيمتها وكان يكتب البراءات والفرامين لسلاطين الروم والشام وغيرهم وكل من وصل إليه كان لا يرجع من غير نيل مقصوده ومطلوبه، وكان يرسل العساكر أحياناً إلى الأطراف والجوانب حسب مقتضى الوقت وبعد موت كيوك جلس منگو على سرير القآنبة بسعيه، وكان دائماً مشغولاً بالعيش والطرب وهجم عليه هاذم اللذات في شهور سنة ٦٥٣ ثلاث وخمسين وستمائة اهـ.

[صرتق خان بن باتوخان]

صرتق خان بن باتوخان قال ابن خلدون: ولما هلك باتوخان بن دوشي خان ولي مكانه أخوه صرتق فأقام ملكاً سنتين وهلك سنة ثنتين وخمسين وستمائة.

وقال العيني: وخلف باتو من الأولاد ثلاثة وهم طغان وبركة وبركجار فنازعهم أخوه يعني أبا باتو المملكة واستبد بها دونهم وكان اسمه صرتق بن دوشي خان فاستقر في هذه السنة ٦٥٠ في الملك بالمملكة المذكورة ومات في سنة ٦٥٢ حتف أنفه وكان مدة ملكه سنة وشهر أو لم يكن له ولد اهـ.

وقال النويري: واستقر ملك هذه البلاد بيد دوشي خان ثم بيد باتوخان ثم بيد صرتق ابني دوشي خان ثم في أولاد باتوخان وإخوانه الخ. فجعل هؤلاء كلهم صرتق ابن جوجي وأخا باتو وجعل العيني وابن خلدون وفاة باتوخان سنة خمسين وستمائة والله أعلم.

وقال منجم باشي: وكان صرتق حين وفاة أبيه باتوخان عند منغو قآن فنصبه منغو قآن خاناً مكان أبيه وأرسله إلى دار ملكه بعد تكميل مهماته ولكنه توفي في أثناء الطريق قبل وصوله إلى دار ملكهم فأرسل (يعني صرتق أو منغو قآن) مكانه أخاه أولاغچی بن باتو فمات في مدة يسيرة فجلس مكانه بركة خان اهـ.

وذكر أبو الغازي أيضاً مثل ما ذكر منجم باشي من تولية صرتق بعد باتو وتولية أولاغچی بعد صرتق وإن لم يذكر كون صرتق عند منغو قآن وكان الفاضل المرجاني أخذ عن هذا ولكن الذي ينقل عن كارامزين هنا وفيما سيجيء بعد أعني جعله أولاغچی وزير بركة ومدبر مملكته أوفى بمثابة ناظر المستملكات مخالف له والمنقول عنه هنا هو هذا.

وقال كارامزين أثناء بيان حوادث سنة ١٢٥٠ مصادفة سنة ٦٤٨ هـ. وكان حكومة ولاديمر وحكام أوديل في ذلك الوقت تحت حكم صرتق فإن باتو خان وإن كان حياً في الوقت المذكور إلا أنه كان لا ينظر في الأمور بل كان أحالها إلى تدبير صرتق^(١).

وقال: إن بوريسا الصغير لما بكى على جده ميخايل الذي قتله باتوخان اضطر أن يذهب إلى باب صرتق بن باتوخان وكان صرتق في ذلك الوقت بحدود الروسية ثم صار مأذوناً من صرتق بالرجوع إلى الروسية.

وقال أيضاً: وفي أوائل سنة ١٢٥٦ مصادفة سنة ٦٥٣ هـ وقع تغير عظيم في أوردو (يعني مملكة التتار) وذلك أن باتوخان توفي ذلك الوقت فأراد ولده صرتق أن

(١) وهذا هو منشأ غلط هؤلاء المؤرخين الكبار في شأن صرتق من جعله خاناً في تلك السنين. منه عفي عنه.

يجلس مكان أبيه ولكنه صار قريباً لحيلة عمه بركة فإن بركة قتله بأمر القآن (يعني منگو) وصار خاناً مكانه وكان الكساندر التيفي في الوقت المذكور حاضراً في أوردو كان أتاه بالدعوة بعد أن أناب ولده واسيلي مكانه بنووغورد اهـ. فجعلوا أعني صرتقاً منجم باشى وكارامزين ابناً لباتو وكذلك وقع في محل آخر. وسيجيء عنه مثله أيضاً في أول المقصد الثالث عند بيان بناء مدينة قزان.

وقال الحاج عبد الغفار أفندي في تاريخه: ولما توفي باتوخان ترك بعده ولدين صاري طاغ وطغان^(١) وتوفي صرتق عقب موت باتوخان وكان طغان صغيراً فتسلطن بركة خان اهـ، فقال العيني أنه مات حتف أنفه وقال كارامزين أنه قتله عمه بركة ولم يذكر غيرهم سبب موته وقد ذكر ابن خلدون في قصة طويلة أن بركة استشعر من ابن أخيه سرخاد بن بايجو محاولة قتله بالسم فقتله الخ. ولعله صرتق بن باتو ولكنه جعل ذلك في أثناء سلطنة بركة خان والله سبحانه أعلم.

أبو المعالي ناصر الدين حضرة السلطان بركة خان ابن جوجي ابن چنكزخان عليه الرحمة والغفران

ولما مات صرتاق جلس على سرير السلطنة مكانه عمه حضرة الملك بركة خان ابن جوجي خان عليه الرحمة وكان ذلك سنة ٦٥٢ على ما ذكره النويري وابن خلدون والمقرزي والعيني وقد عرفت ما ذكره صاحب روضة الصفا^(٢) وكارامزين والله سبحانه أعلم أن أي القولين صحيح وأيها خطأ. واختلف المؤرخون أيضاً فيه بأنه ابن باتو أو ابن جوجي كما ذكر ابن خلدون هذا الاختلاف في تاريخه ولكن الصحيح والصواب^(٣) أنه ابن جوجي وأخو باتو كما مرت الإشارة إليه مراراً. وقد أسلم بركة خان هذا وحسن إسلامه وجعله الله سبحانه سبباً لبقاء رفق الإسلام وانتعاشه بعد أن شارف الانعدام كما سنذكره إن شاء الله تعالى واتفق المؤرخون على أنه أول من أسلم من أولاد چنكزخان على الإطلاق ولكنهم اختلفوا في زمان إسلامه أنه كان في أيام سلطنة أخيه باتو أو بعد وفاته وبعد

(١) وسيجيء بعد ذلك أن طغان بن باتو كان توفي قبل أبيه وأن زوجته برافاشين أرادت نصب ولده تدان منگو مكان باتو نقلاً عن النويري وغيره. منه عفي عنه.

(٢) أعني في تاريخ الوفاة لا في جلوس بركة مكانه فإن هذا لم ينقل عن صاحب الروضة. منه عفي عنه.

(٣) كما أن الصحيح والصواب أن صرتق بن باتو. منه عفي عنه.

أن أفضت السلطنة إليه ذهب إلى كل منهما ذاهب لكن الحق أنه أسلم في زمن سلطنة أخيه باتو.

قال القلقشندي^(١): وكان إسلامه يعني بركة قبل تملكه حين أرسله أخوه باتو لإجلاس منگو قآن على كرسي جده چنکزخان فأجلسه^(٢) وعاد فمر في طريقه على البخارزي شيخ الطريقة فأسلم على يديه وحسن إسلامه ولم يملك بعد أخيه باتوخان إلا وهو مسلم^(٣) اهـ.

وقال الذهبي عند ذكر وفاة بركة خان: وقد سافر من سقسين سنة نيف وأربعين إلى بخارا لزيارة الشيخ سيف الدين البخارزي^(٤) فقام على باب الزاوية إلى الصباح ثم دخل وقبل رجل الشيخ وأسلم معه جماعة من أمرائه فهذا في ترجمة البخارزي نقله ابن الفوطي^(٥) اهـ. فهذا صريح في أن إسلامه قبل تملكه فإن تملكه متأخر عن التاريخ المذكور كما ذكرنا آنفاً ولكن هذا يوهم أن زيارته للشيخ سيف الدين كان بإنشاء سفر جديد من بلده ومثله في تاريخ العيني كما سننقل عنه إن شاء الله تعالى.

وقال ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار بعد أن ذكر ما جرى بين باتوخان وكيوك قآن على ما مر فاضطرب من كان معه يعني مع

(١) القلقشندي: هو أحمد بن علي بن أحمد بن أحمد القلقشندي، شهاب الدين، أبو العباس المصري الشافعي، المتوفى سنة ٨٢١ هـ، من تصانيفه: «حلية الفضل وزينة الكرم في المفخرة بين السيف والقلم»، «شرح جامع المختصرات للدلحي» في الفروع، «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»، «قلائد الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان»، «نهاية الأرب في معرفة أنساب قبائل العرب»، وغير ذلك. (كشف الظنون ١٢٢/٥).

(٢) ومثل ذلك في تاريخ ابن خلدون وكان في سنة ٦٤٨. منه عفي عنه.

(٣) انظر صبح الأعشى ٣١٣/٤.

(٤) سيف الدين البخارزي: هو سيف الدين سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي البخارزي، المتوفى سنة ٦٥٩ هـ، له: «شرح أسماء الله الحسنى». (كشف الظنون ٣٩١/٥).

(٥) ابن الفوطي: هو عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد، كمال الدين الصابوني البغدادي، المعروف بابن الفوطي، من ولد معن بن زائدة الشيباني، ولد سنة ٦٤٢ هـ، وتوفي سنة ٧٢٣ هـ، له من المصنفات: «تلقيح الأفهام في المختلف والمؤتلف»، «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة» في التاريخ، «درر الأصداف في غر الأوصاف»، «الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة»، «الذيل جامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير لأستاذة علي بن أنجب الساعي»، «معجم الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب»، «معجم الشيوخ». (كشف الظنون ٥٦٦/٥ - ٥٦٧).

كيوك بعد موته ثم اتفق رأي الخوانين والأمرء على مكاتبة باتو فكتبوا إليه بإعلامه بموت كيوك وأنه يعني باتو أحق بتخته فيفعل ما يراه فقال باتو لا حاجة لي به وإنما أبعث إليه بعض أولاد تولي وعين له منگو قآن بن تولي وجهزه إليه هو وإخوته قپلاي قآن وهلاكو وآرتق بوكا وجهز باتو معهم أخاه بركة في مائة ألف فارس من بهادرية العسكرية ليجلسه على التخت ثم يعود فأخذه معه وتوجه به ثم أجلسه وعاد فلما مر ببخارى اجتمع بالشيخ سيف الدين البخارزي من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين الكبيري وحسن موقع كلام البخارزي عنده فأسلم على يده وتأكدت الصحبة بينه وبين البخارزي فأشار إليه البخارزي بمكاتبة الخليفة المستعصم وموالاته ومبايعته ومهاداته فكاتب الخليفة^(١) وبعث إليه هدية وترددت بينهما الرسل والمكاتبات والتحف والمهاداة اهـ.

قلت: وكان إجلاس منگو قآن سنة ٦٤٨ فيمكن حمل كلام الذهبي على ذلك بأن يكون نية زيارة البخارزي مضمرة في قلبه حين توجهه لإجلاس منگو قآن بل تكون زيارته مقصودة له بالذات والإجلاس مقصودًا بالعرض فحيثئذ يرتفع الخلاف بين القولين بقي كلام العيني وهو أنه قال: وفي تاريخ بيبرس وكان السبب في إسلام بركة خان أن الشيخ نجم الدين الكبيري كان قد ظهر صيته وارتفع ذكره ففرق مريديه إلى المدن العظام ليظهروا بها شعائر الإسلام وأرسل سعد الدين الحموي إلى خراسان وكمال الدين الشرياقبي إلى تركستان ونظام الدين الجندي إلى قفچق وسيف الدين البخارزي إلى بخارا فلما استقر البخارزي ببخارا أرسل تلميذًا له كبير المحل عنده إلى بركة خان فاجتمع به ووعظه وحبب إليه الإسلام وأوضح له منهاجه فأسلم على يديه فاستمال بركة عامة أصحابه إلى الإسلام وقصد أن يبر الشيخ بشيء قبالة ما أسداه إليه فأمر له ببايظة بالبلاد التي هو فيها ليكون وقفًا على الفقراء والصلحاء وتجبي أموالها إليه وأرسل البايظة إلى البخارزي فلما وصلته قال لرسوله: ما هذه؟ قال: هذه تكون في يد الشيخ تحمي كل من يكون من جهته فقال: اربطها إلى حمار ثم أرسله إلى البرية فإن حمته من الذباب فأنا أقبلها وإن كانت لا تحمي الحمار فما عسى يكون لي فيها وأبى أن يقبلها فعاد الرسول وأخبر بركة بما قال الشيخ. فقال بركة: أنا أتوجه إليه

(١) بل في كلام بعض المؤرخين ما يدل على أن مكاتبة الخليفة واقعة قبل ذلك حيث قال في النجوم الزاهرة في سنة ٦٤٤ قدم رسولان من التتار إلى بغداد أحدهما من بركة خان والآخر من بايجو فاجتمعا بالوزير ابن العلقمي اهـ وبايجو هذا قائد جيش هلاكو في طرف أناطولي. منه عفي عنه.

بنفسى فسار نحوه ووصل إلى بخارى وأقام بباب الشيخ ثلاثة أيام وهو لا يأذن له في الدخول إليه حتى تحدث معه بعض مرديه . فقال: إن هذا ملك كبير وقد أتى من بلد بعيد يلتمس التبرك بالشيخ والحديث معه فلا بأس بالإذن له فأذن له عند ذلك فدخل إليه وسلم عليه وكان الشيخ متبرقاً فلم يكشف له عن وجهه ووضع بين يديه مأكولاً فأكل منه وجدد إسلامه على يده وعاد عنه إلى بلده وحسن إسلامه وأقام منار الدين وأظهر شعائر الإسلام والمسلمين وأكرم الفقهاء والعلماء وأدناهم وأبرهم ووصلهم واتخذ المدارس والمساجد بنواحي مملكته وأخذ بالإسلام جل عشيرته ونفذ أمره وادتدت أيامه، وأسلمت زوجته وچچك خاتون واتخذت لها مسجداً من الخيم يحمل معها حيث اتجهت ويضرب حيث نزلت وكان من شأنها وشأن زوجها ما سنذكر إن شاء الله تعالى اهـ، بتغيير ما في ترتيب بعض عباراته بالتقديم والثناء خير وهذا كالصريح في أن إسلامه بعد تملكه بل قد صرح بذلك حيث قال قبيل هذا ولما ملك البلاد أسلم وحسن إسلامه الخ .

وذكر الملك المؤيد أبو الفدا في سبب إسلامه قريباً بما ذكر العيني وعبارته في سياق قصته أن الباخري كان مقيماً ببخارا فبعث إلى بركة يدعو إلى الإسلام فأسلم وبعث إليه كتابة بإطلاق يده في سائر أعماله بما يشاء فرد عليه وأعمل بركة خان الرحلة للقاءه فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الإذن لبركة فدخل وجدد الإسلام وعاهده الشيخ على إظهاره فحمل عليه سائر قومه واتخذ المساجد والمدارس في جميع بلاده وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم اهـ . وذكر أبو الغازي في تاريخه نحواً من ذلك .

وقال ابن خلدون بعد نقله ما ذكره ابن فضل الله العمري وما ذكره أبو الفدا ومساق القصة على ما ذكره المؤيد يدل على أن إسلامه كان أيام ملكه وعلى ما ذكره ابن الحكيم يعني الشيخ نظام الدين أبا الفضائل يحيى الذي نقل عنه هذه القصة العمري كان إسلامه أيامه أخيه باتو فلم يذكر ابن الحكيم صرتاق وإنما ذكر بعد باتو أخاه بركة ولم نقف على تاريخ لدولتهم حتى يرجع إليه وهذا ما أدى إليه الاجتهاد اهـ . ولكن الصحيح الصواب أن إسلامه قبل تملكه كما قدمنا والله أعلم بالصواب .

وقال المقرئزي^(١) والنويري: وأسلم بركة هذا وحسن إسلامه وأقام منار الدين

(١) المقرئزي: هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم، تقي الدين المقرئزي (بفتح الميم نسبة إلى مقرئز محلة من بعلبك) البعلبي ثم المصري، الفقيه المؤرخ الشافعي، ولد سنة =

وأظهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وأدناهم منه وقربهم لديه ووصلهم وابتنى المساجد والمدارس بنواحي مملكته وأسلمت زوجته چچك خاتون واتخذت لها مسجدًا من الخيم تسافر به .

وزاد النويري وهو أول من دخل في دين الإسلام من عقب چنكزخان ولم ينقل إلينا إن أحدًا منهم أسلم قبله ولما أسلم أكثر قومه اهـ.

وقال الذهبي: قال قطب الدين كان بركة يميل إلى المسلمين وله عساكر عظيمة ومملكته تفوق مملكة هلاكو من بعض الوجوه وكان يعظم العلماء ويعتقد في الصالحين ولهم حرمة عنده وكان يميل إلى صاحب مصر ويعظم رسله ويحترمهم وتوجه إليه طائفة من أهل الحجاز فوصلهم وبالغ في احترامهم وأسلم هو وأكثر جيشه وكانت المساجد التي من الخيم تحمل معه ولها أئمة مؤذنون وتقام فيها الصلوات الخمس قال: وكان شجاعًا جوادًا عادلاً حسن السيرة يكره الإكثار من سفك الدماء والإفراط في خراب البلاد وعنده حلم ورأفة وصلاح ثم ذكر ما نقلنا عنه سابقًا أعني زيارته للباخري.

تنبيه: كنت قد رأيت في نسخ ابن خلدون المطبوعة ببولاق مصر قصة إسلام بركة على يد الباخري في الجلد الخامس منها وقد وقع فيها بدل سيف الدين الباخري شمس الدين الباخري^(١) وطالما فتشت كتب التراجم فلم أظفر في شيء منها بذكر شمس الدين الباخري فجزمت بكونه سيف الدين الباخري لما في تاريخ ابن خلدون من الأغلوطات الكثيرة الواقعة من النساخ مثل كتابة ناطو بدل باتو وكغود بدل كيوك وسرخاد بدل صرتق وغير ذلك^(٢) مما لا يكاد يحصر من أوله إلى آخره

= ٧٦٩ هـ، وتوفي سنة ٨٤٥ هـ، من مصنفاته: «اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء»، «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، «الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»، «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك»، «السلوك لمعرفة دول الملوك»، «الطرفة الغربية في أخبار حضرموت العجيبة»، «مجمع الفوائد ومنبع العوائد»، «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» في تاريخ مصر، وغير ذلك الكثير. (كشف الظنون ٥/ ١٢٧).

(١) وذلك لقلة اطلاعي في ذلك الوقت على أحوالهم وأما الآن فقد صار أكثر ما جرياتهم عندي من قبيل البدييات بكثرة المطالعة والله الحمد. منه عفي عنه.

(٢) والمقصود من تحرير ذلك أن لا ينسبوني إلى الجهل أو التحريف وأن لا يفتروا بما في نسخ ابن خلدون. منه عفي عنه.

حتى رأيته كذلك في تاريخ العيني والعمري والذهبي والقلقشندي فحمدت الله سبحانه وتعالى على التوفيق.

[ترجمة سيف الدين البخارزي]

ولا بأس بذكر طرف من ترجمته هنا للتيمن والاسترشاد: هو من كبار أصحاب الشيخ نجم الدين الكبرى قدس سره قاله مولانا الجامي في النفحات في ترجمته أنه لما أهديت للشيخ نجم الدين قدس سره جارية من الخطا قال لأصحابه ليلة الزفاف أنا الليلة أشتغل باللذة الجسمانية المشروعة فاتركوا أنتم أيضا الرياضة موافقة إلي وكونوا على الراحة و فراغ البال فلما قال الشيخ ذلك قام الشيخ سيف الدين وملاً إبريقاً كبيراً بالماء وقام على باب خلوة الشيخ فلما أصبح الشيخ وخرج من خلوته ورآه على هذه الحال قال له: ألم أقل لكم إن كلاً منكم ليكن مشغولاً بلذته وحضوره فلم ألقيت نفسك إلى المشقة بتلك الرياضة فقال في جوابه: نعم يا سيدي قلت ذلك ولكن لا شيء أذلي من وقوفي على باب شيخي هكذا فقال له الشيخ: لك البشارة يمشي السلاطين ذوي الشوكة في ركابك فجاء يوماً واحد من السلاطين لزيارة الشيخ سيف الدين فقال له وقت انصرافه: إني قد جئت لحضرة الشيخ بنذر فرس والتمس منه أركبه بيدي فقام الشيخ إجابة لملتسمه فأمسك السلطان ركابه وأركب الشيخ فاستصحب الفرس واضطرب ونفر فعدا السلطان في ركاب الشيخ آخذاً بعنان الفرس بيده مقدار خمسين خطوة فقال الشيخ للسلطان: أتدري ما سبب جموح الفرس وسره قال ذلك بسبب نفس الشيخ وقص عليه قصة بشارة شيخه بذلك وقال فيها أيضاً: إن الشيخ نجم الدين قدس سره لما أجلسه الخلوة في أوائل حاله أتى باب حجرته في أثناء الأربعين الثاني وضرب باب الحجره بأصبعه وقال: يا سيف الدين وأنشد بيتاً فارسياً يدل على أنه من المرادين والمحبوبين لا حاجة إلى الرياضات والمجاهدات ثم أخذ بيده وأخرجه من الخلوة وأرسله إلى طرف بخارى اهـ.

قلت: وقبره في فتح آباد بخارى على مقدار نصف فرسخ من البلد تقريباً وعلى قبره مدرسة عالية معمورة^(١) جداً اسمه سعيد بن المطهر بن سعيد وكنيته أبو المعالي

(١) وهذه المدرسة ووقفها مختصة بأهل قزان لا تخلو قط من اثنين أو ثلاثة من فقراء طلبتهم ولا أحد يعلم أنه من بناها حتى متوليها الذين هم من ذرية الشيخ والمشهور عند أهل بخارى أنه بناها واحد من مريديه من أغنياء أهل قزان وقد ذكر في روضة الصفا وروضة الأبرار أن سور تونسي بيكه زوجة تولي وأم هلاكو مع كونها ماثلة إلى النصرانية بنت مدرسة عالية ببخارى =

وشهرته الشيخ سيف الدين الباخري ولقبه شيخ العالم نعم لما كان سبباً لإخراج مثل السلطان بركة من الظلمات إلى النور وتشرف بسببه عالم كثير بشرف الإسلام وصار شيخ مثل هذا السلطان وجميع رعاياه حق له أن يلقب بذلك وسبب عدم كشف وجهه للسلطان بركة على ما ذكره العيني إن صح يمكن أن يكون بسبب أن أسلاف بركة قتلوا شيخه الشيخ نجم الدين الكبرى قدس سره فلم يرد أن يواجهه بلا حجاب ولم يطب قلبه بذلك كما فعل النبي ﷺ بالوحشي رضي الله عنه بعد إسلامه على ما قيل لقتله عمه حمزة رضي الله عنه قبله^(١). ولكن هذا الذي ذكره العيني تستعبده العقول السليمة والصواب ما ذكره ابن فضل الله العمري من أنه قد تأكدت بينهما الصحبة ويمكن أن يكون هذا السلطان الذي مشى في ركاب الشيخ: سيف الدين هو السلطان بركة بل هو احتمال قريب وأما وقف بركة على باب ليلة كاملة أو ثلاثة أيام على اختلاف القولين على ما مر فلا شك في أنه مكافأة لما صدر عنه في حق شيخه من الوقوف على بابيه والله سبحانه أعلم.

[الرسالة الناصرية]

وصنف الشيخ نجم الدين أبو الرجا مختار بن محمود الزاهدي^(٢) صاحب القنية

= مشتملة على ثلاث طبقات ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وفوضت نظارتها إلى الشيخ سيف الدين الباخري فعلى هذا القول هي إما لها وإما لبركة خان وكونها مختصة بأهل قران يدل على الثاني وكان أولاً على بابها حلقة كبيرة من ذهب خالص وكتابة تاريخ وفاته مع بعض أوصافه بالذهب فسرقتا في حدود سنة ١٣١٩ وبقيت كتابة أخرى مكتوبة بذهب خالص على خشب الأبنوس ذكر فيه أنه توفي في ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٥٩ عن سن ٧٥ ولكن المكتوب فوق باب ضريحه مخالف له وهو هذا شيخ عالم أمام أهل زمان درزمانيكه رفت از عالم بهرتاريخ سال كلك قضا مقتداي زمانه كرد رقم ٦٥٨ وهذا هو الموافق لما أخره مولينا الجامي في النسخات وله الأحاديث الأربعين المشهور بأربعين الباخري وغيره وقد تشرف هذا الفقير بزياره مرقده سنة ١٢٩٣ وسنة ١٣٢١ والقائمون بنظارة تربته من ذريته مقصود خواجه وغيرهم وهم من العلماء الفضلاء زيد قدرهم وعلاهم. منه عفي عنه.

(١) وذلك في غزوة أحد سنة ٣ من الهجرة النبوية.

(٢) هو نجم الدين أبو الرجا مختار بن محمود بن محمد الغزميني الخوارزمي، الفقيه الحنفي المعروف بالزاهدي، المتوفى سنة ٦٥٨ هـ، له من المصنفات: «جامع في الحيز»، «حاوي مسائل الوقعات والمنية وما تركه في تدوينه من مسائل القنية وزاد فيه من الفتاوى لتتميم الغنية»، «رسالة الناصرية»، «زاد الأئمة في فضائل خصيصة الأمة»، «شرح مختصر القدوري»، «الصفوة في الأصول»، «فرائض الزاهدي»، «فضل التراويح»، «قنية الفتاوى»، «قنية المنية لتتميم الغنية لأستاذه بديع»، «كتاب الفضائل»، «مجتنى في الأصول». (كشف الظنون ٦/٤٢٣).

رسالة في الاعتقاد سماها الرسالة الناصرية نسبة إلى ناصر الدين بركة خان وأهداها إليه ذكر ذلك أبو الفدا والجنابي وغيرهما .

قال في كشف الظنون^(١): ألفتها لبركة خان الچنكزي ورتبها على ثلاثة أبواب الأول في الدلالة على حقيقة رسالته ﷺ الثاني في ذكر المخالفين لنبوته والجواب عن شبهتهم الثالث في المناظرة بين المسلمين والناصرى وأتمها في جمادى الأخرى سنة ٦٥٨ هـ .

قال كارامزين: التتار لما قبلوا الإسلام أقبلوا إليه بالكلية ولا سيما بركة خان فإنه أعلن نفسه بأنه حامي القرآن والشريعة والدين وخادمها فأسلم قوم التتار كلهم تبعاً لسلطانهم وقد قتلوا واحداً من الروس غيرة لدين الإسلام في عهد منگو تيمرخان لتكلمه في حق الإسلام بما لا يليق وملؤوا جلده بالتبن اهـ . ثم إن بركة خان لما أسلم ودخل معه أكثر قومه في الإسلام صار يجلب العلماء والفضلاء من أطراف العالم وكاتب الخليفة المستعصم بالله مرات عديدة ويأبىعه وهاداه كما مر وأتم بناء بلدة سراي وقد تقدم أن أخاه باتو قد ابتدأ ببنائها فصارت من أعظم البلدان وأحسن المدن وأنزهها .

[وصف مدينة سراي]

قال ابن عربشاه^(٢) في عجائب المقدور في وصف مدينة سراي هذه وتخت الدشت سراي وهي مدينة إسلامية البنيان بديعة الأركان وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها واتخذها داراً للملك واصطفها وكانت من أعظم المدن وضعاً وأكثرها للخلق جمعاً .

حُكِيَ أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق وسكن في مكان منحى عن الطريق وفتح له حانوتاً يتسبب فيه ويحصل قوتاً واستمر ذلك المهين نحواً من عشر سنين لم يصادفه فيه مولاة ولا اجتمع به ولا رآه وذلك لعظمتها وكثرة أممها وهي على شط متشعب من نهر إتل الذي أجمع السياحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الأنهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه اهـ . وقال أيضاً: ولما تشرف بركة خان

(١) انظر كشف الظنون ١/٨٩٥ .

(٢) وهو قد أقام بها مدة سنين عديدة وتزوج فيها وولد له هناك أولاد فهو يخبر عن علم يقين ولا ينبئك مثل خبير . منه عفي عنه .

بخلعة الإسلام. ورفع في أطراف الدشت للدين الحنفي الأعلام. استدعى العلماء من الأطراف، والمشائخ من الآفاق والأكتاف. ليوقفوا الناس على معالم دينهم، ويبصروهم على طريق توحيدهم ويقينهم. وبذل على ذلك الرغبات. وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات. وأقام حرمة العلم والعلماء. وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء. وكان عنده في ذلك الزمان. وعند أوزبك خان بعده وجاني بك خان. مولانا قطب الدين العلامة الرازي. والشيخ سعد الدين التفتازاني^(١). والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية. وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية. ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي^(٢). ومولانا أحمد الخجندي^(٣). رحمهم الله تعالى. فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات. مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأدباء والطرفاء ومن كل صاحب فضيلة. وخصلة نبيلة جميلة. في مدة قليلة. ما لم يجتمع في سواها. ولا في جامع مصر ولا في قراها. لهما تعلق به الغرض منها وقال ابن فضل الله العمري: وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أن مدينة سراي بناها بركة خان على شط نهر إتل وهي أرض

(١) التفتازاني: هو الإمام سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الهروي الخراساني، العلامة الفقيه الأديب الحنفي، الشهير بالتفتازاني، ولد سنة ٧٢٢ هـ، وتوفي بسمرقند في المحرم سنة ٧٩٢ هـ، من تصانيفه: «إرشاد الهادي» في النحو، «تهذيب المنطق والكلام»، «شرح الكشاف»، «كشف الأسرار وعدة الأبرار» في تفسير القرآن فارسي، «مقاصد الطالبين في علم أصول الدين»، وغير ذلك (كشف الظنون ٤٢٩/٦ - ٤٣٠).

(٢) البزازي: هو محمد بن محمد بن شهاب بن يوسف الكردي البريقي، الإمام حافظ الدين الخوارزمي الحنفي المعروف بالبزازي، توفي سنة ٨٢٧ هـ، من تصانيفه: «الجامع الوجيز» المشهور بالفتاوى البزازية، «شرح مختصر القدوري»، «مناقب الإمام أبي حنيفة» وغير ذلك (كشف الظنون ١٨٥/٦).

(٣) الخجندي: هناك اثنان اسمهم أحمد الخجندي، الأول: تاج الدين أحمد بن محمود بن عمر الخجندي ثم المكي الحنفي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ. صنف: «الإقليد شرح المفصل للزمخشري»، «المقاليد في شرح المصباح للمطرزي»، «عقود الجواهر في علم التصريف». (كشف الظنون ١٠٢/٥).

والثاني (وهو المقصود): أحمد بن محمد بن الأحرز الخجندي المدني، جلال الدين أبو طاهر الحنفي الصوفي المتوفى بالمدينة سنة ٨٠٣ هـ. له من المصنفات: «الأنوار التفریدیة في شرح أربعين التوحیدیة»، «حاشية على الكشاف»، «راح الروح وسلسبیل الفتوح في أسماء الله الحسنی»، «الشراب الطهور» في التصوف، «شرح أربعين النووية»، «شرح البردة»، «شرح الميمية لابن الفارض»، «فردوس المجاهدين وشرحها»، «الوفاء في شرح الشفاء للقاضي عياض» لم يكمل. (كشف الظنون ١١٧/٥ - ١١٨).

سبخة بغير سور ودار الملك بها قصر عظيم على عليائه هلال ذهب^(١) زنته قنطاران بالمصري ويحيط بالقصر سور وأبراج ومساكن لأمرائه وبهذا القصر مشتاهم. قال: وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات وأكبر ويجري فيها السفن الكبار يسافر بها إلى الروس والصقلب. قال: وهي يعني السراي مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه بر مقصودة بالأجلاب في وسطها بركة ماؤها من هذا النهر يستعمل ماؤها للاستعمال وأما شربهم فمن النهر يستقي لهم في جرار فخار وتصف على العجلات وتجر إلى المدينة وتباع اهـ.

وقال ابن بطوطة^(٢): ومدينة السراي من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة حسنة الأسواق متسعة الشوارع وركبنا يوماً مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا إلى آخرها إلا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاماً فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشينا يوماً عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجدًا لإقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدًا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الأص (اللزكي) وهم مسلمون ومنهم القفجق والچركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطًا على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى آتون طاش اهـ.

تنبيه: وقع في نسخ عجائب المقدور المطبوعة بمصر وكلكة هكذا (وبين بنيان سراي وخراب ما بها من الأمكنة ثلاث وستون سنة اهـ). وهذا غلط صريح صدر من النساخ والطابع لا من المصنف فإنه أعلم بأحوالها ولم تكن خرابًا في عصره فضلًا عما قبله وذلك فإنك قد علمت أن ابتداء بنائها في أيام باتو وذلك في حدود سنة

(١) فهذا صريح في أن اتخاذ الشكل الهلالي في علياء البيوت ورؤوس المنابر عادة باقية من قدماء التتار لا أنها مأخوذة من القياصرة كما زعم وقد قدمنا أنها باقية من أغوز خان وهو كذلك وقد أخطأ خطأ كبيرًا وجنى جناية عظيمة من تقول بأخذها من العثمانيين وأخذهم من القياصرة جزافًا بغير علم وتسبب بذلك لتعرض الروس بها ورُبّ كلمة تقول لصاحبها: دعني منه عفي عنه.

(٢) ابن بطوطة: تقدمت ترجمته.

٧٤٠ وتمامها في أيام بركة خان وذلك في حدود سنة ٧٥٥ فإذا كان ابتداء هذه المدة أعني الثلاث والستين سنة من أول بنائها يلزم أن يكون خرابها على هذا في أيام طقطاي خان وإن كان من حين تمام بنائها يلزم أن يكون خرابها في أيام أوزبك خان وكلاهما غير صحيح فإن دولة التتار الشمالية في عصرهما وكذلك في عصر جان بك خان بعدهما كانت في أوج الشوكة وإنما أول خرابها عند ورود تيمرلنك إلى تلك الديار في النوبة الأخيرة وذلك في حدود سنة ٧٩٨ ومع ذلك أنها لم تخرب فيها بالكلية بل عمرت ثانية إلى أن اضمحلت الدولة القفجاقية والتتارية وانقسمت إلى أقسام شتى فهجم عليها منكلي كراي خان القريمي وخربها كما سيجيء إن شاء الله تعالى في أواخر هذا المقصد وإنما أراد ابن عربشاه خرابها الأول فالظاهر بل اليقين أن الناسخ بدل لفظ مائة بلفظ ثلاث وكان أصل العبارة مائة وستون سنة أو سقط لفظ مائة وكانت العبارة مائة وثلاث وستون سنة ومع ذلك ليس هذا مدة دوام دولة السراي بل بلدة سراي إلى تخريب تيمرلنك إياها في التاريخ المذكور وقد بقيت الدولة بعدها مع ضعف قريباً من مائة سنة كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى والله سبحانه أعلم.

تنبيه آخر: زعم البعض أن مدينة سراي هذه هي بغچه سراي الواقعة في خطة قريم الموجودة الآن حتى وقع ذلك في التواريخ المعتبرة مثل تاريخ منجم باشي وهذا أيضاً خطأ صريح غير محتاج إلى البيان فإن بينهما أزيد من مسافة شهر وكانت قريم في أيام سلطنة البلاد الشمالية ولاية واحدة من جملة ولايتها الكثيرة وكان يسكن بها وال من جهة خوانين السراي إلى أن وقع بينهم داء الاختلال فامتازت ولاية القريم في تلك الأثناء بنيل الاستقلال واتخذت خوانين القريم بغچه سراي هذه كرسي سلطنتهم وامتدت دولتهم هناك إلى أعصر كثيرة واشتهرت اشتهاً تاماً بسبب قربها من القسطنطينية وبلاد أوروبا فصار ذلك منشأ لذلك الغلط حيث زعموا أن بغچه سراي هذه هي مدينة سراي وكذلك زعم بعض آخر أن مدينة سراي هذه هي مدينة سرايچق الواقعة بساحل نهر جايق، وهذا أيضاً زعم باطل منشؤه الغفلة والقناعة باشتراك الاسم من غير تحقيق بل بين سراي وسرايچق مسافة نصف شهر والأول بساحل اتل والثاني بساحل جايق ومغابرتهما لا تخفى على أم المندى والله الهادي.

ذكر وقوع الخلف والمحاربة الهائلة بين السلطان بركة خان عليه

الرحمة والغفران وبين ابن عمه هلاكو بن تولي بن چنكزخان

اعلم أنه لما تسلطن بركة خان لم يلبث إلا قليلاً حتى وقع الخلف بينه وبين ابن عمه هلاكو الظالم الكافر مخرب بغداد وقاتل الخليفة المستعصم بالله وجرت بينهما

المقاتلة والمحاربة الشديدة وسرت تلك العداوة منهما إلى أعقابها بحيث لم يحصل بين هذين الشعبين وفاق حتى انقطع ذرية هلاكو بموت السلطان أبي السعيد الإيلخاني سنة ٧٣٤ في عصر السلطان أوزبك خان عليهما الرحمة واختلف المؤرخون في سبب حصول العداوة بينهما. فمن قائل إنه بسبب أن عادة أولاد چنكزخان كانت أن يرسلوا من فتوحاتهم وغنائمهم شيئًا للقاءن الكبير وشيئًا لبيت باتو ولما مات باتو وتسلمت بركة خان لم يرسل هلاكو إليه شيئًا مما فتحه من البلاد ونهبه من العباد فغضب عليه بركة خان لأجل ذلك. ومن قائل إن بيت باتو خان كانوا في دعوى أن تبريز ومراعة كانتا من حصتهم في تعيين چنكزخان وتقسيمه فتشبثوا بذيل ذلك وطالبوا هلاكو وأعقابهم بذلك. ومن قائل غير ذلك مما ليس في إطالة الكلام بذكره طائل ولا يرجع إلى حاصل.

من جملته ما ذكره النويري والعيني وغيرها أذكره هنا لغرابته قالوا: إنه لما مات صرتاق بن باتو أرادت براق شين زوجة طغان بن باتو إن تولى ولدها تدان منگو السلطنة وكانت لها بسطة وتحكم فلم يوافقها أولاد باتوخان عمومة ابنها وأمراء التمانات على ذلك فلما رأت امتناعهم راسلت هلاكو وهو يومئذ ببلاد عراق العجم بصدد افتتاحها وأرسلت إليه نشابة بلا ريش وقناة بغير بنود وأرسلت إليه تقول له قد فرغ التركاش من الشباب وخلا القربان من القوس فتحضر لتسلم الملك ثم سارت أثر الرسول وقصدت للحاق بهلاكو وإحضاره إلى بلاد الشمال فلما بلغ القوم ما دبرته أرسلوا في أثرها وأعادوها كارهة وقتلوا ولما وصلت رسالتها إلى هلاكو أطمعه ذلك في ملك هذه المملكة ليضمها إلى ما بيده من الممالك فتجهز وسار بجيوشه إليها وكان وصوله بعد قتل براق شين وجلس بركة على سرير الملك وانتظام الأمر له فوقع بينهما ما سيذكر بعد إن شاء الله تعالى اهـ منتخبًا.

قلت: أما الأول فمما لا شبهة في عدم صحته. وأما الثاني فكذلك في الحقيقة وأما بحسب الظاهر فله وجه على ما سيذكر. وأما الثالث فمما لا ريبه أيضًا في بعد عن صوب الصواب فإن هلاكو لم يكن من العقل والإدراك بحيث يقدم على حرب أولاد جوجي ويخالف قانون جده چنكزخان بمجرد سماع كلام امرأة واحدة مع علمه في ذلك من وخامة العاقبة فإنه كان أعلم بأحوال تلك المملكة وما فيها من القوة العسكرية وأيضًا قولهم وهو يومئذ ببلاد عراق العجم الخ. ليس بصواب فإن هذه المحاربة أعني محاربة بركة وهلاكو كانت في سنة ٦٦٣ باتفاق المؤرخين كما سيذكر وهلاكو قد فرغ وقتئذ من استخلاص العراقيين وافتتاحهما جميعًا إلا أن نقول بتعدد

المحاربة بينهما وقعت إحداهما قبل واقعة بغداد كما فهم ذلك من تاريخ النويري والعيني ويؤيده كلام ابن خلدون الآتي فإنه كما ستطلع صريح في تعدد الحرب بينهما إحداهما قبل واقعة بغداد والأخرى بعدها ولكنه بعيد عن الصحة فإن المحاربة الأولى لو كانت قبل واقعة بغداد لما تجاسر هلاكو على قصد الخليفة بعساكره المنكسرة المقهورة ولما تركه بركة خان يتعرض للخليفة كما لا يخفى وقد علمت اعتراف ابن خلدون بنفسه بقلة اطلاعه بأحوال تلك البلاد.

قلت: لا يخفى على العاقل سبب هذه العداوة فإن بركة خان عليه الرحمة بإسلامه صار مظهرًا لأوصاف الجمال وحاميًا لأهل الإسلام من أهل الكفر والضلال وهلاكو بإصراره على الكفر وانغماسه فيه كان مظهر الصفات الجلال وصار أشد الأعداء للملة المحمدية وأمه عليه الصلاة والسلام من الله المتعال ولا شك أن مقتضى تلك غير مقتضى هذه ولولاها لما وقع نزاع في العالم بين اثنين ولا جدال كما هو معلوم لأرباب الكمال. وكان بركة يوالي الخليفة في حياة أخيه باتو ويمنع هلاكو من التعرض له وكان هلاكو لخبثه يبغضه لذلك ولكن كان يضمم العداوة له ولا يظهرها في حياة باتو خوفًا من شوخته وصولته ولما مات باتو أظهرها وقصد الخليفة وفعل ما فعل واشتدت العداوة بينهما لذلك وأراد بركة خان أن يأخذ ثأر الخليفة والمسلمين منه.

قال ابن فضل الله العمري وكذا ابن خلدون نقلًا عنه: ولما استقل منگو قآن بالتخت وعلت كلمته جاءت إليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وضررهم بهم فجهز أخاه هلاكو في جيوش جملة لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم فلما استولى عليها حسن لأخيه منگو قآن أخذ ممالك الخليفة والاستيلاء على أعمالها فأذن له فيه فخرج لذلك فبلغ ذلك بركة فصعب عليه ذلك لما كان بين بركة والمستعصم من الموالاتة والوصلة وتأكد المودة بوصية الشيخ البخارزي فذكره على أخيه باتو الذي كان قد ولى منگو قآن القاتية وقال له: إننا نحن أقمننا منگو قآن وما جزانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا وينقض عهدنا ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة وهو صاحبي وبينى وبينه مكاتبات وعقود مودة. وفي هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة وقبح فعله ذلك على أخيه باتو، فبعث باتو إلى هلاكو بالنهي عن ذلك وأنه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل أن ينفصل بالعساكر فما عبره وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين امتثالاً لأمره حتى مات باتو وتسلطن أخوه بركة فحينئذ

قويت أطماع هلاكو وبعث إلى أخيه منغو قآن يستأذن في إمضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسن له ذلك فأجابته فسار هلاكو لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فأوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستلحمهم وأتهم سبعمائة نفر من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة إلى باتو ثم إلى بركة بالميل إلى بركة والمباطنة على هلاكو ومنغو قآن وقتلهم عن آخرهم وامتد في البلاد وقصد دشت القفجق وعدى إليه فزحف إليه بركة في جموع لا تحصى والتقى واستمر القتل في أصحاب هلاكو وهم بالهزيمة ثم خال نهر الكر بين الفريقين وعاد هلاكو وعاث في البلاد وعام في تيار الفساد واستحكمت العداوة بينهما انتهى ما ذكرناه.

وزاد ابن خلدون وسار هلاكو إلى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة اهـ.

ولا أدري من أين أخذ ابن خلدون هذه العبارة وقال هو في موضع آخر نقلاً عن الملك المؤيد أنه حدثت الفتنة بين بركة وبين قبلاي قآن حتى آل الأمر إلى وقوع الحرب بين بركة وبين هلاكو فاقتتلا في سنة ٦٦٠ فهاتان العبارتان تفيدان تعدد الواقعة بين بركة وهلاكو احديها قبل واقعة بغداد والأخرى بعدها وهذا هو الذي وعدنا ذكره ولكن لا تنس نصيبك مما قدمنا من عدم صحة ذلك وهو الصواب وما ذكره ابن خلدون هنا وهم أو سبق قلم والله أعلم.

والحاصل أن السبب لوقوع الحرب بينهما هو طغيان هلاكو وقتله العباد وسعيه في الأرض بالفساد خصوصاً قتله الخليفة الذي هو أعظم الفساد ولذلك قال الذهبي الذي هو مؤرخ الإسلام وممن لا يقول القول إلا بعد التحقيق والتطبيق لنقول الإعلام ومن أعظم الأسباب لوقوع الحرب بينه وبين هلاكو قتل الخليفة اهـ. وكفى به شهيداً غير أن بركة خان لما لم يمكن له القيام بطلب دم الخليفة وثار المسلمين بسببين مانعين له من ذلك أحدهما أن أكثر عسكره كانوا في ذلك الوقت كفاراً ومن أسلم منهم قليلاً مع قرب عهدهم بالإسلام وترسخ يسق چنكزخان في قلوبهم وقتل الخليفة والاستيلاء على بلاد المسلمين ليس بجناية موجبة لقتاله في يسق چنكزخان بل هو فخر لهم والثاني أن منغو قآن الذي هو الحاكم المطلق على جميع أولاد چنكزخان وبمنزلة الخليفة بالنسبة إلى المسلمين كان أخوا هلاكو وقد فعل هلاكو ما فعله بأمره وإذنه فحرب بركة هلاكو هو حرب منغو قآن وسائر أولاد چنكزخان صار يتشبهت بأذيال حيل لإبداء شيء يكون في الظاهر سبباً موجباً لقتال هلاكو ويكون هلاكو هو المتعدي والجاني عند قوم بركة فيوافقونه على قتاله وإحداث شيء يكون سبباً لتفرقة

كلمات سائر أولاد چنكزخان وما زال ينتهز الفرصة لذلك ويقترح على هلاكو أشياء كثيرة مثل ادعاء أعمال مراغة وتبريز وطلب ما كان يرسله لبيت باتو من الغنائم وغير ذلك مما ذكره المؤرخون وزعموا حقيقته وليس كذلك بل كان قصده بذلك حمل هلاكو على الغضب والضجر والسامة حتى يكون طالبًا لحربه وقتاله ويكون بذلك جانيًا عند قومه ومستحقًا لقتاله فيكونون معه يدًا واحدة في مدافعته ومحاربتة وبينما بركة خان يدبر أنواع التدابير لأجل ذلك إذ مات منگو قآن وقد خرج بعساكره وقصد بلاد الخطا لعصيان بعض ملوكها وأخذ معه أخاه قبلاي واستخلف مكانه أخاه الأصغر آرتق بوكا فلما مات منگو قآن اتفق أمراء العساكر أن يجلسوا على تخت القآنية مكانه أخاه قبلاي لكونه أكبر.

فلما سمع بركة خان ذلك الخبر اغتتم الفرصة واستجلب إليه قيدو بن قاشين بن أوكداي بن چنكزخان لما تفرس فيه العقل والتدبير والشهامة والشجاعة وأرسله إلى آرتق بوكا مع بعض العساكر قائلاً بأنك أنت الأحق بالقآنية دون أخيك قبلاي لأن منگو قآن رتبك فيها فقم بطلب حقه ولا تطع القبلاي وأنا قد أرسلت قيدو بن قاشين مع عساكره نجدة ذلك وضممت إليه مقدارًا من عساكري فإن احتجت إلى الزيادة فأنا معك فقام آرتق بوكا بطلب القآنية وبايعه من معه من العساكر.

فلما سمع قبلاي ذلك الخبر رجع إلى بلاده واستقبله آرتق بوكا بمن معه من العساكر فنشب بينهما القتال من ذلك التاريخ وكان ذلك في سنة ٦٥٨ هـ. وامتدت المحاربة بينهما إلى سنين كثيرة وكان هلاكو قد توجه في التاريخ المذكور نحو بلاد الشام بأربعمئة ألف من عسكر واستولى عليها وأراد أن يسير إلى مصر وبينما هو في هذا الفكر إذ بلغه موت منگو قآن ووقوع الخلف بين أخويه قبلاي وآرتق بوكا وبلغه أيضًا أن أولاد چغطاي قد رفعوا ألوية العصيان في ما وراء النهر على القآن بسبب إغواء بركة خان إياهم فأظلمت الدنيا عليه ولم يهنأ بفتح الشام وتكدر خاطره غاية التكدر ولم يستصوب الإقدام على محاربة المصريين تاركًا البلاد الأعظم ورآه فكر راجعًا إلى مقره بعد أن ترك بالشام أميرًا من أمراء المغل اسمه كتبوغا من أرباب الشجاعة والدهاء مع عشرة آلاف عساكر فاستأصلهم صاحب مصر الملك قطز عند عين جالوت^(١) كما هو مسطور في التواريخ وهذا أيضًا من أعظم حسنات بركة خان

(١) وقعة عين جالوت كانت في العشر الأخير من رمضان سنة ٦٥٨ هـ، وكان على رأس جيوش المسلمين الملك المظفر قطز. (انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٢١ - ٢٢٣).

عليه الرحمة حيث صد هلاكو الطاغية بهذا الجيش العرمرم التي لا تطيقها الجبال الشوامخ من مصر بتدبيره ذلك ولولاه لانصدع شعب الأمة المحمدية وهي عمود الملة الأحمدية. ولما رجع هلاكو إلى مقره لم يوفق لشيء سوى أنه استمال قلوب أولاد عمه چغطاي وأعادهم إلى طاعة القآن ولكن بقي متحيراً في أموره ومتردداً في أفعاله ومتعرياً عن شعوره خصباً بعد أن بلغه ما فعله المصريون بعساكره وأميره وبركة خان لا يزال يزيد في اقتراحه ما يوجب غضبه وما يذهب بفرحه وسروره لما أنه قد اطمأن خاطره من طرف القآن بما وقع بينهم من الفتن والحرب والضرب وبقي أحداث سبب من هذا الطرف حتى بلغ غضبه عليه نهايته وصمم على محاربه وعزم على مقاتلته بعد أن تردد برهة من الزمان في التوجه نحو الشام للانتقام من المصريين والتوجه نحو دشت القفقج لحرب بركة فوقع ما سيذكر وذلك أن بركة خان أرسل إلى هلاكو سنة ٦٦٠ رسولين يطالبه بحمل ما جرت به العادة إلى بيت باتو وبعث معهم سحرة ليفسدوا سحرة هلاكو فاطلع هلاكو على ذلك فأمر بالقبض على جميعهم وحبسهم في قلعة تلا ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوماً فلما بلغ بركة قتل رسله أنجم العداوة لهلاكو اهـ. من تاريخ المفضل نقلاً عن سيرة الملك الظاهر للقاضي ابن شداد^(١) وهو نقله عن علاء الدين بن عبد الله البغدادي أحد أصحاب الأمير سيف الدين بن يلبان الرومي وهو كان وقتئذٍ عند هلاكو.

ويقرب منه ما ذكره في روضة الصفا حيث قال ما معربه ومن جملة أسباب الوحشة بين بركة خان وهلاكو أن توتار أوغل^(٢) كان من أقرباء بركة فاتهمه أصحاب هلاكو بالسحر فأرسله هلاكو إلى بركة صحبة سونجق نويين يعرفه بجريمته فأعاده بركة إلى هلاكو ليحكم فيه بقانون چنكزخان فقتله هلاكو وكان بركة يتوقع منه العفو عنه والإغماض عما صدر منه فكان ذلك في السابع عشر من صفر سنة ٨٥٦. فتكدر خاطر بركة لذلك وصار يرسل إليه الرسل تترى يشحنه ويوبخه ويتحكم عليه بأنواع التحكمات فلما جاوز ذلك حد الاعتدال ولم يبق للتحمل مجال قال هلاكو في مجلسه الخاص: إن بركة وإن كان أخاً أكبر مني وأنا أصغر منه ولكن لما كان

(١) ابن شداد: هو محمد بن علي بن الحسن بن شداد الحلبي، عز الدين الكاتب، المتوفى سنة ٦٨٤ هـ. له من المصنفات: «الدرة الخطيرة في أسماء الشام والجزيرة»، «سيرة الملك الظاهر بيبرس»، «كروم الهاني لتفسير السبع المثاني». (كشف الظنون ٦/١٣٤).

(٢) قلت توتار أوغل هذا أحد قائدي العساكر الذين كان باتو خان أرسلهم نجدة لهلاكو على الملاحدة حين أوقع بهم وثانيهما بلغاي بن شيبان. منه عفي عنه.

يخاطبني دائماً بالتهديد ويعاملني بالعنف والتشديد لم يبق لي بعد ذلك ميدان للتحمل ولا مجال للتجمل فلا أداريه بعد ذلك ولا أجامله فيما هنالك بل أطوي صحائف القربة وأسلك مسلك المخالفة والمضاربة. ولما بلغ بركة خان ما قال استشاط غضباً وقال: إن هلاكو أخرج بلاد المسلمين واستأصل سلطان الإسلام والمؤمنين وأعدم خليفة الزمان وفعل ما فعل رأيه السخيف بلا مشاورة الإخوان ولم يفرق الأعداء من الأخذان فإذا كان توفيق الحق سبحانه رفيقي وعونه ونصرته معي لأخذنه بدم المظلومين ولأتركه عبرة للعالمين اهـ.

ذكر كيفية هذه المحاربة

قال في روضة الصفا بعد ذكره ما تقدم: ثم أرسل بركة قريبه نوغاي الذي هو قائد جيشه وله قرابة بتوتار أوغلان المقتول بثلاثين ألفاً من العساكر الجرار في مقدمته فعبر دربند وخيم في ظاهر شروان فلما بلغ هلاكو ذلك خرج من محله في شوال سنة ٦٦٠ وأرسل في مقدمته شيرامون نويان مع سائر الأمراء ولما وصلوا إلى حدود شروان هجم عليهم نوغاي بعسكره وقتل كثيراً من شجعانهم وأمرائهم ورجع إلى محله مظفراً منصوراً وفي ذي الحجة من السنة المذكورة هجم تاباي نويان بعسكر كثير على عسكر بركة وكانوا على مسافة فرسخ من شروان فانهمز نوغاي أمامه فلما بلغ ذلك هلاكو نهض في أوائل محرم مفتح عام إحدى وستين وستمائة من نواحي شماخي وفي الثالث والعشرين منه توجه بجميع عساكره مسلحين نحو دربند فلما وصلوا إليها وقت الضحى رأوا طائفة من عسكر بركة على أبراج دربند فهجموا عليهم وأزالوهم عن مواقعهم وعبروا دربند واقتتلوا مع المخالفين فانكسر عسكر القفچق يعني بركة وانهمزوا عن آخرهم حتى لم ير منهم أثر في تلك النواحي وفي غرة صفر قال أمراء المقدمة: نحن نذهب من عقب العدو بتمام العجلة والسرعة والأصلح أن يرجع شهزاده يعني أبغا بن هلاكو فأبى أبغا إلا المسير معهم فأمر هلاكو الأمراء بالإغارة على أهل الدشت والنهب والسلب فعبروا نهر ترك ووجدوا الدشت ملانة بالأموال والأمتعة وأرباب الجمال وليس بها مقاتل ولا ممانع من الرجال فنزلوا في خيام القفچق وشرعوا في التلهي مع البنات صواحب الجمال.

وبينما هم على هذا الحال إذ طلع بركة خان من تلك البرية الواسعة بعساكر كالرمال لا يعلم عددهم إلا الله الواحد المتعال وهجموا عليهم بلا إمهال واشتد بين الفريقين القتال وامتدت المحاربة من طلوع الشمس إلى غروبها وقام سوقها على ساق

بين الأبطال ثم انهزم عسكر هلاكو أشنع الانهزام وولوا الأدبار فلما وصلوا إلى نهر ترك منهزمين وأرادوا العبور انكسر الجمد وغرق أكثر العسكر وهرب أبغا بشرذمة قليلة واتصل بهلاكو بموضع شاران فرجعوا منه إلى بلادهم مسرعين اهـ.

وقال ابن واصل الحموي^(١): وصل الخبر إلى الملك الظاهر أن رسل بركة قد وصلوا إلى هلاكو وأنه ضرب رقاب الجميع وخرج بالعساكر إلى أزاز ووصل إلى نهر كور وإلى تيمرقبو ولما بلغ بركة وصول هلاكو إلى بلاده رسم إن تخلى له البلاد وأن لا يقف أحد بين يديه ولا يقاتله أحد ثم أدخلوا له البلاد مسافة خمسة عشر يوماً ولما وجد هلاكو البلاد شاغرة وقد هرب عسكر بركة أوغل عسكر هلاكو في البلاد ونهبوا وغنموا فلما سمع بركة أن عسكر هلاكو قد أوغلوا في البلاد نادى في جيشه أن يركب من عمره عشر سنين فركب خلق لا يدري أولها من آخرها. وأما هلاكو فقد أصبح معتقداً بأنه قد ملك بلاد بركة وبيننا هو كذلك إذ رأى هواء سموماً سخناً فقال ما هذا الهواء السموم فقالوا له هذا الهواء حرارته من أنفاس الخيل وكان في عسكره رجل كبير السن يسمى صمغار أوستتاي وكان مقعداً قد بطل نصفه وكان لا يحضر حرباً إلا وينكسر من محاربه ويتنصر على عدوه لأنه إذا التقى الجمعان نزل عن فرسه ويقول لأصحابه: ها أنا قاعد هنا فمن شاء يقاتل عني ومن شاء يدعني. فقال له هلاكو: ما تقول في هذا الجيش فأخذ صمغار مقرعته وتطرقها وقال هذا أقدام مقرعتي ستمائة ألف ويفيض من هنا ويفيض من ههنا يعني يميناً وشمالاً وما أعرف عدد هذا الجيش.

فعند ذلك رسم هلاكو بأن كل من عدا النهر قبل الخان يعني نفسه مات ثم انهزم هلاكو مع خواص عسكره من المغل فلما قطع النهر وعدا انكسر الجيش وراءه وتزاحموا في الهروب وانخسف بهم الثلج فلم يسلم منهم من يرد خبراً وكان كل من

(١) ابن واصل الحموي: هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل، القاضي جمال الدين الحموي الشافعي، الشهير بابن واصل، قاضي حماة، وكان يدرس ويفتي بها، ولد سنة ٦٠٤ هـ، وتوفي سنة ٦٩٧ هـ، له من التصانيف: «الأبروزية في المنطق»، «البارع الصالحي» في التاريخ، «تجريد الأغاني في ذكر المثالث والمثاني»، «خصائص الأنبياء عليهم السلام»، «خفايا الأفكار شرح الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي»، «شرح الجمل في النحو للخونجي»، «شرح عروض ابن الحاجب»، «شرح الموجز للخونجي» في الطب، «مختصر الأدوية المفردة لابن البيطار»، «مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب»، «هدية الألباب» في المنطق، «نخبة الفكر» في المنطق، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ١٣٨ - ١٣٩).

تقدم هاربًا غرق ومن تأخر قتل فأما الذين غرقوا فلا يدري عدتهم إلا الله وأما الذين تأخروا فقتلوا جميعًا. ولما حضر بركة ورأى تلك المقتلة أمر أن تجمع القتلى فجمعوهم وجعلوهم ثلاثة كيما تلالاً عظيمة وقد صقلتهم الأمطار والرياح وابتضت عظامهم ينظرهم المسافرون من مسافة يومين وهذه الواقعة تسمى نوبة تيمرقبو، وهرب هلاكو في نفر يسير ولما وقف بركة على مقتلة ورأى مقتلة شنيعة قال قبح الله هلاكو هذا تقتل المغل بسيف المغل لو كانت كلمتنا مجتمعة لفتحن الأرض بكمالها اهـ.

وقال الشيخ عماد الدين بن الكثير^(١) وفيها (يعني في سنة ٦٦٠) وقع الخلف بين هلاكو وبين السلطان بركة ابن عمه وأرسل إليه بركة يطلب منه نصيبًا مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرى على ما جرت به عادتهم فقتل رسله فاشتد غضب بركة وكتب إلى الظاهر^(٢) ليتفق على هلاكو^(٣). وقال: فيها (يعني سنة ٦٦١) التقى بركة قان وهلاكو ومع كل منهما جيوش عظيمة فاقتتلا فانهمزم هلاكو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقي وهرب هو في شردمة قليلة من أصحابه والله الحمد والمنة ولما نظر بركة قان إلى كثرة القتلى بكى وقال يعز علي أن تقتل المغل بعضها بعضًا ولكن كيف الحيلة فيمن طغى ويغى أو كما قال^(٤) اهـ.

وقال العمري قصد هلاكو دشت القفجق وعدا إليها وأقام ثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل وداسهم بركة بجنوده وعساكره ودارت الدائرة على هلاكو حتى هم بالهزيمة فنزل أمير كبير كان معه اسمه سنتاي وهو المنسوب إليه عقبة سنتاي بالعراق وأمسك برأس فرس هلاكو وقال أين تروح فلما استحر القتل في أصحابه تأخر حتى صار نهر الكر بينه وبين بركة وجاء بركة حتى وقف على نهر الكر ولم يجد له سبيلاً إلى العبور ورجع هلاكو وعاث في البلاد وعمام في تيار الفساد وفعلت فعلته وقويت العداوة بينه وبين بركة خان اهـ.

وقال الذهبي وفيها (يعني سنة ٦٦١) جرت وقعة هائلة بين هلاكو وبركة وكانت الدائرة على هلاكو وقتل خلق من أصحابه وغرق آخرون ونجا بنفسه اهـ.

(١) ابن كثير: هو إسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير البصري ثم الدمشقي، عماد الدين، بو الفداء، الحافظ المحدث الشافعي، ولد سنة ٧٠٥ هـ، وتوفي سنة ٧٧٤ هـ، تقدمت ترجمته الوافية.

(٢) يعني الملك الظاهر بيبرس ملك مصر كما سيجيء. منه عفي عنه.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٣/٢٣٥. (٤) انظر البداية والنهاية ١٣/٢٣٩.

وقال المفضل: قبيل ذكره ما تقدم عنه أن هلاكو جمع العسكر وقصد بركة وسار بركة إليه فنزل في أرض الكرج ونزل هلاكو بصحراء سلماش ثم كان الملتقى بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق كثير ووقعت الكسرة على هلاكو وعمل في عسكره السيف اثنا عشر يوماً وهرب هلاكو إلى قلعة تلا وهي في وسط بحيرة آذربيجان فدخلها وقطع الطريق إليها وعاد كالمحبوس بها اهـ.

قلت: هذا أيضاً مأخوذ من سيرة الملك الظاهر للقاضي ابن شداد^(١) ولكن قصر في أخذه ولم يستوف المرام وعبارته فنزل بركة في أرض الكرج ونزل هلاكو بصحراء سلماش وخوى وأخبرني من أثق به عمّن أثق به أنه اجتمع ببعض غلمان من كان في أسر التتار من الأمراء أنه أخير بحضرة الأشرف صاحب حمص أنه حضر كسرة بركة لهلاكو وقال كان جيش بركة قد كسر عسكر هلاكو الذي سيره مع ابنه وقتل ابنه فجمع هلاكو بقية من قدر عليه من عساكره وسار إلى بركة فلقبه بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق عظيم ووقعت الكسرة على عسكر هلاكو فبقي السيف يعمل فيهم أياماً وهرب هلاكو الخ. فهذا مطابق لما في روضة الصفا من بعض الوجوه إلا أنه ما ذكر فيها قتل ابنه وقد ذكره كثير من المؤرخين.

قال المقرئ^(٢): كانت بينهما يعني بركة وهلاكو وقعة قتل فيها ولد هلاكو وكسر عسكره وتفرقوا في البلاد وصار هلاكو إلى قلعة بحيرة آذربيجان محصوراً بها فلما بلغ ذلك السلطان^(٣) سرّ به وفرح الناس باشتغال هلاكو عن قصد بلاد الشام اهـ.

وقال النويري^(٤): ورد التتار المستأمنين سنة ٦٦١ وذكروا أن العداوة قد استحكمت بين بركة وهلاكو وإن ولد هلاكو قتل في المصاف اهـ. هذا وقد ذكر في روضة الصفا أن الذي سار بالجيش هو أبغا بن هلاكو وأنه عاد إلى أبيه هلاكو بعد انهزام جيشه فبين ما ذكره وما ذكره غيره تناف فإن صح ما ذكروا من قتل ولد هلاكو فهو غير أبغا فإن أبغا ما قتل فيها بل عاش وتملك بعد أبيه هلاكو.

وقال النويري وركن الدين بيبرس والعيني تبعاً لهما: ولما بلغ بركة خبير هلاكو وقربه من البلاد سار بجيوشه للقائه وكان بينهما نهر يسمى نهر ترك فلما التقوا واقتتلوا

(١) ابن شداد: تقدمت ترجمته قبل قليل. (٢) المقرئ: تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) يعني الملك الظاهر بيبرس. منه عفي عنه. (٤) النويري: تقدمت ترجمته.

كانت الهزيمة على هلاكو فلما وصل إلى ذلك النهر تكردس أصحابه عليه فانخسف بهم فغرق منهم خلق كثير ورجع هلاكو بمن بقي معه من أصحابه إلى بلاده ونشأت الحرب بينهم من هذه السنة وصارت العداوة بين هاتين الطائفتين متمكنة وكان فيمن شهد مع بركة في هذه الوقعة ابن عمه نوغاي بن ططر بن مغل بن چنكزخان^(١) فأصابته في عينه طعنة رمح فعور ولما قذف النهر جثث الغرقى جمعها نوغاي المذكور مع جثث القتلى أهرامًا وقال: هذه أجساد بني الأعمام والذرية فلا نتركها تأكلها الذباب والكلاب في البرية اهـ. ولكن جعل هؤلاء هذه الوقعة سنة ٦٥٣ وهو سبق قلم ثم قال النويري: ولنوغي هذه أخبار نذكرها بعد إن شاء الله تعالى اهـ.

قلت: هو أكبر قواد جيش بركة وممن أسلم معه وإليه ينسب الله أعلم طائفة نوغاي المشهورة بأرض قريم وقفقاز وحاجي طرخان واختلف المؤرخون في جده مغل هل هو ابن جوجي أو ابن چنكزخان والأشبه الثاني لأننا قد ذكرنا فيما سبق أولاد جوجي وليس فيهم من اسمه مغل وأما چنكزخان فله أولاد كثيرة غير الأربعة المذكورين فيمكن أن يكون مغل هذا واحدًا منهم والله أعلم. والمكتوب في أكثر كتب التواريخ هكذا نوغية بلا ألف بعد الغين وزيادة التاء في آخره وتشديد الياء لكن الصحيح ما أثبتناه من أنه بنون مضمومة وفتح الغين بعد الواو وسكون الياء بعده وزيادة الألف بعد الحرف المفتوح في عرف العجم للدلالة على فتحة ما قبلها فالأحسن حذفها في العربية ولكن كثيرًا ما يستعمل بالألف اتباعًا للأصل المنقول عنه وأهل ما وراء النهر يسمون أهل القزان نوغي ولا يطلقون عليهم غيره.

تنبيه: قد تقدم في أثناء بيان محاربة بركة وهلاكو ذكر نهر الترك ونهر الكر وهما نهران مشهوران فأما نهر الكر فهو بضم الكاف نهر بجنوب داغستان يمر من تفليس ويجري إلى الشرق حتى يصب في بحر الخزر في قرب ساليان قسبة بجنوب مدينة پاكو وهو أعظمهما وكان حدًا فاصلاً بين مملكة بركة وهلاكو فالداغستان كانت في حصة مملكة بركة وأما نهر ترك فهو بكسر التاء وفتح الراء نهر ينبع من جبال قفقاز ويجري إلى الشرق أيضًا وراء دريند بمسافة كثيرة حتى يصب إلى بحر

(١) قلت صرح في روضة الصفا أن إصابة السهم لعين نوغاي كان في آخر الحروب بين بركة خان وبين أبغا الذي توفي بركة خان في أثناءه كما سنذكره عند ذكر وفاته الله أعلم أي ذلك أصح. منه عفي عنه.

الخزر بعد أن يمر بلدة قزلار فعسكر هلاكو على قول المؤرخين عبروا هذين النهرين في الوقعة المذكورة والخسف بهم يمكن أن يكون في كليهما لأن بعض المؤرخين ذكر أنه في نهر الكر وذكر بعض آخر أنه في نهر الترك والجمع بينهما بأن نقول: إنه في كليهما.

وأما هلاكو فالظاهر أنه عدى نهر الكر دون الترك بل ما عبر دربند بل وقف في شماخي أو شاران أو سلماش على اختلاف الأقوال أو هو مبني على تعدد الوقائع واختلاف الأحوال والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد وقع لبعض المؤرخين خبط كبير في هذين النهرين فمن قائل أنه يعني هلاكو عدا سيحون ومن قائل أنه عدا جيحون ومن قائل أنه عبر إتل وبعض النساخ يحرف لفظ إتل ويزيد في الطنبور نغمة أخرة فيقول أمل أو آمد وكل ذلك خطأ وغلط فاحش والصواب ما ذكرنا والله الهادي.

قلت: وفي محاربة بركة خان عليه الرحمة ابن عمه هلاكو ومطالبته إياه بدم الخليفة وثار الإسلام والمسلمين عبرة عظيمة للمعتبرين وذكرى كبيرة للمستبصرين ودلالة قوية على أن الله سبحانه متكفل لحفظ هذا الدين كما أخبر في التنزيل المبين حيث إنه سبحانه قيض في زمن كاد أن ينقص فيه عرى الإسلام ولم يبق من ينصره بين الأنام من نفس بيت چنكزخان الذي أباد ملوك الزمان وحدث بسببه أعظم الحدثان ومن أقرب الناس إليه من يتعصب للدين ويحارب أقرابه وأبناء أعمامه لطلب قصاص خليفة المسلمين وينبذ قانون جده چنكزخان وراء ظهره مع كونه أقبح القبائح عندهم وما ذلك إلا معجزة للنبي ﷺ فإنه لم ير مثله في التواريخ بعد القرن الأول إلى وقته ولهذا كثر الثناء عليه من كبار العلماء وخيار الفضلاء وهو حقيق بذلك بل بأكثر مما هنالك وقد تقدم بعض ثنائه في أول ترجمته.

قال العيني^(١) والجنابي^(٢) وغيرهما: وكان بركة يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهلاكو وتفريقه جنوده وفك الأسارى من يده وكان يناصح الملك الظاهر ويكرم رسله ويهاديه وكان لا يقطع مكاتبته ومراسلته منه اهـ.

قلت: وكما أنه كسر قوة هلاكو وشوكته وصدده بذلك عن قصد بقية بلاد الإسلام كذلك قوي قلوب ملوك الإسلام وحرصهم على قتاله وأعانهم بإرسال

(٢) الجنابي: تقدمت ترجمته.

(١) العيني: تقدمت ترجمته.

العساكر على ذلك حين جبنوا عن مقاتلته وخشوا بطشته وفرقوا من سطوته حتى انتعشوا بذلك ونهضوا بقوة الجأش لمحاربتة كما قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر^(١): وكتب السلطان إلى ملك شيزر وملك اللور وإلى خفاجة يستجيشهم على هلاكو ويعرفهم بما وصلت به الأخبار من جهة الروم في البر والبحر من كسر بركة له مرة بعد مرة اهـ.

وقال ابن خلدون كغيره: ولما ملك هلاكو بغداد واستشهد الخليفة واستولى على الموصل خاف الملك الظاهر بيبرس غائلة هلاكو ثم إن بركة صاحب الشمال قد بعث إلى الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ يعرفه بإسلامه فجعلها الظاهر وسيلة للوصلة والإنجاد وأغراه بهلاكو لما بينهما من الفتنة والفساد فسار بركة لحربه وأخذ بحجزته عن الشام اهـ. بل عن جميع بقية الإسلام وإنما ذكر الشام لكونها أقرب البلاد إليه ومتصلة بمملكته وفي هذا تصريح بأن البادية بالمراسلة والمكاتبة هو الملك بركة وهو كذلك صرح به كثير من المؤرخين بل كلامه وكلامهم صريح في أن مكاتبته إياه قبل مقاتلته ومقاتلته هلاكو.

قال ابن واصل الحلبي^(٢): إن هلاكو لما فتح البلاد لم يرسل إلى بيت بركة شيئاً مع أن چنكزخان كان قد عين لهم الثلث من الغنائم فعظم ذلك على بيت بركة وسير رسله إلى الملك الظاهر صاحب مصر يقول له نحن من الشرق وأنت من الغرب نأخذ عسكر هلاكو سبياً ولا نبقي منهم رجلاً واحداً فأنعم له الملك الظاهر بذلك وتقرر الأمر بين الملكين على ما ذكرناه فلما بلغ هلاكو اتفاق الملوك عليه جهز جيشه وطلب بلاد بركة الخ. ما ذكر من كيفية الواقعة بينهما ومثله في تاريخ المفضل وغيره ولكن الصحيح أن مراسلته إياه بعد وقعة هلاكو^(٣).

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر: هو عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامي المصري، القاضي محيي الدين، أبو محمد، ولد سنة ٦٢٠ هـ، وتوفي سنة ٦٩٢ هـ، له من المصنفات: «تحري الصواب في تهذيب الكتاب»، «تمائم الحمائم»، «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، «الروضة البهية الزاهرة والخطط المعزية القاهرة»، «النجوم الدرية في الشعراء العصرية» وغير ذلك. (كشف الظنون ٥/٤٦٣، فوات الوفيات ١٧٩/٢، النجوم الزاهرة ٨/٣٨).

(٢) ابن واصل الحلبي: تقدمت ترجمته.

(٣) وكذلك الصحيح إن بدأت الملك الظاهر بالكتابة مقدمة على بدأت الملك بركة وأما إرسالهما الرسل ففي سنة واحدة ووقت واحد كما سيجيء إن شاء الله فاعرفه. منه عفي عنه.

ذكر إرساله عساكره الكائنين عند هلاكو إلى الديار المصرية لإعانة الملك الظاهر ووصولهم إليها ومعاملة الملك الظاهر معهم أحسن المعاملة

اعلم أن منگو قآن لما أرسل أخاه هلاكو سنة ٦٥١ لقتال الملاحدة باستدعاء أهل همدان ومن والاها على ما تقدم وضم إليه من كل من أولاد جوجي وأولاد چغطاي مقدارًا من العسكر للنجدة وكان ذلك في أيام باتو وبقي تلك العساكر هناك عند هلاكو وكانت وظائف عساكر باتو وعلوفتهم من محصول بلدة أران ومراغة وتبريز وهمدان وحارب هلاكو الخليفة وهؤلاء العسكر عنده هناك وكان ذلك في أوائل سلطنة بركة ولم يمكنه إرجاع هؤلاء العسكر حين توجه هلاكو لقتال الخليفة مع عدم رضاه بذلك لأن توجهه إليه كان فجأة ولم يشعر بركة به وإلا لتوجه لمنعه بنفسه فضلاً عن إرجاع عسكره وأيضاً أن هؤلاء العساكر كانوا في مراغة وتبريز وهمدان وأران وهذه البلاد كانت في حصة جوجي وأولاده وكانت العمال والولاة ينصب فيها من طرفهم، كما مرت الإشارة إليه في خلال بيان وقعة باتوخان مع گیوک قآن، ولم تدخل تلك البلاد في قبضة هلاكو إلا بعد محاربة بركة إياه ولهذا استمر دعوى تلك البلاد في أعقاب بركة ولم ينهض أحد منهم لحرب بني هلاكو إلا جعل السبب الظاهر له هذه الدعوى، كما سيجيء بعض ذلك إن شاء الله، ولما استحكمت العداوة بين بركة وهلاكو وآل الأمر إلى المقاتلة أرسل بركة خان إلى هؤلاء العساكر يستدعيهم إليه فإن لم يقدرُوا على اللحاق به يأمرهم بالتوجه إلى البلاد الشامية والديار المصرية ليكونوا عوناً للملك الظاهر والمسلمين على هلاكو فلم يمكنهم اللحاق به لشدة الاحتراس في تلك الجهة فتوجهوا إلى الملك الظاهر فتلقاهم بالقبول وانخرطوا في سلك العساكر الإسلامية وحصلت بهم القوة والفرح والسرور للمسلمين وكان أول وصولهم إلى دمشق في سنة ٦٦٠.

قال النويري والمقرزي والمفضل وغيرهم: يتداخل ألفاظ بعضهم بعضاً^(١) وفيها (يعني سنة ٦٦٠) خرجت الكشافة من دمشق وغيرها فظفروا بكثير من التتار يريدون القدوم إلى مصر مستأمنين وقد كان الملك بركة (صوابه باتو) بعثهم نجدة لهلاكو (يعني على الملاحدة) فلما وقع بينهما الخلف كتب يستدعيهم إليه ويأمرهم إن لم يقدرُوا على اللحاق به أن يصيروا إلى عساكر مصر فوصلوا إلى دمشق في

(١) إلا أنه وقع في نسخ النويري ويبرس سنة ٦٦١ وهو سبق قلم والله أعلم. منه عفي عنه.

السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة وهم زهاء مائتي فارس وراجل بنسائهم وصغارهم هاربيين إلى المسلمين وذكروا أن عسكر هلاكو كسره ابن عمه بركة وإن ولد هلاكو قتل في المصاف وهرب هلاكو وتفرقت جيوشه في أقطار الأرض ودخل هلاكو قلعة بوسط بحيرة آذربيجان وعاد كالمحبوس والمحصور بها. وتوجهت هذه الطائفة إلى البلاد الإسلامية فلما بلغ ذلك السلطان سر به وفرح المسلمون وزال عنهم ما كانوا يخشونه لاشتغال هلاكو عن قصد بلاد الشام وتيقنوا أن الله منجز وعده ومنزل نصره. وكتب السلطان إلى نوابه بإكرام الوافدين من التتار وسير إليهم الإقامات من مصر من الأغنام والسكر والشعير وغيرها من الحوائج وسير إليهم الخلع والإنعامات وغيرها وساروا إلى القاهرة ووصلوا إليها يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة^(١) المذكورة. وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين من الشهر المذكور ولم يبق أحد من أهل القاهرة ومصر ولم يتأخر بل خرج الكل لمشاهدتهم وكان يوماً عظيماً فتلقاهم السلطان وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق ظاهر القاهرة وعملت لهم دعوة عظيمة هناك وبعث إليهم الخلع والخيول والأموال ولعبوا الكرة مع السلطان وأمر السلطان أكابريهم وأمر أكابريهم بمائة فارس وما دونها وأنزل باقيهم في جملة البحرية فحسنت حالهم ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم وأفردت لهم الجهات واستخرج منها مرتبهم ولما بلغ التتار ما نال هؤلاء من الإحسان وما شملهم من الإنعام صاروا يتوافدون جماعة بعد جماعة والسلطان يعتمد مع كل من يحضر منهم مثل ما اعتمد مع من قبلهم اهـ.

وقالوا: وفي سابع ذي القعدة من سنة ٦٦١ قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة من التتار المستأمنين واردون إلى الباب العالي فوق الألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية فكتب بالإحسان إليهم وفي سادس ذي الحجة من السنة المذكورة وصلت هؤلاء الجماعة فركب السلطان لتلقيهم فنزلوا عند مشاهدتهم عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب فأكرمهم وكان السلطان قد رسم بعمارة مساكن لهم فعمرت باللوق فنزلوا بها وأحسن إليهم وعاد إلى القلعة وفي ثامن خلع عليهم فأسلموا واختننوا ثم وردت الكتب بورود طائفة أخرى كثيرة فاحتفل بهم وركب لتلقيهم ثم وردت جماعة أخرى فاعتمد معهم من الإحسان نظير أولئك وكان الواصل إلى الخدمة

(١) عبارة النويري هنا سنة ٦٦٠ ستين فدل على أن ما سبق عنه خطأ من الناسخ. منه عني عنه.

في هذه المرات^(١) الثلاث من أكابر أمرائهم كرمون آغا وهو الذي فتح بلاد الترك جميعًا وأمنع آغا ونوكا آغا وجيراك آغا وقيان آغا وطبشور آغا وناصفيه آغا ومتقدم وغيرهم فاجتمعوا بمن كانوا وصلوا قبلهم وهم صراغان آغا ورفقته ثم عرض السلطان عليهم الإسلام فأسلموا فقدم كبرائهم المذكورون وأمروا وعينت لهم الاقطاعات والطلبخانات وأفيضت عليهم الصلاة والهبات وصار كل منهم كأمير مستقل له الأجناد والغلمان وأسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة ثم صاروا يقدمون طائفة بعد طائفة والسلطان يعتمد مع كل من يحضر مثل ما اعتمد مع من قبلهم اهـ.

ذكر المكاتبه والمراسله والمهاداة بين الملك بركة خان والملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقدار الصالحي القفجقي الأصل سلطان مصر والشام وما حصل بينهما من المحبة والمواددة وما وقع فيها من عجيب الموارد

قد أشرنا إلى ذلك فيما سبق وذكرنا أن المصرح في كلام كثير من المؤرخين أن البادي بالمراسلة هو الملك بركة لكن الأظهر البادي بالمكاتبه هو الملك الظاهر أو أنهما أرسلتا في وقت واحد على سبيل التوارد وهو الأصح ولكن لم يرسل أول كتبه برسول مخصوص بل أرسله بواسطة ثقة من التجار ووقع إرسال الرسل من الجانبين في وقت واحد وتلقى رسلهما في قسطنطينية كما ستطلع على كل ذلك في خلال نقل كلام المؤرخين.

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر^(٢) كاتب الملك الظاهر في سنة ٦٦٠ كتب الملك الظاهر إلى بركة كبير ملوك التتار كتابًا كتبه عنه يغريه بهلاكه ويوقع بينهما العداوة والبغضاء ويقيم الدليل على أنه يجب عليه جهاد التتار لأنه تواترت الأخبار بإسلامه ويترتب على ذلك جهاد الكفار ولو كانوا أهله فإن النبي ﷺ قاتل عشيرته الأقربين وجاهد قريشًا وأمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وليس الإسلام قولًا باللسان والجهاد أحد ما له من الأركان وقد تواترت الأخبار بأن هلاكه لأجل زوجته وكونها نصرانية أقام دين الصليب وقدم مراعاة دين زوجته على مراعاة دينك وأسكن الجائلق الكافر مواطن الخلفاء إيثارًا لزوجه عليك وفي هذا الكتاب

(١) يعني الأخيرة أما الأولى فكبرائهم صراغان وغيره كما سيجيء. منه عفي عنه.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر: تقدمت ترجمته قبل قليل.

إغراء كثير ووصف ما السلطان عليه من الجهاد وبعث الكتاب صحبة من يثق به من تجار العلان اهـ.

ومثله في تاريخ بيبرس بأدنى اختصار وزاد فيه في آخره فورد جوابه بما سنذكره وذكر في خلال حوادث ٦٥٩ سنة والظاهر أنه سبق قلم أو تحريف من النساخ والله أعلم وهذا أول كتاب صدر من الملك الظاهر إلى الملك بركة ولم يذكروا كيفية وصوله إليه والظاهر من كلام بيبرس الماز أعني قوله: فورد جوابه بما سنذكره أن الملك بركة كتب إليه جوابه وأرسله إليه مع رسوليّه الآتي ذكرهما فتلقيا بعض رسل الملك الظاهر الذين أرسلهم بكتاب ثانٍ بعد ورود التتار إلى مصر في قسطنطينية على ما سيذكر وهو أول إرسال الرسل من الجانبين وقد صادف إرسالها وقتًا واحدًا على ما سيظهر من كلام ابن عبد الظاهر ويفهم من كلام الذهبي والمفضل وهذا من عجائب الاتفاق والتوارد الدال على كمال المحبة والتوادد.

ذكر إنفاذ الملك الظاهر رسله إلى الملك بركة بكتاب ثانٍ بعد ورود التتار أصحاب بركة إلى مصر وتلاقيهم رسل الملك بركة في قسطنطينية

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر: ولما وصلت جماعة التتار الذين وصلوا أولاً إلى السلطان واستطلع منهم الحال وعرف أحوال الملك بركة ومقامه والطريق إليه جهز الرسل إليه وهم الأمير كشربك وهو رجل تركي كان جمدار^(١) خوارزمشاه وله معرفة بالبلاد والألسنة والفقهاء مجد الدين الروذراوري وسير صحبتهم نفرين من التتار الواصلين من أصحاب صراغان ممن يعرف البلاد وكتب على أيدي الرسل كتابًا فيه شيء عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ووصف العساكر الإسلامية وكثرتهم وعدة أجناسهم ومن فيها من خيل وتركمان وعشائر أكراد وقبائل عربان ومن أطاعه من الملوك الإسلامية والفرنجية ومن خالفه ووافقه ومن هاداه وهادنه وأن جميعها في طاعته سامعين لإشارته إلى غير ذلك من الإغراء بهلاكوا أخزاه الله

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين: أحدهما: «جاما» ومعناه: الثوب، والثاني: «دار» أي ممسك. وأصل الكلمة: جامادار. وكانت تستعمل في العصرين السلجوقي والمملوكي، ويقابلها في العصر العثماني لفظ «الجوخدار» وهو موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٧١، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٠).

وتهوين أمره والإشلاء عليه وتقبيح الغفلة عنه وإفهامه أن كل ما يفعله يفعله عنادًا له ويعلم فيه بوصول جماعة التتار الذين وصلوا وادعوا أنهم من أصحابه وأن الإحسان إليهم إنما هو من أجله.

ولما تجهز هذا الكتاب أحضر السلطان الأمراء والمفاردة وغيرهم من الأعوان في الإيوان وقرأ الكتاب على الجميع واستشارهم في ذلك فاستصوبوا رأيه ولما كان يوم الخميس ثاني محرم سنة ٦٦١ جلس السلطان مجلسًا عامًا فيه جميع الناس وجماعة التتار الواصلين ورسل السلطان المتوجهون إلى الملك بركة وحضر الإمام أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن^(١) أبي علي الحسن القبي بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله وبايعه السلطان بعد ثبوت نسبه عند قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز^(٢) وبايعه الأمراء والعامة والتتار الواصلون والرسل إلى الملك بركة ولما تمت هذه البيعة المباركة حصل الحديث معه في إنفاذ الرسل إلى الملك بركة فوافق على ذلك ثم قرئ الكتاب ثانيًا بحضوره وانفصل المجلس ثم أمر السلطان بعمل نسبه الظاهرة إلى النبي ﷺ فكتبت وأذبت وسيرها إلى الملك بركة مسجولاً على قاضي القضاة تاج الدين فما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم يعني يوم البيعة اجتمع الناس وحضر الرسل المتوجهون إلى الملك بركة فبرز الخليفة وعليه سواده وصعد المنبر وخطب وصلى الجمعة بالناس ودعى للملك الظاهر وللمسلمين ثم اجتمع الرسل بالخليفة والسلطان وحملهم السلطان من المشافهة ما فيه صلاح الإسلام وعرف أصحابه التتار أحوال عساكره وكثرتها وما هو بصدده من جهاد واستخدام وما يبذله من الأموال في نصرة الدين وقاتل الأعداء المشركين وأنه محب للملك بركة وداع له بالنصر على الأعداء وموافق له على ما فيه صلاح العالم فركبهم في الطرائد وأعطاهم زوادة شهور كثيرة فتوجهوا في المحرم سنة ٦٦١ ووصلوا إلى بلاد الأشكري^(٣) صاحب القسطنطينية فأحسن إليهم وصادف وصولهم هناك وصول

(١) هكذا ذكر السيوطي نسبه في تاريخ الخلفاء وفي غيره من التواريخ اختلافات كثيرة وخربطة. منه عفي عنه.

(٢) تاج الدين ابن بنت الأعز: هو عبد الوهاب بن خلف بن بدر ابن بنت الأعز الشافعي، قاضي القضاة بالديار المصرية، توفي سنة ٦٦٥ هـ (البداية والنهاية ١٣/٢٥٠).

(٣) وهذا الأشكري هو ميخايل الرومي من سلالة بالثولوغس استرد القسطنطينية من الإفرنج في حدود سنة ٦٥٥ بعد أن حكموا فيها ٥٥ سنة وكان بينه وبين الملك الظاهر مسالمة وكذلك بين أولاده وملوك مصر كما يأتي واشكري لقب له ولأولاده ويقال له بالإفرنجية باللام هكذا الشكريس والعثمانية أخذت القسطنطينية من يد ذريته. منه عفي عنه.

رسل الملك بركة إلى الملك الأشكري فسيرهم صحبتهم ورجع الفقيه مجد الدين لمرض حصل له صحبة رسل الملك بركة الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين علي وسافر الأمير كشربك ورفقته ووصلت كتب الملك الأشكري بأن رسل السلطان توجهوا سالمين وربما وصلوا إلى الملك بركة صحبة رسله اهـ بأدنى تلخيص وتغيير .

وهذا كما ترى صريح في أن إرسال الرسل من الجانبين صادف وقتًا واحدًا وأن رسلهما تصادفا في قسطنطينية وأصرح من هذا ما قاله بعد هذا بأوراق ونصه: تقدم في أول السيرة إنفاذ رسل السلطان إلى الملك بركة واستمالتة إلى فئة الإسلام وإغراؤه بهلاكه والإيقاع به ولما وصل الرسل إلى بلد الأشكري صاحب القسطنطينية مرض الفقيه مجد الدين فرجع صحبة رسل الملك بركة الواصلين إلى الأبواب الشريفة وهم جلال الدين ابن القاضي والشيخ علي الدمشقي وتوجه سيف الدين كشربك والنفران من المغل الذين كانا في رفقته اهـ. ومثله في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي إلا أنه لم يذكر رجوع الفقيه مجد الدين صحبة رسل الملك بركة بل قال وعاد الفقيه مجد الدين لمرض نزل به ومعه كتاب الأشكري بمسير الأمير سيف الدين ورفقته اهـ. فلا أدري أيهما أصح ولكن القلب يميل إلى صحة ما ذكره ابن عبد الظاهر لأنه كتب عن رؤية ومشاهدة وسواه أخذ عنه بلا واسطة أو بواسطة .

قال الشيخ ناصر الدين بن علي في إرسال الملك الظاهر رسله إلى الملك بركة: توجه الرسل إلى الملك بركة هذا الملك بركة من وراء التتار وهو عدوهم وكان السلطان يخطب وده ويراسله ويهاديه ليكون معه على ذلك العدو وكانت جماعة من أصحابه قد أنجد بهم هلاكو فقفزوا وحضروا إلى الديار المصرية فأكرمهم السلطان وجهزهم صحبة رسله إلى بلادهم بعد أن حضروا مبايعة الخليفة وسمعوا خطبته وكان تجهزهم في المحرم سنة ٦٦١ اهـ.

ذكر وصول رسل الملك بركة وأدائهم الرسالة

وبيان ما اندرج في كتابه من لذيذ خطابه وقع الاختلاف

بين المؤرخين في زمن وصول هؤلاء الرسل وفي مضمون كتابه

قال القاضي ابن عبد الظاهر ولما وصل السلطان قريبًا من غزة وهو عائد من الكرك وصل إليه البريد من الأمير عز الدين الجيلي نائب السلطنة بالديار المصرية يذكر وصول الكتب من الإسكندرية بوصول رسل الملك بركة وهم الأمير جلال الدين ابن

القاضي والشيخ نور الدين علي ويخبر بوصول رسل الملك الأشكري ووصول مقدم الجنوية ورسل السلطان عز الدين صاحب الروم فكتب السلطان بالإحسان إليهم جميعهم ولما استقر السلطان في قلعة اجتمع بهم بحضور الأمراء والناس وقرأ الكتاب الذي على يد الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين ومضمونه الشكر والثناء وطلب الإنجاد على هلاكو والإعلام بما هو عليه من مخالفة يسق چنكرخان وشريعة أهله وأن كل فعله يعني هلاكو من إتلاف النفوس بطريق العدوان منه وأني قد قمت أنا وإخوتي الأربعة بحربه من سائر الجهات لإقامة منار الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة بالعبادة وذكر الله والأذان والقراءة والصلاة وأخذ ثار الأئمة والأمة ويلتمس إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاكو ويوصي على السلطان عز الدين ويستدعي مساعدته وانفصل هذا المجلس وحمل إلى الرسل من الإنعام ما لا يحصى وعمل لهم دعوة في اللوق واستمر تفقدهما في كل يومي سبت وثلاثاء يومي لعب الكرة بأصناف الأنعام والأقمشة.

وفي يوم الجمعة ثامن عشري شعبان خطب مولانا الخليفة أيضًا بحضور رسل الملك بركة ودعا للسلطان وللملك بركة وصلى بالناس واجتمع بالسلطان وبالرسل في مهمات الإسلام وفي الليلة الثانية حضر رسل الملك بركة إلى القلعة فألبسهم مولانا الخليفة سلام الله عليه بتفويض الوكالة للأتابك وحمل إليهم من الملابس ما يليق بمثلهم وكتب السلطان إلى مكة شرفها الله تعالى والمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والبيت المقدس بأن يدعى للملك بركة بعده في الخطبة وسير إلى مكة شرفها الله عمرة شريفة كتبها يعتمر له فيها اهـ.

وقال الذهبي: وفي رجب سنة ٦٦١ جاءت رسل الملك بركة ملك التتار يخبرون أنه يحب الإسلام ويشكو من ابن عمه هلاكو فأرسل إليه الملك الظاهر هدية وصوب رأيه اهـ.

وقال ابن كثير^(١): وفي سنة ٦٦١ قدمت رسل بركة فان إلى الظاهر يقول له قد علمت محبتي لدين الإسلام وعلمت ما فعل هلاكو بالمسلمين فاركب أنت من ناحية وآتبه أنا من ناحية حتى نصظلمه أو نخرجه من بلاده وأيا ما كان أعطيتك جميع ما في يده من البلاد فاستصوب الظاهر هذا الرأي وشكره وخلع على رسله وأكرمهم اهـ.

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢٣٩/١٣.

وقال المفضل وفي سنة ٦٦١ وصل رسولان من جهة بركة في حادي عشر رجب أحدهما يسمى جلال الدين ابن قاضي دوقات والآخر عز الدين التركماني في البحر إلى الإسكندرية وكان مضمون الرسالة أنت تعلم أنني محب لهذا الدين وأن هذا العدو يعني هلاكو قد تعدى على قتل المسلمين واستولى على بلادهم وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك وأقصده أنا من جهتي ونصدمه يداً واحدة ونزيحه عن البلاد وأنا أعطيك ما في يده من بلاد الإسلام فشكر له السلطان على ذلك ونفذ إليه هدية حسنة ورسولاً اهـ.

وقال المقرئزي: وفي سنة ٦٦١ قدمت رسل الملك بركة بطلب النجدة على هلاكو وهم الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين علي في عدة يخبرون بإسلامه وإسلام قومه وعلى يدهم كتاب مؤرخ بأول رجب سنة ٦٦١ أحد وستين وقدم أيضاً رسول الأشكري فأحسن إلى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضي اللوق وواصل الإنعام عليهم في يومي الثلاثاء والسبت عند اللعب في الميدان وفي يوم الجمعة ثامن عشري شعبان خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الملك بركة ودعا للسلطان وللملك بركة وصلى بالناس صلاة الجمعة واجتمع بالسلطان وبالرسل في مهمات أمور الإسلام. وفي الليلة الثانية حضر رسل البركة إلى قلعة الجبل وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك وحمل إليهم من الملابس ما يليق بمثلهم وخرجت النجابة إلى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركة ويعتمر عنه وأمر الخطباء أن يدعو له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر اهـ.

وهذا كما نرى ليس في عباراتهم اختلاف في مضمون الكتاب وإنما الاختلاف في التاريخ فالذهبي والمفضل جعلوا وصول الرسل في رجب والمقرئزي جعل تاريخ تحرير الكتاب الذي بيدهم في رجب ولا شك في أن أحد القولين خطأ كما لا يخفى والخطأ إنما هو في قول المقرئزي لأنه ذكر حضور الرسل صلاة الجمعة في ثامن عشري شعبان ولا يمكن وصول من خرج من بلدة سراي بمقام اتل في نصف رجب إلى مصر في أواخر شعبان في ذلك العصر وهذا مما لا يخفى على ذوي الأبواب وأيضاً قد ذكر الأمير بيبرس الدوادار المنصوري^(١) في تاريخه زبدة الفكرة أن تاريخ

(١) بيبرس الدوادار المنصوري: هو بكبرس ويقال بيبرس الأمير، ركن الدين المنصوري، الدوادار المصري، توفي سنة ٧٢٥ هـ، له: «تفسير القرآن»، «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة». (كشف الظنون ٥/٢٣٣).

الكتاب الذي ورد صحبة شهاب الدين الغازي ورفقته مستهل رجب من سنة ٦٦١. وهذا الكتاب ليس الكتاب الذي نذكره الآن بل هو كتاب آخر كتبه الملك بركة بعد وصول رسل الملك الظاهر وأرسله صحبة شهاب الدين الغازي ورفقته وعاد معهم رسل الملك الظاهر وكان وصولهم في ذي القعدة سنة ٦٦٢ كما سيجيء. إلا أن الذي نقله عن تاريخ الأمير بيبرس خلط بين الكتابين وخطب خطب عشواء فاشتبه الأمر في بادئ الرأي ولهذا قلنا فيما سبق اختلف المؤرخون في مضمون كتابه وإلا فليس فيه اختلاف في الحقيقة ولهذا أخرجنا ذكر ذلك الكتاب إلى محله ولم نذكره هنا والله الموفق.

ذكر أحوال رسل الملك الظاهر المتوجهين إلى الملك بركة وهم الأمير سيف الدين كشربك ورفيقاه من المغل

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: وكان اجتماع الرسل بالأشكري في أثينا ثم رحلوا إلى القسطنطينية في عشرين يوماً ومنها إلى دفنسيا وهي ساحل السودان^(١) من جهة الأشكري ثم ركبوا في البحر إلى البر الآخر ومسيرته ما بين عشرة أيام إلى يومين بريح طيبة ثم طلّعوا إلى جبل يعرف بسوداق فالتقاهم الوالي بتلك الجهة في قرية اسمها القريم يسكنها عدة أجناس من القفجق والروس والعلان ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم واحد واسم هذا الوالي طايوق وعنده خيل الأولاغ (يعني البريد) ثم ساروا من القريم إلى برية يوماً واحداً فوجدوا بها مقدم عشرة آلاف فارس حاكماً على تلك البلاد والجهات اسمه توق بوغا ثم ساروا عشرين يوماً في صحراء عامرة بالخركاها^(٢) والأغنام والمواشي إلى نهر إتل وهو نهر حلو سعته سعة نيل مصر وفيه مراكب الروس وهو منزلة الملك بركة وحملت إليهم الإقامات والأغنام طول هذه الطرقات ولما قاربوا الأردن التقاهم الوزير شرف الدين القزويني وهو يحدث بالعربية والتركية فأنزلهم في منزلة حسنة وحمل إليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك وأصبح الملك بركة نازلاً في منزلة قريبة فاستحضر الرسل فحضرها والوزير شرف الدين في خدمتهم فخدموه على العادة وكانوا قد عرفوهم ما يفعلونه

(١) إن ساحل بحر السودان وهو البحر الأسود فالكلام على حذف المضاف أو كان يعرف البحر الأسود في ذلك العصر بالسوداق فقط وكان سوداق قاعدة ملك القفجق قديماً على ساحل البحر الأسود كما مر. منه عفي عنه.

(٢) الخركاهات: جمع خركاه، تقدم التعريف به.

عند دخولهم عليه وهو الدخول من جهة اليسار فإذا أخذت الكتب منهم ينتقلون إلى جهة اليمين ويكون القعود على الركبتين وأن لا يدخل أحد على خركاهه بسيف ولا سكين ولا عدة ولا يدوس برجله عتبة الخركاه وإذا قلع أحد عدته يقلعها على الجانب الأيسر وينزع قوسه من القربان ويفك وتره ولا يدع في تركاشه^(١) نشابا ولا يأكل ثلجًا ولا يغسل ثوبه في الأردو فإن اتفق غسله ينشره خفية .

ثم إنهم وجدوا الملك بركة في خركاه كبيرة تسع خمسمائة فارس وهي مكسوة لباذا أبيض ومن داخلها مسترة بسنداب وخطائي ومكلمة بجواهر ولؤلؤ وهو جالس على تخت مرخي الرجلين على كرسي عليه مخدة فإنه كان به وجع النقرس وإلى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طغطغاي خاتون وله امرأتان غيرها وهما چچك خاتون وكهر خاتون وليس له ولد والمشار إليه بولاية العهد ابن أخيه منگو تيمر^(٢) بن طغان بن باتو ويعرف بأمير أغول يعني الولد الأمير . وكان عمر الملك بركة إذ ذاك التاريخ سنًا وخمسين سنة وصفته أنه خفيف اللحية كبير الوجه في لونه صفرة يلف شعره عند أذنيه في أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة مثمثة وعليه قباء خطائي وعلى رأسه سراقوچ^(٣) وفي وسطه حياصة ذهب مجوهرة معلق بها صولق بلغاري أخضر وفي رجله خف كيمخت أحمر وليس في وسطه سيف وفي حياصته قرون سود معوجة مقمعة بذهب وعنده خمسون أميرًا أو ستون على كراسي في الخركاه فلما دخلوا عليه وأدوا الرسالة أعجبه ذلك عجبًا عظيمًا وأخذ الكتاب وأمر الوزير بقراءته ثم نقلهم عن يساره إلى يمينه وأسندهم إلى جنب الخركاه خلف الأمراء الذين بين يديه وأحضر لهم القمز وبعده العسل المطبوخ ثم أحضر لهم لحمًا وسمكًا فأكلوا ثم أمر بإنزالهم عند زوجته چچك خاتون ولما أصبحوا ضيفتهم الخاتون في خركاهها ثم انصرفوا آخر النهار إلى منازلهم . وكان السلطان بركة يطلبهم عنده في سائر أوقاته يسألهم عن الفيل

(١) التركاش: لفظ فارسي الأصل، ومعناه: الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٧٦).

(٢) وهذا مبني على أن بركة ابن باتو وقد عرفت أن الصحيح خلافه فالصواب حفيد أخيه . منه عفي عنه .

(٣) ويقال له سراچج ويقال له بلسان أهل قزان قالباق وهو الآن مختص بالنسوان والغالب أن تركه للرجال كان في عصر أوزبك خان على ما يفهم مما سيجيء في ترجمته والظاهر أن أصله صار غچ لفظ تركي والمذكور في التواريخ العثمانية بقاء استعماله إلى وقت قريب من زماننا هذا والله سبحانه أعلم . منه عفي عنه .

والزرافة وعن النيل وعن مصر وقال سمعت أن عظمًا لابن آدم ممتد على النيل يعبر الناس عليه فقالوا هذا ما رأيناه ولا هو عندنا وفسر قاضي القضاة الكتاب وبعث نسخة إلى الخان يعني بركة وقرىء كتاب السلطان بالترك على من عنده ففرحوا به . وكان عند الملك بركة رجل فقير من أهل فيوم اسمه الشيخ أحمد المصري له عنده حرمة كبيرة ولكل أمير من أمرائه عنده مؤذن وإمام ولكل خاتون أيضًا مؤذن وإمام والصغار الذين عندهم لهم مكاتب يتلقنون القرآن العزيز .

ذكر عود رسل الملك الظاهر

وإرسال الملك بركة معهم رسلاً من عنده إليه ثاني مرة

قال القاضي ابن عبد الظاهر: إن رسل الملك الظاهر أقاموا عند الملك بركة ستة وعشرين يوماً ثم أعطاهم شيئاً من الذهب الذي يتعاملون به في بلاد الأشكري وخلعت عليهم زوجته المذكورة يعني چېك خاتون وأعطاهم جوابهم وسيرهم ومعهم رسله وهم أربوقا وأرتمور وأونا ماس فعاد الرسل من جهة الأشكري وحضروا والعساكر المنصورة لابسة وذلك في عاشر ذي القعدة سنة ٦٦٣ وما زال الرسل يحضرون إلى الخدمة ويشاهدون لعب الكرة وحضروا الطهور وأنزلوا باللوق اهـ .

وقال ابن كثير^(١): وفي سنة ٦٦٢ قدمت رسل الملك بركة خان إلى الملك الظاهر ومعهم الأشرف بن الشهاب غازي بن العادل ومعهم من الكتب والمشافهة ما فيه سرور للإسلام وأهله مما حل بهلاكو وأهله اهـ .

وقال المقرئزي: وفي ذي القعدة من سنة ٦٦٢ حضر رسل الملك بركة فشاهدوا من كثرة العساكر وحسن زيهم واهتمام السلطان وبهجة الخيول وجلالة الفرسان ما بهر عقولهم ووقفوا بجانب السلطان يشاهدون حركات العساكر وإصابة رميها واستمر ذلك أياماً اهـ .

وقال ابن الفرات وحضر رسل الملك بركة في هذا الوقت (يعني وقت عرض الملك الظاهر العساكر المصرية في ذي القعدة سنة ٦٦٢) فشاهدوا من كثرة العساكر وحسن زيهم واهتمام السلطان وحسن الرجال والخيول المسومة ما بهرهم واستمر وقوف السلطان وهم إلى جانبه يشاهدون حركات هذه الجنود وإصابة رميها وأقاموا أياماً على هذه الصفة وقالت رسل بركة للسلطان هذه عساكر مصر والشام فقال: بل

عساكر المدينة خاصة غير الذين في الثغور مثل إسكندرية دمياط ورشيد وقوص والذين في قطاعها فعجبوا من ذلك وذكر الرسول^(١) أنه ما رأى خيلاً ولا عدة في عسكر السلطان جلال الدين ولا غيره مثل هذا الموكب اهـ.

قال الشيخ ناصر الدين بن علي في حسن المناقب السرية ذكر ختان ولد الملك الظاهر محمد بركة: وأحضر السلطان بيبرس لمشاهدة هذا اليوم العظيم من كان في خدمته من الرسل كرسل الملك بركة ووزير يافا فتعجبوا من ذلك واستهالوا أمره ولما انقضى هذا الختان شرع السلطان في تدبير أحوال رسل بركة الواصلين صحبة رسله بعد الإكرام والاحترام وتفهم السلطان من رسله أحوال بركة وولاده ومسافتها ورسومه فأخبروه بمنزلة منزلة وإن له خراكها تسع خمسمائة فارس مبلدة مرصع داخلها باللؤلؤ والجواهر ووصفوا له حليته وملبوسه على ما مر ومضمون كتابه السلام والود والمحبة وقبول الصداقة وأنه عون له على هلاكه كما التمسه السلطان منه اهـ.

وقال في زبدة الفكرة للأمير بيبرس الدوادار المنصوري: وصلت رسل بركة ملك التتار وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم من بيوت التتار وخرج عن زمرة الكفار وتفصيلهم بقباثلهم وعشائهم وأنفارهم وعساكرهم وصغيرهم وكبيرهم قال: ودخل في دين الإسلام إخواننا الكبار وإخواننا الصغار وذريتهم وأولاد بوداكور بحشمهم وأولاد بولاد وكوكا جسووييسونو غاي ومن في بلادهم قود غو وقراجار وتنسق بوغا وشرامون وبوز باكو ومنقدار بجيوشه وسواده وبك قداق باينال وتقوز أوغل وقتلع تيمرواجي وذريته ودرباي والتومان الذي توجه إلى تجريد خراسان وكل من توجه صحبة بايجيو مثل باينال نوبن وإيكاكو كل هؤلاء أسلموا بأسرهم وقاموا بالفرائض والسنن والزكاة والغزاة والجهاد في سبيل الله وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وقرأنا ﴿إِنَّمَا أَرْسُلُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥] الآية فليعلم السلطان أنني حاربت هلاكه الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان وهم أربوغا وارتمور وأوناماس ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنه كان حاضرًا في الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق المخيرات والسعادات لأنه أقام إمامًا من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا

(١) يعني شهاب الدين غازي. منه عفي عنه.

سيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد لاستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار وتاريخ هذا الكتاب مستهل رجب سنة إحدى وستين وستمائة بمقام إتل وهو كتاب مطول مشتمل على إسهاب وأطناب هذا من جملة وعادت رسل السلطان صحبتهم وهما الأمير سيف الدين كشربك التركي جمدار^(١) خوارزمشاه ورفقته فأكرم السلطان رسل بركة ورسل الأشكري الواصلين معهم اهـ.

لكن ذكر في أول هذا أن هذا الكتاب جابه الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين علي في سنة ٦٦١ ولا شك في كونه خبطاً وغلطاً وتحريفاً من النسخ وكونه خطأ غني عن البيان خصوصاً لمن تأمل في أحوال الرسل السابقين وما في هذا الكتاب من قوله وسيرت قصادي ورسلي وهم أربوغا الخ. فلو كان حامل هذا الكتاب هو الأمير جلال الدين ورفقته كيف يقول وهم أربوغا وقوله: ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم فإنه ما جاء مع الأمير جلال الدين ولا في سنة ٦٦١ بل جاء صحبة المذكورين في سنة ٦٦٢ والله الهادي. وهذا هو الكتاب الموعود ذكره وقد جعل المقرئ تاريخ هذا الكتاب تاريخاً للكتاب الأول وهو أيضاً سبق قلم كما ذكرنا هناك فلا تغفل والله يتولى هداك.

ذكر إرسال الملك الظاهر رسلاً إلى الملك بركة ثانياً

بعد قدوم الرسل منه إليه أول مرة أعني الأمير جلال الدين ورفقته وإرساله الهدايا الجليلة والتحف الجزيلة إليه كما وقعت الإشارة إليه في أثناء الكلام

وهذا وإن كان مقدماً على عود رسل السلطان أعني الأمير سيف الدين كشربك ورفقته من عند الملك بركة برسله وكتبه كما يعلم من التاريخين إلا أنا قدمنا ذلك لتكون القصة بعضها متصلاً ببعض.

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر والأمير بيبرس الداودار المنصوري والمفضل والمقرئ، يتقرب ألفاظ بعضهم بعضاً ونبدأ بكلام ابن عبد الظاهر لأنه هو المنتهي لذلك الخبر وغيره إنما يستمد من بحره وإنما نزيد في غضون الكلام من غيره ما ليس فيه قال ورسم السلطان (يعني الملك الظاهر بيبرس بعد ورود رسل الملك بركة بكتاب من عنده أول مرة وهم الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. تقدم التعريف به قبل قليل.

علي) بتجهيز الهداية إلى الملك بركة من كل شيء على اختلافه وكتب المملوك جوابه في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية فيها الآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ في الترغيب على الجهاد وما ورد في مصر من الآيات والأحاديث. وفي قتال المشركين والافتداء بالنبي ﷺ في الجهاد وفيه ذكر مواطن العبادات ومواضع الزيارات في سائر البلاد التي دعى له (يعني للملك بركة) فيها وفيه شيء كثير في الترغيب والترهيب والاستمالة والتعظيم له وإظهار الميل إليه ووصف كثرة جنود الديار المصرية وما هي عليه وزيادة عساكرها عن المعتاد وأنها كلها موافقة له في نصره الإسلام. وقرأت الكتاب على السلطان في حضور جماعة الأمراء وهو يزيد فيه وكذلك الأتابك^(١) يمليه ولما تكامل هذا الكتاب وتجهزت الهدية المباركة وهي ختمة شريفة ذكر أنها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٢) (ومثل ذلك في تاريخ بيبرس وقال النويري ذكر أنها من المصاحف العثمانية) بغلاف أطلس أحمر مزركش ضمن درج آدم مبطن بعتابي وكرسي لها عاج وأبنوس مخرم بسقط فضة وتفل فضة خروق بندقي كامل عدة كثيرة ونماز لوقات للصلاة وسجادات ألواناً متنوعة وأكسية لواتية ألواناً عديدة والأديم والدسوت والإقطاع المسردقة والشمعدانان جملة كبيرة سيوف فلجورية بأسقاط فضة ودبابيس مذهبة خود إفرنجية بأطواق فضة وطوارق مذهبة فوانيس فضة بأغشية بندقية منجنيقات بأغشية ومشاعل جفتات وقواعدها برسمها مكفنة سروج خوارزمية ولجم كل ذلك بأنواع السفت بالذهب والفضة قسي حلق دمشقية وقسي بندق وقسي جروح ورماح قناة وأسنة ونشاب بديع الصنعة في صناديق مجلدة قدور برام قناديل مذهبة بسلاسل فضة مطلاة بالذهب وخدام سود وجواري طباحات وخيل سوابق عربية هجن نوبية نادرة ودواب فارهة ونسانيس معلمة وبغابغ وقروود بلق

(١) الأتابك: وأصله أطابك، ومعناه الوليد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه بألقاب منها هذا، وقيل: أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام (صبح الأعشى ١٨/٤).

(٢) والمصحف الذي اشتهر بأنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وجلبوه من سمرقند إلى بطر بورغ وأودع في كتبخانة امبراطورية لا يبعد أن يكون هو هذا المصحف بأن يحمله تيمرلنك من سراي إلى سمرقند عند حروبه بتوقتاميش خان واستيلائه على سراي على ما سيجيء وهذا احتمال قريب فلا وجه لاستبعاد البعض إياه من غير دليل يستند إليه. منه عفي عنه.

وفيل وزرافة وحمير وحشية عتابية وحمير مصرية وثياب اسكندرية ومن عمل دار الطراز وغير ذلك أشياء كثيرة مستظرفة وتحف مستغربة ولطائف لا يوجد مثلها في خزانة ملك كبير وصحبتها غلمان ومن يقوم بهذه الحيوانات سلم السلطان جميع ذلك إلى رسله واهتم بها اهتمامًا كثيرًا كل ذلك لمصلحة الإسلام وجهز الأمير فارس الدين أقوش المسعودي الأسدي والشريف عماد الدين عبد الرحيم الهاشمي العباسي رسولين إلى بركة وأصحابهما هذه الهدية وأعاد معهما رسل الملك بركة وهما الأمير جلال الدين ابن القاضي والشيخ نور الدين علي وألبسهما الفروة من مولانا الخليفة سلام الله عليه وأحضرهما خطبته والصلاة معه خلفه وجمعهما به فحث على إقامة فريضة الجهاد وحملهما من الوصايا للملك بركة والمشافهة والشكر لمساعي السلطان وما هو بصده من إقامة الشريعة وسد الذريعة ورفع منار الدين وجهاد المشركين وملازمة العفاف ومعاملة الرعية بالعدل والإنصاف وما جمعه من العساكر والجنود التي ليس لها أول ولا آخر ما يعيد^(١) أنه على الملك بركة وجهز لهم طريدة عظيمة جمعت لأصناف الحيوانات المسيرة هدية وما فيها من الأشياء الفاخرة وجهز فيها عدة كثيرة من الرماة والزراقين والجرحية وحمل معهم مؤنة سنة وسافروا في سابع عشر رمضان من سنة ٦٦١^(٢) وقد شاهدوا من عظمة السلطان وكثرة العساكر ما بهر عقولهم.

فلما وصلوا إلى القسطنطينية عوقبهم الأشكري البالثولوجس كورميخايل عن المسير لأذية حصلت لها من الملك بركة وقد كان عنده رسل هلاكو^(٣) فاعتذر إليهم بالخوف من هلاكو لكون بلاده متجاورة لبلاده وأنه متى سمع أنه مكن رسل صاحب مصر من التوجه إلى الملك بركة يتوهم انتقاض الصلح بينهما فربما يتسارع إلى نهب ما جاوره من بلاده وكان يماطلهم بهذا العذر من يوم إلى يوم ومن جمعة إلى جمعة ومن شهر إلى شهر وكل ذلك كان مكيدة وخديعة منه حتى بقي الرسل هناك قريبًا من سنة كاملة فبلغ ذلك السلطان الملك الظاهر في رمضان من سنة ٦٦٢ وقيل لما طال

(١) وكأنه متعلق بقوله وحملهما من الوصايا. منه عفي عنه.

(٢) فتكون مدة إقامة رسل الملك بركة بمصر شهرين وبضعة أيام فإن قدومهم إليها كان في رجب من العام المذكور. منه عفي عنه.

(٣) وكان هلاكو أرسل الأشكري في ذلك الوقت يخطب ابنته لنفسه فأجابه إلى ذلك وجهزها فلما بلغت قيسارية بلغ خبر موت هلاكو فلم يمكنها من الرجوع بل حملوها إلى أبغا بن هلاكو فتزوجها. منه عفي عنه.

مكثهم هناك وأقاموا سنة وثلاثة أشهر وهو في مماطلته قالوا له: إن لم يمكنك المساعدة على توجهننا إلى الملك بركة فأعدنا إلى مصر فأذن للشريف العباسي وحده بالعودة فعاد وأخبر بما جرى. لكن الصحيح أن السلطان بلغه ذلك قبل عودته فلما سمع السلطان ذلك طلب نسخ الأيمان وأخرج منها يمين الملك كور ميخايل الأشكري وهو باللغة الرومية وأحضرت البطارقة والأساقفة وتحدث معهم فيمن يحلف بكذا وكذا من الأيمان ثم يخرج عنه يعني يحنث وينكث فقالوا يلزمه كذا وكذا من الأمور المخرجة له عن دينه وأنه يكون محروماً من دينه فأخذ خطوطهم بذلك وهم لا يعلمون ما يراد منهم ثم أخرج لهم نسخ أيمان الأشكري وقال: قد نكث بإمساك رسلي ومال إلى جهة هلاكك ثم طلب الراهب الفيلسوف اليوناني وطلب أسقفًا وقسيسًا وجهزهم إلى الأشكري وصحبهم هذه المكاتيب وكتب إلى الأشكري وهو يغلظ عليه في القول يقول له: إن كان سبب إمساك رسلي فساد حالك مع الملك بركة وكون عساكره أفسدت في بلادك فأنا أصلح الحال بينك وبينه وكتب السلطان كتابًا إلى الملك بركة بذلك وسيره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودي المتوجه بالهدية إلى الملك بركة وأمره بالتوسط في الصلح وأن يستشفع له، وتوجهت الجماعة المذكورون بذلك فلوقته أطلق الجميع وساروا إلى الملك بركة.

هذا قول القاضي ابن عبد الظاهر والشيخ ناصر الدين بن علي والمقريزي إلا أن الجملة الأخيرة من قول المقريزي فقط وهذا هو الصحيح إن شاء الله في إطلاق هؤلاء الرسل ولم أف في قول هؤلاء على كيفية وصولهم إلى الملك بركة والظاهر أنهم ما وصلوا هناك إلا بعد وفاته وتملك منگوتيمر كما سيجيء.

وقال المفضل: لما عاد الشريف العباسي وبقي الأمير فارس الدين أقوش المسعودي تأخر أيضًا مدة سنين حتى هلك أكثر ما كان معه من الحيوان والرقيق وتسارع الفساد إلى غيره ثم إن عسكر بركة قصدوا القسطنطينية وأغاروا على أطرافها وهرب البالثولوجس الذي كان فيها وبعث الفارس المسعودي إلى مقدم عسكر بركة يقول له: إن البلاد في عهد السلطان الملك الظاهر وصلحه وإن القآن بركة في صلح من صالحه وعهد من عاهده فطلب خطه بذلك فكتب له خطه ذلك وأنه مقيم باختيار وأنه يعني صاحب القسطنطينية لم يمنعه من التوجه إلى الملك بركة فرحل عسكر بركة من القسطنطينية واستصحبوا معهم السلطان عز الدين فإنه كان محبوسًا في قلعة من قلاع القسطنطينية^(١)

(١) كان محبوسًا في قلعة دوبريجه وولده غياث الدين مسعود في نفس قسطنطينية. منه عفي عنه.

فأخرجوه منها. ثم إن الباثولوجس جهز الفارس إلى بركة وبعث معه رسولا من جهته ورسالة مضمونها أن يقرر على نفسه أن يحمل إليه كل سنة جملة من الأموال منها ثلاثمائة ثوب أطلس على أن يكون معاهداً ومصالحاً له ومدافعاً عن بلاده. ثم توجه الفارس إلى بركة فلما اجتمع به أنكر عليه تأخيره فقال إن صاحب القسطنطينية منعي من الحركة فأخرج له خطه بما كتب به لمقدم عسكره فقال: أنا ما أوأخذك لأجل الملك الظاهر وهو أولى مني بأخذك على كذبك وإفساد ما أرسله معك.

ثم إن السلطان عز الدين كتب إلى السلطان الملك الظاهر يعرفه جميع ذلك وما صدر من الفارس من التقصير من كونه رحل عسكر بركة عن القسطنطينية بما أوهمه من كون البلاد في عهد الملك الظاهر. وكان قادراً أن يأخذ منه في مقابلة ترحيله عنه قيمة ما أفسد من الهدية لاضطراره إلى ذلك فلما رجع فارس الدين إلى مصر واجتمع بالسلطان نقم عليه لفعله وقبض عليه وأخذ منه ما كان وصل معه من البضائع وكانت قيمتها أربعون ألف دينار وكان وصوله في جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ هـ.

لكن فيه نظر فإن حبس السلطان عز الدين كيكاس إنما كان في سنة ٦٦٢ وتخلصه من الحبس كان في سنة ٦٦٨ في عهد منغوتيمر على ما في أكثر التواريخ كما سيذكر بعضه إن شاء الله تعالى إلا أن في تاريخ الذهبي ما يؤيد ما ذكره المفضل حيث قال: فأما صاحب الروم عز الدين صار منه كذا وكذا فتغير صاحب الأشكري عليه فحبسه بقلعة فأغارت طائفة من عسكر بركة على بعض بلاد الأشكري وحاصروا تلك القلعة فوقع الاتفاق على أنه إن سلم إليهم السلطان عز الدين رحلوا فسلمه إليهم وتكفلوا به إلى الملك بركة هـ.

ومثله في تاريخ بيبرس ونصه قد ذكرنا أن بركة ملك التتار قبل وفاته قد جرد جيشاً لأخذ إستانبول فعادوا وأخذوا معهم السلطان عز الدين من قلعة كان معتقلاً بها هو وأولاده هـ. إلا أن كلام هؤلاء ليس فيه تعرض لرسول الملك الظاهر وكلامهم يدل أيضاً على أن قصد إستانبول كان في أواخر عهد بركة خان فعودهم يمكن أن يكون بعد وفاته وبعد تملك منغوتيمر ولكن تنسب هذه الواقعة تارة إلى الملك بركة نظراً إلى مبادئها وتارة إلى منغوتيمر باعتبار آخرها وانتهائها ويكون قدوم فارس الدين المسعود بالهدايا إلى سراي بعد انقضاء تلك الواقعة في أيام منغوتيمر.

ويؤيده ما ذكره ابن الفرات حيث قال جاء رسول الأشكري سنة ٦٦٧ بكتاب يتضمن رجوع الأشكري عن المخالفة ويقول: إنه سير رسل السلطان بعد أن حلف

للسلطان بعد أن أخرهم إلى وفاة الملك بركة وجلوس ولد أخيه بعده اهـ. وهذا حاسم لمادة المنافرة والمخالفة.

ويؤيده ما ذكره غير واحد نقلاً عن القاضي عز الدين بن شداد أن رسل الملك الظاهر المتوجهين إلى الملك بركة بالهدايا أقاموا عند الأشكري إلى سنة ٦٦٥ وقال بعضهم خمس سنين وعلى كل حال يكون وصولهم إلى بلاد بركة بعد وفاته فإن وفاته كان في سنة ٦٦٥ كما سيجيء.

وبالجملة لا خلاف عند التحقيق بين قول من قال: إن إطلاق الأشكري لفارس الدين المسعود إنما كان بعد وصول من أرسلهم الملك الظاهر إليه أعني الراهب الفيلسوف اليوناني ورفقته وبين قول من قال: إنه بعد إغارة عسكر بركة على القسطنطينية وقول من قال بعد إغارة عسكر منغوتيمر عليها لإمكان الجمع بينهما كما ذكرنا.

وإنما المشكل هو الجمع بين قول من قال: إن تخلص السلطان عز الدين كان في عهد بركة على ما مر وقول من قال: إنه كان في أيام منغوتيمر في سنة ٦٦٨ على ما سيجيء في ترجمته فإن التطبيق بينهما غير ممكن إلا أن نحمل أحد القولين على الوهم وعندني إن حمل القول الثاني على الوهم أولى بل هو المتعين لما سيذكر وجهه في ترجمة منغوتيمر فحينئذ يكون تخلص السلطان عز الدين وإطلاق فارس الدين المسعودي في وقعة واحدة فيرتفع الخلاف حينئذ بالكلية والله سبحانه أعلم.

وأما قصد بركة لبلاد الأشكري وقسطنطينية فقد ذكره غير واحد وكان قصده إياه بعد كسره لهلاكه والظاهر أنه كان في أوائل سنة ٦٦٢ وسببه الله أعلم. هو حبس الأشكري للسلطان عز الدين وميلانه لهلاكه وصرح به في بعض التواريخ أن السلطان ركن الدين الرابع التمس من الملك بركة تخليص أخيه عز الدين من محبس الأشكري.

وقد ذكر في روضة الصفا ما معر به أن السلطان عز الدين كيكائوس لما توهم من أخيه ركن الدين هرب إلى قريم فحمله عسكر بركة خان إلى حضرته وكان بركة خان ملكاً مسلماً فأمدّه بالعساكر وأرسله إلى طرف الروم اهـ. وقد مر توصيته الملك الظاهر في حقه في المكتوب الذي كتبه إليه أول مرة هذا.

ذكر إرسال الملك الظاهر إلى الملك بركة بعد المرتين الأوليين

قال المقرئ في جمادى الأولى من سنة ٦٦٢ توجه قصاد إلى الملك بركة وأسلم عالم كبير على يد السلطان من التتار الواصلين ومن الفرنج المستأمنين والأساري ومن التوبة القادمين من عند ملكها. وقال أيضًا: وفي رمضان من سنة ٦٦٣ توجه شجاع الدين ابن الداية الحاجب إلى الملك بركة رسولاً ومعه ثلاث عمر اعتمر بها عنه بمكة عملت في أوراق مذهبه وشيء من ماء زمزم ودهن بلسان وغيره اهـ.

وقال النويري: وفي سنة ٦٦٣ توجه شجاع الدين ابن الداية الحاجب رسولاً إلى الملك بركة في كف غارات الملك بركة عن بلاد الأشكري حسب سؤاله في ذلك وسير معه ثلاث عمر اعتمر بها بمكة للملك بركة وسير معه قمقمان من ماء زمزم ودهن بلسان وغير ذلك اهـ.

وقال ابن الفرات: وفي شوال سنة ٦٦٣ توجه شجاع الدين ابن الداية الحاجب إلى الملك بركة رسولاً من السلطان في كف غارات الملك بركة عن بلاد الأشكري حسب سؤال الأشكري في ذلك فسيره في ذلك وفي مهمات آخر وسير معه ثلاث عمر اعتمر بها بمكة شرفها الله تعالى للملك بركة لم يعمل مثلها لما اشتملت عليه من الآيات والأحاديث النبوية والأذهاب وسير معه قمقمان من ماء زمزم ودهن بلسان وغير ذلك وتوجه معه أحد أصحاب الملك بركة وهو جمال الدين محمود اهـ.

وهذا نهاية ما اطلعنا عليه من كيفية مراسلة هذين الملكين الجليلين والأسدين الضرغامين اللذين قيصهما الله سبحانه في الجهتين للقيام بحماية الدين وحفظاً للشرع المستبين والذب عن الإسلام والمسلمين حين توجه حال الإسلام إلى الإذبار ولم يبق له من الأنصار وقصده الكفار من جميع الأقطار جزاهما الله سبحانه خير الجزاء ورضي عنهما أحسن الرضا وإلا فالمراسلة بينهما كثيرة لم تنقطع حتى الممات كما ذكره العلماء الأثبات وفي هذا القدر كفاية لمن اعتبر والكتب المطولة موجودة لمن اقتدر فليراجعها إن لم يقنع بهذا القدر يجد من المواددة والمواصلة والمواولة والمراسلة بينهما ما لا يوجد فيما بين أكثر أفراد البشر حتى أن الملك الظاهر من غاية محبته للملك بركة سمي ولده الأكبر باسمه محمد بركة.

ولنعطف الآن عنان اليراع نحو بيان سائر أحوال الملك بركة وما حصل له سوى ما ذكرنا من الحركة وبيان هلاك هلاك وانتقاله من هذه الدار إلى دار الجزاء والبوار والأسفل من الدركة.

ولم ينقل في تواريخ الروسية من أحوال بركة خان عليه الرحمة شيء إلا أن كارامزين قال: ولما تملك بركة فوض إدارة أمور الروسية لنائبه أولاوچي فانتظم الأمور ثانيًا وصارت حكام الروس يترددون إلى الأمير أولاوچي اهـ.

قلت: وكأنه نصبه ناظرًا للمستملكات ولما لم يطلع الفاضل المرجاني على هذا عدّ الأولاوچي^(١) المذكور في عداد الخوانين كما تراه في تاريخه.

ذكر هلاك هلاكو

اعلم أنه لما تمت عليه الهزيمة أمام الملك بركة وتفرقت عساكره أيدي سبأ كاد من تراكم الهموم عليه أن يتعطل من الحركة لأنه بقي بين العدوين القويين كل منهما قد كسره كسرة شنيعة الملك الظاهر من طرف الجنوب والغرب والملك بركة من جهة الشمال والشرق وأخذ الانتقام والثأر منهما غاية مرامه ولكن استشعر من نفسه العجز في ذلك لما شاهد من عبوسة وجه أيامه وهبوط نجم إقباله وسماع ما حصل بين الملكين من المصافاة والموالة يرش الملح في جرحه ويزيد في آلامه ومع ذلك أمر بجمع الجيش والعساكر وأن يتهيأ للحرب كل من يقدر على حمل السلاح من رعاياه الأكابر منهم والأصاغر حتى ينتقم من بركة أولاً ثم من المصريين والشاميين، فسمع في السنة الثانية أن الأمير نوغاي قائد جيش بركة قد جاوز الدربند بالجيش لقصد تبريز فأرسل هلاكو الشيخ شريف التبريزي نحوه جاسوسًا ليرده عن وجهه إن قدر فلما لقيه قال له نوغاي: ما بال هلاكو يقتل الأشراف والأعيان والعباد والزهاد والزوار والتجار والكبار والصغار قال الشيخ: إنه كان أولاً غضبانًا بسبب الفتنة بين أخويه قپلاي قآن وأرتق بوكا ولما اصطلحا الآن زال غضبه وقد أرسل إليه قپلاي قآن ثلاثين ألفًا من العساكر الجرار غير ما لديه ممن يضرب بالسيف البتار فقصده ليس إلا الانتقام فلما سمع نوغاي ذلك حصل له الرعب فيما هناك فرجع الشيخ شريف إلى هلاكو وأخبره بما جرى فأجزل له العطاء وأجرى وأمر بتجهيز الجيش وتوجههم بأوفى حركة إلى طرف دشت بركة. وبينما هو في هذا التدبير إذ قال له الأمير جلال الدين ابن الدوادار الكبير أن في سواد بغداد وقرى عراق ألوفاً من أتراك دشت القفقق وفيهم معرفة تامة بطرق تلك البلاد ومسالكها اللازمة في فن الحرب والجهاد فإن أذن لي الخان أجمع منهم عساكر كثيرة وجيوشًا

(١) ولكنه تبع في ذلك أبا الغازي خان ومنجم باشي. منه عفي عنه.

كبيرة حتى يكونوا في مقدمتنا حين توجهنا إلى بلاد الدشت فاستحسن هلاكو منه ذلك وأمر بامضاء ما اقترحه هنالك فكتبوا له الأمر والفرمان إلى ولاة إيلخان ونوابه الكائنين بالعراق وبغداد وأطراف بلاد قرمان بالمساعدة للأمير جلال الدين المذكور فيما يرومه من الأمور من إعطاء ما يريده من الخزينة من الآلات والخيول وأن لا يمانعه أحد فيما يبطلش ويصول فتوجه نحو مقصده في شهر سنة ٦٦٢ فجمع جمعًا عظيمًا ممن يستحسنه من أرباب النجدة والحراة ويتوسم فيه الاقدام والشجاعة وأخذ من الخزينة مبلغًا كثيرًا وشيئًا كبيرًا فلما قضى وطره من ذلك قال لأصحابه هنالك نزور أولاً مرقد الإمام حسين ثم نتوجه نحو المقصد بلامين فلما عبر بهم الدجلة بهذا العذر قال لهم: أنا عازم إلى الشام ومصر ولا أريد أن أجعلكم طعمة لسيوف قفجق أو تقتلوا القفجق بسيوفكم وهم من جنسكم لأجل هلاكو الكافر فمن وافقني في هذا فيها وإلا فليرجع إلى منزله فإنه في سعة من ذلك فراقه جميعهم طوعًا أو كرهاً خوفاً من المطالبة والمؤاخذه وتوجهوا إلى الشام من طريق الخدشة والعانة. كذا في روضة الصفا.

قلت: وكل هذه الحركة كان بتعليم من الملك بركة فانخرطوا في سلك العساكر المصرية كما تقدم فتذكر، فلما بلغ ذلك هلاكو صار كأنه رش الملح إلى جراحاته وانضم ذلك إلى ما سلب عنه أولاً من راحاته فغاص بحار الهم وخاض تيار الغم واستولى على مملكة دماغه جيوش الأفكار واشتغل في سويداء قلبه أشد النار وامتلاً عروقه من متصاعد البخار حتى أفضى ذلك إلى أن ابتلي بمرض الصرع فلم يلبث إلا قليلاً حتى توجه إلى لعنة الله كافرًا زنديقًا مصرًا على عداوة الإسلام والمسلمين وجملة زمرة الموحدين وكان ذلك باتفاق المؤرخين في سنة ٦٦٣ في ربيع الأول وقيل في الأخير ودفن بقلعة تلا على رسم كفرة المغل من دفن الجواهر الثمينة الجوار الملاح بحليهن معه لثلا يستوحش في حفرة على زعمهم الباطل.

قال المقرئزي: مات في تاسع ربيع الأول بالقرب من كورة مراغة بالصرع عن نيف وستين سنة منها مدة تسلطه عشر سنين اهـ. فعلى هذا يلزم كونه أسن من الملك بركة وسيرد في قول الذهبي ما يشعر بمساواتهما في السن وقد مر عن المفضل ما يؤيده أيضًا وتقدم عن روضة الصفا أن الملك بركة أكبر منه والله سبحانه أعلم.

استطرد: قال القراماني^(١) نقلًا عن تاريخ البيضاوي^(٢) أن بعض أولياء الله أظهر الكرامة عند هلاكو فصار ذلك سببًا لرجوعه عن الكفر والزندقة وتعظيم الملة المحمدية اهـ. اختصارًا فأخذ منه بعض العلماء أنه أسلم وقال بإسلامه وأنت تعلم أنه ليس فيه القول بإسلامه^(٣) ولا دلالة عليه غاية ما في الباب أنه تنزل عن عداوته الشديدة للإسلام وصار يعظمه يعني بالنسبة إلى حالته الأولى نعم إنه أعطى ولده نكودار لهؤلاء الأولياء للتربية فأسلم على أيديهم وتسمى أحمد وتسلطن بعد أبغا كما تقدم ذلك عند بيان أولاد چنكزخان في أوائل هذه المقالة.

ذكر وقائع الملك بركة مع أبغا^(٤) بن هلاكو

أعلم أنه لما مات هلاكو اتفق أركان دولته على إجلاس ولده الأسن أبغا مكانه وذلك بهمة نصر الطوسي الرافضي^(٥) غويلم هلاكو محقق السفهاء فلما استقر على سرير السلطنة لم يكن له همة إلا قصد بلاد بركة وإنفاذ ما نواه أبوه من الانتقام منه.

(١) القراماني: لعله أحمد بن سنان الدين بن يوسف بن أحمد الدمشقي، المعروف بالقراماني، كان نائبًا على وقف الحرمين بالشام، ولد سنة ٩٣٩ هـ، وتوفي سنة ١٠١٩ هـ، صنف: «أخبار الدول وآثار الأول» في التاريخ، «الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم» أي ابن أدهم، (كشف الظنون ١٥٩/٥).

(٢) البيضاوي: هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي. تقدمت ترجمته.

(٣) لأنه ليس في النسخ التي رأيناها لفظ وأسلم. منه عفي عنه.

(٤) أصله أباقي لكن العرب قالوا أبغا. منه عفي عنه.

(٥) الطوسي: هو نصير الدين الطوسي، محمد بن محمد بن الحسين الطوسي، الفيلسوف، أصله من جرود ساوة من أعمال قم، وولد بطوس واشتهر بها، ولد سنة ٥٩٧ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٢ هـ. من تصانيفه: «آداب المتعلمين»، «إثبات العقل الفعال»، «أخلاق الناصري»، «تجريد الكلام»، «تحرير الاعتقادات»، «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي» في الكلام، «حل مشكلات الإشارات لابن سينا»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «فرائض النصيرية»، «قواعد العقائد»، «كتاب البلاغ»، «المتوسطات بين الهيئة والهندسة»، «مدخل إلى علم النجوم»، «نقد المحصل لفخر الدين الرازي»، وغير ذلك (كشف الظنون ١٣١/٦).

وفي البداية والنهاية ٢٦٨/١٣: النصير الطوسي محمد بن عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجا نصير الدين، اشتغل في شببته وحصل علم الأوائل جيدًا، وصنف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهلاكو، وكان معه في وقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هلاكو خان بقتل الخليفة فآله أعلم.

قال العيني والنويري وغيرهما: إن أبغا لما استقر في المملكة بعد وفاة أبيه في سنة ٦٦٣ جهز جيشًا لقتال بركة خان ملك بلاد الدشت والجهة الشمالية ولما بلغ بركة ذلك جهز جيشًا وقدم عليه بيسونوغاي بن ططر بن مغل فسار في المقدمة ثم أردفه بمقدم آخر اسمه يوستتاي في خمسين ألف فارس فسبق بيسونوغاي بمن معه وتقدم إلى عسكر أبغا ويوستتاي على أثره فاستشرفت عساكر أبغا على يوستتاي وهو مقبل في سواده العظيم كقطع الليل البهيم فتكردسوا وتجمعوا للهزيمة فبصر بهم يوستتاي وقد تحلقوا فظن أنهم أحاطوا بنوغاي ومن معه فلم يلبث غير قليل حتى انهزم راجعًا وفر مسرعًا وأما نوغاي فإنه تبع عسكر أبغا وساقهم وأوقع بهم وهزمهم وقتل منهم جماعة وعاد إلى بركة مظفرًا منصورًا فعظم عنده قدره وارتفع محله وأمره وقدمه بركة على عدة تمانات وسار معدودًا في الخانات وأما يوستتاي فعظم ذنبه عند بركة وسخط بركة عليه وسأت منزلته عنده اه، ومثله في ابن خلدون.

وقال الذهبي: في سنة ٦٦٣ ورد الخبر بأن التتار ملكوا أبغا ابن هلاكو وأن بركة قصده وكسره.

وقال ابن كثير^(١) في سنة ٦٦٣ ورد الخبر بأن خان التتار هلاكو هلك إلى لعنة الله وغضبه في سابع ربيع الآخر بمرض الصرع بمدينة مراغة ودفن بقلعة تلا وبنيت عليه قبة فاجتمعت التتار على ولده أبغا فقصده الملك بركة خان فكسره وفرق جموعه ففرح الملك الظاهر بذلك فرحًا شديدًا اه، ومثله في تاريخ المفضل وفيه وكان يعتريه يعني الصرع هلاكو كل يوم مرتين.

ذكر وفاة الملك بركة إلى رحمة الله تعالى

قال ابن كثير^(٢): وممن توفي في سنة ٦٦٥ من الأعيان السلطان بركة خان بن جوجي بن چنكزخان وهو ابن عم هلاكو وقد أسلم بركة هذا وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره هلاكو وتفريقه جنوده وكان يناصر الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله ويطلق لهم شيئًا كثيرًا وقد قام في الملك بعده بعض أهل بيته وهو منگوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي وكان على طريقته ومنواله والله الحمد والمنة اه. ومثله بعينه في تاريخ الجنابي.

وقال في روضة الأبرار إن بركة خان كان موصوفًا بالعدالة والديانة وقد بنى مساجد ومدارس متعددة وبقاع خيرات كثيرة وكانت زمرة العلماء مظاهر لإحسانه دائمًا

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣/٢٥٠.

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/٢٤٥.

وكان أرباب الاستحقاق نائلين الحصص من موائد بذله وإنفاقه فوق استعداداتهم ولهذا كان حضوره محط أرباب الفضل والكمال اهـ.

وقال العيني وتوفي في سنة ٦٦٥ بركة خان ملك التتار ببلاد الشمال وهو ابن عم هلاكو وكان قد دخل في دين الإسلام كما ذكرنا وكان بينه وبين الملك الظاهر صحبة ومودة وكان لا يقطع مكاتبته ولا مراسلته من الظاهر وقد وقع بينه وبين هلاكو من الحروب ما ذكرناه وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسرة لهلاكو وتفريقه جنوده وكان أعظم ملوك التتار وكرسي مملكته مدينة سراي توفي في هذه السنة ولم يكن له ولد ذكر فاستقر عوضه ابن أخيه منغوتيمر بن طغان بن جوجي خان وجلس إلى كرسي سراي وصارت إليه مملكة التتار ببلاد الشمال والترك والقفجق والباب الحديد وما يليه اهـ.

وقال الذهبي توفي الملك بركة في سنة ٦٦٥ بأرضه في عشر الستين من عمره في ربيع الأخير اهـ. قلت فعلى هذا يكون أصغر من هلاكو أو مساوياً له في العمر ويكون مدة سلطنته على القول الأصح مقدار عشر سنين اهـ.

وقال في روضة الصفا إن بركة خان أرسل نوغاي لحرب أباقا في أوائل سلطنته فأرسل أباقا أخاه بشموت بعساكر جرار لاستقباله فعبر نهر الكر وتلقى الفريقان بقرب چقاموران ونشب بينهما نيران القتال فأصاب سهم عين نوغاي فانهزم فلما سمع أباقا هذا الظفر توجه بنفسه وعدا نهر الكر ثم سمع مجيء بركة بثلاثمائة ألف عسكر فرجع وعدا نهر الكر إلى جانب مملكته وأمر برفع الجسر فجاء بركة بكمال العظمة ونزل في مقابله من الجانب الآخر وتراموا من الجانبين أربعة عشر يوماً ولما لم يمكن البركة عبور النهر إلى جانب أباقا سار نحو تفليس ليعدوا النهر من هناك إلى جهة أباقا فمات في الطريق بعلة القولنج فأمر أباقا ببناء السور على ساحل نهر الكر من جانبه فبنوا وحفروا خندقاً عميقاً وركبوا فيها أبواباً ثم ترك لحفظ تلك الحدود جمعاً كثيراً من عسكر المغل والمسلمين ورجع إلى مملكته مسروراً ومبتهجاً وكان بركة خان مسلماً وكان له ميل تام إلى صحبة المشايخ والعلماء اهـ.

قلت: فهذه الوقعة هي الوقعة الثانية مع أبغا ولكن عمل السور إنما كان في عهد منغوتيمر على ما سيذكر نقلاً عن الذهبي ويمكن التطبيق بينهما بأن أول تلك الوقعة إنما كانت في أواخر عهد بركة خان^(١) وهو مصرح به في كلام المير آخوند

(١) فكان بركة خان محارباً في جهتين في آخر عمره في جهة الروم والقسطنطينية وفي جهة أباقا بن =

وكان آخرها في أوائل سلطنة منغوتيمر وهو المفهوم من كلامه والمصرح به في كلام الذهبي والله سبحانه أعلم وعلمه أشمل وأحكم.

منغوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي بن چنكزخان وقيل طغان بن جوجي والأول أصح

ولما توفي الملك بركة إلى رحمة الله تعالى في التاريخ المذكور جلس مكانه على كرسي السلطنة منغوتيمر بن طغان بن باتو باتفاق أركان الدولة وقد تقدم أنه كان مرشحًا للسلطنة في حياة بركة ومر آنفًا نقلًا عن العيني وابن كثير والجنابي.

وقال ابن الفرات: في سنة ٦٦٥ جلس منغوتيمر بن طغان على كرسي مملكة القفجق ومدينتها سراي وصارت إليه مملكة التتار بالبلاد الشمالية والقفجق والباب الحديد وما يليه عوضًا عن الملك بركة بعد وفاته اهـ.

وقال: توفي الملك في سنة ٦٦٥ وهو على دين الإسلام رحمه الله تعالى ولم يكن له ولد يرث الملك من بعده فاستقر الملك بعده لابن أخيه منغوتيمر اهـ.

وقال المقرئ وفي صفر من سنة ٦٦٦ كتب (يعني الملك الظاهر) إلى الملك منغوتيمر القائم مقام الملك بركة بالتعزية والإغراء بولد هلاكو اهـ.

وقال العيني: فصل في حوادث سنة ٦٦٦ وصاحب البلاد الشمالية التي كرسيتها سراي منغوتيمر بن طغان وكتب إليه الملك الظاهر بالتعزية لأجل بركة خان والتهنية لأجل ولايته عوضه وأغراه على قتال أبغا بن هلاكو ثم وقع بينه وبين أبغا حروب كثيرة فكسره أبغا وغنم منه شيئًا كثيرًا وعاد أبغا إلى بلاده والله أعلم اهـ.

وقال الجنابي: ثم قام بعده يعني بركة منغوتيمر بن طغان بن باتو وكان على طريقته ومنواله ووقع الخلف بينه وبين أبغا سنة ٦٦٧ فوقع بينهما عدة حروب اهـ.

وقال ابن كثير^(١): وفي سنة ٦٦٥ التقى أبغا ومنغوتيمر الذي قام مقام بركة خان فكسره أبغا وغنم منه شيئًا كثيرًا وعاد أبغا إلى بلاده اهـ.

وقال الذهبي: لما توفي بركة في سنة ٦٦٥ تملك بعده منغوتيمر بن طغان فجمع عساكره وبعثها مع مقدم لقصده أبغا فجمع أبغا جيشه أيضًا وسار إلى أن نزل

= هلاكو. منه عني عنه.

(١) انظر البداية والنهاية ٢٤٩/١٣.

على نهر كور وأحضر المراكب والسلاسل وعمل جسرين على النهر ثم عدى إلى جهة منگوتيمر وسار حتى نزل على النهر الأبيض فعدى منگوتيمر وساق إلى النهر الأبيض ونزل من جانبه الشرقي ونزل أبغا في الجانب الغربي ثم لبسوا السلاح وتراسلوا ثم بعد ثلاث ساعات حرك أبغا كوساته وقطع النهر وحمل على منگوتيمر فكسره وساق ورآه والسيف يعمل في عسكر منگوتيمر ثم تناجى عسكر منگوتيمر ورجعوا عليهم فثبت أبغا في عسكره ودام الحرب إلى العشاء الأخيرة ثم انهزم منگوتيمر واستظهر أبغا وغنم جيشه شيئاً كثيراً وعدى على الجسر المنصوب ونزل على نهر كور ثم جمع كبراء دولته وشاورهم في عمل سور من خشب على هذا النهر فأشاروا بذلك فقام وقاس النهر من حد تفليس فصار جزء كل مقدم مائة وعشرين؛ ذراعاً فشرعوا في عمله ففرغ السور في سبعة أيام ثم ارتحل ونزل المقدم دغان^(١) وشيء هناك اهـ.

وهذا عين ما ذكره في روضة الصفا فلا تنس نصيبك مما أسلفنا هناك.

وقال ابن كثير^(٢): وفي سنة ٦٦٥ التقى أبغا ومنگوتيمر الذي قام مقام بركة خان فكسره أبغا وغنم منه شيئاً كثيراً وعاد أبغا إلى بلاده اهـ.

وقال ابن الفرات: ورد في سنة ٦٦٧ رسول من عند الأشكيري وتضمن الكتاب الوارد على يديه رجوع الأشكيري عن رأيه الأول من النفور والإرعاد والإبراق الذي تقدم منه وأجيب عنه بأكثر من ذلك ويقول إنه سير رسل السلطان بعد أن حلف للسلطان بعد أن أخرج الرسول إلى وفاة الملك بركة وجلس ولد أخيه بعده ويسأل استمرار السلطان على صلحه ويسأل الدخول في صلح السلطان مع أبغا ولد هلاكو ملك التتار وأنه يقرر هذا الأمر وكذلك مع بيت بركة فحررت نسخة من السلطان للأشكيري مضمونها الإجابة إلى ملتسمه من اليمين وإلى تقرير صلحه مع الملك منگوتيمر بن طغان وأما أبغا فما له إلا السيف وهو مطلوب منا بثأر المسلمين وسأل يعني الأشكيري في نسخة اليمين أن يكون السلطان صديق صديقه وكان قصده بذلك أن يدخل أبغا بن هلاكو في هذا اليمين لأنه صهره فما أجاب السلطان إلى ذلك فلما حلف الأشكيري جهز السلطان رسل الملك بركة الذين كانوا عنده حين وفاة بركة وكان

(١) هكذا هذا اللفظ في النسخة المنقول عنها لعله ونزل المقدم نوغاي هناك يعني قائد جيش منگو تيمر. منه عفي عنه.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٤٩/١٣.

آخريهم لأجل مخالفة الأشكري وأرسل على أيديهم كتاباً إلى الملك منغوتيمر ابن أخي الملك بركة بالإغراء على بيت هلاكو وإن أجفاهم لا تزول والتهويل ببلاط السلطان وعساكره وحديث الأشكري وتقرير صلحه معه والشفاعة في أمره وجهزت معهم هدية للملك منغوتيمر والله أعلم.

وقال العيني: فصل فيما وقع من الحوادث سنة ٦٦٧: وكان ببابه يعني الملك الظاهر جماعة من الرسل من جهة الملوك فجهزهم وسفر صحبتهم رسله وهداياهم وهم رسل منغوتيمر ورسل جاوولا أخي ريدا فرنس ورسل المغرب ورسل الأشكري صاحب القسطنطينية اهـ.

وقال الشيخ أبو علي ناصر الدين الشافعي بن علي: ولما عاد السلطان إلى دمشق المحروسة في سنة ٦٦٧ صادف وصول رسل أبغا بن هلاكو ورسل الأشكري ورسل الملك منغوتيمر فلما استقر بقلعة دمشق جلس بإيوانها الكبير فأحضر الرسل وسمع مشافهاتهم وجهز رسل أبغا ورسل التكفور ورسل منغوتيمر القائم بعد بركة بالتكريم والتعزيز اهـ.

ذكر قصد الملك منغوتيمر القسطنطينية

وقال العيني وفي سنة ٦٦٨ حصل بين منغوتيمر بن طغان ملك التار بالبلاد الشمالية وبين الأشكري صاحب القسطنطينية وحشة فجهز منغوتيمر إلى القسطنطينية جيشاً من التار فوصلوا إليها وعاثوا في بلادها ومروا بالقلعة التي بها عز الدين كيكافوس بن كيوخسرو السلجوقي سلطان بلاد الروم وكان محبوباً بها كما ذكرنا في سنة ٦٦٢ فحمله التار بأهله ونسائه إلى منغوتيمر فتلقاته بالإكرام وعامله بالإحترام وأقام في بلاد قريم وزوجه بامرأة من أعيان نسائهم تسمى أرباي خاتون من بنات بركة وقال (هذا أيضاً من كلام العيني) في تاريخ بيبرس جهز منغوتيمر جيشاً^(١) إلى إستانبول وقصد أخذها من الأشكري لموجدة صارت بينهما فوصل العسكر المذكور إلى إستانبول في زمن الشتاء وعساكره بالشواوغس متفرقة في البلاد وكان رسول السلطان الظاهر إذ ذاك الوقت عند الأشكري وهو الفارس المسعودي فخرج إلى جيوش التار

(١) وهذا الجيش توجهت من طرف روم إليي ومن بلاد بلغار طونة ولعله وقع بينهم وبين البلغار قتال وهذا الذي أوقع الفاضل المرجاني في الوهم فزعم أنه بلغار قزان تبغاً لأبي الغازي خان وليس الأمر كذلك وهذا الذي وعدنا ذكره عند ذكر تشكل دولة التار فتذكر. منه عفي عنه.

وتحدث مع مقدمهم وقال: أنا رسول الملك الظاهر صاحب مصر متوجه إلى الملك منغوتيمر وأنتم تعلمون أن صاحب إستانبول صلح مع السلطان وأن إستانبول مصر ومصر إستانبول وبين أستاذي وأستاذكم الملك منغوتيمر صلح فارجعوا من ههنا فاغثروا بقوله ورجعوا عن إستانبول وعبروا ببلادها ونهبوا ما شاؤوا ومرؤا بالقلعة التي كان السلطان عز الدين كيكائوس صاحب الروم مسجونًا بها فأخذوه وحملوه إلى منغوتيمر كما ذكرناه الآن.

وأما المسعودي فإن الأشكري أنعم عليه^(١) بمال وقماش وتوجه إلى منغوتيمر فهم بضربه لكونه صد جيشه عن إستانبول وردهم دون بلوغ المأمول فشفع فيه فعفى عنه ولما عاد إلى الملك الظاهر خاف على نفسه من هذه الجريمة واتفق وصول بعض التجار فأخبر السلطان بهذه الأخبار فقبض عليه وضربه واعتقله اهـ.

وقال النويري: وفي سنة ٦٦٨ جهز منغوتيمر جيشًا إلى إستانبول وكان رسول السلطان الملك الظاهر ركن الدين يوم ذاك عند الأشكري وهو فارس الدين المسعودي فخرج المذكور إلى عسكر منغوتيمر وقال: أنتم تعلمون أن صاحب إستانبول صلح مع صاحب مصر وأنا رسول الملك الظاهر وبين أستاذي وبين الملك منغوتيمر مراسلة ومصالحة واتفق وإستانبول مصر ومصر إستانبول فرجعوا عنها ونهبوا بلادها فلما وصل الفارس المسعودي في الرسالة إلى الملك منغوتيمر من جهة السلطان أنكر عليه كونه صد جيوشه عن أخذ إستانبول وكان المسعودي قد فعل ذلك من قبل نفسه وبرأيه لا برأي السلطان الملك الظاهر وأمره فلما عاد المسعودي إلى الملك الظاهر نقم عليه وضربه واعتقله ولما كان جيش منغوتيمر بإستانبول ورجعوا مروا بالقلعة التي فيها السلطان عز الدين كيكائوس صاحب الروم معتقلًا بها فأخذوه منها وأحضره إلى الملك منغوتيمر فأكرمه وأحسن إليه وأقام عنده إلى أن مات ودامت أيام منغوتيمر إلى سنة ٦٧٩ اهـ.

وقال أبو الفدا: وفيها يعني سنة ٦٦٨ حصل بين منغوتيمر بن طغان ملك التتار بالبلاد الشمالية وبين الأشكري صاحب القسطنطينية وحشة فجهز منغوتيمر إلى قسطنطينية جيشًا من التتار فوصلوا إليها وعاثوا في بلادها ومروا بالقلعة التي فيها عز الدين كيكائوس بن كيخسرو ملك بلاد الروم محبوسًا كما قدمنا ذكره في سنة ٦٦٢

(١) يعني في مقابلة نفاقه وخيائنه بعسكر منغو تيمر. منه عفى عنه.

فحمله التتار بأهله إلى منغوتيمر فأحسن إليه وزوجه وأقام معه إلى أن توفي عز الدين المذكور سنة ٦٧٧ فسار ابنه مسعود إلى بلاد الروم وصار سلطان الروم اهـ. ومثله بعينه في مختصره لابن الوردي^(١) فهؤلاء كلامهم صريح في أن نجاة السلطان عز الدين من الحبس في سنة ٦٦٨ في أيام منغوتيمر وكذلك إطلاق فارس الدين المسعودي في كلام أكثرهم فهذا مع قطع النظر عن مخالفته لما ذكره غيرهم من كون نجاة الأول وإطلاق الثاني في سنة ٦٦٥ على ما مر بيانه ونقله عن المفضل والذهبي وبيبرس بعيد عن قبول العقل فإنه يلزم على هذا تعويق الأشكري لرسول الملك الظاهر مدة سبع سنين وهذا مما لا يجوز العقل ولا يسوغه النقل لأنه تقدم نقلاً عن ابن الفرات أن الأشكري أرسل إلى الملك الظاهر في سنة ٦٦٧ يقول له: أنه أطلق رسله بعد أن حلف للسلطان وبعد أن أخرجهم إلى وفاة بركة وأنه قد تجدد الصلح بينهما ودخل في هذا الصلح أيضاً الملك منغوتيمر فكيف يجوز للسلطان أن يضرب رسوله لصدده جيش منغوتيمر عن إستانبول بعد انعقاد الصلح بينهم كلاً فإن هذا مما لا يجوز نسبته إلى الملك الظاهر وإنما يفعل ذلك إذا كان قبل الصلح بل حين مخالفة الأشكري إياه وإرعاده وإبراقه عليه ولهذا حكمنا فيما تقدم بأن القول يكون واقعة تخلص السلطان عز الدين وإطلاق فارس الدين في سنة ٦٦٨ وهم وهو كذلك.

ويؤيده ما ذكره المقرئزي حيث قال وفيها (يعني سنة ٦٦٦ وقيل سنة ٦٦٨) تنكر الخان منغوتيمر بن طغان ملك التتار ببلاد الشمال على الأشكري ملك القسطنطينية وبعث جيشاً من التتار حتى أغاروا على بلاده وحملوا عز الدين كيكافوس بن كيخسرو كان محبوساً كما تقدم في قلعة وساروا به وبأهله إلى منغوتيمر فأكرمه وزوجه وأقام معه حتى مات في سنة ٦٧٧ فسار ابنه مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم اهـ.

انظر كيف جزم الواقعة سنة ٦٦٦^(٢) ثم عبر بقيل المشعر بضعفه فدل على أن

(١) ابن الوردي: هو عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري الحلبي، القاضي زين الدين الشافعي المعروف بابن الوردي، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، من تصانيفه: «تتمة المختصر في الذيل على تاريخ أبي الفداء»، «ديوان شعره»، «شرح الألفية لابن مالك»، «لامية» قصيدة مشهورة، «اللباب في علم الإعراب»، «منطق الطير لإرادة الخير»، «النفحة الوردية» في النحو. (كشف الظنون ٧٨٩/٥، ٧٩٠).

(٢) وقد جعل أبو الغازي قصده بلاد بلغار يعني بلغار طونة عقيب جلوسه قبل محاربه أبا خان وقال: إنه يعني عسكريه بقي في ذلك السفر سنتين فوهم الفاضل المرجاني منه أنه بلغار فزان=

هذا القول ضعيف لا يعتد به وإن كثر القائل به فإن أصل الوهم من واحد منهم والباقون تابعون له فيه ومثله كثير الوقوع في الأمور التاريخية وأبعد من قول الكل ما قاله ابن خلدون.

قال وزحف يعني منغوتيمر سنة ٦٧٠ إلى القسطنطينية لجدة وجدها على الأشكري ملكها فتلقاته بالخضوع والرغبة فرجع عنه اهـ.

قال في تاريخ بيبرس وأبي الفداء لما توفي عز الدين كيكاس في التاريخ المذكور قصد منغوتيمر أن يزوج ابنه مسعود بزوجة أبيه أرباي خاتون فكره مسعود هذه البدعة وأنف مما فيه من الشنعة وقبح السمعة وتجاوز منهاج الشريعة فلم يمكن له مخلص منها إلا بهربه عنها فهرب من هناك واستصحب معه ولدين كانا له أحدهما اسمه ملك والآخر فرامرد اهـ. واللفظ لبيبرس ومثله في تاريخ ابن الوردي وزاد فيه قوله أراد أن يزوجه على رسم المغل وهذا يدل على أن منغوتيمر لم يكن مسلمًا وهو خلاف ما عليه الجمهور ويكذبه أحواله وأوضاعه من موالة المسلمين ومحاربة المشركين إلى أن يموت وجعل بركة خان أباه ولي عهده وسكته.

قال الفاضل المرجاني: رأيت درهماً مضرورياً في بلغار سنة ٦٧٣ مكتوب فيه هكذا منغوتيمر خان الأعظم ضرب هذا الدرهم في بلغار سنة ٦٧٣ وفي الآخر مكتوب هكذا العز الدائم والشرف القائم توكلي على الله في محرم سنة ٦٧٨ حمداً لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له اهـ. والذي يكون نقش سكتته هكذا كيف يقال: إنه كافر والعجب من المرجاني حيث نقل عن ابن الوردي ما مر منه بعد أن ذكر هذا ولم يرد عليه بل سكت.

وقد ذكر ابن خلدون قصة مسعود بن عز الدين كيكاس بوجه آخر وهاك نصه قال: بعد أن ذكر محبس عز الدين كيكاس ثم وقعت بين الأشكري وبين منغوتيمر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن چنكرخان فتنة فغزا منغوتيمر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب إليه كيكاس من محبسه فمضى معه إلى كرسية بصراي فمات هنالك سنة ٦٧٧ وخلف ابنه مسعوداً وخطب منغوتيمر ملك سراي أمه فمنعها وهرب عنه ولحق بأبغا بن هلاكو ملك العراق فأحسن إليه وأقطعه سيواس وارزن

= وليس كذلك ومراد أبي الغازي بالبلغار هو بلغار طونة وهو حين قصد قسطنطينية ولم يذكره أبو الغازي بهذا العنوان لعله لعدم إطلاعه على ذلك والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

الروم وارزنكان فاستقر بها وبقي ملكًا بها إلى سنة ٧١٨ وأصابه الفقر وانحل أمره اهـ. يعني ومات في السنة المذكورة والله سبحانه أعلم.

قلت: وهذا هو الحقيق بالقبول فإنه بعد أن دخل نور الإسلام فيما بين ملوك تلك الديار ما تغشتمهم ظلمة الكفر نعم قد قل تمسك من جاء بعد بركة خان منهم بعروة الشريعة إلى عصر السلطان أوزبك خان ونعم ما قال ابن فضل الله العمري ومع ظهور الإسلام في هذه الطائفة وإقرارهم بالشهادتين فهم مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور وأول هذه الطائفة وآخرها لا يقفون مع سياسة چنكزخان التي قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه مع مؤاخذه بعضهم لبعض أشد المؤاخذه في الكذب والزنا ونبد الموائق والعهود اهـ. وهذا هو الحق الصريح فلا تلتفت إلى قول من يشعر قوله: بتلاعبهم في الدين حاشاهم من ذلك ومما هنالك هذا.

قال المؤرخ كارامزين الروسي: لما قبلت التتار الدين الحمدي ودخلوا فيه أقبلوا عليه بكليتهم وزاد حرصهم فيه خصوصًا الملك بركة فإنه لما أعلن نفسه بأنه خادم الشريعة والقرآن ودين الإسلام أسلم الأهالي كلهم تبعًا لخانهم ولما تفوه واحد من الروس يسمى رومانا في عصر الملك منگوتيمر بأن دين الإسلام كذب سلخوه وملثوا جلده بالتبن اهـ. وقد مر ذلك في ترجمة بركة خان.

قال الذهبي وابن كثير^(١) والعيني وغيرهم: وفي سنة ٦٦٩ جأته يعني الملك الظاهر وهو بعسقلان من ديار الشام البشارة بأن منگوتيمر كسر جيش أبغا ففرح السلطان بذلك فرحًا عظيمًا.

وقال في تاريخ بيبرس: وفيها (يعني في سنة ٦٦٩) ورد كتاب من ييسو نوغاي قريب الملك بركة أكبر مقدمي جيشه نسخة صدر هذا الكتاب من ييسو نوغاي إلى الملك الظاهر: أحمد الله تعالى على أن جعلني من جملة المسلمين وصيرني ممن أتبع الدين المستبين وأصلي على مختتم الرسالة ومعلم الدلالة إمام المرسلين وقوام المتقين محمد ﷺ وعلى إخوانه النبيين وأصحابه المنتجبين أرباب الحق وأصحاب التمكين وبعد فإن كنا بنا هذا مشتمل على معنيين أحدهما التحية والسلام منا إليك والثاني أنا سمعنا من أربوغا أنه لصدق عهده مع أئبنا بركة خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومن أسلم منهم فلما أخبرنا بهذا الخبر أخلصنا المحبة للملك الظاهر الوفي بالعهود وقلنا ما

استخباره عنا إلا لحمية في الإسلام وصدق نية في تجديد العهود وكتبنا هذا الكتاب على يد أرتيمر وتوق بوغا معلماً أنا دخلنا في الإسلام وآمنا بالله وبما جاء من عند الله فليثق بما قلناه ونستن بسنة أبيننا بركة خان وتبج الحق ونجتنب البطلان ولا يقطع إرسال المكاتبة عنا ونحن معك كالأنامل لليد نوافق من يوافقك ونخالف من يخالفك اهـ.

قال فكتب جوابه صدرت هذه المكاتبة إلى سامي المجلس العزيز الأصيل المجاهد في سبيل ربه المستضيء بنور قلبه ذخيرة المسلمين وعون المؤمنين ييسو نوغاي عمر الله قلبه بالإيمان وجعله من أمر دنياه وأخراه في أمان وعامله بما عامل به التابعين بإحسان نعلمه بورود كتاب منه سر السمع والقلب وحكم للتوفيق بالغلب ووجدناه مقصوراً على إفهام ما هو عليه من صحة الاعتقاد والافتقاء لأثر الملك بركة خان في اجتهاده في الدين وجهاده المشركين وهذا كان ظننا به فإنه أمر لا يتركه مثله ولا يلغي وتلونا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ [الكهف: الآية ٦٤] وحمدنا الله تعالى على أن كثر به حزب المؤمنين وجعله في ذلك الجانب متبتلاً لقتال الكافرين وقد علم أن الرسول جاهد عشيرته الأقربين وأنكر على من رضي أن يكون مع القاعدين والقصد التذكار بذلك وإبلاغ التحية لمن في الجانب المحروس ممن نور الله بصيرته حتى اهتدى للحق واقتدى بالملك بركة خان رضي الله عنه في جهاده وداوم على الجهاد الذي كتب الله لنا أجره في الغرب ولهم أجرهم في الشرق حتى تنكسر شوكة الكفار وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار وتخذل أنصار المشركين وما للظالمين من أنصار وتتمته تتضمن على الإشلاء على التتار والإغراء بهم (يعني بيت هلاكو وقومه).

قال ابن الفرات: وفي مستهل هذه السنة ٦٦٩ ورد إلى الباب الشريف السلطاني الظاهري ركن الدين بيبرس الصالحي كتاب من ييسو نوغاي اهـ. ومثله في المقرزي.

وقال ابن الفرات أيضاً: وفي ثاني ذي القعدة من سنة ٦٧٠ وصل الخبر إلى السلطان للملك الظاهر أن المرسلية يعني الإفرنج أخذوا مركباً فيه رسل الملك منغوتيمر والترجمان الذي كان توجه من جهة السلطان الملك الظاهر إلى الملك منغوتيمر وأحضروا أسرى إلى عكا فلما بلغ السلطان ذلك خاف أن يتقربوا بهم إلى أبغا فطلبهم من الفرنج فأطلقوا رسل السلطان واعتذروا عن الباقيين بأنهم ما هم من رعية السلطان ولا أخذوا من بلاد الصلح وإنما أخذهم غلمان الري جار فاحتاط

السلطان على المرسلية في جميع الثغور فأرسلوا الرسل بجميع ما أخذ إلى السلطان فحضروا إلى دمشق وأحضروا كتب منگوتيمر بالعربي والعجمي فإذا فيها مكتوب بأنهم أعداء أعدائه وأنهم على محبته كما كان أبوهم بركة خان ويطلبون منه النجدة على بيت هلاكو والإعانة لاستيصال شأفتهم على أن يكون ما في أيديهم من البلاد للسلطان اهـ. ومثله في تاريخ بيبرس مختصرًا وفي تاريخ الذهبي أخصر منه.

وقال المفضل: وفيها (يعني في سنة ٦٧٠) وصلت رسل بيت بركة إلى السلطان إلى دمشق من عند منگوتيمر بن طغان أرسلهم في البحر وكانوا لما خرجوا من بلاد الأشكري صادفهم مركب من المرسلين فأخذوهم ودخلوا بهم عكا فأنكر من بها من المتصرفين عليهم وقالوا نحن حلفنا للسلطان أن لا نمنع أحدًا من الرسل من الوصول إلى بابه ثم جهزهم وسيروهم إلى دمشق ولم ترد المرسلين ما أخذوه منهم وكان معهم هدية فلما اجتمعوا بالسلطان عرفوه بما كان معهم فبعث إلى الاسكندرية ومنع من كان بها من المرسلين من التجار عن التصرف والسفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحابهم وكان مضمون الرسالة التي على أيدي رسل بركة مكتوبًا بأن جميع ما كان في أيدي المسلمين من البلاد التي استولى عليها بيت هلاكو تكون للسلطان وطلبوا منه أن ينجدهم عليهم ويعينهم على استيصال بيتهم اهـ.

وقال ابن الفرات: وفيها (يعني في سنة ٦٧٠) توجه رسل الملك الظاهر مبارز الدين الطوري وفخر الدين المعزي صحبة البروانة إلى الملك أبغا فوصلوا إلى الأوردو وأوصلوا إلى الملك أبغا هديته بعد أن عبروا بها بين النارين وقصدهم بذلك تطهير الهدية^(١) واختيارها لثلا يكون بها سحرًا وسم وقال الأمير مبارز الدين الطوري للملك أبغا: السلطان يسلم عليك ويقول: إن رسل منگوتيمر وردوا إليه مرارًا بأن السلطان يركب من جهته ويركب الملك منگوتيمر من جهته وأين وصلت خيل سلطاننا كان له وأين وصلت خيل منگوتيمر كان له فلما سمع أبغا هذا الحديث انزعج له انزعاجًا عظيمًا وقام وركب وخرجت الرسل إلى خيامهم ثم طلب أمراءه وعمل مشورة وبعد ذلك خلع على الرسل فأذن له في السفر فحضروا إلى الأبواب الشريفة اهـ.

(١) وقد تقدم مثل ذلك عند ذكر أحوال باتو والحاصل كان ذلك عادة التتار وكان أطباء هذا العصر استنبطوا بدعة التبخير من هذا كما أنهم أخذوا إحراق ملابس المرضى وفرشهم من جاهلية الروس فإنهم كانوا يفعلون هذا على ما ذكره كارامزين في بعض مواضع من تاريخه. منه عفي عنه.

قلت: قد قصد أبغا بعيد ذلك البيرة ولكنه رجع بخف حنين إذ وصل إليها الملك الظاهر بنفسه بعد أن أرسل المنصور قلاوون وخاض الفرات مع عساكره وقتل منهم مقتلة عظيمة وهي وقعة مشهورة وفي الكتب مسطورة.

ثم قال ابن الفرات: وفي شعبان من سنة ٦٧١ جهز السلطان رسل الملك منگوتيمر وجهاز صحبتهم الأمير سيف الدين الصوابي المهندار^(١) وبدر الدين بن عزيز الحاجب وجهاز صحبتهم رسل الملك الأشكري وسير صحبتهم هدايا وعقاقير وما كان الملك منگوتيمر طلب إلحاقه به وكتب إلى الملك منگوتيمر بحديث أبغا وحضور رسله ومحاصرة عسكره للبيرة والنصرة عليهم وهزيمتهم وما اتفق في أمرهم والله أعلم اهـ. ومثله في المقرئزي مختصرًا جدًا وفي تاريخه غلط.

وقال العيني: وفي شعبان من سنة ٦٧١ أرسل السلطان الملك الظاهر إلى منگوتيمر بهدايا عظيمة وتحف كثيرة اهـ.

قال ابن الفرات والمقرئزي: وفي مستهل رجب من سنة ٦٧٤ توجه السلطان من دمشق إلى مصر فدخل قلعة الجبل في ثامن عشرة وقدمت هدية صاحب اليمن من جملةتها كركدن وفيل وحمار وحشي عتابي فسير إليه هدية مع رسله وكذلك رسل الملك منگوتيمر جهزهم إلى مخدومهم وسير صحبتهم هدية فاخرة له ولملوك بيت بركة وسير صحبتهم رسله وهم الأمير عز الدين أيبك الفخري والبغدادي أحد المماليك السلطانية اهـ.

(١) المهندار: هذا اللفظ مركب من لفظين فارسيين: أحدهما: مهمن، بفتح الميمين، ومعناه الضيف، والثاني: دار، ومعناه ممسك، والمعنى إجمالاً: القائم على أمره (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٣٤).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/٥٥٩ - ٥٦٠: «النائب» والمراد نائب صاحب الباب المعبر عنه في زماننا بالمهندار. قال ابن الطوير: ويعبر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة. قال: وهي رتبة جليلة، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقالم، وصاحبها ينوب عن صاحب الباب في تلقي الرسل الواردين على الخليفة على مسافة وقفة نواب الباب في خدمته. وينزل كلاً منهم في المكان اللائق به، ويرتب لهم ما يحتاجون إليه، ولا يمكن أحدًا من الاجتماع بهم، ويتولى افتقادهم. ويذكر صاحب الباب بهم، ويسعى في نجاز أمرهم، وهو الذي يسلم بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم ويستأذن عليهم، ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى، والنائب قابض على يده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم، ويجتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه، وإذا غاب أقام عنه نائبًا إلى أن يعود، ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمة ولا طرفة إلا بإذن. قال ابن الطوير: هو المسمى الآن بالمهندار.

قال الذهبي: وفي ربيع الأول سنة ٦٧٦ قدمت رسل بيت بركة في البحر وطلعوا من الإسكندرية اهـ.

قلت: قد توفي الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر في محرم افتتاح سنة ٦٧٦ ثم تملك بعده ولده الأكبر الملك السعيد محمد بركة فيكون قدوم الرسل المذكورين بعد تسلطه ثم خلع في سنة ٦٧٨ وولى مكانه أخوه الملك العادل سلامش ثم عزل بعد خمسة أشهر لصغره وتسلطن بدله السلطن الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي في السنة المذكورة أول الملوك القلاوونية وأبوهم وأصله أيضًا من بلاد الففجق اشترى بألف دينار ولذا نسب إلى الألف.

قال في روضة الصفا: إن الملك الظاهر رأى النبي ﷺ في المنام يقلده سيفًا فتسلطن بعد جمعة من رؤياه ولما عاد من وقعة البيرة إلى دمشق رآه ﷺ ثانيًا فأخذ عنه السيف وأعطاه لقلاوون فلما استيقظ تيقن أن أمره قد بلغ نهايته وأن السلطنة تنتقل منه إلى قلاوون ففاوضه ووصاه بأن يحسن إلى أولاده رحمهم الله سبحانه رحمة واسعة.

ولما جلس الملك المنصور قلاوون على كرسي المملكة بدأ بإرسال الرسل إلى الملوك يعرفهم بجلوسه ويستجلب محبتهم ومودتهم منهم بل أولهم الملك منغوتيمر.

قال في تاريخ بيبرس: لما جلس الملك المنصور قلاوون في الملك ونظر في أحواله بدأ بما يجب أن تبدأ الملوك بفعلة فأرسل إلى كل جهة بتغير الإرسال إليها فأرسل إلى قيدو ملك التتار بالبلاد الشرقية وهو قيدو بن قاشين بن أوكداي بن چنكزخان يغريه بأعادييه ويحرضه على مغازيه وأرسل إلى الملك منغوتيمر ملك التتار بالبلاد الشمالية يخبره بجلوسه على المرتبة الملوكية واستقراره في سلطنة الممالك الإسلامية ويجدد معه المودة ويحرضه على قتال الكفرة والمردة اهـ.

قال ابن الفرات والمقريزي وغيرهما: ممن اعتنى بضبط أحوال هؤلاء الملوك وفي هذا الشهر (يعني ربيع الأول من سنة ٦٧٩) توجه شمس الدين سنقر الغتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي رسلاً إلى الملك منغوتيمر في البحر وكتب على أيديهم كتاب للسلطان غياث الدين إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر اهـ.

ذكر وفاة الملك منغوتيمر

قال في تاريخ بيبرس والنويري وغيرهما: ومعهم^(١) الهدايا وهي ستة عشر تعبئة منها ما هو للملك منغوتيمر ومنها ما هو لنوغاي ومنها ما هو للملك أوكجي أخي الملك منغوتيمر ومنها ما هو لتدان منغو أخي منغوتيمر وهو الذي أخذ الملك بعده ومنها ما هو لتلابغا بن منغوتيمر ومنها ما هو للخواتين چچك خاتون والحجي وتونكين خاتون وتوتايين خاتون وسلطان خاتون وقطلو خاتون ومنها ما هو للأمرء وهم الأمير ماؤو أمير الميسرة والأمير طير أمير الميمنة ومنها ما لقتلق زوجة أوكجي ومنها ما هو للسلطان غياث الدين ابن السلطان ركن الدين صاحب الروم وذلك من كل شيء يهدي مثله من الأقمشة الفاخرة والحلل الزاهرة والتحف الثمينة والقسي والجواشن والخود لكل أحد على مقداره. ولما وصلوا وجدوا الملك منغوتيمر قد مات وجلس مكانه تدان منغو وذلك يعني جلوسه في جمادى الآخرة سنة ٦٨٠ وقيل في شهر ربيع الأول سنة ٦٧٩ يعني بعيد وفاة الملك منغوتيمر فسلموا إليه التقدّم ففرحوا بها واجتمعوا يعني الرسل بنوغاي وبجميع من سيروا إليه بالإقبال والقبول ووردت كتب الرسل إلى الأبواب السلطانية مخبرة بذلك وعاد هؤلاء الرسل في شهر رمضان المعظم قدره سنة ٦٨١ ومعهم رسل من الملك أوكجي وغيره وأخبروا بما جرى وقالوا: إن الكسرة التي على حمص بلغتهم في شعبان وكانت في رابع عشر رجب.

قلت: إن نوبة حمص^(٢) مشهورة وهي أن أبغا الطاغية ابن الطاغية هلاكو جمع عساكره وزحف بمائة ألف عسكر إلى بلاد الشام وأرسلهم تحت قيادة أخيه منغوتيمر بن هلاكو إلى حمص وبقي نفسه في الرحبة بعساكره الخاصة فنزل منغوتيمر بن هلاكو بظاهر حمص واستقبلهم الملك المنصور قلاوون بالعساكر الإسلامية فأنزل الله نصره على المسلمين وولى الكفار الأدبار منهزمين وقتلهم المسلمون شر قتلة وأسروا وغنموا ما لا يحصى وكان ذلك في رجب سنة ٦٨٠ فمات منغوتيمر أخو أبغا بن هلاكو بعد ذلك الانهزام بمدة يسيرة مقهورًا مكمودًا وكذلك أبغا لم يلبث بعد ذلك إلا قليلاً حتى سقط عليلًا ومات ذليلًا وأما منغوتيمر بن طغان ملك البلاد الشمالية وصاحب الترجمة فقد كان وفاته على الصحيح والصواب في ربيع

(١) يعني مع الرسل المذكورين شمس الدين سنقر ورفقته. منه عفي عنه.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣/٢٩٥، وفيه: أن وقعة حمص وقعت يوم الخميس رابع عشر رجب سنة

الأول من سنة ٦٧٩ وبلغ خبر وفاته سمع السلطان بمصر في سنة ٦٨٠ وقيل بعدها وبهذا السبب غلط بعض مؤرخي ذلك العصر وقال: إن الملك منغوتيمر بن طغان مات في سنة ٦٨٠ وقال بعضهم في سنة ٦٨١ والصواب ما ذكرناه لما ذكرنا ولما نذكره والله سبحانه أعلم فبين وفاة منغوتيمر ونوبة حمص الكبرى سنة كاملة وثلاثة أشهر وأن رسل السلطان الملك المنصور قلاوون عند الملك تدان منغو الجالس على كرسي السلطنة بالبلاد الشمالية بدل منغوتيمر في العز والإكرام ونهاية الإجلال وغاية الاحترام وأن بين هذين الملكين الود التام كما كان في سالف الأيام فمن أحاط بذلك ووعى ما هنالك فلا أظنه يرتاب في أن قول ابن خلدون^(١) ومن تبعه من أن منغوتيمر بن طغان ملك بلاد الشمال اتفق مع أبغا وزحف في سنة ٦٨٠ إلى الشام في مظاهرتة الخ. زلة قدم وطغيان قلم إلا أن يكون أسير التقليد ومتجمداً فيه كيف لا وهؤلاء المؤرخون الذين نقلنا عنهم قد ضبطوا أحوال هؤلاء الملوك ضبطاً محكماً متقناً بتعيين الأعوام والشهور والأيام وأكثرهم من مؤرخي ذلك العصر وابن خلدون ما نقل أخبار هؤلاء الملوك إلا عن كتبهم ولا ذكر الآثار إلا أخذاً من زبرهم كما اعترف به نفسه وقد سردنا نحن أيضاً أحوالهم على ترتيب السنين والشهور أخذاً من كتبهم كما عرفت وتخطئة مثل ابن خلدون في الأمور التاريخية وإن كانت ترى في النظر العامي مستبعدة ولكن من أجال نظره في بشريته وأعمل قوته الفكرية في غير معصوميته وأن تخطئته أهون من تخطئة هؤلاء المؤرخين الكبار الذين أخذ ابن خلدون الأخبار الماضية من كتبهم لا يستبعد ذلك وهان عليه إسناد الخطأ إليه فيما هنالك، والحق أحق بالاتباع وشأن المنصف ترك الجدل والنزاع. وأنا أقسم ببارئني النسب وخالق النون والقلم وجاعل النور والظلم قسماً باراً أن المحبة والمودة بين ملوك هاتين المملكيتين لم تزل تزيد وتنمو عاماً فعاماً وشهراً فشهرًا إلى أن قضى الله سبحانه بانقضاء مدة دولة الملوك الشمالية وانقراضهم وتشتت شملهم وتفرق جمعهم. وأن الملوك الشمالية لم يلوثوا أيديهم بدماء المسلمين ولا أعانوا عليهم أحدًا قط كسائر أولاد چنكزخان بل كانوا في نصرة المسلمين وموالة الموحدين وجهاد أعداء الدين دائماً قولاً وفعلاً من لدن الملك باتو وبركة إلى زمن انقراضهم كما عرفت ذلك

(١) والذي ورط ابن خلدون في هذه الورطة هو الاشتراك في الاسم وقرب زمن موتها والله سبحانه أعلم فلو كان منغوتيمر شاركهم فكيف يقولون إن الكسرة التي على الحمص بلغتهم في شعبان وكيف يظهرون لأجله الفرح مع اشتراكهم فيها وبأي وجه يأتون عند السلطان قلاوون وكيف يقبلهم السلطان قلاوون بتلك النفاق العظيم كلا. منه عفي عنه.

وتعرفه إن شاء الله فيما بعد وقد كانوا سد اليأجوجي الروسية ومأجوجها وكان سائر بلاد المؤمنين آمنين من شر الروسية ومطمئنين ما داموا هم ثمة موجودين ولما هد ذلك السد وكان دكاء انتشر يأجوج الروسية ومأجوجها إلى سائر البلاد وشرعوا في إذافة أنواع العذاب للعباد وكان وعد ربي حقًا ومقدمات اتفقاتهم المذكورة وإن لم تنتج النتيجة المطلوبة أعني استيصال بيت هلاكو ورفعهم من البين كما صرحوا به مرارًا، ولكن لم يكن ذلك من قصور في بيت بركة وتقاعدهم من البحرية فإنهم لم يقصروا في الهجوم عليهم والزحف إليهم وكسر شوكتهم ودفع صولتهم فأنمر ذلك الكف عن التعرض لبقية بلاد المسلمين والانكسار والانهازام حين التعرض لها وهذا ثمرة عظيمة ونتيجة فخيمة وإنما اكتفى ملوك مصر بحفظ الحدود والدفع عن الثغور ولم يزحفوا إلى الممالك الإيرانية مع دعوة الملوك الصائنية أعني أولاد باتو إياهم إلى ذلك لاشتغالهم بإصلاح الأمور الداخلية وقتال الإفرنج في البلاد الساحلية فإن ترك هؤلاء الإفرنج الذين هم في وسط مملكتهم والاشتغال بقتال بيت هلاكو ودفعهم عن بلاد العراق وأصفهان مع غاية بعدها عنهم بعيد عن طور عقول العامة فضلًا عن تدابير الملوك المتصفين بالعقول التامة ولهذا اكتفوا بإغراء بيت بركة بهم وسوق قيدوا حفيد أوكداي قآن إليهم وفرغوا بذلك لقتال الإفرنج ودفعهم عن البلاد، ولولا ذلك لكان الأمر في خطر عظيم من جهتهم مع أن الله سبحانه في ذلك أسرارًا خفية وحكمًا مخفية أشير إلى نظيرها بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٤] الآية فكما أن الحق سبحانه كف يد حبيبه وأصحابه عليه وعليهم الصلاة والسلام عن قریش بعد أن أظفرهم عليهم ليتشرفوا بشرف الإيمان ويتخلصوا عن دركات النيران حتى آمنوا به عليه الصلاة والسلام وانتظموا في سلك أكابر أصحابه الكرام ولولا ذلك لحرموا سعادة التشرف بشرف الإسلام.

كذلك كفَّ الله سبحانه أيدي ملوك مصر عن بني هلاكو ليتشرف من أراد الله بهم منهم السعادة بشرف الإيمان في أقرب الأزمان حتى آمن ولد هلاكو من صلبه نكودار أولًا ثم الملك محمود غازان خان بن آرغون خان بن هلاكو وفي زمنه تشرف بشرف الإسلام جميع التتار الكائنين تحت حكومة بني هلاكو ولم يبق أحد من التتار على الكفر بل خرج كلهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم هذا. ولنرجع إلى بيان بقية أحوال الملك منگوتيمر حسب اطلاعنا عليه.

قال في روضة الصفا: لما وصلت نوبة السلطنة بما وراء النهر إلى براق خان حفيد جغتاي بن چنكرخان سلك مسلك الظلم والتعدي وجاوز الحد في مصادرات أموال الرعايا فلما قرع ذلك سمع قيودوخان حفيد أوكداي قآن وكان خانًا في حدود تركستان أراد أن يدفع ظلمه عن الرعايا فجمع العساكر وقصد براق خان فلما التقى الجمعان انهزم قيود فزاد ظلم براق خان وتعديه فلما سمعه منگوتيمر خان وكان في ذلك الوقت مشهورًا بمزيد الشوكة من بين أولاد چنكرخان أرسل عمه بركجار بن باتو بخمسين ألفًا من عساكر التتار الجرار لإمداد قيود وجمع قيود أيضًا عساكره المتفرقة وقصد براق خان ثانيًا فلما التقى الجمعان انكسر براق خان وعاد إلى بلاده منهزمًا وأراد من شدة غيظه نهب أموال الرعايا كلها، فلما بلغ ذلك الخبر قيود خان وبركجار ومن معهم استشاروا فيما بينهم فقال بركجار: نسوق العسكر نحوه فورًا وندفعه من البلاد ونخلص من ظلمه الرعايا والعباد. فقال له قيود: إنه إذا اطلع على أننا توجهنا نحوه لمحاربهته يزيد في ظلمه وعمايته وغوايته فيفوت المقصود الذي هو دفع ظلمه من الرعايا فالأصوب أن نرسل إليه رسولًا فصيحًا عاقلًا مدبرًا عالمًا بأساليب الكلام وقادرًا على إيراد ما يفيد المرام فينصحه ويدعوه إلى الصلح والسلم ويحذر وخامة عاقبة البغي والظلم والطغيان. فأرسلوا إليه قبچق أوغل وكان ممتازًا من بين أقرانه بكمال العقل والكياسة والفصاحة والفراسة فحصل المقصود بحسن نصيحته وتقرر الأمر على الصلح والتوادم الذي لا يشك في حسن نتيجته وتواعدوا أن يجتمع هؤلاء الخوانين في فصل الربيع فلما اجتمعوا وأجروا مراسم الفرح والسرور تكلموا وتباحثوا عن سوء عاقبة الظلم وقبحه وشناعة تخريب البلاد ومصادرة أموال العباد فشكا براق خان من قلة موارد فتقرر الأمر على أن يكون ثلثا بلاد ما وراء النهر لبراق خان والثلث الباقي لقيود ومنگوتيمر خان وقالوا لبراق خان: فإن كان ولا بد فعليك ببلاد أبغا بن هلاكو ووعد قيود بإمداده ونصرته بعساكره لهذا المطلوب فحدثت الفتن والقتال والنزاع والجدال بين براق خان وأبغا من هذا الوقت وامتدت إلى مدة مديدة اهـ مختصرًا.

وقد تقدم أن منگوتيمر خان توفي في ربيع الأول سنة ٦٧٩ وهذا هو الصحيح والصواب وقالوا: إن سبب موته أنه طلع له دمل في حلقه فبطه فمات منه بموضع يعرف بأقلوقية وخلف من الأولاد الذكور تسعة وهم ألغى وأمه چچك خاتون^(١) وكان

(١) وقد قدم أن بركة خان قد أسلمت زوجته چچك خاتون معه ولم أدر هل هذه هي تزوجها منگو =

لها حرمة وبسطة لأنها من الذرية القآنية وبرلك وصراري بغا وطغرلجا وملغان وتدان وطقطاي وقدان بالقاف والبدال وقيل بالزاي وقطعان، وكان له من الإخوة لأبيه ندان منگو وأوكجي، وكان مدة سلطنة قريية من ست عشرة سنة وكان في زمنه أوائل ظهور الدولة العلية العثمانية أيدهم الله سبحانه ما داموا متمسكين بعروة الشريعة الغراء، وفي عصره أيضًا أحصوا نفوس الروس وقيدوهم في الدفتر وصاروا يأخذون الجزية بموجب ذلك وكان ذلك سنة ١٢٧٦ مصادفة سنة ٦٧٠ هـ. فقيت الروس تحت حمل ثقيل بالضرورة لكونهم خاضعين للتتار لاعترافهم بسيادتهم قاله كارامزين.

[تدان منكوخان بن طغان]

الملك تدان منكوخان بن طغان بن باتو بن جوجي بن چنكزخان: وهو الذي قتلت أمه بعد موت باتو لمراسلتها هلاكها كما مر ولما مات الملك منگوتيمرخان في التاريخ المذكور جلس مكانه واستقر في الملك ودفع أولاد أخيه عنه وكان أكبر إخوته ذكر في بعض التواريخ الفارسية^(١) أن تدان منگو لما تملك شرع في الظلم وهرب طقطاي ابن أخيه الملك منگوتيمر من ظلمه إلى بعض النواحي اهـ. نقل ذلك الفاضل المرجاني في تاريخه وأقره وعندي أن هذا غير صحيح فإن أحواله تشهد بخلافه كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى والظاهر أن هذا هو تلابغا^(٢) يدل عليه وقعة تلابغا على ما سيأتي والله أعلم.

ذكر سلوكه مسلك أسلافه في مراسلته ملوك مصر: قد تقدم قدوم رسل الملك المنصور قلاوون الذين كان أرسلهم بالهدايا إلى الملك منگوتيمر على البلاد الشمالية وتصادفهم موت منگوتيمر وتسليمهم الهدايا المذكورة إلى تدان منگو وفرحه بها وهو أول مناسبتهم ومراسلاتهم.

وقال بيبرس والنويري وابن الفرات والمقريزي وصاحب سيرة الملك قلاوون وغيرهم: وفي رمضان سنة ٦٨٢ وصل نفران رسولان من جهة تدان منگو الجالس على كرسي الملك ببلاد بركة بإسلامه وينبئان بتملكه وهما من فقهاء الففچق أحدهما

= تيمر بعد موت بركة على ما هو عادة القزاق إلى الآن أو غيرها والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(١) وكذا ذكره أبو الغازي خان في تاريخه. منه عفي عنه.

(٢) ويدل عليه أيضًا أن أبا الغازي لم يذكره بالكلية فاشتبه عليه الأمر فأسند إلى تدان منگو أوصاف تلابغا فتبعه المرجاني في ذلك. منه عفي عنه.

يسمى مجد الدين آتا والآخر نور الدين آتا وأحضرا على أيديهما كتابًا من جهته بالخط المغلي فعرب فكان مضمونه الإعلام بدخوله في دين الإسلام وجلوسه على التخت وأنه أقام شرائع الدين ونواميس المسلمين وأوصى على الفقهاء الواصلين وأن يساعدهم على الحج المبرور الذي جاؤوا له قاصدين وذكرنا من أستخدمهما مشافهة أن الملك سأل السلطان أن ينعته نعتًا يتسمى به من أسماء المسلمين وأن يرسل إليه علمًا خليفتيًا^(١) وعلما سلطانيًا^(٢) يقاتل بها أعداء الدين فاهتم مولانا السلطان بأمرهم وجهزهم إلى مكة صحبة الركب بما يحتاجون إليه من جملة صدقاته التي كثرت مؤنتها وعظمت كلفتها وتضاعفت مثوبتها فلما عادوا من مكة المكرمة وحضروا الحضور الشريف كتب الأجوبة على أيديهم وأحسن إليهم غاية الإحسان وسفرهم على أتم حال وأحسنه اهـ.

قال في تاريخ بيبرس: وفيها (يعني في سنة ٦٨٢) جهز السلطان سيف الدين بلبان الحلبي الكبير ومظفر الدين موسى بن نمرش رسلاً إلى تدان منگو ونوغاي وقيدو ومعهما الأمير قطعان وشمس الدين بن أبي الشوارب.

قال في سيرة الملك المنصور: وفي هذه السنة (يعني سنة ٦٨٠) وصل مجد الدين آتا رسول الملك تدان منگو الذي كان حضر قبل ذلك وتوجه إلى الحجاز كما مر ذاكراً أن الإجابة قد حصلت إلى جميع مطلوب مولانا السلطان وسير في جواب ذلك الأمير سيف الدين بلبان الغتمي رسولاً وسير معه هدايا وتحفًا وخيلًا مسومة بسروجها وعددها وهي ستة رؤوس وتوجهوا وفي هذه السنة وصل رسول نوغاي صحبة زين الدين التيزيني اهـ.

قلت: لم أفق على ما طلبه السلطان من تدان منگو ولعله الاتفاق والاتحاد أو عمارة الجامع بقرم بقرينة ما سيذكر أو مجموع ذلك أو شيء آخر والله أعلم.

قال ابن الفرات: وعاد الملك المنصور من تل العجول إلى الديار المصرية ووصل إلى قلعة الجبل يوم الاثنين ثالث عشرين شوال من هذه السنة (يعني سنة ٦٨٦) وجهز لبيت بركة هدايا فاخرة وتحفًا زاهرة من الأقمشة النادرة والعقاقير أكثر مما جرت به العادة وأصناف البضائع قيمتها ألف دينار لأجل الجامع الذي يعمر

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه ونحن طوينا على غره. منه عني عنه.

(٢) علما خليفتيًا وعلما سلطانيًا: نسبة إلى الخليفة، ونسبة إلى السلطان.

بقرم^(١) ويكتب عليه ألقاب السلطان الملك المنصور وأرسل ذلك صحبة الرسل وتجهز أيضًا معهم حجار نقاش ينقش الألقاب السلطانية على الجامع المذكور ويكتبها بالأصباغ والأدهان اهـ.

قال في تاريخ بيبرس والمقرزي وغيرهما: وفيها (يعني في سنة ٦٨٦) أظهر تدان منگو بن طغان التتوله والتخلي عن النظر في أمور المملكة والتزهد عنها والانقطاع إلى المشايخ والفقراء والإمام بالعباد والصلحاء والقناعة باليسير عن الكثير فقيل له: إن الملك لا بد له ملك يسوسه فأشار بأنه قد نزل عنه لابن أخيه تلابغا وطابت نفسه بذلك فوافقه الخواتين والإخوة والأعمام والأقارب والإلزام وكانت مدة تملكه حول خمس سنين وكان له من الأولاد أزمكي وسراي تيمور وسكباي.

قال الحاج عبد الغفار أفندي: إن تدان منگو كان ناقص العقل ولما جاءه سفير مما وراء النهر لتبريك جلوسه تفاوض الوزراء فيما بينهم بأنهم يدخلونه على الخان أولاً فاستقر رأيهم على أنهم يربطون حبلاً برجله ويدسون واحداً تحت سريره يأخذ من رأس ذلك الحبل فإذا شرع في الهذيان يجز الحبل فيمتنع الخان من هذيانه وقالوا ذلك أيضًا للخان وقالوا له: لا تتكلم بسوى ثلاثة كلام وهي أن تسأل عن أحوال الخان المرسل إليه ذلك السفير وصحته وعن أحوال مملكته وعن أمنيته من تعدي العد ووصلته فرضي الخان فأدخلوا السفير فسأل عنه هذه الأسئلة الثلاث فسكت قليلاً ثم قال له: هل في بلادكم فارة قال: نعم، فجر الشخص المذكور الحبل فسكت ثم قال له: إن سؤالي منك كثير ولكن يجرون الحبل فأشار الوزراء للسفير بالقيام فقام وخرج ولما رجع إلى بلده وأخبر خان ما وراء النهر بما جرى في ذلك المجلس من الكلام وقد سمع الخان المذكور نقصان عقله قال: إن هذه من كلام العقلاء إلا سؤاله عن الفأر ولعل ذلك لكونه من العدو أيضًا وأما حديث جر الحبل فليس من كلام العقلاء قال عبد الغفار أفندي: وبعد أن مضى من جلوسه عدة من السنين قال لوكلائه: يكفي ما قاسيتم من جهتي فأنا قد عزلت نفسي وفرغت عن الخانية فاجلسوا مكاني تلابغا ففعلوه اهـ.

(١) لم أر ذكر هذا الجامع في موضع من المواضع إلا أن ابن بطوطة قال في رحلته الشهيرة ولقيت بهذه المدينة يعني مدينة قريم فلاناً وفلاناً وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله تعالى بهذه المدينة اهـ ولعل صوابه الملك المنصور يدل عليه أن الملك الناصر كان حيًا في ذلك الوقت. منه عفي عنه.

[تلابغا بن منگوتيمر]

الملك تلابغا بن منگوتيمر بن طغان بن باتو ابن جوجي بن چنكزخان تملك في السنة المذكورة بعد نزول عمه تدان منگو عن الملك له على ما هو المشروح باتفاق من أركان الدولة.

ذكر سفر الكرل^(١) وحدث الوحشة بينه وبين الأمير نوغاي

ولما استقر تلابغا في الملك أراد أن يغزو بلاد الكرل مغيرًا عليها فتجهز وسار بعساكره إليها للإغارة عليها وعزا من فيها وأرسل إلى الأمير نوغاي يأمره بالمسير فيمن عنده من العساكر ليجمعها على الإغارة على بلاد كرل فسار نوغاي في التومانات الذين عنده وتوافيا في المقصد وشنوا الغارة ونهبوا ما شاؤوا وقتلوا من شاؤوا ثم عادوا وقد تمكن الشتاء وكثرت الثلوج واستصعبت الطرقات فانفصل نوغاي عنه بمن معه من العساكر وسار إلى مشاتيه فوصل سالمًا هو وكل من معه وصار تلابغا يتعسف البيداء المتوعدة والفيافي المقفرة فتاه عن جادة الطريق وناله وعسكره غاية الضنك والضيق وهلك أكثرهم من شدة البرد وعدم القوت واضطرهم الحال إلى أن أكلوا دوابهم وكلاب الصيد ولحوم من مات منهم لشدة ما نالهم من الجوع ولم يسلم منهم إلا القليل وقيل لم يبق غيره وزوجته فعز ذلك على تلابغا وتوهم أن نوغاي إنما فعل ذلك بهم مكرًا ومكيدة ليهلك عساكره ويبيد عشائره فيفوز هو بالاستقلال أو يكاد فأضمر تلابغا له الغدر وأبطن له الشر اهـ. من تاريخ النويري وبيبرس وابن خلدون وغيرهم.

ذكر مقتل تلابغا

ولما استحکم في قلب تلابغا ما توهمه في حق نوغاي وكان ينقم عليه قبل ذلك استبداده في الأمور فتنكر له تلابغا لهذه الأسباب وصمم الفتك به ووافق على ذلك من حوله من بطانته من الأمراء وأولاد منگوتيمر المنحازين إلى فيئته فجمع العساكر للإيقاع به وكان نوغاي شيخًا كبيرًا مجربًا للأمور من لدن سلطنة الملك بركة إلى هذا الوقت وكان نافذ الحكم فيما بين أولاد چنكزخان وله معرفة وممارسة بالمكائد فسمى

(١) يريدون بكرل بضم الكاف في اصطلاحهم ملك لهستان أو ماجار وكأنه مخفف من قرال فهذا السفر إما على لهستان أو ماجار وقد صرح كارامزين بكونه إلى ماجار وقال مات من عسكر تلابغا من الجوع والبرد مائة ألف ولم يبق معه غير زوجته. منه عفي عنه.

هذا الخبر إليه وبلغه جميع ما هم به وأنه جمع العساكر للإيقاع به ثم أرسل تلابغا يستدعيه إليه موهماً أنه يحتاج إليه لمشورة يحضرها وإشارة يحضرها فراسل نوغاي والدة تلابغا وقال لها: إن ابنك شاب قليل الممارسة بالأمر وأنتي أريد أن أبذل له النصيحة وأعرفه بما يعود عليه نفعه من مصالح ملكه وترتيب قواعده وتقرير مصادره وموارده ولا يسعني أن أبديها له إلا في الخلوة بحيث لا يطلع عليها سواه واشتهى أن ألقاه في نفر يسير ولا يكون حوله أحد من العساكر التي جمعها إليه فمالت المرأة إلى مقالته وانخدعت برسالته وأشارت على ولدها بموافقته والاجتماع به وسماع كلماته وثنت عزمه عن مفسدته ففرق تلابغا عساكره التي كان جمعها وأرسل إلى نوغاي ليحضر عنده فتجهز نوغاي بجميع من عنده من العساكر وسار من ساعته وأرسل إلى أولاد منگوتيمر الذين كانوا يميلون إليه وهم طقظاي وبرلك وسراي بغا وتدان بأن يلحقوا به ثم أخذ السير يطوي المراسل ويذني المنازل حتى إذا قرب من مقام تلابغا الذي تواعدا أن يجتمعا فيه ترك العسكر الذين معه وأولاد منگوتيمر طقظاي وإخوته كميناً في مكان واستصحب معه نفرًا يسيرًا وتوجه نحو تلابغا لتلقيه آمنًا مطمئنًا ومعه من إخوته أولاد منگوتيمر ألغى وطرغرجه وبلغان وقدان وقطغان وهم الذين انحازوا إليه. فلما اجتمع تلابغا ونوغاي وأخذ في الحديث والاستشارة لم يشعر تلابغا إلا وخبول أصحاب نوغاي قد أقبلت وتسايلت عليه فتحير في أمره وحلق به ما أبرمه نوغاي من مكيدته ومكره ووقف العسكر منتظرين ما يأمرهم به نوغاي فأمرهم بإنزال تلابغا وإخوته الذين كانوا معه عن خيولهم فأنزلوهم ثم أمرهم بربطهم فربطوهم ثم قال لطقظاي أن هذا قد تغلب على ملك أبيك وهؤلاء بنو أبيك قد وافقوه على أخذك وقتلك وقد سلمتهم إليك فاقتلهم أنت كما تشاء فقتلهم جميعاً بأن كسرت رؤوسهم وكسرت ظهورهم وهم تلابغا وألغى وطرغرجه^(١) وبلغان وقدان وقطغان أولاد منگوتيمر وكان ذلك في سنة ٦٩٠ هـ. ما ذكره المؤرخون المحققون.

ولكن في هذا المقام شيء وهو أنهم قالوا قاطبة: إن أولاد منگوتيمر الذين أخلفهم تسعة وعدوهم بأساميههم كما مر ولم يعد فيهم تلابغا ثم قالوا: عند ذكر تلابغا

(١) وهو والد أوزبك خان وبقي منه أوزبك خان صغيراً وقيل في بطن أمه وقد ذكر الحاج عبد الغفار أفندي القريني في تخلصه من الموت وتملكه حكايات كثيرة تركتها لعدم الوثوق بها. منه عفي عنه.

أنه ابن منگوتيمر فعلى هذا يكون أولاده عشرة لا تسعة إلا أن ابن خلدون جعله أخًا لتدان منگو وجعل تدان منگو من أولاد منگوتيمر وهو خطأ بلا ريب فغالب الظن أن تلابغا ليس ابنًا لمنگوتيمر بل هو ابن أخيه أو أخوه ويدل عليه ما قدمنا من قول نوغاي لطقطاي أن هذا قد تغلب على ملك أبيك وهؤلاء بنو أبيك قد وافقوه الخ. فإنه لو كان ابنًا لمنگوتيمر كيف يصح عليه الحكم بالتغلب على ملك أبيه وكيف يناسب قوله وهؤلاء بنو أبيك قد وافقوه الخ. فإن مثل هذا إنما يقال إذا كان تلابغا أجنبيًا كما لا يخفى والله سبحانه أعلم.

ومما ذكره كارامزين من الأحوال الجارية في الروسية في عصر تلابغا خان: كان أليغ وسوه توسلاو حاكمين بكورسكي في ذلك الوقت يعني في عصر تلابغا وكان من عادات خوانين التتار أن يقيم من طرفهم أحد من أمرائهم عند حكام الروس يسمونه باصقاقًا (وهو كالسفير في هذا العصر) وكان الباصقاق في كورسكي في الوقت المذكور شخصًا يسمى أحمد الخوارزمي وكان قد أخذ جباية خراج ولاية كورسكي على ذمته في^(١) مقابلة ثمن أعطاه للخان وكان المذكور على غاية من الظلم بحيث إنه كان لا يترك أحدًا من القسيسين والرهبان والأمراء ألا يأخذ منه الخراج كالعوام وقد بنى بقرب ريلسكي قريتين وكان يجتمع فيها أشقياء التتار ومتلصصوهم وكانوا ينهبون ما حولهم من قرى الروس فاشتكى منه الكيناز أليغ إلى تلابغا خان فأعطاه الخان عسكريًا وأمره بتخريب القريتين المذكورتين ففعل فكتب أحمد المذكور إلى الأمير نوغاي شكاية من أليغ وسوه توسلاو يقول: إنهما عدواك يريدان الإفساد بينك وبين تلابغا خان فإن لم تنتقم منها سريعًا فالعاقبة وخيمة فأرسل إليه الأمير نوغاي مقدارًا من العسكر وأمره بالإيقاع عليهما فهرب أليغ وسوه توسلاو وقتل أحمد من بقي من الأهالي وأسرههم كلهم أمراءهم وعوامهم ونجى سوه توسلاو روحه بالهرب إلى غابة وارونزي وهرب أليغ إلى تلابغا خان فجدد أحمد قريته وامتلاتا بالأشقياء مثل الأول وشرعوا في ظلم الأهالي أشد من الأول ولم يتركوا في ولاية كورسكي قرية ولا بلدة معمورة فهرب الأهالي إلى الأطراف والجوانب ولم يلتفتوا إلى ما يحصل لهم من الأذية من برد الشتاء. ولكن كان أحمد على خوف من هرب الكينازين فترك أخويه في القريتين المذكورتين وذهب نفسه إلى الأمير نوغاي فهجم سوه توسلاو من بين الغابة المذكورة باتباعه على الأشقياء الكائنين في تلك القريتين وقتلهم عن آخرهم ثم رجع

(١) يعني الالتزام الذي يجري في عصرنا هذا أيضًا في بعض الدول الغير المتمتدة. منه عفي عنه.

الكيغاز أليغ من الأوردو ودفن القتلى من الأمراء والعساكر وأعلن سوه توسلاو عاصياً ضرورة دفع البلاء عن نفسه وعن الأهالي وقال: كنا أولاد مظلومين ومحقين وبرآء من العيب والقباحة فظهرت الآن قباحتنا وثبت عيبنا ولم نبق محقين فلا يرجى الآن عفونا من طرف الخان ولا حقانيتنا عند الأهالي وكان اللازم عليك أن تذهب إلى الخان وأن تشتكي إليه من الأشقياء لا أنك تهرب إلى الغابة كالأشقياء وتفعل هذه الفعائل وأنا مستريح مطمئن الخاطر لا قباحة لي فاذهب أنت إلى الخان واعتذر إليه فلم يقبل سوه توسلاو نصيحته وقال: أنا مختار في أمري كلما فعلته فعلته على الأعداء فذهب أليغ إلى تلابغا خان وحكى له الحكاية فأمره بقتل سوه توسلاو فرجع وقتله وذلك في سنة ٦٨٢.

قال المؤرخ: والعجب أن أحدًا لم يعب على أليغ فعله هذا بل عدوه من عدالة ذلك الوقت ومدافعة سوه توسلاو عن نفسه ووطنه من الجرم الذي لا يعفى^(١)... الخ. ولكن كان أليغ مظهرًا لعدالة الإله فإن أخا سوه توسلاو أليكساندر قتله مع ولديه وكان كل ذلك من شطارة التتار فإنهم كانوا يحرشون بين حكام الروس ويلقون بينهم العداوة وتفريق الكلمة لأجل استراحتهم واطمئنانهم ثم قال: وكان الأمير نوغاي بعد ذلك يشدد على تلابغا ويريد منه الانتقام حتى ظفر به يومًا من الأيام وقتله وأجلس مكانه أخاه طقطاي خان اهـ.

الملك طقطاي بن منغوتيمر بن طغان الخ^(٢)

ولما فرغ الأمير نوغاي من أمر تلابغا واطمأن خاطره من جهته أجلس طقطاي على كرسي الملك ورتب أمور دولته ورتب معه إخوته الذين اتفقوا معه وسلمهم إليه

(١) قلت نعم إن الدهر هو أبو العجائب وهذا يقال له: ذل العجز ومسكنته أمام جيروت القوة وسطوتها كما يصدر الآن من الأقوام الشرقية لدى أوروبا أما كان مدافعة المصريين والصينيين عن أوطانهم جرمًا لا يعفى وقتل الإنكليز والأوروبيين وصلبهم إياهم عدالة وحقانية وكذلك قتل العسكر الأرنأودي لقوصلات الروس لأجل تحريكه الفتن جرمًا لا يعفى وكونه مقتولاً لأجل هذه المدافعة ونهب الروس زهاء عشرين قرية بساحل البحر الأسود وإحراقهم إياها تحت اسم البلغارية وأخذهم نصف مليون من الجنهيات وعزل مئات من المأمورين لأجل تلك الحادثة عدالة وحقانية وهذا معنى قولهم القوة تغلب الحق وهو صدق لا مرية فيه ومصادقة غير متناهية الآن وفي ذلك كفاية. منه عفي عنه.

(٢) كل هذه الحوادث منقولة عن تواريخ ركن الدين بيبيرس الدوادار المنصوري والنويري وابن خلدون والمقرزي وكذلك ما سيذكر بعد ذلك من نكته نوغاي وأولاده وأتباعه ينضم إلى هؤلاء في ذلك العيني أيضًا فتذكر. منه عفي عنه.

وهم برلك وسراي بغا وتدان وقال هؤلاء إخوتك يكونون في خدمتك فاستوص بهم خيراً وعاد نوغاي إلى مقامه وذلك في سنة ٦٩٠.

ذكر الإيقاع بالأمراء الذين اتفقوا مع تلابغا على قتل نوغاي

ولما عاد نوغاي إلى مقره مظفراً منصوراً مطمئن الخاطر أراد أن ينتقم من الأمراء الذين اتفقوا مع تلابغا على إتلافه فلما كانت سنة ٦٩٢ جهز نوغاي زوجته بيلق خاتون إلى الملك طقطاي برسالة تحملها إليه وإشارة تشير بها عليه فلما وصلت إلى الأردو تلقاها بالإكرام واحتفى بها غاية الاحتفاء في الضيافة والتقدم وأقامت في الضيافة أياماً ثم سألها عن سبب مجيئها فقالت: إن أباك تعني نوغاي يسلم عليك ويقول لك قد بقي في طريقك قليل شوك فتنظفه فقال وما هو الشوك فسمت له الأمراء الذين ذكرهم لها نوغاي وهم زهاء ثلاثة وعشرين أميراً وهم الذين كانوا اتفقوا مع تلابغا على قصد نوغاي فلما أبلغته هذه الرسالة وقصت عليه هذه المقالة وسمت هؤلاء الأمراء طلبهم طقطاي واحداً بعد واحد وقتلهم جميعاً^(١) فعادت بيلق خاتون إلى نوغاي مقضية المرام وأعلمته بما جرى من حوادث الأيام فسكن قلبه وزال فرقه وظن أن الدنيا تدوم له وتصفو له مشاربها فأخذ هو وأولاده وأحفاده وأتباعه يتحكمون في البلاد ويجرون أحكامهم على العباد وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة وهم جكا وتكا وكانا من أم واحدة وطراي من امرأة أخرى وابنة تسمى طغلجه وابن بنت تسمى أقطاجي وكانت ابنته هذه متزوجة لشخص يسمى طاز بن منجك فقويت شوكتهم وتمكنت مهابتهم وسطوتهم حتى تغير عليهم الزمان ودارت عليهم الحدثان وجرى عليهم ما سيذكره بعد ذلك بفضل الله الملك الديان.

ولأجل هذه الأمور قال كارامزين: إن قواد عساكر التتار صار في ذلك الوقت يعني أيام تلابغا وطقطاي كل واحد منهم يتلقب بلقب الخانية وكان قد يظن من هذا قرب اضمحلالهم وزوالهم ولكن لما انطمست بصيرة الروس بعبودية التتار لم يخطر ببال أحد منهم اغتنام هذه الفرصة للخروج عن رقية التتار اهـ.

(١) قال الحاج عبد الغفار أفندي إن قتله إياهم إنما كان لثلاث يزاحموا ولده إيل بصار الذي ولد من زوجته بنت خان خطاي في الملك بعده والله أعلم. منه عفي عنه.

ذكر المراسلة بين ملوك مصر

اعلم أن الملك المنصور قلاوون ملك الديار المصرية والشامية والحجازية قد توفي في سنة ٦٨٩ ثم جلس بدله مكانه ابنه السلطان الجليل الملك الأشرف خليل .

قال ابن كثير^(١): فيها (يعني في سنة ٦٩٢) أرسل السلطان يعني الملك الأشرف الأمير علم الدين الدواداري إلى صاحب القسطنطينية وإلى أولاد بركة ومعه تحف كثيرة جدًا اهـ. ثم لم أر من ذكر وقوع المراسلة بين هاتين المملكتين إلى مدة مديدة ولعل المراسلة قد انقطعت بينهم بسبب وقوع الفتن والاختلال والنزاع والقتال في تينك المملكتين فأما أحوال الديار المصرية فتطلع عليها بالمراجعة إلى الكتب التاريخية المطولة والمختصرة وأما البلاد الشمالية فما نحن نذكر أحوالها في تلك المدة بعون الله تعالى .

قال كارامزين: لما رأى الكيناز الأعظم ديميتري تمكن الأمير نوغاي وتحكمه على الخوانين خافه وأظهر له التعظيم الزائد ولكن أرسل ابنه أليكساندر إلى الأوردو عند الخان بالهدايا فمات أليكساندر هناك وكان أندري أخو الكيناز ديمتري ينازعه في الكينازية وكان ذا حيلة ودهاء فاستمال بحيلته قلوب سائر حكام الروس إلى طرفه خصوصًا الكيناز فيودور ختن نوغاي (هكذا)^(٢) ثم ذهب إلى نوغاي مظهرًا العداوة لديميتري وشكا منه إليه وأظهر له أمره كله على عكسه وخلافه حتى استمال قلبه أيضًا وكان الأمير نوغاي يعرف جيدًا أن سعادة التتار ووفرة خزائهم في شقاوة الروس واختلافهم فأرسله مع حكام الروس المتفقيين معه إلى محاربة ديميتري وضم إليه مقدارًا من عساكر التتار تحت قيادة الأمير دودين أخي الخان طقطاي كان ذلك في سنة ١٢٩٣ مصادفة سنة ٦٩٣ هـ. وكان ديميتري في ذلك الوقت ببلدة برياصلا والتي هي أم بلاد الروسية فتوجه دودين إليها واستولى عليها فهرب ديميتري إلى ختنه الصادق دومونت ببلده بصكوف ومع أنه كان يمكنهم أن يجلسوا أندري إلى مقام الكينازية العظمى بلا مانع لانعدام من يقاومهم ويمانعهم من عساكر الروس لم يفعلوا ذلك ولم

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/٣٣٢.

(٢) هكذا يقول كارامزين وقد تقدم أن الأمير نوغاي له ثلاثة بنين وبنت واحدة متزوجة من طاز بن منجك وسيجيء وقائهم بالتفصيل ولعل الأمير نوغاي زوجه بعض جوار مطبخه من المجوس عملاً بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَلْبِسُوا بِأَخْوَابِهِمْ﴾ [النور: الآية ٢٦] الآية هذا إن صح ما ادعاه كارامزين وإلا فلا حاجة إلى هذا التأويل. منه عفي عنه .

يجلسوه على دست الكينازية بل توجهوا نحو البلاد التي كانت تحت حكومة ديميتري مثل مورم وسوزدل وولاديمير ويوريف وپريصلاول وأوكلچ وقولمنا وموسكوا وديميتريف وموزاي وغير ذلك من البلاد فاستولوا عليها ونهبوها وأسروا أهلها وباعوهم كالعبيد حتى أن الروحانيين لم يتخلصوا من هذه البلوى مع كونهم غير مكلفين بالتكاليف الميرية والخانية في نظام التار لعددهم من العصاة ولم تقدر الكنائس والأصنام أن تقاوم هجوم التار وتردهم من النهب بل صارت كلهم حرابًا يبابًا حتى أن دانييل بن أليكساندر كيناز مسكوا لم يقدر أن يحفظ بلدته من نهب التار مع كونه معهم في هذا السفر. وهرب من نجى من السيف والأسر عن الأهالي إلى الغابات ثم توجه دودين إلى بلده توير وأراد أن يستولي عليها ويخربها ولكن قامهم أهلها وقتلوهم وكان حاكمها ميخايل وقتئذٍ في أوردو فرجع أثناء محاربتهم وجمع العساكر الذين كانوا أولاً هربوا من التار وحمل عليهم حملة صادقة فلما رأى الكيناز أندري أنهم لا يقدر أن يستولوا عليها حرض الأمير دودين أن يتوجه إلى نووغورد فتوجه إليها فاستقبلهم أهلها بالهدايا وقالوا: إنا كنا نريد أن يكون الكيناز أندري حاكمًا علينا من مدة مديدة فما نحن راضون به وبكينازيته فأرسل الأمير دودين الكيناز أندري إلى نووغورد وجعله كينازًا بها وتوجه بعسكره إلى تارستان وخرج من حدود الروسية وأخذ فيودر الداماد بن روسيتلاو متفق أندري ومعينه بلدة پيرياصلاول لنفسه وحكم بعد ذلك على أضمولينسكي أيضًا اهـ.

قلت: وأنت إذا تأملت في هذه الواقعة بإمعان النظر تعلم يقينًا أن هذه المصيبة إنما هي من أمراء الروس مثل أندري ومتفقيه ومن الأهالي المتمردين وإنما قباحة التار أعانتهم إياهم وعدم إصلاح ما بينهم ولعلمهم فعلوا ذلك ولكن لم تقبل الروسية ذلك بل المفهوم القريب من الصريح أن الأمر كذلك يشهد لذلك صنيعهم بأهل نووغورد فإنه لو كان قصد التار قتلهم ونهبهم مطلقًا حاربوهم أو سالموهم كما يظن كارامزين لفعلوا بأهل نووغورد مثل ما فعلوا بغيرهم وحيث لهم يفعلوا بهم إلا المسالمة تبين يقينًا أن من سواهم ممن عدوهم من أهل البلاد المذكورة قد عاندوهم وحاربوهم ففعلوا بهم ما فعلوا ولكن كارامزين أبى إلا أن يمسح القباحة بالتار والله سبحانه أعلم.

ذكر وقوع الوحشة بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وأسبابها

اعلم أن الأمير نوغاي وأولاده وأحفاده وأتباعه قد تحكّموا في البلاد بعد وقعة تلبغا وقتل الأمراء المذكورين وما زال تحكّمهم واستبدادهم يزيد يومًا فيومًا حتى أنه

قتل چچك خاتون زوجة الملك منگوتيمر المتوفى وذلك فإنها كانت قد تحكمت على التتار في عهد زوجها وزمان سلطنة تدان منگو وتلایغا فثقلت وطأتها عليهم فشكوها إلى نوغاي فأمر بأن تخنق فخنقت وقتل معها أميرًا كان يلوذ بها وينفذ أوامرها اسمه بيطر (لعله بيقر) وذلك في سنة ٦٩٣ وما وقع في ابن خلدون من إيهام قتلها في عصر تلایغا فوهم فاشتد ذلك على طقطاي ثم انضم إلى ذلك ميلان الأمراء والأعيان إلى نوغاي ممن أوجسوا في أنفسهم خيفة منه لأمر بلغهم عنه ففارقوه وانحازوا إلى نوغاي فقبلهم وآواهم وأحسن إليهم حتى زوج واحدًا منهم ابنته وهو طاز بن منجك كما مر فطلبهم طقطاي منه فمنعهم فأغضبه ذلك ثم إن زوجة نوغاي بيلق خاتون المار ذكرها استشعرت من ولديه چكا وتكا سوء وأظهرها لها الإساءة والامتهان فأغرت طقطاي بهما وأرسلت إليه تحرضه عليها، فأرسل طقطاي في سنة ٦٩٧ رسولا إلى نوغاي وأصعبه محرثًا وسهم نشاب وقبضة من تراب فلما جاء الرسول إليه وعرض ما معه عليه قال: إن لهذا الخبر أو لهذا الرمز إشارة وأثرًا فجمع كبار قومه وذوي مشورته وقال: ما عندكم في هذه الإشارة وما قصد طقطاي بإرسال التراب والنشاب والمحرث فقال: كل منهم مقالًا وجال في تأويلها مجالًا فقال ما أصبتم القصد وما أجدتم النقد وأنا أخبركم بمراده وأعرفكم ضمير فؤاده أما المحرث فهو يقول: إن نزلتم إلى أسفل الأرض اطلعتكم بهذا المحرث وأما النشاب فيقول: وإن طلعتم إلى الجو أنزلتكم بهذا السهم، وأما التراب فيقول: اختاروا لكم أرضًا يكون فيها الملتقى فعملوا أنه أصاب في تأويله وفهم فحوى رسالة طقطاي فأعاد الرسول وقال: قل لطقطاي إن خيلنا قد عطشت ونريد أن نسقيها من نهرتن وهو نهر بقرب سراي وفيها منازل لطقطاي فعاد الرسول بالجواب وحكاه ما شاهده في الذهاب والإياب.

ذكر الواقعة الأولى بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وانهزام طقطاي

فلما عاد الرسول إلى طقطاي بالجواب المذكور تيقن طقطاي أنه لا بد من الحرب وأن نوغاي لا يتركه فاستعد لمناوشته وعزم على مدافعتة ومقاتلته وجمع جيوشه وأعد جنوده وجد في قتله وهم بنزاله وسار فورًا للقائه وذلك في سنة ٦٩٧ فلما بلغ الأمير نوغاي وأولاده مسيره نحوه وعزمه لحره جمع العساكر التي عنده وطلب التومانات التي تحت حكمه والمقدمين الذين هم إليه مضافون وله منقادون وهم طار بن منجك وهو ختنه على ابنته وطنغز بن قچان وأباجي وفراچين وينجي أبناء قرمشي وغيرهم من الأمراء المشهورين الذين هربوا من الملك طقطاي والتجأوا إلى

نوغاي ومعهم ما يزيد على مائتي ألف فارس وسار كل منهما لقصده صاحبه فالتقوا على نهر يصبي عند كندلان وكندلان ماء كبير بين مقام طقطاي ومقام نوغاي^(١) ووقع بين العسكرين حرب عظيم فكانت الكسرة والهزيمة على طقطاي وعساكره فانتهت بهم الهزيمة إلى نهرتن فمنهم من عبر فسلم ومنهم من هوى به فرسه فغرق وأمر نوغاي عساكره بأن لا يتبعوا مولياً ولا يجهزوا على جريح وأخذ الغنائم والسبايا والأسلاب وعاد إلى مكانه .

مقتل أقطاجي ابن بنت نوغاي وقتل الفرنج الجنوبية (الجنويز) بسببه

في السنة الثانية أعني سنة ٦٩٨ قتل أقطاجي ابن بنت نوغاي وسبب ذلك أن جده نوغاي لما كسر الملك طقطاي استولى على البلاد يعني إقليم قرم ونواحيها فأرسل ابن بنته إلى بلاد قرم لجبي الأموال المقررة على أهلها لأنه وهبها له فسار إليها ومعه أمير يسمى الطبرس بن قسر ومقدار أربعة آلاف من العسكر فدخل مدينة كفا وهي مدينة على ساحل البحر الأسود وفيها طائفة من الفرنج الجنوبية (الجنويز) وطالب أهلها بمال فضيفوه وقدموا إليه شيئاً من المأكول وخمرًا من المشروب فأكل وشرب الخمر وحكم عليه السكر فوثبوا عليه وقتلوه فبلغ خبر مقتله جده الأمير نوغاي فأرسل عسكرًا كثيرًا إلى قرم صحبة أباجي أحد أمرائه الذين معه فنهبوا وأحرقوها وقتلوا من أهل قرم جماعة وسبوا من كان فيها من تجار المسلمين والعلان والفرنج وأخذوا أموالهم ونهبوا صار وكرمان وقرق أروكرج وغيرها هـ. كله من تاريخ بيبرس والنويري وغيرهما .

قال المفضل: وفي رمضان من سنة ٦٩٨ وصلت التجار من سوادق وأخبروا أن الملك طقطاي الذي جلس على تخت مملكة بركة وصل في هذه السنة في أول الربيع إلى سوادق ومعه عسكر كبير فأمر لأهل سوادق أن كل من كان من جهته فليخرج إلى ظاهرها هو وأهله وماله فخرج جميع من كانوا متعلقين به وهم أكثر من الثلث ثم أمر العسكر فاحتاطوا بالبلد وبقي يطلب أهل البلد واحدًا بعد واحد ويعاقبه ويأخذ جميع ماله ثم يقتله إلى أن قتل جميع من في البلد ثم ألقى فيها النار وتركها دكًا كأن لم تكن وذلك لأن سوادق كان محصولها يقسم بين أربعة ملوك من التتار أحدهم الملك

(١) يفهم من حادثة تلابغا في بلاد كرل ومن مجيء الروس إلى نوغاي ومن هذه النقول والحوادث الآتية أن مقر الأمير نوغاي كان في حدود الروسية أعني الروسية الجنوبية أو في بلاد قريم . منه عفي عنه .

طقطاي هذا الذي له صحبة يعني محبة ومودة ومراسلة بملك مصر فتعدى شركاؤه من الملوك على نوابه ففعل ما فعل اهـ.

مقتل الأمير أباجي وأخويه أولاد الأمير قرمشي

قال بيبرس والنويري: وفي السنة المذكورة قتل الأمير أباجي وأخواه قراجي وينجي أبناء قرمشي المتفقين مع نوغاي لحرب طقطاي والمعاضدين له كما مر وسبب قتلهم أن هؤلاء الإخوة كانوا أيضًا هون نوغاي في المنزلة والتقدم وعدة العسكر فلما استقام الأمر لنوغاي تحكمت أولاده الثلاثة ولم يحصل لأولاد قرمشي ما كانوا يؤملونه منهم فوق بين الطائفتين خلف فقصدوا يعني أولاد قرمشي الانفراد عنهم وخرجوا قاصدين بلاد الملك طقطاي وبلغ ذلك نوغاي وأولاده فجرد أولاده الثلاثة چكا وتكا وطراي ليردوهم يمنعوهم من الانحياز إلى طقطاي فالتقى الجمعان واقتتلوا يومهم ذلك حتى حجر بينهم الليل فباتوا على تعبيتهم فلما جن الليل هرب من عسكر أولاد قرمشي أمير يسمى قطغوا مقدم ألف فارس وانحاز إلى أولاد نوغاي فأصبحوا وقد فقدوه هو وطائفته فلم يتقدم أحد الفريقين لحرب الآخر فلما كان المساء أضرم أولاد قرمشي نارًا وأزمعوا الرجوع فأرسل إليهم أولاد نوغاي ولاطفوهم وخدعوهم وقالوا لهم: لا حاجة إلى الخلف والحرب ونحن أقرباء وإنزام والأولى ترك الشنآن وتقرير الصلح كما كان واستمالوا ينجي وهو الأصغر فمال إليهم وسألوه أن يلاطف أخويه ويسألهم في المودعة والمسالمة فعاد إلى أخيه أباجي وأبلغه مقاتلهم ولاطفه في الاجتماع بهم فانقاد إلى كلامه وتوجه بنفسه إليهم. وأما أخوهما قراچين فإنه كان أثبتهم جأشًا وأكثرهم معرفة بدقائق الأمور وكان متوليًا تدبير عسكرهم فترى ولم يتوجه مع أخيه فراسلوا والدته في توجهه فأشارت إليه بالتوجه وتقرير الصلح فتوجه فلما حصل الأخوان أباجي وقراچين عند أولاد نوغاي قتلوهما وشعر ينجي بذلك فلم يعاود إليهم بل نجى بنفسه ونهب أولاد نوغاي تمانات أباجي وأخيه وأتوا على أكثرهم قتلاً وأسراً وسبباً فقويت شوكتهم وكثرت عساكرهم وانبسطت أيديهم واستظفروا على من سواهم حتى على أبيهم.

الوقعة الثانية بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وأولاده

وانتصار طقطاي ومقتل نوغاي في تلك الوقعة

ولما تمت الهزيمة للملك طقطاي في النوبة الأولى كما مر وكان المذكور من الغيرة والحمية بمكان ولكن لما كان لا يمكنه معاودة القتال على ذلك الحال كان

ينتهر الفرصة للانتقام ويقلب لذلك صحائف الليالي والأيام فلما دخل سنة ٦٩٩ ووقع بين نوغاي وبين أمرائه من الخلف ما وقع واستشعر طقطاي انتكاس أمره وقرب حصول نصره من ذلك عزم على حربه للأخذ بثأره وإطفاء جمرة ناره وشرع في الاستعداد لذلك واتفق في ذلك الوقت أن جماعة من أمراء نوغاي الذين كان يعتمد عليهم ويعتمدون عليه فارقه وانحازوا إلى طقطاي وهم ماجي وسدن واتراج وآق بغا وطيطا ومعهم ثلاثون ألف فارس فازدادت بهم شوكته واشتدت شكيمته وقويت عزيمته فعزم على المسير إلى نوغاي وأولاده لاسترداد ما استولوا وتغلبوا عليه من بلاده وبلغهم أنه هاجم عليهم وأنه قد جمع لحربهم من العساكر أعدادا واستصحب لقتالهم من الجيوش ما يكفي له إمدادا وكان صحبته من الخانات وأمراء التومانان عشرة كاملة مشهورة وإخوته الثلاثة برلك وسراي بغا وتدان والأمراء الذين انحازوا إليه من عسكر نوغاي، وقد ذكرناهم، وركب نوغاي وأولاده الثلاثة وأمراؤه وعسكر وتأهبوا للقتال واستعدوا للنزال وخرج كل منهم قاصداً الآخر بمن معه من الشجعان والأبطال فلما صار بين العسكرين مسافة يوم واحد أرسل نوغاي شخصاً من أمرائه يسمى بغا ومعه مائة فارس ليكشفوا له الخبر ويعلموه أين وصل طقطاي ومن معه من العسكر فسار ناوياً كشف الخبر والاطلاع على الأثر فلما أشرف عليهم خرجوا عليه مسرعين وأحاطوا به من كل طرف وقتلوا كل من معه وأنجى نفسه بكل جهد من التلف، فرجع وأخبر نوغاي بأنهم قد دهموه، فركب نوغاي وأولاده ومن معه من العسكر والتقى الجمعان على مكان يسمى كوكانلك واقتتلوا فكانت الكسرة على نوغاي وقت المغرب وانهزمت بنوه وعساكره وتفرقوا شذر مذر وثبت هو على ظهر فرسه وكان قد طعن في السن وكبر وتغطت عيناه بشعر حواجبه فلا يستطيع النظر فوافاه رجل روسي من عسكر طقطاي وقصد قتله فعرفه نفسه وقال له لا تقتلني فأنا هو نوغاي وإنما احملني إلى طقطاي فإن لي به شغلاً يوجب اجتماعاً ولي معه حديث يستلزم استماعاً فلم يصغ الروسي إلى مقاله بل قتله وحز رأسه لوقته وحاله وحمله إلى طقطاي وقال له: هذا رأس عدوك نوغاي فقال له: وما الذي أعلمك أنه نوغاي فقال: إنه عرفني نفسه واستوقفني عن قتله فلم أصغ إليه واجهزت عليه فألم ذلك طقطاي وغضب عليه غضباً شديداً وأمر بقتل الروسي فقتل لأنه تعدى على مثل هذا الرجل الكبير الشأن ولم يحضره لدى السلطان وقال: إن السياسة توجب قتله حتى لا يجترئ أحد على مثل فعله فإن السوفة لا يقتل الملوك، وعاد طقطاي إلى مقامه وقد انتصر وظفر بمناء وقرت بنصره على أعدائه وانتقامه منهم عيناه وأما أولاد

نوغي ومن سلم من عسكريهم فإنهم استتروا بجنح الليل واختفوا في غمار عسكري طقطاي وتنادوا بشعارهم ليظنهم من أصحابهم وكان شعارهم على ما حكاه من شهد الواقعة معهم إتل يايق فسلموا ليلتهم تلك وساروا مغلسين وعادوا هارين منهنمين وكان سبي من نسوانهم وذرائهم الخلق الكثير والجم الغفير فبيعوا في الأقطار وجلبوا إلى الأمصار واشترى السلطان والأمراء بالديار المصرية جماعة الطوائف التي جلبها التجار فدخلوا دين الإسلام بالرغبة وأقاموا الصلاة باجتهاد ومحبة وصاروا من أنصار الملة وأعاون الأمة فقد الله إجلاءهم من الأوطان وسبهم من عند أهل والإخوان ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وقيم بهم منار الإسلام بمناضلتهم عن دين نبيه عليه الصلاة والسلام ومدافعتهم عنه بحد الحسام فسبحان الملك العلام الذي بيده سلطان الليالي والأيام اهـ. من التاريخين المذكورين. هذا قولهم والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور وقد كان في عسكري الطرفين أجناس مختلفة سوى التار من الروس والچركس والعلان والقالموق فيمكن أن يكون الذين باعوا وبعض الذين بيعوا من تلك الأجناس فإن هؤلاء الأجناس إنما كان مطمح أنظارهم في الغنيمة والسبايا لا حفظ البلاد وحراسة الرعايا فصاروا يبعون ما وقع في أيديهم كائناً من كان.

وقد قال ابن فضل الله العمري: وهم يعني التار ببلاد الشمال مع استيلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار واللاص يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء وتبيعهم من التجار اهـ. فإن كان هذا حالهم حال الأمن والسلام فماذا تظن بهم حال الحرب خصوصاً وقت الاستيلاء والغلبة من طرف طائفة على طائفة أخرى منهم.

وقوع الخلف بين أولاد نوغي وقتل جكا أخاه تكا

ولما عاد أولاد نوغي إلى مقامهم من الهزيمة في السنة المذكورة ورجع إليهم قل عسكريهم الذين سلموا من القتل والأسر استقر جكا في مكان أبيه واستبد بالملك واستأثر به دون أخويه فأوغر لذلك صدر أخيه تكا لكونهما سواسيان في الاستحقاق وتغير ضميره وعزم على مفارقتة واللاحق بطقطاي هو وجماعته والله در من قال في مثل هذا الحال شعر:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فبلغ أخاه جكا نفاره منه وما أزمعه من الخروج والبعد عنه فخشي من مظاهرتة بقططاي عليه فجهز قومًا في الباطن إليه فقصده ليلة من الليالي وهو راقد في خركاهه خلي البال فأحاطوا بالخركاه من كل جانب وطعنوه وهو داخلها بالرماح حتى ظنوا أنه مات وتركوه وعادوا وبه رمق من الحياة فثارت الضجة في خيامه وأقام الصراخ بين أهله وإلزامه وسارعوا بإعلام أخيه جكا بمصرعه فبادر نحوه سائلًا عن أمره وموهما أنه لم يشعر بقاصدي غدره ودخل عليه في صورة الزائر وأظهر له أنه متألم الخاطر وأخذ يسأله عن القوم الذين أتوه ويستخبره هل عرفهم حين طعنوه فقال له أخوه إن الذي قتلني لن تطول مدته وسيفقد عقيب فقدي وإنك لتعرفه أكثر مني وهو الذي جاء ليسأل عني فعلم أنه إليه يشير وإليه ينسب تلك الحيلة والتدبير فخرج من عنده ودس إليه من تمم قتله جهداً وذلك في سنة ٦٩٩ وشاع ذلك بين عساكرهم وذاع بين أقاربهم وعشائرتهم فأنكروه على فعله وشنعوا تدبيره في حق أخيه وقتله وتعمرت قلوبهم وتشوشت خواطرتهم وفارقه بعد ذلك كثير منهم اهـ.

قلت: وهذا العام هو العام الذي انقرضت فيه الدولة السلجوقية وحصل الاستقلال فيه للدولة العلية العثمانية أيدهم الله سبحانه وذلك في عهد جدهم الأجدد السلطان الغازي عثمان خان الأول^(١).

مقتل جكا بن نوغاي

اعلم أن جكا لما استبد بالملك كان قد أقام له نائبًا في مملكته يسمى طنغوز من أكابر الأمراء فلما أقدم جكا على قتل أخيه تكا تنفر هو وأصحابه عنه وتيقنوا أنه لا يبقى عليهم بعد ما قتل أخاه ولما دخلت سنة ٧٠٠ اتفق النائب المذكور الأمير طنغوز مع طاز أبو منجك صهر نوغاي كما مر على التوجه للإغارة على أولاخ والروس فسارا بعساكرهما نحو المقصود فلما خلا أحدهما بالآخر تحادتا وتفاوضا في أمر جكا وجراته وقتله أخاه وسوء سيرته وقالوا إذا كان هذا لا يبقى على أخيه

(١) قال محمد فريد بك المحامي في كتابه: «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ص ٤٠ - ٤١: وفي سنة ١٣٠٠ م تقريبًا الموافقة سنة ٦٩٩ هـ، أغارت جموع التتار على بلاد آسيا الصغرى، وفيها كانت وفاة علاء الدين آخر السلجوقيين بقونية، قيل: قتله التتار، وقيل: قتله ولده غياث الدين طمعا في الملك، ولما قتل التتار غياث الدين أيضًا انفتح المجال لعثمان، فاستأثر بجميع الأراضي المقطعة له، ولقب نفسه (بادشاه آل عثمان)، وجعل مقر ملكه مدينة (يكي شهر)... وانظر أيضًا كتاب «تاريخ الدولة العثمانية» ليلماز أوزتونا، (إستانبول - تركيا - ١٩٨٨). (١/٨٩ - ٩٣).

وشقيقه فكيف يبقى علينا واتفقا على أن يعودا إليه ويقبضا عليه فعادا نحو مقامه فشعر واحد من عساكرهما بأنهما قد اتفقا على إعدامه فركب فرسه وسار مسرعاً نحوه وأعلمه بالحال تنصحا منه وتبرعا فلما تبين صدقه وتيقن أنهما دهما ركب من ساعته في مائة وخمسين فارسا من جماعته وبطانته ودخل بلاد اللاز وكان بها مقدم وتمان من عسكره فأوى إليهم وأقام بينهم وحضر نائبه طنغوز وصهره طاز بن منجك إلى بيوته التي تركها في منزله فنهبوا واستولوا عليها ووجدوه قد فاتهما ولما أقام جكا ببلاد اللاز وتحقق عسكره أنه حي موجود باق غير مفقود تسلل إليه كثير منهم فكثرت بهم عدته وقويت شوكته فعاد لحرب مخالفية طنغوز وطاز والتقى الجمعان فاستظهر عليهم وكسرهم وفرق شملهم وسبى وغنم ما شاء واسترد بيوته وغنائمه منهم ولقد حكي لي من شهد الواقعة^(١) أن أخته طقلجه بنت نوغاي ركبت الخيول وقاتلته مع الفحول فلما انكسر زوجها ومن معه كاتبوا طقطاي يستمدون به ويلتمسون إنجادهم بعسكرهم يقاتلون به جكا ويعاودونه فأمدهم بجيش صحبة أخيه برلك بن منگوتيمر فلما جاءهم المدد من عند الملك طقطاي دعوا النزال وعادوا إلى القتال فلم يكن لجكا بهم قبل فهرب ولحق ببلاد أولاخ وكان ملكها والحاكم عليها متزوجا بإحدى أقاربه فطلع إلى حصنه وأوى إلى حصنه معتقدا أنه يمتنع عنده فاجتمع أصحاب الحاكم المذكور وأرباب مشورته لديه وقالوا له: أيها الحاكم إن هذا الوارد إليك هو عدو لطقطاي وهو مجد في طلبه ومتى علم أنه عندنا سار نحونا وأهلكنا فالصواب هو تعويقه يعني جكا وإعلام طقطاي بأمره فقبض عليه وعوقه في قلعته واسمها طرنوا واطلع طقطاي بأمره فأمره بقتله فقتله وذلك في سنة ٧٠١ فخلت مملكة طقطاي ممن ينازعه ويناويه وبلغ من إبادة أعدائه أمانيه ولم يبق من أولاد نوغاي إلا أصغرهم المسمى بلراي وولد لجكا يسمى فراكسك فنجيا شريدين إلى بعض النواحي فرتب طقطاي ينجي بن قرمشي موضع أخيه أباجي بن قرمشي وجهاز ولديه توكلي بغا وأيل باصار إلى بلاد نوغاي فأما توكلي بغا فإنه استقر في صقچي ونهر طنا^(٢) وما يلي الباب الحديد يعني سواحل البحر الأسود المشتملة لبلاد قرم من طنا إلى الباب الحديد من ساحل البحر الخزر وهي منازل

(١) هذا قول بيبرس. منه عفي عنه.

(٢) هكذا في النسخة المنقول عنها فإن كان هذا النهر هو طونة فيكون المراد بصقچي هو إيساقچي بساحل نهر طونة والظاهر أن المراد به هو نهر تن والمراد بصقچي غير إيساقچي ولا يدري في أي موضع. منه عفي عنه.

نوغاي ورتب معه أخاه صراي بغا وأما أيل باصار فأقام بنهر بايق فتكملت بلاد شمال بذلك لطقطاي وصفت.

أحوال بعض أولاد جوجي خان بغزنة وباميان

اعلم أن چنكزخان لما استولى إلى بلاد غزنة وباميان ملكها لابنه الأكبر جوجي خان ثم صارت بعده لابنه أوردا ثم بعده لابنه قنچی ولما هلك المذكور على رأس سنة ٧٠٠ أو بعدها وقع الخلف بين ولديه كيك وبيان في الملك وانضم بعض أولاده وأبناء عمه إلى كيك والبعض الآخر إلى بيان وكان كيك قد استقر في الملك بغزنة بعد أبيه ولما اختلفا سار أخوه بيان إلى طقطاي مستنجداً ومستمداً به على أخيه فأمده وعضده بأخيه برلك وسار كيك إلى قيودو مستغيثاً ومستعيناً به فأعانته وأيده ثم التقى الجمعان واقتتل الإخوان فكسر كيك واستقر أخوه بيان في المملكة الغزنوية وأقام بغزنة فتركه برلك بن منگوتيمر وعاد إلى بلاده ثم مات كيك بعد ذلك وترك ولداً يسمى قوشتاي فتوجه الولد إلى قيودو واستنجد به فأمده بجيش فزحف إلى عمه بيان فالتقى واقتتلا على نهر نبق فغلب عمه بيان على غزنة ولحق بيان لطقطاي واستقر قوشنای بغزنة ويقال إن الذي غلب عليها إنما هو أخوه منغطاي وكان ذلك في سنة ٧٠٩ ولم نقف بعد ذلك على شيء من أخبارهم اهـ. من تاريخ ابن خلدون وبيبرس والعيني.

قلت: الظن الغالب أن تلك المملكة أعني مملكة غزنة انضمت بعد ذلك إلى ممالك بني هلاكو أو غلب عليها ملوك الكرت وحكموا فيها نيابة عن بني هلاكو كما لا يخفى ذلك على من تتبع التواريخ وإن لم يعلم تفاصيل أحوالها وأخبارها وإن قوم هزارة الذين في أطراف باميان من بقايا ذرية تلك التتار والله سبحانه أعلم.

تحرك طراي بن نوغاي وقتله ومقتل صراي بغا أخي الملك طقطاي بن منگوتيمر

وفي السنة المذكورة أعني سنة ٧٠١ تحرك طراي بن نوغاي لطلب ثأر أبيه وأخيه ولم يكن له قدرة وقوة على ذلك في التحيل والتدبير وبدأ بالتوصل لإدراك مطلبه وبلوغ مأربه بما أمكن له من الوسائل فلحق أولاً بصراي بغا بن الملك منگوتيمر وقد ذكرنا أن أخاه الملك طقطاي رتبه في مقام نوغاي مع ولده توکلي بغا فتوصل طراي إليه واستدم به فأذمه فألم ولا ذمة فلما آنس منه الميل إليه كشف له القناع عما في صدره وفتاحه في أمر أخيه طقطاي وفاوضه في أنه أحق منه بالمملكة وأقدر على

تدبير أمور السلطنة واستغواه بأمثال ذلك واستهواه ولم يزل يلاطفه ويحسن له الانتفاض والخروج على أخيه طقطاي فمال إليه واغتر بخداعه ولم يدر إن أقصى مرامه هو تمشية حاله وإجراء ما في باله حين جداله مع أخيه ونزاعه فركب في تمانه وعبر نهر اتل وهو منجمد بفرسانه وكان أخوهما برلك الذي هو أكبر منه عند طقطاي فخطر بما له أن يستشيريه فيما نواه من مخالفة أخيه وقتاله وأن يستعينه في شؤونه وأحواله فترك العسكر في ناحية وتوجه نحوه جريدة فاجتمع معه وشاوره في شأنه فأظهر له في الظاهر الموافقة لهواه والمساعدة على ما يهواه لأن الوقت هنالك لا يسع غير ذلك ثم بادر لوقته بإعلام طقطاي بما هم به أخوه صراي بغا وطراي بن نوغاي من الوثوب عليه فركب طقطاي لوقته في خواصه وبطانته وجهاز نحوهما من أحضرهما فقتلا بين يديه^(١) وتفرق عسكرهما ثم أرسل طقطاي ولده أيل باصار إلى المكان الذي كان قد رتب فيه صراي بغا فاستقر فيه عوضاً عنه ولما قتل طراي بن نوغاي وصراي بغا ابن الملك منگو تيمر جزاء بما كسبا نكالاً من الله خلف طقطاي عائلة قراكسك بن جكا بن نوغاي وتوهم من تحركه لطلب ثأر جده وأبيه وعمه وأراد أن يستعمل الدواء قبل وقوع الداء احتياطاً فأرسل أخاه برلك في طلبه فانهمز أمامه وهرب مع أميرين من أقاربه وهما جربك تيمور وبول قطلو ومعهم نحو من ثلاثة آلاف فارس فطرحهم الانجفال والهرب إلى مكان يسمى بدول بالقرب من كرل وقيل كيرك وترجمه تيزن غاز بن كراكو والله أعلم فأواهم شيشمن ملك القرب^(٢) مع أصحابهم وأقاموا عنده يغيرون على الأطراف ويأكلون من محصول الأسياف إلى يومنا هذا اهـ. من تاريخ بيبرس والنويري وابن خلدون إلا أن ابن خلدون قال فأبعد في ناحية الشمال فاستدم ببعض الملوك هناك وهذه أعني وقائع نوغاي وأولاده وملوك غزنة وباميان هي التي قال الفاضل المرجاني بعد نقل شيء منها من تاريخ ابن الوردي ما أدري من يكون هؤلاء ولعلمهم من حكام آق أوردوا أو كوك أوردوا اهـ.

قال المقرئزي والعيني: وفي سنة ٧٠٢ قدم الخبر بوقوع الجذب والقحط والغلاء ببلاد الشمال بلاد طقطاي وذلك فإنهم زرعوا ثلاث سنين فلم ينبت لهم شيء

(١) ولهذه الأمور ذكر بعضهم طقطاي خان بكثرة سفك الدماء وزعم بعضهم أن هذه كلها لثلاث ينزاع منهم أحد ولده إيل باصار في السلطنة والاعتماد على قول هؤلاء الأعلام. منه عني عنه.

(٢) هكذا في الأصل المنقول عنه بالقاف والصواب صرب بالصاد كما لا يخفى وشيشمن وإن كان ملك بلغار طونة إلا أن الصرب لما كانت محكومة عليهم عبر عنه بالصرب والله سبحانه أعلم. منه عني عنه.

ثم أعقبه موتان في الخيل والغنم وسائر المواشي وبلغ حالهم من القحط إلى أن صاروا يبيعون أولادهم ونساءهم وأقاربهم فاشتراهم الفرنج والتجار وجلبوهم إلى سائر البلاد والأقطار خصوصاً إلى مصر اهـ.

قال في روضة الصفا ما خلاصته قد وقعت المقاتلة الهائلة والمحاربة الصعبة الشديدة بين طقطاي ونوغاي في حدود سقسين وبلغار^(١) فغلب طقطاي على نوغاي فلما استقر طقطاي في سرير السلطنة وثبت قدماء فيها^(٢) وخلي الجو من المنازع أراد أن ينتزع ممالك أران وأذربيجان من أولاد هلاكو واستولى ذلك على ضميره فأرسل إلى الملك محمود غازان خان رسولاً من أكبر أمرائه يسمى عيسى كوكرزل ومعه ما يزيد على ثلاثمائة فارس وكان زبدة مضمون الرسالة أن مملكة أران وأذربيجان كانت في تخصيص چنكزخان وتقسيمه وقعت في حصة أولاد باتو وقد تصرف هلاكو وأولاده في غلتها ومحصولاتها على خلاف ذلك منذ سنين أما الأيام الخالية فلا يمكن تداركها وأما الآن فاللازم لغازان خان أن يقرر الحق في مركزه ويسلم الأمانة لأهلها وإلا فليتهيأ للحرب وليستعد للقتال وليعلم أن مرابطينا وأرباب حراسة حدودنا من حدود قراقوم إلى ظاهر دربند ما يزيد على عشر تمانات واقفين حاضرين متصلي الخيام ومتداخلي الأطناب فليقس بقية العساكر على ذلك فلما أدوا الرسالة بألفاظ لطيفة واستعارات أنيقة سالمة من العيوب وعبارات جالبة للقلوب قال الملك غازان الملك عقيم ودعواه كمثل سقيم وقد انضافت هذه الممالك إلى المملكة الأيلخانية المحروسة من عهد هلاكو خان إلى يومنا هذا وحفظناها من تعرض الأعداء باستعمال السيف والسنان فكيف يمكن له الآن انتزاعها من أيدينا بدون استعمال السيف والسنان وتفريق الرؤوس من الأبدان وهل يتيسر وصال عروس المملكة بمجرد الرسالة والطلب باللسان، واعتراه الغضب من كثرة الرسل وقال: لو كان مجيء هؤلاء الرسل لاستخلاص الممالك ينبغي أن يكونوا أكثر من ذلك وإلا فيكفي لكل رسول للخدمة خمسة أنفار وقد كان الملك طقطاي أرسل معهم كيس الرز كناية عن كثرة عسكره فأمر غازان خان أن يكبوه على دجج فالتقطته في الحال اهـ.

(١) وهذا نقله عنه الفاضل المرجاني بقوله توقا ونوقاي در حدود سقسين وبلغار مقاتلة هولناك كرده الخ. منه عفي عنه.

(٢) وثبت قدماء فيها: كذا في الأصل، ولعلها: وثبت قدميه فيها.

قلت: وكان ذلك حين استعداده لسفر الشام لقتال الملك الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٣ فلما بلغ الرحبة رجع هو نفسه وترك العسكر مع كبراء أمرائه فكسرههم الملك الناصر أشنع كسرة فلم تطل أيامه أعني الملك غازان بعد ذلك بل مات في شوال العام المذكور بعيد انهزام عسكره ولعل ذلك من الكمد واستيلاء القهر على باطنه لأن الملك طقطاي كان قصده أيضًا من طرف آخر على ما يفهم من بعض التواريخ.

ولكن قال المفضل في ترجمة طقطاي وهذا الملك يعني طقطاي لم يبلغ من العمر ثلاثين سنة وكان قد صالح الملك غازان واتفق أن ملوك الدنيا جميعهم في ذلك الوقت كانوا شبابًا لم يبلغ أحد منهم ثلاثين سنة ومبدأ ولايتهم وتملكهم من سنة ٦٩٤ وكان الملك الناصر في ذلك الوقت لم يبلغ عشرين سنة وقيل: إن ملوك الغرب أيضًا شباب والله أعلم اهـ. فهذا صريح في أن الصلح قد تم بينهما والله أعلم.

قال المغطاي^(١): وصول رسل الملك طقطاي بن منگوتيمر. لم يزل والد هذا الملك وحده من أولياء المملكة المصرية وأصدقائها، والمتوددين إليها، والمدلين تأكيد المحبة عليها، واقتضى اختلاف الدول من الجهتين، واختلاف أحوال من سلف من المملكتين. انقطاع رسلهم فلما انتظمت بتملك مولانا السلطان خلد الله ملكه الأحوال. وشمل بإقبالها اليمن والإقبال. وبلغ الملك المذكور ما مولانا السلطان عليه من سداد. وما يناله قاصده من أنواع الإرفاق والإرفاد. وحسن الإصغاء لمن يقول: والرغبة فيمن يواده بلسان كتاب أو رسول. سير رسله إلى أبوابه بالهدايا الجارية به عادة هذا البيت على يدهم الكتب المتضمنة للسلام التام والتحية والإكرام والبث بالصدقة الموروثة من الأسلاف. والمحبة القاضية بين القلوب بالائتلاف. فأصغى مولانا السلطان لكتبهم عندما قرأها، وأجزل لرسله أنواع قراها، وأنزلوا بالكبش وأفيضت عليهم الخلع السنية ورتبت لهم الإقامات كما يجب، وروعي لهم حق القصد وقصد مولانا السلطان لا يخب. وتقدمت المراسم العالية بتجهيز ما تجهز معهم من

(١) مغطاي: هو الحافظ علاء الدين مغطاي بن قليج بن عبد الله البكجري الحكري التركي، الفقيه الحنفي المصري، ولد سنة ٦٨٩ هـ، وتوفي سنة ٧٦٢ هـ، قال السيوطي في حسن المحاضرة: له مائة مصنف منها: «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء»، «إصلاح ابن الصلاح» في علوم الحديث، «الإعلام لسنة النبي عليه السلام في شرح سنن ابن ماجه»، «التحفة الجسيمة لإسلام حليلة»، «التلويح في شرح الجامع الصحيح»، «زوائد ابن حبان على الصحيحين»، «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم ص»، «شرح سنن أبي داود»، «الواضح المبين فيمن مات من المجبين». (كشف الظنون ٦/٦٤٧ - ٤٦٨).

الهدية. كالتعابي السكندرية، ودهن اللسان الخاص وغير ذلك مما تشهد به الخزانة العالية، وجهزتهم رسل من الأبواب العالية، وهم الأمير سيف الدين الأتابكي أحد مقدمي الحلقة المنصورة والأمير فخر الدين محمود أمير أخور الشمسي بعد أن أفيض عليهم ملابس الإحسان. وأنعم عليهم بالمال الجسيم على قدر ما لكل منهم من علو مكان. وجهزت لهم المراكب أحسن تجهيز وعادوا مشمولين بالتكريم والتعزيز إلا أن أحد رسل الملك طقطاي تأخر ليقضي حجة الإسلام لأنه كان قد حضر هو وحريمه بهذه النية فأعانه مولانا السلطان بإحسانه وافتقاده وبره على بلوغ هذه الأمنية اهـ.

وقال المفضل: ودخلت سنة ٧٠٣ هجرية وصاحب بر الففجق الملك طقطاي ابن أخي السلطان بركة وهو مسلم. ثم قال هو وبيبرس والمقريزي: وفيها وصل من جهة الملك طقطاي ملك التتار ببلاد الشمال رسول إلى الأبواب العالية اسمه فرقجي ومعه هدية عظيمة وممالك وجوار وكان وصولهم من طرف البحر إلى إسكندرية ودخولهم إلى مصر في أول ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرموا غاية الإكرام. وأنزلوا بمنظرة الكباش في خير مقام ورتب عليهم الرواتب وأفيض عليهم من الإنعام. وتفرج بهم في الجيزة والأهرام. ثم حضروا بهداياهم وكتاب ملكهم وهو يتضمن الحث على الركوب لحرب غازان ليكون في المساعدة عليه فأجيب بأن الله قد كفاهم أمر غازان يعني بموته في أواخر العام الأول كما مر وأن أخاه خربنده قد أذعن للصلح هذا كلام المقريزي.

وعبارة المفضل ومضمون رسالتهم: إنا نحن أرسلنا إلى خربنده نطلب منه خراسان إلى حد تبريز وفي عزمنا الركوب عليه فتجتمع عساكركم ونتلاقى ونجتمع نحن وأنتم على طرده من البلاد فهو لنا قال المؤرخ^(١) ولأجل هذا يعني لإزعاج الملك طقطاي أيضاً سير خربنده الرسل بطلب الصلح ثم جهز الرسل وأعيد جوابه كما مر وجهز إلى مرسله أنواع التحف والهدايا واللطف وجهز الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي صحبتهم رسولاً من الباب العزيز من طريق الإسكندرية والبحر.

وقالوا: وفي سنة ٧٠٦ عادت رسل الأبواب الشريفة من عند طقطاي ملك التتار وهم الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي وسيف الدين بلبان الحكيمي وفخر الدين آياز أمير أخور الشمسي وصحبتهم رسول من جهة الملك طقطاي اسمه نامون ومعه هدية

(١) هذا من كلام المفضل ومراده به صاحب النهج السديد الذي هو مأخذ تاريخه. منه عفي عنه.

سنية وكتاب يتضمن أن عسكر مصر يسير إلى بر الفرات ليسير معهم ويأخذ بلاد خربنده ويكون لكل منهما ما يصل إليه حيلنا من البلاد فبولغ في إكرامه وأعيد بالجواب بأن الصلح قد وقع مع خربنده ولا يليق نقضه فإن حدث غير ذلك عمل بمقتضاه وجهزت معه الهدايا للملك طقطاي وسير إليه رسولاً الأمير بدر الدين بكمش الخزندار وفخر الدين آياز أمير آخور الشمسي المذكور أعلاه وسنقر الأشقر أحد مقدمي الحلقة.

قال بيبرس: وكان سهولة سفرهم يعني إياباً من عند الملك طقطاي صحبة الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي وتيسيره لهم على ما أخبر به سيف الدين الحكيمي المذكور من لسانه أنهم استهلوا هلال صفر من هذه السنة في قرم وسفروا أول الشهر يعني ركبوا البحر فوصلوا في العشر الأخير منه إلى الإسكندرية وتوجهوا في الحراريق^(١) إلى مصر فوصلوها سلخ صفر فكانت المسافة من قرم إلى مصر شهراً واحداً اهـ.

وقال مفضل: ودخلت سنة ٧٠٧ ومن الباب الحديد إلى بر القفجاق وصوداق وخوارزم إلى حد القسطنطينية في يد الملك طقطاي بن منگوتيمر الخ.

وقال النويري وبيبرس: وفي سنة ٧٠٧ وردت الأخبار إلى الديار المصرية عن طقطاي ملك التتار بأنه نقم على الفرنج الجنوية الذين بقرم وكفا والبلاد الشمالية لأمر نقلت إليه عنهم منها استيلاءهم على أولاد التتار واستجلابهم إلى هذه الأقطار وغير ذلك فأرسل جيشاً إلى مدينة كفا وهي مسقط رؤوسهم فأحست الفرنج بوصولهم فهاؤا مراكبهم في البحر وركبوا وساروا إلى بلادهم فلم يظفر جيش التتار منهم بأحد فنهب طقطاي أموال من كان منهم بمدينة سراي وما يليها اهـ.

وقال بيبرس وفي سنة ٧٠٨ وصلت الأخبار بحركة التتار (يعني من بالعراق من بني هلاكو) فرسم بتجهيز جماعة من العساكر المنصورة للتجريد قصداً لإظهار الصيت للقريب والبعيد فلما شرعوا في التأهب وصلت الأخبار المحققة من جهة المناصحين بتأخر حركة العدو المخذول وبلاطنها فاستقر القرار وتأخرت حركة

(١) الحراريق: جمع حرّاقة، وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو. وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٠٤).

البيكار^(١) وقيل كان السبب في سكوت حركات العدو لا زال عديم الحراك هاويًا إلى الإدراك أن قراغولهم المجرى على تخوم ممالكهم تجاه قراغول طقظاي محافظ البلاد أتق مع المذكورين وكبس بعضهم بعضًا فكانت الكسرة على قراغول خربنده وكسروا كسرة عظيمة فما نجا منهم إلا اليسير وكان ذلك مانعًا لمسيرهم وذكروا أيضًا أن خربنده جرد جويان بمن معه مع التومان رديفًا لقراغوله لما بلغه ما كان منهم وكانت هذه الواقعة في ربيع الأخير اهـ. يعني من السنة المذكورة.

وفاة أيل باصار ولد الملك طقظاي

قال بيبرس والعيني: مما تجدد في هذه السنة (يعني سنة ٧٠٩) وفاة أيل باصار ببلاد التار وهو ابن طقظاي بن منگوتيمر توفي حتف أنفه وكان مرشحًا عند أبيه لتقدمه العساكر وتبدير الحروب وممارسة القتال فالموت يقبض ذلك كله. وفيها توفي الأمير برلك أخو الملك طقظاي اهـ. قلت: قد ذكر المفضل وفاتها في سنة ٧٠٧ والله سبحانه أعلم.

وقال بيبرس: وفي سنة ٧١٠ حضرت رسل الملوك إلى الأبواب السلطانية فممن جاءه رسل طقظاي بن منگوتيمر ملك بيت بركة وهم علاء الدين علي ورفيقه ابن أخي أبكار أرسلهم بهنونة^(٢) بجلوسه على كرسيه الشريف واستظهاره على من دام منازعته في شرفه المنيف فأكرموا ووصلوا وجهزوا وسفر معهم بالجواب ناصر الدين محمد بن اليميني ورفيقه اهـ.

وقال المفضل والنويري والعيني: وفي سنة ٧١١ عادت رسل السلطان من عند الملك طقظاي فاعترضهم الفرنج في ربيع الأول وأسروهم جميعهم وكانوا هم وأتباعهم وعلماؤهم نحو ستين نفرًا ومروا بهم على البلاد الساحلية وقصدوا بيعهم ووصلوا إلى طرابلس الشام وعرضوهم للبيع واشتطوا في الثمن وحلفوا أن لا يأخذوا في ثمنهم إلا ستين ألف دينار عينًا فلم يشترهم أحد ثم توجهوا بهم إلى اياس وعرضوهم على صاحب سيس بهذا الثمن فامتنع أن يبتاعهم ثم توجهوا بهم إلى جزيرة المصصكى يعني صاقز فبلغ السلطان ذلك فأمر بالقبض على تجار الفرنج الذين

(١) البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة (صبح الأعشى ١١/١٧٢).

(٢) يعني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لأنه كان حصل بينه وبين العساكر في سنة ٧٠٨ وحشة فعزل نفسه وأقام بكرك ثم في سنة ٧٠٩ وثب طالبًا لملكه وظفر بمناه. منه عني عنه.

بشعر الإسكندرية والحوطة على أموالهم والتزم أنه لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله فخرج شكران الجنوزي التاجر متوجهاً إلى جزيرة المصطكى وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية وكان وصولهم إلى مصر ومثلهم بين يدي السلطان في سادس عشر ربيع الأول من سنة ٧١٢ هـ. ولم أقف على مضمون هذه الرسالة وتفصيلها وهذا نهاية ما اطلعنا عليه من أحوال الملك طقظاي.

وفاة الملك طقظاي

قال الذهبي وابن كثير^(١) وابن الفدا^(٢) وابن الوردي وابن دوقمق^(٣) والبرزالي وغيرهم بألفاظ مختلفة متقاربة: وفي سنة ٧١٢ مات ملك دشت القفجق المسمى طقظاي بن منگوتيمر وكان عمره حين تملكه سبع سنين وتوفي في السنة المذكورة وعمره ثلاثون سنة فكانت مدة تملكه ثلاثاً وعشرين سنة وكان يحب السحرة والبخشية^(٤) والحكماء والأطباء ويكرم المسلمين أكثر من الجميع وفيه عدل وميل إلى أهل الخير من جميع الملل وكان يرجح الإسلام وكان ملكاً شهماً شجاعاً بطلاً مظفراً في حروبه على أعدائه وكان جيشه هائلاً إلى الغاية يقال: إنه جرد مرة تجريدة من كل عشرة واحداً فبلغت التجريدة مائتي ألف وخمسين ألفاً وكانت وفاته في السنة المذكورة على دين التتار وكان له ولد مليح فأسلم وكان يحب سماع القرآن وإن لم يفهمه يعني معناه وكان قد نوى أنه إن ملك البلاد لا يترك في مملكته غير الإسلام فمات في حياة والده وترك ولداً فلما مات عهد أبوه طقظاي إلى ولده المذكور بدله فلم يتم له الأمر ولم يساعده القدر المقدر وكان موته يعني طقظاي في رمضان من السنة المذكورة في موضع يقال له كرنا وكان الملك الناصر أرسل إليه رسلاً في سنة ٧١٢ وهم الأمير

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٦٦.

(٢) ابن الفدا: كذا في الأصل، والصحيح: أبو الفداء.

(٣) ابن دوقمق: كذا في الأصل، ولعله ابن دقماق: وهو إبراهيم بن محمد بن دقماق المصري الحنفي، المؤرخ، توفي سنة ٧٩٠ هـ، صنف من الكتب: «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» في التاريخ، «ترجمان الزمان»، «الجواهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين»، «الدر المنضد في وفيات أعيان أمة محمد»، «الدرة المضية في فضل مصر والإسكندرية»، «عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق»، «فرائد الفوائد» في التعبير، «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام» مرتب على السنين، «نظم الجمان في طبقات أصحاب النعمان»، «ينبوع المظاهر في سيرة الملك الظاهر»، «مختصر عقد الجواهر له». (كشف الظنون ٥/١٨).

(٤) البخشية نسبة إلى بخش محرف باقجى بمعنى الكاهن وهو عند القزاق موجود إلى الآن. منه عني عنه.

سيف الدين بلبان الخاص تركي وقراجا الخزندار فلما وصلا إلى مصيفه المسمى كرنا وهو على مسافة عشرة أيام من مدينة سراي وجدوا الملك طقطاي هناك مريضاً فلم يتمكنوا من الاجتماع به لمرضه وإنما اجتمعوا بخواتينه وقدموا ما كان معهما من الهدايا وأقاما ينتظران عافيته فمات مرضه ومات فجهزتها الخواتين وكتبوا لهما تسفيراً من قرم بثلاثين ألف درهم قرمية كل ألف أربعمائة درهم مصرية وكان السلطان لما استبطأ خبرهما جهز رسولين آخرين بعدهما وهما علاء الدين آيدوغدي الباغلي وعلاء الدين طنبغا الكرموني فعند وصولهما إلى قرم صادفا الخاص تركي والخازندار بقرم عائدين فوصل المذكوران إلى الباب العالي بمفردهما وتقدم الباغلي والكرموني إلى كرنا اهـ، ما ذكره محققو المؤرخين .

وقال الثويري: ولما مات شرمون في سنة ٧١٢ أو فيما يقاربها سار طقطاي بن منگوتيمر صاحب البلاد الشمالية في طلب القآنية فمات أيضاً ولم يلها اهـ.

قلت: وههنا شبهات الأولى قولهم: إن الملك طقطاي تملك وهو ابن سبع سنين غير صحيح لأنه قد مر أن أباه الملك منگوتيمر توفي سنة ٦٧٩ والملك طقطاي تملك سنة ٦٩٠ كما مر فلا يكون عمره حين تملكه سبع سنين وإن بقي حين وفاة أبيه في بطن أمه بل يكون أزيد كما لا يخفى والثانية قولهم: إنه مات وعمره ثلاثون سنة كيف يصح مع قولهم بالاتفاق إن أباه توفي في سنة ٦٧٩ بل يكون أزيد منه وإن لم نعد سنة ولادته ووفاته كما لا يخفى والحق في ذلك ما نقله ابن شهبة^(١) عن ابن كثير عن الذهبي: وله يعني لطقطاي حين وفاته أربعون سنة وكانت دولته ثلاثاً وعشرين سنة اهـ، والثالثة قولهم مات كافراً يعبد الأصنام أو على دين التتار ينبغي أن يكون هذا أيضاً غير صحيح بل الظن الغالب والراجح أنه مسلم لما يظهر من أفعاله وأحواله وموالاته المسلمين كأسلافه وقد مر هنا المفضل أنه مسلم ومال إلى إسلامه الفاضل المرجاني أيضاً^(٢) وغالب الظن أنهم إنما قالوا بموته كافراً لعدم ظهور آثار الإسلام منه

(١) ابن شهبة: هو أحمد بن محمد ابن القاضي شهبة الدمشقي، القاضي تقي الدين أبو بكر الأسدي الشافعي، توفي سنة ٨٥١ هـ، له من المصنفات: «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ذيل على تاريخ البرزالي، «تفسير القرآن»، «الذيل على ذيل ابن حجي للعبير الذهبي»، «شرح التنبيه لأبي إسحق الشيرازي» في الفروع، «طبقات الشافعية»، «كفاية المحتاج في شرح منهاج الطالبين للنووي» في الفروع، «مناقب الإمام الشافعي»، «نكت على تنبيه أبي إسحق الشيرازي». (كشف الظنون /٥/ ١٢٨).

(٢) قال الحاج عبد الغفار أفندي: إنه كان خاناً عظيم الشأن صاحب جود وسخاء حتى كان يتهاى في=

ظهورًا قويًا كما ظهر من أسلافه وأخلافه وقد قال العمري فيهم: ومع ظهور الإسلام في هذه الطائفة وإقرارهم بالشهادتين فهم خالفون لأحكامها في كثير من الأمور اهـ. وإنما انقيادهم للأحكام الشرعية انقيادًا كليًا إنما كان بعد تملك أوزبك خان كما سيجيء بل بقي بعض الأحكام الجاهلية والقوانين الچنكزية بعده أيضًا حتى بقي إلى أواخر عهد خوانين القريم بل بعضهما باق إلى الآن في بلاد القزاق مع كونهم مسلمين باليقين والله سبحانه أعلم بسرائر عبادته.

وقولهم: جرد مرة تجريدة الخ، هو ما نقل عن الشيخ نعمان قال العمري: وسئل الشيخ علاء الدين نعمان عن جيوشه يعني جيوش طقطاي، فقال: كثيرة يفوت الحصر فليل كم بالتقريب فقال: لا أعلم لكن خرج عليه وعلى القآن الكبير اسنبغا سلطان ما وراء النهر وتغلب وقطع الطريق وقال: أنا أحق بالملك منهما ونهب السيارة وأخرج رقبته من ربة إطاعة القآن فكتب القآن إلى طقطاي بأن يقاتله فجرد إليه من كل عشرة واحدًا فبلغ عدة المجردين مائتين وخمسين ألفًا قال نعمان: وهو الذي دخل تحت العدو الإحصاء سوى من انضم إليهم من الطوابعية قال: وألزم كل فارس بگرامين وثلاثين رأسًا من الغنم وخمسة رؤوس من الخيل وقدرين نحاسًا وعجلة برسم حمل السلاح وغزا اسنبغا وكسره وانتصر عليه نصره ظاهرة ثم عاد مؤيدًا منصورًا اهـ.

قلت: كان تسلطن اسنبغا بما وراء النهر في سنة ٧٠٩ وكان ما ابتدأ به أمره أن أرسل عسكريًا إلى خراسان بقصد انتزاعها من بني هلاكو ووقع بين الفريقين حرب صعب فيكون وقعة طقطاي في آخر عمره والله سبحانه أعلم.

الملك المظفر غياث الدين السلطان محمد أوزبك بن طغرلجا^(١) ابن الملك منگوتيمر

ولما توفي عمه الملك طقطاي مال الأمراء وأعيان المملكة وأركان الدولة إلى طرفه لما رأوا من رشده وشجاعته وصلاحيته للملك وقابليته وزيادة استعداده للسلطنة وشهامته فبايعوه بالسلطنة وأجلسوه على كرسي المملكة الصائنية وتخت سلطنة الچنكزخانية في شهر رمضان من السنة المذكورة.

= سماطه المبذول للعمامة كل يوم تسعون خنزيرًا سوى لحوم الضأن والبقر والفرس اهـ. وقال كارامزين: والظن أنه لم يكن متدينًا بدين ولم يكن متمسكًا بالقرآن اهـ. منه عفي عنه. (١) وهو الذي قتله أخوه طقطاي مع من قتلهم كما مر. منه عفي عنه.

قال المفضل: وفي سنة ٧١٢ في أواخر شهر رمضان جلس على سرير الملك ببلاد صحراء القفجق وما والاها الملك أوزبك خان ابن طغرلجا بن منغوتيمر وكانت ولايته بعد عمه طقطاي بن منغوتيمر قيل: إنه شاب حسن الصورة فائق الجمال حسن الإسلام شجاع مقدام قتل عدة من الأمراء والأعيان وقتل جماعة من البخشية والسحرة اهـ.

وقال الذهبي: بعد ذكر وفاة الملك طقطاي وقام في الملك السلطان أوزبك خان وهو بطل شجاع مليح الصورة مسلم فأباد طائفة من الأمراء والسحرة تسلطن في رمضان سنة ٧١٢ وامتدت أيامه نحو ثلاثين سنة وصاهر السلطان الملك الناصر على أخته. ومملكته شمالي شرق وهي من بحر قسطنطينية إلى نهر ارتش مسافة ثمانمائة فرسخ وعرضها من باب الأبواب إلى مدينة بلغار وذلك نحو ستمائة فرسخ لكن أكثر ذلك مراعي وقرى ولها في أيدي التتار (يعني في عصر الذهبي) مائة سنة وكانت قبله لملوك قفجق اهـ. بحروفه.

وقال ابن كثير^(١): وقام بعده أي الملك طقطاي ابن أخيه أوزبك خان وكان مسلمًا فأظهر دين الإسلام ببلاده وقتل خلقًا من أمراء الكفرة وعلت الشريعة المحمدية على سائر الملل هنالك والله الحمد والمنة اهـ.

وقال البرزالي وكان للملك طقطاي^(٢) ولد لم ير في الجمال أحسن منه وكان على دين الإسلام يحب سماع تلاوة القرآن وإن لم يفهمه وكان قد نوى أنه إن ملك البلاد لا يترك في مملكته غير الإسلام فمات في حياة والده وترك ولدًا فعهد طقطاي أي ابن ابنه المذكور فلم يتم له الأمر واستولى على الملك بعده ابن أخيه أوزبك خان وهو شاب حسن الصورة أيضًا فائق الجمال حسن الإسلام شجاع قتل عدة من الأمراء والأعيان وقتل جماعة كثيرة من الإيغورية وهم البخشية والسحرة وأظهر كلمة الإسلام وجلس على سرير الملك في أواخر رمضان في هذه السنة ٧١٢ سنة وهذه المملكة هي المشهورة بمملكة بركة ابن عم هلاكو وذكر الشيخ الفاضل علاء الدين نعمان الخوارزمي الحنفي لما قدم دمشق سنة ٧١٧ أن طول هذه المملكة مسيرة ثمانية أشهر وعرضها ستة أشهر والله أعلم اهـ.

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٦٧.

(٢) وهو إيل باصار المار ذكره في ترجمة ماقطاي خان. منه عفي عنه.

وقال ابن خلدون: ولما هلك طقطاي بايع نائبه قطلقتيمر لأوزبك ابن أخيه طغرلجا بإشارة الخاتون بيالون زوجة أبيه طغرلجا وعاهده على الإسلام فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة وأنكر عليه بعض أمرائه فقتلهم وتزوج الخاتون بيالون^(١) امرأة أبيه لما كان كافراً مجوسياً وولى قطلقتيمر نائب عمه على خوارزم وأوركانج وعزل عنها أخا الخاتون بيالون وكانت المواصلة بين طقطاي وملوك مصر دائمة ومات طقطاي ورسله عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فرجعوا إلى أوزبك مكرمين وجدد أوزبك الولاية معه اهـ.

وقال ابن دوقمق^(٢) والعيني بعده: إن طقطاي لما مات لم يخلف ولداً ذكراً ولا أنثى وكان قطلقتيمر يتولى تدبير المملكة في حياة طقطاي وترتيب أحوالها وجباية أموالها وهذا الأمير له أخوان وهما سراي تيمر ومحمد خواجه فدبرا له الأمر واستعان هو بخاتون كبير من خواتينهم كانت زوجة طغرلجا والداوزبك وكانت تسمى بيالون واتفق معها على إقامة أوزبك بن طغرلجا بن منگوتيمر بن باتو بن جوجي بن چنكزخان فأعانتة وعضدته وقررت له الجلوس على الكرسي وكان قطلقتيمر قد عاهده أنه إذا جلس يسلم ويتمسك بالإسلام فلما جلس دخل في دين الله راغباً واتخذ له جامعاً يصلي فيه الصلوات الخمس في أوقاتها فتنكر له بعض أمراء التتار وأجمعوا على خلعه وهم طنغز وطاز بن منجك المار ذكرهما ومن تبعهما في ذلك الأمر الشنيع فلما جلس واستقر قتلهم وكان معهم جماعة أخرى من الأعيان متفقين معهم في ذلك ولما أحس هو وقطلقتيمر بمكيدتهم أشار إليه قطلقتيمر أن يدخل إلى الأردن ويأمر أمراء الأجناد والزمامهم وخواصهم بالتباعد منه في سيره ليكون دخوله إلى الأردن بمفرده ففعل ذلك ولما قرب من مخيمه وهؤلاء في قلة من العدد بحكم انفرادهم كما مر رأى أن الفرصة ممكنة منهم فبذل السيف فيهم فلم ينج منهم إلا القليل فاستوثق له عماد الدين بن المسكيري الأمر وتزوج بيالون خاتون امرأة أبيه التي ساعدته على

(١) وقد قال الحاج عبد الغفار أفندي: إنه ابن الخاتون بيالون بقي وقت وفاة أبيه طغرلجه في بطنها ولما وضعت أرسلته إلى إينال بك من قبيلة قبارطاي خوفاً من قتل طقطاي خان وقد تزوجها طقطاي بعد ذلك فلما احتضر طقطاي وندم على قتل أقربائه وتأسف على نقل السلطنة إلى الأجانب أظهرت له بيالون ما فعلت بأوزبك خان من حفظها عند إينال بك ففرح به طقطاي خان وأرسل آستاي بك القياتي والإطاي السجوتي للمجيء به مع ألفين من العساكر فمات قبل وصوله إليه ثم ذكر قصة طويلة تركتها لعدم الاعتماد عليها. منه عفي عنه.

(٢) هو ابن دقماق: تقدمت ترجمته قبل قليل.

الجلوس وذلك إن أفتاه من عنده نقلًا عن أهل العلم بأن أباه كان كافرًا مجوسيًا فكان عقدها عليها فاسدًا فاتخذها لنفسه امرأة وكان لها أخ يسمى باي تيمر يلي مدينة أوركانج وإقليم خوارزم فعزله وولى بدله قطلقتيمر المذكور أوركانج وخوارزم فأنكرت عليه ذلك وعنفته بسببه وقالت أنا التي حصلت لك الملك وبذلت المال لمن طلب مالا والخيل لمن طلب خيلاً والقماش لمن طلب قماشاً وأنت تعزل أخي فاعتذر إليها وتراضيا اهـ.

قلت: لا بد في حلية المرأة المذكورة له من كون أبيه لم يدخل بها بل عقد عليها على أصولهم ومات قبل الدخول بها فإن موطوءة الأب ولو حراماً يحرم نكاحها عندنا كما هو مقرر في محله من كتب الفقه.

ثم إن هذه المرأة هل هي بنت القيصر صاحب القسطنطينية أو غيرها فإن السلطان أوزبك خان قد تزوج بنت القيصر صاحب القسطنطينية وهي أيضاً تسمى بيالون كما ذكر ابن بطوطة عن مشاهدة ومشاهدة في رحلته المسماة بتحفة النظار وذكر فيها سفره معاً من بلاد أوزبك خان إلى القسطنطينية فراجعها إن شئت الوقوف على ذلك وهي مطبوعة في أوروبا ومصر وذكر فيها جملة من أوصاف أوزبك خان وخواتينه وأولاده ونائبه قطلقتيمر وسائر أمرائه ووصف بلاده وقال بعد ذكر نزوله بمدينة ماجار ووصفها ووصف أهلها وتجهزنا من المدينة الماچار نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماچار بموضع يقال له: بش داغ^(١) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الأتراك ويزعمون أنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة ومريض.

وقال: ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان هذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعداء الله أهل القسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم وبلاده متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماچار وأوزاق وسوداق وخوارزم وحضرته السراي وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤهم وهم أمير المؤمنين ظل الله في أرضه (يعني ملك العرب) وسلطان مصر والشام وسلطان العراق يعني السلطان أبا سعيد من أحفاد هلاكو والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا

(١) واسمه أيضاً الآن عند الروس بيته غوريا المفيد لهذا المعنى. منه عفي عنه.

السلطان إذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عاداته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب^(١) مزينة بديعة من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير^(٢) ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه وإخوته وأقاربه ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد.

(١) وهي المسماة عندهم بأوردا كما قدمنا وهذا هو وجه تسميتها بالآتون أوردا وزولتوي أوردا يعني الأوردا الذهب. منه عفي عنه.

(٢) وفي أطرافه الخواتين على مراتبهن عنده فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة (يعني طبطغلي) من الخواتين ثم تنصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وأمام العربية نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكل خاتون تركب في عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربية الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي (لعله كوچز) والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون وعن شمالها امرأة من القواعد أيضًا تسمى كچك خاتون وبين يديها ست من الجوار الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهية الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس أولو خاتون وكچك خاتون مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجواهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلاه وهو شبه الأقروف وفي أعلى دائرة ذهب مرصعة بالجواهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر ويبد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف العربية الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار إلى آخر ما ذكر بطوله. منه عفي عنه.

ثم قال: ذكر ترتيبهم في العيد: ولما كان صباح يوم العيد وقد صادف يوم الجمعة ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها إذ هي الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تن بك ولي عهد السلطان ومعهم الأطباء والأعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ونصبت الكراسي للأمرء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبقات للرمي لكل أمير تومان طبلية وأمير تومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء تومان^(١) سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفاً وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعنه ما يلبسها يأتي إلى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الأرض بركبته ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة، ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبله الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه وهنالك يركبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولي عهده وتليه بنته الملكة وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه خواتينه الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق والوطاق بكسر الواو وهي أبراج (قلت المشهورة في التركية أوطاق بالهمزة المضمومة وربما يبدلون القاف واواً فيقول أوطاو وهذا هو المشهور الآن في تلك الديار ويقال له الآن باللغة العثمانية أرضه بالضاد والطاء والدال) وقد

(١) أمراء تومان: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/٤٢١: في ترتيب المملكة على ما كانت عليه في زمن بني هولوكو: ذكر في مسالك الأبصار أن الأمراء عندهم على أربع طبقات أعلاها النوين، وهو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه بأمير تومان، إذ التومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف، ثم أمير مائة، ثم أمير عشرة.

نصبت هنالك باركاه عظيمة والباركاه عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهب له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركاه على البعد كأنها ثنية يوضع عن يمينها ويسارها سفائف من القطن والكتان ويفرش كل ذلك بفرش الحرير وينصب في وسط الباركاه السرير الأعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضًا إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم ورأيت ذلك اليوم مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر الناس السلطان بتفريقها على الناس فأتوا إلي بعربة منها فأعطيتهما الجيراني من الأتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل: إنه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه يعني من الغمز ومن قائل: إنه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه باتا وهو الأب بلسان الترك. ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى منازلهم وانصرف السلطان إلى الباركاه فبقي على حاله إلى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خوانينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم والذي نسب إليه هذه المدينة حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر إتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ويسافر من العربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه في آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون.

ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده فتعود إليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني^(١) خوفًا علي فلاطفته وقلت له: إنما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فأذن لي

(١) يعني لكونه مسلمًا والروم لا يتركون المسلم في بلدهم في ذلك الوقت. منه عفي عنه.

وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها الصوم وأعطت بنته أكثر منهن وكستني واركبتني واجتمعت لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة.

ثم ذكر سفره إلى القسطنطينية وعوده منها إلى سراي ثانيًا، ثم ذكر سفره منها إلى خوارزم وقال في وصف خوارزم: وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج موج البحر وهذه المدينة في طاعة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلوتيمر وهو الذي عمر المدرسة بها وما معها من المواضع المضافة إليها وأما المسجد الجامع فعمرته زوجته الصالحة ترابك ولم أر في الدنيا أحسن أخلاقًا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسًا ولا أحب للغرباء وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلوتيمر من أهل السنة وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامراته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة اهـ. ما تعلق غرضنا به في هذا المحل منتخبًا ومن أراد التفصيل فليراجعها.

قال القاضي محيي الدين بن فضل الله العمري^(١) في المسالك: وحدثني الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن هذا السلطان أوزبك غير ملتفت من أمور مملكته إلا إلى جمليات الأمور دون تفصيل الأحوال يقنع بما يحمل إليه ولا يفحص عن وجوهه في القبض والصرف ويلبس بدلة قماش كاملة وتخلع التي كانت عليه من يتفق ممن حوله وقماشه ليس بفائق الجنس ولا غالي الثمن وهو مسلم حسن الإسلام متظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة محافظ على إقامة الصلاة ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقاصدين له وليست يده مبسوطة بالعطاء ولو أراد ذلك لما وفى له به دخل بلاده وفي سلطان مملكته طوائف الجركس والروس والأص وهم أهل مدن عامرة أهلة وجبال مشجرة مثمرة ينبت عندهم الزرع ويدر الضرع وتجري الأنهار وتجني الثمار ولا طاقة لهم بسلطان هذه البلاد يعني بلاد بركة وهو أوزبك وهم معه وإن كانت لهم ملوك كالرعايا فإذا داروه ببذل الطاعة والتحف والظرف كف عنهم وإلا شن عليهم

(١) محيي الدين بن فضل الله العمري: تقدمت ترجمته.

الغارات وضايقتهم بالحصار وأنواع المضايقات وكم مرة قتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض فكل من يجاورونه ومن الملوك يدارونه لعظمة سلطانه عليهم وأخذة بخناقهم لقربهم منه .

قال: والقسطنطينية مجاورة لأطراف ممالك القفجق وهم مع ملك الروم في طلب دائم واقتراحات متعددة في كل وقت وملك الروم مع توفد جمهرته وكثرة حماته وأنصاره يخاف سطوته وبطشته ويتقرب إليه بالمداراة ويدافع مع الأيام من وقت إلى وقت وما زالت تلك حالهم مع ملوك هذه البلاد من أبناء چنكزخان منذ استولوا على تلك الناحية ودبروا أمورها ولا تخلو بينهم مدة من تجديد عهود ومسالمة إلى مدة توجل بينهم على أشياء تحمل من جهة الروم إلى الخان بمملكة القفجق.

وقال في موضع عند بيان قياصرة الروم: وأما الآن فقد أذل الله لملوك خوارزم وقفجق رقابهم وسهل صعابهم ومد ملك هذا السلطان أوزبك خان سامهم الهوان وقرر عليهم القطيعة حتى صار أحد سلاحهم الهرب وبذل الطاعة وإعطاء السلب اهـ.

وبالجملة: إن هذا السلطان عظيم الشأن كان من أكابر ملوك التتار في تلك الديار ونال من الاشتهار في جميع الأقطار اشتهار الشمس في نصف النهار ولهذا قيل لتلك البلاد بلاد أوزبك ومملكة أوزبك بعدما انتسبت برهة من الدهر إلى قفجق وجوجي خان وبركة خان وغلبت هذه النسبة على غيرها حتى قيل لرعاياه أيضًا أوزبك وصار هذا الاسم علمًا لها لهذا الجبل بسبب غلبة استعماله وكثرة أسفار هذا السلطان إلى طرف بلاد آذربيجان وخراسان وحروبه ووقائعه الكثيرة الشهيرة مع بني هلاكو وكثرة قولهم جاء الأوزبك هجم الأوزبك وبقي هذا الاسم علمًا لسكان تلك الديار قاطبة عند الأجانب مدة ثم لما هجم الملوك الشيبانيين من ذلك الفخذ إلى ما وراء النهر واستخلصوا تلك الديار من أيدي أولاد الأمير تيمر واستقروا هناك غلب عليهم هذا الاسم ونسي عمن سواهم لما أن الشهرة والأمور العظام متلازمان ثم أطلق هذا الاسم بمرور الزمان على كافة من بما وراء النهر وفرغانة من الأتراك واختص بهم والاستعمال إلى الآن على هذا.

قال أبو الغازي خان الخوارزمي الچنكزي^(١) في تاريخه المسمى شجرة الترك ما معربه: أن السلطان أوزبك خان كان ينعم على كل شخص ويكرمه ويحترمه على

(١) أبو الغازي خان الخوارزمي الچنكزي: هو أبو الغازي محمد بن بهادر خان بن عريشاه، من ملوك التتار بخوارزم توفي سنة ١٠٧٤ هـ. تقدمت ترجمته.

حسب مرتبته ومنزلته وقد أدخل جميع قومه في دين الإسلام وتشرف جميع قومه بسبب صاحب الدولة هذا بشرف الإسلام ثم قيل لمملكة جوجي مملكة أوزبك وكذلك يقال ذلك إلى يوم القيامة وكان ذا عدل وإنصاف اهـ.

وقال في النجوم الزاهرة: ولم يلبس أوزبك خان بعد أن أسلم السراقوجات وصار يلبس حياصة من فولاذ ويقول لبس الذهب حرام على الرجال.

ذكر المواصلة والمراسلة بين السلطان أوزبك محمد خان وملوك مصر

وقد تقدم أن الملك الناصر لما استتبأ رسله أرسل رسولين بعدهما وهما علاء الدين الايدوغدي البابغلي وعلاء الدين طنبيغا الكرموني وأنها صادفا الرسولين المتقدمين الخاص تركي والخاندار بقمر وأن الخاص تركي ورفيقه وصلا إلى الأبواب الشريفة السلطانية في السنة المذكورة وأن المرسلين المذكورين أعني الايدوغدي ورفيقه تقدما إلى كرنا موضع وفاة الملك طقطاي.

قال البدر العيني وغيره: وتقدم البابغلي والكرموني إلى كرنا وهو الموضع الذي مات فيه طقطاي واجتمعا بأوزبك خان الذي جلس موضع طقطاي وبنائبه قطلقتيمر وجهاز معهما من جهته رسولا اسمه منغوش كان قد ورد إلى الأبواب الشريفة من جهة طقطاي دفعة أولى وأرسل قطلقتيمر معه رسالة يعرض فيها على السلطان الصلة بينهم والخطبة له على بنت برلك أخي الملك طقطاي. ثم قال: وفيها يعني في سنة ٧١٤ وصل إلى الأبواب الشريفة الرسل الذين كانوا ببلاد التتار بالشمال وهما رسولا الباب العزيز المتقدم ذكرهما ومعهما منغوش رسول الملك أوزبك خان صاحب البلاد الشمالية وأبلغوا الرسالة وفاوض منغوش السلطان بما أشار إليه قطلقتيمر من أمر الزواج والصلة فحسن ذلك بخاطر السلطان الملك الناصر وحصل للرسول المذكور إكرام زائد ثم جهزه وسفر معه رسولين من الباب العالي وهما سيف الدين أروج وحسين بن صارو وتردد الحديث في أمر المخطوبة وإحضارها فلما وصلا إلى أوزبك واجتمعا به أبلغا الرسالة وأوصلا الهدية ثم أعادها وجهاز من عنده رسولا نذكرهم في السنة الآتية إن شاء الله تعالى اهـ. ومثله في تاريخ ابن دوقمق باختصار.

وقال النويري: فيها يعني في سنة ٧١٣ وفي يوم السبت سادس وعشري ذي الحجة وصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل رسل الملك أوزبك الجالس على

كرسي المملكة بسراي وما معها وهي ملكة بيت بركة ومعهم رسل الأشكري على العادة فأنزل رسل الملك أوزبك بمناظر الكيش وشملهم الإحسان السلطاني اهـ. ومثله في تاريخ المفضل وعبارته: وفيها يعني في سنة ٧١٣ في سادس وعشري ذي الحجة وصل إلى الديار المصرية رسل الملك أوزبك خان الذي جلس موضع الملك طقطاي وكانوا مائة وأربعة وسبعين نفرًا فأنزلوهم بالكيش ونزل صحبتهم رسل الملك الأشكري اهـ.

وقال الحافظ المغلطي: وفي يوم السبت سادس وعشري ذي الحجة سنة ٧١٣ وصلت رسل أوزبك صاحب بلاد القفجق وهم جماعة كبيرة عدتهم مائة وأربعة وسبعون نفرًا وصحبتهم رسل الملك الأشكري وكان عند أوزبك رسل صاحب مصر وهم نفران من مقدمي الحلقة وهما طنبيغا الكرموني وتوفي هناك وعلاء الدين الايدوغدي وحضر صحبتته الرسل الواصلين بعد ما أقام هناك عشرين شهرًا وأقام في البحر صحبة الرسل المذكورين سبعة أشهر واستحضرهم مولانا السلطان يوم الاثنين ثامن وعشري ذي الحجة اهـ.

وقال الصلاح الصفدي^(١): وفي خامس عشر ذي الحجة سنة ٧١٣ حضر المنغوش ومن معه من رسل أولاد بركة وهم في جمع كبير ونزلوا بالكيش مدة شهر وتوجهوا إلى بلادهم أول شهر المحرم سنة ٧١٤ اهـ. وفيه ما لا يخفى. وقال

(١) الصلاح الصفدي: هو خليل ابن الأمير عز الدين أبيك بن عبد الله الأتكي، صلاح الدين، أبو الصفاء الصفدي ثم الدمشقي، ولد سنة ٦٩٦ هـ، وتوفي سنة ٧٦٤ هـ، من تصانيفه: «أعوان النصر في أعيان العصر» في التاريخ والتراجم، «ألحان السواجع بين البادي والراجع»، «تذكرة الأديب»، «تصحيح التصحيف وتحريير التحريف» في اللغة، «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون»، «التنبية على التشبيه»، «جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة»، «جنان الجناس»، «حسن التصريح في مائة مליح»، «حلى النواهد على ما في الصحاح من الشواهد»، «خلع العذار في وصف العذار»، «رشف الزلال في وصف الهلال»، «رشف الرحيق في وصف الحريق»، «رموز الشجرة النعمانية»، «صرف العين عن صرف العين في وصف العين»، «طرد السبع عن سرد السبع»، «عبرة اللبيب بعثرة الكثيب»، «الغيث المنسجم في شرح لامية العجم»، «فض الختام في التورية والاستخدام»، «لوعة الشاكي ودمعة الباكي»، «نجد الفلاح في مختصر الصحاح للجوهري»، «نصرة الناشر على المثل السائر»، «نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم»، «نكت الهميان في نكت العميان» في التاريخ والتراجم، «الوافي بالوفيات» في التراجم ذيلًا على وفيات الأعيان لابن خلكان. وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٣٥١ - ٣٥٢).

النويري: في موضع آخر: ووصلت رسله يعني أوزبك خان إلى أبواب مولانا السلطان الملك الناصر سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وغيرها من الممالك الإسلامية وكان وصولهم في ذي الحجة سنة ٧١٣ وصحبتهم من التقدام لمولانا السلطان ما لم تجر بمثله عادة وكان في جملة رسالته أنه هنا مولانا السلطان الملك الناصر باتصال الإسلام من الصين إلى أقصى بلاد المغرب وقال: إنه كان قد بقي في مملكته طائفة على غير دين الإسلام فلما ملك خيرهم بين الدخول في دين الإسلام أو الحرب فامتنعوا وقاتلوا فأوقع بهم وهزمهم واستأصل شأفتهم بالقتل والأسر وجهز إلى مولانا السلطان عدة من سبائهم فأعاد مولانا السلطان رسله صحبة رسله وأنهم عليهم وأرسل معهم الهدايا الوافرة اهـ. ففيما ذكره العيني وابن دوقمق الذي هو مأخذه نوع مسامحة كما لا تخفى والصواب ما ذكره غيرهما.

وقال الحافظ المغلطي: في يوم الخميس مستهل المحرم سنة ٧١٤ طلع الرسل المذكورين وعليهم الخلع جميعهم وفي يوم الثلاثاء العشرين من محرم أفرج عن بلوغي الصغير بشفاعة أوزبك وفي يوم الأربعاء سادس صفر سافرت رسل أوزبك وتوجه صحبتهم الأمير سيف الدين أروج أمير طبلخانات والحسام حسين بن صارو من مقدمي الجهة اهـ وهذا هو الصواب وما ذكره الصفدي سبق قلم كما لا يخفى.

ذكر عود هؤلاء الرسل من عند الملك أوزبك

قال النويري وفيها: (يعني في سنة ٧١٥) في العشر الأخير من شهري رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أوزبك وهم الأمير سيف الدين أروج وحسام الدين حسن بن صارو وصحبتهم رسل الملك أوزبك فتوجه رسل السلطان إليه إلى الصيد ومثلوا بين يديه وعاد السلطان إلى قلعة الجبل بعد أن قضى من الصيد وطراً وكان وصوله في عشري شوال واستحضر رسل الملك أوزبك ورسل الملك الأشكري ورسل صاحب ماردين وسمع رسالتهم وسير إلى الملك أوزبك من الأمير علاء الدين ايدوغدي الخوارزمي وحسين بن صارو وأرسل صحبتهما الهدايا والتحف اهـ. ومثله في تاريخ المفضل. وقال فيه: ثم جهزم يعني رسل الملك أوزبك وسير معهم تحفاً كثيرة وهدايا من كل نوع وسير من جهته الأمير علاء الدين الأيدوغدي الخوارزمي وحسام الدين حسين بن صارو إلى البلاد القفقافية في البحر اهـ. ومثله في الصفدي مع التحريف.

وقال ابن دوقمق فيها: (يعني في سنة ٧١٥) رجعت رسل السلطان من بلاد أوزبك وهما سيف الدين أروج وحسام الدين حسين بن صارو وصحبتهما رسل الملك أوزبك وهم بكناي وتلابغا وعلي بن بكار وآينا خواجا وعمر القرمي فأما علي بن بكار فإنه مات بالبحر قريبًا من إستانبول عند قلعة يقال لها كليبولي وأما بقيتهم فوصلوا إلى الأبواب الشريفة ووصل في صحبتهم رسل الملك الأشكري صاحب القسطنطينية وأنزل كل منهم في الأماكن التي جرت بها العادة وأجريت عليهم الضيافات وسئل رسول الأشكري دستور الزيارة المقدس الشريف فأجيب وتوجه زائرًا وعاد وانقضت هذه السنة وهم مقيمون اهـ.

وقال المغلطي: وفي يوم السبت سادس شوال سنة ٧١٥ وصل رسل أوزبك وهم مائة وسبعون نفرًا ووصل رسل الأشكري وفي يوم السبت العشرين من شوال طلع الرسل القلعة وأحضروا في الديوان وفي يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة طلع رسل أوزبك والأشكري وقت العصر ودخلوا القصر وودعوا ونزلوا وسافروا عشية الاثنين تاسع عشر وسافر صحبتهم آيدوغدي الخوارزمي وحسين بن صارو اهـ.

وقال ابن دوقمق وفيها: (يعني في سنة ٧١٦) رسم السلطان بتفسير رسل أوزبك الواصلين في السنة الماضية ورسل الأشكري وجهاز السلطان رسلاً من جهته وهم علاء الدين آيدوغدي الخوارزمي وحسين بن صارو وبطرك الملكية المسمى اغريغوريس ومعهم من أنواع الهدايا والتحف والقماش والعدد شيء كثير ومن الخيل اثني عشر فرسًا مسرجة وكان سفرهم من الاسكندرية في أواخر محرم اهـ. فبين قول المغلطي وابن دوقمق نوع مخالفة وميل القلب إلى قول المغلطي والله سبحانه أعلم.

وقال ابن دوقمق في بيان حوادث السنة المذكورة: وقيل إنه لما مات خربنده وكان موته في تلك السنة أرسل جويان^(١) للملك أوزبك ببلاد الشمال يحسنه التوجه إليه ليسلم إليه الملك فاستشار أوزبك قطلقتيمر مدير مملكته فأشار عليه أن لا يفعل

(١) هذا وزير السلطان محمد خربنده أحد الأعلام العقلاء النصحاء أجرى عين زبيدة إلى مكة بواسطة غلامه بازان ولذا سمي عين مكة التي بمروة بازان ثم سري هذا الاسم إلى غيرها وقت أيام السلطان أبي سعيد ودفن بالبقيع بموجب وصيته بعد أن طيف بجنازته البيت وحمل إلى عرفات وربما يقع له ذكر هنا أيضًا استطرادًا رحمة الله تعالى. منه عني عنه.

وأنة إن صار إلى خراسان خرجت المملكة الشمالية من يده واستولى عليها غيره وربما تعذر عليه أمر المملكة الأخرى فيفوته كلاهما فوقف عند رأيه وأقام بمكانه ثم قال في بيان عودة رسل ملك مصر من عند الملك أوزبك ومجيء رسله ورسول الأشكري إليه: وفيها (يعني في سنة ٧١٧) كان عود رسل السلطان من عند أوزبكخان وصاحب القسطنطينية وهم آيدوغدي الخوارزمي وحسين بن صارو وبطرك الملكية وصحبتهم رسل أوزبك وهم شريك وهو مقدم تومان وبغرطاي وقرطق وعمر القرمي ورسول الأشكري وهم خادمه الذي هو كبير بينه وخصيص خدمته ميخايل الأبرر كايتمانوس وهذا الاسم بالرومي يدل على وظيفته عند ملكه والثاني يوحنا والثالث تادروس ومثلوا بالمواقف الشريفة وأبلغوا رسالات مرسلهم وقدموا هديتهم وكان هدية أوزبك ثلاث سنافر وست ممالك وزردية وخوذة فولاذ وسيف ولم يرسل أحد قبله من ملوكهم نظير ذلك لأن من عادتهم الاقتصاد وإنما هذا القدر لعظمة السلطان في نفسه وكان السلطان قد أرسل له مائتا عدة كاملة ما بين جوشن وخوذة وخلعة كاملة التحتاني أطلس أحمر مزركش وشاش كافور وبغلطاق فوقاني مفتوح مقصب مخفف بطرز ذهب وكلوثة ذهب وخياصة ذهب وخيل مسرجة ملجمة بذهب وسيف محلى بالذهب ومن الخيل فرس سرجه ولجامه مرصع بالجواهر الثمين فسمع السلطان رسالة رسله وأقاموا إلى أن جهز من يسافر صحبتهم وتوجه رسل الأشكري إلى القدس الشريف وعادوا وعين من الأبواب الشريفة رسولان أطوجي من أمراء الطبليخانات وبيرام خواجه أمره السلطان عند تعيينه للرسولية فأعطاه إمرة عشرة وكان مفرديًا اهـ.

وقال وفيها (يعني في سنة ٧١٧): في آخر شعبان وصل إلى ثغر الإسكندرية مركب من بر القفجق من عند الملك أوزبك خان وفيه رسله وصحبتهم مائتا جارية وثلاثمائة مملوك وغير ذلك اهـ. وفي هذا مخالفة لما مر ولعل هذه المرة غير تلك المرة والظاهر أن هذه الأرقاء للتجارة لا للهدية والله سبحانه أعلم.

وقال النويري: وفي هذه السنة (يعني سنة ٧١٧) في شهر رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أوزبك وهم الأمير علاء الدين الآيدوغدي الخوارزمي ومن معه وصحبتهم رسل الملك أوزبك فمثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس رابع الشهر وكان السلطان قد خطب إلى الملك أوزبك امرأة من بنات المملوك من البيت الچنكزخاني وبعث مع رسله هدية طائلة جليلة المقدار فلما جاءت الرسل اشتطوا في المهر فطلبوا مائة طمان من الذهب والاطمان عشرة آلاف دينار فيكون جملة ذلك ألف

ألف دينار وألف ألف فرس وألف ألف عدة كاملة للحرب وغير ذلك واشتروا أن يحضر لتسلمها جماعة من الأمراء الأكابر ونساؤهم وغير ذلك من الشروط التي لا يمكن الإجابة إليها فنزل السلطان عن هذه الخطبة ونزل عنها إلى ما جرت به العادة من المكاتبات بينه وبين الملك أوزبك ثم كان إرسال المخطوبة من غير استدعاء من السلطان والصلة ما سنذكره اهـ.

وقال المغلطي: وفي يوم الأحد تاسع وعشري شعبان سنة ٧١٧ وصلت رسل أوزبك وصحبتهم آيدوغدي الخوارزمي وحسين بن صارو الدين توجهوا في ذي الحجة سنة ٧١٥ وفي ثاني صفر سنة ٧١٨ سافرت رسل أوزبك وسافر صحبتهم اطوجي أمير طبلخانان^(١) وبيرام خواجه مقدم الحلقة^(٢) اهـ.

(١) أمير طبلخانان: قال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/٤: الطبلخانة ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمر علم. وأمراء الطبلخانة عدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً، قال في مسالك الأبصار: وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً.. ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين، وهذه الطبقة لا ضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخانة فجعلت إمرتي عشرين أو أربع عشرات، أو ضم بعض العشرات ونحوها إلى جعلت طبلخانة، ومن أمراء الطبلخانة تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال، وأكابر الولاية (انظر صبح الأعشى ١٣/٤ - ١٥).

(٢) مقدم الحلقة: قال في صبح الأعشى ١٦/٤: أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم، بواسطة النزول عن الإقطاعات، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع إليه. قال في مسالك الأبصار: ولكل أربعين نفساً منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت موافقهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه. انتهى.

وهناك اختلاف على مصدر كلمة «حلقة»، فكأترمير يقول: إن الجيش المملوكي سمي بأجناد الحلقة لأنه كان يحيط بالسلطان، وبوليائك يعتبر أن الاسم جاء من نظام الفروسية التركي بحيث إن الأجناد كانوا يحيطون بالأعداء. والمهم أن أجناد الحلقة كانوا يعتبرون قلب الجيش المملوكي. والواضح أن أجناد الحلقة تألفوا من بعض السيفية والقرانيص وأولاد السلاطين بالإضافة إلى بعض المتعممين والعرب والأكراد، وفي وقت متأخر من العصر المملوكي برزت فئة ثالثة من المماليك هي ممالك الأمراء وأصبحت أساسية في الجيش المملوكي (المقرزي ٢/ ٢١٥ وما بعدها).

ولكمال الصليبي في كتابه «منطلق تاريخ لبنان» ص ١١٩، تعريف مختلف تماماً لأجناد الحلقة وطبيعة تكوينهم ودورهم إذ يقول: وجند الحلقة في عرف دولة المماليك هم رديف من الفرسان الأحرار أي من غير المماليك تنتقيهم الدولة من بين العناصر المحلية في مختلف المناطق للمساعدة في الحفاظ عليها، وبذلك هم تكوين مشابه «للمليشيا» في عصرنا الحديث.

وقال ابن دوقمق وفيها: (يعني في سنة ٧١٨) سفر السلطان رسل الملك أوزبك الذين جاؤوا صحبة علاء الدين الأيدووغدي الخوارزمي وحسين بن صارو ورسل الملك الأشكري وجهاز صحبتهم من الأبواب الشريفة اطوجي السلحدار وبيرام خواجه وأصبحوا من الهدايا النفيسة ما يليق بالملوك الكبار اهـ. ومثله في المقريزي وزاد فيه قوله وأعيدوا مع الأمير سيف الدين بيرام خواجه بهدية قيمتها عشرة آلاف دينار اهـ.

ذكر تزويج حضرة الملك أوزبك محمد خان كريمة من بنات أقربائه أولاد چنكزخان للملك الناصر السلطان محمد ابن الملك المنصور السلطان قلاوون الألفي القفچقي الأصل سلطان مصر والشام وسائر بلاد الإسلام. قد أكثر المؤرخون الكبار ذكر هذا التزويج في تواريخهم إجمالاً وتفصيلاً إطناباً واختصاراً واعتنوا بشأنه كما تقدم ذكر بعض مقدماته ولا علينا الآن أن نجمع أقوالهم هنا فإن المقصود من هذا الجمع ذكر أحوال ملوك تلك الديار وحيث فاتنا أخبار أمورهم العظام لعدم تاريخهم المخصوص بهم فلا نفوت ولا نضيع^(١) ما ذكره الكبار ولو كان في حد ذاته من جملة الأمور الصغار.

فأقول: وبالله التوفيق ويده أزمة التحقيق: قد مر أن قطلقتيمر نائب السلطان أوزبك هو الذي أشار بذلك على رسل الملك الناصر في أوائل سلطنة السلطان أوزبك ولا شك إن جل قصده بذلك تأكيد المحبة ودوام المودة والمواصلة بين هذين الملكين بحصول نسبة المصاهرة بينهما فيكونان كشيء واحد يعاضد أحدهما الآخر ويعاونه في النوائب وينصره في محاربة الأعداء وجهاد الكفار لإعلاء كلمة الله الملك العجبار لا غيره من الأغراض العديمة الاعتبار وإن أوماً إلى ذلك قول ابن خلدون لها أنا أذكر هنا قوله والناقد بصير صاحب استبصار.

قال ابن خلدون كانت بين ملوك التتار من بني جوجي وبني هلاكو من الجانيين وقائع متعددة وحروبهم فيها سجال وربما غلب المسلمون (يعني أهل مصر والشام) وقت الفتنة بين دولة جوجي وبين بني هلاكو ولبعدهم (يعني دولة الإسلام أهل مصر والشام) عن فتنة بني جوجي لتوسط الممالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام كانت

(١) كيف لا نذكره مع أن أرباب الجرائد في عصرنا كيف يحررون فصلاً طويلاً في كيفية تزوج بعض دوق ودوقة أوروبا ويعتنون بشأنه أليس أجدر بنا أن نعني بشأن زواج أمثال هؤلاء الملوك العظام منا. منه عفي عنه.

تقع لهم الصاغية إليهم وتتجدد المراسلات والمهاداة^(١) بينهما في كل وقت ويستحث ملوك الترك (يعني الذين بمصر) ملوك سراي من بني جوجي على فتنة بني هلاكو والإجلاب عليهم في خراسان وما وليها من حدود مملكتهم ليشغلوهم (يعني بني هلاكو) عن قصد الشام ويأخذوا بحجزهم عن النهوض إلى بلاد الإسلام وما زال ذلك دأبهم من أول دولة الترك (يعني بمصر) وكان رغبة بني جوجي خان في ذلك أعظم يفتخرون به على بني هلاكو (هذا على زعم هذا المؤرخ الشهير)^(٢) ولما ولي سراي الملك أوزبك من بني جوجي خان سنة ٧١٢ وكان له نائب ببلاد قرم قطلقتيمر وفدت إليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطلقتيمر بالصهرية مع السلطان ببعض نساء ذلك البيت على شريطة الرغبة من السلطان في ظاهر الأمر والتمهل منهم في إمضاء ذلك وزعموا أن ذلك عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك وردد الرسل والهدايا أعوامًا ستة إلى أن استحکم ذلك بينهم وبعثوا إليه المخطوبة طلنباش بنت طغاجي من بني جوجي سنة ٧٢٠ مع كبير المغل وكان مقعدًا يحمل على الأعناق ومعهم جماعة من أمرائهم وبرهان الدين إمام أوزبك ومروا بالقسطنطينية فبالغ الأشكري في إكرامهم يقال: إنه أنفق عليهم ستين ألف دينار وركبوا البحر من هناك إلى الإسكندرية ثم ساروا بها إلى مصر على عجلة وراء ستور من الذهب والحريز يجرها أكديش يقودها اثنان من مواليتها في مظهر عظيم من الوقار ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان آرغون وبكتيمر الساقى في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان وأدخلت الخاتون إلى القصر واستدعى ثالث وصولها القضاة والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم إلى الجامع بالقلعة وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد أن خلع عليهم وانعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل أوزبك وانقض ذلك المجمع وكان يومًا مشهودًا اهـ بعبارة.

وقال النويري والعيني والمفضل وابن دوقمق والمقريزي وغيرهم يتداخل ألفاظ بعضهم بعضًا: ذكر وصول الخاتون دلنبيه وقيل طولونية وقيل طلنباي وقيل طلنباش بنت طغاجي بن هندو بن بكو بن جوجي قاله ابن دوقمق والعيني وابن خلدون وقال

(١) وقد عرفت مما سبق أن أول مراسلاتهم كان في عهد الملك الظاهر بيبرس والملك بركة فتذكر منه عفي عنه.

(٢) وقد جعل مراسلتهم لهذا الغرض ولبعد مملكتهم فزنه بميزان عقلك مع ملاحظة المعاملات السابقة واللاحقة. منه عفي عنه.

ابن خلدون في ترجمة الملك أوزبك بنت برلك أخي الملك طقطاي وكذلك في تاريخ العيني في^(١) محل آخر والله أعلم أيهما أصح في سنة ٧٢٠ قد ذكرنا أن السلطان قد خطب لأوزبك ملك التتار بنتًا من الذرية الچنكزخانية وجهاز لذلك آيدوغدي الخوارزمي كما تقدم في سنة ٧١٦ فلما قرأ كتاب السلطان قال الترجمان للرسول لما أراد أن يتكلم بالمشافهة أن القآن يقول: إن كان في مشافهتك غير السلام فخطب به الأمراء ثم جمع الأمراء مقدمي التمانات وهم سبعون أميرًا فكلمهم الرسول في ذلك فنفروا منه وقالوا: هذا لم يقع مثله قط فيما تقدم من حين ظهور چنكزخان إلى هذا الوقت وفي مقابلة ماذا تجهز ابنة من الذرية الچنكزخانية إلى الديار المصرية وتقطع سبع بحور ونحو هذا من الكلام ولم يوافقوا على ذلك في أول يوم ثم اجتمعوا في يوم آخر بعد أن وصلت إليهم هداياهم التي جهزها السلطان إليهم فأعيد الحديث في ذلك فأجابوا إليه وسهلوه^(٢) وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك وملك مصر ملك عظيم تعين إجابته إلى ما طلب إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين سنة كلام وسنة خطبة وسنة مهادة وسنة زواج واشتطوا في طلب المهر والشروط، فلما وصل ذلك إلى السلطان رجع عن الخطبة والحديث فيها، وتكررت رسله إلى الملك أوزبك وأرسل الملك أوزبك إليه والسلطان لا يذكر أمر الخطبة ولا تتضمن رسائله غير السلام وإظهار المودة على العادة ثم لما توجه الأمير سيف الدين أطوجي من جهة السلطان أوزبك خان في سنة ٧١٨ كما مر بالهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة مكللة وامثل بين يديه لبسها الملك أوزبك ثم ابتداء هو للأمير سيف الدين أطوجي المذكور يذكر الزواج وقال: إن أخي السلطان الملك الناصر قد خطب إلي امرأة من الذرية الچنكزخانية فإن لم أجب إلى ما طلبه ينكسر خاطره فقد جهزت له ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الچنكزخاني من نسل الملك بركة بن جوجي. فقال أطوجي: إن السلطان لم يرسلني في هذا الأمر وهذا أمر عظيم لو علم السلطان بوقوعه لجهز

(١) وقد تقدم ذلك منه في أول بيان هذا الأمر. منه عفي عنه.

(٢) لعن المال هذا صنيعه وقد ذم الكافور الأخشيدي واعظ فلما أرسل إليه شيئًا من ميراث قارون مدحه بأحسن مدح والله در الزمخشري حيث يقول في مثل هذا شعر:

فإذا رأيت صعوبة في مطلب فاحمل صعوبتها على الدينار
وابعته فيما تشتهييه فإنه حجر يلين سائر الأحجار

منه عفي عنه.

لهذه الجهة المعظمة ما يليق وما يصلح لها وأراد بذلك دفع الأمر إلى وقت آخر فقال الملك أوزبك أنا أرسلها إليه من جهتي فما وسع الرسول إلا مقابلة أمره بالسمع والطاعة فلما استقر هذا الأمر قال الملك أوزبك: احمل مهر هذه الجهة فاعتذر بأنه لا مال معه فقال نحن نأمر التجار أن يقرضوك ما تحمله فأمرهم بذلك فاقترض عشرين ألف دينار عينًا وحملها ثم قال له: إنه لا بد لها من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين فاقترض مالا آخر قليل سبعة آلاف دينار وعمل الفرحة وجهزت الخاتون وصحبها جماعة من الرسل وهم ايتغلي وطقبيغا ومنغوش وطرجي وعثمان خواجه وكبيرهم باينجار وهو من كبار المقل وبه زمانة لا يستطيع المشي وإنما يحمل عند ركوبه ونزوله وكان معهم اثنان آخران فماتا في الطريق وهما بيكتيمر وقرطق وصحبتهم إمام الملك أوزبك خان واسمه الشيخ برهان الدين ومعهم قاضي سراي أيضًا وعدة من الخواتين ومائة وخمسون رجلاً غير المذكورين وستون جارية وقيل ألف مملوك ما بين جوار وعبيد وقيل ثلاثة آلاف^(١) والله أعلم. ومعهم هدية سنوية فتوجهوا من جهة الملك أوزبك وركبوا البحر في ثاني شهر رمضان سنة ٧١٩ وحصل لهم مشقة عظيمة في الطريق وطال مدتهم وذلك فإنهم أقلعوا في زمن الخريف فلم يوافقهم الريح فأقاموا في بر الروم على مينا ابن منتشا خمسة أشهر.

وبالغ المذكور في خدمتهم وإكرامهم وكذلك فعل الأشكري صاحب القسطنطينية فإنه بالغ في إكرامهم ووسع لهم في الإقامة والإنزال وأنفق عليهم جملاً من الأموال فإنهم ومن معهم من اتباع الخاتون وإلزامها ومماليكها جماعة كثيرة فوق أربعمائة نفر وأقاموا في بلاده مدة. ويقال: إن جملة ما أنفقه عليهم ستون ألف دينار، وجهز معهم رسلاً من جهته فوصلوا إلى ثغر الإسكندرية في العشر الأخير من ربيع الأول سنة ٧٢٠ ولما طلعت الخاتون من المركب جعلت في خركاه مذهبة على العجلة وجرها المماليك إلى دار السلطنة بالإسكندرية وأجريت لهم الإقامة المتوفرة وجهز السلطان إلى خدمتها الأمير أقبا عبد الواحد في عدة من الأمراء والحجاب وثمانية عشر حراقة فركبت الخاتون في الحراقة الكبرى السلطانية وركب بقية من معها في بقية الحراريق.

(١) قال الملك المؤيد أبو الفدا وفي هذه السنة يعني سنة ٧٢٠ في أثناء ربيع الأول وصلت الجهة في البحر إلى الديار المصرية وكان في خدمتها ما يقارب ثلاثة آلاف نفر من رجال ونساء واحتفل بهم إلى غاية ما يكون وأدرت عليهم الإنعامات والصلوات اهـ. منه عفي عنه.

ووصلت الخاتون إلى الساحل المقابل للقاهرة من بحر النيل في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٧٢٠ وفرشت مناظر الميدان السلطاني لنزولها وخرج كريم الدين الكبير وكيل السلطان ومعه عربيات وبخاتي وبغال وضرب الخيام الحرير الأطلس بالميدان ولما وصلت ركب الأمير سيف الدين آرغون نائب السلطنة الشريفة وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الأكابر وتوجهوا إلى خدمتها وحملت من الحراقة في محفة على أكتاف ممالك نائب السلطنة إلى أن استقرت بقاعة الميدان السلطاني وضرب لها أيضًا بالميدان دهليز أطلس معدني كان قد عمل للسلطان ومد لها ولمن معها أسمطة تصلح لمثلها وأجريت عليهم الإقامة فلما كان يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر أحضر السلطان الرسل وهم رسل الملك أوزبك ورسل ملك الكرج ورسل الأشكري فمثلوا بين يديه وأحضروا الكتب والتقاد، ثم أمر السلطان نائبه الأمير سيف الدين آرغون وأمير سيف الدين بيكتيمر الساقى وهو من أخص ممالكه أن يتوجها إلى الميدان وينظرا الخوند الخاتون فتوجها إليه ورأياها فيما بلغنا ثم نقلت إلى قلعة الجبل قيل في اليوم المذكور، قاله النويري: وقيل ليلة السبت سلخ ربيع الأول، قاله ابن دوقمق والمقريري والعيني، محمولة على عجلة داخل حجلة مغطاة بستور الدياتج والأطلس والزريرفت تجرها أكديش^(١) وأحد يقوده اثنان من ممالكها بعنانه على زي بلاد التار وفي خدمتها الأمير سيف الدين آرغون نائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية والأمير بيكتيمر الساقى والقاضي كريم الدين الكبير حتى استقرت بقاعة أعدت لها بقلعة الجبل كان السلطان قد أنشأها ولم يبن في المملكة الإسلامية مثلها.

فلما كان يوم الاثنين الثاني من ربيع الآخر جلس السلطان للرسل وحضر كبيرهم باينجار وكان مقعدًا لا يقدر على القيام ولا المشي وإنما يحمل على المحفة ودخل معه ايتغلي وطقبغا ومنغوش وطرجي وعثمان خواجه والشيخ برهان الدين إمام القان ورسل الأشكري وقد اجتمع سائر الأمراء والأكابر والجيش والعساكر في جمالهم ولباسهم فأجلس باينجار وأخذ منه كتاب أوزبك فبلغ سلام أوزبك وقال: قال أخوك أوزبك أنت سيرت طلبت من عظم القان^(٢) بنتًا فإن لم نسيرها لم يطب خاطرك وقد

(١) اكدش بالفارسية بكسر الهمزة وضم الدال ما تولد بين جنسين مختلفين أو نوعين مختلفين كالفرس المولد بين الفرس العربي والتركي والبغل المولد بين الفرس والحمار ولعل المراد هنا البغل كما صرح به النويري والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) بفتح العين معروف يريد به بمعنى النسل والذرية واردة هذا المعنى من هذا اللفظ معروفة عندهم =

سيرنا لك من بيت كبير فإن أعجبتك خذها بحيث لا يحل عندك أكبر منها وإن لم تعجبك فاعمل بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨] فقال السلطان نحن ما نريد الحسن والجمال وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخي أوزبك وأن نكون نحن وإياه شيئاً واحداً، وبلغه أيضاً برهان الدين مشافهة فمد الخوان وأفيض عليهم من الخلع الحسان نحو خمسمائة خلع وأحضر القضاة والحكام وعقد العقد السعيد في جامع القلعة الجديد وكتب الكتاب وعين فيه المعجل والمؤجل وجملته ستون ألف دينار منها ما قدم وهو عشرون ألف دينار التي تقدم ذكرها وعقد العقد قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة^(١) وقبل العقد عن السلطان بوكالته نائبه الأمير سيف الدين أرغون وخلع على الوكيلين وكيل السلطان ووكيل الخان وعلى القضاة ومن حضر ذلك المجلس وكانت خلعة القاضي كريم الدين فرجيتين إحداهما وهي الفوقانية أطلس أحمر وعليها طرز ذهب مصري فامتنع من لبسها وقال: هذا ما جرى لي به عادة. فقال له السلطان: إنا قد استثنيناها لك وذلك إكراماً له لعلو منزلته عند السلطان وكتب علاء الدين علي بن الأثير كاتب السر صورة العقد بخطه وصورته بعد البسملة: هذا ما أصدقه مولانا السلطان الأجل الملك الكبير الناصر على الخاتون الجليلة بنت أخي السلطان أوزبك خان طلنبية بنت طغاجي الخ. وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً وبنى بها مولانا السلطان في ليلتها وقيل ليلة الجمعة الآتية قالوا: وهذا أمر لم يتفق مثله لأحد من ملوك الترك بالديار المصرية ثم أعاد الملك الناصر الرسل ومن حضر معهم في خدمتها بعد أن شملهم بالإنعام الوافر وجهر معهم الهدايا الجليلة إلى الملك أوزبك وغيره وكان عودهم يوم الأحد ثاني شعبان من السنة المذكورة وتأخر منهم القاضي برهان الدين قاضي سراي^(٢) بسبب الحج فحج وعاد إلى بلاده في سنة ٧٢١ وسافر مع الرسل المذكورين طقصبا الظاهري أمير

= إلى الآن يقولون خان سويافي يعني نسله ويقال سوياكداش. منه عفي عنه.

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني، بدر الدين، أبو عبد الله الحموي الشافعي، قاضي القضاة بمصر، ولد سنة ٦٣٩ هـ، وتوفي سنة ٧٣٣ هـ. من تصانيفه: «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»، «التبيان لمهمات القرآن»، «تجنيد الأجناد وجهات الجهاد»، «تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام»، «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم»، «التنزيه في إبطال حجج التشبيه»، «حجة السلوك في مهادة الملوك»، «غر التبيان في تفسير القرآن»، «كشف الغمة في أحكام أهل الذمة»، «مستند الأجناد في آلات الجهاد»، وغير ذلك (كشف الظنون ١٤٨/٦).

(٢) ولعله الشيخ نعمان الخوارزمي الآتي ذكره بقرينة ما سيأتي. منه عفي عنه.

تبلخانات وقطلوبغا البغدادي أمير عشرة وسيذكر عودهما بعد ذكر ماجريات أوزبك خان مع الملك أبي سعيد إن شاء الله تعالى .

ذكر ابتداء الخلف بين الملك أوزبك خان وبين الملك أبي سعيد خان سلطان العراقين حفيد هلاكو ووقوع الحرب بينهما بعد أن وضع حرب ما بين هاتين الشعبتين أوزارها برهة من الزمان

وخالصة هذه الحروب على ما استفيد من تاريخ ابن خلدون وغيره من كتب التواريخ أنه لما مات السلطان محمد المشهور بخرينده ملك العراقين وأذربيجان في سنة ٧١٦ كما تقدمت الإشارة إليه كان عمر ولده الوحيد السلطان أبي سعيد رحمه الله اثنتي عشرة سنة فاستصغره الأمراء خصوصًا وزيره الأمير الكبير جوبان عليه الرحمة والغفران الذي هو مدبر مملكته فأرسل إلى الملك أوزبك يستدعيه لأن يملكه بلاد العراق أيضًا فامتنع كما مر فأجلسوا السلطان أبا سعيد مع صغره ضرورة لعدم غيره من الذرية الجنكزخانية هناك ولا يجوز عندهم نصب من سواهم عند وجودهم لكونهم بمنزلة قريش الترك كما قال ابن عربشاه فلما استقر في التخت فوض زمام الأمر وتدبير أمور المملكة إلى يده^(١) فاستبد هو وأولاده بالأمور وصاروا يتحكمون في البلاد ويحكمون بما شاؤوا على من شاؤوا من العباد حتى صاروا في الأخير يحكمون على السلطان بنفسه فكرهه سائر الأمراء لذلك وضقت صدورهم بما هنالك وصاروا يكاتبون الملك أوزبك والملك بيسور الذي هو من أحفاد چغطاي وكان يحكم ببعض نواحي خراسان منذ أزمان وكان لا يخلو من الهجوم على بعض حدود ممالك أولاد هلاكو دائمًا وكانت نفسه تحدثه بالاستيلاء على ممالكهم كافة وكان ينتهز الفرصة لذلك. فلما ظهر هذا الأمر الذي هو أقصى مرامه من عالم الغيب من حيث لا يحتسب اغتنم الفرصة ونهض قاصدًا بلادهم حتى استولى في مدة يسيرة على أكثر بلاد خراسان ووصل إلى دامغان ومازندران وكتب إلى السلطان الملك أوزبك يحرضه على الهجوم عليهم من طرف آخر ولا يخفى ما بين هاتين الشعبتين من العداوة الذاتية القديمة ووقوع المحاربات الصعبة بينهما كما مر .

(١) يعني إلى يد الأمير جوبان. منه عفي عنه.

فلما انضم إلى ذلك مكاتبة الأمراء شكاية من الأمير چوپان واستدعاءهم إياه وتحريض الملك ييسور من طرف آخر ووعده المظاهرة تحرك عرق حميته وغلب على ظنه أنه يظفر بمناء فأرسل عساكره إلى بلاد آذربيجان من طرف دربند وشروان في سنة ٧١٨ تحت رئاسة نائبه قطلقتيمر وقيل غيره وإنما أرسل قطلقتيمر لإنجاد ييسور وإمداده والله سبحانه أعلم وكان طائفة من عسكر السلطان أبي سعيد قد تعدوا نهر الكر إلى جانب دربند وشروان برسم الطليعة فلما عبر عسكر أوزبك مضيق دربند ووقع بصر عسكر السلطان أبي سعيد عليهم هربوا منهزمين ولحقوا بسلطانهم الملك أبي سعيد وأنهوا إليه صورة الحال وكيفية الأمر فتوجه بنفسه مع عساكره الموجودة عنده ونزل بساحل نهر الكر من طرف آذربيجان وجاء عسكر أوزبك أيضًا ونزلوا بساحل نهر الكر من طرف دربند وشروان مقابل عسكر آذربيجان ولم يجدوا إلى العبور إلى طرف آخر سبيلًا بسبب ما بالماء من الزيادة والطغيان، فلما استشعر السلطان أبو سعيد بعدم كفاية من معه من العساكر جعل عسكره خطًا مستقيمًا بساحل نهر الكر ليريهم كثيرًا في أعين عددهم وأرسل إلى وزيره چوپان يستدعيه ويأمره باللحوق به مسرعًا وقد كان توجه نحو خراسان لدفع ييسور ومعه أكثر العساكر فلما بلغه هذا الخبر المفجع وأمير ييسور قد كفى حيث كان الأمير حسين الذي كان أولاً مأمورًا بمدافعتة هزمه بمعاونة عساكر عراق انثنى راجعًا إلى الملك أبي سعيد ووصل إليه في أقرب وقت ومعه تمانان من العساكر الجرار فوجد عسكر أوزبك قد رحلوا وتوجهوا إلى بلادهم فإنهم لما عجزوا عن العبور كانوا قد رحلوا بأخذ الغنائم والسبايا من غير قتال ولعل ذلك لما بلغهم من انهزام ييسور وخروجه من أرض مازندران وخراسان.

ويفهم من بعض التواريخ أن سبب ذلك هجوم الشتاء والله سبحانه أعلم وتوجه چوپان مع عساكره من ورائهم فلم يدرکہم.

وقال بعضهم إن الملك أوزبك كان في ذلك العسكر بنفسه وهو غلط فاحش وذكر كثير من المؤرخين أن غارتهم في هذه المرة وصلت إلى موقان.

ولما عاد الملك أبي سعيد والأمير چوپان إلى مستقرهما صارا يفتشان عن الأمراء الذين كاتبوا الملك أوزبك والملك ييسور حيث أكد ذلك هربهم من عسكر أوزبك من غير محاربة وعذابهم بأنواع العذاب وأهانهم غاية الإهانة فلم يبق للأمرء صبر ولا طاقة على ذلك وأعلنوا بالعصيان ورفعوا راية المخالفة فوقع بين الفريقين حرب وقتل من الجانبين الكثيرون ثم انجلت الحرب عن انهزام الأمراء وغلبة السلطان

أبي سعيد فقتل من كبراء الأمراء بعد وضع الحرب أوزارها الأمير ايرنجين وابنه عليشاه وأمه زوجة ايرنجين والأمير قورمشي وانفلت من هذه الحادثة نفران من أولاد قورمشي والتحقا بالملك أوزبك وحكيا له ما فعله السلطان وچوپان بالأمراء الكبراء وشكيا له من استبداد چوپان ومصادرة أولاده وأتباعه حتى رق قلبه لهما وترحم فجهز مقدماً اسمه عيسى كوكرز بثمانى تمانات يعني ثمانين ألفاً وأمرهم أن يدخلوا إلى البلاد قولاً واحداً ويأخذوها أو يموتوا عن آخرهم وجهازهم أيضاً عسكرياً كثيفاً صحبة نائبه قطلقتيمر من طريق خوارزم ليحقق بيسور في خراسان ويستصحب معه عسكريان بن تنجي ملك باميان المار ذكره فتعذر عليهم الوصول وحصل لهم عوائق من الثلوج وضعفت الخيول ووردت الأخبار بوفاة بيسور مقتولاً فإن الأمير حسين الذي كان توجه لقتاله من جهة الملك أبي سعيد اتفق مع كيك خان الجغتاي ملك ما وراء النهر. وكان رقيب بيسور فجمعاً له جموعاً حسب الميسور وقصداه بعساكر وافرة من الجانبين فكانت الدائرة عليه وكان فيها حتفه سنة ٧٢٠ ثم استولى القحط والغلاء على عساكر الجانبين أعني عساكر أوزبك خان وأبي سعيد خان فلم يتفق لهما لقاء في هذه السنة أيضاً فأرسل الملك أوزبك رسلاً إلى الملك الناصر وهم كراي وبلرغي وبغراس فوصلوا إلى مصر في سنة ٧٢٠ بعد وصول الخاتون، وكان مضمون الرسالة الاستنجاد والاستمداد بالملك الناصر على الملك أبي سعيد فلم يجبه الملك الناصر ولم يساعده إلى ذلك لما أنه كان قد استشعر من الملك أبي سعيد والأمير چوپان الميل إلى طرف الصلح فقدمه ورجحه لمنافع المسلمين وأعاد الرسل المذكورين بإقامة العذر ثم أرسل إلى الملك أبي سعيد يعرفه بقصد أوزبك إياه ويوصيه بالتنبيه واليقظ. فلما بلغهم خبر السلطان أوزبك ممالكهم استيقنوا أن الملك الناصر ناصح لهم وأن مودته معهم صحيحة فأرسل چوپان إليه رسلة صحبة مملوك السلامي للشكر والثناء عليه ولتأكيد الصلح بينهم وبينه ومعهم هدايا جلييلة وتحف ومماليك وجوار مما يقرب قيمته خمسين ألف تمان، والتمان هو البدرة وهي عشرة آلاف درهم، ويعرفه أنه قصد ملاقاته عسكرياً ويطلب منه أن يكون خاطره معه وكان ذلك في ذي الحجة سنة ٧٢٠ فكتب الملك الناصر إلى نائبه بحلب أن يكون محترساً على من يدخل إلى ناحية الشام ويتعدى الفرات.

وأما عسكري الملك أوزبك والملك أبي سعيد فتقابلا على طرفي نهر الكر كما في السابق عسكري الملك أوزبك في ساحله الشمالي والملك أبي سعيد في الجنوبي فأقاما متقابلين كذلك شهراً ينتظر كل منهما نجدة من الملك الناصر فلما لم تظهر

النجدة عاد كل منها إلى بلاده بلا قتال قيل عادا بعد وقوع الصلح بينهما وقيل بلا صلح فإن صح الصلح لكنه ما بقي إلا مدة يسيرة.

قال العيني: إن الملك كيك ملك ما وراء النهر اتفق مع الملك أوزبك لمحاربة الملك أبي سعيد في سنة ٧٢٢^(١) وقصدوا بلاد أبي سعيد وأن چوپان توجه نحو خراسان بالجموع لملته في فصل الشتاء وقت جمود البحر الذي بينهما يعني جيحون المشهور بصيرورته جليداً يصلح للمرور ثم لم يذكر بعد ذلك من تلك الحادثة شيئاً. ثم قال وفي سنة ٧٢٣ ورد رسول من الملك أبي سعيد ومعه كتاب منه يتضمن الصلح بين عسكر أبي سعيد وعسكر أوزبك خان وذلك حين كانوا متقابلين على ما مر فانتظم الصلح وزال الشر اهـ.

وقال ابن خلدون: إن الملك أوزبك طلب من الملك الناصر بعد الالتحام بالصهرية المظاهرة على أبي سعيد وچوپان فأجابه إلى ذلك ثم بعث إليه أبو سعيد في الصلح فأثره وعقد له وبلغ هذا الخبر إلى أوزبك ورسل الملك الناصر عنده فأغظ في القول وبعث إليه بالعتاب فاعتذر لهم الناصر بأنهم دعوه لإقامة شعائر الإسلام ولا يسع التخلف عن ذلك فقبله الملك أوزبك ثم وقعت بينه وبين أبي سعيد مرواضة في الصلح بعد أن استرد چوپان ما ملكه أوزبك من خراسان فتوادع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا أوزار الحرب حينئذ من الدهر إلى أن تقلبت الأحوال وتبدلت الأمور.

هذا كلامه في هذا المحل وقال في محل آخر بعد أن ذكر أول تلك الوقائع بالاختصار ثم عزل أوزبك نائبه قطلقتيمر سنة ٧٢١ وولى مكانه عيسى كوكرز^(٢) ثم رده سنة ٧٢٤ إلى نيابته ولم يزل الحرب يعني بعد انتقاض الصلح ثانيًا متصلًا بين أوزبك وبين أبي سعيد إلى أن هلك أبو سعيد سنة ٧٣٦ اهـ. ولم أطلع على تفاصيل تلك المحاربات بل على إجمالها في كتب التواريخ إلا أنه ذكر في روضة الصفا أن السلطان أوزبك أرسل جيشًا في أواخر سنة ٧٣٥ بقصد آذربيجان وأران فتوجه السلطان أبو سعيد بجيشه إلى أران لمدافعتهم قبل استيلائهم على البلاد وذلك في

(١) قلت: هذا وهم فإن الملك كيك توفي سنة باتفاق المؤرخين ولعل ذلك بعض إخوانه قبل تملك طر مشرين والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) وقيل كركز بضم الكافين وسكون الراء المهملة والزاي المعجمة وقال ابن دوقمق: ورسم لقطلقتيمر بالتوجه إلى خوارزم اهـ. ومثله في العيني فعلى هذا ما يكون معنى إعادته وبعبارة غير ابن خلدون تدل صريحًا على أنه استقر بها إلى أن مات كما سنذكر. منه عفي عنه.

أوائل سنة ٧٣٦ فوصل إلى حدود شيروان ثم رجع جمع كثير من عسكره بسبب عفونة الهواء وحرارته وعرضت في تلك الأثناء عارضة قوية لمزاجه يعني السلطان أبا سعيد فتوفي في الثالث عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة.

فلما تولى الملك بعده آرپاخان توجه إلى محاربة عسكر أوزبك فبلغ عسكر أوزبك في تلك الأثناء واقعة قطلقتيمر من طرف خوارزم وكان المذكور ظهر أوزبك فلما بلغهم ذلك رجعوا اهـ. وقال فيه أيضًا: إن الأمير چوپان لما حارب الملك أبا سعيد وانهزم أمامه وتوجه نحو الهرة ملتجأ إلى الملك غياث الدين صاحبها توجه ولده الأمير حسن مع وولده تالش إلى طرف خوارزم فاستقبلهما حاكمها قطلقتيمر بغاية الإكرام وأرسلهما إلى السلطان أوزبك فأكرمهما وأظهر لهما أنواع العناية وأرسلهما مع عساكر كثيرة لمحاربة الجركس فأظهر كل منهما في السفر المذكور كمال الجلادة وتمام الشجاعة وأصيب الأمير حسن فيه بجرح فأكرمه السلطان أوزبك غاية الإكرام ولكنه مات من ذلك الجرح ومات ولده تالش حتف أنفه^(١) اهـ. فدل هذا أن قطلقتيمر كان في الوقت المذكور نائبًا بخوارزم وكان وقعة چوپان سنة ٧٢٨^(٢) وقد صرح ابن بطوطة في رحلته بكون قطلقتيمر بخوارزم حين قدم إليها وفد ذكر كثيرًا من أوصافه الجميلة وكان قدمه إليها على ما يظهر من كلامه حيث لم يصرخ في حدود سنة ٧٣٣ ولم أدر ماذا كانت الوقعة التي ذكرها في روضة الصفا من وقعة قطلقتيمر كما ورد والله سبحانه أعلم. وهذا هو ما اطلعنا عليه بغاية الجهد من وقائع السلطان أوزبك والسلطان أبي سعيد رحمهما الله تعالى. ولنرجع بعد ذلك إلى ذكر ما جرى بين السلطان أوزبك والملك الناصر سلطان مصر.

ذكر عودة طقصبا الظاهري وقطلوبغا البغدادي من عند السلطان أوزبك

مع رسله المرسلين إلى الملك الناصر وماجرياتهم

قد مر في بيان وقائع سنة ٧٢٠ أن رسل أوزبك الذين وردوا مصر مع الخاتون طلنبية عادوا إلى بلادهم يوم الأحد ثاني شعبان من السنة المذكورة وتوجه معهم

(١) قال ابن بطوطة وأما حسن وطالش فإنما قصدا خوارزم وتوجها إلى السلطان محمد أوزبك فأكرم موأهما ونزلهما إلى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلها اهـ والله أعلم بالحقيقة. منه عفي عنه.

(٢) المقصود من ذكر هذه المذكورات بيان بقاء قطلقتيمر نائبًا بخوارزم من طرف أوزبك خان في تلك الأوقات فدل كلام روضة الصفا أولاً على أنه كان نائبًا بها في حدود سنة ٧٢٨ ثم لم تقف بعد ذلك على أثر له. منه عفي عنه.

طقصبا الظاهري و قطلويغا البغدادي رسولين من عند الملك الناصر إلى السلطان أوزبك و وعدنا هناك ذكر عودتهما بعد ذكر ماجريات السلطان أوزبك مع الملك أبي سعيد وقد أتينا إلى منتهى تلك الماجريات وإن كان أكثرها مؤخرًا مما سيذكر بعد ليكون بيان الحوادث متصلًا وحيث فرغنا من بيانها فلا بد من إنجاز ما وعدناه فنقول:

قال النويري وابن دوقمق في ذي القعدة من سنة ٧٢١، وقال العيني والمقريزي وغيرهم: في سنة ٧٢٢ زاد المقريزي مستهل ربيع الآخر والأول أصح عاد رسل الملك الناصر الذين كان أرسلهم سنة ٧٢٠ إلى الملك أوزبك صحبة رسله وهم الأمير سيف الدين طقصبا الظاهري ومن معه وحضر صحبتهم رسل الملك أوزبك وهم منغوش وأروس وأرداچق وطغاي يخشى ومعهم كتاب من الملك أوزبك متضمن لعتاب الملك الناصر فتمثل طقصبا بين يدي السلطان حال وصوله وأخر رسل الملك أوزبك إلى أن عاد السلطان من الصيد وذكر طقصبا أن الملك أوزبك لم يعبا بهم ولا قام بواجبهم وأنه قبل الهدية بجملتها وعند استعراضها أغلظ عليهم حتى خشوا بأسه وبطشه ولم يدعهم يقيمون عنده غير أربعة أيام ومنعهم عن شراء المماليك وأظهر الغيظ على السلطان ولم يسألهم عن حاله على خلاف عادته وأكثر ما خاطبهم بهم مرة واحدة أن قال لهم الملك الناصر طيب قالوا له: نعم فقال: ونحن أيضًا طيبون وبعد ذلك لم يحصل لهم الاجتماع به وسبب ذلك نقض ما أبرمه الملك الناصر من جر العساكر إلى العراق...^(١) أوزبك خان وإنجاد عساكره لاستيصال بني هلاكو وأنه أنام عساكره على نهر الكر شهرًا منتظرًا لظهور النجدة والإمداد حسب وعده فلم يظهر له أثر ولحق بعساكره ضرر كثير اغتزازًا بوعده وأيضًا كان ورد إلى مصر مع الخاتون طلنبية المجهزة من بلاد أوزبك شيخ كبير معظم عند الملك أوزبك يدعى بالشيخ^(٢) نعمان الخوارزمي (وسيجيء ترجمته إن شاء الله تعالى) وكان من قصده أن يحج ثم يزور القدس والخليل ويبنى له مكانًا في القدس وقيم فيه يعبد الله تعالى إلى أن يموت وأعطاه الملك أوزبك مالاً عظيمًا ليفرق بعضه للمجاورين في الحرمين الشريفين ويبنى بالباقي خانقاها في القدس فلما وصل إلى مصر وقع بينه وبين مهمندار الملك الناصر وحشة ورأى من المهمندار

(١) في الأصل كلام غير مقروء، مقدار ثلاث كلمات.

(٢) ولعله هو قاضي سراي المتقدم ذكره. منه عفي عنه.

تقصيرًا في حقه وتنقيصًا فلما قضى إربه من الحج والزيارة وعاد إلى بلده حكى للملك أوزبك ما لقي من مهمندار من الإخراق به والتقصير في شأنه ورضا الملك الناصر بذلك فلما انضم إلى رجوع رسله من عنده خائبي الآمال غضب الملك أوزبك لذلك غضبًا شديدًا ولم يجد ما يسكن غضبه إلا قتل شكران الجنوي التاجر ونهب أمواله بدلاً من تحقير الشيخ نعمان فقتله ونهب أمواله وخيب آماله وسكن به غيظه في الجملة وكان شكران هذا تاجرًا كبيرًا من الإفرنج الجنوبية وكان له حرمة عظيمة عند الملك المظفر بيبرس حتى كان يخاطبه بالأخ وقد مر تخليصه لرسول الملك طقطاي والملك الناصر من أيدي الإفرنج حين أسروهم وقد كان القاضي كريم الدين وكيل السلطان أعطاه ستين ألف دينار وسكرًا وبضاعة سواه تبلغ قيمتها أربعين ألف دينار للمتاجرة في ذلك وتردد بالدفعات إلى الجهات والبلاد وصادف كونه في بلاد أوزبك غضبه ففعل به ما فعل ثم أنفق عقيب ذلك وصول رسل السلطان إليه فعامل بهم أيضًا ما سبق من العمل وادعى أن شكران قتله بعض ملوك الجزائر^(١) وكتب إلى السلطان كتابًا ذكر فيه أن الملك الناصر كان وقد وعدنا أن يجهز عسكريًا من عنده ليكون عونًا لنا على أعدائنا وقد خرجت عسكريًا وأقامت مقابل العدو شهرًا ولم يحضر من عنده عسكري ولم يظهر لوعده أثر فأخلف وعده الذي منه قد ظهر وأيضًا أنه ما مكن الشيخ نعمان أن يعمر معبدًا لله تعالى في القدس وقد أذن عمارة كنيسة بها لملك الكرج. فلما عاد السلطان من الصيد ومثل الرسل بين يديه وسمع مشافهتهم وقرأ الكتاب أمر بإنزالهم إلى مناظر الكبش ولا خلع عليهم على خلاف عاداته ولا عاملهم مثل معاملاته ومنعهم من شراء الرقيق مكافأة لما فعل الملك أوزبك برسله ثم أحسن إليهم وخلع عليهم وأعادهم إلى مرسلهم في العشر الأوسط من ربيع الأول من سنة ٧٢٢ وأرسل معهم رسولاً من طرفه يسمى بهاء الدين قراقوش الظاهري الكوندكي أحد مقدمي الحلقة المنصورة ومعه هدية سنوية وكتاب للملك أوزبك ذكر فيه أن الملك أوزبك لم تطب نفسه بمصالحتنا مع الملك أبي سعيد وأنا لم نصالحه إلا لإسلامه ودخوله ومن معه في الدين القويم فلا يحل لنا منعه من الحج الذي هو أحد أركان الإسلام وأنه يكون عونًا لنا في نصره الدين والإسلام وأما منع الملك عن شراء الرقيق فنحن بحمد الله عن الرقيق في غناء فإن استمررتم على المحبة والصدقة فأنتم الأصحاب والسلام اهـ.

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه ولعله الجراكس والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

ذكر عود هؤلاء الرسل مع رسل من عند السلطان أوزبك

قال الحافظ المغلطي والعيني نقلاً عن ابن كثير^(١) وفي يوم الأحد ثامن عشري ربيع الأول وقال النويري في شهر ربيع الآخر سنة ٧٢٤ وصلت رسل الملك أوزبك متملك سراي والبلاد الشمالية إلى الأبواب الشريفة وهم منغوش واروس وصحبتهم رسل الملك الناصر الذين كانوا توجهوا في السنة الخالية (هكذا قالوا) وهم بهاء الدين قراقوش الظاهري الكوندكي ورفقته ومعهم هدية الملك أوزبك وهي سنقران وجلود الدب الأبيض طول كل واحد سبعة أذرع وكسور فقبلت هداياهم وشملهم الإنعام، وزاد العيني وفي رسالتهم عتب كثير لكون السلطان ما وافقهم على حرب أبي سعيد ونائبه چوپان اهـ. والظاهر أنه سبق قلم فإن الملك الناصر لما اعتذر في الرسالة السابقة قبل الملك أوزبك اعتذاره، كما صرح به ابن خلدون كما مر، فبعد قبول الاعتذار لا يبقى لتعتب ثانياً وجه أصلاً خصوصاً بعد أن قال الملك الناصر في كتابه فإن استمررتم على المحبة والصدقة فأنتم الأحباب فإن هذا الكلام سد لباب العتاب كما لا يخفى على أولي الألباب والله الملهم الصواب.

ثم قال، أعني الأولان: وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الآخر سافرت الرسل المذكورون وسافر صحبتهم الأمير سيف الدين بكمش وقيل بيكنيمر الساقى الظاهري وبدر الدين بيليك السيفي السلاري المعروف بأبي غدة الاستادار أحد مقدمي الحلقة المنصورة ومعهما جواب كتاب الملك أوزبك وهدية سنية، ثم قالوا: وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان وقيل يوم الأحد الحادي والعشرين منه في سنة ٧٢٥ عادت رسل السلطان الذين كانوا توجهوا رسلاً إلى الملك أوزبك وهم الأمير سيف الدين بكمش الظاهري ورفقته وصحبتهم رسل الملك أوزبك ورسول الأشكري ومعهم التقادم والهدايا فسمع السلطان رسالتهم وأنعم عليهم وأعادهم إلى مرسلهم وسافر صحبتهم الأمير سيف الدين أطوجي أحد الأمراء المصرية وهو الذي كان زواج الخاتون ومجيئها إلى مصر بيده كما تقدم وسيف الدين قراديمر أحد المقدمين في الحلقة وأصحابهم الهدايا فتوجهوا وكان خروج رسل الملك أوزبك من بين يدي السلطان يوم الاثنين السادس من شوال بعد أن شملهم بالإنعام والخلع وتوجهوا يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور ثم قالوا: وفي يوم السبت عاشر رجب من سنة ٧٢٨ وصلت رسل الملك أوزبك وصحبتهم اطوجي وقراديمر المار ذكرهما ومدة

غيبتها سنتان وتسعة شهور إلا سبعة أيام وأحضروا ما معهم من التقدّم ثم رسم بعود رسله إليه وتوجه صحبته من جهة السلطان سيف الدين ماجار بن أبغان أحد أمراء العشرات بمصر وصحبته عمه يبلق وكان توجههم في التاسع عشر من شوال من السنة المذكورة.

قال المقرئزي وفي التاسع عشر منه يعني من شوال سنة ٧٢٨ وقال العيني يوم الاثنين التاسع والعشرين من شوال سنة ٧٢٩ عقد نكاح الخاتون طلباي الواصلة من بلاد أوزبك على الأمير سيف الدين منكلي بغا السلحدار أحد مقدمي الألوف بعدما طلقها السلطان وانقضت عدتها وبنى بها يوم الخميس ثامن ذي القعدة وقال العيني: وفي سنة ٧٢٩ حج بالناس الأمير أيديمور وكان أمير الركب في العام الأول وكان من جملة من حج في هذه السنة والدة الأمير قوصون ومعها أهله وأقاربه وكان قوصون قد سأل السلطان أن يكتب إلى الملك أوزبك بسؤال إرسال والدته وأقاربه فإنه كان له في بلاده^(١) والدته وأخوه وابن أخته وجماعة من أقاربه وأهله فكتب السلطان إلى الملك أوزبك خان وسأله أن يرسل هؤلاء إلى مصر وكتب أيضًا إلى طغاي تيمر في قرم فجهزهم أوزبك إلى مصر في سنة ٧٢٧ وأمر السلطان أخاه صوصون وابن أخته بلجك وسيروا أمه به إلى الحجاز في هذه السنة اهـ.

قال الحافظ المغلطاوي: وفي سابع عشري محرم من سنة ٧٣٠ وصل ماجار المار ذكره مع رفقته جاؤوا في البر من الروم ومدة غيبته سنة وثلاثة شهور وسبعة أيام. ذكر كارامزين هنا موت الكيناز آندري المار ذكره قبل هذا وذلك في سنة ١٣٠٤ م مصادفة سنة ٧٠٤ هـ. ونزاع الكيناز ميخايل التويري المار ذكره مع الكيناز غيورغي الموسكوي في الكينازية وذكر ترجيح أكثر الروس لجانب الكيناز ميخايل لأسباب وأنه جلس دست الكينازية في توير وأقام بفراغ البال بسنين عديدة وأنه لما مات الخان طقطاوي في سنة ١٣١٢ وجلس أوزبك خان مكانه لزمه أن يذهب إليه للتبريك والبيعة فذهب إليه وبقي مقدار سنتين لديه فأعطاه أوزبك خان منشورًا بتصديق كينازيته وضم إليه مقدارًا من عساكر التتار تحت قيادة الأمير طاي تيمر وأرسله إلى وطنه على العادة وكان ذلك في سنة ١٣١٥ م ثم ذكر وقائع تتعلق بالروسية ثم ذكر أن غيورغي المذكور كان مقيمًا بأوردو مدة ثلاث سنين وكان

(١) فدل هذا على أنه كان من تلك الديار كما يدل عليه اسمه وكذلك أكثر الأمراء بمصر في تلك الأعصر من تلك الديار كما يدل عليه أساميهم. منه عني عنه.

يتشبت بأذيال الأسباب والوسائل التي يمكنه أن يتشبث بها من تقديم الهدايا والتوسط بالأمرء وأقارب الخان وتقبيح فعل الميخايل والتملق لتحصيل الكينازية العظمى حتى ظفر بصرف توجه الخان إليه حتى أعطاه جارية من عنده وأعطاه منشورًا بتصديق كينازيته العظمى على الروسية وأعطاه عسكريًا تحت رياسة الأمير قاوغادي وأرسله إلى ولاديمر ورسم بعزل ميخايل عنها فاستقبلهم ميخايل بعساكره وقاومهم ولم يرض بالنزول عن الكينازية وكانت الغلبة في طرفه عليهم حتى أسر الأمير قاوغادي وعائلة أخي غيورغي فلم يقتل أحدًا من التار بل أكرم الأمير قاوغادي وأضافه بضيافات لائقة وأعطاه هدايا عظيمة وأرسله إلى الخان وأخذ منه الوعد ببيان حقانيته وقباحة غيورغي لدى الخان وبعد اللتيا والتي اصطاح ميخايل مع غيورغي ورد له غائلة أخيه ورضيا بالذهاب إلى أوردو والمحاکمة لدى الخان ولكن ماتت في الأثناء الجارية التي أعطاه أوزبك خان فلما امتثلا لدى الخان واستنطقا شرع غيورغي يعد معايب ميخايل بأنه لا يطيع الخان ولا يؤديه الخراج تمامًا ولا يخلصه الوداد وأنه تسبب لقتل الجارية بالتسميم وأنه حتى ثار غضب الخان على ميخايل فأمر بضرب عنقه ففعلوا وكان كل ذلك في سنة ٧١٨ هـ، فجعل الخان غيورغي المذكور كينازًا أعظم وأعطاه المنشور بذلك وأرسله إلى ولاديمر وأعطاه أيضًا قنسطنطين ولد المقتول وأمرء توير الذين كانوا معه كالأسارى ففاز غيورغي ببغيته.

ثم إن ديميتري بن ميخايل المقتول ذهب إلى أوردو وتشرف بشرف المثل لدى أوزبك خان وشرع في تعداد خدمات أبيه ميخايل إليه وخلصه له وبيان قباحة غيورغي حتى استمال قلب الخان إلى طرفه فنصبه الخان كينازًا مكان أبيه فاشتدت العداوة بهذه الأسباب بين غيورغي وبين ديميتري وأليكساندر وقنسطنطين أولاد ميخايل وصار كل من الفريقين يقصد الآخر بسوء ويريد هلاكه ففي سنة ١٣٢٥م مصادفة سنة ٧٢٥ هـ ذهب الكيناز غيورغي من طريق وولغا وقزان إلى أوردو بهدايا كثيرة بقصد إرجاع الكينازية العظمى لنفسه وبينما هو في أوردو إذ سمع ذلك الكيناز ديميتري فذهب هو أيضًا مع أخيه أليكساندر من ورائه إلى أوردو ولما وقع نظره على غيورغي الذي تسبب لقتل أبيه ثار دمه وفار ولم يملك نفسه حتى سل سيفه في تلك الساعة وضربه به وقتله فتحير الأمرء والوزراء من سوء دأبه هذا في حضور الخان ولكن أوزبك خان لم يقل له شيئًا ومضى على ذلك شهر فظن الوزراء أن الخان عفى عنه سوء دأبه المذكور، وأذن الخان أليكساندر أخاه بالانصراف فذهب إلى توير وبقي

ديميتري في أوردو، ثم إن الوزراء ذكروا يوماً للخان سوء دأب ديميتري فأمرهم بضرب عنقه فضرهوه^(١) اهـ.

فلينظر العاقل إلى ما يفعله الروس بعضهم ببعض ومع ذلك يسندون هذه القبايح إلى التتار ويقولون: إن أوزبك خان قتلهم ماذا يفعل أوزبك خان إذا كان يقصد بعضهم بعضاً بسوء وسعى في إعدامه وإهلاكه وقد ذكر كارامزين قبيل هذا مرحلة أوزبك خان للروسية في حق كنائسهم ودفن أذية مأموريه عنها ونحن أحرنا هذا عن تلك الوقعة ليترد الوقائع المذكورة ويتصل بعضها ببعض.

قال كارامزين شرع بعض أمراء الباصقاق في التعدي والأذية وأخذ الخراج من الأملاك الكنائسية وأوقافها مع كونها معافاة عنها في نظام لخان فتوجه بطر ميتر پوليد (مطران) الروسية إلى أوزبك وشكا منهم إليه فقبل أوزبك خان كلامه فكتب له اليرليغ (الفرمان) يمنع الأمراء الباصقاق وكفهم عن التعرض للأملاك الكنائسية وهذه ترجمته.

[ترجمة فرمان أوزبك خان]

ترجمة فرمان أوزبك خان بمرحمة الله العظيم الشأن الحي الذي لا يموت وقوته القاهرة أنا أوزبك بإرادة الله تعالى وأمره فرماني على كافة الكيناز الأعظم والأواسط والأداني وجميع وزرائي وأمرائي والدفتر دار والكتاب والباصقاق وسفرائي وجميع أهالي الأطراف التي يجري فيها حكمي بقوة الله الحي الذي لا يموت بأن كافة الروحانيين والقسيسين والرهابين من النصارى وغيرهم والكنائس والمعابد الكائنة بالروسية وغيرها وما يتعلق بها من الأملاك والأوقاف محررة ومعافاة من الخراج والتكاليف الميرية لا يتعرض عليها أحد قط فإن هذه مهياة كلها في سبيل الله ومن الدعاة لدولتنا وأحكام عائدة إلى رؤساء روحانيتهم فليدعو لنا ولعائلتنا فمن تعرض على هؤلاء وأخذ منهم شيئاً فإنه يؤخذ منه ثلاثة مثاله جزاء أو من أذاهم فإنه يستحق لقهر الله تعالى حرر هذا في سنة الأرنب في اليوم الرابع من الشهر الأول من فصل الخريف اهـ.

(١) وهذه الحوادث هي التي عنها بعض مؤرخي العثمانية بعد أن ذكر خوانين أوزبك بخوارزم بقوله: كان خوانين أوزبك هؤلاء وقتاً ما يعزلون مثل ميشل (ميخايل) الثاني ريوريا وديميتري وتصبونهم كيف شاؤوا اهـ. تفكر وفيه وزنوه بميزان إدراككم. منه عفي عنه.

قال المؤرخ: إن أوزبك خان قد حرر الروحانيين من الخدمة العسكرية بهذا فرمان اهـ. ولم أطلع على تاريخ تحريره إلا أن كارامزين أثبتته في عداد وقائع سنة ١٣١٩م مصادفة سنة ٧١٩ هـ وهو أطول من هذا بكثير ولكن المترجم حذف كثيرًا منه ونحن أيضًا اقتصرنا على ترجمته بالضرورة وكذلك في أكثر المواضع المترجمة من تاريخ كارامزين يبقى فيه أشياء كثيرة غير مترجمة وسببه اختصار المترجم فمن أراد التفصيل فليرجع إلى التاريخ المذكور إن كان من أهله.

قلت: فليقابل العاقل هذه المعاملة الصادرة من الأقوام الوحشية بزعم الروسية بمعاملة الروسية المتمدنة الآن بهؤلاء التتار هل توجد بينهما مناسبة هيئات هيئات شتان ما بين تلك الهيئات وهذه الهيئات ولا أريد أنا بقولي هذا المعاملة التي صدرت من عهد استيلاء الإيوان المدهش إلى زمان يكاترينا الثانية من اضطهادهم وإكراههم على ترك الدين بأنواع العذاب تأسياً بإسبانيا وإنما أريد به المعاملة الصادرة عنهم في هذا العصر الذي هو عصر التمدن والترقي عندهم أعني من سنة ١٨٦٦ إلى يومنا هذا من تشبههم بأنواع الحيل الخفية بزعمهم في ذلك أعني في مداخلتهم بالأمر الديني كما سنذكره في آخر الكتاب إن شاء الله ولنصرف الآن عنان البراع نحو بيان الوقائع الماضية تاركًا وقائع هذا العصر إلى محلها.

قال كارامزين: ولما مات غيورغي بسيف ديميتري وقتل ديميتري بسيف الخان قصاصًا وجه أوزبك خان الكينازية إلى الكيناز أليكساندر أخي ديميتري وابن ميخائل المقتولان وكتب له بذلك منشورًا ومنحه أيضًا ما لم يمنحه لأبيه وأخيه من المراحم الخانية ولكن لم تدم له تلك المراحم بل تبدلت غضبًا وقهْرًا ثم ذكر وقعة شفقال خان.

حادثة شفقال خان

قال كارامزين بعد بيان الوقائع المذكورة بالتفصيل: ثم إن أوزبك خان أرسل في ابتداء الربيع من السنة المذكورة ١٣٢٧ ابن عمه الأمير شفقال ابن الأمير دودين (تدان) مع فرقة من عسكر التتار إلى تووير وكان ذلك لإصلاح بعض الأمور التي بلغته بعد رجوع أليكساندر المذكور إلى تووير فظن الأهالي أن ذلك إنما هو لدعوة الروس إلى الإسلام وإجبارهم عليه وأنه يقتل أليكساندر وسائر حكامهم ثم يجلس على تخته وينصب عليهم حكامًا ممن معه ويجعلهم عبيدًا لهم وشاع ذلك الخبر بين الروسية شيوعًا تامًا وصدقوه مع أنه غير مطابق للواقع من جميع الوجوه فإنه لم يكن مع الأمير

شفقال عسكر كاف لهذا الأمر بل كان معه شردمة قليلة على أنه مخالف لسياسة التتار فإنهم كانوا يحمون روحانية الروسية دائماً ولم يصدر منهم تعرض للدين قط خصوصاً أوزبك خان الذي كان متصفاً بالعدالة للرعايا ومشتهراً بالحقانية بين البرايا فإن استحالة صدور مثل هذا الأمر في عصره كانت بديهية ولكن ما الحيلة لما كانت الروسية متصفة بالجهالة وقلوبهم منخلعة من خوف التتار لكونهم تحت جبرهم وقهرهم دائماً كانوا يصدقون كل خبر من هذا القبيل^(١) (قلت يقول كارامزين هذا لدفع التعصب والوحشية عن الروسية مع كونه ظاهر التعصب والوحشة يدل عليه السياق والسباق ولم يدر أنه واقع في وسط التناقض).

قال فاجتمع الأهالي عند الكيناز أليكساندر مع كبرائهم للاستشارة فقال لهم الكيناز لكونه شاباً خفيف العقل لا يخفى عليكم أن التتار قتلوا أبي ميخائل وأخي ديميتري والآن يقصدونني ويريدون أن يستأصلونا عن آخرنا ويملكوا بلادنا وقد جاء الآن وقت الانتقام (انظروا أيها القراء الكرام إلى تعصبه وزيادته في الطين بلة) وكان الأمير شفقال في ذلك الوقت نازلاً بقصر ميخايل مع عسكره فاجتمع الأهالي عند أليكساندر ليلاً وساروا معه نحو القصر المذكور وقت الصبح وأحاطوا به وهجموا عليه فخرج التتار أيضاً من القصر وبدأوا بالمدافعة واقتتلوا قتالاً شديداً من الصبح إلى الغروب حتى سالت الدماء كالسيل وحملت القتلى إلى الأطراف والجوانب فدخلت التتار إلى القصر بالضرورة لقتلهم وكثرة الروس وتحصنوا به فأضرم أليكساندر النار على القصر وأحرقه بمن فيها من التتار ولم ينج منهم أحد حتى قتلوا تجار التتار الذين كانوا في توير من القديم فلما انتشر هذا الخبر في أطراف الروسية اندهشت الحكام والأهالي وزلزلوا زلزالاً شديداً وغابوا عن حواسهم وأيقنوا بالهلاك والبوار ولكنهم كانوا لا يعلمون أن هذه الفعلة الشنيعة هل تجلب المصيبة العظمى لولاية توير فقط أم تعم بلواه كافة الروسية.

وأما أوزبك خان فإنه لما قرع سمعه هذا الخبر الموحش غاب عقله أيضاً من الغيرة وصاح بالثأر والانتقام وحلف أنه لا يبقى أحداً من هؤلاء الأشقياء حياً على وجه الأرض وأنه يسوي أماكنهم بالأرض وربما توهم أن هذه الفعلة بالمواطأة من

(١) فإذا كان الأمر كذلك فلاي شيء تستقيح الروس اتهام التتار الروسية الآن في أمثال هذه الأمور صدورها عن الروس في جميع الأزمان وانخلاع قلوبهم من تكاليفهم الباطلة دائماً. منه عفي عنه.

جميع حكام الروس وأنهم يريدون إخراج رؤوسهم من ربة رقية التتار، ولكن أين كان للروسية في الوقت المذكور أن يقاوموا سطوة أوزبك خان وأن يقابلوا قوة التتار، فلما علم أوزبك خان عدم مشاركة سائر إمارات الروسية لأهل توير في الوقعة المذكورة أرسل إلى الكيناز إيوان كاليثا بن دانييل ببلدة موسكوا يدعوه لديه فلما جاء أمره بالمسير إلى بلدة توير لتربية الأشقياء واستيصالهم بالكلية وإعدام الكيناز أليكساندر ووعده في مقابلة خدمته هذه أن يوجه إلى عهده رتبة الكينازية العظمى لجميع الروسية وضم إليه خمسين ألفاً من عسكر التتار وأمر أيضاً الكيناز سوزدل أليكساندر بن واسيلي أن يلحق بهم بعسكره فقبله الإيوان المذكور طمعاً في الكينازية العظمى وتخليصاً لسائر بلاد الروسية من سيوف التتار فإنه كان يعرف يقيناً أن أوزبك لو تحرك بنفسه أو أمر واحداً من أمراء التتار لقبلوا كافة الروسية ظهرًا لبطن فسار هؤلاء العساكر بهيئتهم المجموعة إلى توير.

قال كارامزين في هذا المقام بلسان التأسف والتحسر وبقلم التحمس: فلو خرج أليكساندر بعسكره لمقابلة التتار وقاتلهم لأبرز حمية وطنية وفدائيته ولكنه لم يكن من أربابها فلم يكن له هم إلا تخليص نفسه من الهلاك بسلاح الهرب فقرر أن يذهب إلى نووغورد فلم يقبله أهلها، ولما قرب التتار إلى توير هرب أليكساندر تاركاً قومه المخلصين الصادقين في بجموحة البلاء إلى پصكوف وأخواه قنسطانتين وواسيلي إلى الأدوغا فتال أهل توير ما طلبوه وجوزوا بسوء ما صنعوه حيث هدمت التتار مع الإيوان بلدة توير وكاشين وتورژيك وسوها بالتراب وقتلوا أكثر أهلها وأسروا البواقى ومن لم يبلغ أجله نجى نفسه بالهرب إلى الغابات ثم أرادت هذه العساكر أن يستولوا إلى نووغورد ولكن أهل نووغورد خلصوا بلدهم بإظهار الإطاعة وإهداء ألف روبلة إليهم (فإنها كانت كثيرة في ذلك الوقت).

قلت: إن من تأمل فيما سبق من الوقائع يجد أن أهل نووغورد تخلصوا من تلك المصائب التي ابتليت بها سائر الروسية وذلك بحسن صنيعهم وترك العناد لعدوهم القوي وقد قال بعض المؤرخين إن نووغورد أقدم بلاد الروسية وأشدهم تمدناً (وفعائلهم المذكورة يؤيد ذلك) فلما سمع أوزبك خان خبر هذا الانتقام فرح فرحاً شديداً وصار ممنوناً من إيوان بن دانييل وأنجز وعده إياه حيث نصبه كينازاً أعظم لجميع الروسية وأعطاه منشوراً بذلك وأرسله إلى بلدة موسكوا فاستراحت الروسية بعد ذلك خصوصاً طرفها الشمالي الذي هو أبعد أرض الروسية من التتار وترك حكام الروس خصومتهم فيما بينهم وشكاية بعضهم من بعض إلى الخان وصارت بلدة

موسكوا أم بلاد الروسية من ذلك التاريخ وبدأت الروس بالإصلاح والترقي وتوحيد الكلمة والرأي وضم الإمارات الصغيرة إليها شيئًا فشيئًا بهمة الكيناز إيوان المذكور فإنه كان من جهة يذهب عند الخان ويتبصبص لديه ويجلب بذلك التفاته إليه ومن جهة أخرى كان يجتهد في إصلاح شؤون مملكته .

قلت: ومن هذا قال بعض المؤرخين: إن السبب لقوة الروس هو التتار حيث أعانوا الكيناز موسكوا على ضم الإمارات الصغيرة إلى الكينازية العظمى وتوحيد حكوماتهم الخ، وأنت تعلم أن فعل أوزبك خان هذا ما كان عن علم بأن الروسية تتقوى بذلك وأن الإيوان الثالث من نسل هذا الإيوان يخرب بلده سرابي وأن الإيوان الرابع يستأصل حكومة قران بعد سنين فإنه لو علم ذلك لما تركه حيًا فضلًا عن إعانته ولكن إذا أراد الله شيئًا هيأ له الأسباب ولا راذ لقضاء الله . عود إلى قول كارامزين قال: وحين حضر إيوان عند أوزبك خان بعد إتمام أمر توير كان أحضر معه الكيناز إيوان والكيناز قنسطنطين أخوي أليكساندر الخائن فشفع عند الخان لهما وسأله أن ينصب قنسطنطين كيناز التوير فقبله الخان وأرسل الكل إلى بلادهم وأمر الإيوان أن يتبع أليكساندر الخائن وأن يمسكه ويجيء به إليه فقبله الإيوان وطلبه من أهل پصكوف فأراد الأهالي الامتناع من تسليمه إليه ولكن الإيوان خوفهم بواسطة ميتروبوليد (مطران) ولعنته عليهم وحكمه بخروجهم من الدين أن يمتنعوا من تسليمه وذلك لسلامة الروسية فأخرجوه من بينهم فهرب إلى ليتوانيا عند غديمين فرجع إيوان مع عسكره من پصكوف وبعد عشر سنين من هذه الواقعة عفى عنه أوزبك خان لكونه صاحب مرحمة بشفاعة ميتروبوليد ونصب كينازًا إلى توير ثانيًا هذه هي معاملة الوحشيين بمن صدر منه أقبح القبائح بشهادة الأعداء والحسن ما شهدت به الأعداء .

قال وفي أوائل سنة ١٣٤٠ م مصادفة سنة ٧٤٠ هـ هلك الإيوان المذكور فاختلف في الجلوس مكانه قنسطنطين السوردلي وقنسطنطين التويري ولكن ذهب سيمون ولد الإيوان المذكور إلى أوردو مع إخوانه عبد أوزبك خان وعدد خدمات والده إيوان وطلب منه الكينازية مكانه وعاهده على الإطاعة والأمانة فوجه أوزبك خان الكينازية إليه وأعطاه منشورًا بذلك .

ثم قال تقبيحًا للتتار بقباحة هي للروسية في الحقيقة أن التتار مع كونهم صحراويين لا يعرفون المدنية صاروا يأخذون المدنية من أوروبا وصاروا يؤثرون الراحة

على غيرها وحيث كان مدار الراحة على الذهب والفضة كانوا يبيعون مرحمة^(١) أوزبك خان على حكام الروسية وكانت حكام الروس يغصب بعضهم من بعض الكينازية بواسطة إعطاء الرشوة والهدايا إلى أمراء التتار وأما الكيناز سيمون فلم يكن أدون من أبيه في العقل والدراية وكان في ترقية مملكته وترفيه رعاياه دائماً اهـ. وإنما كتبنا هذا هنا مع كون تاريخه مؤخرًا ليتصل الوقائع بعضه ببعض.

وقال المفضل: وفي سنة ٧٣١ وصلت رسل إلى الأبواب السلطانية من جهة السلطان محمد شاه صاحب دهلي من بلاد الهند ثم وصل رسل الملك محمد بن عنبرجي صاحب العراق ومدبر دولته يومئذ الشيخ حسن ثم وصل أيضًا رسل الملك أوزبك خان في جماعة كثيرة.

وقال أيضًا: وفي سنة ٧٣٢ في شهر جمادى الأولى وصلت رسل من جهة السلطان أوزبك خان ومعهم هدية سنوية وأخبروا بوفاة الشيخ نور الدين الذي حضر الديار المصرية صحبة بنت أخي السلطان أوزبك خان الذي تزوج الملك الناصر بها في سنة ٧٢٠ ثم رجع الرسل المذكورون وصحبتهم رسول من جهة الملك الناصر اهـ.

وقال العيني: وفي سنة ٧٣٥ وصل أوزبك^(٢) من البلاد الشمالية ومعهم كتاب يتضمن العتاب بسبب الخاتون التي حضرت من جهتهم وذلك أن الملك أوزبك بلغه من القصاد أن السلطان دخل بها وبعد أيام أخرجها من عنده وزوجها لبعض مماليكه فصعب ذلك على أوزبك وقال في كتابه ومشافهته أيضًا: إن السلطان أرسل إليّ مرات عديدة يطلب بنات الخان وأنا أدافع الأمر حتى استحيت من السلطان وسيرت إليه من خيار بنات الخان ثم إنها لما لم يكن لائقة بخدمتك كان الواجب عليك إرسالها إلى مكان خرجت منه ولا أعطيتها لبعض مماليكك وما كان يليق لمثلك أن نضيع مثل بنات الخان ونحن نسألك الآن إرجاعها إلينا لتكون عند أهلها والجواري عندك كثيرة والبلاد متسعة، فلما وقف السلطان على ما في الكتاب وسمع ما في ضمن المشافهة أيضًا من العتاب، أسرع برد الجواب مع الرسول وقال: كل ما بلغ لأخي الملك أوزبك فهو كذب ولم يحصل فيها شيء من التفريط أما أمر الله تعالى فلا مرد له وهذه

(١) لو وجدت التتار الآن المرحمة بالفضة والذهب لاشتروها بما ملكته أيديهم ولكنهم لا يجدونها الآن عند أحد. منه عفي عنه.

(٢) كذا في الأصل ولعله «وصل رسل أوزبك». مصححه.

المرأة لما سيرها أخي التي دخلت بها وأقامت معي سنة ثم ضعفت وماتت إلى رحمة الله، وقال للقاضي بدر الدين بعد أن عرفه الأمر: إني أريد إثبات موتها ليقف الرسول عليه فقال القاضي الطريق في هذا أن يحضر خادمان أو اثنان من المماليك ويشهدان أنهما شاهدا الخاتون فلانة بنت فلان قد توفيت من ضعف أصابها فأحضر واحداً من الجند واثنان من المماليك فشهدوا عند القاضي بذلك وأثبته القاضي بمحضر كتب فأخذه السلطان عنده إلى أن جاء الرسول المذكور فأوقفه على المحضر المثبت المكمل بالخطوط فسكت الرسول ومن معه وسافروا بعد أيام وسير معهم هدية وكتب الجواب كما ذكرنا اهـ.

قلت: إن هذا القول مع تضمنه الخرافات والجرافات التي لا يليق بأحد الناس فضلاً عن الملوك مخالف لما ذكره غيره والله سبحانه أعلم.

قال الحافظ المغلطي: وفي يوم السبت سلخ جمادى الأولى سنة ٧٣٧ وصل رسل الملك أوزبك حضر في البر من الروم واسمه مراد خواجه وصحبته جماعة وعند وصوله استحضر في القصر ومن ثالث ربيع الآخر سنة ٧٢٩ لم يصل من عند الملك أوزبك رسول إلا هذا وأقام بالقلعة مدة ثم سافر يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة.

وقال: وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين ذي الحجة سنة ٧٣٧ سافر سرطقطاي مقدم البريدية وهو أمير عشرة رسولاً إلى الملك أوزبك وسافر من بر الروم وتعدى من صمسون. وفي بكرة يوم الخميس سادس ربيع الأول سنة ٧٣٨ وصل مظفر الدين التاجر من بلاد أوزبك رسولاً من عند مغل بغا وسونج بغا وهما من أكابر الأمراء وصحبته عدة مماليك وجوار بعضهم مقدمة من عند الأميرين المذكورين والبعض لمظفر الدين المذكور وكان في صحبته رسول آخر معه فتوفي في بهنسا. وفي يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأخرى سنة ٧٣٩ وصلت رسل الملك أوزبك صحبة سرطقطاي مقدم البريدية الذي كان توجه سنة ٧٣٧ وعدتهم مائة وثلاثة وخمسون نفرًا منهم أعيان عشرة ولما وصلوا أنزلوهم بالميدان ورتب لهم في كل يوم ألفي درهم نفقة وعشرين خروفاً وفرساً. واستحضرهم السلطان في الثامن عشر منه وكان مضمون رسالتهم أنهم يطلبون بنتاً من بنات السلطان لملكهم ليفتخر بها ويتأكد الأخوة والصداقة فعلم السلطان مقصودهم من ذلك أنهم يريدون أن يفعلوا كما فعل السلطان بهم، وبعد أيام طلبهم وخلع عليهم جميعهم وأنعم عليهم بجملته من الدراهم وكتب

الجواب أن البنات الذين لي صغار وأكبرهم ست سنين وعند استحقاق زواجها جهزناها وأرسلناها لخدمته إن شاء الله تعالى اهـ.

وهذا معنى قول المقرئزي حيث قال: وفي أول محرم ٧٣٩ سنة قدم رسل الملك أوزبك صحبة سرطقطاي بهدية وكتاب يطلب فيه مصاهرة السلطان فجهز إليه هدية وأنعم على رسله وأعيدوا اهـ. إلا أن فيه في تعيين شهر مجيئهم فلو لم يكن هذا الخلاف من تغيير النساخ فالصحيح الصواب هو ما قاله الحافظ المغلطي لأن الوقعة المذكورة في زمنه وهو أدري بما فيه من غيره.

وقال الحافظ المغلطي أيضًا وفي يوم الخميس سادس ربيع الأول ٧٤١ سنة وصلت رسل الملك أوزبك صاحب بلاد القفجق منهم ثلاثة أعيان وهم أركتيمر وولده محمد خواجه وقطلو جار وولده أبو بكر ويبدرا أمير شكار واستحضروا يوم الاثنين عاشر الشهر بالإيوان ثم أخلع عليهم أركتيمر أطلس ورفقته الاثنين وولداهما طردوحش وأعطوا حوائص ذهب ودخلوا بالخلع يوم الخميس الثالث عشر من الشهر وأنعم عليهم بجملة كبيرة من الدراهم ورتب لهم الرواتب الجيدة ثم مرض أركتيمر كبيرهم وتوفي ليلة الخميس السابع والعشرين من الشهر المذكور ونزلت الأمراء وحضروا جنازته وصلوا عليه ودفن بالقرافة في قرية صوصون أخو المقرئ السيفي قوصون. وفي يوم الخميس العشرين من شعبان أنعم على الأعيان المذكورين بفرجيات بطرز ذهب وودعوا وخرجوا وسافروا في مستهل رمضان عائدتين إلى بلادهم.

وقال: وفي عشية يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة توفيت الست الجليلة دلبيه قرية الملك أوزبك ملك بلاد القفجق ودفنت يوم الأحد السادس عشر منه بحوش لأولاد الأمير آرغون نائب السلطنة بالقرافة وكانت هذه المذكورة لما حضرت من بلادها وتزوج بها الملك الناصر سنة ٧٢٠ على ما تقدم أقامت في عصمته مقدار ثمانين سنين ثم طلقها^(١) فتزوجها منكلي بغا فتوفي عنها

(١) تنبيه: قد تقدم تزوجه إياها ثم طلقها وتزوجها من منكلي بغا وغضب السلطان محمد أوزبك خان على الملك الناصر لذلك نقلاً عن عدة من المؤرخين الكبار وقد قالت الأدبية الفاضلة السيدة زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله العاملي السورية مولداً وموطناً المصرية منشأ في كتابها الدر المنثور في طبقات ربات الخدور هكذا (طولباي) هذه من ذرية چنكزخان تزوجها الملك الناصر قلاوون ولما جاءت اسكندرية في شهر ربيع الأول ٧٢٠ سنة إلى آخر ما ذكره في تزويجها ثم قالت وبقيت عنده مسموعة الكلمة محظية لديه حتى أنه مال إليها بكلية وجزئياته =

فتزوجها صوصون أخو قوصون فتوفي عنها فتزوجها الأمير عمر ابن الأمير آرغون نائب السلطنة فتوفيت في عصمته كما تقدم اهـ. ما قاله الحافظ المغلطي ومثله تاريخ ابن شهبة وفي موضع آخر من تاريخ المغلطي كان وفاتها في سنة ٧٤٣ والله سبحانه أعلم.

ذكر وفاة الملك المعظم محمد أوزبك خان رحمه الله تعالى

قال ابن دوقمق والعيني وابن شهبة وغيرهم من المؤرخين الكبار: وفي شوال سنة ٧٤٢ توفي القان الكبير أوزبك خان ابن طغرلجا بن منغوتيمر بن طغان بن باتو بن دوشي خان بن چنكزخان ملك التتار صاحب المملكة الشمالية بعد أن حكم في تلك البلاد مدة ثمانية وعشرين سنة وكان ذا بأس وإقدام وديانة وعبادة يؤثر الفقهاء والفقراء ويحب العلماء ويسمع منهم ويرجع إليهم ويعطف عليهم ويتردد المشايخ ويحسن إليهم اهـ.

قلت: قد تقدم بعض مناقبه في أوائل ترجمته وسيجيء ذكر بعض خلوصه للعلماء والمشايخ في آخر هذا المقصد عند ذكر الشيخ نعمان الدين الخوارزمي إن شاء الله تعالى، وقد صنف العلامة علي بن أبي بكر بن علي النسفي البيكندي شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي وأتمه في سنة ٧١٩ بخوارزم وأهداه إلى الملك أوزبك وذكر اسمه في ديباجته كما في كشف الظنون^(١) لكنه لم يذكر ذكر اسمه في الديباجة. وما قالوا: من أنه حكم مدة سنة ٢٨ إنما يصح إذا لم يحسب سنة وفاته وقلنا إن جلوسه كان في سنة ٧١٣ كما قاله البعض وإلا فلا يصح ذلك بل تكون مدة حكمته وسلطنته ثلاثون سنة كاملة كما قاله كثير من المؤرخين.

وفي زمن سلطنته استولى السلطان الغازي عثمان على بروسه وانتقل إلى رحمة الله تعالى في سنة ٧٢٧^{(٢)(٣)} وتسلطن بعده خلفه الصدق السلطان الغازي أورخان وقد

= وسلمها أمور داره واعتمد بذلك على حسبها ونسبها وهي وقت له بما ائتمنها عليه وكانت مشهورة بفعل الخير واجتناب الشر ولها مآثر غريبة من مدارس ومصانع ومساجد وغير ذلك اهـ. حرفياً وغرابته أنها لم تذكر طلاقها وتاريخ وفاتها بل ظاهر عبارتها تدل على بقائها في عصمته إن لم تشبه إليها غيرها وإن كان بعيداً والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(١) انظر كشف الظنون ١٧٦٣/٢ - ١٧٦٤.

(٢) في ٢١ رمضان عن سنة ٧٠ قضي جلها بل كلها في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى. منه عفي عنه.

(٣) في «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي. ص ٤١: توفي السلطان عثمان في =

ذكر ابن بطوطة ملاقاته إياه في رحلته قبل قدومه إلى بلاد الملك أوزبك رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

السلطان المعظم والخاقان الأعظم جلال الدين أبو المظفر السلطان محمود جاني بك خان ابن الملك المعظم أوزبك خان

كان هو ولده الأوسط تولى السلطنة بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور أعني سنة ٧٤٢ وكان له أخوان أحدهما أكبر منه يسمى تني بك والثاني أصغر منه يسمى خضر بك وكان تني بك هو المرشح للسلطنة بعد أبيه ولكن والدتهما وكذلك أركان الدولة كانوا يميلون إلى جاني بك ويرجحونه إليه فملكوه بعد وفاة الملك أوزبك دونه.

ذكر كارامزين وفاة أوزبك سنة ١٣٤١ وعدد قليلاً من ماجرياته ثم ذكر عقبيه شيطنة البابا ورسالته إليه ثم ذكر جلوس جانبكخان ومجيء الكيناز سيمون مع مطرانه إلى أوردو للتبريك والبيعة له.

قال ابن بطوطة في رحلته: ذكر ولدي السلطان وهما شقيقتان وأمهما جميعاً الملكة طيطغلي التي قدمنا ذكرها والأكبر منهما اسمه تن بك واسم أخيه جان بك وكل واحد منهما في محلة على حدة وكان تن بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكان له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولي سيراً ثم قتل لأمر قبيحة جرت له وولي أخوه جاني بك وهو خير منه وأفضل وكان الشريف بن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جاني بك وأشار علي هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرئ حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور ففعلت ذلك اهـ.

وقال الحافظ المغلطي: وفي سنة ٧٣٣ أرسل الملك أوزبك ملك بلاد بركة ولده الكبير تن بك وصحبته معظم الجيش إلى بلاد چغتاي^(١) يفتحها ويملكها فلما سار إليها أنشبت المنية أظفارها وتوفي في شوال سنة تاريخه ببلاد سراي الجديدة وخلف ثلاثة من الأولاد الذكور تن بك المذكور وجان بك وهو الوسطاني وخضر بك وهو الأصغر. فلما توفي أوزبك اتفقت الأمراء وأركان الدولة أن يقيموا جاني بك في

= ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ هـ. وانظر أيضاً «تاريخ الدولة العثمانية» ليلماز أوزتونا ١/٨٩ - ٩٣. (١) يعني ما وراء النهر ولعل ذلك لكثرة الظلم والتشكي من ملكها قران خان بن بيسور فإنه كان في غابة من الظلم. منه عفي عنه.

الملك إلى حين حضور أخيه الكبير تن بك ولما بلغ تن بك وفاة أبيه أوزبك خان في السنة المذكورة رجع على أثره طالبًا سراي ليدرك الملك ويجلس على التخت فلما قرب منه شاور جاني بك والدته وقال لها: الآن يجيء أخي ويأخذ الملك مني وكانت الإخوة الثلاثة أشقاء لكن والدتهم كانت تحب جان بك أكثر من الاثنين فاتفقت رأيهم ورأي الأمراء على قتل تن بك وأنه إذا حضر قتلوه فلما قرب خرجوا إليه ليلاقوه فلما حصلوا عنده اجتمعوا لتقبيل يده فضربوه وقتلوه ببلاد سرايچق ورجعوا إلى أخيه الملك جان بك فأخبروه بذلك فأخذ شيء من أخيه الأصغر خضر بك فقتله أيضًا واستقل بالملك واستقر ورسم لسائر التار في مملكته أن يلبسوا عمائم وفرجيات ولم يكن لهم بذلك عادة ورسم أيضًا أن لا يجلب مملوك إلى مصر وأرسل من جهته رسلاً وهدية إلى صاحب مصر اهـ.

وقال في محل آخر وفي سنة ٧٤٣ حضرت الرسل للسلطان من بلاد أوزبك والذي حضر في الرسلية أمير من جهتهم يسمى قرا بهادر وصحبته هدية جليلة ست سنافر ومماليك وجوار تركية وجلود سمور من جان بك ملك بيت بركة بالسلام والصلح... والصلح.

وقال الجنابي: بعد أن ذكر تملكه وهو يعني السلطان محمود جان بك من أعظم الخواقين الشمالية وأعدلهم وأعلمهم وأورعهم وكان يحب العلم والعلماء فقصده أرباب المعارف والكمالات فامتلاً بسببه مدينة سراي من الفضلاء وأرباب المعارف وصارت نزهة الدنيا اهـ.

قلت: وممن قصده رجاء بره وإحسانه العلامة على الإطلاق السعد التفتازاني^(١) فإنه ذكر اسمه في ديباجة شرحه المختصر للتلخيص تصريحًا بتوجهه إليه ونيل مقاصده لديه هكذا. ولما وفقت بعون الله للإتمام. وقوضت عنه خيامه بالاختتام. بعدما كشفت عن وجوه خزائنه اللثام. ووضعت كنوز فرائده على طرف اللثام. شعر:

سعد الزمان وساعد الإقبال ودنى المنا وأجابت الآمال

وتبسم في وجه رجائي المطالب. بأن توجهت لتقاء مدين المآرب. حضرة من أنام الأنام في ظل الأمان. وأفاض عليهم سجال العدل والإحسان. ورد بسياسته الغرار إلى الأجفان. وسد بهيبته دون يأجوج الفتنة طرق العدوان. وأعاد رميم الفضائل

(١) سعد الدين التفتازاني: تقدمت ترجمته.

والكمالات منشورًا. ووقع بالأفلام الخطيات على صحائف الصفائح لنصرة الإسلام منشورًا. وهو السلطان الأعظم. مالك رقاب الأمم. ملاذ سلاطين العرب والعجم. ملجأ صناديد ملوك العالم. ظل الله تعالى على بريته. وخليفته على خليفته. حافظ البلاد. وناصر العباد. ماحي ظلم الظلم والعناد. رافع منار الشريعة النبوية. ناصب رايات العلوم الدينية. خافض جناح الرحمة لأهل الحق واليقين. ماد سرادقات الأمن النصر العزيز والفتح المبين. شعر:

كهف الأنام ملاذ الحق قاطبة ظل الإله جلال الحق والدين

أبو المظفر السلطان جان بك خان خلد الله سرادق عظمته وجلاله. وأدام دواء نعيم الأنام من سجال أفضاله. فحاولت بهذا الكتاب التشبث بأذيال الإقبال. والاستغلال بظلال الرأفة والإفضال. فجعلته خدمة لسدته التي هي ملتئم شفاه الأقبال. ومعول رجاء الآمال ومثوى العظمة والجلال. لا زالت محط رحال الأفاضل وملاذ أرباب الفضائل. وعون الإسلام. وغوث الأنام. بالنبي وآله عليه وعليهم السلام اهـ. وكان ذلك في سنة ٧٥٢ كما صرح به شرف الدين خان البتليسي في تاريخه المسمى بشرف نامه.

ولما استقر الملك محمود أبو المظفر جان بك خان على سرير السلطنة المذكورة حسب المشروح جاء كيناز الروسية سيمون غوردي بن إيوان خلطه مع مطرانهم للبيعة وتجديد العهود والمواثيق وإظهار العبودية على ما جرت به العادة عند تجدد الخوانين وتبدل الكينازات ثم أرسلهما إلى بلادهما بمساعدة مأمولهما بعد أن أمسكهما عنده برهة من الزمان وبعد ذلك شرع في ترتيب أمور الدولة وتنظيم أحوال الملة وبدأ بإرسال الرسل إلى الملوك المتحابين يعلمهم بجلوسه إلى سرير السلطنة على ما جرت به عادات الملوك في مبدأ جلوسهم فأول ما أرسل الرسل إلى مصر كما مر ثم إلى سائر الجهات والأطراف ولكن لم يكن مراسلته بملوك مصر مثل مراسلات أسلافه في كل سنة بل في بعض الأحيان وسيجيء ذكر بعضها في هذا المقصد إن شاء الله تعالى.

وأما ملوك مصر فلم أظفر بشيء من المراسلة من جهتهم ولعل ذلك بكثرة الاختلال الداخلي فيها ولعدم تمكن أحد من السلطنة فإنه لما توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١ أعني قبل العام الذي توفي منه الملك أوزبك خان حصل فيها التلاعب بالملوك حتى كان في بعض الأحيان يحصل عزل الملوك

في شهرين مرة وأحياناً في أربعين يوماً مرة كما لا يخفى على من تتبع كتب التواريخ.

قلت: ولم أظفر بشيء من وقائع الملك جان بك خان مع كثرة قوته وزيادة شوخته وامتداد مدته سوى استيلائه على آذربيجان وانتزاعها من يد المتغلب عليها الظالم الغشوم الملك أشرف بن تيمرتاش بن چوپان وتخليصه المظلومين من يده وذلك في آخر عمره.

وتفصيل هذه الواقعة على ما بين في كتب التواريخ المعتمدة أن ملك آذربيجان لما آل إلى الملك أشرف بن تيمرتاش بن چوپان شرع في ظلم الرعايا وأذية البرايا وتخريب البلاد وقتل العباد ونهب الأموال وإهانة العلماء والزهاد فترك أكثر أهلها الأوطان وهجروا الإخوان وتفرقوا على الأطراف والبلدان ولم يكن في أطراف ممالك آذربيجان وقتئذٍ مملكة يأمن فيها الإنسان على نفسه وعياله وماله فإن بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر كانت قد امتلأت كلها بأنواع الفتن وإلى هذا أشار العلامة التفتازاني في ديباجة شرحه المطول والمختصر للتليخيص كما لا يخفى على من راجعها ومن جملة من ترك تلك البلاد وهرب من ظلم الأشرف مبيد العباد القاضي محيي الدين البردعي^(١) هرب إلى البلاد الشمالية وقدم مدينة سراي ولاذ بالسلطان محمود جان بك خان واشتغل هناك بالوعظ والتذكير، وكان السلطان المذكور يحضر مجلس وعظه أحياناً، وفي يوم من الأيام ذكر في أثناء وعظه ظلم الأشرف وجوره على وجه أبكى الحاضرين كلهم ثم توجه إلى الملك جان بك وقال: إن للملك قوة وقدرة على منعه من الظلم وتخليص عباد الله من شره فإن لم يلتفت الملك إلى هذا الكلام ولم يخلص عباد الله من ظلمه وجوده يكون أيدي المظلومين غداً يوم القيامة في ذيله ويكون معاتباً بل معاقباً فتأثر الملك من هذا الكلام وأمر بإحضار العساكر وتهيئة أسباب الحرب والضرب فاجتمع في الأوردة في مدة شهر من العساكر ما لا يدخل تحت الحصر قيل اجتمع فيه ثلاثمائة ألف من العسكر وقيل كان مجموع عساكره في ذلك الوقت سبعمائة ألف فتوجه نحو آذربيجان في سنة ٧٠٨^(٢) فلما بلغ

(١) محيي الدين البردعي: هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد البردعي، محيي الدين التبريزي ثم الرومي، توفي سنة ٩٢٧ هـ، صنف من الكتب: «حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي»، «حاشية تجريد العقائد للسيد»، «حاشية على تلويح التفتازاني» في الأصول، «حاشية على شرح حسام الكاتي لإيساغوجي»، «شرح آداب البحث لعرض الدين»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/٢٢٩).

(٢) سنة ٧٠٨: كذا بالأصل وهو خطأ من الناسخ، ولعلها: سنة ٧٤٨.

خبر توجهه الملك الأشرف لم يصدقه وقال: إن العساكر إنما يشيعون أمثال هذه الأخبار قصد الأخذ المرسومات والمواجب. ولما تواتر خبر توجهه وتحقق مروره وعبوره من دربند شروان خرج من ربيع رشيدي الذي كان متوطناً بها منذ سنين ونزل في شنب غازان وأرسل إلى الأمير علي قلندر وجمع من أركان دولته الذين كان أرسلهم لاستخلاص بلاد ساوه يستدعيهم إليه وأرسل أولاده وبياته وخواتينه مع أربعمائة حمل بعير من النقود والجواهر وألف حمل بعير من سائر نفائس الأمتعة والأقمشة بالعساكر الوافرة إلى طرف أوجان ولما قرب الملك جان بك اضطرب اضطراباً قوياً وأمر الخواجه لؤلؤ وخواجه شكر الله خان أن يذهبا بعياله وخواتينه وخزائنه المذكورة إلى كرويهر مرند وأن ينتظراه على رأس عين غواجه رشيد وقال إذا سمعتم أننا قد غلبنا على الخصم فتوجهوا إلى تبريز وإن كانت القضية بالعكس فتوجهوا نحو مرند وخوي. ولما أرسلهم توجه هو بنفسه بعساكره نحو أوجان وكان عساكره يقولون على سبيل السخرية والاستهزاء والعجب والأمانية أن لجام عساكر جان بك من الجبال المفتولة من لحا الأشجار وركابهم من الخشب ويقابل الواحد منا مائة منهم.

ولما نزل الأشرف أول يوم بساحل نهر مهران أرسل جملة من عساكره طليعة ومقدمة بعد أن أعطاهم الأسلحة التامة واستمال بمغنطيس الذهب قلوب العامة وأمر عليهم الوزير أخى جوق، وفي اليوم الثاني قسم الجبهة على بقية عساكره واستمال خاطرهم وكانوا زهاء عشرة آلاف وطلع أكمة هناك وعسكر بها على رأس طريق دول وبقي منتظراً لما سيظهر من عالم المغيب فظهر من قبالتهم سحابة وهبت ريح عاصفة ونزل المطر الكثير والبرد الشديد بحيث أدبرت خيول عسكر الأشرف من شدتها وبينما هم في تلك الحالة إذ ظهر عسكر جان بك خان من طريق سراب ولما وقع نظرهم على مقدمة عساكر الأشرف وطليعته أمر عسكره بالإحاطة بهم ولما شاهد أمراء الأشرف كثرة عساكر جان بك خان وأيقنوا بعدم المقاومة ولّوا الأدبار منهزمين ونجوا من تلك الورطة بغاية التعب ونهاية الصعوبة وتفرقوا شذر مذر. وبينما الملك الأشرف واقف بثنية سعيد آباد منتظراً للخبر إذ بدا له من طريق دول فارس فلما قرب منه عرف أنه من عسكره فلما جاءه أسر إلى سمعه كلاماً فلم يبق له مجال للتوقف فيه فتوجه فوراً إلى طرف تبريز ونزل في ليلته بشنب غازان وتوجه بالغدادة نحو عياله وخزائنه بغاية السرعة والاستعجال بحيث عجز عساكره عن اللحاق حتى لم يبق معه حين لحق بعياله في مرند سوى غلاميه الكرجيين ولما اطلع أهل مرند انهزام الملك الخائن وانكساره شرعوا في نهب خزائنه وأمواله التي كان جمعها ونهبها من الناس بأنواع

الظلم والجور مدة سنين وكانت سبباً لجلب هذه المصيبة على رأسه وتفرقت منه خواتينه أيضاً.

ولما شاهد هو هذه الحالة توجه نحو خوى ونزل بمنزل الشيخ محمد بالقچي وكان المذكور يسكن بصحراء تلك النواحي فاستقبله الشيخ وأكرم نزله في الظاهر ولكن أرسل شخصاً خفية إلى السلطان جان بك خان لإعلامه به وبمنزله فأرسل السلطان مسرعاً أميراً من أمرائه يسمى بالأمير بياض مع عسكر كاف للقبض عليه والمجيء به عنده ولما قبض عليه الأمير المذكور ودخل به مدينة تبريز طفق أهل تبريز ينشرون التراب والرماد على رأس الملك الأشرف وصاروا يسبونهم بألفاظ قبيحة ثم أنزلوه بمنزل والده الشيخ كحج بتمام الإهانة والاحتقار وكان الملك كاوس الشرواني والقاضي فخر الدين البردعي حاضرين هناك فقبل الملك الأشرف يد الملك كاوس وأخذ يتضرع إليه ويبكي لديه فوعده الملك كاوس بمواعيد ولكنه لم يوف بواحد منها. ولما أدخلوه على السلطان جان بك ووقع بصره عليه شرع في عتابه وقال: ما حملك على الظلم وتخريب البلاد ونهب الأموال وأذية العباد؟ فقال الأشرف: إن هذه الأمور صدر كلها من الأمراء والحكام ولا علم لي بذلك فرحل السلطان جمان بك من أوجان ونزل بهشت دود (معناه الأنهر الثمان) وقد كانت في تلك السنة زراعة كثيرة هناك فعبه العسكر من بين تلك المزارع ولم تنكسر سنبله واحدة منها مع مرور تلك العساكر الكثيرة بها فينبغي أن يقاس نتيجة الظلم والعدالة من هناك وما أحسن ما قبل بالفارسية.

شعر:

ظلم نماندو قاعده ظلم ازو بماند عادل نماندو نام نيكويادكار كرد

وكان مقصود السلطان جان بك أن لا يعاقب الأشرف ولا يجازيه بسوء فعالة وقبائح أعماله وشنائع أحواله بل كان قصده أن يأخذه معه إلى مدينة سراي ولكن قال الملك كاوس والقاضي فخر الدين: إن الأشرف ما دام حيّاً لا يقدر أهل هذه الديار أن يناموا ليلة واحدة بالأمن والراحة خوفاً من مجيئه واستيلائه عليهم وحسنوا له إعدامه وألحوا عليه في هذا الباب فرجح هذا القول في ميزان عقل السلطان جمان بك وإدراكه إعدام الأشرف فحكم بقتله فضربوه بسيف فانقطع به نصفين وكان ذلك بهشت دود فحزوا رأسه وجاؤوا به إلى تبريز وعلقوه فوق باب مسجد مراغبان ففرح الأهالي بمشاهدة هذا الحال وشكروا الله تعالى لما أنجاهم من الشدائد والأهوال وفرقوا

الصدقات إلى المستحقين من الفقراء وأرباب العيال. ودخل السلطان جان بك مدينة تبريز بألفي فارس ونزل بدار الإمارة وبقي هناك ليلة واحدة وصلى صلاة الصبح بمسجد عالي شاه وكان عسكره نازلين بين الطريق ورود خانه ولم يكن لأحد مجال لأن يضع قدمه في بيوت الرعايا فأمر السلطان بإحضار خزائن الأشرف كلها وقسمها بين عسكره فقيل في ذلك.

شعر:

دانيكه چه كردا شرف خر أو مظلمه بردجان بك زر

ثم توجه السلطان إلى جانب أوجان وترك ولده بردي بك في تبرز بخمسين ألف فارس وأخذ معه ولد الملك أشرف تيمرتاش وبنته سلطان بخت ثم توجه إلى بلاده بالفتح والظفر وعمل الأمير محمود المشهور بمحمود ديوان من أكبر الأمراء وليمة عظيمة لإجلاس بردي بك خان على التخت وأجلسه على سرير السلطنة بمملكة آذربيجان وجعل وزيره سرايتمير ابن الأمير جاروق ثم توجه بنفسه من عقب السلطان جان بك خان اهـ.

ذكر إرسال الرسل إلى مصر

قال المقريزي والعيني: وفي شعبان من سنة ٧٥٨ قدمت رسل من جهة السلطان جان بك بن أوزبك فركب العسكر والأمراء والممالك والمقدمين وأجناد الحلقة إلى لقائهم بالزي الفاخر وتمثلوا بين يدي السلطان وقدموا ما معهم الهدايا وهي عدة ممالك وفرو سمور كثير وسنافر يعني طيور جوارح وأخبروا أنه قدم خراسان واستولى عليها فكتب جوابه وذكر السلطان حسن^(١) في جوابه أن أبي وأباك كانا شيئًا واحدًا وغرضنا تجدد المودة اهـ. وقال ابن شهبه وفي شعبان سنة ٧٥٨ وصل إلى دمشق رسل من السلطان جان بك بن أوزبك يخبرون بقدمه إلى خراسان واستيلائه عليها وانتزاعها من الأشرف بن تيمرتاش الظالم الغاشم وأخبروا أن جيش هذا السلطان يقارب سبعمائة ألف وكان يوم دخولهم يومًا هائلًا أمر الجيش أن يركبوا بالأطرزة والكلوتات المذهبة والتجمل التام ولما وصلوا إلى مصر احتفلوا بهم أيضًا وأكرمهم وقبلوا ما معهم من الهدايا وردوهم إلى بلادهم اهـ. ولم ينقل من معاملة هذا الخان العظيم الشأن مع الروسية شيء وكان أيامه مضت على الهدوء مع الروس، إلا أن

(١) ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون. منه عفي عنه.

كارامزين يذكر مرض زوجته مرضًا شديدًا بحيث عجز عن دوائه الأطباء وأنه طلب الرقي من قسيس الروس فرقاها رئيسهم ألكسي فشفيت فأعطاهم في مقابلة ذلك امتيازًا لم يعطوا قبل مثله الخ. وهذا شيء لا يقبله الوجدان في حق هذا الخان العظيم الشأن رحمه الله تعالى بل هو من مخترعات طائفة النصارى عمومًا والروس خصوصًا لترويج أباطيلهم لدى العامة لا غير.

ذكر وفاة الملك محمود جان بك خان عليه الرحمة والغفران وتسلطن ابنه بردي بك خان

قال ابن خلدون وغيره من المؤرخين الكبار: إن السلطان جان بك لما انكفأ راجعًا إلى بلاده بعد أن ولّى على تبريز ولده بردي بك اعتل في الطريق فلما اشتد مرضه ويئسوا من برئه طير أركان الدولة الخبير إلى ابنه بردي بك يعلمونه بالخبر ويطلبونه سريعًا ولما بلغه هذا الخبر ولّى على تبريز أميرًا من قبله قيل وزيره سراي تيمر وقيل الوزير أخي چوق وزير الأشرف أولاً وأخذ السير إلى بلاده ووصل إلى سراي وقد توفي أبوه السلطان جان بك في السنة المذكورة أعني سنة ٧٥٨ وقيل فيما بعدها ودفن ببلدة سراي رحمه الله تعالى رحمة واسعة وما قيل في بعض التواريخ أن ابنه برديك قد قتله فغلط محض وهم صريح وكانت مدة سلطنته سنة ١٧ وكان أيام سلطنته غرر الأيام باتفاق كافة المؤرخين على اختلاف أجناسهم وأديانهم رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

محمد بردي بك خان

ولما توفي جان بك عليه الرحمة ولي أركان الدولة ابنه المذكور بردي بك خان مكانه وأجلسوه على سرير السلطنة في السنة المذكورة ولم ينقل عنه شيء يعتني بتحريه إلا أنه قال كارامزين: وفي عصر بردي بك خان جاء أحد من أبناء الخوانين يسمى محمد خواجه إلى موسكوا وطلب من الكيناز إيوان بن إيوان الأول أن يعين حدود موسكوا وحدود الكيناز أليغ وادعى أنه مأمور بذلك من طرف بردي بك خان ولكن إيوان لم يلتفت إلى قوله ولم يتركه يقدم على شغل من الأشغال وقال: إن حدود موسكوا متعينة في فرمان حضرة الخان وقد كان سمع أنه هارب من الخان ثم إنه يعني الأمير محمد خواجه قتل بعد ذلك في أوردو اهـ.

وقال أبو الغازي: إن بردي بك كان ظالمًا غشومًا فاسقًا قاسي القلب ما ترك أحدًا من إخوانه وأقاربه بل قتل الكل وظن أن الملك يدوم له ولم يدر أن الدنيا فانية

سريعة الزوال فلم يدم له الملك إلا مقدار سنتين فمات في سنة ٧٦٢ وانقطع بموته نسب صاين خان يعني الملك باتو حتى سار بين الأوزبك مثلاً إلى الآن ناربويني بردي بكده كسلدى. يعني انقطع رقة الجمل العربي في بردي بك كناية عن انقطاع نسب صاين خان فيه كأنه شبه بها في القوة أو في الطول والأول أظهر.

وقال كارامزين: إنه قتل أباه واثنين عشر من إخوانه وكلف الروسية من الجزية والخراج ما لا يطاق فجاء ألكسي المذكور أوردو التتار وواجه أمه طايدوله وكلمها في تخفيف الجزية فكلمت ولدها بردي بك خان في ذلك فقبل شفاعتها وخفف الجزية عنهم وبالجملة أنه لم يكن محمود السيرة.

وقال ابن خلدون: إن بردي بك استقل بالدولة وهلك لثلاث سنين من ملكه اهـ. فإذا كان وفاة جان بك خان وجلوس بردي بك في سنة ٧٥٩ كما قيل يوافق قول ابن خلدون قول أبي الغازي خان المار آنفاً فإن مراده بالسنتين سنتان كاملتان غير سنة جلوسه ووفاته ومراد ابن خلدون بثلاث دون وفاته والله سبحانه أعلم بسرائر عباد.

قلت: وبموته وقع الاختلال في دولة التتار ببلاد الشمال وكثر الهرح والمرج ورفع الأعداء رؤوس الاستقلال من كل جانب لعدم رئيس يرجع إليه وصاحب من جملتهم الروسية فإنها هجمت على البلغار أولاً كما أمر ثم قاتلت ماماي وغلب عليه في فوليقو وقطعت الجزية والخراج إلى أن جلس توقتاميش خان وأعادها إلى الانقياد كرهاً كما سيجيء تفصيل كل ذلك إن شاء الله وهذا هو الاختلال الأول الموجب لضعف الدولة بل المفضي إلى انقراضها واستيصالها ومدة هذا الاختلال مقدار عشرين سنة قيل إن بردي بك لم يخلف ولداً أصلاً كما تقدم من أبي الغازي وقيل بل خلف ولداً صغيراً هو توقتاميش خان قاله ابن خلدون ومن حذا حذوه كما ستقف عليه. وبالجملة قد استبد قواد الجيوش وأمراء الأجناد وولاية النواحي بالملك في كل بلدة من تلك البلاد وكل ناحية من تلك النواحي مثل الحاج شركس استقل بحاجي طرخان وماماي بقرم وخضر بك بأعالي جايق وأرض خان بسراري وغيرهم واشتغل كل بمحاربة الآخر ومدافعتهم ومراقبتهم.

قال ابن خلدون: ولما هلك بردي بك خلف ابنه توقتاميش غلاماً صغيراً وكانت أخته بنت بردي بك تحت كبير من أمراء المغل اسمه ماماي وكان متحكماً في دولته وكانت مدينة قرم من ولايته وكان يومئذ غائباً بها وكان جماعة من أمراء المغل أيضاً

متفرقين في ولايات الأعمال بنواحي سراي ففرقوا الكلمة واستبدلوا بأعمالهم فتغلب حاجي شركس^(١) على ناحية حاجي طرخان وتغلب أرض خان^(٢) على عمله يعني بنواحي منغشلاق وجبال خوارزم وأيبك خان كذلك وكانوا كلهم يسمون بأمرء الميسرة فلما هلك بردي بك وانقرضت الدولة واستبد هؤلاء في النواحي خرج ماماي إلى القرم ونصب صبيًا من ولد أوزبك خان اسمه عبد الله وزحف به إلى سراي فهرب منها توقتاميش ولحق بمملكة أرض خان في ناحية جبال خوارزم واستولى ماماي على كرسي سراي وأجلس عليه الخان عبد الله الذي نصبه ونازعه أمير من أمراء الدولة ونصب من بني القان آخر اسمه قطلقتيمر فغلبهما ماماي وقتلها ثم انتقل توقتاميش من مملكته أرض خان في ناحية خوارزم إلى مملكة بني جغطاي بن چنكزخان في سمرقند وما وراء النهر والمتغلب عليها يومئذ السلطان تيمر من أمراء المغل فأقام توقتاميش خان هناك. ثم تنافس الأمراء المتغلبون على أعمال سراي وزحف حاجي شركس صاحب عمل حاجي طرخان إلى ماماي فغلبه على سراي وملكها من يده وسار ماماي إلى القرم فاستبد بها. ولما زحف حاجي شركس من عمله بعث أرض خان عساكره من نواحي جبال خوارزم فحاصروا حاجي طرخان وبعث الحاجي يعني حاجي شركس العساكر إليهم مع بعض أمرائه فأعمل الحيلة يعني الأمير المبعوث إليهم حتى هزمهم عن حاجي طرخان وفتك بهم وبالأمر الذي كان يقودهم، وشغل حاجي شركس بتلك الفتنة فزحف إليه أيبك خان وملك سراي من يده واستبد بها أيامًا ثم هلك وولى بعده بسراي ابنه قارينخان ثم زحف إليه أرض خان من جبال خوارزم فغلبه على سراي وهرب قارينخان بن أيبكخان إلى عملهم الأول واستقر أرض خان بسراي وماماي بالقرم وما بينه وبين سراي في ملكه ومن جملة مملكته وكان هذا في حدود أعوام سنة ٧٧٦ وتوقتاميش في خلال ذلك مقيم عند السلطان تيمر فيما وراء النهر اهـ.

(١) قلت وفي أطراف حاجي طرخان قبيلة من الأتراك تسمى قبيلة شركس فلعلها من ذريته والله سبحانه أعلم منه عفي عنه.

(٢) هذا مکتوب في التواريخ بروسخان حتى في تاريخ الفاضل المرجاني وهو غلط بل هو أرض بضم الهمزة والراء بمعنى البخت والإقبال يقال عند القزاق إلى الآن فلان أرصلي فلان أرصسز بمنى صاحب الإقبال وعديم الإقبال وكثير عندهم الآن يسمى ارضباي والذي لا يعرف أصل هذه الكلمة يحسبه أورصباي وليس كذلك بل الصواب ما قلنا فاعرف هذا واغتنم. منه عفي عنه.

قال كارامزين بعد تعداد مساوىء بردي بك وذمه: إنه قام عليه واحد من بني أعمامه يسمى قولباخان فقتله وجلس مكانه وأنه كان (يعني قولبا) مائلاً إلى النصرانية بل كان قد تنصر له ولدان فكان هذا ملائماً للروسية جداً، إلا أن أيامه لم تطل بل قام عليه بعد مضي خمسة أشهر من خانيته واحد من أولاد جوجي بن چنكزخان يسمى نوروزبك بمعونة طايد وله زوجة جان بك خان وأم بردي بك خان فقتل قولباخان وجلس مكانه، ثم بعد مدة قام عليه واحد من أمراء التتار من أعالي نهر جايق يسمى خضر خان فقتله وجلس مكانه ولكنه لم يتهنأ بالخانية سوى أربعة أو خمسة أشهر ثم خرج عليه ابنه تيمر خواجه الشقي وقتله وجلس مكانه اهـ.

قال الحاج عبد الغفار أفندي بعد تعداد مساوىء بردي بك خان ووفاته حتف أنفه: أن الأمراء الشيبانية كلفوا طيدوغلي خاتون زوجة أوزبك خان وأم جانبك خان (هكذا في النسخة التي نقلت عنه والصواب زوجة جانبك وأم بردي بك خان كما مر نقلاً عن كارامزين وإنما وقع الاشتباه من تشارك الاسمين فإن اسم زوجة أوزبك خان أم جانبك خان أيضاً طيدوغلي خاتون راجع رحلة ابن بطوطة) بالجلوس في مسند الخانية فأبت وامتنعت وقالت: إن الخانية الآن يستحقها بنو شيبان بن جوجي بن چنكزخان شرعاً وقانوناً فنصب الأمراء المذكورون خضر أوغلان بن منغتاي خاناً قال الفاضل المرجاني: إنه ابن إبراهيم بن فولاد بن منگو تيمر بن باداقل بن جوجي بوقا بن بهادر خان بن شيبان بن جوجي اهـ. والعهدة عليه.

عود إلى ما ذكره الحاج عبد الغفار أفندي

قال: وكان مسكنه في موضع يسمى آق كول فأعطته طيدوغلي الخركاه التي بقيت من أوزبك خان وكانت عتبتها من الذهب الخالص (ولعلها الخركاه المخصوصة بالخوانين التي أعطاها چنكزخان لباتوخان كما مر في أول ترجمته ومر وصفها في ترجمة بركة خان وأوزبك خان ويسبها سميت مملكة التتار بمملكة آتون أوردو كما مر) وكان قصدها بذلك أن تستميل قلب خضر خان ليتزوجها ولكن لم يرض بذلك قوتلوبوغا بك النايمني الذي هو مدبر مملكة خضر خان بل مزق الخركاه المذكورة وقسمها بين خواصه فغضبت طيدوغلي من هذا الصنيع الشنيع وانفقت مع أمرائها على عزل خضر خان فعزلوه وطرده إلى وطنه وأجلست في مسند الخانية شخصاً مخمولاً يسمى بازارجي أوغلان وقتلت أكبر الأمراء علي بك السلجوقي زعمًا منها أنه لا يطيعه فهرب ولده حسن بك وذهب إلى خاله حسين بك بن قانگداي بك الفونكراتي وكان

واليّا بخوارزم وشكا إليه من طيدوغلي وعدد قبائحها ودعاه للانتقام منها فذهبوا إلى خضر خان المار الذكر ودعوه إلى الاتفاق معهم للانتقام منها فقبله بكمال الممنونية فساروا بعساكر كثيفة إلى سراي ووقع القتال هناك بين الفريقين فانكسر عسكر بازارجي فهرب وأنجى نفسه فأمسكوا طيدوغلي الخاتون وقتلوا ثم جلس خضر خان في مسند الخانية ثانياً. وبعد مضي سنة ونصف من خانيته في هذه النوبة قتله ولده بروت (لعله مرید) وجلس مكانه وعند مرور ثلاثة أشهر قام عليه بعض الأمراء وقتله فاختلف أمور الدولة وتحير الناس وذهب أكثرهم إلى جهة قريم والتحقوا بماماي بك بن آلاچ بك السياتي اهـ.

وقال كارامزين بعد ذكره ما مضى: ولما مضى خانية تيمر خواجه الشقي ستة أيام جاء ماماي ميرزا وقتل تيمر خواجه ونصب واحداً من ذرية الخوانين يسمى عبد الله قائناً أعظم وقد قام في تلك الأثناء أشخاص عديدة بدعوى الخانية قام واحد يسمى كلدي بك وادعى أنه من ولد جان بك (يعني ممن قتلهم بردي بك) وأراد أن يجلس في مسند الخانية فعارضه الميرزا مرید أخو خضر خان ودخل بلدة سراي بعسكر كثير (والظن أنه قتله ولم يكن من ولد جان بك بل كان دعياً) واستولى الميرزا بولاك تيمر على أراضي بلغار واستولى الميرزا طاغاي على مملكة موردوا (برطاس) والحاصل اضطربت الأمور غاية الاضطراب وكثرت الفتن ولم يدر أحد أن الخان من هو ففرحت الروسية بمشاهدة هذا الحال غاية الفرح وتخيلوا أنه قد حان وقت تخلصهم من رقية التتار ولم يدروا أنه قد بقي منهم بقايا وأن في الزوايا خبايا والحاصل قد اضطرب من هذا الاختلال كافة الأمور وكادت الدولة تضمحل بالكلية وغاب من الناس الشعور وقد تقدم ما يتعلق بهذا المقام في آخر المقصد الأول فلا حاجة إلى التكرار فراجعها.

أحوال الميرزا ماماي ومحاربته الروسية

قد تقدم في المقصد الأول أن الروسية قد عصت التتار في أثناء هذا الاضطراب وأن ديميتري دونسكي بن إيوان خليطة أرسل العسكر إلى جهة بلغار وقزان واستولى عليها فصعب ذلك على الميرزا ماماي وأغضبه غاية الغضب فأرسل فرقة من عسكر التتار على الروسية تحت رئاسة أمير يسمى عرشاه وكان المذكور قصير القامة ولكنه عالي الهمة وصاحب التدبير والشجاعة والدراية فاستولى في أول الأمر على نبزني نووورد وأحرقها وخرّبها وانضم إليه عسكر موردوا برطاس واستولى أيضاً على

سوزدل وخربوا كثيرًا من بلاد الروس غير ذلك وقتلوا ونهبوا وعادوا مستغرقين في الغنيمة وكان ذلك في أغسطس سنة ١٣٧٧م مصادفة سنة ٧٧٩ هـ.

ولما عاد التار إلى ممالكهم قصدت الروسية جيرانهم موردوا للانتقام منهم فقتلوا وخربوا ونهبوا وأسروا أما نساء الأعيان وأولادهم فأبقوهم أسراء أرقاء لهم وأما السوقة فقتلوهم بأفطع القتل وأشنعه كالجر^(١) من أرجلهم في الأزقة والإحراق بالنار وإشلاء الكلاب والسباع عليهم والحاصل لم يبقوا من الفضائح التي تليق بمدينة الروسية شيئًا إلا أجروه.

ولما سمع الميرزا ماماي ذلك ثار غضبه وقام لأخذ الثأر منهم لكون موردوا من رعاياه فأرسل العسكر ثانيًا على الروسية ولكن كان غيناز الروسية ديميتري دونسكوي خيرًا به ومتيقظًا ومتهيئًا للمقاومة فسار نحو عسكر التار على التعبئة وكان عسكر التار غافلًا عن ذلك وغير متهيئ للقتال ولما رآهم ديميتري على هذا الحال هجم عليهم بلا مهلة ولم يمكن التار من تعبئة العساكر فلم يقدروا على المقاومة فولوا الأذبار منهزمين.

ولما سمع ماماي انهزام عسكره سار بنفسه نحو الروسية بعسكر جرار ودخل بلادها يقتل ويخرب وينهب ويأسر حتى وصل إلى رزان ثم رجع منها بغنائم لا تحصى وأسارى كثيرة إلى أوردو وآخر الانتقام من ديميتري وموسكوا إلى وقت آخر.

ولما وصل إلى أوردو قسم عسكره قسمين وأرسل قسمًا منهما إلى الروسية تحت رئاسة الميرزا بيكيچ. ولما سمعه ديميتري حشد عسكره وخرج إلى برية رزان واستقبل الميرزا بيكيچ في أعالي نهر ووژا وحين رأى مجيء التار عبي عسكره وهجم عليهم بغتة كالأول وهزمهم في أول الهجوم وقتل منهم مقتلة عظيمة وقد فني في هذه النوبة كثير من شجعان عساكر الميرزا ماماي والمشاهير من الأمراء وغرق بقاياهم في نهر ووژا ولم ينج منهم إلا القليل وذلك أيضًا بالاستفادة من ظلمة الليل وانتظرت الروسية صباح الليلة المذكورة مجيء التار بلم شعثهم وجمع فلهم ولكنه لم ير منهم أثر فتقدموا قليلًا فأروهم أنهم قد هربوا تاركين مهماتهم كما هي فكاد ديميتري يتجنن

(١) ومن هو واقف على أحوال الروس وما يفعلونه الآن في شأن رعاياهم الإسرائيليين لا يستبعد أمثال هذه المعاملة منهم في الوقت المذكور في حق موردوا للانتقام لهم. منه عفي عنه.

من شدة فرحه لأن هذا كان أول غلبتهم على عساكر التتار النظامية حين مرور مائة وأربعين سنة من غلبة التتار عليهم فقوي بذلك قلوبهم وكان ذلك في أواسط أغسطس سنة ١٣٧٨م مصادفة سنة ٧٨٠هـ.

محاربة كوليوكوا المشهورة

ولما سمع الميرزا ماماى هذا الخبر الموحش أراد أن يسير إلى الروسية بنفسه ثانيًا لأخذ الثأر ولكنه تأنى وتبصر لتلف كثير من عساكره واستشعاره القوة من الروسية وإسماعه غلبة توقتاميش خان على ممالك أرض خان في الشرق فشرع في جمع العساكر من أجناس مختلفة من الجراكسة واللان وپولويتسا (يعني القفجق) والأرمن واليهود فاجتمع لديه من هؤلاء الأجناس عساكر لا تحصى فأرسل إلى حكام كافة الروسية يعلمهم بأنه يحذو حذو باتوخان وأنه يخرب كافة الروسية مثله ولم يكتف الميرزا ماماى بذلك بل اتفق على الروسية مع ياغیلا حاكم ليتوانيا المشهور على شرط أن تكون كافة البلاد التي تفتح من الروسية له ويكون هو خراجيًا لدولة التتار ويؤديهم الجزية المعينة ولما بلغ ديميتري دونسكي توجه ماماى وقصده بلادها وما جرى بينه وبين ياغیلا من الاتفاق استولى عليه غاية الخوف فدعا المطران واستشاره فاستقر رأيهم على المقابلة والمقاومة فأرسلوا إلى كافة حكام الروسية والأهالي يحذرونهم من وخامة العاقبة ويدعونهم إلى الاتفاق وأن يجمعوا العساكر ويلحقوا بديميتري على أسرع ما يكون فاجتمع من كافة أقطار الروسية من العساكر النظامية والمنتطوعة في أقرب مدة ما لم يؤمل اجتماع نصفه وجاؤوا بلدة موسكوا فلما رآهم ديميتري أعجبه كثرتهم وشوقهم إلى الحرب والدفاع عن الوطن ففرح فرحًا شديدًا وتفاءل وتخيل أنه يستأصل التتار وأظهر الالتفات الزائد للأمراء والأهالي واستمال قلوبهم. وأما أهالي بلدة موسكوا فلا تسأل عن فرحهم حين رؤيتهم هؤلاء العساكر الفدائية المقاتلة للدين والمدافعة عن الوطن وقد غلب عليهم البكاء من شدة فرحهم. قال كارامزين: صارت أهالي الروسية كمن استيقظ من نومه ويقولون نموت ونقتل ولا نعطي وطننا وديننا ويشتر بعضهم بعضًا بالغلبة والتخلص من غل الأسارة والعبودية للتتار التي امتدت ١٥٠ سنة ويقولون: عيب علينا أن نصبر زيادة على ذلك يكفيننا المذلة والردالة التي قاسيناها هذه المدة وكان اتحاد الأهالي والحكام على وجه كأنهم روح واحد في أجسام شتى وكان ذلك استيقاظ الروسية من نوم الغفلة حتى انسلت كثير من شبان الرهايين في سلك العسكرية.

وبعد مضي أيام في الفرح والسرور والضيافة والوليمة خرج ديميتري في أوائل أغسطس من سنة ١٣٨٠م سنة ٧٨٢ هـ بهذه العساكر نحو حدود بلاده مما يلي بلاد التتار فشيّعهم القسيسون والرهابين وكافة الأهالي بغاية الخلوص ودعوا لهم بالنصرة حتى صارت حالتهم أنموذجًا من القيامة وقد وقع لهم أثناء سيرهم بعض العوائق من خيانة بعض حكامهم. وكان الميرزا ماماي في ذلك الوقت بساحل نهر دون (تن) ينتظر لحوق ياغيلا به بعساكر ليتوانيا وقد مضى من وصوله هناك ثلاثة أسابيع ولما قرب ديميتري في سادس سبتمبر من العام المذكور من نهر دون الذي عسكر بساحله الميرزا ماماي عقد هناك مجلس الحرب واستشار سائر أمرائه وقرنائه في أن الأنسب أن ينتظروا هناك مجيء ماماي أو يسيروا إليه فاستنسب بعضهم الأول ورجح بعضهم الثاني فجاءهم في تلك الأثناء مكتوب من بعض رهابينهم الذي يسمع كلامه وقد كتب فيه بالاستعجال في المحاربة وعدم التأخير فقال ديميتري أن ماماي يتأنى في مسيره غاية التأني و ينتظر لحوق ياغيلا به فمتى اجتمع^(١) ياغيلا مع ماماي يصعب علينا الأمر غاية الصعوبة ولا نقدر المقاومة فالأصلح أن نسير إليهم ونقاتلهم قبل مجيء ياغيلا فتلقوا ذلك الرأي منه بالقبول وأمروا العساكر بعبور نهر دون في الآن فعبروه في سابع سبتمبر وساروا نحو ماماي وفي صباح اليوم الثامن منه جاؤوا مقابلة التتار في ساعة زوالية وتقدم ديميتري كافة عساكره ليبت فيهم روح الغيرة وأراد الهجوم فمنعه العساكر وسائر القواد وقالوا: لو هلكت فمغلوبيتنا مقررة والأصلح أن تقيم وراء العسكر وترقبهم وتحرضهم من هناك، فقال لهم: أنا معكم أينما كنتم فهل أقدر أنا أن أقول لكم أيها الإخوان لا تنسوا الأوطان فإما الموت وإما الخلاص من الأسر وأنا الأمير فعليكم الامتثال فهجم على صف التتار ثم تأخر بعد مناوشة ساعة فاختلط الفريقان بعضهم ببعض وقد انتشروا مسافة عشر ویرستا (اثنى عشر كيلومتر أو نصف تقريبًا) وحمي الوطيس وقتل من الجانبين خلق عظيم فسالت الدماء كالسيول المنهمرة بالقتلى فوقعت الكسرة على الروسية فطفقوا يهربون وظهرت علائم غلبة التتار وقد جعل ديميتري ربع عسكره أولاً في الكمين تحت رياسة الكيناز ولاديمير بن آندري فلما رأى انهزام عسكره أمرهم بالخروج من الكمين والهجوم على التتار فخرجوا وهجموا عليهم بغتة ولما رآهم العساكر المنهزمة رجعوا إلى مراكزهم وحملوا حملة رجل واحد فظهر

(١) وقد أدرك ذلك الراهب هذا المشكل وأيضًا في التأخير خوف انحلال عقدة الاتفاق ووقوع الشقاق والفتور في العزيمة كما هو مشاهد في مثل تلك الأمور ولهذا كتبه بالاستعجال. منه عفي عنه.

لعساكر التار ما لم يكن في حساب وانقلب الأمر فشرعوا يهربون وكان الميرزا ماماي في ذلك الوقت ينظر أحوال الطرفين فوق القلعة هناك مع جمع من أمرائه وأركان دولته ويلعن الهارين. ولما رأى أن الأمر قد انعكس والحال قد انقلب وأن المقام بعد ذلك إلقاء نفسه في التهلكة انسحب من محله يرد عساكره ولكن الأمر قد تعدى طوره فلم يمكنه إرجاعهم فانهمزوا أقبح هزيمة ووضعت الروسية فيهم السيف كيف شاؤوا وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد سقط الكيناز ديميتري في أثناء المعركة جريحاً، فوجده الكيناز ولاديمير بن أندري بعد انقضاء المعركة مغمى عليه فلما أفاق وفتح عينه سأله أن الغلبة لمن فقالوا له: أنت أبونا وكبيرنا قد غلبت وصار عدوك مقهوراً فعانق ديميتري جميع من عنده وبكى من فرحه وجعلوا هذا اليوم عيداً مخصوصاً ولقبوا ديميتري بلقب دونسكوى يعني بطل نهر دون. وأما ياغيليا فقد كان قرب من المعركة جداً حتى لم يبق بينه وبينها إلا مقدار ثلاثين أو أربعين ويرسناً فلما سمع غلبة الروسية وانهزام التار رجع القهقري ولم يلبث وتعقبه الروسية ولكنهم لم يدركوه وأما الميرزا ماماي فكذلك هرب من المعركة مع بقايا عساكره تاركاً جميع مهماته ولم يتوقف قط.

هذا قول كارامزين وقد سمعت بعض من طالع تواريخ الروسية سوى تاريخ كارامزين يقول: إنه لما صار الأمر إلى ما صار وانقضت المعركة بغلبة الروس وانهزام التار وانفصل الفريقان من الآخر توقف الروس قريباً من المعركة وكذلك التار، ولما جن الليل غزر الروس في المعركة أعواداً كثيراً صفوفاً مثل صفوف العسكر وألبستها لباس العسكر وأوقدت فيها نيراناً كثيرة ثم رجعت القهقري إلى مسافة غير قريبة خوفاً من رجوع التار وكان من عزمها أن تهرب لأنه قد فني أكثر عساكرها وجرح ديميتري وغيره من القواد وأما الميرزا ماماي فإنه لما توقف وأظلم الليل استشار مع رؤساء عساكره وقال: لو وقع مثل هذا الحال غداً لفني جميع العساكر فأرسل فرساناً ليتفقد أحوال الروس ويتحققها فلما رأَت الطليعة تلك الأعواد مصطفة في المعركة وهاتيك النيران موقدة فيها من بعد ظنتها عساكر الروس حقيقة وأنها متهيئة للهجوم فرجعت وأخبرت بذلك الميرزا ماماي فلم ير المصلحة في التوقف فأخذ الأشياء الخفيفة وترك الأثقال وسار نحو بلاده ناوياً العود إلى الروسية لأخذ الثأر بعد إصلاح حاله وإكمال نقصانه بجمع عسكر جديد من شجعان التار وأما الروس فإنها كانت توقفت في مسافة بعيدة منتظرة للفرار متى جاءت التار ورأتهم من بعد ولما لم يظهر أثر من التار في الغد أرسل من يستكشف عن أحوالهم فأخبرهم بذهابهم فاستولوا على أثقالهم وأخذوها غنيمة باردة اهـ.

قلت: هذا هو المناسب لحال مثل ماماي فإن العقل لا يجوز تقهقره بمجرد هذا القدر عن الانكسار وكارامزين كثيرًا ما يهضم من جانب خصمه مع قلة تعصبه بالنسبة إلى غيره وقد انقضت هذه المعركة بهذه المثابة ولكن لا يخفى على المطالع اللبيب من خطايا الميرزا ماماي التي نشأت منها تلك الحالة السيئة فإنه لما انكسر عسكره الذي أرسله مع الميرزا بيكيچ سلك طريق الاحتياط ولم يستعجل في الهجوم بل صبر حتى جمع العساكر الوافية الكافية فقد أحسن في هذا فإنه طريق الحزم ولكنه أخطأ في إرساله إلى حكام الروس بإعلام مقصده من قصده تخريب ممالك الروسية خطأ فاحشًا لأنه خدم بذلك الروسية ودعاهم إلى الاتفاق والاتحاد والتفاني والتماوت للدفاع عن الوطن والذراري كما لا يخفى، وكان اللازم أن يلقي بينهم التفرقة بجلب قلوب بعض حكامهم وإعلامه بأنه إنما ينتقم من الكيناز ديميتري فقط لا غير وأن يقاتل ديميتري ويغلبه وبعد غلبته إياه كان يمكنه أن يفعل بهم ما شاء كما فعل طوقتاميش خان بعد ذلك. وأخطأ ثانيًا في إهماله أمر القيادة وقت المعركة وتركه طريق الحزم لأنه كان اللازم عليه أن يقود العسكر بنفسه كما فعل خصمه الكيناز ديميتري وأن لا يأوي إلى القلعة وقت القتال. وأخطأ ثالثًا في جمع العساكر من الأجناس المختلفة لأنهم إنما يقاتلون طمعًا في الغنيمة لا للوطن ولا لحياسة شرف الغلبة ومتى يرون الغلبة في طرف العدو يهربون من ساعتهم لا يلوون لأحد وربما كانت مغلوبية التار هي مقصدهم الأقصى ليتخلصوا من رقيتهم كالروسية وظني أنهم هم السبب في الانكسار وأخطأ رابعًا في تقدمه قبل لحوق متفقه ياغيبا به وكل تلك الخطايا إنما وقع بالاغترار بكثرة العساكر وتهوين أمر العدو الأمر الذي اغتر به كثير من الملوك فوقعوا فيما وقعوا فبهذه الأسباب صار الأمر إلى ما صار والله أعلم بحقيقة الحال.

ولكن لا يظنه أن عساكر ماماي جميع عساكر التار بل لم تكن تلك العساكر ربع عساكر التار لأنه قد تقدم انقسام الممالك إلى أقسام شتى وأن الميرزا ماماي قد تغلب على ناحية من تلك الممالك الجسيمة أعني قطعة قرم ولذلك لم يكن قلبه مطمئنًا من جهة مملكته وكان دائمًا خائفًا من تغلب غيره عليها.

بقية أحوال ماماي ووفاته

قلت: كانت تلك الواقعة خاتمة أعمال الميرزا ماماي وآخر أحواله فإنه لما رجع إلى مقره من أعالي آقتويه أو مملكة قريم شرع في جمع العساكر الجديدة لأخذ الثأر من الروسية ولكن وجه القدر وجهة الأمر إلى جهة أخرى وذلك أن توقيتاميش خان كان قد جلس في ذلك الوقت مسند الخانية واستملك سراي وحواليها وأطاعه من بقي

من أمراء التتار المتغلبة كلهم ولم يبق سوى الميرزا ماماي ومن معه من الأمراء فدعاهم توقتاميش خان إلى الطاعة والبيعة له فأبوا وامتنعوا لما رأوا في أنفسهم القوة وظنوا أنهم أحق بالملك منه ولم يدروا أن قوة توقتاميش خان في ذلك الوقت أضعاف قوتهم وأن الملك لله يؤتية من يشاء وأن الأصلاح والألزم جمع الكلمة والوفاق وترك الشقاق ولكن إذا جاء القضاء عمي البصر فأصروا على العناد فسار إليهم توقتاميش بعساكره الجرار فالتقى الفريقان بساحل نهر دون على قول الحاج عبد الغفار أفندي القريمي فقتلوه هناك في قصة طويلة يلوح عليها علائم الخرافات فلا يعتمد عليه وبساحل بحر أوزاق بقرب بلده ماريو پول^(١) بمحل انكسر فيه عسكر الروس من التتار المغربة في عصر چنكزخان فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً حتى لم يبق متنفس من عسكر الميرزا ماماي فانسحب من المعركة مع بقية أمرائه ونسائه وخزائنه وتوجه نحو مملكة قريم ودخل هناك بلدة كفه والتجأ بالجنويزية وفارقه سائر أمرائه هناك والجنويزية وإن قبلته أولاً ولكنهم غدروا به في الآخر وقتلوه مع كافة متعلقاته واستولوا على خزائنه وهذا آخر أمر هذا الغضنفر رحمه الله تعالى رحمة واسعة وهذا يكفي عبرة للمعتبر فكان المرحوم ثاني الأمير نوغاي المتقدم ذكره فتذكر ولكن توقتاميش خان أخذ بثأره بعد ذلك من الجنويزية كما سيجيء في ترجمته .

وقد رأيت نقلاً من بدائع الزهور في وقائع الدهور^(٢) هكذا: توفي ماماي سنة ٧٨٢ وكان تولى الملك سنة ٧٦٣ بعد كلدي بك اه وهو الموافق والمطابق للواقع فإن استقلال توقتاميش خان في حدود السنة المذكورة وكذلك يفهم أيضاً من تاريخ كارامزين فإنه قد مر نقلاً عنه أن تلك الواقعة كانت في سنة ٧٨٢ وأنها في سبتمبر وقد كان أول السنة المذكورة في أبريل (نيسان) وتكون وفاته في آخر السنة المذكورة والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال . هذا ولا أظن أن صاحب مرحة لا يرق قلبه لقتل هذا الأسد الضرعام حامي الملة ولكن ما العلاج إذا كان في جانبه اللجاج فإنه يقتل ألوف مثله لسلامة الملك رحمه الله سبحانه رحمة واسعة .

(١) يعني بساحل نهر كان يسمى أولاً قالقا ويسمى الآن فالينسكي . منه عفي عنه .

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: لمحمد بن إياس الأديب المصري، المتوفى سنة ٩٣٠ هـ، وهو من تواريخ مصر، لخصه من نحو سبعة وثلاثين كتاباً وذكر ما وقع في القرآن والحديث من فضائل مصر وما اشتملت عليه من العجائب، ومن نزلها ودخلها من الأنبياء عليهم السلام، ومن ملكها إلى الجراكسة ونشأ بها من الأعيان على ترتيب الشهور والأعوام، وانتهى فيه إلى سنة ٩٢٨ هـ. (كشف الظنون ١/٢٢٩).

الملك المعظم ناصر الدين الغازي أبو المجد توقتاميش خان بهادر

اعلم أن توقتاميش خان كان أعظم ملوك التتار شوكة وأعلاهم همّة وأحسنهم سياسة وأقواهم جاشًا وأشدّهم سطوة وبأسًا فلو ساعده القدر لكان له شأنًا عظيمًا وحالًا قويًا ولكن كان الدهر غالبًا في معاندته ويأمر وكلاءه دائمًا بمحالفته كما ستقف على تفاصيل ماجرياته وقد اختلف المؤرخون في نسبه فمن قائل إن نسبه يتصل بجوجي خان بواسطة ولده توقاي تيمور قاله أبو الغازي في كتابه شجرة الترك حيث سرد نسبه هكذا: توقتاميش خان ابن توي خواجه بن توق قل خواجه بن كونجك أوغلان بن ساريچه بن أوزتيمر بن توقاي تيمور بن جوجي خان ومن قائل: إنه يتصل به بواسطة غيره من أولاده حيث قال: إنه ابن يول خواجه بن مبارك خواجه بن ساسي بوقا بن توقاي بن قولي بن أورده بن جوجي بن چنكزخان ذكره في تاريخ منجم باشي نقلًا عن تاريخ جهان اللغاري.

وقد ذكر الفاضل المرجاني غير هذا أيضًا ومن قائل: إنه ابن بردي بك خان بن جان بك خان الخ. قاله ابن خلدون كما مر: فعلى هذا لم ينقطع نسب صاين خان بموت بردي بك خان كما قيل بل بقي إلى أزمنة طويلة وهذا القول وما ذكره أبو الغازي هو الذي يميل إليهما القلب ويطمئن إليهما الخاطر فإن ابن خلدون كان في عصره ومطلعًا على حاله وأمره وأيضًا يظهر كونه من عائلة صائن خان من العبارات التي تجيء بعد ذلك كما ستقف عليها إن شاء الله تعالى.

وأما أبو الغازي خان فإنه هو المرجع في هذا الشأن ولكن الأولى أن لا نخوض في هذا الأمر بالظن والتخمين ونكل علمه إلى اللطيف الخبير حيث إن كونه من أكابر ملوك الجوجية الچنكزية غير خفي وستير ونعطف عنان اليراع نحو بيان أحواله من ابتدائه إلى انتهائه فنقول مستعينًا بعون الله تعالى.

قال ابن خلدون بعد ذكره ما تقدم من وقوع الاختلال بسراي وذهاب توقتاميش خان إلى سمرقند ومكثه عند تيمر: ثم طمحت نفسه إلى ملك آبائه بسراي فجهز معه السلطان تيمر العساكر وسار بها فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه هناك عساكر أروص خان فقاتلوه وانهزم ورجع إلى تيمر ثم هلك أروص خان قريبًا من منتصف تلك السنة فخرج السلطان تيمر بالعساكر مع توقتاميش مددًا له إلى حدود عمله ورجع توقتاميش فاستولى على أعمال أروص خان بجبال خوارزم ثم سار إلى سراي وبها أعمال أروص

خان فملكها من أيديهم واسترجع ما تغلب عليها ماماي من ضواحيها وملك أعمال حاجي شرکس في حاجي طرخان وانتزع جميع ما بأيدي المتغلبين ومحا أثرهم اهـ.

وقال منجم باشي في تاريخه: إن ملك الدشت لما آل إلى أرص خان بن جيمطاي بن آبيصان بن ساسي بوقا بن توقاي بن قولي بن أورده بن جوجي في سنة ٧٦٩ وتمكن من الجلوس على تخت الدشت أراد أن يجمع بين كوك أوردا وآق أوردا في ملكه وأن يكون حاكمًا مستقلًا بهما فخالفه في ذلك ابن عمه يول خوجه بن مبارك بن ساسي بوقا (قلت الصواب على ما ذكره ابن عم أبيه) فقتله وبقي منه ولد صغير يسمى توقتاميش خان نجى من تلك المعركة فلما كبر وبلغ أشده التحق بالأمير تيمر بسمرقند فأكرمه تيمر غاية الإكرام ووعدته أن يسترد مملكة آبائه من يد أعدائه وأن يعطيه إياها ويسلمها إليه فأمدته بالعساكر مرارًا إلى أن غلب المخالفين على الملكة اهـ. اختصارًا بقدر الضرورة.

قلت: وتفصيل هذه القضية وشرح هذه القصة على ما في روضة الصفا وهكذا:

قال في روضة الصفا: إن الأمير تيمر لما وصل حين تعقبه قمر الدين خان في المرة الخامسة إلى موضع يقال له بوجقان قرع سمعه في ذلك المحل أن توقتاميش أوغلان صار متوهمًا من أرص خان وحارب بيك پولاد وانهزم أمامه وقصد سمرقند والتجأ إلى اللنك وأنه قد قرب وصوله فأرسل لاستقباله من المحل المذكور نوبن تيمر أوزبك ليحيي بغصن دوحة بستان الخانية يعني توقتاميش خان إلى سمرقند ورجع هو نفسه إلى سمرقند فلما وصل إليه ونزل بلغه أن توقتاميش أوغلان قد قرب من البلد فركب وخرج من البلد لاستقباله فلما تلاقيا وتصافحا دخلا البلد معًا فأنزله منزله مناسبًا له وأضافه بضيافات لم يقرع أذن الزمان مثلها ولما انقضت مدة الضيافة وأيام الوليمة والفرح والسرور أعطاه الأمير المذكور يعني تيمور أموالاً عظيمة من النقود والجواهر والأقمشة الفاخرة والخيول والجمال والبغال والعبيد والحشم والخرکاه والخيم والطبول والعلم والعساكر والخدم وأرسله إلى سغناق وانزار^(١) حاكمًا بها والظاهر من سياق كلام المير آخوند أن هذه كلها كانت في سنة ٨٧٨ حيث ذكرها في

(١) سغناق وصبران وانزار وأترار واسبيجاب وفاراب وطراز وطرابند ويسي وجند كل هذه من بلاد تركستان بسواحل نهر سيحون الشهير الآن بسير دريا ما بين تاشكند وآق مسجد في شمالي النهر المذكور إلا الجند فإنه كان في جنوبه وكل هذه خراب الآن. منه عفي عنه.

أثناء وقائع السنة المذكورة ولكن المصرح في تاريخ الجنابي أخذًا من تاريخ شرف الدين اليزدي^(١) أن هذه كانت في سنة ٧٧٧ وكذلك في تاريخ شرف الدين الخان البدليسي^(٢) وعبارة الأول أن تيمر لما غلب على قمر الدين خان تركستان في سنة ٧٧٧ فوض الخانية ببلاد صبران وسغناق لتوقتاميش الخان إلى آخر ما سيذكر بعد ذلك وعبارة الثاني وفي هذه السنة يعني سنة ٧٧٧ قام بنية الزحف إلى خوارزم لكن بسبب عدم اتفاق الأمراء والأعيان وجه وجهة عزمته نحو جهة رابعة واستولى على تلك الأقوام وفي أثناء ذلك وصل توقتاميش خان إلى ملازمته ونال منه الرعايات وصار منظورًا بنظر عاطفته وأرسله إلى سغناق وفي سنة ٧٧٧ جاء توقتاميش خان عند تيمر ثانيًا فأكرمه واحترمه وأرسله إلى سغناق بعد أن ضم إليه العساكر وأجلسه على تخت السلطنة اهـ. وليكن على هذا الاعتماد.

ولنرجع إلى بيان ما كنا بصدهد ولما تمكن توقتاميش خان في سرير الحكومة بسغناق التي كانت تلقب ياق أوردا كما تقدم بيانه في أول هذا المقصد واستقر قدمه فيها أرسل أرض خان عساكر جرارة لا تدخل تحت العد والحد تحت رياسة ابنه قتلق بوغا لمحاربة توقتاميش خان فالتقى الجمعان واقتتلوا مقاتلة شديدة قتل فيها قتلق بوغا ومع ذلك انهزم توقتاميش خان لغلبة عسكر الخصم بكثرتهم وعاد إلى تيمر بسمرقند

(١) شرف الدين اليزدي: هو علي بن عبد الله اليزدي، شرف الدين، الأديب المؤرخ، المتوفى سنة ٨٥٨ هـ، له من المصنفات: «حلل مطرز في فن معمي ولغز» فارسي، «شرح أسماء حسني»، «شرح قصيدة البردة»، «ظفر نامه في وقائع تيمور»، «كتاب المواطن»، «كنه المراد في علم الوفق والأعداد»، «منتخب حلل مطرز»، «مواهب إلهي للمظفر» في التاريخ فارسي، (كشف الظنون ٧٣٣/٥).

(٢) هناك مؤرخان كتبا في التاريخ يلقبان بالبدليسي، أحدهما: إدريس ابن الشيخ حسام الدين علي البدليسي ثم الرومي الحنفي، له من التصانيف: «الحق المبين شرح حق اليقين» في علم الكلام فارسي، «شرح فصوص الحكم للشيخ محيي الدين» «هشت بهشت» في تاريخ آل عثمان فارسي، وغير ذلك. (كشف الظنون ١٩٦/٥).

والثاني: وهو ابن الأول أبو الفضل محمد بن إدريس بن حسام الدين علي بن حسن النخجواني البدليسي الرومي الدفتري الحنفي المتوفى سنة ٩٨٢ هـ، له من المصنفات: «تعريف التلبس وتبديد إبليس»، «جريدة الآثار وفريدة الأخبار» في التاريخ تركي، «ديوان شعره» تركي، «ذيل على هشت بهشت لوالده» في التاريخ، «فصول في معرفة التلبس وأصول في التمييز بين التصوف والتدليس»، «قصص الأنبياء»، «مدارج الاعتقاد في ترجمة مناهج العباد للفرغاني» في التصوف، «ترجمة أخلاق المحسنين»، «ترجمة تفسير الواعظ الكاشفي»، «ذخيرة خوارزم شاه» من الفارسية إلى التركية. (كشف الظنون ٢٥٣/٦).

فأعاده تيمر إلى سغناق ثانيًا بكمال الأبهة بعد أن أعطاه من العساكر وأسباب السلطنة أكثر من الأول فلما سمع أرص خان عوده إليها جهز عسكرًا لقتاله أعظم من الأول صحبة ولده الكبير توقتاقيا ومعه كثير من الأمراء الجوجية وأعيان الدشت فلما التقى الفريقان واشتد بينهما القتال واختلط الرجال بالرجال غلب الخصم بالكثرة ووقعت الهزيمة أيضًا على توقتاميش خان وقتل بعض عسكره وتفرق الباقون وهرب توقتاميش خان إلى غابات ومشاجر هناك وتعبه قرانچی بهادر فوصل توقتاميش إلى ساحل سيحون^(١) بعد مقاساة شدائد كثيرة وكاد قرانچی يدركه فنزل من جواده وتجرد من ثيابه ثم رمى نفسه إلى سيحون فرماه قرانچی بسهم أصاب عضده فخرج إلى طرف آخر من سيحون واختفى في غابات ومشاجر هناك وطلبه قرانچی إلى أن يئس منه ثم عاد وقد كان تيمر أرسل للاستخبار عنه الأمير ايدكو البرلاسي. ومن عجائب الاتفاق وقوع مروره بمحل قريب من موضع توقتاميش خان بتلك المشاجر فسمع من بعد أنينًا وتأوها فتوجه نحوه فرأى توقتاميش خان طريقًا جريحًا كاد يهلك وحيدًا ليس معه أحد فألبسه ما يليق به من الألبسة وأطعمه مما كان معه ثم أركبه جوادًا وحمله إلى تيمر ثالثًا وهو في ذلك الوقت نازل بظاهر بخارى فطيب خاطره ورتب له ما يحتاج إليه من أسباب الترفع وهياً ما لا بد منه في التلذذ والتمتع. وبينما هم في تلك الحالة إذ قدم الأمير ايدكو المنغوتي الذي كان منتظمًا في سلك أمراء الدشت والبلاد الجوجية هاربًا من أرص خان وأخبر أن أرص خان في صدد المعجى بعساكر كثيرة لطلب توقتاميش خان ووصل رسل أرص خان أيضًا مقارنًا لهذا الكلام وقالوا لتيمر إن أرص خان يقول: إن توقتاميش قتل ولدي وأفنى قطعة كبدي يعني قطلق بوغا وهرب إليك والتجأ بك وأنت آويته وأكرمته فيما أن تسلمه إليّ وإما أن تعين موضع الحرب ومحل الملاقات فقال تيمر: أني لا أجد فتوى من مفتي العقل والمروءة أن أسلم إلى الخصم مظلومًا التجأ إليّ ومستغيثًا لأدبي، وأما حديث تعيين موضع الحرب فكل محل نلتقي فهو موضع الحرب فإن الطائر المائي لا يبالي بالمطر ولما أعاد الرسل بهذا الجواب القطعي شرع في تهيئة العساكر وتكفيل الأسباب والأدوات وجمع كافة الوس جفطاي وتوجه نحو الدشت بعساكر لا يعد ولا يحصى إلى أن نزل موضعا قريبًا من إنزار وجاء أرص خان أيضًا بجنود الدشت والأمراء الجوجية ونزل بسغناق وبقي بين الفريقين مسافة سبعة وعشرين فرسخًا ونزل في تلك الأثناء ثلج عظيم واشتد

(١) وقع في الأصل هنا كلمة جيحون وهو خطأ وصوابه سيحون ولهذا غيرناه إلى الصواب فتنبه. منه عفي عنه.

البرد وأجرى حكمه في الكل حتى لم يبق لأحد مجال الحركة خوفاً من سطوته فبقي كل واحد من الطرفين في تلك المدة مقابلاً للآخر بلا قتال ولما اعتدل الهواء قليلاً وانكسرت سورة البرودة أمر تيمر جمعاً من أمرائه مثل يارق تيمر وختاي بهادر ومحمد سلطان شاه بتببيت العدو فتوجه هؤلاء حسب الأمر نحو العدو ومعهم خمسمائة فارس فالتقوا في الليل الأمير تيمر ملك بن أرس خان وكان قد توجه نحو معسكر تيمرلنك لذلك الأمر بثلاثة آلاف فارس فاقتتلوا إلى الصباح فطعن تيمر ملك من رجله فرجع منهزماً وعاد المذكورون بالظفر والنصرة ولكن قتل في تلك المعركة يارق تيمر وختاي بهادر.

ثم أرسل تيمرلنك محمد سلطان شاه للاستخبار فقبض المذكور على شخص من عسكر العدو وعاد إلى المعسكر وعاد الأمير مبشر أيضاً مقارناً لهذا الحال وكان مأموراً بهذا العمل ومعه أيضاً شخص من عسكر المخالف فظهر من تقرير هذين الشخصين أن ألوغ سايقن وكچك سايقن من شجعان عساكر أرس خان قد توجهوا إلى هذا الجانب ومعهما مائة فارس طليعة فالتقوا آق تيمر بهادر والله داد في ظاهر إنزار وأن آق تيمر بهادر قتل اثنين من مشاهير عسكر أرس خان وأن ابن أخي آق تيمر قتل كچك سايقن وأن هندوشاه أسر ألوغ سايقن فوصل هندوشاه إلى المعسكر مقارناً لهذا الحال ومعه ألوغ سايقن فصار هندوشاه بذلك مظهرًا لعناية تيمرلنك وألطفه ثم تبين أن أرس خان قد رجع إلى بلاده وترك مكانه قرايك فركب تيمرلنك بنفسه وجعل توقيتاميش خان في مقدمة العسكر كالتليعة والدليل وتوجه نحو بلاد أرس خان بتمام العجلة والسرعة حتى وصل إليها بعد خمسة عشر يومًا فأجروا فيها مراسم النهب والغارة واستوفوا منها حظهم واغتمنوا شيئًا كثيرًا من الغنم والإبل وسائر الأجناس المختلفة فبلغ في تلك الأثناء أن أرس خان قد مات وجلس مكانه ولده نوقتاقيا فلم يلبث هو أيضًا إلا قليلاً حتى توجه نحو الآخرة من وراء أبيه أرس خان فجلس مكانه ولده الثاني تيمر ملك خان فرتب تيمرلنك أسباب السلطنة لتوقيتاميش خان وأرسله إلى مملكته وأعطاه جوادًا أصفر سريع السير وقال: إذا طلبت به هارباً تلحق ومتى هربت به من طالب ينجيك من شره ثم ودعه وعاد إلى سمرقند وكان ذلك على ما في الجنابي نقلًا عن اليزدي في سنة ٧٧٨ وهذا هو المراد أيضًا بما تقدم عن تاريخ شرف الدين الخان البتليسي^(١) فتذكره.

(١) هو شرف الدين الخان البديليسي وليس «البتليسي» انظر ترجمته قبل قليل.

ولما سمع تيمر ملك خان تيمرلنك قد أجلس توقتاميش خان على سرير سلطنة الدشت ورجع بنفسه إلى سمرقند توجه نحو توقتاميش خان بعسكر عظيم فلما التقى الجمعان ودار رحى الحرب انهزم توقتاميش خان ثالثًا ونجى بنفسه بعد جهد جهيد وتعب شديد بالجواد الذي كان تيمر أعطاه لمثل هذا اليوم وعاد إلى تيمر رابعًا مع فارس واحد من خواصه فبذل تيمر أيضًا مقدرته لإصلاح حاله وصرف عنايته لتطبيب باله وأمر كبراء الأمراء مثل تيمر أوزبك ويحيى خواجه وولده غياث الدين طرخان وغيرهم بمرافقة توقتاميش خان وإجلاسه على سرير السلطنة فتوجه هؤلاء مع توقتاميش نحو سغناق وأجلسوه على سرير السلطنة فيها وعادوا .

ذكر محاربة توقتاميش خان مع تيمر ملك خان وقتل تيمر ملك خان في تلك المحاربة واستقلال توقتاميش خان بسلطنة دشت القفجق وسراي وكافة البلاد الشمالية

اعلم أن توقتاميش خان لما قدم سمرقند كان معه أمير من الأمراء يسمى أوزبك تيمر ولما وقع القتال بين توقتاميش خان وبين تيمر ملك خان في النوبة الأخيرة وانهزم توقتاميش خان بقي أوزبك تيمر في بلاد الدشت مدة فقبضوا عليه وجأؤوا به عند تيمر ملك خان فعفى عنه فطاف في تلك البلاد مدة مديدة على أسوأ الحال فجاء يومًا مجلس تيمر ملك خان وجثى على ركبته وسأله أن يرد إليه أלוساته وإحشاماته يعني القبيلة والناحية التي كان حاكمًا بها أولاً فقال له تيمر ملك خان: إن شئت أن تقم يعني راضيًا بحالك هذا فأقم وإن شئت أن تذهب فاذهب يعني ليس لك عندي شيء نافع فلما وجد أوزبك تيمر فرصة هرب وقدم سمرقند وقال لتيمرلنك إن تيمر ملك مشغول بشرب الشراب ليلاً ونهارًا ولا يقوم من نوم الغفلة إلى وقت الضحى فلو وقع مائة مهم كبير مثلاً لا مجال لأحد أن يوقظه من نومه ولهذا أعرض أعيان البلاد وكبراء المملكة عنه ويريدون أن يخلعوه ويجلسوا مكانه توقتاميش خان . فلما اطلع تيمرلنك على أحوال تيمر ملك خان وأوضاعه أرسل رسولاً إلى توقتامش خان بسغناق يعلمه بأحوال قرينه تيمر ملك خان ويشير إليه أن يجمع إليه عساكر الدشت ويتوجه بهم لمناوشة خصمه تيمر ملك خان وأن ينتزع عنه الملك بمساعدة القدر وإعانة خالق القوى والقدر، فجمع توقتاميش خان عساكر كثيرة من أبطال الدشت وتوجه بهم نحو قراتال الذي كان تيمر ملك خان شتا به، فلما سمع تيمر خان توجه توقتاميش خان نحوه جمع عساكره وتوجه نحوه فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد القتال . ثم انجلت الحرب عن هزيمة تيمر ملك خان فاستقر توقتاميش على مسند السلطنة بدشت القفجق

مكان آباءه وأجداده بالإرث والاستحقاق ثم شتا بسغناق، ولما جاء آوان الربيع وجه عنان عزيمته نحو بقلان فاستولى عليه ثم شرعت سلطنته في الترقى وقوته وشوخته في التزايد يوماً فيوماً ويبشره الطالع والإقبال بنيل المرام ومعانقة الآمال.

وأما تيمر ملك فإنه لما انهزم أمام توقتاميش خان توجه نحو هزارته التي كان فوض ضبط أحوالها إلى محمد أوغلان واستشاره في دفع توقتاميش خان فرأى محمد أوغلان أن المصلحة في التوقف فحمل تيمر ملك خان كلامه هذا على الغرض الفاسد فقتله ثم جمع بقية قومه وأتباعه وأحشامه وقصد توقتاميش خان فالتقيا في موضع قراتال ونشب بينهما القتال ففي أول حملة قتل تيمر ملك خان وتفرق من كانوا معه وصفا الجو لتوقتاميش خان وكان لتيمر ملك خان نديم يقال له: ألنچاق وكان موصوفاً بالوفاء ومشهوراً بالشجاعة فأراد توقتاميش خان أن يحسن إليه ويرفع شأنه لديه بأن ينظمه في سلك أمرائه ويجعله من أخص ندمائه وأكبر وزرائه فقال ألنچاق قد مر وقتي في حياة تيمر ملك خان بالإمارة والحكومة والرياسة على أحسن الأحوال وانفقاء عيني أحسن إليّ من أن أراك الآن جالساً مكانه على التخت فليأمر الخان الآن تكراً وتفضلاً بضرب عنقي وأن يضعوا رأس تيمر ملك خان فوق رأسي وبدنه فوق بدني فساعدته توقتاميش خان على ذلك وأجاب ملتمساً فيما هنالك اهـ. من روضة الصفا.

ومثله في تاريخ الجنابي بالاختصار أخذاً من تاريخ اليزدي ومثله أيضاً في تاريخ منجم باشى مختصراً أخذاً من تاريخ جهان أرا للغفاري^(١) والمفهوم منه أن هذه الواقعة الأخيرة كانت في حدود سنة ٧٨٠ وقبل بعدها والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل. ولعلك تتفطن بما مر في أثناء العبارة من التصريح بأن توقتاميش خان طمحت نفسه في ملك آباءه وأن تيمرلنك وعده أن يرده إلى مملكة آباءه وأن توقتاميش خان استقر على مسند السلطنة بدشت القفجق مكان آباءه وأجداده بالإرث والاستحقاق أن توقتاميش خان من أولاد صائن خان لا من أولاد توقاي تيمر ولا من أولاد أورده ابني جوجي فإنهما وأولادهما لم يتملكوا بلاد الدشت بالاستقلال بل كانوا أمراء الميسرة حكام بعض النواحي، كما مر في أول هذا المقصد، فكيف يصح ادعاء أعقابهم الإرث وكيف يستقيم وعد استرداد ملك آباءه من يد أعدائه مع أنهم أعني

(١) الغفاري: لعله أحمد بن محمد بن عبد الغفار القزويني المعروف بالغفاري، توفي سنة ٩٧٠ هـ، له كتاب «نكارستان» في التاريخ فارسي. (كشف الظنون ١٤٥/٥).

أعداءهم على هذا القول، أي على قول من قال: إنه من ذرية توقاي تيمر أو أورده ابني جوجي أبناء أعمامه فهو وإياهم سواء في استحقاق الملك، ولا وجه أيضًا حينئذ لقول صاحب روضة الصفا أنه جلس على تخت سلطنة الدشت مكان آبائه بالإرث والاستحقاق كما لا يخفى. ولهذا قلنا فيما سبق إن ميلان القلب إلى قول ابن خلدون من أنه ابن بردي بك خان وإن كان الجمهور على خلافه إلا أن نقول: إن مراده بتخت آبائه تخت حكومة آق أوردا أو المراد بأبائه جوجي خان وچنكزخان وهذا هو الذي أقبله والله سبحانه أعلم.

مسير توقتاميش خان إلى الروسية ودخوله بلدة موسكوا

قال كارامزين: ولما جلس توقتاميش خان مسند الخانية ولم يبق له منازع في الملك أرسل السفراء إلى كافة حكام الروسية يخبرهم بجلوسه إلى التخت وإعدام المتغلبين وعود أمور دوله التتار إلى مجراها السابق (يلوح بذلك إلى الانقياد والطاعة) فقبل ديميتري دونسكوي الكيناز الأعظم سفيره بكمال التواضع وغاية الاحترام ثم أرسل سفيرًا إلى توقتاميش خان بهدايا ثمينة يهنيه بجلوسه ويظهر له المودة وكذلك فعل سائر حكام الروس ولكن لم يكن توقتاميش خان ممن يقنع بمثل تلك الهدايا بل كان قصده أن يستعبد الروسية مثل باتوخان وأوزبك خان وأن ينتقم منهم للتتار وأن يعيدهم إلى حدودهم الأولى، فبعد مضي سنة أرسل واحدًا من أولاد الخوانين يسمى الميرزا آق خواجه مع سبعمائة نفر من فرسان التتار إلى الكيناز الأعظم ديميتري وكتب إليه فرمانًا يدعوه وسائر كنازات الروسية إلى أوردو لديه للبيعة والإذعان للعبودية فلم يبق من سماع هذا الخبر الموحش في وجوه الكيناز وسائر الحكام والأهالي أثر الدم لأنهم كانوا على يقين من عدم الاقتدار على المقاومة أن امتنعوا فإن أكثر الشبان الصالحين للعسكرية كانوا قد تلفوا في المحاربات الممتدة أيام الميرزا ماماي فقالوا: من أين جاءنا هذا البلاء العظيم حين ظننا بعد أن كسرنا الميرزا ماماي وعسكره أننا قد تخلصنا من عبودية التتار واستولى عليهم غاية الحزن والغم وكان ديميتري أيضًا في هذا الفكر. ثم أرسل إلى الميرزا آقخواجه يلتمس منه أن يخرج من بين الأهالي معتذرًا بتعصبيه وحمافتهم خصوصًا في مثل تلك الحالة الحرجة ويقول له: إنه لا يكون مسؤولاً إن أصابه شيء من طرفهم فعاد الميرزا آقخواجه إلى أوردو وأخبره بمقالته ففرح الكيناز ديميتري لذلك وصار مشغولاً بأموره الداخلية وتدارك العساكر والاستعداد للمدافعة وكان توقتاميش خان أيضًا مشغولاً بالتدارك والاستعداد للهجوم والانتقام ولما مضت لذلك سنة نهض توقتاميش خان نهضة الأسد للانتقام وتربية

العصاة وسار إلى موسكو في أوائل سنة ١٣٨٢ مصادفة سنة ٧٨٣ هـ بغتة من طريق بلغار وعبر نهر أدل (وولغا) منها فلما قرع هذا الخبر سمع ديميتري اندهش وتحير فإنه كان خبيراً بقوة توقتاميش خان لإزالته الاختلاف الواقع بين أمراء التار وجمعهم كلهم تحت راية واحدة كالأول فكان مأیوساً من المقابلة والمقاومة ومستيقناً بالمغلوبة إن حاربهم ومع ذلك كان قد انضم الكيناز أليغ الروسي مع أمرائه وعساكره إلى توقتاميش خان فبهذا زاد قوة عسكر توقتاميش خان ومئاتها ونقص قوة عسكر ديميتري فصار مغلوباً قبل المحاربة معنى فخرج من موسكو مع عائلته وهرب واستقبل سائر كينازات الروس توقتاميش خان بالترحيب وأطاعوه فاستولى توقتاميش خان على بلدة سير پوخف وتوجه إلى بلدة موسكو ولما سمع أهل موسكو توجهه وقربه افترقوا فرقتين فمنهم من اختار الفرار ومنهم من اختار القرار والمدافعة. وفر المطران كيبريان إلى تويز وتولى قيادة العسكر وتدبير الحرب الكيناز أوستي بن الكيناز الكيرد الليتواني فشرع في تنظيم الأمور وتشجيع الأهالي وترتيب العساكر وسد الثغور وغلق أبواب السور وأما الأهالي فبعضهم كان مشغولاً بالبكاء وبعضهم بشرب الخمر يقولون إن سور بلدتنا متين وجدرانها غليظة وقوية وعساكرنا كثيرة فماذا يفعل بنا التار فلما كان اليوم الثالث والعشرون من أغسطس ظهر فرقة من عسكر توقتاميش خان وتقاربوا من البلد وصاروا يدورون حول السور لمعاينة الموضع الملائم للهجوم والدخول على البلد وسألوا أهل البلد عن الكيناز ديميتري فأجابوهم بأنه ليس هنا ولما رأوا قلة العسكر فرحوا وقالوا: إنهم لو حاربونا لصاروا مغلوبين البتة ولما غابت الشمس غابت هؤلاء العساكر القليلة أيضاً من عيونهم وتباعداً عن البلد فزاد فرحهم بذلك وظنوا أنهم هربوا لقلتهم وهكذا يفعل العجز ولما أصبحوا رأوا عسكراً حول أطراف موسكو لا يعلم عددهم إلا الله وهم تحت قيادة توقتاميش خان فصار الأهالي من مشاهدتهم متجمدين كأصنامهم لا حراك بهم فقربت التار من السور وشرعوا في الرمي ومن غاية مهارتهم في الرمي كان لا يخطيء سهم من سهامهم. وداموا على هذا الحال ثلاثة أيام متتالية ولكن لما لم يكن لهم آلة الهدم لم يتمكنوا من دخول البلد بالهجوم.

ولما كان اليوم الرابع من ابتداء المحاربة وهو السادس والعشرون من أغسطس أرسل توقتاميش خان إلى أهل موسكو يقول لهم: إن مقصدي إنما كان ديميتري وتربيته وأما الأهالي فإني أحبهم كحب تبعتي فإن استقبلوني بالخبز والملح وتركوني لأدخل البلد وأنفرج فيه فإني أرجع إلى مقري من غير إضرار بالأهالي ولما بلغ

السفراء الأهالي هذا الكلام لم يلتفتوا إليه وخافوا كونه مكرًا ولكن كان مع السفراء واسيلي وسيمون أبناء ديميتري حاكم نيژنى نووغورد فنصحا الأهالي ووعظاهم بترك المحاربة والمعاندة فبعد الاستشارة الطويلة قر رأيهم على فتح الأبواب ولما فتحوها هجمت التتار على البلد من كل جانب وطفقوا يقتلون من يصادفهم من الأهالي ويخربون البيوت وينهبون الأموال فلم ينج منهم أحد سوى الهارب وأسروا البواقى وجمعوا من النقود ما لا يعلم حسابه إلا الله حتى وضعوها في الأكياس وحملوها في العجلات (العربات) ولم يتركوا في خزينة الكيناز حبة ولم يكتفوا بهذا بل نهبوا الكنائس أيضًا وكسروا الأصنام وأخذوا ما فيها من الفضة والذهب والجواهر ولم يخافوا بأس الله .

قال: والحاصل أن القلم عاجز عن توصيف ما فعلوه ثم إنهم ذهبوا راجعين إلى بلادهم بغنائم وأسارى لا تحصى واستولوا في ممرهم على بلدة قولومنا ثم توجهوا إلى نهر أوقا وعادوا إلى أوطانهم منه اهـ.

قلت: هذا ما قاله كارامزين ولا يخفى أن من عادتهم أن يجعلوا حبة من قباحة التتار قبة وقبة من شناعيهم حبة وليس في أيدينا تاريخ حتى نطلع على ما صدر من الروسية ونعرف الحقيقة والذي نجزم به الآن أن هنا مبالغة لا تحصى .

ثم قال: فلما انصرفت التتار عاد الكيناز ديميتري إلى موسكو مع أخيه ولاديمر وشاهدا تلك الأحوال المدهشة والتزما التجلد وأمر ديميتري بدفن الأموات وعين لكل ثمانين ميثًا روبلة روسية فبلغ جميع ما أعطاه ثلاثمائة روبلة فيكون عدد القتلى أربعة وعشرين ألفًا وقد قال إنهم لم يتركوا أحدًا سوى من هرب ولا شك أن أهالي موسكو ليس عددهم هذا القدر فقط ولا مائة ألف فقط بل لا يكونون أنقص من نصف مليون على الأقل وهذا هو إفراط في المبالغة .

قال: وكانوا أحرقوا المدينة بعد النهب فأمر ديميتري ببنائها فشرعوا في البناء وبينما هم مشغولون بالبناء إذا جاء أحد من طرف توقتاميش خان بالسفارة إلى ديميتري يسمى ميرزا قراجه^(١) فاستقبله ديميتري بالتعظيم وسأله عن خاطر حضرة الخان فقال له السفير: إنه وإن كان جبارًا ولكنه صاحب مرحمة يحب المسالمة والآن قد عفى

(١) قراجه ليس هو اسم شخص معين بل هو لقب لكل مقرب الخان مثل القرناء والمابينجي في اصطلاح الدولة العثمانية أيدهم الله . منه عفى عنه .

عنك ويريد أن يعيش بالوداد والمحبة ففرح به ديميتري وأرسل ولده واسيلي مع جمع من أمرائه بالهدايا إلى حضرة الخان واحتاط أن يسير إليه بنفسه وخاف من ابتلائه بما ابتلي به الكيناز ميخايل أيام أوزبك خان فنقح به توقتاميش خان وعفى عنه .

ذكر مجيء واسيلي الثاني بن ديميتري دونسكي كيناز الروسية إلى سراي لإظهار تبعته توقتاميش خان حسب العادة الجارية

قال كارامزين: وفي سنة ١٣٩٢ م مصادفة سنة ٧٩٤ هـ أغار واحد من أولاد خوانين أوردو يسمى بك قوت^(١) بأمر توقتاميش خان على ولاية واتكا من الروسية عابراً نهري وولغا وقزان وكان أهل الولاية المذكورة استوطنوا بها في عصر أندري بوغوليسكي مهاجرين إليها من نووغورد وعمروها غاية التعمير مدة مائتي سنة بسبب وسعة أرضها وكثرة تجارتها وبسبب إغارتهم على من كانوا بجوارهم من الأقوام الجودية ولهذا كانوا يعيشون بغاية الراحة وكان حسن حالهم وغناهم هو الذي استلقت أنظار التتار وجلبهم إليهم وحيث كانت إغارتهم على الغفلة عجز الأهالي عن حماية بلدانهم المنيية على الأراضي المستوية والمواضع المستنقعة الندية بمقابلة التتار ومدافعتهم فقتل بعضهم في ميدان الحرب وبعضهم وقع في الأسر والتجأ أكثرهم إلى الغابات الكثيفة والمشاجر الملتفة عازمين على طرد التتار من ديارهم متى وجدوا الفرصة فما مضى من هذه الواقعة إلا زمن يسير حتى انضم إلى أهل تلك الولاية أهالي نووغورد وأوستوخ (يعني بدعوتهم إياهم وصراخهم بل بأمر واسيلي) فنزلوا من نهر واتكا إلى نهر قاما وولغا راكبين السفن الكبار وصعدوا من وولغا إلى قزان ورؤوقطين اللذين هما من توابع بلغار الكائنة تحت حماية الخان فأغاروا عليهما ونهبوا أموال التجار التي صادفوها وعادوا .

قلت: هكذا يقول كارامزين في سبب هذه الإغارة ولعل سبب أمر توقتاميش خان بالإغارة إن صح هو تأخر مجيء واسيلي إلى أوردو لإظهار تبعيته وتصديق كينازيته من وقته المعهود فإن العادة كانت جارية بالمجيء في أول جلوسهم وقد تأخر مجيء واسيلي عن جلوسه أزيد من سنتين فإن موت ديميتري دونسكي وجلوس ولده واسيلي مكانه كان في سنة ١٣٨٩ م مصادفة سنة ٧٩١ هـ والله سبحانه أعلم .

(١) في الأصل بتقوب ولكن ينبغي أن يكون هكذا. منه عفي عنه .

ثم قال كارامزين: وبعد مرور ستة أشهر من هذه الواقعة توجه واسيلي كيناز الروسية الأعظم إلى أوردو لإظهار الطاعة وتجديد البيعة لتوقتاميش خان ولم يكن سبب مثوله لحضور الخان منحصراً في هذا فقط بل أقواه وأهمه تقوية كينازية موسقوا وتوسيع دائرتها بالتدريج فصار واسيلي مظهرًا لما لم ينله غيره من حكام الروس قبله من التفات حضرة الخان وأمرائه وتعظيمهم وتكريمهم ومن جملة ما نال واسيلي في سفره هذا من الامتياز أنه تمكن من تحصيل الإذن من حضرة الخان بنصب بوريس غوردتسكي كينازًا بأطراف نيژنى وتأييده فيه واستحصل الإذن أيضًا من حضرة الخان بإلحاق بلدة تورس التي كانت في السابق متعلقة وملحقة بچيرنيغوف وبإلحاق بلدة مورم وغوروديتسه وميشچر بكينازية موسكوا وحكومتها. والحاصل أنه نال جميع ما طلبه وسأله من حضرة الخان من المطالب والامتياز وسبب نيل واسيلي جميع مطالبه وإسعاف حضرة الخان إياه بها مع الالتفات الفائق هو تصادفه وقتًا يقتضي ذلك فإن توقتاميش خان كان في الوقت المذكور يستعد وتهيأ لمكافحة عدوه الألد القوي تيمرلنك فخلف ميل الروسية إلى طرف عدوه المذكور والتزامه إياه (يعني فيبقى توقتاميش خان بين عدوين وقد كانت الروسية قد سئمت وضجرت من رقية التتار وتحكمهم عليهم منذ ١٦٠ سنة وكان يلتمسون أسباب التخلص منها فلا تفوتون أدنى سبب وجدوه ولا تضيعون أقل فرصة نالوها سواء كان من جهة تيمرلنك أو غيره).

قال: وقد وعد واسيلي حضرة الخان في مقابلة التفاتاته وإسعافاته المذكورة أن يعينه على تيمرلنك (يعني إن اقتضى الحال ذلك) حتى بإعطاء العساكر وإن لم يثبت ذلك في المحررات الرسمية المعتمد عليها اهـ. وهذه الواقعة وإن كانت متأخرة من كثير من الوقائع الآتية إلا أنني أثبتته هنا نظرًا للواقع كلها في سلك نظائرها فإن هذه الواقعة كما أنها كائنة بين توقتاميش خان والروسية كسوابقها كذلك الوقائع الآتية كلها وقائع توقتاميش خان مع تيمرلنك ومراسلته مع ملوك مصر ليس فيها وقعة تتعلق بالروسية.

ذكر وقوع الخلف بين تيمرلنك وتوقتاميش خان أولاً وبيان سبب ذلك وإفضاؤه أخيراً إلى محاربات بينهما صعبة كثيرة وتخريب البلاد وقتل العباد حتى إلى انقضاء الملك ودخوله في تصرف الأعداء الأشرار وبقائه بأيديهم إلى هذه الأدوار

اعلم أن أمر تيمرلنك مع كونه مشهورًا لدى الخاص والعام وكونه مظهرًا لجلال الحق سبحانه وكونه مریدًا للتفرد بالملك وإبادة الملوك الكرام وكونه طالبًا لأدنى سبب

وعلة لذلك غني عن البيان وكذلك مساعدة القدر إياه في ذلك مستغن عن التبيان ولم يكن مساعدته لتوقتاميش خان لمحبهته إياه وإحقاق حق رامة ونواه بل لكسر شوكة أرص خان الذي كان أقوى الملوك في ذلك الزمان مع محاربهته إياه ومنافسته في الحال والشأن كما قيل لا لحب علي بل لبغض معاوية ولهذا لما استقل توقتاميش خان بالملك وانتشرت شهرته وصيته في الآفاق ساءه ذلك وصار يتوهم منه فيما هنالك وأضحى يتمنى حصول سبب يتشبث به في مقاتلته ومحاربهته في المعارك ولما وجد ما يمكن أن يجعله وسيلة بتأويلات بعيدة لتلك المسالك نهض نهوض النمر لإيراده إلى موارد المهالك .

وبيان ذلك أن ممالك آذربيجان والعراقين وخراسان وكلما كان متعلقًا ببني هلاكو . لما مات السلطان أبو سعيد الذي هو آخر من ملك من أولاده في التاريخ الذي مر ذكره وقع أمرها في الهرج والمرج وانقسمت بين ملوك الطوائف ولم تزل الحرب بينهم من ذاك التاريخ إلى هذا التاريخ كما مر بيان نبذة منه في ترجمة جان بك خان ولما ظهر تيمرلنك وكان جل قصده تملك جميع الدنيا وقد سمع ما بتلك المملكة من شتات الأمر وعدم الاتفاق أرسل أخص أوليائه الحاج سيف الدين إلى تلك البلاد بإرادة حج بيت الله الحرام في الظاهر وتفحص أحوال تلك البلاد وتجسسها في الحقيقة والباطن وهو ليس بأنقص من اللنك في الدهاء بل هو أعظم من أعانه في تأسيس الملك فلما رجع أخبره بأن الغنم لا راعي لها والبلاد غنيمة باردة لأن ملوكها في المحاربة والمقاتلة فيما بينهم فيمكن الاستيلاء عليها واحدة بعد واحدة فلما سمع ذلك رسم تلك الممالك كلها في خريطة ذهنه في عداد ممالكه ولم يشك أنه يستولي عليها ويجري أحكامه فيها بتمامها بل فيما وراءها فقام بكمال الاستعداد قاصدًا تلك البلاد وذلك في سنة ٧٨٥ وأجرى فيها مراسم القتل والنهب والغارة والتخريب وعم غاراته في تلك النوبة تمام سجستان وزابلستان وقتل أهلها قتلاً عامًا ثم رجع إلى سمرقنده وأقام بها ثلاثة أشهر ثم نهض ثانيًا بقصد بلاد مازندران واسترآباد في سنة ٧٨٦ وفعل فيها مثل ما فعل في سجستان وغيرها من القتل والنهب والغارة وشتا في تلك السنة بالري ثم إنه في أول الربيع وشرع في التخريب والقتل والنهب والإفساد حتى وصل إلى القلعة السلطانية من أعمال تبريز واستولى عليها ورجع منها إلى سمرقنده وشتا بها وذلك في سنة ٧٨٧. وكان تبريز وعراق العرب وبغداد في ذلك الوقت تحت تصرف السلطان أحمد ابن السلطان

لويس الجلايري الإيلخاني وكان بينه وبين توقتامش خان مواصلة ومراسلات وكان عساكر توقتامش خان لا يخلو من التردد بين بلاده وبين بلاد السلطان أحمد لحمايته وإمداده على مخالفه وفي العام الذي شتا فيه تيمرلنك بالري كان قاضي سراي قد توجه نحو تبريز برسالة من عند توقتامش خان إلى السلطان أحمد خان ابن السلطان أويس الإيلخاني الجلايري. ولما وصل القاضي إلى باكر تبين له أن السلطان أحمد في بغداد وبين أمراءه ببلاد آذربيجان مقاتلة ومحاربة وأن البلاد في الهرج والمرج والأمن مسلوب من العباد فأرسل شخصاً إلى توقتامش خان يخبره بذلك كله ويعلمه أن حفظ الحدود والثغور واجب على الخان ولا ينبغي التغافل عن عواقب الأمور وتفاقم الشرور فأرسل توقتامش خان خمسين ألف فارس تحت قيادة بعض أمراءه مثل يكا أوغلان ويخشى خواجه إلى دربند وأمرهم بأن يقيموا هناك منتظرين إلى ما يظهر من وراء حجب الغيب. وأما القاضي فإنه قد مضى في سفره حتى وصل إلى بغداد وأدى الرسالة للسلطان أحمد. وبينما هو مقيم ببغداد إذ ظهر من عالم الغيب أمر لم يخطر بالبال حتى صار سبباً لوقوع الفتن وفساد الأحوال وذلك أن القاضي المذكور كان معه واحد من أولاد المغل فائق الحسن والجمال فحصل للسلطان علاقة بذلك الغلام وفشا هذا الأمر بين الأنام فرجع القاضي إلى بلاده وهو مستغرق في بحر الخجالة والانفعال وحنق للسلطان أحمد لما صدر منه هذا الحال فأغرى توقتامش خان على ترك معاونته بل حرضه على مخالفته ومناوشته وعلل ذلك بعدم ديانتهم وأمانتهم. وقال: إن تربيتهم واجبة حتى يرجع عن غوايته فأرسل توقتامش خان بعض أمراءه مثل الأمير بيك بولاد وداود بك وعلي بك وقرانجي بك وعيسى بك وغيرهم مع عساكر كثيرة إلى دربند وأمرهم أن يأخذوا العساكر الموجودة هناك معهم ويتوجهوا إلى تبريز وأن يقبضوا على السلطان أحمد فتوجه هؤلاء المذكورون وكان المجموع قريباً من مائة ألف فارس ولما وصلوا إلى تبريز وجدوها قد تحصن بها الأمير سنتاي الذي هو من أكبر أمراء السلطان أحمد وقائد جيشه هناك مع الأمير ولي الذي كان أولاً والياً باسترآباد ومازندران فشرعوا في الحصار فأما الأمير ولي فهرب منها وبقي الأمير سنتاي محافظاً ومدافعاً بمن معه من العساكر وامتد الحصار إلى أسبوع ثم دخل عسكر توقتامش خان البلد عنوة ونهبوا ما فيها لممانعة أهلها ومعاندتهم ولما كان السلطان أحمد الذي هو المطلوب لم يكن بها بل كان ببغداد رجعوا من هناك واستصحبوا معهم الشيخ كمال الدين الخجندي قدس سره كما سيجيء ذكره إن شاء الله تعالى في آخر هذا المقصد وكان ذلك في سنة ٧٨٧. وقال

بعضهم في ذلك مؤرخًا. شعر:

نهب تبريز وقتل وغارات أو بود تاريخ نازنين (٧٨٧) تبريز^(١)
اه.

منتخبًا من روضة الصفا وذكره مختصرًا في شرف نامه أيضًا وذلك هو العام الذي شتا فيه اللنك بسمرقند بعد استيلائه على استرآباد ومازندران كما مر. وهذه الواقعة كما ترى ليست هي مع تيمرلنك فإن تبريز ليس من جملة مملكته ولا مملكة جغطاي حتى نقول: إنه يدعي ملكه أو ملك أسلافه من أولاد جغطاي بل كان تبريز وأعماله متنازعًا فيها بين بني هلاكو وبني جوجي وكانت دائمًا في يد بني هلاكو كما تقدم فلا حق حينئذ لتيمرلنك ولا لمؤرخيه أن يجعلوا تلك الواقعة إظهار المخالفة من طرف توقتاميش خان في شأن تيمرلنك ومع ذلك فقد أسند تيمرلنك بذلك السبب المخالفة إلى توقتاميش خان ونسبه إلى كفران النعمة ونسيان الحقوق وبني جميع ما فعله بعد ذلك عليه كما سيجيء وتلقى مؤرخوه ذلك منه بحسن القبول ونسبوا المخالفة وكفران النعمة بذلك إلى توقتاميش خان كلا وليس الأمر كما يفترض يعرف كل أحد أن ذلك افتراء محض وعدول عن الجادة لمراعاة خاطر من يحبونه وهذا ليس من المروءة والإنصاف والإنسانية بل اللازم للمؤرخ أن يكتب ما هو الحق والصواب له وعليه دون أن يميل إلى طرف أحد للأغراض النفسانية والله الملمهم للصواب.

ذكر المراسلة بين توقتاميش خان وملوك مصر على ما جرت به العادة بين ملوك هاتين المملكتين

قال المقرئ: وفي الحادي عشر من ذي الحجة من سنة ٧٨٦ قدم رسل الخان توقتاميش بن أوزبك متملك بلاد الدشت فخرج الأمير سودون النائب والأمير يونس الدوادار للقائهم وأنزلوهم بالميدان الكبير على النيل ثم أحضروا إلى الخدمة بالإيوان في يوم الاثنين الثامن عشرة ومعهم هدية وهي سبعة سناقر من الطيور الجوارح وسبع بقع قماش وعدة ممالك فلما قرئ كتابهم ظهر أنهم رسل متملك بلاد القرم فقطع راتبهم كل يوم خمسمائة رطل لحم ورأس بقر ورأس خيل برسم الذبح وألف درهم وأخرجوا من الميدان إلى موضع بالقلعة وخلع عليهم في الحادي والعشرين منه اه. ومثله في تاريخ ابن دوقمق مختصرًا.

(١) كلمة نازنين تبريز تساوي في حساب الجمل ٧٨٧.

وقال ابن حجر^(١) وفي سنة ٧٨٦ قدمت رسل توقيتاميش خان بن أوزبك سلطان الدشت واسم كبيرهم حسن بن رمضان وكان أبوه نائب القرم أرسل بهم صاحب القرم ومعهم هدية فقبلت وأرسلت أجوبتهم اهـ.

قلت: وكان ذلك في عهد الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة وكان تسلطه قبل هذا بعامين فإنه تسلطن في سنة ٧٨٤ ولهذا قال القلقشندي^(٢): في هذه الحادثة أعني حادثة الرسل المذكورين ومن غريب ما وقع أنه ورد رسول من الشرق (صوابه الشمال) في الأيام الظاهرية برقوق سقى الله سبحانه عهده وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند توقيتاميش خان صاحب بلاد أوزبك ووقعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة فخرجوا وتلقوه بالتعظيم على أنه رسول توقيتاميش خان المقدم ذكره وأنزل بالميدان الكبير تعظيمًا لأمره فلما عرض كتابه نظر فيه المقر البدري بن فضل الله^(٣) تعمدته الله تعالى برحمته وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف فوجده

(١) ابن حجر: هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الكناني، الحافظ أبو الفضل شهاب الدين العسقلاني، ثم المصري الشافعي، ولد سنة ٧٧٣ هـ، وتوفي سنة ٨٥٢ هـ، له أكثر من مائة وخمسين مصنفًا، منها في التاريخ والتراجم: «إتباع الأثر في رحلة ابن حجر»، «الإصابة في تمييز الصحابة»، «الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام»، «أبناء الغمر في أبناء العمر» في التاريخ والتراجم، «البداية والنهاية» في التاريخ، «تحر الميزان في مختصر ميزان الاعتدال للذهبي» في التاريخ، «تعريف الفئة فيمن عاش من هذه الأمة المائة»، «تقريب التهذيب» في أسماء الرجال، «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وغير ذلك الكثير. (كشف الظنون ١٢٨/٥ - ١٣٠).

(٢) انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي ٦٣/٨.

(٣) المقر البدري ابن فضل الله: هو بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله، وهو أحد أفراد أسرة فضل الله العمري التي تولت لأكثر من قرن من الزمان وظيفة صاحب ديوان الإنشاء، أو كاتب السر في دولتي المماليك البحرية والبرجية. وقد شغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية، وإلى أحد أفرادها، وهو القاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يرجع الفضل في وضع المصطلح الشريف الخاص بأصول المكاتبات والمراسلات وغيرها من أعمال ديوان الإنشاء. وكان بدر الدين محمد صاحب فضل كبير على القلقشندي نفسه، فهو الذي ألحقه بالعمل بديوان الإنشاء، وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء من بين أفراد الأسرة خمسة أشخاص وهم:

١ - القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله.

٢ - القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي شهاب الدين أحمد، وكان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

غير جار على مصطلح كتب الخانات في الورق والكتابة فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش قضيته فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من اتباع توقتاميش خان فأنكر عليه ذلك وحطت رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه وعلا بذلك مقدار المقر البديري ابن فضل الله المشار إليه عند السلطان وشكر له من ذلك ما كان اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر^(١): وفي صفر من سنة ٧٨٧ قدمت رسل توقتاميش خان ومعهم هدية جهزهم تيمرلنك مدبر المملكة اهـ. هكذا وجد في بعض نسخ تاريخه ولم نعرف مآله ومعناه.

وقال المقرئزي وفي المحرم سنة ٧٨٧ قدمت رسل الخان توقتاميش خان ابن أوزبك فخرج الأمراء وأجناد الحلقة إلى لقاءهم ومثلوا بين يدي السلطان وقدموا هديتهم اهـ. وقال العيني: وفي سنة ٧٨٧ قدم رسل توقتاميش خان ومعهم هدايا جليلة وقبولوا بالاحترام اهـ.

وقال الحافظ العسقلاني وفي سنة ٧٨٨ تجهز قديد الحاجب وبيكتيمر الغلائي إلى توقتاميش خان في الرسلية من صاحب مصر اهـ.

ذكر وقوع المناوشة اليسيرة بين عسكر تيمرلنك وعسكر توقتاميش خان

قد ذكرنا فيما مر أحوال تيمرلنك ونيته بالنسبة إلى ممالك بني هلاكو بل بالنسبة إلى جميع العالم وخروجه بقصد الاستيلاء عليها وعوده من سلطانية ولما وقع من توقتاميش خان ما وقع من إرسال العسكر إلى تبريز وقرع ذلك سمع تيمرلنك اغتتم ذلك وأراد أن يتخذة وصلة وذريعة لمحاربتة فجمع عساكر لا تحصى ونهض من سمرقند في سنة ٧٨٨ قاصدًا بلاد إيران ومحاربة توقتاميش خان إن ظهرت منه ما يوجب ذلك وبقي في سفره هذا ثلاث سنين ولهذا يقال له عند مؤرخي تيمرلنك يورس سه ساهه فإن معناه سفر ثلاث سنين وأباد في هذا السفر كثيرًا من الملوك وهزم

= ٣ - القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي علاء الدين، وكان كأخيه شهاب الدين أحمد يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

٤ - القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله استقلالاً.

٥ - القاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله (انظر القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ص ١٠٦ - ١٠٧).

(١) هو ابن حجر العسقلاني. تقدمت ترجمته.

السلطان أحمد واستولى على ممالكة ببلاد آذربيجان وشرده إلى بغداد واستولى على كرجستان حتى وصل إلى تفليس وبلاد الداغستان وفعل من الشنائع ما لا يوصف كل ذلك لتحريك غيظ توقتاميش خان وعرق غضبه ولعله يقوم مقام المدافعة حيث وصل إلى حدود بلاده ولكن لم يظهر من توقتاميش خان أدنى حركة وجاءه في ذلك الوقت الشيخ إبراهيم الشرواني ملك بلاد الداغستان وأظهر له الانقياد ضرورة استخلاص مملكته من شره وقد ذكرت قصته في عجائب المقدور مستوفاة لكن في غير محلها ومحلهما إنما هو هنا ولما جاء أوان الشتاء شتا بقرا باغ ولما انقضت أوان الشتاء توجه في أول الربيع من سنة ٧٨٩ إلى طرف بردع فسمع في أثناء سيره أن طائفة من عسكر توقتاميش خان يعني قراغوله مترددون في سواحل نهر الكر ومرادهم العبور إلى طرف آخر منه وأنهم قد أغاروا على مملكة شابران التي كان تيمرلنك قد استولى عليها فلما سمع ذلك اغتنم الفرصة وأرسل طائفة من عسكره الذين خلقوا لتعذيب العباد وتخريب البلاد وسفك الدماء وأنواع الفساد والإفساد تحت رياسة بعض أمرائه إلى تلك الجهة وأمرهم بالعبور من نهر الكر وتفحص الأحوال وتجسس الأخبار فجاسوا خلال الديار وعبروا النهر المذكور والتقوا طائفة من عساكر توقتاميش خان فسألوهم عن أصلهم وفصلهم وعن مراهم وقصدهم فأجابوهم بأننا من عساكر توقتاميش خان نحفظ الثغور من عساكر تيمرلنك والظاهر أنهم لم يعرفوهم فمجرد سماع ذلك هجموا عليهم هجوم الكلاب فاشتعل نيران الحرب بين الفريقين ولم يمض إلا قليل حتى وقع الانكسار والانهازم على عسكر تيمرلنك ولكن تيمر كان قد أرسل من ورائهم طائفة أخرى من العسكر تحت رياسة ابنه وخلفه الصدق ميران شاه فلحق بهم في تلك الحالة وشرع في القتال فتأخر عسكر توقتاميش خان وأسر ميرانشاه بعض الضعفاء منهم وعاد بهم إلى حضور تيمر، فقال تيمر لهؤلاء الأسرى: إن بيني وبين توقتاميش خان حقوق الأبوة والبنوة فما السبب للإقدام على أمثال هذه الحركات الغير اللائقة به حتى أفضت إلى سفك دماء كثيرة بغير حق بل اللائق به أن يحفظ نفسه من الإقدام على أمثال هذه الأفعال القبيحة بعد ذلك وأن لا يوقظ الفتنة النائمة ثم أطلقهم وأوصلهم إلى مأمئهم اهـ منتخبًا من روضة الصفا. وهذا هو قول أسراء أنعامه وأنعام أولاده وأحفاده وإلا فأين التجاوز والتعدي هنا من طرف توقتاميش خان بل كون الأمر بالعكس أظهر من الشمس فإن سلطان مملكة واحدة هل يستبجح منه حفظ ثغوره خصوصًا حين تحرك طوفان البلاء الذي أغرق القسم الأعظم بسيل شروره وتوقتاميش خان أعلم بنياته وأموره حيث كان عنده مدة من أيام

عمره وشهوره وهذه هي المناوشة الأولى بين تيمرلنك وتوقتاميش خان وأول فتح باب الشرور في الحقيقة.

ذكر المحاربة الثانية بين تيمرلنك وتوقتاميش خان بما وراء النهر

اعلم أن تيمرلنك توجه بعد تلك الوقعة إلى طرف أرضروم وعدل عن قصد بلاد توقتاميش خان وأخره إلى وقت لمصلحة فيه بدت له وأجرى فيها مراسم القتل والنهب والأسر على ما هو عادته ثم توجه منها إلى طرف أصفهان وشرع فيها في القتل والتخريب وقد كان اللازم لتوقتاميش خان نظرًا إلى إحساناته السابقة ولو كان للأغراض، وانصرافه عن بلاده ولو كان لسبب موجب للأغراض. التغافل عن حركاته الشنيعة والإغماض. وعدم قصده بسوء ولكن إذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. وإذا أراد الله شيئًا هيا أسبابه خيرًا كان أو شرًا فيقع محتجبا بتلك الأسباب وفق ما أراد. ومصداق ذلك أن تيمرلنك كان له خصم قوي يسمى بقمر الدين خان وكان متملكًا لبلاد كاشغر وتوقمق وآسى كول وجميع بلاد مغل وتلك النواحي وقد وقع بينه وبين تيمرلنك حروب كثيرة في أوائل ظهور تيمر وقد حصل له من تيمر مضرة كثيرة وعجز عن مقاومته فأرسل في تلك الأثناء رسولاً إلى توقتاميش خان شاكيًا إليه من تيمرلنك وفعائله وشغائله وعدد قبائحه من كونه غير مستحق للملك أولاً لا شرعاً ولا قانوناً وإبادته الملوك من أولاد چنكزخان وغيرهم وانتزاع ممالكهم الموروثة من أيديهم بغير حق وغير ذلك وقال: إنه لا يبقى عليك ويعاملك معاملة بغيرك وقد أتاك الله سبحانه قوة ومكنة تقدر بها رفعه من البين ودفع شره من العالم وإزالة ظلمه من بني آدم مع كونه الآن بعيدًا عن مملكته ودعاه إلى الاتفاق معه على محاربه وقيل: إنه جاءه بنفسه. فلما سمع توقتاميش خان ذلك وقد كان مغتآظًا له فيما هنالك لأفعاله الشنيعة عمومًا ولاستيلائه على خوارزم التي كانت جزءًا من مملكة جوجي خان في تقسيم چنكزخان وكانت بيد آبائه وأجداده بموجب ذلك إلى ظهور تيمرلنك وصدور الإهانة منه في حقه في الوقعة المذكورة خصوصًا أجاب إلى ملتمس قمر الدين خان وعقد معه الاتفاق على هذا الأمر الخير لو تم ولكنه ما تم بل صار سببًا لصدور ألف ما تم وذلك فإنه أرسل جيشًا^(١) كثيرًا إلى طرف تركستان وجيشًا

(١) وهذا الجيش يقوده الأمير محمود ابن الأمير كيخسرو الختلاتي فإن تيمرلنك كان قتل أباه الأمير كيخسرو بعد وقعة خوارزم لأنه كان يبغضه ويبغض شغائله من أول ظهوره وهذه القصة مأخذها روضة الصفا وهذه الكيفية وإن لم تكن مصرحًا بها فيها لا أنها تفهم منها في أثنائها فلا تغفل. منه عفي عنه.

آخر إلى طرف بخارى من طريق خوارزم وكذلك فعل قمر الدين خان فتحرك العسكران بعد الانضمام والاتحاد أعني عسكر توقتاميش خان وعسكر قمر الدين خان وتوجهوا إلى المقصد من ذينك الجانبين .

فأما الفرقة التي توجهت نحو تركستان فإنهم تعدوا سغناق وهجموا على سيرام^(١) وحاصروها وكان الحاكم بها من قبل تيمرلنك تيمر خواجه بن أقبوغا فاستعد للمدافعة وبذل فيها جهده ولما لم يتيسر فتحها بعد محاصرة أيام تركوها وتفرقوا في الأطراف والجوانب للضبط فلما سمع ميرزا عمر شيخ بن تيمرلنك بهذه الحادثة وكان حاكمًا باندجان من بلاد فرغانة جمع عساكره وتوجه نحوهم للمدافعة ولحق به الأمير سليمان شاه والأمير لعل والأمير عباس وشيخ تيمر بن أقتيمر بهادر الذين كانوا مستخلفين بسمرقند للضبط والحفظ والحراسة وعبروا سيحون بعد الاتحاد والاتفاق والتقى الجمعان بموضع چوكلنك أو شيلنك على خمسة فراسخ من إنزار واشتعل بينهما نيران الحرب واشتد القتال من أول النهار إلى الغروب ثم وقع الانهزام إلى عسكر تيمر فولوا الأدبار واستبدلوا القرار بالقرار وتفرقوا شذر مذر ورجع ميرزا عمر شيخ هاربًا إلى أندجان واشتغل هناك بمحاربة فرقة أخرى من عساكر خضر خواجه خان الذين كانوا تحت رياسة أخيه أنكاتوا وهرب الأمير سليمان شاه والأمير عباس إلى سمرقند وتحصنوا هناك . وأما الفرقة التي كانوا متوجهين إلى بخارى من عساكر توقتاميش خان وقمر الدين خان فإنهم دخلوا خوارزم وانتزعوها من أيدي نواب تيمرلنك وضبطوا أمورها ونصبوا بها أميرًا من قبل توقتاميش خان يسمى بالأمير ايلتمش ثم توجهوا منها إلى بخارا وضبطوا أطرافها كلها بالتمام ولم يبق غير بلدة بخارى فحاصروها أشد الحصار وكان الأمير بها والقائم بضبط أمورها الأمير طغاي بوغا أخو الأمير لعل الذي مر ذكره آنفًا والأمير ملتمس أو ايلتمس قوجين فحصنا القلعة تحصينًا تامًا ووقعت بين الطائفتين محاربة عديدة شديدة وطالت أيام المحاصرة ولم يتيسر الفتح بوجه ما .

وكان تيمرلنك في تلك الأثناء بأصفهان مشغولاً بالتخريب والفساد والإفساد وكانت مملكة أصفهان في الوقت المذكور بيد آل مظفر وكان قصد تيمر أن

(١) وهي بلدة صغيرة على جهة الشرق الشمالي من قصبه چمكند مائلة عن الجادة وكانت لها أهمية كثيرة في قديم الأيام لكونها أحد ثغور الأتراك وانتسب إليها جمع من العلماء ودخلتها في بعض سياحتي وقيل صيزان وهو الأقرب إلى الصواب . منه عني عنه .

يستأصلهم بالكلية وكاد أن يفوز بما رام لولا أن يحول بينه وبين ما يشتهي هذا الذي ظهر في صفحة الأيام فإنه سمع في أثناء كره وفره ما وقع من عسكر توقتاميش خان وقمر الدين خان في مملكته ومقره فعقد الصلح فوراً مع آل مظفر وفوض البلاد إليهم كأنهم نواب من جهته وانثنى راجعاً إلى سمرقنده بكمال العجلة وتمام السرعة وأخذ العلامة السيد الشريف الجرجاني قدس سره معه في هذا السفر وكان مقيماً بشيراز قاعدة مملكة أصفهان عند ملوك بني المظفر وأرسل تيمر بعض أمرائه قدامه بمقدار من العسكر خفياً ليخبروا بقدومه فيتقوى من بما وراء النهر من عساكره بهم وبسماح مجيئه ولما سمع عسكر توقتاميش خان بقدومه وانتعش بذلك قوى المحصورين وطالت المدة وفنيت الأقوات وبلادهم بعيدة ولم يستولوا بعد على المعادل الحصينة مثل بخارى وسمرقند حتى تثبت أقدامهم في مقام المدافعة بل المعادل المتينة والحصون الحصينة والأماكن المنيعة كلها بيد أمراء تيمرلنك وعساكره وهو بنفسه في صدد الوصول بجنود غير محصورة ولا يؤتمن من قيام الأهالي التي استولوا عليها جديداً بل هو محقق رأوا أن المصلحة في الرجوع والانسحاب فأحرقوا سراي تيمر بسمرقند المسمى بزنجير سراي واغتمنوا بعض الغنائم ورجعوا إلى بلادهم وكانت هذه الحادثة في أواخر سنة ٧٨٩ أو في أوائل ما بعدها أو فيما بينهما. وهذه هي التي وقعت الإشارة إليها في الرشحات في ترجمة سيف الدين المقهور بعنوان مجيء عسكر توقمق وهم عسكر قمر الدين خان.

وفي مقامات الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره المسمى بأنيس الطالبين^(١) عند تعداد كراماته بعنوان مجيء عسكر قفجق المهيبة فأعرف ذلك وكانت وفاة الخواجه النقشبند قدس سره في السنة التي بعدها أو فيها ولم يحصل من هذه الواقعة شيء من الفائدة سوى استراحة بني المظفر وأهل أصفهان عموماً بانقلاع طوفان البلاء عنهم بسببهم وبقائهم مدة إلى مجيء أجلهم الموعود وسوى استرجاع خوارزم من يد تيمرلنك ولكنها لم تلبث في أيديهم إلا قليلاً حتى استردها تيمر منهم ثالثاً فأتج ذلك محاربة ثالثة بينهما.

(١) أنيس الطالبين: هو كتاب «أنيس الطالبين وعدة السالكين في مناقب الخواجه بهاء الدين» لصلاح بن مبارك البخاري، المتوفى سنة ٧٩٣ هـ. (انظر كشف الظنون ١/١٩٧، ٥/٤٢٧).

ذكر توجه توقتاميش خان بنفسه إلى ما وراء النهر لحرب تيمرلنك ووقوع المحاربة بينهما مرة ثالثة

قد تقدم أن توقتاميش خان لما أرسل جيشًا إلى ما وراء النهر من طريق خوارزم استولوا عليها أعني خوارزم وانتزعوها من أيدي عمال تيمرلنك ونصب توقتاميش خان واليًا عليها من طرفه يسمى إيلتميش خان فلما عاد تيمرلنك من أصفهان قبل نيل مرامه بسبب تلك الحادثة ووجد عسكر توقتاميش خان قد رحلوا من ما وراء النهر ورجعوا إلى بلادهم سالمين غانمين بعد أن أحرقوا قصره المسمى بزنجير سراي لم يجد شيئًا مما يحصل له به التشفي ويسكن به غيظه سوى انتزاع خوارزم من نواب توقتاميش خان لكونها متصلة بما وراء النهر ولكونه مستوليًا عليها قبل ولكثرة محصولها ولكونها في طريق الجهات التي كان مطمح نظره فيها فسار إليها بجميع عساكره وانتزعها من يد إيلتميش خان فهرب إيلتميش خان إلى سراي وحكي لتوقتاميش خان ما فعله تيمرلنك وشكا إليه من شائعه، فغضب توقتاميش خان عليه لذلك غضبًا شديدًا وجمع عساكره وتوجه بجيش كثيف إلى ما وراء النهر في أول موسم الشتاء من سنة ٧٩٠ لحرب تيمر فلما بلغ ذلك تيمر أمر بإحضار جميع عساكره الموجودة وتوجه لملاقاة توقتاميش خان وعسكر بموضع يقال له ساغرچی وأرسل إلى أطراف ممالكه لإحضار بقية عساكره كلها وقد بلغ البرد غايته وأجرى حكمه على الكل، ففرع سمعه في تلك الأثناء أن طلائع توقتاميش خان قد عبروا سيحون وخيموا بموضع يقال له فرادق، فبمجرد سماع ذلك تهبًا للمسير إليهم فأراد بعض أمرائه منعه من المسير حتى يستكمل عساكره كلها فلم يصغ إليهم لما أنه كان ممتلئًا غيظًا وخبيرًا بأحوال الحرب بردًا كان الوقت أو قيظًا وقال: في التأخير آفات والغلبة لمن بادر قبل أن مضى وقت الفرصة وفات وتوجه حالاً نحوهم مع شجعان عساكره ولحق في تلك الأثناء ابنه الميرزا عمر شيخ بعساكر كثيرة من طرف أندجان وهو لأخذ ثأر العام الماضي عطشان وكان كونجه أوغلان بن قطلغ بوغا وتيمر قتلق بن تيمر ملك خان ابني أرص خان قد هربا من توقتاميش خان إلى تيمرلنك لأن توقتاميش خان كان قد قتل أبويهما كما مر وكانا في هذا السفر مع تيمرلنك فأرسلهما في مقدمته وضم إليها شيخ علي بهادر مع أبطال من رجاله وأمرهم أن يأخذوا وراء عسكر توقتاميش خان أعني طلائعه هؤلاء الذين قصدهم وذلك لقطع خط رجعتهم ووصل بنفسه مع سائر العساكر في اليوم الثاني مع طلوع الشمس إلى عسكر توقتاميش خان المذكورين على الغفلة وهم آمنون مطمئنون غافلون عما دهمهم فهجم عليهم فجأة بجميع عساكره هجوم رجل واحد ولم يمهلمهم

حتى يسووا الصفوف فاندھشوا ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى انهزموا وولوا الادبار وسلکوا طريق النجاة والفرار ورجعوا إلى توقتاميش خان في معسكره بأسوأ حال وقد أسر أمير من أمرائه يسمى ايدكو يخشى فحملوه إلى تيمر فلاطف به وصار يستفسره عن أحوال توقتاميش خان وكيفيته وكمية عساكره وحصل له كمال الاطلاع بأحواله فعاد إلى سمرقند.

ولما مضى أيام الشتاء نهض من سمرقند وعسكر بموضع يقال له آقيار فقدم الأمير ميرانشاه في تلك الأثناء بعساكر خراسان والتحق بأبيه تيمرلنك واجتمع عنده عساكر سائر البلاد والأمصار أيضاً وعمل الميرزا عمر شيخ والأمير الحاج سيف الدين والأمير أنكو تيمر جسراً في مواضع من نهر خجند أعني سيحون ثم نهض تيمرلنك من آقيار في ربيع الأول من سنة ٧٩١ ونزل بساحل نهر خجند وعبر جميع العساكر والأمراء النهر المذكور إلى طرف آخر منه وسار تيمر قتلغ وسونجك بهادر في مقدمة العسكر وأرسلوا أمامهم عيوناً وجواسيس للاستخبار فلما رأى الجواسيس قراغول توقتاميش خان من بعد رجوعوا من فورهم وأخبروا الأمراء بذلك فكمن الأمراء المذكورون في المكامين ولما جاء الليل نام قراغول توقتاميش خان بفراغ البال لكونهم لم يروا أحداً في النهار فلما مضى مقدار من الليل خرج الكمناء من مكامينهم وهجموا على قراغول توقتاميش خان وهزموه فعبع القراغول المذكورون نهر أرص ولحقوا بتوقتاميش خان وكان وقتئذ محاصر الصبران^(١) فلما أعلموه بتوجه تيمرلنك إلى تلك الجهة بعساكر كثيرة رأى أن المصلحة في الرجوع لا في التوقف والرجف وتيقن أنه ضيع اللين في الشتاء لا في الصيف. لأن الظفر بتيمرلنك والغلبة عليه إنما يتصور في الشتاء لأن تحملهم للشتاء ضعيف ولهذا السر كان توجه توقتاميش خان في موسم الشتاء ولما فاتت الفرصة في الشتاء ولم يتيسر المقصود علم أن الحزم في الرجوع والسلامة في الساحل فانشى راجعاً إلى بلاده.

فلما اطلع تيمرلنك على عود عدوه أرسل الأمير سيف الدين بالأنقال إلى سمرقند وتوجه بنفسه مع العساكر خفافاً من وراء توقتاميش خان وأرسل أنالشا

(١) علم من هذا ومما تقدم من محاصرة عسكر توقتامش خان وقمر الدين خان إياها في الوقعة السابقة أن تيمرلنك كان قد استولى عليها وقد كان تلك البلاد لأولاد جوجي خان من عصره وهذا أعني استيلاؤه عليها وعلى خوارزم من جملة أسباب حركة توقتامش للانتقام من تيمرلنك أيضاً. منه عفي عنه.

الخزانيجي ودولت شاه الجيباجي مع طائفة من العساكر طليعة فأدركوا ساقه عساكر توقتاميش خان بموضع صاري قاميش فوق بين الفريقين حرب عظيم ولم يظفر أحدهما بالآخر فتوجه كل منهما نحو مقره ونزل تيمرلنك بمنزل يقال له آل قوشون هكذا ذكر هذه الوقعة الثالثة بينهما في روضة الصفا وكان كل من توقتاميش خان وتيمرلنك حاضرًا فيها بأنفسهما بخلاف ما تقدم كما عرفت.

قلت: قد ذكر ابن عربشاه في عجائب المقدور أن توقتاميش خان قد حارب تيمرلنك حين كونه حاكمًا وملكًا بسغناق وتركستان وكسره وهزمه فلقبه السيد بركة فقال له تيمر: يا سيدي إن عسكري قد انكسر فقال له السيد: لا تخف. ثم نزل السيد عن فرسه ووقف. وأخذ كفاً من الحصى. وركب فرسه الشهباء. ونفخها في وجه عدوهم المردى. وصاح بقول ياغ قاچدى^(١) وصرخ بها تيمر تابعًا ذلك الشيخ النجدي. فرجع عساكره صائحين بقول ياغ قاچدى. فشرعوا ثانيًا في المضاربة والمجالدة وكروا كرة واحدة بهمة متعاقدة، ونهمة متعاضدة. فرجع جيش توقتاميش منهزمين، وولوا على أديارهم مدبرين. فوضع عسكري تيمر فيهم السيوف. وسقوهم بهذا الفتوح كاسات الحتوف. وغنموا الأموال والمواشي. وأسروا الأطراف والحواشي. ثم رجع تيمر إلى سمرقنده. وقد ضبط أمور تركستان وبلاد نهر خجند. اهـ.

وكذلك ذكره الحافظ ابن حجر حيث قال في بيان حوادث سنة ٧٧٣ وكانت السلطنة يومئذ انتهت إلى توقتاميش خان بالدشت وتركستان فبلغه ما أنفق السلطان^(٢) هراة فجمع العساكر وقصد اللنك بسمرقند فالتقوا بين سمرقند وخجند فكانت الكسرة أولاً على اللنك ثم عادت على توقتاميش خان فانتهصر اللنك ويقال: إنه كان في عسكريه عابد يعني نجدي يقال له: بركة فلما رأى اللنك الهزيمة تمسك به فصاح العابد على عسكري توقتاميش خان فانهزموا اهـ.

وعندي أن هذه الوقعة التي ذكرها ابن عربشاه وابن حجر هي عين تلك المحاربة التي ذكرناها آنفًا وإن لم يذكر فيها هزيمة تيمرلنك فإننا نقلناها عن روضة

(١) ياغي بالترك العدو ويقابله إيدل وفاچدي بمعنى هرب يعني هرب العدو. منه عفي عنه.

(٢) قلت: هو الأمير حسين بن بسلاي بن الأمير قزغن سلطان الهرات وهو الذي أباد الملوك ووطد الملك وكان تيمرلنك بمنزلة الوزير وقائد الجيش له فلما لم يبق منازع في الملك غدر به وقتله فاستقل بالملك وكان ذلك سنة ٧٧١ ومثل ما ذكر ابن حجر أن سبب الوقعة المذكورة ذكره ابن عربشاه أيضًا ونحن تركناه روما للاختصار. منه عفي عنه.

الصفاء كما مر وعادة صاحبها وكذلك عادة جميع مؤرخي تيمر وأولاده تنويه شأن تيمر وأولاده وحط خصمائهم لا يخفى ذلك على مطالعي تواريخهم والدليل على ذلك:

أما أولاً فلأن توقتاميش خان لم يقع له قبل ذلك مصاف ومحاربة مع تيمر أصلاً أعني بحضور أنفسهما كما مر ومن شاء أباهله في ذلك بل لم يصر توقتاميش خان خاناً وسلطاناً في السنة التي ذكر ابن حجر هذه الواقعة فيها بل حضر بسمرقند في سنة ٧٨٠ كما مر وتسلطن بمعونته في السنة المذكورة أو فيما بعدها كما مر وقد ذكر ابن حجر أن تملكه في سنة ٧٨٢ كما تقدم ولم يذكر أحد ممن اعتنى بضبط وقائع تيمرلنك حربه في السنة المذكورة سوى محاربه بحسين صوفي والي خوارزم.

وأما ثانياً فإن الأمير حاجي بك ابن عم علي بك بن أرغون شاه الجوني قرباني الذي كان حاكماً بطوس من طرف تيمرلنك ضرورة بلغه في أثناء المحاربة المذكورة الآن أن تيمرلنك قد انهزم أمام توقتاميش خان ورجع إلى ما وراء النهر وأن توقتاميش خان حاصره هناك وشاع ذلك شيوعاً تاماً فخلع إطاعة تيمرلنك حيث كانت جبرية وصار يضرب السكة باسم توقتاميش خان ويذكر اسمه في الخطبة وأخذ يضبط البلاد باسمه وتبعه في ذلك ملوك سربداران كما هو مذكور في روضة الصفاء بعد بيان الواقعة المذكورة ومن المحال أن يشيع هذا الخبر بهذه المثابة وأن يقدم أحد من آحاد الناس فضلاً عن الخواص العقلاء من الولاة والحكام على خلع طاعته لو لم يقع هزيمة ما على تيمرلنك ولم يتحقق ذلك عنده تحقق النهار كما لا يخفى على أن له أدنى فهم ودراية فتعين أن يكون ما ذكره أعني ابن عريشاه وابن حجر عين هذه الواقعة بلا امتراء فيحمل ذكرهما إياها في أوائل أحوال تيمرلنك على سبق قلم على أنه لو لم يحمل على ذلك يلزم التناقض بين كلامي ابن حجر كما عرفت وعدم مطابقة كلام ابن عريشاه للواقع. لكن بقي هنا شيء وهو أنه قد ذكرت قصة السيد بركة في روضة الصفاء في الواقعة الآتية كما ستقف عليه إلا أن تحمل على التعدد فإن بين ما ذكره ابن عريشاه وابن حجر مغايرة كما ستطلع عليها إن شاء الله تعالى والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل.

ذكر توجه تيمرلنك إلى دشت القفجق وسراي لحرب توقتاميش خان وتخريبه تلك البلدان وهذه هي الواقعة الرابعة بينهما:

قد ذكرنا فيما سبق أن توقتاميش خان ترك المحاربة وتوجه إلى بلاده وأن تيمرلنك قد نزل منزلاً يقال له آل قوشون من منازل بلاد تركستان وبينما هو مقيم هناك

إذ قرع سمعه خبر عصيان الأمير حاجي بك بخراسان على ما سبقت الإشارة إليه فأرسل لدفع شوكته وكسر صولته ابنه الميرزا ميرانشاه بعسكر كاف ثم استشار بقية أمرائه في الحركة إلى دشت القفجق وبلاد بركة لمحاربة توقتاميش خان هناك فقالوا له جميعاً: إن الصواب هو التوجه إلى طرف مغولستان لمحاربة خضر خواجه خان وأخيه أنكاتو فتوجهوا هناك وقتلوا وأسروا وغنموا. فلما قضوا وطهرهم من الفساد والإفساد وتخريب البلاد وقتل العباد التي هي أقصى مرامهم ولذلك كانوا خلقوا رجعوا إلى سمرقند ووصلوا إليها في السابع والعشرين من رمضان سنة ٧٩١ وشتوا بها ولما انقضت أيام الشتاء أمر تيمرلنك بإحضار جميع عساكره أمراً مبرماً شديداً وأرسل القصاد إلى أقصى ممالكة لهذا المهم وأكد عليهم بأن لا يراعوا خاطر أحد في جمع العسكر وتهيئة أسباب السفر وأمر بأخذ فرس زائد بين كل شخصين وأن يأخذوا لكل عشرة أشخاص خيمة وأن يأخذ كل أحد قوت سنة كاملة.

وبالجملة أنه قد أكد في تكميل أسباب هذا السفر تأكيداً بليغاً حتى كان يعدها واحداً واحداً حتى القدوم والإبرة والخيط وأمر بفتح أبواب الخزائن واستمالة قلوب العساكر بمغنطيس الذهب والفضة.

والحاصل أنه لم يمهل دقيقة من دقائق الحزم والاحتياط وخرج في شهر سنة ٧٩٢ من سمرقند وتوجه نحو الدشت وبنى جسراً على نهر الخجند أعني سيحون وشتا بتاشكند وعرض له المرض هناك وامتد إلى أربعين يوماً واشتد حتى كاد يهلك ويسلم روحه الخبيثة إلى الزبانية يا ليتها كانت القاضية ولكن لما كان سفك دماء كثير من المظلومين وخراب كثير من البلاد وابتلاء جم غفير من العباد مربوطة بحياته المشؤومة المنحوسة قام من مرضه كأنه نشط من عقال ولحق به في تلك الأثناء ابنه الميرزا ميرانشاه مع عساكر خراسان وكان تيمر قتلغ وكونجه أوغلان حفيداً أرض خان المار ذكرهما معه في ذلك السفر أيضاً وكذلك الأمير ايدكو المنغتي خال تيمر قتلغ المذكور أيضاً كان معه وهو الذي حرك حمية تيمرلنك وسهل له الأمر في هذا السفر كما ذكره في عجائب المقدور^(١) بما لا مزيد عليه وكذلك تيمر قتلغ وكونجه أوغلان

(١) يعني تحريكه وحثه لتيمرلنك ونفرته من توقتاميش خان لا كونه معه في هذا السفر فإنه خلط بين تلك الوقائع كما مرت الإشارة وسيأتي أيضاً فتنبه وقال فيه إن قبيلة الأمير ايدكو تسمى قوبكومات هكذا رأيناها في النسخة القديمة المطبوعة منه بكالكوتا والنسختين المطبوعتين في مصر ولما لم يسمع في قبائل الترك والتتار قبيلة قوبكومات حرفه بعضهم قبيلة قونكرات لكونها =

كانا لا يقصران في تحريضه وحثه على قصد بلاد الدشت لمحاربة توقتاميش خان لكونه قتل أبويهما وقصد قتلها أيضاً وإلجاءهما والأمير ايدكو أيضاً إلى الهرب وترك الوطن فأمسكهم تيمرلنك عنده للدلالة على الطريق وقسم سائر الدلال على أمرائه وقواد جيوشه وأركان دولته وزعماء مملكته ليدلوهم على طريق الصواب وقت الحاجة والإيجاب. فلما تكاملت أسبابه بما لا مزيد عليها نهض في الثاني عشر من صفر سنة ٧٩٣ والشمس في الدرجة الثامنة من دلو وتوجه بأوفى حركة لقصد بلاد الدشت وتخريب ممالك بركة، ولما نزل بقرا اسمان وقع التوقف هناك أياماً بسبب تعاقب الأمطار وتواتر نزول الثلج بالليل والنهار وجاءه هناك رسل توقتاميش خان ومعهم الهدايا والتقدم مثل الخيول الرهوان والسنافر وكان مضمون رسالتهم طلب ترك المحاربة والمخاصمة وتجديد عهد المصالحة والمسالمة فكان خلاصة جوابه إن عدد أولاً ما فعله في حق توقتاميش خان من الإنعام والإحسان ثم ذكر ما فعله توقتاميش في مقابلته مراراً من المخالفة والعدوان ثم قال في نتيجة كلامه: إنه يعني توقتاميش خان لما استشعر بتوجهنا نحوه بعساكر جرار واستيقن أنه قد جلب لنفسه الهلاك وأحل قومه دار البوار يطلب مني المصالحة وترك المحاربة والمقاتلة هيئات هيئات أن يستدرك ما فات ومع ذلك لو كان في دعواه صادقاً كان ينبغي له أن يرسل علي بك حتى نتكلم معه في الخصوص المذكور. ثم استشار أمراء الأشرار في قبول الصلح ورفض السفر أو في رفض الصلح واختيار السفر فمنعه أمراؤه من قبول الصلح قولاً واحداً وأشدهم في ذلك الثلاثة المذكورون أعني تيمر قتلغ وكونجه أوغلان والأمير ايدكو، فمال إلى قولهم ودعا الرسل لديه بعد أربعة أيام وخلعهم الخلع الفاخرة وأمسكهم عنده ولم يرسلهم إلى مخدومهم كتماً لحاله وماله ثم مضى لسبيله مصرّاً على عناده ومستمرّاً في فساده وإفساده وتوقتاميش خان غافل عما توجه إليه من طوفان

= قبيلة كبيرة مشهورة إلى الآن بصحراء فذاق ولكن قال أبو الغازي أنه من قبيلة منغت ولهذا قلنا الأمير ايدكو المنغتي فهناك نصه معرباً كان شخص من قبيلة آق منغت يسمى قتلغ قبا وكان له ولد وبنت فتزوج بنته تيمر ملك خان فولد له منها تيمر قتلغ خان وكان اسم ولده ايدكو وكان من ملازمي توقتاميش خان وندمائه ولما هرب توقتاميش خان إلى سمرقند جاء ايدكو المنغتي أيضاً من ورائه وأخبر بقصد أرض خان ولما صار توقتاميش خان خاناً بسراي كان ايدكو في ملازمته ولما بلغ تيمر قتلغ خان حد التمييز ترك ايدكو منغت ملازمة توقتاميش خان ولازم تيمر قتلغ وكان فيه دغدغة السلطنة فأراد توقتاميش خان قتله فهرب إلى تيمرلنك وهرب ايدكو منغت أيضاً بعد ستة أشهر إلى تيمرلنك وانضم إلى تيمر قتلغ اهد ملخصاً وسيقع له ذكر بعد ذلك ويحصل بعض الإيضاحات هناك. منه عفي عنه.

البلاء لتخريب بلاده فهرب في تلك الأثناء نفران من ملازمي الأمير ايدكو إلى توقتاميش خان فأرسل تيمرنك طائفة من عسكره في طلبهما وتعقيبهما ولكنهم لم يدركوا ورجعوا خائبين هكذا ذكروا.

وعندي أن هذا كان مصانعة من تيمرنك والأمير ايدكو رئيسي الدواهي لإخبار قوم الأمير ايدكو وتيمر قتلغ وكونجه أوغلان بتوجههم نحوهم ليأخذوا حذرهم ولينخذلوا من عند توقتاميش خان يوم التقى الجمعان فصار ما سيأتي من اختلال عسكر توقتاميش خان وانخزال قسم أعظم منهم يوم التقى الجمعان وانهازم توقتاميش خان وغلبة تيمر كل ذلك من نتائج تلك المقدمة المصنوعة وهذا معنى قولهم الحرب خدعة وهي التي كانت أعظم سلاح تيمرنك في حروبه.

وعلى كل حال قطع تيمرنك الصحارى والفيافي وقاسى الشدائد في سفره هذا بحيث لم ير مثلها في عمره ولم يواف حتى صار رأس شاة لا يوجد بمائة دينار ولا المن من الدقيق بمائة وعشرين دينارًا وكان عسكره يسدون رمقهم بأكل بيض الطيور الوحشية ولحوم الصيد وكان الأمراء الكبراء يكتفون بلحسات من السوق ووقع عليهم لأجل ذلك التأخير والتعويق حتى وصلوا بعد أربعة أشهر في رابع عشري جمادى الأخرى إلى نهر بايق ودليلهم هو الأمير ايدكو والظاهر أنه سلك طريق القافلة المسلوكة الآن من تاشكند إلى طرويسكي^(١) حيث ذكروا مروره بيلان جق وغيره مما يمر به القافلة في زماننا هذا ولما بلغ هناك استشار أمراءه في كيفية العبور منه فقال له الدلال إن لهذا النهر ثلاثة معابر فليختر الأمير أيًا شاء فقال تيمرنك لا مصلحة في العبور من تلك المعابر فإنه لا يؤتمن فيها من كون المخالفين في المكامين فسار إلى أعلاه وعبره من غير معبر ثم وصل بعد ثلاثة أيام إلى نهر سمور، هكذا في نسخ روضة الصفا وليس هناك نهر يسمى سمور والظاهر أنه صقمار أو صمار والأول أظهر، ونزل بساحله فجاءه في ذلك الموضع طلائعه وعيونه وأخبروه بقرب المخالفين فأكد على عسكره بأن لا يفارق أحد فرقته وأن يلازم كل منهم مكانه الخاص به وأن لا يوقد أحد نارًا وأمرهم بلبس السلاح ثم سار بعد ترتيب الصفوف ورعاية مراسم الحزم والاحتياط حتى نزلوا بموضع يقال له: أينك ثم ركب منه صباح يوم السبت

(١) وقد ذكر كارامزين أن سلوكهم كان جهة الشمال يعني من سمت بطرباول وأقمولا بل من ملتقى نهري أومباوطوبل وهذا لا مناسبة له قط ولعل أصل العبارة نهري أوي وطوبل فيكون في حدود ازبيري غالاوسكي المشهور بين قزاق بباغلان. منه عفي عنه.

غرة رجب من السنة المذكورة وسار بغاية الاحتياط ونهاية التيقظ فجاءه جواسيسه في تلك الأثناء بثلاثة أنفار من رعايا توقيتاميش خان فاستنطقهم، فقالوا: إن توقيتاميش خان ما كان له خبر عن توجهكم حتى قدم النفران اللذان هربا من ملازمي الأمير ايدكو ولما تحقق مجيئكم بأخبارهما شرع في جمع الجموع وإعداد أسباب المحاربة والمقاتلة بترك الهجوع وهو الآن قاعد مع عسكريه في قرق كول منتظرًا لقدمكم. فلما سمع تيمرلنك ذلك الخبر توقف في محله ذلك ليلحق به بقية عساكره وأمر العسكر بحفر الخندق حوالئهم وأكد عليهم تأكيدًا بليغًا بأن لا يتغافلوا عن دقائق الحزم والاحتياط فباتوا ليلتهم تلك هناك فلما أصبحوا رحلوا ثم لما نزلوا حفروا الخندق حوالئهم وهكذا كانوا يفعلون في كل منزل للاحتياط. وفي تلك الأثناء قسم الدنانير والدراهم والخلع للأمرء والعساكر واستمال قلوبهم بأنواع الإحسان والإنعام وصنوف الجواهر وبينا هم قاعدون في خيامهم مستريحين إذ أخبر عيونهم بأنه قد ظهر ثلاث فرق من المخالفين ثم أخبروهم ثانيًا بظهور جمع كثير من المخالفين فركب تيمرلنك وتقدم مع أبطال عساكره وأمر البقية بالإسراع والاستعجال فجاء طلائعه مقارنًا لهذا الحال وقد قبضوا على رجل من أهالي تلك الديار فلما سأله عن الأخبار قال: إن قصد توقيتاميش خان أن يجركم إلى داخل بلاده فأمر بقتله لصدقه فقتل، ثم أمر سونجك بهادر وارغون شاه بالتقدم للاستخبار مع جمع من الأشرار فتقدموا ولما لم يروا أحدًا رجعوا خائبين فظهر صدق هذا المقتول المظلوم ثم أرسل مبشر بهادر مع جمع من الأبطال للاستخبار فالتقوا جمعًا من أقوام تلك الديار ونشب بينهم نيران القتال بالطعن بالرمح وبالضرب بالبتار وبعد اللتيا والتي قبضوا منهم على أنفار ورجعوا إلى تيمر رئيس الأشرار فقالوا له بعد الاستفسار: إن خاننا أمرنا بالمجيء إلى قرق كول فلما جئناه حسب الأمر ما وجدناه هناك وما ندري لأي سبب تخلف وأين ذهب فأمر بقتلهم أيضًا فقتلوا عن آخرهم وكانوا أربعين فتقرب بدماء هؤلاء المظلومين إلى رب العالمين. ثم أرسل جمعًا من أمرائه وعساكره طليعة وأكد عليهم في أعمال الخديعة، وقال: متى رأيتم في طرف العدو كثرة فأظهروا أنفسكم على سبيل الخديعة والمكيدة ثم أهربوا منهم لينخدعوا بتعقيبكم وكلما يظهر من الكبير والصغير والحقير والخطير فأخبروني به سريعًا فتوجه المأمورون المذكورون فرأوا قراغول توقيتاميش خان فسار صابن تيمر نحوهم وكلمهم ثم عاد إلى رفقته وأرسل واحدًا منهم إلى تيمرلنك فلما اطلع تيمر على هذا الشأن وتيقن أنه قد قرب من عدوه وأن الموعد قد حان أرسل الأمير ايدكو تيمر مع آلاف من الفرسان ليتحققوا كمية عساكر توقيتاميش خان

الموجودين هناك وكيفية منازلهم ومواقعهم فتوجه المذكورون ومروا في مسيرهم بموحد ووصلوا إلى قراغولهم ولما تقدموا قليلاً بهيئتهم الاجتماعية الاتحادية رأوا جمعاً من عساكر توقيتاميش خان واقفين على تل هناك منتظرين فأرسل الأمير ايدكو طائفة من أبطال عسكرهم نحوهم فلما اطلع هؤلاء على أنهم توجهوا نحوهم نزلوا من التل المذكور وطلع هؤلاء محلهم فرأوا وراء التل المذكور ثلاث فرق من العسكر واقفين في الكمين مستعدين للقتال. فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى الأمير ايدكو يخبرونه بصورة الحال فساق فرسه نحوهم مع من كان عنده بلا تأمل ولا إمهال، فلما وقف على كثرة عدوهم رأى أن المصلحة في الرجوع، فأمر الذين معه بالرجوع أولاً لينجوا من الوحد سالمين ووقف بنفسه فوق التل مع بعض من معه فهجم عسكر توقيتاميش خان نحوهم فهرب ايدكو تيمر وولى مديراً فأصاب قفاه سهم وأصاب فرسه سهم آخر وقتل معه كثير ممن كانوا معه من الأمراء والعساكر ونجا من لم يدركه أجله.

فلما أخبر تيمرلنك بذلك ركب مع أبطال عساكره فوزاً ولحق بالقوم فاستد القتال بين الفريقين ثم انفصلوا وعاد كل منهما إلى معسكره فأحسن تيمرلنك إلى من صدر عنهم في تلك المعركة الشجاعة والمدافعة حتى أمر حجابيه أن لا يمنعهم عن الدخول عليه متى شأؤوا وعفى عنهم الجرائم ورفع عنهم وعن أولادهم الغرائم. ولما قتل الأمير ايدكو استولى الخوف والرعب على عسكر تيمرلنك وصاروا بحيث لا يقدر على غمض العيون وطعم الكرى في الليالي. ثم أرسل تيمرلنك عشرين ألفاً من عساكره الجرار تحت رياسة ابنه ميرزا عمر شيخ وضم إليه جمعاً من مشاهير أمراءه فما ساروا إلا مسافة يسيرة حتى التقوا طلائع توقيتاميش خان فأرسل إلى أبيه تيمرلنك يعلم بصورة الحال فشرع في تعبئة عساكره وترتيب الصفوف وتسويتها، ثم ساروا نحوهم ولما تقارب الفئتان تغير الهواء تغيراً كلياً وتراكت الغيوم ونزلت الأمطار الكثيرة وامتد ذلك الحال إلى ستة أيام ثم انقشعت الغيوم وصحى السماء، فشرع تيمرلنك في تعبئة عساكره يوم الاثنين الخامس عشر من رجب الذي قيل فيه وفي رجب ترى العجب من السنة المذكورة أعني سنة ٧٩٣ بموضع يقال له قندزجه مما لا يغيب فيه الشفق في أقصر ليالي السنة، ورتب عساكره وفرقهم إلى سبعة فرق وقيل ثمانية واستقر جميع عساكره وأمراءه وأبطاله في مقرهم المختص بهم ميمنة وميسرة ومقدمة وساقه وقلباً مستعدين للقتال والحرب ومنتظرين للطعان والضرب فظهر توقيتاميش خان في تلك الأثناء بكمال العظمة والهيبة وتمام الشوكة والأبهة وقد عبى عساكره ميمنة وميسرة ومقدمة وساقه وقلباً وعين لكل موضع منها أمراء المشهورين

من أولاد جوجي خان مثل ماشور أوغلان وإيلتمش خان والأمير بيك بولاد والأمير علي أوغلان وسليمان صوفي والأمير نوروز وعيسى بك أخي الأمير ايدكو مغنت الذي مع تيمرلنك في السفر المذكور وحسن بك وغيرهم. فوقف مقابل عسكر تيمرلنك فلما عين تيمرلنك كثرتهم وأبهتهم نزل من فرسه وصار يتمرغ في التراب ويتضرع ويسأل النصر والظفر فقام في تلك الأثناء الشيخ النجدي السيد بركة والخواجه نظام الدين يوسف والشيخ إسماعيل الذي ينتهي نسبهما إلى شيخ الإسلام أحمد الجامي قدس سره ورفعوا أيديهم إلى السماء بالدعاء حاسرين رؤوسهم يسألون نصرة تيمرلنك وانهزام توقتاميش خان وجري في تلك الأثناء على لسان الشيخ النجدي السيد بركة تحريضاً لتيمر على الحركة توجه حيث شئت فإنك منصور فتوجه كل من الفريقين نحو الآخر فنشب بينهما القتال ووقع بينهما حرب صعب وهجم توقتاميش خان بمن معه من الأبطال على الفرقة التي فيها تيمرلنك ثم عطف عنانه نحو فرقة الميرزا عمر شيخ ثم منها إلى فرقة سلدوز وبها الأمير شيخ تيمر وقتل منهم مقتلة عظيمة حتى كاد يفنيهم ويستأصلهم مرة واحدة واخترق صفوفهم وتعداهم إلى ورائهم ووقف وراء فرقة تيمرلنك بتعبيته وتهياً للهجوم عن ورائهم، ولكن كانت ميسرة توقتاميش خان قد انكسرت أمام الأمير سيف الدين وكان تيمرلنك قد سار لتعقيهم فأدركه أحد من أمرائه وأخبره بصورة الحال وجاءه أيضاً واحد من فرقة الميرزا عمر شيخ وقال له: مثل ما قال فلما سمع تيمرلنك هذا الخبر عطف عنانه نحو توقتاميش خان فرأى أن رحا الحرب دائرة بينه وبين ولده الميرزا عمر فإن الميرزا لما رأى اصطفاً توقتاميش خان وراء فرقة تيمرلنك واستعداده للهجوم عليها من ورائها كان توجه نحوه وشرعا في القتال ولما عين تيمرلنك هذا الحال هاجم عليه بلا إمهال وحيث إن ميسرة تقوتاميش خان قد انكسرت وعقود نظام عسكره قد انحلت وأحوال أمرائه ووكلائه قد اختلت وأن تيمرلنك قد توجه إليه بجمع قواه بعد أن اجتمعت عنده سائر فرق عساكره وانضمت وأنه قد بقي وسط عساكر العدو مثل المركز رأى أنه لا مصلحة في التوقف بعد بلوغ الأمر هذا الحد وأنه إلقاء نفسه بيده إلى التهلكة بل اللازم تخليص نفسه ومن معه من تلك الورطة فانسل من المعركة في الحال وتوجه بمن معه إلى بعض الناحية من غير إمهال وعدى نهر الإتل إلى طرف آخر منه ليتخلص من تلك الأهوال.

فلما بدا من وراء حجاب الغيب ما لم يخطر في البال وعدا توقتاميش خان نهر الإتل وعبر وتفرق عساكره شذ مذر استولى تيمرلنك على بلاد توقتاميش خان الكائنة على تلك الجهة أعني الشرق من نهر الإتل فقتل ونهب وأسر وسلب وأهدم وخرب

وبقي هناك ستة وعشرين يوماً وجمع غنائم من أجناس شتى لا تعد ولا تحصى وانتخب اللنك نفسه من الأسارى خمسة آلاف من الولدان والبنات واستأذنه في تلك الأثناء تيمر قتلق وكونجه أوغلان حفيدا أرض خان والأمير ايدكو المنغتي في الذهاب إلى قبائلهم ليجيئوا بهم إليه فأذن لهم بذلك وكتب لكل منهم منشورًا بعدم التعرض لهم فيما هنالك. فلما ذهبوا ووصلوا إلى قبائلهم توجه كل من تيمر قتلق والأمير ايدكو بقبائلهما إلى جهة من الجهات ذاك بخيال السلطنة وهذا يتمني الإمارة. وأما كونجه أوغلان فإنه عاد إلى تيمر مع بعض خواصه ثم توجه تيمر إلى بلاده فلما وصل راجعًا إلى نهر جابق قرع هناك إلى سمع كونجه أوغلان أن تيمر قتلق قد أجلسوه على سرير السلطنة فخرج من معسكر تيمرلنك بمن معه هاربًا منه وقاصدًا لبلاده ولما عبر تيمرلنك نهر جابق ترك الأمير سيف الدين مع أنقاله وتوجه بنفسه نحو بلاده بتمام العجلة ووصل إلى إنزار في ذي القعدة من السنة المذكورة وشتا هناك ووصل الأمير سيف الدين في محرم مفتتح سنة ٧٩٤ هـ ملخصًا من روضة الصفا وذكر في تاريخ منجم باشي نحو ما ذكر في روضة الصفا على سبيل الاختصار فكانت مدة غيابه في ذلك السفر أحد عشر شهرًا ويوافقه أيضًا ما ذكره ابن خلدون مختصرًا وعبارته.

قال: بعد ذكر حروبه مع قمر الدين خان وغلبته عليه ثم صرف يعني تيمرلنك وجهه إلى شأنه الأول يعني من الإفساد والتخريب فبدأ بالزحف إلى توقتاميش خان وسار توقتاميش خان للقاءه ومعه أوغلان بولاد من أهل بيته فداخله تيمر وجماعة من الأمراء معه واستراب بهم توقتاميش خان وقد حان اللقاء وتصافوا للحرب فصدم يعني توقتاميش خان ناحية من عساكر تيمر يعني الفرقة السلدوزية كما مر وفتك بمن لقيه فيها وانتبذ عن المعركة ثم ارتاب تيمر أيضًا فرجع إلى بلاده اه فعلم من ذلك سبب انهزام توقتاميش خان أمام تيمرلنك معه كثرة عدده وعدده وكونه في وسط بلاده وحسن أحواله وهو مداخلة تيمر لبطانة توقتاميش خان وانخذالهم عنه وقت أشد الحاجة إليهم كما كان ذلك أعني إلقاء التفرقة بين أمراء خصمه بالمكر والخديعة عادته المستمرة وأحد سلاحه وكان أهل أوروبا تعلموا هذه الحيلة منه حيث لا يستولون على ما يستولون من بلاد المسلمين إلا بهذا الطريق مذ سلب الله عقولهم وغيرتهم الدينية وجمعيتهم الوطنية.

وقال في روضة الأبرار: ولما ألجأ توقتاميش خان تيمرلنك إلى التستر بالملحفة والمعجز بين النساء ظهر عكس القضية ومساعدة الاستدراج أخذت بيد تيمر وأنتجت انسحاب توقتاميش خان من ميدان الوعاء والسعي والاجتهاد إلى سمت الهزيمة اه

ويؤيد ما ذكره ابن خلدون من مداخلة تيمر ما ذكره الجنابي أيضًا حيث. قال: ثم إن تيمر خرج من بلاده قاصدًا لتوقتاميش خان بإغراء رئيس الطائفة النوغائية الأمير ايدكو بسبب جرى بينه وبين توقتاميش خان وكان خروجه في سنة ٧٩٣ يعني انفصاله من حدود بلاده فلا منافاة لما مر ومعه تيمر قتلغ بن تيمر ملك خان وكينجه أوغلان والأمير ايدكو من طائفة توقتاميش خان وكانوا يعادونه فتوغل يعني تيمرلنك في بلاد الدشت شهورًا حتى التقى توقتاميش خان في أقصى بلاد الشمال وهي مملكة بلغار فوقع بين الفريقين قتال لم يعهد مثله واستمر ذلك بينهم نحوًا من ثلاثة أيام ثم انجلى الغبار عن انهزام جيش توقتاميش خان فولوا منهزمين وذلك بسبب أن تيمر كان قد أرسل أولاً إلى زعماء جيش توقتاميش خان بالانخزال عنه وقت القتال ووعدهم على ذلك مواعيد فاتفقوا معه على ذلك فانحازوا يوم التقى الجمعان بجمع كثير وتبعهم كلباغ وغاو وهذه القبيلة كلها أقطاوا فاختل لذلك عسكر توقتاميش وصار ما صار إلخ وما ذكره يشابه ما ذكره ابن عربشاه وكأنه أخذه عنه وعبارته هذه.

قال في عجائب المقدور بعد أن ذكر ما جرى بين الأمير ايدكو وبين توقتاميش خان وهروب ايدكو إلى تيمرلنك ومجيئه به إلى تلك البلاد فأرسل توقتاميش خان إلى زعماء حشمه. وعظماء أممه. وسكان أحقافه. وقطان أطرافه. ورؤوس أسرته. وضروس ميمنته وميسرته. فاستدعاهم. وإلى المقابلة والمقاتلة دعاهم. فأتوا في ثوب طاعته يرفلون. وهم من كل حذب ينسلون. واجتمعوا شعوبًا وقبائل. ما بين فارس وراجل. وضارب ونايل. ومقبل وقابل. ومقاتل وقاتل. بمرهف وذابل. وهم قوم نبال النبال. ونضال النضال. لا يطيشون سهمًا. وهم من بني ثعل أرمي. إذا عقدوا الأوتار. أصابوا الأوتار. وإن قصدوا الأوتار^(١). وجدوا المقصد جثم أوطار. ثم نهض للمصادمة. واستعد للمقاحمة والمقاومة. بعساكر كالرمال كثيرة. وكالجيال قرة. وحين توافق الصفان. وتناقف الزحفان. برز من عسكر توقتاميش خان أحد رؤوس الميمنة. له دم على أحد الأمراء فطلبه منه وفي قتله استأذنه. فقال له لينعم بالك. وليجب سؤالك. قلت شعر:

لكن ترى ما قد طرا إلى الورى وما جرى

(١) الأنسب الأوكار بالكاف جمع وگري إذا رموا نحو أوكار الطيور قاصدين ما بها من طير أصابوا المرمى ونالوا المقصد سواء جثم الطير في وكرها أو طار ولكن جميع النسخ الذي رأينا بالطاء على أنه جمع وطر بمعنى الحاجة وله أيضًا وجه. منه عفي عنه.

فأمهلنا حتى إذا انفصلنا وعلى المراد حصلنا أعطيتك غريمك. وناولتك خصيمك. فادرك منه ثارك. واقض أوطارك. قال لا ولكن الساعة وإلا فلا سمع لك ولا طاعة. فقال نحن في كرب مهم. هو من مرامك أهم. وخطب مدلهم. هو من مصابك أغم. فاصبر ولا تعجل. واطمئن ولا توجل. فما يذهب لأحد حق. ولا يضيع مستحق. فلا تلجئ الأعمى على الجرف. ولا تكن ممن يعبد الله على حرف وكأنك بليل الشدة وقد أدبر. وبصباح الفلاح وقد أسفر. فألزم مكانك. ونازل أقرانك. وتقدم ولا تتأخر. واصدع بما تؤمر. فانجر ذلك الأمير. بجمع كثير. واتبعه كل باغ وغاو. وقبيلة كلها واسمها آقطاو. فانطلق يروم. ممالك الروم. فوصل هو وحشمه إلى ضواحي أدرنة. واستوطن تلك الأمكنة. فاختل لذلك عسكر توقيتاميش. وصارت سهام مراميه عن مراميه تطيش. ولم ير بدأ من اللقاء. وصدق الملتقى. فثبت جأشه وجيشه. وهزم وقاره وطيشه. وقدم من أطلابه الأبطال. ورتب الخيالة والرجال. وقوى القلب والجناح. وسدد السهم والصفاح. وأما جيش تيمر. فإنه مستغن عن هذه الأمور. لأن أمره معلوم. ووصفه مفهوم. وسطر النصر والتمكين على جبين راياته مرقوم. ثم تدانى الجيشان واصطدما. واصطليا بنار الحرب واصطلما. والتفت الأقران بالأقران. وامتدت الأعناق للضراب وشرعت النحور للطعان. واكفهرت الوجوه واغربت. وكشرت ذئاب الضراب واهرت. وتهارشت نسور الشرور واسبطرت. وتعانشت أسود الجنود وازبأرت. واكتست بريش النبال الجلود فاقشعرت. وهوت جباه الجباه ورؤوس الرؤوس في محراب الحرب للسجود فخرت. وثار الغبار وقام القتام. وخاض بحار الدماء كل خاص وعام. وصارت نجوم السهام. في ظلام القتام. لشياطين الأساطين رجوماً رواشق. ولوامع السيوف في سحاب التراب على الملوك والسلاطين بروقا وصواعق. ولا زالت سواهب المنايا تجوب وتجول. وضراغم السرايا تصوب وتصول. وتقع السنايك إلى الجور راقيا. ونجيع السوافك على الدو جاريا. حتى غدت الأرض ستاً^(١) والسموات كالبحار ثمانيا. واستمرت هذا اللدد والخصام. نحواً من ثلاثة أيام. ثم انجلى الغبار. عن انهزام جيش توقيتاميش خان وولى الأدبار. وفرت عساكره. وانذعرت. وانتشرت جنود تيمر في ممالك الدشت واستعرت. واستولى على قبائلها. وأتى على ضبط أواخرها

(١) يعني بسبب صيرورة طبقة واحدة منها غباراً وارتفاعها إلى السماء فنقصت طبقة واحدة من الأرض وزادت في السماء كما أن البحور زادت على سبعة بسبب تلك العساكر التي هي كالبحر الزاخر. منه عفي عنه.

وأوائلها. واحتوى على الناطق فمازه. وعلى الصامت فحازه. وجمع الغنائم. وفرق المغانم. وأباح النهب والأسر. وأداع القهر والقسر. وأطفأ فتائلهم. وأكفأ مقاولهم. وغير الأوضاع. وحمل ما استطاع. من الأموال والأسر والمتاع. ووصلت طراشته إلى آزاق. وهدم سراي وسرايچق وحاجي طرخان وتلك الأفاق. وعظمت منزلة ايدكو عنده. ثم قفل قاصدًا سمرقنده. اهد بعبارته الأنيقة وإشارته الرقيقة فبان الأمر واتضح الحال وزال الأشكال واندفع القيل والقال.

إلا أن قوله: إن الأمير الذي انخذل من عسكر توقتاميش ذهب بقبيلته إلى بلاد الروم واستوطن بضواحي أدرنة وكذلك قوله: إن تيمر هدم سراي وسرايچق وحاجي طرخان وغيرها ليس بصحيح فإنه لم ينقل عن أحد من المؤرخين مهاجرة أحد من بلاد الدشت ومملكة أوزبك إلى تلك الجهة في التاريخ المذكور فلو وقعت لنقلها البعض وإن لم ينقلها الكل وكذلك هدم سراي وغيرها في الوقعة المذكورة لم ينقل عن أحد كما وقفت عليه بل جاء عن بعضهم ما يدل على خلافه كما مر ذلك في عبارة ابن خلدون ويدل عليه أيضًا عبارته الآتية والصحيح الصواب أن تيمرلنك لم يخرب سراي وما سواها في هذه النوبة بل قنع فيها بكسر عسكر توقتاميش خان وأخذ الغنائم ثم رجع إلى بلاده سريعًا كما مر عن ابن خلدون. وإنما كانت المهاجرة المذكورة وهدم سراي وسرايچق وحاجي طرخان وآزاق وقرم وغيرها في النوبة الأخيرة كما سيذكر هناك إن شاء الله فانتظره وإنما ذكر ابن عربشاه ذلك مع أنه خلاف الواقع والحال أنه مطلع لأحوال تلك البلاد لأنه أقام هناك مدة طويلة بعيد تلك الوقعة بسبب أنه لم يذكر من ماجريات توقتاميش خان مع تيمرلنك غير وقعة سغناق وإنزار على ما مر بيانه ووقعة سواها فهذا السبب ذكر في الوقعة كثيرًا من أحوال الواقعة الآتية غير ما ذكر أيضًا ونحن تركناها لنذكرها في محلها إن شاء الله تعالى وأما إنه جمع بين الوقعات فنحن لا علم لنا به^(١) والله أعلم بسرائر عباده وإنما نحرو نحن ما اطلعنا عليه في كتب التواريخ فمن شاء فليصدق ومن شاء فلينكر لا إكراه في ذلك لأحد خذ ما صفا ودع ما كدر نعم ذكر هو هنا ما جرى بين توقتاميش خان وبين الأمير ايدكو بعد انقلاع تيمرلنك من تلك الديار وبعض ذلك وإن كان في الوقت المذكور لكن أخرناه نحن لتكون الحوادث متصلًا بعضها ببعض والله ولي التوفيق.

(١) والذي نعرفه أن قصده إظهار الفصاحة وتزويق الكلام فقط لا غير. منه عفي عنه.

ذكر ماجريات توقتاميش خان بعد انقطاع ذلك الطوفان وسكونه بحران

قال ابن خلدون: وسار أوغلان بولاد يعني بعد انخذه من عسكر توقتاميش خان إلى سراي^(١) فملكها وفتك في مخلف توقتاميش وعياله وافترق الأمراء الذين داخلهم تيمر وساروا إلى الثغور واستولوا عليها وجاء توقتاميش إلى سراي فاسترجعها وهرب أوغلان بولاد إلى القرم فملكها وزحف إليه توقتاميش خان في العساكر فحاصرها وخالفه ابن أرس خان (الصواب حفيده)^(٢) إلى سراي فتغلب عليها فرجع توقتاميش وانتزعها من يده ولم تزل عساكره تختلف على القرم وتعاودها بالحصار إلى أن ملكها وظفر بأوغلان بولاد فقتله اهـ.

والحاصل أن توقتاميش خان لم يزل يبذل همته في استخلاص مملكته من أيدي الخونة المتغلبين فقتل البعض وشرد البعض حتى استصفاها من شوك تصرف المتغلبة بالتمام وبقي على ذلك مدة من الأعوام وكانت مملكة ليتوانيا التي هي الآن جزء من ممالك الروسية مملكة مستقلة في ذلك الوقت وكان الحاكم بها وقتئذ ياغيلا بن ألغيرد وكان المذكور مع كونه خراجياً لخوانين التتار مائلاً إليهم ومحباً إياهم وقد ذكر الفاضل المرجاني رحمه الله في تاريخه أن توقتاميش خان قد كتب بعد الواقعة المذكورة فرماناً لياغيلا المذكور بلسان التتار وقلم الإيغور وأثبته في تاريخه بعينه ولكن بسبب تداول الأيدي صار بحيث لا يفهم أكثره إلا بالصعوبة فأحببت أن أذكر خلاصته هنا بالتعريب وهي هذه.

توقتاميش خان كلامي لياغيلا قد كنا أرسلنا إليك ذا الرتب السامية قوتلوبوغا وحسن رسولاً من عندنا وأنت أيضاً كنت أرسلت إلينا رسولاً ولكن كان بعض الأمراء مثل بك بولاد خواجه وبكش توردي وجاق بيردي وداود مع أوباش آخرين أرسلوا شخصاً يسمى ايدكو في العام الماضي إلى تيمر يدعونه إلى محاربتني ولما وقفنا على مجيئه جمعنا العساكر وقابلناه وحيث إن المذكورين اتفقوا مع تيمر وواضعوه انهزموا أول الناس فانهمز بانهمز بقية العساكر فجرى ما جرى ثم إن الحق سبحانه أعاننا على الخونة المذكورين وأظفرنا عليهم فأرسلنا إليك الآن من طرفنا رسلاً رئيسهم

(١) وهذا يدل على أن تيمر لم يهدم سراي في تلك النوبة كما لا يخفى على المتأول. منه عني عنه.

(٢) يعني تيمر قتلغ بن تيمر ملك خان بن أرس خان. منه عني عنه.

حسن وتولوا خواجه فاللازم عليك أن تؤدي لهؤلاء ما هو جاري العادة من أداء الجزية والخراج ممن هم تحت حكومتنا ليوصلوها إلى خزينتنا العامرة وليداوم التجار على ما كانوا عليه من التردد في ممالكنا المعمورة حسب الأصول الجارية واستنسبنا إرسال هذا الفرمان المعلمة بنیشان الذهب حسب أصول ألوغ أوس (يعني الحصاة الكبيرة أي مملكة جوجي خان) من محل أردو تحريراً في ثامن رجب سنة خمس وتسعين وسبعمائة اهـ، فعلم بذلك أشخاص الخونة وأن الخائن ليس بواحد بل جماعة كثيرون فصار توقتاميش خان بذلك مصداق ما قيل شعر:

فلو كان أعدائي عليّ تناصروا فما ذاك إلا من تخاذل أنصاري
بل مصداق ما قيل شعر:

فلو كان رمحاً واحداً لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث

وإن توقتاميش خان قد ظفر بهم ولم يذهبوا إلى بلاد الروم^(١) وإن توقتاميش خان لم يفرغ بعد الوقعة المذكورة من إزالة المخالفين لمثل هذه الأمور أعني النظر إلى الخارج إلا بعد سنتين وأنه قد تمكنت قدماه في سرير السلطنة بعد الوقعة المذكورة.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني وفي شعبان من سنة ٧٩٠ وصل رسل تيمرلنك إلى الظاهر يظهر له الوداد والكتب على لسان توقتاميش خان سلطان الدشت اهـ. وقال العيني وفي سنة ٧٩٦ دخل السلطان (يعني سلطان مصر الملك الظاهر بروق أول ملوك الجراكسة) دمشق يوم الاثنين العشرين من جمادى الأولى وجاءه في دمشق رسل توقتاميش خان مملك بلاد أوزبك خان فقالوا: إن القان يسألك أن تكون يدًا واحدة على الباغي تيمرلنك اهـ. ومثله في تاريخ الحافظ العسقلاني وعبارته وصل السلطان إلى دمشق في العشرين من جمادى الأولى من سنة ٧٩٦ فوصل له قاصد توقتاميش خان ملك القفجق يتضمن السؤال أن يكونوا يدًا واحدة على الطاغي تيمرلنك فكتب أجوبتهم اهـ. وقال ابن شهبة وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٩٦ وصل إلى دمشق رسل الملك توقتاميش خان الجالس على

(١) وأي فائدة لهم في الذهاب إلى بلاد الروم وأي داع على ترك أوطانهم فإن المنقول عن الجنابي وابن عربشاه أن تيمرلنك حملهم على ذلك بمواعيد وأي مواعيد يكون بعد الذهاب إلى بلاد الروم وأما في النوبة الأخيرة فإنهم كانوا مضطرين إلى ذلك كما سيحييء. منه عني عنه.

كرسي أوزبك خان ببلاد القفجق فأحضرهم السلطان فبلغوه سلام مخدومهم ورسالته ومن مضمونها أنه يسأل السلطان أن يكون هو وإياه يدًا واحدة على الطاغى الباغي تيمرلنك اهـ. ومثله في تاريخ ابن الفرات أيضًا.

وقال في بدائع الزهور وفي جمادى الأولى من سنة ٧٩٦ جاءت الأخبار بأن السلطان خرج من الشام وتوجه إلى حلب وحضر إليه قاصد من عند توقتاميش خان ملك التتار بأن يكون السلطان عونته على قتال تيمرلنك فأجابه السلطان لذلك اهـ. ومثله في تاريخ ابن دوقمق مختصرًا.

ذكر الوقعة الخامسة بين توقتاميش خان وتيمرلنك وهي الوقعة الأخيرة بينهما وخاتمة التلاق والحاكمة على توقتاميش خان بمفارقة ملكه وإيقاع الطلاق والقاضية بشتات أمور تلك الملكة وخراب هاتيك الآفاق

اعلم أن تيمرلنك لما عاد من بلاد الدشت في التاريخ المذكور سابقًا وشتا بإنزار وتاشكند ودخل سمرقند بعد مضي أيام الشتاء أراد أن يتوجه إلى جهة ممالك عراق وأصفهان لإتمام مقاصده هناك فإنه كان رجع من تلك البلاد قبل إتمام مشروعه لما سمع من هجوم عساكر توقتاميش خان وقمر الدين خان على مملكته كما مر فلما كسرهما وغلب عليهما صمم عزيمته على سفر العراق ثانيًا لاستيصال ملوك تلك البلاد وضمها إلى مستملكاته فخرج في رجب العام المذكور أعني سنة ٧٩٤ قاصدًا لذلك. ويقال لسفره هذا عند مؤرخيه سفر پنج سألته يعني خمس سنين لأنه قد بقي فيه تلك المدة واستولى فيه على كثير من الممالك وأباد كثيرًا من الملك وألجأ كثيرًا منهم إلى أصعب المسالك واستأصل بني المظفر في رجب من سنة ٧٩٥ وأورد جميعهم موارد المهالك وانتزع بغداد من يد ملكها السلطان أحمد ابن السلطان أويس الإيلخاني الجلايري في سنة ٧٩٦ فهرب السلطان أحمد مع عياله وخواصه إلى مصر ملتجئًا إلى الظاهر برقوق ومستنجدًا به ثم عطف تيمرلنك على جانب ديار بكر وما والاها من البلاد وأجرى بها عادته من التخريب والقتل والنهب والأسر وتعذيب العباد.

وبعد أن فرغ من ضبط تلك الأصقاع كان من قصده أن يتوجه إلى البلاد الشامية لمحاربة الملك الظاهر برقوق سلطان مصر والشام متعللاً بأنه قد آوى عدوه السلطان أحمد الجلايري وقد كان السلطان برقوق أيضًا قد اطلع على قصده وجهز جيشًا كافيًا مع بعض أمرائه صحبة السلطان أحمد إلى حلب لملاقاته في العام المذكور وبينما هم

ينتظرون قدومه المشؤوم على حلب الشهباء إذ قرع سمعهم أن طوفان البلاء قد توجه نحو البلاد الشمالية وذلك لتعرض عساكر توقتاميش خان إلى أطراف البلاد التي كانت تحت تصرفه وإرسال عساكره متعاقباً إلى تلك الحدود لمناواته بموجب وعده السابق واتفاقه مع الملك الظاهر برقوق على ما مر ويقصد أخذ الثأر والانتقام من اللنك .

قال الحافظ ابن حجر: وبسبب رجوعه (يعني تيمرلنك) في سنة ٧٩٦ عن البلاد الشامية أنه بلغه أن توقتاميش خان صاحب بلاد الدشت والسراي وغيرها مشى إلى بلاده فانشى راجعاً وقصد تبريز وصنع في بلاد الكرج عادته في غيرها من البلاد ثم رحل راجعاً إلى تبريز فأقام بها قليلاً ثم توجه قاصداً لبلاد توقتاميش خان صاحب السراي والقفقق وكان توقتاميش خان قد استعد لحربه فالتقى جميعاً ودام القتال وكانت الهزيمة على القفقق والسراي فانهزموا وتبعهم الجغتاي في آثارهم إلى أن ألجأوهم إلى داخل بلادهم اهـ وسيجيء منه تفصيل ذلك .

قال ابن شهبه: وفي صفر سنة ٧٩٧ جاء الخبر إلى القاهرة بأن تيمرلنك توجه من قراباغ إلى أن عدا السلطانية وأن السلطان توقتاميش خان أخذ أكثر بلاده اهـ .

قال ابن خلدون: ثم بلغ الخبر (يعني إلى عساكر مصر والشام حين انتظارهم قدوم تيمرلنك على البلاد الشامية) بأن تيمر سار من مكانه (يعني مكانه الذي وهو قراباغ) إلى محاربة توقتاميش خان وعميت أنباؤه مدة بلغ الخبر آخر سنة ٧٩٧ بأن السلطان تيمر ظفر بتوقتاميش وقتله واستولى على سائر أعماله والله غالب على أمره اهـ .

وقال الجنابي: وفي تاريخ شرف الدين اليزدي أن تيمرلنك لما بلغه استقرار توقتاميش خان على سرير سراي بعد رجوع تيمر إلى بلاده (يعني بعد الوقعة الرابعة) أمر بجمع العسكر والمسير إلى بلاد الدشت فجمع من الخلائق ما لا يحصى فنهض من مقره وهو وقتئذ في قراباغ في جمادى الأولى سنة ٧٩٧ سنة فدخل بلاد الشمال والتقى مع توقتاميش خان وقتاله قتالاً شديداً ثم انهزم عسكر توقتاميش خان أقبح هزيمة وغلبه على ملكه وفر توقتاميش خان إلى بلغار وتغلغل تيمر في بلاده وقتل من أهل الدشت مقتلة عظيمة حتى وصل إلى روس وچركس وماجار وآزاق وأوسع بهم القتل والسبي والأسر والنهب والتخريب فمن ذلك العصر انتقل جيل ماجار (يعني بقاياهم التي كانت بقيت هناك) من الشرق إلى الغرب واستوطنوا في نواحي نهر طونة وفوض (يعني اللنك) ملك الدشت بعد مجازته من نهر إتل إلى واحد من أولاد چنگزخان يقال له فريد أوغلان بن أرص خان ثم سار يعني اللنك إلى حاجي طرخان

وسراي فأمر بهما فذهب جميع ما فيهما وقتل غالب أهلها ثم وضعوا فيهما النار فخربوها تخريبًا عظيمًا بحيث صارا بلادًا بلاقع له.

وقال ابن دوقمق وابن الفرات وابن حجر وابن شهبة والمقريري يتقارب ألفاظ بعضهم بعضًا: وفي يوم السبت من ذي الحجة من شهور سنة ٧٩٧ حضر إلى الأبواب يعني الملك الظاهر برقوق الأمير طولو بن علي شاه الذي كان توجه رسولا من عنده إلى الملك توقتاميش خان هو والخواجه مجد الدين إسماعيل فأخبر السلطان بأنه اجتمع بتوقتاميش خان وأنه وعد بكل خير (يعني بإمداد الملك الظاهر) واتفق معه على محاربة تيمرلنك فيبينما هو كذلك إذ جاءه الأخبار بأن تيمرلنك قصده وطرق بلاده فركب وسار بعساكره وقد خامر اللنك جماعة من أصحاب توقتاميش خان فخالفوه وخذلوه وتوجهوا إلى تيمرلنك ثم إنهم التقوا وتقاتلوا ودام القتال ثلاثة أيام ثم انكسر توقتاميش خان وهرب إلى بلاد الروس كل ذلك بحضرة قاصد السلطان يعني الظاهر برقوق وهو مقيم بسراي فلما جاءه خبر الكسرة ركب وتوجه إلى القرم ثم مضى منها إلى كفا فعوقها متملكها ليتقرب به إلى تيمر وما مكنه هو وصاحبه من الجواز حتى أخذ منهم خمسين ألف درهم فمكّنهم فعدوا إلى صمصون فأقاموا بصمصون إلى أن صحت عندهم الأخبار بأن تيمرلنك ملك القرم وأنه حاصر كفا ثمانية عشر يومًا وفتحها وأخربها فعند ذلك حضر الأمير طولو والخواجه إسماعيل ومن معهما إلى الأبواب الشريفة وأخبروا بذلك اهـ.

فإذا أحطت علمًا بإجمال هذه الواقعة وانهزام توقتاميش خان وتخريب تيمرلنك تلك البلدان وتفريق أهلها تفريقًا لم يتفق لهم الاجتماع والالتئام حتى الآن وعرفت أسباب هزيمة توقتاميش خان وهي خيانة بعض الخائنين وخذلان المخذولين وإهانتهم خذلهم الله وأهانهم بمخامرة تيمر ومداخلته ومكيدته وخديعته على ما هو عادته فهناك تفصيل ذلك الإجمال وشرحه من كلام المير آخوند الذي هو أحد الغالين والمبالغين في مدح تيمر وإطرائه وتنويه شأنه والحط عن شأن مخاليفه. قال الفاضل المير آخوند^(١) في روضة الصفا سامحه الله سبحانه بجاه المصطفى ما خلاصة معربه: إن تيمرلنك حين كان مشغولاً بتسخير مملكة شكى من بلاد داغستان بلغه الخبر أن عساكر توقتاميش خان قد عدوا دربند تحت رياسة الأمير علي والياس خواجه وغيرهما

(١) الميرآخوند: هو مير خواند المؤرخ محمد بن خاوند شاه بن محمود المتوفى سنة ٩٠٣ هـ، واسم الكتاب «روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (كشف الظنون ١/٩٢٦).

من الأمراء الجوجية واستولوا على بعض ولايات شروان التي كانت تؤدي الخراج إلى تيمرلنك فتوجه إلى ذلك الجانب فورًا لما سمع عسكر توقتاميش خان ذلك الخبر تركوا البلاد ورجعوا إلى ممالكهم وعاد تيمرلنك وشتا بمحمود آباد من بلاد آذربيجان.

(قلت: وهذا هو مراد ابن شهبة وابن حجر من قولهم: إن توقتاميش خان أخذ أكثر بلاده وأن تيمر قصده فالتقيا جميعًا ودام القتال وكانت الهزيمة على القفجق والسراي الخ. إلا أن المير آخوند لم يذكر هنا القتال قصداً لتنويه شأن تيمرلنك بأن عدوه انهزم بمجرد سماع توجهه).

ثم قال أعني المير آخوند: وأرسل يعني تيمرلنك في تلك الأثناء يعني في أثناء إقامته بمحمود آباد الشيخ شمس الدين الأكماليغي الذي كان من فضلاء الأنام عالمًا بأساليب الكلام قادرًا على إيراد أنواعه حسب المرام رسولاً إلى توقتاميش خان ومعه مكتوب مشتمل على الوعد والوعيد ومحتوٍ لما يتعلق بالصلح والحرب والرأي السديد فلما وصل الشيخ المذكور إلى سراي وتمثل بين يدي توقتاميش خان وأعطاه مكتوب تيمرلنك ونصحه بنصائح مستحسنة ووعظه بمواعظ مستعذبة ومستملحة وحذره من وخامة العقاب ونبهه بما لا ينبغي الغفلة عنه لأرباب الأذهان الثاقبة والآراء الصائبة أثار كلامه في قلب توقتاميش خان حتى أراد أن يرجع عما هو عليه كان وأن يمهد قواعد الصلح والمصافاة وأن يشيد مباني السلم والموالاتة ولكن ما تركه أمرؤه هو ورأيه ولقنوه من الآراء وراه فكتب جوابه بالغلظة والتهديد والخشونة والتشديد ثم ملأ جيب الشيخ شمس الدين من الفضة والذهب وزين قامته بالخلع المزينة بالطراز المذهب وأركبه الجواد الأشهب وأعادته إلى مرسله الذي فاق في الفتك والإفساد ابن أشعب فلما اطلع على ذلك تيمور كاد من غيظه يفور وصمم عزمه على محاربة توقتاميش خان وتوجه بجميع عساكره إلى صوب بلاد سراي وحاجي طرخان وذلك في سابع جمادى الأولى من سنة ٧٩٧ وأمر أولاً بعرض عساكره وترتيب جنوده وإظهار أعلامه ورفع بنوده فطلبوا لذلك أوسع الأمكنة وأنزهها فوق اختيارهم على ساحل نهر سمور من أرض داغستان بقرب دربند فاصطفت عساكره الموجودة في المحل المذكور بحيث وقعت الميسرة في سفح الجبل والميمنة متصلة ببحر الخزر ومسافة ما بينهما سبعة فراسخ كلهم مستغرقون في الأسلحة والحديد بحيث لم ينقل عن أحد وجود مثل هذا العسكر في كمال الأسلحة والآلات والعدة والعدد^(١) من زمان أفراسياب إلى هذا

(١) قيل كان عددهم سبعمائة ألف وتواتر ذلك وأما كثرة العدة فلا تسأل عن ذلك. منه عفي عنه.

الوقت فأمر كلهم من نظر الاحتياط وبقي في نظارتهم والبحث والتفتيش عن حركاتهم وسكناتهم من طلوع الشمس إلى وقت الظلام .

ثم استقر كل من الأمراء والضباط في مواضعهم المختصة لهم وتوجهوا نحو المقصد وعبروا دربند ووصلوا إلى أقوام من رعايا توقيتاميش خان وأحاطوا بهم إحاطة الدائرة النقطة ولكن كانت أضيّق من حلقة الميم ثم أذاقوهم العذاب الأليم فلم ينج منهم إلا اليسر العديم وقد كان توقيتاميش خان أرسل إليه في تلك الأثناء رسولاً يسمى أوتراق فلما رأى ذلك الشخص هجومهم كالشياطين المنتشرة في الآفاق رجع من فوره إلى توقيتاميش خان وأخبره بما رآه من مباغثة عسكر تيمر وهجومهم إلى أطراف البلدان فأرسل توقيتاميش خان من أمرائه قرانچی بهادر مع جمع من العساكر والأبطال في الحال فلما سمع تيمر توجهه ونزوله ساحل نهر خوي^(١) وراء تيمر توجه نحوه ليلاً وعبر النهر المذكور وقت الصبح وهجم عليهم على الغفلة بلا مهلة ثم تقدم ونزل بساحل نهر سونج^(٢) وكان توقيتاميش خان نازلاً بساحل نهر ترك وأنشأ هناك الاستحكامات بالعربيات وغيرها فلما بلغه خبر انهزام قرانچی بهادر وتقدم تيمر ترك ذلك الموضع وسار حتى نزل بساحل نهر خوي يعني بنية الهجوم من وراء عسكر تيمرلنك لا أنه تركه هرباً منه فإن الهارب لا يتقدم بل يتأخر وهذا قد تقدم فما ذكره في روضة الصفا من نسبة الهرب إليه هنا إنما صدر عنه تنويهاً لشأن تيمر بالخط عن خصمه .

قال: ثم أرسل توقيتاميش خان يطلب بقية عساكره وكان تيمرلنك تقدم إلى نهر ترك ونزل هناك فبلغوه بأن توقيتاميش خان قد أخذ وراء عسكره وها هو لاحق بهم من عقبهم سائراً على ساحل النهر بأبطال عسكر قفچق والأمراء الجوجية فلما سمع ذلك رجع من فوره ورتب عساكره ميمنة وميسرة ونزل بحذاء توقيتاميش خان وأمر بحفر الخندق حول عساكره وأنشأ الاستحكامات وأمر أيضاً بحفر خندق آخر وراء الخندق الأول والاستحكام وأمر بالتأكيد التام أن لا يتحرك أحد في تلك الليلة وأن لا يرفع فيها أحد صوته وأكد عليهم في التيقظ خوفاً من التبييت فباتوا تلك الليلة على غاية من

(١) نهر خوي ويقال بالقاف أيضاً بدل الخاء نهران ينبعان من جبال كوه البرز يعني جبال داغستان ويجريان إلى الشرق ثم يتحدان بقرب تيمر قبو ثم ينصب ببحر الخزر ويقال له هناك صولاق. منه عفي عنه .

(٢) نهر ينبع من شمال جبال داغستان ويصب في نهر ترك بكسر التاء وفتح الراء وهو يصب ببحر الخزر. منه عفي عنه .

الاحتياط والاحتراس وفي تلك الليلة هرب من عسكر تيمر إينانج أوغلان الذي كان من أكبر أمرائه وكان في الأصل من تلك البلدان ومن ذرية جوجي خان فلاحق بتوقتاميش خان. ولما أصبح شرع كل من الفريقين في ترتيب عساكره وتعبيتها وتصنيف الصفوف وتسويتها. وقسم تيمرلنك عساكره على سبع فرق كما فعل أول مرة، عين واحدة منها للقتال وأمر عليها حفيده الميرزا محمد ووقف بنفسه بالسته الباقية ورائها للإمداد وقت الاحتياج وسد الخلل الواقع فيها فظهر في تلك الأثناء توقتاميش خان بكمال الأبهة والعظمة وملاً أصوات الأبطال الآفاق وسدا غبرة سنابك خيولهم الجو فصار بحيث لا يظهر شيء في الآفاق وشرعوا في الضرب والطعان وإنزال الأقران من ظهر الحصان وهجم الأمير كونجه أوغلان الذي كان ضيع في ملازمة تيمرلنك مدة من الزمان والأمير بك پاروق والأمير داود صوفي وسواهم من الأمراء الجوجية بعساكر ميمنة توقتاميش خان على ميسرة تيمرلنك فبلغ ذلك سمع تيمر فتوجه نحوهم فوراً بعساكره الخاصة وحمل عليهم بجميع قواه فرجع ميمنة عسكر توقتاميش خان إلى مراكزهم فتبعهم أكثر عساكر تيمر ظناً منهم أنهم انهزموا فكروا عليهم ثانياً فقتلوا منهم الأكثر ورجع الباقون.

ولما رأى توقتاميش خان تفرق عسكر تيمر من عنده هجم عليه كالأسد الهاصر والنسر الكاسر وحمل عليه بجميع عساكره فقام تيمر مع من عنده في مقام الدفاع ونزل الأمير نور الدين الذي هو من خواص أمراء تيمرلنك من جواده مع سائر عساكره بنية فداء تيمر بأرواحهم وجاء أيضاً الأمير الله داد بفرقة ونزل بجانب الأمير نور الدين ووصل إليه الحسين ملك قوجين أيضاً بعساكره واتحد بالمذكورين ونزلوا جميعاً من دوابهم وشرعوا في الرمي بالنبال ودفاع المخالفين بكل ما يمكن من الضرب والطعن والنضال^(١) وكان عساكر توقتاميش خان يهجمون عليهم فوجاً فوجاً حتى صارت دماء القتلى تجري في المعركة كالسيول وجاء في تلك الأثناء الميرزا محمد ولحق باللنك ونزل من فرسه مع جميع عساكره الخاصة وهجم باتفاق أبطال جنوده على ميمنة عسكر توقتاميش خان فثبتت الميمنة على هجومهم المتعاقبة ثباتاً وصبروا في محافظة محلهم صبراً لو حضر فيه رستم لأننى عليهم بالشجاعة وشهد لهم بالشهامة وداموا على ذلك مدة من الزمان ولكن لما تكاثر عليهم المخالفون تكاثراً فاحشاً وانصبوا إليهم من كل صوب كالسيل المنهمر أزالوهم من موضعهم وأرجعوهم إلى مراكزهم.

(١) وكانت هذه المحاربة على قول كارامزين بموضع يقال له الآن يكاترينودار. منه عفي عنه.

وجاء الميرزا جهانشاه في تلك الأثناء بفوج من العساكر لمدد الأمير سيف الدين وهجموا بالاتفاق على ميسرة توقتاميش خان فاشتد القتال وزادت الأهوال وامتد هذا الحال حتى أزالوهم أيضاً عن محلهم وأعادوهم إلى مراكزهم ثم خرج الأمير علي بك الذي كان من أكبر أمراء توقتاميش خان وأخصهم ومعه إخوانه وعساكره ووقف في الميدان وطلب الأمير عثمان عباس الذي كان من أكبر أمراء اللنك وأشهرهم بالشجاعة للمبارزة فخرج عليه الأمير عباس مع عساكره وانقض كل من الفريقين نحو الآخر كالنسر الكاسر واختلط الفريقان وكثر الضرب والطعان فلا تسأل عن مقدار من قتل في تلك الميدان ثم رجع الأمير علي بك بعد برهة من الزمان نحو توقتاميش خان فلما عاين توقتاميش خان^(١) أن الحال على هذا المنوال ترك موقعه واختار الرجوع وانثنى راجعاً إلى بلاده مع خواص أمرائه ومن معه من الجيش هذا كلام المير آخوند.

(وأنت خبير بأنه ليس هنا شيء يوجب الرجوع والانهازم بل كفتنا ميزان القتال على حد سواء فلا تنس نصيبك مما قدمناه في الإجمال من كلام المؤرخين الكبار من أن هذا القتال استمر على ثلاثة أيام بالليل والنهار وأن اللنك قد خامر بعض أمراء توقتاميش خان فتركوه ولحقوا باللنك وبهذا السبب وقع عليه الانهازم والانكسار فالمير آخوند لم يذكر ذلك على ما هو عادته كما مر مراراً).

ثم قال أعني المير آخوند: ولما اطلع تيمرلنك على انهزام توقتاميش خان لم يلبث بساحل نهر قوي إلا ريشما يتفقد أحوال عساكره وينعم على من صدر عنهم في تلك المعركة من الغيرة والشجاعة والحمية والبسالة ثم توجه من عقب توقتاميش خان مع جميع عساكره وترك ولده الميرزا ميرانشاه في ذلك الموضع مع أثقاله بسبب انكسار رجله في تلك المعركة وضم إليه من أمرائه الأمير سيف الدين والأمير بادكار برلاس مع عسكر كاف ولما وصل إلى نهر أدل دعى غوري أوغلان، وقال الجنابي فريد أوغلان كما تقدم، وقال منجم باشى قويرجق أوغلان وهو الصواب والباقي محرف منه، وهو ابن أرض خان وسيجيء بيان بعض أحواله إن شاء الله تعالى، وألبسه خلعة السلطنة وزين وسطه بالكرم المرصع وضم إليه طائفة من أبطال عسكره وأرسله إلى مدينة سراي برسم السلطنة بزعمه الفاسد ورأيه الكاسد ولا ريب أنه من

(١) قال كارامزين وقد كاد توقتاميش خان أن ينتصر لو صبر قليلاً ولكنه لم يصبر بل استولى الخوف والرعب عليه فترك عسكره هكذا وانصرف. منه عني عنه.

جملة من خامرهم تيمرلنك وخذعهم وصاروا سبباً لخراب تلك الديار وأحلوا قومهم دار البوار فاجتمع لديه أمثاله وذووه من الأمراء الجوجيه وهرب توقتاميش خان منهزماً أمام اللنك مع طائفة من جيشه وفل من عسكره ودخل مشاجر وغابات هناك وامتنع بها من بأسه وتحصن من سطوته وشره وتفرق بقية عساكره شذر مذر وسار تيمر رئيس الأشرار بعساكره الجرار وجاسوا خلال الديار لا يمنعهم مانع من الإفساد والإضرار يقتلون وينهبون ويأسرون ويجمعون حتى بلغوا قريباً من أرض الظلمة حيث كادوا في النوبة الأولى يصلون إليه وخرب في طريقه ومسيره جميع البلاد التي صادفها وقتل أهلها قتلاً عاماً وأسر وسبى ونهب وأغار وسلب ثم أخرج البقية.

ثم لما فرغ من تخريب تلك الجهة وجه وجهة همته نحو غارة ميمنة ألوس جوجي يعني غربي مملكة جوجي خان فعطف عنانه إلى صوب نهر أوزي وأرسل الأمير عثمان عباس في مقدمته فأدرك المذكور طائفة من ألوس أوزبك وفيهم الأمير بيك ياروق المار ذكره فهجموا عليهم وقتلوهم ونهبوهم وأحرقوا بيوتهم ولم ينج منهم إلا القليل ولما سمع باي تيمر أوغلان توجه اللنك أي تلك الجهة سار نحو بلاد الروم وجاوز قوم سر بدار^(١) الذين كان بينهم وبين أقوام أوزبك عداوة مستمرة بأنواع الذرائع والوسائل.

قلت: لعل باي تيمر هذا هو الأمير الذي مر ذكر توجهه مع قبيلته إلى بلاد الروم في النوبة الأولى نقلاً عن ابن عربشاه وقد قلنا هناك إن ذكر ذلك هنا سبق قلم بل الصحيح أنه في النوبة الأخيرة وقد وعدناه ذكره هنا فتذكر وقد كان مع الأمير باي تيمر هذا جماعة كثيرة من تتار تلك الديار فوصلوا إلى ديار الروم فأكرمهم السلطان يلدرم بايزيد وخلع أمراءهم وكبرائهم الخلع الحمراء زعمًا منه أنه يدفع بذلك فتنهم وقيامهم ويمنع خروجهم وبغيهم عليه ثم أخذهم معه لمحاربة تيمرلنك في وقعة أنقرة وظهر منهم سبب ذلك هناك ما ظهر وعد ذلك من خطايا يلدرم بايزيد الموجبة في الظاهرة لنكته وإبتلائه هكذا ذكره بعض محقي متأخري المؤرخين العثمانيين وإن ذكر بعض المؤرخين^(٢) في تعيين هؤلاء التتار الذين كانوا معه في تلك الوقعة وتشخيصهم غير هذا والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور.

(١) هكذا في روضة الصفا ولعلمهم أهل بيسرايا لأنهم المجاورون لهم في الوقت المذكور وطريقهم إلى الروم من بلادهم والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) وهو ابن عربشاه ومن تبعه فإنه قال: إن هؤلاء كانوا مستوطنين بين سيواس وقونيه وهو قرية بلا مرية فإنه ذكر ذهاب التتار إلى الروم واستيطانهم بضواحي أدرنة فلو كان هؤلاء التتار الذين =

ولما فرغوا من تخريب تلك الجهة ولم يتركوا إلى نهر أوزي نسمة وجه وجهه عنايته نحو بلاد الروس ليكون محظوظًا بغنائمهم وأسارهم أيضًا وكان الأمير بيك يارق لما هرب من عثمان عباس التجأ ببعض الغياض والمشاجر بساحل نهر تن ولما وصل المشؤوم هناك بيأجوجه ومأجوجه الذين هم من كل حذب ينسلون هرب مع واحد من أولاده وترك سائر أولاده وأزواجه وعياله وأملاكه وأمواله هناك لما يتقن أنه إن أخذ الكل لا يأتي له النجاة فحازوا جميع أملاكه وأسروا أولاده وعياله وأتوا بهم إلى تيمرلنك فرق عليهم ورحمهم وأعطاهم من الخيمة والكسوة والنفقة ما يؤويهم ويستر عورتهم ويقيم أودهم ثم أرسلهم إلى الأمير بيك يارق.

قلت: لعله صدر عنه في حقه خدمة ومعروف وصار سببًا لغلبته فأراد بذلك مكافأته وفي تلك الأثناء لحق به الميرزا ميرانشاء بمن معه من الأمراء الذين كانوا بقوا معه بالأثقال فتوجهوا مرة ثانية إلى جهة آق أوردا أعني الجهة الشرقية من مملكة جوجي وكانت مملكة أرض خان وأجداده وأولاده قتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا وخربوا وأفسدوا حتى شبعوا وملوا ثم رجعوا إلى اللنك بغنائم وسبايا لا تحصى وكذلك فعل الميرزا محمد سلطان في ناحية أخرى ولما قضى اللنك وطره من نهب تلك الناحية توجه إلى جهة أزاق فقتل أهلها قتلاً عامًا وأخربها وتركها بلاقع ثم توجه منها إلى طرف قوبان وچركس فأجرى فيها رسمه من القتل والأسر والنهب والغارة والتخريب والإفساد.

والحاصل أنه ما ترك في تلك النواحي كلها دقيقة من دقائق القتل والنهب والسبي والتخريب وأنواع الفساد إلا أجراها وترك تلك البلاد كافة قاعًا صافصًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ولما فرغ من نهب بلاد چركس بتمامها سهلها وجبالها قرع سمعه أن الأمير أوتركو الذي كان من أكبر زعماء توقتاميش خان ممتازًا من بين أقرانه وأمثاله بمزيد الحشمة والأبهة وكان في ملازمة اللنك أيضًا مدة قد التجأ إلى قلعة فولاد خان فأرسل اللنك إلى فولاد يطلبه ويهدده إن امتنع فأجاب فولاد أن ليس من المروءة إن

= أخذهم يلدزم بايزيد معه بمحاربة تيمرلنك الذين كانوا بين سواس وقونيه أين ذهب هؤلاء التتار الذين استوطنوا بضواحي أدرنة وأيضًا ذكر هو بنفسه أن هؤلاء التتار لما أخذهم تيمرلنك معه إلى ما وراء النهر وقسمهم هناك لحق أكثرهم بالأمير إيدكو فهذا صريح في أن أصلهم من تلك البلاد ومن تلك الأقوام إلا أن نقول إنهم وإن استوطنوا أولاً بضواحي أدرنة ولكنهم رحلوا من هناك إلى ما بين سواس وقونيه فأخذهم يلدزم بايزيد معه لمحاربة اللنك من هناك يرتفع الشقاق ويحصل الوفاق ولعل هذا أقرب إلى الصواب والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

أسلم المستجير بي إلى خصمه ولي قلاع حصينة وذخيرة كثيرة وعساكر شجيعة يحبون الطعن والضرب ولا يهربون من الخرب فليصنع ما شاء فزحف إليه اللنك بجموعه ووصل إلى قلعته^(١) فوجدها في غاية من الحصانة ونهاية من المتانة وحواليها كلها غابات ومشاجر فقطعوا الأشجار مسافة ثلاثة فراسخ وبعد اللتيا والتي استولوا على القلعة وخربوها وقتلوا أهلها وأخذوا ما فيها وهرب الأمير أتركو إلى كوه البرز يعني جبال چركس ثم ظفروا بها بعد وقعات كثيرة فأمر بقتله فشفع فيه واحد من أمرائه فشفعه ولم يقتله ولكن أمر بوضع قيد ثقيل في رجليه، والظاهر أن هذه القلعة كانت في أرض القرم ولحق به في تلك الأثناء محمد أوغلان يعني من ذرية جوجي خان فجعله دليلاً وتوجه إلى قلعة سمس فأخربها ونواحيها كلها وكذلك قلعة قرقر وحواليها وقتل أهلها قتلاً عامًا.

والحاصل أنه جال في تلك النواحي من أول الربيع إلى آخر الخريف يفعل ما يشاء لا معارض ولا ممانع ولما جاء آوان اشتداد الشتاء اختار في أطراف جبال چركس موضعًا مناسبًا للشتاء فشتا به وقد كان أرسل واحدًا من أمرائه مع طائفة من العسكر لتخريب بلدة حاجي طرخان فجاءه الأمير المذكور في تلك الأثناء وأخبر بأن أمير تلك البلدة المسمى بمحمدي في مقام الامتناع والدفاع فإن لم يتدارك هذا الأمر الآن يخشى أن ينجر إلى الصعوبة والاشكال فترك الميرزا محمد سلطان والميرزا ميرانشاه في ذلك الشتاء مع الأتقال وتوجه بنفسه في حميم الشتاء بعساكر كالرمال نحو حاجي طرخان فلما قرب من البلد خرج المحمدي طوعًا وكرهًا للاستقبال فأرسله اللنك في ملازمة حفيده الميرزا پير محمد طاز والميرزا جهانشاه لتخريب مدينة سراي ونزل بنفسه بحاجي طرخان ولما توجه المذكورون نحو المقصد غدرا بالمحمدي وأغرقاه في نهر أدل وأدخله تحت الجليد وجعلوه طعمة للحيتان، ولا شك أن هذا الأمر إنما هو بتلقين اللنك وتعليمه، ولما وصلوا إلى سراي نهبوا جميع ما فيها ثم أطلقوا فيها النار وأحرقوها بجميع ما فيها مكافأة لما فعله توقتاميش خان بقصر تيمرلنك المسمى بزنجير سراي حين هجومه على ما وراء النهر كما مر وقتلوا جميع من فيها وفي حواليها حتى لم يتركوا منهم أثرًا ولم يدعوا متنفسًا ثم رجعوا إلى حاجي طرخان واجتمعوا هناك باللنك فقتلوا أهلها وأمروا البواقى بالجلء عنها ثم نهبوا جميع

(١) والذي يظهر من وصف روضة الصفا أنها القلعة المشهورة أولاً بقرق آرو الآن بجفود قلعة سي وهو فويق بغچه سرلي والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

ما فيها وتركوها ككيس الأكياس خالية من الأموال والسكان ثم أطلقوا فيها النار حتى خلعت مساوية بالأرض ثم انشوا راجعين إلى مشتاهم بغنائم من الصامت والناطق لا تدخل تحت الحد والعد ولكن قد تلفت أكثر المواشي من شدة الشتاء وقلة الغلة وبلغ القحط والغلاء في معسكره مبلغًا صار رأس الشاة لا توجد بمائتين وخمسين دينارًا والمن من الدقيق والأرز بسبعين دينارًا ورأس البقرة بمائة دينار ففرق جميع ما اغتتموه لعساكره ليقوم به أودهم فنقد بهذا السبب جميع ما بأيديهم سوى الوبال والإثم وباؤوا بغضب من الله خائبين ولكن لهم من الهاوية مع فرعون وهامان نصيب وقسم ورجعوا خاسرين مصداق قوله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الحج: الآية ١١] ليس في أيديهم شيء سوى تعب الروح والجسم.

وانقلعوا في أوائل الربيع من سنة ٧٩٨ من تلك البلاد بعد أن كبسوها سنة كاملة وتوجهوا إلى طرف آذربيجان لمحاربة قرا يوسف التركماني ولم يهملوا في طريقهم وممرهم ببلاد الجركس والكرج وغيرها دقيقة في القتل والنهب والتخريب وهذا نهاية ما بذلنا فيه جهدنا في تفصيل إجمال هذه الواقعة المفجعة المؤلمة أخذًا من روضة الصفا بغاية الاختصار والانتخاب. ولعله حصل لك بذلك يقين بأن تخريب اللنك تلك البلاد بالتمام وقتل أهلها بالقتل العام وتفريقه إياهم تفريقًا لم يتفق لهم بعده اجتماع تام وحسن التيام^(١) إنما هي في تلك النوبة الأخيرة لا فيما قبلها كما يوهم به كلام ابن عربشاه كما مر وأما تخريبه لبلدة بلغار فلم يصرح به أحد من المؤرخين الكبار وإنما ذكروا وصوله إلى موضع قريب من أرض الظلمة فهذا يدل على أنه وصل هناك وكلما وصل إليه قدمه لا يبقى معمورًا البتة فيمكن أنه خربها ولكن لم يذكره أحد بخصوصه ويمكن أن لا يصل إليها لأنه لو وصل إليها لخربها البتة ولو خربها لنقل عنهم أو عن بعضهم لأنها من مشاهر البلدان القديمة فلا يجوز العقل أن لا يذكره أحد ممن ذكر تلك الواقعة والصحيح أنها خربها الروسية بعد تلك الواقعة بستة وثلاثين سنة كما مر في المقصد الأول وإنما اشتهر بأن اللنك خربها لأنه هو

(١) ولكن مع ذلك سار طائفة منهم بعد مضي ١٠٧ سنة من هذه الواقعة إلى ما وراء النهر وانتزعوا من أيدي أولاد اللنك واستأصلوهم وأزالوا وجودهم من عالم السياسة مرة واحدة وأخذوا بذلك ثأر أجدادهم وانتقامهم وأسسوا هناك دولة جديدة مشهورة بالدولة الأوزبكية وظهر منهم حين ظهور قزل باش أمور مشهورة مستحسنة خصوصًا منهم عبيد خان وعبد الله خان وولده عبد المؤمن خان وبقي بواسطتهم رسم الأوزبك إلى الآن وكذلك وبقي إن شاء الله إلى يوم القيامة طيب الله ثراهم هكذا ينبغي لأولاد الحلال. منه عفي عنه.

الذي صار سببًا لخرابها باستيلاء الروس عليها بتفريقه أهلها فنسب إليه مجازًا من قبيل إسناد الشيء إلى سببه والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور ودقائق الخير والشرور.

ذكر أحوال توقتاميش خان وأحوال البلاد المذكورة بعد انقضاء ذلك الطوفان

اعلم أنك إذا حطت بجمل تلك القضية ووقفت على تفاصيل تلك البلية تعلم يقينًا أنه كيف يكون أحوال تلك البلاد وأنى يبقى فيها الراحة للعباد خصوصًا مع استمرار الشقاق والنفاق وعدم الاتحاد والوفاق فيما بينهم بعد انقلاع اللنك منها إلى سائر الآفاق ومع ذلك فقد استمرت دولة السراي والفججق مع وجود الاختلال على ما سيجيء ذكره قريبًا من مائة سنة تضعف تارة وتنعش أخرى إلى أن افترقت إلى فرق كثيرة فاضمحلحت أخيرًا بيد منكلي كراي خان باتفاق من الروسية التي كانت من أضعف رعاياهم كما سيذكر إن شاء الله تعالى في موضعه.

فأما توقتاميش خان فقد عرفت في غضون كلام المؤرخين أنهم اختلفوا فيه فمن قائل إنه قتله تيمر في تلك الوقعة ذكره ابن خلدون كما مر وهو فرية بلا مرية فإنك قد حصل لك اليقين من الاطلاع على كلام المؤرخين أن تيمر لم يظفر به بل هرب منه قيل إلى بلغار قاله الجنابي وقيل إلى الروس قاله ابن حجر وغيره وقيل إلى مشاجر وغابات قاله المير آخوند كما تقدم كل ذلك.

والصحيح أنه توغل في داخلية بلاده وامتنع من اللنك بغاباتها ومع ذلك لو استبعد مقلد جامد تخطئة ابن خلدون فيما مال إليه وقاله لقوى تلك التخطئة بالنقل أيضًا كما أنها مؤيدة بالعقل قال المحبي^(١): بعد نقله عن الذيل على الكامل أن تيمرلنك انتزع الملك من توقتاميش خان وقتله. قلت: المعروف أن تيمرلنك لم يملك

(١) المحبي: لعلة فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر، تقي الدين المحبي الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ، من مصنفاته: «تاريخ في الذيل على تاريخ حسن البوريني». (كشف الظنون ٨٢٢/٥).

ولعله محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن أبي بكر تقي الدين بن داود الحموي الأصل، دمشقي المولد والدار، المعروف بالمحبي (وهو ابن الأول). ولد سنة ١٠٦٠ هـ، وتوفي سنة ١١١١ هـ، له من التصانيف: «خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر» في التاريخ، «ديوان شعر»، «كتاب الأعلام» في التراجم، وغير ذلك (كشف الظنون ٣٠٧/٦).

هذه المملكة أصلاً وما قتل توقتاميش خان وما ذكره وهم فيه اهـ. كلامه فإذا كان كلام صاحب الذيل وهماً يكون كلام ابن خلدون أيضاً وهماً لكونه مثله بل عينه وقول المحبي أنه لم يملك هذه المملكة مراده بذلك ملكاً مستمراً كسائر بلاد فلا ينافي ما سبق من استيلائه عليها وتخريبه إياها.

وهنا قول آخر وهو قول ابن حجر وابن عريشاه قالوا: قتله أمير من أمراء التتار بعد وقعة تيمر. قال ابن حجر العسقلاني: وفي سنة ٧٩٨ مات توقتاميش خان التركي صاحب بلاد الدشت قتل في هذه السنة بعد أن انكسر من اللنك قتله أمير من أمراء التتار يقال له تيمر قتلغ اهـ. ولكن هنا خطأ إما في التاريخ أو في الاسم أما كون الخطأ في التاريخ فلما ذكره الحافظ العسقلاني نفسه حيث قال في بيان حوادث سنة ٧٩٩ وفيها: كانت الوقعة العظمى بين توقتاميش خان صاحب بلاد الدشت وبين الإفرنج الجنوبية اهـ.

وقال ابن الفرات^(١) أيضاً: وفي يوم السبت السادس عشر من جمادى الأخرى من سنة ٧٩٩ جاءت الأخبار إلى الأبواب الشريفة بمصر المحروسة بأن القان توقتاميش خان صاحب بلاد الدشت الشمالية الجالس على تخت بركة خان ببلاد القفچق جمع العساكر وقصد صاحب بلاد كفا التي على ساحل بحر القرم التي هي بيد الإفرنج الجنوبية ووقع بينهم وقعة وتقدم توقتاميش خان لحصارها اهـ إذ من البين أن الميت في سنة ٧٩٨ كيف يقع منه القتال فيما بعدها إلا أن نقول: إنه حشر ونشر وقام من قبره وجرى ما جرى من أمره ولذا قلنا: إن الخطأ في ذكر تاريخ الوفاة وإنما لم نقل بخطأ تاريخ وقعة الجنوبية لأن لها شاهداً وهو كلام ابن الفرات وكذلك ذكرها العيني أيضاً. ولكن وقع في عبارته بدل توقتاميش خان الأمير ايدكو حيث قال: وفي سنة ٧٩٩ جاءت القصاد من بلاد الدشت وأخبروا بأنه وقع خلاف بين ايدكو الذي أخذ البلاد من توقتاميش خان صاحب بلاد الدشت الجالس على تخت بركة خان ببلاد القفچق وبين صاحب كفا مدينة على ساحل بحر قرم بيد الإفرنج الجنوبية وأن الإيدكو المذكور جمع عساكره وتقدم لحصارها اهـ. وهذا كما ترى مخالف لما ذكره ابن حجر وابن الفرات وله وجه بين لمن تأمل في أحوال توقتاميش خان وهو الصحيح والصواب وما

(١) ابن الفرات: هو محمد بن عبد الرحيم بن علي بن حسن المصري، ناصر الدين الحنفي، المعروف بابن الفرات المؤرخ المتوفى سنة ٨٧٥ هـ، من تصانيفه: «تاريخ العباد والبلاد»، «تاريخ مصر». (كشف الظنون ٦/٢٠٧).

سواه فسبق قلم من أحد الكتاب والله سبحانه أعلم وأما كون الخطأ في الاسم فإنني رأيت في نسخة من تاريخ ابن حجر بالمدينة المنورة استنسخها واحد من تلامذته من نسخته وصححها قد ترك اسم توقتاميش خان بياضاً ثم كتب فيه بقلم رفيع غير القلم الأول لفظ أحمد التركي بدل توقتاميش خان الواقع في بعض النسخ وعندني أن هذا هو الصحيح الصواب دون سائر النسخ التي وقع فيها لفظ توقتاميش خان فيكون المقتول في العام المذكور واحد من أمراء ناحية من نواحي تلك البلاد والصواب أن توقتاميش ما مات في العام المذكور أيضاً بل عاش بعده أعواماً كثيرة والدليل على ذلك مع ما تقدم ما ذكره العيني حيث قال: وفي سنة ٨٠١ جاء الخبر بأن توقتاميش خان صاحب بلاد الدشت وسراي التقى مع بعض عسكر ابن عثمان وأنه فقد من بين العسكرين اهـ.

وما ذكره في روضة الصفا حيث قال: ولما نهض الأمير تيمر إلى جانب ممالك مغول وخطا ونزل بإنزار وكان ذلك في رجب والشمس في برج جدي من سنة ٨٠٧ قدم إليه قرا خواجه رسولاً من عند توقتاميش خان وكان يتردد في البراري والصحارى من مدة مديدة بعد مفارقتها من ملكه ومضمون رسالته إظهار الندامة على ما سبق من المخالفة والمناقشة والشكاية من سوء حاله وشتات أمره واشتغال باله وأنه على وجه لا يقدر أن يتنفس نفساً واحداً بفراغ البال من خوف أعدائه وطلب الإنجاد منه والإمداد في قمع مخالفه وقلع منازعيه ومعانديه وإنه إن أسعفه بمرامه وسماع كلامه يكون من أعز أحبائه وأخص أخذانه وأمثال ذلك من الاستمالة فأكرم تيمر الرسول المذكور غاية الإكرام وأحسن إليه بأنواع الإحسان لكونه من قدماء ندماء توقتاميش خان ووعده بكل خير ودفع كل شر وضير وقال: أرجو أن استصفي دشت القفجق وألوس جوجي خان من كدورات المنازعين بعد رجوعي من هذا السفر وأجلس توقتاميش خان على سرير السلطنة على رغم من خان وغدر وأفوض إليه مقاليد تلك البلاد وأسلم إلى كف كفايته أزمة من سكن بالسهل والجبال والوهاد ثم أذن لقرا خواجه بالانصراف بعد أن أكرمه وأنعم عليه بكل تلائد وطرائف وأرسل معه لتوقتاميش خان أيضاً من طرائف التحف وتحف الطرائف استمالة لخاطره بتلك التشاريف ولكنه ما قدر له ذلك بل توجه بعيد ذلك إلى سفر الآخرة هنالك اهـ.

يقول الحقير راقم الحروف: لما اطلعت على هذه الأحوال حصل لي الجزم بأن توقتاميش خان ما مات في التاريخ الذي ذكره ابن حجر وزاد اشتياقي إلى الوقوف على تاريخ وفاته يقيناً وطالعت في طلب ذلك كثيراً من كتب التواريخ التي تذكر فيها

أحوالهم رجاء أن أعثر فيها على شيء يشفي الصدور وبيننا أنا في ميدان الطلب أجول وأدور إذ وقفت في ذلك على بيان شاف وكلام كاف يشفي العليل ويروي الغليل وهو ما ذكره كارامزين حيث قال: في أثناء بيان وقائع سنة ١٣٩٩م مصادفة سنة ٨٠٢ هـ بعد أن أظهر فرحه وسروره بمصائب التتار بفضائح تيمرلنك وبقاء الروسية سالمة من شره أن توقتاميش خان لما سمع بانفلاق تيمرلنك من تلك النواحي جمع عساكره المتشنتة وأتباعه المتفرقة وحيث إن التتار كانوا مقرين بخانيته دخل بلدة سراي بلا ممانع وجلس مسند الخانية بلا معارض وأرسل إلى حكام الأطراف والجوانب لإعلام كونه خانًا أعظم على جميع مملكة باتو بالاستقلال كما في السابق لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى خرج عليه تيمر قتلغ وهجم على سراي بغتة فهرب توقتاميش منها مع زوجته واثنين من أولاده وخزنته وأهالي بيوت من مقربيه وتوجه إلى بلدة كيف من مملكة ليتوانيا ملتجأً إلى حاكمه الكيناز ويطوفت ومستمدًا به على تيمر قتلغ فقبله ويطوفت المذكور بكمال الممنونية وأكرم وفاده وحصل له من ذلك غاية العجب والغرور حيث إن أعظم خوانين التتار الذين أدهشوا أوروبا بل كافة العالم وأشهرهم أو أشجعهم وأشدهم شهامة يعني توقتاميش خان التجأ إليه واستمد به فوعده بالإمداد وإرجاعه إلى الخانية وأضمر في قلبه من استيلاء بخار الغرور على دماغه أنه يصارع تيمرلنك بواسطة توقتاميش خان وأتباعه سلالة باتو وجلب في تلك الأثناء بعض قبائل التتار الذين كانوا مترددين ومتحيرين في سواحل بحر أوزاق حيث شتت تيمرلنك شملهم وخرّب بلادهم فأسكنهم في قرى ولاية ويلنا وهم الذين بقيت أعقابهم إلى يومنا هذا هناك (يعني المسلمين في بلاد ليتوانيا وبولونيا الذين يقال لهم تتار لبقه ولكنهم نسوا أخلاق التتار وعوائدهم ولغتهم بالكلية بطول مكثهم بين الليتوانيين فإن شردمة قليلة بين قوم كثيرين وبقي من إسلاميتهم اسمها والله الحمد على ذلك).

وبعد أن استقر هذا الفكر في قلبه واستولى بخار الغرور على دماغه شرع في حشد العساكر وتهيئة أسباب الحرب والضرب وبينما هو في هذا الشغل إذ أتاه سفير من طرف تيمر قتلغ خان وقال له: من لسان تيمر قتلغ المشار إليه سلم إلينا عدونا الذي كان وقتًا ما أعظم الخوانين وصار الآن أكبر الفارين وهكذا يكون حكم الوقت المتغير دائمًا، فقال له ويطوفت: أنا أذهب إلى تيمر قتلغ خان فأعطيه الجواب مشافهة بنفسي وتوجه عقبه إلى جنوب مملكة التتار مسرعًا سالكا المسلك الذي كان ولاديمر ماناماخ سلكه حين أغار على بالوتسي (يعني القبچق وقومان) فلاقى عسكر مغول

الذين كانوا تحت قيادة تيمر قتلغ خان بالذات وراء نهري صولي وخور وليم بموضع يقال له بورصقلي وحيث كانت المغول مائلين إلى الصلح في الظاهر أظهروا الملاينة والملاطفة لويطوفت وقال له تيمر قتلغ خان: ما سبب مجيئكم هنا بالعسكر وأنا لم أدخل أرضكم بالسلاح؟ فقال له ويطوفت: إن الله أعطاني استعداد وقوة تملك الأرض كلها فأد الخراج لي وكن ولدي وإلا تصير عبدًا لي فطلب تيمر قتلغ خان الصلح وأقر بعظمة الكيناز ويطوفت ومتبوعيته حتى أنه رضي بأداء مقدار من النقد في كل سنة خراجًا على ما هو مثبت في أوراقنا التاريخية ولكن لما كان فكر ويطوفت فتح الطريق إلى جهة الشرق بمحاربة التتار على ما مر زاد على الشروط المذكورة وضع التتار طغراه أو ختمه المخصوص به على سكتهم وصرح بعدم حماية توقتاميش خان بوجه من الوجوه إن هم قبلوا الشروط المذكورة فطلب حضرة الخان قتلغ تيمر منه مهلة ثلاثة أيام حتى يتفكر ويشاور أصحابه فيه وأرسل إلى ويطوفت وأمرائه الهدايا وطيب خواطرهم.

قال كارامزين بعد هذا: وظني أن معاملة حضرة الخان مع الكيناز ويطوفت هذه المعاملة وإظهاره الملاينة إنما كانت لاستفادة الفرصة وتمديد الوقت حتى يلحق به عساكره الذين كانوا وراءه ولينضم إليه الأمير ايدكو المشتهر بالعقل والدهاء ولهذا لما جاءه ايدكو ميرزا مع عسكره انقلب فكر حضرة الخان انقلابًا كليًا قال: ولما لحق به الأمير ايدكو ذكر له ما جرى بينه وبين الكيناز ويطوفت فقال له الأمير المشار إليه: إن الموت كرامًا أفضل من الصلح والحياة بقبول هذه الشروط ثم استأذن حضرة الخان أن يذهب إلى الكيناز ويوطفت بنفسه ويشافهه ولما واجهه في ساحل بورصقلي قال له: أيها الكيناز المغرور إن خاننا المدبر العاقل الأديب خاطبك بلفظ الأب تعظيمًا لك وتكريمًا لكبر سنك وأنت أصغر مني سنًا فاللازم عليك أن تطيعني وتضع خمني في سكتك وتعطيني الخراج فلما سمع الكيناز منه هذا الكلام الذي لم يخطر بباله قط أنه يسمعه غضب غضبًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة وأعلن الحرب حالاً ورتب عساكره وأمر بالهجوم بلا مهلة فعبروا إلى طرف آخر من نهر بورصقلي وصاحوا قائلين نغرم وندق التتار أعداء النصرانية وهجموا على فرقة التتار الذين كانوا مع الأمير ايدكو وانتصروا عليهم وانكسر يد الأمير المشار إليه فزاد غرور ويطوفت بذلك وصار أضعاف ما كان سابقًا وكان عسكر الليتوانيا يعتمدون على مدافعهم كل الاعتماد ولهذا كانوا لا يشكون في غلبتهم على التتار لكن لعدم استفادتهم من مدافعهم الفائدة المطلوبة لفقدان من يعرف استعماله حق المعرفة ولكثرة عسكر التتار وقع الأمر على

خلاف ظنهم وذلك أنهم وإن انتصروا على شردمة من التتار الذين كانوا في معية الأمير ايدكو وكسروا إحدى يديه إلا أن هجوم تيمر قتلغ عليهم بقتة بمعظم عسكر التتار من طرف آخر صار سببًا لانكسارهم وانهزامهم وتوليهم الإدبار وغلبة التتار عليهم غلبة لا يدري حصول مثلها لچنكزخان وباتو خان على أعدائهما فإنه قد هلك في تلك المعركة في أقل مدة من عسكر ليتوانيا أزيد من ثلثيها وفر الباقون بأقبح هزيمة وقد قتل فيها أكثر من كانوا مع ويطوفت من كينازات الروسية وحكامهم فتعقبهم تيمر قتلغ خان إلى نهر دينبير يعني إلى بلدة كيف فافتدى ويطوفت بلدة كيف من حضرة الخان بثلاثة آلاف روبلة وافتدى المناسر بثلاثين روبلة وبعد ذلك عين حضرة الخان باصقافا يعني سفيرًا ومحصل الخراج من طرفه ببلدة كيف ثم عاد إلى بلاده.

ثم قال كارامزين: وهذه المحاربة أضعفت قوة الليتوانيا بالكلية وجعلت بلادهم عرضة لتعرضات التتار وأعلمت الروسية قوة التتار في الوقت المذكور، وانتصار التتار هذا على الليتوانيا الذين هم إخوان الروس جنسًا ودينًا وإن أثرت في الروسية تأثرًا سيئًا إلا أنهم تسلوا عن هذا التأثير بسلامة استقبالهم من تعرض الليتوانيا عليهم بسبب ضعفهم اهـ. وسيجيء نقلًا عن كارامزين أن الكيناز ويطوفت أخرج توقتاميش خان بعد هذه الواقعة من بلاده وهو معلوم بالبداهة فإن تيمر قتلغ خان لما غلبه هذه الغلبة كيف لا يأمره بإخراج توقتاميش خان من بلاده وكيف يقدر ويطوفت بهذه المغلوبية على مخالفته والحاصل أن توقتاميش خان خرج من ليتوانيا بعد هذه الواقعة وصار يتردد في أطراف بلاده وكناف مملكته محاربًا الأمير ايدكو ومن كان من الخوانين وتحت تصرفه دائمًا إلى أن أنشبت المنية به أظفاره.

وقال كارامزين في أثناء بيان حوادث سنة ١٤٠٠ م مصادفة سنة ٨٠٣ هـ: لما مات كيناز توير ميخايل وقع الاختلاف بين أولاده وأمرائه فأرسل إيوان سفيرًا إلى تيمر قتلغ خان يطلب الكينازية لنفسه فصادف وصول السفير إلى أوردو وفاة تيمر قتلغ خان وجلوس ولده شاد بك خان منه فأسعهف شاد بك خان بمرامه فأباد إيوان إخوانه والأمراء المعاندين واستبد بالحكومة ولم يقصر الكيناز الأعظم في موسكوا في إصلاح ذات بينهم بل بذل فيه غاية جهده فإنه كان مستريحًا وفارغ البال في تلك الأثناء لقطعه المناسبة بينه وبين التتار بعد وقعة تيمرلنك الأخيرة وكانت الخانية بعد موت تيمر قتلغ مشتركة بين اثنين شاد بك خان وتوقتاميش خان والثالث قويرچق خان وكانت الروسية لا تدرون لأيهم يطيعون اهـ.

ولكن هذا يدل على تقدم وفاة تيمر قتلخ على وفاة قويرچق والواقع خلافه إلا أن نقول إن غرض كارامزين بيان الاختلاف في الخانية وذكر قويرچق إنفاقي أو أخبار عما كان سابقاً أو سبق قلم بأن يريد ذكر غيره كأنه براق خان فذكره خطأ والله أعلم.

وقال: إن شاد بك خان وإن كان يدعو حكام الروسية إليه ويطلب منهم الجزية حسب العادة ولكن الكيناز واسيلي كان لا يجيبه ولا يلتفت إليه لوجود الاختلاف والاختلال فيما بين التتار وقد كان ويطوفت أخرج توقتاميش خان من بلاده بعد الوقعة السابق ذكرها فصار يتردد في أطراف مملكته وأكفاف برية بركة (يعني محارباً شاد بك لإرجاع ملكه) فصادفته يوماً عساكر شاد بك خان في الصحراء فهجموا عليه وقتلوه وكان ذلك في سنة ١٤٠٥ سنة ٨٠٨ هـ بقرب تومين^(١) فصار شاد بك خاناً مستقلاً ففتح واسيلي أبواب ممالك الروسية لفراري التتار بعد ذلك وهرب ولدا توقتاميش خان (يعني جلال الدين وكريم بردي على ما صرح به ابن عربشاه وسيذكر) والتجأ إلى الكيناز واسيلي اهـ. فهذا صريح في أنه مات في التاريخ الذي ذكره ابن خلدون وابن حجر بل تأخر عنه سنين كثيرة على طبق ما ذكره المير آخوند في روضة الصفا.

ثم إنني وقفت على ما يحزر ويملى بماء العيون على صدور الطروس ويقال في حقه لا عطر بعد العروس يؤيد ما ذكره كارامزين وصاحب روضة الصفا ويطابقه حذو النقطة بالنقطة وهو ما ذكره الفاضل منجم باشا المستغني عن التوصيف باشتهاره الفاشي حيث قال بعد أن ذكر ما جرى بين توقتاميش خان وبين تيمرلنك نحو ما تقدم ما معربه: إن توقتاميش خان هرب من المعركة إلى غابة هناك صعب المسلك وعسير المرور مع فل من عسكره وامتنع بها من صولة تيمرلنك ثم ارتحل تيمر من تلك الديار بعد أن أخرجها بالتمام ونصب من قبله هناك خاناً وأما توقتاميش خان فإنه تردد بعد ذلك بين القبائل مدة وهجم على بعض المحلات ولكنه لم ينتعش ملكه ولم يتيسر له الاستقلال ومات في أثناء تلك الأحوال سنة ٨٠٨ في نواحي تولين وكانت مدة استقلاله ١٧ سنة وكان حكمه يجري من نهاية المعمورة في طرف الشمال إلى

(١) قلت: تومين اثنان أحدهما التومين المشهور بقرب طوبل والثاني غير مشهور بقرب طنوبف والظاهر نظراً إلى كون توقتاميش في ليتوا أن المراد بتومين هو الأخير أعني الذي بقرب طنوبف فإن تلك البلاد كانت أولاً من البلاد الأصلية للتتار، وأكبر مجالاتهم والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

سواحل القرم وكفا وكان خانًا عظيم الشأن وكان آل چنكز يهابونه ويخافونه اهـ. إلا أنه وقع فيه اللام في لفظ تومين بدل الميم وهو سهل والله الحمد على ذلك وعلى جميع نعمائه وآلائه. قوله: وكانت مدة استقلاله ١٧ سنة وذلك فإن مبدأ جلوسه سنة ٧٨٠ وطروق تيمر أخيرًا وهربه منه سنة ٧٩٧ وقد زال استقلاله فيها فتكون مدة استقلاله كما ذكر وقوله: وكان آل چنكز يهابونه. قلت: ولهذا هرب منه كثير منهم إلى تيمر وجلبوه إليه كما مر وكون وفاته في التاريخ المذكور ووقوعه فيه بعيد وفاة خصمه تيمرلنك من عجائب الاتفاق.

قال ابن خلكان^(١): ولما بلغ جرير^(٢) وفاة فرزدق^(٣) بكى وقال أما والله إني بقليل البقاء بعده ولقد كان نجمنا واحدًا وكل واحد منا مشغول بصاحبه وقلما مات ضد أو صديق إلا وتبعه صاحبه وكذلك كان اهـ وذلك فإن جريرًا مات بعده بأربعين يومًا أو ثمانين.

هذا ولم نطلع على تفاصيل أحوال توقتاميش خان في تلك المدة وقد كنا وعدنا فيما سبق أن نذكر ما جرى بين توقتاميش خان وبين الأمير ايدكو بعد انقلاع تيمرلنك من تلك الديار إلى وقت وفاة توقتاميش خان نقلًا عن تاريخ ابن عربشاه فقد جاء الآن وقته فهالك نصه ولا تنس نصيبك مما قدمناه من أنه خلط بين الواقعتين.

قال: ولما انفصل تيمر بما حصل. واستقر في مملكته بعد ما وصل. واتصل ايدكو بحاشيته. وابتهج بصاغيته وغاشيته. أخذ في التفتيش. من أمور توقتاميش. وتحفظ منه وتحرز. ولمناواته انتصب وتجهز. إذ لم يمكنه رتق ما فتحه. ولا رقع ما خرقة. وأما توقتاميش خان فبعد أن تراجع وهله. واستقر في دماغه عقله. ورحل عدوه.. وحصل هدوه.. جمع عساكره. واستنجد قومه وناصره.. فلا زالت ضروب الضراب لحراب الحروب بينه وبين ايدكو قائمة. وعيون السكون كجفون الزمان

(١) ابن خلكان: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي القاضي، شمس الدين أبو العباس الشافعي المعروف بابن خلكان، ولد بإربل سنة ٦٠٨ هـ، وتوفي سنة ٦٨١ هـ، صنف: «وفيات الأعيان في أبناء أبناء الزمان» في التاريخ والتراجم، وغير ذلك (كشف الظنون ٩٩/٥).

(٢) جرير: هو جرير بن عطية الخطفي، أبو حذرة الشاعر المشهور، توفي سنة ١١١ هـ، له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٢٥١/٥).

(٣) الفرزدق: هو همام بن غالب بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي، المعروف بالفرزدق الشاعر، كان أبوه من جلة قومه يسكن بالكوفة، ولد الفرزدق سنة ٣٨ هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١١١ هـ، له ديوان شعره مشهور. (كشف الظنون ٥١٠/٦).

المتعامي عن ملحهما نائمة. إلى أن بلغ مصافهم خمسة عشر مرة. يدال هذا على ذاك تارة وذلك على مذاكرة. فأخذ أمر قبائل الدشت في التناقص والشتات. وبواسطة قلة المعازل والحصون وقعوا في الانبثا والانبثا. لا سيما وقد تناوشها أسدان. وأظل عليهما نكدان. وقد كان جلهم ذهب مع تيمر. وأمسى هو وفي أمره محصور. وفي حصره مأسور. فانفلذت منهم طائفة لا تحصى ولا تحصر. ولا يمكن ضبطها بديوان ولا دفتر. وانحازت إلى الروم والروس. وذلك لحظهم المشؤوم وجدهم المعكوس فصاروا بين مشركين نصارى. ومسلمين أسارى. كما فعله جبلة بيني غسان. واسم هذه الطائفة قرايوغدان. فبواسطة هذه الأسباب آل عامر الدشت إلى الخلا والخراب. والتفرق والتباب. والانقلاب والانقلاب وصارت بحيث لو سلكها أحد. من غير دليل ولا رصد. فإنه يهلك على الحقيقة. لإضاعته في المجاز طريقه. فعلى كل تقدير. سلوكها مهلك عسير. وكانت القوافل أولاً تخرج من خوارزم وتسير بالعجل. وهم آمنون من غير ريب ولا وجل. وتأتي إلى قرم طولاً وميسرة ذلك نحو من ثلاثة أشهر. وكانت في طريقه لا تحمل زاداً ولا عليقاً. ولا يصحبون معهم رفيقاً. وذلك لكثرة الأمن أمم. ووفور الأمن والمأكول والمشرب من الحشم. فلا يصدرون إلا عن قبيلة. ولا ينزلون إلا عنده يكرم ضيفه ونزيله. وكأنه قيل فيهم.

شعر:

متكنفي جنبي عكاظ كليهما يدعو وليدهم بها عرعار

وهم أناس سوادج. ولهم مواش نواتج. ملؤوا الأقطار بمواشيهم. وعلوا الشواحق والبوادي برؤوسهم وحواشيهم. ربما يكون لواحد منهم عشرة آلاف جمل. ما فيها فصيل واحد ولا حمل. ومثل ذلك أيضاً الخيول وأفراس. ما أسرج لها ظهر وألجم رأس. وأما الغنم والبقر. فلا يحصى عددها ولا يحصر. ﴿وَمَا يَفْكَرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَكُنْ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلنَّاسِ﴾ [المدثر: الآية ٣١]. لهم مشتات ومصائف. كما لهم في أنواع المبرات وظائف. لو قصدهم فقير أو غريب. وطالب علم وأديب^(١). جمعوا له

(١) قلت: لم يبق الآن من هذه المكارم في البلدان والعمران مثل بلاد قزان وقرم إلا الشيء النذر اليسير وأما الصحراء مثل بلاد القزاق فقد بقي إلى الآن أثرها على كل حال خصوصاً الأماكن القاصية من العمران لبقائهم على المكارم دون العمران وما والاها فإنها بسبب مجاورتها ببلاد الكفار اللثام لم يبق أهلها على المكارم الأصلية بل سرى بينهم لؤم الكفار إلا القليل النادر وكذلك بلاد أناتولي فإنها كانت أولاً كذلك ولم تبق الآن على ذلك وسببه المخالطة بالكفرة اللثام. منه عفي عنه.

من الغنم والبقر. والصوف والشعر. والسمن والأقط والوبر. ما يكفيه وذويه إلى آخر العمر. وأما اليوم فليس بتلك الأماكن. من خوارزم إلى قرم من تلك الأمم والحشم متحرك ولا ساكن. وليس فيها من أنيس. إلا اليعافر وإلا العيس. لا يهتدي فيها الخريت. ولا يقربه من الدعاميص كل عفريت. إذ كل أرضها الآن مجاهل. ومنازلها مذاهل. ومراحلها مهامه ومناهل. أنشدني لنفسه مولانا وسيدنا الخواجه عصام الدين ابن المرحوم مولانا وسيدنا الخواجه عبد الملك وهو من أولاد الشيخ الجليل برهان الدين المرغنائي رحمه الله تعالى في حاجي طرخان من بلاد الدشت بعد مرجعه من الحجاز الشريف سنة ٨١٤ وفي يومنا هذا أعني سنة ٨٣٠ انتهت إليه الرياسة في سمرقند قوله: وقد قاسى في درب الدشت أنواع النكال يعني حين توجهه نحو المقصد.

شعر:

قد كنت أسمع أن الخير يوجد في صحراء تعزى إلى سلطانها بركة
بركة ناقة ترحالي بساحتها فما رأيت بها في واحد بركة

يقول جامع هذه الحروف: ولو كنت حاضرًا في المجلس المذكور. لقلت: مجيبًا لمولانا المزبور.

شعر:

مولاي نرجو بقاء الخير والبركة في كورة دربها رجالكم سلكه
مستتبًا أثره يأجوجه وكذا مأجوجه فيها قد عمت الهلكه

عودة إلى بيان ماجريات توقتاميش خان، قال: فكانت الواقعة الخمسة عشر على ايدكو فتشتت وتشرد. وتبذر وتبدد. وغرق هو ونحو من خمسمائة رجل من أخصائه في بحر الرمل فلم يشعر به أحد. واستبد توقتاميش خان بالمملكة. وصفا له دشت بركة. وكان مع هذا متشوقًا لأخبار ايدكو وأحواله. متشوقًا لمعرفة كيفية هلاكه في رماله. ومر على ذلك نحو من نصف سنة. وانقطع أثره عن الأعين وخبره عن الألسنة وإيدكو كان دعيمص تلك الأعقاص والأحقاف. وممن قطع بسير أقدامه أديم تلك النعال والأخفاف. فصار يتربص ويتبصر. ويتفكر معنى ما قلته ويتدبر. وهو.

شعر:

أرقب الأمر وانتظر فرجًا وانتهز وقته إذا ما جا
وامزج الخبر بالحجى فيه ورق التوت صار ديباجا

فلما تيقن أن توقتاميش آيسه . وتحقق أن ليث المنايا افترسه . شرع يتجسس أخباره ويتتبع . ويستشرف آثاره ويتطلع . إلى أن تحقق من الخبر . أنه في منتزه منفرد من العسكر . فامتطى جناح الخيل . وارتدى جنوح الليل . ووصل السير بالسرى . واستبدل السهر بالكرى . فارعاً إلى الهضاب فروع الحباب . مفرعاً من الربا أقرع الطبا . حتى وصل إليه تيمر^(١) وهو لا يعلم . وانقض عليه كالقضاء المبرم . فلم يفق إلا والبلايا احتوشته . وأسود المنايا انتوشته . وثعابين الرماح وأفاعي السهام نهشته . فحاولهم قليلاً وجاولهم طويلاً ثم انجدل قتيلاً . وكانت هذه المرة من الوقعات السادسة عشرة خاتمة التلاق . وحاكمة الفراق وتفرقت أولاد توقتاميش خان في الآفاق . جلال الدين وكريم بردي في الروس وكبك وباقي إخوته في سغناق .

انتهى ما ذكره ابن عربشاه فيما يتعلق بهذا المحل أثبتناه بتبديل محل بالمحل وضم المناسب إلى المناسب فيما قل أو جل وهذا نهاية ما وقفنا عليه من أحوال توقتاميش خان عليه الرحمة والغفران بعد البحث والتنقيب والتفتيش الكثير ولا منافاة بين ما ذكره ابن عربشاه في كيفية قتل توقتاميش خان وبين ما ذكره منجم باشا وكرامزين لأنه يمكن أن تكون وفاته بالكيفية التي ذكرها ابن عربشاه في التاريخ الذي ذكره منجم باشا على يد شخص يسمى تيمر وهذا هو الصواب لا شك فيه ولا ارتياب .

قال عبد الغفار أفندي القريني في تاريخه عمدة الأخبار: إن إيدكو نصب تيمر قتلغ خاناً بعد انصراف تيمرلنك وصار يتعقب توقتاميش خان وبعد أن أوقعت بينهما محاربات عديدة أدرك إيدكو مرة في ساحل نهر قراطون وفي أثناء تضييقه إياه سقط فرس توقتاميش خان في جرف النهر فمات ولعل هذا هو الصواب ولكن ليس هذا في زمن تيمر قتلغ فإنه مات قبله بل في زمن ولده أو أخيه شاد بك خان وعلى يد شخص يسمى تيمر فاشتبه الأمر لاشتباه الأسماء والله أعلم .

قلت: والمسلمون الموجودون الآن في لهستان من بقايا عسكر توقتاميش خان ومن بقايا ذرية التار الذين أقامهم هناك ويطوفت كما مر آنفاً والإقامة هناك لما كثر الهرج والمرج في مملكة جوجي خان ثم نسجت على عوائدهم وألسنتهم عناكب النسيان بمرور الدهور والأزمان ومع ذلك لم يضيعوا دينهم الإسلام إلا أنه لم يبق

(١) ومعنى قول ابن عربشاه حتى وصل إليه تيمر هذا لا أنه تيمرلنك ولعل منشأ اشتباه المؤرخين الكبار هو هذا أعني كون قاتله تيمر بن تيمر قتلغ والله أعلم سبحانه . منه عفي عنه .

فيهم العلم وغرقوا في بحر الجهالة بين الكفرة اللثام وقد استأذنوا الدولة العلية في المهاجرة إلى الممالك الإسلامية في عصر السلطان محمد خان الرابع عليه الرحمة والغفران بواسطة سليم كراي خان القرمي في سنة ١٠٨٢ فأرسل الخان عريضتهم إلى الباب العالي ولكن بسبب شامة سعاية بعض الوزراء على خلاف ذلك عند الصدر الأعظم بملاحظة فوت بعض منافعه الشخصية عند قبول ذلك صدر التحرير من الصدر الأعظم برد ذلك ورفضه هذا.

قال أبو الغازي خان في تاريخه: وكان لتوقتاميش خان ثمانية بنين على هذا الترتيب جلال الدين جبار بردي كبك كريم بردي إسكندر أبو سعيد توجك قادر بردي اهـ. وقد صرح الجنابي نقلاً عن الحافظ التاشكندي بوجود ابن لتوقتاميش خان يسمى كچك محمد وكذلك ذكره منجم باشا أيضاً وسيذكره في موضعه والظاهر بل اليقين أنه هو كچك ذكروه بجزء اسمه فلا اختلاف وربما يظن أن يكون هذا هو كچك محمد خان المشهور كما سيذكر إن شاء الله تعالى هذا هو أحوال توقتاميش خان بعد انقضاء ذلك الطوفان.

[أحوال البلاد بعد موت توقتاميش]

وأما أحوال تلك البلاد بعده وبعد موت توقتاميش خان فاعلم أن بعد الواقعة المذكورة فقد تخبطت الأمور وتفاقت الفتن والشُرور وكثر الهرج والمرج وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الجملة وأني كلما أريد أن أحزّر تفاصيل تلك الجمل أرى نفسي كمن وقع في أرض مجهولة وقد غشيه الظلام من جميع الجهات لفقدان ذكرها في كتب التواريخ ووجود اختلاف شتى فيما هو مذكور فيها في الجملة فلا جرم أني معذور في عدم ذكرها على الترتيب منتظمة وغاية جهدي أن أطبق بين القولين المختلفين حسب الإمكان وأرجح أحدهما على الآخر بعد وزنهما بميزان الفكر والوجدان.

قال ابن عربشاه بعد ذكره ما تقدم: فاستقر أمر الدشت على متولي ايدكو وصار القاصي والداني والصغير والكبير إلى مراسيمه يصغو تولى السلطنة من شاء ويعزله منها إذ شاء ويأمر فلا يخالفه أحد ويحد فلا يجاوز في ذلك الحد فممن والاه قتلغ تيمر خان^(١) وأخوه شادي بك خان ثم فولاد خان بن قتلغ تيمر خان وفي أيامه تخبطت

(١) هكذا في النسختين من عجائب المقدور بيدي بتقديم قتلغ على تيمر وهو من تحريف النساخ بل هو تيمر قتلغ بتقديم تيمر على قتلغ في كافة التواريخ حتى التواريخ الروسية. منه عفي عنه.

الأمر فلم يسلم لإيدكو زمامه وقال لا عز له ولا كرامة. أنا الكبش المطاع فإني أكون مطيعاً. والثور المتبوع فكيف أصير تبيعاً. فالتحم بينهما الشقاق ونجم من ذوي الضغينة مخبو النفاق. وجرت شرور ومحن وحروب وإحن وبينما ظلمات الفتن احتبكت ونجوم الشرور في دياجي الدشت بين الفريقين اشتبكت إذا بيدر الدولة الجلالية من مشارق السلالة التوقتاميشية بزغ متهللاً وفرع من بلاد الروس مقبلاً وكانت هذه القضية في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة فتعاظمت الأمور وتفاقت الشرور وضعف حال ايدكو وقتل تيمر واستمر الشقاق والنفاق بين ملوك ممالك قفچق إلى أن مات ايدكو غريقاً جريحاً وأخرجوه من نهر سيحون بسرايچق وألقوه طريحاً. اهـ.

قلت: لا بد من تفصيل هذا المقام وشرحه حسب الإمكان. أما قوله فاستقر أمر الدشت الخ. فهو صحيح ولذلك زعم بعض المؤرخين أنه صار ملكاً قال العيني: وفي سنة ٨٠٠ في بلاد الدشت التي كرسيها مدينة سراي الملك ايدكو وقد ذكرنا أنه ملك البلاد حين انكسر توقتاميش خان من تيمرلنك وخلت البلاد وكان ذلك في سنة ٧٩٩ ثم قال: وفي سنة ٨٠٢ الحاكم في بلاد الدشت الملك ايدكو قيل وفي نسخة بياريس هنا وصاحب قرم وسراي وبلاد الدشت الملك توقتاميش خان ولكن الأمير ايدكو متغلب عليه وقال: وفي سنة ٨٠٣ صاحب الدشت وسراي وقرم الملك ايدكو بلاده في أمر مريح من اضطراب البلاد الشرقية بسلوك تيمرلنك ومشبه في البلاد. وقال: وفي سنة ٨٠٤ صاحب الدشت وسراي والبلاد الشمالية الملك ايدكو وذكر مثله في سنة ٨٠١ ولم يذكر ما بينهما من السنين ولا حاجة إليه لأنه معلوم مما سبق وما لحق فانظر كيف جعله في تلك المدة حاكماً وملكاً فيهما وما ذلك إلا لاستبداده بالأمور وكون الحل والعقد بيده وسيجيء بعض وقائعه في أثناء بيان خوانين تلك المدة وذكر كيفية موته وتاريخه إن شاء الله تعالى.

وأما تيمر قتلغ فالظاهر على ما ذكره المرجاني ومنجم باشا هو ابن تيمر ملك بن أرس خان وإن فهم من بيان أبي الغازي خلافة^(١) وقد ذكر المرجاني ما ذكره أبو

(١) وهو على قول أبي الغازي خان بن تيمر بك بن قتلغ تيمر بن تومغان بن أباي بن أوز تيمور بن توقا تيمر بن جوجي وذكر المرجاني مثل ذلك عند تعداد خوانين حاجي طرخان وقال في بيان خوانين سراي إنه ابن تيمر ملك خان بن وسخان بن باداقل بن توق قال خواجه بن كونچك بن ساريچه بن أوز تيمر بن توقا تيمر بن جوجي فجعل تيمر قتلغ اسماً لشخصين. وهذا وهم منه بل هو اسم شخص واحد ومنشأ الاشتباه إنما جاء من تيمر بك فظن أنه تيمر ملك بن أرسخان. =

الغازي حين بيان خوانين حاجي طرخان والله أعلم بالصواب وعلى كل حال فقد تقدم أنه والأمير ايدكو جاؤوا بتيمرلنك من بلاده في النوبة الأولى وحاربوا معه توقتاميش خان أشد المحاربة وأنهما خدعا تيمرلنك حين انقلاعه من بلاد الدشت حيث استأذناه ليجيئا إليه بقومهما ثم لم يأتياه بل تسلطن تيمر قتلغ وتأمرا ايدكو واستمرا على ذلك في بعض النواحي والظاهر أنهما كانا في جبال خوارزم ثم أنهما أطاعا لتوقتاميش خان ظاهراً مدة خانيته فلما فارق ملكه بطروق تيمر إلى تلك البلاد ثانياً ونصب تيمر من قبله قويرچق خان خاناً لتلك البلاد كما مر وانقلع من تلك الديار قاما بدعوى السلطنة والإمارة وصارا يحاربان قويرچق خان من جهة إلى أن مات في سنة ٨٠١ وتوقتاميش من جهة أخرى.

قال بعض المؤرخين: وفي خلال إقامة تيمر ببلاد آذربيجان سنة ٧٩٩ بعد انقلاعه من بلاد الدشت قرع سمعه المنحوس خبر المحاربة الواقعة بين تيمر قتلغ وبين منصوبه قويرچق خان ففرح به فرحاً كثيراً لأنهما كانا غدرا به ونقضا عقده اهـ. فهذا يدل أيضاً على أن قويرچق خان قد انحرف عنه أخيراً وتخريبه مدينة سراي بعد مضي مدة من نصبه يدل على ذلك أيضاً.

قال منجم باشا: ولما انهزم توقتاميش خان (يعني أمام تيمرلنك في النوبة الأخيرة على الوجه المشروح) نصب تيمرلنك مقامه قويرچق خان بن أرص خان خاناً في سنة ٧٩٧ وعينه حاكماً على أولاد جوجي فاشتغل بتعمير البلاد وترفيه العباد حسب الإمكان إلى أن توفي سنة ٨٠١ اهـ. ولم أفد على شيء من أحوال قويرچق خان سوى ما ذكر هنا ولهذا أدرجنا ذكره في ذكر أحوال تيمر قتلغ وأما أحوال تيمر قتلغ سوى ما ذكر فقد تقدم محاربتة ليتوا عند ذكر أحوال توقتاميش خان وطرده توقتاميش خان من سراي نقلاً عن كارامزين ونقل الفاضل المرحاني صورة منشور الطرخانية له أعطاهها واحداً من أفاضل ذلك الوقت يسمى محمد طرخان تركنا ذكرها مخافة الأطناب وتاريخها هكذا تحريراً: في سادس شعبان سنة ٨٠٠ باريس بموضع موجوران بساحل نهر أوزي اهـ. وتقدم أيضاً إرسال إيوان سفيراً إليه لطلب الكينازية لنفسه وأنه توفي قبل وصول السفير إليه وفي عصره حاربت الروسية أهل بلغار قزان واستولت على أطراف قزان وژوقطين وكرمانچك كما مر في المقصد الأول وكان

= ثم رأى ما ذكره أبو الغازي فظن أنه غيره فذكره كما ذكره أبو الغازي وظن أنه من خوانين حاجي طرخان والله أعلم بالصواب. منه عفي عنه.

ذلك عام وفاته أو قبيله وكان وفاته على ما صرح به منجم باشا في سنة ٨٠٢ ويفهم من كلام كارامزين السابق في مادة إرسال السفير أنها بعدها والله سبحانه أعلم.

وأما شاد بك خان فقد قال منجم باشا إنه لما توفي تيمر قتلغ خان في سنة ٨٠٢ جلس مكانه ولده شاد بك خان اهـ. وتقدم من كارامزين أيضًا مثله ولكن ابن عريشاه جعله أخاه لا ابنه قال الحاج عبد الغفار أفندي: لما مات تيمر قتلغ خلف بعده ولدين وفولاد ولكن الأمير ايدكو نصب أخاه شاد بك خانًا مكانه بوصية من تيمر قتلغ وعين ولده نور الدين ميرزا^(١) حرسًا له تيمر فأنعم الخان عليه بحكومة حاجي طرخان اهـ. وما ذكره ومقدار ٣٠٠,٠٠٠ ذهبًا يرماقا من محصول مدينة سراي بن عريشاه وعبد الغفار أفندي أولى بالقبول والله أعلم.

وقال كارامزين وصار فيودر كينازًا في رزان بمنشور من شاد بك خان اهـ. ومر عنه أيضًا دعوته حكام الروسية إلى طاعته وطلبه الجزية منهم وامتناعهم عن ذلك وكان وفاته على ما ذكره منجم باشا سنة ٨١١ وهو مطابق لما في مکتوب ايدكو الآتي ذكره من أنه كان خانًا مدة سنة ٨ ولعله توفي بعد انزاله عن الخانية وبعد كونه مطرودًا من سراي على ما سينقل عن كارامزين والله سبحانه أعلم وقد مر أن وفاة توقتاميش خان كانت في عصره وعلى يد عساكره فافعل ما شئت ولا بذلك أيضًا من الموت.

وأما فولاد خان فقد قال منجم باشا: ولما توفي شاد بك خان في سنة ٨١١ جلس مكانه ولده فولاد خان اهـ. وقوله ولده غلط بل ابن أخيه كما مر فتذكر قال كارامزين وفي سنة ١٣٠٧ يعني مصادفة سنة ٨١٠ هـ. جاء فولاد خان وطرد شاد بك خان عن الخانية وجلس مكانه ولكن كان فيه اسم الخانية فقط والأمر كله بيد ايدكو اهـ. وهذا يدل على أن وفاة شاد بك خان بعد انزاله عن الخانية والله أعلم.

ذكر هجوم الأمير ايدكو على الروسية ومحاصرته بلدة موسكوا

وفرار الكيناز واسيلي منها

قال كارامزين بعد ذكره ما مر أن ايدكو كان صاحب دراية وخدعة وكان يجتهد دائمًا في إفساد ما بين كيناز موسقوا وويطوفت وإلقاء العداوة وإحداث المحاربة بينهما

(١) وهذا يدل على أن منصب نور الدين المشهور في أصول خوانين قرم منشؤه هو هذا والله أعلم. منه عفي عنه.

وكان يخاطب واسيلي بيا ولدي ويحرضه على حرب ليتوا وكان يفعل مثل ذلك لويطوفت كيناز ليتوا أيضًا ولكن لما لم يوفق لما نواه أظهر كأنه يريد محاربة ويطوفت بنفسه وأرسل إلى كيناز موسقوا واسيلي سفيرًا يطلب منه الإعانة بالنقود ويعلن له بأنه يقصد ليتوا بجيش عظيم خاص ببولاد خان فأرسل واسيلي إليه للوقوف على حقيقة الحال يوري وكان ايدكو يسير إلى موسكوا بعسكر كثيف فقبض على يوري في الطريق وسار بعسكره إلى موسكوا فلما سمع الكيناز واسيلي هذا الخبر تحير وانداهش لأنه كان غافلاً عن خدعة ايدكو وقد كان له عسكر كاف للمقابلة ولكنه أحجم عن مقابلته في الميدان بل رجح الفرار على القرار والتحصن بالحصون على مقابلة التتار فأخذ أهله وعياله وخواصه وهرب إلى كاسترما وفوض محافظة موسكوا إلى ولاديمير آندري وبيتر وكثير من أمرائه ورؤساء الروحانيين فقاسى هؤلاء وسائر عساكر الروس شدائد كثيرة في محافظة موسكوا بعد أن قرروا الأمر على المحافظة والمدافعة ففي اليوم الثلاثين من تشرين الثاني وصل عساكر التتار إلى قرب موسكوا وفي اليوم الأول من الكانون الأول وصل ايدكو بنفسه ومعه أربعة أنفار من أولاد الخوانين وكثير من الكينازات فعسكر في قولومنا ثم أرسل فرقة مركبة من ٣٠٠٠٠ من العساكر إلى كاسترما لتعقيب الكيناز واسيلي وأرسل واحدًا من أولاد الخوانين يسمى بولاد^(١) إلى كيناز توير إيوان بن ميخايل يأمره أن يلحق مع عساكره وأدواته بأوردو البتة وكانت عساكره انتشروا في جميع أنحاء ولاية موسكوا واستولوا على بيريسلاول وزاليسكي وروسطوف وديميتروف وسرپوخف ونيژنى نووگورد وغوروديج فأجروا فيها مراسم النهب والأسر والغارة وما تركوا نفود الكنائس والمناسر حبة للأصنام وعبادها وكأن الروس كانوا أغنامًا والتتار ذئاب جياع حيث كان واحد من التتار يقود أربعين من الروس وكان الأمير ايدكو بعد إتمام حصار موسكوا منتظرًا لمجيء إيوان كيناز توير ولكنه أحجم عن موافقة ايدكو في استئصال ملته بل خرج مع بعض مقربيه ثم تمارض في الطريق وأشاع أنه مريض وعاد إلى وطنه بهذه العلة المختلقة فصمم ايدكو على أخذ موسكوا بإطالة مدة الحصار وإجاعة أهلها بهذه الكيفية (يعني لفقدان المدافع وآلات الهدم معه) وأعلن أن يشتو في قولومنا فاشتد الحال على أهل موسكوا ولكن ايدكو كان خبيرًا بأن الكيناز واسيلي مشغول بجمع العساكر وبث روح الحمية والغيرة ودعوة حكام الروسية إلى الاتفاق والمدافعة والتخويف من وخامة العاقبة في كاسترما

(١) والظاهر أن هذا غير فولاد خان وإن كان إرساله أيضًا غير بعيد من ايدكو. منه عفي عنه.

وقد عادت الفرقة التي كان سيرها لتعقيب الكيناز واسيلي بلانيل المرام ومع هذه كلها بلغه أن واحداً من أولاد جوجي (يعني ممن يعادي ايدكو ولم يطعه) ينوي الهجوم على أوردو يعني بلدة سراي فاقتضى الحال أن يعود إلى أوردو للأسباب المذكورة ولكن العود بهذه الأسباب بعد أن بلغ الأمر إلى هذه الغاية بلا نيل المرام ولو في الجملة لما كان منافياً للحمية وسبباً لنسبة الخوف إليه أرسل إلى أهل موسكوا ورؤسائهم يقول لهم: إن قصدي ليس هو الاستيلاء على موسكوا وإنما أردت تربية الكيناز واسيلي لامتناعه من أداء الجزية المعتاد من القديم أداؤها فإن تؤدوا الجزية وتظهروا الإطاعة ارتحل عنكم من غير إيصال ضرر ما إليكم وإلى بلدكم ففرح أهل موسكوا بذلك غاية الفرح وحضروا عند ايدكو بالجزية وبهدايا كثيرة واشتروا سلامة موسكوا بثلاثة آلاف روبله (وكأنها^(١)) كانت كثيرة في ذلك الوقت) فارتحل ايدكو بعساكره عن موسكوا في ٢١ الكانون الأول ونهب في مروره ولاية رزان وخربها ولم تقدر الروسية أن تعيد مياه أحوالها إلى مجراها السابق بعد صدمة التار هذه إلى سنين كثيرة فإنه قد فنيت فيها الرجال والأموال وبقيت البقية من غير مأوى ولا قوت مشتغلين بالبكاء والنياح على أقاربهم وأموالهم.

والحاصل قد بلغت شدة الأمر إلى أن جرت الدماء من عيون الأصنام (هذا قول كارامزين نقلاً عن غيره) اهـ.

صورة مكتوب الأمير ايدكو إلى الكيناز واسيلي بعد الوقعة المذكورة بقليل

قال كارامزين: حرر ايدكو مكتوباً إلى الكيناز واسيلي بعد عوده من سفر موسكوا بمدة يهدده وهذه صورته سلام من ايدكو إلى واسيلي مع أولاده وأمرائه ثم أعلم أن الخان الكبير قد أرسلني عليك مع العسكر بسبب أنك تعيد أولاد توقتاميش خان وتسكنهم في بلادك وتحفظهم ولا تكرم سفراءنا وتجارنا وزوارنا وسواحننا فهل كانت تعامل كينازات الروسية سابقاً مع الخوانين الماضين هذه المعاملة سل الشيخ كيف كانوا يعاملون معهم كانت الروسية يطيعون لنا ويكرمون المنسوين إلينا ويؤدون الجزية في وقتها بلا توان وكأنه لا خبر لك من هذه المعاملة ولا تدري ما تفعله مضي تيمر قتلغ خان وأنت لم تر وجهه فضلاً عن أن تكون في خدمته ولم ترسل له أحداً

(١) والظاهر أن قيمتها كانت وقتئذٍ أكثر من قيمتها الآن بكثير منه. منه عفي عنه.

من أمرائك ثم تسلطن بعده شاد بك خان مدة سنة ٨ ولم تره أيضًا ولم ترسل له أحدًا وقد مضى من تسلطن فولاد خان سنتان والآن له ثالث سنة وأنت لم تتمثل في حضوره ولم تسلم عليه وأنت أعظم كينازات الروسية ورئيسهم وكان اللازم عليك إرشادهم إلى ما هو الصواب وأنت تسوقهم وترشدهم إلى الفساد والحاصل أن أمورك وأفعالك كلها غير مستحسنة وكان الواجب عليك حيث لا معرفة لك أن تتعلم الآداب من الشيوخ وأن تقبل نصيحتهم فإن أردت أن تسلم لك الكينازية فأرسل سفيرًا فلانًا وفلانًا وأرسل الجزية التي كانت تؤدى سابقًا في عصر جان بك خان وكلما تكتبه إلى الخان الأعظم بأن الأهالي مقبرة كذب فإنني رأيت بعيني ماذا تفعل بالخزينة التي تجمعها من الأهالي لكل زوج حرث روبلة. وفيما تضع تلك النقود وهذا فرارك فرار الأبق من سيده اهـ. وكان تحرير هذا الكتاب سنة ١٤٠٩ م مصادفة سنة ٨١٢ هـ.

قال: وإن كان هذا المكتوب وصل إلى واسيلي ولكنه لم يبال به ولم يلتفت إليه وذلك لسماعه أن في أوردو اختلالاً فيما بين التتار اهـ. ثم ذكر كيفية الاختلال المذكور ونحن أخرجناه لندكره في محله المناسب فلا تنسه.

ذكر إرسال فولاد خان والأمير ايدكو سفيرًا إلى السلطان شاهرخ ابن تيمرلنك بخراسان

قال المير آخوند في روضة الصفا: لما فرغ السلطان شاهرخ من تخليص ممالك ما وراء النهر والتركستان من أيدي المتغلبين واطمأن خاطره من تلك الجهات ووزع الممالك بين أولاد تيمرلنك وأحفاده بأن نصب كلاً منهم حاكمًا وواليًا على ناحية تناسب حاله واستعداده وفد إليه وفود الملوك الكبار ومن جملتهم رسل فولاد خان والأمير البطل ايدكو وسائر حكام دشت القفجق فقدموا هداياهم التي معهم مثل السناقر (الصقور) والخيول الرهوان وسائر غرائب الوحوش وهنوه بتلك الفتوحات الجديدة وأظهروا له المحبة والوداد فخلع السلطان على الكل وأفاض عليهم الصلات من الخيول والنقود وغير ذلك وأرسل لأجل فولاد خان والأمير ايدكو تحفًا شاهانية وهدايا ملوكية وأرسل معهم الأمير حسنكا الذي كان متصفًا بفرط الكياسة وحسن التقرير والبيان رسولاً من عنده إلى فولاد خان يخطب مخدرة من الذرية الچنكزخانية لابنه الميرزا محمد جوكي اهـ. والظاهر من سياق كلام صاحب روضة الصفا أن ذلك كان في أواخر سنة ٨١٢ ولم يذكر بعد ذلك قضية الزواج ولم أظفر بها في محل آخر

والظاهر أنه قد حيل بين العير والنزوان بسبب تقلبات الزمان وفقدان الأمن والأمان والله سبحانه أعلم وهذا آخر ما وقفت عليه من أحوال فولاد خان ولم أقف على تاريخ وفاته .

[تيمر خان بن تيمر قتلغ خان]

وأما تيمر خان بن تيمر قتلغ خان. قال منجم باشا: وبعد سنتين من جلوس فولاد خان تسلطن ابن عمه تيمر خان ابن تيمر قتلغ خان اهـ. وقوله ابن عمه الخ. مبني على الغلط السابق منه من جعله شاد بك خان ابناً لتيمر قتلغ خان وفولاد خان ابناً لشاد بك خان وقد قلنا: إنه خطأ والصواب ما قلناه. قال الحاج عبد الغفار أفندي: لما مات شاد بك خان أراد ولده^(١) نور الدين المذكور أن تكون الخانية لأبيه ايدكو أو لنفسه ولكن أباه لم يرض بذلك بل أجلس تيمر ابن تيمر قتلغ على مسند الخانية ولم يرض نور الدين به بل نصب أخاه الصغير فولاد خان ابن تيمر قتلغ خاناً (هكذا في النسخة التي نقلت عنها والصواب عكسه يعني كون فولاد خان أكبر من تيمر خان وكونه منصوب ايدكو لما مر من الوقائع وكون تيمر خان أصغر منه وكونه منصوب نور الدين والله أعلم. وأنا أبني النقل بعد هذا على ذلك فتنبه). قال: ونصب له في رتبة أمير الأمراء رجلاً همجاً من قبيلة أويشين يسمى پير محمود وجلس بنفسه أسفل منه ثم جمع العسكر وسار على أبيه للمحاربة فصار ايدكو منفعلاً من هذا الوضع وتوجه إلى خوارزم فأمر نور الدين بنهب جميع الوصاة أي ولايته حتى خرب مسجد أبيه الذي كان مصنوعاً من اللبد ومزق لبده وأحرق أخشابه بالنار وكان الميرزا جهان كمال زاده يغني خطاباً لنور الدين.

شعر:

بش دونغكوزني كوته ألماس پير محمودني بي لندنك
بش بسرك تارتا ألماس آتانك أوين كويدردنك

يعني أمرت پير محمود الذي لا يقدر أن يرعى خمسة خنازير وأحرق بيت أبيك الذي كان لا يقدر أن يجره خمسة من الإبل البختي وبسرك هو الإبل البختي كذا فسره به في حاشية النسخة المنقول عنها اهـ فعلم أن من خافه ايدكو من هجومه على أوردو حين محاصرته موسكوا هو تيمر خان مع ولده نور الدين وأن هجومهما تأخر

(١) يعني ولد الأمير ايدكو. منه عفي عنه.

إلى هذا الوقت وكان وقوع أصل الاختلاف في عين ذلك الوقت وسيذكر مآل أمر تيمر خان بعد ذلك .

[جلال الدين بن توقتاميش خان]

وأما جلال الدين بن توقتاميش خان. قال منجم باشا: ثم ظهر جلال الدين بن توقتاميش خان في سنة ٨١٤^(١) وانتزع الملك من يده يعني من يد تيمر خان فنازعه أربعة أنفار من إخوته وغيرهم من سائر الأمراء واضطربت أحوال المملكة واختلت أمور الدولة فصارت من هؤلاء محمد بن توقتاميش وبراق بن قويرچق بن أرص خان ومحمد سلطان خوانين واحداً بعد واحد اهـ. فعلم ذلك أن مدة سلطنته لم تطل ولم تجر له معاملة مع الروسية ولذلك لم يعرفه كارامزين كما تقف عليه .

وقال كارامزين عقيب ذكر مكتوب ايدكو وعدم التفات واسيلي إليه: وكان سبب عدم التفاته إليه أنه سمع أن في أوردو اختلافاً فيما بين التتار وذلك أن واحداً يسمى تيمر وهو غير معلوم في التواريخ أتى أوردو وطرد منها فولاد خان وايدكو فساراً إلى ساحل البحر الأسود وأجلس مكان فولاد خان في التخت جلال الدين سلطان ابن توقتاميش خان ونصبه خاناً اهـ. فظهر أنه ما كان يعرف تيمر خان وذلك لقلته مدته جداً، وقوله: اجلس جلال الدين الخ مبني على هذه الجهالة والتاريخ الذي ذكر هذا فيه قريب من التاريخ الذي ذكره ابن عربشاه ومنجم باشا والحاصل لا خلاف في التاريخ .

قال الحاج عبد الغفار أفندي بعد ذكره ما مر منه: أن جلال الدين بن توقتاميش خان كان في تلك الأثناء مختفياً في بعض النواحي فلما سمع الاختلال المذكور هجم على تيمر خان ونور الدين ليلاً على الغفلة مع أتباعه وخواصه الذين معه فوقت الهزيمة عليهما فهربا إلى خوارزم عند ايدكو بعد أن تخلصا من المعركة فأرسل جلال الدين سراي بك الباريني والميرزا جهان باي مع مقدار من العسكر لتعقيبها فوصلا إليهما في جوار خوارزم بجبل يقال له قيات آرقاسى وفرقا جمعيتهما وقبضا عليهما وقتلا تيمر خان في الحال وأمسكا نور الدين ليحتالا به في القبض على أبيه وتوجهها به نحو خوارزم وكان الميرزا جهان باي يغني في أثناء الطريق خطاباً لنور الدين على سبيل الملاطفة على ما هو مسطور^(٢) في تاريخ دوست سلطان .

(١) وهذا موافق لما مر عن ابن عربشاه فتذكر. منه عفي عنه .

(٢) من كلام الحاج عبد الغفار أفندي. منه عفي عنه .

شعر:

طورلق^(١) صاوغان بالاقوش طورغه زيچوك توشتونك سن
طورلاق^(٢) باشده ني ايش يوق توقتامشقه نيتدنك سن

ولما نزلوا أمام باب قلعة خوارزم ورآهم ايدكو من برج القلعة جعلوا رأس تيمر خان على رأس السنان وأروه لإيدكو ونادوه نحن جئنا هنا بأمر جلال الدين خان وقتلنا عدونا وعدوك تيمر خان وهذا رأسه وحضرة الخان قد خيرك إما أن تسير إليه مكرماً وإما أن تقعد هنا ونسلم إليك ولدك ونذهب وبعد المشاورة الكثيرة واللتيا والتي قرر ايدكو على قبول مطلبهم بالضرورة ففتحوا الباب وأدخلوهم البلد فأنزل ابنه نور الدين في منزل زوجته جانيكه خانش بنت توقتاميش خان على طريق الزفاف وأضافهم بضيافة عظيمة ولكنه احتاط من المسير بنفسه إلى جلال الدين خان فأرسل ولده الصغير السيد أحمد مع سراي بك وأمسك الميرزا جهان عنده فلما سمع جلال الدين تلك الماكرات من سراي بك بعد عوده إليه وإخباره بها غضب غضباً شديداً ولم يخرج من بيته من شدة أسفه وغضبه إلى ثلاثة أيام (يعني لعدم ظفره بخضمه وخضم أبيه والذي صار سبباً لخراب مملكته) ثم خرج في اليوم الرابع وقتل السيد أحمد بن ايدكو ضربة بألة تسمى كستن وجعل بدنه مدقوقاً كحبات الخشخاش. ولما سمع ايدكو هذه الوقعة المفجعة غضب على الميرزا جهان ووبخه ثم أعطاه فرساً وأسباباً وخلى سبيله فرجع إلى جلال الدين خان وأخبره بأن السبب (يعني في عدم نيل المقصد) هو أسنى بن إسلام قيا بك وخيانتة فقربه جلال الدين خان إليه وطرد أسنى بك اهـ. والصواب سراي بك كما مرّ والأول أسنى بك. والحاصل أحد الاثنین غلط والنسخة المنقول عنها سقيمة جداً فهذه النقول المتعددة تتفق في بعض المواد وتفترق في بعضها أما الاتفاق ففي طرد فولاد خان وايدكو من سراي يتفق فيه قول كارامزين والحاج عبد الغفار أفندي وكذلك قتل تيمر خان يتفق فيه قول ابن عربشاه والحاج عبد الغفار أفندي مع زيادة معرفة قاتلة في كلام الحاج عبد الغفار أفندي وأما الافتراق فبين كلامي الحاج عبد الغفار أفندي وكارامزين في تعيين محل طرد ايدكو كما عرفت والصحيح فيه قول الحاج عبد الغفار أفندي لما سيأتي. وعلى كل حال فقد قارب الأمر وكاد التاريخ أن ينتظم والله الحمد ولكن لم ير مأل أمر فولاد خان في شيء من التواريخ والله سبحانه أعلم.

(١) يعني يا من تخلص من الشبكة.

(٢) يعني في الرأس المكشوف الحقيق. منه عفي عنه.

وفاة جلال الدين خان وجلوس أخيه كريم بردي خان

قال كارامزين بعد ذكره ما سبق منه في بيان حوادث سنة ١٤١١ سنة ١٤١٢ ميلاديتين مصادفتين سنة ٨١٤ سنة ٨١٥ هجريتين أن يطوفت كيناز ليتوا كان في ذلك الوقت على الوداد والمصافاة مع السلطان جلال الدين خان وكذلك إيوان بن ميخايل كيناز توير مع كيناز موسكوا ولما كان واسيلي بن ديميتري كيناز موسكوا على خوف عظيم من هذه الجهة توجه إلى أوردو مع جمع من أمرائه بهدايا عظيمة ليستجلب خاطر حضرة الخان إليه وينال محبته ومودته ولكن كان جلال الدين مقتولاً قبل وصول الكيناز واسيلي إحساناً وإكراماً حين كونه في الروسية عند واسيلي قبله مع ممنونية زائدة وأظهر له المحبة التامة ووعدته بالمسالمة والإعانة على ويطوفت ووعدته الكيناز واسيلي أيضاً في مقابلة ذلك بأداء الجزية تماماً وأداها إلى أن مات ولما اطلع ويطوفت على هذا الاتفاق بينهما جلب إلى نفسه واحداً من أولاد الخوانين يسمى بيتصابول وجعله خاناً في بلدة ويلنه ثم أعطاه عسكرياً وأرسله إلى أوردو لمحاربة كريم بردي خان ولكن كريم بردي هزمه وفرق جمعه وأسره وحز رأسه ثم قتله أخوه كريم بردي^(١) واستمر هذا القتل والاستبدال فيما بينهم إلى سنة ١٤١٥ يعني مصادفة سنة ٨١٨ هـ.

قال الحاج عبد الغفار أفندي: كان الخان جلال الدين جسوراً وسريع الغضب وكان لا يلتفت إلى إخوانه ولا يعابى بهم أصلاً فانكسر خاطر أخيه كبك من وضعه هذا واتفق مع آتابكه يخشى خواجه بن ركتيمور على خلعه وقمعه فجمعا العسكر وهجما عليه فوقعت الهزيمة عليهما فهربا وكان أصاب الخان جلال الدين في أثناء المحاربة سهم من ضلعه فمات من تأثيره بعد ثلاثة أشهر وكان أخوه كريم بردي حاضراً عنده فجلس على مسند الخانية.

ذكر قتل كريم بردي خان وأخيه جبار بردي خان وجلوس أخيهما كبك خان

قال عبد الغفار أفندي بعد ذكر ما سبق: وكان كريم بردي مع جبار بردي من أم واحدة وهو أصغر من جبار بردي فلما حضر أخوه الكبير جبار بردي فرغ من السلطنة

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه وهو من قبيل جستق بستق ديز بيزلا معنى فإن ريم بيردي وغيره بيردي شخص واحد والاختلاف إنما هو في اللهجة.

وفوضها إلى أخيه جبار بردى وفي ذات يوم ظهر من كريم بردى في مجلس العشرة إظهار المنة على أخيه في تفويض الخانية إليه فأل الأمر إلى المشاجرة والمقاتلة فقتل كريم بردى أخاه جبار بردى بالخنجر فقتل هو أيضًا في المجلس المذكور أو في الصحراء بعد فراره منه فجلس مكانه أخوهما كبك خان اهـ.

قال الفاضل المرجاني إن جلال الدين خان جلس على مسند الخانية سنة وشهرين ثم تملك بعده أخوه كريم بردى فخرج عليه أخوه جبار بردى بعد مضي خمسة أشهر من تملكه وقتله ثم أخوه جبار بردى ثم أخوه كبك خان وكان في حدود سنة ٨٢٧ في ممالك الروس اهـ والعهدة في ذلك عليه.

ذكر ظهور الأمير إيدكو ثانيًا وقتل كبك خان وغير ذلك من الوقائع

قد تقدم أنه بعد انهزامه من تيمور خان ذهب مع فولاد خان إلى ساحل البحر الأسود على قول كارامزين وإلى خوارزم على قول الحاج عبد الغفار أفندي وتقدم أيضًا توجه ولده نور الدين إليه وسائر ماجرياته ولكن خوارزم لما استولى عليه تيمرلنك متى خرج من يد أولاده ودخل^(١) في يد أولاد جوجي والظاهر أن ذلك كان في الفترة التي بعد موت تيمرلنك.

قال في روضة الصفا وفي سنة ٨١٥ توجه الأمراء الكبار بأمر السلطان شاهرخ في نحو خوارزم فترك ولد الأمير ايدكو البلد وذهب فانضمت هذه الممالك المحروسة اهـ. فهذا يدل على ما قلنا ويدل أيضًا على ضعف حال ايدكو فإنه لولاه لما ترك ولده البلد بلا مقاومة والظاهر أن ولده هذا غير ولده نور الدين فإنه كان له أولاد كثيرة ولكن سياق ما سبق يقتضي كون ايدكو بعد السنة المذكورة في خوارزم إلا أن نقول: إنه كان في بعض بلادها القريب من مملكة جوجي غير ما استولى عليه الشاهرخيون والله أعلم. ويؤيده ما ذكره الحاج عبد الغفار أفندي أيضًا حيث قال: ثم إن ايدكو نصب چكره أوغلان^(٢) من نسل شيبان خانًا في التركستان ثم هجم بعسكره على كبك خان وكان يشثو في مصب نهر بوزان (نعله يايق) في البحر

(١) ولعل الأمير ايدكو استولى عليه في ذلك السفر والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) وقد جعل المرجاني درويش خان ابنًا لبراق خان وچكره أوغلان ابنًا لدرويش أوغلان وقال: إن له دراهم مضروبة في بلغار وألوغ أوردو وحاجي طرخان اهـ، وسيجيء ذكر براق خان ويظهر هنالك خطأ هذا الكلام. منه عفي عنه.

فقتلوه ثم أن ايدكو انكسر خاطره من چكره أوغلان فطرده إلى وطنه ونصب مكانه السيد أحمد أوغلان من أولاد ميسر (لعله بيسور الذي تقدم ذكره في ترجمة منگو تيمر) وتعقب بنفسه چكره أوغلان ولكنه لم يلحق به فعاد وقد مات السيد أحمد أوغلان قبل عوده وكذلك مات چكره أوغلان في التركستان فنصب واحدًا من أولاد ميسر خانًا يسمى درويش أوغلان وفي عقله خفة اهـ. قلت: وفي خلال هذه السنين حجت زوجة ايدكو.

قال الحافظ العسقلاني والمقريزي: وفي سنة ٨١٩ قدمت دمشق الخاتون زوجة الأمير ايدكو صاحب الدشت تريد الحج في صحبتها ثلاثمائة فارس فحجوا صحبة المحمل الشامي اهـ.

ذكر خروج قادر بردي خان وقتله وقتل الأمير ايدكو

قال الحاج عبد الغفار أفندي: كان قادر بردى بن توقتاميش خان من أم واحد مع جبار بردى وكريم بردى وفي أثناء قتل إخوته هرب إلى قرم أو دخل في قبارطاي وكان معه كثير من الأمراء من قبائل شيرين وبارين وآرغون وقفچق وعساكر أيضًا وبينما هو جالس في غرفته ذات يوم ناظرًا إلى الأطراف والجوانب إذ رأى أن كلبًا واحدًا تهجم عليه كلاب كثيرة وهو لا يطيعها فتخلص منها مهاجمها إليه دون طاعة لها فلما شاهد هذا الحال تحرك عرق غيرته ودم حميته وقال: أنا أدون من هذا الكلب أو مطلبى أحقر من مطلبه فلماذا أختار السكوت عن طلب حقي من أعدائي المتغلبين فركب في الحال مع ثلاثة آلاف من أتباعه وقصد ايدكو وكان ايدكو في طرف آخر من ايدل ولم يتم انجماد ايدل بحيث يصلح للمرور فاستنسب الأمراء الإقامة بساحل ايدل إلى أن يتم انجماده فقال لهم قادر بردى ايدل طونكسه كيم كچمس ايدكو أولسه كيم ألماس ايدلني طونكماسدن بورون كچمك كرك ايدكوني اولمسدن بورون ألمق كرك يعني من الذي لا يعبر إذا انجمد ايدل ومن الذي لا يأخذ إذا مات ايدكو ينبغي أن يعبر ايدل قبل انجماده وأن يأخذ ايدكو قبل موته فعبروا ايدل بمشقات كثيرة وساروا نحو ايدكو وكان ايدكو خبيرًا بهذه القضية فسار هو أيضًا نحوهم بستين ألفًا من العسكر وأرسل ولده الكبير كيقباد في مقدمته فعاد منهزمًا فقال له ايدكو بأعلى صوته: هاي نغاشيسي يمان نرسه ني قيلدك يعني يا من ردى الخال ماذا فعلت فإن أمه كانت بنت أمير عديم الحمية فهجم قادر بردى خان في تلك الأثناء ورمى ايدكو بسهم وضربه ايدكو أيضًا بسيف وقتله وسقط هو أيضًا في مكانه ونكس حيدر بك

القونكراتي الذي كان مع قادر بردى لواء ايدكو وخرج هو يعني حيدر بك وتكنه بك ركتيمور الشريني وغيرهم من أمراء الخان من تلك المعركة سالمين وكان محمد أوغلان بن ايچكلي حسن بن جغاي أخي توقتاميش خان حاضراً هناك فنصبوه خاناً لأنفسهم بالضرورة لثلا يتشتت جمعيتهم وإن كان غياث الدين بن توقتاميش خان حياً في ذلك الوقت ولكنه لم يكن حاضراً بل كان غائباً وهو المشهور في التواريخ بالوغ محمد خان وأما ايدكو فقد انهزم عسكره وتركوا ايدكو مع واحد في ساحل غدير هنالك يقصد أن يحملوه ليلاً فاطلع على ذلك جانتيمر وكان سابقاً من خواص توقتاميش خان ثم لحق بايدكو ضرورة فأخبر محمد خان وأمرائه بذلك فجاؤوا معه المحل المذكور فلما اطلع ايدكو على ذلك دخل في وسط الغدير وصار يشتم جانتيمر المذكور ويهدده فلم يصغ إليه جان تيمر بل رماه بسهم يسمى قرا سويري بأمر محمد خان ثم دخلوا في الغدير وأمسكوه وحملوه إلى محمد خان وأمرائه فاستمهلهم أن يصلي ركعتين فأمهلوه فلما أتم الصلاة طووا صحيفة عمره سامحه الله تعالى. وهذا تفصيل ما أجمله ابن عربشاه في عباراته السابقة الشائقة إلا أن قوله: فأخرجوه من سيحون غلط من قلم النساخ بل في عبارته ما ينافية حيث قال بسرايچق وسرايچق: هو بلد بساحل نهر يايق موجود إلى الآن بل صوابه من يايق أو من غدير بساحل يايق والله سبحانه أعلم.

وهذا أيضاً نشر ما طواه العلامة بدر الدين العيني رحمه الله تعالى حيث قال في بيان حوادث سنة ٨٢٢: توفي فيها الأمير ايدكي بكسر الكاف وفتحها مات في هذه السنة قتيلاً وكان أصل قضيته أنه لما استولى على العباد بعد انهزام توقتاميش خان كما ذكرنا في سنة ٧٩٧ كان عنده شخص يسمى درويش خان^(١) فجعله ايدكو في صورة الخان ولكن الحكم والأمر والنهي له وليس لدرويش خان غير الاسم وكان لتوقتاميش خان ابن يقال له قادر بردى وكان دائماً يحارب ايدكو لأجل المملكة ففي هذه السنة أعني سنة ٨٢٢ مشى قادر بردى على ايدكي أيضاً فتلاقيا ووقع بينهما قتال عظيم وحرب شديد وقتل من الفريقين خلق كثير فقتل قادر بردى في المعركة وانهزم أصحابه وجرح ايدكي أيضاً بجراحات كثيرة وانهزمت عسكره أيضاً وهرب ايدكي ظناً منه أن قادر بردى قد انتصر وأتى موضعاً وهو مشحون بالجراحات فنزل هناك وقال لواحد ممن معه قم واكشف الخبر فإن وجدت أحداً من عسكرنا فاعلمه إلى هنا فذهب

(١) قلت: قد تبين أن العيني لم يكن له خبر بما مر من الوقائع منه. منه عفي عنه.

يكشف الخبر فإذا بأمر^(١) من أمراء التتار وكان من جهة توقتاميش خان وكان كبيراً عنده فأخبر ذلك الرجل بأمر ايدكي فقال وأين هو فدل عليه فجاءه فلما رآه ايدكي شرع يعنفه ويتهدده فقال له: كان اليوم لنا وفعلنا ما فعلنا فمهما يجيء من يدك فافعل ثم أمر لمن معه من أصحابه أن ينزلوا عليه بالسيوف فقطعوه قطعاً قطعاً ولما جرى ما جرى استولى على مملكة الدشت شخص من ذرية چنكزخان يقال له محمد خان ولكن الفتنة قائمة والأمور مضطربة اهـ.

وقال الجنابي: والذي أفاد الحافظ التاشكندي أن قادر بردى بن توقتاميش خان جمع جمعاً عظيماً فسار على ايدكو فلما التقى الجمعان أصاب قادر بردى سهم غرب فمات فأقام أهل الدولة واحداً من أولاد توقتاميش خان مكانه يسمى بكوچك^(٢) محمد خان وكان صبيّاً لثلاً ينتقض عقد نظامهم فقاتلوا ايدكو وانتصروا عليه اهـ. فكاد النقلان ينطبقان ويؤيد الثاني ما ذكره في السبع السيار من أن قتل ايدكو المنغتي رئيس القبيلة النوغائية من قبائل التتار وإعدام ذاك الخائن منبع الشر والإضرار^(٣) كان في زمن محمد خان وذكر في ذلك حكاية تركنا ذكرها مخافة الإطناب ولكونه بعيداً عن صوب الصواب.

وقال بعض المؤرخين: في سنة ٨٢٢ مات الأمير بالدشت ايدكي وكان إليه تدبير مملكة سراي ودشت قفجق - والسلاطين معه اسم بلا مسمى ولهذا وهم عدة من المؤرخين وسماه صاحب الدشت وعده سلطاناً مع أنه كان الأمير الثاني فإنه كان معه أمير آخر يقاله تكنا أو چكنا فإن أكابر الأمراء هناك أمير الميمنة ثم أمير الميسرة وأميرة الميمنة كانت رتبته تكنا وإميرة الميسرة رتبته ايدكي لكن الشهرة والتدبير كانت لأيدكي وله أخبار تطول كنت اجتمعت بإنسان رآه وعرف أحواله وصحبه مدة سنين فكان يذكر لي عنه غرائب وعجائب في شجاعته ورياسته وعظمته وفراسته اهـ.

(١) قوله: بأمر الخ. إن كان المخبر غير جانتيمر المذكور في كلام عبد الغفار أفندي فهذا الأمير هو جانتيمر المذكور وإن كان المخبر هو جانتيمر فالمراد من الأمير هو محمد خان أو أمير من أمرائه والله أعلم. منه عفي عنه.

(٢) وهذا هو وجه تسميته بكوچك محمد خان ولهذا جزمنا فيما سيأتي أن كوچك محمد خان بن إيچكلي حسن وسيأتي ما له وما عليه. منه عفي عنه.

(٣) فإنه قال فيها: إن محمد خان وعد من قتله بتزويج بنته منه الخ. وهذا صبي كيف يكون له بنت تزوج. منه عفي عنه.

قلت: كأنه أراد بذلك الإنسان الذي رآه ابن عربشاه فإنه رآه وصحبه وذكره في عجائب المقدور كما مر بعضه ومدحه وأثنى عليه حيث قال بعد أن ذكر ما مر وله حكايات عجيبة. وأخبار ونوادير غريبة. وسهام ذراه في أعدائه مصيبة. وأفكار مكائيد. وواقعات مصائد. وله في أصول فقه السياسة نفود وردود. البحث فيها يخرج عن محصول المقصود. وكان أسمر شديد السمرة ربعة. مستمسك البدن شجاعاً مهاباً ذا رفعة. جواداً حسن الابتسامة. ذا رأي مصيب وشهامة. محباً للعلماء والفضلاء. مقرباً للصلحاء والفقراء. يداعبهم بألطف عبارة. وأظرف إشارة. وكان بالنهار صواماً. وبالليل قواماً. متعلقاً بأذيال الشريعة. قد جعل الكتاب والسنة وأقوال العلماء بينه وبين الله تعالى ذريعة. له نحو من عشرين ولدًا كل منهم ملك مطاع. وله ولايات على حدة وجنود وأتباع. وكان في جماعات الدشت إماماً. نحواً من عشرين عاماً. وأيامه في جبين الدهر غره. وليالي دولته على وجه العصر طره اهـ.

قلت: لو مس من العلا بيافوخه عنان السماء. وعد من كثرة صيامه وصلاته وصدقاته وصلاته في عداد كبار الأولياء. لا يستحق المدح والإطراء. كيف فإنه هو الذي صار سبباً لخراب تلك الديار. بجلب تيمرلنك رئيس الأشرار إلى تلك الأقطار. وسل السيف على وجه متبوعه المفخم بغير وجه مشروع وأحل قومه دار البوار. حتى بقي أثر تلك الشامة إلى هذه الأدوار.

والحاصل من عري عن الغيرة الدينية. وتجرد عن الحمية الوطنية. وقدم منافعه الشخصية. وفوت لتحصيلها المنافع الكلية الملية. لا يستحق المدح بالكلية. كائناً من كان من الأفراد البشرية. ونعم ما فعله الأمير چوپان حين انهزم أمام السلطان أبي سعيد خان أراد أن يتوجه إلى طرف مغولستان وأن يلتجئ بالقآن ويستنجد على خصمه السلطان أبي سعيد خان ثم رجع عن هذا الفكر الوييل وقال في نفسه: إن في ذلك أحد المحذورين لأنه إما ينجد أولاً فإن كان الثاني يلزم الاغتراب إلى يوم الحساب وإن كان الأول يلزم إهلاك قومي بجلب الأجانب إلى بلادهم فيبقى شناعة هذا الأمر في عقبي إلى يوم القيامة فالتزم الموت كريماً وتوجه إلى هراة فتم له هناك ما تم ولكن بقي له الاسم الحسن والمدح الأتم هكذا ينبغي أن يكون لمن يدعي الإنسانية والله سبحانه الموفق وقد تقدم أن أصله من قبيلة منفعت قاله أبو الغازي والسيد محمد رضا في السبع السيار فتذكره^(١).

(١) كتاب «السبع السيار» لحافظ الدين محمد بن أحمد العجمي المتوفى سنة ٩٥٧ هـ. وهناك كتاب =

ذكر ألوغ محمد خان

قد تقدم نقلاً عن تاريخ منجم باشا ذكر محمد بن توقتاميش وذكر محمد سلطان ومر أيضاً ذكر كوچك محمد من أولاد توقتاميش خان نقلاً عن الجنابي ومر ذكر محمد خان مطلقاً نقلاً عن العيني والسبع السيار والمشهور ممن سمي بمحمد خان من بين خوانين البلاد الشمالية اثنان ألوغ محمد خان وكچك محمد خان ولا شك أن اللذين ذكرهما منجم باشا هما هذان ولكنهما ابنا من هما ومن أبوهما؟ وقد جعل الفاضل المرجاني كليهما ابني تيمر خان واستدل به على دراية تيمر خان ونجابته حيث سمي كلا ولديه محمداً واعتقادي لا ظني فقط أنه وهم منه وسبق قلم لأنه لم ينقل عن أحد ممن تصدى لبيان أحوال تلك البلاد بل ثبت عنهم ما يدل على خلافه كما مر عن الحاج عبد الغفار أفندي من أن الذي نصبوه خاناً في وقعة قادر بردى والأمير ايدكو هو محمد خان بن ايچكلي حسن وكما مر أيضاً عن الجنابي نقلاً عن الحافظ التاشكندي من أن المنسوب في الوقعة المذكورة خاناً هو محمد خان من أولاد توقتاميش خان وكذلك يفهم من كلام صاحب السيار في مواضع عديدة من تاريخه المذكور أن محمد خان الذي هو جد خوانين قرم من أولاد توقتاميش خان وقد صرح في أول تاريخه المذكور عند بيان نسب خوانين قرم وفقاً لما ذكره أبو الغازي خان بكونهم من أولاد محمد خان ابن ايچكلي حسن حيث قال منكلي گراي خان ابن حاجي گراي خان ابن غياث الدين بن ناشتيمر بن محمد خان ابن ايچكلي حسن بن جاناي بن تولكتيمور بن كونجه بن روكتيمور بن توقايتيمور بن جوجي خان ابن چنكرخان الخ. إلا أنه سقط هنا عن نسخ السبع السيار قاطبة مطبوعة أو قلمية ذكر محمد خان ووالده ايچكلي حسن وكذلك سقط ذكرهما عن نسخ كلبن خانان أيضاً

= آخر يسمى «السبع السيار» وهو رسالة للمولى مصطفى بن حسن الجبائي المؤرخ المتوفى سنة ٩٩٩ هـ، في بحث علوم القيافة والفراسة والغالب والمغلوب والكف والكتب ومقادر الأصابع. (انظر كشف الظنون ٩٧٦/٢).

وجعله الفاضل المرجاني من قبيلة قونكرات والحاج عبد الغفار أفندي جعله من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وجعل أحد أجداده الشيخ يحيى الحلوتي وأباه الشيخ نجيب الدين بابا توكلاس وقبره في شرقي حاجي طرخان مشهور بزار وقد تصدى في بعض المجماع لبيان سلسلة نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك من الخرافات ولا منافاة بين كونه مفتياً أو قونكراتيا وبين كونه رئيس الطائفة النوغاوية على قول صاحب السبع السيار فإنه يكون من إحدى تينك القبيلتين ورئيساً لطائفة نوغاي والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

لكونها مأخوذة عنها والدليل على سقوطهما عنهما ادعاؤهما كون خوانين قرم من ذرية محمد خان وكون ذلك مسلماً عند الكل وكونهما مذكورين في تاريخ أبي الغازي كما ذكرنا هنا عند ذكره نسب خوانين قرم فلو^(١) لم يكن محمد خان في عمود النسب كيف يكون خوانين قرم من ذريته إلا أنهما أعني صاحب السيار وكولبن خانان أخطأ في جعله محمد ألوغ محمد خاناً لما سنذكره.

وقد وقع ذكر محمد خان هكذا في ديوان الإنشاء للمجبي حيث قال كتب في عهد السلطان برسبای^(٢) إلى قان الدشت محمد خان بن الحسن ابن أخي توقتاميش خان هكذا المقام العالي السلطاني الكبير الملكي الأعدلي الشمسي شمس الدنيا والدين مؤيد الغزاة والمجاهدين قاتل الكفرة والملحدین والمشرکین ولي أمير المؤمنين إلخ. وهذه المذكورات نصوص هؤلاء المؤرخين صريحة في أن محمد خان هو ابن ايچکلي أو من أولاد توقتاميش خان فبأي دليل نرفض هذه النصوص. ونقول: إن كلا محمد خان ابني تيمر خان مع عدم ذكر واحد منهم محمد خان بن تيمر خان سوى الحاج عبد الغفار أفندي نعم وقع في مواضع كثيرة من تاريخ منجم باشا أن محمد سلطان بن^(٣) تيمر خان إلخ. لكن بهذا القدر لا يثبت كون كليها ابني تيمر خان فإنه صرح في أول كلامه بكون والد محمد خان الثاني توقتاميش خان وفقاً لما ذكره الجنابي وأخذاً عنه فيجب أن نجعله ابناً لإيچکلي حسن وفقاً لما ذكره هؤلاء المؤرخون على أن الفاضل المرجاني قد ذكر نسب خوانين قرم كما ذكرنا هنا وفقاً لما ذكره أبو الغازي وغالب الظن أنه أخذ ذلك عن تاريخه أو عن السبع السيار فيكون ذكر محمد خان ووالده ايچکلي حسن مذكوراً في نسخته فهو إذا قد صرح بنفسه بكون أحد المحمدين المذكورين ابناً لإيچکلي حسن وفقاً لغيره من حيث لا يشعر.

لا يقال لعل محمد خان هذا أعني جد خوانين قرم غير ذينك المحمدين لأنه يلزم على هذا أن يكون ثلاثة خوانين في عصر واحد يسمى كلاً منهم محمداً وهذا لم

(١) هذا دليل على وجود محمد خان في عمود النسب وأما الدليل على كونه ولد إيچکلي حسن فذكر أبي الغازي اياه في نسبه كما عرفت وغير ذلك مما سنذكر بعد. منه عفي عنه.

(٢) كان أول تملك الملك الأشرف برسبای في سنة وبقي ملكاً إلى سنة ومات فيها حتف أنفه فتكون هذه المكاتبه فيما بينهما. منه عفي عنه.

(٣) فهذا يدل على أن محمد سلطان في كلامه هو ابن تيمر خان وقد صرح بكون محمد خان الثاني ابن توقتاميش خان فتوافق القول وثبت ما نقول. منه عفي عنه.

يقول به أحد من المؤرخين فيلزم خرق إجماعهم ومخالفتهم بلا دليل نعم قد وقع في تاريخ أبي الغازي ذكر محمد خان بن تيمر سلطان بن تيمر قوتلق بن تيمر بك بن قتلغ تيمر بن تومغان بن آباي بن أوزتيمر بن توقايتيمور بن جوجي عند بيان نسب بعض ملوك أوزبك ببخارى وقد نقل الفاضل المرجاني ذلك عند بيانه نسب ذلك البعض من ملوك أوزبك ببخارى وعند بيانه خوانين حاجي طرخان مع بعض التغيير بالزيادة والتقديم والتأخير فهذا وإن دل على وجود محمد خان ثالث في ذلك العصر في بادي لأنه ليس أحد المحمدين المذكورين فإن نسب محمد خان بن تيمر خان الذي نحن بصدد بيانه الآن يتصل بتوقايمر بواسطة أرسخان كما مر وهذا ليس كذلك كما ترى وعدم كونه محمد خان ابن ايجكلي حسن بديهي إلا أنه لا يدل عليه في الحقيقة بل هو مبني على الاختلاف في نسب تيمر ملك^(١) الذي هو جد ألوغ محمد خان بأنه ابن أرسخان أو ابن قتلغ تيمر بن تومغان بن آباي الخ. فلا يثبت مدعى الفاضل المرجاني من كون كلا المحمدين ابني تيمرخان المذكور ثبتت أنهما ليسا أخوين وطني أن الحامل للفاضل المرجاني على ما ارتكبه هو قول كارامزين حيث قال على ما سيأتي عنه: أن ألوغ محمد خان طرده أخاه كچيم إلخ. ولكنه لم يذكر هنا أن كچيم هذا اسمه محمد وقد ذكر في موضع آخر قبله أن اسمه أحمد حيث قال في خلال بيان حادثة من الحوادث وفي الوقت عينه خالف ألوغ محمد خان ونازعه خان آخر من خوانين مغل يسمى كچيم أحمد إلخ. وسيذكر ذلك بعد فقوله هذا يمكن أن يكون صحيحاً فإن الفاضل المرجاني ذكر هو نفسه كچي أحمد خان بعد ذكر كچي محمد خان.

وذكر الحاج عبد الغفار أفندي أحمد خان عند تعداده أولاد كچك محمد خان فيكون على هذا قول المرجاني إن ألوغ محمد خان طرده أخوه كچي محمد خان من سراي إلخ غلطاً ويمكن أن يكون قول كارامزين غلطاً بأن يكون الطارد لألوغ محمد خان من سراي هو كچي محمد خان وذلك فإن كچي محمد وكچيم أحمد لا فرق بينهما في تلفظ الروس فإنهم يفتحون الميم الأولى من محمد ويكسرون الثانية بعد التخفيف وميم أحمد أيضاً فبذلك يتحدان في التلفظ^(٢) اتحاداً كلياً بحيث لا يبقى

(١) فإن المفهوم من بيان أبي الغازي أن تيمر خان وأجداده الذين مر ذكرهم سابقاً ليسوا من أولاد أرسخان بل نسبهم كما نقلناه عنه ههنا ولكنه مخالف لما ذكره غيره من المؤرخين. منه عني

عنه.

(٢) وفرق ما بينها في الكتابة هذه العلامة الدالة على السكون بعد الميم الأول من محمد خان هذا =

بينهما فرق أصلاً ولا شك أن الروس إنما أخذوا من التلفظ لا من الكتابة فيصح حينئذ قول الفاضل المرجاني: من أن الطارد لألوغ محمد من قران هو كچي محمد وقد قال كارامزين: إنه أخوه فتبعه المرجاني في ذلك وجعله أخاه ولكن لا حجة له في ذلك ولا يعتمد عليه من جميع الوجوه لأنه يجوز أن يخطأ كارامزين ويغلط في جعله أخاً لألوغ محمد أيضاً لسكونه مخالفاً لقول غيره من المؤرخين كما عرفت وعلى تقدير صحة قوله يجوز أن يكون أخاه لأمه بل هو المتعين ليوافق قوله قول غيره من عدم كون والدهما شخصاً واحداً وكذلك ما ذكره الجنابي نقلاً عن الحافظ التاشكندي وما ذكره منجم باشا تبعاً له من كون كچك محمد خان من أولاد توقتاميش خان ينبغي حمله على المسامحة أو على الاشتباه^(١) بناء على كون إيچكلي حسن من أقرباء توقتاميش خان فيكون المعنى من أولاد أعمام توقتاميش خان كما مر عن المحبي من أنه أعني محمد خان بن الحسن أبي أخي توقتاميش خان فيزول الخلاف ويحصل تمام الوفاق على كون أحدهما ولد تيمر خان والثاني ولد إيچكلي حسن فليكن الأمر كذلك ونحن نختار ذلك بحسب غلبة الظن القوي لا على اليقين.

ولكن بقي الكلام في أن أياً منهما ألوغ محمد خان وأياً منهما كچك محمد خان فإن اعتمدنا على كثرة النقول وجلالة شأن القائل من غير تحقيق كما هو شأن المقلد الجامد الراضي على نفسه بالوقوف في حضيض الانحطاط استعظاماً ما لمخالفة غيره مع ظهور الحق في طرف الخلاف لا نتوقف في كون محمد خان بن إيچكلي حسن هو ألوغ محمد خان فإنه وقع في مواضع كثيرة من السبع السيار وكلبن خانان جعل ألوغ محمد خان جد خوانين قرم مع ما مر عنهما من جعل جد خوانين قرم محمد خان بن إيچكلي حسن^(٢) وكذلك وقع التصريح من الحاج عبد الغفار أفندي بأن ألوغ محمد بن إيچكلي حسن هو المشهور في التواريخ بألوغ محمد خان. ولكن لدى التحقيق يظهر خلافه أعني كون ألوغ محمد خان ابناً لتيمر خان وكچك محمد خان ابناً لإيچكلي حسن لأنه يلزم على قولهم كذب الحكمين معاً أعني كون جد خوانين

= الميم لا شك في كونه ميم محمد فإن كچيم لفظ مهمل لا معنى له والصواب كچي فظن الروس أن الميم الأول ملحق بأخيه وزادوا عليه علامة السكون. منه عفي عنه.

(١) والأظهر أن هذا الوهم منشؤه كون واحد من أولاد توقتاميش خان مسمى بكوچك فوهوا كچك محمد خان هذا الولد المسمى بكوچك لكونه أخاً لقادر بردى الذي قتل في تلك المعركة كما قدمناه وهذا احتمال قريب مناسب جداً والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٢) فيلزم على هذا كون ألوغ محمد خان ابناً لإيچكلي حسن. منه عفي عنه.

قرم ألوغ محمد خان وكون جدهم محمد خان بن إيچكلي حسن لأننا نعلم بالضرورة أن ألوغ محمد خان هو الذي انتقل من سراي إلى قزان وأسس هناك دولة مستقلة وبقي أعقابه هناك إلى مدة مديدة كما سيجيء تفصيله بعد إن شاء الله . ونعلم أيضًا باليقين أن خوانين قرم لم ينتقلوا إلى قرم من قزان بل انتقلوا إليها من سراي فبطل حكمهم بأن ألوغ محمد خان جد خوانين قرم ثم إن جعلنا ألوغ محمد خان ابناً لإيچكلي حسن بطل بالضرورة جعلهم جد خوانين قرم محمد خان ابناً لإيچكلي حسن فبطل قولاهم كلاهما وأما إذا جعلنا ألوغ محمد خان ابناً لتيمر خان لا يبطل إلا أحد قوليهما أعني جعلهم جد خوانين قرم ألوغ محمد خان ويبقى قولهم الثاني أعني جعلهم جد خوانين قرم ابناً لإيچكلي حسن صحيحاً سالمًا لأنه على هذا التقدير يكون جدهم محمد خان الصغير ابن إيچكلي حسن فلا محذور وهذا أولى من إبطال قوليهما جميعاً مع أن له شواهد من غيرهم وهو ما ذكره منجم باشا من أن محمد سلطان ابن تيمر خان غزا بلاد الروس وأخذ منهم ولاديمير إلخ . فإن الذي غزا بلاد الروس وأخذ منهم ولاديمير هو ألوغ محمد خان بعد تأسيسه دولة قزان كما سيجيء في محله إن شاء الله . مع أنه جعله ابن تيمر خان وكذلك ذكره الجنابي وإن لم يذكروا كونه ابن تيمر خان ولكنه يلزم ذلك على قوله بناء على بيان منجم باشا إلا أن منجم باشا قد زل قلمه في جعله جد خوانين قرم محمد سلطان ابن تيمر خان ولكن هذا لا يصادم ما حققناه فإنه استظهار منه فقط لا أنه نقل ذلك عن المؤرخين فإنه قال^(١) عند شروعه في بيان خوانين قرم: اختلف المؤرخون في جد خوانين قرم بعد اتفاقهم على كونهم من ذرية چنكزخان أنه من أولاد توقتاميش خان أو من أولاد تيمر خان بن تيمر قتلخ إلخ . وعندني أنهم من ذرية محمد سلطان ابن تيمر خان الخ . وهذا وهم منه نشأ من شهرة محمد خان بن تيمر خان بالشجاعة والشهامة وشهرة خوانين قرم أيضًا أزيد من غيرهم عند العثمانيين فوهم أن هذا البطل الشهم القرم هو جد خوانين قرم والحق في

(١) وقد ذكر منجم باشي ذلك في مواضع من تاريخه وهاك تعريب ما نصه في موضع منه حرفياً، قال: إن المستفاد من كلام الغفاري أن أول من اتخذ قرم دار الملك محمد سلطان بن تيمر سلطان بن تيمر قتلخ الخ . تسلطن في سنة ٨٣٠ بعد قتله براق خان وعمر بفتح سراي وأقام بها وغزا بلاد الروس مرارًا واستصفي ممالكه واشتهرت صيته وقر في مقامه إلى أن مات فالظاهر أنه جد خوانين قرم وأبو حاجي گراي خان . وقد ذكر في بعض التواريخ أن حاجي گراي بن كچك محمد خان بن توقتاميش والغلط فيه إنما هو في نسبه إلى توقتاميش اهـ . قلت الغلط في نسبه إلى توقتاميش وإلى تيمر خان بل هو ابن إيچكلي حسن ابن أخي توقتاميش فزال الاختلاف واتفق النقول والله الحمد . منه عفي عنه .

ذلك ما ذكره الجنابي حيث قال بعد أن ذكر ما مر عنه نقلًا عن الحافظ التاشكندي وكوچك محمد: هذا أبو الخوانين بأرض القرم ولكن أهل الدشت لم يقولوا بذلك بل يقولون ملك بعد توقتاميش الكبير توقتاميش الصغير ثم ملك ألوغ محمد خان ثم كچك محمد خان وهو الذي عينه التاشكندي خانًا في وقعة ايدكو اهـ. ونفيه بقوله: لم يقولوا بذلك متوجه إلى الترتيب الذي ذكره سابقًا مخالفًا للترتيب الذي ذكره هنا نقلًا عنهم كما يدل عليه الإضراب لا إلى جعل كچك محمد خان أبا خوانين قرم فيكون ذلك متفقًا عليه عند الكل فهذا أيضًا بطل قول صاحب السبع السيار ومن تبعه من جعل جد خوانين قرم ألوغ محمد خان فتنبه ولكن قوله، أعني قول الجنابي، بعد ذلك: وكان محمد هذا أيدًا شجاعًا غزا بلاد الروس وغنم وأخذ منهم ولاديمير من بلاد مسقوف اهـ. مشيرًا بهذا إلى كچك محمد وهم منه أيضًا منشؤه منشؤهم منجم باشا لما ذكرنا من أن صاحب تلك الأمور هو ألوغ محمد وأما كچك محمد خان فلم ينقل عنه شيء من أمثالها ولم يقع له ذكر في التواريخ بالتخصيص سوى ما مر من ذكره في وقعة ايدكو ورسالته لملك مصر^(١) ولكن بسبب الاشتراك في الاسم والزمان وعدم انضباط أحوالهم في عصرهم وكون المؤرخين الذين ذكروا نبذًا يسيرًا من أحوالهم من الأجانب ومن الممالك البعيدة والناقلين عنهم من المتأخرين وبسبب الأوهام الناشئة عن السبب المذكور خلطوا وقائع أحدهما بوقائع الآخر ولم يميزوا أحوال هذا عن أحوال ذاك ونسبوا ما لأحدهما إلى الآخر فصارت بحيث يعسر تمييزها إلا لحديد البصر الذي له يد طولى في التواريخ والبحث والتنقيب بعد أن كان صاحب استعداد عال في حد ذاته وإلا فكافة الحوادث المذكورة في التواريخ أو أكثرها لألوغ محمد خان وأما كچك محمد فالظاهر أن مدة ساطنته لم تطل أو أن حكمه كان من حصرا على إقليم قرم فقط ولم يتملك سراي وما والاها قط أو تملكها مدة يسيرة ولم يصدر عنه ما يذكر وسلم إلى هذا بعد ذلك.

ومما يؤيد ذلك ما ذكره الحاج عبد الغفار بعد ذكره ما مر عنه من وقعة قادر بردى وايدكو نقله عنه مع شبهتنا في صحته خصوصًا في صحة أول القصة والعهدة في ذلك عليه وهو على تقدير صحته من الوقائع المشتركة بينهما. قال: وكان منصور وغازي ونوروز أبناء ايدكو وغيث الدين بن شاد بك خان في بلاد الروس (يعني حين

(١) وقد تقدم أن أول تلك الملك الأشرف برسباي الذي كاتبه في سنة ٨٢٥ وبقي إلى سنة ٨٤١ فيكون تلك المكاتبه في سنة من تلك المدة. منه عفي عنه.

حادثة ايدكو وقتله) فحشدوا الجنود وتوجهوا لمحاربة محمد خان (يعني ابن إيچكلي حسن المنسوب خانًا في وقعة ايدكو) فأرسل الخان المذكور الأمير تكنه بك لمقابلتهم فخانه لكونه ختن ايدكو فضبطوا سراي وسلطنوا على أنفسهم غياث الدين بن شاد بك خان فهرب محمد خان إلى جهة قرم مع عساكره ولما توفي غياث الدين خان بعد ستين ونصف من خانيته لم يوجد من يصلح للخانية سوى كچك محمد خان ابن تيمر خان المار ذكره فنصبوه خانًا مع كونه صغيرًا ثم استصغره الميرزا منصور فعزله بعد أيام ونصب مكانه براق خان بن قويرچق خان رعمًا على من نصحه ونهاه عنه وبعد أيام قلائل قتل براق خان منصورًا المذكور فذهب غازي ونوروز إلى كچك محمد خان وسلطنوه ثانيًا وحيث كان براق خان ظالمًا غشومًا لم يبق عنده أحد بل ذهب كلهم إلى كچك محمد خان ثم هجموا على براق خان فطووا صحيفة عمره (قلت وسيجيء ذكر براق خان ووقائعه وقتله فانتظر).

ثم قال وفي تلك الأثناء سمع ألوغ محمد خان هذا الاختلال فقام من قرم وجاء حاجي طرخان وأنشأ قلعة في مصب نهر إيدل من بحر القمق (يعني الخزر) وكذلك أنشأ كچك محمد خان قلعة على ساحل شعبة من شعب إيدل وتحاربا في صميم الشتاء مدة ثلاثة أشهر ثم تصالحا بعد ذلك على أن يكون سراي وحاجي طرخان لكچك محمد خان وقرم وما والاها لألوغ محمد خان ورجع كل منهما إلى مكانه اهـ.

قلت: القلب^(١) الواقع في هذه الحكاية على تقدير صحتها غير خاف مما تقدم وهو مبني على الغلط السابق فلا حاجة إلى التكرار والحاصل أن الذي جعله ألوغ محمد هو كچك محمد خان وبالعكس كما مر فتكون حكومة كچك محمد خان

(١) قلت: وأدل دليل على كون كلام الحاج عبد الغفار أفندي ومن تبعه غلطًا ووهما أنه عد قاسم خان وعبد الكريم خان وأحمد خان ومرتضى خان الخ، من أولاد كچك محمد خان ومعلوم بالبدئية أن هؤلاء من أبناء أعمام خوانين قرم وخوانين سراي تسلطنوا بها بعد خروج ألوغ محمد خان منها كما سيجيء وعد محمود وخليل وإلهام ومحمد أمين من أبناء ألوغ محمد خان وعدمهم من خوانين قزان وذكر خروج ألوغ محمد خان من سراي مطرودًا وتسلطنه بقزان مع أنه لم يذكر متى ملك سراي فتعين إذا أن الذي جعله كچك محمد هو ألوغ محمد وبالعكس ولا شبهة في ذلك وبالجملة فقد بان رأس الخيط وكاد التاريخ ينتظم حيث علم مبدأ خانية المحمدين المذكورين ومواضع سلطنتهما لذي العينين بسبب البحث والتتقيب والتنقيب. منه عني عنه.

منحصرة على مملكة قرم ويكون مبدأ انفصال مملكة قرم من ممالك دولة سراي وسلطنة آلتون أوردو من ذلك التاريخ وتكون مراسلة كچك محمد خان بملوك مصر على ما مر بناء على قرب مملكته من مصر ويطابق هذا على قول منجم باشا من أن أول من اتخذ قرم وبغچه سراي دار الملك هو محمد خان وإن أخطأ كالحاج عبد الغفار أفندي في جعله ألوغ محمد خان بن تيمر خان بناء على استظهاره السابق ذكره لا على النقل ويكون المراد بمحمد خان وغيث الدين الواقعيين في كلام الفاضل المرجاني مبهمين عند مبدأ شروعه في بيان خوانين قرم هما هذين المذكورين في هذه القصة أعني كچك محمد خان وغيث الدين بن شاد بكخان.

والحاصل أن ألوغ محمد خان بن تيمر خان تسلطن في أثناء الاختلال المذكور إما قبل تملك كچك محمد خان أو بعده أو كان تسلطنهما في وقت واحد وأقام مدة مديدة بسراي وأعاد مياه السياسة إلى مجاريها الطبيعية وكاد يعيد سلطنة باتو إلى حالتها الأصلية لولا تعاكس الطالع المشؤوم ولكن أنى يحصل الأمان من يد الزمان فقد وقعت في أوائل سلطنته وآخرها فتن ومحن بسبب الشقاق والنفاق وفقد الاتحاد والوفاق لأمر أرواده الله سبحانه وتعالى حتى انجرت أحواله أخيراً إلى انفصاله من سلطنة سراي وتأسيسه دولة مستقلة بقران كما سيجيء تفصيله وأما في أوائل سلطنته فقد نازعه في الملك كچك محمد خان كما ذكرت نبذة منه وستذكر البقية منه إن شاء الله تعالى.

[براق خان بن قويرچق خان]

وكذلك نازعه فيه براق خان بن قويرچق خان بن أرسخان وبين أحواله^(١) على الإجمال أنه قد مر نقلاً عن منجم باشا أنه قام في عهد جلال الدين خان بن توقتاميش خان أعني في حدود سنة ٨١٥ هـ وطلب الملك ولكن لم يتمش حاله ولم يتقدم أمره ولم ينعم باله فسار أخيراً إلى ما وراء النهر واستنجد ميرزا ألغ بك إذ كان والياً بسمرقند من طرف أبيه السلطان شاهرخ فأنجده فاستولى بسببه على بعض النواحي الشرقية من ممالك دولة سراي أعني حصة آق أوردو التي هي حصة آبائه أرسخان ومن فوقه واشتغل هناك بإجراء الحكومة برهة من الزمان قال منجم باشا وبراق الخان المذكور: قد التجأ إلى الميرزا ألغ بك وقال: السلطنة بمعونته ومع ذلك حصل منه أضرار كثير بممالك الميرزا ألغ بك اهـ.

(١) أعني أحوال براق خان. منه عفي عنه.

قلت: كانت تلك المعونة منه للإفساد لا لإصلاح ولهذا عادت عليه لا له كما قيل كما تدين تدان والجزاء من جنس العمل على من يزرع الشوك لم يحصد به عنبًا ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٣]. وتفصيل ما أجمله منجم باشا ما ذكر في روضة الصفا قال فيها في سياق حوادث سنة ٨٢١: وفي سلخ ربيع الأول قدم براق خان وذلك قبل جلوسه على سرير الخلافة خارجًا عن ممالكة بسبب حصول انقلاب الأحوال فيها (يعني مذ فتنه تيمرلنك) وعدم طاقته على مشاهدة أمور مخالفة لعادات أسلافه والتجأ إلى الميرزا ألغ بك فصار ملحوظًا بأنواع الأنعام ومحفوظًا بصنوف الإحسان ثم رتب الميرزا ألغ بك أسباب سلطنته وأرسله إلى مملكته اهـ. يعني لإثارة الفتن هناك لما قرع سمعه خبر تسكين الفتنة فيها في الجملة باستقرار محمد خان على كرسي السلطنة فقامت الفتن فيها برجوعه على قدم وساق وعادت كما في السابق وامتدت إلى مدة مديدة إلى أن قتل براق خان. وذلك معنى قول البدر العيني حيث قال: وفي سنة ٨٢٣ صاحب الدشت محمد خان ولكن بينه وبين براق خان وبركة خان^(١) فتن وحروب والأمور غير مضبوطة اهـ.

قلت: ولا أدري أي المحمدين هذا والظاهر أنه ألوغ محمد وكذلك فيما سيأتي بعد ذلك منه ومن غيره مطلقًا، ثم قال العيني وفي سنة ٨٢٦ صاحب بلاد الدشت وكرسیها سراي السلطان محمد خان من ذرية چنكزخان اهـ. قلت: وقد حصلت الغلبة لبراق خان بعد العام المذكور أما بما مر عن الحاج عبد الغفار أفندي من انضمام الميرزا منصور بن ايدكو إليه أو بأسباب أخرى فإنه قال في روضة الصفا ولما خرج الميرزا ألغ بك إلى جانب مغولستان في ذي الحجة من سنة ٨٢٧ وشتا بالشاهرخية قدم هناك الأمير يماق رسولاً إلى الميرزا ألغ بك من عند براق خان الذي جلس على سرير السلطنة قريبًا وقدم إليه هداياه التي معه من السناقر والخيول الجهاد الرهوان وغير ذلك من تحف الظرائف وظرائف التحف وبشره بجلوس براق خان على مسند آبائه وأجداده فسُرَّ به الميرزا ألغ بك واتخذة فألاً حسنًا لخيرة سفره ثم أذن الرسول المذكور بالانصراف بعد مضي أيام وخلع عليه خلعًا وأفاض عليه الإنعام والإحسان وأرسل معه يورس أوغلان الذي كان من خواص ممالكة وترك برلاس الذي كان من كبراء أمراءه رسولين من عنده إلى براق خان لتهنئته بالجلوس على تخت آبائه

(١) ولم أدر من بركة خان هذا ولا ينبغي أن يكون بركة بن يادكار فإنه ينبغي أن يكون متأخرًا عن هذا والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

وأرسل إليه معهما هدايا فاخرة وتحفًا نادرة وخلعًا مطررًا بالذهب وأثوابًا منسوجة بالذهب والتاج والكمز والسيف المحلي بالذهب والبند المذهب والخركاه والخيمة والباركاه والدنانير والطبول والبنود وركابخانة وفرش البيت والأواني وسائر أسباب السلطنة ولوازم الملك من أصناف الملازمين والخواص مثل الركابدار وباورچي ونقاره چي فتوجه الأمير يماق وترك برلاس ويورس أوغلان بهذه الأسباب إلى دشت الففجق اهـ. ومراده بالجلوس على مسند آبائه جلوسه بمكان أرص خان وأجداده وأولاده أعني مملكة آق أوردا وهي أطراف جبال خوارزم وتركستان لا جميع ألوس جوجي فإن القسم الأعظم منها كان بيد محمد خان أو كان ذلك مدة قليلة ثم استرد منه محمد خان كما يدل عليه الوقعات والنقول الآتية ولا سيما هجومه على بلاد الروسية والليتوانية وإنما فعل الميرزا ألغ بك هذا الفعل ليحصل لبراق خان قوة المخالفة والمنازعة مع محمد خان لثلا يحصل له الاستقلال ويزداد شوكرته فربما يحصل له منه ضرر ولكن أتاهم أمر الله من حيث لا يحتسبون وأرى الله فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون كما سيذكر.

قال البدر العيني في بيان حوادث سنة ٨٢٨: وأما بلاد الدشت التي كرسيتها سراي فإن فيها اختلافًا كثيرًا بسبب عدم كبير يرجع إليه الأمور فتغلب هناك جماعة من بيت الخانات وغيرهم وكل واحد منهم استولى على الناحية ولم يتفق الأمراء على أحد كما ينبغي ولكن محمد خان هو المترجح من بينهم اهـ.

ذكر مسير براق خان إلى جانب تركستان وسغناق ووقوع محاربة هناك بينه وبين معينه ومنجده الميرزا ألغ بك وخطأ الميرزا في ذلك وانهزامه أمام براق خان شر هزيمة وغلبة براق خان عليه غلبة بينة

قال في روضة الصفا: قد تقدم التجاء براق خان إلى الميرزا ألغ بك وغلته على أوردو محمد خان بإمداده واستيلائه على كرسي سلطته في سنة ٨٢٨ ولما انتظم حاله واطمأن خاطره واستراح باله وضع جميع ذلك الإحسان في طاق النسيان وقام في مقام الشكر بعده ووضع قدمه خارج حده وتقدم إلى حدود سغناق التي كانت في الأصل مملكة جده وأرسل شخصًا إلى الميرزا المذكور برسالة مضمونها أنني قد استرجعت تخت جدي أرص خان بيمن همتكم ووصلت الآن إلى هذه الديار لأتشرف برؤيتكم فالمأمول أن تكون العناية الشاهانية شاملة لحالي ومستوجبة لسرور بالي وحيث إن

قدومه إلى ولاية سغناق كان بلا استئذان واستيجازة يعني مع كون تلك الولاية في تصرف التيمورية منذ وقعة أرص خان مع اللنك في أوائل ولاية توقتاميش خان كما مر ومع ذلك كان قرع سمع الميرزا المذكور أن براق خان يقول: إن سغناق قد عمرها جدي أرص خان فأنا وارثها الآن شرعًا وعرفًا بالاستحقاق لم يسمع الرسول المذكور جوابًا شافيًا حسب مرامه وأيضًا بلغه أرسلان خواجه حاكم سغناق في تلك الأثناء شكايات كثيرة من براق خان وعساكره بأنه يعد نفسه مستقلًا ويصدر من عساكره إيذاء العباد وتخريب البلاد والإضرار والإفساد فعزم الميرزا ألغ بك على المسير إلى جهة سغناق وأمر بإحضار العساكر وأرسل إلى والده السلطان شاهرخ بهراة يخبره بذلك فلم يرض السلطان شاهرخ بفتح باب الحرب لكونه سببًا لسلب راحة بني آدم وموجبًا لخراب العالم ومع ذلك أرسل ابنه الميرزا محمد جوكي بعساكر كثيرة احتياطيًا ولما وصل الميرزا محمد إلى سمرقند وجد أخاه الميرزا ألغ بك قد توجه إلى سغناق فسار من خلفه مسرعًا ولحق به واتحدت عساكر خراسان بعساكر ما وراء النهر ولم يتخيل أحد أن براق خان يتجاسر على مقابلة الميرزا ألغ بك ومقاتلته (يعني من غاية غرورهم بما حصل لهم من الغلبة على كافة عساكر بلاد الدشت مرارًا أيام تيمرنك فضلًا عن هذه الشردمة القليلة مع براق خان ولم يدروا أن تلك الغلبات إنما كانت بمكائد تيمر وخدائعه واستدراجًا له) فسار الميرزا ألغ بك نحوه مسرعًا من غير مبالاة مستحقرًا إياه فاستعد براق خان للقتال والاستقبال بأبطال الدشت بكمال الثبات وقوة الجأش والبسالة وقد كان في ميدان القتال تلول فلم يظهر إليهم عساكر براق خان بالتمام لاختفائهم وراءها فأمر براق خان عساكره أن يهجموا عليهم دفعة واحدة ويحملوا حملة رجل واحد بلا مهلة لما تبين أن الأمر لمن بادر فاشتعلت نيران الحرب في الحال وعلت لهيبها وظهert الأهوال وطار شررها وانتشر وصار الأمر أنموذجًا من هول يوم المحشر. وحيث كانت عساكر الميرزا مغرورين بكثرتهم ومستغرقين في كبرهم ونخوتهم ولم يعدوا المخالفين شيئًا لقلتهم ولم يطلعوا على كميتهم وكيفيتهم وقد تهافت عساكر براق خان عليهم بجمعيتهم وكليتهم انكسرت ميمنة عسكر الميرزا في أسرع وقت فقصد عسكر براق خان القلب قلبوه أيضًا ظهرًا لبطن وحكموا عليه بالرد فظهر في وجنات عسكر الميرزا علامات الانكسار وآثار العجز والانهازم والذل والصغار. ولما عين أسراء الميرزا هذه الحالة التي كانوا وقوعها يستبعدون وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وتيقنوا أن الأمر قد خرج من قبضة الاختيار وآيسوا من انتظام حالهم بعد أن ولوا الأدبار واستيقنوا أن لا ينفعهم شيء سوى الفرار بركوب

متون العار والشنار فأخرجوا الميرزا ألغ بك آخذين بعنانه من المعركة وانعزلوا من ميدان الحرب إلى ناحية بأسرع حركة وخلصوا أرواحهم بذلك من مخالبا أبطال دشت بركة وكان بهلوان محمود المازندراني الذي هو من مشاهير الشجعان ومن ملازمي السلطان شاهرخ خان حاضرًا في تلك المعركة مع الميرزا محمد جوكي وقد أبرز من فنون الشجاعة وضرب الجلادة ما لا مزيد عليه ولما شاهد صعوبة الحال وشدة الأهوال وتيقن عدم تيسر الآمال أخرج الميرزا محمد جوكي بجهد جهيد من تلك المعركة وخلصه بغيرته من تلك الورطة المهلكة ثم توجه الميرزا والأمراء كلهم مع الهاريين بتمام العجلة منهزمين إلى سمرقندهم فنجى بنفسه من لم يبلغه أجله وتركت تلك العساكر التي كان شعارهم الظفر والنصر جميع ما معهم من الآلات والأموال والذخائر وصارت تلك الأموال نصيب المستضعفين من عساكر براق خان فحازوا بذلك أسنى المفازر وبلغ فرع أهل ما وراء النهر منهم مبلغًا أراد بعضهم أن يغلق أبواب البلد وأن يستعدوا متحصنين بالقلع لمدافة الخصم الألد ولكن منعهم من ذلك الفعل الموجب للعار أشرف البلد وسائر الكبار قال^(١): فمد عساكر براق خان يد الظلم والتعدي إلى أطراف ولاية ما وراء النهر والتركستان وشرعوا في تخريب البلاد وتغريب العباد من تلك البلدان ولم يهملوا دقيقة في النهب والغارة والأسر حسب الإمكان.

يقول راقم الحروف: ومن العجب أن تيمرلنك وأولاده خربوا جميع الدنيا وفعلوا ما لم يفعله چنكز وهلاكو ومع ذلك لا ينسب إليهم شيء من الظلم والتعدي والقبح وكأنهم كانوا يفعلونه من أنواع القبائح بالإلهام والأمر من طرف الحق سبحانه كما هو اعتقاد أكثر أهل ما وراء النهر ومن تبعهم من الجهلة إلى الآن حاشا لله من هذا الاعتقاد السوء وأما من سواهم فمتى صدر منه حبة مما لا يلائم طبعهم يستعظمونها غاية الاستعظام حتى يجعلونها قبة وينسبون إليه أعظم الأمور ويذكرونه بالقبائح والشرور وهذا ليس من دأب المنصفين وماذا يكون ما فعله براق خان في ما وراء النهر في جنب ما فعله تيمرلنك ببلاد الدشت وليت له حكم الحجاب بالنسبة إلى البحر والذي ينبغي لمن يتصدى لبيان الوقائع أن لا ينحرف عن الجادة المستقيمة وأن يبين ما هو الواقع له أو عليه من غير إيراد المقدمات العقيمة والأقوال السقيمة ومن

(١) يعني صاحب روضة الصفا وفيه أشعار إلى أن فيما قبله أدنى تغيير في التعبير لا في إفادة أصل المرام فإنه لا يجوز من غير تصريح بالعزو إلى أحد. منه عفي عنه.

البين أن الخطأ في هذه الواقعة كان في طرف الميرزا ألغ بك لما مر من أن براق خان لم يكن طالبًا للحروب وسيجيء ذلك صريحًا وكانت هذه الواقعة في شهور سنة ٨٢٩^(١). عود قال لما قرع هذا الخبر سمع السلطان شاهرخ بهراة أمر بإحضار العساكر وتهيئة أسباب السفر وتوجه إلى ما وراء النهر فورًا لرتق ما فتقه الميرزا ألغ بك ولما وصل إلى سمرقند واستراح من تعب السفر شرع في تنظيم أمور ممالك ما وراء النهر وبدأ أولاً بالتفحص عن أحوال محاربة براق خان والبحث عن كيفية بدائه بالمقاتلة باستقصاء الأثر وتدقيق الخبر واستفسر عن كيفية رسالة براق خان وحقيقة كلماته في المراسلة فبلغ غور تلك القضية حتى ظهرت فيها الجلية فأثبت القصور لطائفة من أمراء ما وراء النهر وأحضرهم في الديوان وأمرهم بالضرب عقوبة لجريمتهم في ذلك الأمر وعاتب الميرزا ألغ بك ووبخه توبيخًا شنيعًا حتى لم يبق له اختيار في الأمور واعتبار عند الصدور ودام ذلك أيامًا ثم تحرك بعد مدة أزمان عرق شفقة أبوته في حقه فرفعه من حضيض المذلة إلى أوج العزة وفوض إليه زمام الأمور كما في السابق.

وأما براق خان فإنه لما اطلع على قدوم السلطان بعساكر خراسان وسغدان وتيقن عدم مقاومته على تلك العساكر انثنى راجعًا إلى مملكته بما حازه من الغنائم والحظ الوافر اهـ.

قلت: وكان ذلك في سنة ٨٣٠ وعود براق خان ليس هو من خوف مجيء السلطان فقط بل لأنه لم يكن من قصده المحاربة وإنما باشرها ضرورة دفع هجوم الميرزا ألغ وإلا فكيف يتصور العاقل قصده بلاد ما وراء النهر مع أن قدمه لم يترسخ في الملك ولم يطمئن خاطره من داخلية مملكته ولا يبعد أن يكون توجهه هناك خوفًا من هجوم رقيبته محمد خان أو فرازا منه وهو الأقرب ويؤيده ما سيذكر بعد والله سبحانه أعلم.

قال العلامة العيني: في سنة ٨٣٠ صاحب قرم وغيرها محمد خان من ذرية چنكزخان وبلاد الدشت مضطربة فإن فيها اختلافًا كثيرًا بين أكابر الأمراء وقال وفي هذا (الشهر يعني الجمادى الأولى من سنة ٨٣٠) جاء الكتاب من المتغلب على قرم

(١) قلت: ذكر في رحلة بعض السواحين أنه مكتوب على حجر فوق جبل ساحل نهيرة بيلان أوتى أنه حصلت الغلبة هنا لميرزا ألغ بك على المغول والتار في سنة ٨٢٨ ولا أدري هل هي هذه الواقعة أو غيره. منه عفي عنه.

واسمه دولت بردى مشتمل على عبارات رائقة متضمن لأبيات وأشعار وأمثال مشحون بأنواع المعاني والبيان والبديع فقريء على السلطان والعبد الضعيف حاضر هناك في المجلس ولا يعرف واحد لا من القارىء ولا من غيره ما فيه من الصناعات وذكر حامل الكتاب أن في بلاد الدشت خباطًا عظيمًا وأن ثلاثة من الملوك يتنازعون في المملكة أحدهم يسمى دولت بيردى غلب على قرم وما والاها والثاني محمد خان غلب على سراي وما والاها والثالث يسمى براق خان ملك البلاد التي تتاخم بلاد تيمرنك اهـ.

قلت: وقد أرسل جواب كتاب دولت بردى خان المذكور ذكره في كوكب الملك وموكب الترك^(١) وهاك نصه: قال: وكانت الكتب التي تصدر من سلطاننا (يعني من سلطان مصر) إليهم (يعني إلى ملوك التتار الشمالية) إلى أيام السلطان الأشرف برسباي سقى الله عهده في عرض البغدادي والطرة خمسة أوصال وعنوانه وبسملته وخطبته وغالبه مكتوب بالذهب بألفات طوال بقلم الثلث الثقيل طوله إلى ثلثي ذراع وطمغات كالختم يطبع بها على الأوصال من ليقة الذهب كتب بذلك في أيام الأشرف برسباي^(٢) سقى الله عهده للقان دولت بردى الذي أخذ عن القان محمد ومحمد أخذ عن ايدكي وايدكي أخذ عن توقتاميش خان وتوقتاميش أخذ عن ماماي وكان أميرًا نظامًا فقريء وصار قانًا بالشوكة اهـ بحروفه.

قلت: ولم أر ذكر دولت بردى هذا في واحد من التواريخ وقد عد الفاضل المرجاني دولت بردى خان من خوانين حاجي طرخان ولكن التاريخ الذي ذكره فيه يأبى أن يكون هو هذا إلا إذا كان التاريخ الذي ذكره غلطًا وهو الظن الغالب ثم رأيت الحاج عبد الغفار أفندي جعله أعني دولت بردى والد حاجي كراي خان القرمي وابن تاشتيمر وجعل غياث الدين الذي جعله غيره والد حاجي كراي أخًا لدولت بردى ولكنه أسقط محمد خان بعد تاشتيمر وجعل تاشتيمر ولد إيچكلي حسن كما أسقط صاحب السبع السيار كليهما أعني محمد خان ووالده إيچكلي حسن مع أنهما قائلان بكون خوانين قرم من أولاد محمد خان ولا نشك في أن ذلك السقوط من قلم الناسخين فحصل الاتفاق بين أبي الغازي وبين صاحب السبع السيار والحاج عبد الغفار

(١) كوكب الملك وموكب الترك: ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١٥٢٣/٢. ولم يذكر اسم مؤلفه.

(٢) وقد تقدم في موضعين أن مبدأ تسلطه سنة ٨٢٥ ووفاته متملكًا سنة ٨٤١. منه عفي عنه.

في نسب خوانين قرم إلا في أمر جزئي وهو عد أبي الغازي وصاحب السبع السيار غياث الدين من أجداد خوانين قرم وإخراج الحاج عبد الغفار أفندي إياه من عمود نسبهم. وإذا نظرنا إلى تاريخ دولت بردى هذا وقول صاحب كوكب الملك أنه أخذ الخانية عن محمد خان يميل القلب إلى صحة ما ذكره الحاج عبد الغفار أفندي ويكون جريان الأمور وتقلبات الأحوال منتظمة مهما أمكن فيكون محمد خان ابن إيچكلي حسن أول من أسس السلطنة بقرم كما قال منجم باشا وإن أخطأ في جعله ألوغ محمد خان على ما مر ويكون ابنه دولت بردى هذا ثاني خوانين قرم وقد ذكر في السبع السيار تربية دولت كلدى صوفي لحاجي كراي خان في قصة هي أشبه شيء بخرافات الأقدمين وأساطير الأولين ياباها العقل السليم والصواب هو دولت بردى أبوه لا دولت كلدى والله سبحانه أعلم. وأما عد المؤرخين حاجي كراي خان أول خوانين قرم فلعله خالص بعد دولت بردى خان ضم ولاية قرم إلى مملكة سراي ثم حصل الاستقلال لحاجي كراي خان بعد تقلبات الأحوال يدل على ذلك ما قاله صاحب السبع السيار والحاج عبد الغفار أفندي أنه لما تسلطن السيد أحمد خان بسراي أراد إعدام حاجي كراي فهرب إلى قرم فصار ما صار إليه. ويمكن أن يكون دولت بردى هذا من أقرباء كچك محمد خان أو من خصمائه فنزع الخانية منه كما يدل عليه قول صاحب الكوكب أخذ عن القان محمد والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور.

وعلى كل حال لم ينقل عنه شيء من الأحوال والظاهر أنه لم تطل مدته يدل عليه ما ذكره العيني حيث قال: وفي سنة ٨٣٢ صاحب الدشت وقرم محمد خان وفيها قدم يوم الخميس السادس عشر من رجب رسل من عنده ومعهم هدية وكتابان أحدهما بالعربي والآخر بلسان إيغور ولم يعلم أحد مضمونه وما وجد من يعرف هذه الكتابة اهـ.

قلت: وهذه المراسلة هي آخر ما اطلعنا عليه في كتب التواريخ من المراسلات الواقعة بين ملوك التتار الشمالية السراية وبين ملوك مصر وقد عرفت تاريخ ابتدائها ولا أدري أن محمد خان هذا هل هو ألوغ محمد أو كچك محمد يحتمل أنه الثاني إذا قلنا إن دولت بردى أخذ الخانية عنه بالغلبة ثم استردها محمد خان ويكون في قوله والدشت بناء على العادة السابقة من غير تحقيق ويحتمل أنه الأول وهو الظاهر فإنه أعني ألوغ محمد غلب على خصمه براق خان وقتله في السنة المذكورة فيمكن أنه أرسل الرسل المذكورين إلى مصر إعلامًا بظفره بخصمه براق خان واستقلاله بالملك

والله أعلم فعلى هذا لا يكون كتاب السلطان برسباي^(١) السابق ذكره جوابًا لهذين الكتابين لأنه كان لمحمد خان بن إيچكلي حسن كما مر وأما على الأول أعني على أن يكون المرسل هو كچك محمد خان فيحتمل أنه جواب لهما والله أعلم.

ذكر مقتل براق خان

قال في روضة الصفا: وحين كان السلطان شاهرخ مقيمًا بصحراء سلماش بعد غلبته على التراكمة وكان ذلك في سلخ سنة ٨٣٢ قدمه هناك قاصد من ما وراء النهر من عند الميرزا ألوغ بك وأخبره بأنه وقع حرب صعب بين محمد خان وبين براق خان فغلب الأول على الثاني وقتله اهـ.

قلت: وفي تلك السنة حصل الاستقلال بسلطنة بلاد الدشت وسراي كلها لألوغ محمد خان ولم يبق له فيها منازع يعتد به والظاهر أن ولاية قرم أيضًا دخلت في حوزته فما قاله منجم باشا من أن محمد خان جلس على سرير السلطنة بعد قتله براق خان في سنة ٨٣٠ باتفاق جميع الأمراء لعله وهم منه أو سقط رقم اثنين من قلم النساخ وقد عرفت أن مبدأ تسلطه كان في حدود سنة ٨٢٢ كما مر ولم أطلع على شيء من أحوال براق خان سوى ما ذكر.

إلا أنه قال كارامزين في خلال بيان الاختلال الواقع في بلاد التتار بعد وقعة كريم بردى: ولم يزل ملوك التتار يقوم واحد بعد واحد بطلب الملك ويقتل بعضهم بعضًا أو يغير على بلادنا فيقتل وينهب ويأسر حتى أن واحدًا منهم أخذ في سنة ١٤١٥ مصادفة سنة ٨١٨ هـ. بلدة يليتسه من بلاد الروس وقتل عاملها وكذلك قام براق خان ابن قويرچق في سنة ١٤٢٢ مصادفة سنة ٨٢٦ هـ وقتل واحدًا منهم يسمى خدايداد وأغار على الروسية واستولى على بلدة أوديغه منها وأسر حاكمها وكثيرًا من أهلها وأقلق الروسية والليتوانية بتعديه وغاراته وخوفهما فدعا كيناز ليتوانيا كيناز الروسية الأعظم إلى الاتفاق لدفع شر المذكور وهجماته وأرسل عساكره إلى دفعه فورًا وقبل كيناز الروسية كلام كيناز اللتوانية في هذا الباب ولبي دعوته ولكن قبل لحوق عساكر الروسية بعساكر اللتوانية غلبت اللتوانية على المذكور وأسروا اثنين من زوجاته فلم يشتركهم الروسية في المحاربة فأرسل قائد اللتوانية إحدى المرأتين المذكورتين إلى كيناز الروسية بموسكوا والأخرى إلى كيناز اللتوانية اهـ.

(١) وقد تقدم قبل هذا في ثلاثة مواضع أنه كان تملك الملك الأشرف برسباي في سنة ٨١٥ ووفاته وهو ملك في سنة ٨٤١. منه عفي عنه.

فعلم من هذا أن تملكه لم يقتصر على حكومة آق أوردا بل تملك حكومة كوك أوردا وجوار سراي أيضًا ولو مدة يسيرة ويؤيده ما مر من المؤرخين الكبار من ذكر اشتراك عدة ملوك في تلك الديار والله سبحانه أعلم. وهذا آخر ما اطلعنا عليه من أحوال براق خان وقد بقيت له أعقاب ونالوا السلطنة في الدشت وجميع خوانين قزاق أعني أهالي دشت قفجق كلهم من ذريته وهم أعني ذريته كثيرون فيها إلى الآن ولكن ليس في أيديهم شيء بل أكثرهم كأحد الناس بل هم أفقر من كثير منهم وهم أشبه الناس بأشراف الحجاز في كثير من الأوصاف والعادات سبحانه من لا يزال ولا يزول ملكه.

ذكر هجوم ألوغ محمد خان على بلاد خوارزم

قال في روضة الصفا: ولما نزل السلطان شاهرخ بهراة راجعًا من سفر أذربيجان في سابع محرم من سنة ٨٣٤ أتاه آت من طرف خوارزم وأخبره بأن جيشًا كثيرًا من عساكر أوزبك قصدوا خوارزم ولما استشعر الأمير إبراهيم ابن الأمير ملكشاه والي خوارزم من نفسه عدم اقتداره على مقاومتهم ترك البلد وسار إلى كات وخيوق وأن خواجه أصيل الدين الوزير حصن البلد وتهيأ للمكافحة والمدافعة واستعد للمخالفة والممانعة ولكنه عجز أخيرًا عن المحافظة فسخرت جيوش أوزبك ممالك خوارزم وشنوا فيها الغارات وجمعوا من الغنائم ما لا يحصى ثم رجعوا إلى طرف الدشت اهـ.

قلت: وهذه الواقعة هي التي ذكرها منجم باشا حيث قال ما معربه: ولما جلس محمد خان المذكور على كرسي السلطنة بالاستقلال سار سيرة حسنة وعمر المملكة حتى عادت مستحسنة وحيث إن والده تيمرخان^(١) كان قتل بمملكة خوارزم سار إليها في سنة ٨٣٤ لأخذ الثأر وأورث فيها كثيرًا من المضار وغزا بلاد الروس وموسكوا وسخر منها بلادًا كثيرة وأخذ الخراج والجزية من البواقي واستقر في مقامه إلى أن مات اهـ.

ومثله في تاريخ الجنابي وعبارته: وكان محمد هذا (يعني كچك محمد خان الذي صار خانًا في وقعة قادر بردى وايدكو) أيدًا شجاعًا غزا بلاد الروس وغنم وأخذ

(١) ولا تنس ما تقدم أن والده تيمرخان قتله سراي بك الباريني والميرزا جهان باي أيام جلال الدين خان حين فراره مع نور الدين ولد الأمير إيدكو إلى خوارزم. منه غني عنه.

منهم ولاديمير بلدة من بلاد المسقوف اهـ إلا أنه أخطأ في جعله كچك محمد خان كما أن منجم باشا غلط في جعله جد خوانين قرم فإن صاحب هذه الأفاعيل والأوصاف هو ألوغ محمد جد خوانين قزان لا قرم كما مر مرارًا فانتبه .

قال كارامزين وفي سنة ١٤٣٠ مصادفة سنة ٨٣٤ هـ أو قبلها هجم الأمير حيدر من أمراء أوردو التتار على مملكة ليتوا فخرّب ونهب وغنم كثيرًا وأظهر الوداد لواحد من قواد ليتوا يقال له الغريغوري الغيور ابن پروتاص حاكم متسينكسكي وأسرّه بهذه الحيلة وكان الخان في أوردو وقتئذٍ محمد خان وكان أهل أوردو كلهم يطيعونه وينقادون إليه وكان يحكم بالعدالة فقبّح فعل الأمير حيدر هذا لخيانته وخذعته وأحسن إلى غريغوري وأطلقه وأعادته إلى مقره . وقال: وفي هذه السنة هجم فيودر بن داويد بأمر واسيلي بن واسيلي كيناز الروس على بلغار وولغا وأسر منهم كثيرًا اهـ^(١) .

قلت: قد مر هذا في المقصد الأول أثناء بيان أحوال بلغار فتذكر . وقال أيضًا: ولما مات الكيناز واسيلي الثاني بن ديميتري الدوني في سنة ١٤٢٥ نازع أخوه يوري بن ديميتري ابنه واسيلي الثالث الملقب بالمكفوف في الكينازية وجرت بينهما أمور وشورور وكان مقصد يوري أن يتحاكما إلى الخان في الخصوص المذكور وكان واسيلي يهرب من الحضور عند الخان إما لكثرة الفتن في أوردو وكثرة تبدل الخوانين واحدًا بعد واحد وقتل بعضهم بعضًا وإما لاستنكافه من إطاعة التتار بناء على صغره فتراضيا على أن يحكم يوري في الولايات التي كان أدخلها تحت تصرفه مدة ست سنوات وبعد أن مضت منها ثلاث أو أربع سنوات أراد عمه يوري أن يفتح باب الحرب معه إن لم يرض بالمحاكمة إلى الخان فرضي بذلك فتوجها في أواخر سنة ١٤٣١ م مصادفة سنة ٨٣٥ هـ أو التي قبلها إلى أوردو وكان لكل منها أحباب في أوردو ويتوسط له لدى الخان وكان واسطة الكيناز واسيلي الأمير بولاد البصقاق في موسكوا يعني العامل والسفير فيها من طرف الخان والميرزا حيدر وواسطة يوري المرزاتيكين والي قرم وبعد اللتيا والتي وجه الخان الكينازية إلى واسيلي وحكم بذلك وأعطاه المنشور وأجلسه أوغلان بن الخان على كرسي الكينازية في أكبر كنائس موسكوا لدى كافة كبار المأمورين ورؤساء الروحانيين فصار بعد ذلك يكتب في مناشير الخان بعنوان الكيناز الأعظم المسكوي وكان قبل ذلك يكتب بعنوان الكيناز الأعظم الولاديميري ففي تلك

(١) ولعل بلغار انفصل في ذلك الوقت عن حكومة سراي وإلا لما تجاسر أليكيناز واسيلي على الهجوم عليها ولما سكت محمد خان عنه مع كونه مطمئن البال في ذلك الوقت . منه عفي عنه .

الأثناء خرج على الخان محمد خان آخر من خوانين التتار يقال له كچيم أحمد فاغتم المرزاتيكين هذه الفرصة ومال إلى طرف كچيم أحمد خان وطلب منه بلدة ديمتروف لأجل يوري.

ذكر انفصال ألوغ محمد خان من خانية سراي وخروجه منها

قال كارامزين: كان الكيناز واسيلي الثالث المكفوف ابن واسيلي الثاني يعيش مع الخان على المحبة والوداد والوفاق والاتحاد وكان يؤديه الخراج بالتمام من غير تعليل ولا تأخير وكان محمد خان لا يؤدي الروسية أيضًا لأجل ذلك حتى قيل إنه خفف عنهم بعض التكاليف حتى أن بعض الطوائف من التتار وإن كانوا يغيرون على ولاية رزان إلا أنهم كانوا لا يتعدونها إلى ولاية موسكو إلا أن ظهور الاختلال في أوردو في تلك الأثناء أساء لواسيلي وسلب عنه راحته وأورثه الخوف والاضطراب وذلك أنه خرج على ألوغ محمد خان في سنة ١٤٣٧ م مصادفة سنة ٨٤١ هـ أخوه كچيم وطرده من سراي فالتجأ ألوغ محمد خان مع أهل بيته وأتباعه وخواصه إلى بلاد الروس اهـ. وبقية القصة تذكر إن شاء الله تعالى في ابتداء المقصد الثالث.

قال الفاضل المرجاني: إن ألوغ محمد خان طرده من سراي أخوه كچك محمد خان في سنة ٨٣٩ بمعونة يادكار خان ابن تيمر شيخ خان الشيباني وتسلطن مكانه بسراي وبقي إلى سنة ٨٧٧ ثم تسلطن بعده ابنه كچي أحمد خان وتزوج بيكاي بيكه أخت السلطان حسين ميرزا بن بايقرا التيموري وولد له منها تسعة أولاد وهجم على قلعة ألكسين من بلاد الروسية ولكن رجع عنها إذ سمع مجيء الروس بعسكر عظيم وهجوم دانيال بن قاسم الخانكرماني وأخيه مرتضى بن كچك محمد خان إلى دار الملك سراي اهـ.

قلت: إن هذا المقام يحتاج إلى التأمل وتعميق النظر فإن أحوال تلك البلاد في التاريخ المذكور قد انقطع ذكرها في تواريخ الإسلام فلم يبق شيء مما يصلح أن يكون مدارًا للنقل بعد هذا إلا تواريخ الروس^(١) وقد عرفت ما ذكره كارامزين في هذا الباب وليس فيه شيء مما ذكره هنا الفاضل الشهاب ولا أدري من أين أخذه وقد عرفت أيضًا ما ذكرناه في توجيه قول كارامزين كچيم أحمد فإن صح التوجيه المذكور

(١) فإن المثبت في هوامش الكتب أو بعض المجامع أو المسموع من العجائز كل ذلك لا يصلح أن يعتمد عليه ولا يورث شيئًا من العلم عند أولي الألباب. منه عفي عنه.

أعني كون المراد به كچي محمد وهو الاحتمال الغالب يصح قول الفاضل المرجاني هنا من أن الذي طرد ألوغ محمد من سراي هو كچي محمد وإن لم يصح جعله أخًا له على ما مر فيحمل على أنه أعني كچك محمد يكون خانًا في بعض النواحي أو يكون معزولاً عن الخانية برهة من الزمان ثم يحصل له الغلبة أخيرًا بتقلبات الأحوال. وأما مادة معونة يادكار خان بن تيمر شيخ خان الشيباني لكچك محمد خان فلم أره في موضع من المواضع مع أن أبا الغازي ذكر عدة من وقائع بركة ابن يادكار في حياة أبيه وليس فيها ذكر تلك المعونة وأما قوله ببقاء كچك محمد خان إلى سنة ٨٧٧ فما أشبهه بقول بعض الأعاجم أن في بلادنا نوعًا من الدباء طوله مسافة كذا والحاصل أنه فرية بلا مرية لما ستعرف من أن السيد أحمد الذي جعله حفيدًا له كان ابتداءً سلطنة في حدود سنة ٨٥٠^(١) فكيف يتصور بقاءه في السلطنة إلى التاريخ الذي ذكره مع أنه ذكر بينهما سلطنة كچي أحمد خان وهذا أعني كچي أحمد خان لم أر ذكره في شيء من التواريخ سوى ما نقلناه عن كارامزين من قوله كچيم أو كچيم أحمد كما مر وقال: أعني كارامزين أيضًا بدأ بذكر أحوال ألوغ محمد خان بعد استقراره بقران وأما كچيم الذي صار خانًا بالأوردو الكبير أو الأوردو الذهب أخو محمد خان فإنه كان دائمًا في الخوف لوجود الاختلال فيها وكثرة أعدائه الداخلي وهجوم بعضهم على بعض على الدوام وأنه قتل بيده أعظم خوانين أوردو منصوب اه ولعله منصور بن ايدكو فيطابق قولو عبد الغفار أفندي السابق من وجه ذكره عند ذكر السيد أحمد الآتي ذكره بعنوان كچيم أحمد.

والظاهر أن الفاضل المرجاني وهم من هذا أنه أعني كچي أحمد بن كچك محمد وأنه تسلطن بعده ولكن لو كان المراد بقول كارامزين كچي أحمد خان يلزم أن يكون هو الذي طرد ألوغ محمد خان من سراي وأما مادة تزوجه بأخت السلطان حسين بن بايقرا فسندكرها عن قريب إن شاء الله، وأما مادة هجومه إلى ألكسين ففرية بلا مرية لأن هذا الهجوم هو للسيد أحمد خان كما سيذكر في ترجمته إن شاء الله تعالى.

(١) أعني على قول الفاضل المرجاني أيضًا حيث قال عند بيان خوانين خان كرمان أن عسكر السيد أحمد خان السرائي لما أغاروا على بلاد الروسية في سنة ٨٥٣ طردهم قاسم خان مع عسكره واسترد منهم ما غنموه في ساحل نهر بوخر اه وسيجيء ذكر هذه الواقعة ولعمري إن من تبع قول الفاضل المشار إليه من غير تحقيق يقع في خبط كثير. منه عفي عنه.

والحاصل أن الفاضل المرجاني قد خلط الأمر ولبس وبالجملة أن تحرير وقائع تلك البلاد من بعد وقعة قادر بردى إلى سلطنة السيد أحمد أعني وقائع ٢٨ سنة كما هو حقها أصعب من خراط القتاد لعدم مأخذ منتظم يرجع إليه ولكثرة التبدلات والانقلابات فيها كما مر نقلاً عن كارامزين إجمالاً ولا حاجة إلى صرف الفكر فيما لا يمكن منه تحصيل النتيجة^(١) والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور.

وقد قال الحاج عبد الغفار أفندي: إن الذي طرد ألوغ محمد خان من سراي هو السيد أحمد خان بن جلال الدين خان بمعونة حيدر بك القونكراتي لأنه يعني حيدر بك صار عاصياً لألوغ محمد خان حين محاربتة كچك محمد خان وانفصل عنه بثلاثين ألفاً من العسكر وسلطن السيد أحمد خان بن جلال الدين خان وطرده ألوغ محمد خان من سراي فذهب هو إلى طرف قران وتسلطن هناك اهـ.

وقال في موضع آخر: إن ألوغ محمد خان صار خائناً بقزان وجلس السيد أحمد بن جلال الدين على التخت بسراي وأراد أن يقتل حاجي كراي وجهان كراي فهربا إلى جهة قرم اهـ.

قلت: قد تقدم ذكر حيدر بك هذا نقلاً عن كارامزين وأن محمد خان قد أنكره على ما فعله بغريغوري وقبح فعله هذا فلا يبعد أن يحقد حيدر بك على محمد خان لأجل معاملته هذا ويعرض عنه وينضم إلى أعدائه ويحتمل أن يكون ما ذكره الفاضل المرجاني من أن يادكار خان أعان لكچك محمد خان في طرده ألوغ محمد خان من سراي سبق قلم ويكون مراده هو حيدر بك هذا ولا يبعد أن يكون السيد أحمد بن جلال الدين مع محمد خان في تلك الوقعة ثم يقع بينهما منافسات ومحاربات كما ذكر كارامزين وقد ذكر الحاج عبد الغفار أفندي عند بيان وقعة قادر بردى وايدكو أن حيدر بك القونكراتي وتكنه بك خرجاً من المعركة سالمين مع عدة من الأمراء وسلطنوا على أنفسهم محمد خان بن إيچكلي حسن ثم ذكر انخزال تكنه بك عن محمد خان الصغير عند هجوم الميرزا منصور وغازي ونوروز وغيث الدين عليه كما

(١) وظني الغالب بل يقيني أن لا وجود لكچي أحمد بل هو غلط نشأ من انحراف كچي محمد إلى كچيم أحمد لعدم الفرق بينهما في تلفظ الروس أصلاً والفرق بينهما في كتابة الروس سكون الميم الأولى ومد الألف في كچيم أحمد وفتح الميم في كچي محمد فإنهم يحرفونه إلى كچي ما حمد ويسكنون الحاء ولم يقع في تاريخ كارامزين بعبارة كچي أحمد قط بل بعبارة كچيم أحمد أو كچيم فقط فقول الفاضل المرجاني كچي أحمد تحريف آخر. منه عفي عنه.

مر نقلًا عنه وذكر قتل حيدر بك في تلك الوقعة ولا شك أنه سبق قلم بل الصواب أنه انهزم في تلك الوقعة وكأنه صار بعد ذلك من أحزاب ألوغ محمد كما صار صاحبه تكنه بك كذلك ثم إنهما أعرضا عنه ثانيًا فإن تكنه بك صار بعد ذلك من أحزاب خوانين قرم وقد اشتهر أعقابه في قرم بمرازي تكنه وهو المراد بقول كارامزين السابق مرزاتيكيين.

قال العيني وفي سنة ٨٤٧ صاحب الدشت وقرم محمد خان اهـ. وهذا يحتمل أن يكون مراده به كچك محمد خان فلا يبقى حينئذ شبهة في أن الطارد لألوغ محمد خان هو كچك محمد ويحتمل أن يكون مراده به ألوغ محمد خان لشهرته ويكون قوله صاحب الدشت: وقرم غلطًا لعدم شهرة قزان في ذلك الوقت ولهذا لم يذكره أحد من مؤرخي ذلك الوقت مع أنهم ذكروا فعائل ألوغ محمد بعد استقراره بقزان وهذا آخر النقل عن تواريخ الإسلام وهذا أيضًا هو غاية بذل الجهد والطاقة في تحرير هذا المقام المغشى بالظلام الكثيف ولا أقول إنني كشفت عنه اللثام ونلت البغية والمرام كلًا وإنما مهدت الطريق لمن يجيء بعدي من المستعدين ذوي الهمة العالية في تحقيق الكلام.

شعر:

إني وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لسانًا قائلًا فقل

ذكر هجوم الأمير زاده مصطفى على الروسية وقتله

قال كارامزين في أثناء بيان وقائع سنة ١٤٤٥م مصادفة سنة ٨٤٩ هـ: إن الأمير مصطفى من أولاد خوانين الأوردو الذهب كان على غاية من العقل والدراية وشجيعًا غاية الشجاعة فدخل في السنة المذكورة مع جمع من التتار ولاية رزان للنهب والغارة فنهبوا وأسروا وجمعوا أموالاً عظيمة ببيع الأسارى وقت رجوعهم أيضًا ولكن لما كان الوقت شتاء والهواء باردًا غاية البرودة لم يقدرُوا أن يعودوا إلى أوردو بأحمالهم الثقيلة وحيث كان الثلج سقط كثيرًا لم يتجاسر أحد أن يقدم على السير فأتوا بلدة پيرصلاول من بلاد الروسية وطلبوا من أهلها بيوتًا ليشتوا فيها فلم يقدرُوا على منعهم لخوفهم منهم وبينما هم مقيمون بها إذ جاءهم عسكر الروس الذين أرسلهم واسيلي من موسكوا وموردوا لإخراجهم من الروسية فلما سمع الأمير مصطفى ذلك خرج من پيرصلاول خوفًا من الأهالي من جهة ومن عسكر الروس من جهة أخرى وتعدى نهر ليسطان وأقام في شاطيء آخر منه منتظرًا لوصول عسكر الروس فوصلت عساكر

الروس على التتابع وأحاطوا بالأمير مصطفى من كل جانب فعسكر موسكوا من طرف وعسكر رزان من طرف وعسكر موردوا من طرف والأهالي من طرف وكل من هؤلاء على غاية من الغيظ والخنق بهم والحرص التام على الانتقام فحملوا عليهم من الجوانب الأربعة حملة رجل واحد فضاق الخناق على التتار من كثرة العدو وشدة البرد وكانوا لا يقدرون الرمي من شدتها فلما أيقنوا بالهلاك والاضمحلال إن داموا على الحرب عرضوا على الأمير مصطفى أن يستسلموا للروس ولكن الاستسلام كان محالاً من الأمير المشار إليه ما دام به رفق فلم يصغ إلى كلامهم قط بل هجم على العدو الذي لا يعلم حسابهم إلا الله مع رفقائه كالأسد الصائل فحاربوهم محاربة شديدة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى ذاب الثلج من كثرة جريان الدماء الحارة وقد أظهر الأمير مصطفى من الشجاعة والبسالة ما صار به مثلاً في الشجاعة بين الناس وتمثالاً لها وبعد أن قتل من الروس مقتلة عظيمة سقط على الأرض مغشياً عليه من كثرة الجراح فقتلته الروس بعد ذلك والحاصل أنه أرى العالم بهذه الكيفية جريان دم چنكزخان وتيمرلنك منه وأثبت أنه خلف الصدق لچنكزخان حتى اضطرت أعداؤه الروسية إلى التصديق بشجاعته واستحسنوها منه غاية الاستحسان ثم قال: وفي أوائل الربيع من السنة المقبلة خرجت عساكر التتار من أوردو ودخلوا ولاية رزان فنهبوا فيها وغنموا والظاهر أن إغارتهم هذه إنما كانت لأخذ ثأر الأمير مصطفى المذكور ولكنهم لم يفعلوا شيئاً كبيراً غير الأضرار اليسير ثم رجعوا.

يقول راقم هذه الحروف: لم أر ذكر الأمير مصطفى هذا في واحد من كتب التواريخ التي طالعتها ولم يذكره الفاضل المرجاني مع أنه ربما يذكر من لا وجود له وقد ذكر في روضة الصفا أن السلطان حسين بن الميرزا بايقرا لما هرب من السلطان أبي الخير في سنة ٨٦٤ التجأ إلى السلطان مصطفى سلطان الوزير (في مملكة خوارزم) وزوج أخته بديع الجمال من پيربداغ أخي السلطان مصطفى إلخ وقال في موضع منه پيربداغ أحمد ولكن تاريخ الوقعتين يأبى أن يكون الأمير مصطفى المقتول هو السلطان مصطفى المذكور في روضة الصفا وقد جرى له ذكر فيها الصفا بعد هذا التاريخ أيضاً والله أعلم.

تنبیه: ذكر الفاضل المرجاني في موضعين من تاريخه أن كچي أحمد خان تزوج أخت السلطان حسين بن الميرزا بايقرا بيكاي بيكم وقد نقلنا هنا من روضة الصفا أنه زوج أخته بديع الجمال بيكم من السلطان أحمد پيربوداغ. وذكر في

موضع آخر منها مجيء أخته المذكورة إلى هراة لزيارة أخيها السلطان حسين في حدود سنة ٨٩٠ مع ولدها الأصغر بهادر سلطان وبنتها خان زاده خانم وتركت ولدها الأكبر محمد في مستقر سلطنة آباءه ولكن كون پيربوداغ أحمد هذا هو كچي أحمد خان بعيد جدًا فإنه على تقدير وجوده لم يبق إلى زمان خروج السلطان حسين لما ذكرنا قبل ولما نذكر فإن كان هو من خوانين سراي فيمكن أن يكون هو السيد أحمد خان الآتي ذكره ولكنه أيضًا بعيد جدًا لأنه لم يشتهر بپيربوداغ ولأن ظل سلطنتهم قد تقلص في عصره من جهة الشرق كما تقلص من سائر الجهات والظاهر أنه من خوانين آق أوردو أعني خوانين تركستان وخوارزم. وقد ذكر في روضة الصفا أيضًا عند ذكر محمد خان الشيباني فاتح ممالك ما وراء النهر وخراسان أن أباه بوداق بن أبي الخير تزوج نوري بيكم في المحل الذي قدم إليه السلطان حسين بن بايقرا مستمدًا من أبي الخير خان فولد له منها محمد خان الشيباني الخ. وهنا وإن لم يذكر كون نوري بيكم المذكورة أختًا للسلطان حسين بن الميرزا بايقرا ولكن الظاهر من سياق كلامه أنها أخته وإلا فما الداعي حينئذ على ذكر تزوجه عند قدمه كما لا يخفى فيحتمل أن تكون نوري بيكم هذه غير بديع الجمال بيكم السابق ذكرها كما أن پيربوداغ أحمد يحتمل أن يكون غير بوداق المذكور الآن ويحتمل أن تكونا عينيها ويقع لفظ پيرمكان لفظ شاه ويكون أحمد اسمه الغير المشهور وشاه بداق لقبه المشهور فيجمع هنا بينهما أو يكون الخطأ من قلم النساخ وأما سقوط لفظ شاه من أول بوداق هنا فمعلوم ويكون نوري كذلك لقبها أو واقعا غلطًا من قلم النساخ وظني الغالب هو هذا الاحتمال الأخير فيكون المتزوج بأخت السلطان حسين شاه بداع أبو محمد خان الشيباني وابن أبي الخير خان ويكون پيربوداغ أحمد ومصطفى خان المذكورين في روضة الصفا ابني أبي الخير خان والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

والحاصل أن الذي ظفرت به في روضة الصفا هذا الذي ذكرته ولم أظفر فيها ولا في غيرها بما ذكره الفاضل المرجاني ولا أنفي بعدم وجداني إياه وجوده من نفس الأمر فإن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود فلعل الفاضل المشار إليه اطلع في محل على ما لم اطلع عليه إلا أن عصر كچي أحمد خان على تقدير وجوده يأبى عنه أشد الآباء بحيث يكاد يدخله في جملة المستحيلات كالصديق الصادق أو في عداد الموهومات كوجود كچي أحمد خان نفسه والله سبحانه أعلم.

ذكر سلطنة السيد أحمد خان بن كچي أحمد خان على زعم المرجاني أو كچي محمد خان على رأي هذا الفقير أو ابن جلال الدين خان على قول الحاج عبد الغفار أفندي

والصواب عندي هو القول الأوسط ولم أطلع على تاريخ وفاة أبيه كچي محمد خان ومبدأ تسلطه بعده إلا أن أول ذكره وقع في تاريخ كارامزين أثناء بيانه وقائع حدود سنة ١٤٤٧م. مصادفة سنة ٨٥١ هـ. حيث قال: وفي أواخر سنة ١٤٤٧ أظهر بسقوپس^(١) رئيس كافة الروحانيين في الروسية معايب الكيناز شماكي لقوم الروس وعدد قبائحه قائلاً: إنه لم يرد خزائن موسكوا وأصنامها الثمينة إلى محالها وأنه يصادر الأمراء والأعيان الذين هم في طرف الكيناز واسيلي ويغري عليه أعزة أحيائه ويغويهم وأنه يجتهد سرًا في الاتحاد والاتفاق مع أهالي نوغوردو وأتكا وحكومة قزان وأنه لم يشترك في مصاريف سفراء الخان السيد أحمد الذي هو خان في كوك أوردو أو نوغاي ألوسي (يعني في سراي) حين قدموا إلى الكيناز واسيلي ولم يعنه في إرسال الهدايا إلى الخان المشار إليه مع سفرائه المذكورين متعللاً بأنه ليس بخان حقيقي. ثم قال خطاباً لديمتري^(٢) وواعظاً إياه: إن أباكم وأجدادكم كم بذلوا جهدهم في تحصيل الكينازية العظمى وكم سفكوا لأجلها دماء قوم فينبغي لك أن تتذكره وتتفكر فيه أما تذكر أن محمد خان العاري عن الدين^(٣) حاصر موسكوا وكم أهلك فيها من الروس وأحرق الكنائس وأسر الصبيان وسبى النساء حتى أنه لم يترك الرهبانة ولا شك أنك مسؤول عنها عند الله لا شبهة فيه فإن تلك البلايا والمصائب إنما نشأت من عدم إعانتك وإمدادك الكيناز الأعظم يعني واسيلي في ذلك الوقت ومن شامتك قد جعل محمود بن خان قزان^(٤) سفير موسكوا في الغل وأنتم لا تصدقون خانية السيد أحمد خان أما تدري أن أباك^(٥) قد تحاكم في تلك المملكة (يعني مملكة سراي) مع الكيناز

(١) أي الأسقف وذلك لشقه عصا اتفاق الروسية بمنازعته أخوا الكيناز واسيلي في الكينازية. منه عفي عنه.

(٢) الظاهر من العبارة الآتية بعيد ذلك أنه ابن اليوري المار ذكره. منه عفي عنه.

(٣) يعني عن دين الروس وهو عبادة الأصنام واعتقاد التثليث وهو ألوغ محمد خان وسيجيء قصة قصده موسقوا في المقصد الثالث. إن شاء الله. منه عفي عنه.

(٤) هذا في نسخة كارامزين المترجم عنه مع أن الذي جعله محمود في الغل هو كيناز موسقوا واسيلي نفسه لا سفير موسقوا فقط كما سيجيء في المقصد الثالث إن شاء الله تعالى ولم أطلع على مراده بهذا التعبير ولعله الستر والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(٥) يعني أباه يوري بن ديمتري دونسكي حيث تحاكم هو وواسيلي في سراي لأجل الكينازية كما مر =

الأعظم أليس أولاد الكينازات المذكورين بل أنفسهم في خدمة السيد أحمد خان المشار إليه الآن اهـ.

فإذا كان صدور هذا التقييح والتشنيح عن بسقويس في حق شماكي وديمتري في التاريخ المذكور فقد دل على أن مجيء السفير من عند السيد أحمد خان إلى موسكو كان قبل ذلك وتسلطن السيد أحمد يكون مقدمًا على إرسال السفير بالضرورة فقد تبين أن تسلطه لم يتأخر من سنة ٨٥٠ هـ. وكذلك وفاة أبيه كچي محمد خان بل يمكن تقدمها عليها فعلى هذا يكون الوقعة الآتية في مبادئ تسلطه وهي ما ذكره كارامزين أثناء بيان وقائع سنة ١٤٤٦م مصادفة سنة ٨٥٠ هـ بعد ذكر وقعة محمود خان القزاني حيث قال: وفي تلك الأثناء هجم طائفة أخرى من التتار ونهبوا أطراف بلدة يليتسه وولاية موسكو ولكن الأمير زاده قاسم الذي كان صديق واسيلي خرج عليهم وحاربهم في موضع يقال له: بيتوع وشردهم اهـ. ويؤيد كون الوقعة المذكورة في عصر السيد أحمد خان^(١) مع عدم ذكره فيها. ذكر كارامزين الوقعة الآتية متصلة بها حيث قال في أثناء بيان وقائع سنة ١٤٥١م مصادفة سنة ٨٥٥ هـ: كان أهل موسكو في خوف من السيد أحمد خان الذي كان خانًا في أوردو نوغاي فإنه كان مصرًا في طلبه الإتاوة والخراج من واسيلي وكان يهدده بالمحاربة إن منع من أدائها فأرسل الخان المشار إليه عسكريًا إلى موسكو تحت قيادة ابنه الأمير مازوفشاه فخرج واسيلي من موسكو للقاءه ولكن لما سمع كثرة عسكر التتار رجع القهقري وأمر الكيناز وينغور دسكي أن لا يترك عسكر التتار أن يعبروا نهر أوقه وفر بنفسه إلى موسكو ولكن الكيناز المذكور لم يقدر أن يمانع التتار من العبور بل هرب مع عساكره بمجرد ما وقع نظره على سواد التتار فانتهدت عساكر التتار إلى موسكو وأحاطوا بها فهرب واسيلي منها إلى أوغليجه وتهياً أهل موسكو للمدافعة ولكن لما كانت التتار أضرموا النار في المحلات التي بأطراف موسكو وكانت الهواء في غاية الحرارة والريح شديدة

= ولكن فاته إن الذي تحاكما عليه هو ألوغ محمد خان الذي يظهر كل هذه التوبيخات من الأسقف لغيطه به وحنًا على استيصاله لا حيا للسيد أحمد خان. منه عفي عنه.

(١) بل صرح الفاضل المرجاني أثناء بيانه خوانين خان كرمان الوقعة المذكورة في عصره وجعل قائدهم مولام بردى أوغلان ولكن في بيانه نوع مغايرة وجعل تاريخه في سنة ٨٥٣ ولكن مساهلته في تطبيق التاريخين كثيرة وعلى كل حال فقد صرح بسلطنة السيد أحمد خان في التاريخ المذكور وناقض به أيضًا قوله في كچي محمد خان وكچي أحمد خان الموهوم وأمثال ذلك أيضًا في كلامه كثيرة سامحه الله. منه عفي عنه.

لم يروا شيئاً من كثرة النار والدخان وبقوا متحيرين ولما انطفئ الحريق خرج عسكر الروس من موسكوا وحاربوا التتار وأبعدوهم عن أطراف البلد ثم دخلوا موسكوا وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها وهياؤا آلات المدافعة ولم يتجاسر أحد أن ينام في الليل فلما أصبحوا على غاية من خوف هجوم التتار رأوا أنه لم يبق منهم أحد لا يرى منهم أثر بل ذهب كلهم ثم تحقق بعد التحقيق أنهم سمعوا أن الكيناز واسيلي يجيء لمحاربتهم بجيش كثيف فتوجهوا إلى بلادهم بالسرعة حاملين ما خف من الغنائم تاركين ما يصعب نقله اهـ.

ثم قال: وكان الكيناز واسيلي بن واسيلي لا يعطي الخراج للتتار بالتمام لأنه كان فيما بينهم في أوردو اختلال داخلي دائماً ومع ذلك كانت التتار لا ينظرون إلى نقصانهم وضعفهم هذا بل كانوا يهجمون على بلاد الروس ويغيرون عليها تترى ولكنهم كانوا يردون من طرف الروسية مغلوبين اهـ.

وقال في أثناء بيان وقائع سنة ١٤٥٥ م مصادفة سنة ٨٦٠ هـ: أن عسكر أحمد خان بن كچيم هجموا^(١) فيها على ولاية رزان وپيريسلاول ولكنهم رجعوا عنهما منهزمين بترك كثير من الجرحى واتهموا قائدهم قزان أوغلان بأخذ الرشوة من الروسية اهـ.

ثم قال: بعد بيان هلاك واسيلي الثالث المشهور بتومنى بن واسيلي الثاني وجلوس ولده إيوان الثالث على صندلية حكومة الروس في أثناء بيان وقائع سنة ١٤٦٥ م مصادفة سنة ٨٧٠ هـ أن الإيوان الصغير قضى مدة ثلاث سنين في الكينازية على الصلح والراحة وكأنه كان يداري خوانين سراي بإرسال بعض ما كانوا يرسلون إليه من الجزية والامتناع عن أداء البعض وكان أحمد خان غضب عليه بعد ذلك لامتناعه من أدائها بالتمام فجمع عساكره وقصد الروسية وتوجه إلى موسكوا ولكن الله سلط التتار على التتار على إقبال إيوان وبخته وذلك أنه لما قرب أوردو أحمد خان من أعالي نهر دون خرج حاجي كراي خان عليه بعساكر قريم وحاربه هناك فقتل من الطرفين كثير من التتار وبقيت الروس متفرجين عليهم اهـ.

(١) وذكر كارامزين هجوم أهل قزان على الروسية دائماً وإزادة واسيلي محاربتهم ومجيء رسل ملك قزان إلى ولاديمير بطلب الصلح وذلك في أيام حكومة خان القزاني كما سيجيء في محله إن شاء الله تعالى. منه عفي عنه.

قلت: وهذا أول فتح باب الحرب بين خوانين سراي ومتغلبی قرم وكان البادي به متغلبو قرم وتوسع انفتاح باب إقبال الروسية. الذي انفتح سابقًا بتطرق تيمر على تلك الديار في النوبة الأخيرة كما مر.

ذكر هجوم السيد أحمد خان على الروسية ثانيًا وبيان وقعة قلعة ألكسين التي نسبها الفاضل المرجاني^(١) لكچي أحمد خان الموهوم

قال كارامزين: إن الإيوان الشاب لم يقع بينه وبين التتار شيء يذكر غير أن بعض المفارز من عساكر أحمد خان كانوا يغيرون على ولاية رزان إلا أنهم كانوا لا يتعدون على ولاية موسكوا وكان الطالع يرقى الروسية وينزل التتار ولما كانت سنة ١٤٦٨ (يعني م مصادفة سنة ٨٧٣ هـ) أرسل قازيمير كيناز ليتوا ولهستان سفيرًا إلى أحمد خان بهدايا ثمينة يدعوه إلى الاتفاق على محاربة الروسية ويقول له أنت من ذلك الطرف وأنا من هذا الطرف فقبل أحمد خان وأرسل إليه سفيرًا من طرفه لتأكيد ذلك وليخبره بأنه يسير على الروسية بعد أشهر فبعد أن أتم استعدادة للحرب وجمع العساكر خرج قاصدًا الروسية بموجب وعده فلما سمع إيوان ذلك الخبر أرسل فيودر^(٢) بن داويد مع العساكر وجمع من الأمراء إلى نهر أوقه ليصدوهم عن العبور وليحاربوهم ولما وصل الخان إلى قلعة ألكسين خرج بنفسه إلى قولومنا وأراد أن يدير عسكره من هناك وكان معه الأمير دانيار^(٣) بن قاسم خان مع عسكره وكانت من سياسة إيوان أن يحرض التتار على التتار ويسلط بعضهم على بعض ويلقي العداوة بينهم ويفرق كلمتهم ويشتت شملهم وكان عدد عساكره الذين جعلهم في مقابلة التتار بلغ مائة وثمانين ألفًا مستوعبين مسافة مائة وخمسين ويرستا ومع هذه الأسباب القوية كلها كان اسم الخان واسم التتار يورثان الخوف والدهشة في قلوب الروس حتى أن أم إيوان هربت من خوف التتار إلى روصتوف ولم تقدر أن تقعد في موسكوا ولما نزل الخان أحمد في ألكسين أحرق البلد وأسر كثيرًا من أهلها وغرق كثير منهم في نهر أوقه وبقيت عساكر الروس متفرجين لهذه الأحوال في شاطئ آخر من النهر ولم يحصل منهم أدنى حركة ولما وقع نظر أحمد خان على عساكر الروس ورأى ترتيباتهم وانتظامهم تحير من ذلك وتأثر من كثرتهم فأمر عسكره بالتأخر فتأخروا بالتأني

(١) وقد جعل تاريخها في سنة ٨٧٧ كما تعرفه بالمراجعة إلى مستفاده. منه عفي عنه.

(٢) وهذا الذي هجم على البلغار في عصر واسيلي سنة ٨٢٢. منه عفي عنه.

(٣) هكذا في الأصل المنقول عنه بالراء فلا تنسبوني إلى الخطأ. منه عفي عنه.

والانتظام ولما دخل الليل توجهوا إلى بلادهم بالسرعة حاملين ما خف وتاركين الأثقال حتى وصلوا إلى بلادهم في ستة أيام وقد قطعوا تلك المسافة وقت مجيئهم في ستة أسابيع ولكن الروسية لم تتجاسر أيضًا على تعقيبهم لاستيلاء الخوف عليهم كما ذكرنا اهـ.

قلت: هكذا ذكر مؤرخ الروس ولعل هنا أسباب أخر مقتضية لرجوعهم مثل الاختلال والهجوم على كرسي السلطنة من طرف خوانين قرم أو غيره كما وقع سابقًا وقال الفاضل المرجاني إنه بلغه قصد دانيال^(١) بن قاسم بلدة سراي من جهة وقصد أخيه مرتضى من جهة أخرى اهـ إلا أن قوله أخيه مرتضى مخالف لما قاله كارامزين فإنه جعله ابنه كما سيذكر وعلى كل حال لا يتصور منه الهجوم وأما دانيال فيمكن أن إيوان أرسله بقصد الاحتيال لرجوع أحمد خان وأشاع ذلك في معسكر أحمد خان كما فعل مثل ذلك في الوقعة الآتية فتنبه والله سبحانه أعلم.

ذكر وقائع السيد أحمد خان مع خان قرم منكلي كراي خان

وقال كارامزين وفي سنة ١٤٦٧ يعني ميلادية ولعله في نصفها الأول فيكون في أواخر سنة ٨٧١ هـ وفقًا لما ذكر في السبع السيار توفي حاجي كراي خان القريمي وخلف ستة أولاد^(٢) نوردولت حيدر أو سميما را يمغورچي ملك أمان وواحد غير ثم ذكر جلوس منكلي كراي خان على مسند خانبة قرم بعد ذكر ماجرياته مع بعض إخوانه ثم ذكر اتفاق الروسية مع منكلي كراي خان على المدافعة وقال: وكان اتفاقهم على الوجه الآتي وهو أن منكلي كراي خان يعين الروسية على ليتوا التي هي خصميهما ويعينه الكيناز إيوان على دولت أوردو الذهب التي هي خصمه وكان هذا الاتفاق مفيدًا للطرفين فائدة كثيرة حيث أن دولة سراي انقضت واستقلت قرم بالخانية ونجى من الخوف وفائدته للروس لا تعد ولا تحصى^(٣) حيث إنها تخلصت من رقية التتار التي امتدت إلى مائتين وخمسين سنة ٢٥٠ تخلصًا أبديًا وغلبت على ليتوا التي

(١) دانيال: كذا بالأصل، وقد تقدم قبل قليل: دانيار، بالراء المهملة، والأرجح أن الصحيح «دانيال» باللام.

(٢) وقال أبو الغازي خان خلف ثمانية أولاد على هذا الترتيب دولت يارنور دولت خان حيدر خان قتلغ زمان كلديش مكلي كراي خان يمغورچي أوزتيمور اهـ فظهر أن مراد كارامزين باوسميما وهو أوز تيمور. منه عفي عنه.

(٣) قلت: لا يقدر المؤرخ أن يصف فائدة هذا الاتفاق للروسية حتى وصفه فإنه هو السبب الوحيد لترقي الروسية إلى هذه الدرجة. منه عفي عنه.

كانت تغلب عليها دائماً فاستفادت الروس من هذا الاتفاق استفادة كلية وهي وإن كانت تعطي لمنكلي كراي خان في مقابلة ذلك شيئاً من الخراج إلا أنه كان بالنسبة إلى استفادته من جهتين لا شيئاً محضاً فإن هذا الاتفاق قد خدم لترقي الروس وعظمته خدمات كثيرة ولكن هرب منكلي كراي خان بعد ذلك بمدة يسيرة إلى كفه والتجأ إلى جنويز بسبب خروج أخيه حيدر عليه وفي عين هذا الوقت جاء كوك أحمد پاشا إلى كفه من جهة السلطان محمد فاتح عليه الرحمة واستولى عليها وخربها وأسر من فيها من جنويز والروس وأسر أيضاً منكلي كراي خان أيضاً وحمله إلى السلطان فنصبه السلطان خاناً إلى قرم وأرسله هناك ولكن كان أحمد خان أرسل ابنه إلى قرم بعساكر كثيرة فدخلها واستولى عليها وضبط جميع بلادها فاستولى على الروسية خوف عظيم من هذه الجهة فنصب أحمد خان في قرم واحداً من أولاد الخوانين يسمى جانبك أوزيني بك خاناً في قرم من جهته وكان جانبك هذا سابقاً في خدمة إيوان فأرسل إلى إيوان يقول له: إنه إن طردوني من الغانية فهل يقبلني إيوان كما في السابق فسر إيوان بذلك سروراً عظيماً وأرسل إليه يقول: إنه قد قبلك سابقاً وأنت وحدك لا ملك لك والآن كيف لا يقبلك وأنت صاحب ملك عظيم بل ينظر إليك الروسية بنظر المحبة والمودة وكان ذلك في سنة ١٣٧٦ م مصادفة سنة ٨٨١ هـ.

قال: وكان خان أوردو الكبير أحمد في تلك الأثناء يعد خاناً كبيراً وكانت الروسية أيضاً معترفة بذلك وكانت تؤديه الخراج كما في السابق ومتى جاء أحد من طرف الخان إلى موسكو كان الكيناز الأعظم يستقبله من خارج موسكو وكانوا يفرشون لمن يقرأ فرمان الخان مفارش من السمور فيجلس عليه ويقرأ فرمان الخان والكيناز الأعظم وأمرأؤه يسمعونه جاثين على ركبهم وكان في وسط دار إمارة الروس المسماة عندهم بكريمله دائرة مخصوصة لمأموري الخان ويقوم بها سفير الخان والباصقاق يعني عامله وكثير من المأمورين وكانوا بهذا السبب واقفين على أسرار الروسية وحركاتهم وسكناتهم وكانت تلك الحالة لا تلائم طبع صوفية زوجة الكيناز إيوان لكونها من سلالة قيصر الروم فقالت يوماً لزوجها إيوان: إلى متى استمر أنا جارية للتتار لا أحب أن تخدم التتار بعد ذلك وأن تحترمهم هذا الاحترام وكانت تريد دائماً أن تخلص الروسية من رقية التتار وكانت ذات حيلة وخدعة فمن حيلتها أنها كتبت إلى زوجة أحمد خان كتاباً تقول فيه: إني أمرت في رؤياي أن أبني معبداً في الدائرة المختصة بمأموري الخان في كريملة فأرجو من مرحمتكم أن ينقل حضرة الخان هذه الدائرة إلى محل آخر ويأذن لي في بناء معبد في محلها من كريملة وأرسلته

مع واحد من أخصائها بهدايا عظيمة فصار رجاؤها هذا مقبولاً لدى الخان وأرسل منشوراً مشتملاً على الإذن بذلك فأخرجوا مأموري الخان من كريملة إلى محل آخر وبنوا في دائرتهم من كريملة كنيسة وسموها بكنيسة اسباس فكانوا بعد ذلك لا يتركون مأموري الخان يدخلون دار الإمارة فصارت التتار بهذا السبب لا يقفون على أسرار الروسية وعينوا لاستقبال من يجيء من طرف الخان مأمورين مخصوصين وعينوا لنزلهم وقراءة فرمان الخان محلاً مخصوصاً خارج دار الإمارة وكان ذلك من نقصان تدبير الخان المذكور وكانت الروسية تتدرج هكذا في التخلص من سلاسل رقية التتار قدماً فقدماً وكانت التتار أيضاً مواظبين على إرسال تلك السلاسل وإرخائها.

قلت: كيف لا يرسلونه بعد أن انضمت إلى الدب المسلسل جسم غفير من جنسهم وصاروا يهجمون عليهم معه من كل جانب نعم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ويقال لهذا انعكاس الأمر وانقلابه فإن الروسية كانت قبيل هذا بمدة يسيرة على ما كانت عليه التتار الآن من تفرق الكلمة وتشتت الآراء والمقاصد والشقاق والنفاق وكان المؤرخ كارامزين يتأسف على ذلك ويقول: إن هذا من صنيع التتار وخدعتهم وأنهم يجتهدون في تسليط الروس على الروس كما مر عنه نعم كانوا يفعلون ذلك حين كان باب الإقبال مفتوحاً لهم ولما أغلق باب الإقبال دونهم وفتح للروسية انعكس الأمر فسبحان من أقام العباد على ما أراد وهو الفعال لما يريد والله الأمر من قبل ومن بعد ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ألا ترى ما قاله المؤرخ المذكور بعد ذلك. قال: وعلى كل حال كان اطمئنان قلب الكيناز إيوان من جهة التتار في ازدياد دائماً لعلمه ويقينه أن خوانين التتار سينقرضون عن قريب انقراضاً كلياً بسبب محاربة بعضهم بعضاً ولذا أمسك يده عن محاربتهم وصار يداريهم بتأدية الخراج لهم وإرسال الهدايا إليهم لتنظيم أموره وتحسين أحواله بالراحة والاطمئنان وكان في سنة ١٤٧٤ م مصادفة سنة ٨٧٩ هـ يقرأ فرمان الخان في موسكو وكان سفير الخان ميرزا قراچق أيضاً فيها مع ستمائة نفر من عسكر التتار وكان سفير الكيناز أيضاً عند الخان وفي السنة المذكورة كان ٣٢٠٠ من تجار التتار مشغولين في الروسية بالتجارة وكانوا جاؤوها بأربعين ألفاً من خيل آسيا وفي سنة ١٤٧٥ رجع سفير الكيناز إيوان لازاريق من الأوردو الكبير وأخبره بأن أحمد خان أرسل تريويزان سفير وينتسيان إلى إيطاليا بحرراً ولم يرد أن يحارب عثمانلي أهـ.

قلت: يفهم من هذا أن مجيء هذا السفير من طرف قرال إيطاليا إنما هو لدعوة أحمد خان إلى محاربة عثمانلي وأنه لم يجبه إلى ذلك وقد ناسب هنا أن نتخب ما

أطنب فيه السيد محمد رضا أفندي في السبع السيار في بيان ماجريات أحمد خان مع مكلي كراي خان لكونه ملتقيًا ما ذكره كارامزين في بعض النقط ومفرقًا إياه في بعض آخر منها ليكون المطالع على البصيرة.

قال: لما توفي حاجي كراي خان في سنة ٨٧١ جلس مكانه ولده منكلي كراي خان وبعد ثلاثة أشهر خرج عليه من بني أعمام السيد أحمد خان السراي نور دولت سلطان فهرب منكلي كراي إلى جانب كفه وطمان ولاذ بكفرة جنويز وبعد مدة خرج على نور دولت أخوه كلدي باي باتفاق من سائر إخوانه وقتلوه وبعد خمسة عشر يومًا من هذا ظهر منكلي كراي ثانيًا وهجم على كلدي باي فانهزم المذكور وهرب إلى جانب إيدل واستولى منكلي كراي على جميع ما في معسكره وقتل اتباعه وجلس إلى كرسي الخانية ثانيًا وما اشتهر بين الناس من أن عسكر السلطان محمد الفاتح عليه الرحمة أسروه مع كفرة جنويز وحملوه إلى السلطان وأن السلطان نصبه خانًا إلى قرم وأرسله هناك بإعطاء أسباب السلطنة خارج عن دفتر الصدق والسداد بل الصواب في هذا الباب أنه لما تيقن أن طرد كفرة الجنويز الذين استولوا على سواحل قرم بعد دخول القسطنطينية في حوزة عثمانلي وتطهير قرم من لوث وجودهم وكذلك التخلص من مخالبا السيد أحمد خان موقوف على التشبث بذيل السلطنة العثمانية والانتساب إليهم كتب إلى السلطان المشار إليه بإعلامه ذلك فوقع ذلك موقع القبول من السلطان فبعد ذلك أرسل إليه كديك أحمد پاشا مع فرقة من العساكر العثمانية ففتحوا البلاد الساحلية واستردوها من يد الجنويزية ودمروهم تدميرًا وشتتوا شملهم بتضييقهم بالعساكر العثمانية بحرًا وبعساكر التار برًا وكان ذلك في سنة ٨٨٠^(١) وجعل تاريخ فتحها شفقت (٨٨٠) وبعد أن اطمأن خاطر منكلي كراي من هذه الجهة أراد أن يخلص نفسه من تشويش تخت إيلي يعني هجوم خوانين الأوردو الكبير وسراي واستعجل في ذلك وتهالك ولم يراع الحزم والاحتياط فأرسل في طليعته من الأمراء المعبر عنهم بقراچو أمير لواء شرين مع قبيلته فتقدم على الخان مرحلة واحدة فصادف منكلي كراي في تلك الأثناء مرتضى سلطان أخا السيد أحمد خان وقد أرسله أخوه لتجسس أحوال العدو فأظهر له أنه متنفر من أخيه السيد أحمد خان وهارب منه فصار منكلي كراي ممنونًا ومسرورًا به واشتغلوا مدة هناك بالعشرة حتى وقف السلطان

(١) وفي الأصل المنقول عنه سنة ٨٨٧ وهو خطأ بلا ريب كما هو ظاهر من اللفظ الذي جعل تاريخ الفتح ولذا أثبتناه هنا. منه عفي عنه.

المشار إليه على أسرار منكلي كراي ونواياه فأرسل إلى أخيه السيد أحمد خان يخبره بذلك فاستعد السيد أحمد خان للمدافعة والمقاتلة ولما اطلع منكلي كراي على خدعة السلطان مرتضى حبسه عنده وتوجه نحو ما قصده من محاربة السيد أحمد خان ولما انتشب القتال بينهما انكسر عسكر البغاة وجرح منكلي كراي وتخلص من مخلب السيد أحمد خان وهرب وتحصن في قلعة قرقر (قرق آر المشهور الآن بقلعة چفود يعني يهود وهو بقرب بغچه سراي) فتعقبه السيد أحمد خان لعلمه بأن إزالة وجود مثل هذا الذي يسعى ويجتهد في تخريب دولة التتار واستيصالهم من أهم المهمات وأشد اللوازم شرعاً وعقلاً فاستولى على بلدة صلغات الواقعة بقرب كفه بعد محاصرتها أربعين يوماً ثم توجه إلى كفه وغب وصوله أرسل إلى محافظ القلعة من طرف الدولة العثمانية مير ميران قاسم پاشا يطلب منه تسليم القلعة إليه فأظهر له المشار إليه الموافقة والانقياد والمحبة والوداد يعني لاقتضاء الوقت هذا ففي تلك الأثناء جاء واحد من طرف إستانبول ودخل على مجلس پاشا المومى إليه وعنده سفير السيد أحمد خان فقال للپاشا إن السلطان سمع قصد السيد أحمد خان فأرسل عساكر كثيرة مع المدافع وسائر الأسلحة لمحاربتة فأمر پاشا في عين ذلك الوقت بإخراج السفن إلى وجه البحر ليرى السفير المذكور كأنها جاءت من إستانبول حاملة العساكر وأمر بضرب المدافع أيضاً لإلقاء الرعب في قلوب السيد أحمد خان وعساكره ثم قال للسفير المشار إليه ها قد رأيت الحال وسمعت المقال لا تسلم القلعة بدون المحاربة والقتال فقل للخان المشار إليه يستعد للقتال ومبارزة الأبطال فلما بلغ السفير المشار إليه ما رآه وما سمعه للسيد أحمد خان استولى الخوف عليه واختار الفرار على القرار فتوجه نحو دياره مع عساكره اهـ ما تعلق به المقصود وستأتي البقية .

قال كارامزين بعد ذكره ما سبق منه: إن أحمد خان لما طرد منكلي كراي واستولى على قرم ونصب جان بك خاناً على قرم من طرفه وحصل له قوة عظيمة بهذا واطمأن خاطره من هذه الجهة ولم يبق إلا تليين الروسية وتربيتها ارسل الميرزا پوچق إلى الكيناز إيوان الثالث بن الواسيلي تومنه الثالث يقول له: ليحضر كيناز الروسية إلى أوردو كما في السابق وليؤد الجزية تماماً مثل ما كانوا يعطونها الخوانين الماضين فأكرم الكيناز إيوان الميرزا پوچق غاية الإكرام وقال له: إنه ينشر الأوامر بين الروسية لجمع الخراج وأعطاه هدية وكذلك أعطى للخان أيضاً هدايا عظيمة وأعادته إلى الخان لهذه الخدعة ودفعه بالتالي هي أحسن ولكن لم يكن للخراج وجود إلا في اللسان فقط .

قال: وفي عين هذا الوقت أرسل إيوان سفيرًا إلى السلطان أوزون حسن بالعراق يحرضه على محاربة أحمد خان ويدعوه إلى الاتفاق معه لبغضه جنس المغل فرجع سفير الروس مارق بخفي حنين خائبًا قال: وفي سنة ١٤٨٠ (يعني م مصادفة سنة ٨٨٥ هـ) ظهر منكلي كراي ثانيًا وخرج من مكمنه واثبًا وطرد من حكومة قرم جانبك خان الذي كان أحمد خان نصبه خانًا في قرم من طرفه كما مر وجلس على صندلية الحكومة فهرب جانبك إلى الروسية وأخبر منكلي كراي بجلوسه ثانيًا الكيناز إيوان فأرسل إليه إيوان سفيرًا مخصوصًا للتبريك ولتحكيم الاتفاق السابق وتجديده وأفاده أنه إنما قبل نور دولت وجانبك لثلا يقومًا عليه ثانيًا بطلب الخانية وحلفًا على رعاية هذا الاتفاق وكتب إيوان عهدًا على منكلي كراي بأنه إن طرد عن الخانية يقبله لنفسه ويحميه ويسعى في إعادة خانيته بقوة عسكريه فإن منكلي كراي كان مضطرًا إلى هذا الشرط لأنه صار مطرودًا عن الخانية مرتين وبعد وقوع هذا الاتفاق قوي قلب إيوان فصمم على إعلان الاستقلال فمزق فرمان أحمد خان الذي أرسله بطلب الخراج ورماه إلى الأرض وداسه برجله وقتل سفراءه إلا واحدًا منهم وقال له: قل للخان ما رأيته بعينك من معاملتي بمنشوره لسفرائه فلا يرسل إليّ بعد ذلك سفيرًا فإن فعل اقطع رأس سفيره.

ولما بلغ هذا الخبر الغريب سمع أحمد خان زمجر زمجرة الأسد وزمخر زمخرة النمر وقال: كيف أساء مملوكي كيناز موسكوا الأدب لسيدته هذه الإساءة سأقلب الروسية كافة ظهر البطن وأدمرها تدميرًا وأمر بحشد الجنود حالًا.

قال كارامزين بعد ذكره هذا: قال بعض المؤرخين إن إيوان كان متصفًا بغاية التدبير لم يكن ليلقي نفسه في مثل هذه التهلكة ولم يقتل مأموري أحمد خان وإنما كان سبب جمع أحمد خان العساكر لحرب الروسية تحريض كازيمير قرال لهستان وإغراؤه فإنه لما رأى ازدياد قوة الروسية التي هي عدوه وانتظام أمرها ساعة فساعة وأن هذه الحالة مضرّة به في المستقبل ومخوفة إياه أراد كسر قوتها ونقص شوكتها بإغراء أحمد خان عليها وأرسل إليه رسولاً من أولاد خوانين التتار الذين كانوا عنده يسمى آق كراي بن مراد يقول له: إن مملوكك إيوان يستحقرك ويهزأ بك حيث إنه لا يؤدي إليك الخراج لا ينبغي لك أن تتركه على هذا الحال بل عليك أن تهجم على الروسية بعساكر كلية من تلك الجهة وأنا أهجم عليها من هذه الجهة فنعرفه حده كما عرف ذلك أجدادك حده وكان الوقت مساعدًا لذلك.

ذكر مسير أحمد خان^(١) إلى الروسية ودخوله فيها لتربية إيوان وحره

قال: وعلى كل حال صمم أحمد خان على حرب الروس وحشد عسكرًا كثيرًا وكان له ابن أخ يسمى قصيده وكان مدبرًا شجاعًا وكان ينازع عمه أحمد خان في الخانية من مدة مديدة فاستماله إليه بتوجيه ولاية العهد إلى عهده وأرضاه بذلك وجعله قائدًا لعسكر التتار وكان مقاولته مع القرال كازيمير أن يهجم أحمد خان بعسكر التتار على الروسية من جهة نهر أوقه وكازيمير يهجم عليها بعسكر ليتوا من أعالي نهر أوغر^(٢) في وقت واحد فخرج الخان على هذا الاتفاق قاصدًا الروسية في سنة ١٤٨٠ (يعني م مصادفة سنة ٨٨٥ هـ) ومعه ابن أخيه الأمير قصيده وأبناؤه الستة وكثير من أمراء عسكر التتار وكافة أوردو وكان إيوان في الوقت المذكور مشوش الخاطر بسبب حدوث نزاع بينه وبين إخوانه وأقاربه ولما بلغت هذه الحادثة الروسية استولى عليهم الخوف فأرسل إلى صديقه منكلي كراي خان سريعًا يخبره بما جرى بين أحمد خان وكازيمير من الاتفاق على الروسية فأغار منكلي كراي على بلاد ليتوا وشغل كازيمير عن قصد بلاد الروسية وعوقه عن القيام بموجب الاتفاق وأرسل إيوان نور دولت من جهة أخرى مع بعض أمرائه بفرقة من العسكر لقصد بلدة سراي التي هي كرسي سلطنة أحمد خان لما عرف أنه لم يترك فيها عسكرًا كافيًا للحفاظ فيستولون عليها أو يرجع أحمد خان إليها ويترك الروسية فكانت تلك التدابير من أحسن التدابير المفيدة للإيوان وصارت مصداقًا لقول الشاعر.

شعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هي أول وهو المحل الثاني

فإنه لا تدبير لكسر جناح أحمد خان وإرجاعه بلا نيل المرام سوى هذا ثم شرع في ترتيب العسكر وتعيين القواد وإعطاء التعليمات وسوق العسكر في يونيه ثم خرج بنفسه مع خواصه للقاء أحمد خان في ٢٣ يوليه من السنة المذكورة وأخذ وظيفة القيادة العامة على عهده وكانت ترتيباته العسكرية مطابقة لترتيبات ديميتري دونسكوي وكانت كافة الروسية منتظرين إلى نتيجة الحرب وكانوا على خوف عظيم وكان إيوان

(١) وهي وقعة أوغر التي نسبها الفاضل المرجاني لأحمد خان مطلقًا وقال بأسره بيد الروسية وقتله وجعل تاريخه سنة ٩٠٨. منه عفي عنه.

(٢) نهرية تصب في نهر أوقه فوق موسكوا. منه عفي عنه.

يقول: إن السلطنة ليست في كسب الشهرة بالمحاربة والغلبة وإنما هي في استراحة الرعايا وكون البرايا في الأمن والأمان وإكسابهم الثروة ماذا فعل ديمتري الدوني بمحاربهه وغلبته على مماليك ألم يأخذ توقتاميش خان بعد ذلك منه الخراج بعد تشتيت عساكره وإحراق موسكوا وغارتها وماذا فعل ويطوفت قرال ليتوا بتيمر قتلغ ألم يغتنم إنجاء نفسه وسلامة روحه بعد أن أفنى كافة عساكره حين قام بنية استيصال التتار فإن استعجلت أنا أيضًا اغترارًا بالإقبال الأعمى والبخت التصادفي لیتم أمری في ساعة واحدة فإما أن أصير مغلوبًا فأكون سببًا لربط كافة الروسية بغل الأسر متجددًا وإما أن أصير غالبًا فيحتمل أن يجمع التتار شملهم ويخربوا موسكوا ويجعلوها رماذاً كما وقع في عصر توقتاميش خان ولهذا كان لا يستعجل للمحاربة ويتمنى رجوع أحمد خان بالتدابير المذكورة.

وأما أحمد خان فإنه لما سمع تحشد كافة عساكر الروسية في أعالي نهر أوقه في مقابلته وتوجه إيوان أيضًا بعساكره الخاصة لمقاتلته ولم ير أثر الحركة من متفقه كازيمير عدل من ساحل نهر أوقه إلى طرف الجنوب وقصد جهة نهر أوغر ليقتصد الروس من طرف خال من العسكر وليتحد ويجتمع بعسكر ليتوا ولما وقف إيوان على توجه أحمد خان إلى طرف نهر أوقه ساق عسكره إلى تلك الجهة ودخل بنفسه في موسكوا وكان أهل موسكوا حملوا أشياءهم وأموالهم إلى كريملة (يعني دار الإمارة والقلعة الداخلية) فلما رأوا مجيء إيوان صاحوا كلهم وقالوا إنه هرب من التتار مع أنه يأخذ منا كثيرًا من الأموال ويأكلها ولم يعط للخان الخراج المعتاد أداؤه فاضطره لأجل ذلك إلى محاربتنا والآن هرب من التتار وأتى موسكوا فيجيء أحمد خان من ورائه ويحرق موسكوا فالصواب أن لا نتركه أن يدخل في موسكوا فتأثر من مشاهدة هذا الحال تأثرًا زائدًا ولم يتجاسر أن يدخل في كريملة بل وقف في كراسنى سيلا وقال للأهالي: أنا ما هربت من التتار وإنما جئت لمشاورة رؤساء الروحانيين فقال له الأهالي والروحانيون كافة: إن مشاورتنا ورأينا أن لا نتوقف هنا دقيقة واحدة وأن تذهب وتحارب فبعد أن أخذ إيوان دعاء الروحانيين توجه إلى معسكره ولحق بالعسكر في بلدة كريمينيسست^(١) وأرسل إلى أحمد خان سفيرًا مع الهدايا يطلب منه الصلح وترك القتال فلم يقبل أحمد خان الصلح وهداياه لشدة غضبه عليه وقال: إنه يريد

(١) بلدة بقرب موسكوا على جهة الجنوب الغربي منها وعلى الضفة اليمنى من نهر أوغر. منه عفي

تربية إيوان لأنه مذ تسع سنين لم يعطني خراجًا فليجثني بنفسه الآن وليعتذر إليّ وليؤدي الخراج فأعفو عنه أيضًا ما مضى فلم يرض به إيوان فأرسل إليه أحمد أنه إن لم يجيء بنفسه فليرسل إليّ ابنه أو أخاه أو القائد نيكيفور فلم يرض به إيوان أيضًا فتم بذلك مراسلتهم بالكلام ولم يبق إلا المراسلة بواسطة السنان والسهم ولم يناسب طلب الإيوان الصلح من الخان لأهل موسكو خصوصًا القسيسين منهم فكتب إليه المطران (ميتروبوليد) كتابًا مسهبًا يحرضه فيه للقتال ويغريه على الخان أشد الإغراء ولكن لم يباشر الإيوان القتال ولم يتجاسر عليهم حتى التشرين الأول (أكتوبر) ولما انجمد نهر أوغر أمر عسكره بالرجعة إلى بلدة كريمينيست فخافت الأهالي من مشاهدة هذا الحال وقالوا: إن إيوان خاف التتار فلا يريد محاربتهم وقد جاء أحمد خان لاستيصال الخرسيتان وإفناء النصارى بالكلية وكينازنا إيوان لا يريد مقابلتهم وكثر بينهم اللغظ وما أصبح أحمد خان رأى أن الروس تقهقروا إلى الورا بحيث لا يرى منهم أحد فتعجبوا من ذلك وتشاؤروا فيما بينهم ماذا يفعلون بعد ذلك ولأي شيء تقهقرت الروس فقر رأيهم على أن الروس كمنوا فرقة من عساكرهم ليجروهم إليهم ويهجموا عليهم بغتة وإن هذا خدعة منهم فأمر أحمد خان أيضًا عسكره بالتقهقر خوفًا من هجوم الروس عليهم فتقهقرت التتار بكمال العجلة أيضًا ولم يتوقفوا في محل قط بل رجعوا إلى بلادهم لا يلوي منهم أحد فظنت الروس أيضًا أن أحمد خان يريد أن يجيء من ورائهم فيقطع عليهم خط رجعتهم فهربوا بكمال السرعة إلى ورائهم ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿المدثر: الآيتان ٥٠، ٥١﴾ فكان ذلك من أعجب العجائب حيث إن عسكرين متقابلين هرب كل واحد منهما خوفًا من الآخر بلا سبب ولكن الروسية حملوا ذلك على مرحمة أم إلههم وكرامتها يعني مريم على زعمهم الباطل وسبب آخر لرجوع أحمد خان أنه سمع أن عسكر الروس دخلوا على أوردو واستولوا عليها كما تقدم توجه عبيدهم نور دولت وغيره مع عساكر الروس إليها فرجع بسبب هذا الخبر المدهش إليها فكان هذا آخر دخول التتار وهجومهم على الروسية بعسكر أوردو ولم يقع لهم بعد ذلك الهجوم عليها بعساكر كلية وإن وقع منهم بعض الغارات على بعض النواحي منها وكان ذلك انتهاء رقية الروسية للتتار وإخراج رؤوسهم عن ربقتها بالكلية وكان رجوع أحمد خان في سابع التشرين الثاني^(١) من السنة المذكورة فأغار أحمد خان وقت رجوعه إلى بلاد ليتوا غضبًا على كازيمير لحلفه

(١) يعني على تمام ستة أشهر من خروجه. منه عفي عنه.

الوعد بعد أن تسبب لوقوعه في هذه الورطة ونهب اثنتي عشرة بلدًا^(١) من بلاده ورجع بغنائم كثيرة ولكن أين كان لكازيمير مجال ومقدرة للقيام بما وعد لما لقي من منكلي كراي خان فمضت هذه الواقعة أيضًا على المنوال المشروح والحاصل إذا تأمل القارئ في أحوال ذلك الوقت من إمداد منكلي كراي ونور دولت وخان قزان وحاكم خان كرمان أعني دانيال بن قاسم وكثير من أولاد خوانين التتار الذين كانوا يسكنون في موسكوا عند إيوان ويخدمونه لا يتعجب من هزيمة أحمد خان ونصرة إيوان بل يقول صدق رسول الله ﷺ في قوله: «إذا أراد الله شيئًا هيأ له الأسباب» وينشد من لسان أحمد خان شعر:

فإن كان أعدائي عليّ تناصروا فما هو إلا من تخاذل إخواني
وقول الشاعر أيضًا شعر:

فلو كان رمحًا واحدًا لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث
خصوصًا إذا وقف على الواقعة الفجيعة الآتية وإنما يتعجب من جبانة إيوان مع وجود أسباب النصر هذه فيه .

ذكر مقتل السيد أحمد خان عليه الرحمة والغفران

قال كارامزين: ولقد نال أحمد خان نصيبًا مما نال منه الأمير ماماى وذلك أنه لما رجع من سفر موسكوا أراد أن يشتم بساحل نهر دون (تن) الصغير فعدل إلى قرب بلد أزاز وأقام به (قلت: لعله بنية استئناف سفر إلى موسكوا في أول الربيع على ما هو عادة ذلك العصر) ففرق عساكره ولم يبق معه من العساكر إلا اليسير أو لم يبق شيئًا فاتفق إيواق خان الشيباني أو التومني^(٢) مع أمراء نوغاي مثل يغمورجي وموسى وغيرهما على الإغارة عليه وذلك إما طمعًا في الملك أو المال الذي اغتنمه في سفره المذكور من الروسية والليتوا أو بتحريض من طرف إيوان أو للمجموع والله أعلم فهجموا على محل أحمد خان بغتة مع ستة عشر ألفًا من فرسان النوغاي فنشئت شمل من معه من خواصه بقتل وأسر وفرار فقتل إيواق الشقي المذكور أحمد خان عليه الرحمة والغفران بيده وأسروا أزواجه وأولاده وسائر من معه من بقيتهم

(١) كيف يطابق هذا على قوله لقد فرت التتار بكمال العجلة ولم يتوقفوا في محل قط الخ. منه عفي عنه.

(٢) قلت: ليس هذا أباق خان فإنه غيره ومتأخر عنه على قول الكارامزين. منه عفي عنه.

واستولوا على جميع ما معه من الأسباب والأموال عليهم من الله أشد النكال ثم توجهوا إلى بلادهم بتلك الغنائم والأساري وبعد أن أكل الشقي المذكور عليه ما يستحق هذا الخرى اقتضت طبيعته الخبيثة أن يسيغه بشرب البول فوقه فأرسل إلى إيوان بعد استقراره في مقامه من جهة تؤمن يخبره بأني أكلت خرا جيداً بأن قتلت عدوكم أحمد خان.

قال: فبعد تلك الوقائع المسطورة انقضت الخانية المشهورة بخانية الأوردو الكبير والأوردو الذهب بالكلية وسقط ما بناه باتوخان من أصله وتخلصت الروسية من عبودية التتار تخلصاً كلياً بعد أن امتدت إلى أزيد من عشرين وإن بقي أولاد السيد أحمد خان في مقام الخانية مدة إلا أنهم لم يقدرُوا أن يهجموا على الروسية بل انحصرت معاملتهم وسلطتهم في الضفة الشرقية من إيدل (وولغا) وأطراف آقتوبه وإن وقع الهجوم من بعضهم مثل مرتضى خان ابن السيد أحمد خان وإخوانه على الروسية إلا أنهم انهزموا سريعاً وطردهوا إلى بلادهم.

قلت: قد تقدم أن ابتداء هذا السفر كان في سنة ١٤٨٠ وأن رجوع أحمد خان كان في التشرين الثاني منه والظاهر أن وفاته كانت بعد دخول سنة ١٤٨١م فتكون في أواخر سنة ٨٨٥ هـ والله سبحانه أعلم فتكون مدة سلطته ٣٥ سنة فإن أول وقوع ذكره في التواريخ كان في حدود سنة ٨٥٠ رحمة الله تعالى رحمة واسعة فتكون مدة تبعية الروس للتتار ٢٥٠ سنة.

قال: وكان الشيبانيون وأمراء نوغاي يسكنون في الأراضي الكائنة بين نهر بهزاولق وبحيرة آرال يعني ممتدين إلى جهة الشمال وهؤلاء الحشرات قد خدموا الروسية خدمات عظيمة^(١) بإهلاك عدوها القوي أحمد خان وصدر منهم ما يلائم سياسة الروس جداً وكان إيواق المذكور^(٢) ينتسب إلى أولاد جنغز ويرى نفسه لائقاً بتخت أحمد خان ومستحقاً للخانية الكبرى ومساوياً لكيياز الروسية الأعظم ولكنه لم يتجاسر أن يطلب الخراج من الروسية وكان يظهر الوداد لها دائماً.

قلت: إن الإنسان الدنيء إذا اعتاد أكل الخرى واستلذه بطبعه المشؤوم لا يصبر

عنه .

(١) قلت: وقد ذاقوا وبال ذلك بعد استيلاء الروس على قزان. منه عفي عنه.

(٢) فيه إيماء إلى أنه ليس في الحقيقة منسوباً إليهم وإلا لما فعل ذلك الفعل الشنيع. منه عفي عنه.

قال: إن الروسية وإن تخلصت عن إسارة التتار بالكلية ولكن الكيناز لم يترك جمع أموال تسمى بخراج التتار من أهالي الروس بل واطب عليه فإنه كان يرسل الهدايا إلى خوانين قرم وإلى بعض أرباب النفوذ في سراي وإلى أمراء نوغاي وإلى خوانين قزان يستجلب بها خواطرهم ويستدفع مضراتهم ويستميلهم إلى نفسه خصوصاً مثل نور دولت وحيدر في موسكوا وأولاد قاسم خان في خان كرمان فإنه كان يعطيهم معاشات كثيرة ومرتبات عظيمة وكانت تلك الهدايا تقتضي جمع أموال عظيمة وتضطر الروسية إلى تدارك مصاريف جسمية لم تكن بأقل من خراج التتار حين كانت الروسية خراجية لهم.

قال: وبعد هذه الوقعة أرسل إيوان إلى حميمه وصديقه الأخرى منكلي كراي خان يخبره بوفاة عدو أرواحهما أحمد خان عليه الرحمة والغفران ليشاطره في الفرح والسرور وليحكم عرى الاتفاق السابق بينهما يقول له إن حصل له أولاده الطرد والإخراج من قرم كما حصل سابقاً يكون مختاراً في أن يقيم بأي بلدة شاء من بلاد الروس.

قال المؤرخ كارامزين: انظروا إلى قدرة الله تعالى الكاملة حيث كانت الروسية محكومة للتتار قبيل هذا وعبيداً لهم ارتقت إلى درجة السيادة وصارت تحمي التتار وتحكم عليهم.

قلت: نعم الملك الله يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا رادَ لقضائه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَلِكُ نَفْسٍ وَجَسَدٍ وَمُلْكُ الْكَلِمَاتِ وَسَيِّدُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] الآية هذا ما ذكره كارامزين في قتل أحمد خان عليه الرحمة والغفران.

ولنذكر هنا ما ذكره في السبع السيار في ذلك لكونه مخالفاً له ذكر فيه بعد ذكر ما سبق منه أن منكلي كراي لما وقف على رجوع السيد أحمد خان من قلعة كفه إلى طرف إيدل أراد أن يتعقبه فخرج مع خواص عساكره من ورائه وتقدم عليه ولده محمد كراي بخواصه طليعة له ولما صادف وصوله إلى تخت إيلي يعني بلاد سراي محاربتة إخوانه وأقاربه ومنافستهم فيما بينهم اغتنم هذه الفرصة وهجم عليه بعساكره الموجودة ولحق به منكلي كراي في تلك الأثناء واشتركه في الهجوم عليه فانكسر عسكر السيد أحمد خان وتفرقوا وقتل أحمد خان في المعركة مع أعوانه اهـ. ويمكن أن يكون محاربو السيد أحمد خان في الوقت المزبور هم إيواق الخائن ومتفقوه الأشقياء فيشتركهم منكلي كراي في قتله فحينئذ يرتفع الاختلاف بين ما ذكره كارامزين وبين ما

ذكر في السبع السيار إلا في التاريخ فإن المفهوم من السبع السيار أنه قتل قبل التاريخ الذي نقلناه عن تاريخ كارامزين وهو سهل فإن صاحب السبع السيار لم يذكر صريح التاريخ بخلاف كارامزين فيمكن أن يتأخر من الوقائع التي ذكرت في السبع السيار بتاريخها سنين كثيرة ولم يذكر كارامزين اشتراك منكلي كراي في قتله لعدم وقوفه عليه أو لشيء آخر والله سبحانه أعلم، بقي أن الفاضل المرجاني نسب وقعة ألكسين إلى كچني أحمد خان وهذه الوقعة الأخيرة أعني وقعة أوغر للشیخ أحمد خان حيث ذكرها في ترجمته فربما ينسبنا بعض الفضلاء إلى الخطأ والغلط.

فأقول: قد عرفت أنني نقلته عن غيري والوقائع التاريخية موقوفة على النقل فإن كان ما نقلت عنه صوابًا يكون ما ذكرته صوابًا وإن كان هو خطأ يكون قولي أيضًا خطأ ولا تظنن أنني أنقل كلما وجدته من غير تحقيق وتدقيق سواء كان صوابًا أو خطأ وأقول كما قال الشاعر خطأ شعر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

كلا بل لا أكتب شيئًا في مواضع الخلاف إلا بعد بذل المجهود في تعميق النظر ولا أقول إنني مصيب والفاضل المرجاني مخطيء فإن وقفت أن له مأخذًا أقوى وأصح من مأخذي فأنا أول من يرجع من الخطأ ويقبل الصواب مع أن الفاضل المرجاني نقل نسبة قتل السيد أحمد خان إلى أباق الخائن ونسب بعض الوقائع المار ذكرها في ترجمة السيد أحمد خان آنفًا إلى السيد أحمد خان في أثناء بيان خوانين خان كرمان وفاقًا لما ذكره كارامزين وإن ذكرها مشوشة ومخلوطًا بعضها ببعض خلافاً لما ذكره في أثناء بيان خوانين سراي والله سبحانه أعلم بالصواب.

ذكر أولاد السيد أحمد خان عليه الرحمة والغفران

لم يعلم أنه كم خلف من الأولاد وكم منهم جلس في مسند الخانية المستعار وقد تقدم ذكر إغارة ولده مازوفشاه على الروسية في أوائل سلطنته وكذلك تقدم في بيان الوقعة الأخيرة أنه دخل في بلاد الروسية مع ستة من أولاده وأنا أذكر هنا من ظفرت بشيء من أحواله.

[مرتضى خان]

فأول من يرى له ذكر في التواريخ مرتضى خان^(١) ابن السيد أحمد خان وقد

(١) وقد جعله الفاضل المرجاني أخًا للسيد أحمد تبعًا لصاحب السبع السيار وعده الحاج عبد الغفار =

تقدم نقلًا عن كارامزين استيلاؤه على قرم في حياة أبيه في وقعة منكلي كراي يعني نيابة عن طرف أبيه وتقدمت الإشارة عنه أيضًا إلى إغارته على بعض نواحي الروسية بعد مائة أبيه وقال كارامزين أيضًا: إن المحاربة والمهاجمة بين مملكتي قريم وألتون أوردو كانت غير منقطعة بعد موت السيد أحمد خان أيضًا وإن كان سلطان تركيا ينصحهم ويمنعهم من الاختلاف فضلًا عن المحاربة إلا أنهم كانوا لا يصغون إلى كلامه وكان مرتضى خان كلما يقبل موسم الشتاء يضطرب غاية الاضطراب لأجل عسكره من البرد ففي سنة ١٤٨٥م مصادفة سنة ٨٩٠ هـ جاء بعض محلات قريم ليشتو فيه فهجم عليه منكلي كراي خان بعسكره بغتة وأخذه مع عسكره أسيرًا وحبسه في كفه وخرّب مملكة تيمور خان^(١) من ممالك ألتون أوردو فاتفق تيمور خان المذكور مع واحد من أولاد أحمد خان وهجم على قريم وكان ذلك في وقت الحصاد وكان الناس مشتغلين به وغافلين عنه فخلصوا مرتضى خان وعسكره وكادوا يأسرون منكلي كراي خان ورجعوا إلى ألتون أوردو سالمين وغانمين فلما اطلع إيوان كيناز الروسية على ذلك أرسل طائفة من عسكر الروس إلى ألتون أوردو بناء على الاتفاق والاتحاد بينه وبين منكلي كراي فاستخلصوا كثيرًا من عساكر قريم من أيدي عسكر ألتون أوردو وأرسلهم إيوان إلى قريم.

وقال أيضًا في أثناء وقائع سنة ٨٩٢ هـ بعد بيان أسر الهام خان القزاني الآتي ذكره: وبعد ذلك أرسل إيوان إلى منكلي كراي يخبره بأسر الهام خان ونصب محمد أمين مكانه خانًا ويخبره أيضًا بقصد أولاد أحمد خان بلاد قرم وأنه أرسل فرقة من عساكر الروس تحت قيادة نور دولت وبعض قواده وأنه صدهم عن بلاد قرم بذلك التدبير وينبهه على مكائدهم ويحرضه على الاتفاق مع إيواق الخائن الشقي على استيصال أولاد أحمد خان المرحوم فإنهم بسبب وقوع مملكتهم بين الروسية وبين صديقهم منكلي كراي كانوا لا يتركون سفراءهم إلى قرم يصلون إلى منكلي كراي بل كانوا يقتلونهم ويأخذون ما معهم من الهدايا والمكاتيب وكان صنعهم هذا يغيظ إيوان وصديقه منكلي كراي غاية الإغاظه، وقال: وكان بيد نور سلطان بكه زوجة منكلي كراي خان قطعة من الجواهر الثمينة وكان يقال إنها دخلت بيد توقتاميش خان وقت

= أفندي من أبناء أحمد خان وقد عرفت التحقيق في حق أحمد خان فعلى هذا لا خلاف بين هذا القول وما في الكتاب والله سبحانه أعلم. منه عفي عنه.

(١) ولم أدر من تيمور خان هذا ولا ينبغي أن يكون والد نور سلطان والدة إبراهيم ومحمد أمين خان وزوجة منكلي كراي خان كما لا يخفى. منه عفي عنه.

استيلائها على خزينة ديميتري دونسكي وكان إيوان يبذل غاية جهده في أخذها من نور سلطان بكة فأخذها منها أخيرًا بإرسال هدايا ثمينة فزادت المحبة بين إيوان وبين منكلي كراي خان أيضًا بهذا السبب حتى توسط إيوان في حصول الائتلاف والاتفاق بين منكلي كراي خان وقرال ماجار.

وقال أيضًا: وفي سنة ١٤٨٧ يعني مصادفة سنة ٨٩٢ هـ أرسل مرتضى خان بن أحمد خان الأوردوي إلى موسكوا مع الشيخ بهلول الذي هو أحد أمرائه مكتوبين أحدهما لنور دولت سلطان ابن حاجي كراي وأخي منكلي كراي والثاني للكيناز إيوان ومضمون ما كتبه لنور دولت سلطان المعروف إلى جناب حضرة صاحب العظمة والشهرة عماد دين الإسلام أخي الأعز نور دولت سلطان بعد إهداء مزيد السلام مع التحية والإكرام والقيام بمواجب الإجلال والاحترام كما يليق بعلو ذلك المقام لا يخفى على حضرتكم أن آباءنا أبناء أب واحد ولكن لما احتجبت بصائرهم بحجب الجهالة وكان حب الرياسة غالبًا عليهم قام بعضهم على بعض وعادى بعضهم بعضًا وأخطأ خطأ فاحشًا وسفك بعضهم دماء بعض بغير حق والآن استترت تلك العداوة بل انقطعت وغسلت تلك الدماء المسفوكة بلبن المحبة وانظفت نيران العداوة الماضية بمياه المودة وأخوكم منكلي كراي تلوث في هذه الأيام بلوث الحسد مجددًا فهو يسعى دائمًا في استيصال أهل الإسلام وتفرقة كلمتهم ويجتهد غاية جهده في انقراضهم وقد ابتلاه الله بأنواع البلايا لأجل ذلك أيها الأخ العزيز أنت نور وطننا وشمسه يمر أوقاتك فيما بين الكفار أعداء الدين فها أنا أرسلت إلى حضرتك الشيخ بهلول لأسأل عن أحوالك بعد التسليم مع التعظيم والتكريم وأرسلت معه قليلًا من الهدية نرجو قبولها والذي أقوله إني لا أتحمل أن يمر أوقاتك بين الكفار فأرجو أن تكشف جميع أسرارك للشيخ بهلول بلا خوف ولا مبالاة فهل تريد أن تترك الروسية أم لا وقد حرر الفرمان للإيوان أيضًا في هذا الخصوص سلمت في أي مكان كنت ولا تنس إخوتنا والسلام اهـ.

ومضمون ما كتبه للإيوان فرمان مرتضى خان للإيوان

اعلم أن أخي نور دولت خان يحبني دائمًا فأرسله إلي فإني أريد أن أخلع منكلي كراي عن الخانية التي لا يليق بها وأجلس مكانه أخي نور دولت خان وليكن أهله وعياله رهنا في يدك ومتى جلس على كرسي السلطنة يحسن إليك وبإحسانه إليك يفك أهله وعياله منك اهـ. قال المؤرخ: فضحك الكيناز إيوان من خطاباته وتعجب من

غروره وتحير من نخوته يعني أن الوقت كان لا يساعده لهذه الخطابات لضعفه وقوة إيوان نعم إن الزمان أبو العجائب.

قال: فأمسك إيوان سفير مرتضى خان عنده وأرسل إلى منكلي كراي بقرم يخبره بما جرى ويقول له أيضًا أن قرال ليتوا ولهستان يستدعي أخاك الثاني حيدر سلطان إلى نفسه خفيًا فما ذا تقول وحيث كان منكلي كراي بسيط الرأي قليل التدبير وقد تضجر من معانات الأمور لمقاساته الشدائد والمحن كتب إلى إيوان يقول له: أرسل نور دولت إليّ أسلمه نصف ملكي يعني سلطنتي فإنه عاقل ومدبر يكون معيني في رؤية الأمور أرجوك أن ترسله إليّ فإننا نسينا ما جرى بيننا سابقًا من المنافسة والمناقشة وأما أخي حيدر فاتركه يذهب حيث يشاء فإنني لا أخافه فكتب إليه إيوان أن صدور هذا الكلام يدل على قلة التدبر فإن التملك والترأس لا يبقى الأخوة والمحبة ولا سيما أن أخاك نور دولت قد تسلطن بقرم ولو زمنًا سيرًا وله هناك أتباع وأشياء فلا يقنع هو بنصف الخانية ومقتضى مودتي لك أن أفيك عما يسوؤك وأن لا أرضى ما يضرك اهـ. قال فتنبه منكلي كراي بهذا المكتوب وتيقن أنه مخطيء ورجع عما نواه وتخلص من شر نور دولت وإن كان أخاه.

وقال: إن نور دولت وحيدر أخوي منكلي كراي كانا ذهبا إلى الروسية باختيارهما والآن لم يكن لهما اختيار ومقدرة على الخروج منها لكونها وقعا في شبكة إيوان وهذا آخر ما وقفت عليه من أحوال مرتضى خان ولم أدر متى كان وبأي كيفية كانت وفاته رحمه الله تعالى.

ذكر أحوال الشيخ أحمد خان وأخيه السيد أحمدود خان ابني السيد أحمد خان عليهم الرحمة والغفران

المشهور بالخانية هو الشيخ أحمد خان ولكن قد ذكر كارامزين معه في أوائل حاله أخاه السيد أحمدود خان ذكره هكذا في موضعين من تاريخه وذكر في موضع ثالث منه بعنوان السيد محمود وقد ذكر الفاضل المرجاني بعد السيد أحمد خانية ابنه السيد محمد فهو إما السيد محمود أو السيد محمد ولكني أذكره كما رأيته في المنقول عنه لاحتمال مغايرتهم والله سبحانه أعلم.

قال كارامزين: وفي سنة ١٤٩١ (يعني مصادفة سنة ٨٩٧ هـ أو قبلها) أرسل إيوان عسكريًا تحت قيادة سالتاغان^(١) بن نور دولت وبيطر بن نيكتي الأوبوليني

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه وقد ذكره الفاضل المرجاني عند تعداده خوانين خان كرمان باسم=

لمحاربة سلطان أوردو السيد آحمود والشيخ أحمد لأنهما كانا قصدا بلاد قرم فلما سمعا أن عسكر الروس منتظر إليهما في طرف آخر من نهر تن رجعا عن قصدهما من غير أن يفعلا شيئاً اهـ.

وقال: وفي سنة ١٤٩٠ أرسل إيوان إلى منكلي كراي سفيراً يسمى كيناز واسيلي رومودا نوفسكي يقول له: إنه مستعد لإرسال العساكر لمحاربة عدوك خوانين الأوردو الذهب وسدهم عن بلادك دائماً لصيانتك وكان الأورداويون في ذلك الوقت كظل جسم ملك باتو خان يسكنون في الصحراء يرتحلون من محل إلى آخر وقد قصدوا مرة بلاد قرم مع حاكم حاجي طرخان عبد الكريم خان ولكنهم لم يقدروا أن يفعلوا شيئاً فإن محمد أمين خان القزاني كان يحميه من جهة والروسية من جهة أخرى وكانت تركيا أرسلت إلى قرم ألفي نفر من يكيچري فهؤلاء كلهم كانوا يحمون قرم ولهذا كانت القريميون يهجمون على بلاد أولاد أحمد خان ويحاربونهم ويغيرون عليهم وينهبون أموالهم دائماً وقد قتلوا في واحد من مهاجمتهم الشديدة واحداً من أولاد أحمد خان يسمى إيدكي.

وقال بعد بيان جواب مكتوب إيواق الخائن الآتي ذكره أن سياسة إيوان في الوقت المذكور كانت تقتضي أن يسلط خوانين نوغاي على خوانين سراي وأن يستأصلهم بهذا التدبير فإن مسلكتهم كان مساعداً لسياسة إيوان ومطابقاً إياها غاية المطابقة.

قال وفي سنة ١٤٩٢ أرسل إيوان إلى منكلي كراي خان سفيراً يسمى لوبان قوليجيق يقول له: إن قازيمير كيناز ليتوا متفق مع خوانين أوردو وكلما يهجم أهل أوردو إلى قرم إنما يهجمون بإغراء كازيمير إياهم فاللازم عليه أن يهجم على ليتوا ويعرف حد كازيمير فأجابه منكلي كراي أنا مع أخي إيوان جسم واحد ولهذا أبني الآن بقرب دينبير في محل بلد خرب هناك حصاراً جديداً اهـ. قال المؤرخ وهذا الحصار هو المسمى الآن أوجاكف اهـ.

ذكر تخريب منكلي كراي بلدة سراي وتفريق أهلها بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك

قال كارامزين في أثناء بيان المحاربة بين الروسية وليتوانيا في سنة ١٥٠١: إن الروسية استمدت بمنكلي كراي على ليتوانيا فهجم منكلي كراي على ليتوانيا وخرب

كثيرًا من بلاده ونهب وأسر حتى كادت ليتوانيا تنقرض بالكلية وتنضم إلى ممالك الروسية لولا استمداد قرال ليتوانيا أليكساندر بالشيخ أحمد خان السرائي وإمداد الخان المذكور إياه ثم ذكر كيفية إمداده إياه وممانعة منكلي كراي الشيخ أحمد خان في ذلك وانجرار هذه المخالفة إلى تخريب منكلي كراي بلدة سراي كرسي مملكة باتو خان وأولاده بعده كما مر حيث قال: إن الشيخ أحمد خان خرج بعشرين ألفًا من عسكره يعني يريد إمداد ليتوانيا ومنع منكلي كراي من الهجوم عليها لإمداد الروسية فعسكر بقرب أوستياتيخوي سوسني وبسفق جبل يسمى قزطاغي وعسكر منكلي كراي متغلب قريم في طرف آخر من نهر دون (تن) وكان معه خمسة وعشرون ألفًا من عسكر قريم وأقام في استحكام هناك منتظرًا لقدم عسكر الروس فإنه كان كتب إلى أخيه إيوان أن يرسل إليه مقدارًا من المدافع والطوحيّة بواسطة نهر دون ليخيف بها الشيخ أحمد خان وعسكره فأرسل إليه إيوان ما طلبه مع واحد من قواده يسمى الكيناز واسيلي نوز دروواتي مع أنه كان يحارب النمسة من جهة أخرى وأرسل أيضًا محمد أمين خان مع عسكر قزان ولكن كان منكلي كراي رجع إلى بلاده لاستيلاء جيش الجوع والقحط على معسكره بعد أن كتب إلى إيوان بأن هؤلاء يعني أهل آلتون أوردو الذين هم منشؤه وأصله قريبو السقوط ووعده باستيصالهم ومحوهم وكان أهل القريم بعد ذلك لا يقصرون في الهجوم على ملكة الشيخ أحمد خان وتخريب قريها وإيصال الضرر والخسار إليها مع أنها مهدم الذي تربوا فيه وعشهم الذي خرجوا منه والروسية كانوا يعينونهم في ذلك والشيخ أحمد خان كان منتظرًا لقدم عسكر ليتوانيا لإمداده ولما لم ير منهم أثرًا كتب إلى كيناز ليتوانيا يقول: نحن جئنا هنا لأجلك مع التزام ألوف من المشقة وأنت تريد أن تجعلنا أضاحي منكلي كراي فأرسل الكيناز إليه هدايا ووعده بإرسال العساكر ولكنه لم يف بوعده إما خيانة منه في حقه أو للممانعة عسكر الروس إياه ففي تلك الأثناء سئم أمراء الشيخ أحمد خان وضجروا من طول القيام على المراقبة والمرابطة فصاروا يهربون إلى منكلي كراي واحدًا بعد واحد حتى أن أحب نسائه إليه هربت إلى جهة قريم من غير أن تلتفت إلى منع أخيها السيد محمود^(١) فلما رأى الشيخ أحمد خان ماطلة كيناز ليتوانيا ورخاوته وبعبارة أخرى صحيحة دنائته وخيانتته غضب عليه وأرسل إلى إيوان كيناز موسكوا أخص أمرائه الأمير خازا أو خواجه أو غازي يطلب منه الاتفاق ويعده أن يسلم إليه مملكة ليتوانيا بشرط أن لا

(١) وهذا يدل على أن السيد محمود المار ذكره ليس هو أخًا الشيخ أحمد خان. منه عفي عنه.

يعين ولا يمد هو يعني الكيناز إيوان منكلي كراي خان ولا شك أن السياسة دائرة على محور المصلحة فأعجب هذا الصنيع من الشيخ أحمد خان الكيناز إيوان غاية العجب وفرح به نهاية الفرح لانفصال هذه القوة العظيمة من ليتوانيا ومع ذلك لم يرد أن يظهر شيئًا يغيظ صديقه القديم منكلي كراي خان لا لكون ذلك الأمير منافيًا للمروءة والإنسانية فإن رعايتها بتفويت المصلحة معدودة عند كافة دول النصارى في هذا العصر الذي يعد عندهم وعند ذويهم عصر التمدن والترقي من غاية الحماسة وعدم الحزم والإدراك فضلًا عن الروسية في ذلك العصر بل لما فيه من تفويت المصلحة واستبدال الأدنى بالذي هو أقوى فإن منكلي كراي إذا أغضبتة الروسية ينقلب عليها^(١) ويتفق مع ليتوانيا التي تركها الشيخ أحمد خان ويهجمون معًا على الروسية والشيخ أحمد خان لا يقدر على مدافعتها فكتب إيوان إلى منكلي كراي يعلمه بما جرى وقال إنه لا يكون أبدًا صديقًا لعدو منكلي كراي والشيخ أحمد خان لا يمكنه أن يتفق مع منكلي كراي وأن يتواضع له بل كان يرجح صداقة الروسية على صداقته والكيناز إيوان وإن كان قادرًا على إزالة الاختلاف والشقاق والبغضاء الكائنة بين الخانين المذكورين إلا أنه لم يفعل ذلك لكونه منافيًا لسياسته ومصالحته فإنه كان يعرف أنه متى اتفق السنور والفار فالضرر على دكان العطار فالأمر بالضرورة إلى خرابية سراي وانقراض دولة آلتون أوردو ودولة التتار والقفجق واضمحلالها من عالم الوجود بالكلية ودخولها تحت خبر كان وذلك أن منكلي كراي لما تيقن بانخزال ليتوانيا وانفراد الشيخ أحمد خان اغتتم الفرصة وهجم على سراي في أول ربيع من سنة ٩٠٧ هـ بغتة وقتل من صادفه من إخوانه الدينية والنسبية ولم يقصر في إراقة دمائهم وخرب بلدة سراي وقصر خوانين آلتون أوردو من ذرية جوجي خان بن چنكزخان التي أسسها باتو خان ابن جده جوجي خان وشرد الشيخ أحمد خان إلى الصحراء والبرية وأسر كثيرًا من الأهالي ولم يترك شيئًا من الناطق والصامت إلا حازه وأخذه وترك بلدة سراي ﴿فَاعَا صَفَصَفَا﴾ (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿ [طه: ١٠٦، ١٠٧] على حالة يرثى لها العدو الشامت ثم انثنى راجعًا إلى قريم وكتب إلى أخيه إيوان يبشره باستيصال عدوه وتخريب دار السلطنة التي أسسها باتو خان ابن جده جوجي خان وطالما كان يطأطئ رؤوس ملوك الروس وكثيرًا ما كان يطير فيها من تلك الرؤوس وقال له: ليهبدأ بالك وليحسن أحوالك فقد محوت عدوك وجعلته بحيث لا يقوم لهم بعد ذلك قائمة وفتحت لك

(١) وأيضًا ينقطع عنها خانية قران أيضًا لكونها تابعة وقتئذٍ لمنكلي كراي. منه عفي عنه.

أبواب الفتوح حيث دككت سد بأجوج ومأجوج فمد بصرك نحو الشرق إلى حين ينتهي إليه طرفك واستيقن أنه ملكك وملك ذريتك إلى يوم القيامة حيث لم يبق فيها ممانع ولا مدافع إلا الأفغان واليابان فكتب إليه أخوه إيوان يشكره على صنيعه قائلاً اسباسبيا بلاغو داريم وأس ووصاه أن لا يغفل عن ليتوانيا وكأنه قال من قلبه إننا معاشر الروس نمد بعيد ذلك طرفنا وأيدينا إلى الشرق والشمال والجنوب أيضاً حيث أنت فيه الآن ولو بعد حين حيث تيقنت مقدار حميتكم وغيرتكم وديانتكم ودرائتكم وجزمكم واحتياطكم مذ فعل إيواق الخائن بالسيد أحمد خان المرحوم وزاد يقيني بفعلك هذا واستيقنت بطرؤ الفساد على النسب الجنكزي وخيانة بعض الأمهات ع شنشنة أعرفها من أحزم. ولعله تمثل بقول الشاعر:

شعر:

ملكك خراسانا وأطراف فارس وما أنا من ملك الغراق بأيس

وهذا لا يحتاج إلى التطويل^(١) بإيراد المحاكمة فليحكم كل قارئ فيه عقله وفكره فإنه بديهي جلي وليعتبر المعبر من هذا الصنيع العجيب الغريب ولكني أقول مع التأسف غاية الأسف أنه مع وقوع أمثاله الكثيرة لا يحصل الاعتبار للبواقى وهذا الصنيع الشنيع ممتد بين الأقوام الإسلامية إلى هذا الآن فإننا لله وإنا إليه راجعون وكانت هذه الواقعة الفجيعة الشنيعة في موسم الربيع من سنة ١٥٠٢م مصادفة وأواخر سنة ٩٠٧ هـ وتاريخها «أيا ويح سراي هذه ودمره مكلي كراي» ونظمتها فقلت شعر:

كنت يوماً قاعداً مستغرماً في هموم من مصيبات سراي
قيل أرخ قلت أيا ويح سراي هذه ودمره منكلي كراي

فكانت مجموع مدة بقاء دولة سراي وبلدتها مع كونها معروضة للانقلابات ٢٦٧ سنة فإن مبدأ تأسيسها كان في سنة ٦٣٠ فقول ابن عربشاه إن بين بناء بلدة سراي وخرابها ٦٣ سنة سهو من قلم النساخ والصحيح سنة ١٦٣ فإن بعد هذا القدر من بنائها خربها تيمرلنك كما مر ثم عمرت بعد ذلك ثانياً وامتد إلى هذا التاريخ وكان فيها بعد عمارتها ثانية صاحب البزازية وتلميذه ابن عربشاه المذكور فعلى هذا^(٢) يكون

(١) ويا ليته ملكها وضبط أمرها وصفها إلى مملكته ولم يتركها هكذا غنيمة باردة للأعداء إنا لله وإنا إليه راجعون. منه عفي عنه.

(٢) أي على القول بكون المدة بين ابتداء بناء سراي وبين تخريب تيمرلنك إياها ١٦٢ سنة. منه عفي عنه.

ابتداء تأسيسها في سنة ٦٣٧ أو قبلها وبقاؤها ٢٧٠ سنة وبعد هذا التخریب الأخير لم تعمر قط^(١) بل استمرت على خرابيتها إلى أن بنت فيها جنس النمسة وألمان أيام يكاترينا الثانية قرية تسمى سريفكة تحريف سراي ثم صارت بعد ذلك قصبة وفيها محلة من المسلمين لهم فيها مسجد ومكتب ولم يبق فيها شيء من الأبنية القديمة إلا أني ظفرت برسمين من رسوم أبنيتها القديمة عند الحافظ قوام الدين أفندي ذي الفقاري أحدهما رسم قبة والآخر رسم جدار منقوش قيل إنهما أخذتا قبل هذا التاريخ بخمسمائة عام يعني وقت معمورية سراي بعد وقعة تيمرلنك وجدهما واحد من قسيسي الروسية في بطن كتاب قديم وفي أطراف جدار منها أبيات بالتركية^(٢) سطرين لا يقرأ أكثرها وهما هذان أثبتناهما هنا للتبرك

والظاهر أن القبة هي قبة قصر الملوك المسمى بآلتون طاش على ما مر في أوائل هذا المقصد والجدار الجدار الذي حوله أو جدار المقبرة والله سبحانه أعلم .

ذكر ماجريات الشيخ أحمد خان بعد ذلك وموته في الغربية والكربة وانقراض ملوك سراي وخوانينها بموته

قال كارامزين بعد ذكره ما سبق من تشكره لمنكلي كراي: ومع ذلك كتب إيوان إلى الشيخ أحمد خان يدعوه إلى الاتفاق معه ويعده أن يأخذ حاجي طرخان من يد متغلبها ويعطيه إياها بشرط أن ينقطع من كيناز ليتوانيا ويقطع عنه علاقته ولكن الشيخ أحمد خان تيقن بعدم الفائدة منه وأنه لا يريد إلا نفعه فلم يرض بكونه آلة لاستيلائه على بعض بلاد المسلمين وقد سئم الحياة الفانية والمعيشة الغير المنتظمة فعزم على

(١) وأما القصبه الموجودة الآن بقرب سراي القديمة المسماة أوردا أو خان أوردا سي فإنما بنيت بعد خراب سراي هذه وتشكل خوانين قذاق وبعد أن زال عنهم اسم خوانين التتار وسراي وإن كان الجنس هو الجنس وقد دامت استقلالهم إلى سنة ١٢٦٥ فعلى هذا كان دوام سلطنة أولاد جوجي في تلك البقعة ٦٢٨ سنة وهم آخر من انقضت سلطنتهم من أولاد چنكزخان وقد عرفت قبل تشكل دولة قريم وقزان وانفصال خوارزم من دولة سراي وقد استقل دولة سيبريا بعد وقعة تيمرلنك واتخذت حكومات الروسية المتشعبة على عكس التتار الأمر كله الله يفعل ما يشاء .
منه عفي عنه .

(٢) والأبيات تقرأ في السطر الثاني هذه:

آلار لايق أيدي دعا قيلارغه
بيقلدي طاشينك بر خوب بناسي
بيزانمش لؤلؤ مرجان ايله ظاهر

خدانك رحمتي أولسون آراغه
يكرمي آلتيده بولدي فناسي
مزين باطنسي لعل وجواهر

منه عفي عنه .

سفر إستانبول ومواجهة السلطان بايزيد الثاني وأخذ معه أخويه قوزاق وحاليق (هكذا في المنقول عنه) فمنعه مأمورو السلطان من الدخول بأرض عثمانلي وقالوا لا سبيل لأعداء منكلي كراي إلى إستانبول وقد كان أولاد منكلي كراي يجدون في تعقيبه فلما ضاق به الخناق توجه إلى مملكة ليتوانيا بالضرورة ولما دخلوا بلدة كيف أخذهم كيناز ليتوانيا ألكساندر وحبسهم وعاملهم معاملة العدو وكتب إلى منكلي كراي يقول: إن أعداءك بيدي إن أطلقتهم يضروك فإن كنت صديقاً لي ومتفقاً معي أسلمهم إليك وكتب إليه يعني منكلي كراي الكيناز إيوان يحذره منه ويذكره بما فعل بالسيد أحمد خان سابقاً وبما فعل بالشيخ أحمد خان الآن فلم يلتفت منكلي كراي إلى كلام كيناز ليتوانيا فلم ينفعه ما فعله بالشيخ أحمد خان من سوء المعاملة المغايرة للمروة والإنسانية فإنه إنما ارتكبها طبعاً في تحصيل صداقة منكلي كراي وفصله من الروسية فقال له الشيخ أحمد خان في مجلس الأعيان: إنك سلمت كافة عسكري لمنكلي كراي وصرت سبباً لزوال ملكي فلما ضاقت على الأرض برحبها التمسست لنفسني ملجأ فلم يقع اختياري إلا لك وأنت استقبلتني استقبال العدو والمحارب وعاملتني معاملة الأسير وحبستني في محبس مظلم لكن الله العادل موجود نتحاكم أنا وأنت غداً لديه (قال ذلك رافعاً يديه نحو السماء) فلا يتركك يا عديم الدين والمروة من غير مجازاة على عدم ديانتك ودناءتك هذه إلى غير ذلك من كلمات العتاب والملامة فمات رحمه الله تعالى في محبسه بمحل يقال له قونه فبموته انقرض ملوك سراي ثم ابتدئ بعد ذلك خوانين حاجي طرخان^(١) ومن هذا الوقت وقع في التواريخ إطلاق اسم نوغاي على خوانين حاجي طرخان وأطرافها وخوانين أطراف أورال حتى في أراضي باشقرد واشتهر بعد ذلك اشتهاً تاماً ولم يقع قبل ذلك إطلاق هذا اللفظ إلا على الأمير نوغاي واستظهرنا هناك كون طائفة نوغاي من قومه وقبيلته ولأجل الإطلاق الأخير يطلقونه أهل ما وراء النهر وقزاق على أهل قزان أيضاً والظاهر من كلام كارامزين أن موته تأخر من قدومه إلى ليتوانيا مدة سنين ولم يذكر تاريخ وفاته^(٢) رحمه الله تعالى رحمة واسعة وكذلك لم أطلع على أحوال أخويه اللذين كانا معه في سفره المذكور

(١) وقد عرفت قبل تشكل دولة قريم وقزان وانفصال أوركناج وكذلك استقل دولة سيبيريا واتحدت حكومات الروسية المتشعبة على عكس ذلك. الأمر كله لله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لقضائه ولا مانع لآلائه. منه عفي عنه.

(٢) وأظن أن الفاضل المرجاني لم يميز بين هذه الوقعة ووقعة أوغر ولهذا قال: إن أحمد خان أسر وقتل في سنة ومراده الشيخ أحمد خان والله أعلم. منه عفي عنه.

ولله در القائل في شأن أمثال هؤلاء الملوك العظام أشعار:

سل الأرض عن حال الملوك التي خلت
أساطين معروفون في كل مشهد
مشاهير في الآفاق شرقًا ومغربًا
بأبوابهم للوافدين تراكم
لديهم ألوف من خميس عرمرم
ترد عيون الناظرين كليله
فهل هم على ما هم عليه وحولهم
وطف ببلاد خف عنها قطينها
وناد قصورًا قد عفت غرفاتها
تجيبك عن أسرار الشؤون التي جرت
بأن المنايا أقصدتهم تبا لها
وسيقوا مساق الغابرين إلى الردى
وحلوا محلاً غير ما يعهدونه
ألم بهم ريب المنون فغالهم
وأمسوا أحاديثًا وأصبح ملكهم
فسبحان رب العرش ليس لملكه
رحم الله الجميع رحمة واسعة.

فصل من هذا المقصد في بيان وقائع بلدة حاجي طرخان

وحيث كان اتصالها بوقائع سراي شديدة وتشكلها بصورة الاستقلال متعقبة
لانقراض دولة سراي بل ضعفها ووقائعها قليلة ناسب أن نذكرها في هذا المحل وهي
بلدة مبنية بقرب مصب نهر إيدل (وولغا) من بحر الخزر بين شعبتين من النهر المذكور
أكبرهما في جهتها الغربية وهو الحائل بينها وبين الروسية وأصغرهما في جهتها الشرقية
وهي واقعة من العرض الشمالي على ٤٧ درجة^(١) و٣٢ دقيقة ومن الطول الشرقي

(١) وعلى ما يشاهد في خرائط الروسية أن عرضها أقل من ٤٧ درجة بمقدار ثلث درجة وطولها أقل من ١٨ درجة من پيتربورغ منه عفي عنه.

على ٦٥ درجة و٤٤ دقيقة وكانت تسمى في عصور خزر بمدينة إيتل وقد اتخذها ملوك الخزر دار ملكهم وكرسي مملكتهم ثم اشتهرت في الأزمنة المتأخرة باشرخان وحاجي طرخان وأزدرهان. ذكر هذه المذكورات الفاضل المرجاني^(١) في تاريخه والمشهور عند الروسية أستراخان.

وقال كارامزين: كان اسمها السابق في التواريخ آتيل ثم سميت بولانقيار (بلنجر) وسميت في العصر ١٣ الميلادي بصومير كنيث وسميت بعد ذلك باستراخان وبعد دخولها في حوزة ملوك الأوردو والذهب سموها باستراخان وقال في موضع حاجي ترکان.

وقال ابن بطوطة^(٢) في رحلته ومعنى طرخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (قلت بل الشيء المحرر من التكاليف الميرية سواء كان موضعاً أو شخصاً فلا يؤخذ منه من طرف الحكام ما يؤخذ من غيره).

قال: والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت. قلت فهذا مخالف لما ذكره الفاضل المرجاني ولعل ما ذكره قريب من هذا الموضع أو كان خراباً لم يبق منه أثر وقت نزول الحاج المذكور ولم أدر في أي زمن كان هذه ومن هو هذا الحاج

(١) الفاضل المرجاني: هو شهاب الدين بن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم المرجاني القزاني الحنفي، ولد سنة ١٢٢٣ هـ، وتوفي سنة... من تصانيفه: «إعلام أبناء الدهر بأحوال ما وراء النهر»، «البرق الوميض في الرد على البغيض المسمى بالنقيض»، «تذكير المنيب بعدم تزكية أهل الصليب»، «تنبيه أبناء العصر على تنزيه أبناء أبي نصر»، «جوامع الحكم وذرائع النعم» من مقولات علي بن أبي طالب، «حق البيان والتصوير في مسألة حدوث عالم الأمر والتقدير»، «الحق المبين في محاسن أوضاع الدين»، «حق المعرفة وحسن الإدراك مما يلازم في وجوب القسط والإساک»، «الحكمة البالغة الحنية في شرح العقائد الحنفية»، «طريقة المثلى وعقيدة الحسنی»، «عذب الفرات في حاشية الجلال»، «فرقة الخواقين»، «غلالة الزمان في تاريخ بلغار وقزان»، «الفوائد المهمة»، «كشف الغطا عن الأبصار بأغلاط تواريخ بلغار وأكاذيبها الصريحة لذوي الاعتبار»، «الميل الأعلى»، «مستفاد الأخبار» في مجلدين، «ناظورة الحق في فرضية العشاء وإن لم يغب الشفق»، «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» (كشف الظنون ٤١٨/٥، ٤١٩).

(٢) ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، شمس الدين، أبو عبد الله المغربي المعروف بابن بطوطة ولد سنة ٧٠٣ هـ، وتوفي سنة ٧٧٩ هـ، له من التصانيف «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» في الرحلة. وغيره (كشف الظنون ١٦٩/٦).

وما اسم السلطان المذكور ولا يبعد كونه في أوائل سلطنة السلطان محمد أوزبك خان وقد تقدم في بيان الاختلال الذي بعد موت بيردي بك خان نقلاً عن ابن خلدون^(١) استيلاء الحاج شركس عليها فلا بعد في كون الحاج المذكور هو وفي أطراف حاجي طرخان قبيلة چركس من القزاق غير چركس قفقازيا ولعلمهم من عقب الحاج شركس المزبور والله سبحانه أعلم.

ثم قال ابن بطوطة: وهي من أحسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر إتل وهي من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حين يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآف من أحمال التبين فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل اهـ.

ولما طرق تيمور الأعرج تلك البلاد في النوبة الأخيرة وخربها كلها على ما مر تفصيلها وطراً الشقاق والنفاق بين ملوك تلك الديار وبقي بعضهم على بعض ولم يتيسر لهم الوفاق واتحاد الكلمة اتخذ بعض منهم البلدة المذكورة دار ملك لنفسه لمتانة موضعها ومناعة موقعها ولكونها في الدرجة الثانية من كرسي المملكة أيام الخوانين الكبار كما مر آنفاً عن ابن بطوطة فصارت مستقلة تارة وتابعة لدولة أوردو الذهب وخوانين سراي تارة أخرى مصداق قول القائل ع: شبه النعمة لا طير ولا جمل. إلى أن انقرضت دولة أوردو الذهب وخربت بلدة سراي بالكلية في التاريخ المار ذكره آنفاً فحصل لها بعد ذلك نوع استقلال مع قلة توابعها ومضافاتها حتى استولت عليها الروسية بعد زمن يسير من استقلالها.

فأول من عرف فيها خاناً هو قوير چق خان بن أرص خان على قول الفاضل المرجاني: ثم ابنه براق خان وقد مرت ترجمة أحوالهما حسب اطلاعنا ولعلمهما أقاما بها برهة من الزمان والله أعلم ثم ذكر الفاضل المرجاني بعده قطلغ تيمر وذكر نسبه

(١) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن خلدون الإشبيلي الحضرمي، القاضي ولي الدين، المؤرخ المالكي، ولد سنة ٧٣٢ هـ بتونس، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ له من المصنفات: «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي»، «رحلة»، «شرح الرجز لابن الخطيب» في الأصول، «شرح قصيدة ابن عبدون»، «شرح قصيدة البردة»، «طبيعة العمران»، «عنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» في التاريخ. (كشف الظنون ٥/٥٢٩).

هكذا ابن علي تيمر بن قتلغ تيمر بن تومغان بن ابان بن أوزتيمر بن توقايتيمرا بن جوجي خان والظاهر أنه نقله عن تاريخ أبي الغازي خان^(١) وقد ذكرهم عند بيان نسب خوانين بخارى من أولاد توقاي تيمر إلا أنه قال تيمر قتلغ بن تيمر بك بن قتلغ تيمر وقال: بدل ابان أباي بالياء بدل النون والظاهر أن تيمر قتلغ وتيمر بك هما اللذان سبقت ذكرهما عند بيان خوانين سراي مستوفى وأن تيمر بك هو تيمر ملك فيكون ذكر قتلغ تيمر وباقي النسب سبق قلم أو مبيئاً^(٢) على اختلاف الرواية في نسبهما كما مر والله أعلم. ثم قال المرجاني ثم ابنه تيمر بهادر خان وقال أبو الغازي تيمر سلطان والظاهر: إنه تيمر خان المار ذكره الذي طرده جلال الدين خان ثم قال المرجاني ثم ابنه محمد خان ثم حفيده چواق خان بن يعقوب بن محمد خان قلت: جعل أبو الغازي چواق خان بن محمد خان والظاهر أيضاً أن محمد خان هذا هو المشهور بكچك محمد خان بن تيمر خان إن سلمنا على كونه ابن تيمر خان على ما ذهب إليه المرجاني وقد عرفت ما فيه.

ثم قال المرجاني ثم ابنه منغشلاق خان ثم أحمد خان بن محمد خان الصغير ابن تيمر خان: قتل هذا قد تقدم ذكره عند بيان خوانين أوردو وسراي فلا معنى في جعله من خوانين حاجي طرخان المستقلة وكذلك من قبله على ما ذكرنا سوى چواق ومنغشلاق ثم أعاد ذكر تزوجه بأخت حسين بايقرا كأنه مزية له وقد مر منا ما له وما عليه فتذكر ثم قال ثم أخوه محمود خان وله دراهم مضروبة بحاجي طرخان وغيرها مكتوب في بعضها السلطان العادل محمود بن محمد بن تيمر وفي بعضها بزيادة لفظ خان بعد كل اسم.

قلت: لم أر له ذكراً في محل إلا أن الحاج عبد الغفار أفندي قال وابن كچك محمد خان محمود خان وأبناؤه قاسم خان وعبد الكريم خان وأحمد خان صاروا خوانين على الترتيب وابن أحمد خان مرتضى خان وابنه آق كوبك خان اهـ وقد جعل

(١) تاريخ أبي الغازي: هو كتاب «شجرة الترك» لأبي الغازي محمد بهادر خان بن عربشاه، من ملوك التتار بخوارزم، توفي سنة ١٠٧٤ (كشف الظنون ٢/٤٠).

(٢) والباعث على هذا التكلف مع إمكان إبقائه على ظاهره من المغايرة هو توافق أربعة أسماء متتابعة أعني محمد تيمور قتلغ وقاتلغ تيمر وتيمر ملك كما ترى وهو مما يندر وقوعه وأيضاً أنه ذكر محمد خان الصغير من ذريتهم فدل صريحاً على أنهما هما المذكوران هناك ومع ذلك لا نسلب عنه الإمكان ولا نجزم بما ذكرنا بل نقول إنه هو الظاهر والله أعلم بالصواب. منه عفي عنه.

هذا أحمد خان ابنا لمحمود خان خلاف ما ذكره المرجاني وخلاف ما مر عن كارامزين من كون مرتضى خان ابنا للسيد أحمد خان وإن كان وافق فيه للمرجاني والله سبحانه أعلم ولولا عدم مساعدة التاريخ الآتي لقلت إنه السيد محمود أخو الشيخ أحمد خان وقد ذكره كارامزين في مواضع من تاريخه بأن يقول السيد أحمد خان مرة والسيد محمود مرة أخرى.

ثم قال الفاضل المرجاني ثم ابنه قاسم خان^(١) ووجوده في حدود سنة ٨٨٠ معلوم قال ثم ابن عمه عبد الكريم خان بن أحمد خان بن محمد خان وكان باقيًا من سنة ٨٩٥ إلى سنة ٩١٠ قلت: قد مر نقلًا عن الحاج عبد الغفار أفندي أنه ابن محمود خان وأخو أحمد خان والله أعلم بالصواب وقد مر عن كارامزين قصد الشيخ أحمد خان بلاد قرم بمعونة عبد الكريم خان الحاج طرخاني وصداهم الروسية إياهم عنها في سنة ١٤٩٠ م مصادفة سنة ٨٩٦ هـ وهو أول من يرى له ذكر في تاريخ كارامزين من خوانين حاجي طرخان والظاهر أن أول استقلالهم بعد موت السيد أحمد خان رحمه الله.

قال كارامزين: وفي سنة ١٥٠٨ م مصادفة سنة ٩١٣ هـ أرسل منكلي گراي إلى موسكوا سفيرًا يطلب مطالب عديدة من جملتها إرسال الروسية عساكرها إلى حاجي طرخان من نهر وولغا لإمداده في تخريب حاجي طرخان وإبادتها بعد أن خرب سراي فيخلد في الدنيا إلى آخر الأبد ويكون من ثاني المنظرين فاعتذر إليه الكيناز واسيلي بن إيوان بأن الوقت لا يساعده الآن لذلك.

قال المرجاني: ثم أبو سعيد جانبك خان بن براق بن قوير چق ثم ابنه حسين خان كان حيًا في حدود سنة ٩٢٨ قال كارامزين: في خلال بيان حوادث سنة ١٥٢٣ م مصادفة سنة ٩٢٨ هـ كان الخان في الوقت المذكور في حاجي طرخان حسين بن أمير شاه جانبك خان وكان يريد الاتفاق مع الروسية ولكنه لم يقدر أن يحمي نفسه من محمد گراي خان القرمي فإنه اتفق مع ماماي خان نوغاي وهجم على حاجي طرخان وطرده منها حسين خان واستولى عليها ثم قال بعد ذكر قتل محمد گراي القرمي في السفر المذكور ووقوع فتنة عظيمة في قرم بعد قتله وانطفاء نيران تلك الفتنة بجلوس سعادت گراي خان أنه يعني سعادت گراي خان كتب إلى واسيلي يظهر له

(١) ولا يبعد كون قاسم هذا قصيده المار ذكره عند ذكر قصد أحمد خان بلاد الروسية فتذكر منه عفي عنه.

وداده ويعلن اقتداره ويقول: إن السلطان صديقي وحسين خان الحاج طرخاني صديقي وصاحب گراي خان القراني أخي الخ.

قلت: وكان جلوس سعادت گراي في أواخر سنة ٩٣٠ ولعل كتابته إلى واسيلي بعد انقضاء السنة المذكورة فيكون حسين خان حياً في العام المذكور.

ثم قال الفاضل المرجاني: ثم آلق خان قلت قد ورد إلى قزان من أولاد خوانين نوغاي واحد يسمى آغالق أخو مامق خان ولعل هذا هو والله أعلم ثم قال ثم قاسم خان ابن السيد أحمد خان بن أحمد خان بن محمد خان الصغير قتل في سنة ٩٣٨ حين هجمت الجراكسة إلى الحاج طرخان اه.

وقال كارامزين: حين تعداده الوفود الواردين إلى الروسية من سائر الدول في سنة ١٥٣٢ وما بعدها: أنه ورد إلى واسيلي في التاريخ المذكور من الخان الجديد في حاجي طرخان يسمى قاسم خان رسول يريد الاتفاق معه ولكن قبل وصول السفير المذكور إلى موسكو هجمت الجراكسة إلى حاجي طرخان وقتلوا قاسم خان وكثيراً من الأعيان ونهبوا أموالاً كثيرة ونصبوا فيها خاناً يسمى آقوبك وصعدوا إلى الجبال ولكن لم تطل مدة الخان المذكور أيضاً بل جلس عبد الرحمن خان وأرسل إلى واسيلي يخطب وداده وكان ذلك في سنة ١٥٣٤ م مصادفة سنة ٩٣١ هـ ولذا قال الفاضل المرجاني ثم عبد الرحمن خان لم يعلم اسم أبيه وسلسلة نسبه وكان موجوداً من سنة ٩٤١ إلى سنة ٩٤٥.

قال كارامزين في خلال بيان وقائع سنة ١٥٣٤ إلى سنة ١٥٣٨ م: أرسل إيوان بن واسيلي إلى حاجي طرخان سفيراً لعبد الرحمن خان يدعوه إلى الاتفاق معه فقبله الخان المذكور مع الممنونية لخوفه من خوانين قرم ونوغاي ولكنه لم تطل مدة خانيته بعدئذ بل هجمت طائفة نوغاي إلى حاجي طرخان بعد أشهر واستولوا عليها فهرب منها الخان المشار إليه فأجلسوا مكانه خاناً يسمى درويش علي خان اه والظاهر أن هذا كان في خلال سنة ١٥٣٥ م مصادفة سنة ٩٣٢ هـ وهذا مخالف لما ذكر الفاضل المرجاني مخالفة كلية حيث قال: يعني بعد خانية عبد الرحمن خان تسلطن الشيخ حيدر خان ابن الشيخ أحمد خان في سنة ٩٣٣ ثم خلع في سنة ٩٤٨ وجلس مكانه آق كباك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان ثم قتله يمغورچي خان في سنة ٩٤٩ ثم يمغورچي خان بن بردي بك سلطان ابن مرتضى خان دام تسلطه إلى سنة ٩٦١ وقيل قتل صاحب گراي خان في سنة ٩٠٦ ثم درويش علي خان ابن شيخ

حيدر خان مرة أخرى وجعل قاسبولاد سلطان ابن قاسم خان بن محمود ولي عهده إلى آخر ما ذكره مشوشًا ومكررًا ومتناقضًا بحيث يتعذر الاستفادة والذي نقلت عنه نقلته بالإصلاح مهما أمكن فتنبه ولكن ينبغي أن يعلم أن يمغورچي خان المذكور هنا ليس هو ما سبق ذكره عند تعداد أولاد حاجي گراي خان وقد ذكر كارامزين من يسمي يمغورچي من أمر أنوغاي في وقعة ايواق الشقي مع السيد أحمد خان وحين كتابته إلى إيوان في شأن الهام خان القزاني على ما سيجيء ولعل هذا هو.

ولنذكر هنا ما ذكره كارامزين إلى آخر نفس حاجي طرخان قال: وفي سنة ١٥٤٢ م وسنة ٩٤٩ هـ أتى بلدة موسكوا ولد خان حاجي طرخان يادكار للخدمة في روسية اهـ ولعل يادكار الذي صار خانًا في قزان بعد ذلك وقال في خلال بيان وقائع سنة ١٥٤٧ م وسنة ٩٥٤ هـ وفي ذلك الوقت كان صاحب گراي وحده يهدد إيوان بالسيف وقد كان استولى على حاجي طرخان وخربها وأسر أهلها وأدخل أكثرهم إلى قرم وجعل طائفة نوغاي تابعين ومتقادين لنفسه الخ. قلت: وهذا الذي ذكره الفاضل المرجاني ولكنه لم يقتل يمغورچي خان بل كان هو حيًا بعد ذلك كما سيذكر ولعله هرب منه ثم جلس بعد رجوعه والله أعلم. وقال: بعد بيان موت صاحب گراي خان وجلوس دولت گراي خان مكانه وسعيه في تخليص قزان من يد الروسية: كان يمغورچي الحاج طرخان متفقًا مع إيوان ومصالحًا معه وكان يمدّه ويعينه بعساكره وكان قابيولابك بن آقبوبك الحاج طرخاني تزوج بنت جان علي خان أخي شيخ علي خان وقد أعطاه إيوان بلدة يوريف ليتصرف فيها ويصرف محصولها في مصارفها فلم يكن للإيوان عدو سوى قرم وكان عنده عسكر كاف لمحاربتها ولهذا كان لا يخافها قلت: وكان جلوس دولت گراي خان في سنة ٩٥٨ هـ.

ثم قال: وكان أهل حاجي طرخان مجتمعين من أجناس شتى ولم يكونوا من رجال الحرب والضرب وكانوا يلتجئون إلى الروسية لتضييق الجراكسة وخوانين قرم إياهم دائمًا حتى أن آخر خوانينهم رضي بالأخرى أن يكون تابعًا لإيوان وأن يعطيه الخراج ولكنه اغتر بعد ذلك بفرمان سلطان تركيا^(١) فاتفق مع دولت گراي خان القرمي وميرزا يوسف النوغائي وكان ميرزا يوسف المذكور خصمًا ألدًا لإيوان لأجل بنته سيون بكه وولدها أوتامش گراي فلهذا كانوا حبسوا سفير إيوان في حاجي طرخان فاغتنم إيوان هذه الفرصة للاستيلاء على حاجي طرخان وتفكر كون حاجي خان سابقًا

(١) وسيجيء ذكره في المقصد الثالث بعد بيان سقوط قزان، منه عفي عنه.

من بلاد ولاديمير^(١) ومستيصلوا وان اسمها سابقاً تموتوروقان وانضم إلى ذلك إغراء واحد من أمراء نوغاي يسمى ميرزا إسماعيل الكيناز إيوان على محاربة يمغورچي خان وقال له: إنها من مدن الروسية سابقاً والتمس منه أن يخرجها من يد يمغورچي وأن يسلمها إلى درويش الذي كان خاناً بها قبل يمغورچي فطرده منها يمغورچي واستولى عليها فأرسل إيوان في سنة ١٥٥٤ م وسنة ٩٦٢ هـ فرقة من العسكر تحت قيادة القائد شيماكين والجسور ايغناطي ويشناكف وكان شيماكين أرسل في طليعته الكيناز أليكساندر الوازمسكي في ٢٩ يونيه من العام المذكور فنزلوا في الجزيرة الأسود من مضافات حاجي طرخان وقتلوا هناك مئات من الحاج طرخانيين واستخبروا بأن يمغورچي خان أسفل منهم بمسافة ٥ ويرسته وأن التتار متفرقون في جزاير حاجي طرخان فمرت الروسية على مدينة سراي المسماة بالتون أوردو التي كانت أمراء الروسية وحكامهم طأطؤا لها رؤوسهم مائتي سنة وقد خربت الآن وصارت مسكنًا للبوم والغراب ولكن ملاحظة القوة الحاضرة أحسن من تخطر العجز والفتورات الماضية فدخل شيماكين في حاجي طرخان في يوليه من العام المذكور بلا مقاومة أحد لكونها خالية من السكان وتعقب الكيناز أليكساندر يمغورچي خان فوجده قد هرب وترك كثيرًا من الأسلحة في مصيفه فتعقبوا الهاربين وقتلوا منهم بعضًا وأسروا بعضًا ونجى البعض وممن نجى يمغورچي خان فتوجه بعشرين نفرًا من أتباعه إلى بلدة أزاز وبقي أهله وعياله كلهم في حاجي طرخان فجاؤوا بهم وبكثير من الأمراء الكبار وسائر الأسارى لدرويش خان فاضطر كلهم إلى الإطاعة إياه فاجتمع لديه خمسمائة نفر من الأمراء والأعيان و١٠٠٠٠ نفر من سائر الأهالي فعين درويش خان مساكن في البلد للأمراء الأعيان وفرق البواقي إلى الأطراف والجوانب وحلف الكل على إطاعة إيوان وأداء الخراج له ٣٠٠٠٠ ذهبًا و٣٠٠٠ سمكًا في كل عام وعلى أنه متى مات درويش خان لا ينصبون مكانه أحدًا بل كان من ينصبه إيوان خانًا لهم يكونون تابعين ومنقادين له فكتب هذا في ورق وكتب فيه أيضًا أن الروسية يصطادون السمك في نهر إيدل (ولغا) من قزان إلى حاجي طرخان مع التتار من غير اختلاف ونزاع بينهم فبلغ هذا الخبر إيوان في اغسطس ٢٩ المصادف ليوم ولادته فسر بذلك سرورًا كثيرًا وقد كانوا حملوا معهم

(١) كذب لم يدخل حاجي طرخان في تصرف الروسية قط قبل استيلاء إيوان مدهش عليها وأما تاموتارقان فقد كان يطلق على سواحل بحر أوزاق ومضيق بوسفور وهي التي استولى عليها الروسية أيام ولاديمير مانوماخ وكانت مدة في تصرف ولده مستيلاو راجع المقدمة عند ذكر الخزر منه عفي عنه.

خمسة من زوجات يمغورجي خان إلى موسكو فأعادهن إيوان إلى حاجي طرخان رعاية لخاطر درويش خان فنفتت إحداهن في الطريق فهلكت بالهلاك الأبدي.

قلت: المشهور في الألسنة إلى الآن أن الميرزا إسماعيل المذكور عليه من الله أشد ما يستحقه قاد عسكر الروسية بنفسه وجاء بهم إلى حاجي طرخان وفتح باب البلد بيده الخبيثة جزاه الله بعدله ولا شك أنه ليس وحده بل له أتباع من أمثاله فحينئذ لا نطيل الكلام بالمحاكمة وإيراد أسباب الغلبة والمغلوبة بل كل من يطالع هذا يعرفها بأدنى تأمل وهكذا كان أهل الإسلام يهدمون أساسهم بأيديهم وهم مستمرين على هذا الحال إلى الآن وكأن الله سبحانه سلب عقولهم فهل دامت الدولة لهؤلاء الخذلة هيهات.

ثم قال كارامزين: إن حكومة حاجي طرخان وإن أدت الخراج للروسية إلا أنها كانت تعد مستقلة ولم يحسن درويش خان التدبير ولم يف بعهده مع إيوان ولم يدم على اتفاقه معه بل قاده جنسيته إلى الاتفاق مع دولت گراي خان القرمي وجعل أحد أبناء الخان المذكور ولي عهده وخان الروسية فأرسل إيوان عسكرًا لمحاربتة في سنة ١٥٥٧ م وسنة ٩٦٥ هـ أو قبلها فبعد اللتي واللتيا انهزم درويش خان وهرب من وراء يمغورجي خان إلى بلدة أزاز فاستولت الروسية على حاجي طرخان استيلاء كليًا وأدخلوها في حوزتهم في التاريخ المذكور فساد الأمان فيها وفي جوانبها وأطرافها وتخلص الأهالي من الفتن والنهب والغارة والهجمات المتتالية وصارت التجار يردون إليها من الأطراف والجوانب فصارت محل تجارة عظيمة بمقتضى موقعها ولم تكن للروسية بلدة أكثر فائدة ودخلا منها وصارت سفراء بخارى وخوارزم والچراکسة يقدون إلى الروسية ترى يعقدون معها المعاهدات التجارية فعظمت شوكة الروسية جدًا وصارت لا تخاف حكومة قرم قطعًا وكانت هي أيضًا لا تقدر على إیراث ضرر عليها اهـ.

قلت: وبهذه الكيفية ارتفع لحاف الخواجه نصر الدين هذا أيضًا من البين فلم يقع من أحد هجوم ولا محاربة ولا نهب ولا إغارة كما كانت تقع سابقًا فاستراح الناس وصار كل واحد منهم يشتغل بأشغاله الخاصة به وهكذا إلى الآن صنيع سوء الإدارة وحسن الإدارة بصرنا الله تعالى وسبحانه بعيوبنا ويطلعنا على سوء صنعينا ويوفقنا لإصلاح أحوالنا وتحسين أفعالنا بالنون والصاد والنبى وآله الأمجاد والظاهر أن الروسية خربت وقت الاستيلاء عليها كثيرًا من أبنيتها السابقة وسكنت في مساكن أهلها

بعد أن طردوهم منها فانحاز أهلها إلى طرف منها حتى يقال إلى الآن أن مسجدها المسمى باق مسجد نقل من محله ثلاث مرات والمشهور عندهم أن قلعتها المبنية فوق تل واقع وسط البلد باقية من المسلمين لم يتغير من هيئتها شيء سوى أنهم حولوا مساجدها كنائس على ما هو عادتهم وزادوا في داخلها أبنية أخرى والله سبحانه أعلم.

فصل ولما مرّ ذكر المراسلات والمكاتبات بين ملوك التار ببلاد الشمالية وبين ملوك مصر أردت أن أذكر كيفية مكاتباتهم حسب ما اطلعت عليه في كتب العلماء الذين اعتنوا بهذا الشأن لتتيم الفائدة وتكميل العائدة فإن هذا الفن مع كونه فناً شريفاً في حد ذاته فيه تفصيل بعض ما تقدم

قال الشيخ تقي الدين عبد الرحمن القاضوي المحبي^(١) الفصل الأول من الباب الثاني من القسم الأول مكاتبات ملوك الشرق أعظم ممالك بلاد الشرق مملكتان وهما مملكة الأكاسرة وهي إيران الصائرة إلى بيت هلاكو ومملكة توران وهي مملكة الخواقين بلاد چنكزخان فأما مملكة الأكاسرة المذكورة فكذا وكذا الخ وأما مملكة توران وهي مملكة الخواقين فإنها كانت بيد آفراسياب ملك الترك وكانت أخيراً بيد أوزبك وكانت يكتب إليه في الأيام الشهيدية الناصريته الناصرية محمد بن قلاوون^(٢) سقى الله عهده في ورق عرض البغدادي الكامل وبعد البسمة الشريفة سطران هكذا.

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية^(٣)

ثم تخلى موضع بيت العلامة ثم تكتب الألقاب الشريفة السلطانية. وهي السلطان الأعظم وبقية الألقاب الشريفة على العادة حسبما يأتي ذكره. ثم بعد الحمد لله وخطبة مختصرة. فقد صدرت إلى الحضرة الشريفة العالية حضرة السلطان الكبير

(١) تقدمت ترجمته انظر هامش صفحة ٥٩١.

(٢) السلطان محمد بن قلاوون: من كبار سلاطين الدولة القلاوونية، له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال، ولي سلطنة ثم خلع منها لحدائنة سنة، ثم أعيد إليها سنة ٦٩٨ هـ، وتوفي سنة ٧٤١ هـ (الأعلام ١١/٧).

(٣) انظر النص في صبح الأعشى ٣١٧/٧ - ٣١٨.

الأخ الشفيق العالم العادل القان المعظم الأوحد شاهنشاه الملك أوزبك إيلخان سلطان الإسلام والمسلمين أوحد الملوك والسلاطين عماد الملك سلطان المغل والقفقج والترك جمال ملوك الزمان ركن بيت چنكزخان معز طمغاچ صاحب التخت والتاج عضد المتقين ذخر المؤمنين والدعاء [بما]^(١) يناسبه فإننا نخصه بالسلام واستعلام أخباره وتفاوض علمه الشريف اهـ والكتابة بالذهب والأسود حسبما شرحناه في مكاتبة أبي سعيد أيضًا^(٢) ولم يكتب أحد بعده بنظير ذلك وكان قد ورد على الأبواب الشريفة في سنة نيف وخمسين وسبعمائة كتاب جاني بك بن أوزبك من أولاد چنكزخان وكتب إليه الجواب الشريف نظير الكتاب الوارد من عنده وهو في ورق دون البغدادى بثلاثة أصابع مطبوقة. والافتتاح بخطبة مناسبة مكتوبة بالذهب جميعها ثم أما بعد بالأسود خلا ما تقدم ذكره في مكاتبة أبي سعيد والذي كتب له من الألقاب الحضرة الشريفة العالية السلطانية الأعظمية العالمية العادلة الأكمليّة القآنية الأخوية العزيزية الملكية الأشرفية زيدت عظمتها الخ. ولما كان في العشر الأخير من ربيع الأول من سنة ٧٧٦ رسم لي بالكتابة إلى القان محمد^(٣) ببلاد أوزبك وهو القائم مقام أوزبك على ما قيل على يد رسل الأبواب الشريفة بالسلام والمودة والاستعلام الأخبار ونحو ذلك فكتبت إليه في عرض البغدادى الكامل حسبما رسم به بخطبة مختصرة بالذهب والبقية بالأسود والذهب على ما تقدم ذكره وكتب له من الألقاب بعد المراجعة المقام العالى السلطاني الكبير الأشرفي الأعدلي الشمسي شمس الدنيا والدين مؤيد الغزاة والمجاهدين قاتل الكفرة والمشركين ولي أمير المؤمنين خلدت سلطنة والعنوان بالذهب بغير تعريف، وعلم له في بيت العلامة الشريفة بالمغرة^(٤) العراقية المشتاق شعبان.

(١) الزيادة من صبح الأعشى ٣١٨/٧.

(٢) والمذكور هناك أن البسملة والحمدلة والخطبة كلها وألقاب السلطان كلها بالذهب المزمك وما عداها بالأسود خلا كل ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ أو ما أضيف إليها أو ما يعظم ذكره كالحق والعدل وأمثالهما أو كل لقب أو نعت أو كلمة مضافة إلى المكتوب منه أو إليه فإن كل ذلك بالذهب اهـ. منه عفي عنه.

(٣) السلطان شعبان من أولاد قلاوون اثنان والظاهر أن هذا هو الثاني وقد تملك من سنة ٧٧٤ سنة إلى سنة ٧٧٠ ولم أدر من هو محمد هذا في عصره ولا شك أنه من الملوك المتغلبة زمن الفترة التي بعد بردي بك خان وسيجيء أن ماماي عنده فهو إذاً إما عبد الله خان أو عبد العزيز أو بولاك خان وهو الأظهر وأما ما سيذكره القلقشندي من أنه يمكن أن يكون أرض خان فيبعد عن الصواب لأن ماماي لم يكن عنده فتنبه. منه عفي عنه.

(٤) المغرة: الطين الأحمر يصبغ به.

ونسخة ما كتبت إليه بعد البسمة الشريفة^(١): الحمد لله الذي وهبنا ملكًا دانت له ملوك الأقطار وازدانت الأسرة والتيجان بما له من عظمة وفخار. وأذعنت العظماء لعزة سلطانه الذي شمل الأولياء وقصم الأعداء ببره الجابر وقهره الجبار. وقاد الجيوش إلى أن فتح الله على يديه الشريفتين معاقل الكفار. بأمره الجاري على الرقاب وعسكره الجرار. ومنحه خدمة الحرمين الشريفين اللذين لم يزل لهما منه الانتساب^(٢) وبهما له الانتصار. [نحمده على أن]^(٣) جعل مملكتنا الشريفة هي محل الإمامة العباسية فلا جحود ولا إنكار. ومرتبنا المنيفة بما عهد به إلينا أمير المؤمنين إلى قيام الساعة عليه المقدار. ونشكره على أن أورثنا ملك أسلافنا الشهداء فافر العيون وسر الأسرار. وجعل السلطنة المعظمة في بيتنا المكرم تنتقل تنقل البذور في بروجها إلا أنها آمنة من السرار^(٤). ونشهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم نزل قائمين بنصرتها قانتين بالإخلاص في كلمتها لنعد بذلك من الأبرار، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المؤيد بملائكته المخصوص برسالته ونبوته الذي عظم الله قدره على سائر الرسل كما جاءت النصوص والأخبار. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل والأخيار الذين صابروا وصبروا فجزاؤهم سلام عليكم بما صيرتم فنعم عقبى الدار. صلاة دائمة باقية بدوام الليل والنهار وسلم تسليمًا.

إلى هنا بالذهب ومن بعد بالأسود خلا ما استثنى: أما بعد فإن قلوب الأولياء إن تناءت الأجسام متعارفة بالائتلاف. متقاربة على بعد الديار حيث لا تناكر بينهما ولا اختلاف. لا سيما ملوك الإسلام. الذين هم متحدون بالمصافاة والاستسلام. فإن سرائرهم لم تزل متداينة. وضمائرهم متكافية. هذا والمحبة لبيته الكريم^(٥) قديمة والمودة بين الأسلاف لم تزل مستديمة. فلم نكن ورثنا ذلك عن كلاله^(٦). بل تبعنا فيه سبيل السلف الصالح على أحسن حالة. لما هو محكم من عقود الاتحاد والولاء. حيث المحبة في الأباء صلة في الأبناء. وكان لنا مدة مديدة وقد

(١) انظر النص الكامل في صبح الأعشى ٣١٨/٧ - ٣١٩.

(٢) في صبح الأعشى: «الانتصاب» بدل: «الانتساب».

(٣) في الأصل كلام غير واضح وغير مقروء، وقد نقلناه من صبح الأعشى ٣١٩/٧.

(٤) السرار: بكسر السين وفتحها، وسرار الشهر: آخر ليلة فيه، والمراد، آمنة من الأفول والانتها.

(٥) لبيته الكريم: ليس من الواضح على من يعود الضمير، ولعله القان محمد بيلاد أوزبك.

(٦) الكلاله: أن يموت المرء وليس له والد أو ولد يرثه، بل يرثه ذوو قرابته، وفي القرآن الكريم:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ [النساء: الآية ١٧٦].

تأخرت رسلنا عن حضرته. ولم يصدر من جهتنا الشريفة لذلك^(١) ولا وردت رسله من جهته. ولم يشغلنا عن ذلك إلا موقعة الفرنج المخذولين. أعداء الدين. ومقارعتهم في سائر السواحل بشدة البأس والتمكين. إلى أن مكنا الله عز وجل من نواصبيهم وصياصبيهم بنصر من عنده كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرؤم: الآية ٤٧]. والآن صدرت منا هذه الكتابة إلى المقام العالي السلطاني، وبقية الألقاب والنعوت إلى آخرها حسبما تقدم ذكره. نخص مقامه بسلام أرق من النسيم. وألطف مزاجًا من التسنيم. وثناء قد أزرى نشره بالعبير وسرى بشره فغدت تتهلل به الأسارير. ونبدي لعلم المقام العالي زيادة معدلته أنه لما بلغنا من عدل الحضرة الشريفة إنصافه للرعايا وتأمينه السبل المخيفة. وسلوكه سنن الإحسان. وتأكيد عقود المحبة على عادة من سلف في سالف الزمان. قصدنا مفاتحة^(٢). بهذه المكاتبة، وأردنا بدأته. بهذه المخاطبة. ليعلم ما نحن عليه من صحيح الوداد. وأكد الاتحاد. وجميل الاعتقاد. وحسن الموالاتة الخالصة من شوائب الانتقاد. وجهزنا بها رسلنا فلان بن فلان ومن معهما. لنستدعي ذكره. ونستدني ولاءه. الذي أحكم عقده. لتتأكد المصافاة بين هاتين الدولتين. والمخالصة من كلتا الجهتين. والموالاتة بين المملكتين. وليأمر المقام العالي لا زال عاليًا بتردد التجار. من تلكم الديار. والمواصلة بالأخبار. على حسب الاختيار. ومتابعة الرسل والقصاد. على أجمل وجه معتاد.

وقد وجهنا إلى المقام العالي أعلى الله تعالى شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الأقمشة السكندرية وغيرها على سبيل الهدية والمواهب السنية ما تضمنته الورقة المجهزة طيها. فليأمر المقام العالي دامت معدلته بتسلم ذلك. ويتيقن وفور المحبة من سلطاننا المالك وتأكد أسباب المودة على أجمل المسالك، والله تعالى يجمل ببقاء سلطانه تلك الممالك ويديم عده^(٣) المبسوط على الأولياء ويرمي ببأسه الأعداء في مهاوي المهالك. ويخلد ملكه الذي يفتخر بالملك من مقامه العالي السرر والأرائك. بمنه وكرمه والتاريخ تم حسب المرسوم الشريف والحمد لله ثم الحسبلة.

(١) في صبح الأعشى ٣١٩/٧: «كذلك» بدل: «لذلك».

(٢) في صبح الأعشى ٣٢٠/٧: «مفاتحته» بدل: «مفاتحة».

(٣) في صبح الأعشى: «عدله»، بدل: «عده».

الفصل الأول من الباب الرابع من القسم الأول مكاتبات الحكام وأكابر البلاد الشرقية من المغل والقفجق وهم أربعة طوائف الطائفة الأولى المغل والقفجق وأمراء الأتراك وهما قسمان القسم الأول الحكام من أمراء التوامين^(١) والنوينات^(٢) والوزراء وغيرهم

اعلم أن النوين في ألقاب هؤلاء بدل الكافلي في ألقاب النواب حسبما اتفق عليه بعد في بباب مكاتباتهم وهو نعت يستعمل دائماً لأهل تلك البلاد ولا يستعمل الكافلي أصلاً قطلوبوغا^(٣) إيناق هذا هو أحد الأربعة الذين جرت العادة أن يكونوا حكاماً ببلاد أوزبك ورسم المكاتبته إليه على ما استقر عليه الحال حين كتب جوابه في عاشر جمادى الآخر سنة ٧٥٢ في قطع الثلاث بالقلم المذكور^(٤) رضا عفّ الله تعالى نعمة الجناب العالي الأميري الكبير العالمي العادلي المؤيدي العوني الزعمي الممهدي المشيدي الظهيري النويني السيفي عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين زعيم الجيوش مقدم العساكر كهف الملة ذخر الدولة ظهير الملوك والسلطين سيف أمير المؤمنين والدعاء، العلامة أخوه، تعريفه قطلوبوغا إيناق نائب القان جانبك رفقته الثلاثة واحدهم يسمى حسام الدين محمود مثله سواء وزير القان ببلاد أوزبك وهو حسام الدين محمود أيضاً يعرف بمحمود^(٥) الديوان في قطع الثلث بقلم التوقيعات، أمام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري الكبير الدخري الأوحدي الأكمل المتصرفي العوني الوزيري الحسامي مجد الإسلام والمسلمين شرف الأمراء والوزراء في العالمين جمال المتصرفين أوحد الأولياء المقربين دخر الدولة مشير الملوك والسلطين^(٦) والدعاء العلامة والده، تعريفه خواجه محمود وزير المملكة القانئية.

(١) جمع تومن عشرة آلاف عسكري منه عفي عنه.

(٢) جمع نوين بمعنى الباشا والقائد منه عفي عنه.

(٣) قطلوبوغا اسمه وإيناق لقبه وقد بقي هذا اللقب في مملكة خوارزم مدة مديدة وهو لفظ تركي مشتق من إينانمق أعني الوثوق والاعتماد وليس بعربي محرف من عناق كما ظن فإنه لا مناسبة له هنا منه عفي عنه.

(٤) انظر صبح الأعشى ١٢٦/٦ - ١٣٥.

(٥) وهو الذي أجلس بردي بك خان مسند الخانية في تبريز بعد قتل الملك الأشرف وأولم لذلك كما تقدم في محله فتذكر منه عفي عنه.

(٦) انظر صبح الأعشى ١٣٤/٦.

خواجه علي بك ببلاد أوزبك وهو ممن استجدت مكاتبته عندما كتب إليه في سنة ٧٦٥ ورسم المكاتبه إليه الاسم والسامي^(١) بالياء تعريفه اسمه خواجه علي بك .

مكاتبه ماماي ببلاد أوزبك هو أيضاً ممن استجدت المكاتبه إليه في العشر الأخير من ربيع الآخر سنة ٧٧٣ وقيل إنه يحكم ببلاد أوزبك وهو عند القان محمد الذي تقدم ذكره في المرتبة نظير ما كان عليه المقر المرحوم السيفي يلغا العمري سقى الله عهدته عند الموافق الشريفة وكتب إليه في قطع الثلاث بقلم التوقيعات: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي الأميري الكبير العالمي المجاهدي المؤيدي الأوحدي النصيري العوني الهمامي المقدمي النويني السيفي عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصره الغزاة والمجاهدين مقدم العساكر دخر الدولة عضد الملوك والسلاطين حسام أمير المؤمنين والدعاء العلامة والده تعريفه ماماي^(٢) .

الحاكم بالقرم وهو زين الدين رمضان علي ما استقر عليه الحال إلى آخر سنة ٧٥٠ ورسم المكاتبه إليه في قطع العادة، العلامة أخوه، صدرت تعريفه الحاكم بالقرم، الحاكم بازاق مثل سواء اه^(٣) . من التثقيف للشيخ عبد الرحمن تقي الدين المحبي انتخاباً بقدر الحاجة .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد القلقشندي^(٤) رحمه الله تعالى في كتابه صبح الأعشى في كتابة الإنشاء^(٥) بعد أن بين ملوك التتار بالبلاد الشمالية إلى توقتاميش خان إجمالاً وقد تقدم بعضه المهيع الثاني من الفصل الرابع من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبه إلى ملوك مملكة تواران . . . وهذه المملكة بيد ثلاثة

(١) يعني يكتب هكذا صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامي الأميري بالياء إلى آخر الألقاب والعلامة إليه الاسم الشريف والسامي بغير الياء يكتب هكذا هذه المكاتبه إلى المجلس السامي الأمير الكبير الخ بغير ياء والعلامة الاسم الشريف فاحفظه .

(٢) انظر صبح الأعشى ٣٢٨/٧ .

(٣) انظر صبح الأعشى ٣٢٧/٧ .

(٤) القلقشندي: هو أحمد بن علي بن أحمد بن أحمد القلقشندي شهاب الدين، أبو العباس المصري الشافعي، المتوفى سنة ٨٢١ هـ، من تصانيفه: «حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم»، «شرح جامع المختصرات للدلحي» في الفروع، «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»، «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»، «نهاية الأرب في معرفة أنساب قبائل العرب»، وغير ذلك. (كشف الظنون ١٢٢/٥) .

(٥) انظر صبح الأعشى ٣١٥/٧ - ٣٥٧ .

ملوك عظام من بني چنكزخان... صاحب خوارزم ودشت القفجق... الجملة الأولى في رسم المكاتبه إلى قانها^(١) (يعني الخان من بيت بركة وأولاد جوجي المشهورين بالملوك الصانبيه) وقد تقدم ذكر من ولي هذه المملكة بعد أوزبك ولم يكن فيهم من اسمه محمد وقد كان القائم بهذه المملكة في السنة ٧٨٦ المذكورة (يعني في التثقيف حيث ذكر فيه المكاتبه فيها إلى محمد خان بدشت القفجق) اسمه أرص خان فهو الذي انتزع المملكة من البك خان المقدم ذكره وأصله من خوارزم على ما مر ذكره في الكلام على المسالك والممالك فيحتمل^(٢) أن يكون اسمه محمد وارص لقب عليه كما كان خدابنده والدابي سعيد من ملوك إيران اسمه محمد ولقبه خدابنده والأمر في ذلك راجع إلى النقل والله سبحانه أعلم. (قلت وكل ذلك قد تقدم)، قلت وقد كتب في الدولة الناصرية فرج بن الظاهر برقوق^(٣) للقائم بها في سنة ٨١٢^{(٤)(٥)} في قطع البغدادى الكامل من الورق المصري المعمول على هيئة البغدادى ابتداء فيه بعد خمسة أوصل بياض بالبسملة في أعلا الوصل السادس بياض من جانبيها عرض أصبعين من كل جهة والسطر الثاني على سمتة في آخر الوصل يخلو بياض من الجانبين بقدر السطر الأول والطغرة بينهما بألقاب سلطاننا على العادة مكتوبة بالذهب بالقلب المحقق مزمك بالسواد بأعلا الطغرة قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً ومثل ذلك من أسفلها، وباقي السطور بهامش من الجانب الأيمن على العادة، وبين كل سطرين قدر نصف ذراع بذراع القماش القاهري والأسماء المعظمة من اسم الله تعالى ورسوله ﷺ واسم سلطاننا والسلطان المكتوب إليه والضمير العائد إلى أحدهما بالذهب المزملك كما تقدم تقريره في الكلام على مكاتبه صاحب إيران في القديم.

وهذه نسخة مما أنشأته كتبت بإشارة المقر العالى الفتحي صاحب الديوان الإنشاء الشريف.

(١) انظر صبح الأعشى ٣١٦/٧.

(٢) وهذا الذي استبعدناه في الهامش فتذكر. منه عفي عنه.

(٣) فرج بن الظاهر برقوق: تولى السلطنة مرتين: الأولى من سنة ١٣٩٨ م إلى سنة ١٤٠٥ م، والثانية من ١٤٠٥ م إلى ١٤١٢ م. وبين الولايتين كانت ولاية أخيه عبد العزيز بن برقوق لمدة شهرين فقط (الخطط التوفيقية ١/ ١١٤ - ١١٥، والدولة المملوكية ص ٣٧٩).

(٤) والقائم القائم بها في التاريخ المذكور هو فولاد خان صورة والمدبر للأمور هو الأمير ايدكو كما مر فيكون المكتوب المذكور له. منه عفي عنه.

(٥) انظر النص الكامل في صبح الأعشى ٣٢١/٧ - ٣٢٤.

وهي الحمد لله مؤيد سلطاننا الناصر بعزیز نصره. ورافع قدر مقامنا الشريف بإعلاء مناره وإعظام ذكره. ومشيد أركان ملكنا الشامخ بإسعاد جده العالي والله غالب على أمره. نحمده على ما جنبنا من مواقع الحرج. وجعل أمور رعايانا بمعدلتنا الشريفة بعد الضيق إلى فرج. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتوارثها عظماء الملوك كابرًا عن كابر. ويتناقلها منهم الخلف بعد السلف فيسندها الناصر عن الظاهر. ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضل نبي جمع بعموم دعوته مفترق الأمم. ووفق بحنيفي ملته بين أقبال العرب وأساورة العجم^(١). صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخا بينهم فسن لنا المواخاة. ونقي من نغل^(٢) الضغائن صدورهم ففازوا بأكمل المصافاة وأتم الموافاة. صلاة تسير بفضلها الركائب. وتترنم بذكرها الحداة فتعم نفخاتها المشارق والمغارب. وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد فإن الأرواح إذا تمازجت تناجت بالضمائر. والقلوب إذا تألفت اغتنت بشواهد الحال عن إبراز ما في السرائر. والأجساد إذا تباعدت تعللت بالمكاتب^(٣) في بلوغ الأوطار. والديار إذا تناءت اكتفت بالمراسلة عن تقارب الدار. والمودة إذا صفت لا يؤثر فيها البعاد. والمحبة إذا صدقت لا تزال كل يوم في ازدياد ع (والأذن تعشق قبل العين أحيانًا). والوصف يحرك من الشوق أغصانًا وأفنانًا.

هذا وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة لدواعي الابتهاج. وأهم ما اهتم به متخت أو متوج بتاج. إحياء مذهب الملوك السالفة في الوداد. واقتفاء آثارهم الجميلة في موارد المكاتبات على التنائي والبعاد ومن ثمة صدرت هذه المكاتب إلى المقام العالي السلطاني الكبير الأخوي الفلاني ركن الملة الإسلامية. عماد المملكة الچنكزخانية. ذخيرة الدين خليل أمير المؤمنين. زيدت عظمته. ودامت معدلته. تخصصه بسلام تهب به الجنوب فتؤثر به في الشمال القبول^(٤). وتخص به إلى السراي سراها ليكون لها بيت بركة أشرف قدم وأكرم وصول. وتمد على خوارزم والددشت

(١) الأقبال والأقوال: جمع قيل، وهم ملوك اليمن في الجاهلية، والقَبِيل دون الملك الأعظم.

والأساورة: صيغة جمع الجمع، والأسوار والإسوار هو قائد الفرس.

وهو أيضًا الفارس من فرسانهم المقاتلين: قال في لسان العرب: والهاء في «أساورة» عوض من

الياء، وكان أصله «أساور»، وكذلك الزنادقة أصله زناديف؛ عن الأخفش.

(٢) النغل، بالتحريك: فساد الأديم في دباغه، وفي الحديث: «ربما نظر الرجل نظرة فنغل قلبه كما

ينغل الأديم في الدباغ فيتقَّب».

(٣) القبول: ربح الصبا.

(٤) في صبح الأعشى: «بالمكاتبات».

فضل رواقه المديد. وتشر على مملكة السرير^(١) لواءه فيعم ما بين جيحون وطونا^(٢) وشمل ما بين الخطا والباب الحديد. وتناجى علمه الشريف بأنه غير خاف عن شريف مقامه أن من سلف من ملوك مملكتنا العالية الذرى. والمملكة القآنية المرفوعة الذكر رفيعة نار القرى. لم تزل ملوكهم مجتمعة مع تنائي الديار. مؤتلفة على المحبة وإن شط المزار. محافظين على تتابع الرسل وإن حال دونهم الصفاح^(٣) مئابرين على توارد الكتب ولو على أجنحة الطير ومتون الرياح. وقد مضت مدة مديدة لم يقدم علينا من المقام الشريف عظم الله تعالى شأنه رسول يظفي لواعج الاشتياق. ولا ورد عنه كتاب يتعلل المحب بتلقيه عن حقيقة التلاق. بل سد باب المكاتبه حتى كأن المكاتبه لم تخلق. وأغلق باب المراسلة وإن كان باب المحبة بحمد الله لم يخلق. فطمح بخاطرنا الشريف طامح الشوق الزائد^(٤). وحملنا موصول المحبة المستغنى بمواصلته عن الصلة والعائد. أن نفاتح المقام العالي دامت معدلته بهذه المفاوضة لتجدد من العهود القديمة رسومها. وتطلع من مشارق المخاطبة نجومها. وتنسخ آية الهجران وتمحوها وتصلقل مرآة المصافاة وتجلوها. وتستجلب الأنس وإن صح الميثاق وتذكر الخوخر الوداد وإن ثبتت منه الأصول ورسخت الأعراق وتنوب عن نظرنا الشريف في مشاهدة محياه الكريم. ومصافحة كفه التي حديث ودها قديم. وتستطلع أخباره. وتستعرض على تعاقب الأزمان أوطاره..

وقد اخترنا لتبليغ رسالتنا وأداء أمانتنا المجلس السامي المقرب الأمير خواجه فلان أعزه الله تعالى. وحملناه من السلام ما يهتدى بضوئه الساري. ويفوق بعرفه العنبر الشحري^(٥) والمسلك الداري^{(٦)(٧)}. ليحكم بحسن السفارة من المخالصة

(١) مملكة السرير: قال ياقوت الحموي: ومملكة السرير بلاد واسعة بين اللان وباب الأبواب وليس لها إلا مسلكين: مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى بلاد أرمينية، وهي ثمانية عشر ألف قرية في جبال. واسمها من سرير ذهبي كان لبعض ملوك الفرس (معجم البلدان ٣/٢١٨).

(٢) في صبح الأعشى: «طرنا».

(٣) الصفاح: يقال: لقيه صفاحاً، أي مواجهة. (٤) في صبح الأعشى: «المتزايد».

(٥) العنبر الشحري: نسبة إلى الشحر، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن (معجم البلدان ٣/٣٢٧).

(٦) المسلك الداري: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند. (معجم البلدان ٢/٤٣٢).

(٧) هكذا في الأصل المنقول والمشهور نسبة المسك إلى التتار فيقال المسك التتاري. منه عفي عنه.

مبانيًا^(١). ويعقد منها بمتابعة الرسل والقصاد أوأخيها. وجهزنا صحبته كذا وكذا على سبيل الهدية المندوب بذلها وقبولها. والحاكم بصحبة المحبة كبيرها وقليلها. والله تعالى يزيد في ارتفاع قدره الخطير. ويحوط به من ملكه الجنكزخاني ما يحقق أنه صاحب التاج والسرير اهـ.

الجملة الثانية^(٢): في رسم المكاتبه إلى من انطوت عليه هذه المملكة من الأتباع والحاكم وهم على أصناف الصنف الأول كفال المملكة.

قد تقدم أن ترتيب هذه المملكة في أمراء الألوس والوزير نحو مملكة إيران وإن لم يكن لأمير الألوس والوزير بهذه المملكة من نفاذ الأمر نظير ما هنالك يعني مملكة إيران الخ. ثم قال بعد أن ذكر نحوًا مما تقدم نقلًا عن التثقيف^(٣) الحاكم بالقرم وهو زين الدين رمضان في سنة ٧٥٠ ثم استقر بعده علي بك بن عيسى بن تلكتيمر وقد رأيت في بعض التواريخ أن الحاكم بها في حدود سنة ٧٧٦ كان ماماي المقدم ذكره وقد ذكر في التثقيف إن رسم المكاتبه إليه في قطع العادة الخ والذي رأيت في دستور يعزى في الأصل للمقر العالي ابن فضل الله أنه يكتب إليه في قطع الثلث وإن المكاتبه إليه السامي بالياء وتعريفه الحاكم بالقرم والحاكم بأزاق مثله سواء على ما ذكر في التثقيف والذي رأيت في الدستور المقدم ذكره أنه في قطع الثلث السامي بالياء كما في الحاكم بالقرم.

المرتبة الأولى^(٤): من الطبقة الأولى من المهيع الثاني من الضرب الثاني من القسم الثاني من يكتب له عنه يعني عن نائب الشام يقبل الأرض كما كان يكتب لصاحب بغداد القان أحمد بن أويس^(٥) في ورقة قطع نصف الحموي بالقلم الثالث الصغير يقبل الأرض لدى الحضرة الشريفة العالية المولوية السلطانية العالمية العادلة المؤيدية المالكية القآنية لا زالت عزماتها مؤيدة وآراؤها مسددة وينهي إلى العلم الكريم كذا وكذا الخ صاحب السراي ودشت القفچق مثله بأبسط القاب اهـ.

(١) في صبح الأعشى: «مبانيها».

(٢) انظر صبح الأعشى ٣٢٧/٧.

(٣) انظر صبح الأعشى ٢٢٤/٨.

(٤) هو السلطان أحمد بن أويس بن حسن الجلايري، آخر سلاطين «الجلالرية» ببغداد، مغولي الأصل، تولى السلطنة سنة ٧٨٤ هـ، واستقر في بغداد نحو ٥٠ سنة، حيث ثار عليه المغولي قرا يوسف، فقاتله، فقاتله، فانهزم السلطان أحمد وأسر وقتل خنقًا ببغداد سنة ٨١٣ هـ. (انظر الضوء للامع ٢٤٤/١، والأعلام ١٠١/١ - ١٠٢).

قال في ديوان الإنشاء بعد ذكر المكتوب السابق الصادر من الناصر فرج وكتب لقان هذه المملكة في الأيام المؤيدية بمثل ذلك من مقاصد الخطبة والظفرأة والطمغاة والذهب والسواد ونحو ذلك من إنشاء المرحوم الشيخ تقي الدين ابن حجة إلى قان هذه المملكة أيضًا وهو... (١) في الأيام الأشرفية برسباي خلد الله ملكه عدة مكاتبات على مثل مقاصد ذلك من الخطبة والظفرأة والطمغاة والتزيمك والذهب والسواد وقطع الورق آخرها من إنشاء القاضي شرف الدين بن العجمي نائب كاتم السر بديوان الإنشاء الشريف اهـ.

قلت: وآخر المكاتبات التي اطلعنا عليها كان في عهد السلطان برسباي ومحمد خان طيب الله ثراهم.

وقال القلقشندي (٢): القسم الثاني من النوع الأول في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن أهل الممالك الإسلامية المكاتبه عن هذه المملكة وحالتها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ظهر له ما هو وارد من ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة وعظيم النفع وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بمحك المعرفة.

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق في الأيام الظاهرية الشهيدية برقوق سقى الله تعالى عهده وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند توقتاميش خان صاحب بلاد أوزبك إلى آخر ما تقدم في ترجمة توقتاميش خان (٣) فراجع هناك انتهى ما يتعلق به الغرض من صبح الأعشى.

وقال الفاضل العلامة المحقق المتقن ابن فضل الله العمري (٤) القسم الأول في

(١) هكذا بياض في الأصل المنقول عنه والظاهر أنه محمد خان بن فلان الخ والله سبحانه أعلم.

(٢) انظر صبح الأعشى ٦٣/٨.

(٣) في صبح الأعشى: «طقتمش صاحب بلاد أوزبك».

(٤) ابن فضل الله العمري: هو أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل الله بن يحيى بن عثمان، القاضي شهاب الدين العمري القدسي الأصل، الدمشقي المولد والمنشأ، كاتب السر بالديار المصرية، ولد سنة ٧٠٠ هـ، وتوفي سنة ٧٤٩ هـ، له من تصانيف: «تذكرة الخاطر»، «التعريف بالمصطلح الشريف»، «حسن الوفاء لمشاهير الخلفاء»، «الدعوة المستجابة»، «دعوة الباكي ويقظة الشاكي»، «ذهبية العصر»، «سفرة السافر ويقظة المسافر»، «صباية المشتاق في المدائح النبوية عليه السلام والتحية»، «فواصل السمر في فضائل آل عمر»، «مسالك الأبصار في أخبار ملوك»

رتب المكاتبات إلى عظماء الملوك بإيران وتوران وما والاهما من البلاد الشرقية من مجرى الفرات إلى مطلع الشمس اعلم أن إيران مملكة الأكاسرة وهي كذا وكذا الخ.

وأما توران فهي مملكة الخواقين كانت بيد افراسياب ملك الترك وهي من نهر بلخ إلى مطلع الشمس على سمت الوسط فما أخذ عنه جنوباً كان بلاد السند ثم الهند وما أخذ عنه شمالاً كان بلاد القفجق وبلاد الصقلب والجهاركس والروس والماجار ومن جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سكان الشمال ويدخل في توران ممالك كثيرة وبلاد واسعة وأعمال شاسعة وأمم مختلفة لا تكاد تحصى يشتمل على غزنه والباميان والغور وما وراء النهر وهذا النهر الذي يشار إليه يعني باللام الداخلة على نهر هو جيحون نحو بخارى وسمرقند والصغد والخجند والخوقند وغير ذلك وبلاد تركستان وأستروشنه وفرغانة وبلاد صاغون وسيرام وبلاد الخطا نحو بش بالئق وآمالينغ إلى قراقرم وهي قرية چنكزخان التي أخرجته وعريشته التي أدرجته ثم وراء ذلك من بلاد الصين وصين الصين وكل هذه ممالك جلييلة وأعمال حفييلة وملوكها سلاطين عظام وملوك كرام قد أكرمهم الله الآن بالإسلام وشرفهم باتباع نبينا سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

فأما رسم المكاتبة إلى القان الجامع لحدودها والناظم لعقودها كما كان أبو سعيد^(١) فهو كتاب يكتب في قطع البغدادي الكامل يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة بالطغر المكتبة بالذهب المزمك بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات^(٢) ثم تكمل الخطبة ويفتح بعبودية إلى أن تساق الألقاب وهي الحضرة الشريفة العالية السلطانية الأعظمية الشاهنشاهية الأوحدية الأخوية القانية الفلانية من غير أن يخلط فيها الملكية لهوانها عليهم وانحطاطها لديهم ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية من إعزاز السلطان ونصر الأعوان وخلود الأيام ونشر الأعلام وتأييد الجنود وتكبير الوفود وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ثم يقال ما فيه التلويح والتصريح

= الأمصارة في التاريخ، «نفحة الروض» وغير ذلك، (كشف الظنون ٥/١١٠).

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه ولا يستقيم ولعله كما كان لأبي سعيد ونحوه منه عفي عنه.
 (٢) الطغراوات: مفردا الطغرى أو الطغرة، وهي العلامة التي تكتب بالقلم الغليظ في طرة الأوامر السلطانية تقوم مقام السلطان، وأصلها طورغاي، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس، ثم أخذها عنهم العرب واستعملوها استعمالهم. وعند الفلقشندي: هي عبارة عن وصل كان يوضع في عصر المماليك البحرية في مناشير الإقطاعات بين الطرة والبسملة وترد فيه ألقاب السلطان (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٣٣).

بدوام الوداد وصفاء الاعتقاد ووصف الأشواق وكثرة الأتواق وما هو من هذه النسبة ثم يؤتى على المقاصد ويختم بدعاء جليل ويستعرض الحوائج والخدم ويوصف التطلع إليها ويظهر التهافت عليها وهذا الكتاب يكتب جميع خطبته وطغراه وعنوانه بالذهب المزمك وكذلك كلما وقع في أثنائه من اسم جليل وكل ذي شأن نبيل من اسم الله تعالى أو لنبينا ﷺ أو لأحد من الأنبياء أو الملائكة عليهم السلام أو ذكر لدين الإسلام أو ذكر سلطاننا أو السلطان المكتوب إليه أو ما هو متعلق بهما مثل عندنا وعندكم ولنا ولكم وكتابنا وكتابكم كل هذا يكتب بالذهب وما سواه يكتب بالسواد.

وأما مملكة توران فهي منقسمة إلى ثلاثة أقسام وبها سلطانان مسلمان وسلطان كافر فأما المسلمان فأحدهما صاحب السراي وخوارزم والقرم ودشت القفجق وهي المملكة المعروفة بمملكة بيت بركة وكان صاحبها في الأيام الناصرية السلطان أوزبك خان وقد خطب إليه السلطان فزوجه بنتاً تقرب إليه وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتحاد وصدق وداد من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت والملك الآن فيهم من أولاد أوزبك أما جانبك أوتن بك وأظنها تن بك ورسم المكاتبه إليه إن كتب بالعربي رسم ما يكتب إلى صاحب إيران كما تقدم وإلا فالأغلب أن يكتب إليه بالمغلي وذلك مما كان يتولاه ايتمش المحمدي وطايرغا الناصري وارغداق الترجمان^(١) ثم صار يتولاه قوصون الساقى انتهى ما تعلق به العرض اختصاراً وانتخاباً بعون الله الباقي.

فصل في بيان بعض العلماء الذين قضوا أعمارهم في إفادة العلوم ومضوا وكانوا فبانوا من أول بناء مدينة سراي إلى آخر فنائها في أعصر الملوك الذين تقدم ذكرهم

فإن قلت: إن طائفة التتار قد خربوا الدنيا وقتلوا العلماء وسفكوا الدماء وفعلوا من القبائح ما لم ير مثله في كتب التواريخ مذ خلق آدم عليه السلام فكيف يوجد في زمنهم العلماء الكرام وقد قيل إن بعد ظهورهم وفتنتهم انطمست آثار العلوم وانمحت من عرصة الوجود المعارف والفنون.

(١) وكل هؤلاء المذكورين وكافة الأمراء أيام القلاونيين المشهورين بملوك الأتراك من تلك الديار. منه عفي عنه.

قلت: أمّا ما ذكرت من كثرة الفتن وشدة المحن والقتل والتخريب في أول ظهورهم صحيح لا شبهة فيه ولكن لم يؤثر ذلك في انتقاص العلوم وطرو الخلل في المعارف والفنون بل العلوم والمعارف جارية بعد ظهورهم على ما هي عليه قبل خروجهم فإن خروجهم لم يكن لمعاداة الدين ولا لبغض الإسلام والمسلمين بل لأمر آخر عرفته في أول هذا المقصد فالذي بلغ أجله من العلماء وكتب له الشهادة قتل في تلك المعارك وأما أنهم قتلوا العلماء قصداً فحاشاهم عن ذلك بل أنهم لما قصدوا خوارزم أرسلوا إلى الشيخ أبي الجناح نجم الدين الكبرى^(١) قدس سره وعرضوا عليه أن يخرج من البلد بجميع أتباعه بالغين ما بلغوا ولكنه أبى بنفسه عن ذلك لما ألهمه الله سبحانه من أنه يكرم بالشهادة في تلك المعارك وقد قبلوا كلام علماء سمرقند وبخارى حين خرجوا إليهم بالاستئمان وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأتباعهم وأشياهم وقد عرفت ما قاله چنكزخان لعلماء بخارى وتحريره إياهم عن التكاليف الميرية والرسومات السلطانية حين عوده إلى وطنه وقد كان وزراءهم الذين كانوا يدبرون أمور المملكة الداخلية من جباية الخراج ونصب القضاة والمفتين والمدرسين والأئمة والمؤذنين كلهم من المسلمين حتى في أصل مملكة چنكزخان التي يقال لها المملكة القآنية وهي مملكة المغول والخطا والصين وصين الصين وكانوا يجرون العلوفات والمعاشات على كل أحد حسب استحقاقه ويجزلون أعطية المشاهير من العلماء ويغنونهم. وقد انتشر أنوار الإسلام إلى أقصى الصين بواسطتهم وهؤلاء المسلمون الموجودون في وسط بلاد الصين حتى في نفس پكين وینوفون على ملايين إنما تشرفوا بخلعة الإيمان والإسلام وبنيت لهم فيها المساجد والجوامع حين كان أحكامهم تجري هناك وإن قال في ذلك القائلون الجاهلون بالأمور التاريخية غلطاً وراموا شططاً وقد اعترف المؤرخ كارامزين بانكبابهم في العلوم الفنون خصوصاً الرياضيات منها قبل فراغهم من فتح البلدان وهذا هلاكو الذي هو أشدهم على المسلمين كان في عصره وفي مصره ألوف من العلماء من جملتهم القاضي البيضاوي^(٢) الذي أكب الناس طرّاً على تفسيره المؤلف في ذلك العصر والمصر ومن

(١) نجم الدين الكبرى: هو أحمد بن عمر الخيوقى، أبو الخباب نجم الدين الكبرى الصوفى البغدادي، توفي سنة ٦١٨ هـ، من تصانيفه: «أصول العشرة»، «رسالة الطرق»، «رسالة الهائم الخائف من لومة اللائم»، «سر الحدس»، «طوالع التنوير»، «عين الحياة في تفسير القرآن»، «فواتح الجمال» فارسي في التصوف، وغير ذلك (كشف الظنون ٩٠/٥).

(٢) البيضاوي: هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، الإمام ناصر الدين، أبو سعيد =

الفلاسفة نصير الدين الطوسي^(١) الذي أكب جميع المتفلسفين إلى تأليفاته وسموه محققاً ولا يخفى مرتبته عند الطاغية هلاكو وليس انكباب الناس إلى تأليفهما لعدم تأليف من قبلهما في التفسير والفلسفة فإنه كثير جداً بل لما حوى من درر التحقيقات وغرر الدقيقات ولم يستنكف من تسليم ولده نكودار إلى الدراويش ليربوه كما شأوا فربوه ولقنوه الإسلام فأسلم وسمي أحمد وقد بنت أمه سرقوتني بكة مدرسة عالية مشتملة على ثلاث طبقات ببخارى ووقفت عليها أوقافاً لا تعد ولا تحصى مع ميلها إلى النصرانية على ما قيل وفوضتها إلى الشيخ سيف الدين البخارزي^(٢) قدس سره والظاهر أنها فتح أباد الذي بجانب مرقده قدس سره وهي إلى الآن مختصة بأهل قران كما مر بيانه في أول هذا المقصد ومن علماء تلك الشعبة العلامة قطب الدين الشيرازي^(٣)

= القاضي البيضاوي، الفقيه الشافعي، توفي سنة ٦٩١ هـ، وقيل: توفي سنة ٦٩٦ هـ بتبريز، وقيل: سنة ٦٨٥، من تصانيفه: «أنوار التنزيل في أسرار التأويل» في تفسير القرآن، «تحفة الأبرار في شرح المصابيح»، «تذكرة في الفروع»، «رسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها»، «شرح مصابيح السنة للبخاري»، «شرح الفصول لنصير الطوسي»، «غاية القصوى في دراية الفتوى»، «لب الألباب في علم الإعراب»، «مختصر الكافية» في النحو، «طوالع الأنوار» في علم الكلام، «مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام»، «مصباح الأرواح» في الكلام، «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى»، «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، «نظام التواريخ» فارسي وغير ذلك (كشف الظنون ٤٦٢/٥ - ٤٦٣).

(١) الطوسي: هو نصير الدين الطوسي، محمد بن محمد بن الحسين الطوسي، الفيلسوف، أصله من جهرود ساوة من أعمال قم، وولد بطوس واشتهر بها ولد سنة ٥٩٧ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٢ هـ. من تصانيفه: «آداب المتعلمين»، «إثبات العقل الفعال»، «أخلاق الناصري»، «تجريد الكلام»، «تحرير الاعتقادات»، «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي» في الكلام، «حل مشكلات الإشارات لابن سينا»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «فرائض النصيرية»، «قواعد العقائد»، «كتاب البلاغ»، «المتوسطات بين الهيئة والهندسة»، «مدخل إلى علم النجوم»، «نقد المحصل لفخر الدين الرازي» وغير ذلك (كشف الظنون ١٣١/٦). وفي البداية والنهاية ١٣/٢٦٨: النصير الطوسي محمد بن عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجه نصير الدين، اشتغل في شببته وحصل علم الأوائل جيداً، وصنف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في وقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو خان بقتل الخليفة فإله أعلم.

(٢) سيف الدين البخارزي: هو سيف الدين سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي البخارزي، المتوفى سنة ٦٥٩ هـ له: «شرح أسماء الله الحسنى». (كشف الظنون ٣٩١/٥).

(٣) قطب الدين الشيرازي: هو محمود بن مسعود بن مصلح، العلامة أبي الثناء، قطب الدين الفارسي الشيرازي، قيل هو ابن أخت مصلح الدين السعدي المشهور، كان عالماً فاضلاً عارفاً =

والعلامة قطب الدين الرازي^(١) والقاضي عضد الدين الإيجي^(٢) أصحاب تأليف مشهورة في المنطق والكلام والأصول والتفسير وغيرها وقد أكب الناس شرقاً وغرباً في الفنون المذكورة على تأليفهم إلى الآن.

ومن علمائهم صاحب مشكاة المصابيح الشيخ ولي الدين التبريزي^(٣) وشارحه الطيبي^(٤) وقد نور المشكاة بنوره المشرق المغرب والمشرق وقس على ذلك سائر الفنون من الصرف والنحو والبيان والفقه والتصوف وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن السلطان خربنده كان يأخذ معه في جميع أسفاره خيمنتين يدرس في إحداهما على المذهب الحنفي وفي الأخرى على المذهب الشافعي وتسميان بالمدرسة السيارة وكان

= في أشتات العلوم، شافعي المذهب، دخل بغداد ودمشق ومصر، وسكن تبريز وتوفي بها سنة ٧١٠ هـ، وكانت ولادته سنة ٦٣٤ هـ، من تصانيفه: «اختيارات المظفري في النجوم»، «التحفة السعدية في شرح كليات القانون لابن سينا»، «التحفة الشاهية» في علم الهيئة، «درة التاج لغرة الديباج» المشهور بأنموذج العلوم، «شرح الأسرار للسهورودي»، «شرح تذكرة النصيرية» في الهيئة، «شرح منتهى السؤل والأمل لابن الحاجب»، «غرة التاج»، «فتح المنان في تفسير القرآن»، «مشكلات التفاسير»، «مفتاح المفتاح للسكاكي» في المعاني، «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» (كشف الظنون ٤٠٦/٦ - ٤٠٧).

(١) قطب الدين الرازي: لم أجد له ترجمة في المراجع والمصادر التي بين يدي.

(٢) عضد الدين الإيجي: هو عبد الرحمن بن ركن الدين أحمد بن عبد الغفار البكري، القاضي عضد الدين الإيجي (إيج بلدة من نواحي شيراز) الحنفي، كان قاضيًا بممالك الأتقان، ولد سنة ٧٠٠ هـ، وتوفي سنة ٧٥٦ هـ، له من التصانيف: «آداب عضد الدين»، «أخلاق عضد الدين»، «إشراق التواريخ» «بهجة التوحيد»، «تحقيق التفسير في تكثير التنوير» في تفسير القرآن، «جواهر الكلام في مختصر المواقف» له، «الرسالة العضدية في الوضع»، «زبدة التاريخ في ترجمة إشراق التواريخ»، «شرح المقالة المفردة في صفة الكلام»، «شرح منتهى السؤل والأمل لابن الحاجب» «عقائد العضدية»، «عيون الجواهر»، «الفوائد الغيائية في المعاني والبيان»، «الكواشف في شرح المواقف»، «المواقف السلطانية في علم الكلام»، وغير ذلك، (كشف الظنون ٥٢٧/٥).

(٣) ولي الدين التبريزي: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ولي الدين، الشهير بخطيب الفخرية، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، له من المصنفات: «أسماء رجال الحديث من المشكاة»، «غرة التأويل» في التفسير، «مجالس في التفسير والموعظة»، «مشكاة المصابيح» أعني «مصابيح السنة للبغوي»، فرغ منه سنة ٧٣٧ هـ. (كشف الظنون ١٥٦/٦).

(٤) الطيبي: هو شرف الدين الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي (بكسر الطاء والباء الموحدة) الدمشقي الحافظ توفي سنة ٧٤٣ هـ، من تصانيفه: «التبيان في المعاني والبيان»، «الخلاصة في أصول الحديث»، «شرح أسماء الله الحسنى»، «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» حاشية على الكشاف، «الكاشف عن حقائق السنن» في شرح مصابيح السنة للبغوي. (كشف الظنون ٥/٢٨٥).

طعام الطلبة المذكورة هناك ووظائفهم من مطبخه وخزانتة وكان يخدم بنفسه الشيخ علاء الدولة السمناني^(١) والشيخ صفى الأردبيلي^(٢) والشيخ أوحده الدين الكرمانى^(٣) والشيخ العلامة الكاشانى^(٤) مع أنه كان متصفاً بالرفض والتشيع.

وأما مملكة بني جغتاي أعني ما وراء النهر فأمرها مشهور وفضل فضلائها وعلمائها ومشائخها في جميع الأعصار في الكتب مسطور وفي الألسنة مذكور ألا ترى أن كافة محشي الهداية^(٥) وصاحب الوقاية^(٦) وشارحها ومؤلف النقاية^(٧) وصاحب الكشف الكبير^(٨) وصاحب المنار في

(١) علاء الدولة السمناني: هو أحمد بن محمد بن أحمد السدي، ركن الدين علاء الدولة السمناني البيبانكي الشافعي الصوفي، ولد سنة ٦٧٠ هـ، وتوفي سنة ٧٣٦ هـ، له من التصانيف: «آداب الخلوة»، «بيان الذكر الخفي المستحب للأجر الوفي» رسالة فارسية، «تفسير القرآن»، «سر البال في أطوار سلوك أهل الحال»، «شقائق الحدائق في شرح حدائق الحقائق في اشتقاق الجلال»، «العروة لأهل الخلوة»، «العروة الوثقى»، «فصول الأصول» المشهور بما لا بد منه، «الفلاح في مختصر شرح السنة»، «فوائد العقائد»، «مدارج المعارج في الوارد الطارد لشبهة المارد»، «المقالات في التصوف»، «المكاشفات» «موارد الشوارد»، «مهجة التوحيد»، «نجم القرآن في تأويلات القرآن»، وغير ذلك. (كشف الظنون ١٠٨/٥).

(٢) صفى الأردبيلي: لعله علي بن عيسى الأردبيلي تلميذ شرف الدين الطيبي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ، له من المصنفات: «برهه من الدهر»، «حدائق البيان في شرح التبيان لأستاذة»، «كشف الغم في تاريخ الأمم»، «المسالك والممالك»، «نزهة الأخبار في ابتداء الدنيا وقدم القوي الجبار» في التاريخ. (كشف الظنون ٧٢٢/٥).

(٣) أوحده الدين الكرمانى: لم أجد من يلقب بأوحده الدين الكرمانى سوى أوحده الدين الكرمانى أبى حامد الشاعر المتوفى سنة ٥٣٤ هـ، له: «مصباح الأرواح وأسرار الأشباح» في المثنويات فارسي (كشف الظنون ٢٢٨/٥) ولا أعتقد أنه المقصود لأنه ليس معاصراً للأعلام المذكورة سابقاً.

(٤) الكاشانى: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) الهداية: لعله كتاب «الهداية» في الفروع لشيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبى بكر المرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ. (انظر كشف الظنون ٢/٢٠٣١ - ٢٠٤٠).

(٦) الوقاية: هو كتاب (وقاية الرواية في مسائل الهداية) للإمام برهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة الأول عبيد الله المحبوبي الحنفي. المتوفى في حدود سنة ٦٧٣ هـ، وله بالإضافة إلى كتاب «الوقاية»، «الفتاوى»، «واقعات في الفروع». (انظر كشف الظنون ٢/٢٠٢٠، ٤٠٦/٦).

(٧) النقاية: هو مختصر في أربعة عشر علماً مع زبدة مسائلها، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي المتوفى سنة ٩٧ هـ. (كشف الظنون ٢/١٩٧٠).

وهناك كتاب آخر وهو: «النقاية مختصر الوقاية» للشيخ الإمام صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود الحنفي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ (كشف الظنون ٢/١٩٧١).

(٨) الكشف الكبير: لعله كتاب «كشف الإبهام لدفع الأوهام» للعلامة ظهير الدين محمد بن عمر =

الأصول^(١) والكنز^(٢) والكافي والمدارك^(٣) وصاحب مفتاح العلوم^(٤) وشرح التلخيص^(٥) والجغميني^(٦) في الهيئة وسائر أرباب الفنون المتداولة بأيدي الناس في يومنا هذا كلهم كانوا في زمنهم وكذلك جميع مشايخ النقشبندية والكبروية واليسوية وغيرها كلهم كانوا في عصرهم مكرمين عندهم محترمين لديهم وتفصيل ذلك في كتب التواريخ من راجعها يجد الأمر خلاف ما قيل ويحكم على صاحب القيل بالقصور في التتبع والاستقراء والويل.

وأما انقيادهم إلى الحق وإكرامهم العلماء واحترامهم الفضلاء وتعظيمهم لأوامر الله تعالى فأمر لا يوجد في غيرهم يعرف ذلك من تتبع أحوالهم بعد دخولهم في حمى الإسلام وبهذا ظهر صدق ما أخبر به النبي ﷺ: «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية»^(٧). الحديث وقد قال جمع من الشراح أن المراد بالشأن الإسلام والإيمان وإن فسره جمع بالإمارة والخلافة^(٨) وفي رواية البخاري: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن

- = النوجابادي البخاري الحنفي ألفه بالمستنصرية ببغداد سنة ٦٦٨ هـ (كشف الظنون ١٤٨٤/٢).
- (١) المنار في الأصول: هو كتاب «منار الأنوار» في أصول الفقه للشيخ الإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي، المتوفى سنة ٧١٠ هـ. (كشف الظنون ١٨٢٣/٢).
- (٢) الكنز: هو كتاب «كنز الدقائق» لحافظ الدين النسفي المتقدم في الحاشية السابقة.
- (٣) المدارك: هو كتاب «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» في تفسير القرآن للنسفي المتقدم ذكره. (كشف الظنون ١٦٤٠/٢).
- (٤) مفتاح العلوم: للعلامة سراج الدين بن أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، (كشف الظنون ١٧٦٢/٢).
- (٥) التلخيص: لعله كتاب «تلخيص الجامع الكبير في الفروع» للشيخ الإمام كمال الدين محمد بن عباد بن ملك داد (داود) الخلاطي الحنفي المتوفى سنة ٦٥٢ هـ، (كشف الظنون ٤٧٢/١).
- (٦) الجغميني: هو محمود بن محمد الخوارزمي المعروف بالجغميني، له ملخص في الهيئة البسيطة فرغ منها سنة ٨٠٨ هـ، (كشف الظنون ٤١٠/٦).
- (٧) زُوي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، ١٤، ١٩، والمناقب باب ١، وتفسير سورة ١٢، باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٨، وفضائل الصحابة حديث ١٩٩، والدارمي في المقدمة باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/٢٥٧، ٢٦٠، ٣٩١، ٤٣١، ٤٣٨، ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٢٥، ٥٣٩، ٣٦٧/٣، ٣٨٣، ١٠١/٤.
- (٨) ولا معنى له بل هو تحريف للمعنى المراد فإن ضمير له راجع إلى الشأن ومن الذي يكره الإمارة والخلافة بل كل واحد يترنم بقول يا حيداً الإمارة ولو على الحجارة وإنما المراد بالشأن الذي يكرهونه هو الإيمان والإسلام قبل الدخول فيه يعرفه أم المندى أيضاً منه عني عنه.

وجوههم المجان المطرقة وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام» الحديث ولا يخفى لذي اللب ما في الجمع^(١) بين قتال الترك وبين قوله وتجدون من خير الناس الخ، من الإشارة بأن المتصفين بهذا الوصف هم هؤلاء الترك وقد قال جمع من الشراح أن المراد بالترك في هذا الحديث هم التتار والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور وهذا الذي بيناه هو أحوال الشعب الثلاثة من بني چنكزخان.

وأما الشعبة الرابعة أعني بني جوجي الذين نحن الآن بصدد بيان أحوالهم فقد عرفت ما صدر من بركة خان الذي هو أول من أسلم منهم من المكارم من وقوفه وقيامه بباب الشيخ سيف الدين الباخري^(٢) قدس سره ثلاثة أيام أو يوماً و ليلة على اختلاف الروايتين كما مر وهو إذ ذاك سلطان عظيم ابن سلطان عظيم ابن سلطان عظيم عمن نقل مثل هذا من المكارم ونهاية ما نقل عن هارون الرشيد^(٣) أنه صب الماء على يد واحد من العلماء^(٤) وأن ابنه مأمون^(٥) مشى على رؤوس أصابع قدمه لثلاثا ينتبه يحيى بن أكثم^(٦) وهذان مما لهجت بذكره الرواة وولعوا به وعدوه من نهاية المكارم ولا يخفى ما بين ذلك وذين لمن تأمل مع أنهما من أحسن الخلفاء العباسية وقد مر عن كارامزين انكبابهم في التمسك بالإسلام وحفظ حوزته عن الكفرة اللثام بعد أن أسلم بركة خان وأعلن نفسه حامي الإسلام والقرآن هذا حال

(١) وكأني بالمتعصبين ينظرون إلى من نظر شزر ويقولون: إن هذا مركب من أحاديث أربعة فليس فيه جمع من النبي ﷺ فأقول: نعم الأمر كذلك ولست بجاهل بما هنالك ولكن مرادي بالجمع جمع الراوي أبي هريرة بإلهام من الله تعالى لا جمع النبي ﷺ، منه عفي عنه.

(٢) الباخري: تقدمت ترجمته.

(٣) هارون الرشيد: هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أشهر خلفاء بني العباس، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه موسى الهادي، في ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ، وتوفي سنة ١٩٣ هـ، (انظر البداية والنهاية ٨/ ٢٢٥ - ٢٣٤).

(٤) ومع ذلك امتن به حيث قال من صب على يدك الماء أمير المؤمنين، منه عفي عنه.

(٥) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، كنيته أبو العباس، وقيل: أبو جعفر، ولد سنة ١٧٠ هـ، وبويع بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ. وتوفي بأرض الروم سنة ٢١٨ هـ. (انظر العقد الفريد ٥/ ١١٩، والكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٢ - ٢٨٨).

(٦) يحيى بن أكثم: هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي المروزي، من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب، كان عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام، ولأه المأمون القضاء ببغداد، توفي سنة ٢٤٢ هـ، وقيل: سنة ٢٤٣ هـ. (مروج الذهب ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٦، وفيات الأعيان ٦/ ١٤٧ - ١٦٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٧، الأعلام ٨/ ١٣٨).

نفس بركة وأما غيره فننظر ماذا يعطينا كتب التواريخ فإن المدار في ذلك عليها لا غير.

قال ابن عربشاه^(١) ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنفي الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشايخ من الآفاق والأكناف. ليوقفوا الناس على معالم دينهم. ويبصروهم على طرائق توحيدهم ويقينهم. وبذل في ذلك الرغبات. وأفاض الوافدين منهم بحار الهبات. وأقام حرمة العلم والعلماء. وعظم شعائر الله تعالى وشرائع الأنبياء. وكان عنده في ذلك الزمان. وعند أوزبك بعده وجان بك خان. مولانا قطب الدين العلامة الرازي^(٢). والشيخ سعد الدين التفتازاني^(٣). والسيد جلال الدين شارح الحاجية^(٤). وغيرهم من فضلاء الحنفية والشافعية. ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي^(٥). ومولانا أحمد الخجندي^(٦). ورحمهم الله تعالى. فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات. مجمع

(١) أحمد بن عربشاه الدمشقي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل، ثم الرومي، الحنفي، شهاب الدين، أبو محمد المعروف بابن عربشاه، الأديب المؤرخ، ولد سنة ٧٩١ هـ، وتوفي سنة ٨٥٤ هـ، من تصانيفه: «برهان الفارض بقول المعارض» «ترجمان المترجم بمنتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب» «ترجمة تفسير أبي الليث»، «ترجمة جامع الحكايات». «جلوة الأمداح الجمالية في حلتي العروض والعربية»، «خطاب الإهاب الناقب وجواب الشهاب الثاقب»، «عجائب المقدور في نوائب تيمور» في التاريخ، «العقد الفريد في علم التوحيد»، «عنقود النصيحة»، «غرة السير في دول الترك والتتر»، «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» وغير ذلك، (كشف الظنون ١٣٠/٥).

(٢) قطب الدين الرازي: لم أجد له ترجمة.

(٣) التفتازاني: هو الإمام سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الهروي الخراساني، العلامة الفقيه الأديب الحنفي، الشهير بالتفتازاني، ولد سنة ٧٢٢ هـ، وتوفي بسمرقند في المحرم سنة ٧٩٢ هـ، من تصانيفه «إرشاد الهادي» في النحو، «تهذيب المنطق والكلام»، «شرح الكشاف»، «كشف الأسرار وعدة الأبرار» في تفسير القرآن فارسي، «مقاصد الطالبين في علم أصول الدين»، وغير ذلك، (كشف الظنون ٤٢٩/٦ - ٤٣٠).

(٤) جلال الدين شارح الحاجية: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٥) البزازي: هو محمد بن محمد بن شهاب بن يوسف الكردي البريقي، الإمام حافظ الدين الخوارزمي الحنفي المعروف بالبزازي، توفي سنة ٨٢٧ هـ، من تصانيفه: «الجامع الوجيز» المشهور بالفتاوى البزازية، «شرح مختصر القدوري»، «مناب الإمام أبي حنيفة» وغير ذلك، (كشف الظنون ١٨٥/٦).

(٦) الخجندي: هناك اثنان اسمهم أحمد الخجندي، الأول تاج الدين أحمد بن محمود بن عمر الخجندي ثم المكي الحنفي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ. صنف: «الإقليد شرح المفصل =

العلم ومعدن السعادات. واجتمع فيها من العلماء والفضلاء. والأدباء والظرفاء. ومن كل صاحب فضيلة. وخصلة نبيلة جميلة. في مدة قليلة ما لم يجتمع في سواها. ولا في جامع مصر ولا قراها^(١) اهـ.

وقال في الشقائق النعمانية^(٢) في ترجمة سيد أحمد بن عبد الله القريني^(٣) الآتي ذكره رُوِيَ إنه لقي السلطان محمد خان يوماً وقد خرج من قسطنطينية متوجّهاً إلى أدرنة فسأله السلطان محمد خان عن أحوال مدينة قريم فقال كنا نسمع أن بها ستمائة مفت وثلاثمائة مصنف وأنها بلدة معمورة بالعلم والصلاح.

قال المولى القريني وقد أدركت أواخر هذا النظام قال السلطان وما كان سبب خرابها قال حدث هناك وزير أهان العلماء فترفقوا والعلماء بمنزلة القلب من البدن وإذا عرضت للقلب آفة سرى الفساد إلى سائر البدن فدعا السلطان وزيره محمود پاشا وحكى ما قال المولى المزبور وقال قد ظهر منه أن خراب الملك من الوزير فقال الوزير محمود لا بل من السلطان قال لم قال لأي شيء استوزر مثل هذا الرجل قال السلطان صدقت اهـ. رحم الله هؤلاء الأرواح الطاهرات كيف كان إصغائهم إلى قول العلماء وكيف كان إذعانهم وقبولهم للحق.

= للزمخشري، «المقاليد في شرح المصباح للمطرزي»، «عقود الجواهر» في «علم التصريف»، (كشف الظنون ١٠٢/٥).

والثاني (وهو المقصود): أحمد بن محمد بن الأحرز الخجندي المدني، جلال الدين أبو طاهر الحنفي الصوفي المتوفى بالمدينة سنة ٨٠٣ هـ. له من المصنفات: «الأنواع التفريديّة في شرح أربعين التوحيدية»، «حاشية على الكشف»، «راح الروح وسلسبيل الفتوح في أسماء الله الحسنی»، «الشراب الطهور» في التصوف، «شرح أربعين النووية»، «شرح البردة»، «شرح الميمية لابن الفارض»، «فردوس المجاهدين وشرحها»، «الوفاء في شرح الشفاء للقاضي عياض» لم يكمل (كشف الظنون ١١٧/٥ - ١١٨).

(١) وهذا وإن تقدم في أول هذا المقصد إلا أن المقام اقتضى إعادتها: شعر:

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع

منه عفي عنه.

(٢) الشقائق النعمانية: هو كتاب «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» للمولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاشكبري زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ. (كشف الظنون ١٠٥٧/٢).

(٣) القريني: هو أحمد ابن السيد عبد الله القريني الحنفي المتوفى سنة ٨٦٢ هـ، من تصانيفه: «تعليقة على أنوار التنزيل للبيضاوي»، «حاشية على شرح العقائد النسفية»، «شرح اللباب للإسراييني» «المعول حاشية على المطول» في المعاني والبيان. وغير ذلك (كشف الظنون ١٣١/٥).

ولا تتوهم أن الكلام في علماء دولة التتار ببلاد الشمال كلها وهذا بيان لحال مدينة قريم فقط فيمكن أن يكون ذلك الحال بعد استقلال قريم لأن هذا توهم باطل فإن قدوم المولى المذكور إلى بلاد الروم إنما كان في أوائل المائة التاسعة بعد بلوغه مرتبة الكمال والإكمال في وطنه وفي الوقت المذكور لم تكن القريم مستقلة وإنما حصل لها الاستقلال بعيد ذلك كما عرفته ومع ذلك قال أدركت أواخر هذا النظام فأوائله يكون قبله بسنين كثيرة فكيف يتوهم أن المراد به قطعة قريم بل المراد جمع الشمالية من السراي والحاجي طرخان وبلغار وأزاق وقريم وسائر البلدان التي كانت تجري فيها أحكام الملوك السالف ذكرهم وإنما عبر بالقريم لقربها منهم وهكذا كانت عادتهم كانوا يعبرون عن جمع تلك البلاد بالقريم^(١) حتى هي أعني العادة المذكورة باقية إلى الآن فاحفظ هذا ينفعك في مواضع شتى فيما سيأتي وغيره أيضًا. وأما التعبير بالمدينة فسبق قلم لا غير وإلا فلا يتوقف عاقل في اعتقاد استحالة وجود هذا القدر من المفتين والمصنفين في مدينة واحدة أو ولاية واحدة أي ولاية كانت كما لا يخفى وبهذا تبين أيضًا كون المراد بقريم كافة حكومة التتار الشمالية المشهورة بمملكة بركة وأوزبك ودشت قفجق، هذا فقد بان لك الأمر وظهر الحال ولكن من أين نجد تراجم هؤلاء العلماء ومن أين نطلب أحوال هؤلاء الفضلاء ويا ليت بقي لنا اسم واحد من كل مائة فضلًا عن أحوالهم فلا جرم نكتفي بذكر أحوال من أطلعنا عليه في بعض الحواشي ونقنع بالضرورة بتحرير أسماء من عثرنا عليه في بعض الأطراف المثبته لإزالة الغواشي ونظهر غاية الأسف على إهمال قومنا تراجم علمائهم وتضييع جماعتنا مناقب فضلائهم.

وقد ذكر ابن بطوطة^(٢) في رحلته الشهيرة جملة من العلماء والمشايخ الذين لقيهم هناك فما أنا أنقل عنها بطريق الانتخاب قال ونزلنا يعني بمدينة قريم بزواوية شيخ زاده الخراساني فأكرمنا ورحب بنا وأحسن إلينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقه وسواهم ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين الساتلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر

(١) حتى قال مترجم رحلة ماغمان الأميريكي إلى خيوه في أثناء بيان خوانين خوارزم إن خوانين أوزبك كانوا وقتًا ما يعزلون مثل ميخايل الثاني ويوري وديميتري من ملوك الروس وينصبونهم كيف شاؤوا اهـ ولم يدر هذا المترجم أن هؤلاء قتلهم سلطان السلطين السلطان محمد أوزبك خان وأن العزل والنصب كيف شاؤوا داما مدة سنة ٢٥٠ كما تقدم كله، منه عفي عنه.

(٢) ابن بطوطة: تقدمت ترجمته.

والفقيه المدرس علاء الدين اللاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر^(١) رحمه الله تعالى بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه والشيخ العابد الصالح مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وإمام والي قريم تلتكثير الإمام سعد الدين والفقيه شرف الدين موسى والشيخ رجب النهر ملكي نسبة إلى قرية بالعراق فأضافنا بزواية له بمدينة أزاز ضيافة حسنة وذكر ملاقاته قاضي أزاز وخطيبه ولم يذكر اسمهما.

قال وسافرت إلى مدينة الماجر وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزواية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاوية نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيول والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصاً النساء فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وكبرائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤون بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبرائها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال: إن الفقيه الواعظ يريد السفر ويزيد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز^(٢) كانت عليه وقال: هذه مني إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطى فرساً ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله.

وقال عند ذكره مدينة سراي وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة قلت وقد ذكر ملاقاته بقاضي حمزة أيضاً والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرئ حسام الدين البخاري والشريف ابن عبد الحميد نقيب السادات والأشراف ولعله السيد الجليل عبد الحميد العميدي الحسيني والله سبحانه أعلم ثم قال وبها يعني بحضرة السراي من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكري

(١) وقد تقدم منا في أواسط هذا المقصد أنه سبق قلم بل الصواب الملك المنصور قلاوون لأنه هو الذي بناه كما تقدم تراجع منه عفي عنه.

(٢) تفتك كجتي مامغي منه عفي عنه.

(اللزكي) أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وبها زاوية الحاج الصالح نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا .

[نعمان الدين الخوارزمي]

وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيت به وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي إليه السلطان أوزبك زائرًا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم له ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه بالطف كلام ويتواضع له والشيخ بصد ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بالطف كلام ويكرمهم وأكرمني جزاه الله خيرًا وبعث إلي بسلام تركي وشاهدت له بركة كرامة له كنت أردت السفر من السراي إلى خوارزم فنهاني عن ذلك وقيل لي أقم أيامًا ثم تسافر فنازعني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الإقامة فعزمت على السفر فأبق لي غلام أقمته بسببه وهذه من الكرامات الظاهرات ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الأبق بمدينة الحاج طرخان فجاء به إلي فحيثئذ سافرت إلى خوارزم .

يقول راقم الحروف قد مر ذكر الشيخ نعمان هذا في أوائل هذا المقصد وفي أثناء ترجمة السلطان أوزبك وما فعله أوزبك برسل الملك الناصر لأجله وبالجملة أنه كان من أعيان علماء ملوك السراي وأجل مشايخهم وقد ترجمه البرزالي^(١) حيث قال ووصل أيضًا (إلى دمشق في رمضان سنة ٧١٨) الشيخ علاء الدين نعمان بن دولت شاه بن علي الخوارزمي فأقام أيامًا وتوجه إلى باب السلطان بالقاهرة ثم حج من هناك وأقام بالقاهرة مدة سنة ونصف ورجع إلى مخدمه الملك أوزبك خان وهو رجل فاضل سافر من بلده وعمره إحدى وعشرون سنة فطاف البلاد واجتمع بالفضلاء وحصل المنطق والجدل والطب وعاد إلى بلده سنة إحدى وسبعمائة واتصل بملكها تلكتيمر وخدم عنده طبيبًا وصار كبير أطباء المارستان بخوارزم ثم أوصله إلى الملك

(١) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ، من مصنفاته «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ. (كشف الظنون / ٥ / ٨٣٠).

طقطاي بن بركة ملك بلاد دشت القفجق فحظي عنده فلما مات هذا الملك وولى بعده أوزبك خان من أبناء الثلاثين وعنده إسلام وعقل وهو حسن الهيئة والصورة سير مبلغاً مع علاء الدين النعمان المذكور يعمر ببعضه خانقاهاً بالقدس ويفرق البعض على مجاوري الحرمين الشريفين ومولد النعمان في نصف رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة بخوارزم اهـ. بحروفه. فعلم من ذلك أنه كان جامعاً للفضائل الظاهرية والباطنية ثم ترك الكل واختار طريق الفقر وتوجه بكليته إلى الله تعالى وقد ذكر البرزالي قدومه إلى دمشق قبل هذه المرة أيضاً في عصر طقطاي خان حيث قال وذكر الشيخ الفاضل علاء الدين النعمان الخوارزمي الحنفي لما قدم دمشق سنة عشر وسبعمائة أن طول هذه المملكة يعني مملكة أوزبك مسيرة ثمانية أشهر وعرضها ستة أشهر اهـ.

قال البدر العيني^(١) ما خلاصته عند ذكره ما حصل لرسول الملك الناصر طقصباء الظاهري من غيظ أوزبك خان عليه في سنة ٧٢٢ كما مر أن سبب ذلك قد حضر الشيخ نعمان مع الخاتون طلنبية وكان له وضع عظيم عند أوزبك وله فيه اعتقاد كبير

(١) العيني: هو بدر الدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف بن محمود، أبو محمد العيني ثم المصري، الفقيه الحنفي، تولى قضاء القضاة والاحتساب، المعروف بالعيني نسبة إلى مولده في بلدة عينتاب، ولد سنة ٧٦٢ هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٥٥ هـ، له من المصنفات: «البنية في شرح الهداية للمرغيناني»، «تاريخ الأكاسرة»، «تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر»، «حاشية على شرح ابن المصنف للألفية»، «الحاوي شرح قصيدة الساوي» في العروض، «درر البحار الزاهرة في نظم البحار الزاهرة لحسام الرهاوي»، «الدرر الفاخرة في شرح البحار الزاهرة»، «رمز الحقائق في شرح كنز الدقائق»، «زين المجالس»، «سير الأنبياء»، «سيرة الملك الأشرف»، «سيرة الملك الظاهر طغرل»، «سيرة الملك المؤيد»، «شرح سيرة مغلطاي»، «شرح الشافية لابن الحاجب»، «شرح عروض ابن الحاجب»، «شرح قطعة من سنن أبي داود»، «طبقات الحنفية»، «طبقات الشعراء»، «عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان»، «العلم الهيب في شرح الكلم الطيب لابن تيمية»، «عمدة القاري في شرح الجامع الصحيح للبخاري»، «فوائد العوائد في اختصار شرح الشواهد للألفية»، «كشف اللثام في شرح سيرة ابن هشام»، «المسائل البدرية المنتخب من فتاوى الظهيرية»، «المستجمع في شرح المجموع لابن الساعاتي»، «مشارح الصدور» في الخطب والمواعظ، «مغاني الأخبار في رجال معاني الآثار»، «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية»، «ملاح الأرواح في شرح المراح»، «منحة السلوك شرح تحفة الملوك» في الفروع، «ميزان النصوص» في علم العروض، «نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار»، «شرح معاني الآثار»، «نهاية البيان» شرح آخر على الهداية للمرغيناني، «الوسيط مختصر المحيط». (كشف الظنون ٦/٤٢٠ - ٤٢١).

وذلك أنه كان عند طقطاي وهو يعتقد فيه وأن أوزبك إذا حضر عند طقطاي كان الشيخ نعمان يقول له في السر أن الملك يصير لك وأنك ملك بعد طقطاي فصار الأمر كما قال فحظي الشيخ نعمان عنده حظًا وافراً وعند إرسال الخاتون طلنبية إلى مصر استأذن أوزبك أن يروح معها ثم يزور القدس والخليل ويبنى له مكاناً في القدس ويقيم فيه يعبد الله فأجاب إليه أوزبك وأعطاه ذهباً كثيراً فلما وصلوا إلى مصر أساء مهندار معاملته معه وأخرق به فغضب لذلك فلما رجع إلى بلده أخبر بذلك أوزبك فغضب أوزبك لذلك غضباً شديداً الخ قلت ولم أقف على تاريخ وفاته وبالجملة قد تبين كونه من الكملاء المعمرين رحمه الله تعالى وإياك أن تتوهمه نعمان الدين بن عبد الجبار الخوارزمي المعتزلي إمام تيمرلنك بمشاركتها في الاسم والنسبة فإنه مقدم عليه بالزمان والفضل والاعتقاد والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

وقال ابن بطوطة أيضاً ولما أتيت هذه المدينة يعني خوارزم نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث إلى نائبه نور الإسلام فسلم عليّ ثم عاد إليه ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم عليّ وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الإسلام المذكور والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء وهو الشديد في أحكامه القومي في ذات الله تعالى ولما دخلنا المدينة ونزلنا بالمدرسة الجديدة أتى إلينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدس ومولانا رضى الله بن يحيى ومولانا فضل الله الرضوي ومولانا جلال الدين العمادي ومولانا شمس الدين السنجري إمام أميرها قطلوتيمر اهـ.

ولم أقف على ترجمة واحد من هؤلاء المذكورين ومناسبة ذكرهم هنا لكون ولاية خوارزم من جملة ممالكهم.

[نجم الدين الزاهدي]

وبهذه المناسبة بعد الإمام الأجل الشيخ الأكمل نجم الدين أبو الرجا مختار بن محمود بن محمد الغزميني أو القزبني الحنفي الزاهد^(١) رحمه الله تعالى من أول علماء

(١) هو نجم الدين أبو الرجا مختار بن محمود بن محمد الغزميني الخوارزمي، الفقيه الحنفي المعروف بالزاهدي، المتوفى سنة ٦٥٨ هـ، له من المصنفات: «جامع في الحبص»، «حاوي مسائل الواقعات والمنية وما تركه في تدوينه من مسائل القنية وزاد فيه من الفتاوى لتتيمم الغنية»، «رسالة الناصرية»، «زاد الأئمة في فضائل خصبصة الأمة»، «شرح مختصر القدوري»، «الصفوة =

مملكتهم وغزمين بفتح الغين المعجمة وسكون الزاي والميم المكسورة والياء الساكنة ثم النون بعدها قسبة بخوارزم كذا قيل وكان من كبار الأئمة وأعيان الفقهاء عاملاً كاملاً له الاطلاع التام على الخلافات والباع الطويل في الكلام والمناظرة وله التصانيف التي سارت بها الركبان منها شرح مختصر القدوري والمجتبى في الأصول وزاد الأئمة وقنية المنية لتتيمم الغنية وكتاب الحاوي والرسالة الناصرية التي مر ذكرها في ترجمة بركة خان وقد ولع الفضلاء بذكرها ووصفها وما ذاك إلا لجلالة قدرها وعظم فائدتها وقد أخذ العلوم عن الأكابر مثل محمد بن عبد الكريم^(١) التركستاني^(٢) والمطرزي^(٣) صاحب المغرب ويوسف بن محمد الخوارزمي وفخر الدين القاضي بديع الغزميني ويوسف السكاكي^(٤) صاحب مفتاح العلوم وغيرهم وصيته مشهور ووصفه في الكتب مسطور وفي الألسنة مذكور قال بعضهم: إن تصانيفه غير معتبرة لكونه معتزلاً قلت اعتزاله لا يوجب ذلك فإن أكثر تصانيفه في الفقه ولا تعلق لاعتزاله بالفقه وقد أثنى عليه كثير من المحققين منهم صاحب البحر وقد أدرج فرائد مدحه في مواضع من بحره وكتب الفقهاء مملوءة بالنقل عن كتبه وكلهم معترفون بجلالة قدره ومغترفون من بحره فلا عبرة بقول الطاعن فيه على أن اعتزاله لا يضر فيما نحن مشترك فيه توفي رحمه الله تعالى في سنة ٦٥٨^(٥) على الصحيح وما يخالفه فسبق قلم لا غير والله سبحانه أعلم.

= في الأصول، «فرائض الزاهدي»، «فضل التراويح»، «قنية الفتاوى»، «قنية المنية لتتيمم الغنية لأستاذه بديع»، «كتاب الفضائل»، «مجتنى في الأصول». (كشف الظنون ٦/٤٢٣).

(١) هكذا في كثير مما رأيت من التراجم وفي مختصر طبقات التميمي ذكر عكس ذلك حيث قال في ترجمة محمد بن عبد الكريم تفقه على مختار الزاهدي. منه عفي عنه.

(٢) محمد بن عبد الكريم التركستاني: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٣) المطرزي: هو ناصر الدين أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبد السيد ابن علي الخوارزمي، الأديب الحنفي الشهير بالمطرزي، ولد سنة ٥٣٨ هـ، وتوفي سنة ٦١٠ هـ، من تصانيفه: «الإفصاح في شرح المقامات للحريري»، «الإقناع لما حوى تحت القناع». «تلخيص إصلاح المنطق لابن السكيت»، «المصباح في النحو»، «المغرب في ترتيب المعرب» في اللغة تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب، «المقدمة في المنطق». (كشف الظنون ٦/٤٨٨).

(٤) يوسف السكاكي: هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي الخوارزمي الحنفي الأديب، الشهير بالسكاكي، ولد سنة ٥٥٥ هـ، وتوفي سنة ٦٢٦ هـ، من تصانيفه: «كتاب الطلسم» فارسي، «مفتاح العلوم» في النحو والأدب والاشتقاق والمعاني والبيان، مشهور وعليه شروح وحواش. (كشف الظنون ٦/٥٥٣).

(٥) في كشف الظنون توفي سنة ٦٢٦ هـ، انظر الحاشية السابقة.

[مولانا زاده]

الشيخ أحمد بن أبي يزيد بن محمد شهاب الدين بن زكي الدين العجمي السرائي المشهور بمولانا زاده^(١) كان أبوه ناظر الأوقاف ببلاد السراي وكان معروفًا بالزهد والصلاح فتضرع إلى الله تعالى أن يرزقه ولدًا صالحًا فولد له أحمد هذا يوم عاشوراء سنة ٧٥٤ أربع وخمسين وسبعمائة ومات أبوه وله تسع سنين فلأزم الاشتغال حتى برع في أنواع العلوم وصار يضرب به المثل في الذكاء وخرج من بلده وله عشرون سنة فطاف البلاد وأقام بالشام ودرس الفقه والأصول وشارك في الفنون وكان بصيرًا بدقائق العلوم وكان يقول: أعجب الأشياء عندي البرهان القاطع الذي لا يكون للمنع فيه مجال والمشكل الذي يكون لي فيه فكر ساعة ثم سلك طريق التصوف وصحب جماعة من المشايخ ثم رحل إلى القاهرة وفوض إليه تدريس الظاهرية في أول ما فتحت ثم درس الحديث في الصرغتمشية وقرأ بها علوم الحديث لابن الصلاح بقوة ذكائه حتى صاروا يتعجبون منه ثم إن بعض الحسدة دس إليه سمًا فمرض وطال مرضه إلى أن مات في محرم سنة ٩١ أحد وتسعين يعني بعد السبعمائة وترك ولدًا صغيرًا من بنت الأقصري^(٢) وأنجب ببعده وتقدم وهو محب الدين^(٣) إمام السلطان في زمانه اهـ من طبقات التميمي بحروفه، وإطلاق العجمي عليه إنما هو على عادة العرب من إطلاقه على من سواهم كائنًا من كان لا لكونه من ديار العجم الاصطلاحي.

[أحمد بن شمس الدين السرائي]

الشيخ أحمد بن شمس الأئمة السرائي كان واعظًا ومتكلمًا عالمًا بالألسنة الثلاثة العربية والفارسية والتركية كان يقال له ملك الكلام وكان أعجوبة الزمان وكان مقيمًا بسمرقند ذكره ابن عربشاه وعده من جملة علماء تيمرلنك.

(١) مولانا زاده: في كشف الظنون ٦/ ٢٠١: مولانا زاده: محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الخطائي، محب الدين الحنفي المتوفى سنة ٨٥٩ هـ. له من المصنفات: «حاشية على بديع النظام لابن الساعاتي» في الأصول، «حاشية على مفتاح العلوم للسكاكي»، «حاشية على الهداية للمرغيناني» في الفروع. ولعله ابن المذكور في المتن الشيخ أحمد بن أبي يزيد.

(٢) ولعله محمد بن محمد جمال الدين الآقسرائي والله أعلم.

(٣) هو المترجم في الحاشية ما قبل السابقة، فانظره.

[أحمد بن عبد الله القريمي]

الشيخ السيد^(١) أحمد بن عبد الله القريمي^(٢) قرأ ببلده على حافظ الدين محمد البزازي حين قدم عليه وأقام فيه ثم لما رحل البزازي عنه قرأ على شرف الدين بن كمال القريمي الآتي ذكره ثم لما كثر الهرج والمرج في بلاده ارتحل إلى بلاد الروم في عهد السلطان مراد خان الثاني فأكرمه وأعطاه مدرسة مرزيفون بأناطولي وقرأ عليه حين كان مدرسًا بها يوسف بن جنيد التوقاتي الشهير بأخي چلبي^(٣) محشى شرح الوقاية ثم أتى القسطنطينية في زمن السلطان محمد فاتح فعين له كل يوم خمسين درهماً وكان السلطان المذكور يحبه غاية المحبة (وقد مر ما جرى بينهما من السؤال والجواب في أوائل هذا الفصل فتذكر) وكان يذكر ويعظ ويدرس أين شاء وكان عالمًا فاضلاً محدثاً مفسراً فقيهاً نحوياً وله تصانيف منها حاشية على التلويح وحاشية على شرح العقائد وحاشية على شرح اللباب في النحو للسيد عبد الله المشتهر بنقره كار مات بالقسطنطينية ودفن بها يزار ويتبرك به وتستجاب عنده الدعوات اهـ من الشقائق وطبقات التميمي والكفوي.

قلت: أرخ وفاته في كشف الظنون^(٤) عند ذكر عقائد النسفي هكذا توفي في سنة ٩٤٣ ولم يرقم فوق لفظ سنة عند ذكر اللباب وشروحه وحواشيه بل ترك بياضاً وذكر فيه عند شروح التلخيص وحواشيه هكذا ومنها يعني من حواشي المطول حاشية المولى أحمد بن عبد الله القريمي المتوفى بعد سنة ٨٦٢ وهي تامة سماها المعول أولها الحمد لله الذي شرح صدورنا برقم حقائق المعاني الخ، فرغ عنها في شوال سنة ٨٥٦ وقال عند تعداد حواشي البيضاوي وتعليقاته وتعليقة السيد أحمد بن عبد الله القريمي المتوفى سنة ٨٥٠ وهي إلى قريب من تمامه اهـ قلت فهذه ثلاثة تواريخ مختلفة لوفاته وخير الأمور أوسطها مع أنه يشهد له تاريخ فراغه من تأليف المعول والله سبحانه أعلم.

(١) وهذا الذي مر ذكره قريباً وذكر قصته مع السلطان محمد الفاتح عليه الرحمة والرضوان. منه عفي عنه.

(٢) أحمد بن عبد الله القريمي: تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) أخي چلبي: في كشف الظنون ٥٦٣/٦: هو يوسف بن جنيد التوقاتي (بدل التوقاتي) المدرس الرومي الحنفي، نزيل القسطنطينية الشهير بأخي يوسف، توفي سنة ٩٠٢ هـ، صنف: «ذخيرة العقبى» حاشية على شرح الوقاية لصدر الشريعة، «هدية المهتدين في ألفاظ الكفر».

(٤) انظر كشف الظنون ٢/ ١١٤٥ - ١١٤٩.

[أحمد بن محمد القريمي المرتعش]

الشيخ أحمد بن محمد بن عبد المؤمن ركن الدين القريمي^(١) المعروف بالمرتعش^(٢) لرعشة كانت به يديم معها تحريك رأسه قال ابن حجر: قدم القاهرة بعد أن حكم بالقرم وناب في الحكم وولي إفتاء دار العدل ودرس بالجامع الأزهر وغيره وجمع شرحًا على البخاري وكان يرمى بالهينات ولما ولي التدريس قال لأذكرن ما لم تسمعوا فعمل درسًا حافلًا فاتفق أنه وقع منه شيء فبادر جماعة فتعصبوا عليه وكفروه فبادر إلى السراج الهندي فادعى عليه عنده وحكم بإسلامه فاتفق أنه حضر بعد ذلك درس السراج الهندي ووقع من السراج شيء فبادر الركن وقال هذا كفر فضحك السراج حتى استلقى وقال يا شيخ ركن الدين تكفر من حكم بإسلامك فأخجله اه وقال العراقي كان يذكر بفضل وبراعة وتفنن في العلوم ولكن سمعت قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة يقول دعانا الأمير أرغون شاه بحضور الدرس عنده يعني الشيخ ركن الدين بجامع المارداني فخطب خطبة مليحة ثم قال السلطان أعجلنا^(٣) بالخروج إلى السرحة عن حفظ الدرس فأخرج كراسًا من كفه ليقرأ منه الدرس فقلنا حصل المقصود بما تقدم وقمنا وكأنه لم يكن له حافظة وقال العراقي وسمعت والذي يقول: إنه كان حاضرًا سماع صحيح البخاري بمجلس السلطان الأشرف فمر حديث شق الصدر فقال هذا كناية عن شرح الصدر فرد عليه الحاضرون ومنهم شيخنا الشيخ ضياء الدين القريمي وقال له في الصحيح أن أنسًا قال كنت أرى ذلك أثر المخيط في صدره ﷺ فسكت ويقال: إن الشيخ ضياء الدين كان نائبًا عنه بالقرم ومات سنة ٧٨٣ ثلاث وثمانين وسبعمائة رحمه الله تعالى ومن فوائده ما نقله عنه الشيخ عز الدين بن جماعة أنه قال شرف العلم من ستة أوجه موضوعه وغايته ومسائله ووثوق براهينه وشدة الحاجة إليه وخساسة مقابله اه من طبقات التميمي بحروفه قلت: هل يوجد في الدنيا أحد اتفق الأنام على مدحه هيئات^(٤). شعر:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ولو أنه ذاك النبي المكرم

(١) ولا تنسى هنا وفيما سيأتي وجه التعبير بالقريم منه عفي عنه.
(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد المؤمن القريمي، ركن الدين الحنفي المعروف بقاضي قرم، توفي سنة ٧٨٣ هـ، صنف: «شرح الجامع الصحيح للبخاري»، «مجمع الأخلاق والنصائح». (كشف الظنون ١١٤/٥).

(٣) يعني قال الركن: إن السلطان أعجلنا الخ، منه عفي عنه.

(٤) خصوصًا من كان غريبًا بين قوم متعصبين كأهل مصر. منه عفي عنه.

وقال آخر ع:

فلا بد من مشن عليك وقادح

ويكفيه فضيلة تلمذ مثل العز بن جماعة وما سيذكر بعد على أن لما ذكره ابن حجر رحمه الله سرًا يعرفه المتأمل والظاهر من كشف الظنون وكلام العيني إن شرحه للبخاري إنما كان حين إقامته ببلاده قبل قدومه مصر بل كون ذلك في أواخر القرن الثامن أيام توقاميش خان.

قال العلامة العيني في ديباجة شرحه للبخاري ثم أني لما رحلت^(١) إلى البلاد الشمالية الندية قبل الثمانمائة من الهجرة الأحمدية. مستصحبًا في أسفاري هذا الكتاب. لنشر فضله عند ذوي الألباب. ظفرت هناك من بعض مشايخنا بغرائب النوادر. وفوائد كالألي الزواهر. مما يتعلق باستخراج ما فيه من الكنوز. واستكشاف ما فيه من الرموز. ثم لما عدت إلى الديار المصرية. ندبتني إلى شرح هذا الكتاب أمور حصلت في هذا الباب اهـ بالاختصار.

قلت الظاهر أن مراده بغرائب النوادر هو شرح صاحب الترجمة لما في كشف الظنون^(٢) حيث قال في بيان شروح صحيح البخاري وحكي أن بعض الفضلاء ذكر لابن حجر ترجيح شرح العيني بما اشتمل عليه من البديع وغيره فقال بديهته هذا شيء نقله من شرح ركن الدين وقد كنت وقفت عليه قبله ولكني تركت النقل عنه لكونه لم يتم وإنما كتب منه قطعة فخشيت من تعبي بعد فراغها في الإرسال ولذا لم يتكلم العيني بعد تلك القطعة بشيء من ذلك اهـ.

ثم قال في الكشف ومنها شرح الشيخ ركن الدين حمد بن محمد بن عبد المؤمن القرمي المتوفى سنة ٧٨٣ وهو الذي ذكره ابن حجر في الجواب عن تفضيل شرح العيني آنفًا اهـ فكلام العيني ونسجه شرحه على منوال شرحه بشهادة ابن حجر واستقصار ابن حجر نفسه عن الإتيان بمثل ما أتى به وخوفه من تعب نفسه كل واحد يدل على جلالته قدره وتبحره في العلوم وتضلعه من سائر الفنون بالمنطوق منها والمفهوم كما قال الشيخ ولي الدين العراقي ولا أدري هل لقيه العيني وأخذ عنه الشرح المذكور شفاهًا أو لا.

(١) وهذا يدل على أن البدر العيني قدم تلك البلاد ولم أره في موضع آخر قط والله سبحانه أعلم، منه عفي عنه.

(٢) انظر كشف الظنون ١/٥٤١ - ٥٥٥.

وقال في كشف الظنون^(١) عند ذكر شروح فصوص الحكم^(٢): «ومن شروحه شرح ركن الدين وهو فارسي في مجلد ممزوج ذكر فيه أنه رأى شرح القاشاني وداود القيصري وكتب ما خطر بباله ودونه بسراي اهـ والظاهر أنه صاحب الترجمة فدل على ما قدمناه في أول هذا الفصل أن مرادهم بقرم ليس هو إقليم قرم فقط فتذكر والله سبحانه أعلم.

[إسحق بن إسماعيل القريمي]

الشيخ إسحق بن إسماعيل بن إبراهيم القاضي ابن شعيب بن محمد بن إدريس القاضي نجم الدين القرمي ذكره السيوطي في أعيان الأعيان وقال ولد قبل تسع وسبعين (يعني بعد سبعمائة) وولى قضاء العسكر ومشخة مدرسة قايتباي مات في صفر سنة ٨٠٨ ثمان وثمانمائة رحمه الله تعالى وذكره السخاوي^(٣) في ضوئه^(٤) وأثنى عليه وقدم إبراهيم على إسماعيل وذكره أنه يقال له الإمامي لكونه فيما قيل ينتسب إلى الإمام أبي منصور الماتريدي^(٥) وقد بلغني أنه أخذ عن البزازي اهـ من طبقات التميمي بحروفه وهو كذلك في مختصره ولكن تاريخ وفاته على ما ذكر فيهما لا شك في كونه غلطاً فإن المتوفى فيه كيف يتولى مدرسة قايتباي الذي لم يتسلطن إلا في سنة ٨٧٢ والصواب أن لفظ الثمان وقع بدل لفظ الثمانين^(٦) في كليهما وكذلك رقمه فوق لفظ

(١) انظر كشف الظنون ١٢٦١/٢ - ١٢٦٥.

(٢) فصوص الحكم للشيخ محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي الطائي الحاتمي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ. (كشف الظنون ١٢٦١/٢).

(٣) السخاوي: هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان الحافظ، شمس الدين أبو الخير السخاوي المصري الشافعي، ولد سنة ٨٣٠ هـ وتوفي مجاوراً بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢ هـ، له أكثر من مائتي مصنف ذكرها حاجي خليفة في (كشف الظنون ٢١٩/٦ - ٢٢١).

(٤) هو كتاب «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع». وهو تاريخ كبير جمع فيه الوفيات من سنة ٨٠١ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ، مرتباً على حروف المعجم في الأسماء والآباء والجدود. (كشف الظنون ١٠٨٩/٢).

(٥) أبو منصور الماتريدي: هو محمد بن محمود بن محمود الماتريدي أبو منصور الحنفي، من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتريد محلة بسمرقند، توفي بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ. من تصانيفه: «بيان وهم المعتزلة»، «تأويلات أهل السنة»، «الدرر في أصول الدين»، «الرد على تهذيب الكعبي في الجدل»، «عقيدة الماتريديّة»، «كتاب التوحيد وإثبات الصفات»، «كتاب الجدل»، «مأخذ الشرائع» في أصول الفقه، «المقالات»، «شرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة».

(انظر: كشف الظنون ٣٦/٦ - ٣٧، تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣، وفيات الأعيان ١٦٣/٢، النجوم الزاهرة ١٢/٢٠، البداية والنهاية ١٠/١٠٧).

(٦) لكن على هذا يلزم كونه معمرًا جدًا كما لا يخفى والله سبحانه أعلم، منه عفي عنه.

سنة أو سقط عقد من عقود العدد كسبعين مثلاً بين الثمان وثمانمائة والله سبحانه أعلم.

[شرف الدين بن كمال القريمي]

الشيخ شرف الدين بن كمال القرمي كان عالماً فاضلاً جامعاً للعلوم الفرعية والأصلية قرأ ببلاده جميع العلوم سيما العلوم الشرعية وأخذ الفقه عن المولى حافظ الدين البزازي وكتب له المولى المذكور إجازة في سنة ٨٠٥ ثم درس في بلاده وأفاد وصنف وأجاد ولما أشرفت بلدة قرم (يعني البلاد الشمالية كلها فإن قرم لم تتشكل وقتئذٍ فضلاً عن الخرايية) إلى الخراب وكثر فيها الهرج والمرج وتفرقت علماءؤها (تذكر ما قاله المولى السيد أحمد القرمي للسلطان محمد الفاتح رحمهما الله) رحل إلى بلاد الروم فأكرمه السلطان مراد خان وعين له دراهم وعاش في سعة ونعمة إلى أن توفي رُوِيَ أن له شرحاً للمنار اهـ من الشقائق والكفوي.

وقال في كشف الظنون^(١) عند تعداد شروح المنار والعلامة شرف الدين بن كمال القرمي سود شرحاً كاملاً وتركه ثم إنه لما قصد الحج عرضه على علماء الشام فأعجبهم فطلبوا تبييضه فييضه في طريق الحج وهو شرح بالقول وفرغ منه يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان سنة ٨٥٢^(٢) اثنتين وخمسين وثمانمائة^(٣) أوله الحمد لله الذي شرف خواص نوع الإنسان بالهداية الخ، فصار أحسن شروحه اهـ ولم أر تاريخ وفاته في محل.

[ضياء الدين بن سعد الله القريمي]

الشيخ ضياء الدين بن سعد الله بن محمد بن عثمان الإمام العالم العلامة القرمي كان إماماً عالماً بالتفسير والعربية والمعاني والبيان والفقه والأصلين ملازماً للاشتغال والإفادة حتى في حال مشيه وركوبه يتوقد ذكاء وتفقه في بلاده وأخذ عن أبيه والعضد والبدر التستري^(٤) والخلخالي^(٥) تقدم في العلم قديماً حتى كان الشيخ سعد الدين

(١) انظر كشف الظنون ١٨٢٤/٢. (٢) في كشف الظنون سنة ٨١٠ هـ.

(٣) وفي نسخة الكشف سبعمائة وهو غلط بلا مرية.

(٤) البدر التستري: هو محمد بن أسعد بدر الدين التستري الشافعي، ولد بقزوين، وقدم مصر ثم العراق وانتقل إلى همدان، توفي سنة ٧٣٢ هـ، من تصانيفه: «تنوير المطالع شرح المطالع للأرموي»، «كاشف الأسرار شرح طوابع الأنوار»، «المحاكمة بين فخر الدين الرازي ونصير الطوسي في شرح الإشارات لابن سينا». (كشف الظنون ١٤٨/٦).

(٥) الخلخالي: هو محمد بن المظفر الخطيبي الخلخالي، شمس الدين الشافعي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ، =

التفتازاني^(١) أحد من قرأ عليه وحج قديمًا فسمع من العفيف المطري قال الحافظ جلال الدين السيوطي^(٢): وكان يقول أنا حنفي الأصول شافعي الفروع وكان يستحضر المذهبين ويفتي فيهما وكان تلميذه العراقي أخبرني أنه كان يفتي في بلادهم على مذهب أبي حنيفة رح أيضًا وكان يستحضره وكان يقول أنا حنفي الاعتقاد والعبادات رباني أبي على ذلك وكان لا يرفع يديه في ركوع الصلاة وسجودها وكان اسمه عبيد الله فكان لا يرضى بذلك ولا يكتبه لموافقته اسم عبيد الله بن زياد قاتل الحسين رضي الله عنه ولعن قاتله وكانت لحيته طويلة بحيث تصل إلى قدميه ولا ينام إلا وهو في الكيس وإذا ركب تتفرق فرقتين فكان عوام مصر يقولون إذا رأوه سبحان الخالق فيقول هو عوام مصر مؤمنون حقًا لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع أخذ عنه الشيخ عز الدين بن جماعة^(٣) والولي العراقي وغيرهما وروى عنه البرهان الحلبي وغيره ومات سنة ٧٨٠ ثمانين وسبعمائة اهـ من مختصر التميمي بحروفه.

[إبراهيم بن سليمان السرائي]

الشيخ منهاج الدين إبراهيم بن سليمان السرائي ذكره في كشف الظنون^(٤) عند ذكر فرائض العثماني حيث قال ولها شروح منها شرح الشيخ منهاج الدين إبراهيم بن سليمان السرائي أوله الحمد لله المتعالي عن مجانسة الضرب الخ، ذكر فيه أن شيخه رشيد الدين إسماعيل بن محمود بن محمد الكردي كتب فوائد المسائل الضرورية

= من تصانيفه: «شرح منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب»، «مفتاح تلخيص المفتاح للسكاكي»، في المعاني والبيان. (كشف الظنون ١٥٣/٦).

(١) سعد الدين التفتازاني: تقدمت ترجمته.

(٢) جلال الدين السيوطي: هو عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن فخر الدين عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر الخضيرى، الإمام جلال الدين السيوطي، المصري الشافعي، ولد سنة ٨٠٩ هـ، وتوفي في التاسع من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ، له من المصنفات أكثر من ٣٥٠ مصنفًا. ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون (٥/٥٣٤ - ٥٤٤).

(٣) عز الدين بن جماعة: هو عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى، عز الدين أبو عمر الحموي الدمشقي الشافعي، القاضي بمصر، ولد سنة ٦٩٤ هـ، وتوفي بمكة سنة ٧٦٧ هـ، من تصانيفه: «التسايعات في الحديث»، «سيرة النبي ﷺ»، «نزهة الألباب فيما لا يوجد في الكتاب»، «هداية السالك إلى معرفة المذاهب الأربعة في المناسك». (كشف الظنون ٥/٥٨٢).

(٤) انظر كشف الظنون ١٢٥١/٢.

فجمعها وزاد عليها وسماه بمفاتيح الإقفال وفرغ منه في خوارزم اه قلت ولم أقف على شيء من ترجمة أحواله سوى ذلك ولا على تاريخ عصره ووفاته .

[محمود بن عبد الله السرائي]

الشيخ محمود بن عبد الله أبو الثنا السرائي ثم القاهري المعروف بالكلستاني^(١) لكثرة اشتغاله بقراءة كلستان الشيخ سعدي رحمه الله تعالى اشتغل أولاً ببلاده قال العيني: كان فاضلاً ذكياً فصيحاً بالعربي والفرسي والتركي ونظم السراجية في الفرائض اه من مختصر التميمي بحذف زوائده قلت: أرخ في الكشف وفاته عند ذكر الفرائض السراجية سنة ٨٠١ إحدى وثمانمائة وقال فيه أيضاً أنيس الوحدة وجليس الخلوة لمحمود بن محمود الحسيني الكلستاني مجلد في المحاضرات على عشرين باباً اه لا أدري هل هو صاحب الترجمة أو غيره والله سبحانه أعلم .

[محمود بن قطلوشاه السرائي]

الشيخ محمود بن قطلوشاه أرشد الدين السرائي الحنفي كان عارفاً بالفنون الآلية عمدة في الأصول والمعقول والمنطق وقال الولي العراقي كان أحد الأئمة في العربية والأصول والحكمة والطب مات سنة ٧٧٥ خمس وسبعين وسبعمائة اه من مختصر التميمي بحروفه .

[محمد البزاي]

الشيخ الإمام العالم العلامة والقُدوة الجهاد الفاضل الفهامة حافظ الدين محمد بن محمد الكردي البزاي^(٢) صاحب الجامع الوجيز المشهور بالفتاوى البزائية كان من أفراد الدهر في الفروع والأصول وممن حاز قصبات السبق في العلوم المنقول منها والمعقول أخذ عن أبيه وسائر محققي عصره ومدققي عصره حتى صار علامة زمانه وفريد عصره وأوانه محققاً واسع الاطلاع مدققاً مديد الباع ومهر واشتهر وطار صيته وانتشر والمفهوم من كلام بعض المحققين أن ولادته كان بمدينة سراي لأن أباه كان هناك وإن كان أصله من كردر موضع بخوارزم وعلى كل حال فقد سكن بمدينة سراي

(١) الكلستاني: هو بدر الدين محمود بن عبد الله الحسيني السرائي المعروف بالكلستاني، كاتب السر في أيام برفوق بمصر، توفي سنة ٨٠١ هـ، له من المصنفات: «أنيس الوحدة وجليس الخلوة في المحاضرات»، «نظم فرائض السراجية» (كشف الظنون ٦/٤١٠).

(٢) البزاي: تقدمت ترجمته في هذا الجزء .

سنين كثيرة وناظر فيها العلماء وباحث الفقهاء ودرس وأفتى وصار مرجع الفتيا على الإطلاق ونور بنور علمه الآفاق ودخل حاجي طرخان وقرم وبلغار وصنف الكتب المفيدة أشهرها الفتاوى البزازية المسماة بالجامع الوجيز وناهيك بشهرتها استدلالاً على علو شأنه حيث صارت هي المعول عليها في الفتوى وقد نقل عن المحقق أبي السعود العمادي مفتي دار السلطنة القسطنطينية أنه لما قيل له لِمَ لم تجمع المسائل المهمة ولم تؤلف فيها كتاباً قال أنا أستحيي من صاحب البزازية مع وجود كتابه فإنه مجموعة شريفة جامعة للمهمات على ما ينبغي اهـ.

وكان تصنيفه إياها بتلك البلاد وقد ذكر فيها ما وقع له بسراي ووقع اسم سراي فيها بعنوان السراي الجديد لكونه مجدداً بعد تخريب تيمرلنك إياه قال في الكشف وأتمها في عام ثنتي عشر وثمانمائة كما ذكره في أثنائها وله أيضاً كتاب في مناقب الإمام الأعظم مشهور بالمناقب الكردية^(١) مشتمل على مطالب عالية قيل كان في حفظه الكافي والكنز والقدوري والهداية والوافي وأنه أخبر أنه إن وضع محافظه كتاباً فوق كتاب وهو واقف على قدميه لوصلت الكتب إلى محاذاة أذنيه قيل إنه حج ثلاث مرات فسأله سائل أنه بأي شيء يعرف الإنسان الحلال من الحرام ويتعلم العلم ويبلغ المرام فقال بحفظه مختصراً أو مختصرين في الفقه كالكافي والهداية فإنه بذلك يعرف العلم ويحصل له غاية العناية وكان معزراً محترماً لدى ملوك السراي نافذ القول فيهم لا يأخذه في الله لومة لائم وكأنه كان سلطاناً في تلك البلاد ولهذا قال مولانا عصام الدين شيخ الإسلام السمرقندي لما دخل بلد الحاج طرخان حين رجوعه من سفر الحجاز سنة ٨١٤ ورأى فيها نفوذ صاحب الترجمة.

شعر:

متى يحفظ الناس في بلدة مصالحتها في يدي حافظ
فحافظها صار سلطانها وسلطانها ليس بالحافظ

ذكره تلميذه ابن عربشاه في عجائب المقدور وذلك من المنافسات التي لم تزل جارية بين المعاصرين إلا من عصمهم الله تعالى سبحانه وقليل ما هم ثم لما كثرت الفتن في تلك البلاد بسبب داء الاختلال فيما بين ملوكهم على ما مر مفصلاً رحل إلى بلاد الروم كأمثاله وباحث هناك المولى شمس الدين الفناري صاحب

(١) وقد طبعت الآن بحيدرآباد دكن من بلاد الهندية. منه عفي عنه.

فصول البدائع فغلبه المولى المذكور في الأصول وغلبه هو في الفروع قاله في الشقائق وتوفي في أواسط رمضان سنة ٨٢٧ رحمه الله تعالى رحمة واسعة الظاهر أنه توفي ببلاد الروم.

قال الفاضل المرجاني: إنه ممن أفتى بكفر تيمرلنك. قلت: لا يستبعد ذلك فإن تخريبه بلاد خوارزم مرارًا وتفريق أهلها وكذلك قبائحه وشنائه ببلاد سراي وبلاد الروم والشام وسائر البلاد الإسلامية وأسر أهلها وجعله إياهم مماليك واستفراشه هو وعساكره بنات المسلمين واستحلاله تلك القبيحة ونهب أموال المسلمين وغير ذلك من القبائح التي لا يصدر عشر عشيرها عمن فيه أدنى إنسانية فضلًا عن المسلم كلها كانت في عصره وفي مصره عليه من الله سبحانه أشد وأفظع ما يستحقه.

[محمد بن عبد الله السرائي]

الشيخ أبو أحمد محمد بن عبد الله ابن الشيخ شهاب الدين أحمد السرائي رحمهم الله تعالى أتحنفي الشيخ شرف الدين أفندي القراني المجاور بمكة المكرمة سلمه الله تعالى بصورة المسلسل بأخذ اليد وقول كل راو وقال لي قل التحيات لله وبالحنفيين الخ بروايته وإجازته به لبعض العلماء نقلًا عن مجموعة قديمة مودعة في خزانة الكتب للمدرسة المحمودية بالمدينة المنورة وقال أظن أنها بخطه المبارك وهي هذه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حق حمده والصلاة على محمد رسوله وعبدته قال العبد الضعيف الراجي رحمة ربه اللطيف محمد ابن الفقير إلى الله تعالى عبد الله ابن الفقير إلى الله الغني أحمد السرائي مولدًا والجندي محتدًا والحنفي مذهبًا أخذ بيدي شيخي الإمام العلامة الفقيه المحدث محيي الدين عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر بن سالم بن أبي الوفا القرشي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وقال: أخذ بيدي شيخنا الإمام العلامة أبو سعيد الحنفي وقال لي: قل التحيات لله إلى آخره. وقال: أخذ بيدي الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو عبد الله محمد بن محمد البلخي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أحمد بن محمد بن الحسن الأسترآبادي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال البلخي: وأخذ بيدي مسعود بن مودود بن محمود الرازي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقالوا: أخذ بيدينا

علي بن أبي طالب بن أبي العلا الحنفي وقال: قولاً التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي قاضي القضاة أبو محمد الحسن بن محمد بن أحمد الأسترآبادي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو عبد الله محمد بن علي قاضي القضاة الدامغاني الكبير الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال أخذ بيدي أبو العباس أحمد بن الناطفي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو عبد الله يحيى بن مهدي الجرجاني الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو الحسن الكرخي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي أبو سعيد البردعي الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي القاضي أبو الحازم الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي محمد بن سماعة الحنفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي محمد بن الحسن الشيباني وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي الإمام الأعظم أبو حنيفة الكوفي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي حماد بن أبي سليمان الرخواري وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي إبراهيم النخعي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي عبد الله بن مسعود الهذلي وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي جبريل وقال لي قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي ميكائيل وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي إسرافيل وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: أخذ بيدي عزرائيل وقال لي: قل التحيات لله الخ. وقال: وهو مكتوب في اللوح المحفوظ والحمد لله وحده اهـ إجازة الشيخ آدم الله^(١) بركته.

يقول العبد الضعيف راوي هذه النسبة الشريفة المسندة أبو أحمد محمد بن عبد الله ابن الشيخ شهاب الدين أحمد السرائي ثم القدسي أخذت يد الشيخ نور الدين حمزة ابن الشيخ شمس الدين محمد الأماصي ويد ولده العز شمس الدين محمد وقلت لهما قولاً التحيات لله الخ. وقرأ عليّ كما أخذ شيخني يدي وقال لي قل التحيات لله الخ. وقرأت عليه وأجزت لهما أن يروياه عني وعن مشايخي وكان ذلك يوم الخميس بعد العصر ثاني شهر رمضان في فسحة زاوية الأقصى الشريف سنة ٧٧٢ اثنتين وسبعين وسبعمائة اهـ.

(١) هكذا في الأصل المنقول عنه، منه عفي عنه.

قلت: لم أطلع على شيء من أحواله وأحوال والده وجده وتواريخ مواليدهم ووفياتهم والحديث رُوِيَ هكذا مسلسلًا إلى الإمام أبي حنيفة رح ذكره ابن همام في حاشية الهداية حيث قال قال أبو حنيفة رضي الله عنه أخذ حماد بن سليمان بيدي وعلمني التشهد هكذا إلى رسول الله ﷺ اهـ. ولفظ مسلم عنه علمني رسول الله ﷺ التشهد كفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن^(١) الخ.

قلت: وقد أخرجه عنه الأئمة الستة وإن لم يكن فيما رووه الأخذ باليد وقال الترمذي أنه أصح حديث عنه ﷺ في التشهد والعمل عليه عند أكثر أهل العلم اهـ.
قلت: وأما التسلسل بهذه الكيفية فما رأيت في كتب المسلسلات التي اطلعت عليه ولم أر أحدًا يعرفه في زماننا وكأنه قد انقطع وهو نفيس^(٢) جدًا.

[يوسف بن حسن السرائي]

الشيخ جمال الدين يوسف بن حسن بن محمود السرائي ثم التبريزي له حاشية على منهاج البيضاوي في الأصول وشرح أربعين النووي ذكره في كشف الظنون^(٣) وأرخ وفاته سنة ٨٠٤.

[حق محمد أفندي الدشتي]

الشيخ حق محمد أفندي الدشتي ثم القرمي ذكره السيد محمد رضا أفندي في السبع السيار عند ذكر حفيده الشيخ عبد الله عفيف الدين أفندي وقال إن أصله من دشت قفجق ثم هاجر إلى إقليم قرم واستوطن بها وتوفي فيها إلى رحمة الله تعالى ولم يذكر تاريخ وفاته والظاهر من كلامه في ترجمة ولده الآتي ذكره أنه في أواسط القرن العاشر.

[إبراهيم أفندي ابن حق محمد]

الشيخ إبراهيم أفندي ابن حق محمد أفندي^(٤) المذكور آنفًا المشهور بتاتار شيخ

(١) الحديث أخرجه البخاري في الاستئذان باب ٢٧، ٢٨، ومسلم في الصلاة حديث ٥٩، ٦٠، ٦١، والترمذي في النكاح باب ١٧، والصلاة باب ١٠٠، والنسائي في النكاح باب ٣٩، ٤١، والتطبيق باب ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، وابن ماجه في الإقامة باب ٢٤، وأحمد في المسند ٥/٣٦٣.

(٢) ولهذا أثبتته هنا برمته وإن كان خارجًا عن موضوع مجموعتنا هذا، منه عفي عنه.

(٣) انظر كشف الظنون ٥٩/١.

(٤) هو إبراهيم بن عبد الله (وليس ابن حق محمد أفندي كما ذكر المؤلف) القريمي، شيخ زاوية الخلوتية قرب آيا صوفيا، الصغير، توفي سنة ١٠٠١ هـ، له من المصنفات: «الرسالة النورية في=

إبراهيم ذكره السيد محمد رضا أفندي أيضًا وقال: إن والده حق محمد المذكور لما نام ليلة بعد أن أتم تلاوة أذكاره وأوراده التي كان التزمها بمقتضى سلوكه رأى في منامه شيخًا نورانيًا فأعطاه مصحفًا فوضعه على رأسه فلم يستقر ثم وضعه على ركبتيه فلم يستقر ثم وضعه فوق بطنه فاستقر فلما استيقظ قص رؤياه هذه على شيخ كان المذكور داخلًا تحت إرادته فقال له بعد الإطراق والتفكير ساعة أنه يولد من صلبك ولد صاحب سعادة وشهود ويكون أصلًا لأرباب سعادة كثيرة فولد له بعد زمن يسير الشيخ إبراهيم أفندي المذكور ولما أتم التحصيل الظاهري بالختم العادي مال قلبه إلى تحصيل الكمالات الباطنية بمقتضى جبلته واستعداده. وبينما هو متردد في تعيين المرشد إذ ظهر له في ليلة من الهاتف إن علاجك إنما هو عند مرشد صاحب سجادة في القسطنطينية المحمية فتوجه نحوها ووصل إلى باب مرشد عصره الشيخ نور الدين الغلبي قدس سره وقد أخبر الشيخ المذكور مردييه بقدمه قبل وصوله هناك ولما بقي في صحبته سنين عديدة واستفاد من توجهاته العلية وأنفاسه القدسية كمالات سنية واستحق الاستخلاف أجازه شيخه واستخلفه فرجع إلى وطنه الأصلي قرم ثم إنه لما رأى بها مظالم كثيرة وأمورًا مخالفة للشريعة واستشعر من نفسه عجزًا عن تغييرها حول رحل إقامته إلى القسطنطينية مهاجرًا إليها واختار الإقامة فيها بزواية كجك أياصوفيا وكان مشغولًا بنشر العلوم النافعة خصوصًا بتفسير القرآن الكريم وبيان معانيه ولبابه من حفظه في جامع السلطان محمد الفاتح وصنف كتابين مشتملين على لب القرآن ومتضمنين بخلاصة كلام الرحمن أحدهما مكاتيب والآخر مدارج وكان رحمه الله تعالى متخلفًا بالأخلاق الفاروقية في إجراء أحكام الشرع المطهر وإحياء سنن خير البشر ولهذا صدر له الأمر من الديوان السلطاني برفع البدع التي كانت انتشرت في حوالي بابا طاغي فألزم تلك الخذلة وأسكتهم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ثم أباد وجودهم بسيف الشرع المطهر وطهر تلك البقاع من رجس وجودهم الآخر ثم توفي سنة ١٠٠١ إحدى وألف فيبين ولده وخلفه الصدق الشيخ عبد الله عفيف الدين أفندي تاريخ وفاته بتلك العبارات العربية بعينها.

انتقل المرحوم العارف بالله الراسخ المسلم الكل شيخ المشايخ إبراهيم أفندي القريمي وقت الظهر من يوم الأحد الثاني عشر من شهر جمادى الآخر سنة ١٠٠١

= كشف الأسرار النارية» في تفسير آية النور، «مدارج المنان ومعارج الإنسان» في التصوف. (كشف الظنون ٢٨/٥).

إحدى وألف منزويًا بزواية كجك أياصوفيا بقسطنطينية المحمية واجتمعوا لجنازته علماءها ووزراؤها وسائر أهلها وصلوا عليه من جامع فاتحها سلطان محمد خان ودفنوه في خارج باب أدرنة حملوه إلى قبره بالرؤوس ورؤوس الأصابع سمعت من كثير قالوا لا شك في كونه صاحب المائة على ما في الحديث خلد الله جسمه في الجنة وروحه في العالي ومن طالع مؤلفاته وأطلع على حالاته وكمالاته واجتهاده على الملحددين بخلوص النية لا يشك فيما قالوا والله أعم بحقيقة الحال وحقية المقال اهـ. بحروفه بلا تغيير ولو خطأ كما ترى والظاهر أنه حرره حال صغره قال السيد رضا وله أيضًا فيه هذا التاريخ. شعر:

أي عفيفي فوتنه تاريخ ايچون اهل كمال

شيخ كامل ديدلرهم شيخ أكمل ديدلر

قال وفي الحقيقة إنه لم يكن محصورًا في ساحل السور بل عين له مدفن مخصوص بقرب قبر شيخه بجوار صرت نكية خارج باب أدرنة ليكون مشرفًا بشرف صحبة شيخه المعنوية وحرر على حجر قبره على وجه الاختصار تاتار شيخ إبراهيم الخلوتي وحرر تحت هذه الألفاظ التاريخ المذكور آنفًا يعني المنظوم اهـ.

قلت: أما المدارج فقد ذكر في الكشف من غير ذكر مؤلفه وقال: مدارج المنان فقط وقد ساق القدر نسخة مخرومة منه إلى ملك هذا الفقير فضلًا من الله سبحانه للفقير وكرامة الشيخ المذكور وذلك لأنني اشتقت إلى مطالعة الكتاب المذكور بعد أن اطلعت على اسمه في السبع السيار ولما خرجت يومًا من الأيام إلى سوق الكتب أراني واحد منهم كتابًا بخط قلم وقال هذا يشبه خط بلادكم فلما طالعته رأيت الكتاب المذكور فكدت أطيّر من الفرح فأظهرت له الرغبة عنه لعلمي بعادات التجار ثم اشتريته بأبخس قيمة فإذا هو فوق ما وصفه السيد رضا أفندي ولا شك في كونه من كرامة الشيخ إبراهيم فإن وجود مثل هذا الكتاب الذي هو كعقلاء المغرب في الندرية بخط قراني بسوق مكة عند اشتياق الفقير إليه مع عدم سماع اسمه قبل ذلك قط لا يشك في كونه من خوارق العادات رحمه الله تعالى.

أوله الحمد لله الحي الحليم الحنان الملك المؤمن المهيمن المنان الخ فسر فيه آخر سورة الحشر إلا أنه أدرج فيه كثيرًا من معارف الصوفية وذكر كثيرًا من مكاشفاته فصار بذلك مجلدًا ضخماً قال وجعلت الكتاب كتابين كتاب مدارج الملك المنان في بيان معارج الإنسان وكتاب مواهب الرحمن في بيان مراتب الأكوان وجعلت في

الكتاب الأول سبع دوائر وفي الثاني خمسًا فصار الكل اثني عشر على عدد الشهور الخ. وذكر فيه اسم السلطان مراد الثالث وحروبه مع العجم ولعل مراد السيد رضا بالكتابين هو هذا ويكون ذكر مكاتيب سبق قلم والله سبحانه أعلم.

[عبد الله عفيف الدين أفندي]

وأما ولده الشيخ عبد الله عفيف الدين أفندي فقد ذكر في السبع السيار أنه بقي من والده شابًا ولذا لم يقبل مشيخة خانقاه والده حين وجهت إليه بل رغب في التدريس وحيث كان للسلطان مراد الثالث محبة وعقيدة تامة لوالده المرحوم وجه إليه ابتداء بالخط الهمايوني تدريس المدرسة الداخلية ثم كان بعد ذلك تدريجًا مدرسًا في الصحن ثم أرسل في خانية سلامت گراي خان إلى مملكة قرم لتسكين نائرة فتنة البغي والفساد بمياه الوعظ والنصيحة بتوجيه منصب قضاء كفه إلى عهده مع ضم منصب منكوب وصغداق إليه ولما وصل هناك اجتمع علماء قرم لامتحانه وألقوا إليه مسائل غامضة فحل الكل بأنامل فضله وعلمه وصار مسلمًا إليه الكل ثم بعد برهة لما وقعت له حادثة نهته من الله ترك منصب القضاء وتوجه إلى زيارة بيت الله وقبر المصطفى ﷺ مترنمًا بهذه الأبيات. شعر:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول
في كل يوم ترجى أن تتوب غدًا وأنت عزمك بالتسويق محلول

وبعد أن رجع من الحج بالتبري عما سوى الله تعالى اشتغل بالإرشاد وتربية المريدين في زاويته التي أنشأها في قرية سيد إيلي بقرب كفه وتوفي فيها ودفن في فناء القرية المذكورة يزار ويتبرك به وقد بلغ أولاده من أزواجه وسراريه إلى مائة كاملة اه ولم يذكر تاريخ وفاته بل قال في خانية بهادر گراي خان وكان وفاة الخان المذكور في سنة ١٠٥١ فيكون قبلها قال ومن جملة أشعاره:

نوجوا نم كبي ياري كشيبه يار اوله چق
غم جكرمي قمو عالم آنكا اغيار اوله چق
نوله زار ايلر ايسم كل يوزنكه قرشوشها
بلبل ايتمزمي فغاني كل وكلزار اوله چق
مفتيىء عشقه محبتدن أولند قد سوال
ديدي جائز درر أول عاشق ديدار اوله چق

سن كل كلشن حسنه نيچه مانند اوله سن
 باغ عالم كلينك دامني پرخوار اوله چق
 أي عفيفي كورن أول يار وفاداري ديدي
 بويله أولمق كرك اشته كشييه يار اوله چق
 وله أيضًا أشعار:

بغليوب ابر ولرنك شكلن كورندي چون هلال
 خلق ييمز ايچمز اولدي عاشق شيد امثال
 كامرا لو لودي كهي دالي اولدي ماه نود لا
 رمز ايدر سان روزميه كيم اولمق ايستر غيره دال
 صوم هجرنك ماه وسال اولسه نكارا غم دكل
 عاشق صادق اوله چق آخرى عيد وصال
 خواب راحتده يتان بيدرد بيلمز قد رنكي
 دردايله بيدار اولان عشاقه قيل عرض جمال
 حالنك افیوني غداسن بولما ليدن خسته دل
 بندهء كمتتر عفيفيه ديمز سن كيف حال
 اولكه ذات پاك بيهمتا سنه هو قويمش اد
 يارده كوسترمش آدين آنكا آهو قويمش آد
 روح محضه آد ايچون استاديازمش الف دال
 الفه قد وداله جانا جعد كيسو قويمش آد
 ايليوب برذره ئي واسع فلكدن دل ديمش
 انكا بر مهر ضيا كستر قلوب او قويمش آد
 طبع پاكنكدن چقان آب زلال شعرنكه
 اي عفيفي اهل دللر جوي دل جو قويمش آد

اهـ. إلى غير ذلك من الأشعار الرائقة والحكم الفائقة رحمه الله تعالى وذكرنا أيا
 هما أعني الشيخ إبراهيم وولده الشيخ عبد الله العفيفي مع أنهما ليسا من علماء دولة
 سراي قطعياً إنما هو استطراداً لذكر الشيخ حق محمد والد الشيخ إبراهيم المذكور
 ولنتبرك بذكرهما بأدنى مناسبة فإن الشيء بالشيء يذكر وإلحاق النظر بالنظر مما لا
 يستنكر مع أنهما من فضلاء التتار هذا فهؤلاء الكبراء المذكورون هنا قد خلد ذكرهم

في بطون الدفاتر بهجرتهم إلى الديار التي يخلد ذكر أكابرهم إلى يوم القيامة في بطون التواريخ بعد أن صارت عظامهم رفاتًا في المقابر وأما الذين لم يهاجروا إلى تلك الديار بل ما توفي ديارهم فقد مات ذكرهم بموتهم ودفن فضائلهم بدفنهم إنا لله وإليه راجعون. شعر:

في الناس قوم أضعوا مجدًا ولهم ما في المكارم والعليا لهم أرب
سوء التأدب أرداهم وأردلهم وقد يزين وضع المنصب الأدب

[ابن بطوطة]

ومن جملة من أتى سراي من الخارج الشيخ شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة^(١) الرحال الشهير دخل تلك البلاد أيام الملك محمد أوزبك وأقام برهة بمدينة سراي وحاجي طرخان وقد ذكر في رحلته الشهيرة تحفة النظر من أحوال تلك البلاد والسلطان أوزبك خان وقد نقلنا عنها في مجموعتنا هذه في مواضع عديدة ودخوله هناك على ما يفهم من كلامه ما بين الثلاثين والأربعين سنة بعد السبعمئة وشهرة كتابه تغني عن التوصيف ولم اطلع على تاريخ وفاته وقد ذكر في آخر رحلته أنه فرغ من تقييدها في ٣ ذي الحجة سنة ٧٥٦ رحمه الله تعالى.

[قطب الدين الرازي]

ومنهم مولينا قطب الدين محمد بن محمد الرازي شارح الشمسية^(٢) وغيرها المتوفى سنة ٧٦٦.

[سعد الدين التفتازاني]

ومنهم العلامة سعد الدين التفتازاني^(٣) المتوفى سنة ٧٩١ وقد ذكر شرف الدين البتليسي^(٤) قدومه إلى سراي سنة ٧٥٦ أيام جاني بك خان بشرحه المختصر للتلخيص كما مر.

(١) ابن بطوطة: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) في كشف الظنون ١٠٦٣/٢: شرح الشمسية قطب الدين محمد بن محمد التفتازاني المتوفى سنة ٧٦٦ هـ، شرحًا جيدًا متداولًا بين الطلبة، ألفه للوزير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد، من وزراء السلطان خدابنده، سماه «تحرير القواعد المنطقية في شرح الشمسية».

(٣) سعد الدين التفتازاني: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٤) شرف الدين البتليسي: ويقال أيضًا: البديسي.

[محيي الدين البردعي]

ومنهم القاضي محيي الدين البردعي^(١) كما مر في ترجمة جاني بك خان أيضًا.

[السيرامي]

ومنهم الشيخ علاء الدين أحمد بن^(٢) محمد السيرامي المتوفى بمصر سنة ٧٩٥ فإنه لما تفقه ببلاده على جماعة وبرع في الفقه والأصول والبلاغة درس في خوارزم وسراي وقرم وتبريز وأفتى بها ثم أقام بمصر ومات هناك رحمه الله تعالى في التاريخ المذكور وأخذ عنه السيد الشريف الجرجاني ومولانا يعقوب الجرخي وغيرها من كبار العلماء.

[ابن النجام]

ومنهم الشيخ الإمام نجم الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن نصر الموصلي المعروف بابن النجام مات بالجاروخية في الثاني من ربيع الآخر من سنة ٧٣٠ ودفن

= وهناك مؤرخان كتبا في التاريخ يلقبان بالبديسي، أحدهما إدريس ابن الشيخ حسام الدين علي البديسي ثم الرومي الحنفي، له من التصانيف: «الحق المبين شرح حق اليقين» في علم الكلام فارسي، «شرح فصوص الحكم للشيخ محيي الدين»، «هشت بهشت» في تاريخ آل عثمان فارسي، وغير ذلك، (كشف الظنون ١٩٦/٥).

والثاني وهو ابن الأول أبو الفضل محمد بن إدريس بن حسام الدين علي بن حسن النخجواني البديسي الرومي الدفتر الحنفي المتوفى سنة ٩٨٢ هـ، له من المصنفات: «تعريف التلبس وتبديد إبليس»، «جريدة الآثار وفريدة الأخبار» في التاريخ تركي، «ديوان شعره» تركي، «ذيل على هشت بهشت لوالده» في التاريخ، «فصول في معرفة التلبس وأصول في التمييز بين التصوف والتلبس»، «قصص الأنبياء»، «مدارج الاعتقاد في ترجمة مناهج العباد للفرغاني» في التصوف، «ترجمة أخلاق المحسنين»، «ترجمة تفسير الواعظ الكاشفي»، «ذخيرة خوارزم شاه» من الفارسية إلى التركية. (كشف الظنون ٢٥٣/٦).

(١) محيي الدين البردعي: هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد البردعي، محيي الدين التبريزي ثم الرومي، توفي سنة ٩٢٧ هـ، صنف من الكتب: «حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي»، «حاشية تجريد العقائد للسيد»، «حاشية على تلويح التفاتاني» في الأصول «حاشية على شرح حسام الكاتي لإيساغوجي»، «شرح آداب البحث لعصدي الدين»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/٢٢٩).

(٢) قلت: ذكر في الفوائد البهية علاء الدين علي السيرافي وقيل السيرامي وهو الصواب قال: أخذ عن السيد جلال الدين الكرلاني صاحب الكفاية وأخذ عنه سراج الدين عمر قارئي الهداية وأرخ وفاته سنة ٧٩٠ والظاهر أنه هو هذا وإنما اختلف في الاسم، منه عفي عنه.

بمقابر الصوفية بدمشق ومولده في سنة ٦٥٢ بالموصل وخرج من بلده وهو صغير وطوف البلد وأقام ببغداد مدة واشتغل بالعلم ثم استقر بمدينة سراي في مملكة أوزبك خان وكان قدومه إلى دمشق في سنة ٧٢٤ وكان شيخاً فقيهاً طيباً رحمه الله تعالى ذكرهما العلامة البدر العيني .

[كمال الدين الخجندي]

ومنهم الشيخ كمال الدين الخجندي قدس سره كان من أكابر الصوفية وكان على الدوام مشغولاً بالرياضات والمجاهدات وقد أقام بتاشكند في أوائل حاله لقيه هناك والد خواجه عبيد الله أحرار قدس سره ثم سكن بتبريز وكانت له أشعار رائقة يريد بها ستر أحواله عن الأغيار أو يقصد أن لا يكون الظاهر مغلوب الباطن . ولما استولى عسكر توقتامش خان على تبريز في سنة ٧٨٧ كما مر أخذوه معهم إلى سراي ولما أعجبه هواء سراي واستحسنها وطاب وقته قال على عادته لستر حاله هذا البيت الفارسي .

بيت اكر سراي همين ست ودلبران سراي

بيار باده كه فارغ شوم ازهر دو سراي

قيل له حين إقامته بسراي إن الموضع الفلاني يخربه الماء كثيراً وقت طغيانه ولما قرب وقت طغيان الماء أمر أن يضرب خيمته هناك ففعلوا فأقام بها فمضى وقت طغيان الماء فلم يصل هناك ولم يحصل له خراب أصلاً وبعد أن أقام بسراي ١٤ سنة رجع إلى تبريز بعد تخريب تيمرلنك تلك الديار وتوفي بتبريز سنة ٨٠٣ وقبره هناك قيل كان له بتبريز خلوة كان يسكن بها وقلما وصل هناك غيره ولما مات رأوها فلم يجدوا فيها غير حصير بال وقطعة آجر كان يتوسدها قدس سره ونور الله مضجعه ورأيت في مجموعة بيتين فارسيين يشبهان البيت السابق ولعل الأول منهما له فاستنسبت أن أثبتها هنا وهما . شعر :

ساقيامي بده ومطرب خوش كويسراي

فارغم ساز بمستي زغم هرد وسراي

مژده آورد صبا لزطرف شهر سراي

مژده كافي بده اي خولتيء نافه كشاي

[ابن عربشاه]

اهـ. ومنهم الفاضل العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشهير بابن عربشاه الدمشقي^(١) صاحب عجائب المقدور في أحوال تيمور وغيره من المؤلفات كان عالماً فاضلاً عاملاً أديباً ناظماً جال في البلاد وأخذ عن الأكابر وله تصانيف ولد سنة إحدى وتسعين وسبعمئة ومات في رجب سنة ٨٥٤ جود القرآن العظيم بمدينة سمرقند وقرأ بها النحو والصرف على تلامذة السيد الشريف الجرجاني وكان يحضر أيضاً مجلس السيد ويسمع دروسه إلى آخر ما ذكره التيمي قلت: أقام بمدينة حاجي طرخان مدة سنين وأخذ فيها عن الحافظ البزازي واختص به وقد مر في موضعين من هذا الكتاب ذكره إياه عند قدوم عصام الدين السمرقندي إلى حاجي طرخان وقد أكثرنا النقل عنه في هذه المجموعة وقد تقدم ذكر قدوم العلامة الرازي والعلامة التفتازاني والسيد جلال الدين شارح الحاجية والشيخ أحمد الخجندي نقلاً عنه وأن سراي صارت بواسطة هؤلاء الأعلام معدناً للكلمات إلى آخر ما ذكر وقد مر ومنهم ولده عبد الوهاب الشيخ الإمام العالم العامل البارع الكامل تاج الدين أبو الفضل ولد بحاج ترخان سنة ٨١٣ ونشأ مشتغلاً بالعلم مواظباً عليه فأخذ عن أبيه وعن غيره إلى أن برع في أوامه وتميز بين أقرانه وكان في الفضائل قريباً من أبيه أو مساوياً له وتوفي سنة ٩٠١ وله تأليف كثيرة وعليها تقارير للعلماء الكبار وكان أكثر تأليفه منظوماً اهـ. من الطبقات السنية بالمعنى في بعضها.

إذا أحطت علماً بالتراجم التي قدمنا من أخذ أعلام مصر وسراتها كولي الدين العراقي والعلامة العز بن جماعة عن أصحاب تلك التراجم واقتدائهم في النسخ على منوالهم كالعلامة العيني وأنهم أقل من القليل بالنسبة إلى من لم يذكروا وعرفت رتبة هؤلاء في العلم والفضل وتذكرت ما قاله العيني من أن أحداً من الحاضرين لم يفهم ما تضمنه مکتوب دولت بردي خان من نكات المعاني ومحاسن البديع وعلمت أيضاً أن مصر قد بلغت في العصر المذكور في كثرة العلماء المحققين والفضلاء المدققين والأدباء المتفنيين مبلغاً لم تبلغه قط لا قبله ولا بعده تعلم صحة ما قاله ابن عربشاه وتحكم بأنه لم يبالغ فيما قاله قط بل تكلم بالصدق والحق وتعرف يقيناً كيف كانت تلك البلاد في العصر المذكور في العلم والفضل. ثم إذا تأملت في أحوالها من العلم والفضل والتحصيل في عصرنا هذا وقايستها إلى تلك الأحوال تعلم أنه أي خزينة

(١) ابن عربشاه: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

ضاعت عنا وأي دولة زالت فإن كنت من أبناء تلك الديار وفيك أدنى إحساس وشعور
لا أظنك تملك نفسك من البكاء والحزن آسفًا مترنمًا بهذا القول: شعر:

بلى الناس قبلي لا كمثلي مصائبى بدمع مطيع كالسحائب الصوائب
وكنا جميعًا ثم شتت شملنا تفرق أهواء أعراض المواكب
فقدنا زمان العز والمرء جاهل بقدر العيش قبل المصائب

وإن لم تكن من أبناء تلك الديار أو لم يكن فيك إحساس وشعور في حق
الكبار فاعلم واشهد أنني ذبت آسفًا وأموت حزنًا وكمدًا. شعر:

سيوردني التذكار حول المهالك ولست عن التذكار نفسي بمالك
نعم إن الطبائع مختلفة والمشارب متغايرة والله در القائل لأفض فوه. شعر:
إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم
وما أعظم راحة الغافل وما أكثر مصيبة الفاضل

فهرس المحتويات

٣	تقديم
٣	الجزور التاريخية للأزمة
٥	الاستقلال والعملية العسكرية الروسية
١٠	الشعور القومي في مواجهة التهديد العسكري
١١	الشعور القومي في مواجهة الأخطار الاقتصادية
١٣	الاستنتاجات
١٦	إحصاءات حول بعض الدول الإسلامية في آسيا الوسطى
١٦	تركمانستان
١٧	قيرغيزستان
١٨	طاجاكستان
١٨	كازاخستان
١٩	أوزبكستان
٢٠	كتاب «تلفيق الأخبار وتلقيح الأخبار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار»
٢١	[تمهيد]

المقدمة في بيان أصل الترك ومنشئهم وكيفية انتشارهم

وبعض ماجرياتهم مع جيرانهم من سائر الأقسام والأمم الآسيوية والأوروبية

قبل الإسلام على سبيل الإجمال حسب اطلاعي القاصر

٣٦	[نسب الترك]
٤٤	بيان أحوال أولاد الترك وقبائله عمومًا
٥٢	[أخلاقهم وعاداتهم]

- ٥٣ [أحوالهم في محارباتهم]
- ٥٦ ديانة الأتراك القدماء ومعارفهم
- ٦١ [معارفهم]
- ٦٦ [حكماؤهم]
- ٧٤ [محاربتهم ومعاملاتهم مع الأقوام المتجاورة]

القسم الأول

معاملات قدماء الأتراك مع أهل الصين والفرس والروم نادراً
ولنبيين كل واحدة منها على هذا الترتيب

- ٧٦ [معاملاتهم مع الصينيين]
- ٨٠ [تومن خان]
- ٨١ [موتاخان]
- ٨٣ الهون الشمالية والهون الغربية
- ٨٤ الهون الجنوبية
- ٨٤ سيان بي
- ٨٥ تثار جوجان وطولون خان
- ٨٨ [بومين قاغان وخلفه]
- ٨٩ ذكر بيان معاملات قدماء الترك ومناسباتهم مع قدماء الفرس
- ١٠٣ سلطنة أرجاسب التركي
- ظهور زرادشت الزنديق وتسيبه في بطلان الصلح ووقوع المحاربة بينهما والوقعة الأولى
- ١٠٤ الأولى
- ١١٢ [ظهور الطبقة الرابعة من ملوك الفرس]
- ١١٣ ذكر وقائع أقوام الهياطلة من الأتراك مع فيروز ملك الفرس
- ذكر فرار قباد بن فيروز إلى بلاد الترك والتجائه إلى خاقان الترك وجلسه على سرير سلطنة الفرس بإمداده
- ١١٧ ذكر مصاهرة كسرى أنوشروان خاقان الترك وبنائه السد بأرمينية المشهور عند العرب بالباب وباب الأبواب والباب الحديد وعند الأتراك بديمر قيو ودريند وتشبته في ذلك بلطائف الحيل
- ١٢٢ [تعيين ملك الترك الذي صاهره أنوشروان]
- ١٢٥ [تعيين ملك الترك الذي صاهره أنوشروان]

- ١٢٩ [بومين قاغان المشهور بديزابول]
- ١٣٢ ذكر معاملة الخاقان المذكور مع كسرى وقيصر
- ١٣٤ إرسال الروم إلى الخاقان ديزابول رسولاً من طرفهم
- ١٣٧ إرسال الخاقان الكبير سفيراً إلى الروم مرة ثانية
- ذكر وقوع الخلف بين كسرى هرمز وبهرام چوبين وانجراره إلى فرار بهرام إلى الترك والتجائه إلى الخاقان ١٤٤

القسم الثاني من المقدمة

في بيان أحوال الأقوام التركية الذين كانوا جيران قوم بلغار الذين ذكرهم هو المقصد من هذا الجمع والتلفيق واستوطنوا في الأوروا الشرقية المشهورة الآن بالروسية الجنوبية والصغيرة وذكر وقائع مشاهيرهم على سبيل الإجمال وهو اقتراب من القصد بخطوات كثيرة بل بمسافة وسيدة والأقوام الذين نذكرهم هنا هم هؤلاء

- ١ - [السيثيا ٢ - والسرمايتيا] ١٤٧
- ٣ - [اللان] ١٦٠
- ٤ - [الهون الغربية] ١٦١
- [الغوتية] ١٦٣
- [الخابان الكبير آتيل] ١٦٦
- ٥ - الأوار ١٧٣
- ٦ - [الخزر ووجه تسميتهم به وأصله] ١٨٠
- [محاربة عساكر الإسلام معهم] ١٨٢
- [تعداد إجمال وقائعهم مع أهل الإسلام] ١٨٦
- [النتيجة الحاصلة] ١٨٩
- [إسحق بن كنداج الخزري] ١٩٠
- [أقوال المؤرخين المسلمين في الخزر] ١٩١
- [وقائع الخزر مع الروس] ٢٠٢
- [مبدأ ظهور الروسية] ٢٠٤
- بيان معاملة البجانك مع الروس ومحارباتهم إياهم ٢١٢
- ٨ - القفجق ٢١٤

٢١٦	[معاملات قفجق مع الروس]
٢١٩	[ذكر قوم بيريندي واستمداد الروس بقفجق على ماجار وانتصارهم]
٢٢٨	[ظهور التتار]
٢٢٨	[وقائع التتار الخاصة بالقفجق]
٢٢٩	[أقوال المؤرخين المسلمين في قفجق الماچار]
٢٣٥	٩ - [الماچار]
٢٣٩	١٠ - الباشقرت
٢٤٣	[إطلاق لفظ كانطون]
٢٤٨	١١ - البرجان
٢٤٩	١٢ - البرطاس
٢٥٤	١٣ - [الصقالبة]
٢٥٦	١٤ - [قوم آر]
٢٥٧	[محاسن التتار والترك]
٢٦١	١٥ - [أهل طاغستان]
٢٦٢	١٦ - [قرغز]
٢٦٢	١٧ - [القزاق]

المقصد الأول في ذكر أحوال مدينة بلغار وبيان أهلها

ووقت دخولهم في حمى الإسلام وما جرى عليهم بعد ذلك من حوادث الأيام
إلى حين خرابها باستيلاء الكفرة اللثام نذكرها حسب ما وقفنا عليه
في كتب المتقدمين ووزير المتأخرين

٢٨٣	[لغة أهل بلغار]
٢٨٥	[مدينة سقسين]
	ذكر إسلام بلغار وما جرى عليهم بعد ذلك من الحوادث والوقائع والحروب مع
٢٩١	الكفار الأشرار
٢٩٨	بيان وقت العشاء في تلك البلاد في أوائل الصيف
٣٠١	تنبيه لتتميم الفائدة المتعلقة بتلك المسألة
٣٠٣	[أمراء بلغار ومحارباتهم]

ذكر ورود التتار إلى تلك الديار ولحوق حكومة البلغار بسلطنة التتار وانضمامها إليها	٣٠٨
[موضع بلدة بلغار]	٣١٤
فصل في ذكر مَنْ اطلعنا على بعض أحوالهم وأسمايهم من علماء بلغار	٣١٧
[يعقوب بن نعمان قاضي بلغار]	٣١٧
[أنخرسيس الفيلسوف]	٣١٨
[الخواجة أحمد البرغري]	٣٢٣
[أبو العلاء حامد البلغاري]	٣٢٤
[سليمان بن داود السقسيني]	٣٢٤
[إبراهيم بن خضر البلغاري]	٣٢٦
[صدر الدين بن علاء الدين البلغاري]	٣٢٧
[إبراهيم بن يوسف البلغاري]	٣٢٧
[الشيخ محمد البلغاري]	٣٢٧
باشقرد ناصر الدين الناصري	٣٢٨
[علم الدين سنجر الباشقرد]	٣٢٨
[حسن بن عمر البلغاري]	٣٢٩
[أحمد بن فضلان]	٣٣٠
[أبو عبد الله الغرناطي]	٣٣١
[محمد بن عبد الرحمن الأندلسي]	٣٣١

المقصد الثاني في ظهور التتار واستيلائهم على هذه الديار

أعني ديار بلغار وقبچق والروس وسائر الأقوام المقيمين في تلك الأصقاع حتى اللان والماجار وتأسيسهم هناك دولة عظيمة ذات شوكة واقتدار تسمى بدولة قبچق وتتار وآلتون أوردو وبيان أولياتهم من الترك بن يافث إلى آخر خوانين سراي وسبب خروجهم من ديارهم وانتشارهم إلى سائر الأقطار

[خوانين الترك]	٣٣٨
ذكر أغوزخان بن قراخان الذي هو بمنزلة جمشيد الفرس وإسكندر الروم	٣٣٩
واليونان في بني الترك	٣٣٩
[وجه تسمية التركمان]	٣٤٣

- ٣٤٧ [چنکزخان]
 ذكر سبب خروجه إلى بلاد الإسلام وتخريبه البلاد وقتله العباد بالقتل العام من
 أهل الكفر والإسلام ٣٤٩
- ٣٥٥ [الرّد على أبي الفرج الملطّي]
 ٣٥٨ [وصية چنکزخان لأولاده]
 ٣٦٢ [جوجي خان بن چنکزخان]
 ٣٦٤ [باتوخان بن جوجي خان]
 ٣٧٢ مجيء التتار إلى كيف واستيلاؤهم عليها
 ٣٧٦ بناء بلدة سراي
 ٣٧٦ [شروع باتوخان في تنظيم الملك]
 ٣٨٥ وقوع الخلف بين كيوك قآن وبين باتوخان وقصد كل واحد منهما صاحبه
 ٣٨٧ [اختلاف المسلمين والنصارى في أمر الدين]
 ٣٩٤ [بلدة ألك]
 ٣٩٥ [وفاة باتوخان]
 ٣٩٥ [صرتق خان بن باتوخان]
 أبو المعالي ناصر الدين حضرة السلطان بركة خان ابن جوجي ابن چنکزخان
 عليه الرحمة والغفران ٣٩٧
- ٤٠٢ [ترجمة سيف الدين البخارزي]
 ٤٠٣ [الرسالة الناصرية]
 ٤٠٤ [وصف مدينة سراي]
 ذكر وقوع الخلف والمحاربة الهائلة بين السلطان بركة خان عليه الرحمة
 والغفران وبين ابن عمه هلاكو بن تولي بن چنکزخان ٤٠٧
- ٤١٣ ذكر كيفية هذه المحاربة
 ذكر إرساله عساكره الكائنين عند هلاكو إلى الديار المصرية لإعانة الملك
 الظاهر ووصولهم إليها ومعاملة الملك الظاهر معهم أحسن المعاملة ٤٢٠
- ذكر المكاتبة والمراسلة والمهاداة بين الملك بركة خان والملك الظاهر ركن
 الدنيا والدين بيبرس البندقدار الصالحى الففجقي الأصل سلطان مصر والشام
 وما حصل بينهما من المحبة والمواددة وما وقع فيها من عجيب المواردة ... ٤٢٢

- ٤٢٣ ذكر إنفاذ الملك الظاهر رسله إلى الملك بركة بكتاب ثانٍ بعد ورود التتار أصحاب بركة إلى مصر وتلاقيهم رسل الملك بركة في قسطنطينية
- ٤٢٥ ذكر وصول رسل الملك بركة وأدائهم الرسالة وبيان ما اندرج في كتابه من لذيذ خطابه وقع الاختلاف بين المؤرخين في زمن وصول هؤلاء الرسل وفي مضمون كتابه
- ٤٢٨ ذكر أحوال رسل الملك الظاهر المتوجهين إلى الملك بركة وهم الأمير سيف الدين كشريك ورفيقاه من المغل
- ٤٣٠ ذكر عود رسل الملك الظاهر وإرسال الملك بركة معهم رسلاً من عنده إليه ثاني مرة
- ٤٣٢ ذكر إرسال الملك الظاهر رسلاً إلى الملك بركة ثانيًا بعد قدوم الرسل منه إليه أول مرة أعني الأمير جلال الدين ورفقته وإرساله الهدايا الجليلة والتحف الجزيلة إليه كما وقعت الإشارة إليه في أثناء الكلام
- ٤٣٨ ذكر إرسال الملك الظاهر إلى الملك بركة بعد المرتين الأولين
- ٤٣٩ ذكر هلاك هلاكو
- ٤٤١ ذكر وقائع الملك بركة مع أبغا بن هلاكو
- ٤٤٢ ذكر وفاة الملك بركة إلى رحمة الله تعالى
- ٤٤٤ منگوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي بن چنكزخان وقيل طغان بن جوجي والأول أصح
- ٤٤٦ ذكر قصد الملك منگوتيمر القسطنطينية
- ٤٥٥ ذكر وفاة الملك منگوتيمر
- ٤٥٩ [تدان منكوخان بن طغان]
- ٤٦٢ [تلابغا بن منگوتيمر]
- ٤٦٢ ذكر سفر الكرل وحدوث الوحشة بينه وبين الأمير نوغاي
- ٤٦٢ ذكر مقتل تلابغا
- ٤٦٥ الملك طقطاي بن منگوتيمر بن طغان الخ
- ٤٦٦ ذكر الإيقاع بالأمراء الذين اتفقوا مع تلابغا على قتل نوغاي
- ٤٦٧ ذكر المراسلة بين ملوك مصر
- ٤٦٨ ذكر وقوع الوحشة بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وأسبابها

- ٤٦٩ ذكر الوقعة الأولى بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وانهزام طقطاي
- ٤٧٠ مقتل أقطاجي ابن بنت نوغاي وقتل الفرنج الجنوبية (الجنوز) بسببه
- ٤٧١ مقتل الأمير أباجي وأخويه أولاد الأمير قرمشي
- الوقعة الثانية بين الملك طقطاي والأمير نوغاي وأولاده وانتصار طقطاي ومقتل
 ٤٧١ نوغاي في تلك الوقعة
- ٤٧٣ وقوع الخلف بين أولاد نوغاي وقتل جكا أخاه تكا
- ٤٧٤ مقتل جكا بن نوغاي
- ٤٧٦ أحوال بعض أولاد جوجي خان بغزنة وباميان
- تحرك طراي بن نوغاي وقتله ومقتل صراي بغا أخي الملك طقطاي بن
 ٤٧٦ منگوتيمر
- ٤٨٢ وفاة أيل باصار ولد الملك طقطاي
- ٤٨٣ وفاة الملك طقطاي
- الملك المظفر غياث الدين السلطان محمد أوزبك بن طغرلجا ابن الملك
 ٤٨٥ منگوتيمر
- ٤٩٤ ذكر المواصله والمراسله بين السلطان أوزبك محمد خان وملوك مصر
- ٤٩٦ ذكر عود هؤلاء الرسل من عند الملك أوزبك
- ذكر ابتداء الخلف بين الملك أوزبك خان وبين الملك أبي سعيد خان سلطان
 العراقين حفيد هلاكو ووقوع الحرب بينهما بعد أن وضع حرب ما بين
 ٥٠٦ هاتين الشعبتين أوزارها برهه من الزمان
- ذكر عودة طقصبا الظاهري وقطلوبغا البغداي من عند السلطان أوزبك مع رسله
 ٥١٠ المرسلين إلى الملك الناصر وماجرياتهم
- ٥١٣ ذكر عود هؤلاء الرسل مع رسل من عند السلطان أوزبك
- ٥١٦ [ترجمة فرمان أوزبك خان]
- ٥١٧ حادثة شفقال خان
- ٥٢٤ ذكر وفاة الملك المعظم محمد أوزبك خان رحمه الله تعالى
- السلطان المعظم والخاقان الأعظم جلال الدين أبو المظفر السلطان محمود
 ٥٢٥ جاني بك خان ابن الملك المعظم أوزبك خان
- ٥٣١ ذكر إرسال الرسل إلى مصر

- ذكر وفاة الملك محمود جان بك خان عليه الرحمة والغفران وتسلطن ابنه بردي
 ٥٣٢ بك خان
- ٥٣٢ محمد بردي بك خان
- ٥٣٥ عود إلى ما ذكره الحاج عبد الغفار أفندي
- ٥٣٦ أحوال الميرزا ماماي ومحاربه الروسية
- ٥٣٨ محاربة كوليکوا المشهورة
- ٥٤١ بقية أحوال ماماي ووفاته
- ٥٤٣ الملك المعظم ناصر الدين الغازي أبو المجد توقتاميش خان بهادر
- ذكر محاربة توقتاميش خان مع تيمر ملك خان وقتل تيمر ملك خان في تلك
 المحاربة واستقلال توقتاميش خان بسلطنة دشت القفچق وسراي وكافة البلاد
 الشمالية ٥٤٨
- ٥٥٠ مسير توقتاميش خان إلى الروسية ودخوله بلدة موسكوا
- ذكر مجيء واسيلي الثاني بن ديميتري دونسكي كيناز الروسية إلى سراي لإظهار
 تبعته توقتاميش خان حسب العادة الجارية ٥٥٣
- ذكر وقوع الخلف بين تيمرلنك وتوقتاميش خان أولاً وبيان سبب ذلك وإفضاؤه
 أخيراً إلى محاربات بينهما صعبة كثيرة وتخريب البلاد وقتل العباد حتى إلى
 انقضاء الملك ودخوله في تصرف الأعداء الأشرار وبقائه بأيديهم إلى هذه
 الأدوار ٥٥٤
- ذكر المراسلة بين توقتاميش خان وملوك مصر على ما جرت به العادة بين ملوك
 هاتين المملكتين ٥٥٧
- ٥٥٩ ذكر وقوع المناوشة اليسيرة بين عسكر تيمرلنك وعسكر توقتاميش خان
- ٥٦١ ذكر المحاربة الثانية بين تيمرلنك وتوقتاميش خان بما وراء النهر
- ذكر توجه توقتاميش خان بنفسه إلى ما وراء النهر لحرب تيمرلنك ووقوع
 المحاربة بينهما مرة ثالثة ٥٦٤
- ذكر توجه تيمرلنك إلى دشت القفچق وسراي لحرب توقتاميش خان وتخريبه
 تلك البلدان وهذه هي الوقعة الرابعة بينهما ٥٦٧
- ٥٧٨ ذكر ماجريات توقتاميش خان بعد انقطاع ذلك الطوفان وسكونه بحران

- ذكر الوقعة الخامسة بين توقتاميش خان وتيمرلنك وهي الوقعة الأخيرة بينهما
 وخاتمة التلاق والحاكمة على توقتاميش خان بمفارقة ملكه وإيقاع الطلاق
 ٥٨٠ والقاضية بشتات أمور تلك الملكة وخراب هاتيك الآفاق
- ٥٩١ ذكر أحوال توقتاميش خان وأحوال البلاد المذكورة بعد انقضاء ذلك الطوفان ...
- ٦٠٢ [أحوال البلاد بعد موت توقتامش]
- ٦٠٥ ذكر هجوم الأمير ايدكو على الروسية ومحاصرته بلدة موسكوا وفرار الكيناز
 واسيلي منها
- ٦٠٧ صورة مكتوب الأمير ايدكو إلى الكيناز واسيلي بعد الوقعة المذكورة بقليل
- ٦٠٨ ذكر إرسال فولاد خان والأمير ايدكو سفيرًا إلى السلطان شاهرخ ابن تيمرلنك
 بخراسان
- ٦٠٩ [تيمر خان بن تيمر قتلغ خان]
- ٦١٠ [جلال الدين بن توقتاميش خان]
- ٦١٢ وفاة جلال الدين خان وجلوس أخيه كريم بردي خان
- ٦١٢ ذكر قتل كريم بردي خان وأخيه جبار بردي خان وجلوس أخيهما كبك خان ...
- ٦١٣ ذكر ظهور الأمير ايدكو ثانيًا وقتل كبك خان وغير ذلك من الوقائع
- ٦١٤ ذكر خروج قادر بردي خان وقتله وقتل الأمير ايدكو
- ٦١٨ ذكر ألوغ محمد خان
- ٦٢٥ [براق خان بن قويرچق خان]
- ٦٢٧ ذكر مسير براق خان إلى جانب تركستان وسغناق ووقوع محاربة هناك بينه وبين
 معينه ومنجده الميرزا ألغ بك وخطأ الميرزا في ذلك وانهزامه أمام براق خان
 شر هزيمة وغلبة براق خان عليه غلبة بينة
- ٦٣٣ ذكر مقتل براق خان
- ٦٣٤ ذكر هجوم ألوغ محمد خان على بلاد خوارزم
- ٦٣٦ ذكر انفصال ألوغ محمد خان من خانبة سراي وخروجه منها
- ٦٣٩ ذكر هجوم الأمير زاده مصطفى على الروسية وقتله
- ٦٤٢ ذكر سلطنة السيد أحمد خان بن كچي أحمد خان على زعم المرجاني أو كچي
 محمد خان على رأي هذا الفقير أو ابن جلال الدين خان على قول الحاج
 عبد الغفار أفندي

- ذكر هجوم السيد أحمد خان على الروسية ثانيًا وبيان وقعة قلعة ألكسين التي
 ٦٤٥ نسبها الفاضل المرجاني لكچي أحمد خان الموهوم
- ٦٤٦ ذكر وقائع السيد أحمد خان مع خان قرم منكلي كراي خان
- ٦٥٢ ذكر مسير أحمد خان إلى الروسية ودخوله فيها لتربية إيوان وحره
- ٦٥٥ ذكر مقتل السيد أحمد خان عليه الرحمة والغفران
- ٦٥٨ ذكر أولاد السيد أحمد خان عليه الرحمة والغفران
- ٦٥٨ [مرتضى خان]
- ٦٦٠ ومضمون ما كتبه للإيوان فرمان مرتضى خان للإيوان
- ذكر أحوال الشيخ أحمد خان وأخيه السيد أحمدود خان ابني السيد أحمد خان
 ٦٦١ عليهم الرحمة والغفران
- ذكر تخريب منكلي كراي بلدة سراي وتفريق أهلها بحيث لم تقم لهم قائمة بعد
 ٦٦٢ ذلك
- ذكر ماجريات الشيخ أحمد خان بعد ذلك وموته في الغربية والكربة وانقراض
 ٦٦٦ ملوك سراي وخوانينها بموته
- ٦٦٨ فصل من هذا المقصد في بيان وقائع بلدة حاجي طرخان
- فصل ولما مرّ ذكر المراسلات والمكاتبات بين ملوك التتار ببلاد الشمالية وبين
 ملوك مصر أردت أن أذكر كيفية مكاتباتهم حسب ما أطلعت عليه في كتب
 العلماء الذين اعتنوا بهذا الشأن لتتيمم الفائدة وتكميل العائدة فإن هذا الفن
 ٦٧٧ مع كونه فنًا شريفًا في حد ذاته فيه تفصيل بعض ما تقدم
- الفصل الأول من الباب الرابع من القسم الأول مكاتبات الحكام وأكابر البلاد
 الشرقية من المغل والقفقق وهم أربعة طوائف الطائفة الأولى المغل
 والقفقق وأمراء الأتراك وهما قسمان القسم الأول الحكام من أمراء التوامين
 والنوينات والوزراء وغيرهم ٦٨١
- فصل في بيان بعض العلماء الذين قضوا أعمارهم في إفادة العلوم ومضوا
 وكانوا فبانوا من أول بناء مدينة سراي إلى آخر فنائها في أعصر الملوك
 الذين تقدم ذكرهم ٦٨٩
- [نعمان الدين الخوارزمي] ٧٠٠
- [نجم الدين الزاهدي] ٧٠٢

٧٠٤	[مولانا زاده]
٧٠٤	[أحمد بن شمس الدين السرائي]
٧٠٥	[أحمد بن عبد الله القريمي]
٧٠٦	[أحمد بن محمد القريمي المرتعش]
٧٠٨	[إسحق بن إسماعيل القريمي]
٧٠٩	[شرف الدين بن كمال القريمي]
٧٠٩	[ضياء الدين بن سعد الله القريمي]
٧١٠	[إبراهيم بن سليمان السرائي]
٧١١	[محمود بن عبد الله السرائي]
٧١١	[محمود بن قطلوشاه السرائي]
٧١١	[محمد البزاي]
٧١٣	[محمد بن عبد الله السرائي]
٧١٥	[يوسف بن حسن السرائي]
٧١٥	[حق محمد أفندي الدشتي]
٧١٥	[إبراهيم أفندي ابن حق محمد]
٧١٨	[عبد الله عفيف الدين أفندي]
٧٢٠	[ابن بطوطة]
٧٢٠	[قطب الدين الرازي]
٧٢٠	[سعد الدين التفتازاني]
٧٢١	[محيي الدين البردعي]
٧٢١	[السيرامي]
٧٢١	[ابن النجم]
٧٢٢	[كمال الدين الخجندي]
٧٢٣	[ابن عربشاه]

